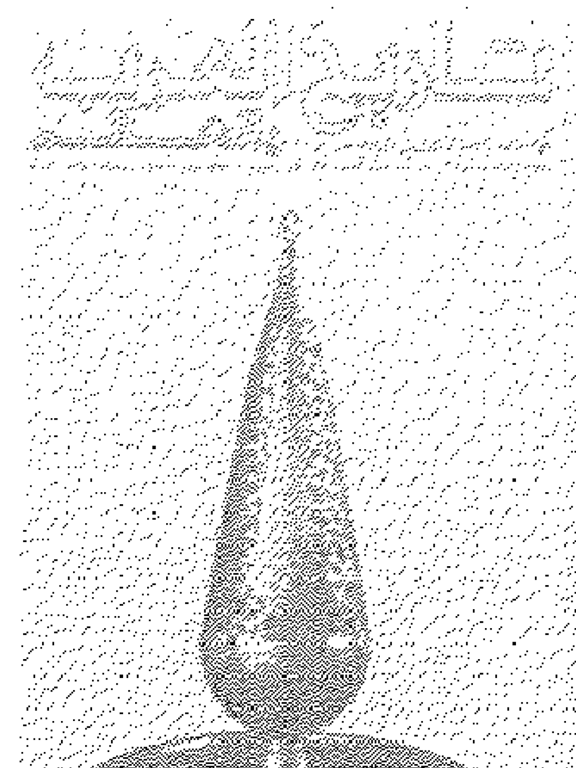
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة العاشرة ● العددان ١٢١ ــ ١٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ــ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨ الموافق ربيع ١ / ربيع ٢ ــ ربيع ٢ / جمادى ١ ١٤٠٩هـ



□ سبيل ماء، أنشأه السلطان المملوكي قايتباي عام ١٤٨٢م، إلى الغرب من قبة الصخرة.
من كتاب: Abdulhamid's Palestine. by Jacob M. Landau (London-1979).



الغلاف الخارجي:
□ محـرقة بخـور عثمانيـة مـن الفـضـة الخـالصـة (١٠٣٣هـ/١٦٢٤م).
من كتاب: Tulips, Arabesques and Turbans Decorative Arts from the Ottoman Empire. Edited by Yanni Petsopoulos.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

العددان ١٢١ ــ ١٢٢ ● تشرين الثاني ــ كانون الأول ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في كل شهرين

السنة العاشرة ● المجلد الرابع عشر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

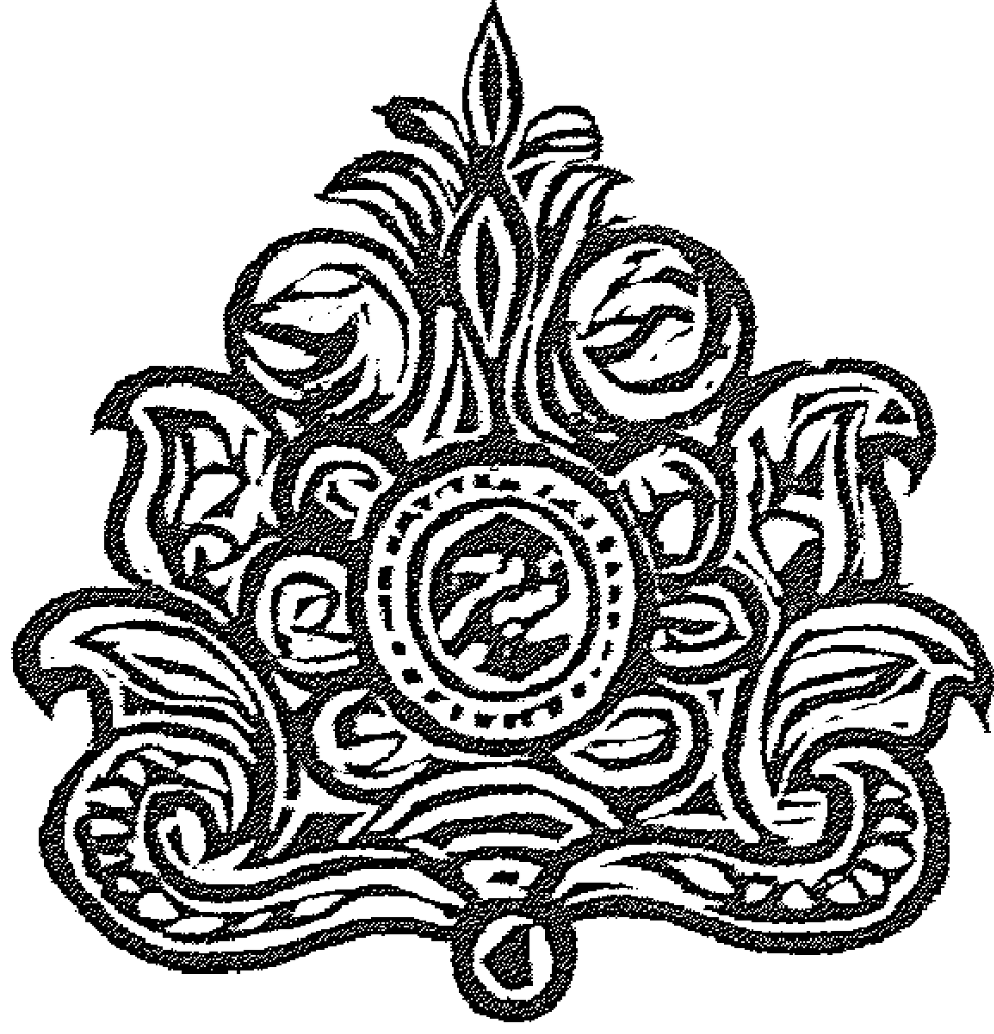
HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14. No. 121 / 122. Nov-Dec 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»





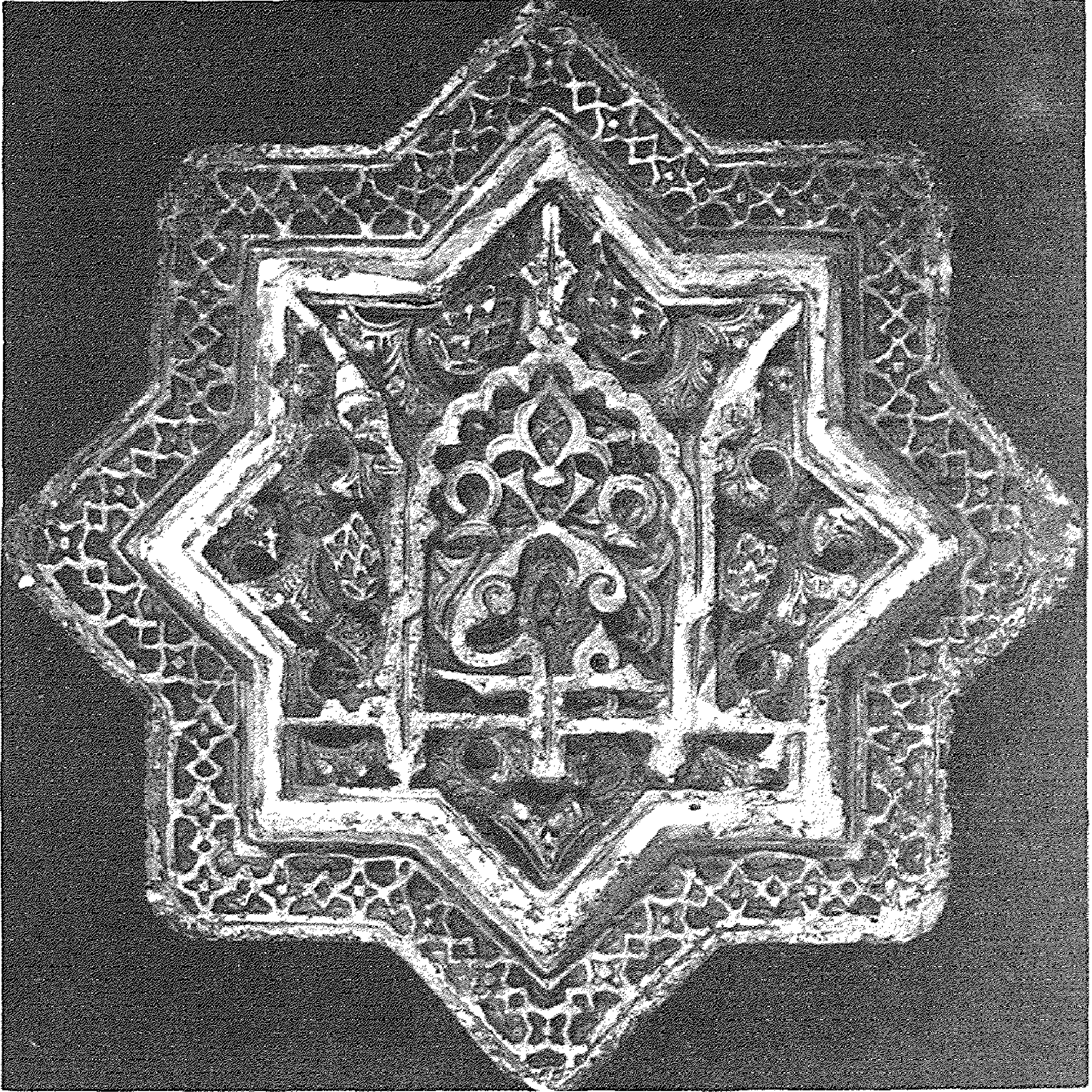
الأندلس في عصر ابن زيدون ملاحظات جغرافية

(القسم الثاني)

د. نقولا زيادة

مقدمة

ولد أحمد بن عبد الله بن زيدون في قرطبة سنة ١٠٠٣/٣٩٤ وتوفي في اشبيلية سنة ١٠٧١/٤٦٣. وقد كانت أسرته ذات مكانة مرموقة، علماً وثراءً ونفوذاً، مما يسّر له حظاً كبيراً من العلم وصحبة علية القوم في قرطبة، ولعل ذلك كله كان مما أثار في نفس ابن الوليد طموحاً للرئاسة. وقد كان ذلك، بحسب طبيعة العصر وسنته، أمراً مألوفاً. فالحياة السياسية في الأندلس بعامة، وفي قرطبة بخاصة، كانت قد تفشّى فيها من الفوضى أدواء، وعمّها من الاضطراب أنواء، وضعفت الخلافة الأموية فيها حتى عن الحفاظ على المقام المحترم بله النفوذ، وطمع في الرئاسة والنفوذ الكثير من أصحاب الهمّة والثروة. ويبدو أن ابن زيدون كان في ذلك مشاركاً، حتى أنه لعله أسهم في الحركة التي قامت سنة ١٠٣١/٤٢٢ ففي طية فأنهت الخلافة وسلمت الأمر إلى أبي الحزم بن جهور، وهو الذي أنشأ في المدينة حكماً جديداً على غرار ما كان قد بدأ من قبل في مالقة، وما تبع فيما بعد في غيرها، مما عرف باسم ملوك الطوائف.



□ شكل نجم من الجّص، يعكس التأثير الإسلامي في البناء الإسباني (القرن الثالث عشر أو الرابع عشر ميلادي).

٤ ـ كتب أخرى

إنه من حسن حظ الباحثين في الحياة الاقتصادية للأندلس، في الوقت الذي نتحدث عنه، أن تكون بين أيديهم مجموعة من الكتب ذات القيمة الفنية أو التقنية وغيرها مما تحتوي على نواح فقهية أو إدارية. ونود أن نشير هنا إلى كتاب الأنواء المنسوب إلى عريب بن سعد والذي يعود إلى سنة ٣٥١ / ٩٦١(٧).

وهذا الكتاب يتناول أموراً تتعلق بالمناخ والطقس والزراعة ومواعيدها. ولعل خير ما يوضح الغاية من الكتاب هو أن ننقل هنا تعريف المؤلف بكتابه.

قال أبو الحسن غريب بن سعد الكاتب عفا الله عنه وعنا:

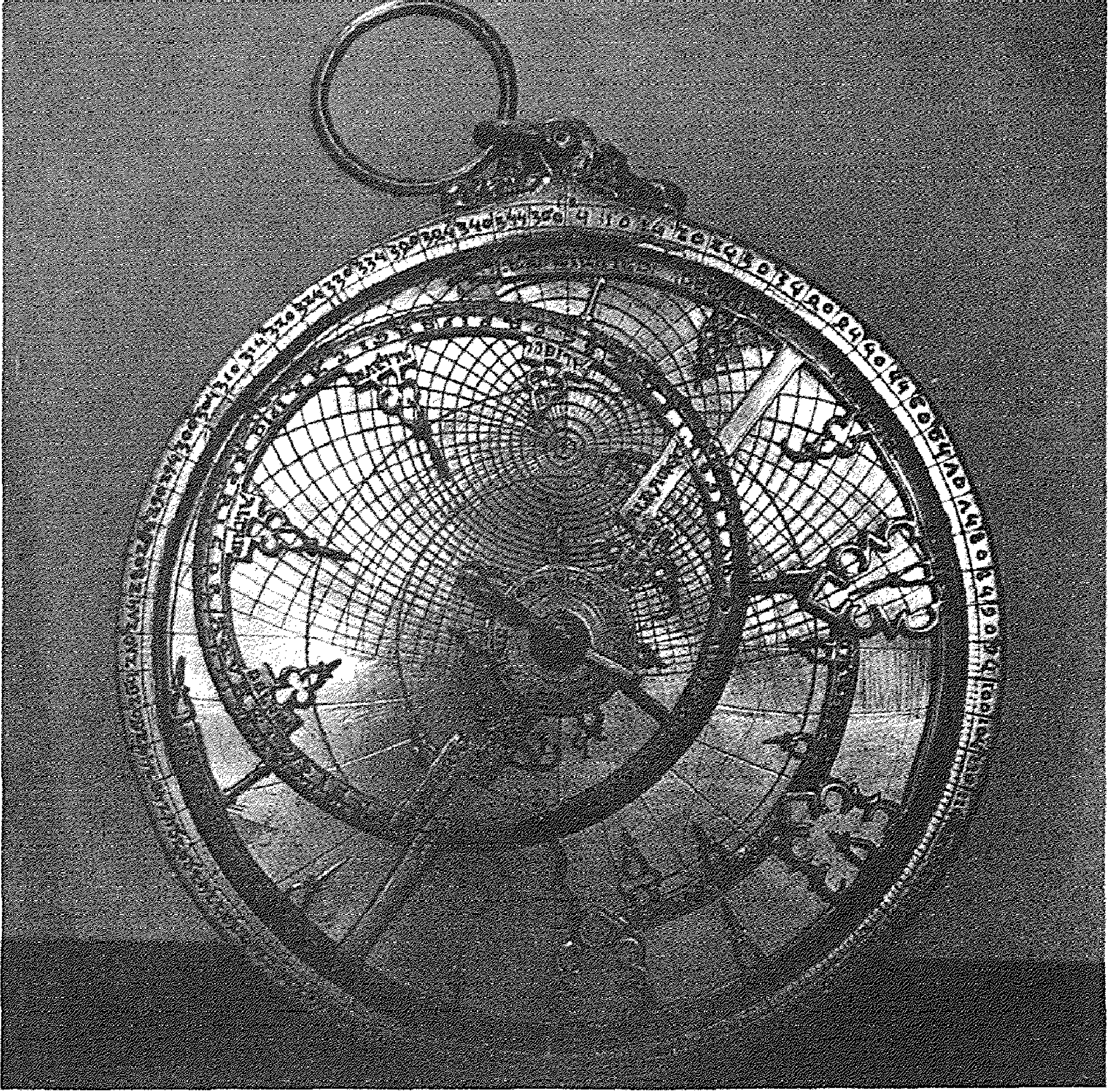
هذا كتاب جعل مذكراً بأوقات السنة وفصولها وعدد الشهور وأيامها ومجاري الشمس في بروجها ومنازلها وحدود مطالعها وقدر ميلها وارتفاعها واختلافها في الظل عند استوائها وتصرف الأزمان وتعاقب الأيام بالزيادة والنقصان وفصل البرد والحر وما بينهما من التوسط والاعتدال وميقات كل فصل وعدد أيامه على مذهب أهل التعديل والحساب ومذهب الأوائل من الأطباء الذين حدوا الأزمنة والطبائع

إذ كان بينهم في فصل السنة اختلاف سيأتي عليه الاستجلاب ويقع في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله، وذكر ما لا غنى عنه للناس من معرفة الزراعة وحين الغراسة وتعاهد كثير من أسباب الفلاحة وإمكان جني الثمارات وضم الذخر والأقوات وابتداء نضج الفواكه ومواقيت النتاج وغير ذلك من مرافق الناس ومصالحهم، والأزمنة التي توافق تنقية أجسامهم بالدواء والفصد وأوقات جمع العقاقير والبزور وعمل الأدوية والأشربة والمربيات في أوانها وحين إمكانها، وعلم تصاريف الرياح ومذاهب العرب في الأنواء والأمطار إذ كانت تعنى بها وتحتاج إلى تحديد مطالع النجوم ومساقطها والممطر والمخوي منها لتقلبهم في الطلب للمعاش والانتقال إلى مواضع المياه، فكانوا مع طول الارتصاد والارتقاب وكثرة التعاهد والاهتبال قد جربوا أوقات الأنواء والأمطار عند تنقل الكواكب من الطلوع إلى السقوط، وزعموا أنه لا بد لنوء كل كوكب من مطر أو برد أو ريح أو حر، ونسبوا ذلك إلى الغارب دون الطالع، وجعلوا ما كان منهما مختبراً بالقطر وغير خائب النوء والمطر أناثاً وذوات نتاج، وما لا نوء له ولا مطر يأتي معه ذكوراً لا تنتج ونحوساً لا تنفع، فإذا لم يكن في نوء النجم مطر قيل: (أخوى نجم كذا)، وقيل: (لم يجيء بربيع)، ولذلك قالت ليلى الاخيلية للحجاج لما قال لها، (ما أتى إلينا يا ليلى؟) قالت: (اخلاف النجوم وقلة السحاب) وحدوا لكل منزل من منازل القمر حداً يكون النوء فيه وأياماً وسموا أمطار تلك الأنواء بأسماء تعرف بها، وقسموا منازل القمر على فصول السنة لتعلم مواقيت أنوائها، ومعنى النوء سقوط أحد المنازل في المغرب مع الفجر، فيقال: «ناء ذلك النجم للغروب) أي: مال، وقال الله عز وجل: (ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أي: لتميل بها من ثقلها، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، يبدو منها للناظر ١٤ منزلاً ويخفى ١٤ منزلاً، فكلما غاب من هذه المنازل الظاهرة واحد في المغرب طلع في الساعة رقيبه من المشرق، وسقوط كل منزل منها على ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة، فإنها تسقط على ١٤ يوماً، وكذلك ينقضي عدد أيام السنة ويسقط بانقضائها جميع الثمانية والعشرين منزلاً ويرجع الأمر إلى المنزل الأول في أول السنة التالية بتدبير العزيز الحكيم، فذكرت العرب سقوط هذه المنازل في المغرب أنواء رددوها في أشعارهم وأسجاعهم وجعلوها علامات لأمطارهم وأرياحهم وتقلب أزمانهم كما جعلوا الرياح اللواقح والسحاب المخيلة والبرق الجنوبية علامات للأمطار وبشراً بين يدي رحمة الله عز وجل، فاستبشروا بريح (الجنوب وتمنوها وحمدوا) السحاب التي تنشأ منها وكرهوا ريح الشمال وسموها (محوة) لأنها (تمحو السحاب)، وكانوا إذا رأوا البرق لامعاً من جهة الجنوب وما والاها استبشروا بالسقي ووثقوا بالسقيا معه، وإذا لمع من جهة الشمال سموه (خلباً) وإذا رأوا الحمرة في الآفاق عند طلوع الشمس وغروبها مع سحاب (متكاثف) استبشروا بها للخصب، وإذا رأوا الحمرة بغير سحاب أو مع يسير منه توقعوا معها الجدب، والأمر لله الواحد القهّار، (ولا إله إلا هو).

ولا يتسع المجال الآن للتحدث عن كتب الفقه مثل ديوان الأحكام الكبرى وأحكام ابن سهيل أو كتب النوازل. ولكن لا بد من الإشارة إلى كتب الحسبة وأهميتها في دراسة الحياة الاقتصادية ـــ صناعة وتجارة وتنظيماً.

والذين كتبوا في الحسبة في مشارق دار الإسلام ومغاربها كثر، إلا أننا نقتصر هنا على اثنين لتوضيح دور مثل هذه الكتب في تزويدنا بالمعلومات الهامة عن المواضيع التي نشير إليها الآن، المؤلفان هما السقطي وابن عبدون.

كان أبو عبد الله محمد بن أحمد السقطي فقيهاً عالماً رحالة من أهل مالقة في الأندلس، وقد تولى عمل المحتسب في تلك المدينة أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر للميلاد. ويبدو أنه وضع كتابه (في آداب الحسبة) وهو بعد في تلك الولاية. والكتاب مقسم إلى ثمانية أبواب بعد مقدمة تناول المؤلف فيها الحسبة بشكل عام. وقد أفاد مؤلفان مغربيان متأخران من كتاب السقطي هما عبد الرحمن الفاسي من أهل القرن الحادي عشر (السابع عشر) إذ ضمن مادته تحت علم الحسبة في (كتاب الأقنوم في مبادىء العلوم) أما الثاني فهو مجهول



□ اسطرلاب، صنع، على الأرجح، في فرنسا حوالي عام ١٣٠٠م، على الشكل المغربي.

الاسم ولكن أثر السقطي يبدو واضحاً في مخطوط اسمه (التيسير في أحكام التسعير)، وقد أشير فيه إلى السقطي بالمالقي، أي نسبة إلى مدينته.

وقد عرفنا السقطي بكتابه في مقدمة لطيفة جاء فيها:

(الحمد لله الذي علمنا ما لم نكن نعلم، وفهمنا ما لم نكن نعرف ولا نفهم، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وشرف وكرم.

وبعد فإني لكثرة ما لزمت من الأسفار، وحملت من البلاد والأقطار، أيام رحلتي، وعنفوان شبيبتي وقوتي، وعرفني شقات المسافرين، وأمناء التجار المتجولين، ألسنة الزمان، وحداث الحوادث من مكان إلى مكان، مع ما تصرفت فيه من الأشغال، وظهرت عليه بسبب الاشتغال، ونبهني على جلائه من رغب مني القرب، ونصح في الكشف عنه من أظهر في ولايتي الاعتقاد والحب، ممن كان شاهد واختبر، واستغنى بالتجربة عن الخبر، وحسنت في ذات الله نيته، وكرمت سجيته وطويته، وتحصل في فهمي، وتقرر في حقيقة علمي، من أخبار مفسدي الباعة والصناع بالأسواق وغشهم في الكيل والميزان وبخسهم واستعمالهم الخدع للناس في معاملتهم، والتلبيس عليهم في مداخلتهم وملابستهم، وإحراز الحسبة عليهم وتقلد النظر في أمورهم من لا يحسن لذلك تناولاً، ولا يعرف

من الحلال والحرام مفصلا ولا مجملًا، ما لم يسعني معه إلا التنبيه على مكرهم، والقول بالمعروف في نكرهم، لقول الله تعالى وتبارك، (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) مع أن الخطة لم تزل عظيماً شأنها، رفيعاً مكانها، وسيطة بين خطة القضاء والمظالم تجاذبهما في وجوه وتشاركهما، وتماثلهما في أمور وتشابكهما، فتجمع بين نظر شرعي وزجر سلطاني موقوفة على هيئة متقلدها وتنفيذ الحقوق للمعترف بها.

وممن خلف كتاباً نفيساً في شؤون الحسبة وواجبات المحتسب محمد بن أحمد بن عبدون من أهل إشبيلية. والمؤلف غير معروف إذ لم يترجم له أحد. وكل ما أمكن الوصول إليه، عن طريق دراسة المادة التي خلفها دراسة داخلية، هو أنه عاش في إشبيلية في أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر، أي في الفترة التي تمتد من اعتلاء المعتمد عرش إشبيلية سنة ٤٦١ / ١٠٦٨ إلى انتهاء حكم المرابطين للمدينة سنة ٥٤١ / ١١٤٧. (احتل المرابطون إشبيلية سنة ٤٨٤ / ١٠٩١ وظلوا يحكمونها إلى أن انتزعها منهم الموحدون). وليس لدينا ما يؤكد أن الرجل تولى منصب الحسبة.

لكن كتابه حافل بالمعلومات التي يفيد منها المؤرخ الاجتماعي الاقتصادي فوائد كبيرة جداً. وقد وضع ابن عبدون رسالته في القضاء والحسبة: (نظراً منه لطيب نفسه، وإخلاص ودّه، وصحة يقينه، وطويته، ونصحه للمسلمين — حرسهم الله — على طريق الاحتساب عليهم، والتسديد لشأنهم، وإصلاح أحوالهم وأفعالهم، والنظر لهم، والجري إلى الخير والعمل به والسعي إلى العدل والتعلق به، ومن تغيير المنكر والعصيان المشهور، قمع الظلم والجور، إن قدر على ذلك، فالعدل أبداً مألوف والخير محبوب، والقوام مرغوب والخلاف مرفوض، والشر مبغوض، والحق أبلج والباطل معوج، والإهمال والغفلة، تكون الفقر والقلة، والسبب أن كل فساد وعلة، فيكثر الهرج والفساد، ويكون ذلك داعية لخراب البلاد، وجلاء العباد).

والذي رمى إليه المؤلف هو التشديد على السلطان بأن يحسن اختيار أصحاب المناصب الذي يعهد إليهم الإشراف على الشؤون العامة كصاحب المواريث والقاضي والمحتسب[٨].

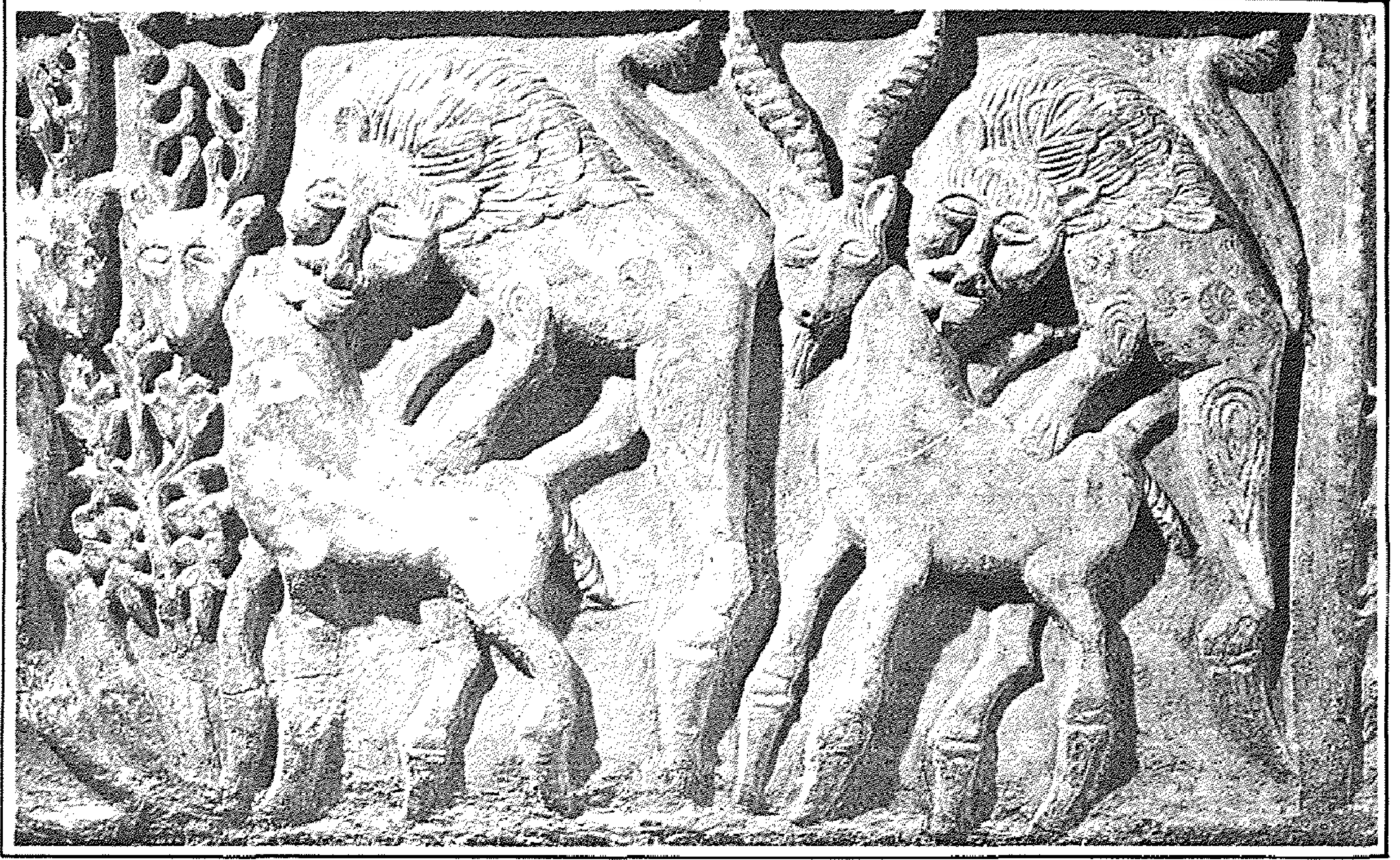
٥ — ملاحظات جغرافية

وصف الجغرافيون العرب الأندلس بأنها مثلث، واتخذوا لكل رأس من رؤوس المثلث الثلاثة نقطة مرتبطة بأسطورة وهي صنم قادس في الطرف الجنوبي الغربي ونقطة على خط عرض البليار وبوابة هرقليس على مقربة من كوروثة في الشمال الغربي[٩].

على أن الجغرافي الذي أدرك بحسه العلمي الصحيح حقيقة الوضع الطبيعي للأندلس هو أحمد الرازي. فهو صاحب القول بأن الأندلس أندلسان من حيث الرياح والأمطار والأنهار. فثمة أندلس غربية وأندلس شرقية. فالغربية هي التي تنحدر أنهارها غرباً نحو المحيط، وتتحكم الرياح الهابة من الغرب في الأمطار الساقطة هناك. أما الأندلس الشرقية فتتحكم الرياح الشرقية بأمطارها، وتتجه أنهارها نحو البحر الشامي (أي المتوسط)[١٠]. كما أن الرازي فهم أهمية الجبال الإسبانية واتجاهاتها. فهو يرى أن في إسبانية ثلاثة جبال. فيقول في ذلك:

وليس في الأندلس على ما عرفناه في الحقيقة إلا ثلاثة جبال تقطعه مستعرضة من البحر إلى البحر، ولا يقطع هذه الجبال نهر في أي موضع من مواضعها. وفي هذه الجبال حصون منيعة لكل حصن منها الأراضي الواسعة الكثيرة الخيرات، وأول هذه الجبال جبل قرطبة (Sierra Morena) ومبتدأه في شرق الأندلس عند ساحل البحر الذي يتوسط الأرض ماراً ببلنسية وباجة اشطمبار وإقليم الجوف ومنتهاه عند البحر الغربي الكبير.

أما الجبل الثاني فمبتدأه عند ساحل البحر الشرقي مقبلاً من ناحية أربونة، وهو الحاجز بين الأندلس وبلاد إفرنجة، والفرنجة تسمية جبل رنشفالة (Roncesvakkes)، ويسير موازياً لبلد بشقاية (Vizcaya) وبلد اشتريس ومنتهاه عند البحر في جليقية في أقصى الشمال.



□ جانب من حوض المرمر في قصر الحمراء في غرناطة. (منتصف القرن الحادي عشر ميلادي).

والجبل الثالث فمبتدأه عند البحر المتوسط مجاوراً لطرطوشة، ويمر غير بعيد من قرطبة ومنتهاه عند البحر الغربي على خمسة عشر مجرى من الاشبونة[١١].

وعندما تكلم الرازي عما يصح تسميته الجغرافية الإدارية أو السياسية للأندلس فإنه يفرّق بين الكور والمدن. فالكورة قسم إداري، والمدينة في الأندلس، مثل الكورة، قسم إداري له زمام واسع يشتمل على مدن وقرى وحقول واسعة. والمدينة، على ما يرى حسين مؤنس، كورة عسكرية تقوم في مناطق الثغور أو في منطقة هامة عسكرياً[١٢]. ويمكن توضيح الفرق بين الكورة والمدينة بالرجوع إلى عبارة الرازي في مثلين.

— الأول عن كورة بلنسية والثاني عن مدينة أشقة.

(كورة بلنسية: ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية، وهي شرق من تدمير وشرق من قرطبة، ولخطة بلدها مسافة بعيدة، ومنافعها لأهلها عظيمة. جمعت البر والبحر والزرع والضرع، ولها السهل والجبل).

(وبها مدن عظيمة وحصون قديمة، فمن مدائنها مدينة بلنسية، وهي المعروفة بمدينة التراب، ولها حصن أرغيرة، ودانية وهي على ضفة البحر، ولها أقاليم كثيرة متسعة، ومرساها من أعجب المراسي، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون، ومدينة الجزيرة، ومبتناها على نهر شقر).

(ولها من المدن والمعاقل حصن شاطبة، وهو قديم أولى مطل على بطاح وأنهار، ومدينة مربيطر، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر، يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية).

(ويتصل بها إقليم بريانة، ولها أرض طيبة. ولها مدينة أنده، وهي كثيرة المياه غزيرة الفواكه، فيها معدن حديد. ولها مدينة شبرب، يجود فيها القمح والكتان. ولها حصن شارقة وغيره من الحصون. ومدينة جزيرة شقر فيما بين بلنسية وشاطبة)[١٣].

(وتتصل أحواز مدينة أشقة بأحواز مدينة تطيلة)، (وهي في جوفي أشقة وشرقي قرطبة)، حازت الغاية من شرف البقعة، وحوت طيب الزرع ودر الضرع وكثرة الثمار والأنهار. (وأنهارها كلها تنصب في نهر أبره)، ويطيف بجنات تطيلة نهر كالش، وهي أقصى ثغور

المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين، (وعند باب تطيلة القنطرة المقامة على نهر أبره، وتحت أقواس القنطرة الأرحاء التي تدفعها مياه النهر أبداً)، واختطت تطيلة في أيـام الحكم بن هشـام بن عبـد الرحمن بن معاوية. (وكان الذي اختطها عمروس بن يوسف، وكان يوسف هذا عاملاً على سرقسطة وتوابعها).

(ومن كبار مدائنها طرسونة) وكانت مستقر العمـال والقواد بـالثغـور، وكـان أبـو عثمـان عبيد الله بن عثمان المعـروف بصاحب الأرض اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منـزلاً. وكانت ترد عليه عشر مدينة أربونة وبرشلونة. ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطليا، وإيثارهم لها لفضـل بقعتها واتسـاع خطتها.

(وللإقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة، أخصها أرنيط (Arnedo) وهي مدينة أولية (وهناك أيضاً مدينة قلهرة ومدينة ناجرة وبقيرة (Viguera) ولها حصن في غاية المنفعة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها)[١٤].

ونجـد ابن حوقـل، بعد أن يصف جـزيرة الأندلس من حيث إحاطة البحر بثلاث من جهاتها ومجاورة البر للجهة الرابعة يقول: (فينتهي من الأندلس حدان: حد إلى دار الكفر وحد إلى البحر المحيط)[١٥].

وما أكثر ما وردت أسماء المدن الأندلسية على ألسنة الجغرافيين، حتى قبل القرن الرابـع / العاشر. وقد لفت هذا الأمر، أي كثرة المدن في الأندلس. نظر المؤرخين عبر العصور[١٦]. وقد أشار الاصطخري إلى أنها أكثر المدن جاهلية، أي إنها تعود إلى أيام قبل دخول العرب إلى الأندلس، وقال إن المدن التي بناها العرب قليلة وذكر بجانة وشنترين[١٧]، وإلى مثل هذا ذهب ابن حوقل[١٨]. ويذكرنـا ليفي بروفنسـال بأن أغلب المـدن التي عرفتهـا إسبانيـة من أيام الرومـان ظلت قائمـة بعـد الفتـح العـربـي. ويضيف إن المدن التي بناها العرب أقاموها في مناطق ذات أهمية عسكرية ــ برية أو بحرية ــ للدفاع ضد هجوم من الخارج، مثل مرسيـة والمرية. وقد حافظت المدن على الصيـغ القديمة، إنما عربت لتستقيم ولفظ العربية[١٩].

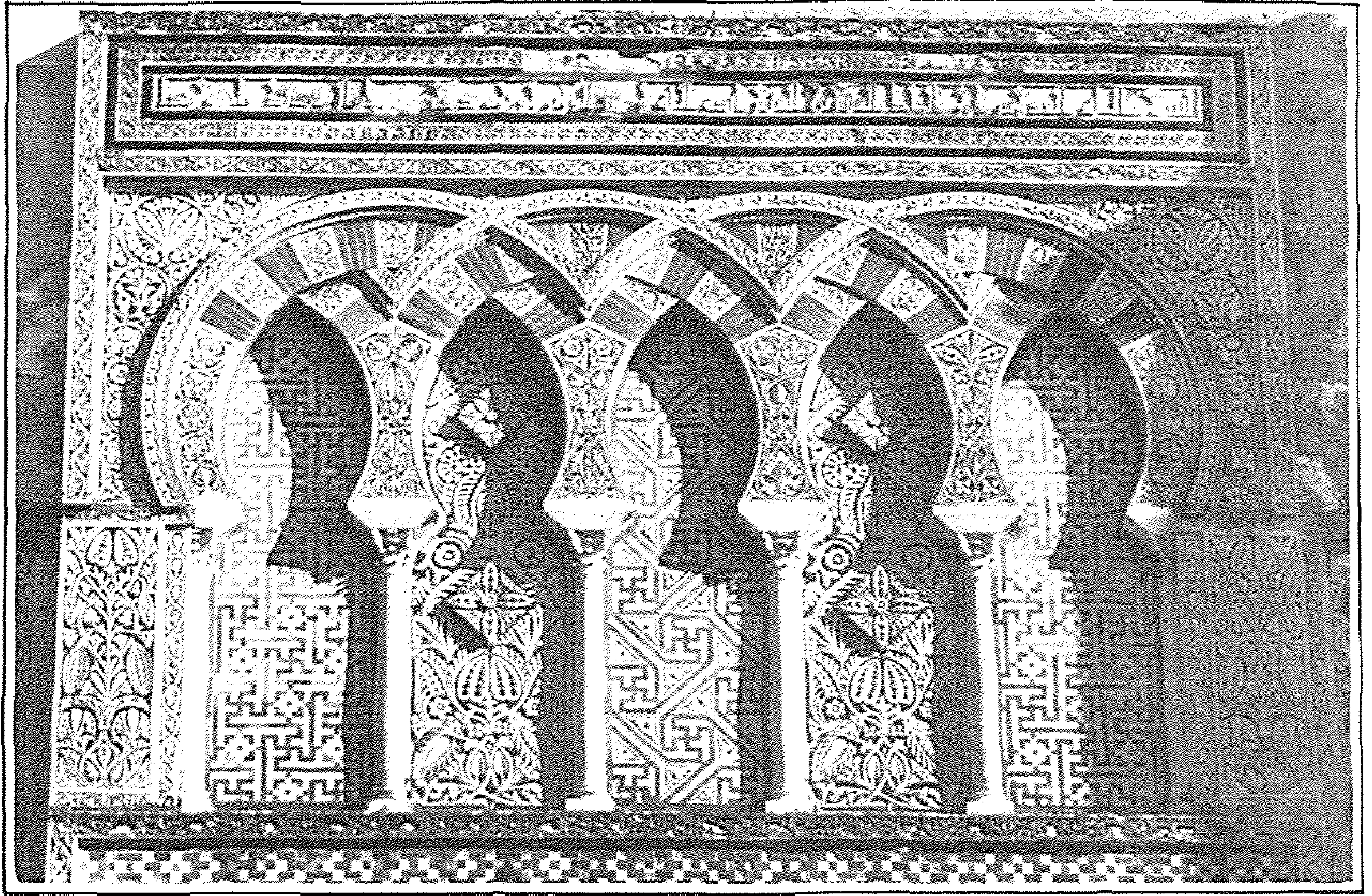
٦ ــ بعض النصوص الجغرافية

اكتفينا، في هذا البحث المقتضب، بالاهتمام بالجغرافيين الذين عاشوا فيما يمكن أن يسمى عصر ابن زيـدون، أي في القرنـين الرابـع / العاشر والخامس / الحادي عشر، وأشرنا إلى الإدريسي هذا مـع العلم بأنه تأخر نحواً من القرن عن أيام ابن زيدون، وذلك لأنه يمثل الدقة في التحري، ولأنه عرف الأندلس معرفة شخصية.

ونود أن نختم هذا البحث بمختـارات من بعض الجغرافيين الذين أشرنا إليهم، رغبة منا في أن يتعرف القراء على الأدب الجغرافي الخاص بالأندلس.

يقول الاصطخري عن الأندلس:

وأمـا الغربـي من المغـرب فهـو الأنـدلس، والأندلس بلدان عريضـة كثيرة المـدن خصبة واسعة، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة، وهي من الأندلس في وسطها، والذي يحيط بالأندلس البحر المحيط، ثم يطوف بحـر الروم بها إلى أرض افرنجة، فيأخذ من مدينة شنترين إلى أخشنبة ثم إلى إشبيلية ثم إلى سدونة ثم إلى الجزيرة ثم إلى مالقة ثم إلى بجانة ثم إلى بلاد مرسية على مدينة لقنت إلى بلاد بلنسية ثم إلى طرطوشة وهي آخر المدن التي على البحر، ثم يتصل من جهة البحر ببلاد الافرنجة، ومن جهة البـر بتصل ببـلاد علجسكس، وهي بلاد حرب من النصارى، ثم يتصل ببلاد بسكونس وهم أيضاً نصارى، ثم يتصل ببلاد الجلالقة وهم نصارى أيضاً فينتهي من الأندلس حدان إلى دار الكفر وحدان إلى البحر، وهذه المدن التي ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامر، والأندلس في أيدي بني أمية ما افتتحت لبني العباس ولا قدر عليها عبيد الله، ولما زالت دولة بني مروان، عبر إليها من أزيلة المغرب إلى جزيرة جبل طارق بعض بني أمية فتغلب عليها، فهي في أيديهم إلى وقت تصنيفنا هذا الكتاب. ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطلطيلة ونفـزة وسـرقصـطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة ومورور واستجة ورية، وهي كلها مدن عظام، وليس فيها ما يقارب قرطبة في العظم والكبر، وأكثر أبنيتها من حجارة، وهي أبنيـة



□ جانب من الجدار الخارجي فوق إحدى بوابات جامع قرطبة الكبير.

جاهلية لا تعرف فيها مدينة محدثة إلا بجانة، فإنها محدثة في حد بلاد يقال لها البيرة وشنترين التي على البحر المحيط بها يقع العنبر، ولم نعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع عنبر إلا بشنترين وشيء وقع في أيام مقامي بالشام بسواحل الروم، وتقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة، تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لين الخز، لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً، وهو عزيز قليل فيجمع وتنسج منه ثياب، فتتلون في اليوم ألواناً، ويحجر عليها ملوك بني أمية، ولا ينقل إلا سراً، وتزيد قيمة الثوب عن ألف دينار لغزته وحسنه. ومالقة سكانها عرب، وبها السفن الذي تتخذ منه مقابض السيوف، وجزيرة جبل طارق منها افتتح الأندلس في أول الإسلام، وجبل طارق جبل عامر حصين بالقرى والمدن، وهو آخر المعابر بالأندلس. وطليطلة مدينة في جبل عال، بناؤها من حجارة قد وثقت بالرصاص، وحواليها سبعة أجبل كلها عامرة منيعة مسكونة، وحولها نهر عظيم يقارب في الكبر دجلة، واسم هذا النهر تاجه، يخرج من بلد يقال لها شنتبرية. ووادي الحجارة مدينة هي وما حواليها من المدن والقرى تعرف بمدن بني سالم، ورية كورة عظيمة خصيبة، ومدينتها أرجدونة ومنها كان عمر بن حفصون، الذي خرج على بني أمية بها، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ومدينتها غافق، وقورية مدينة كانت كبيرة إلا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم، فاستعان أحد الفريقين بالجلالقة النصارى حتى غربوها، وماردة من أعظم مدن الأندلس، وكذلك طليطلة، وهما ممتنعتان ليس بهما عامل لبني أمية، إلا أنه يخطب بهما لهم، وشنترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية. وثغور الجلالقة ماردة ونفزة ووادي الحجارة وطليطلة، ومدينة الجلالقة مما يلي ثغور الأندلس يقال لها سمورة، وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها أبيط، هي بعيدة عن بلدان الإسلام، وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنجة، ويقال لملكهم قارله، غير ان الذين يلون المسلمين منهم أقل من سائر أجناس الكفر، لدخولهم في البحر، والحاجز الذي بينهم وبين الافرنجة من بلدان الشرك من غيرهم، ثم الجلالقة يتلونهم في الكثرة، وأقلهم عدداً

البسكونس وهم أشد شوكة، والذين يتلون البسكونس من ثغور الأندلس سرقسطة وتطيلة ولاردة، ويليهم قوم من النصارى يقال لهم علجسكس أقلهم غائلة، وهم الحاجز بينهم وبين الافرنجة[٢٠].

وعندنا وصف شاهد عيان للأندلس من قلم ابن حوقل. ومن هذا الوصف نقتصر على ما يلي:

وبالأندلس غير طراز يرد إلى مصر متاعه وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها. ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبى افرنجة وجليقية والخدم القالبة، وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس، لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود والصقالبة قبيل من ولد يافث، وبلدهم مستطيل واسع ولغزاة خراسان من ناحية البلغار بهم اتصال، فهم إذا سبوا إلى هنالك تركوا فحولة على أحوالهم مقرورين على صحة أجسامهم، وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح، والخليج الآخذ من البحر المحيط بنواحي ياجوج وماجوج يشق بلدهم ويستمر مغرباً إلى نواحب اطرابزنده ثم إلى القسطنطينية ويقطع ناحيتهم بنصفين: فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وافرنجة وانكبردة وقلورية، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله، وسأذكر جميع ما بها من المجالب في جملة ما يرد من المغرب من التجارة والجهاز.

وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص، ومن الصوف قطع كأحسن مما يكون من الأرمني المحفور الرفيع الثمين إلى حسن ما يعمل بها من الأنماط. ولهم من الصوف والأصباغ فيه وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالأندلس، تصبغ بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز، ويجلب منها الديباج، ولم يساوهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبد منها بالخمسين والستين ديناراً، غير أنه قد جعل عروضها خمسة وستة أشبار فهي من محاسن الفرش، ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل إلى لابسه. وأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة. وفواكههم مع طيبة فيها وسطة فكالمباحة التي لا ثمن لها. ويعمل في أقطار بلدهم من الكتان الدني للكسوة ويجلب إلى غير مكان، حتى ربما وصل إلى مصر منها الكثير. فأما أرديتم المعمولة ببجانة فتحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها ويستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكتان ثياب لا يقصر عن الديبقي ما كان منها صفيقاً، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس الشرب ويضاهي رفيع الشطوى الجيد، وقل سوق بها يصير إليه أهله إلا على الفاره من الركوب. ولا يعرف فيهم المهنة والمشي إلا أهل الصنائع والأرذال، وتختص بالبغال الفره وبها يتفاخرون ويتكاثرون. ولهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المذكورة وأصقاعها المشهورة من أرمينية والران وباب الأبواب وتفليس وشروان، لأنها تبدن وتصنع وتنجب ويجلب إليهم منها شيء حسن الشية عظيم الخلق كثير الثمن من جزيرة ميرقة، وهي جزيرة لعبد الرحمن بن محمد فيها المسلمون منقطعة، تلي ناحية افرنجة واسعة الخير كثيرة الثمار رخيصة الماشية لكثرة المراعي غزيرة النتاج والمواشي معدومة الحوائج قليلة الآفة، وليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم. ورأيت منها غير بغل بيع بخمس مائة دينار وإليها يرغب ملوكهم بمراكبهم وإياها يستوطئون ويؤثرون فيما يركبون. فأما ما يبلغ منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصي، وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط، بل جمعت مع ذلك عظم الخالق وحسن الشية إلى اختلاف الألوان الصافية الصافية والشعور الدهينة المشرقة والصحة على مر الأيام، مع الصبر على الكد والعسف[٢١].

والمقدسي مع أنه لم يزر الأندلس فقد تحقق من الروايات التي بلغته. ولذلك نرى لزاماً علينا أن ننقل شيئاً، ولو قصيراً، مما دوّن في كتابه. يقول: قرطبة هي مصر الأندلس سمعت بعض العثمانية يقول هي أجل من بغداد في صحراء

يطل عليها جبل ولها مدينة جوانية وربض الجامع في المدينة. وأسواق وأغلب الأسواق ودار السلطان في الربض قدامها واد عظيم سطوحهم قراميد الجامع من حجر وجيل وسواريه رخام. حواليه مياض وللمدينة خمسة أبواب باب الحديد باب العطارين باب القنطرة باب اليهود باب عامر. وقد دلت الدلائل واتفقت الإراء على أنه مصر جليل رفق طيب وإن ثم عدلاً ونظراً وسياسة وطيبة ونعماً ظاهرة وديناً وإن ناحية الأندلس. على سجية هيطلأبداً ثم غزاة أبداً في جهاد ونفير. مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد. وحدثني بعض الأندلسيين أنها ثلاثة عشر رستاقاً، على خمسة عشر ميلاً أرجونة مسورة ليس لها بساتين وأشجار لكنها بلد الحبوب ولهم عيون ومزارعهم على المطر. وقسطلة على ثلاثة عشر ميلاً من أرجونة وهي في سهلة كثيرة الأشجار والزيتون والكرمات ومشاربهم من آبار ويسقون البساتين بالسواني. شوذر على ثمانية عشر ميلاً من قرطبة وهي في سهلة كثيرة الزيتون جداً شربهم من أعين. مارتش على خمسة عشر ميلاً من قرطبة وهي جبلية ليس لها غير الكرمات ولهم أعين. وقنبانش على خمسة عشر ميلاً وهي سهلية ذات مزارع أكثرها بموضع يقال له قنبانية مشاربهم من آبار. وفج ابن لقيط على خمسة وعشرين ميلاً في سهلة كثيرة المزارع شربهم من آبار. وبلاط مروان على بعد ثلاثين ميلاً لها واد جرار سهلية ذات مزارع. وبريانة ذات مزارع سهلية شربهم من آبار وفيها حصن من حجارة والربض حوله والجامع في الحصن والأسواق في الربض. وحصن بلكونة كثيرة الزيتون والأشجار والعيون مسورة بحجارة شربهم من عين واحدة وآبار على أربعين ميلاً من قرطبة. الشنيدة على جبل كثيرة الكروم والمزارع والتين والعنب شربهم من أعين وآبار على يومين من قرطبة[٢٢].

وقد خص الإدريسي الأندلس بقسط وافر من كتابه نزهة المشتاق. وها نحن أولاً ننقل عنه قطعتين ـ الواحدة عن طليطلة والأخرى عن المرية.

يقول الإدريسي عن طليطلة:

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، وقلاع منيعة، تكنفها. وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتي قرب مدينة قلمرية. وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد، ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولاً، بل هي في نهاية السمن، ويضرب بها في ذلك المثل في جميع أقطار الأندلس. وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى بمغام، وجبالها وترابها الطين المأكول، الذي ليس على قرارة الأرض مثله، يتجهز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات وبلاد الترك، وهو نهاية في لذاذة الأكل، وفي تنظيف غسل الشعر، ولطليطلة في جبالها معادن الحديد والنحاس، ولها من المنابر في سفح هذا الجبل مجريط، وهي مدينة صغيرة، وقلعة منيعة معمورة، وكان لها في زمن الإسلام مسجد جامع، وخطبة قائمة، ولها أيضاً مدينة الفهمين، وكانت مدينة متحضرة، حسنة الأسواق والمباني، وبها مسجد جامع، ومنبر وخطبة، وهي كلها اليوم مع طليطلة في أيدي الروم وملكها من القشتالين، وينتسب إلى الأذفونش الملك[٢٣].

أما المرية فيقول عنها:

ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة، وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني، والستور المكللة والثياب المعينة، والخمر والعتابي، والمعاجر، وصنوف أنواع الحرير. وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد، إلى سائر الصناعات، ما لا يحد ولا يكيف، وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص، وهذا الوادي المنسوب إلى بجانة (Bichena) بينه وبين المرية ٤ أميال، وحوله جنات وبساتين وأرجاء، وجميع نعمها وفواكهها تجلب إلى المرية، وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كله، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من

أهلها مالاً. ولا أنجز منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادّخاراً.

والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة. والجبل الثاني منهما فيه ربضها ويسمى جبل (لاهم) (Lahem) والسور يحيط بالمدينة وبالربض. ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض، وهو ربض له سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات. والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات، والمسافرون إليها كثيرون وكان أهلها مياسير، ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً، ولا أوسع منهم أحوالاً، وعدد فنادقها التي أخذها عدا الديوان في التعيين ألف فندق، إلا ثلاثين فندقاً، وكان بها من الطرز أعداد كثيرة، قدمنا ذكرها. وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة، وأحجار صلبة مضرسة، لا تراب بها، كأنما غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر، والمرية في هذا الوقت الذي ألفنا كتابنا فيه. صارت ملكاً بأيدي الروم، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها، وخربوا ديارها، وهدموا مشيد بنيانها، ولم يبقوا على شيء منها(٢٤). ●

الهوامش

(٧) راجع طبعة حديثة له أعدها شارل بلا (ليدن، ١٩٦١) باسم **Le Calendrier de Cordoue** ضمنها بالإضافة إلى الأصل العربي والترجمة اللاتينية (غير المطابقة للأصل تماماً) ترجمة افرنسية. قابل بخصوص المؤلف والكتاب مقدمة طبعة بلا وما جاء في كتاب:

L. Levi-Provençal **Histoire de l'Espagne Muslumane. Vol. III** (Paris 1953), p. 240.

(٨) راجع: نقولا زيادة **الحسبة والمحتسب في الإسلام** (بيروت، ١٩٦٣)، ص ٥٦ ـــ ٥٨.

(٩) EI[2] Al-Andalus قابل الإدريسي ص ١٧٣.

(١٠) Al-Andalus, XVIII (1953) p. 60-61.

(١١) حسين مؤنس ص ٦٢ ـــ ٦٤.

(١٢) حسين مؤنس ص ٦٥ ـــ ٧٠.

(١٣) حسين مؤنس ص ٦٦ ـــ ٦٧.

(١٤) حسين مؤنس ص ٦٩ ـــ ٧٠.

(١٥) ابن حوقل (ليدن، ١٩٣٨) ص ١٠٥.

(١٦) EI[2] Al-Andalus.

(١٧) الاصطخري، **المسالك والممالك**، (القاهرة) ص ٣٥.

(١٨) ابن حوقل، ص ١٠٥.

(١٩) EI[2] Al-Andalus.

(٢٠) الاصطرخي، ص ٣٥ ـــ ٣٦.

(٢١) ابن حوقل، ص ١٠٥ ـــ ١٠٦ و ١٠٩ ـــ ١١٠.

(٢٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ٢٢٣ ـــ ٢٢٤.

(٢٣) الشريف الإدريسي **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس** (ليدن، ١٨٦٤) ص ١٩٧ ـــ ١٩٨.

(٢٤) الإدريسي، ص ١٨٨.

● **لولا حب الوطن لخرب بلد السوء.** **«عمر بن الخطاب»**

بلد صحبت به الطفولة والصبا ... ولبست ثوب العمر وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

«ابن الرومي»

قصة أبي نواس مع شاعر الأندلس

● كان عباس بن ناصح، الشاعر الأندلسي، لا يَقْدَم من المشرق قادمٌ إلا سأله عمَّن نَجَمَ[1] هناك في الشعر، حتى أتاه رجل من التجار فأعلمه بظهور أبي نواس، وأنشده من شعره قصيدتين؛ إحداهما قوله:

جَرَيْتُ مع الصِّبا طَلْقَ الجُمُوحِ

والثانية:

اما ترى الشمس حَلَّت الحَمَلا

فقال عباس:

هذا أشعر الجن والإنس. والله لا حبسني عنه حابس.

فتجهَّز إلى المشرق. فلما حلَّ بغداد نزل منزِلة المسافرين، ثم سأل عن منزل أبي نواس، فأُرشِد إليه، فإذا بقصر على بابه الخُدَّام. فدخل مع الداخلين، ووجد أبا نواس جالساً في مقعد نبيل، وحولَه أكثرُ متأدّبي بغداد، يجري بينهم التمثل والكلام في المعاني. فسلَّم عباس وجلس حيث انتهى به المجلس، وهو في هيئة السفر.

فلما كاد المجلس ينقضي، قال له أبو نواس: مَن الرجل؟

قال: باغي أدب.

قال: أهلاً وسهلاً. من اين تكون؟

قال: من المغرب الأقصى. وانتسب له إلى قرطبة.

فقال له: أَتَرْوِي من شعر أبي المخشيّ شيئاً؟

قال: نعم.

قال: فانشِدني.

فأنشده شعره في العمى. فقال أبو نواس:

هذا الذي طَلَبَتْه الشعراء أَضَلَّتْه. انشِدني لأبي الأجرب.

فأنشده. ثم قال: أنشدني لبكْر الكنانيّ.

فأنشده. ثم قال أبو نواس:

شاعر البلد اليوم عباسُ بن ناصح؟

قال عباس: نعم.

قال: فأنشِدني له. فأنشده:

فَأَدْتُ القَرِيض ومَنْ ذا فَأَدْ

فقال أبو نواس: أنت عباس؟

قال: نعم!

فنهض أبو نواس إليه فاعتنقه إلى نفسه، وانحرف له عن مجلسه. فقال له مَن حضَر المجلس:

من أين عرفتَه أصلحك الله؟

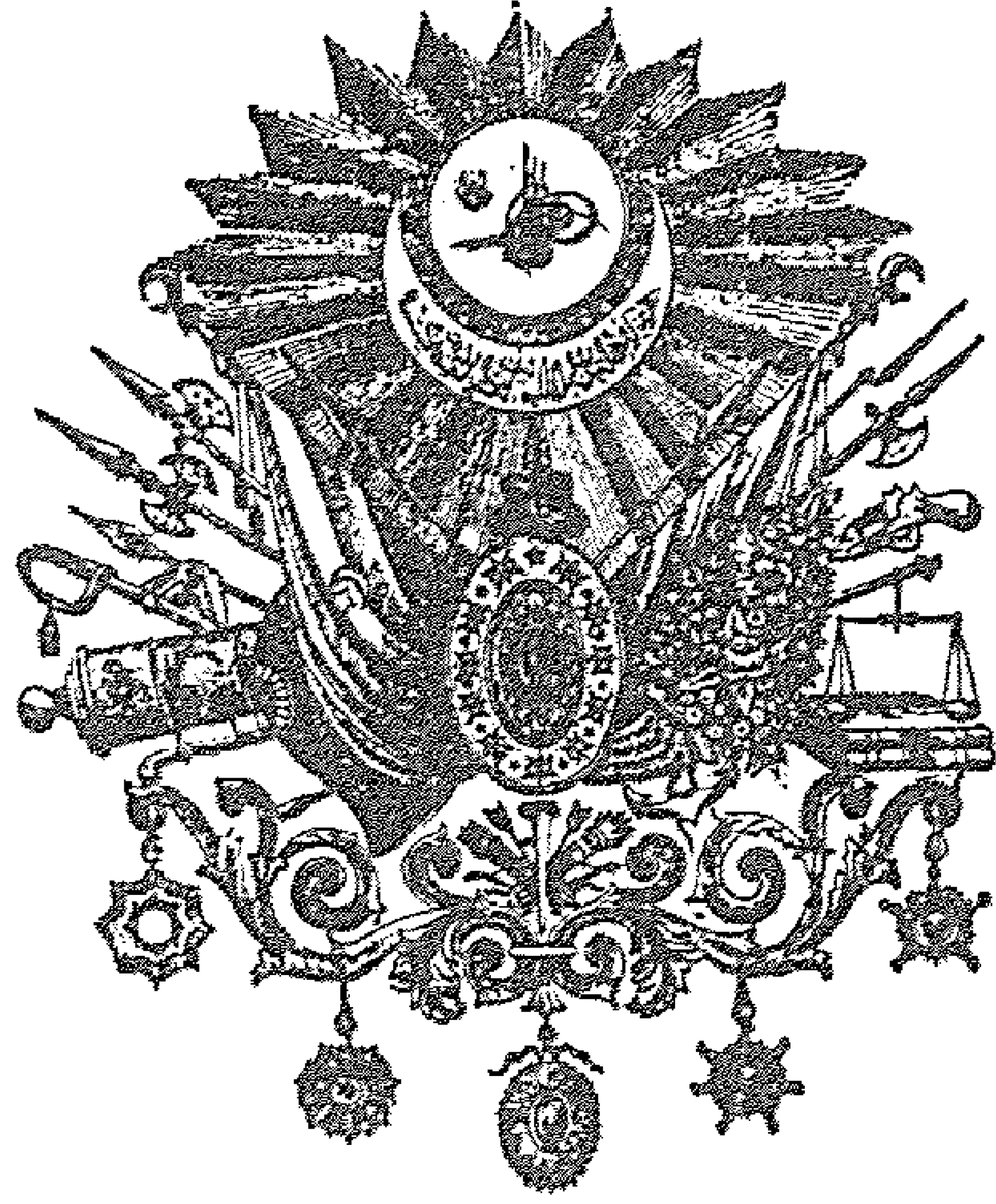
قال أبو نواس:

إني تأمّلته عند إنشاده لغيره، فرأيته لا يُبالي ما حدث في الشعر من استحسان أو استقباح. فلما أنشدني لنفسه استبَنْتُ عليه وَجْمَةً، فقلت: إنه صاحبُ الشِّعر!



من كتاب «طبقات النحويين واللغويين» للزُّبيدي الأندلسي.

(١) نَجَم: ظهر.



سور وأبواب بيروت العثمانية

د. حسان حلاق

تقع مدينة بيروت على الشاطىء الشرقي من البحر المتوسط، يحدها غرباً البحر، وجنوباً ضواحيها ومنطقة خلدة امتداداً إلى صيدا وجوارها، وشرقاً جبل لبنان، وشمالاً البحر وبعض المناطق ــ الضواحي الشمالية. وتقع بيروت في إقليم معتدل يتميز بجودة الطقس واعتدال في المناخ وجمال في المنظر. وتشير بعض المصادر التاريخية القديمة بأنه أطلق على بيروت اسم «بَيروتوس» (Béroutos) كما أطلق عليها الرومان اسم (Félix Julia). كما أطلق عليها أيضاً اسم «بِيريت»، ويقال بأن سبب هذه التسمية مشتق من اللفظ السامي «البئر»، وذلك نظراً لكثرة وجود الآبار والينابيع فيها.

ومن الأهمية بمكان القول بأن ذكر بيروت ورد في رسائل تل العمارنة وفي النقوش المصرية القديمة، كما ورد ذكرها في التوراة. كما أشار إليها: استرابون (Strabon) وبلين (Pline) وبطليموس، وكذلك ابن زرعة وابن عساكر وابن بطوطة وابن حوقل والإدريسي وناصر خسرو وصالح بن يحيى وعبد الغني النابلسي والكثير من الرحالة والمؤرخين والجغرافيين.


لقد وصف ابن حوقل في كتابه «صورة الأرض» بيروت، كما وصفها الحميري في كتـابه «الروض المعطار في خبـر الأقطار» مشيراً إلى أهميتها وإلى سورها قائلاً بأنها «في ساحل الشام... وفيها كان أبو الدرداء رضي الله عنه نازلاً... وعلى بيروت سور حجارة... وبها غيضة أشجار صنوبر تتصل إلى جبل لبنان... وشرب أهلها من الآبار...». وأشار صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» «بأن بيروت مدينة قديمة جداً يستدل على قدمها بعتق سورها... ومما يستدل على كبر بيروت وسعتها ما يجده الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العماير القديمة... فلما عمّروا السور اختصروه على القدر الذي هو عليه اليوم...».

والواقع فإن تطور مدينة بيروت خارج السور، إنما جاء نتيجة متطلبات اجتماعية واقتصادية وسكانية، حيث بدأت أعداد السكان تزداد تباعاً. وكانت بيروت حتى عام ١٧٤٦ مجرد مدينة متواضعة تخضع لأحد الضباط العثمانيين. ثم سرعان ما بدأت بالتطور الاقتصادي نتيجة للأمن الذي تميزت به، ونتيجة جهود تجارها وسكانها من المسلمين والمسيحيين، مع ما يتميز به ميناؤها من مميزات تؤمن الرسو والأمان للسفن، علماً أن روح التسامح عند المسلمين شد إليها الكثير من التجار الأجانب وتجار المناطق اللبنانية والشامية لا سيما دمشق. وبدأ هؤلاء التجار يتوافدون إلى باطن المدينة إلى داخل سورها لممارسة نشاطاتهم التجارية.

لقد شهدت بيروت بعض الجمود في عهد أحمد باشا الجزار (١٧٧٦ ــ ١٨٠٤) ولكن سرعان ما استعادت نشاطها في عهد سليمان باشا (١٨٠٤ ــ ١٨١٨). وكانت بيروت العثمانية قبل توسعها الكبير يسيجها سورها الذي قام بتحديده في العصور الوسطى الأمير بيدمر نائب الشام، ثم قام بتحسينه أحمد باشا الجزار في أواخر القرن الثامن عشر.

وعندما يقال بيروت العثمانية إنما كان يقصد بها بيروت الوادعة داخل سورها، وفيما عدا ذلك من مناطق تدخل اليوم في نطاق بيروت فإنما كانت تعتبر ضواحي لبيروت في العهد العثماني. فقد


□ باب أبو النصر يظهر من ساحة البرج.

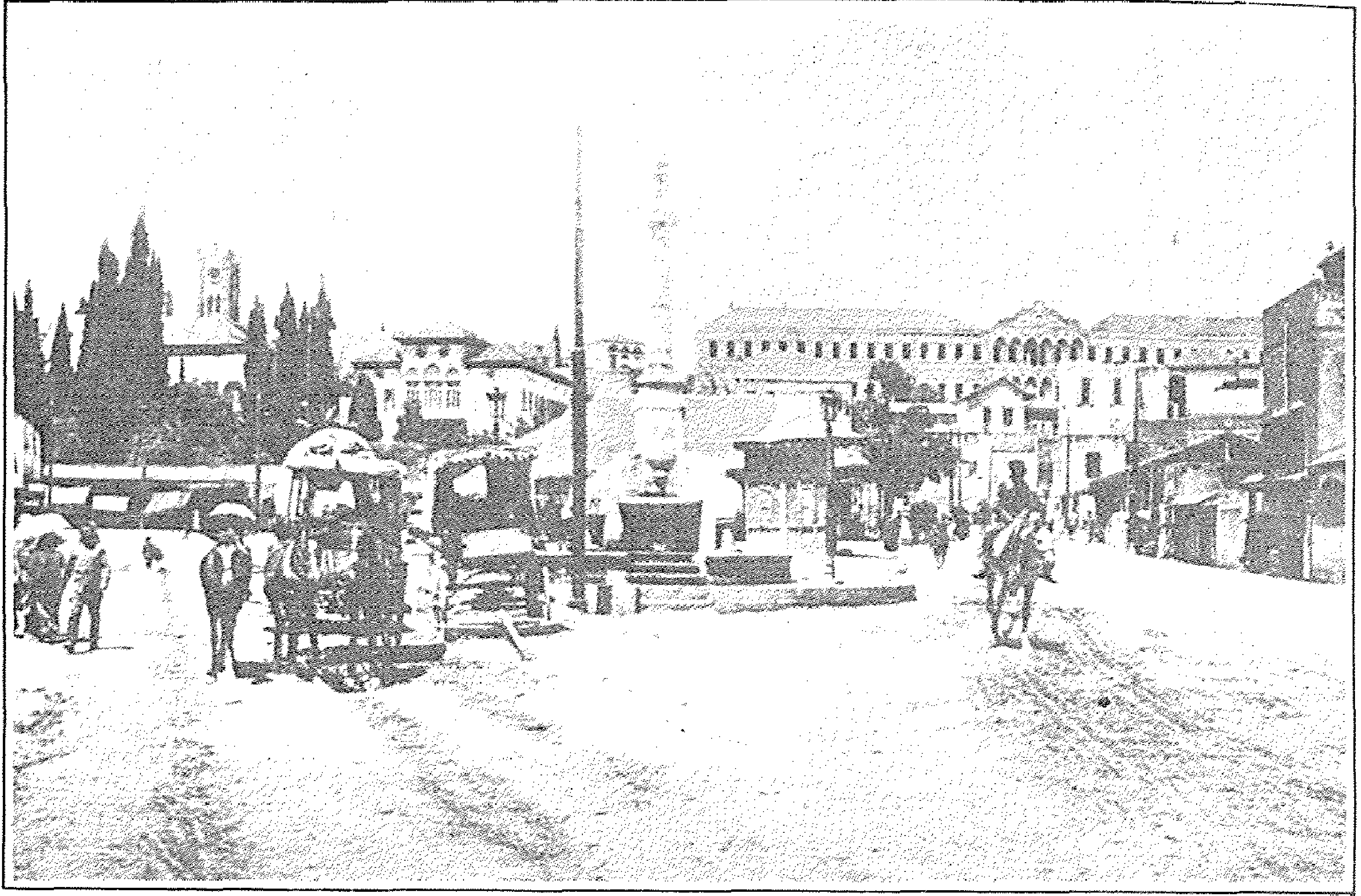


□ باب الدركة وجامع الدركة في مطلع القرن العشرين.

كانت مثلاً البسطة والمصيطبة وبرج أبي حيدر وزقاق البلاط والقنطاري والباشوراء والنويري والجميزة والصيفي والأشرفية وسواها من المناطق البيروتية، إنما كانت تعتبر ضواحي لبيروت. وكانت تتميز بكثرة بساتينها ومزارعها وأشجارها لا سيما التوت المرتبطة زراعته بإنتاج الحرير، وكذا الجميز والصبير والزعرور والزنزلخت وسواها.

وكان يتخلل سور بيروت، أو كما يلفظه «البيارتة» «الصور» بالصاد سبعة أبواب (وباب ثامن مستحدث) وبعض الأبراج العسكرية. ويبدو أن المسلمين منذ أن حكموا بيروت بدأوا يعدلون ويضيفون في أبواب السور حتى أصبحت قبل هدم السور سبعة أبواب، لارتباط هذا العدد بالمعتقدات الدينية منها «سبع سماوات طباقاً» وأبواب الجنة السبعة، والكواكب السيارة السبعة، ومعتقدات دينية قديمة مرتبطة بالتفاؤل بهذا العدد. ويرى الشيخ طه الولي في دراسة عن «أبواب بيروت» بأن عدد أبواب بيروت السبعة «إنما هو من قبيل التفاؤل بقدرة هذا العدد على حصانة هذه الأبواب وكفايتها على حماية البلد وأهله من أذى وعدوان كل شانىء يتربص به الدوائر سواء من داخل لبنان أو من خارجه».

كان سور بيروت يمتد من الجهة الشمالية للساحة (التي عرفت في ما بعد بساحة رياض الصلح) أي شمال (الهال) أو كما يقال (الهول) وشمال موقع السبيل الحميدي، وبمحاذاة حائط سينما كابيتول، ثم يسير شرقاً حتى كنيسة مار جرجس المارونية التي كانت تقع عند بنائها داخل السور. ثم يمتد السور إلى أسواق أبو النصر إلى أن يصل السور إلى بناية دعبول تجاه جامع السراي (جامع الأمير منصور عساف) حيث باب السراي. ثم ينحدر السور شمالاً إلى آخر شارع فوش الحالي عند الطرف الغربي لمرفأ بيروت. ثم يمتد السور غرباً حتى مقبرة السمطية التي كانت خارج السور على غرار بقية المقابر. ثم يرتفع السور من السمطية إلى الشارع الممتد حالياً باتجاه باب ادريس، ثم صعوداً إلى كنيسة الكبوشية التي كانت خارج السور، فمدرسة الشيخ عبد الباسط الأنسي، فسوق المنجدين (أي شارع المصارف اليوم)،



□ ساحة السور ــ السبيل الحميدي.

ويستمر السور صعودا إلى أن يلتقي مع البداية التي انطلق منها في الساحة أي ساحة السور.

يقول الكونت «دومنيل دوبويسون» في مقال نشرته له مجلة (Syria) عام ١٩٢١ وأعادت نشره مجلة «المشرق» عام ١٩٢٢ تحت عنوان «استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة» العدد (٩) أيلول ١٩٢٢ ما نصه: «فكان الناظر إذا حدق البصر إلى المدينة من مشارفها في جنوبها الغربي أو من رأس السنطية يراها محدقة بنطاق من الأسوار القديمة على شكل مربع مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب... وهذا ما كانوا يدعونه ببيروت المربعة... وكان قياس تلك المدينة من أرصفة مرفإها القديم إلى باب الدركة الجنوبي يبلغ (٥٧٠) متراً فقط. أما قياس امتدادها من بابها الشرقي أي باب السراي إلى بابها الغربي باب ادريس فما كان يزيد عن (٣٧٠) متراً. وكان الغالب عليها أسواقها التي في النهار كانت تموج في وسطها وعند أبوابها بحركة البائعين والتجار، ثم تعود إلى هدوئها ليلاً بعد أن تقفل أبوابها وتودع مفاتيحها عند واليها».

ويتحدث الشيخ عبد القادر قباني عن ذكرياته في بيروت العثمانية قبل زوال سورها وأبوابها ويقول: «... لقد أدركت هذه الأبواب تُغلق بعد الغروب بساعتين وتفتح صباحاً... وكان بالأبراج بجوار الأبواب جند للمحافظة، وكان لهم وللمدفعية في القلعة والطوابي شأن مع سفن اليونان الذين غزوها مع الفجر وارتدوا أدراجهم غير موفقين بعد معركة سنة ١٢٤٠هـ».

وفي العهد المصري صدرت إرادة القائد المصري إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بإقفال أبواب بيروت حفاظاً على سكانها وأمنها، وقد أعلم إبراهيم باشا القناصل الأجانب بهذه الخطوة، ومنها رسالته إلى القنصل الانكليزي في بيروت أعلمه فيها مبررات اتخاذ هذا القرار وفي ما يلي نص الرسالة:

«الجناب الأكرم، حضرة المحب الأجل المحترم قنسلوس بك دولة الإنكليز المحتشم حفظه الله تعالى.

ليس خافي محبتكم الحال الواقع من ظهور خروج بعض أشقياء من رعايا جبل لبنان كما هو المسموع والمحسوس بالقرب من هذه الناحية، ومن جراء ذلك

□ صورة الشام وبيروت كما وردت عند ابن حوقل.



□ باب السراي، أحد أبواب بيروت العثمانية

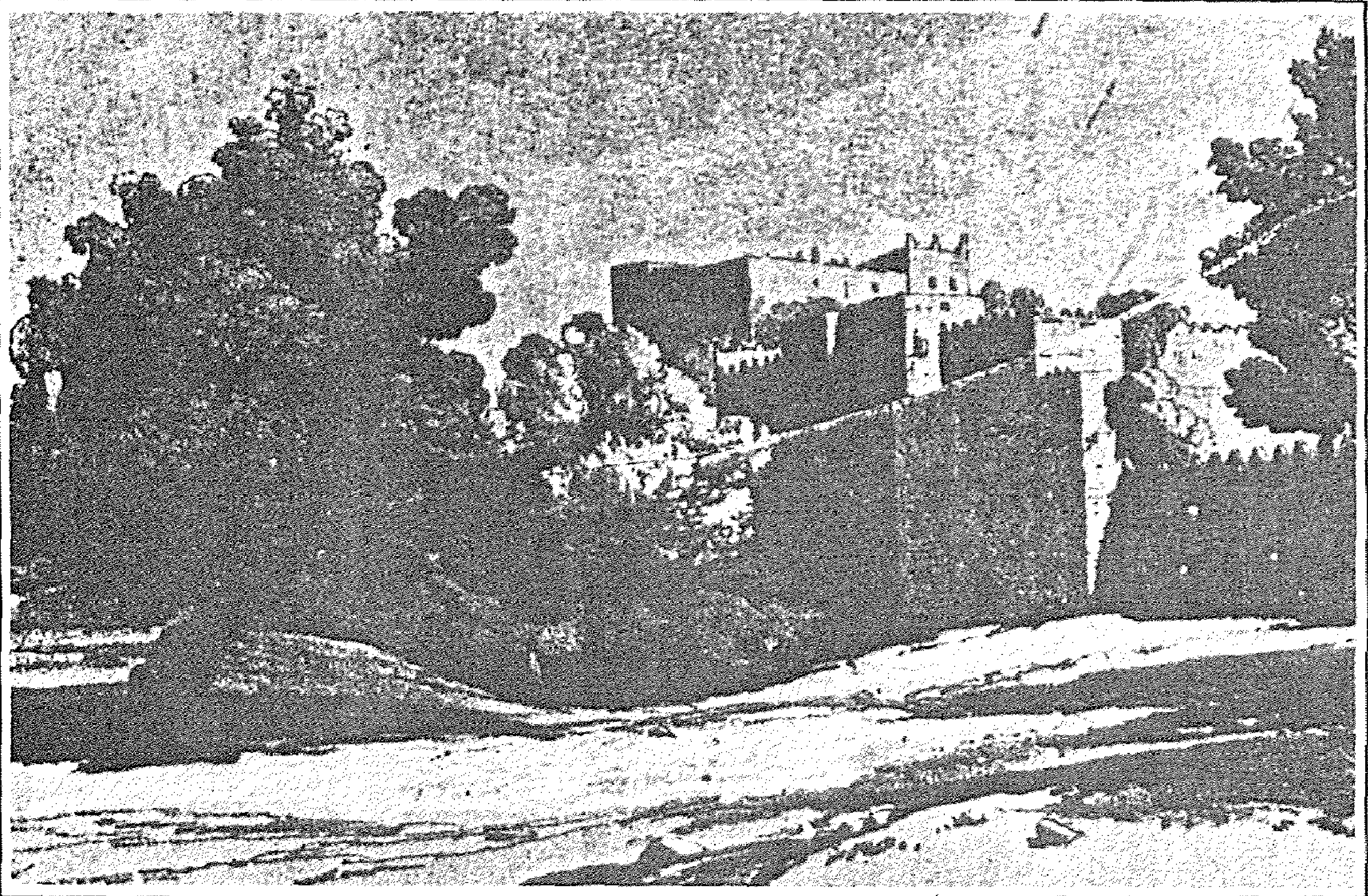
رعايا بيروت من إسلام وذميين سِكْنا البرية، متحسبين وعمال ينزلوا عفشهم إلى البلدة، والبعض نزلوا من محلاتهم إلى البلدة، فبحيث الحالة هذه وللمحافظة المأمورين بها، واحتراساً لأمر ما، اقتضى التنبيه بأن كافة البوابات تقفل أذان المغرب وبالاذن يصير فتح بوابة السراي إلى حد العشاء فقط، وبعد اذان العشاء المتقدم شرحه، ما في رخصة لفتح البوابة كلياً، بل الذي يكون داخل البلدة يفضل بها كما والذي خارج البلدة أيضاً، وحيث ذلك عايد لراحة الضمير ولأجل المحافظة المأمورين بها اقتضى إفادة محبتكم بذلك وانه تعالى يحفظكم».

الختم
محمود نامي
مير محمود
محافظ بيروت

وتدل هذه الرسالة على الكثير من الأمور، منها أن أبواب بيروت كانت لا تزال عاملة في أيام الحكم المصري ١٨٣١ ــ ١٨٤٠، وأنها كانت تقفل عند المغرب، باستثناء باب السراي وهو الباب الرئيسي الذي كان يقفل عند العشاء، وذلك لصباح اليوم التالي حفاظاً على الأمن والاستقرار في البلدة.

أما أبواب بيروت فهي: بوابة يعقوب، باب الدركاه (الدركه)، باب أبو النصر، باب السراي، باب الدباغة، باب السلسلة، باب السمطية، باب ادريس.

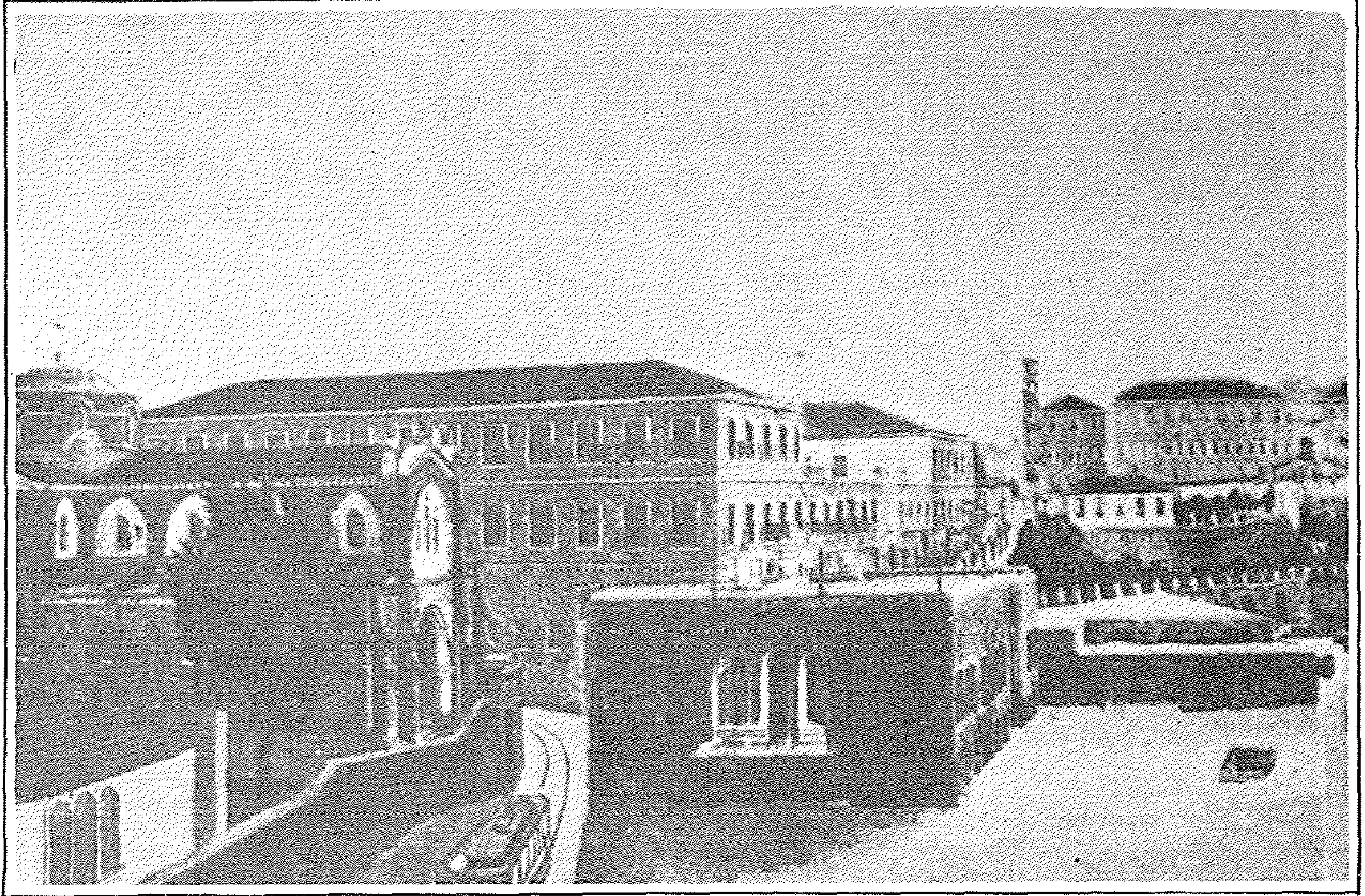
أما ملامح ومواقع هذه الأبواب فهي بالتسلسل على النحو التالي:



□ بيروت العثمانية مسيجة بالسور وتلف بها أشجار التوت.

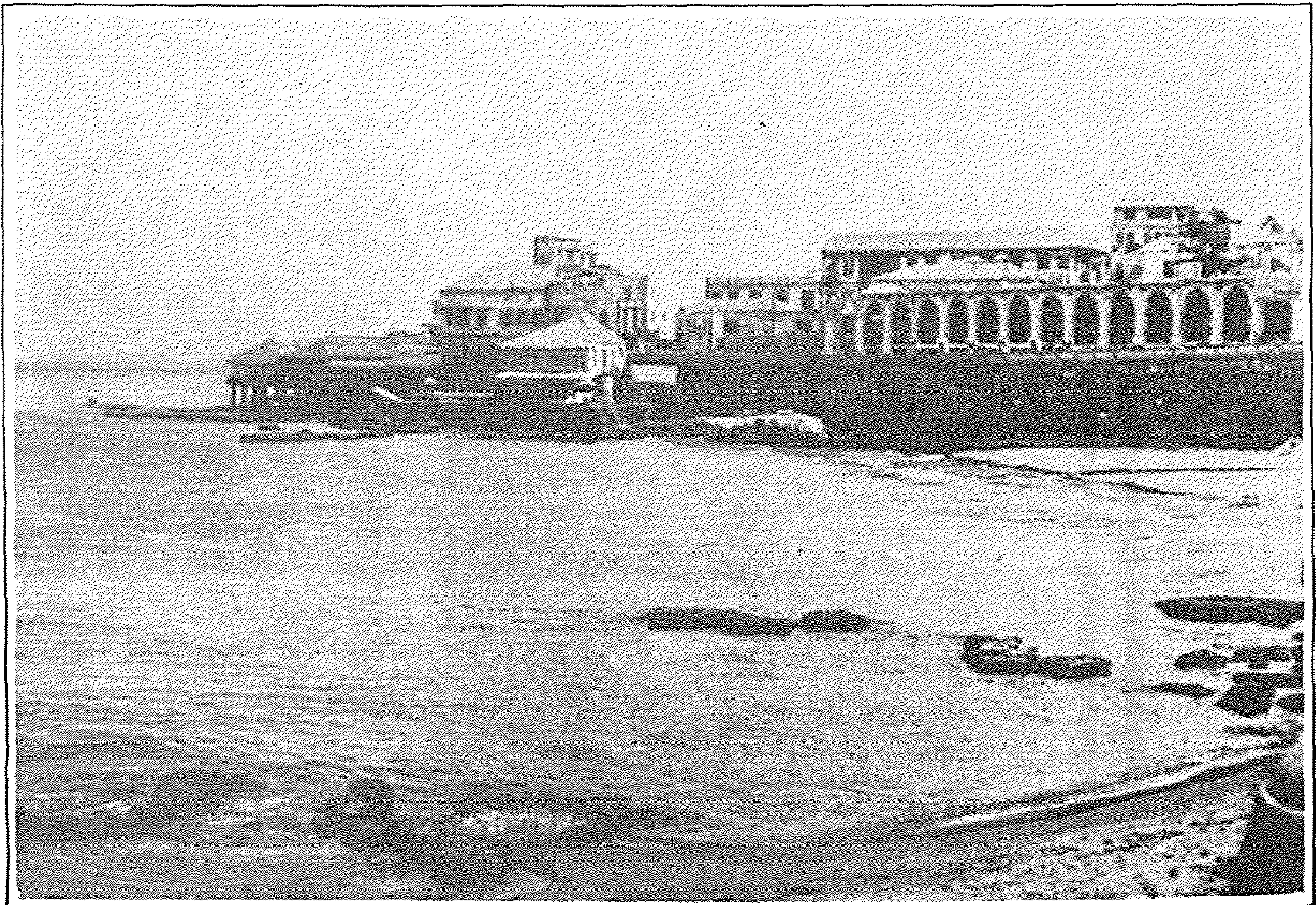
□ محلة باب ادريس في مطلـع القرن العشرين.

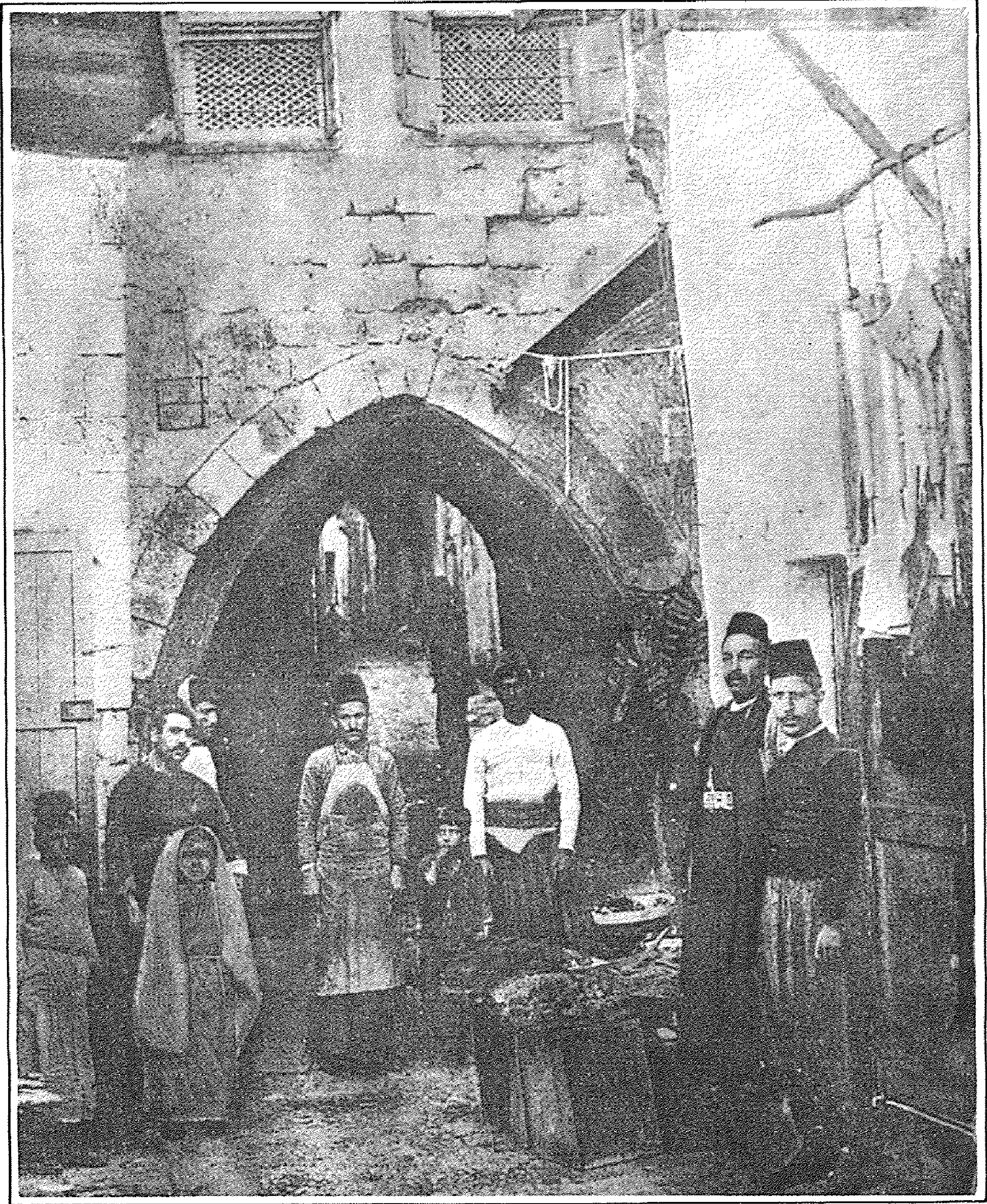




□ الثكنة العسكرية والمستشفى العسكري وكنيسة الكبوشية في نهاية العهد التركي.

□ الطريق إلى باب السمطية، وتظهر في الصورة مقهى الحمراء ومقهى البحرين ومقهى الحاج داوود.





□ جمهرة من البيارتة أمام باب (بوابة) يعقوب، احد أبواب سور بيروت القديمة.

١ ــ **بوابة يعقوب**: أو باب يعقوب، ويقع هذا الباب في الجهة الجنوبية لبيروت القديمة على الطرف الشمالي لطلعة الأميركان شرقي سراي الحكومة (التي انتقلت مكاتبها منذ سنوات قليلة إلى الصنائع). وكان باب يعقوب يؤدي إلى ساحة السور التي عرفت في ما بعد باسم ساحة السبيل الحميدي ومن ثم ساحة رياض الصلح. وهناك رأي يشير إلى أن أحمد باشا الجزار هو الذي أقام هذا الباب في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. كما ينسب هذا الباب إلى أحد القاطنين بقربه وهو إما يعقوب الكسرواني أو الطبيب يعقوب أبيلا قنصل انكلترا في صيدا المتوفى عام

١٨١٣. وكان يقع بالطرف الشمالي من باب يعقوب جامع بوابة يعقوب أو جامع شيخ السربة. وكان يوجد أمامه السوق المعروف باسم بوابة يعقوب، كما كان بمحاذاته زاوية الشيخ حسن الراعي، وحديقة خلف دكاكين البوابة، ومن ملامح بيروت العثمانية المهمة الواقعة قرب بوابة يعقوب المحلة المعروفة بالثكنات و «الخسته خانه» أي المستشفى الحكومي العثماني (وهي المحلة التي أصبحت في عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال سراي الحكومة ومقر العدلية).

٢ ــ **باب الدركه**: وموقع هذا الباب قريب من أول شارع المعرض من جهة القبلة (الجنوب)، وكان يوجد بمحاذاته زاوية ومسجد الدركه. والدركاه لفظ فارسي يعني باب القصر أو الفندق. ومن جهة أخرى فإن باب الدركه كان يطل على درج رجال الأربعين الشهير في بيروت، كما وجد بالقرب من باب الدركه حمام الدركه ومنطقة مياه الدركه. ومن ملامح الباب حتى أواخر القرن التاسع عشر عبارة مثبتة على لوحة قديمة لباب الدركه معناها «أيها الداخل بهذا الباب إفتكر بالرحمة». وتشير المصادر التاريخية بأن القائد المصري إبراهيم باشا دخل بيروت عام ١٨٣١ من هذا الباب، وشق طريقه إلى السراي في موكب ضخم تظلله أقواس النصر ومعالم الزين والقباب.

ويذكر بأن باب الدركه من أجمل أبواب بيروت العثمانية، لما كان عليه من نقوش ومتانة وإتقان، وفيه من الملامح العسكرية ما يلفت النظر، حيث الكوات (الكوى) المعدة لرمي النار، ويوجد فيه مكان مخصص للحرس لضرب العدو من أعلى.

٣ ــ **باب أبو النصر**: وكان موقعه قريباً من سوق الخضار واللحوم والأسماك، وقريباً من سوق الجوهرجية، ويطل أيضاً على ساحة البرج. سمي بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ أبي الوفاء عمر أبي النصر اليافي والد نقيب الأشراف الشيخ عبد الكريم أبو النصر اليافي. غير أن هذا الباب لا يعتبر من أبواب بيروت القديمة، وإنما من مستحدثات القرن التاسع عشر.

ويشير الكونت دومنيل دوبويسون إلى هذا الباب بقوله: «... هناك زقاق ومعبر مقبب يتجه إلى الجنوب الغربي نحو كنيسة مار جرجس الكاتدرائية (المارونية) فإنها كانت داخلة ضمن السور وآخر دار تراها في هذا المعبر عن شمالك قبل دخولك تحت البناء المقبب، هي دار الأمير عبد القادر (الجزائري) سكنها عندما مر ببيروت... ويدعى ذلك المعبر المقبب الذي بقرب هذه الدار «باب أبو النصر» ينفذ منه الإنسان إلى «سوق أبو النصر». ومنْ دقق النظر في هذا الباب لا يسعه أن يسلم بكونه من أبواب المدينة رغماً عما يُرى على جداره الخارجي من آثار التحصين...».

٤ ــ **باب السراي**: ويعرف هذا الباب أيضاً باسم باب المصلى، وهو أحد أبواب بيروت الشهيرة والمميزة والرئيسية. وكان موقعه قرب جامع الأمير منصور عساف وتحديداً مكان حديقة البلدية الصغرى تجاه نظارات المجذوب. وكان يحد باب السراي من الغرب سراي الأمير فخر الدين القديمة التي تهدمت عام ١٨٨٢. وقد شيد مكانها ومكان حديقتها «سوق سرسق وتويني وشركاهما». ومن الشرق الطريق المؤدية إلى محلة المدور، ومن الجنوب خان الوحوش وسهلات البرج حيث تقع ساحة الشهداء أو البرج وسينما أوبرا حيث كانت اسطبلات الأمير فخر الدين المعني. ومن الشمال خان سعيد آغا وبعض الأبنية المجاورة للخان شرقاً. وكما أشرنا سابقاً فإن باب السراي يستمر مفتوحاً إلى حين صلاة العشاء، في حين تقفل جميع أبواب بيروت عند صلاة المغرب لقد بقي باب السراي قائماً بحالة جيدة إلى أن تم هدمه عام ١٩٢٧ عندما بدأ الانتداب الفرنسي بتخطيط الشوارع في بيروت العثمانية وهدم المعالم العثمانية والحيلولة دون ربط حاضرنا بماضينا.

٥ ــ **باب الدباغة**: يقع هذا الباب في طرف سور بيروت العثمانية في الجهة الشرقية لميناء بيروت المحروسة. سمي هذا الباب بهذا الاسم لوجود دباغة بقربه لدبغ الجلود، كما سمي الجامع المحاذي له جامع الدباغة (جامع الصدّيق في ما بعد). وكان يوجد أمامه دار على جانب البحر للأمير ناصر الدين التنوخي المتوفى ١٣٥٠م. وكان يتفرع من باب الدباغة طريق فرعية تطل على سوق القطن. ويعتبر هذا الباب من أكثر أبواب المدينة ازدحاماً بالتجار لقربه من

الميناء. وتشير سجلات المحكمة الشرعية في بيروت إلى أنه كان يوجد أمام باب الدباغة المركز الخاص بتحصيل المكوس والضرائب المقررة على البضائع الصادرة والواردة.

دومنيل دوبويسون يصف هذا الباب بقوله: «وباب الدباغة قد فتح في نفس البدَنة عرضه نحو مترين و٦٠ سنتم كان يعلوه قوس محدب من حجر وبقرب القوس المذكور من باطنه خشبة ضخمة تعترضه لها في طرفيها ثقبان لجارورَي الباب الأعليين، وعلى هذا المثال بقية الأبواب كباب السراية وباب يعقوب وباب قلعة المعز في صيدا. وقد أقيم فوق الباب لحراسته بناية مستندة إلى ثلاث دعائم كان الجنود يرمون بها القذائف على العدو. وكان باب السراية مجهزاً بمثلها...».

٦ ــ **باب السلسلة**: وهو من أبواب بيروت القديمة، إذ يعود تاريخه إلى أيام نائب الشام الأمير بيدمر الخوارزمي المملوكي، وقد أشار إلى ذلك صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت».

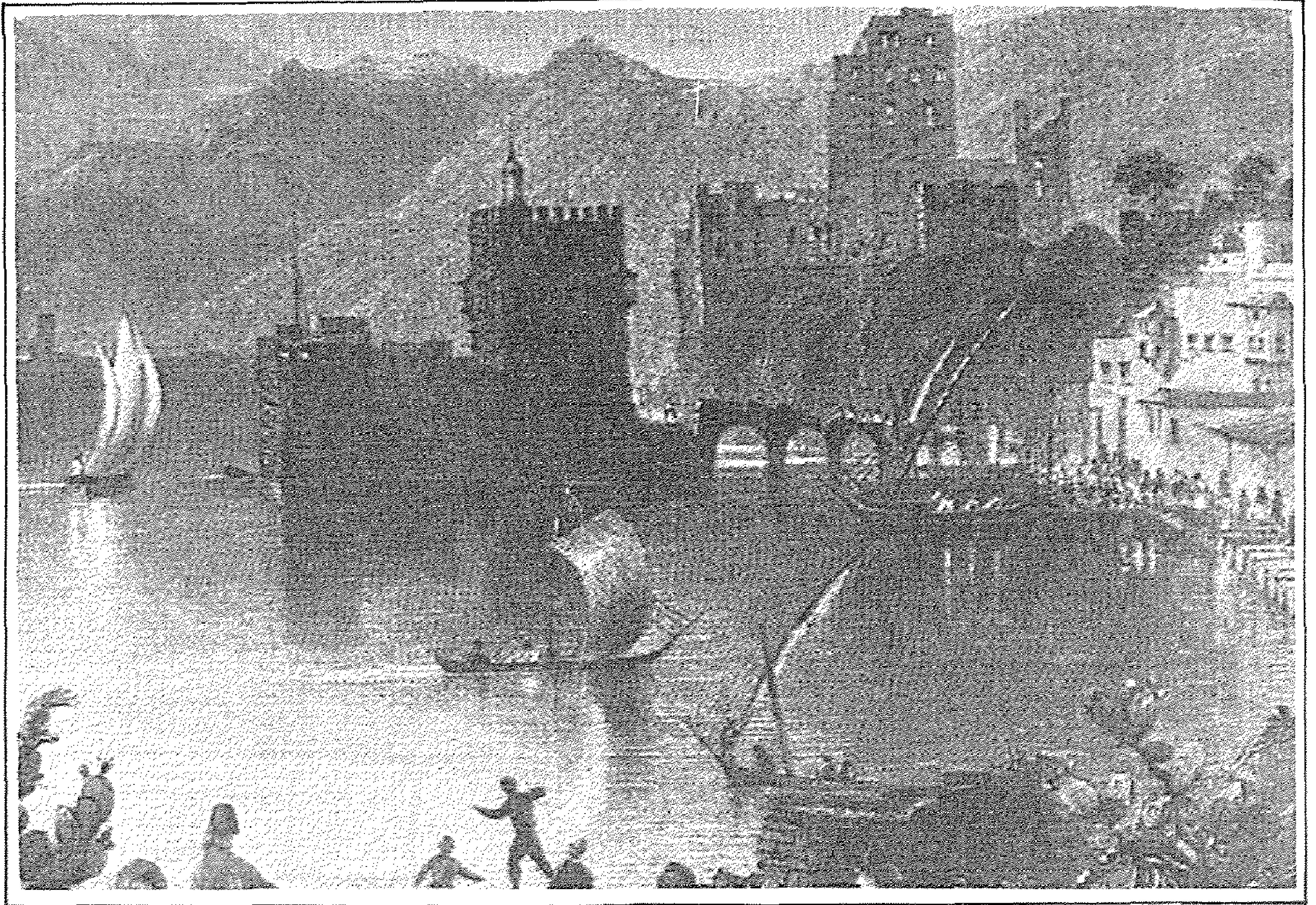
موقع هذا الباب قرب مرفأ بيروت المحروسة شمالاً، وقد سمي بهذا الاسم لوجود سلسلة في المرفأ تؤمن الرسو للسفن بأمان، وتمنع المراكب الصغيرة من الدخول أو الخروج، وتؤمن هذه السلسلة بواسطة الحراس المراقبة على سير حركة المرفأ. ووجد بالقرب من الباب أحد أبراج مدينة بيروت العاملة، وقد عرف هذا البرج باسم «برج السلسلة». وكان باب السلسلة بين برجين: برج الفنار وبرج السلسلة. وقد جاء ذكر باب السلسلة في كتاب صالح بن يحيى حيث قال: «لما جدد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر، جعل أوله من عند الحارة التي لنا على البحر واصلاً تحت البرج الصغير العتيق المعروف ببرج البعلبكية، وجعل بين هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمي «باب السلسلة». هذا وقد هدم هذا الباب اثر عاصفة هوجاء ضربت مرفأ بيروت عام ١٨٤٩.

٧ ــ **باب السمطية**: يقع هذا الباب من الجهة الشمالية لسور بيروت المحروسة إزاء البحر. وقد وجد بالقرب منه ولكن خارج السور مقبرة السمطية الشهيرة بالقرب من مقهى الحاج داود الذي هدم منذ سنوات قليلة، في الطريق المؤدية إلى مرفأ بيروت. وقد سمي هذا الباب بالسمطية نسبة إلى السماط وهو جانب الطريق أو رصيفه، حيث كان الباعة والتجار يعرضون بضائعهم على جانبي السماط للبيع والشراء، حيث يتكاثر التجار في الطريق من وإلى المرفأ.

ويذكر الكونت دومنيل دوبويسون في مقالته «استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة» ما نصه: «كان السور يمتد من باب ادريس إلى شارع سوق الجميل حيث كان باب المدينة الأخير المدعو باب السنطية قريباً من البحر، وأمامه مقبرة السنطية التي تُرى آثارها شمال شارع الفرنسويين. وفي خوارط الإنكليز في أواسط القرن التاسع عشر ترى بإزاء الباب من داخل المدينة حقلاً من أشجار التوت كان يمتد على طول السور من البحر إلى باب ادريس. وكان السور يمتد من باب السنطية تواً إلى صخرة الساحل، وهناك كان ينعطف على خط مستقيم نحو الشرق ويبلغ إلى الرصيف الذي كان يقفل المرفأ في القرون الوسطى. وللمصور «مونفور» صورة حسنة تدل على ذلك...».

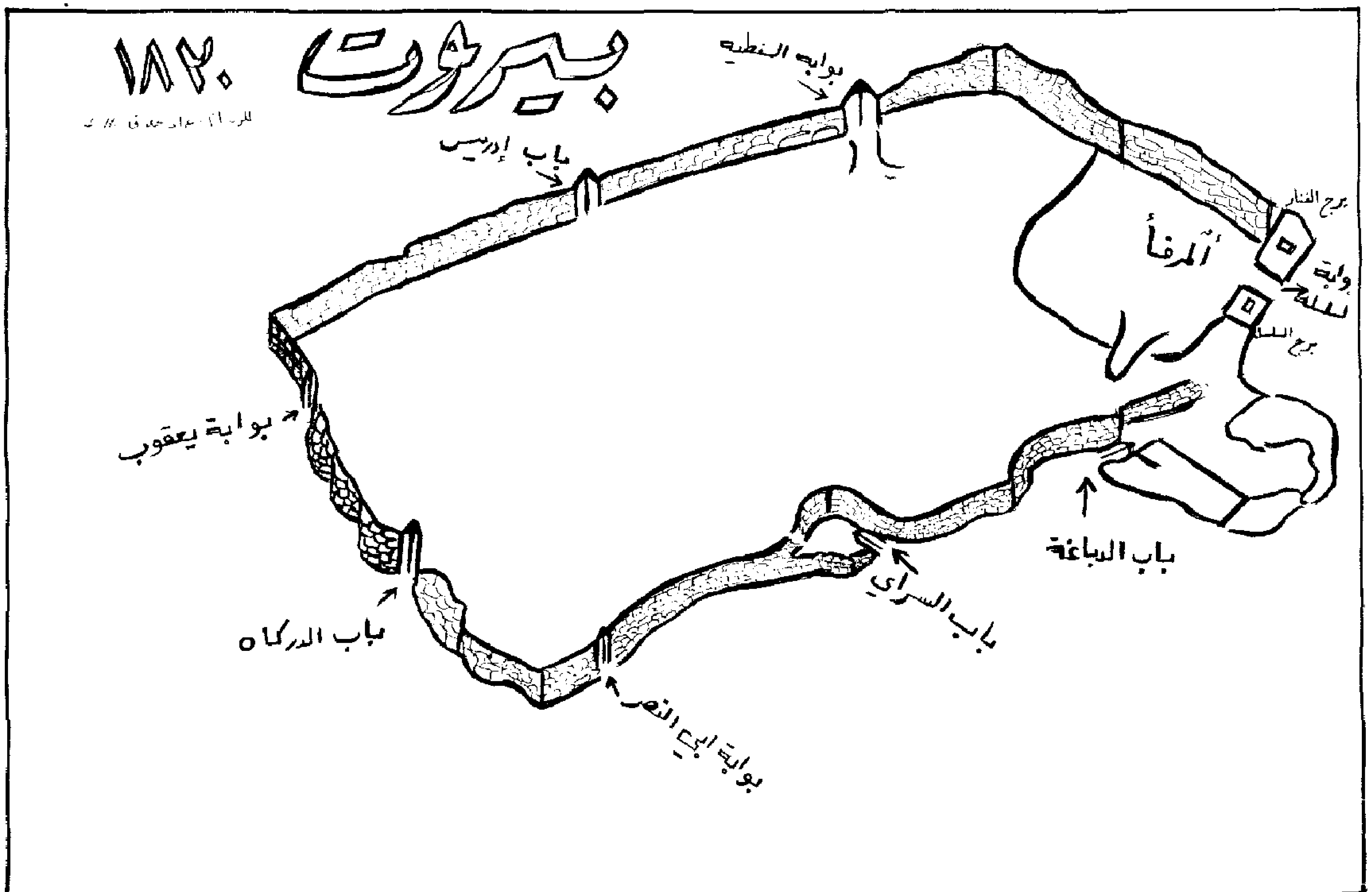
٨ ــ **باب ادريس**: وهو من أبواب بيروت العثمانية المعروفة يطل على الجهة الغربية الشمالية للسور، وكان موقعه قريباً من الكنيسة الكبوشية، وتحديداً تجاه محلات رد شو (Red Shoe) وجوزف عيد في محلة باب ادريس. كما أن للباب مدخلاً يطل على خط الترامواي المستحدث في أوائل القرن العشرين قريبا من سوق أياس. وقد سمي باب ادريس بهذا الأسم نسبة لعائلة ادريس المتوطنة في تلك المنطقة.

ويشير «دو بويسون» إلى «أن مفرق شارعي البوسطة (البريد) وجورج بيكو يدعى باب ادريس، ويشير إلى أحد أبواب المدينة الذي كان مشيداً على امتداد حائط الآباء الكبوشيين. أطلق عليه هذا الأسم لأن إحدى العيال (العائلات) المدعوة بإدريس كانت تسكن فوقه. ولما قدم الفرنسويون إلى سورية سنة ١٨٦٠ وأنشأوا طريق الشام أرادوا أن يهدموا ذلك الباب وقسماً من السور ليبلغوا الطريق إلى البحر، إلا أن أبا صالح ادريس صاحب الدار لم يشأ أن



□ مرفأ بيروت حيث يظهر باب السلسلة. (بارتلت ــ ١٨٣٤).

□ بيروت وأبوابها عام ١٨٣٠. رسم عماد حلاق



يتخلى عن ملكه قطعياً فقال له حينئذ والي بيروت كلاماً أصبح اليوم شبيهاً بالنبوة: «إنك ستذكرني يوماً بالخير وتتمنى لنفسي الرحمة إذا ما رأيت ما سيحصل من المنافع بفتح هذه الطريق».

وعلى ذلك فقد قامت الشركة الفرنسية التي عهد إليها توسيع أسواق المدينة، وشق طريق بيروت ـ دمشق بهدم باب ادريس عام ١٨٦٠.

إن أبواب بيروت المحروسة اندثرت برمتها، ولم يبق منها سوى اسمها. ولا بد من الإشارة إلى أنه كان لهذه الأبواب أنظمة تحكمها، وقد كان على كل باب عين من أعيان المنطقة كان المسؤول عن وضع وأمن وحراسة هذا الباب أو ذاك. وكان مكلفاً بالإنفاق على مصباح معلق إلى جانب الباب الخارجي ينيره عند المغيب بعد أن يقفل الباب بمفتاح خاص كبير، يودعه عند متسلم بيروت حتى الصباح، وهكذا كل صباح ومساء. وكان حفاظ الأبواب من العائلات البيروتية المعروفة. أما القوافل التي يصادف وصولها ليلاً إلى بيروت فتضطر إلى المبيت في ظاهر بيروت وخارجها في مناطق مثل: الغلغول، البسطة، المصيطبة، الصيفي، زقاق البلاط، الباشوراء، الجميزة، وسواها إلى أن تفتح أبواب سور بيروت صباحاً فتدخل القوافل والتجار والباعة لممارسة نشاطهم وتبضع حاجياتهم أو بيع محصولاتهم. ●

مصادر البحث

الوثائق:

ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت (وثائق متفرقة).

المصادر والمراجع:

١ ـ د. أسد رستم: آراء وأبحاث، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٧.
٢ ـ بيروت ١٨٧٥ ـ ١٩٧٥، خرائط وصور، جامعة بيروت العربية ١٩٧٧.
٣ ـ د. حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الطبعة الثانية، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٨.
٤ ـ حسان حلاق: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧.
٥ ـ حسان حلاق: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧.
٦ ـ الكونت دومنيل دو بويسون: استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة، المشرق، ج ٢٠، العدد (٩)، أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢.
٧ ـ شفيق طبارة: بيروت، سورها وأبوابها، أوراق لبنانية، م ١، ج ١١، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥.
٨ ـ شفيق طبارة: معالم بيروت القديمة، أوراق لبنانية، م ٣، ج ١، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧.
٩ ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت (أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت)، تحقيق: فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧.
١٠ ـ الشيخ طه الولي: أبواب بيروت، مجلة المقاصد، العدد (٢١)، كانون الثاني ١٩٨٤ / ربيع الثاني ١٤٠٤هـ.
١١ ـ الشيخ عبد الباسط الانسي: دليل بيروت، تقويم الإقبال لسنة ١٣٢٧هـ (١٣٢٤ ـ ١٣٢٥ شرقي ـ ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ غربي)، مطبعة الإقبال ـ بيروت ١٣٢٧هـ.
١٢ ـ Debbas. Fouad: Beyrouth. Notre Mémoires. Beyrouth 1986 (Naufal Group).

الدوريات:

١ ـ أوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥.
٢ ـ أوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٧.
٣ ـ المشرق (بيروت) ١٩٢٢.
٤ ـ المقاصد (بيروت) ١٩٨٤.



□ عثمان، مؤسس السلطنة العثمانية (١٣٠٠ ــ ١٣٢٦).

البلقنة: مشاكلها وحلولها

د. لطفي المعوشي(*)

كثيراً ما تتردد كلمة البلقنة (Balkanisation) بشكل يومي ودائم، خاصة إذا كان الحديث يتناول قضايا ومسائل ذات طابع إقليمي وقومي متشابكة فيما بينها، لتتعقد وتأخذ طابعاً دولياً. فهي مصطلح حديث بالنسبة لنا نتناوله في أدبياتنا للمقارنة بوضع مماثل للوضع الذي نقصده باستعمال هذه اللفظة.

وكلمة البلقنة: مأخوذة من بلقان: Balkan في التركية والسلافية وحتى في الفرنسية وتعني الجبل. وأصل التسمية هي من قبيل تسمية الشيء بإحدى خصائصه أو صفاته ــ الطبيعة الجبلية التي تمتاز بها شبه جزيرة البلقان.

أما حقيقة هذه اللفظة وجوهرها وما تؤدي إليه، فتعكس المسائل والمشاكل ذات الطابع المعقد والمتشابك. فتاريخ الشعوب البلقانية يؤكد بشكل لا يحمل الشك أنه في أساس جميع «الأزمات الشرقية»، والتناقضات والمعارك والصراعات التي شهدتها منطقة شبه جزيرة البلقان ــ منذ عصر النهضة فصاعداً ــ كانت تكمن المسألة القومية. هذه المسألة حركت العديد من نشاطات الأبطال والقادة الشعبيين، وعلى أساسها أعلنت الأحزاب السياسية وحركات التحرر الوطني برامجها وحددت الحكومات والدول سياستها، وكونت المحتوى الأساسي للعلاقات بين الدول البلقانية نفسها. إن هذا كله وجد له امتداداً عميقاً وجذوراً تاريخية قديمة(1).

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية.


فالنظام الاجتماعي ـــ الاقتصادي والسياسي ـــ الاقطاعي العثماني، الذي استمر قروناً عدة في منطقة شبه جزيرة البلقان، وجه ضربة قوية للتقاليد القومية لدى الشعوب البلقانية. فقد زالت من الوجود الدول البلقانية التي كانت معروفة في القرون الوسطى مثل بيزنطية، بلغاريا وصربيا. ودخلت أراضي هذه الدول في عداد الامبراطورية العثمانية. فبرزت هذه الامبراطورية كدولة مركزية إقطاعية عسكرية قوية ذات مساحات كبيرة تضم آسيا الصغرى الشرق العربي، أفريقيا الشمالية، الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، شبه جزيرة البلقان، وجزءاً كبيراً من وسط وشرقي أوروبا. وامتدت الممتلكات العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر غرباً حتى بولونيا، النمسا، البندقية وجنوى. واجتازت جيوش السلطنة الأراضي الهنغارية، السلوفاكية والخرفاتية بدون أية مصاعب تستحق الذكر[٢]، بالرغم من الانتصارات العظيمة التي حققتها الامبراطورية العثمانية، فإن الجيوش السلطانية لم تنجح في بسط سيطرتها على منطقة شبه جزيرة البلقان دفعة واحدة. فقد تمكنت من إزاحة الطبقة الاقطاعية المحلية الحاكمة، في الجزءين الشرقي والأوسط من شبه الجزيرة، كلياً وإقامة نظام دستوري يعتمد على الشريعة الإسلامية التي يعمل بها في كافة الأجهزة الحكومية، بحيث يخضع جميع أعضاء هذه الأجهزة لإرادة واحدة مطلقة ـــ هي السلطان ـــ وخير معبر عن ذلك هو ظهور السلطة المركزية القوية التي أمّنت سيادة الطبقة الاقطاعية العثمانية فوق أراضٍ واسعة من ممتلكات الامبراطورية.

فقد ضمت الامبراطورية العثمانية أراضي لم تكن تخضع مباشرة للإدارة الحكومية العثمانية. إذ عرفت بعض المقاطعات الحدودية أوضاعاً حكومية سياسية خاصة، تميزت بالاستقلال الداخلي (AUTONOMIE). ومن أجل تسهيل الصلات بين الإدارة العثمانية المحلية والسكان الخاضعين لها، اعترفت بالمؤسسات القائمة في الإمارتين: غربي بلغاريا


□ جمال الدين الأفغاني

وصربيا وعمدة أو باشوية (بالتركية KOCABACHI) شرقي بلغاريا واليونان. هذه المؤسسات لعبت دور الوسيط، إذ انها كانت مسؤولة أمام السلطات عن تأمين جمع الضرائب وحفظ الأمن والنظام في القرى التي تدخل في نطاق هذه الإمارات.

إضافة إلى ذلك فإن بعض المقاطعات الحدودية في الامبراطورية العثمانية تمتعت بالاستقلال الداخلي، وكانت بحكم الإمارات التابعة للباب العالي. من هذه المقاطعات الأوروبية بعضها تميز بالحكم الذاتي الداخلي الكامل، وبحرية انتخاب أمرائه من قبل الاقطاعيين المحليين، وإطلاق حريةِ الأديان والمعتقدات وغير ذلك. ومقابل ذلك تعترف هذه الإمارات، من ناحيتها، بسيادة السلطان العليا وتكون ملزمة بتأدية الضرائب السنوية المحددة للخزنة السلطانية وتأخذ على عاتقها وعداً بعدم عقد اتفاقات مع دولة أخرى[٣].

وقد تميزت بوضع خاص في إطار الامبراطورية العثمانية منطقة الجبل الأسود (MONTÉNÉGRO) المؤلفة من عدة نواحٍ بزعامة أمراء محليين وتعتبر الجمعية العمومية

ــ المنعقدة بحضور كل مواطن بلغ السن القانونية ــ أعلى سلطة في البلاد. هذه الجمعية لها صلاحية التقرير في جميع القضايا المتعلقة بالمنطقة وتلعب دور الوسيط بين الشعب والسلطات العثمانية. ولكن على صعيد الواقع يمكن القول إن السيادة العثمانية في الجبل الأسود كانت شبه معدومة، إذ كان الأهالي هناك يعيشون ويحكمون بحسب عاداتهم وقوانينهم وليس بموجب القوانين العثمانية(٤).

إن الاستقلال الداخلي (AUTONOMIE) والحكم الذاتي (SELF-GOUVERNEMENT) للشعوب البلقانية الخاضعة للامبراطورية العثمانية لم يكونا إطلاقاً هبة بدون حساب. إن الشرط الأول والأساسي لذلك وفي كل مكان يحدده دفع مبالغ كبيرة كضرائب سنوية (ضنك) وتنفيذ بعض أعمال السخرة والواجبات التي تحددها السلطات الغثمانية. من هنا نرى أن الحقوق التي يمنحها الاستقلال الذاتي للشعوب الخاضعة كان يسمح بها فقط إلى الحد الذي تمنحه الإدارة العثمانية.

إذا كان مصير شعوب الجزئين: الشرقي والأوسط من شبه جزيرة البلقان يرتبط بالامبراطورية العثمانية، فإن الوضع الإقليمي السياسي للشعوب البلقانية الواقعة في أقصى الجزء الغربي من شبه الجزيرة بقي قروناً متعددة رهناً بامبراطورية النمسا. وبالرغم من أن صفة الامبراطورية ــ تحكمها علاقات طبقية ــ تتشكل من أراضٍ وشعوب يربطها فيما بينها بشكل رئيسي رباط السلالة أو الأسرة الحاكمة فيها، حيث أصبحت أسرة آل هابسبورغ حاكمة فيها، فقد أصبحت الامبراطورية النمساوية عاملاً مهماً في معركة إيقاف الزحف العثماني نحو الغرب. أما العلاقة السائدة بين الامبراطورية والشعوب الخاضعة لها فقد كانت تعرف نوعاً من الاستقلال الذاتي الداخلي.

وهذا ينطبق على خرفاتيا (CROATIE)، دولة ذات أراضٍ محددة وإدارة محلية ذات جمعية عمومية برئاسة حاكم خاص بها. عرفت الأراضي السلوفانية (SLOVENIE)، كذلك، الواقعة تحت السيطرة النمساوية استقلالاً داخلياً مماثلاً(٥). إضافة إلى هذا فقد أقيمت منطقة عسكرية



□ السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩)

خاصة سميت بالحدود العسكرية ذات تنظيم ووضع خاص، حيث يحتل امراء الحدود المحليين مكانة مرموقة(٦).

وهكذا نرى أن الدول البلقانية المعروفة ــ في القرون الوسطى ــ اختفت من الوجود ولكن التقاليد الحكومية والشعور القومي لدى الشعوب البلقانية حافظا على بقائهما. لا بل عرفا النمو والتطور في ظل الظروف الجديدة التي طرأت على الامبراطوريتين: العثمانية والنمساوية. واتخذت شكلاً أساسياً من الحكم الذاتي والاستقلال الداخلي. وبالرغم من أن الحكم الذاتي يعتبر مؤقتاً ومنقوصاً وغير مستمر، فإنه بالنهاية أدى إلى قيام ما يسمى بالإدارة المحلية، التي أصبحت في ما بعد عقبة مهمة في وجه بقاء السيطرة الأجنبية، إذ استطاعت أن تحمي التقاليد الوطنية وتحافظ على الشعور القومي لدى الشعوب البلقانية، إضافة إلى مساهمة المؤسسات الدينية والكنيسة الموجودة في هذا الاتجاه(٧).

بالرغم من أن السلطة الحكومية لم تُزَلْ كلياً، لكن التقاليد الحكومية والشعور القومي لدى الشعوب البلقانية عرفا الضعف بشكل نسبي في ظل السيطرة الأجنبية.

فنظام الحكم الذي عرفته الدول البلقانية خلال القرون الوسطى، تغيرت قاعدته الاجتماعية. فبدلاً من أن تلعب طبقة الاقطاعيين المحليين دورها كمنظم لهذه الدول، فإنها زالت، أو تكيفت مع الوضع السياسي الداخلي للمحتل. ونتيجة لذلك فإنها أزيحت عن المسرح



□ اسطمبول، بجامعها (آيا ــ صوفيا) وبوسفورها.

السياسي في هذه البلدان باستثناء فلاخيا (VLACIE) ومولدافيا (MOLDAVIE) (أو كما وردتا في التسمية العربية الأفلاق والبغدان). ولكن المجتمع البلقاني عرف نضوجاً قوياً، تكونت بذوره من جراء الأوضاع العبودية السائدة في القرون الوسطى، وأصبحت وريثة السلطة الحكومية والتقاليد الحكومية لدى الشعوب البلقانية.

إن الأساس المادي لهذا التغير ــ بدون جدال ــ يتحدد في انحلال العلاقات الاقطاعية وولادة وتطور العلاقات الرأسمالية الجديدة التي تحققت في عصر النهضة(٨). أما قاعدته الإيديولوجية فقد تطلبت القضاء على إيديولوجية القرون الوسطى الاقطاعية الدينية وتكوين الإيديولوجية البرجوازية التي تعتمد على العلم والفكر. فالمحتوى الأساسي لمرحلة عصر النهضة يمكن تحديده في المعركة القائمة بين البرجوازية الصاعدة والقوميات الناشئة من جهة والقوى الاقطاعية للنظام الاجتماعي الحكومي القديم من جهة أخرى. فالهدف النهائي لهذه المعركة يمكن تحديده بإنجاز التحرر الوطني وإقامة دول قومية خاصة لكل من الشعوب البلقانية(٦).

إن تفسخ الاقطاع العثماني من ناحية، ونهضة الشعوب البلقانية وانتشار حركتها الوطنية والتحررية من ناحية أخرى يعتبران اتجاهين مترابطين في ما بينهما، حيث وجدا الظروف المناسبة لتطورهما في تأزم ما سمي «بالمشكلة الشرقية(١٠)»، والذي أدى في ما بعد إلى ظهور دول قومية برجوازية خاصة أقيمت على أنقاض الامبراطورية العثمانية المتداعية.

وهكذا تشكلت خلال النصف الأول وأواسط القرن التاسع عشر على أنقاض الامبراطورية العثمانية دول مميزة للشعوب البلقانية مثل: اليونان، صربيا، الجبل الأسود ورومانيا. حيث قامت على أساس الشعوب التي تتألف منها وحسب المبدأ القومي القائل: «بحق كل شعب في تأسيس دولته المستقلة به».

إن تطبيق هذا المبدأ يؤدي إلى قيام دول قومية متعددة، لكنه لا يؤمِّن وحدة جميع الشعوب في هذه الدول. إذ ان الامبراطورية العثمانية قد انهارت وتراجعت ببطء، محافظة على جزء مهم من مقاطعاتها البلقانية، فاسحة المجال

أمام توسع امبراطورية آل هابسبورغ في الجزء الشمالي الغربي من منطقة البلقان[١١].

إذا كان النضال من أجل التحرر الوطني استمر عشرات القرون وأثمر عن ظهور الدول القومية المعروفة في منطقة شبه جزيرة البلقان، فإن الوصول إلى الحل الأمثل في المطابقة (COINCIDENCE) بين مفهوم كل من الأمة، الأرض، والدولة لم يتحقق. حيث دخلت فقط في حدود الدولة اليونانية التي أقيمت في الثلاثينات من القرن التاسع عشر منطقة البولوبونيز PÉLOPONNÈSE ومنطقة أثينا الأخرى مثل إيبير (EPIRE)، تساليا (THESSALIE)، سولون (SALONIQUE)، منطقة الجزر الواقعة على الشاطىء الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى والآستانة (CONSTANTINOPLE)، خارج نطاق هذه الدولة مع العلم بأنهم يفوقون عدد السكان الذين دخلوا في المناطق اليونانية المحررة[١٢].

وإمارة صربيا (SERBIE) قامت فوق أراضي باشوية بلغراد القديمة (BEOGRAD)، أما الصربيون في البوسنة (BOSNIE) والهرسك (HERZEGOVINE) وسنجق نوفي بازار (NOVI PAZAR) وفويفودينا (VOIVODINE) وغيرها، فقد بقوا تحت السلطة الأجنبية[١٣].

هكذا كانت الحال على وجه التقريب، أما في ما يتعلق برومانيا (ROUMANIE) والجبل الأسود (MONTÉNEGRO)، فالأولى كان لديهامواطنون تحت السلطة النمساوية، أما مواطنو الثانية فكانوا تحت السيطرة التركية. فقط اليونان كانت دولة مستقلة. أما الأقطار الأخرى فقد كانت تشكل إمارات تابعة (VASSALES) للامبراطورية العثمانية.

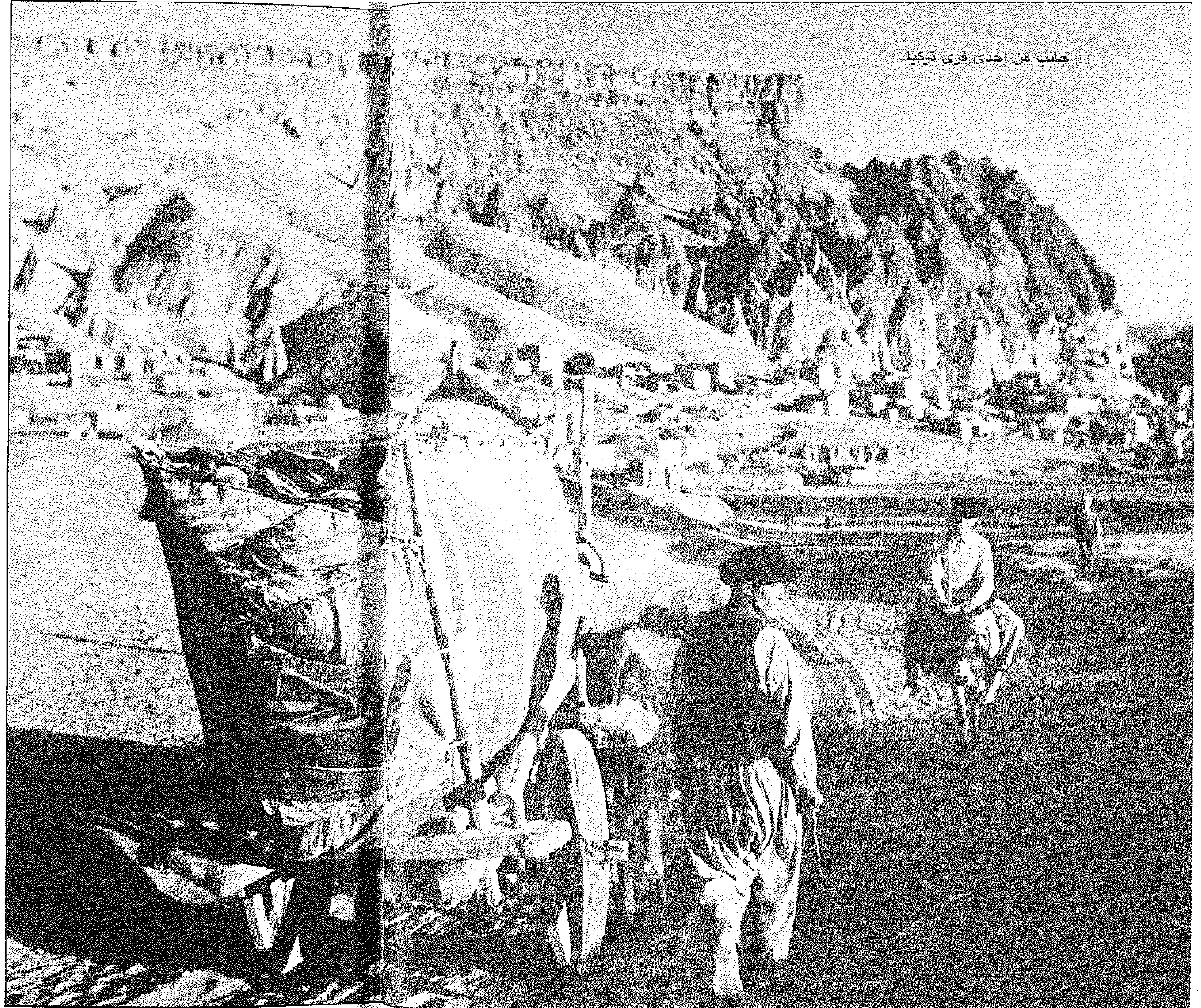
لهذا نرى أن قضية إنجاز التحرر الوطني الكامل للشعوب البلقانية وتوحيدها في دول قومية مميزة كان له مغزى كبير. حيث دخلت في حل هذه القضية عوامل متعددة وفاعلة. فالمستفيد الأول والمتأثر من قضية التحرر الوطني ــ بدون جدال ــ كانت الشعوب المسحوقة قومياً وبالتالي الشعوب البلقانية التي بقيت ضمن حدود السلطة الأجنبية عنها: تركية كانت أم نمساوية. وقد لعبت حركة التحرر الوطني لدى هذه الشعوب دورا مهما في تاريخ منطقة البلقان[١٤]. لكن هذه الفاعلية تبين في ما بعد أنها ضعيفة إذ انها منفردة كانت عاجزة عن القضاء على السيطرة العثمانية أو النمساوية وبالتالي لا تستطيع الوصول إلى حل القضايا والمسائل البلقانية حسب المبدأ القومي وعلى أساس ديمقراطي.

إن حركة التحرر الوطني، كما هو معلوم، لم تكن العامل الوحيد في سبيل النضال من أجل التحرر الوطني والوحدة القومية. بل إن الدول القومية البلقانية الناشئة أصبحت عاملاً مهماً أيضاً في هذه المعركة، حيث تدخلت في قضية تقرير مصير مواطنيها المتواجدين تحت سلطة أخرى، والعمل على تحررهم وتوحيدهم والحفاظ على حقوقهم القومية والتاريخية، وبالتالي كان لها دور مهم وتأثير كبير على حركة التحرر الوطني من أجل التحضير كي تلعب هذه الدول دور المحرِّر والمخلِّص. إذ ان كل دولة بلقانية كانت تتدخل وتقوم بدور الحامي والوصي، حيثما كان وحسب الإمكانيات وبشكل خاص على الأمة المعنية التي تخصها والمتواجدة خارج أراضيها.

لكن دور البرجوازية، والسلطات الحاكمة كعامل مقرر ورائد في سياسة الدول البلقانية لم يتوقف عند هذا الحد. إذ ان طموحاتها لم تنحصر فقط في تحرير المواطنين المتواجدين تحت السيطرة الأجنبية وإنما تعدتها إلى محاولات الإخضاع والهضم (ASSIMILATION) لشعوب من قوميات أخرى.

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، برزت إلى جانب الدوافع الوطنية التحررية في سياسة الدول البلقانية، اتجاهات ومطامع غرست جذورها بعمق في التيارات الفكرية والسياسية لحركة التحرر الوطني والقومي البلقانية تمثلت بالرغبة في إقامة «دول كبرى» وأحلام الهيمنة[١٥]، منها (MÉGALI E IDEE) في اليونان.

والواقع أنه في الثلاثينات من القرن التاسع عشر طرحت المعارضة البرجوازية اليونانية فكرة إعلان «الدستور» كمطلب رئيسي. وبالفعل بدأت بإصدار الصحف التي تبرز على صفحاتها النقد



□ جانب من إحدى قرى تركيا.

اللاذع لسياسة وممارسة الأوساط الحاكمة مطالبة بإفساح المجال أمام الحريات السياسية والحياة الاجتماعية العادية.

وبعد إعلان الدستور قامت حكومة يوحنا كوليتيوس (١٧٧٤ ــ ١٨٤٧) ــ وهو سياسي بارع كان سفيراً لبلاده في فرنسا ــ وكانت تطمع بمساعدة فرنسا وروسيا من أجل تحرير اليونانيين وتوحيدهم في دولة واحدة. وقد بدأت حكومة كوليتيوس بنشر دعاية كبيرة تدعو إلى الهلينية (PANHELLÉNISME) وترتكز سياساتها الخارجية على ما سمي بـ «الأفكار الكبرى» أو «المشاريع الكبيرة» التي ترنو إلى إقامة «اليونان الكبرى» وريثة الامبراطورية البيزنطية. وعلى هذا الأساس بدأت الجمعية التشريعية اليونانية باختيار نواب من إيبير، تساليا، مكدونيا، كريت وباقي المناطق الواقعة تحت السلطة العثمانية، وبدأ تشكيل الجمعيات والتنظيمات التي تدعو اليونانيين إلى الانتفاضة. بدأت الحملات الدعائية المعادية للعثمانية واعتمدت استانبول مركزاً للثقافة اليونانية، وهذا ما جعل العلاقات اليونانية ــ التركية في حالة توتر دائم.

وهكذا نرى أن الـ (MEGALIE IDÉE) تدعو إلى التحرر الوطني ولكنها في نفس الوقت تحمل طابع الأحلام القومية للبرجوازية اليونانية التي ترمي إلى قيام «اليونان الكبرى»، المكونة عبر ضم أراضٍ يشك بأنها يونانية أو تسكنها أقلية يونانية.

وفي صربيا برز ما يسمى بـ «مخطط غراشانن» «GARACHANEN» في الأربعينات من القرن التاسع عشر، حيث اتبعت صربيا برنامجاً لسياستها الخارجية يعتمد على «توحيد شعوب سلاف الجنوب في منطقة البلقان في إطار صربيا». هذه الخطة تعمل على تصفية السيطرة التركية في منطقة البلقان وإقامة دولة سلافية جنوبية على هذه الممتلكات بزعامة الأسرة الحاكمة والبرجوازية الصربية. وبمقتضى ذلك فإن على هذه الشعوب المتحررة من السيطرة التركية، أن تنضم إلى صربيا التي ستلعب دور الموحِّد لكونها مركزاً قيادياً قوياً.

إن «مخطط غراشانن» يأخذ بعين الاعتبار أهداف سلاف الجنوب في التحرر من الاقطاع التركي والسير في طريق الوحدة القومية. وهذا يمكن أن يخلّف أثراً في الشعوب السلافية الخاضعة لسيطرة النمسا ـــ المجر والتي تناضل ـــ هي الأخرى ـــ للتخلص من الاحتلال النمساوي وتحقيق الوحدة مع باقي الشعوب السلافية. لكن هذه الخطة «لا تولي اهتماماً لنمو الشعور الوطني لدى الشعوب الأخرى لأنها تطمح لقيام «صربيا الكبرى». هذا البرنامج تبنى مصالح البرجوازية التجارية وأصحاب الأموال، لأنه ينظر إلى عملية الانضمام إليها عبر التوسع التدريجي لأراضي الإمارة الصربية وليس عن طريق توحيد الشعوب السلافية. بهذه الطريقة فإن هذا البرنامج يتجاهل نضال البلغار والخرفاتيين والسلوفانيين في سبيل الاستقلال الوطني والتحرر القومي، ويحاول أن يخضع نضالاتهم ومعاركهم لمصلحة البرجوازية الصربية. يبدو هذا كنتيجة واضحة لقيام وتطور الإيديولوجية القومية الصربية بعد إقامة إمارة صربيا وتوطيد سلطاتها.

وفي نفس الامبراطورية العثمانية، برزت فكرة الجامعة الإسلامية (PANISLAMISME) المعتمدة من قبل الأوساط الحاكمة بزعامة السلطان عبد الحميد الثاني. مؤسس هذه الفكرة هو جمال الدين الأفغاني، إذ كان يرمي إلى توحيد الشعوب الإسلامية في معركتها ضد الخطر الأوروبي. ولكن السلطان عبد الحميد استخدمها من أجل تحقيق أهدافه، بعد أن عجز عن كسب رضى الغرب (ساوى بين العناصر والأقوام في السلطنة بإعلانه الدستور)، ورأى أن القوى الكبرى الأوروبية لا يهمها المساواة بقدر ما يهمها القضاء على السلطنة لاقتسام تركتها، خاصة بعد أن كثرت ديونها وأشرفت خزينتها على الإفلاس. من هنا فإن السلطان استعاض عن هذه القوى الأجنبية بتأمين دعم الأوساط الإسلامية له في معركته ضد حركات التحرر والانفصال التي تواجهها الامبراطورية. وفي هذا المجال قويت الدعوة إلى إقامة امبراطورية إسلامية جديدة تجمع بين المسلمين في شمالي أفريقيا ـــ الهند، وآسيا الوسطى بزعامة الخليفة ـــ السلطان.

إلى جانب الجامعة الإسلامية برزت دعوات وأفكار أخرى منها: الجامعة التركية والجامعة العثمانية وكانتا معاً تدعوان إلى الحفاظ على وحدة الامبراطورية وتشجبان التدخلات الخارجية في سياسة تركيا، وتعملان على مواجهة الحركات القومية للشعوب الخاضعة لها، تطورتا في ما بعد واتخذتا شكل «تركيا الفتاة»، الذي يدعو إلى توحيد جميع الشعوب الخاضعة للامبراطورية في أمة واحدة هي التركية[١٦].

هذه المشاريع أصبحت عقبة مهمة في توحيد جهود حركة التحرر الوطني إلى جانب جهود الدول البلقانية / أو أكثرها / من أجل تأسيس اتحاد وطني تحرري في وجه السيطرة الأجنبية على منطقة البلقان.

بخلاف الامبراطورية العثمانية التي دخلت منطقة البلقان وتصرفت مع سكانها تصرف القوة المحتلة، فإن امبراطورية النمسا ـــ المجر اعتمدت سياسة بلقانية من غير إشعال حروب مباشرة مع الشعوب والدول البلقانية وإنما نحت منحى الاتفاقات المعقودة أو عن طريق ضم أراض بلقانية كانت من قبل تخضع لسيطرة السلطنة العثمانية أو الإيطالية. هذا وقد شهدت امبراطورية آل هابسبورغ صراعاً دائماً بين اتجاهين رئيسيين هما: الحكم المطلق والمركزية من ناحية، والاستقلال الذاتي والفدرالية (الاتحادية) من ناحية أخرى. فالاتجاه الأول يمثل الطبقات المسيطرة والأوساط الحاكمة في النمسا والمجر، بينما الثاني يعكس التقاليد القومية والعادات التاريخية لمختلف الشعوب التي تدخل في إطار مملكة الدانوب. هذا لاتجاه اعتمدته حركات التحرر الوطنية لدى هذه الشعوب وأصبح مسبباً في زوال امبراطورية النمسا ـــ المجر.

من هنا يمكن القول أن امبراطورية النمسا ـــ المجر لم تستطع أن «تمتلك» المقاطعات البلقانية وتحتويها تماماً لتتمكن من القضاء على ظاهرة الاستقلال الداخلي والحكم الذاتي لدى الشعوب البلقانية الخاضعة لها. ولكن على العكس فإن التطور الاجتماعي التاريخي أدى إلى قيام حركات التحرر القومي التي وضعت مسألة

التحرر الوطني في المرتبة الأولى على طريق تصفية هذه الامبراطورية إن لم يكن إعادة تنظيمها.

إن أحلام «الهيمنة» وفكرة إقامة «دولة كبرى» والظاهرة القومية لم يكونا فقط لدى الطبقات الحاكمة في النمسا ــ والمجر، وإنما برزت مفاهيم مماثلة لدى الشعوب البلقانية المحكومة، ففي نهاية القرن التاسع عشر تبلور الوعي القومي لدى الصربيين والخرفاتيين الخاضعين لآل هابسبورغ. وهذا لا يمنع قيام معارك منافسة قوية فيما بينها. وعلى هذا الأساس يكون الحديث عن مشروعين مهمين: أولهما لقيام خرفاتيا الكبرى وثانيهما لتحقيق صربيا الكبرى. أول من سعى لتحقيق المشروع الأول، حامل الإيديولوجية الخرفاتية، البرجوازية المتوسطة والصغرى الخرفاتية التي تمثلت بقيام حزب سياسي هو حزب العدالة. أما أهم الشعارات التي طرحها: «أنه لا يوجد في خرفاتيا صربيون وإنما هناك خرفاتيون كاثوليك وأرثوذكس وعلى هذا فإن البوسنة والهرسك تعتبران جزءاً متمماً لخرفاتيا وان السكان المسلمين فيهما هم خرفاتيون أيضاً، وأن السلوفانيين هم خرفاتيون ريفيون، وجميع السكان من نهر الدانوب إلى بحر الأدرياتيك ومن مكدونيا إلى ألمانيا شعب واحد فقط، وطن واحد، حياة واحدة خرفاتية».

من هنا نرى أن الصراع بين دعاة «صربيا الكبرى» ودعاة «خرفاتيا الكبرى» استمر في النمو والازدياد وانعكس في المعارك الدائمة فيما بينهما. كذلك فإن حركة التحرر الوطني في الجزء الغربي من شبه جزيرة البلقان، تأثرت كثيراً بفكرة «اليوغسلافية» القائلة بوحدة وتعاون شعوب سلاف الجنوب، وأن سلاف الجنوب يكونون شعباً واحداً بأسماء مختلفة(١٧).

أما الحركة الوطنية الرومانية التي ظهرت في ترانسلفانيا (TRANSILVANIE) فهي الأخرى لم تعرف الوحدة إذ ان الحزب الوطني الروماني بقي صامتاً تجاه المطالب القائلة بضم ترانسلفانيا إلى رومانيا(١٨).

إن المعارك الداخلية التي أوجدتها هذه المشاريع والمخططات أضعفت حركات التحرر الوطنية واستنزفت قواها فوضعت فكرة التعاون والوحدة بين سلاف الجنوب في الواجهه.

من ناحية أخرى، فإن القضية القومية في منطقة البلقان وكذلك المسألة الاقليمية / في ما يتعلق بأراضي وحدود مختلف الدول البلقانية/ قد تبين أنهما لم يكونا قضية بلقانية صرفة فشبه جزيرة البلقان ومنطقة الشرق الأوسط اتخذتا مكاناً خاصاً في دائرة النشاط الأوروبي والاستعماري للسياسة الدولية، حيث أظهرت جميع الدول العظمى اهتماماً مميزاً نحو هذا الجزء من العالم لأنها بدورها كانت تطمع في وراثة ممتلكات السلطنة العثمانية(١٩). وإذا كانت الدولة العثمانية قد تراجعت ببطء وانهارت على امتداد قرون، فإنه يمكن تفسير ذلك، ليس فقط، في «قوتها التي لا تقهر» وإنما في انقسام أوروبا بسبب التناقضات الموجودة بين القوى العظمى الأوروبية حول شبه جزيرة البلقان ومنطقة الشرق الأوسط(٢٠).

من هنا يمكن القول أن قضية قيام دول بلقانية، ذات مساحات محددة وأراضٍ معروفة لم تكن فقط قضية شعوب هذه الدول ومن اهتماماتها، وإنما كانت ترتبط بمخططات ومصالح وأهداف هذه الدولة الكبرى أو تلك، وتتناسب مع الوفاق الدولي المتعارف عليه، وتتبع السياسة الدولية، لتصبح جزءاً لا يتجزأ من العلاقات الدولية، فالقضايا البلقانية على الأرجح لم تكن تجد الحل إلا عن طريق الحروب.

إن مفاهيم حل المسائل البلقانية بشكل إجمالي يمكن تصنيفها بأنها وضعت جميع الدول البلقانية ضد جميعها، وبذرت الشقاق والانقسام فيما بينها، وإن كانت بعض هذه المفاهيم تدعو إلى الوحدة والتضامن. فالفئة الأولى من هذه المشاريع يمكن وصفها بأنها تحررية، ولكنها تحوي في داخلها أفكار التسلط والهيمنة والسيطرة، أما الثانية، فكانت ترى حل القضايا البلقانية عبر قيام دول موحدة مشتركة ولكن مصيبتها أنها لم تكن ترى كيفية قيام هذه الوحدة وعلى أي أساس. إن قضية البلقنة أخذت أشكالاً ومفاهيم أخرى ولكنها لا تزال تستمر حتى أيامنا هذه، أغنية قديمة ولكن بصوت جديد.

الهوامش

(١) **ل. بنياتوف**: المسألة القومية في شبه جزيرة البلقان والحروب البلقانية. عن المؤتمر الأول للجمعية التاريخية البلغارية. صوفيا ١٩٧٢، (ص ٥٧٣ ــ ٥٨٣): **ك. مانتشيف**: تاريخ الشعوب البلقانية من الاحتلال العثماني لمنطقة البلقان وحتى الحرب العالمية الثانية. فليكو تورنوفو ١٩٧٩ ــ باللغة البلغارية .

(٢) **J. LAMOUCHE,** HISTOIRE DE LA TURQUIE Dépuis L'origine jusqu'à nos jours. PARIS 1934; **H. INALGIK,** THE OTTUMAN EMPIRE. LONDON. VRIORUM. 1978; **A.D. NOVITGHEV:**

تاريخ تركيا

الأجزاء من ١ ــ ٤، العصر الحديث ــ القسم الثالث ١٨٥٣ ــ ١٨٧٥، لينينغراد ١٩٧٨ ــ باللغة الروسية

(٣) **ION MATET,** L. AUTONOMIE DE PAYS ROUMAINS. B: RES. DES COMMUNICATIONS. T. 1. BUCAREST. 1974. P. 388-389;

نفس المؤلف:

QUELQUES PROBLÈMES CONCERNANT LE RÉGIME DE LA DOMINATION OTTOMANE DANS LES PAYS ROUMAINS. REV. ET. SUD-EST EUROP. 1972. N. 1. P. 65-82; 1973. N. 1. P. 81-96;

(٤) **س. ديمتروف، ك. مانتشيف**: تاريخ الشعوب البلقانية من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر. صوفيا ١٩٧١، ص ٣٤٥ ــ ٣٤٧ (باللغة البلغارية):

F.S. STEVENSON, A HISTORY OF MONTENEGRO. NEW YORK. ARNO PRESS. 1971.

(٥) **أ. ماتياش، أ. سوبولتش**: تاريخ هنغاريا، صوفيا ١٩٦٨، (باللغة البلغارية)؛ **ب. بوتشار**، تاريخ سلوفانيا السياسي. بلغراد ١٩٣٩، (باللغة الصربية):

F. SISIC, PREGLED POVIGESTI HRVATSKOGA NARODA. ZAGREB. 1962.

(٦) **J. AMSTADT,** DIE KONIGLICHE UND KAISERLICHE MILITARGRENZE 1522-1881. WURZBURG. 1969

(٧) **ت. سيبيق**: الكنيسة البلغارية ــ الأرثوذكسية ــ وحركة التحرر الوطني. صوفيا ١٩٧٧، ص ٧ ــ ٧٣ (باللغة البلغارية)؛

CHARALAMBUS PAPASTATHIS, L'EGLISE ET LE DROIT COUTUMIER AUX BALKANS Pendant la domination OTTOMANE. BEUGRAD 1874. P. 187-196; **WILLIBALD M. PLÜCHI,** DIE ORTHODUXE KIRCHE IN DER HABSBURGISCHEN RONRUMONARCHIE 1526«1918. STUDIA BALCANICA. 1972. No. 1. P. 17-39.

(٨) **س. ديمتروف**: من تاريخ النهضة البلقانية، دراسات بلقانية، عدد ١٣، صوفيا ١٩٧٧ (باللغة البغارية).

(٩) مصدر سابق، ص ٢٣٠.

(١٠) **ج. ب. غانيف**: المسألة الشرقية، التاريخ الدبلوماسي والسياسي، الجزءان ١ ــ ٢، صوفيا ١٩٢٥ ــ ١٩٢٦؛ **ف. بوبوفيتش**: المسألة الشرقية، بيوغراد ١٩٢٨؛

M.S.ANDERSON, THE EASTERN QUESTION. 1774-1923. A STUDY IN INTERNATIONALS RELATIONS. LONDON. MELBOURN. MACMILLAN. NEW YORK 1966; **E.DRIAULT,** LA QUESTION D'ORIENT depuis SES ORIGINES jusqu'à NOS JOURS. 4éd. PARIS. 1909.

(١١) **T.C.DJUVAPA,** CENT PROJETS DE PARTAGE DE LA TURQUIE 1281-1919. PARIS; **R.PINON,** L'EUROPE ET L'EMPIRE OTTOMAN. PERRIN. 1909.

(١٢) **N.TUDOROV,** LA PHILIDI HETAIRIA ET LES BULGARE. SOFIA 1965; **APOSOLOS VACALOPOULOS,** HIS TOIRE DE LA GRECE des origines à Nos jours. PARIS. HORVATH. 1974:

ن. ل. **حاجينوس**: نظرية تكوين الدولة وأشكال الدولة اليونانية الجديدة. صوفيا ١٩٦٩، (باللغة البلغارية).

(١٣) **غ. ياكشيتش، د. سترانوفيتش**، صربيا من ١٨١٣ ــ ١٨٥٨، بيوغراد. د.ت. ؛ **ف. بوروفيتش**، صربيا من ١٨٥٨ ــ ١٩٠٣، بيوغراد. د.ت.

(١٤) **ن. تودوروف**: دور البلغار في حركات التحرر الوطني، صوفيا ١٩٧٤، ص ١١٧ ــ ١٨٩؛ علاقة حركة التحرر الوطني البلغارية بحركات التحرر البلقانية، صوفيا ١٩٧٢، ص ٤٧٧ ــ ٤٧٩ (باللغة البلغارية).

(١٥) راجع: **د. لطفي المعوش**، القضايا القومية والإقليمية لشعوب شرقي أوروبا من مؤتمر برلين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، صوفيا ١٩٨٣، ص ٣٤ ــ ٥٨ (باللغة البلغارية).

(١٦) **أ. د. نوفيتشيف**، مختصر تاريخ تركيا، موسكو ١٩٦٥، ص ١١٢؛ **إميل توما**، تاريخ مسيرة الشعوب العربية، موسكو ١٩٧٧، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤.

(١٧) **D. Biber,** Jugosloveuska Ideja in Sloveusko Naroduc Vprasauje 1912-1913. Beogrod 1959. G. 291-299.

(١٨) **ج. بربالوف**، رومانيا وحركة التحرر الوطني في ترانسلفانيا في نهاية القرن التاسع عشر، صوفيا ١٩٧٦، ص ١٣٩.

(١٩) تاريخ الدبلوماسية، الجزء الثاني، صوفيا ١٩٦٥، ص (٨٧ ــ ٨٩٤)؛ **س. دميانوف**، بلغاريا في سياسة الدول الكبرى (١٨٧٨ ــ ١٩١٨)، صوفيا ١٩٨١، ص ٣٠٦.

(٢٠) راجع هامش رقم ١٨.

وليم شكسبير
(١٥٦٤ - ١٦١٦)

لا نعرف الكثير عن حياة شكسبير ولا عن عبقريته الفذّة. لم يصل إلينا من كتابة يده لا صفحة ولا رسالة رغم أن جحافل وقوافل من كبار الاختصاصيين كرّسوا معظم أوقاتهم لنقد مسرحياته وأشعاره لكنهم لم ينجحوا في اكتشاف ذيول الخيوط المؤدية إلى الاهتداء إلى أسرار حياته التي عاشها في «ستراتفورد — أون — آفون». لقد تفرّد شكسبير في عمق تأثيره في قلوب قرائه وقدرته على التأثير فيهم. قبل مجيئه بآلاف السنين وبعده بأربعماية منها لم يتوصل كاتب إلى مستوى يوازي شكسبير في قدرته على سبر أغوار النفس البشرية والوقوف على كل مفترق من مفارق تلك النفس وما يحمله من أسرار مكنونة بحاجة لتفسير وترجمة حقيقية.

عَرَفَتْ قرية «ستراتفورد — أون — آفون» عام ١٥٦٤ ولادة عبقري، ابن صانع قفازات ومن بعدها مختاراً لبلدته. أما أمه، «ماري آردن»، فقد تجذرت من أسرة كريمة وورثت أرضاً قيمة جداً. تثقف وليم في مدرسة القرية فدرس الإنكليزية واللاتينية والتاريخ. بعد ذلك، غادر القرية إلى مكان لا نعرف الكثير عنه ويقال أنه درّس وعمل كاتباً قانونياً واستخدم في أحد القصور إلى أن تزوج، في الثامنة عشرة من عمره، من «آن هاثاوي» التي كبرته بعشر سنوات والتي أنجبت له ثلاث بنات، سوزانا وهامنت وجوديت. ترك العائلة في القرية واتجه ناحية لندن حيث مارس مهنة التمثيل وأنشأ فرقة مسرحية درَّت عليه الكثير. يقال بأن شكسبير لم يكن على صلة جيدة مع زوجته التي اشتهرت في القرية بأنها جذبت شكسبير لكثرة مالها فقط. لكن شكسبير كان مخلصاً لها لأنه أوصى بها خيراً بعد مغادرته القرية.

في لندن أصبح شكسبير شاعراً وممثلاً معروفاً وشهيراً فكتب قصيدته المعروفة «فينوس وأدونيس» التي قدَّمها إلى «إرل سوذمبتن الثالث» مع قصيدة «الاعتداء على لوكريس». كتب في المقدمة:

«إن الحب الذي أخصّ به حضرتكم لا حد له ولا حدود».

كان بعد ذلك، عضواً بارزاً في «فرقة الملك» التمثيلية وكان محبوباً مستعداً لأخذ أي دور في التمثيل. هذه القدرة برزت في مواقفه التحليلية وتألّقه الشعري. عرض على المسرح الإنكليزي أبطالاً مليئة بالضعف والشكوك والميول غير البطولية وهو الذي عرض بطلات تتصارع فيهن العفة والشهوة وعرض ملوكاً جبناء ضعفاء وملكات شريرات خبيثات وأمراء مجرمين يعذبهم ضميرهم وقواداً للجيش غير وطنيين وعرض مهرّجين يصنعون العظائم والمعجزات.

كتب ١٥٤ أغنية «SONNET» كاشفاً نفسه على حقيقتها كإنسان فخور بنفسه وشعره متحدياً الحرب والنار والدمار والوقت وحتى الموت — أقوى وسائل التدمير. في هذه القصائد يعطينا شكسبير مفتاح السر إلى باب القلب. تتألف «السونيت» من ١٤ سطراً يعرض فيها الفكرة ويعالجها ويستنتج الخلاصة ويلقّن الدرس — درس الحياة أن الموت محتم وهو القوي وهو المنتصر على الحب والجمال. يفتخر شكسبير بأن الأجيال القادمة سوف تردد قصائده وستكون



□ وليم شكسبير.

عامل خلود لتراثه وكتاباته القيمة.

أما مسرحياته المأساوية كـ «هاملت» Hamlet فإنها ترتكز على ميلودراما أعطاها حياة وبعداً جديدين — تمثل السخرية من التقاليد واحتقار الجنس والإسراف في التردد والحيرة والترحم على عبثية الحب. في هذه المأساة تظهر عبقرية شكسبير حين يستخرج مأساة خالدة من قصة — تمثيلية جوفاء متصنعة الظواهر.

في «روميو وجوليت» Romeo & Juliet رفع شكسبير الحب الشاب إلى درجة عالية مستنكراً الحقد والضغينة. جوليت، الفتاة الحلوة البريئة يقابلها «مركوشيو» Mercutio السفيه البذيء والمربية الحسودة الحالمة حيث تشاهد جمال المقارنة بأسلوب مسلي رغم خشونته.

كتب «مارك توابن» Mark Twain تحت عنوان «هل كان شكسبير عظيماً؟» Was Shakespeare famous ما معناه حول عظمة وشهرة وعبقرية وسمعة شكسبير بأن هذا الأخير لم يكن معروفاً البتة حتى في قريته الصغيرة نفسها؛ وأهل القرية لا يذكرون أن قريتهم عرفت في سجلاتها شخصاً يدعى وليم شكسبير. كذلك لا يذكرون أن بلدتهم ودعت، في مأتم شعبي، إلى الدار الآخرة، عبقرياً كشكسبير دون أن يدري أحد بذلك. أما «مارك توابن» فيعرف كل سنتم واحد على طول نهر «المسيسيبي» Mississippi حيث تقع بلدته «هانيبل» Hannibal وكل أهل البلدة يعرفونه. فلماذا أهل «ستراتفورد — أون — آفون» Stratford-on-Avon لا يعرفون شكسبير؟ فهل كان عبقرياً حقاً أم مجرد إنسان عادي محدود الثقافة مغموراً؟ هل كان شكسبير هو نفسه كاتب ١٥٤ سونيت و٣٨ مسرحية أم هناك «أحدهم وراء هذا الأسم قام بكتابة هذا الإنتاج الضخم تحت اسم مستعار «شكسبير»؟

رأى بعضهم أن الأديب «فرنسيس بايكون» Francis Bacon قد يكون هو شكسبير الحقيقي. وقال البعض الآخر أن «كريستوفر مارلو» Christ-opher Marlow و«وليم ستانلي» William Stanly قد يكونا شكسبير الحقيقي. لكن بعضهم ممن عاصر شكسبير يقول بأنه هو نفسه واضع المسرحيات المنسوبة إليه باستثناء القليل منها.

يقول الناقد «جون درايدن» في مقالته النقدية الشهيرة «الشعر الدرامي» أن شكسبير كان عالماً بطبيعته فعندما يصف شيئاً في الطبيعة فإننا لا نرى هذا الشيء فقط بل نشعر به أيضاً.

إن شكسبير حاكى مختلف الشخصيات البشرية من ذكور وإناث وملوك ومهرجين. وكان بقوة خياله وأناقة عبارته لا يضارع إطلاقاً. عالج الخير والشر والرذيلة والفضيلة كعالم نفساني فأثارت هذه الطريقة الكثير من العلماء ضده كالدكتور «صموئيل جونسون» في «مقدمته» الذي انتقده بشدة لأنه لم يلتزم ولم يراع في مسرحه الغايات الخلقية.

في غمرة هذا كله، كانت العفة الإنكليزية في حالة مخاض وتخلو من قواعد ثابتة لقواعد التركيب والبيان. كانت بريطانيا تتأثر بالنهضة الإيطالية المزدهرة فانتهز شكسبير هذه الفرصة فابتدع الصور البيانية وألّف العبارات الشيقة. وهذا هو السبب الرئيسي لابتداع الحكايات الملفّقة ضده والتي كانت تتهمه بالفحش وارتكاب الفضائح والسرقة.

كان شكسبير صديقاً حميماً للكاتب المسرحي الشهير «بن جونسون» Ben Jonson مما جعل البعض يعتقد بأن شكسبير شاركه في مغامراته. اما الحقيقة فهي أن شكسبير كان هادئاً ينفق من ماله باتزان وبطريقة حكيمة.

لُقّب شكسبير «جنتلمان» gentleman لنجاحه في حقل الشعر والمسرح وخاصة في حقل كتابة المسرحيات التاريخية. وهذا اللقب لا يناله إلّا القليل في عالم الأدب. لقد صوبوا نحوه سهامهم وخاصة بعد وفاته زاعمين أن معظم قصصه قد اقتبسها من القدماء أمثال «بلو تارك» Plutarch و«أوفيد» Ovid ومن التاريخ البريطاني والأساطير القديمة.

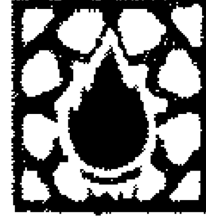
أعاد شكسبير حكايات مألوفة في فنون الدراما بأسلوب فذّ كما أوجد أبطالاً غير معروفين وملوكاً وحسناوات ومحاربين وقواد جيش تميزوا بالعمق المذهل للنفس. كان بارعاً في صياغة أسلوبه، ساحراً في بيانه مميزاً في بيئته. توهج المسرح في أيامه وتميز بالعمق الفكري وعمق تفكيره.

«مكبث» Macbeth قصة شعبية حوّلها شكسبير إلى مأساة شيقة ارتكزت على زوجين مجرمين يطاردهما شبح «بانكو» Banquo الرهيب ويجعل نهايتهما محزنة — زوج ضائع في زحمة الحياة وزوجة تسير وهي نائمة. حوار المسرحية ينبض بالحياة وشعرها متناغم والغايات تسير فيها لكي يحصل التنبؤ.

وفي «عطيل» Othello أضفى شكسبير على القصة من خياله الوهاج وحوّلها من جريمة قتل عادية إلى جريمة بعيدة الآثار على كل ما يحيط بها.

وبعد تلك الفترة الطويلة التي شغل بها مسارح لندن عاد شكسبير إلى قريته ليقضي أيامه الأخيرة في بيت اشتراه هناك. لكن الموت لم ينتظره طويلاً حيث توفي في بلدته ليلة ٢٣ نيسان ١٦١٦ م بعد اثنتين وخمسين سنة من العمل الدؤوب ليبقى في قلب وفكر عشاقه ونقاده وقرائه وفي جدل مستمر وأبدي وفي تساؤل: هل الذي كتب هذا النتاج الضخم هو بالفعل شكسبير أم مجموعة كتّاب؟

الياس فياض طراد
الجامعة اللبنانية / كلية الآداب
الفرع الرابع — البقاع



أفكارنا تحكم حياتنا

● نحن نعيش بالأعمال، لا بالسنين، بالأفكار لا بالأنفاس، بالأحاسيس لا بأرقام على صفحة، ينبغي لنا أن نقيس الزمن بتنهدات القلب. إن من يفكر كثيراً ويحس أنبل الأحاسيس ويقوم بأفضل الأعمال هو الذي يحيا حياة كاملة مملوءة.

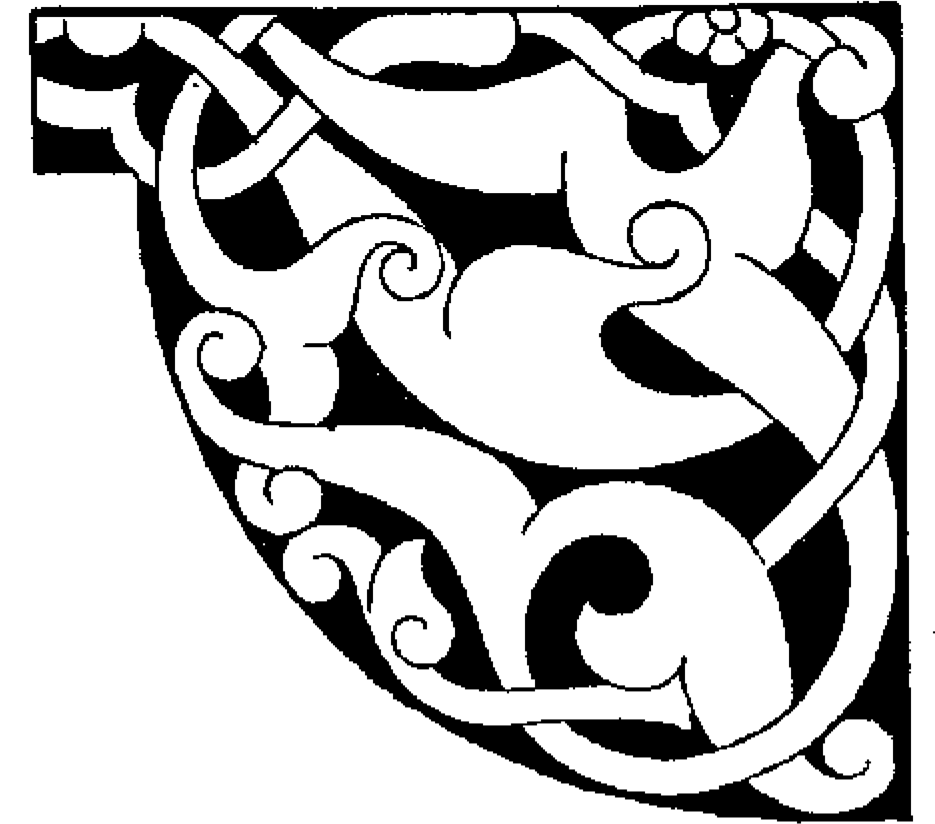
لتكن لنا أفكار عالية، ولكن ليكن منبتها في صميم القلب

أتدري أن أفكارك هي التي تحكم حياتك، سواء أكانت أفكارك نقية أم غير نقية؟ كما تفكر هكذا تكون. وأنت تصنع نجاحك أو فشلك في هذه الحياة بأفكارك نفسها.

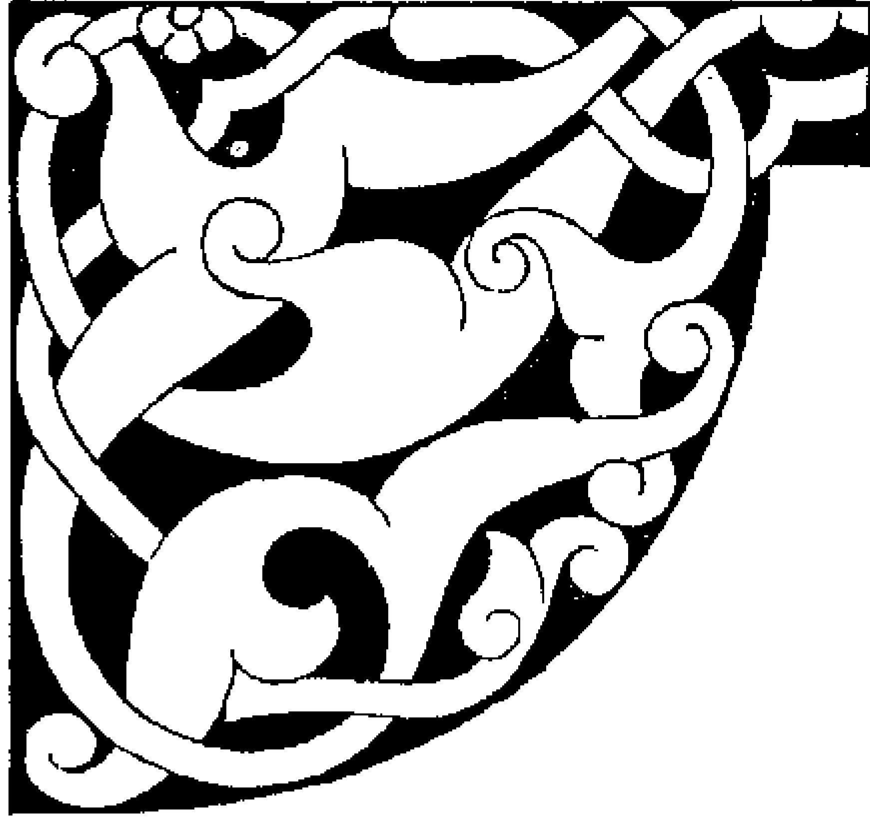
لا بأس أن تعلق عربتك بالنجمة، ولكن إحتفظ بقدميك على الأرض.

إن أكثر الأشياء بعثاً على الرضى في هذا العالم هي الأفكار السارة، اللطيفة، وأن أعظم فن في الحياة هو أن يكون لدينا أكبر عدد ممكن من هذه الأفكار.

أنت لا يمكن أن تدري أبداً ما هو دور الأفكار في اجتذاب الحقد أو الحب إليك. ذلك بأن الأفكار أشياء، وأجنحتها الهوائية أسرع من الحمام الزاجل. إنها تتبع قانون الكون. كل شيء ينبغي أن يخلق صنوه، وهي تتسابق لكي تعود إليك بما صدر عن فكرك.



المنبر الحلبي للمسجد الأقصى



المهندس الدكتور: محمود فيصل الرفاعي

□ رئيس قسم تاريخ العلوم التطبيقية، أستاذ في جامعة حلب — سوريا.

١ — أحداث جسام:



ما كاد الفرسان في حلب أن يترجلوا ليخلعوا عنهم عدة الحرب في القرن العاشر الميلادي من تصديهم أيام سيف الدولة الحمداني لهجمات الروم على الحدود الشمالية للدولة العربية حتى هب اعصار الحروب الصليبية على المنطقة بعد صيحة البابا اوربان الثاني عام ٤٨٨هـ / في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥م في مدينة كلير مونت بفرنسا، وحقق الصليبيون ذروة انتصارهم بعد اجتياح بلاد الأناضول والمناطق الساحلية من بلاد الشام باحتلال القدس عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، فهدموها وقتلوا أهلها وأحرقوا المسجد الأقصى ومنبره الذي صنع في حلب.

انتقل حكم حلب إلى السلاجقة حين دخل ملك شاه حلب عام ٤٧٨هـ/١٠٨٦م وهو ابن الب ارسلان وقد تحول اسم الحاكم من خليفة إلى سلطان بعد أن حكم السلاجقة العراق.

ينحدر السلاجقة من تركستان وأصلهم من قبائل لم تفسدها المدن فدخلوا في الإسلام أفواجاً بحماس وإقبال شديدين وانتشروا في إيران والجزيرة وسوريا والأناضول، وقد أثار السلاجقة الحمية التي فقدها المسلمون(١) وردوا الروم البيزنطيين عن كثير من أراضي الأناضول وأنشاوا جيلاً قوي الإيمان ماضي العزم.

عين ملك شاه السلجوقي الأمير آق سنقر (٤٧٨هـ/١٠٨٦ — ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أميراً على حلب.

أسس السلاجقة دولة عسكرية كان قوادها الأتابك وكانت تستعين ببعض منهم عندما كانوا يبلون بلاءً حسناً فتكافئهم على أعمالهم بتوليتهم مناصب كبرى. ومن هؤلاء عماد الدين بن آق سنقر مؤسس دولة الأتابكة الزنكيين في الموصل وقد دخل إلى حلب عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م ليؤسس فيها الحكم الزنكي تلاه ابنه نور الدين محمود الذي لقبه أهل حلب (بالشهيد) بعد وفاته.

وقفت حلب سداً منيعاً في عهد السلطان عماد الدين الزنكي وفي عهد ابنه نور الدين محمود أمام هجمات الصليبين وتميز كلاهما بالبأس وقوة الشكيمة والإقدام إذ لم يستطع الصليبيون أن يدخلوا حلب قط بل على العكس انطلقت من حلب الجيوش بقيادة عماد الدين فحررت الرها (اورفة) من الصليبيين عام ٥٣٨هـ/١١٤٤م بعد أن كانت معقلاً هاماً لهم في جنوبي الأناضول.

أصبح الوقت في حلب يستدعي القوة العسكرية فانشأ الأمير نو الدين محمود لقواته حياً خاصاً داخل سور حلب له ساحة مخصصة للتدرب على إطلاق السهام لا يزال موجوداً اليوم ويعرف بحي التركمان وحقل مغطى بالعشب الأخضر للتدرب على ركوب الخيل في شمال حلب.

٢ — منبر المسجد الأقصى:

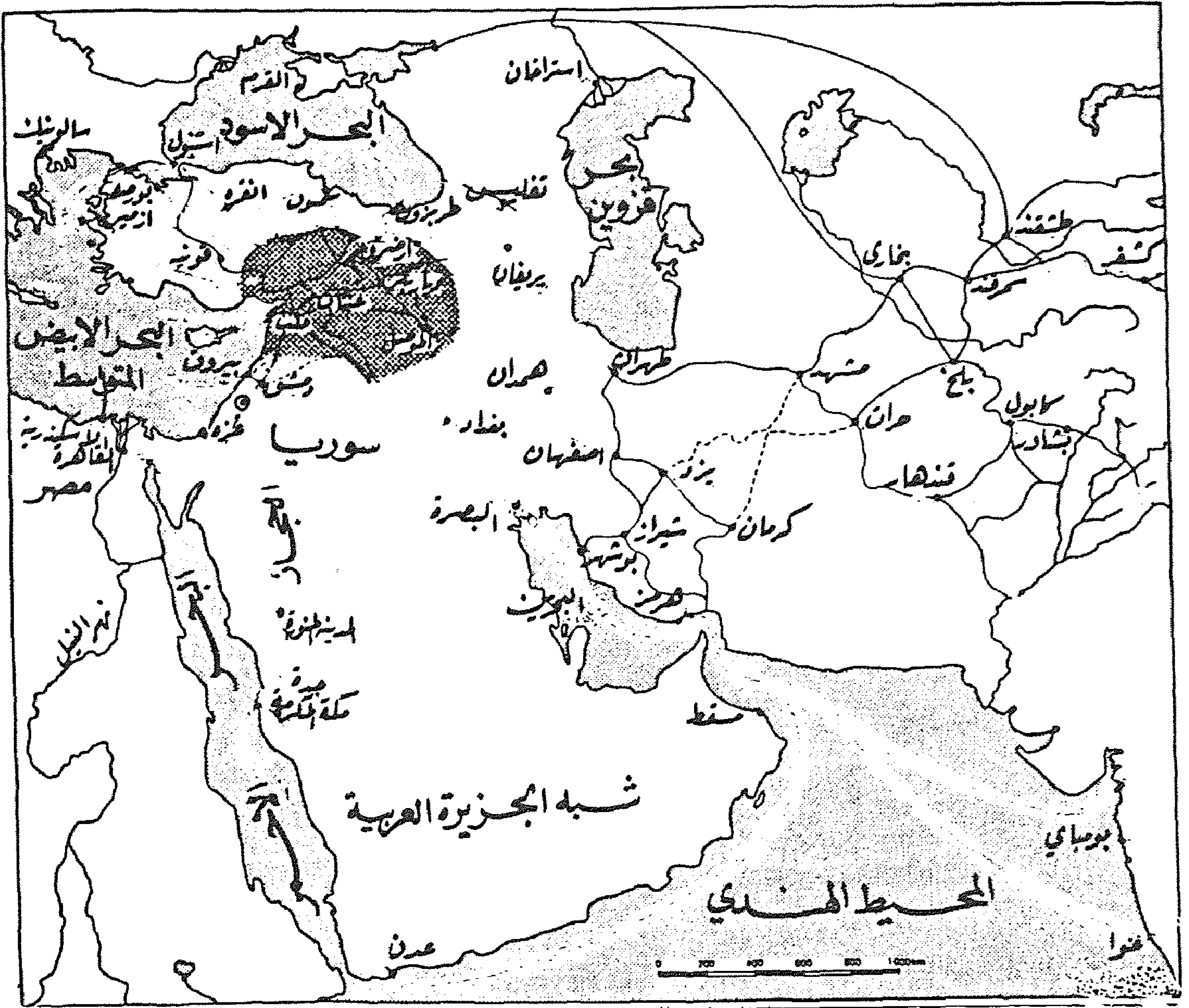
المسجد الأقصى(٢) في القدس هو أولى القبلتين وهو المسجد الثالث في الأهمية بالنسبة للمسلمين بعد المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى) وعن أبي ذر رضي الله عنه قال (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما؟ قال أربعون سنة وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد).

فالمسجد الحرام هو أول بيت من بيوت الله وضع في الأرض أمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببنائه. والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد على الأرض عمل على إنشائه يعقوب وجدده داود وأتم بناءه سليمان عليهم السلام. وبعد سليمان انحرف العبرانيون عن الصراط المستقيم بارتكابهم الفواحش والموبقات فسلط الله عليهم الآشوريين ثم البابليين الذين دخلوا القدس وسبوا العبرانيين وبعد أن أنقذهم الله عادوا إلى فسادهم وضلالهم فسلط الله عليهم الروم مرتين. وحين أصبحت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية البيزنطية في القرن الرابع هال البيزنطيين غدر اليهود بالسيد المسيح فجعلوا الهيكل مكان قمامة.

وحين أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في ذلك المكان بناء معروف بالمسجد الأقصى وإنما أشير اليه في الآية الأولى من سورة الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) لأنه كان مكاناً لعبادة الله. وأصبح لهذا الموقع مكانة كبرى في الإسلام بعد أن عرج الرسول صلى الله عليه وسلم من موقع الصخرة المشرفة فيه إلى السماء.

ولما دخل المسلمون بيت المقدس عام ١٤هـ / ٦٣٦م أزال الخليفة عمر بن الخطاب الأقذار ومضى نحو محراب داود فصلى فيه ثم قرأ سورة (ص) وسجد. وتجمع أغلب الروايات على أنه تم بناء المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وعهد الوليد ابنه.

(*) عن كتاب سيصدر قريباً للكاتب بعنوان «حلب بين التاريخ والهندسة».

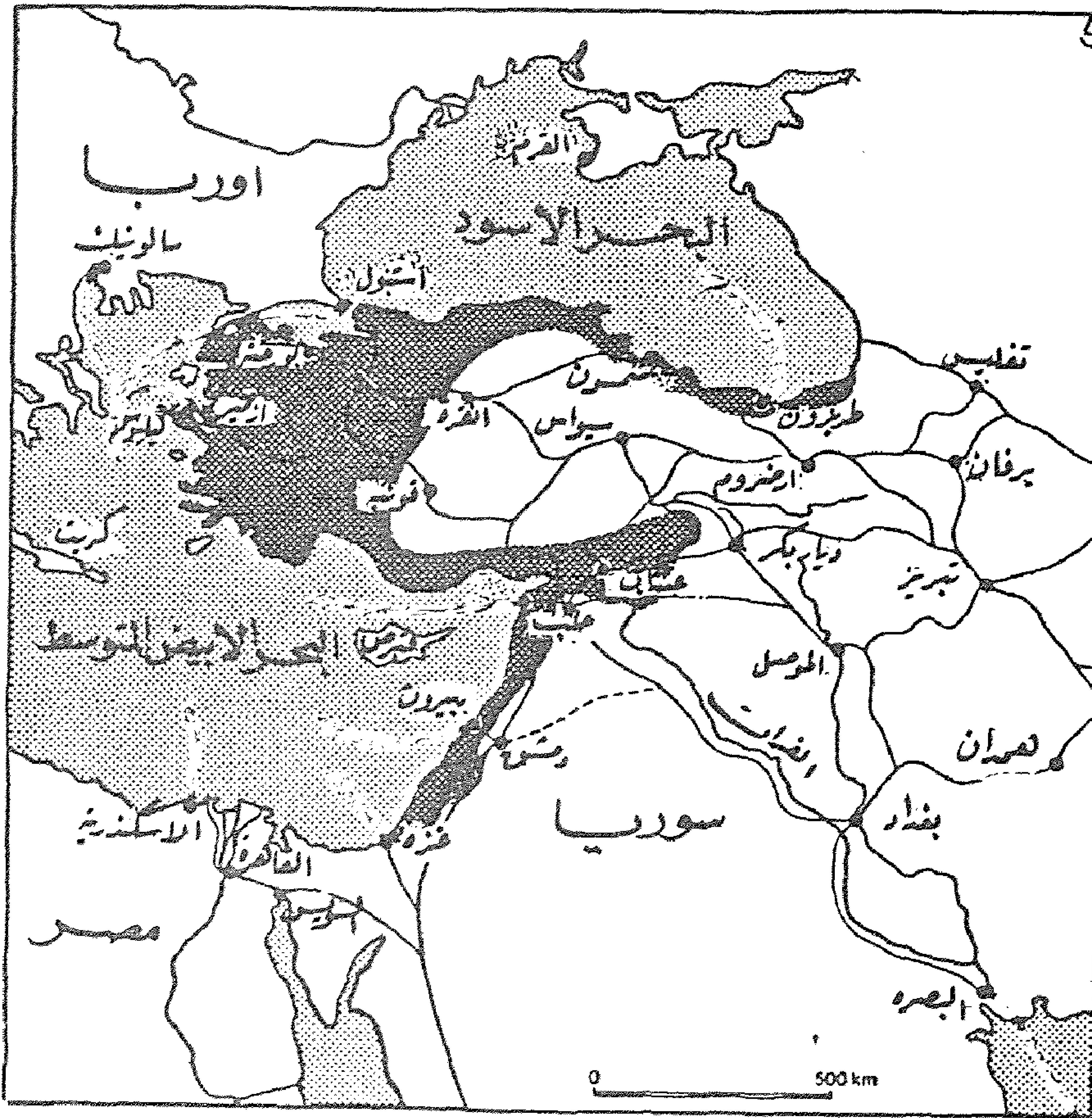


□ إمارة حلب في العهد الزنكي أيام السلطان نور الدين محمود.

أصبحت الفاجعة الأليمة الدامية بإحراق المسجد الأقصى عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ومنبره الذي صنع في حلب مصدر هم دائم وحزن عميق لدى أصحاب الشهامة والنخوة في البلاد وكان أكثرهم تأثراً لذلك أهل حلب الذين كان المنبر الذي سبق أن صنعوه للمسجد الأقصى رمزاً لاتصالهم المباشر بالسماء وبدا لهم وكأن نصر الله في موقع المعراج سيحجب عنهم إذا لم يعيدوا الاتصال فتنادوا في حلب لإعادة صناعة منبر المسجد الأقصى رغبة منهم في أن يكون لهم شرف إعادة هذا المنبر إلى المسجد الأقصى بعد تحريره. استجاب الأمير نور الدين محمود لذلك حينما ولي أمر حلب عام ٥٤١هـ/١١٤٦، وهو الذي كان قد أعلن قبل ذلك عزمه على أن المسلمين لن يهدأ لهم بال حتى يحرروا بيت المقدس.

٣ ـ صلاح الدين يستعد:

في الوقت الذي كان فيه الزنكيون يحكمون سوريا كان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعد العدة للتحرير عندما تولى الوزارة في مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩ إذ أصبح يحكم مصر فعلياً بشكل مستقل عن الزنكيين وبدأ بسعيه نحو الوحدة فدخل دمشق لكنه لم يدخل حلب إلا بعد وفاة الملك الصالح عام ٥٧٧هـ/١١٨١ وهو آخر الزنكيين. تابع صلاح الدين مخططه خلال خمسة عشر عاماً في توحيد الصف ولمّ شمل الاجزاء المتفرقة واستطاع أن يكوّن جبهة متحدة امتدت من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً. وقد شرح صلاح الدين سياسته في رسالة بعثها إلى الخليفة العباسي المستضيء يقول فيها (ولو



□ الدولة البيزنطية وممالك الصليبيين قبل تحرير بيت المقدس.

أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة)(٣).

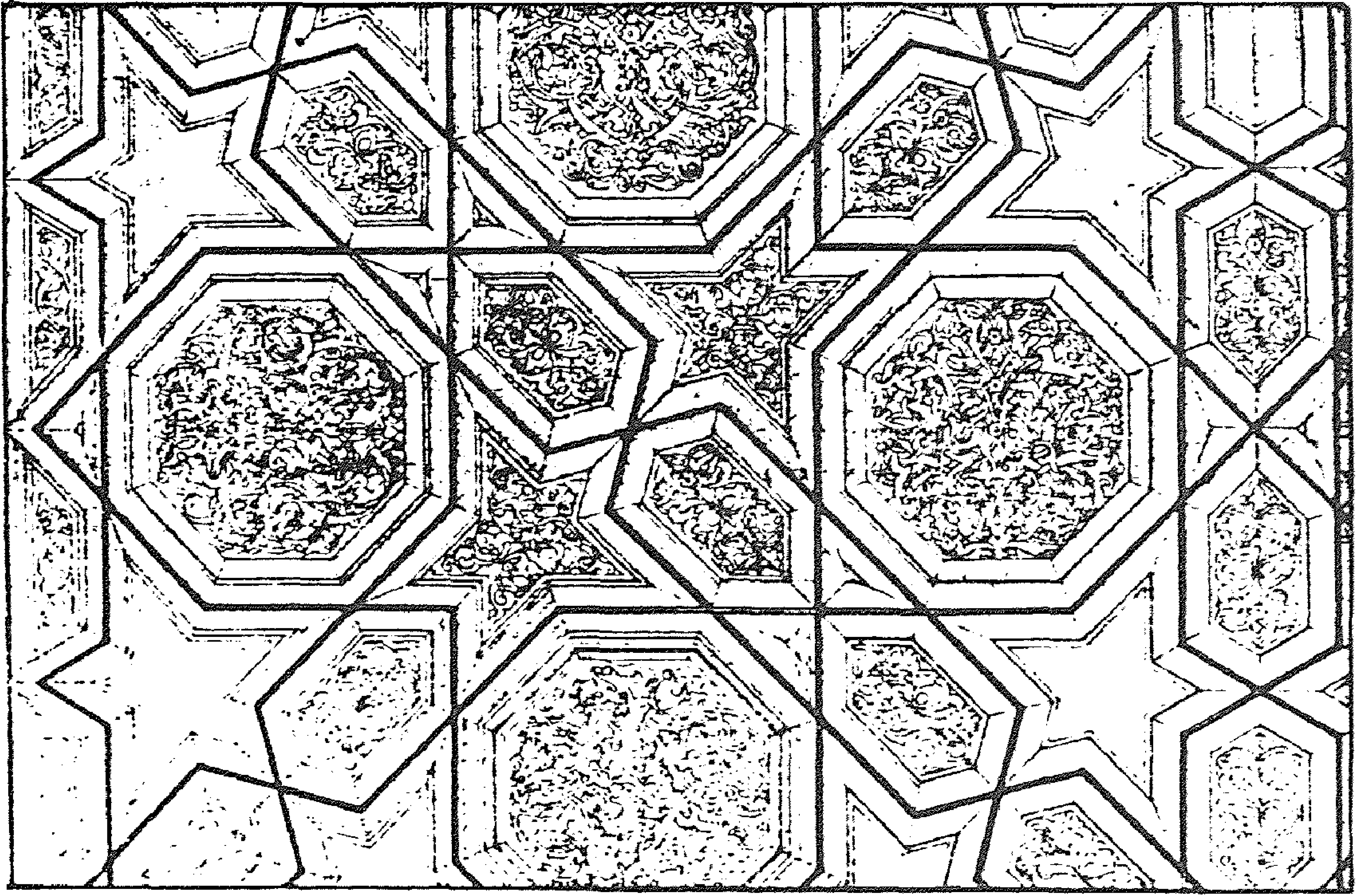
٤ ــ ويصنع المنبر:

بعد كارثة إحراق منبر المسجد الأقصى بدأ العمل بصناعة منبر جديد في حلب بشكل متقن من خشب السرو والصنوبر الحلبيين ثم طعم بالعاج والابنوس وركبت قطعه بالتعشيق والتلسين دون استعمال المسامير ثم أنجز العمل عام ٥٦٤هـ/١١٦٨ وأودع المنبر الجامع الكبير بحلب، ثم صنع محراب إلى جانبه يحمل نفس النقوش والزخارف ولم يقبل نور الدين محمود بإرسال المنبر إلى المسجد الأقصى إلا بعد تحرير بيت المقدس كي يكون رمزا للتحرير ومحفزاً عليه لا هيكلاً خشبياً للخطابة.

لقد تكلم عن هذا المنبر عدة مؤرخين نترك لهم وصف هذا المنبر والأحداث التي جرت في ذلك العصر(٤).

ــ قول ابن جبير في حديثه عن رحلته الكبرى وعن مدينة حلب التي زارها يوم الأحد ١٣ ربيع الأول سنة ٥٨٠ للهجرة الموافق ٢٤ حزيران (يونيو) ١١٨٤ للميلاد وعن المنبر:

(.. وقد استفرغت الصنعة القربصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجلّلت صفحات كلها حسناً على تلك الصنعة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسماك السقف وقد قُوس أعلاه وشُرف بالشرف الخشبية

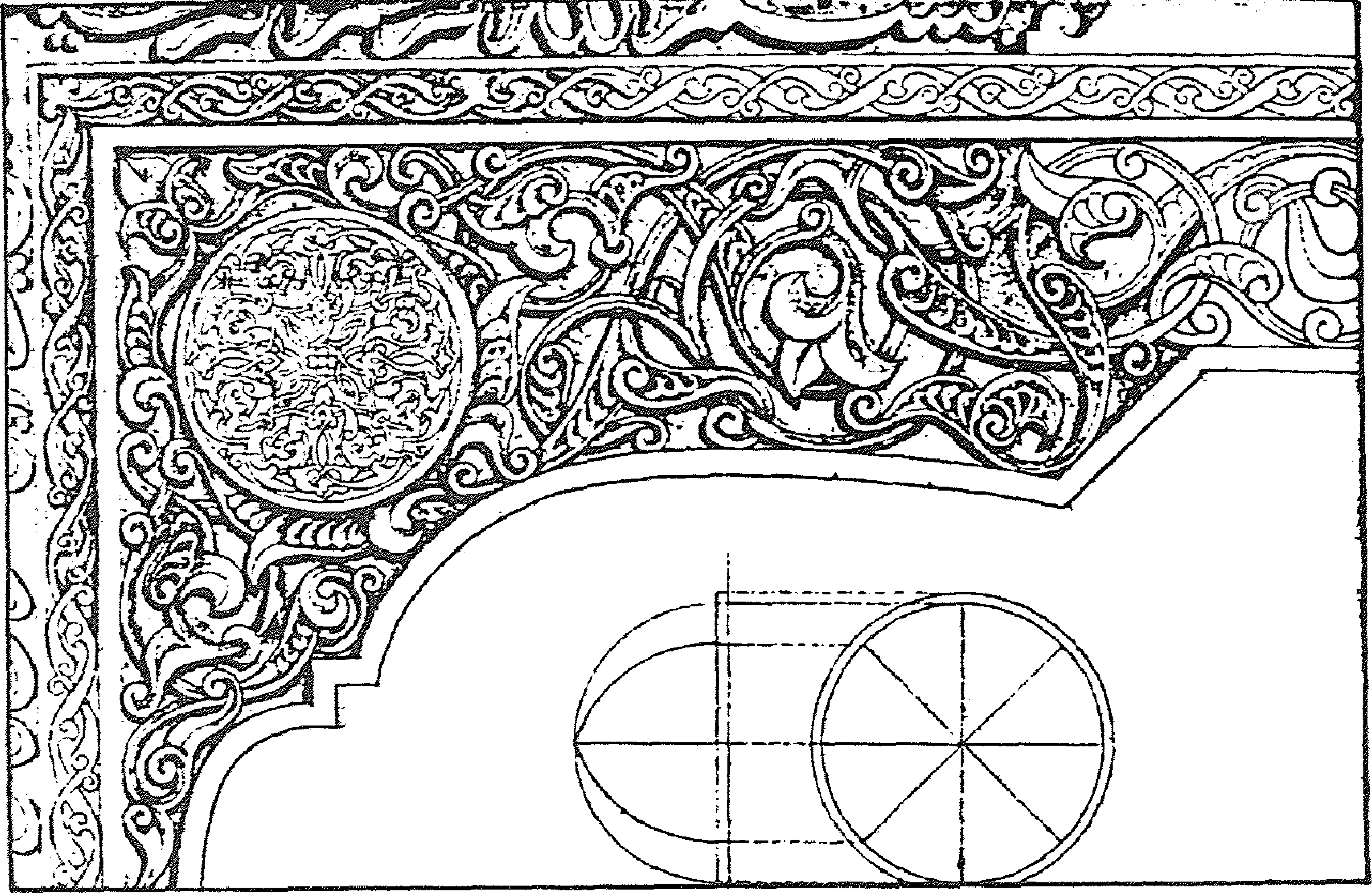


□ مجموعة زخارف متفرقة

القربصية، وهو مرصع بالعاج والابنوس واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا...).

ــ جاء في حديث عماد الدين الأصفهاني عن قصة المنبر:

(فكان من حيث أحداثه ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره اليه وانبعاثه وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه أن البيت المقدس بعده سيفتح وإن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح وهو من أولياء الله الملهمين وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاخترينى من ضيعة تعرف بأخترين، لم يلفّ له في براعته وصنعته قرين، فأمر نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس وقال له اجتهد أن تأتي على النعت المهندم والنحت المهندس، فجمع الصناع وأحسن الإبداع وأتمه في سنين واستحق بحق احسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ما له دليل وذكر جميل وأجر جزيل لو كان اليه سبيل. وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام ويقضي الإصباح فيه على الاظلام فإن الافرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولا يقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران وقابلوا الكفر بالإيمان وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم فما أصعب وأتعب رقم القوم. ويقول من له قوة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا، فلِسِرٍّ هذه الأمة نبأ وهو كما قال الله تعالى: «ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ». ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور وأثر تقواه للمتقين مأثور، ازهد العباد وأعبد الزهاد وهو من الأولياء الأبرار الأتقياء الأخيار وقد نظر بنور الفراسة ان الفتح قريب وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب ويزيد قوة عزمه جداً وتمده بحياء الحياة الربانية مداً، قد طهره الله من العيب واطلعه على سر الغيب ونزهه من الريب لنقاء الجيب وشملت الإسلام بعده بركته وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته وهو الذي رباه ولباه وأحبه وحباه وهو الذي سفى الفتح وسن



للمنبر الحلبي الثاني للمسجد الاقصى.

النجح، واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق فاحتيج إلى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر وحسن المنظر وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم وشابه المحراب المنبر في الرسم).

ونص ثالث وجد في كراسه أثبتها الشيخ راغب الطباخ باحتمال نسبتها إلى كنوز الذهب لابي ذر.

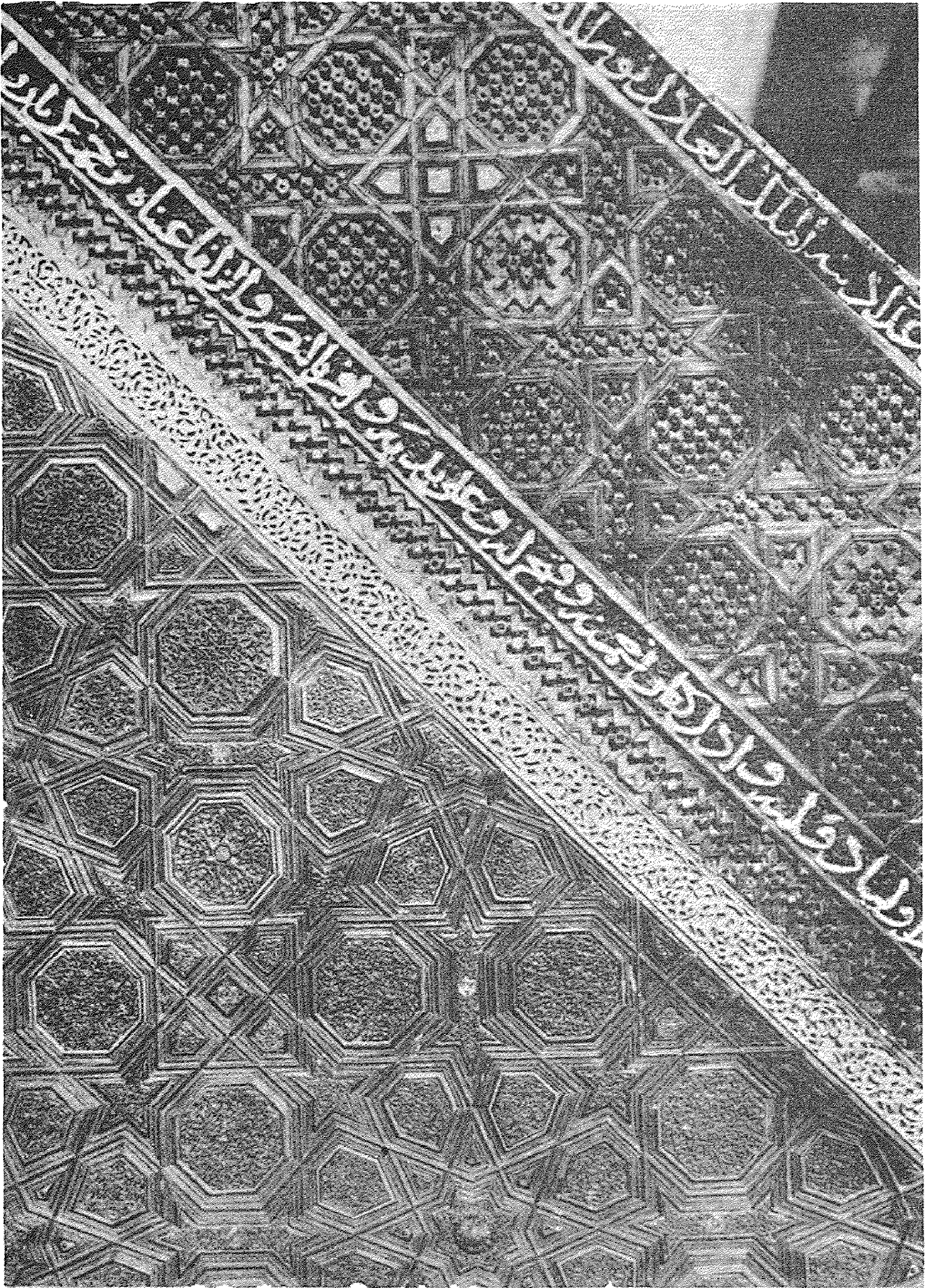
«قرأت في تاريخ الإسلام (للذهبي) وقد كان نور الدين أنشأ منبراً برسم الأقصى قبل فتح بيت المقدس طمعاً في أن يفتحه ولم تزل نفسه تحدثه بفتحه وكان بحلب نجار فائق الصنعة فعمل لنور الدين هذا المنبر على أحسن نعت وأبدعه فاحترق جامع حلب فنصب فيه ثم عمل النجار المذكور ويعرف بالاختريني منبراً آخر شبه المنبر».

ـــ يقول الطباخ(٥): «كنت سمعت أن صانعه كان فلاحاً من قرية الاخترين من قرى حلب وأنه مات قبل تركيبه وعجز الناس عن تركيبه فرآه ولده في النوم فقال له عجزتم عن تركيبه؟ قال نعم فأراهم كيفية التركيب فأصبح ولده وركبه».

٥ ـــ المنبر الحلبي الثاني:

إن الصورة الوحيدة لمنبر المسجد الأقصى كانت موجودة لدى (لجنة إعمار المسجد الأقصى المبارك) الأردنية بعد أن عمل المهندس الأستاذ عصام عواد الذي كان المهندس المقيم بالمسجد الأقصى والمزخرف المبدع الأستاذ جمال بدران على توثيق النماذج الهندسية للمنبر وقد عمل كلاهما بدون كلل على رسم الزخارف والنقوش الهندسية بمقياس مكبر.

كتب على المنبر الحلبي الثاني في المسجد الأقصى (بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمله العبد الفقير إلى رحمته الشاكر لنعمته المجاهد في سبيله المرابط لإعلاء دينه العادل نور الدين ركن الإسلام والمسلمين منصف المظلومين من الظالمين أبو القاسم محمود بن زنكي بن أيوب ناصر أمير المؤمنين أعزّ الله أنصاره وأدام اقتداره وأعلاه منارة ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه وأعزّ أولياء دولته وأذل كفار نعمته وفتح له وعلى يديه



□ تفاصيل زخرفة «المنبر الحلبي» وقد ورد ذكر اسم الملك العادل نور الدين زكي.



□ دقائق زخرفة لوح الرخام الذي يزين القسم الشمالي من المنبر.

وأقر بالنصر والزلفا عيناه برحمتك يا رب العالمين وذلك في شهور أربعة وستين وخمسماية) من الواضح هنا وجود خطئين الأول أنه ليس ابن أيوب والثاني خطأ نحوي فيجب أن يقال أقر عينيه وعلى المصراع الأيمن لبابه (عمله سلمان بن معالي رحمه الله). وعلى المصراع الأيسر (عمله حميد بن ظافر رحمه الله).

وعلى تاج المنبر وفي الجهة اليمنى وفي الأطراف الأربعة: (بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال).

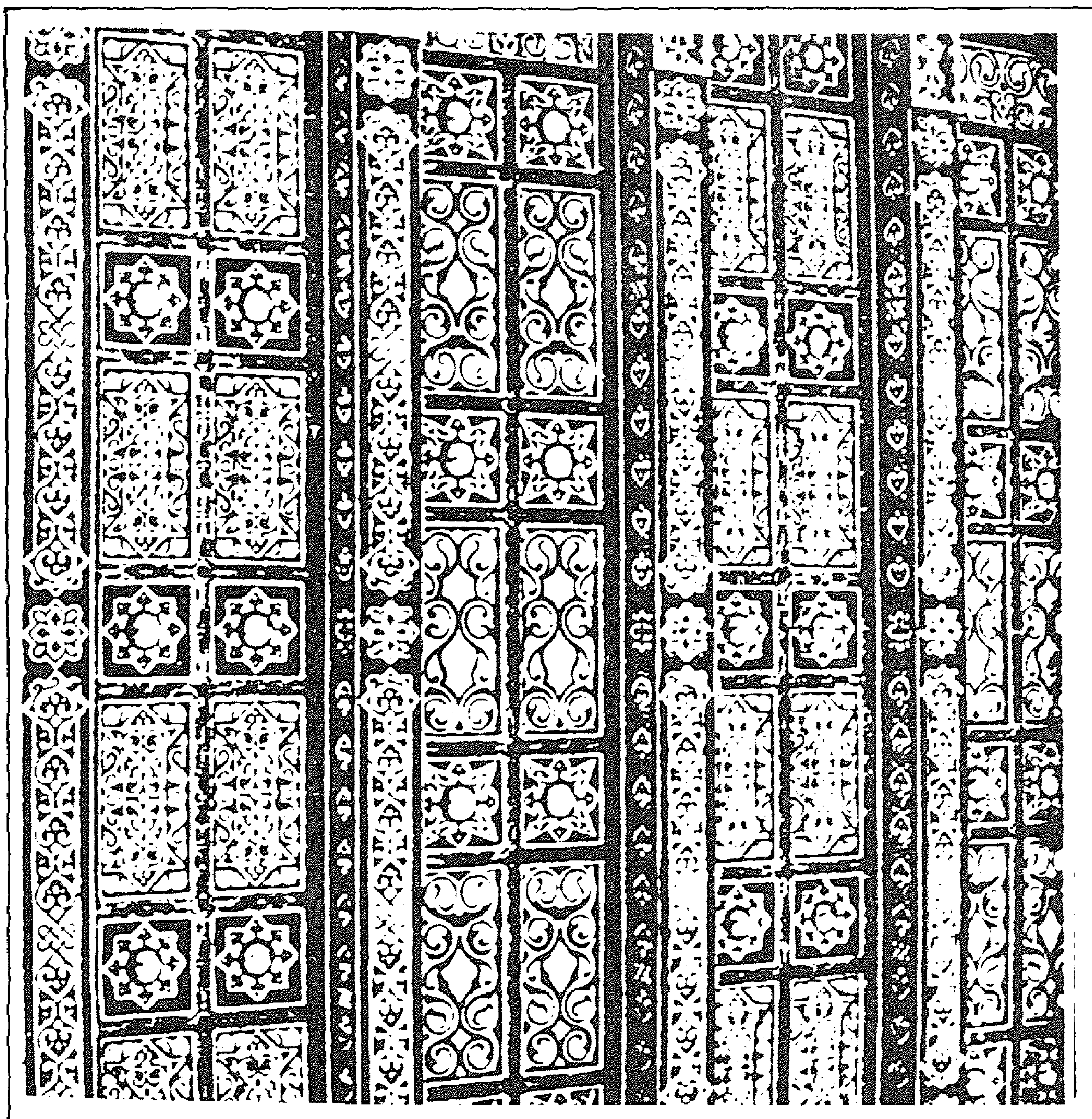
وعلى الجهة اليسرى الملاصقة للمحراب وفي الأطراف الأربعة: (بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين) وكلا النصين حول لفظ الجلالة (الله) بالخط الكوفي.

٦ ـ التحرير:

جرت المعركة الفاصلة يوم السبت في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ / تموز ١١٨٧ وتحقق النصر في حطين بقيادة صلاح الدين وأدى ذلك إلى كسر الصليبيين وإلى تحرير بيت المقدس. أنفذ صلاح الدين إلى ابنه الملك الظاهر في حلب يطلب اليه إرسال المنبر المصنوع في حلب فحمل إلى القدس ونصبه صلاح الدين في مصلى المسجد الأقصى مكان المنبر الحلبي الأول الذي أحرقه الصليبيون قبل ثمانية وثمانين عاماً ثم صعد اليه وتلا قول الله عز وجل: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) الانعام ٤٥.

يقول عماد الدين الأصفهاني عن نقل المنبر:

ــ (لما فتحنا القدس أمر (أي صلاح الدين) بتعمير المحراب وترخيمه وتكميل حسنه وترميمه ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض. واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائع بحسنه لائق وبجماله شائق وبكمال فائق فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل له وعمل ما أمر به وامتثل فجاء كالروض النضير والوشي الحبير عديم النظير).



□ مجموعة زخارف متفرقة لقطع المنبر الحلبي الثاني للمسجد الأقصى.

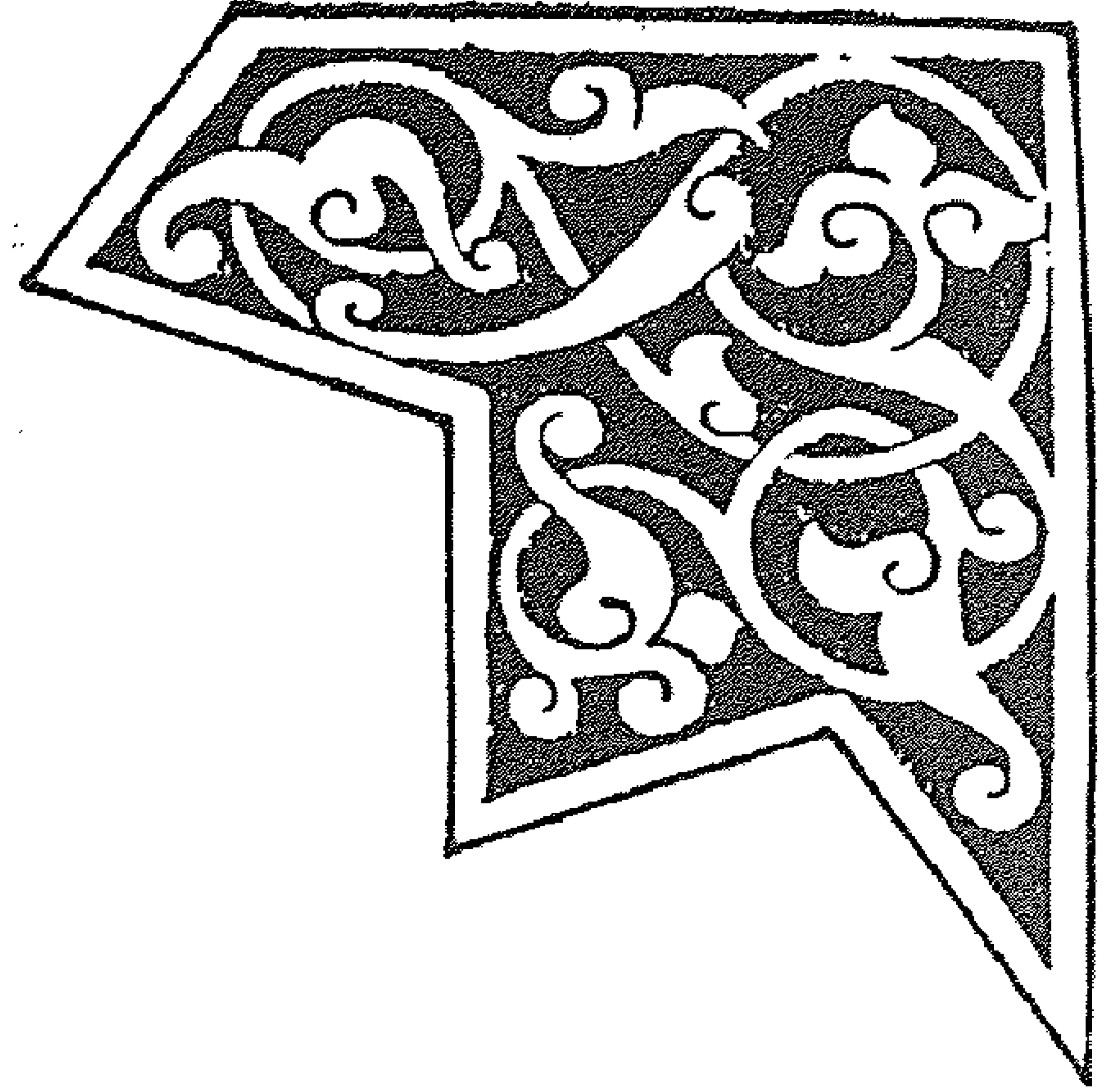
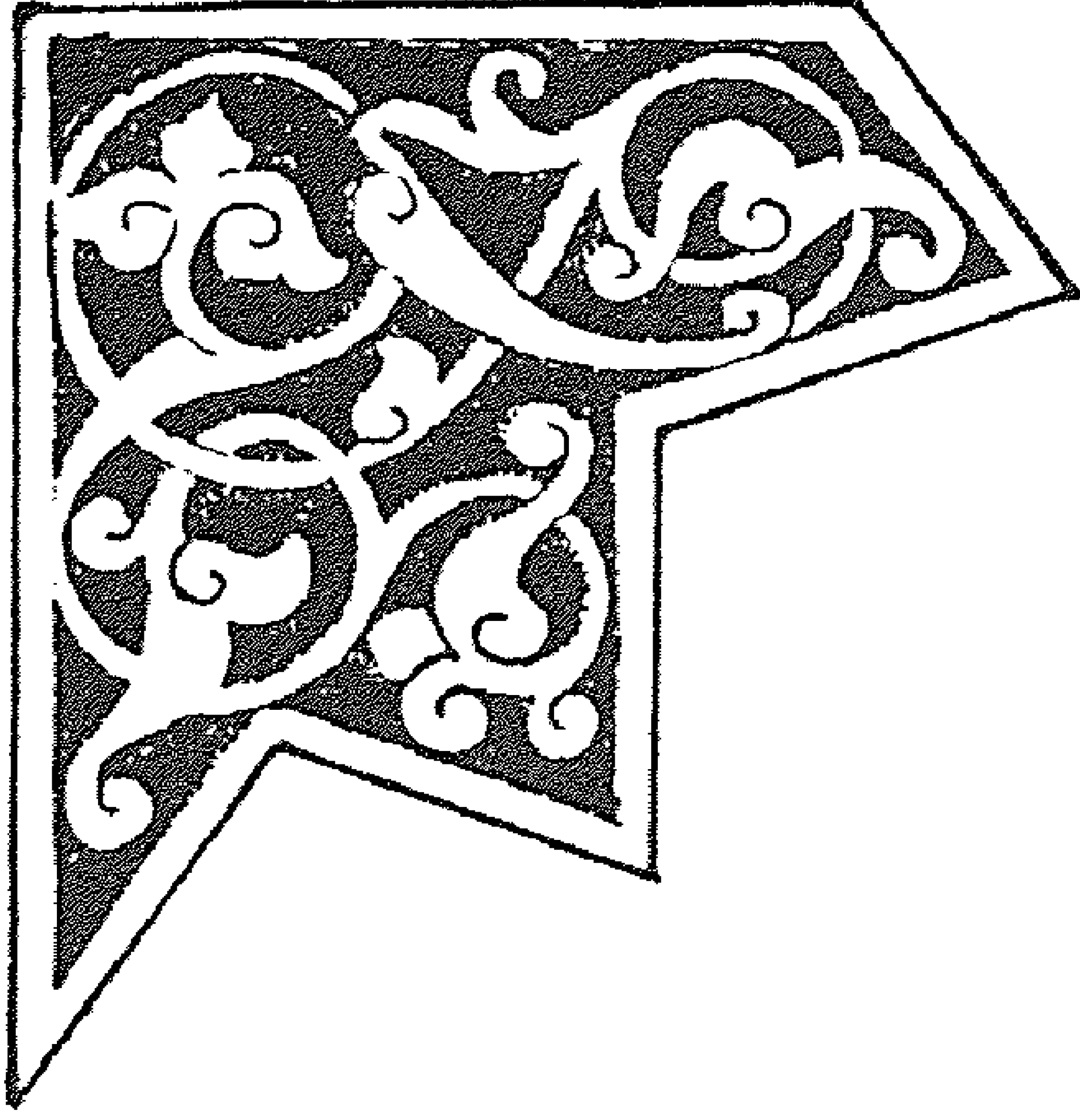
ويقول في مكان اخر:

(ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله وصح به في محراب الأقصى تفريق شمله وظهر سر الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة).

وجاء في الكامل لابن الأثير:

ـ (وصلى المسلمون فيه الجمعة (أي في المسجد الأقصى) ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب الإمام محيي الدين محمد بن أبي الحسن ابن الزكي قاضي دمشق ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا وإماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له أن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه، وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله).

وقد حرر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

□ تفاصيل بعض الزخارف في المنبر الحلبي الثاني.

اقوى معقل ساحلي للصليبيين في أيار (مايو) عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م مما نتج عنه تحرير كل المعاقل من أثر الصليبيين وبذلك (اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين الزنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير: نور الدين محمود، وصلاح الدين وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير على يد الأشرف خليل بن قلاوون)[٦] وقد نظم الشاعر الشهاب محمود الحلبي في ذلك الوقت قصيدة بمناسبة التحرير نذكر منها:[٧]

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
في البحر للشرك عند الله من أرب
لم يبق بعدها للكفر إذ خربت
في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
يا يوم عكا لقد انسيت ما سبقت
به الفتوح وما قد خط في الكتب
واشرف المصطفى الهادي البشير على
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها
لديك شيء تلاقيه على تعب

٧ ــ الكارثة:

كان من نتائج حرب ١٩٤٨م في فلسطين نشوء دولة صهيونية، خلفت بقيامها سلسلة من المآسي المفجعة التي حلت بالعرب لما جرى في القدس الشريف[٨] منها:

ــ إعلان القدس عاصمة لاسرائيل في ٢٣/١/١٩٥٠ ونقل البرلمان اليها وزيادة الهجرة والاستيطان اليهودي فيها بحيث أصبح عدد اليهود فيها ١٩٠ ألفا عام ١٩٦٧.

ــ احتل ما تبقى من المدينة عسكرياً في ١٩٦٧/٦/٧ واقتحم جنود المظلات الحرم الشريف بقيادة مردخاي غور الذي ردد عبر الاجهزة اللاسلكية لوحدات الجيش الغازي بعد إتمام المهمة (جبل البيت بأيدينا) وهذه العبارة تلخص الحلم الصهيوني بإقامة الهيكل على (جبل البيت) وهو الاسم الذي يطلقه اليهود على كامل الحرم القدسي.

ــ أعلن في ١٩٦٧/٦/٢٧ عن توحيد القدس واعتبارها عاصمة أبدية لإسرائيل وبدأت منذ ذلك الوقت الاجراءات الهدامة لتهويد القدس سياسياً وإدارياً وجغرافياً واقتصادياً وتعليمياً.

ــ في ١٩٦٧/٨/١٥ قام الحاخام شلومو غورين حاخام الجيش الإسرائيلي آنذاك يرافقه أكثر من عشرين من ضباط الجيش الإسرائيلي بالصلاة في ساحة الحرم الشريف بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقد أشارت صحيفة «جيروزاليم بوست» حينها أن لدى الحاخام مشروعاً لإقامة كنيس يهودي في الساحة المذكورة.

ــ عقد عام ١٩٦٨ مؤتمر ديني لحاخامات اليهود في العالم وقد طالب المؤتمرون بإعادة بناء الهيكل، وقد عقب وزير الأديان الإسرائيلي حينذاك (زيراح فيرهافتغ) على الطلب بقوله (لا جدال في أن الهدف النهائي لنا هو إقامة الهيكل ولكن الأوان لم يحن بعد، وعندما يحين

الموعد لابد من حدوث زلزال يهدم الأقصى ونبني الهيكل على أنقاضه).

ـ بعد ذلك وقعت الكارثة المروعة ففي ١٩٦٩/٨/٢١ دبر المحتلون أمر إشعال النيران في المسجد الأقصى المبارك على يد الاسترالي مايكل روهان الذي نسبت اليه هذه الجريمة، ثم أطلق سراحه بحجة قصور القوى العقلية لتبرير هذا العمل الآثم. وكان من متمّمات الخطة تخاذل وتلكؤ السلطات بالاطفاء. وقد تمكن المواطنون العرب سكان القدس والمدن الفلسطينية من التغلب على الحريق بعد إحضار أطفائيات من خارج القدس، ولم يتحقق هدف العدو في تدمير المسجد الأقصى ومع ذلك استمرت محاولات الحفريات وأعمال التفجير والتخريب والاقتحام حتى اليوم من قبل العدو الإسرائيلي.

ـ أتى الحريق المفتعل والمدبر على المنبر الذي صنع في حلب وعلى سقف ثلاثة أروقة عند السطح الشرقي الجنوبي من المسجد الأقصى. ومن خلال التقارير التي وضعها المهندسون العرب الذين انتدبتهم الهيئة الإسلامية في القدس للكشف عن الحريق تبين أن حريقين منفصلين قد أحدثا عمداً أحدهما في حرم المسجد الأقصى وفي المنبر بالذات والآخر عند القسم الشرقي الجنوبي منه وكان هدف العدو أن يتصل الحريقان وتنتشر النيران لتأتي على المسجد بكامله.

تحول المنبر الحلبي الجميل الثاني كله إلى رماد على يد الهمجية الإسرائيلية بعد سبعمئة وثمانين عاماً عاشها هذا المنبر في المسجد الأقصى بسلام وعزة وكرامة.

٨ ـ المنبر الحلبي الثالث؟

بعد أن نفذ شعاع من الأمل بالتحرير إلى قلب العرب في حرب ١٩٧٣ تشكلت عام ١٩٧٥ لجنة في حلب اسمها (لجنة منبر المسجد الأقصى) ضمن جمعية العاديات بحلب اعتمدت رسمياً بمرسوم جمهوري رقم ٢٥ تاريخ ١٩٧٨/١١/١٥. كلفت اللجنة بصناعة منبر للمسجد الأقصى على الشكل الذي كان عليه المنبر الحلبي الثاني الذي صنع في عهد السلطان نور الدين محمود للمجسد الأقصى، وقد اتخذت لجنة المنبر مكتباً خاصاً في حلب تجتمع فيه مع الهندسين الحلبيين ومع الحرفيين والصناع والفنيين وبدأت بتحضير المواد الأولية والمعدات واتخاذ صالة كبيرة للصناعة، ثم أخذت في جمع المعلومات والرسوم والزخارف وهندسة المنبر الحلبي الثاني المحروق والتي وثقتها مشكورة (لجنة تعمير وإصلاح المسجد الأقصى المبارك) الأردنية.

ماذا بعد ذلك؟ نترك الشاعر ليجيب(٩):

«المسجد الأقصى شهيد جديد»
«نضيفه إلى الحساب العتيق»
«وليست النار وليس الحريق»
«سوى قناديل تضيء الطريق».

المراجع

١ ـ تاريخ الدول الإسلامية، احمد السعيد سليمان، ج ١ ص ٣١٣، دار المعارف بمصر.
٢ ـ روح الصلاة في الإسلام، ص ٢١٤ و ٢١٥، عفيف عبد الفتاح طبارة، الطبعة ١٦، عام ١٩٨٤، دار العلم للملايين، بيروت.
٣ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة شهاب الدين المقدسي، ج ٢ ص ٤٨، نشر دار الجيل، بيروت.
٤ ـ منبر المسجد الأقصى، سعد زغلول كواكبي، مجلة عاديات. حلب، ج ٤ و ٥، ١٩٧٨ و ١٩٧٩، ص ٣١، جامعة حلب.
٥ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، الشيخ راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب ١٩٢٣.
٦ ـ تاريخ مصر الإسلامية، جمال الدين الشيال، ج ٢ ص ٢٤٠، دار المعارف بمصر ١٩٦٧.
٧ ـ الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي، محمد بن علي الهرفي، ص ٩٤، النادي الأدبي، الرياض ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٨ ـ تهويد القدس، روحي الخطيب أمانة القدس، ج ١ و ٢، ١٩٧١، مطبعة التوفيق، عمان.
٩ ـ «منشورات فدائية على جدران إسرائيل»، شعر نزار قباني، مجلة (القدس الشريف)، العدد العاشر، ص ٦٧ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ / كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦.

مَوطنها لبنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة

جُذورها راسخة في الشرق الأوسط

وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



نيويورك

لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
بروكسل
جنيف
مدريد
زوريخ
تونس
نيس
مونروفيا
ميلانو
ابيدجان
روما
لاغوس
اثينا
كانو
اسطنبول

بيروت

القاهرة
لرنكا
انقرة
عمان
بغداد
جدة
الخرطوم
عدن
مسقط
رأس الخيمة
أبوظبي
دبي
الدوحة
البحرين
الظهران
الكويت

اختطاف بن بيلا ورفاقه بداية نهاية الاستعمار في الجزائر

اعداد: الان دوكو
ترجمة: د. رياض العالي



ضربة هائلة، سيدي السكرتير العام! خلال فترة قصيرة يعبر بن بيلا سماء الجزائر فوقنا.

كان اسم المتحدث دوكورنو، وهو كولونيل في سلاح المظلات، ومدير المكتب الحربي لوزير الجزائر روربير لاكوست. كان ذلك في الجزائر، الثاني والعشرين من تشرين الأول ١٩٥٦، بعد الثامنة والنصف صباحاً، في الوزارة نفسها. لقد أحدثت وزارة خاصة بالجزائر، خلال الحرب الفرنسية ـ الجزائرية، مركزها باريس، ولكن الوزير يقيم دائماً في الجزائر، لذلك أطلق على الوزير اسم «الوزير المقيم».

لم يكن الوزير يحضر جلسات مجلس الوزراء الأسبوعية، برئاسة روني كوتي رئيس الجمهورية، أو رئيس الوزراء غي موللي.

كان دوكورنو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. وكان رئيس مكتب لاكوست الليوتنان بارني يقاسمه الشعور بالقلق. ولكنه كان يكتم ما في نفسه.

وكان ثمة شخص ثالث يجلس إلى أحد المكاتب في الغرفة ذاتها. وكان يراقب الاثنين بدهشة. إنه بيير شوساد السكرتير العام للإدارة العامة في الجزائر. كان قد وصل تواً إلى مكتبه. كان محافظ المارن. وجاء الأمر بتكليفه بمهمة في الجزائر، في شهر آب ١٩٥٦.

ألح دوكورنو:

ـ بن بلا فوق رؤوسنا. يجب اعتقاله مع كل رفاقه.

ـ تقول بن بلا؟ مستحيل؟ كيف حدث ذلك؟

شرح دوكورنو الأمر. قال إن السلطان محمد الخامس، سلطان مراكش المستقلة حديثاً، سيطير إلى تونس ـ المستقلة كذلك حديثاً ـ فوق الأراضي الجزائرية. وسيناقشان الوضع مع قادة الثورة الجزائرية، الذين كانوا في المغرب، لدراسة القضية مع السلطان محمد الخامس. وسيطيرون معه إلى تونس.

ستقلع طائرة السلطان الساعة ١٠,٤٥، من مطار الرباط، وستطير فوق الجزائر.

علق بارني: يستحيل أن نرى هؤلاء السادة يطيرون فوق رؤوسنا.

أما شوساد فرأى ألا جدوى من التدخل. فما معنى اعتقال بن بلا؟ ثم أن الطائرة تحمل سلطاناً، والطائرة تتمتع بحصانة. مع ذلك، اعتبر دوكورنو مرور بن بلا ورفاقه فوق الجزائر دون اعتقالهم، خيانة لأولئك المحاربين ضد ثورة فرنسا.

كان بن بلا واحداً من تسعة قادة تاريخيين قادوا ثورة الجزائر. وكان قبل ذلك سجيناً في سجن بليدا ثم استطاع الفرار من السجن،



□ صورة تاريخية جامعة، تضم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، الرئيس أحمد بن بيلا، الرئيس سوكارنو والرئيس تيتو، في مؤتمر القاهرة لدول عدم الانحياز.

والسفر إلى القاهرة. وهو أحد مؤسسي جبهة تحرير الجزائر وجيش تحرير الجزائر.

حين تسلم روبير لاكوست مركزه في شباط ١٩٥٦ في الجزائر، وجد تقارير تدعو إلى التشاؤم. فكل القادة، في كل مناطق الجزائر، كانوا يؤكدون أن الوضع يتأزم ويتدهور بسرعة. وأن الثورة «تتفاقم». وبالمقابل كان قادة الثورة يشعرون بقلة الإمكانات، سواء على صعيد التسلح، أو على صعيد التموين.

المفاوضات

كان الفريقان يشعران أن المفاوضات وحدها طريق الخلاص من المأزق. رغم التصريحات الإعلامية، التي تناقض ذلك. والواقع أن مندوبين من الفريقين التقوا سراً في القاهرة مرة، وبلغراد مرتين، وروما مرتين. وكان الوفد الفرنسي مؤلفاً من بيير كومان، أرنست كازل، وبيير هيربو. وكان الوفد الجزائري مؤلفاً من خيضر، ويزيد، وكيوان.

٣ أيلول، الساعة ١٦,١٥، قرأ على الوفد الجزائري ورقة العمل المتضمنة ما يلي: ١ ــ الحريات العامة، والحقوق الشخصية. ٢ ــ القضايا العسكرية ــ ٣ ــ القضايا الخارجية. ٤ ــ التخطيط الاقتصادي والمسائل المالية.

بل لحظ في الاجتماع مشروع خطة لبدء المفاوضات النهائية وذلك: بأن تعلن فرنسا عن موافقتها على المفاوضات، وترد الجزائر بإعلان مماثل. ويعين الجزائريون مندوبيهم، وكذلك الفرنسيون. وكان من المتوقع أن تبدأ هذه المرحلة في أوائل تشرين الثاني، حسب قول الصحفي ألبر ــ بول لانتان، الذي كان يرافق الثوار الجزائريين.

هل كان الحل مطلوباً فعلاً؟ هل كانت فرنسا تعتزم منح الجزائريين الاستقلال؟ يبدو أن الأمر لم يبلغ هذا الحد في نظر الفرنسيين. حتى السلطان محمد الخامس والرئيس بورقيبة



□ القادة الخمسة قبل الإقلاع مع ولي العهد الحسن.

كانا يعتقدان أن من المبكر منح الجزائريين الاستقلال. ولا بد من مراحل. واقترح محمد الخامس اجتماعاً رباعياً يعقد في الرباط برئاسته، يتمثل فيه الفرنسيون، والجزائريون والتونسيون والمراكشيون.

وأبدى السلطان محمد الخامس رغبته في الاجتماع إلى القادة الخمسة في الرباط. كما أن بورقيبة أبدى الرغبة في الاجتماع إليهم بحضور السلطان محمد الخامس.

بالفعل، ترك بن بلا القاهرة، إلى مدريد في ١٨/١٠/٥٦. ثم غادرها إلى تطوان حيث التقى خيضر وآية أحمد، ومحمد بوضياف، ومصطفى الأشرف، مدرس اللغة العربية في ليسيه لوي لوغران، وقد التقى خيضر في مدريد فأقنعه هذا بالسفر معه كمستشار إلى مراكش.

٢٠/١٠ طار الخمسة من تطوان إلى الرباط. المساء اجتمعوا إلى السلطان محمد الخامس، بحضور ولي العهد الحسن، ومدير البروتوكول مولاي علوي.

قدم ولي العهد تقريراً عن اجتماعاته في فرنسا مع مسؤولين بينهم غي موليه والجنرال دوغول. وكان غي موليه صرح له:

ـ نريد وضع حد للحرب الجزائرية، وكنا جربنا أكثر من مرة الاتصال بالقادة الجزائريين، ولكن الاتصالات لم تجد حتى اليوم.

وصرح له وزير الدفاع الوطني، موريس بورجيس مونوري بما يلي: «ستصل القضية الجزائرية إلى منعطف هام في أوائل تشرين الثاني».

والواقع أن اجتماعاً حدد وقته في روما بعد عودة وزير الدفاع من لقائه وزير الحربية البريطانية، في لندن. ولكن مونوري لم يصارح الأمير الحسن بسبب اجتماعه بالوزير البريطاني، وهو التحضير مع إسرائيل لحملة السويس.

وكان توكيد الحسن على رغبة الفرنسيين في حل قضية الجزائر، سبباً لحماسة السلطان



□ القادة الخمسة في طريقهم إلى فيلا «الزيتون». في معاصم بن بيلا وآية احمد والأشرف قيود.

محمد الخامس، لأخذ المبادرة، وتحضير الأجواء، وذلك باتصاله بقادة الجزائر، وإقناعهم بضرورة القبول بتحقيق حد معقول من المطالب.

مخاوف بن بلّا

كان المفروض أن يكون لقاء السلطان بالقادة الجزائريين سرياً، ولكنه لم يكن كذلك، فمنذ وصولهم الرباط كانت مجموعة كبيرة من الصحفيين من جنسيات مختلفة موجودة في الرباط لنقل أخبار الاجتماع. كما أذيع بوضوح أن محمد الخامس يعد للقاء بين القادة الجزائريين وبينه وبين بورقيبة.

المساء ــ الأحد ٢١/١٠/ ــ نشر آلان سافاري البلاغ التالي: «تعرف الحكومة الفرنسية مدى الأهمية التي تعلقها حكومة المغرب على مستقبل الجزائر. ولكنها في المقابل ترى أنه من غير المناسب أن تستقبل حكومة المغرب قادة «التمرد» الجزائري استقبالاً حافلاً ورسمياً».

وختم البلاغ: «لقد قررت الحكومة الفرنسية قطع المفاوضات الحالية مع الحكومة التشريعية». حين ركب السلطان محمد الخامس الطائرة إلى تونس، لم يكن قد علم بأمر البلاغ، أو بأمر الأزمة التي نشبت بين المغرب وفرنسا.

كان الوقت قد حدد للسفر منذ ٤٨ ساعة. وكان السلطان قد دعا القادة الخمسة للسفر بطائرته إلى تونس. ولكن، فجأة، وفي صباح ٢٢، رأى السلطان أن سفر القادة معه قد يسوء فرنسا. وقد صارح بذلك الكولونيل «تويا» صديقه الحميم:

ــ إطمئن لن تزعج وسترافقني في طائرتي لأن بن بلا وصحبه سيسافرون في طائرة ثانية. وقبل السفر بساعات أنبىء القادة بالأمر، وبأن طائرة D.C3 ستقلهم إلى تونس. وقد بدا بن بلا متشائماً لذلك. ولو كان في الوقت متسع لسافر إلى مدريد ومنها إلى تونس، ولكن الوقت كان قصيراً، فاضطر للقبول على مضض.

إذا لم نفعل شيئاً فنحن عصابة ...

أما على الطرف الآخر، في الجزائر، فقد كانت قيادات الفرنسيين تجمع على ضرورة عمل ما. كان بعضهم يفكر بإسقاط طائرة بن بلا بمن فيها. وبعضهم بإنزالها مهما كان الثمن، وكانوا يقولون ذلك بصراحة، في فندق سان جورج، أو في حانة فندق أليتي.

وكان الجنرال لوريّو قائد المنطقة العسكرية العاشرة، والجنرال فراندون قائد المنطقة الجوية



□ بن بلا يستجوب بعد اعتقاله.



□ المحافظ بيير شوساد.

الخامسة، فلم يكونا مستعجلين. كان يريدان أن يعرفا رأي السلطة في ما يجب عمله.

وذهب بعض الضباط إلى حد الإعلان: «أن المدنيين إذا رفضوا إنزال الطائرة أو إسقاطها فإنهم يخونون المحاربين المقاتلين».

صباح ٢٢/١٠/ كان الكولونيل دوكورنو والليوتنان كولونيل بارني يشعران بضغط رفاقهما الشديد لعمل شيء ما. ولكن! لم يكن لاكوست في مكتبه لاستشارته. كان في مقاطعة دودوني يزور ناخبيه. لذلك اتصل دوكورنو بشوساد لأخذ رأيه. ولكن شوساد كان ضد اتخاذ أي تدبير، خاصة وأن القادة الخمسة كانوا سيطيرون مع السلطان محمد الخامس في طائرته ــ تلك كانت المعلومات حتى ذلك الوقت ــ ، لذلك كان لا بد من رأي السلطات في فرنسا.

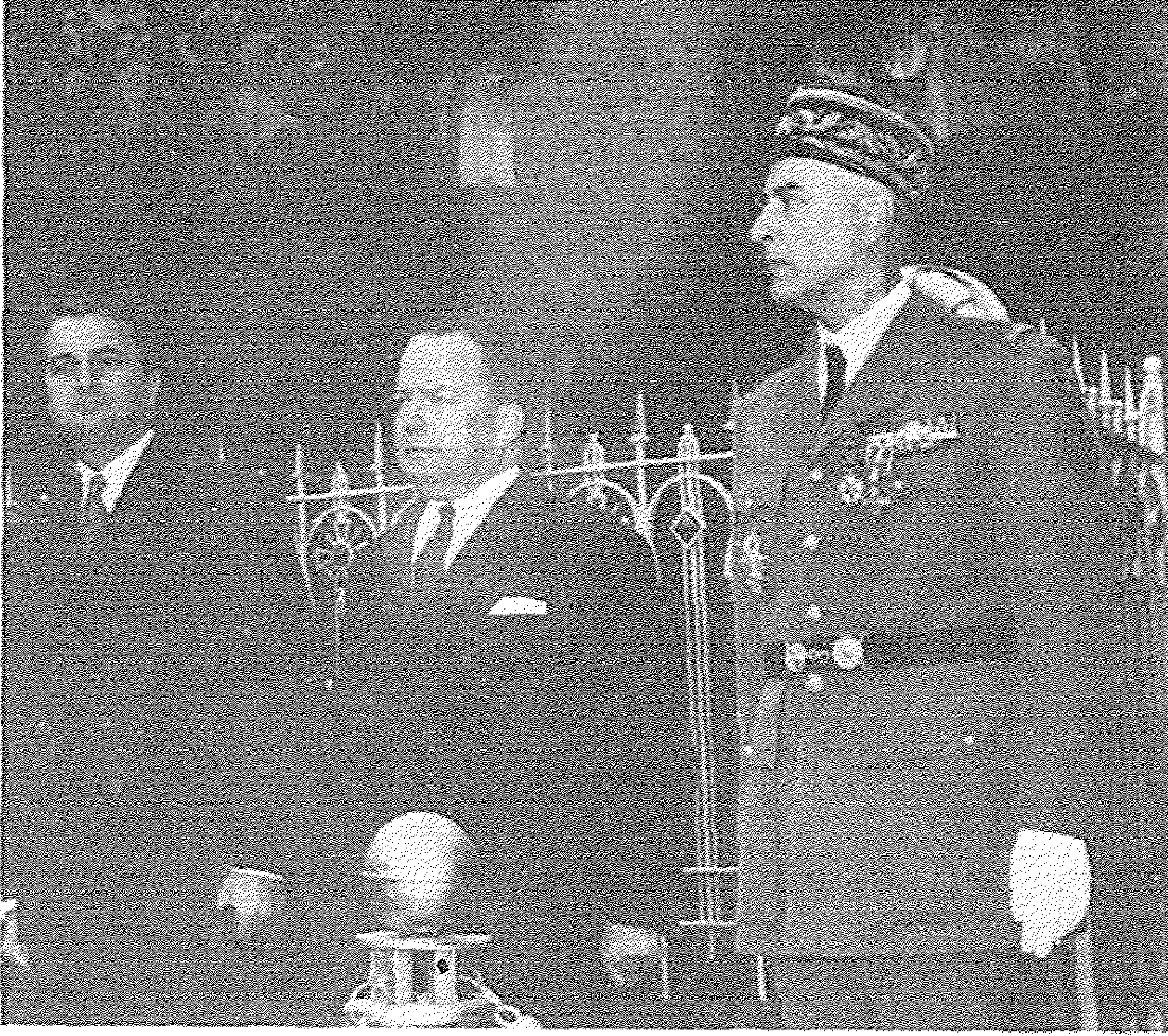
قبل ذلك ــ الساعة السابعة صباحاً ــ تلقى مدير مكتب مونوري، آبل توماس من رئاسة الأركان في الجزائر اتصالاً يقول أن طائرة السلطان محمد الخامس ستقل قادة الثورة. وقال المتحدث: هذا تحد، ولا يستطيع الجيش الصمت.

ماكس لوجون: إني «أغطيكم»

أراد توماس إعلام وزيره بالأمر، ولكن الوزير كان ترك منزله منذ الفجر، وسافر إلى لندن للاجتماع بزميله من أجل حملة السويس. ثم إن كل الوزراء كانوا تركوا باريس ذلك النهار. وكان على توماس أن يتخذ القرار بنفسه، مع أن القرار من مسؤولية وزير الجزائر، أو رئيس الوزارة. ولكن هذا كان كذلك يقوم بجولة في منطقة بادوكالي.

بدأ الشعور بإضاعة الوقت يتفاقم لدى العسكريين. توصل الجنرال لوريّو إلى الاتصال بأحد الوزراء: هو ماكس لوجون. الذي قال ساعة علم أن بن بلا سيطير فوق الجزائر: اعتقلوه، سأغطيكم. وطلب من لوريّو أن يطلعه على الأخبار أولاً بأول. وقال أنه سيبقى في مكتبه إلى المساء، وبعد ذلك في بيته.

وهنا لا بد من تعليق: «هل صحيح أن جميع الوزراء، حتى الرئيس، كانوا غائبين عن باريس؟ كان اليوم هو الاثنين ٢٢/١٠/١٩٥٦. فكيف لم يستطع كل الذين قاموا بالاتصالات العثور على رئيس الوزارة، مثلاً، أو أي وزير



□ ماكس لوجون، وروبير لاكوست، والجنرال لوريّو.

آخر، خلال فترة طويلة ــ منذ الثامنة والنصف صباحاً إلى الثامنة عشرة مساء ــ . وكيف لم يجدوا إلا ماكس لوجون، مع أن القضية خطيرة، وكان من شأنها أن تعرض العلاقات المغربية الفرنسية إلى أزمة خطيرة. من الواضح أن عملية إنزال الطائرة لم تكن لتحدث لو أن الجهاز الحكومي كان موجوداً. فكيف غاب كل الجهاز، ولماذا لم يكن ثمة إلا ماكس لوجون؟».

الكومندان غريليي وطاقمه

اتصل لوريو بفراندون وطلب أمراً خطياً بإنزال الطائرة. وجد بيير شوساد الجواب في التعميم العام التالي: اعتراض أية طائرة أجنبية تطير فوق الأراضي الجزائرية دون إذن مسبق.

حتى العاشرة لم تكن طائرة السلطان محمد الخامس قد طلبت الإذن. الحادية عشرة والنصف اتصلت السلطات في الرباط تطلب الإذن بتحليق طائرة السلطان، وحددت مسارها.

وفي الوقت ذاته وردت برقية من وكالة الأنباء المركزية تؤكد أن القادة لن يسافروا في طائرة محمد الخامس، وإنما في طائرة D.C.3. حالاً، طلبت المنطقة الجوية الخامسة عدم ملاحقة طائرة محمد الخامس، ومتابعة الطائرة الأخرى، منذ أن تحلق فوق الجزائر. وسمع صوت مضيفة الطائرة تقول:

ــ القائد غريليي وطاقمه يرحبون بكم على متن طائرتهم D.C.3 من شركة طيران أطلس. نطير على ارتفاع ٢٥٠٠ م. ستكون لنا محطة في بالما ماجورك ثم نستأنف الرحلة إلى تونس فنصلها حوالي الساعة ٢١.

كان اسم المضيفة ميشيل لامبير، وهي فرنسية مثل القبطان والميكانسيان وضابط الاستماع.

أقلعت D.C.3 وعليها عدا القادة، عدد من الصحفيين الفرنسيين: كريستيان داربور من المجلة الأسبوعية الاستقلال. إيف ديشان من الفرانس أوبسرفاتور، روني ليزي من وكالة الأنباء المركزية، والأميركي توماس برادي مراسل



□ يد الاستعمار تحاول خنق صوت الحرية أثناء حرب التحرير الجزائرية.

نيويورك تايمز.

قبل الإقلاع، قال محمد دويري وزير الأشغال العامة المغربي للقادة: ستتجنب الطائرة المياه الإقليمية الفرنسية. للطائرة محطة في جزر الباليار.

ولكن تشاؤم بن بلا لم يزل. وكان حدسه يؤكد وقوع حادث ما.

اتصل الكابتن X بكاتب المقال، وقال له أنه لا يريد التصريح باسمه، ولكنه كان مسؤولاً صباح ٢٢/١٠/٥٦ عن الملاحة الجوية في المغرب، وتتبع كل ما حدث، لحظة فلحظة، عبر الراديو. وهذه هي المعلومات التي قدمها الكابتن X.

أقلعت طائرة D.C.3 من الرباط الساعة ١٢ و٢٤ دقيقة. اتصل القائد غريليي بمركز المراقبة في الدار البيضاء، واتصل هذا بدوره بمركز المراقبة في الجزائر.

وعلم X أن القادة الجزائريين على متن الطائرة. فأنبأ بذلك قائد سلاح الجو المغربي بذلك. وطلب معلومات.

ظل على اتصال بالطائرة. وتتبع كل اتصالاتها، خاصة حين صارت فوق وهران. وطلب من القائد أن يحدد موقعه كل ست دقائق. وكان الهدف معرفة سرعة الطائرة وعلوها، حتى يكون اعتراض طائرات «ميسترال» الحربية لها في الوقت المناسب، ومفيداً.

الساعة ١٦ توقف طاقم الطائرة عن الاتصال ببرج المراقبة في أشبيلية. فجأة سمع صوت فرنسي آخر على الراديو:

— إزعم أن الطائرة أصيبت بعطل، وانزل في وهران.

كان رد القائد المندهش:

— ما هذه القصة؟

— معك خمسة يجب أن نعتقلهم.

— من يعطيني الأمر؟

— وزير الدفاع الوطني

وحدث اضطراب في قمرة القيادة.

الساعة ١٦ و٢٢ دقيقة اتصل راديو الـ D.C.3 بمكتب الكابتن X. وطلب منه نقل الرسالة العاجلة إلى الشركة: «سننزل في بالما — وقف — وردنا أمر وزارة الدفاع الوطني بالنزول في وهران — وقف — نطلب تعليمات بعد الإقلاع من بالما».

حين وصلت البرقية، كان الكابتن X على اتصال بقيادته. وحين دخل المكتب أمر بعدم نقل أي رسالة من الطائرة بدون معرفته. وأطلع رئاسة أركان الرباط على ذلك.

نزلت الطائرة في بالما. استراح القادة في المطعم، وتحلق حولهم الصحفيون. بينما بقي قائد الطائرة غريليي في قمرته.

الساعة ١٧ و١٦ دقيقة تلقى الكابتن X من الطائرة نبأ إقلاعها الساعة ١٧ و١٤ دقيقة. وطلبها تعليمات جديدة. الساعة ١٧ و١٨ دقيقة تلقى مركز المراقبة أمراً من سيغي رئيس عمليات شركة الطيران، بعودة الطائرة إلى بالما وانتظار تعليمات جديدة. ولكن الكابتن X لم يبلغ، وإن زعم أنه سيفعل ذلك بنفسه. الساعة ١٧ و٣٥ دقيقة تلقى أمر قائد طيران المغرب بإعطاء الطائرة الأمر بالنزول في الجزائر.

الساعة ١٨ أنبأت الطائرة أنها ستصل تونس الساعة ٢١ و٢٥ دقيقة. وكانت هذه البرقية أشبه بصفعة للعسكريين في الجزائر. ومنذ تلك اللحظة تولى برج المراقبة في مطار «البيت الأبيض في الجزائر» الحوار مع الطائرة.

الجزائر: ستحطون في الجزائر.

الطائرة: باسم من تتكلم؟

الجزائر: باسم الحكومة الفرنسية.

الطائرة: نطلب توضيحات.

الجزائر: باسم الحكومة الفرنسية، وبأمر السيد لاكوست وزير الجزائر.

الطائرة: نحن تابعون لشركة أجنبية. وأوامركم لا تعنينا.

الجزائر: نريد العصاة.

الساعة ١٨ أعلمت الطائرة المراقبة في المغرب أنها تلقت من الجزائر الأمر التالي: «إنزلوا — وقف — الوزير المقيم يغطيكم».

الطاقم مطوق

في الوقت ذلك، بدأ الشعور في الجزائر بخسارة الموقف. لقد صمتت الطائرة ولم تعد تجيب على الاتصالات. ثم قطع الصمت الساعة



◘ وزارة غي مولي ومعظمها من الاشتراكيـين، إبان الثورة الجزائرية.

١٩. طلبت من الجزائر الرجوع إلى المغرب. وكان الجواب: «تعالوا إلى الجزائر. أمر السلطة أن تحطوا في الجزائـر. نكرر: أعـطيناكم الأمـر، أعطيناكم الأمر».

الساعة ١٩ و٣٠ دقيقة طلبت الطائرة ثانية العودة إلى مراكش.

الجزائر: لا تعودوا إلى مراكش. تعالوا وحطوا في الجزائر. يغطيكم الوزير.

الطائرة: وعائلاتنا في المغرب؟

الجزائر: سنعنى بالأمر. سننقل عائلاتكم إلى محل أمين.

الطائرة: وإذا كان الثوار مسلحين.

الجزائر: تثبتوا من ذلك!

الطائـرة: وإذا علموا أننـا فوق الجـزائـر فوضعوا السلاح فوق رؤوسنا؟

الجزائر: ستقلـع طائـرات المطاردة وهكـذا يكون لديكم العذر بالنزول في الجزائر.

يكتب روني روسيل الذي كان ذلك الوقت في مركز مراقبة الجزائر المنطقي (الطيران المدني): «أعطي الأمر للطائرة بالنزول في مطار البـيت الأبـيض في الجزائر. ولكن الطائرة قامت بعدة دورات حتى اطمأن قادتهـا إلى أن عائـلاتهم أصبحت في مأمن، فقرروا النزول في مطار البـيت الأبـيض».

مرت طائرة مطاردة قرب D.C.3 قال القائد: لا تترددوا أيها الشجعان. وفي هذا الوقت كانت المضيفة تفتـح باب القمرة وتتجول بـين الركاب. سألها بن بلا، الذي كان وحده مستيقظاً: أية طريق نسلك؟

ـــ ربما كنا نتخذ أقصر طريق.

ـــ لن نطير فوق الجزائر؟

ـــ لا، ولكننا اتخذنا طريقاً مباشراً.

في هذا الوقت تلقت طائرة «ميسترال» بضرب المحرك الأيمن من D.C.3 إذا حاول قـائدهـا الانحراف بها.

في هذا الوقت تم الاتصال بروبـير لاكوست الوزير المقيم. فاستهول الأمر. فقيل له:

ـــ ما زال في الوقت متسـع للسماح للطائرة بالاتجاه إلى تونس.

ـــ ستكلفني القضيـة الكثـير. ولكن قـادة «التمرد» على الطائرة، وهم يطيرون فوق الجزائر، ولا أستطيـع إلا أن أعتقلهم.

أهذه تونس

أرسل طاقم D.C.3 البرقية التالية: «كل شيء



□ بن بـيلا يوم كان في سجن بليدا.

على ما يرام. لم ينتبه القادة الجزائـريون إلى شيء. فهل اتخذتم الاحتياطات الأمنية».

ــ اتخذنا كل ما يلزم.

والواقـع أن الاحتياطات على المطار كانت شديدة. وكان فيه خمسة جنرالات بـينهم لوريو. وكان القادة الجزائريون يتطلعون من النوافذ فيرون أنواراً شديدة في المطار. سأل أحـدهم المضيفة:

ــ أهذه تونس؟

ــ نعم. وسنحط خلال ربـع ساعة.

وكانت اللوحة تشير إلى: «ضعوا الأحزمة». وجاء صوت المضيفة: «الرجاء ألا يتحرك أحد من مكانه قبل أن نبلغكم ذلك».

داخل القمرة كان كل شيء هادئاً، والبـاب مغلق، والاتصال مستمر ببرج المراقبـة. فجأة أطفئت كل الأنوار، وحطت الطائرة، وانـدفـع الجند إلى الطائرة، وفي مقدمتهم الكولونيل أندريه وبـيده الرشاش، وهو يصيـح: «إرفعوا أيديكم».

حاول بن بـيلا أخذ مسدسه، ولكن رفاقـه قالوا له: «لا تترك لهم حجة لاغتيالك» واقتيد القادة إلى فيلا «ليزوليفيـيه» ــ الزيتون ــ.

حين علم السلطان محمد الخامس ــ وكان بلـغ تـونس ــ بمـا حـدث، أتصـل بـرئيس الجمهورية الفرنسية، وقال بصوت غاضب: «كان القادة الجزائريون في حمايتي. وقد أسأتم إلى ضيافتي. تعرف معنى الروح الإسلامية. إنها قضية شرف. أقدم أبنائي عوضاً عن القادة».

صدم الرئيس الفرنسي صدمة قوية. وطرح بعض الوزراء اقتراحاً بإطلاق القادة الخمسة. ولكن رئيس الجمهورية قال: أترك الأمر لرئيس الوزراء.

ورغم أن رئيس الوزراء كان منزعجاً، فإنه قال: «آسف لتحويل طائرة بن بـيلا عن مسارها، كان ذلك عملاً غير رصين، وغير مسؤول. وكان المفروض أن تطلب موافقة الحكومة عليه. مـع ذلك، وفي الظرف الحالي، وتجاه الرأي العـام الشعبـي والبرلماني، فإننا لا نستـطيـع إطلاق سراح السجناء. فلو فعلنا ذلك لسقطت الحكومة. لقد حدث الخطأ ولكننا لا نطيق التراجـع عنه.



معاهدات الخليفة الرّاشدي عمر بن الخطاب مع أهل مدن إيرانيّة

إعداد: شذا عدره

يتميّز عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و «الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها، كالمعاهدات مع أهل بعض المدن الإيرانية التي افتتحوها، وهي لا تخلو من توجيهات الخليفة الراشدي وسداد رأيه.

كتاب عمر إلى أمير الجيش النعمان بن مقرن
طب ص ٢٥٩٦ ـ ٢٥٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النُّعمان بن مُقَرِّن:

سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد:

فإنه قد بلغني أنّ جُموعاً من الأعاجم كثيرةً قد جمعوا لكم بمدينة نِهاوَند. فإذا أتاك كتابي هذا، فسِرْ بأمر الله وبعَون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين. ولا تُوطئهم وَعراً فتُؤذيهم، ولا تَمنعهم حقّاً فتُكفِّرهم، ولا تُدخلنَّهم غَيضةً، فإنّ رجلاً من المسلمين أحبّ إليّ من مائة ألف دينار.

والسلام عليك.

معاهدة النعمان مع أهل ماه بهراذان
طب ص ٢٦٣٢ ـ ٢٦٣٣

أعطاهم الأمانَ على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم. لا يُغيَّرون عن مِلّة، ولا يُحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المَنعة ما أدّوا الجزية في كل سنة إلى من وَليهم: على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته؛ وما أرشدوا ابنَ السبيل، وأصلحوا الطُّرُق، وقَرَوا جنودَ المسلمين ممن مَرَّ بهم، فآوى إليهم يوماً وليلةً، ووفوا ونَصَحوا. فإن غشّوا وبَدّلوا فذمّتنا منهم بريئة.

شهد عبد الله بن ذي السّهمين، والقَعقاع بن عمرو، وجَرير بن عبد الله.

(وكتب في المحرم سنة تسع عشرة).

معاهدة أصفهان
طب ص ٢٦٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد الله للفاذوسفان وأهل أصبهان وحواليها:

إنكم آمنون ما أدَّيتم الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة، تؤدُّونها إلى الذي يَلي بلادكم عن كل حالم، ودلالة المسلم، وإصلاح طريقه، وقِراه يوماً وليلةً، وحُملان الراجل إلى مرحلة، لا تسلّطوا على مسلم. وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم. ولكم الأمان ما فعلتم. فإذا غيّرتم شيئاً أو غيّره مغيّر منكم ولم تُسلِّموه، فلا أمان لكم. ومن سبّ مُسلِماً بُلِـغ منه. فإن ضربه قتلناه.

وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن وَرقاء، وعِصمة بن عبد الله.

معاهدة مـع أهل طبرستان وجيلجيلان
طب ص ٢٦٥٩ ــ ٢٦٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سُويد بن مقرِّن للفَرُّخان، إصْبَهْبذ خُراسان على طبرستان، وجيل جيلان من أهل العدوّ.

إنك آمنٌ بأمان الله عزّ وجلّ، على أن تَكفّ لُصُوتَك وأهل حواشي أرضك، ولا تُـؤوي لنا بُغيةً. وتتقي من وَلي فرجَ أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك. فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منّا أن يُغِير عليك، ولا يتطرق أرضك ولا يدخُل عليك إلا بإذنك. سبيلنا عليكم بالإذن آمنةٌ، وكذلك سبيلكم. ولا تُـؤو ن لنا بُغيةً ولا تُسِلّون لنا إلى عدوّ ولا تُغلّون. فإنْ فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم.

شهد سواد بن قُطبة التميميّ، وهند بن عمر المُرادي، وسِماك بن مَخـرمة الأسـديّ، وسِماك بن عُبَيْد العبسيّ، وعُتيبة بن النّهاس البَكْريّ.

وكتب سنة ثماني عشرة.

معاهدة مـع أهل آذربيجان
طب ص ٢٦٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا ما أعـطى عُتبة بن فَـرقَد عـاملُ عمـر بن الخـطاب أمـير المـؤمنـين أهـل آذربيجـان: سهلهـا وجبلهـا وحـواشيهـا وشفـارهـا وأهـل مللهـا كلهم، الأمـانَ عــلى أنفسهم وأمـوالهم ومللهم وشـرائعهم، عـلى أن يُـؤدّوا الجـزيـة عـلى قـدر طاقتهم. ليس عـلى صبـي ولا امـرأة ولا زمن ليس في يـديـه من الدنـيـا شيء. لهم ذلك ولِمَـنْ سكـن منـهم، وعليم قِـرى المـسلم مـن جـنـود المسلمـين يـومـاً وليلةً، ودلالتُـه. ومَن حُشِر مـنـهـم في سـنـة وُضـع عـنـه جـزاء تلك السنـة. ومَن أقـام فله مثـل مـا لمن أقـام مـن ذلك. ومن خـرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه.

وكـتب جُـنـدُب. وشـهـد بُـكـير بـن عـبـد الله الليـثـيّ، وسِـمـاك بـن محرَشَة الأنصاريّ.

وكتب في سنة ثماني عشرة.

(٥) وفي نسخة: ولا من ليس في يديه.

حل رموز الاختصارات
المستعملة في أوائل الوثائق

ألف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
با... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبي يوسف.
ديب... الديبلي.

طب... تاريخ الطبري.
عمخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.

آفة الكيمياء الصيادلة

● قال المأمون يوماً ليوسف الكيميائي:

ويحك يا يوسف! ليس في الكيمياء شيء!

فقال له:

بلى يا أمير المؤمنين، وإنما آفة الكيمياء الصيادلة.

قال له المأمون:

ويحك، وكيف ذلك؟

فقال:

إن الصيدلاني لا يَطلبُ منه إنسانٌ شيئاً من الأشياء، كان عنده أو لم يكن، إلا أخبره بأنه عنده، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التي عنده، وقال: هذا الذي طلبت. فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع اسماً لا يُعْرَف، ويوجّه جماعة إلى الصيادلة في طلبه ليبتاعه، فليفعل.

فقال له المأمون:

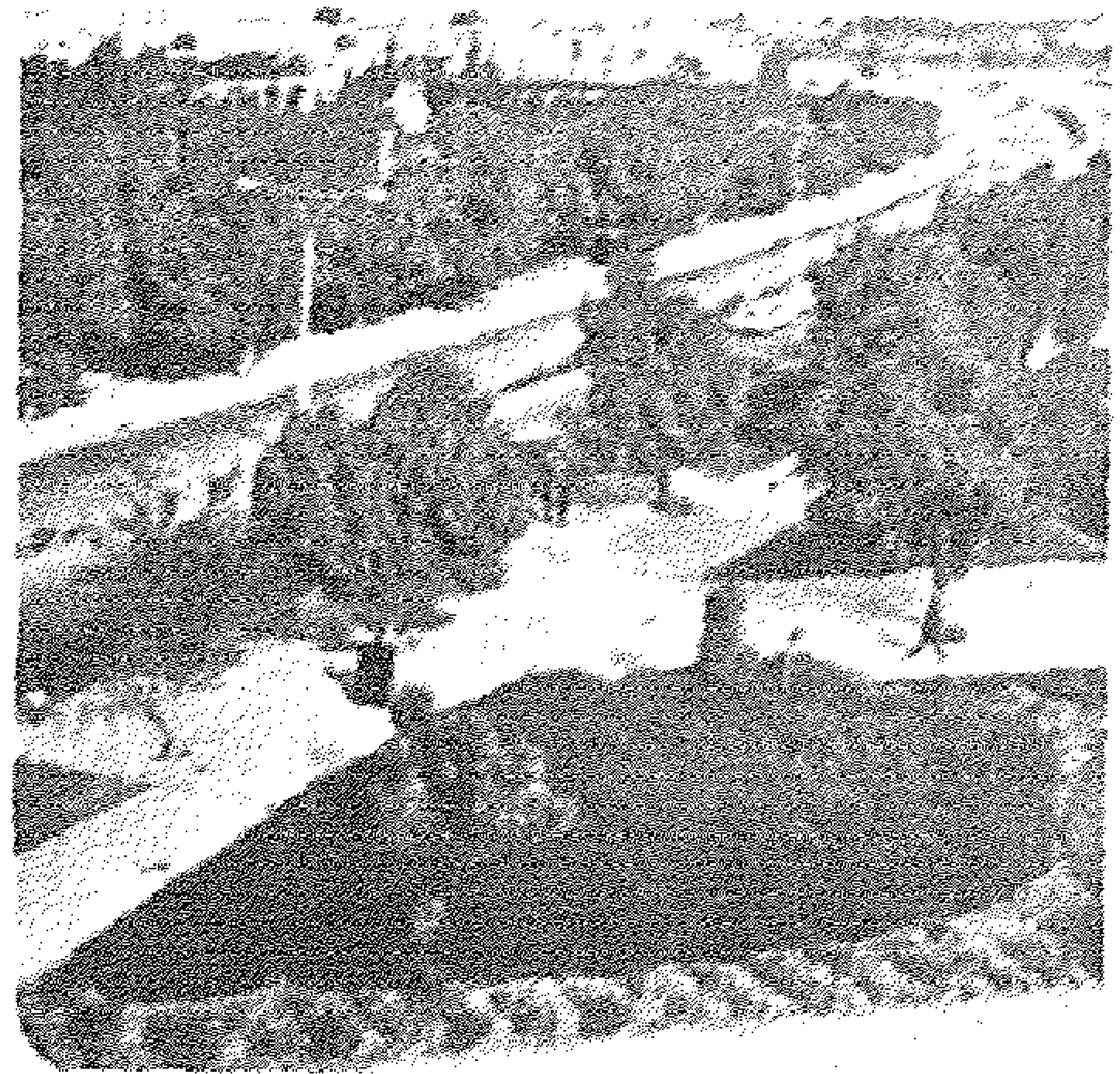
قد وضعتُ اسماً، وهو «سقطيثا».

و «سقطيثا» ضيعة تقرب من مدينة السلام. ووجّه المأمون جماعة من الرّسل يسأل الصّيادلة عن «سقطيثا»، فكلهم ذكر أنه عنده، وأخذ الثمن من الرّسل، ودفع إليهم شيئاً من حانوته. فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة، فمنهم من أتى ببعض البذور، ومنهم من أتى بقطعة من حجر، ومنهم من أتى بوبر!

من كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أُصَيْبِعة

بير السبع

"قسم التوثيق والأبحاث"



□ جانب من مدينة بئر السبع عاصمة النقب الشمالي.



مدينة عربية من مدن اللواء الجنوبي لفلسطين، وهي قاعدة قضاء بير السبع وعاصمة النقب.

مرت بالمدينة منذ نشأتها أحداث كثيرة، وناضل سكانها ضد الانتداب البريطاني والاستيطان الصهيوني، واشتركوا في جميع الثورات، وسقط منهم الشهداء. وقد وقفوا عام ١٩٤٨ في وجه القوات الإسرائيلية محاولين منعها من احتلال المدينة والتقدم جنوباً في النقب. لكن القوات الصهيونية تغلبت على المقاومة العربية، واحتلت بير السبع في ١٩٤٨/١٠/٢١، وطردت سكانها العرب، وأحلت مكانهم مهاجرين يهوداً.

(أ) الإطار الطبيعي لمدينة بير السبع

١ ــ الموقع الجغرافي: تقع مدينة بير السبع في النقب الشمالي، وتكاد تكون في منتصف المسافة بين البحر الميت شرقاً والبحر المتوسط غرباً. وهي تتوسط قاعدة المثلث الصحراوي للنقب، إذ تبعد نحو ٧٥ كم غربي البحر الميت، ونحو ٨٥ كم شرقي البحر المتوسط. اكتسب موقعها أهمية خاصة لأنه يربط بيئات ثلاث هي: البيئة الصحراوية جنوباً، والبيئة الجبلية شمالاً بشرق، والبيئة السهلية الساحلية شمالاً بغرب. ومن الطبيعي أن تلتقي في هذا الموقع منتجات هذه البيئات، وأن يصبح سوقاً رائجة يؤمها البدو والحضر على حد سواء.

وتعد بير السبع مدينة الحافة الصحراوية التي يحتم عليها موقعها الهامشي أن تستقطب أعداداً كبيرة من البدو للاستيطان فيها. كما أن موقعها جذب أعداداً من تجار الخليل وغزة للإقامة فيها. وفي هذه الحالات كلها ساعدت الطرق البرية التي تربط بير السبع بالمواقع الأخرى على استمرار الاستيطان البشري في المدينة وزيادة الحركة التجارية فيها.

وقد زادت أهمية موقع بير السبع في العصور الحديثة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، فالمدينة تعد بحق البوابة الجنوبية لفلسطين من جهة النقب، والبوابة الشمالية للنقب، والبوابة الشرقية لسيناء.

ففي الحروب العربية ــ الإسرائيلية التي نشبت منذ عام ١٩٤٨ كانت بير السبع بموقعها الاستراتيجي الهام محط أنظار الجيوش

المتحاربة. وقد حرص الجيش المصري عام ١٩٤٨ على السيطرة على بير السبع للتحكم في صحراء النقب، ثم تمكنت القوات الإسرائيلية من احتلال بير السبع وانطلقت منها لاحتلال النقب بأكمله. وفي حروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ كانت مدينة بير السبع قاعدة انطلاق الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة وسيناء وقناة السويس، لذا اهتمت (إسرائيل) بربط المدينة بجميع جهات فلسطين بمختلف طرق المواصلات.

وهكذا أصبحت بير السبع عقدة مواصلات هامة منذ عام ١٩٤٨، تربطها بجميع أجزاء فلسطين شبكة مواصلات كثيفة، فالطرق المعبدة من الدرجة الأولى تربطها بمدن االسهل الساحلي في الشمال والغرب مثل حيفا (٢٠٠كم) ويافا ــ تل أبيب (١٠٧كم) وأسدود والمجدل (عسقلان) وغزة (٦٥ كم). كما تربطها أيضاً بالمدن الجبلية في الشمال والشرق مثل الخليل والقدس (٨٥ كم) ونابلس (١٥٠كم)، وبالمدن الصحراوية في الشرق والجنوب والغرب مثل عراد وأسدوم وديمونا وإيلات والعوجاء وغيرها، وتنتهي في بير السبع السكة الحديدية التي تصلها بمحطة النعاني الواقعة على خط يافا ــ القدس الحديدي. وتمّ سنة ١٩٦٥ تمديد هذا الخط الحديدي من بير السبع إلى ديمونا، وإلى حقول الفوسفات في النقب. وقد أقيم في بير السبع مطار حربي، وفي بير السبع أكبر وأهم محطات الضخ على خط النفط بين إيلات وحيفا. وبعد عام ١٩٦٧ أصبحت بير السبع أحد الممرات الرئيسية التي يعبرها المسافرون العرب بين الضفة الغربية وقطاع غزة.

٢ ــ معالم سطح الأرض في إقليم بير السبع: يقع إقليم بير السبع في الجزء الأعلى من حوض تصريف وادي غزة الذي يتألف من أودية الشريعة والشلالة وبير السبع. وتقوم مدينة بير السبع على الضفة اليمنى (الشمالية) لوادي بير السبع فوق رقعة منبسطة من الأرض ترتفع في المتوسط نحو ٢٣٦ م عن سطح البحر. وإلى الشرق قليلاً من بير السبع يلتقي رافدا وادي بير السبع، وهما وادي الخليل ووادي المشاش القادمان من مرتفعات الخليل وعراد. وتوجد في بعض هذه الأودية الجافة ينابيع ماء أو آبار تعرف بأسماء مختلفة كالعدّ والعين والمشاش وغيرها.

وإقليم بير السبع منخفض يتخذ شكل المثلث الذي توازي قاعدته شاطىء البحر المتوسط في الغرب، ويتوغل رأسه كإسفين بين مرتفعات النقب والخليل في الشرق. وتنحدر الأرض بصفة عامة من الشرق إلى الغرب، وتتجه مجاري الأودية وفقاً لهذا الانحدار في طريقها نحو البحر المتوسط. لذا تتفاوت ارتفاعات الأرض في الإقليم فتصل إلى ٥٠٠ م عن سطح البحر في الجزء الشرقي، في حين تحوم حول ٢٥٠ م بجوار مدينة السبع، وتهبط إلى ارتفاعات تراوح بين ١٠٠,٥٠ م في الجزء الغربي.

وتتوافر مقومات الخصب في تربة إقليم بير السبع التي تتألف من ترسبات من طبقات اللوس يصل ثخنها إلى ٣٠ م، لكنها تفتقر إلى المواد العضوية وإلى الرطوبة، وهذا يقلل إنتاجها الزراعي. وتؤثر الخواص الميكانيكية لهذه التربة في عملية الانجراف السطحي، وفي تكوين الأراضي الرديئة ذات السطوح الوعرة. وفي الإقليم شبكة من الأخاديد يلتقي بعضها ببعض فتكوّن أودية ذات مجار أكثر عمقاً واتساعاً.

وعندما تجف تربة اللوس خلال الصيف تنكمش وتتشقق وتتفكّك ذراتها بسبب ارتفاع الحرارة. ولما كانت هذه الذرات ناعمة خفيفة فإن الرياح ترفعها وتطيّرها في زوابع ترابية معروفة في هذا الفصل. وتمتد الكثبان الرملية فوق مساحات تقدر بنحو ٥٠٠كم^{2} في القسمين الغربي والجنوبي من إقليم بير السبع، أي زهاء ثلث سطح أرض الإقليم.

٣ ــ المناخ والمياه: مناخ مدينة بير السبع شبه صحراوي بصفة عامة، وهو جزء من المناخ السائد في النقب الشمالي. أما القسم الجنوبي من إقليم بير السبع فإن مناخه صحراوي قارّي متطرف، أي أنه حار صيفاً بارد شتاء. ويصل المدى الحراري في بير السبع إلى ١٥° خلال شهري أيار وحزيران، الأمر الذي يؤكد صفة تطرّف المناخ. ويراوح متوسط درجات الحرارة ما بين ١٢° في شهر كانون الثاني و٢٣,٧° في نهاية شهر آب. وأدنى درجة حرارة سجلت في بير

السبـع كانت ١° في نهاية كانون الثاني ١٩٢٥.

تهب على بير السبـع صيفاً رياح جنـوبية غربية وغربية أثناء الصباح، وتتحول الرياح إلى شمالية غربية بعد الظهر، ثم تتحول إلى جنوبية شرقية أثناء الليل. أما في الشتاء فإن اتجاهات الرياح تكون غير منتظمة، وتحمل الرياح الشرقية أو الجنوبية الشرقية كميات عظيمة من الغبار. ويبلـغ المعدل السنوي للرطوبة النسبية في بير السبـع ٥٨ ٪، وتتفاوت المعدلات الشهرية ما بين ٤١ ٪ في نيسان و٧٣ ٪ في أيار.

بلـغ متوسط كمية الأمطار السنوية بين عامي ١٩٢٠ و١٩٦٥ نحو ١٩٥ مم. وتراوحت هذه الكمية ما بين نهاية صغرى مقدارها ٤٢ مم، ونهاية عظمى مقدارها ٣٣٩ مم خلال الفتـرة نفسها، أي أن مدى التغير في كمية الأمطار بلـغ ١٥٢ ٪، وهي نسبـة مـرتفعـة في فلسـطين. أما معامل التغير فإنه وصل إلى ٣٥. ويبلـغ عدد الأيام المطيرة في بير السبـع نحو ٣٣ يوماً في السنة. وتهطل نصف كمية الأمطار السنوية في شهري كانون الأول وكانون الثاني، وثلث كمية الأمـطار السنويـة في شهـري تشـرين الثـاني وشباط، أي أن ٨٠ ٪ من مجموع كمية الأمطار السنوية تهطل خلال هذه الشهور الأربعة. وقد هطلت كمية أمطار مقدارها ٦٤ مم (ثلث مجموع الأمـطار) خـلال ٢٤ سـاعـة بـتـاريـخ ١٩٣٤/١٢/٥.

ونظراً لقلة كمية الأمطار التي تهطل على إقليم بير السبـع وعدم كفايتها للزراعة فإن الحاجة ماسة للمياه الجوفية إلى جانب المياه السطحية المتمثلة في فيضانات الأودية الجافة. وقد كان في بير السبـع أربـع آبار عامة يشرف عليها المجلس البلدي وتصل مياهها إلى البيوت. كما اشتملت المدينة على آبار أخرى يمتلك ٢٥ منها بعض المواطنين. غير أن مياه الآبار لم تكن كافية لسد حاجات السكان المتزايدة أثناء فترة الانتداب، لذا عدل الخبراء آنذاك عن فكرة حفر الآبار، وأخذوا يميلون إلى إنشاء السدود كالسد الذي تمّ تشييده في وادي أبـي سمارة.

(ب) نشـأة بير السبـع وتـطور نموهـا السكاني والعمراني

١ ــ **الكنعانيون**: كان الكنعانيون أول من عُرف من سكان المنطقة، والراجـح أنهم أطلقوا على مدينتهم هذا الاسم لوجود سبـع آبار قديمة فيها. وتشير أسفار العهد القديم إلى أنها كانت مأهولة حينما كان إبراهيم الخليل يجوب بقطعانه هـذه البلاد، وأن خـلافـاً نشب بينـه وبـين أبـي مالك زعيم سكان بير السبـع حول بئر ماء، مما اضطر إبراهيم إلى أن يقدم سبـع نعاج تعويضاً لأبـي مالك، فدعي ذلك المـوضـع بير السبـع.

انتاب بير السبـع في تاريخها الموغل في القدم ما انتاب غيـرها من بـلاد فلسطين، وخضعت للأمم التي استولت على هذه البلاد من أشوريين وبابليين وفرس ويونان ومصريين وسواهم.

وقد أضعفت هجمات الغزاة على أرض كنعان أهلها الكنعانيين مما أدى إلى خضوعهم لقبائل عربية أخرى كالعموريين الذين امتد نفوذهم إلى تل عراد وتل الملـح في قضاء بير السبـع، وكانوا من ألد أعداء بني إسرائيل.

٢ ــ **في عهـد الفلسـطيـين**: استـوطن الفلسـطيون جنـوب فلسطين قبـل قـدوم بني إسرائيل إليها، وكانت بير السبـع قد شهدت صراع الفلسطيـين من الغرب والسـاميين من الجنوب والشرق، والإسرائيليين من الشمـال. وكانت الحرب بين هذه الأقـوام سجالاً تمكن الإسرائيليون خلالها من بسط نفوذهم على بير السبـع التي كانت أقصى حدود (الدولة اليهودية) في جنوب فلسطين، وكان يقال عن حدود هذه الدولة من دان إلى بير السبـع.

٣ ــ **في عهـد الأنبـاط والرومـان**: وقـد ازدهرت مدينة بير السبـع ومنطقتها في عهدي الأنباط والرومان حين كانت ممراً حيوياً لتجارة العالم تعبره القوافل العربية حاملة خيرات الهند وإفريقية إلى مصر وغيرها من مدن السـاحـل الفلسطيني، مما أدى إلى إنشاء سلسلة من المدن والمحطات التجارية مثل عبدة والعوجاء والخلصة ورحيبة وغيرها.

امتد سلطان دولة الأنباط العربية من خليـج العقبـة حتى حـدود مصر وشـواطىء البحـر المتوسط. وحوالي القرن الرابـع قبل الميلاد بلـغ نفوذ الأنباط سيناء وجنوبـي سورية والعراق،

وظلت دولتهم قائمة حتى دخلت في حوزة الرومان في عهد الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٦م).

وكانت بير السبع في العهد الروماني قرية كبيرة تقيم بها حامية عسكرية. وحينما انتشرت المسيحية في فلسطين جعلت بير السبع أسقفية. وأنشأ الرومان كنائس بير السبع وسبسطية، وأقاموا الكثير من الأبنية والإصلاحات العمرانية منها حصون الحفير وكرنب، وعبّدوا الطرق، وحفروا الصهاريج وأقاموا السدود، وغرسوا الأشجار، واسترضوا القبائل العربية في المنطقة، وحالفوهم، ومنحوهم الألقاب والرتب لمساعدتهم في حفظ الأمن.

وقد أثرى سكان بير السبع وما حولها لوقوع بلادهم في ملتقى طرق تجارية كان من أبرزها:

١ ـ طريق العقبة ـ بير السبع وتمر بالكنتلا وبير بيرين والعوجاء والخلصة وبير السبع، ومنها تتجه غرباً وشمالاً إلى الخليل.

٢ ـ طريق العقبة ـ عين غضيّان ـ البتراء ـ ميّة عوض ـ عبدة ـ الخلصة ـ بير السبع.

٣ ـ طريق بير السبع ـ عين حصب مارة بكرنب، وتستمر الطريق من عين حصب في سيرها الجنوبي عبر وادي عربة حتى تصل إلى ميّة عوض.

ولا ريب في أن مرور القوافل التجارية في منطقة بير السبع، وما تحقق لأهلها من أرباح، وإقامة السدود والصهاريج في البلاد، كل ذلك حفز بعض السكان على الاستقرار وإقامة المدن العابرة بالأسواق، وزراعة مختلف المزروعات والأشجار.

وكان العرب قبل الإسلام يرتادون هذه المنطقة، وقد توطنتها قبائل منهم كلخم وجذام، وكانت غزة على عهد الروم مدينة فاخرة وبقعة عامرة زاهرة تقصدها قريش في رحلة الصيف التجارية وتألف ضواحيها وخصبها، وإلى عهد قريب كانت قبائل بير السبع تعرف بعربان غزة.

٤ ـ **في الحكم العربي**: في القرن السابع الميلادي فتح المسلمون فلسطين، وعرفت لديهم بير السبع بأنها بلدة عمرو بن العاص لاتخاذه قصر عجلان في قضائها مقراً له حينما اعتزل عمل مصر في عهد عثمان بن عفان. ولا شك في أن بير السبع كانت مدينة عامرة، ولولا ذلك ما اتخذها ـ وهو من أعظم القادة ـ دار إقامة. وتذكر الروايات أنه انطلق من بير السبع ليلحق بمعاوية بن أبي سفيان في خلافة علي بن أبي طالب.

وكانت بير السبع من مدن فلسطين المعروفة على عهد بني أمية، وقيل إن سليمان بن عبد الملك كان يقيم بها حينما جاءته الخلافة. وذكر أن والي فلسطين سعيد بن عبد الملك الذي عرف بحسن سيرته كان نازلاً بمدينة بير السبع عندما بلغته أخبار مقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٤م.

٥ ـ **أيام الصليبيين**: تضافرت في العصور التالية عدة أسباب أضعفت شأن مدينة بير السبع. ومن أبرزها تحول طرق التجارة عنها، والقحط الذي عمّ قضاءها، لذلك لم تكن المدينة ذات الشأن في الحروب الصليبية، ولمّا استولى الصليبيون على بيت جبرين ظنّوها بير السبع، ولم يتقدم هؤلاء كثيراً في جنوب فلسطين، وما إن حلّ القرن الخامس عشر الميلادي حتى كان سكان مدينة بير السبع قد هجروها فأصبحت خراباً ليس لها ذكر.

٦ ـ **في العهد العثماني**: أعاد العثمانيون في العهد الحديث بناء مدينة بير السبع (١٣١٩هـ/ ١٩٠٠م) على بعد ثلاثة أميال للغرب الجنوبي من موقعها القديم. وهدفوا من وراء ذلك أن يثبتوا وجودهم بالقرب من الحدود المصرية التي كانت المفاوضات دائرة بشأنها آنذاك، هذا إلى جانب رغبتهم في حفظ الأمن بين القبائل المتنازعة. كذلك أراد الأتراك أن تكون مدينة بير السبع عاملاً هاماً في توطين البدو وجمع الضرائب التي كانت تذهب هدراً قبل ذلك، فأنشأوا المدينة وجعلوها مركز قضاء بير السبع وأتبعوا قائمقامها لمتصرفية القدس.

وقد عمدت الحكومة في سبيل تحقيق سياستها إلى شراء ما يقرب من ألف دونم ووهبتها المجلس البلدي على أن يبيع منها من شاء التوطن من سكان المدن المجاورة، كما وهبت كل من أراد التوطن من بدو القضاء دونماً واحداً على أن يبني له سكناً يقيم فيه. ولاستكمال إدارة القضاء ألفت الحكومة مجلسين جعلت أحدهما للإدارة

والآخر للبلدية، وأنشأت دارا للحكومة وثكنة للجنود، وكلفت مهندسين رسم خريطة للمدينة وفق الطراز الهندسي الحديث، فقسمت بموجب ذلك إلى بقع متساوية يفصل بين البقعة والأخرى شارع فسيح.

ساعدت إجراءات الحكومة في نمو المدينة، وازداد عدد سكانها من أفراد القبائل وعرب المدن الأخرى، فبلغ عدد سكانها عام ١٩٠٢ نحو ٣٠٠ نسمة، وأصبح في عام ١٩١٢ نحو ٨٠٠ نسمة وفي عام ١٩١٥ نحو ألف نسمة. وقررت الحكومة إعلاءً لدرجتها جعلها مركزاً لمعاون المتصرف، ثم لم تلبث أن أعادتها قائمقامية كما كانت إثر إعلان الدستور عام ١٩٠٨.

ومن أبرز حكام قضاء بير السبع العثمانيين القائمقام آصف بك الدمشقي الذي شهدت مدينة بير السبع في عهده حركة عمرانية واسعة منها تشييد دار للبلدية اتخذت بعدئذ منزلاً للحكام، وسحب المياه من بئر النشل وتوزيعها على المدينة وأطرافها. وتمّ إنشاء جامع في غاية الإتقان الهندسي — حوّله الصهيونيون فيما بعد متحفاً — وجلبت حجارة مئذنته من خربة الخلصة. وأقيمت مدرسة ذات طبقتين لأبناء البدو، ومطحنة، وسلك للمخابرات البرقية، ودار للبريد، وغرست أعداداً كبيرة من الأشجار.

وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨م) زاد اهتمام الأتراك بمدينة بير السبع لأهمية موقعها في جنوب البلاد فاتخذت قاعدة للجيوش العثمانية المتجهة إلى قناة السويس. وأضيف إلى المدينة كثير من الأبنية، وأنشئت مخازن محطة سكة الحديد التي ربطت بير السبع بمحطة وادي الصرار على خط حديد يافا — القدس، وامتدت السكة الحديدية من بير السبع إلى قلب سيناء، وعبدت الطرق بينها وبين الخليل والعوجا، وأضيئت في تلك الفترة بالكهرباء.

٧ — في عهد الانتداب البريطاني: فشلت خطط الأتراك أمام هجوم الجيش البريطاني الذي احتل بير السبع في ١٩١٧/١٠/٣١، وأقام الجيش البريطاني في هجومه على فلسطين خطاً حديدياً يربط بير السبع برفح، لكنه لم يلبث أن نزع سنة ١٩٢٧. وكان الخط الحديدي بين بير السبع ومحطة وادي الصرار قد نزع قبل ذلك.

وقد اتسعت المدينة في عهد الانتداب، وبلغ عدد سكانها وفقاً لتعداد عام ١٩٢٢ نحو ٢,٣٥٦ نسمة، ووصل عددهم في تعداد ١٩٣١ إلى ٢,٩٥٩ نسمة. وقدر عدد سكان المدينة في عام ١٩٤٥ بنحو ٥,٥٧٠ نسمة، ونقص عددهم في عام ١٩٤٨ إلى ٢٠٠ نسمة نتيجة لتهجير معظم سكان المدينة منها إثر الحرب العربية — الاسرائيلية

بلغت مساحة المدينة في أواخر عهد الانتداب البريطاني نحو ٣,٨٩٠ دونماً، أي ما يقرب من ٤ كم². وقد اشتملت معظم هذه المساحة على مبان سكنية، وعلى وسط المدينة التجاري (قلب المدينة) وما فيه من أسواق ومحاكم للعشائر ومحكمة للصلح ودار البلدية وناد للموظفين ومستشفى ومستوصف ومدرستين ابتدائيتين للذكور والإناث، وضمت أيضاً مسجدين وكنيستين.

٨ — في ظل الاحتلال الإسرائيلي: كان يوم ١٩٤٨/١٠/٢١ يوم أسود في تاريخ بير السبع، إذ تمكن الصهيونيون من احتلال المدينة وطرد سكانها العرب منها وإحلال مهاجرين صهيونيين محلهم. وقد سكن المهاجرون الأوائل في البيوت العربية المهجورة. وبلغ عدد سكان المدينة في نهاية عام ١٩٤٩ نحو ١,٨٠٠ نسمة، وما لبث العدد أن ازداد بسرعة في نهاية عام ١٩٥٠ إلى ٨,٣٠٠ نسمة، ووصل في عام ١٩٥٦ إلى ٢٥,٥٠٠ نسمة، وإلى ٤٣,٥١٦ نسمة عام ١٩٦١، وإلى ٧٤,٥٠٠ نسمة عام ١٩٦٩ وإلى ٩٠,٤٠٠ نسمة عام ١٩٧٣.

ومن الطبيعي أن تتوسع بير السبع وتمتد في نموها العمراني أفقياً وعمودياً لنمو عدد سكانها السريع. فتضاعفت مساحة أراضي المدينة بعد أن أنشئت ضواح كبيرة تمتد من الشمال والشمال الغربي، وبلغت هذه المساحة نحو ٤٨,٠٠٠ دونم في عام ١٩٦٧. وأصبحت المدينة القديمة كجزيرة في وسط هذه المدينة الجديدة. وأنشئت منطقة صناعية امتدت نحو الشرق، وشيدت العمارات السكنية ذات الطبقات الكثيرة لمواجهة الطلب المتزايد للمساكن. ويمكن القول



إن المخطط الهيكلي لمدينة بير السبع يتخذ شكل المستطيل، وتتعامد معظم شوارع المدينة في خطوط مستقيمة تحف بها أشجار الزينة من الجانبين. وتوجد الأحياء الغنية ذات البيوت العصرية في الجهتين الشمالية والشمالية الغربية من المدينة، أي على طول محاور الطرق الرئيسة المؤدية إلى الفالوجة شمالاً، وإلى غزة شمالاً بغرب.

(جـ) التركيب الوظيفي لبير السبع

١ ـــ **الوظيفة التجارية**: كانت بير السبع محطة للقوافل التجارية في العصور القديمة، وبخاصة في عهدي الأنباط والرومان. وازدهرت الحركة التجارية فيها خلال العصر الأموي. وفي مطلع القرن الحالي استقرّ فيها عدد من التجار العرب من المدن والقرى المجاورة في إقليمي السهول الساحلية والمرتفعات الجبلية، وبلغ عدد الحوانيت فيها آنذاك نحو ١٥ دكاناً. وفي فترة الانتداب اهتمت بلدية بير السبع بإنشاء الوسط التجاري في قلب المدينة فشيدت المحلات التجارية على طول جانبي الشارع الرئيسي فيها. وقد اعتاد أبناء العشائر المحيطة بالمدينة أن يؤموا أسواق بير السبع يومياً ليبيعوا مواشيهم ومنتجاتها المختلفة من شعر وأصواف وجلود ولحوم وألبان، ويشتروا ما يلزمهم من حبوب وسكر وأرز وشاي وأقمشة وملبوسات وعباءات وأدوات زراعية.

وبالإضافة إلى وسط المدينة التجاري كانت تقام كل إثنين سوق عظيمة في الطرف الشرقي من بير السبع يقصدها البدو من جميع أنحاء القضاء. وقد أطلق على هذه السوق اسم سوق الحلال نسبة إلى المواشي المعروضة فيها. وتعد بير السبع أهم مراكز تجميع الشعير في فلسطين وإعداده للتصدير إلى بريطانيا عن طريق ميناء غزة.

٢ ـــ **الوظيفة الزراعية والرعوية**: كان البدو الذين استقروا في المدينة في مطلع هذا القرن يمارسون الزراعة إلى جانب تربية المواشي. وتكاد الزراعة تنحصر في المحاصيل الحقلية كالشعير، وهو أهم المحاصيل، والقمح والذرة



والعدس والفول والكرسنّة. وفي السنوات الأخيرة من فترة الانتداب البريطاني زرعت أشجار الفاكهة في مئات الدونمات حول بير السبع كالعنب والتفاح والمشمش واللوز والتين والرمان والبرتقال والبطيخ، كذلك زرعت بعض أصناف الخضر كالبندورة والبامية والقثائيات.

واعتمد جزء من السكان في معيشتهم على الرعي وتربية المواشي. وأهم المواشي الإبل التي استخدمت في حراثة الأرض ونقل المحاصيل الزراعية والمتاع، وبلغ عددها في قضاء بير السبع عام ١٩٤٣ نحو ١٣,٧٨٤ رأساً، وبلغ عدد الماعز والغنم في السنة نفسها نحو ٧٠ ألف رأس وعدد البقر نحو ١٠ آلاف رأس. هذا عدا الطيور الداجنة التي تربى في البيوت كالدجاج (٥١,٢٠٠) والبط والأوز والديوك الرومية (٥٥٠). وكانت المواشي تعتمد في غذائها على المراعي الطبيعية المتوافرة في الإقليم علاوة على المزروعات العلفية.

٣ ــ الوظيفة الصناعية: اقتصرت صناعات مدينة بير السبع على الصناعات التقليدية الخفيفة كالصناعات الغذائية والنسيجية (ر: النسيج، صناعة، والمواد الغذائية). وأهم هذه الصناعات طحن الحبوب (الدقيق)، والخبز، والحلويات، والسمن، والجبن، والغزل، ونسج بيوت الشعر والعباءات من شعر الماعز، والأصواف، ودباغة الجلود، والمنتجات الجلدية، والحدادة، والتجارة، والأدوات الزراعية والمنزلية البسيطة.

وأهم صناعات بير السبع بعد عام ١٩٤٨ السيراميك، والأدوات الصحية، والطوب، والمبيدات الحشرية، والكيميائيات، والبروميد، والمنسوجات، وطحن الحبوب، ومواد البناء، والألماس، والصناعات المعدنية. ولا تزال بير السبع مركزاً تسويقياً هاماً للبدو والمقيمين حولها وفي إقليمها، وكذلك لسكان بعض المستعمرات اليهودية في النقب الشمالي.

٤ ــ الوظيفة التعليمية والثقافية: كان في بير السبع مدرستان للحكومة أثناء فترة الانتداب، الأولى للبنين والثانية للإناث. وهناك روضة أطفال تدير شؤونها لجنة خاصة من

الأهالي. وتستقبل هذه المدارس إلى جانب أبناء المدينة أبناء العشائر بعد أن ينهوا المرحلة الابتدائية في مدرسة عشيرتهم. وقد بلغ مجموع التلاميذ الملتحقين بمدرسة ذكور بير السبع الثانوية عام ٥٨٠٤٨/١٩٤٧ طالباً يعلمهم ١٧ معلماً. وقد اشتملت المدرسة على حديقة مساحتها ٧ دونمات لتدريب التلاميذ على الأعمال الزراعية، كذلك شيدت في المدرسة غرفة خاصة للأعمال اليدوية والنجارة، وكان يتبعها منزل خصص لإقامة التلاميذ البدو كان فيه ١٠٠ تلميذ في العام الدراسي ١٩٤٧/٤٦. وضمت المدرسة مكتبة بلغ عدد ما فيها من الكتب عام ١٩٤٧ نحو ١,٤٥٥ كتاباً في مختلف العلوم والفنون.

ومدرسة الإناث ابتدائية كاملة تأسست في بداية عهد الانتداب وضمت ٣٠٠ تلميذة في العام الدراسي ١٩٤٨/٤٧ تعلمهن ٩ معلمات، وضمت مكتبة فيها ٦٥١ كتاباً. أما روضة الأطفال فإنها ضمت في العام الدراسي نفسه ٩٠ طفلاً وطفلة تعلمهم معلمتان.

وتجدر الإشارة إلى أن رغبة قبائل بير السبع في تعليم أبنائها كانت كبيرة جداً، وكانت المدارس تعجز عن استيعاب كثير من المتقدمين إليها، وبلغ ما أنفقته بلدية بير السبع وسكانها على مدرستي مدينتهم في العام الدراسي ١٩٤٧/٤٦ نحو ٤,٣٠٦ ج. ف منها ٣,٦٦٩ ج. ف تكاليف إقامة الأبنية الجديدة.

وتضم المدينة اليوم عدداً من المدارس والمعاهد العلمية كمعهد النقب للبحوث والدراسات المتعلقة بالمنطقة الجافة الذي يجري تجارب على طرق تحلية المياه المالحة، وعلى طرق الاستفادة من استغلال الطاقة الشمسية والمطر الاصطناعي وتكييف النباتات مع ظروف الجفاف. وهناك معهد بيولوجي لدراسة حياة النباتات في الصحراء علاوة على جامعة النقب التي افتتحت عام ١٩٧٠. وفي بير السبع متحف تابع للبلدية. ●

المراجع

- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، القاهرة ١٩٧٠.
- عارف العارف: تاريخ بير السبع وقبائلها، القدس ١٩٣٤.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧.
- محمد النحال: جغرافية فلسطين، بيروت ١٩٦٦.
- مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ١، ق ٢، بيروت ١٩٦٦.
- احمد أبو خوصة: بير السبع والحياة البدوية، عمان ١٩٧٩.



ولي وطن آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما ... بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه ... لها جسد إن بان غودر هالكا

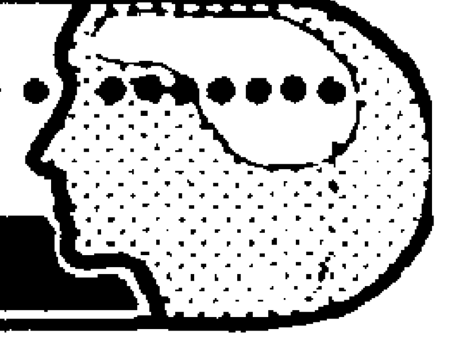
«ابن الرومي»

أحب بلاد الله ما بين منبج ... إلي وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت علي تمائمي ... وأول أرض من جلدي ترابها

«؟» عربي

وطني لو شغلت في الخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

«شوقي»



تقرير لوكالة «رويتر» من جباليا
الفلسطينيون ما زالوا يقاتلون

● أوردت وكالة «رويتر» من مخيم جباليا في قطاع غزة المحتل، بمناسبة مرور عام على اندلاع الانتفاضة، أشارت فيه إلى ارتفاع معنويات المواطنين الفلسطينيين، وبينت كيف أصبحت الانتفاضة جزءاً أساسياً من حياتهم اليومية.

وفي ما يأتي مقتطفات من التقرير: فقدت مريم أبو طاقية (٦٠ سنة) إبنها خالد في الانتفاضة التي اكتسحت الضفة الغربية وقطاع غزة طوال العام.

ولكن مثلها مثل ٦٠ ألف مقيم في مخيم جباليا الذي يسوده البؤس ويتكون من متاهة من ملاجيء مكدسة بالبشر وبالوعات مفتوحة وطرق متربة ترتفـع فيها أكوام القمامة تصر هذه السيدة العجوز على القتال حتى إنتهاء الاحتلال.

وتسأل زائراً قائلة «أتظن أننا سنسمـح لهم بأخذ أبنائنا من أحضاننا ونشاهدهم ينهالون عليهم ضرباً دون أية جريرة».

وقد مات خالد أبو طاقية وهو في الثانية والعشرين وهو واحد من أوائل شهداء الانتفاضة وكانت زوجته حاملا في الشهر الثامن في طفلهما الثالث.

ومثل معظم اللاجئين الذكور من سكان غزة كان أبو طاقية يذهب إلى العمل في إسرائيل ليقود جرافة في أحد مواقـع التشييد في مدينة «كيريات ملاخي» الجديدة التي يعرفها الغزاويون بإسمها العربـي قسطينة.

وفي ١٥ كانون الأول ١٩٨٧ أطلق عليه جندي إسرائيلي رصاصة في رأسه وهو يلتقط حجراً أثناء مظاهرة عنيفة عند مضخة الماء في جباليا.

وكانت الانتفاضة قد بدأت في الأسبوع السابق في فجر التاسـع من الشهر نفسه عندما هاجم آلاف من اللاجئين في جباليا نقطة إسرائيلية عسكرية صغيرة في وسط المخيم بالحجارة والزجاجات احتجاجاً على مقتل أربعة فلسطينيين في حادث تصادم سيارة مـع شاحنة للجيش الإسرائيلي.

وفتـح الجنود النار وقتلوا فلسطينياً واحداً وجرحوا ١٩ وانتشرت الثورة سريعاً.

وخلال أيام تأجج قطاع غزة حيث يعيش ٦٥٠ الف فلسطيني بإطارات السيارات المشتعلة ضمن حواجز في الطرق يديرها شباب فلسطيني من رماة الحجارة.

وقد امتلأت الجدران بالشعارات والأعلام الفلسطينية الممنوعة.

وخالد ثالث إبن لمريم يموت من أجل القضية الفلسطينية.

الأبن الأول مات وهو يحمل رشاشاً في حرب ١٩٦٧ عندما استولت إسرائيل على قطاع غزة من مصر. والثاني نسفته قنبلة كان يعدها في العام ١٩٧٣ لمجموعة فلسطينية فدائية.

ويقول بقية أعضاء العائلة انهم على استعداد للبقاء في قطاع غزة في ظل دولة فلسطينية ويوقنون انهم لن يستطيعوا العودة إلى قريتهم العربية بالقرب من تل أبيب والتي محيت من الخريطة في الحرب العربية ــ الإسرائيلية الأولى العام ١٩٤٨.

ولإطعام ٢٦ فرداً من العائلة يتكدسون في ملجأ سقفه من «الاسبستوس» ويتكون من سبعة غرف يعمل ثلاثة شبان منهم في تل أبيب كعمال لدى شركة نقل.

وقال فتحي ديب أبو سلطان خالد خالد «يفضل اليهود تشغيلهم لأنهم يتقاضون أجراً أقل يعادل عشر ما يتقاضاه العمال اليهود».



وأضاف قائلاً «أحياناً يكسبون من ٥٠ إلى ٦٠ دولاراً في اليوم. وفي اليوم السيء لا يجلبون شيئاً».

ويغادر الثلاثة المنزل بمجرد انتهاء حظر التجوال الليلي في غزة الساعة الثالثة صباحاً ليسبقوا عمال يسارعون في السفر بسيارات أجرة وحافلات إلى تل أبيب على بعد ٧٥ كيلو متراً.

أما الصغار الذين يمكثون في البيت فيقسمون يومهم بين الذهاب إلى المدرسة والقاء الحجارة على الجنود الذين يردون باستخدام العصي وأحياناً باطلاق النار بالذخيرة الحية.

وقال أبو سلطان «قلت لإبني الذي يبلغ تسع سنوات، إذا استمريتم في القاء الحجارة سيقبضون علينا ويهدمون بيتنا، فأجاب قائلاً: هل تعتقد أننا سنستعيد وطننا مجاناً من دون تضحية؟».

وقد انخفض مستوى معيشة العائلة بدرجة كبيرة نتيجة للانتفاضة.

فقد تدنى دخلها بمقدار الثلث بسبب إضرابات دعت إليها القيادة السرية للانتفاضة وحظر تجول مستمر منذ ١٣٤ يوماً فرضه الجيش الإسرائيلي لقمع مظاهرات عنيفة.

ويحصل أفراد عائلة أبي طاقية على مساعدات من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة (اونروا) التي تدير خدمات إنسانية في مخيم جباليا وكذلك من منظمات فلسطينية خيرية ومن اللجنة الشعبية المحلية السرية للانتفاضة.

ويقول جميل أبو طاقية وهو خباز في غزة «مالياً حالتنا أسوأ بكثير منذ قيام الانتفاضة. ولكننا لم نقم بالانتفاضة لتحسين مستوى معيشتنا بل لاستعادة كرامتنا».

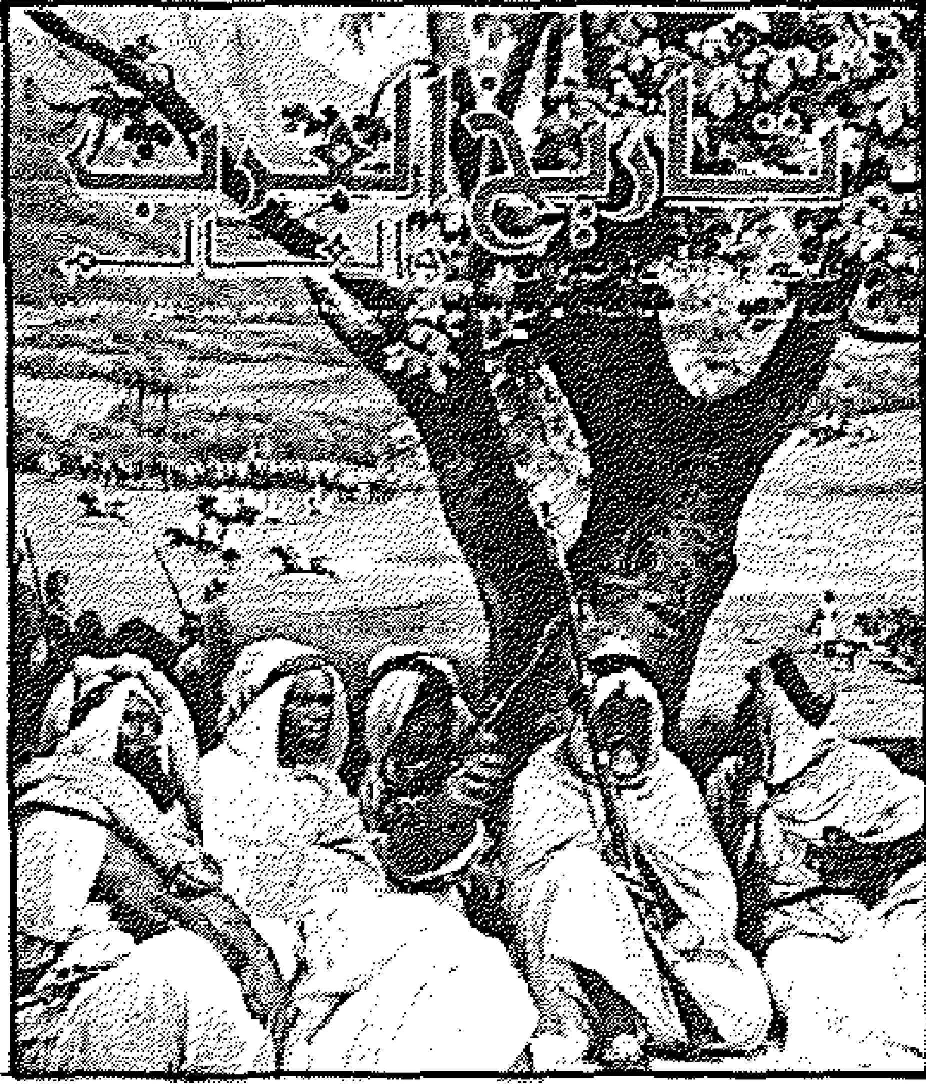
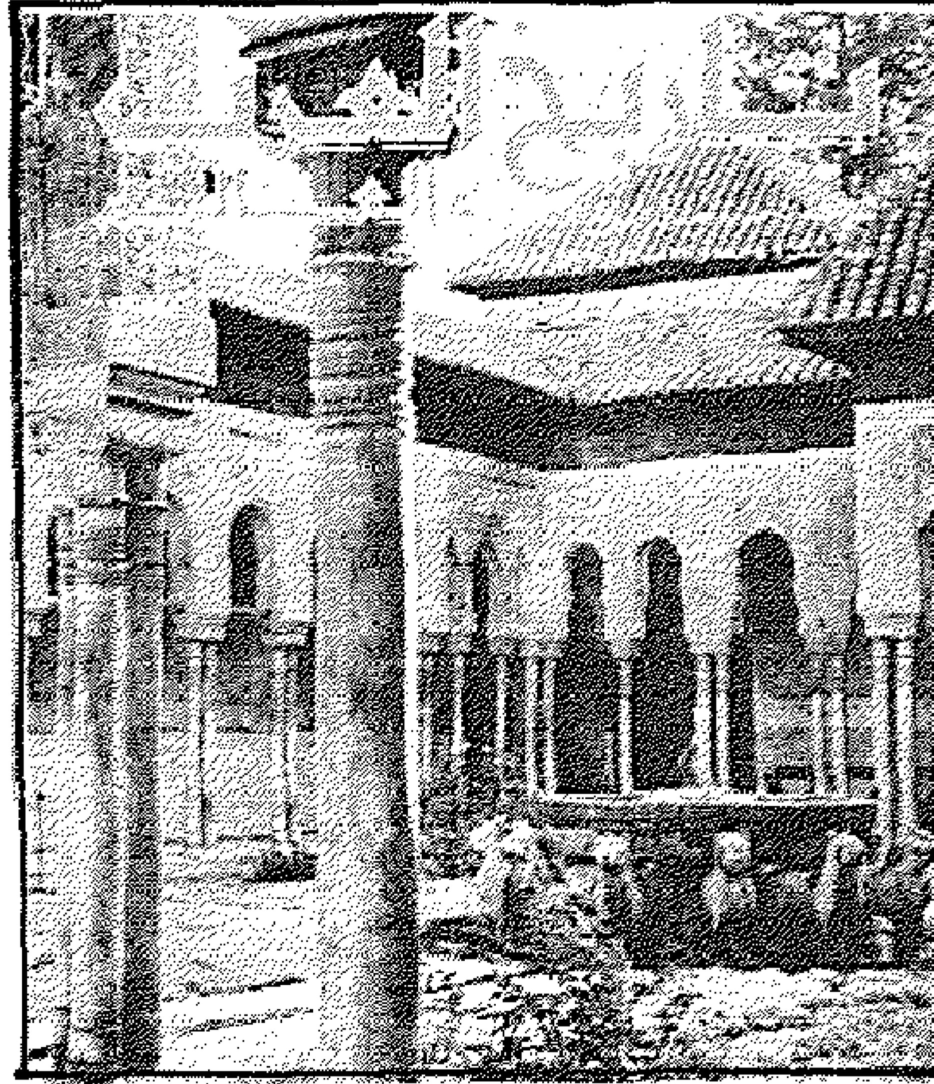
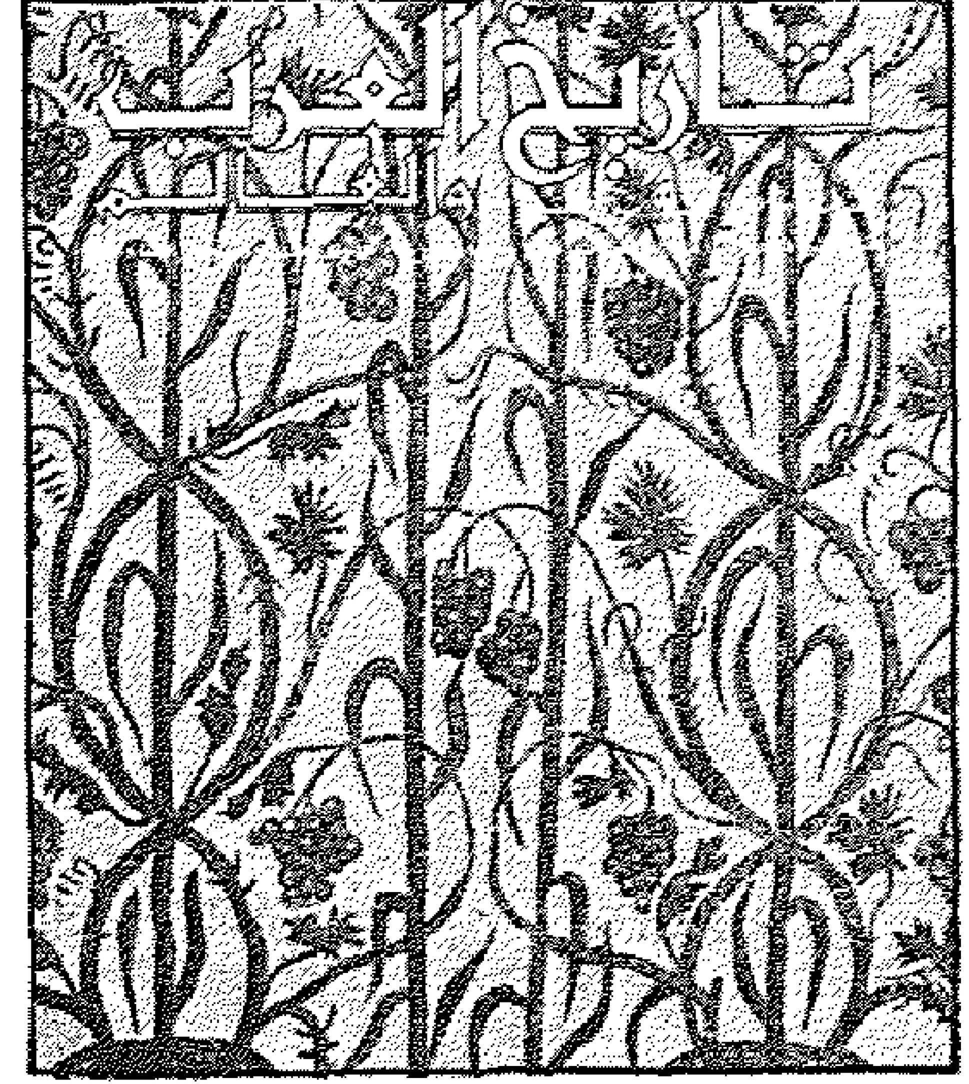
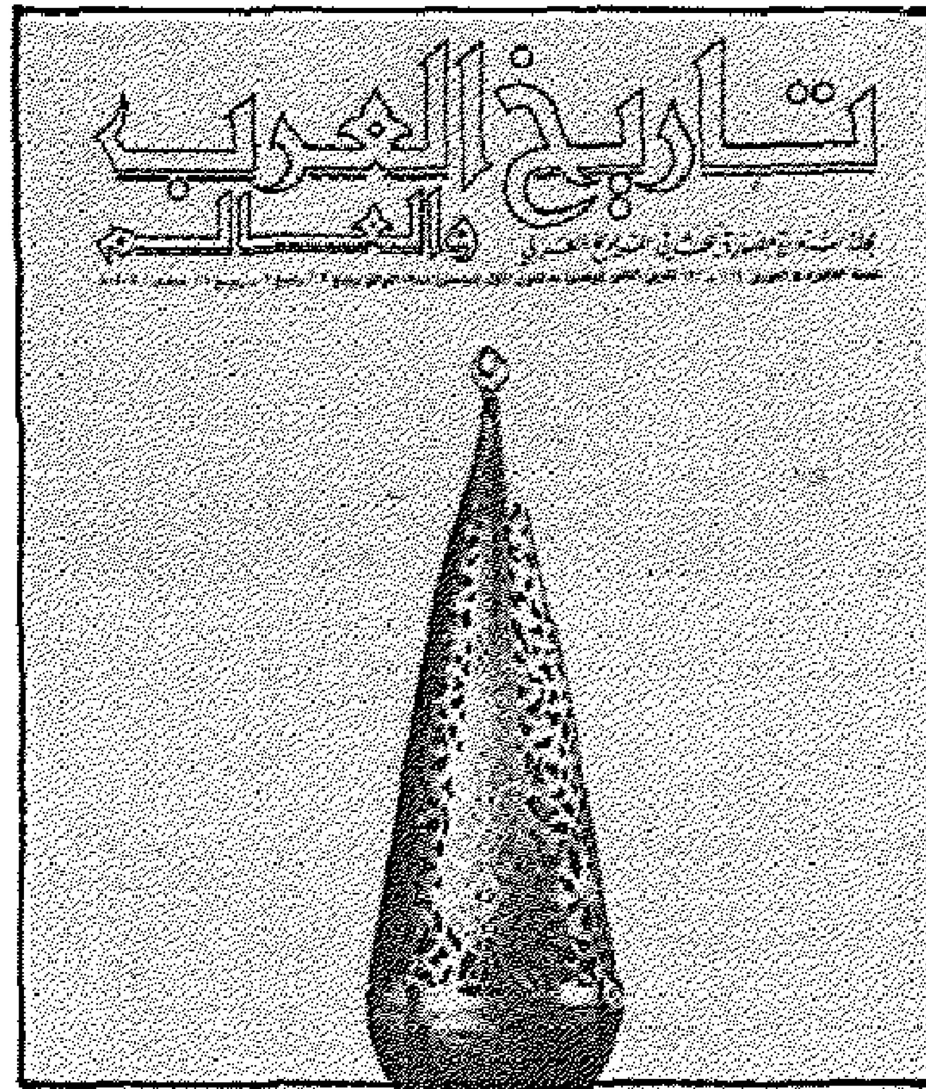
وقد تحقق الهدف فعلاً. فبالرغم من بؤس حياتهم اليومية يجمع أهل جباليا بين اعتزاز جديد بهويتهم الفلسطينية وثقة بالنفس فشلت في تحطيمها سياسة القبضة الحديدية الأسرائيلية.

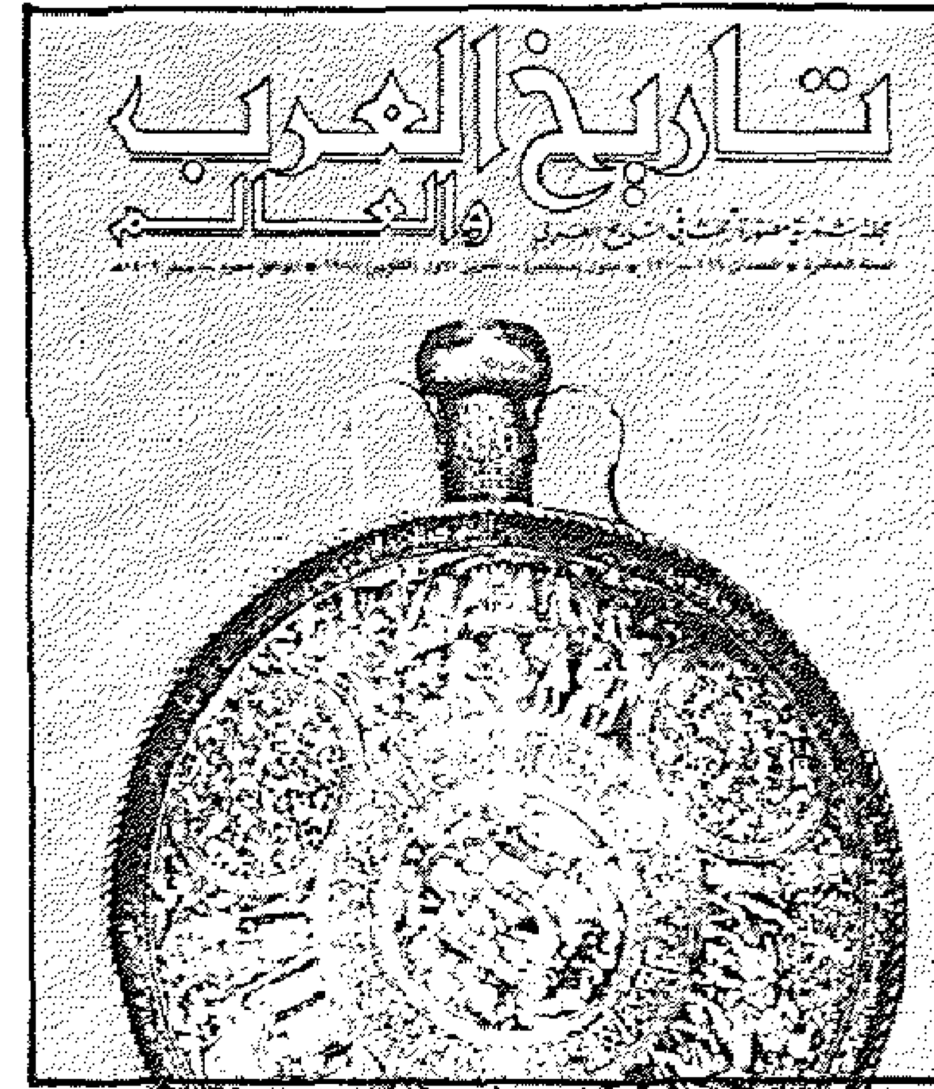
وتقول «الأونروا» أن القوات الإسرائيلية منذ قيام الانتفاضة قتلت ١٤ لاجئاً من مخيم جباليا وأصابت ٢١٣ بإطلاق الرصاص و٢٢٠١ بالضرب و٣٤٣ بطلقات مطاطية و٩٩٤ بالغاز المسيل للدموع.

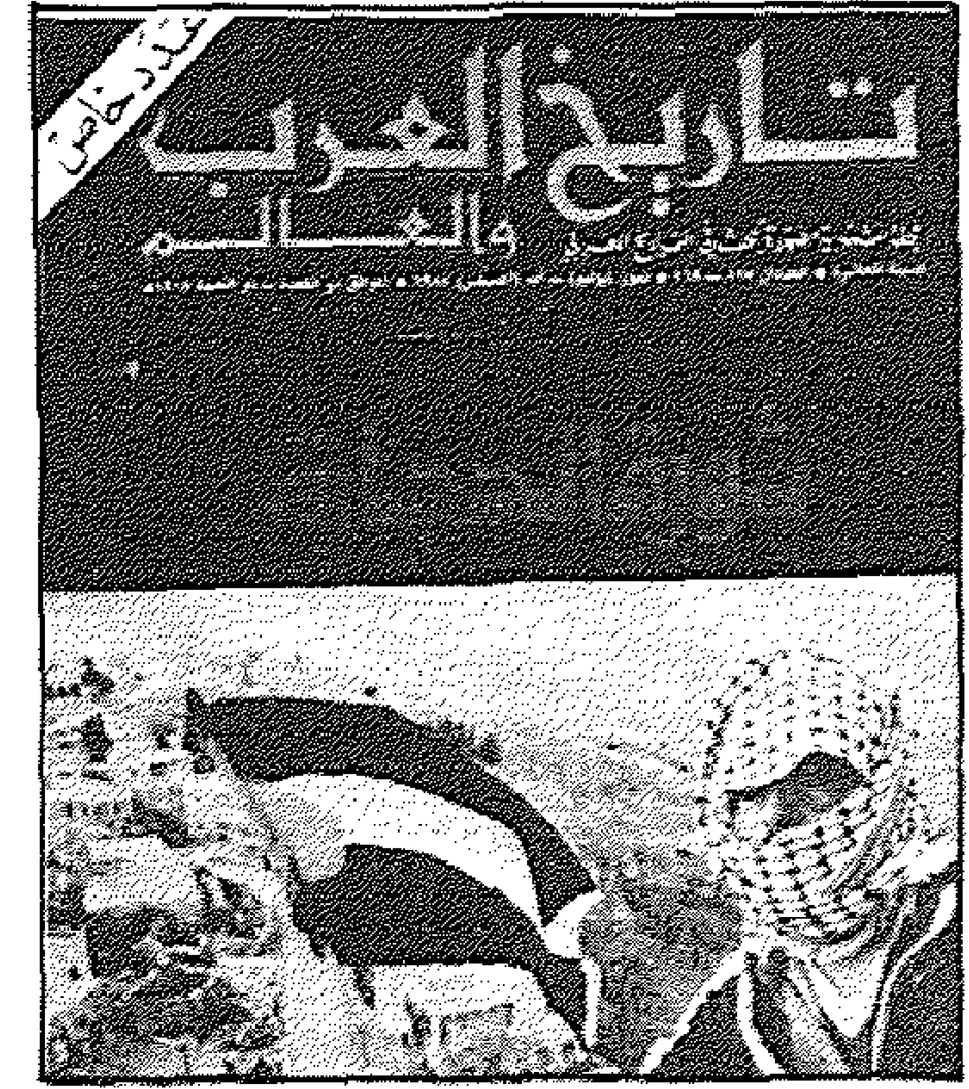
وقال عامل في منظمة إغاثة دولية «بالتأكيد يوجد شخص في كل عائلة ضرب أو أطلق عليه الرصاص أو اعتقل لقد تأثر جميع السكان».

أضاف قوله «دمرت إلى الأبد فكرة الاحتلال الحميد. وإذا استمر الوضع على ما هو عليه فإن احتمالات التوصل إلى تسوية سلمية ستبدو قاتمة جداً».







الفهرس العام للسّنة العاشرة (١٩٨٨)

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة

فلسطين

شهادات في الخارج:

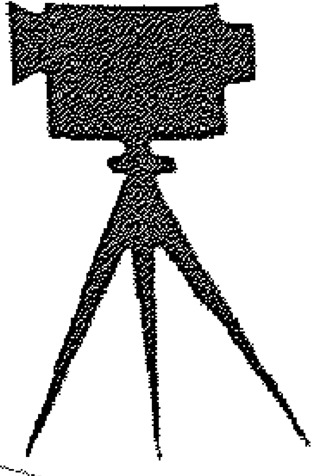
الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة

التاريخ العربي الإسلامي

حضارة عربية

وثائق ومعاهدات

متفـرقـات



صور من الماضي

□ «سقا» من القدس (النصف الثاني من القرن التاسع عشر).
من كتاب: Abdulhamid's Palestine. by Jacob M. Landau (London-1979).



□ منمنمة لطبيب يعالـج بالوخز بالإبر (القرن الثالث عشر ميلادي).

من كتاب: La Turquie, Collection Monde et Voyages - LAROUSSE.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الحادية عشرة – العددان ١٢٣/١٢٤ – كانون الثاني (يناير) – شباط (فبراير) ١٩٨٩ الموافق جمادى / جمادى – جمادى / رجب ١٤٠٩هـ



□ للسنة الثانية.. والانتفاضة مستمرة.....



□ خان الافرنج، بناه الأمير فخر الدين في القرن السابع عشر، صيدا.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٢٣/١٢٤ ـ كانون الثاني ـ شباط ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. انيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 15 No. 123/124 — Jan-Feb 1989

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الدروز وقضايا العرب

السفير د. حليم ابو عز الدين

في التحدث عن الدروز أسلك السبيل القومي التوحيدي الذي هو أسلوب الدروز كما هو أسلوبي الشخصي، فأتطرق إلى موضوع الدروز، لا من ناحية طائفية أو مذهبية اتخذت سبيلها لدى الكثيرين ومن جميع الطوائف والمذاهب، بل من منطلق قومي، عربي الدنيا إسلامي الدين.

وهذه هي السمة الحقيقية للدروز، فالدروز هم من صفوة العرب الذين حافظوا على تراثهم القومي وعلى نقائهم السلالي العربي. والدروز هم جند الإسلام المرابطون على هذه الثغور العربية منذ أن دعاهم الخلفاء الأوائل في صدر الإسلام للمرابطة عليها.

ومع أننا لسنا هنا في وارد البحث في تاريخ الدروز فذلك يعود إلى موضوع آخر، إلا أننا لا بد أن ننطلق في بحثنا عن «الدروز وقضايا العرب» بتبيان أصولهم العربية الصحيحة.



وأتذكر، بل أذكر، في هذا الصدد، رسالة المؤرخ سليمان أبو عز الدين رداً على رسالة للدكتور فيليب حتي ذكر الأخير فيها «إن الدروز مؤلفون من من عناصر فارسية وعراقية وعربية تسلطت عليها مؤثرات فارسية». وجاء في رده الذي نشرته كبرى المجلات العربية في حينه ـ المقتطف ـ ما يلي: «الدروز عريقون في العروبة، كما أنه من المشهور عندهم أن أكثرهم ينتسبون إلى قبائل تنوخ التي ارتحلت من الحيرة في العراق إلى معرّة النعمان في الديار الحلبية بعدما أوقع كسرى أبرويز بالنعمان ابن المنذر ملك الحيرة، وما عقب ذلك من الكوائن بين الفرس والعرب. ثم ارتحل فريق منهم من المعرّة إلى جبل لبنان ووادي التيم في أوائل القرن الثالث للهجرة، وبقي فريق آخر في المعرّة أشار إليه القلقشندي في «صبح الأعشى» حيث قال «ولتنوخ بقايا في المعرّة في بلاد الشام. أما إدخال أفخاذ من القحطانيين من اليمن إلى البحرين واتحاد قبائلهم هناك حيث أطلق عليهم اسم «تنوخ» ثم انتقالهم من البحرين إلى الحيرة وتأسيس مملكة عربية تولى أمرها آل تنوخ ثم آل نصر اللخميين فأمره مشهور».

ويستطرد المؤرخ فيقول: «إن ما يعتمد عليه الدروز في أنسابهم فهو:

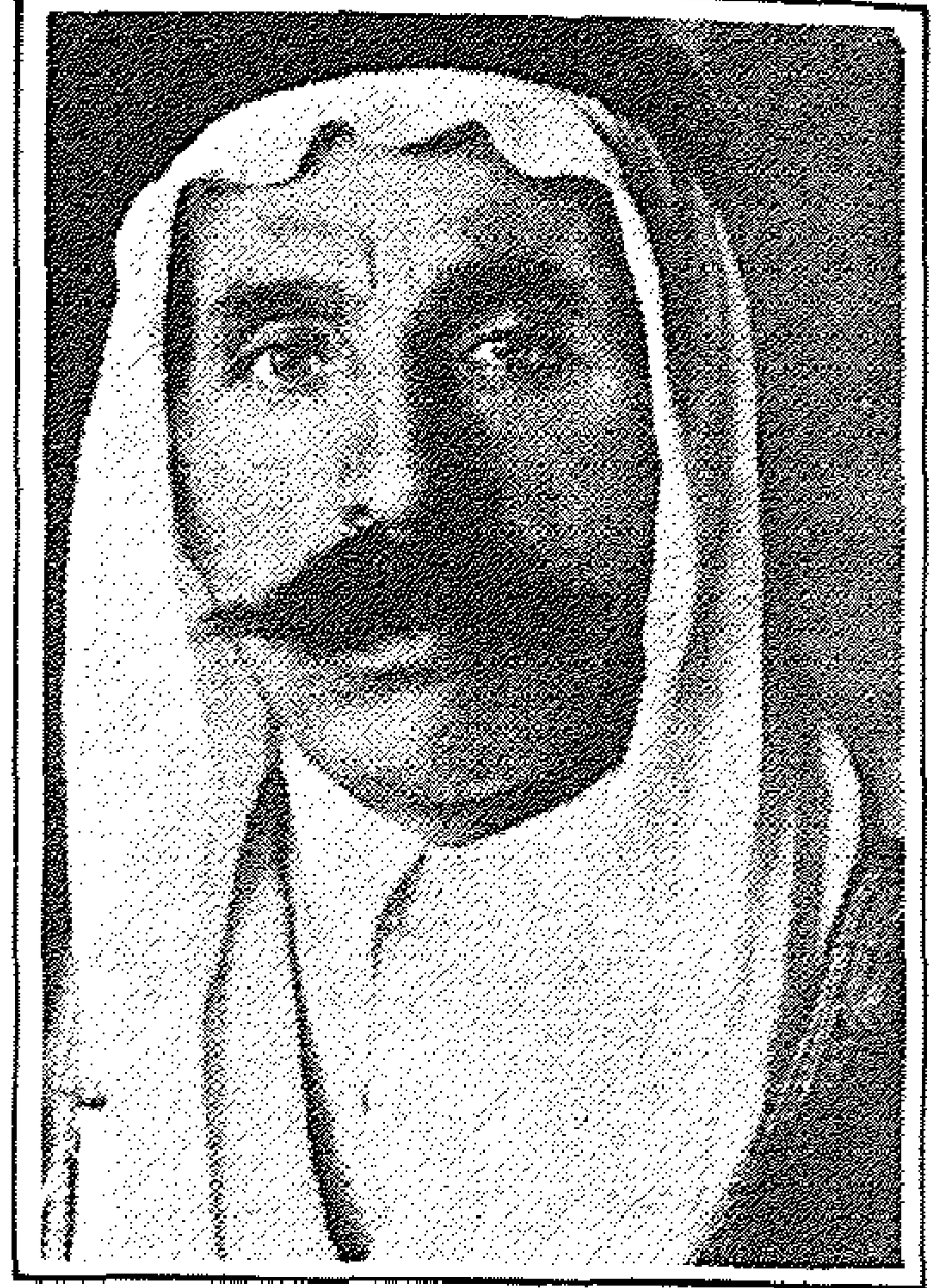
أولاً: الروايات الشفوية المتواترة على ألسنتهم خلفاً عن سلف.

ثانياً: ما لديهم من المخطوطات التي تؤيد الروايات الشفوية.

ثالثاً: عدا عما هو معروف الآن من أن أسماء الدروز إلا القليل منها عربية.

رابعاً: إن الدروز من أصح الفروع العربية لفظاً لبعض الحروف الهجائية، أي الثاء، والذال والظاء والقاف.

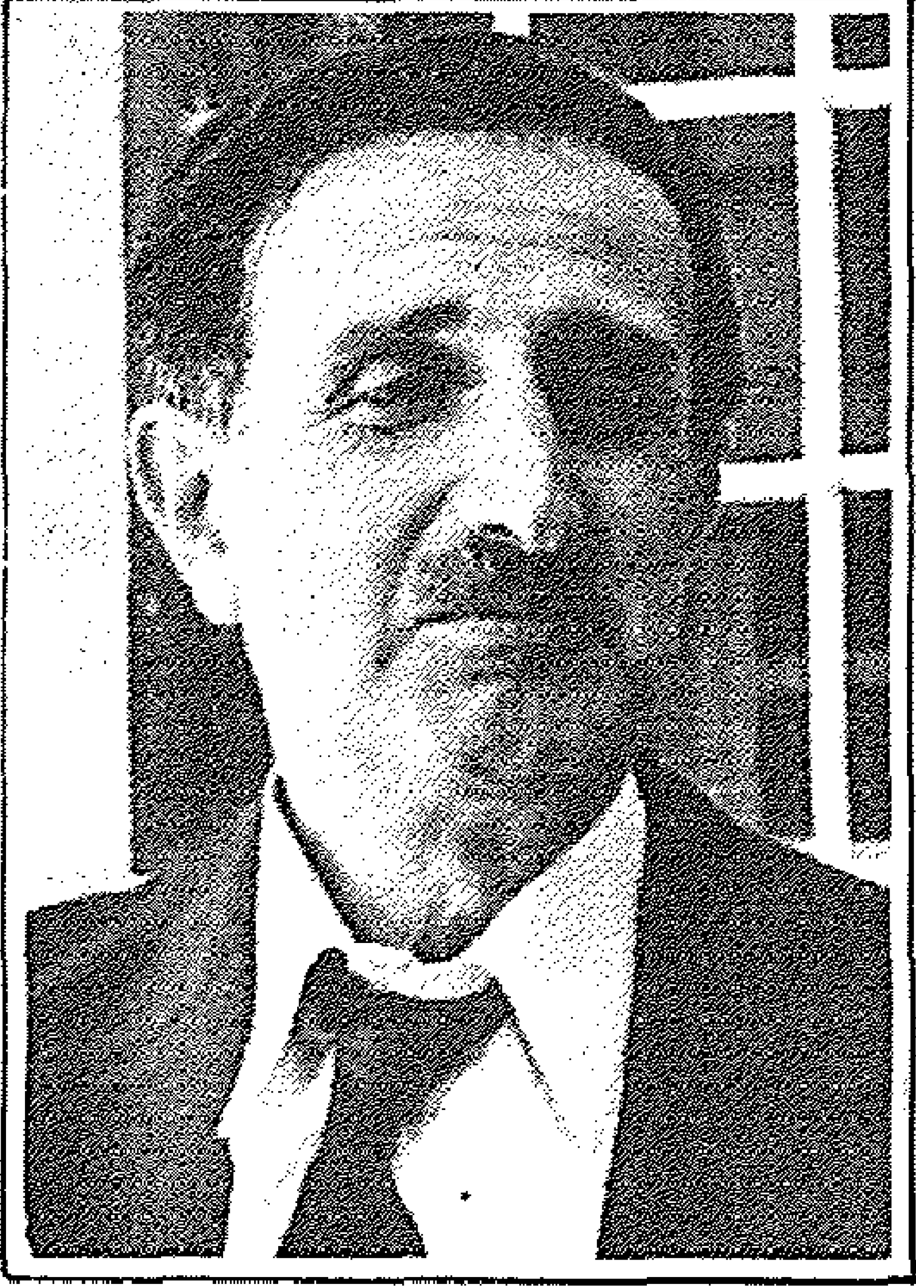
خامساً: نتائج الدراسات والانثروبولوجية والفسيولوجية التي قام بها أساتذة في الجامعة الأميركية في بيروت في حينه أظهرت أن جماجم الدروز ودمائهم من الصنف العربي الصحيح».



□ سلطان باشا الأطرش.



□ الأمير شكيب أرسلان.



□ كمال جنبلاط.

أما الأمير شكيب أرسلان فيقول في الدروز: «الدروز في النسب عرب أقحاح لا يوجد من العرب الحاليين في جزيرة العرب أصح عروبة منهم ونستدل على ذلك بما يلي:

أولاً: من سمتهم العربية الصرفة وتشابه بعضهم لبعض إذ لا يوجد قبيل يشبه بعضه بعضاً مثل الدروز. وكان أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده، رحمه الله كثيراً ما يفضي إلي بعجبه من شدة هذا التشابه فيقول لي: إذا رأيت الرجل المعروفي فكأنك رأيتهم جميعاً.

ثانياً: من نقاوة لغتهم العربية وإخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة فلا نجد في الخارج من جزيرة العرب من يتكلم العربية مثل الدروز، ولا من يتلفظ بالعربية مثل الدروز، وأن المرأة منهم تسوق الحديث بعبارة إن لم تكن معربة فهي فصيحة صريحة متينة مستعملة فيها الكلمات بالمعاني التي وضعت لها. فتجدها أصح لغة من الرجل العالم من غيرهم. والفصاحة التي اشتهر بها الدروز، رجالاً ونساءً آتية من كونهم عرباً.

ثالثاً: التواريخ التي عند الدروز والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متفقة على كونهم أبناء اثنتي عشرة قبيلة عربية هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسيين. ولا تزال منهم بقية في الجبل الأعلى بجهات حلب. وهذه القبائل كانت في معرّة النعمان منذ أوائل الفتح العربي. ثم أن التواتر فيما بينهم، المأثور من الخلف عن السلف يؤيد هذه التواريخ المكتوبة.

رابعاً: أنهم كانوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة وهم فرقة من الشيعة.

فلما كانت الدعوة الفاطمية وتلقاها بعض الشيعة فكان منهم الإسماعيليون وكان منهم الدروز، انقسمت بعض العائلات إلى قسمين، منهم من بقي على التشيع الأصلي، ومنهم من غلا غلو الفاطميين. ولكن هذه العائلات التي أصلها واحد معروف كثير منها إلى هذا اليوم. وهم يعرفون أنهم أقارب وهؤلاء دروز وأولئك شيعة. وكذلك موجودة قرابات عصبية بين كثير من الدروز والمسلمين السنيين ويدل على ذلك أنهم منذ تسعماية سنة أي منذ وقع الانشقاق في الشجرة الواحدة ـ لا يزال بعضهم يعرف بعضاً. ولا يوجد حفظ الأنساب إلى هذا الحد مع تعاقب القرون العديدة إلا عند العرب.

خامساً: في الدروز أنفسهم بطون وأفخاذ معروفة الأنساب إلى قبائل العرب، هذا إلى لخم، وذاك إلى طي، وأناس إلى تميم وأناس إلى كلب، ومنهم من دُرست سلالاتهم بأقاربه من القبائل، ومنهم من لا تزال معروفة» انتهى.

وأضيف إلى ما ذكرناه من أقوال الأمير شكيب أرسلان والمؤرخ سليمان أبو عز الدين أنه بسبب تمسك الدروز بأصلهم فقد ساروا على خطة حصر التزاوج فيما بينهم محافظة على نقاء

الأصول.

وحديثي عن عروبة الدروز هو، في الواقع، منطلق لقراءة الصفحات البيضاء التي خطها الدروز في سفر الأمجاد العربية، وفي ميادين العمل القومي من أجل قضايا العرب، وحرمات الإسلام.

فمنذ أن أوفد الخلفاء الأوائل بعض القبائل العربية من الجزيرة العربية والعراق إلى الديار الشامية لترابط على تخوم الدولة العربية الإسلامية الناشئة، وتقيم أجنادها فيها لتحمي ثغورها من غزوات الأروام وغيرهم، وهذه القبائل التي نزلت في وادي التيم وسواحل الشام في سوريا ولبنان وشمالاً حتى حلب تقوم على حراسة الحدود.

بين هذه القبائل قامت «الدرزية» عندما استجاب البعض منها إلى الدعوة الفاطمية الحاكمية، في أوائل القرن الخامس الهجري — الحادي عشر الميلادي.

هؤلاء المستجيبون — الدروز — ثابروا على أداء مهامهم في حراسة الثغور العربية الإسلامية. بل وكأن استجابتهم للدعوة أعطتهم دفعاً جديداً للقيام بواجبهم تجاه العروبة والإسلام. وتزامن نشر الدعوة الدرزية وتركيزها في بعض المناطق مع قدوم الحملات الصليبية إلى هذه الديار.

وكانت السلطة الإسلامية في تلك المرحلة، على قدر من الضعف تتشارك فيه كل الدول الإسلامية القائمة آنذاك. من عباسية وفاطمية وسلجوقية. ضعف امتد حتى الأندلس.

وهبّ الدروز من مناطق انتشارهم — أي في وادي التيم وسواحل الشام وأعالي حلب — هبوا لمقارعة الغزاة الصليبيين. وكان التنوخيون ومنهم البحتريون والأرسلانيون، يرابطون على الجبال المشرفة على بيروت ولكن وبسبب ضعف الدولة الفاطمية التي كانوا ينتمون إليها، لم تتمكن القوات الإسلامية من صد الغزو الصليبي. على أن التنوخيين ظلوا، على قلة عددهم يقاومون امتداد الغزاة وفي واقعة «عين التينة» جنوبي بيروت انتصر البحتريون الدروز على الفرنجة. وغدر الصليبيون، فيما بعد، بالأمراء التنوخيين، ولكن الدروز تمكنوا بمساعدة السلطان صلاح الدين الأيوبي من الثأر منهم.

ويقول المؤرخ كمال الصليبي في كتابه «منطلق تاريخ لبنان» بالحرف: «وكان الجهاد الناجح ضد الفرنجة في فترة الحروب الصليبية قد اقتصر على الدول السنية وحلفائها من الباطنية (الدروز) في وادي التيم، ثم من الدروز في جبل بيروت» انتهى.

ومع انتقال المنطقة من حكم المماليك إلى حكم العثمانيين في أوائل القرن السادس عشر انتقل الحكم بين الدروز من التنوخيين إلى المعنيين. وكان المعنيون، المنتمون إلى قبيلة «ربيعة» العربية، والنازلون في شمالي سوريا قد حاربوا الصليبيين هناك قبل أن ينتقلوا، وبطلب من المماليك، إلى البقاع ومن ثم إلى الجبل الدرزي حيث نزلوا لدى الأمراء التنوخيين ليساندوهم في صد الغزوة الصليبية. وما لبثوا أن خلفوا التنوخيين في الإمارة، وثبت الفاتح العثماني السلطان سليم الأول حكمهم على البلاد. وتناسب المعنيون مع التنوخيين الدروز وكذلك مع الشهابيين السنّة، واشتركوا جميعاً في قتال الصليبيين.

وكعهدهم الدائم في الأباء كان الدروز أول من اصطدم مع الحكم العثماني الجديد عندما اتهموا زوراً بالتعرض، قرب جون عكار، لفرقة من الجنود الأتراك كانت تواكب عملية نقل الخزنة السلطانية إلى استانبول. وهذا الحادث جرى خارج نطاق حكم المعنيين، ولكن الدسائس ألصقت بهم المسؤولية. وجردت السلطة العثمانية حملة كبيرة غدرت بهم عندما دعي قادتهم لمقابلة القائد العثماني في عين صوفر فجاؤوها وهم عزّل من السلاح ليفاجأوا بمذبحة نكراء قام بها القائد العثماني وجنوده.

كانت تلك الواقعة الغادرة بداية عهد عثماني ساده الجور والظلم والجهل وقابله الدروز بالمجابهة والتمرد والثورة. حتى لقد كان العهد العثماني في بلاد الشام عهد ثورات متلاحقة قام بها الدروز في الجبلين: جبل الدروز أي جبل لبنان، وجبل العرب في حوران ضد الحكم العثماني.

وساد خلال حكم المعنيين العدل العربي مقابل الجور التركي، وعمّ التسامح أرجاء

البلاد. وامتد حكم فخر الدين المعني الثاني على اكثر بلاد الشام وأطلق عليه لقب سلطان البر. وثبته السلطان حاكماً على عربستان من حد حلب إلى حد القدس كما جاء في تاريخ الخالدي.

وفي عهد فخر الدين، ومنذ ذلك العهد، انتقل الكثير من المسيحيين وأكثرهم من الموارنة ــ من شمالي لبنان إلى وسطه وجنوبه حيث نزلوا في أراضي الدروز وعملوا فيها وتمتعوا بكل مزايا العدل والتسامح. وأقطعهم المعنيون والجنبلاطيون والعماديون والنكديون والتلاحقة وغيرهم من مناصب الدروز الأراضي، وبنوا لهم الأديرة والكنائس.

ومثل الحكمان التنوخي والمعني عدل العرب وسماحة الإسلام في التعامل مع المواطنيين المسيحيين.

وانقرض الحكم المعني في آخر القرن السابع عشر بوفاة الأمير أحمد المعني بدون عقب، فاختار عُقال الدروز وزعماؤهم الأمير الشهابي السني حيدر حفيد الأمير أحمد المعني، من أمراء وادي التيم أميراً. وانتقل الحكم من المعنيين الدروز إلى الشهابيين السنة بمبادرة من الدروز وبموافقة عامة منهم، وبدون أن يثير الأمر أية حساسية. وهكذا كنا قبل استفحال الطائفية السياسية، فأين أصبحنا بعدها!

سار الشهابيون في البدء على خطى أسلافهم المعنيين ولكن الدسائس المحلية والأجنبية ما لبثت أن بدأت تذر قرنها. فقد كانت السلطة العثمانية بدأت عهد الانحدار، وبدأ الغرب المسيحي يتطلع إلى وراثة تركة «الرجل المريض» وتدفقت البعثات والإرساليات الدينية الأوروبية على هذه المنطقة تبذر التفرقة وتزكي الخلاف. وبدأت ريح الطائفية السياسية تهب، وأدى ذلك إلى تنصر بعض الأمراء الشهابيين المسلمين استجابة لدعوات أطلقها الغربيون وأنصارهم. وحدث ذلك في قلب السلطنة العثمانية المسلمة. فتنصر الحكام الشهابيون السنيون في ظل الخلافة الإسلامية، وتبعهم أنسباؤهم اللمعيون الدروز، وبقوا في سدّة الحكم بدون أن يطالهم عقاب الردة. وإن دلّ ذلك على شيء فعلى تسامح الإسلام. ومع ذلك يتهمون الإسلام بالتعصب!

من هنا بدأت سموم الطائفية تنتشر في البلاد لتقضي عليها. فقد كان الحكم على عهد التنوخيين والمعنيين، وفي مطلع العهد الشهابي وطنياً، غير طائفي. كان الأمير درزياً أو سنياً، ولكنه كان متسامحاً يساوي في أحكامه وفي المعاملة بين جميع الفئات. كان الدين لله والوطن للجميع.

وأصبح الوضع بعد أن تفشت الطائفية السياسية أن الدين للاستغلال، والوطن للطائفة. فما أوضح الفرق بين العهدين!

وفي أواخر العهد الشهابي ثار الدروز كعادتهم ضد الطغيان. ثاروا ضد الأمير الشهابي، وثاروا ضد المحتل إبراهيم باشا. وحاول الفريقان الشهابي وإبراهيم باشا نزع سلاح الدروز وتجنيدهم توطئة لضربهم. ولم يكتفيا بذلك بل عمدا إلى تسليح خصومهم. ولكن الدروز ثاروا ضد الاثنين وقارعوهما حتى نهاية الاثنين. وخلفهما عهد القائممقاميتين. ثم قامت الحركات في الجبل وأسفرت عن فرض نظام المتصرفية عليه حتى نهاية الحرب العظمى الأولى، التي قضت على الحكم العثماني في هذه البلاد.

وشاركت قوات الثورة العربية ــ وفيها قوات درزية ــ في إنهاء الحكم العثماني. وقام على أثره الحكم العربي الفيصلي في الداخل وبعض الساحل وشارك فيه الدروز مع سائر الوطنيين. وكان سلطان الأطرش أول من رفع العلم العربي على دار الحكومة في دمشق. كما عين الملك فيصل الأول الهاشمي الأمير عادل أرسلان حاكماً عسكرياً معاوناً للمنطقة العربية. وشارك الدروز في قتال الفرنسيين في ميسلون كما ثاروا مراراً على حكم الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان.

وقام الدروز عام ١٩٢٥ بثورتهم الكبرى ضد الفرنسيين وتبعهم إخوان لهم وقاتلوا الفرنسيين لمدة سنتين وأنزلوا بهم خسائر فادحة دخلت في سجلات الجيش الفرنسي العريق في أمجاده العسكرية. وزعزعت الثورة السورية الوطنية مركز فرنسا في سوريا ولبنان. واشترك الدروز في ثورات فلسطين ضد الانتداب البريطاني والاستعمار الصهيوني. ولم تقم حركة وطنية في المشرق العربي إلا واشترك الدروز فيها. وكانوا في جميع وقائعهم، والحق يقال، فرسان العرب

وسيوف الإسلام.

وأعود الآن بعد هذه اللمحة التي كان لا بد منها، أعود للتحدث عن «الدروز وقضايا العرب» وخاصة في العصر الحديث.

الدروز هم أقل العشائر العربية عدداً — ولا يوجد دروز غير عرب. ولكنهم ليسوا أقل العشائر العربية عملاً وجهاداً في سبيل العروبة والإسلام. لقد قام في هذه العشيرة رجال هم، من حيث تفانيهم في خدمة العروبة والإسلام، في سدرة المنتهى. ولا أعدو صحيح التقييم إذا ما قلت أن أعمال الدروز ومآثرهم هي، في الواقع، على تناسب عكسي مع عددهم. فهم على قلة عددهم الذي لا يصل إلى المليون الواحد، قاموا بأعمال ومآثر تتجاوز بكثير نسبتهم العددية. ولو تكلمنا عن الدروز، بذكر أعمالهم أمام مقدريهم ممن لا يعرفون بالدقة عدد الدروز لظنوا أن الدروز ملايين وملايين.

وهل أنا في حاجة لذكر أعلام الدروز؟ وهل بإمكاني أن أذكرهم جميعاً؟ كلا، فالوقت يضيق لذلك، والذاكرة قد لا تحويهم جميعاً، وحتى الكتب والسّير قد لا تستوعب جميع أصحاب الحق. فلا أقل من أن استعيض عن ذكر الكل الجدير، ولكن غير الممكن، بالبعض الممكن مع التقدير للكثيرين ممن قد لا يرد ذكرهم للأسباب المقدمة آنفاً.

وهل من يتقدم ذكره — وحتى ولو تجاوزنا نطاق الدروز — على ذكر الأمير شكيب أرسلان، أمير البيان، وإمام المسلمين المجاهدين في العصر الحديث.

هو المجاهد الأديب، الناثر والشاعر، العلّامة، لسان العرب، وداعية الإسلام. هو منا من هذا البلد الذي يعرفه الكثيرون بأنه بلد شكيب أرسلان.

إشعاعه غطى العالمين العربي والإسلامي ووصل إلى أقاصي المعمور.

لم يكن من حظي أن أتعرف إليه شخصياً وأن أجالسه سوى مرة واحدة في بيروت عام ١٩٤٦ — ذلك أنه عاش طيلة سنواته الأخيرة مبعداً عن بلاده، عاش في جنيف وسائر أوروبا. ولكنني تعرفت إليه من كتبه وكتاباته ورسائله، وأحاديث الناس عنه.

أمضى حياته الطويلة والغنية والمثمرة في الجهاد من أجل الإسلام والعرب. جاهد بفكره وبقلمه وبسيفه، وجاهد بماله وصحته، وطبعت حياته كلها بالعمل الدائم من أجل قضايا أمته وبلاده.

عام ١٩٣٥ نشرت مجلة «الضياء»، الهندية التي كانت تصدرها «ندوة العلماء المسلمين» في لاكناو في الهند، أن مجمعاً إسلامياً انعقد ذلك العام لاختيار أعظم رجل بين المسلمين الأحياء. وحضر الاجتماع عدد كبير من العلماء والأئمة والأدباء. وترددت في الاجتماع أسماء: الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، والأمير شكيب أرسلان، والسيد محمد رشيد رضا، والأمير عبد الكريم الخطابي، والسيد شريف السنوسي، ومولانا محمد علي، ومصطفى كمال أتاتورك، ومحمد رضا بهلوي. وفاز الأمير شكيب أرسلان بلقب أعظم رجال الإسلام.

ويروي الأمير عادل أرسلان في مذكراته أنه كان بصحبة شقيقه الأمير شكيب ينتظران في مرفأ مرسيليا الصعود إلى الباخرة للعودة إلى بيروت. ويقول: «وإذا بحمّالة مغاربة سمعوا كلامنا بالعربية فسلموا علينا وإذا بأحدهم وقد رأى بطاقة أخي شكيب مربوطة بإحدى الحقائب يقول من هو الأمير شكيب؟ فقلت هذا فوقع على يديه يلثمهما. فظننت أنه من برقة عرف أخي أثناء جهادها، فإذا هو من تونس. ذهب الرجل ثم عاد بخمسة من رفاقه التوانسة والجزائريين فأخذوا بلثم يدي شكيب والدعاء له، وحملوا الحقائب وشقوا لنا طريقنا وانتهى بنا المغاربة إلى مكاننا في الباخرة. وإذا بهم قد صاروا عشرين يتصايحون: الأمير أرسلان هنا. هذا هو نصيرنا. فحمّالة وعملة من فقراء المغاربة يقرأون مقالات شكيب في الدفاع عن بلادهم فيثور فيهم هذا الشعور الطيب الكريم» انتهى.

هذا هو الأمير شكيب أرسلان، صنو الملوك والرؤساء، ونصير الشغيلة والفقراء وأمير المجاهدين والأدباء.

وأتحدث عن سلطان باشا الأطرش، القائد العام للثورة السورية الوطنية، الذي نازل الأتراك الذين أعدموا والدة ذوقان الأطرش غدراً، ونازل الفرنسيين وأنزل بهم الهزائم يقود جحافل الثوار

الميامين من الجبل إلى الغوطة إلى الجولان ووادي التيم. الأطرش الذي قال فيه الشاعر القروي:

«فيا لك أطرشاً لما دعينا
لثأر كنت أسمعنا جميعا»

حياته كانت سلسلة متصلة من الجهاد ضد الأتراك وضد الفرنسيين، وضد الطغيان. وسنوات طويلة عاشها منفياً في الصحراء. ولما عاد إلى سوريا المستقلة، وطنه الحر أصبحت داره في «القرية» في جبل العرب محجة للوطنيين، ومنارة للمجاهدين إلى أن وافاه القدر المحتوم. وأذكر أنني شاركت مع فريق من صحبي في مأتم الراحل الكبير. وكتبت لدى عودتي من مهرجان البطولة أقوال «أنا عائد من جبل العرب، جبل البطولة والرجولة والوفاء عائد من مهرجان فارس الجبل وكل جبل. لم أذهب إلى السويداء لحضور المأتم، ولا من المأتم عدت. ذهبت لتحية البطل الخالد سلطان الأطرش ولأستعيد النشوة القومية التي افتقدناها منذ حين. وبالنشوة عشت تلك الساعات وبالكبرياء عدت. فأنا من الجيل الذي نما على وهج بطولة سلطان وإخوان سلطان. من معينها نهل، ومن نورها استضاء، ومن تعاليمها اقتبس، وبذكرها يعتز».

وتشع علينا ذكرى أمير السيف والقلم الأمير عادل أرسلان وإشعاعها يبهر العيون.

فالأمير عادل هو الفارس العربي النبيل ــ هو الأديب، المفكر، والشاعر الناثر، والإداري الحازم، والمقاتل الباسل. هو المتحدث اللبق، والجليس الأنيس، والمفاوض الساحر، والحاكم العادل ــ عمل قائمقاماً للشوف وعضواً في مجلس المبعوثان العثماني. شارك في الثورة العربية، وعينه الملك فيصل الهاشمي لدى تحرير الشام معاوناً للحاكم العسكري العام للبلاد. وشارك في الثورة السورية الوطنية فكان القائد المغوار الذي يخوض بنفسه المعارك. وقاسى الحرمان في الصحراء، في الأزرق ووادي الرحان يقتات، وهو ربيب العز والجاه، على أعشاب الصحراء، ويقاسم رجاله شظف العيش.

لقد أغدق الله، عز وجل، على الأمير عادل من الخلائق ما عزّ نظيرها، وما قلّ أن تجمعت في شخص واحد. لقد أعطاه الله وأجزل له العطاء. كان كريم المحتد، نبيل الخلق، جميل الصورة، متين البنية، قوي الشخصية، سلس الحديث، سريع الخاطر، وكان، قبل كل ذلك سيداً لمكارم الأخلاق.

لقد كان من حظي أن تعرفت عليه وأنا في مطلع حياتي، طالباً في الحقوق في جامعة باريس، وجالسته وتعلمت منه الكثير، وأسبغ علي صداقته ومودته، وحدثني عن سيرته وهو الذي دربني وشجعني على كتابة المذكرات. وأذكر أن المغفور له مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني قال لي عنه: «الأمير عادل هو رجل العرب» قال لي الحاج أمين ذلك في وقت كان فيه الكثيرون يعتبرون الحاج أمين رجل العرب.

في الأميرين الشقيقين، الأمير شكيب والأمير عادل قال الشاعر العربي الكبير الرصافي:

«لبعضهم شهرة بالسيف واحدة
وبعضهم شهرتاه السيف والقلم
كعادل وشكيب في أكفهما
جال اليراع وصال الصارم الخذم»

وأصل إلى كمال جنبلاط، وكلكم تعرفونه فهو واسطة العقد بين رجال الفكر والأدب والسياسة، وحتى السيف، وهو المعلم الألمعي البارز لصفوف العمل الوطني على صعيد التحرر والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وكمال جنبلاط بحر عُباب لا حصر لحدوده، على أنني سأقصر كلامي عنه ضمن نطاق الحديث عن قضايا العرب.

عمل كمال جنبلاط لقضايا العرب، كما عمل للبنان. كان على رأس الهيئة العربية المساندة للثورة الفلسطينية، وأدى لإخواننا الفلسطينيين مساعدات جلى في لبنان وفي دنيا العرب، ووحد بين جهود الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية، ووضعهما في خندق واحد. وكان من أقرب القادة العرب، إن لم يكن أقربهم، للرئيس العربي الخالد جمال عبد الناصر. وكانت له لدى الرئيس منزلة خاصة وكثيراً ما قال لي الرئيس عبد الناصر أن كمال جنبلاط كان من رجالات العرب الذين يقدرهم ويحترم آرائهم. ولا غرو في ذلك فكمال جنبلاط قيمة فكرية كبرى.

لقد أنشأ كمال جنبلاط مدرسة نموذجية للعمل الوطني العربي، وأنشأ جيلاً بل أجيالاً من الشباب العربي العقائدي النابه ووضع

أسلوبا متقدما ومتميزا للعمل الفكري، والادبي والسياسي. كمال جنبلاط، هو في الواقع، معلم للجيل العربي الحاضر ورائد قومي للأجيال العربية القادمة.

وأتحدث عن رشيد طليع، وقد لا يعرفه الكثيرون من الجيل الجديد، فأقول أنه كان من كبار رجال الحكم والإدارة في الديار الشامية، في العهد العثماني، وفي العهد العربي في دمشق. تقلب في مختلف المناصب الإدارية قائمقاماً ومتصرفاً. كان متصرفاً لطرابلس الشام حيث بقيت ذكراه المجيدة تفوح في تلك المدينة العزيزة وسمعت أصداءها الطيبة بنفسي عندما توليت إدارة الفيحاء. واختير فترة نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. وعمل خلال الثورة العربية الكبرى. وشارك في الحكم العربي الفيصلي في دمشق، وتولى فترة إدارة الشؤون الداخلية، وذهب والياً على حلب وبقي فيها حتى زوال الحكم العربي بعد ميسلون. وانتقل إلى جبل العرب، ومن ثم إلى الأردن حيث دعاه الأمير عبد الله الهاشمي إلى تشكيل أول حكومة عربية في الأردن، ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالمستعمر البريطاني، فاستقال وغادر الأردن إلى القدس فمصر. ولما قامت الثورة السورية سارع للانضمام إليها، وجاهد رشيد طليع مع إخوانه في الثورة، وتولى مهام قيادية رفيعة فيها. وظل يناضل حتى وافته المنية ودفن في جبل العرب.

وأتحدث عن الدكتور قاسم أبو عز الدين، وهو أيضاً غير معروف من الجيل الجديد. كان على رأس دوائر الصحة العامة في السلطنة العثمانية لفترة طويلة قام خلالها بأعمال وإصلاحات كثيرة، خاصة في ميادين الوقاية الصحية، وفي تنظيم وتركيز الحجر الصحي في الديار الإسلامية المقدسة. وانتقل من الحجاز إلى ولايات بيروت. فدمشق وحلب والعراق وإلى ولايات الأنضول وسائر أنحاء السلطنة وأنشأ أنظمة صحية حديثة لم تكن تعرفها قبل. وأصبح مشرفاً عاماً على الشؤون الصحية في السلطنة العثمانية، وممثلاً للسلطنة في المجلس الصحي الدولي. وعاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى موطنه، حيث دعاه الملك فيصل الهاشمي إلى دمشق لتكليفه بوزارة الصحة في الحكومة العربية. ولم يكد يصل إلى دمشق حتى دخلها الفرنسيون وقوّضوا الحكم العربي فيها. وعاد إلى العبادية، ولكنه لم يستطع العيش في ظل الانتداب الفرنسي فقفل عائداً إلى استانبول حيث توفي.

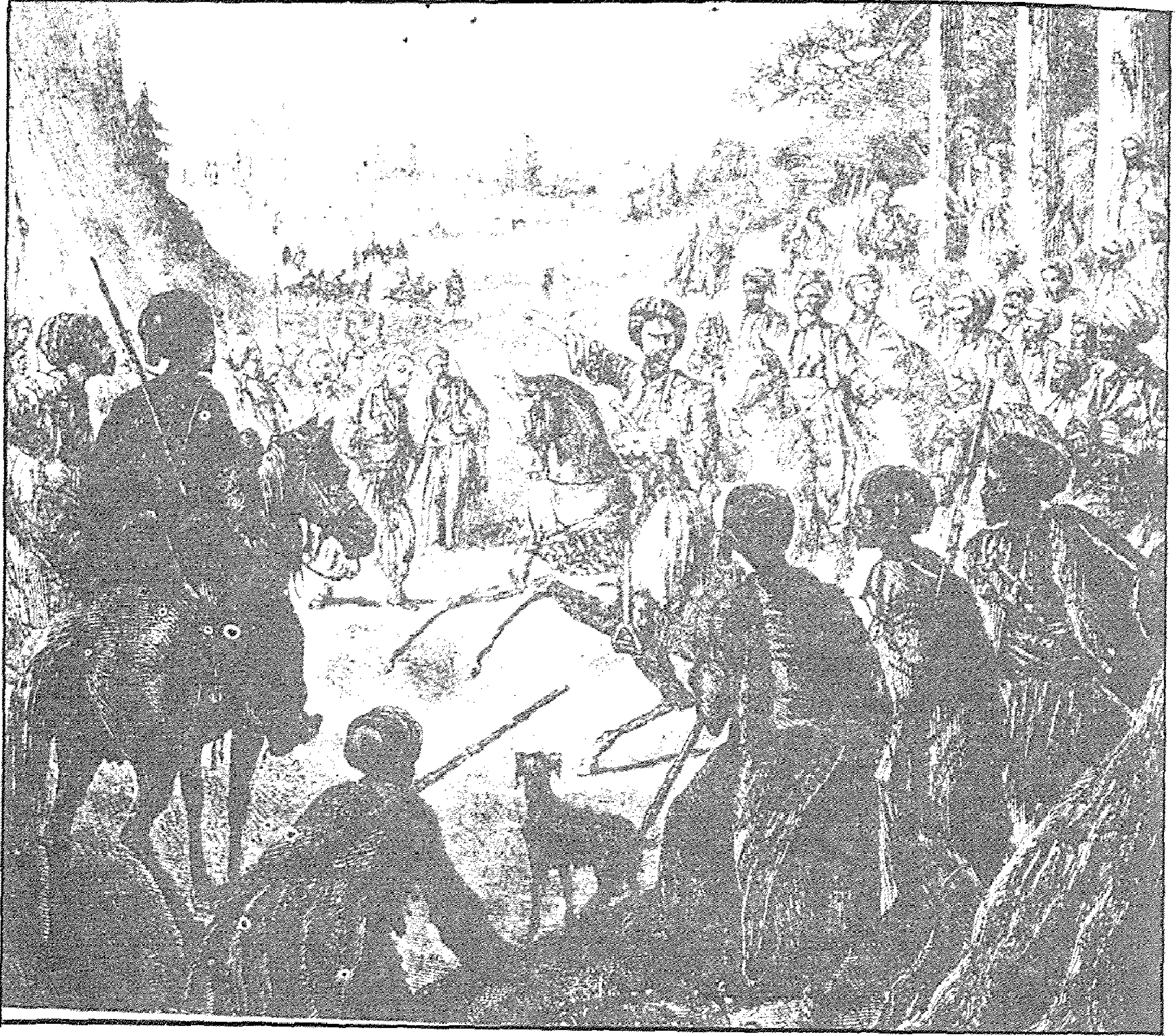
والدكتور قاسم أبو عز الدين هو والد صلاح أبو عز الدين أحد رجال الحكم العربي في دمشق وسكرتير الملك فيصل. وقد رافقه بعد ميسلون إلى بغداد.

وأتحدث عن المجاهد البطل فؤاد سليم، الفتى المعروفي الذي التحق بالثورة العربية وهو في أوائل العشرينات من عمره وقاتل الأتراك من العقبة حتى دمشق التي دخلها مع الجيش العربي. وفي دمشق عمل مع يوسف العظمة في تأسيس الجيش العربي السوري الفتي. وقاتل بجانب البطل العربي يوسف العظمة في ميسلون، وغادر دمشق لدى الاحتلال الفرنسي لها وذهب إلى الأردن حيث انضم إلى إخوانه في حزب الاستقلال العربي. وعند تشكيل الجيش العربي الأردني تولى فؤاد رئاسة الأركان فيه. ولكنه ما لبث أن اصطدم بالقيادة البريطانية، وغادر الأردن إلى مصر. ولما قامت الثورة السورية سارع إلى الانضمام إليها واشترك في معاركها، وقاد مع زيد الأطرش، شقيق سلطان، قوات الثورة في الجولان وأقليم البلان ووادي التيم.

واستشهد فؤاد في معركة مجدل شمس في الجولان. وكان بجانبه، في الجهاد حمد صعب. ودفن فؤاد في تراب مجدل شمس. وكان عمره لدى استشهاده ٣١ عاماً.

وأصل إلى النكديّين عارف وعادل، وكلاهما نور ونبراس. عارف النكدي أديب وقانوني ومصلح اجتماعي ومجاهد في سبيل الحق والعروبة. عمل في سوريا فكان مثال القاضي العادل والإداري الحازم والحاكم النزيه. وانتخب عضواً في المجمع اللغوي العربي في دمشق. وكان محافظاً لجبل العرب. وعاد إلى لبنان ليتولى إدارة الأوقاف الداودية فأنشأ بيت اليتيم الدرزي. وخلف في لبنان وسوريا أحسن الذكرى لما كان عليه من علم وخلق وتفانٍ في العمل الوطني.

وأذكر عادل النكدي الدكتور في القانون من



□ عند الحاجة كان المقاتلون يجتمعون على الفور في دير القمر (رسم غرانسير وفقاً لوصف سبول).

جامعة لوزان، والعامل الدائم لقضايا العروبة حتى الاستشهاد الذي غادر جامعته في سويسرا وعاد إلى وطنه مسرعاً للاشتراك في الثورة السورية وقاتل في معاركها واستشهد في الغوطة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره.

وأتكلم عن عجاج نويهض الأديب والمجاهد والمؤرخ والقانوني والعامل في قضايا العرب منذ قيام الحكم العربي الفيصلي في دمشق ولأكثر من ستين عاماً أمضى زهرتها في دمشق والقدس دمشق، وانتقل منها إلى فلسطين حيث عمل سكرتيراً للمجلس الإسلامي الأعلى بجانب الرئيس الحاج أمين الحسيني. وشارك في حزب الاستقلال العربي وفي تنظيم المؤتمرات العربية والإسلامية لنصرة قضية فلسطين. واعتقلته السلطات البريطانية مع رفاق قوميين له، وعمل في المحاماة وفي الصحافة وأنشأ مجلة «العرب» وانتقل بعد النكبة إلى عمان وعمل في الديوان الملكي الهاشمي وفي دوائر الإعلام. وعاد في نهاية المطاف إلى مسقط رأسه رأس المتن.

وعجاج نويهض من اكبر ادباء العرب وضع مؤلفات عديدة، ونقل إلى اللغة كتاب «حاضر العالم الإسلامي» الذي علق عليه الأمير شكيب أرسلان. وله في ميادين التأليف والكتابة والعمل القومي جولات واسعة جعلته علماً من أعلام العروبة والإسلام.

وأذكر علي ناصر الدين المجاهد العربي. أمضى حياته في العمل الدؤوب من أجل تحرير العرب

ووحدتهم. وكتب وناصل في سبيل الأهداف القومية. واعتقل ونفي مراراً بسبب آرائه الوطنية، وذاق مرارة العيش، وحتى القلة والحرمان، وتحمّل أنواع القهر من أجل عقائده الراسخة. وفي الوقت الذي وصل فيه العديد من رفاقه إلى الحكم والسلطة، بقي هو يكافح ويناضل ويعاني مرارة الخذلان حتى آخر حياته ومات كما عاش، غنياً في مبادئه وفكره وجهاده. وفقيراً في حاله وماله، معتزاً بكلا الحالتين.

واختم حديثي عن مجاهد معروفي عربي كبير قد لا يعرفه الكثيرون هنا، ولكن العروبة والإقدام والتضحية وميادين القتال كلها تعرفه، لأنه كان ابنها البار. هو المجاهد حمد صعب من الكحلونية في الشوف. عاش حياة كلها جهاد وتفان. فما قامت ثورة عربية إلا سارع إلى المشاركة فيها. قاتل في الثورة العربية الكبرى، وفي ميسلون، وفي الثورة السورية الوطنية، وفي ثورات فلسطين كلها.

شارك فوزي القاوقجي في معاركه. وانضم إلى حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١، وانتقل مع صديقه ورفيق دربه فوزي القاوقجي على رأس مجموعة من قوات المساندة العربية لثورة العراق على البريطانيين لمجابهة قوات غلوب باشا «أبو حنيك» التي دخلت العراق لتطويق الثورة. وأصيب حمد صعب في معركة قرب الرطبة في الصحراء إصابة قاتلة ودفن في رمال بادية الشام تاركاً وراءه ذكرى خالدة في الجهاد.

هذه الصفحات اللامعة من تاريخ الدروز القومي العربي والإسلامي لا يجوز أن نطويها قبل أن نشير إلى جهاد المرأة الدرزية ومشاركتها الرجل، أباً كان أو أخاً، أو زوجاً، في نضاله، وحتى في القتال. فهي تلازمه في المعركة، وتسانده، وتمده بالمؤن والذخائر، وتنخيه، وتثير رجولته وفروسيته، وينتخي الأب والأخ والزوج، ويزأر بصيحة الحرب «أنا أخوك يا سلمى، أنا أخوك يا هند» ويكر على العدو، ولا يعود من المعركة إلا منتصراً أو شهيداً.

وفيها يقول الشاعر القروي:

«ونساؤهم لو تشهدون نسائهم
في الحرب هاجمة مع الفرسان
كالماء الطف ما يكون، وانه
لأشد ما يسطو على النيران»

شاهدت أخيراً على شاشة التلفزيون العربي السوري الشقيق صداماً وقع في مجدل شمس — مثوى البطل فؤاد سليم — بين نساء درزيات — صاحبات المناديل البيض — ولفيف من رجال الشرطة الإسرائيلية المدججة بالسلاح يحيط برئيس حكومة إسرائيل السابق لحراسته خلال زيارته لمجدل شمس. شاهدت بأم عيني صاحبات المناديل البيض يندفعن نحو رجال الشرطة الإسرائيلية ويدفعنهم بقبضات أيديهن ويلقين ببعضهم على الأرض ويضربنهم ويسارع هؤلاء للإحاطة برئيس حكومتهم ويدفعون به إلى سيارة للشرطة أسرعت بتهريبه، وخاصة عندما بدأ ظهور الرجال، أصحاب العمائم البيض، وهم يتقدمون للاشتراك في المعركة.

بوركت تلك وكل المناديل البيض والعمائم البيض!

والآن،

وقد أشرفنا على نهاية الحديث عن «الدروز وقضايا العرب»، لا أقول مع الفرزدق:

«أولئك اصحابي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع»

فنحن بصدد الفخار، لا التفاخر.

ولكنني أقول مع شوقي، أمير الشعراء:

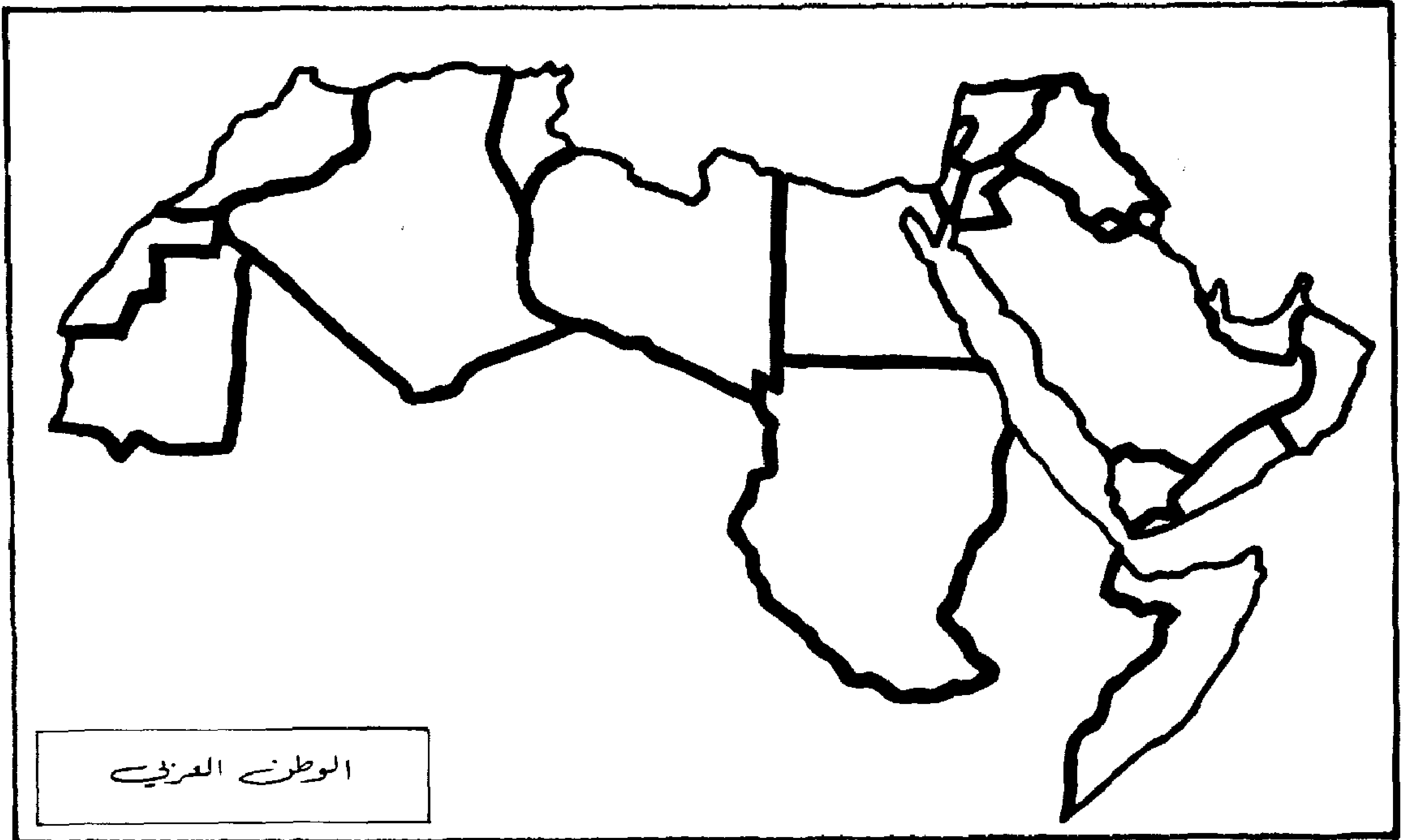
«وما كان الدروز قبيل شر
وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف
كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل اشم له شعاف
موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوءة ولكل شبل
نضال دون غايته ورشق
كان من السموأل فيه شيئاً
فكل حياته شرف وخلق»



علي ناصر الدين في الذكرى المئوية لميلاده

قراءة جديدة

في فكر رائد القومية العربية في الثلاثينات



د. محمد شيّا

(المجلس الدرزي للبحوث والإنماء)

ـ ١ ـ

لو شئتَ الكتابة في علي ناصر الدين(١) فمن أين تبدأ؟ وبماذا تبدأ؟ أتبدأ بعلي المناضل المجاهد أم بعلي السياسي والمفكّر والمنظّر؟ أتبدأ سنوات المنفى وهي بواكير العصبة أم بالعصبة وهي الرد على المنفى؟ أتبدأ بعلي اللبناني أو علي الفلسطيني أو علي العروبي؟ في الحقيقة، كل البدايات مع أبي وائل(٢) تبدو صحيحة وفي محلها تماماً! أما سببِ ذلك فبسيط جداً، وكما علي نفسه، وهي أنه حاضرٌ في البدايات كلها، صانعاً لبعضها، قريباً من بعضها الآخر، وشاهداً لها وعليها دائماً وفي كل الأحوال. ولذلك تماماً فإن جهاد أبي وائل وفكره ليسا في صلب ما حدث وحسب، بل إن ما حدث لا يمكن قراءته أو تأريخه دون المرور بجهاده وفكره. هو مَعلَمٌ في حقبة، بل هو الحقبة في كل ما فيها وقد تجسّدت في رجل.

□ د. محمد شيّا مدير معهد العلوم الاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية ـ الفرع الأول.



ولكن أيكون ما أقوله في علي ناصر الدين كثيراً؟ إذا بدا الأمر كذلك فإني لا أجد بالتالي بداية، تقيني خطر المبالغة وتفي الرجل حقه في آن، خيراً من كلمات العلامة العلايلي في أبي وائل بعيد رحيله حيث قال: «علي ناصر الدين والعروبة كلمتان وعيت عليهما أول ما وعيت... ثم عرفته من قريب... فعرفت إيمان الأنبياء يوم تجسّد، وبراءة قلب القديسين، ومنعة عزم الأبطال وتألق وهج الحرية في مقلة الأحرار. حكاية ملمومة من هذا كله صارت إلى حياة، وتنزلت في دنيانا العربية تنزل القيمة... ذلك هو علي ناصر الدين اتخذته معياراً أقدّر به منازل الآخرين، فما أسلمني إلى خطأ ولم أزل عند حسباني فيه لم يختلف عليه تعديل»[٣].

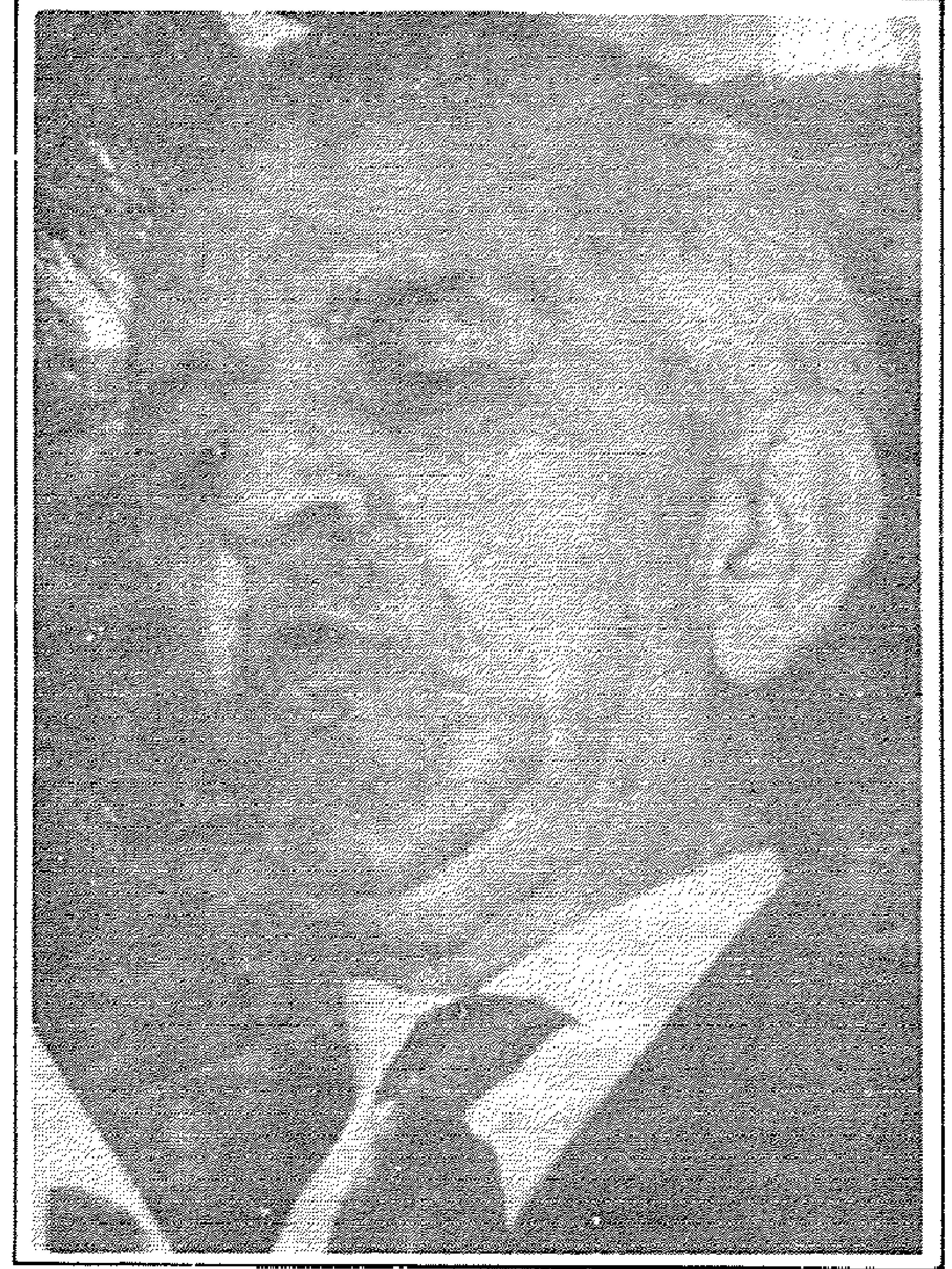
هوذا حكم جيل عاصر علي ناصر الدين فعاين جهاده الصادق، وتعرّف من قرب إلى فكره ووعيه وغاياته وتلمّس عن كثب إلى سعيه المضني في طريق الحرية والاستقلال وإدراك أسباب منعة العرب وقوتهم ووحدتهم. تلك هي «قضية العرب»[٤]، بل قضية علي ناصر الدين الخاصة والعامة شغلته حتى الثمالة فلم تترك مكاناً بعدها لقضية أخرى أو لشاغل آخر.

— ٢ —

يستطيع قارئ كتابات علي ناصر الدين أو المتتبع لوقائع سيرته أن يلحظ في الاثنين معاً حدةً غير عادية. ففي كتاباته إعلان صارخ لكل الأفكار دون أقنعة ولا توسط ولا مداراة، فلا مضمون الفكرة يقف عند حد ولا شكلها أو تعبيرها يماري أو يداري أو يعتدل، فإذا الأصل صرخة كتمها صاحبها في اللحظة الأخيرة. وكذا فصول سيرته، وهي أقرب إلى سير القديسين في حرارة الإيمان وثبات العزيمة وصدق النية وفي تحمّل صنوف العذابات التي لا قبل للناس العاديين بتحملها وإلى الحدّ الذي جعل رفاقه في العصبة ينعتونه عن حق بـ«الشهيد الحي»[٥] لجهاده وصدقه ومصابرته التي أحلّته مراتب الأعلين بين المناضلين على الإطلاق، وكذا في قول العالم الجليل المغفور له الشيخ أحمد رضا البالغ الدلالة، «... إذا قيل لي من هو المجاهد الحر الصابر على حر الجهاد، الماضي على سنته، في نصرة العرب والعروبة الصادق في جهاده، الذي لا يبالي بالآلام والشدائد مهما عظمت... لقلت لهم ذاك علي ناصر الدين»[٦].

والحقيقة أن حدة أفكار علي ناصر الدين لا يمكن أن تفهم تماماً إلا في ضوء الإحباط وخيبة الأمل اللتين أصابتا قوميي العرب من نوع النتائج التي أصابت العرب في خاتمة الحرب العالمية الأولى والتي أدت في جملة ما أدت إليه إلى إطاحة آمالهم بالاستقلال والحرية وللمرة الأولى. إلا أن الحدّة تلك تجد رافداً خاصاً بها في خصوصية شخصية علي ناصر الدين وفي تحولات السيرة التي بدا أن لها بين الحربين العامتين الأولى والثانية حربها الخاصة ضد انجلترا وفرنسا وإيطاليا كأعداء خارجيين وضد «العبيد البيض» أو «الزرق» من المرتزقة والأزلام وما شاكل من أعداء داخليين، وحرباً خلف هذه وتلك ضد التجزئة والإقليمية والكيانية والتخلف والاستسلام والذل المحيقة جميعها بواقع العرب وسعياً حثيثاً بالتالي نحو استعادة الأمجاد السالفة وبعث نهضة الأمة من جديد عبر الحرية والاستقلال والوحدة واستكمال شروط القوة وعدتها. وهل أبلغ في وصف هذه الحرب من تعبير علي نفسه في قوله: «أدعوكم إلى ركوب الصعاب، فمن لم يركب الغرض الصعب ركبه ما هو أصعب منه، وهل أصعب من العيش في الذل والثأر؟»[٧] وإذا كان لكل الحروب الأخرى نهاياتها فإن حرب أبي وائل لم تكن لتقف عند نهاية (أو إلى نتيجة) بل لكأنها أقرب إلى ملاحم الإغريق في مآسي أبطالها وهي تقاتل الآلهة والشمس والسموات فتذهب راضية إلى أقدارها ولا ترضى بخطوة واحدة إلى الوراء. وعلى ذلك بدت سيرة علي تزاحماً حاداً مثيراً للوقائع بين الكفاح والاعتقال، وبين الجهاد والمنفى، وفي الحالين إيمان وصدق ومصابرة والى منتهى ما يمكن لجسم رقيق نحيل أن يتحمل ثقل حرب لا تنتهي وأوزار قضية رآها الجميع خاسرة وبلا مستقبل.

بدأ نضال علي الأساسي في تطوع سنة ١٩١٨ في «جيش الشرق» الذي قاتل في فلسطين إلى جانب الحلفاء في سياق انخداع العرب القوميين



□ المجاهد علي ناصر الدين.

بوعود انجلترا وأوهام الحرية والاستقلال التي راودتهم في لحظة حاسمة من مفاصل التاريخ. لكنها أوهام تبددت فيما بعد، فانسحب علي عائداً إلى وطنه يناصب الفرنسيين المنتدبين الجدد الحرب فاعتقله الفرنسيون ونفي مع رفاق له إلى جزيرة أرواد على الشاطىء السوري. وبعيد عودته من المنفى سنة ١٩٢٢ أنشأ جريدة «المنبر» التي لم تكمل سنتها الأولى بسبب المطاردة والملاحقة وأخيراً الإقفال من قبل السلطات الفرنسية. لكن ذلك لم يجد نفعاً فعاد الفرنسيون إلى اعتقاله من جديد سنة ١٩٢٤ في سجن القلعة في بيروت ثم سيق مكبلاً بالحديد إلى منفاه ثانية ولكن هذه المرة إلى فلسطين وليؤسس من حيفا اتصاله الأول والباقي أبداً مع القضية الفلسطينية، من خلال مقالاته في «الكرمل» ودوريات أخرى. وكانت محاولته الجديدة في «اللواء» الطرابلسي مع أخوان له سنة ١٩٢٨ لكنها لم تعش هي الأخرى فعاد إلى فلسطين متابعاً في دائرة أوسع نضاله وجهاده. اشترك عام ١٩٣١ في المؤتمر الإسلامي العالمي الأول الذي عقد في القدس بحضور حوالي سبعين شخصية عربية وآسيوية وأفريقية. ثم تولى سنة ١٩٣٢ رئاسة تحرير «الجامعة الإسلامية» المعروفة آنذاك واشترك في تنظيمات «حزب الاستقلال» الأولى إلى أن أخرجه الإنجليز من فلسطين في أواخر سنة ١٩٣٢، وليبدأ في لبنان بعد أقل من عام العمل في أهم مشروع قومي ريادي على الإطلاق وهو تأسيسه مع نخبة مؤمنة من رفاقه «عصبة العمل القومي» وذلك سنة ١٩٣٣ بعد مؤتمر وطني عقد في مصيف قرنايل[٨]، والتي شكلت في مطلع الثلاثينات رافعة العمل القومي الأساسية في لبنان كما في كثير من أقطار المشرق العربي (وهو ما سنعود إليه)، وترأس علي فرع لبنان في العصبة حتى نهاية الثلاثينات، وإلى أن اعتقلته السلطات الفرنسية سنة ١٩٣٩ وبعثت به منفياً إلى تدمر مع عادل أرسلان وآخرين من المناضلين العرب ثم إلى معتقل «المية ومية» قرب صيدا والذي لم يخرج منه إلا مع صبيحة إعلان استقلال لبنان في أواخر تشرين الثاني لسنة ١٩٤٣ أي بعد أربع سنوات من الاعتقال.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كان سعي علي متجهاً بكامله نحو تأمين انخراط أكثر اتساعاً وفاعلية في رد الغزوة الصهيونية وأسهم من خلال مقالاته واجتماعاته وخطبه الإذاعية النارية، ثم أسهم عملياً مع فوزي القاوقجي في تشكيل جيش الإنقاذ وتولى إدارة المحطة الإذاعية المرافقة وخاض فعلياً أكثر من معركة طوال سنتي ٤٧ ـ ٤٨، وليعود من النكبة مهزوماً، منكسراً، مهيض الجناح، والثأر يغلي في عروقه ودمه كما النار في المرجل. ولست أبالغ في هذا التعبير، بل هو لعلي نفسه كما يروي[٩] رافضاً بعد النكبة أي حديث أو كلام أو محاضرة إلا في النكبة أو الأصح في الرد على النكبة والحاجة إلى الثأر. وأي دليل على نفوذ أفكار علي ناصر الدين (وعلى نفاذ صدقه في الحقيقة) أبلغ من واقع أنه يقف، كما يبدو وكما يذكر فيصل جلول[١٠]، خلف جزء رئيسي من الأفكار والدوافع التي حدت بجورج حبش ووديع حداد ورفاقهما إلى تأسيس «منظمة شباب الثأر» التي كانت نواة «حركة القوميين العرب» بعد ذلك. ومن غير المستبعد على الإطلاق، في ضوء تفاصيل المرحلة، أن تكون تسمية «شباب

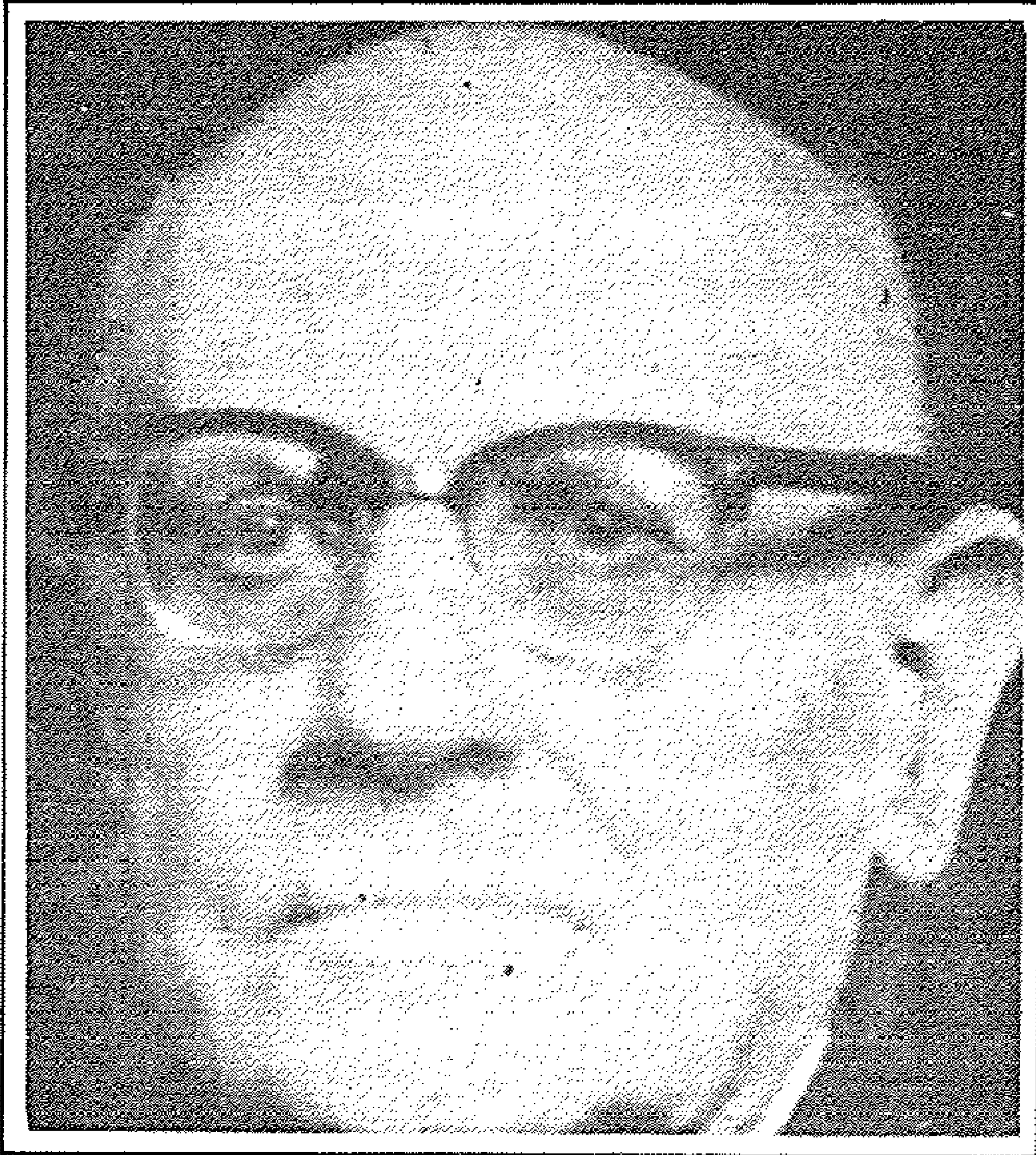
الثأر» من وحي أو تأثير أفكار علي ناصر الدين وبعض «نصائحه»، التي مرّ بها جلول في تأريخه للحركة.

أما بعد ذلك، وبصحة متردية كانت تتجه سريعاً إلى المرض، صرف علي ما تبقى من سنوات عمره في الكتابة أو في إعادة كتابة أهم الصفحات الحضارية في التاريخ العربي إلى أن أقعده المرض الشديد عن القراءة والكتابة معاً وإلى وفاته في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤.

ـ ٣ ـ

في السيرة التي عرضنا لها، أو في الترحال الدائم بين المُعتَقل والمنفى، كانت تهمة محددة تساق باستمرار في وجه أبي وائل وهي مقاومته للمستعمر المحتل ـ أو المنتدب زوراً. إلا أن ذلك المقدار من العسف والظلم والحقد على الرجل لا يمكن تفسيره البتة بغير ملاحظة أن أولئك قد عثروا عنده على ما هو أكثر من مجرد رفض الاحتلال والانتداب وعلى أخطر من مجرد السعي إلى الاستقلال ـ وهو شكلي في كل حال ـ فقد التقط أولئك، على نحو واضح ومنذ مطلع العشرينات، ما هو أخطر وأكثر من مجرد الرفض والمطالبة ألا وهو مشروعه العربي القومي النهضوي والوحدوي. هوذا سرّ علي ناصر الدين الذي انكشف جزءاً جزءاً أو تصاعد خطوة: خطوة، مذ هزمت أول تجربة عربية استقلالية حديثة سنة ١٩٢٠، وليبلغ ذروته حسب اعتقادي في تأسيس عصبة العمل القومي سنة ١٩٣٢، أعظم إنجازاته على الإطلاق، والتي بدت مفصلاً حاسماً بين حقبة وحقبة أو قل بين تاريخ وتاريخ. فما هي قضية علي ناصر الدين تلك؟

إذا كان لغالبية الناس، لا مراء، أكثر من قضية، وإذا كان لمعظم المشتغلين بالسياسة غير هم وقضية، فإن لعلي ناصر الدين وعلى العكس تماماً قضية واحدة وهي «قضية العرب». هوذا ما يلحّ علي في إعلانه وإيضاحه وشرحه والتفصيل فيه، منذ أولى كتاباته في العشرينات، والمجموعة أجزاء منها في «هكذا كنا نكتب»، إلى تأريخه لقادة العروبة البارزين قبل الإسلام[١١]، إلى كتابه النظري الرئيسي والذي يحمل العنوان نفسه «قضية العرب»[١٢]. وهكذا بدت قضية



□ ساطع الحصري.

العرب، وبكل الشمول والاستغراق قضية علي الأولى والأخيرة، وقضيته الخاصة والعامة كذلك. وإذا كان الغموض والتعميم وفقدان الدقة هي ضنو الشمول في الغالب، فإن شمول قضية العرب عند علي ناصر الدين كانت بخلاف ذلك تماماً على كثير من التحديد والتدقيق والوضوح. فإذا العروبة عنده قومية، وإذا القومية رسالة بعث الأمجاد السالفة، وإذا الهدف دولة عربية واحدة من جديد وبكثير من التخصيص الفردي والذاتي يبدأ علي ناصر الدين بتحديد هويته في مطلع قضية العرب فيقول: «نعم أنا قومي، ومعنى ذلك أنني عربي مؤمن بعبقرية أمتي وبحقها في الحياة، حرة، مستقلة، موحّدة، ومؤمن بمستقبلها العظيم وبأنني وأخواني القوميين العرب بناة هذا المستقبل»[١٣].

أما ما يريده علي من نفسه ومن «اخوانه» ومن جيله بالتالي فهو في ذلك واضح تماماً حين يقول: «إنني أعتبر كل عربي مهما يكن منشؤه ومهما تكن عقيدته الدينية، أخاً لي متمماً لقومي... وإنني حارس العروبة أحميها بأخلاقي وأقوالي وأعمالي ودمي... رسالة القوميين العرب هي رسالة القوة والحق والخير إلى العرب ثم إلى الناس كافة. ويريد القوميون العرب من وراء ذلك أن يخلقوا من الناشئة العربية ذكوراً وإناثاً جيلاً قوياً صالحاً جريئاً خيّراً عاملاً مؤمناً... يعمل

لإنشاء كيان قومي عربي موحد قوي، أي دولة عربية اتحادية كبرى، تستند إلى القومية الخالصة وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم وكل عصبية إلا العصبية القومية»[١٤].

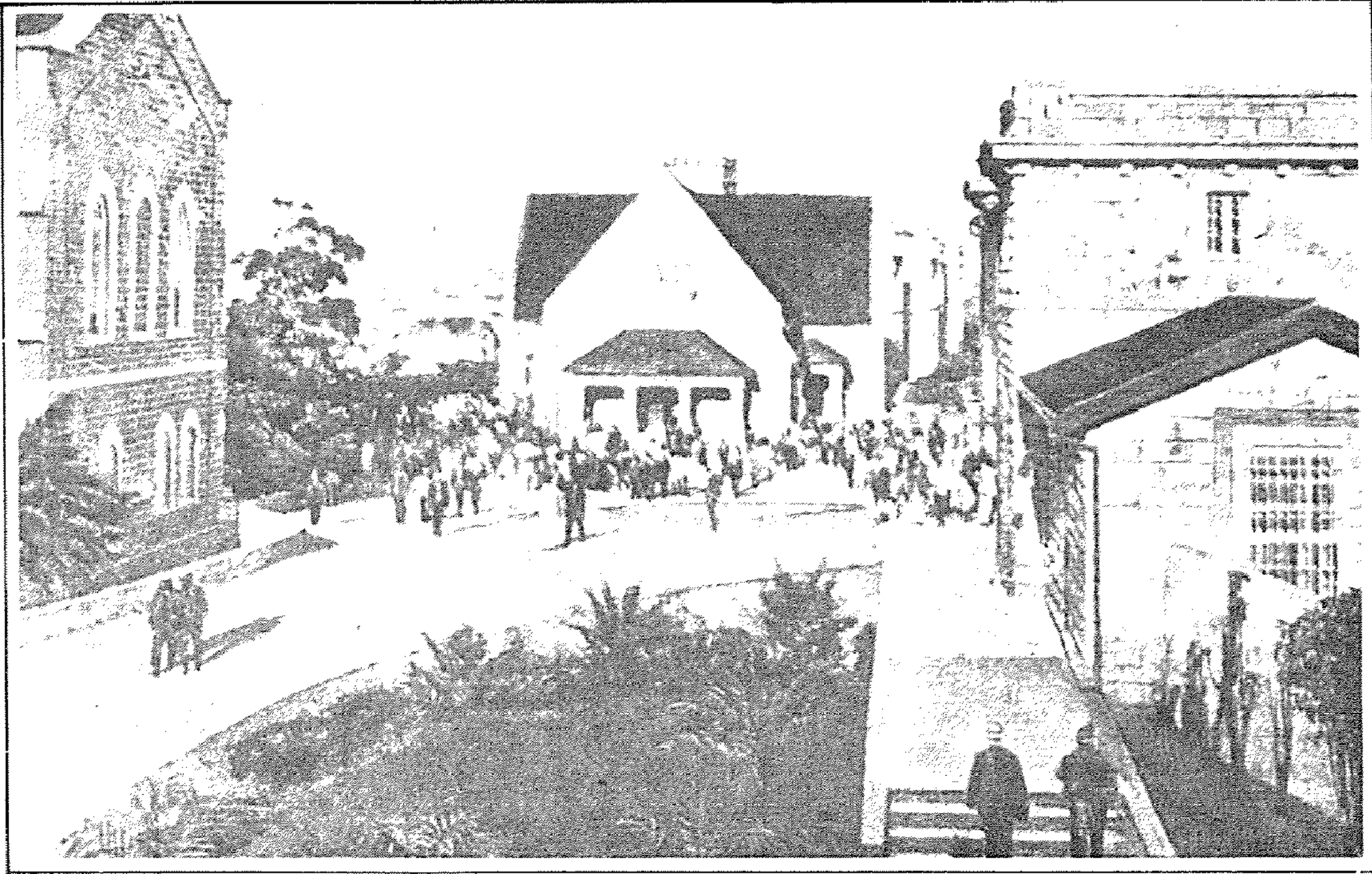
وإذا قيل في هذا الكلام أنه قول متأخر يعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية[١٥]، فإننا نحيل مثل هذا المعترض إلى قول أسبق لعلي يعود إلى سنة ١٩٣٨ ومنه جريدة «المساء» يومذاك حين يقول في صياغة ليست أقل وضوحاً على الإطلاق من رأينا: «أنا رجل عربي قومي مؤمن أعمل في سبيل إنشاء دولة عربية قومية كبرى»[١٦]. أم نحيل هذا المعترض إلى «اليوم» ١٩٣٧ حيث يقول: «لا قومية لنا إلّا القومية العربية، فنحن عرب نعمل ونجاهد في إيمان وإخلاص للوحدة العربية، ونريد أن نقنع اللبنانيين كافة بهذا ولا يتيسر لنا ذلك ما نوقعنّ في نفوس الذين من اللبنانيين ربتهم الإرساليات السيارة والمعاهد الأجنبية الثابتة تربية غربية وأشربتهم روح النفور من العرب والعروبة، لا يتيسر لنا ذلك ما لم نوقظ في نفوس هؤلاء جميعاً الشعور بالقومية العربية المرتكزة على التاريخ واللغة والأدب والتقاليد والسلالة الغالبة والمصلحة المشتركة...»[١٧]. بل إنك لتجد هذا الاتجاه واضحاً في كتابات نهاية العشرينات، أي قبل التبلور النهائي لنظرية القومية العربية وفي الوقت الذي كانت الأوساط الثقافية المحلية ما تزال خاضعة لتأثير «الأب لامنس» اليسوعي في نظريته حول سوريا السورية غير العربية. يقول علي ناصر الدين: «والواقع أن السوريين جميعهم جنس واحد، ما يختلفون إلا في العقيدة الدينية وأعني أن فيهم المسلم وفيهم المسيحي ولكنهم كلهم عرب سوريون»[١٨]. وسيصوغ علي، في «قضية العرب» بعد ذلك رداً علمياً تفصيلياً على نظريات لامنس وادعاءاته وسوء النية التي يشترك فيها لامنس مع غالبية المستشرقين والغربيين منهم بخاصة[١٩]. وتبقى الإحالة الأخيرة والأكثر أهمية، لمثل هذا المعترض، إلى إسهام علي في تأسيس عصبة العمل القومي سنة ١٩٣٢ بنصوصها «الأخيرة» والتي غدت نموذجاً في تعبير القوميين وإنشائهم.

وهكذا أرسى على منذ نهاية العشرينات الخط العربي القومي الخالص الصراح والذي لا تشوبه شائبة ولا يدخل فيه غير العامل القومي دون سواه. لذلك يجب أن نضيف، ومن باب الأمانة العلمية، أن علياً يستبق زمنياً في ذلك غالبية القوميين العرب ومنظّريهم ومفكّريهم، وأن هؤلاء سيجدون بالتالي في كتابات علي، كما تثبت كل قراءة مقارنة، بذور كثير من أفكارهم وأصول غير نظرية من نظرياتهم بل وقدراً لا بأس به من تفاصيل شكل خطابهم القومي وأدواته وصياغاته.

فالعروبة عند علي ناصر الدين، وفي نصوص أوائل الثلاثينات، هي بمثابة دين، هي كذلك عند القوميين، يقول علي: «العروبة في نظرنا على الأقل مجموعة روحانية من صفات لا تلمس وتعرف بأثرها في النفوس وما ينبثق عن هذه النفوس من أعمال... ومن صفات هذه المجموعة الروحانية... المعرفة والعظمة والسمو والحق والعدل والرحمة والحرية والعزة والجبروت وما إلى ذلك من صفات...

وباختصار فإن مشروع علي ناصر الدين القومي كان يستند، من وجهة نظره على الأقل، إلى العقل لا إلى العاطفة، وإلى «المفهوم العلمي لكلمة قومية» لا إلى الهوى والرغبة؛ وهكذا فقد بذل جهداً واضحاً، كما شأن البحّاثين والعلماء، لإثبات عروبة الأقوام التي دخلت في تشكيل ما يسمى اليوم بالأمة العربية. يقول علي: «وليست المسألة مسألة قول وهوى. كلا، بل هي مسألة علم وعقل وتاريخ ومصلحة عامة عليا»[٢٠] وهكذا واستناداً إلى ما اعتقده منهجاً علمياً في التعريف، ذهب ناصر الدين إلى أن القومية هي مجموعة من الخصائص والمزايا والطباع والتقاليد والعادات والفضائل والعيوب أيضاً وطرق النظر إلى الكون والنظم الاجتماعية تنطبع بالجملة على مر الأجيال، وبدرجات متفاوتة من حيث الكم أو القدر، في نفوس قوم تعرف بهم ويعرفون بها، وهم قوم تجمعهم جامعة واحدة لغوية وأدبية وتاريخية وروابط مشتركة من ذكريات ومصالح ومؤثرات إقليمية متممة بعضها للبعض الآخر من دون أن تقوم فيهم جميعاً الوحدة العنصرية. هذه هي القومية»[٢١]. إن هذا التعريف، وكما هو واضح، لا يخلو من

المنهج العلمي والتاريخي في النظر إلى المسألة القومية. فهو يعتقد أن هناك موجة رئيسية،،كما يثبت بعد ذلك، بدأت في الجزيرة، لكن الانتماء إلى العرب والعروبة ليس حكراً أو وقفاً عليها، أو على أية معايير اثنية أو سلالية أو عنصرية. إن شبكة أكثر اتساعاً من العلاقات والعوامل بل «والمصالح» هي ما يشكّل فعلاً نسيج القومية في رأي علي ناصر الدين، وهو موقف متقدم تاريخياً ونظرياً على كثير من أصحاب النظريات الاحادية في المسألة القومية. ورغم أن ناصر الدين يشترك مع الحصري في إضفاء أهمية خاصة على مسألة وحدة اللغة[٢٢]، إلا أنه يبدو من مقارنة كتاباته بتحليلات الحصري في كتابه «ما هي القومية»، أن ناصر الدين هو أقل كلاسيكية وأكثر تاريخية من بعض مواقف الحصري في المسائل التي تعرض لها. لقد دخلت «المصالح» في تعريف القومية، وهي دليل العقلنة، كما في نوع الروابط التي تشدّ الأقطار العربية بعضها إلى بعض، أو تلك الحلقات في السلسلة الواحدة. فقد رأى مثلاً أن ما يربط لبنان بالعروبة، هو كل تلك الروابط بالإضافة إلى مصلحته تحديداً، لذلك فهو يقول في نص يعود إلى سنة ١٩٣٠: «وإنه من الرجولة الحق أن يغلّب المرء عقله على هواه، وأن مصلحتنا جميعاً لو عقلنا في أن نصبغ لبنان بالصبغة العربية القومية الصرف»[٢٣]. والمصلحة اللبنانية ليست المادية وحسب وإنما في تجاوز انقسامات اللبنانيين ومذاهبهم ومللهم. والمصلحة كذلك، إلى الروابط الأخرى، هي ما يوحّد بين مسلمي الشرق ومسيحية: «... ليس في لبنان في نظرنا مسيحيون ومحمديون في عرف السياسة ولا في عرف القومية والوطنية وإنما فيه لبنانيون تجمعهم مع أهل هذا الشرق العربي القومية العربية والمصلحة العربية السياسية منها والاقتصادية والعسكرية..»[٢٤] وكذا المصلحة القطرية تحديدا هي التي تفرض على كل قطر عربي أن يسعى إلى الآخر، لذا نراه يقول في نص يعود إلى سنة ١٩٣٥: «نحن نؤمن بعد شتى التجاريب ومختلف ألوان الاختبار أن الأقطار العربية يستحيل عليها أن تتحرر أو تستقل وتعيش على طول منفرداً بعضها عن البعض الآخر»[٢٥]. ولا حاجة بنا للاسترسال في هذه النصوص إلى ما لا نهاية، لأنها كثيرة وتوحي جميعاً بمقدار النضج الذي كان يسم تفكير علي ناصر الدين القومي، ولعل عزوفه عن الوحدة العربية الاندماجية أو «اندروبانية» إلى الوحدة العربية الاتحادية هو، كما سنرى، ملمح آخر من ملامح النضج والواقعية. واستناداً إلى معياره التاريخي والواقعي والجدلي، إلى حد بعيد، استطاع علي ناصر الدين أن يتجنب مأزق غلاة القوميين في فروضهم السلالية غير القابلة للإثبات وأن يستبدلها بشبكة أوسع تستطيع استيعاب مختلف العناصر الأثنية التي دخلت في صلب الأمة العربية، «... إن وحدة الدم والسلالة المطلقة... ليست شرطاً، لا تكون جماعة من الناس بدونه، أمة واحدة تامة، وإن للأمة الواحدة التامة عناصر تخلقها وقد حددناها... وقد توفرت هذه العناصر لشعوب الأقطار العربية التي ذكرناها وخلقت منهم أمة واحدة تامة»[٢٦]. وقبل الخروج من تحديدات القومية العربية عنده فإن الإضافة الناصر الدينية الأخيرة، في هذا الشرق على الأقل، هو حسمه الخيار القومي على نحو نهائي وإخراجه بالتالي من إشكالية الدين واعتباره شأناً قومياً اجتماعياً وسياسياً. فعلى خلاف كثير من رفاقه القوميين أمكن لعلي ناصر الدين أن ينجز، ومنذ الثلاثينات، تصوراً تاريخياً سياسياً مدنياً للعروبة وللقومية العربية. وتحت عنوان: «دعاة القومية لا يفرقهم الدين» يكتب علي ناصر الدين في شباط ١٩٣٠ ما يلي: «لا جدال بأن في الأوساط الإسلامية العربية في لبنان، وغير لبنان، حركة استياء عنيفة جداً يصح أن توصف بأكثر من ظروف قابضة... ولا جدال أيضاً بأن هذا الاستياء العنيف يتغلغل... في الأوساط العربية غير المسلمة، وأنه لا أثر له في الأوساط المسلمة غير العربية على الإطلاق، إذن فالمسألة مسألة قومية عربية وليست مسألة دين»[٢٧]. إلى أن يضيف وبوضوح كلي: «إننا عُصَب تدعو إلى تشييد الكيان السياسي على أسس القومية الخالصة. وأن قسطا وغسان العربيين لأقرب إلينا وأحب من محمد خان العجمي وعصمت قره بكير التركي».



□ الجامعة الأميركية في بيروت.

وهكذا، وبوضوح تام وفي استعادة للتجارب القومية الأوروبية النموذجية، يفرّق علي ناصر الدين تماماً بين الانتماء القومي والانتماء الديني. وقد جاء تأسيس «عصبة العمل القومي» ليؤكد على هذه النظرية؛ وعلي ناصر الدين يدرك تماماً الدور الريادي الذي مثّله أو مثّلته العصبة في تحقيق هذا التميّز أو التخارج بين المفهومين فيقول: «كنّا أوّل من عرّف القومية تعريفاً علمياً واضحاً صحيحاً وحددنا قضية العرب... تحديداً علمياً قومياً سياسياً وفرّقنا بين الجامعة الإسلامية وبين الجامعة العربية... ونشرنا.. إن القومية شيء والدين شيء آخر»(٢٨).

وهكذا تنتهي محاولة علي ناصر الدين في تأسيس نظرية علمية في القومية العربية تبدأ من التحديد الدقيق لمفهوم القومية وتحديدات العربي والعرب والعروبة مع التمييز الدقيق بينها وبين ما هو ديني أو إسلامي أو شرقي. وهي محاولة تتضمن مقداراً من الجدّة والريادة والإضافة، وتتضمن في كل الأحوال قدراً واضحاً من المنهجية والعقل والمنطق والعلم بعيداً، إلى حد ما، عن منازع الهوى والرغبة والانفعال، مع حظوظ متفاوتة من النجاح والتوفيق، وهو أمر طبيعي بالتأكيد. ذلك هو الجانب النظري التأسيسي في مشروع علي ناصر الدين القومي. لكن علي ناصر الدين لم يكن منظّراً بمقدار ما كان مجاهداً وعاملاً فعلياً في مجريات واقعه، وعلى ذلك فإن ذلك الجانب الفطري الأوّلي لن يجد معناه الحقيقي إلا حين يستكمل بما هو عملي وتطبيقي وهو ميدان كان لعلي فيه اليد الطولى والإسهام الفعلي والمباشر. كيف يمكن إذاً حمل المشروع القومي من مستوى النظرية إلى حيّز التطبيق؟ كيف يمكن تحقيق الدولة العربية الكبرى العتيدة؟ وما هي الوسائل والأدوات؟ تلك هي أهم عناوين إسهامات علي ناصر الدين العملية أو التطبيقية والتي سنعرض لها في الفقرة التالية.

— ٤ —

تقوم مسألة العمل في رأس أولويات قضية العرب عند علي ناصر الدين. وما النظرية التي أفضنا في شرحها، على أهميتها، غير الدليل أو المرشد أو الكشّاف الذي يكتسب معنى وجوده، بل مبرر وجوده، في حدود مقاربته لمسألة

العمل والتأسيس لها ولإيقافها بالتالي على قدميها وفي الخط المستقيم الذي يوصل إلى الغايات الكبرى مباشرة ودونما ضياع أو ضلال أو تضليل. وعلى ذلك فالانتماء للعروبة إنما يكون، في تقدير علي ناصر الدين، بمقدار العمل في سبيلها وبذل التضحيات لدفعها من مستوى الفكرة إلى مستوى الواقع. يقول ناصر الدين: «إن القياس الصحيح في نظري لليقظة الصحيحة عند العرب... إنما هو أولاً وقبل كل شيء في مقدار ما يثبت من استعداد عند العرب للعمل الجدي الحاسم...»[٢٩]. هذا العمل، بل هذه الجدية في العمل، هي ميزة دائمة في سلوك علي ناصر الدين، كما في شخصيته. وهل أدلّ على ذلك من حالات الاعتقال التي تعرض لها طوال فترة الانتداب الفرنسي؟ وإذا تجاوزنا العمل بهذا المعنى اليومي المباشر رأينا ناصر الدين يبرمج نضاله الوطني والقومي وعل نحو مبكّر في أشكال عملية تفصيلية — رغم أنها محكومة على الدوام بسقف مركزي استراتيجي. أما أبرز أشكال عمل علي ناصر الدين في الفترة المبكرة تلك فهي دعوته منذ أواسط العشرينات إلى سياسة «اللا تعاون»[٣٠] مع المستعمر أو المنتدب والتي تأخذ شكل المقاطعة أو السلبية وتحت تأثير الفلسفة التي أشاعها غاندي في الهند في مطلع العشرينات: «السلبية في إيجاز هي أن تتجاهل وجود السلطة المنتدبة الحاكمة فلا تقبل منها وظيفة ولا تقبل منها لقباً، ولا وساماً ولا دعوة إلى حفلة، ولا تدخل معها في مفاوضات... إلى أن تعترف هذه السلطة بحقك وتحترم هذا الحق... على أن هذا المنهاج ينبغي أن يطبق معه منهاج وطني للعمل الإنشائي وإلا غدا ليس خيالاً فحسب بل لغواً وهراء أيضاً...»[٣١]. هذه عيّنة من الروح العملية عند علي ناصر الدين بدت في مرحلة مبكرة جداً وانتهت به كما نعرف إلى الاشتراك الفعلي في حملة «جيش الإنقاذ» وفي كثير من معاركه في فلسطين.

إلا أن ما يعنينا الآن من «عمل» علي ناصر الدين هو أكثر من ذلك قليلاً؛ وهو تحديداً نوع العمل المطلوب في بعث الأمجاد العربية السالفة، في تحقيق الأحلام القومية الكبرى وفي الوصول أخيراً إلى الوحدة العربية ودولة الوحدة العتيدة والمرجوة. يقول علي ناصر الدين: «إن مرماي البعيد هو الوحدة العربية، وإن مثلي الأعلى هو الحياة والموت في سبيل إنشاء الدولة الكبرى لهذه الأمة العربية التي أريدها عظيمة في مختلف نواحي الحياة... تطبع بطابعها الدنيا كلها»[٣٢]. ولأن مثل هذه الغاية لا يعوزها الوعي، عند علي ورفاقه في الأقل، وإنما يعوزها العمل والتنظيم والتضحية، أقر هؤلاء مبدأ «العمل القومي الجدّي المنظّم»، فكانت المبادرة القومية الأهم في مطلع الثلاثينات عنيت بها تشكيل «عصبة العمل القومي» سنة ١٩٣٣. تأسست العصبة إثر مؤتمر وطني عقد في «قرنايل» بمبادرة من علي نفسه وضم نخبة من العاملين في سبيل القضية العربية من لبنانيين مع عدد أقل من السوريين والعراقيين، وترأس علي فرع لبنان في «العصبة» والذي بدا أنه الأكثر نشاطاً. وقد بدا من تطور الأحداث، ومن شهادة التاريخ بعد ذلك، أن العصبة كانت إحدى أولى المحاولات الكبرى لبلورة عمل قومي عربي منظم يقود نحو الأهداف القومية. ولذلك تبدو شهادة لطف الله الخوري في محلها حين يقول عن علي: «وكان أحد مؤسسي أول حزب عربي على أسس علمية وقومية خالصة»[٣٣]. أما محمد علي الرز والذي كان أحد المشتركين في مؤتمر «قرنايل» والذي انتخب أميناً عاماً «للعصبة» فيقول في تأسيس العصبة: «كان علي ناصر الدين القلب النابض لذلك المؤتمر الذي انبثق عنه حزب «عصبة العمل القومي» الحزب القومي الوطني الذي جسّد بشكل علمي آمال الملايين من الخليج إلى المحيط والذي تتلخص أهدافه في ما يلي:

١ — العرب أمة واحدة...

٢ — الأمة العربية جسم اجتماعي واحد...

٣ — البلدان العربية بكليتها وطن عربي واحد.

٤ — القومية العربية تنبذ كل ما عداها من العصبيات الطائفية والقبلية والأسرية.

٥ — الحركة العربية هي حركة بعث وتحرير وإنشاء.

٦ — تعمل العصبة لإقامة نظام اقتصادي عادل شامل يظفر فيه كل مواطن بحقه المتناسب

مـع عمله. وتحارب الجهل والفقر والمرض.

ثم تركز بقية الأهداف على الإنماء والمشاريـع الاقتصادية وبالعدل وبالمساواة بين الرجل والمرأة وبضرورة التركيز على التنظيم داخل الدولة(٣٤).

أمـا ما يقـوله علي نـاصر الدين نفسـه في «العصبـة»، وهو عـلى قدر كبـير من الأهمية التـاريخية، فلنقـرأ بعضاً منـه في محاضـرته المشهورة في عاليه قبل تخليه عن رئاسة العصبة وأثر خروجه من المعتقل، يقول علي: «أما بعد فإن عصبة العمل القومي، ليست حزباً بالمعنى الذي تواضـع عليه معظم الناس في هذه البلاد... إنها حزب فكرة وعقيدة وهدف قـومي رفيـع عام، ونظام، يتسـع لكل عربـي يحب الحق والحرية والخير والكرامـة»(٣٥) ويكمل نـاصر الدين في الطابـع الرسـالي للعصبـة: «ولكنـه الحق... ويستحيل أن يجهل الحق الناس جميعاً، فإن جهله ناس في ناحية ما أو في حين ما فإنما مزية القومي المؤمن... أن يدلهم عليه وأن يترفـع عن استغلال جهلهم إياه... وعصبة العمل القومي إيماناً منها بهذا المذهب تقول ما تقول وتعمل ما تعمل وعلى أساس هذه العقيدة التي نأخذ أنفسنا بتطبيقها عملياً... وكيف أن العصبة فكرت تفكيراً علمياً صحيحاً خالصاً، لوجه الحق ووجه الوطن، عاقلاً متسلسلاً لا يطغى فيه أثر العاطفة على أثر العقل والعلم والواقـع، حينما لبّت نـداء الإلهام وآمنت بقـدرتها عـلى حمل الرسالة العظمى التي تحمل للعرب أولاً ثم لسائر الناس»(٣٦). ويدرك علي تماماً ما أنجزته العصبة على المستويـين اللبناني والعـربـي ومن وجهة تاريخية فيقول: «وقد نشرنا في لبنان الذي نريده واسطة السلسلة وحلقتها الذهبية ـــ إن أمكن ـــ ما آمنا به، وقامت الحجة العلمية على صوابه من أن اللبنانيين عرب لا قوميـة لهم إلا القوميـة العربية، وكنا أوّل من عرّف القومية تعريفاً علمياً واضحـاً صحيحاً، وحـدّدنا قضيـة العرب... تحديداً علمياً قومياً سياسياً. وقلنا بهذه وعملنا لها ودعونا إلى القول والعمل لها وميزنا بـين الوحدة والاتحاد وقلنا بالاتحاد اليوم ونشرنا بين اللبنانيين كافة أن القـومية شيء والدين شيء آخر...»(٣٧). هذا ما أنجزته «العصبة» في ما هو رئيسي وتاريخي من نضالها معرضين عن يومياتها التي حفلت بالكثير من آيات العمل المضني والكد والكفاح ومقاتلة المستعمر والمنتدب وإلى الحد الذي دفعه إلى اعتقال أعضـاء لجنتها المركزية بالكامل.

ولا عجب بعد ذلك أن يمر كل مؤرخ للقومية العربية، ولـمرحلة الثلاثينـات، «بعصبة العمـل القومي» كأحد المعالم الأولى والأساسية والفاعلة في سياق نظرية القومية العربية، بل في سياق الأحداث عموماً. يقول البرت حوراني...: «... وفي سوريا دعا حزب «عصبة العمل القومي» الذي باشر عمله في سنة ١٩٣٥ إلى برنامـج... نص على الاستقلال الوطني والوحدة العربيـة والعلمانية والإصلاح الاجتماعي. وقد لعب أمثال هذين الحزبين (الآخر هو الأهالي في العراق) دوراً معيناً في حياة سوريا والعراق السياسية... إن أهميتها ترجـع في الأخص إلى كونها حاولت أن تعبّر عن عقيدة قومية أشد ترابطاً...»(٣٨).

لقد أدّت «عصبة العمل القومي» دورها كاملاً وحتى نهاية الثلاثينات فبعثت الكثير من المشاعر القـومية والوعي القـومي وبيّنت الحاجـة إلى التجمـع والاتحاد في دولة عربية واحدة، ولم تكن قادرة في الحقيقة أن تفعل أكثر من ذلك. هي ذلك «الوعي القومي الحق» الذي «ينبغي أن يأتي دوره قبل كل ثورة» كما قال علي ناصر الدين؛ والعصبة لم تبخل في دفـع مثل هذا الوعي إلى الواجهة. إلا أن تجربة «العصبة» قدّمت لعلي، كما اعتقد، ما هو أكثر من ذلك. إذ أن تمرّسه وبكثير من المسؤولية في التنظيم والسياسة دفعا فكره نحو مزيد من النضـج والواقعية. فأدبيات علي ناصر الدين في أواخر الثلاثينات وما تلاها تتضمن قدراً من التمايز من كتاباته سحـابة العشـرينات ومـطلـع الثلاثينـات، في مضمون مشروعه القومي الذي كان يزداد اتساعاً وتعقيداً ليشمل مصر والسودان وشمال أفريقيا، كما في شكل ذلك المشروع وفي مفردات خطابه القومي وأدواته ووسائله عموماً. ولعل أهم تلك التحولات هو استنفاد العصبة، كتنظيم شعبـي حزبـي، غاياتها وليبدي علي بالتالي مزيداً من الواقعية في التعاطي مـع المعطيات السياسية المستجدة من حكومات وزعـامات بـدت أهلاً لتقبـل خطابـه القومي. هذا التحول يتلازم كما أرى مـع تحول

آخر أكثر أهمية هو العزوف المتزايد لعلي عن حلم الوحدة التامة الشاملة نحو مطلب أكثر واقعية هو الاتحاد الفدرالي تحديداً، ورغم أن بذور هذا التحول موجودة من قبل إلا أنها لم تكن على الإطلاق بمثل هذا الوضوح والتأكيد والمتابعة. وهو في النهاية مطلب لا يخرج عن سياق الوحدة وإن بدا أكثر واقعية وفهماً لوقائع العصر. يقول علي في نص يعود إلى سنة ١٩٣٨: «إنني أعتقد أن كل ما هنالك من عوامل للتجمع والاتحاد متوفر للأقطار العربية والحكومات العربية أكثر من توفره لغيرها في الأقطار والحكومات التي تجمعت واتحدت... وهذا لا يخفى على أحد من العارفين بالأقطار العربية وجغرافيتها وتنوع مناخها... والشعور الكامن في شعوبها، ولعل مما يوحي إلى بعض الناس بمثل رأي العالم الفاضل السيد أحمد لطفي السيد(*) غفلة بعض العاملين في ميدان القضية العربية عن التنظيم وذهابهم مع العاطفة من غير ما اتزان وانصرافهم عن العمل الإنشائي المستند إلى القواعد العلمية في شتى نواحي النهضة من اقتصادية واجتماعية وتثقيفية وتاريخية قومية...»[٣٩].

إن حقيقة الكيان العربي الواحد القائم ضمناً في كل الوقائع لا يعوزه إلا التنظيم والعمل والبرمجة القادرة على تحويل ما هو إلى حيّز الفعل والوجود. هذا هو تصور علي ناصر الدين الدائم. يقول علي: «لقد عرفنا ما هي الأمة الواحدة التامة وآمنا بعد تحديدها وبعد تبيان حقيقة أهل الأقطار العربية بأن هؤلاء إنما يؤلفون بمجموعهم أمة واحدة تامة فما هي العوامل التي يجب أن تتوفر لتأليف دولة اتحادية كبرى واحدة ولأمة واحدة؟»[٤٠] ويعدد علي أهم تلك العوامل فإذا هي وجود الوعي القومي الصحيح أولاً، ثم توفر القادة العقلاء المخلصين المنزهين، ثم ولعله الأهم تبني «بعض الدول العربية العريقة القائمة فكرة إنشاء كيان قومي عربي موحّد أي دولة اتحادية واحدة كبرى واعتبار نفسها، من هذه الجهة، من العرب كما اعتبرت بروسيا مثلاً نفسها من الألمان سنة ١٨٦٦...»[٤١].

لقد أدرك علي، وبكثير من الواقعية، أن حقيقة الأمة الواحدة لا تنفي الحقيقة الثانية وهي أن لكل بقعة وشعب من بقاع الأمة وشعوبها لها أو له وضعه الخاص غير المماثل تماماً لسائر البقاع والشعوب: «وما فاتنا أن هذه الحلقات غير متماثلة من بعض النواحي وأنه ينبغي لنا ويتحتم علينا أن نعمل جاهدين لتتماثل وتنسجم»[٤٢]. ولذلك بدت الصيغة الاتحادية هي الأمثل لتحقيق ما هو مباشر وآني من ظروف الوحدة ووقائعها. كذلك تستجيب هذه الصيغة لواقع أن جسم الأمة لم يعد الآن كتلة واحدة وإنما هو دول وحكومات ويجب أخذ مصالحها بالاعتبار في أية صيغة وحدودية.

وإذا كان افتراض وجود «بروسيا عربية» ما هو شرط قابل للنقاش، رغم أنه فرض لا يخلو إطلاقاً من التاريخية والمنطق، فإن الأكثر تاريخية ومنطقاً وواقعية هو تلك الصيغة الاتحادية التي اقترحها علي والتي لا تزال حتى الآن إحدى أبرز الخيارات المطروحة دائماً في أية صيغة تتناول العمل العربي المشترك، ولعل بعض التجارب الوحدوية التي حدثت قد أكّدت، حتى في فشلها، صوابية الخيار الاتحادي وتقدمه الخيار الوحدوي «الاندماجي» الذي رأى علي فيه كثيراً من اللاواقعية، وفي ضوء المعطيات الحالية على الأقل. وقد أنجز علي ومنذ سنة ١٩٤٩ ما اعتقد أنه صيغة نهائية لـ«مشروع الاتحاد العربي»، يجمع حكومات الدول العربية وعلى النحو الذي «يجعل من الأمة العربية الواحدة في آسيا وأفريقيا عنصراً قوياً فعالاً» يسمح بالتقدم الاجتماعي والاقتصادي «وبسيادة الحرية والحق والعدل أيضاً»، كما ورد في التوطئة للمشروع[٤٣].

أما في صيغة المشروع ومرونته فتقول المادة الثانية من الفصل الأول: «لتكوين هذه الأمة ليس من سبيل جمع الدول العربية في اتحاد فدرالي يصل ما انقطع من الروابط بين قطر وقطر من أقطار الوطن العربي ويوثّق هذه الروابط التي كونتها منذ القدم عوامل طبيعية حيوية أصيلة، اخذاً بعين الاعتبار وضع كل قطر من النواحي التاريخية والجغرافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ترسيخاً لمقومات

(*) كتبت هذه المقالة في الرد على أحمد لطفي السيّد المتشكك في إمكانية قيام وحدة عربية.

الاتحاد كاملة». وإذا بدا أن عليا يحتفظ، وعلى نحو ضمني، «ببروسيا العرب» أو النواة في الاتحاد ذاك، إلا أنه يبدي وضوحاً كلياً في أن صيغة السعي نحو الاتحاد هي الدعوة «بالحسنى والقول الكريم وأساليب المنطق والاقناع... وبمختلف الوسائل الخيّرة»[٤٤]، وهو بالطبع تميّز واضح من التجربة القومية الألمانية والتجارب الأوروبية عموماً. ويتناول مشروع الاتحاد التفاصيل الداخلية بكليتها من طبيعة الحياة النيابية وطريقة عقد المعاهدات وسن القوانين وتوحيد النقد، وسواها من الإجراءات التنظيمية والتفصيلية.

وإذا كان هناك من سمة خاصة أو دالة ما في مشروع علي، وفي ما خص فكره السياسي بالذات، فهي تلك المرونة الواقعية التي تحكم تفكيره السياسي. والمرونة تلك ليست تنازلاً عن المبادىء والأصول وإنما هي، وعلى العكس تماماً، نتاج التمسك بتلك المبادىء والأصول والخوف من ضياعهما في زحمة ما يتغيّر أو يتبدّل. هي مرونة المشتغلين بالسياسة وتعقيداتها وأمورها والتي تميّزهم من أصحاب النظريات التي تقدّم القياس على النتيجة والمنطق على الوقائع. وواقعية علي تلك يمكن رصدها ومنذ نهاية الثلاثينات، في أكثر من جانب وقضية وهي أمر لافت وجدير بتأمله واستخلاص دروس مهمة منه. كذلك يبدو من اللافت في هذا الباب ملاحظة أن جيلا بكامله من القوميين، أو الذين غدوا قوميين، كان الأكثر نشاطاً وفاعلية في الميدان، الفكري والسياسي والعسكري، ومع ذلك فقد كان هذا الجيل مستعداً دائماً للحوار والنقاش والتفاوض والأخذ والرد وبكثير من المرونة والواقعية. أما الحكم على هذه المدرسة وفلسفتها السياسية فقد أصبح كما يبدو مبحثاً تاريخياً، في الغالب، بعد التطورات العاصفة التي تلت نكبة ١٩٤٨، وصعود مختلف التيارات إلى سدة الحكم في الوطن العربي، وفقدان الثقة بنوايا الغرب وأخيراً بالتحول التدريجي للقومية العربية نحو اتجاهات أكثر جذرية وراديكالية. هي مرحلة جديدة دون شك في سياق سيرورة الفكرة، تقوم إلى ما سبقها لكنها تمتلك بالتأكيد إضافاتها الخاصة. كما أنها ليست أكثر من لحظة عابرة أو مرحلة يجري اجتيازها، وستليها بالتأكيد مرحلة أو مراحل أخرى وستكون هي الأخرى مختلفة تماماً في همومها ومضامينها ومفاهيمها وشعاراتها. والواقعية في النهاية هي اعتراف بالعجز عن امتلاك كل الأوراق، وتسليم بحق الآخرين في بعضها، وبحق التاريخ في النهاية بالأوراق كلها. وعلى ذلك تبدو واقعية علي ناصر الدين، وبمعزل عن الصواب والخطأ، على كثير من المنطق والعلم والموضوعية. ●

الهوامش

(١) ولد في بمريم (قرب حمانا) سنة ١٨٨٨ وأدركته المنية في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤.
(٢) هو اللقب الذي عرف به بين رفاقه وأقرانه.
(٣) من كلمة فضيلة الشيخ عبد الله العلايلي في تأبين علي ناصر الدين في ١٨ أيار ١٩٧٥، والمثبتة في الكتاب الذي أصدرته لجنة إحياء ذكرى المجاهد علي ناصر الدين تحت عنوان: «المجاهد علي ناصر الدين صفحة مشرقة من التاريخ القومي العربي الحديث». (ص ٨٠ ــ ٨١).
(٤) هو عنوان كتاب علي ناصر الدين الأكثر شهرة.
(٥) من كلمة الدكتور محمد علي الرز أمين عام «عصبة العمل القومي» في عهد أبي وائل. (المجاهد علي ناصر الدين... ص ٢٣).
(٦) نفسه، ص ٣١.
(٧) نفسه، ص ١٠٣.
(٨) من رفاق علي نذكر: الشيخ قسطنطين يني، الشيخ عبد الله العلايلي، الدكتور محمد خير النوري، الأستاذ ناظم القادري، المحامي فهيم خوري وآخرين.

(٩) في مطلع محاضرته في منتدى دار الأيتام الإسلامية في بيروت في نيسان ١٩٤٩ حيث يقول: «كنت عاهدت نفسي بعد النكبة ووفيت على أمور منها أن لا أحاضر ولا أخطب ولا أحضر حفلة أو اجتماعاً إلا أن يكون الغرض من هذا كله البحث الجدي في محو العار... أو الثأر».

(١٠) يلاحظ فيصل جلول: «أن الحركة (حركة القوميين العرب) وقادتها قد خضعوا مبكراً لآراء أحد أساتذتهم الدكتور قسطنطين زريق ولعلي ناصر الدين المهتم بالعمل القومي وعضو عصبة العمل القومي وأحد مؤسسيها... فنزولاً عند نصيحة علي ناصر الدين...إلـخ» (الفكر العربـي، عدد ٢٨، ص ١٨٣).

(١١) سلسلة «الثائرون العرب في التاريـخ» صدر منها. «أذينة والزباء»، «الملك سيف»...

(١٢) في طبعات ثلاث، الأولى ١٩٤٦ والأخيرة ١٩٦٣.

(١٣) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٢٤.

(١٤) نفسه، ص ٢٤ ــ ٢٥.

(١٥) يقول علي في مقدمة قضية العرب إن فصول الكتاب كتبت بين سنتي ٤٣ و ٤٤ رغم أنه لم يصدر حتى سنة ١٩٤٦.

(١٦) علي ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، (طبعة أولى، بيروت، ١٩٥٢)، ص ١٨٩.

(١٧) نفسه، ص ١٣٥.

(١٨) نفسه، ص ٤٩.

(١٩) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٧.

(٢٠) علي ناصر الدين، قضية العرب، ص ٤٩.

(٢١) نفسه، ص ٥٠.

(٢٢) نفسه، ص ٣٤.

(٢٣) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ١٣٢.

(٢٤) نفسه، ص ٢٥١.

(٢٥) نفسه، ص ٢٤٨.

(٢٦) ناصر الدين، قضية العرب، ص ٧٨ ــ ٧٩.

(٢٧) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٥٢ ــ ٥٤.

(٢٨) نفسه، ص ٢٦٥.

(٢٩) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٢٨١.

(٣٠) نفسه، ص ٦١، ٦٣، ٩١ وسواها.

(٣١) نفسه، ص ٩١ ــ ٩٢.

(٣٢) نفسه، ص ١٢٩.

(٣٣) المجاهد علي ناصر الدين، ص ٣٨.

(٣٤) نفسه، ص ١٤ ــ ١٦.

(٣٥) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٢٦٠.

(٣٦) نفسه، ٢٦٣ ــ ٢٦٤.

(٣٧) نفسه، ٢٦٤ ــ ٢٦٥.

(٣٨) ألبرت حوراني، الفكر العربـي في عصر النهضة، ص ٣٦٧.

(٣٩) نفسه، ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٤٠) ناصر الدين، قضية العرب، ص ٤٢.

(٤١) نفسه، ص ٤٢.

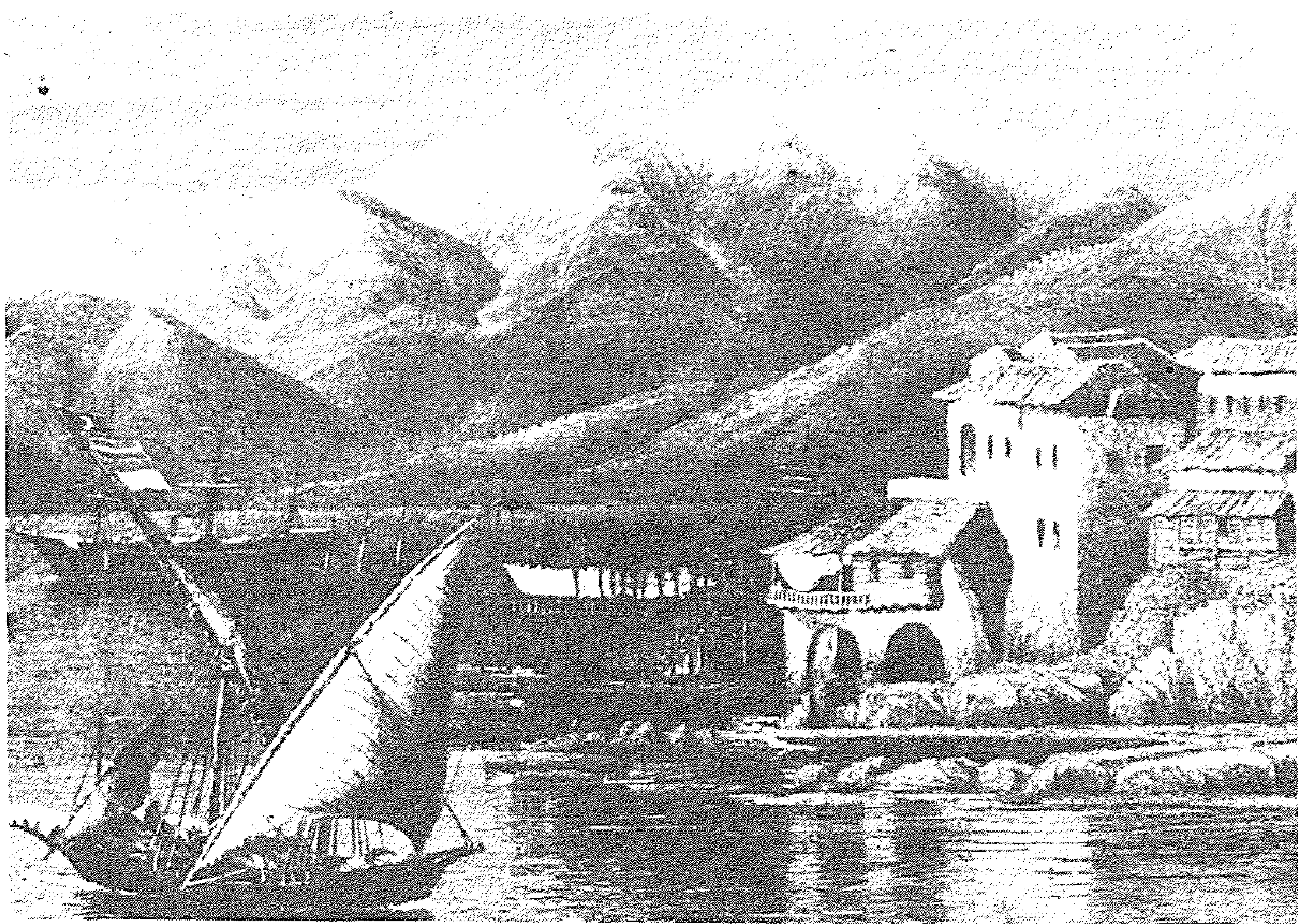
(٤٢) ناصر الدين، هكذا كنا نكتب، ص ٢٦٣.

(٤٣) ناصر الدين، قضية العرب، ص ١٩٤.

(٤٤) نفسه، ١٩٦.



أبــراج وقـــلاع وتحصينات بيروت العثمانيّـــة



□ عين المريسة في أوائل القرن التاسع عشر.

د. حسّـــان حـــلاق

تعتبــر بيروت عبــر تاريخهــا الطويل من المدن العسكريــة ومن المناطق الاستراتيجية، وكانت محط أطماع الدول والغزوات الخــارجية. لهـذا اعتُني بتحصينــاتها لحمــايتها من الهجمــات والغزوات. وقــد أشار الكــونت دومنيــل دوبويسون إلى أن التحصينات والاستحكامات التي امتازت بها بيروت كانت تنقسم إلى أربعة أقسام وهي:

١ ــ التحصينات العربية الإسلامية قبل الصليبيين.
٢ ــ التحصينات الصليبية.
٣ ــ التحصينات التي أقامها الأمير فخر الدين الكبير.
٤ ــ التحصينات العثمانية وقد أقام معظمها أحمد باشا الجزار والي عكا في أواخر القرن الثامن عشر.



والحقيقة فقد أشار ابن حوقل في كتابه «صورة الأرض» والمقدسي في «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» بأن بيروت مدينة محصنة منيعة السور دون الإشارة إلى ذكر تحصيناتها. أما ابن بطوطة فلم يذكر شيئاً عن بيروت في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» سوى أنها «مدينة صغيرة، حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه».

وكان الملك «بودين» قد فتح ثغر بيروت المحصن بعد مقاومة عنيفة في ١٣ أيار (مايو) ١١١٠م. وكان قد وصف بيروت عام ١٢١٢م السائح «ولبرند دي أولد نبرغ» مشيراً إلى وجود عدة أبراج فيها ومما قاله: «يمنع البحر بيروت من جهتها السفلى مع ما هناك من الصخور العالية، وتحميها من الجهة الأخرى خنادق مبلطة تحت حراسة سورين متينين فيهما عدة أبراج غاية في الشدة تبطل كل ضربات العدو. وكانت كل هذه الاستحكامات استوجبت أشغالاً طويلة ولا سيما أن نقوشها الداخلية بلغت النهاية في الحسن والإتقان».

وأشارت المصادر التاريخية إلى قلعة بيروت وتحصيناتها لا سيما عندما وقعت مشاحنات بين الامبراطور فريدريك الثاني وبين صاحب بيروت جان ديبلين عام ١٢٣١م. وقد تحصن صاحب بيروت في قلعتها فحاربه عسكر الامبراطور وحاصروه، وكادوا يفتحون القلعة عنوة لولا أن مساعدة قدمت لصاحب بيروت فاضطر جنود الامبراطور للفرار.

وبقيت بيروت وصيدا في حوزة الصليبيين إلى أن فتحها الملك المنصور قلاوون عام ١٢٩١م وبها انتهت دولة الفرنج في الشام.

أما في العهد العثماني فقد أقيمت بعض التحصينات في بيروت في عهد الأمير فخر الدين الثاني الكبير أمير بيروت والجبل وبعض المناطق اللبنانية، وفي عهد بعض الولاة العثمانيين لا سيما في عهد أحمد باشا الجزار والي عكا. ففي أواخر القرن الثامن عشر قام الجزار بتحديد استحكامات وتحصينات سور بيروت. وأقام حصناً جديداً في مكان الحصن القديم، وأتم أسوار المدينة ليحميها من الغارات الداخلية والخارجية.

وفي عهد ابراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر (١٨٣٠ ـ ١٨٤٠) لم يهتم الحاكم المصري كثيراً بهذه الاستحكامات لا سيما وأنه سعى إلى توسيع وتطوير بيروت لتكون خارج السور. وكانت أسوار بيروت في عام ١٨٤٠ تتخللها الثغرات، وأصبحت غير متواصلة. وفي عام ١٨٨٧ تلاشت آثار المرفأ القديم والأسوار المشيدة قرب البحر. وفي عام ١٩١٦ أمر جمال باشا قائد الفيلق التركي الرابع ووالي بيروت عزمي بك بفتح شوارع جديدة وسط مدينة بيروت، فكان ذلك سبباً لإزالة البقية الباقية من الأسوار والآثار.

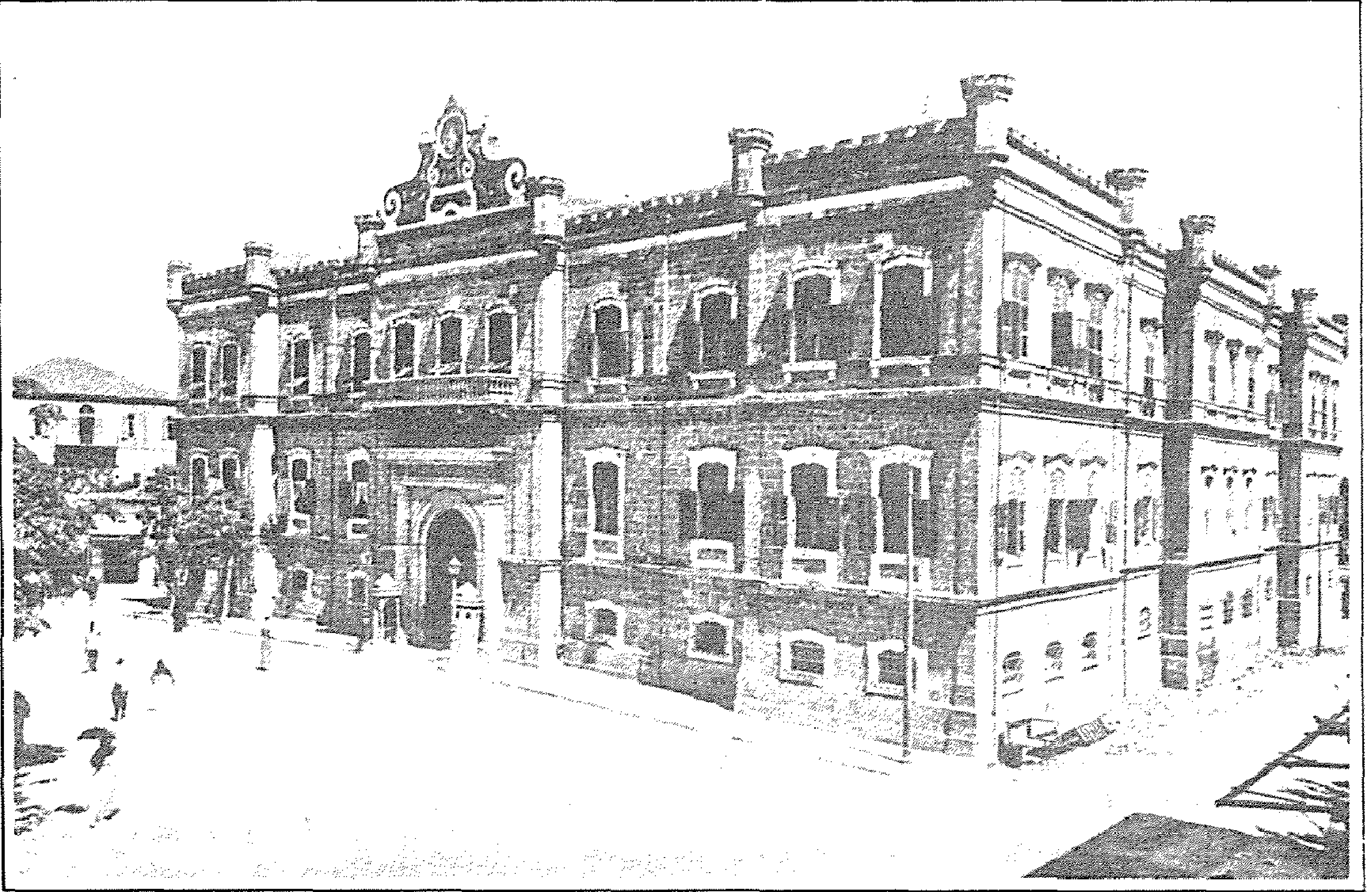
ومن الناحية التاريخية فقد كان يتخلل سور بيروت بعض الأبراج والتحصينات العسكرية العاملة في حماية بيروت. كما كان يوجد خارج السور بعض الأبراج العاملة للغاية ذاتها، علماً أن بيروت شهدت وجود الكثير من الأبراج المدنية التي سميت بأسماء العائلات، وقد استغلت لغايات مدنية وعسكرية على السواء لا سيما في حالات الطوارىء. من هذه الأبراج والقلاع التي عرفتها بيروت عبر تاريخها:

قلعة أو برج بيروت

كانت قلعة بيروت أو البرج البحري مقراً للحاميات العسكرية العثمانية، وهي بتاريخها تعود إلى ما قبل عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وكان موقعها في الجنوب الشرقي من مدخل مرفأ بيروت فوق محلة ومقبرة الخارجة. وكان بين البرج البحري والرصيف جسر جميل تسنده قناطر مقوسة. وقد اشتهرت هذه القلعة بمناعتها وأهميتها الاستراتيجية نظراً لموقعها المباشر على البحر، وهي بذلك تشبه قلعة قايتباي في الاسكندرية.

وكانت هذه القلعة مبنية من الحجارة الضخمة التي لا تتأثر كثيراً بالعواصف والرياح والأنواء وهواء البحر، ومجهزة في الداخل بأدوات حربية وبالمواد النفطية المتفجرة، وكان يعلو أسوارها المنجنيق وفيما بعد المدافع الحربية.

وكانت قلعة بيروت مقراً للحامية العثمانية في المدينة، وقد توالت بعض الأسر البيروتية التي



□ السراي الصغير في عهد الانتداب حيث تظهر الأبراج العسكرية.

تميز أفرادها بالقوة والشجاعة والاشتغال بالأعمال العسكرية منصب «قلعجي» أو حاكم القلعة والمعروف باسم «دزدار قلعة بيروت» ومن بين هذه الأسر: أسرة قوتلي، أسرة الجندي ديه، وأسرة القلعجي وسواها من الأسر البيروتية. وروت السيدة المرحومة سعود صالح طبارة — قبل وفاتها — وهي زوجة قاسم القوتلي، بأن بعض قرصان البحر الأوروبيين هاجموا قلعة بيروت فجأة، فتصدى لهم جيش القلعة ووقعت بين الفريقين موقعة شديدة، شاركت فيها نساء بيروت إلى جانب الرجال دفاعاً عن بيروت وقلعتها. وانتهت المعركة بانتصار البيروتيين. وقد احتفظت سعود في حينه بسيف كان يتقلده أحد القراصنة، واحتفظ حفيدها ابراهيم قاسم القوتلي — الموظف في بلدية بيروت عام ١٩٥٧ — بهذا السيف الأثري.

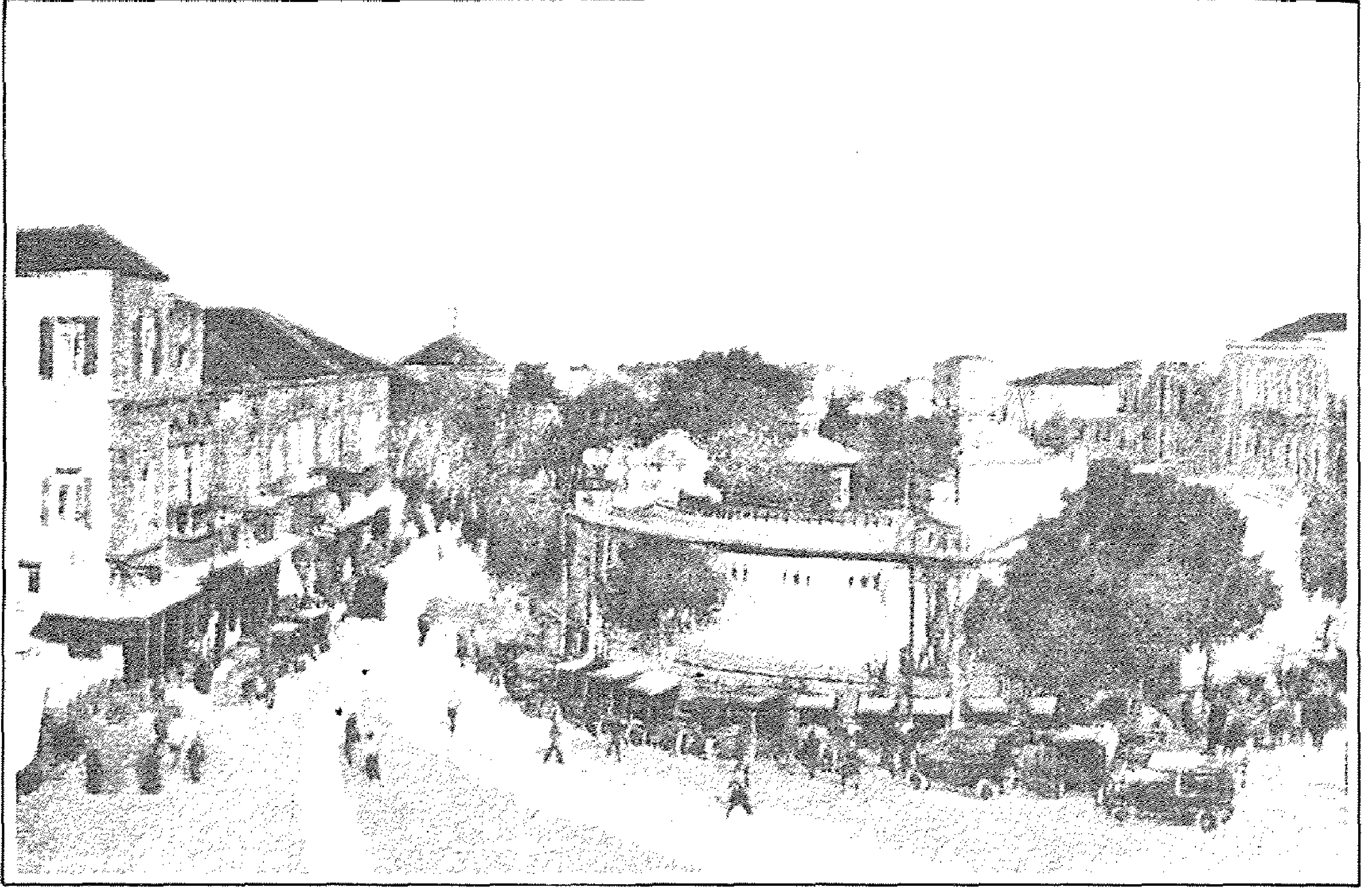
وكان قد تولى مسؤولية قلعة بيروت. في القرن الثامن عشر الميلادي الشيخ عبد السلام العماد والشيخ حسن تلحوق، ولكن عندما وقعت بعض الحوادث عام ١٧٧٢م، واستتب الأمر في بيروت للأمير يوسف الشهابي، قام هذا الأمير بعزل العماد وتلحوق عن مسؤولية القلعة لميلهما لأحمد باشا الجزار، وأصدر قراراً عين بموجبه أحد وجوه بيروت صادق ديه. ولما خضعت بيروت للحكم المصري، عين ابراهيم باشا قبيل انتهاء حكمه عام ١٨٤٠ عبد الله أبو ديه متسلماً على بيروت، وكان أن تولى منصب «دزدار قلعة بيروت» في عهد الجزار.

هذا وقد ظلت قلعة بيروت قائمة بجدرانها القديمة إلى أن دمرتها الأساطيل المتحالفة: الانجليزية، الروسية، والنمساوية عام ١٨٤٠ في قصفها على الجيش المصري لإخراجه من بيروت. بالقوة.

ويرى بعض المؤرخين بأن جامع المجيدية في باطن بيروت، كان قلعة قبل تحويله إلى جامع في عهد السلطان عبد المجيد. ولهذا سمي بالمجيدية، وموقعه في محلة ميناء الخشب إزاء البحر.

برج الأمير جمال

يعتبر هذا البرج من أهم الأبراج العادلة لحماية بيروت المحروسة، ويعود تاريخه إلى عام



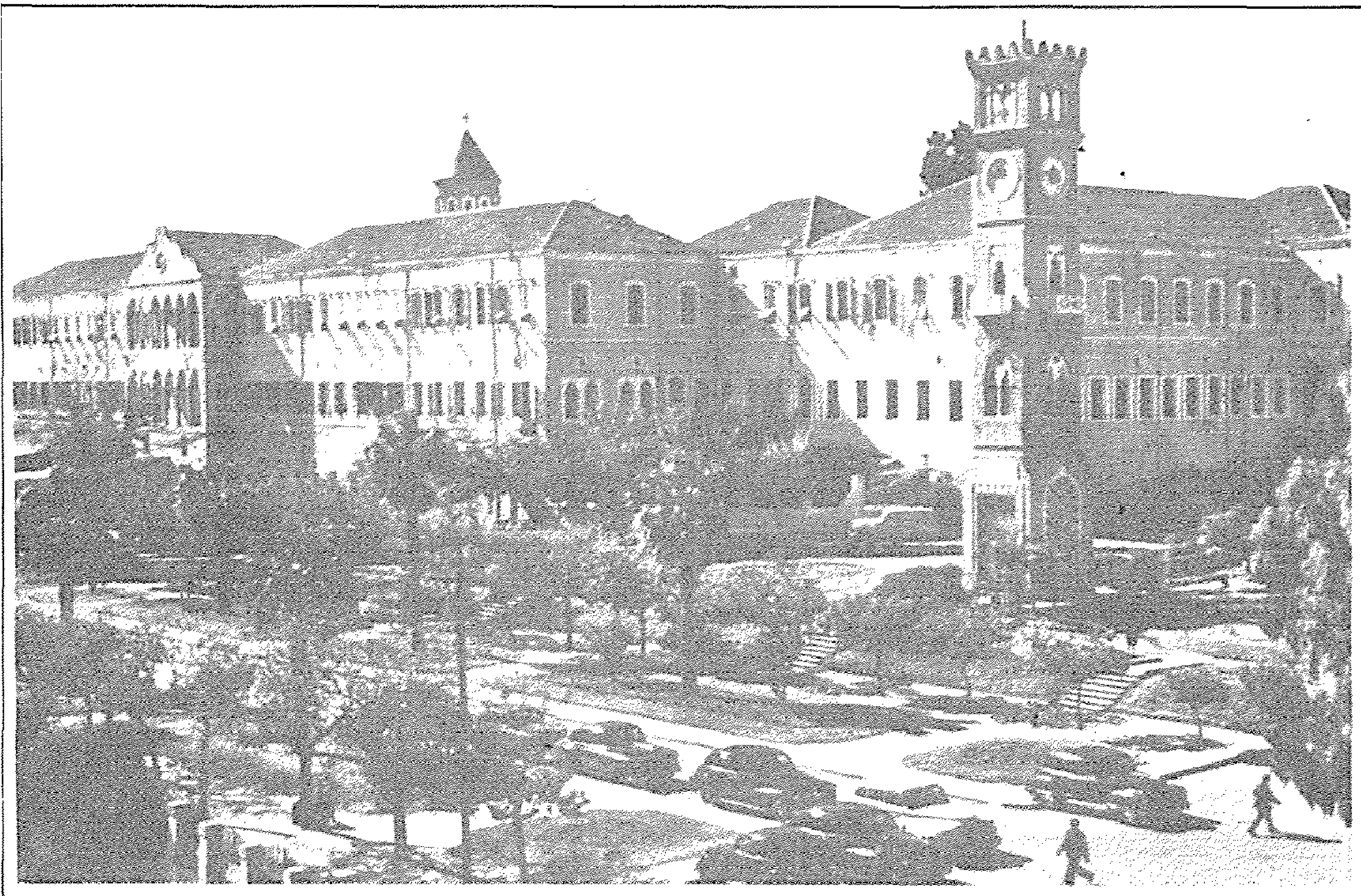
□ برج ساحة البرج «برج الكشاف» في مطلع القرن العشرين.

١٦١٧م. وقد ورد ذكره في كتاب الشيخ أحمد بن محمد الخالدي الصفدي «لبنان في عهد الأمير فخر الدين» بقوله: «وكتب أيضاً [أي الأمير فخر الدين] إلى جميع أهالي بلاد الشوف ليجوا إليه بالعدد، وأرسل بلوكباشيين بنفرهما مسكوا برج بيت الأمير جمال الدين في مدينة بيروت، لأنه برج منيع وحاكم على جميع المدينة والبيوت». وينسب هذا البرج إلى الأمير جمال الدين الكبير الجندي، وهو الأمير جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي أحد ولاة بيروت في القرن السابع الهجري، على حد ما جاء في كتاب صالح بن يحيى «تاريخ بيروت».

برج الكشّاف

موقع هذا البرج في المنطقة المشهورة المعروفة باسم «البرج» أو ساحة البرج في باطن بيروت وخارج سورها القديم، وهي الساحة المعروفة باسم ساحة الشهداء. وقد عرف هذا البرج باسم البرج الكبير. وهو بناء ضخم ارتفاعه ما بين ٦٠ إلى ٨٠ قدماً، وسماكة جدرانه اثنا عشر قدماً. ويعود تاريخ بنائه إلى عهد الملك الظاهر برقوق (٧٨٤ ــ ٧٩١هـ) (١٣٨٢ ــ ١٣٨٩م) وقد أشار صالح بن يحيى إلى هذا البرج بقوله: «... وفي أيام السلطان الملك الظاهر برقوق عمّر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من أبراج القلعة الخراب فقرروا به المجاهدين» ويستدل من هذا القول بأن هذا البرج أقيم على أنقاض إحدى قلاع بيروت المخرَّبة.

وقد أطلق على هذا البرج اسم برج الكشّاف، لأنه كان يكشف تحركات الأعداء القادمين من البحر. وكان قريباً من سراي الأمير فخر الدين المعني، وعرف أيضاً باسم البرج الكبير. ولما ضرب الروس سور بيروت عام ١٧٧٣ بين باب السراية وباب أبي النصر. وبعد أن أطلقوا مدافعهم على المدينة وفشلوا في السيطرة عليها، اضطروا إذ ذاك إلى إنزال أحد مدافعهم الضخمة وأدخلوه إلى داخل المدينة قرب برج الكشاف، ومنذ ذاك الحين عرف مكان ضرب الروس للأسوار وإنزال مدافعهم فيه باسم ساحة المدافع (Place des Canons) علماً أن البعض



□ السراي الكبير في الخمسينات من القرن العشرين ويظهر أمامه «برج الساعة».

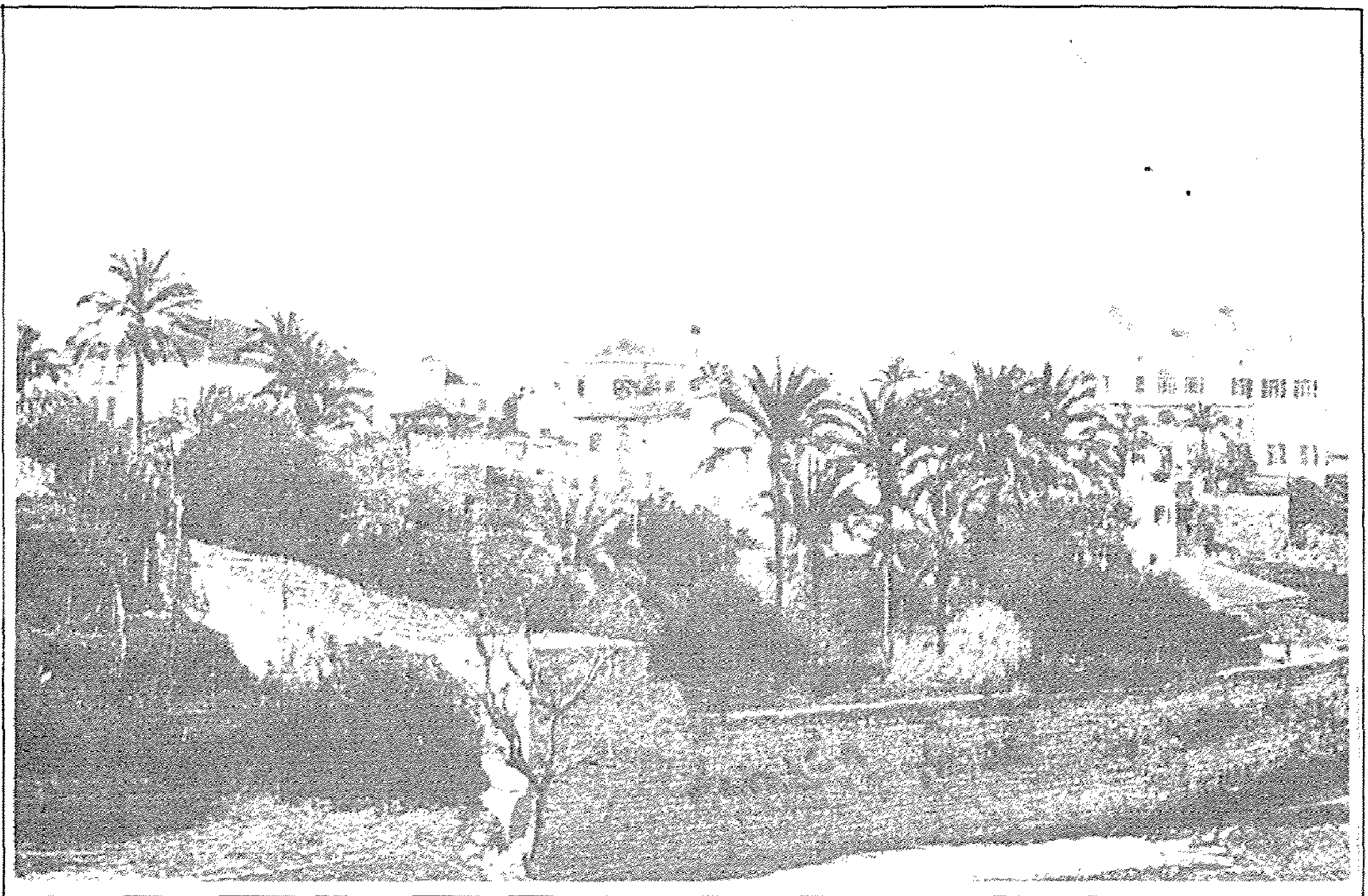
يرى بأنه سمي بهذا الاسم نسبة للفرنسيين الذين أنزلوا مدافعهم في هذه الساحة عام ١٨٦٠ يوم دخولهم لبنان. كما أطلق على الساحة فيما بعد اسم الشهداء بعد أن أعدم جمال باشا عامي ١٩١٥ و١٩١٦ قوافل من القيادات والزعامات اللبنانية العاملة ضد الأتراك. علماً أن سجلات المحكمة الشرعية في القرن التاسع عشر تشير إلى الساحة باسم ساحة الشهداء.

وكان يوجد في هذا البرج ثكنة عسكرية هامة من أهم الثكنات العسكرية، يتولى الحراس من أعلى الأمكنة حراسة البرج والمدينة. وكان يوجد منفذ سري يربط تحت الأرض ما بين السور والبرج.

ومما يؤسف له أن هذا البرج قد دب فيه الخراب على غرار أكثر الآثار البيروتية. وما بقي في بيروت من آثار حي أقل بكثير مما كانت تزخر به هذه المدينة. وقد بدأ التآكل فيه يظهر في عهد ابراهيم باشا وقد أشار إليه بعض الرحالة عام ١٨٠٨ على أنه في طريق الاندثار. ولكن الوقائع والصور الفوتوغرافية تؤكد أن القسم الجنوبي وقسماً من الجهة الشرقية والغربية للبرج كان لا يزال موجودا في مطلع القرن العشرين والقسم المتبقي يشكل قسماً دائرياً. والمطلع على تلك الصور يرى السيارات الحديثة مع عربات مصطفة إلى جانبه. ولما كانت بيروت قد عرفت السيارات ابتداء من أوائل القرن العشرين، فمعنى ذلك أن بعض أقسام البرج كان لا يزال موجوداً.

برج البعلبكية

موقع هذا البرج إزاء البحر بمحاذاة برج السلسلة ويعود تاريخه إلى العصور الوسطى. وفي ذلك يقول صاحب كتاب «تاريخ بيروت» في البرج ما يلي «ولما جدد الأمير بيدمر نايب الشام سور بيروت على جانب البحر أوله من عند الحارة التي لنا على البحر [قرب حارة السنطية] واصلاً إلى تحت البرج الصغير العتيق عمارة تنكز نايب الشام، وتعرف ببرج البعلبكية. وجعل بين آخر هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركّب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج وسمي باب السلسلة». لذا يسميه البعض برج السلسلة أو برج الميناء لقربه من



□ حي السراسقة حيث يظهر «برج سرسق» في مطلع القرن العشرين.

ميناء بيروت، وقد هدمته شركة مرفأ بيروت بعد نيلها امتياز إنشاء المرفأ ابتداء من عام ١٨٨٧.

ويطلق عليه اسم برج البعلبكية لأن أجناد قلعة بعلبك كانت تتجرد إلى بيروت إبدالاً كل بدل شهر، ويأتي كل بدل من بعلبك كل سنة للغزو في البحر والدفاع عن الثغور، كما جاء في صالح بن يحيى «تاريخ بيروت» علماً أن الكونت دوبويسون رأى أنه سمي ببرج البعلبكية نسبة إلى مهندسه أبي بكر بن البصيص البعلبكي.

برج السلسلة والفنار

كان يوجد في داخل المرفأ برجان متقاربان، الأول هو برج الفنار، ويقوم على صخرة منفردة ضخمة فوقها فنار، ويبعد عن البر مسافة خمسة وعشرين متراً. أما برج السلسلة الذي يرى البعض بأنه هو ذاته برج البعلبكية فيتصل باليابسة برصيف هدمته عاصفة أتت على شاطىء مرفأ بيروت عام ١٨٤٩، وساعد في اندثاره شركة مرفأ بيروت التي نالت امتيازها عام ١٨٨٧. وكان برج الفنار وبرج السلسلة يتقابلان، وتقوم بينهما سلسلة، فلا يدخل إلى الميناء أو يخرج من السفن إلا بعلم الجنود والحراس. هذا ويطلق على برج السلسلة أيضاً اسم «برج الميناء».

البرج البحري

كان يسمى أيضاً برج الحشيش، وكان بمحاذاة البحر، خصص للدفاع عن بيروت المحروسة. ولهذا تميز بكثرة المؤن والذخائر الحربية وكان مجهزاً بخمسة مدافع وعدد من الجنود. ووجد بالقرب منه خان الملاحة ومسجد سيدي البدوي وخان البربير ومسجد الدباغة. وقد أشار إلى ذلك فؤاد دباس في كتابه: (Beyrouth, Notre Mémoires) في حين يذكر دوبويسون بأن برج الكشاف هو المعروف باسم برج الحشيش.

برج الغلغول

يسمى هذا البرج أيضاً باسم برج الشلقون باسم الأسرة التي امتلكته في أوائل القرن الثامن عشر في ساحة دير العازارية للأيتام الصبيان في داخل بيروت. ولقد حدث في عام ١٦٦٧ أن وقعت



□ منطقة المنارة حيث تظهر منارة بيروت وبرجها ومنطقة الحمام العسكري.

معركة عند البرج بين اليمنية والقيسية قتل خلالها عبد الله بن قايد بيه ابن الصواف مقدم اليمنية.

برج القشلة

وموقعه مكان القشلة أي الثكنة العثمانية. وقد اقامت الحكومة العثمانية مكانه عام ١٨٥٣ ثكنة للجند. وهذه الثكنة هي التي حولت منذ عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ ومن ثم عهد الاستقلال عام ١٩٤٣ إلى مقر للحكومة اللبنانية. وقد عرفت باسم السراي الكبير تمييزاً لها عن السراي الصغير (الذي هدم عام ١٩٥١ وكان موقعه مكان سينما ريفولي وساحتها) وقد تميز السراي الصغير بكثرة أبراجه العسكرية بهدف المراقبة والاستطلاع.

برج الباشوراء أو برج العريس

وموقع هذا البرج جنوبي سور بيروت أي جنوبي بيروت القديمة فوق السور، في المنطقة المعروفة باسم الباشوراء التي تقع فيها جبانة الباشوراء. ومن ملامحها قبر أحمد حمدي باشا والي سوريا. وقد سميت بالباشوراء وجمعها بواشير بمعنى سد من التراب. ويذكر بأن برج الباشوراء هو ذاته المسمى برج العريس الذي كان أحد الأبراج العاملة في حماية بيروت. وقيل بأن هذا البرج كان يتصل بمغارة تنفذ إلى محلة المزرعة جنوباً.

برج أبي حيدر

يقع برج أبي حيدر في جنوبي بيروت القديمة على قمة ربوة عالية تكشف بيروت بشكل واضح. وموقعه بالقرب من منزل مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا. وقد أخطأ بعض المؤرخين عندما ظنوا أن برج أبي هدير هو ذاته برج أبي حيدر، ذلك لأن سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة كشفت لنا عن معلومات هامة، وهي أن موقع برج أبي هدير في الجهة الشرقية من بيروت إزاء منطقة الخضر والكرنتينا. في حين أن برج أبي حيدر يقع فوق منطقة المصيطبة، وينسب إلى أسرة أبي حيدر.

برج الخضر

وموقعه ظاهر بيروت شرقي المدينة بمحاذاة البحر. وقد أشار الرحالة جون كارن عند وصفه لبيروت ما يلي: «... على الهضبة الصغيرة إلى وراء يتجلى برج قديم يقال أنه قريب من الحقل الذي ذبح به القديس جاورجيوس التنين...».

برج حمود

وموقع هذا البرج بالقرب من برج الخضر شرقي بيروت قريباً من الساحل. وقد أقامه أمراء آل حمود المغاربة الأندلسيين الذين وفدوا إلى بيروت ومدن الشام للدفاع عنها ضد الصليبيين. وكان أمراء آل حمود قادة على ثغر بيروت وبعض الثغور الشامية. وقد سكن بعضهم في برج الكشاف خارج سور بيروت العثمانية.

برج الحصن

وموقعه في محلة الحصن قريباً من منطقة الفنادق غربي بيروت في الموقع المعروف باسم ميناء الحصن. وقد أشارت سجلات المحكمة الشرعية إلى أنه ميناء الحِسن بالسين وليس بالصاد.

أبراج رأس بيروت والحمراء

تميزت منطقة رأس بيروت ومن ثم منطقة الحمراء بكثرة الأبراج المدنية والعسكرية والتي سميت بغالبيتها بأسماء العائلات البيروتية من بين هذه الأبراج:

برج الحمراء

وموقعه في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم «الحمراء» نسبة إلى أمراء بني الحمراء أمراء البقاع، وهم أول من توطنوا، هذه المنطقة قبل عام ٥٣٩هـ، ومن أشهرهم الأمير الشيخ محمد الحمراء. وكانت النار تشعل في قمته لإعلام دمشق بالتتابع مع عدة أبراج أخرى بأن خطراً داهماً على ثغر بيروت، بهدف طلب المساعدة.

برج شاتيلا

وموقعه جنوبي غربي منارة بيروت (المنارة) وقد اتخذ اسمه نسبة لأسرة شاتيلا البيروتية.

وقد ذكر الرحالة دارفيو في سنة ١٦٦٠م برجا عالياً على الشاطىء قرب المنارة. وقال إن الرقيب الحارس يظل فيه صباح مساء ليعطي الإشارة عند اقتراب السفن إلى اليابسة.

وقد وجد في المنطقة ذاتها برج المنارة الشهير الذي بني عام ١٨٢٠ لهداية السفن ولأغراض أمنية أيضاً.

برج قدورة

يقع في رأس بيروت قرب كنيسة الوردية حالياً (أول الحمراء) وكان هذا البرج يستخدم للأغراض العسكرية دفاعاً عن أمن بيروت وللأغراض المدنية للعائلة.

برج اللبّان

وموقعه في شارع الحمراء خلف المحلات التجارية المعروفة باسم (A.B.C.) وقد أشار السفير السابق سليم اللبان بأن هذا البرج كان يستخدم لأغراض عسكرية للدفاع عن بيروت العثمانية، وأن تصميمه كان تصميماً عسكرياً حيث وجدت فيه أماكن للذخيرة ومراكز للمراقبة، ووجد في أعلاه مدفع لا تزال بقاياه موجودة إلى اليوم في منزل العائلة. والمعروف أن تلك المنطقة في الحمراء تعرف باسم منطقة اللبان إلى اليوم.

برج البواب

وينسب هذا البرج إلى أسرة البواب البيروتية، وكان موقعه في رأس بيروت على شاطىء البحر.

برج دعبول

وهو برج الشيخ دعبول أحد أجداد أسرة دعبول. وكان موقع هذا البرج شمالي سراي الحكومة اليوم (مدرسة الصنائع سابقاً) وبالتحديد حيث المصرف المركزي اليوم.

برج ربيز

ينسب هذا البرج إلى أسرة ربيز المتوطنة قديماً ــ ولا تزال ــ في منطقة رأس بيروت. وكان موقعه حيث اليوم شارع عمر بن عبد العزيز في شارع الحمراء بالقرب من مقهى

الموركا.

برج شهاب

وموقعه قرب برج اللبان في منطقة الحمراء بالقرب من محلة وسينما الكومودور حالياً. ونسب إلى أسرة شهاب المتوطنة ــ ولا تزال ــ قديماً في تلك المنطقة.

برج شاتيلا الثاني

وهو غير برج شاتيلا في رأس بيروت. وقد وجد البرج الثاني في منطقة ساقية الجنزير بالقرب من الحرج القديم ــ الذي اندثرت معالمه ــ والذي كان يتوسط المنطقة.

برج عرمان

وينسب إلى أسرة عرمان، وموقعه في شارع المعماري قرب آل الأرقش خلف مبنى جفينور.

ومن الأبراج العائلية الأخرى:

برج دندن

تشير سجلات المحكمة الشرعية في بيروت إلى برج دندن في باطن بيروت حيث ساعة المعرض القديمة والبرلمان اللبناني. ويوجد برج دندن آخر في منطقة غربـي كركول العبد في طريق الشام جنوبـي كنيسة السريان الكاثوليك. وينسب هذا البرج إلى الأمير دندن شقيق الأمير فياض الذي جاء مـع الأمير فخر الدين المعني عند عودته عام ١٦١٨ من طرابلس الشام وبلاد جبيل والبترون. وتنسب عائلة دندن البيروتية إلى الأمير دندن. وكان هذا البرج قد تآكل، ولم يبق منه سوى بعض الأطلال في عهد الحكم المصري في بيروت والشام.

برج بيهم

وموقـع هذا البرج في محلة المصيطبة جنوبـي بيروت القديمة بالقرب من برج أبـي حيدر. وقد سمي باسم أسرة بيهم البيروتية. وهو من أبراج المدينة. وقد بنى الحاج حسين بيهم العيتاني الطابق الأرضي في منزله على أنقاض ذلك البرج. وسكن هذا المنزل أمين بيهم رئيس بلدية بيروت السابق وشقيقه صادق ولـدا أحمد مختار بيهم وحفيـدا الحاج حسين بيهم. كما سكن في المحلة ذاتها المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم.

برج سلام

وهو من الأبراج المدنية، ومـوقعه في محلة المصيطبة جنـوبـي بيروت العثمـانية، وينسب لأسرة سلام، ولصاحب الدار سليم بن علي بن عبـد الجليل بن محمـد سلام البيـروتي والد الرئيس صائب سلام. ويلاحظ بأنه يـوجد في الجهة الشرقية وفي الجهة الغربية الأبراج التي يُطل منها على بيروت ومشارفها.

برج فايد

وهو من الأبراج المعروفة في بيروت العثمانية. وينسب لأسرة فايد البيروتية وموقعه في المنطقة الواقعة بين المصيطبة وكركول الدروز.

أبراج سرسق

وهي من الأبراج المدنية الواقعة في شرقي بيروت العثمانية حيث تظهر الأبراج في أعلى مبنى أنيق من طابقين. كانت تستخدم لأغراض التمتـع بمناظر بيروت الخلابة. وينسب إلى أسرة سرسق المعروفة.

برج البراجنة

وموقعه في ظاهر بيروت وضاحيتها الجنوبية في وسط سهلي حيث تنبسط الأرض أمامه باتجاه البحر غرباً وباتجاه الجبل شرقاً وباتجاه صيدا جنوباً وباتجاه بيروت القديمة شمالاً. وقد أقيم في العصور الوسطى زمن المماليك البرجية لأغراض عسكرية وللدفاع عن بيروت وضواحيها.

برج شعبان

ومـوقعه في محـطة الديك بمـوضـع عيادة الدكتـور عبـد الرحمن سنـو. وينسب لأسـرة شعبان.

برج سيور

ينسب لأسرة سيور، وموقعه في باطن بيروت حيث سوق سيور المشهور. وقد بني عام ١٨٥١ وكان صاحبه يوسف سيور. وأشار إليه الشيـخ

□ عملية بيع وشراء يظهر فيها إشارة إلى برج حمود وبرج وباب السلسلة في بيروت في غرة ربيع الأول ١٢٥٩هـ[1].

(١) سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة، سجل ١٢٥٩هـ، صحيفة ١٠. (مجموعة د. حسان حلاق الوثائقية).

ناصيف اليازجي بقوله:

قد شاد هذا البرج يوسف عصره
مـن آل سـيـور الأكـارم يـنـسـب
قـالت لدى البـاب المـؤرخ وقـده
هـذا لـنـا بـرج وهـذا كـوكـب

برج القرقوطي

ينسب لأسرة القرقوطي، وموقعه في حي مار نقولا بالقرب من حي السراسقة في شرقي بيروت بالقرب من منزل موسى سرسق وقد هدم هذا البرج عام ١٩٥٣ ليبنى مكانه السفارة الإيطالية. وكان البرج يتألف من طبقتين شأن بقية الأبراج، فكانت الطبقة السفلى للدواب والعلف والذخيرة والمؤن، بينما الطبقة العليا للسكن والحراسة.

ومن الأبراج الأخرى الموجودة في باطن بيروت وفي ظاهرها:

برج أم دبوس

يذكر الشيخ طنوس الشدياق في كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» بأن هذا البرج المستدير بنته زوجة الأمير أحمد الشهابي المكناة «أم دبوس» وموقعه بجانب السور، وقد بنته عام ١٧٤٩م.

برج المجيدية

وهو المعروف اليوم بجامع المجيدية، وكان قلعة وحصناً من حصون بيروت وبرجاً هاماً من أبراجها لحماية بيروت. وكان موقعه إزاء البحر قرب ميناء الخشب.

البرج الجديد والبرج القديم

أشارت سجلات المحكمة الشرعية في بيروت إلى وجود أبراج باسم البرج الجديد والبرج القديم. أما البرج الجديد فقد بناه الأمير مراد منصور فوق طاقة القصر في عام ١٧٤٩ تقريباً. وأشار البعض إلى أن موقعه على ربوة إزاء الكنيسة الإنجيلية في محلة بوابة يعقوب عند طلعة الأميركان جنوبي السراي الكبير. بينما يذكر دوبويسون بأن البرج الجديد يقع إزاء برج الكشاف في الزاوية الجنوبية الغربية وله تحصينات مثله.

أما البرج القديم فكان موقعه في مزرعة القنطاري (محلة القنطاري). ولا بد من الإشارة إلى أن تسمية القديم والجديد هي تسمية نسبية تبعاً للتاريخ الذي وجد فيه البرج أو هدم فيه، وتبعاً لبناء أبراج جديدة، حيث أن الرحالة والمؤرخين قد كتبوا في عهود متفاوتة ولهذا فإن تسمية البرج الجديد أو البرج القديم أطلقت في أكثر من عهد وفي أكثر من موضع.

برج الساعة في السراي

من الأبراج الهامة ـــ التي لا تزال قائمة إلى اليوم ـــ برج الساعة الكائن في الثكنة العثمانية ـــ السراي فيما بعد ـــ وقد سعى ببنائه الشيخ عبد القادر قباني رئيس بلدية بيروت آنذاك وهذا البرج يعتبر من الأبراج المدنية ولغايات مدنية.

أبراج عسكرية أخرى

أشارت المصادر التاريخية إلى أنه كان يوجد في بيروت خمسة أبراج عسكرية هامة غير الأبراج التي ذكرناها وهي: برج القلعة، برج علبني، برج السنطية، البرج البراني، وبرج الشيخ. وقد ضمت هذه الأبراج عام ١٥٦٦م اثنين وخمسين (٥٢) جندياً من طائفة المستحفظان وهم الانكشارية، ويسمون أحياناً باسم «الينكجرية». وهذه الطائفة العسكرية هي التي اشتركت في فتح مصر عام ١٥١٧ ومن مهامها الحربية أيضاً مهمة الدفاع عن القلاع. وهي القوة التي كانت تنتسب إلى الطريقة البكتاشية ـــ وهي طريقة دينية ـــ وإليها تنسب أسرة بكداش وبكداشي ومكداش ومكداشي.

ليست هذه الأبراج برغم كثرتها، كل الأبراج العسكرية والمدنية التي عرفتها بيروت منذ بداية العهد الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني مروراً بالعهود الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية، بما فيها العهد الصليبي.

أما فيما يختص بأبراج العائلات فإنها أكثر من أن تحصى في هذه الدراسة المتواضعة، لأن البيارتة درجوا على بناء أبراج فوق منازلهم، ولهذا كثرت الأبراج في بيروت سواء لأسباب عسكرية أم لأسباب مدنية. ولا يزال في بيروت الكثير من الأبراج المدنية في مناطق: رأس بيروت

ـ الحمراء ـ البسطة ـ المصيطبة ـ برج أبي حيدر ـ النويري ـ باطن البلد ـ الأشرفية ـ ولا يزال في طلعة شحادة منزل قديم جميل يعلوه برجان مدنيان من أجمل الأبراج البيروتية ومن أدقها هندسة وعمارة. ●

□ عملية بيع وشراء تظهر فيها إشارة إلى برج الكشاف في بيروت في ١٤ شوال ١٢٥٩هـ[1].

(١) سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة، سجل ١٢٥٩هـ. صحيفة ١٠٤ (مجموعة د. حسان حلاق الوثائقية).

مصادر البحث

وثائق غير منشورة:

ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ١٢٥٩هـ ووثائق متفرقة من السجلات.

المصادر والمراجـع:

(١) **ابن بطوطة**: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، تحقيق وتقديم د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

(٢) **ابن حوقل**: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩.

(٣) **أسد رستم**: آراء وأبحاث، منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٦٧.

(٤) **جون كارن**: رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسـع عشر، تعريب: رئيف خوري، منشورات دار المكشوف ـ بيروت ١٩٤٨.

(٥) **حسان حلاق**: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الدار الجامعية ـ الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨.

(٦) **حسان حلاق**: التاريـخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الدار الجامعية ـ بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٧) **حسان حلاق**: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية ـ بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٨) **حنان قرقوطي**: التحصينات العسكرية والجهادية في بيروت من العصور الإسلامية الأولى حتى العهد العثماني (رسالة ماجستير من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية)، بيروت ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

(٩) **داوود كنعان**: بيروت في التاريـخ، مطبعة عون، بيروت ١٩٦٣.

(١٠) **دومنيل دوبويسون (الكونت)**: استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة، المشرق، ج ٩، أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢.

(١١) **شفيق طبارة**: بيروت، سورها وأبوابها، أوراق لبنانية، م ١، ج ٦، حزيران (يونيه) ١٩٥٥.

(١٢) **شفيق طبارة**: ضواحي مدينة بيروت، أوراق لبنانية، م ٢، ج ٢، شباط (فبراير) ١٩٥٦.

(١٣) **شفيق طبارة**: معالم بيروت القديمة، أوراق لبنانية، م ٣، ج ١، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧.

(١٤) **صالـح بن يحيـى**: تاريـخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبـي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧.

(١٥) **طنوس الشدياق**: أخبار الأعيان في جبل لبنان، وضـع مقدمته وفهارسه د. فؤاد أفرام البستاني، ج ١، بيروت ١٩٧٠.

(١٦) **المقدسي**: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: M.J. de Goeje طبعة دي غويه، ليدن ١٩٠٦.

(١٧) **هنري غيز**: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، تعريب: مارون عبود، ج ١، ج٢، دار المكشوف ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠.

(١٨) Chehab Ed-dine, Said: Géographie Humaine de Beyrouth (Thèse — Sorbonne) 1953

(١٩) Debbas, Fouad; Beyrouth, Notre Mémoires, Beyrouth 1986, (Naufal Group).

الـدوريـات:

أوراق لبنانية (بيروت) م ١، ج ٦، ١٩٥٥.

أوراق لبنانية (بيروت) م ٢، ج ٢، ١٩٥٦.

أوراق لبنانية (بيروت) م ٣، ج ١، ١٩٥٧.

المشرق (بيروت) ج ٩، ١٩٢٢.

● قد ضيعت الوقت والآن الوقت يضيعني.

«شكسبير»

● إن في حياة الناس مداً وجزراً، فمن استفاد من المد توصل إلى الثروة، وأما من أهمله فإنه يظل حياته بأسرها في شقاء. فعلينا أن نستفيد من التيار عندما يخدمنا وإلا ذهبت مساعينا سدى. وإن الفرصة لا تسنح مرتين، فاغتنم الحظ عند ما يبتسم لك ويدلك الواجب على الطريق، وإياك أن تحجم تجاه شبح المخاوف الذي يتمثل لك أو تتردد تلبيـة لداعي المسرات الذي يناديك. بل سر نحو غرضك بشجاعة وإقدام.

«شاعر انكليزي»

سعر الزيت

● حدّث أبو عبد الله بن أبي عوف التاجر، قال:

ضاق صدري في وقت من الأوقات ضيقاً شديداً لا أعرف سببه، فتقدّمتُ إلى من حمل لي طعاماً كثيراً وفاكهة وعدة من جواريّ إلى بستان لي على نهر عيسى، وأمرت غلماني وأصحابي أن لا يجيئني أحد منهم بخبر يشغل قلبي ولو ذهب مالي كله، ولا يكاتبني. وعملت على أن أقيم في البستان بقية أسبوعي أتفرّج مع أولئك الجواري.

فلما قربت من البستان، استقبلني ساعٍ معه رسائل. فقلت له:

من أين وردت؟

فقال: من الرقّة.

فأردت أن أقف على كتبه وأخبار الرقة وأسعارها. فقلت:

أنت قريب من بستان لي، فتعال معي حتى تستريح الليلة في البستان، وأغيّر حالك، وأطعمك، وتدخل بغداد غداً.

فقال: نعم.

ومشى معي راجعاً حتى دخلنا البستان، فأمرتُ من فيه أن يُدخله حمّاماً، ويغيّر ثيابه ببعض ثياب غلماني ويطعمه. فابتدأوا معه في ذلك. وتقدّمتُ إلى غلام لي فسرق كتبه، وجاءني بها ففتحتها، وقرأت جميع ما فيها، وعرفت من أسرار التجار الذين يعاملونني شيئاً كثيراً، وتفرّجت بذلك. ووجدت جميع الكتب تنصح التجار بأن يتمسّكوا بما في أيديهم من الزيت، ولا يبيعوا منه شيئاً، فإنه قد غلا عندهم وعزّ.



فأنفَذْت إلى وكلائي في الحال فاستدعيتهم، وقلت لهم:

خذوا من فلان الصيرفي وفلان الصيرفيّ كل ما عندهم من الدنانير والدراهم الساعة، ولا ينقضي اليوم إلا وتبتاعون كل ما تقدرون عليه من الزيت، واكتبوا إليّ عند انقضاء النهار بالصورة.

فمضوا. فلما كان العشاء جاءني خبرهم بأنهم قد ابتاعوا زيتاً بثلاثة آلاف دينار. فكتبت إليهم بقبض ألوف دنانير أُخر، وبشراء كل ما يقدرون عليه من الزيت.

وأصبحنا، فدفعت إلى الساعي ثلاثة دنانير، وقلت له:

إن أقمتَ عندي دفعت إليك ثلاثة دنانير أخرى.

فقال: أفعل.

وجاءتني رقعة أصحابي بأنهم ابتاعوا زيتاً بأربعة آلاف دينار، وأن سعره قد غلا لطلبهم إياه. فكتبت بأن يبتاعوا كل ما يقدرون عليه وإن كان السعر قد زاد.

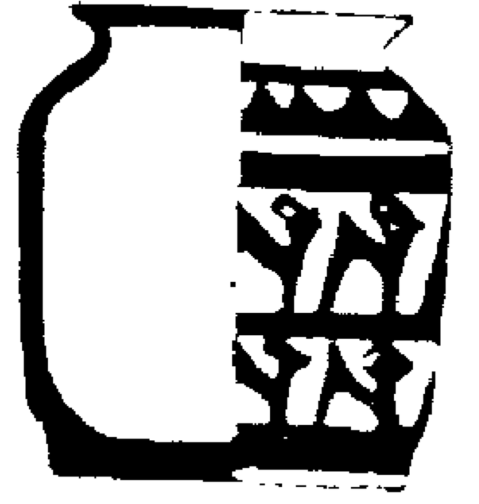
وشاغلتُ الرسول اليوم الثالث، ودفعتُ إليه في اليومين ستة دنانير، وأقام ثلاثة أيام وابتاع أصحابي بثلاثة آلاف دينار أخرى. وجاءوني عشياً فقالوا:

كان ما ابتعناه اليوم زائداً على ما قبله في السِّعر، في كل عشرة نصف درهم، ولم يبق في السوق شيء يفكَّر فيه.

فصرفت الرسول، وأقمت في بستاني أياماً، ثم عدت إلى داري، وقد قرأ التجار الكتب، وعرفوا خبر الزيت بالرقة، فجاءوني يهرعون ويبذلون في الزيت زيادة اثنين في العشرة. فلم أبع، فبذلوا زيادة ثلاثة في العشرة، فلم أبع. ومضى على ذلك نحو من شهر، فجاءوني يطلبون زيادة خمسة وستة، فلم أفعل. فجاءوا بعد أيام يعرضون شراء الزيت بعشرين ألف دينار، فبعته.

ونظرت، فلم يكن لضيق صدري وانفرادي في البستان ذلك اليوم سبب إلا ما أحبّه الله تعالى، أن يوصل إليّ ربح عشرة آلاف دينار!

من كتاب «نشوار المحاضرة» للتنوخي



آثار اسلامية

البلاطات الزخرفية

انتشرت عبر العصور طرقاً مختلفة لتزيين الجدران، بعضها كان معروفاً قبل الإسلام، وبعضها ظهر لأول مرة بعد الإسلام مثل المقرنصات والفسيفساء الخزفية.

ولقد ورث العثمانيون هذه الطرق ولكنهم انتقوا منها طريقة أحبوها، وفضلوها على غيرها، وأكثروا من استعمالها في عمائرهم هي البلاطات الخزفية أو التربيعات القاشانية. وتفضيلهم لهذه الطريقة في زخرفة الجدران ربما كان راجعاً إلى أنها أقل تعقيداً في الاستعمال من الفسيفساء الخزفية التي كان يفضلها سلاجقة الروم قبلهم، فالبلاطات القاشانية أكبر حجماً من الفصوص الخزفية، والنقش فيها يكون أوضح، وتركيبها ليس معقداً ولا يحتاج إلى جهد كبير. وهكذا اشتد الاقبال على استعمال هذه الطريقة، ولم تتفوق على تركيا العثمانية دولة أخرى من الدول الإسلامية، وشاعت في أيامهم بعد أن كان استعمالها محدوداً قبلهم، وليس ببعيد أن تكون العمائر التي زينت بهذه الطريقة في دول إسلامية أخرى قد أتى عليها القدم والاهمال فضاعت معالمها في حين أن العمائر العثمانية المزينة بالقاشاني قد وصل إلينا منها الكثير.

والتأمل في هذه العمائر العثمانية يكشف لنا عن أن جدرانها تزدان بالبلاطات الخزفية ذات الأشكال الهندسية المختلفة من نجوم ومسدسات ومثمنات، وأن هذه البلاطات بعضها عاطل من الزخرفة وبعضها يزدان بالزخارف النباتية والزخارف الكتابية، وبعضها من لون واحد وبعضها يجتمع فيه أكثر من لون.

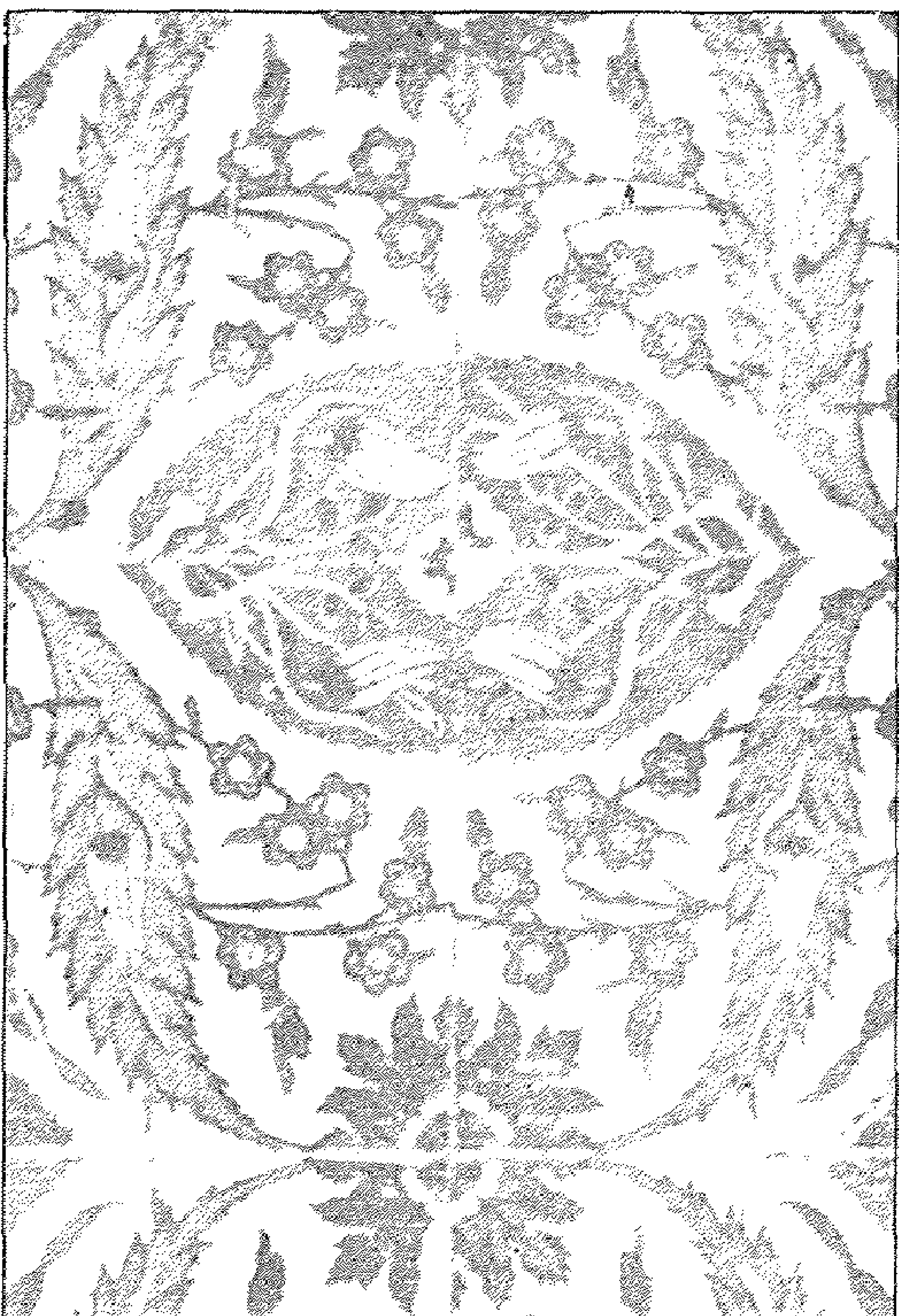
وأقدم مركز لصنع هذه البلاطات في آسيا الصغرى هو مدينة أزنيق Isnik التي هي في الحقيقة تقوم على انقاض مدينة قديمة إسمها نيقية، كانت تشتهر في العصر البيزنطي بالمصنوعات الخزفية عامة وذلك بسبب توفر الطينة الجيدة بها التي تشبه إلى حد كبير طينة البورسلين (أي الكاولين الصيني).

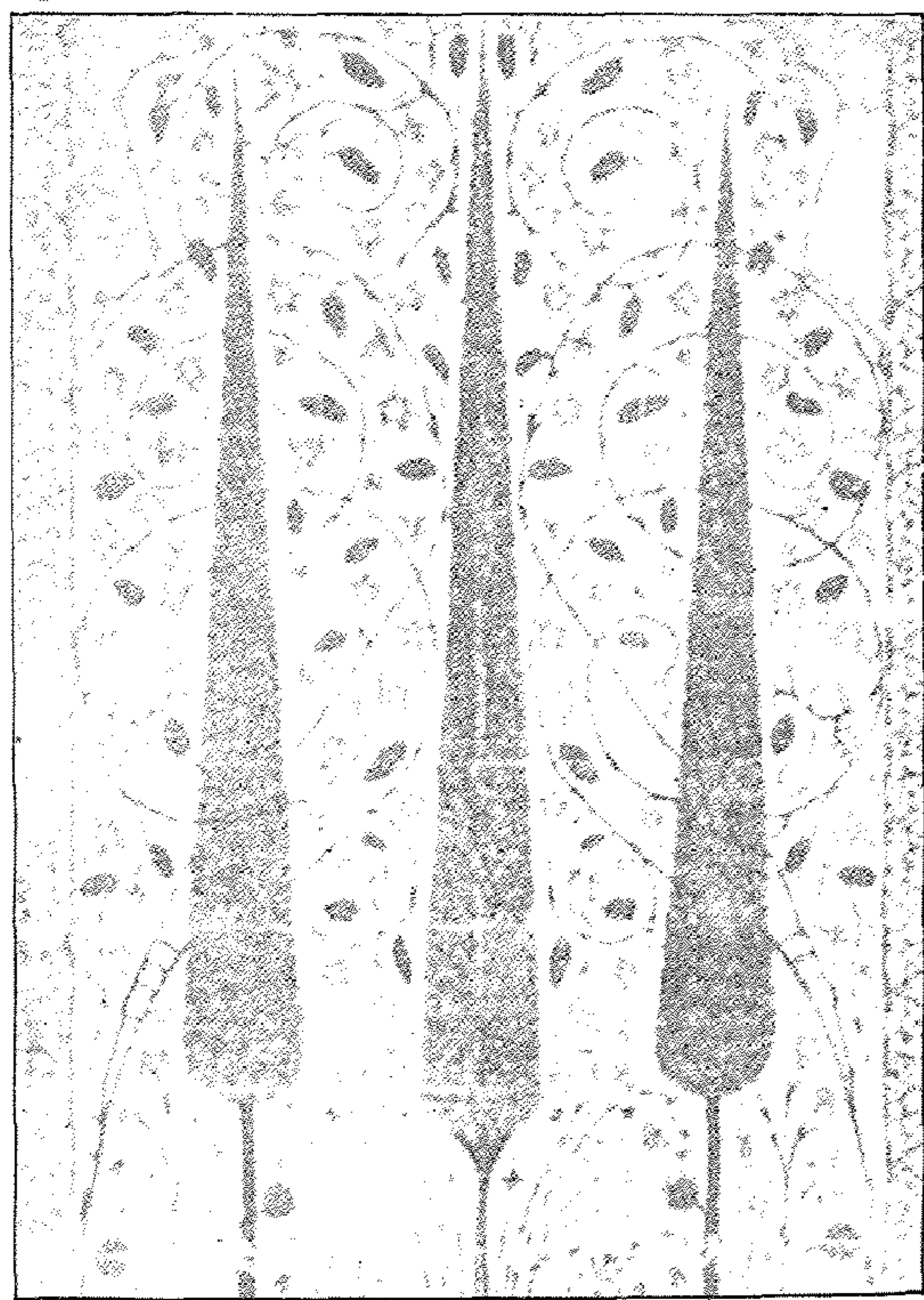
وفي أوائل العصر العثماني، أي في القرن الرابع عشر الميلادي، كانت مصانع هذه المدينة تنتج تربيعات أو بلاطات قاشانية ذات لون واحد دون أن يكون بها زخرفة، وفي المسجد الذي أنشأه مراد الأول بهذه المدينة أمثلة جميلة من هذه البلاطات، يستلفت النظر فيها إطار ذهبي يحف بكل بلاطة من جوانبها الأربعة وترجع في تاريخها إلى سنة ١٣٧٨ م.

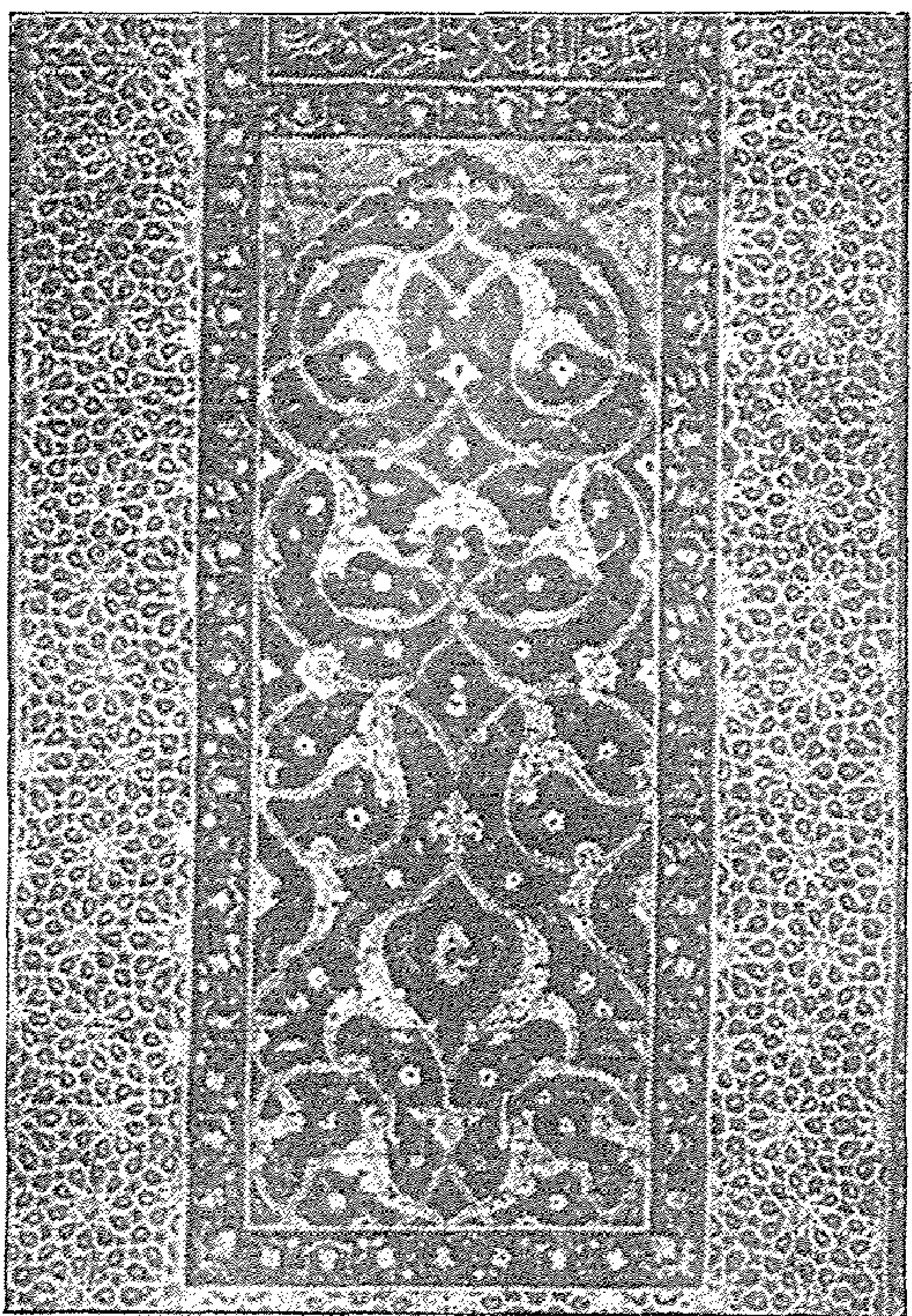
وفي القرن الخامس عشر بدأ الخزاف في أزنيق يزين البلاطات بالعناصر النباتية وبالكتابات الجميلة فضلاً عن تلوينها بألوان مختلفة، أي أن البلاطات القاشانية لم تعد عاطلة من الزخرفة كما كانت من قبل بل بدأت تتجلى فيها الزخرفة النباتية الجميلة فمن مملكة الأزهار اختار الفنان العثماني زهرة القرنفل Carnation وزهرة اللاله Tulip(شكل ١ ، ٢) ومن مملكة الأشجار اختار شجرة السرو (شكل ٣) والنخيل، ومن صور الفاكهة اختار الرمان والعنب، ومن أوراق الشجر اختار ما كان منها رمحى الشكل. على أن أروع الزخارف النباتية ما نشاهده في البلاطات الخزفية الموجودة في مسجد المرادية بمدينة بروسه الذي أنشأه السلطان مراد الثاني في سنة ١٤٢٤ م إذ نرى تلك الزخرفة النباتية التي اختص بها الفن العثماني ونعنى بها زخرفة «الرومى» Roumi (شكل ٤) وزخرفة الهاتاي Hatayi.

■ الصور من كتاب الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق.


شكل (١) زهرة اللالة وزهرة القرنفل كما نراهما في الخزف العثماني في تربة الأمير مصطفى بن سليمان القانوني.


شكل (٢) زهرة اللالة وأوراق شجر رمحية الشكل من صناعة ازنيق متحف طوبقابو.


شكل (٣) أشجار السرو كما تبدو على القاشاني العثماني في متحف طوبقابو.


شكل (٤) زخرفة «الرومي» كما تبدو على القاشاني العثماني في تربة السلطان سليم الأول بإسطنبول

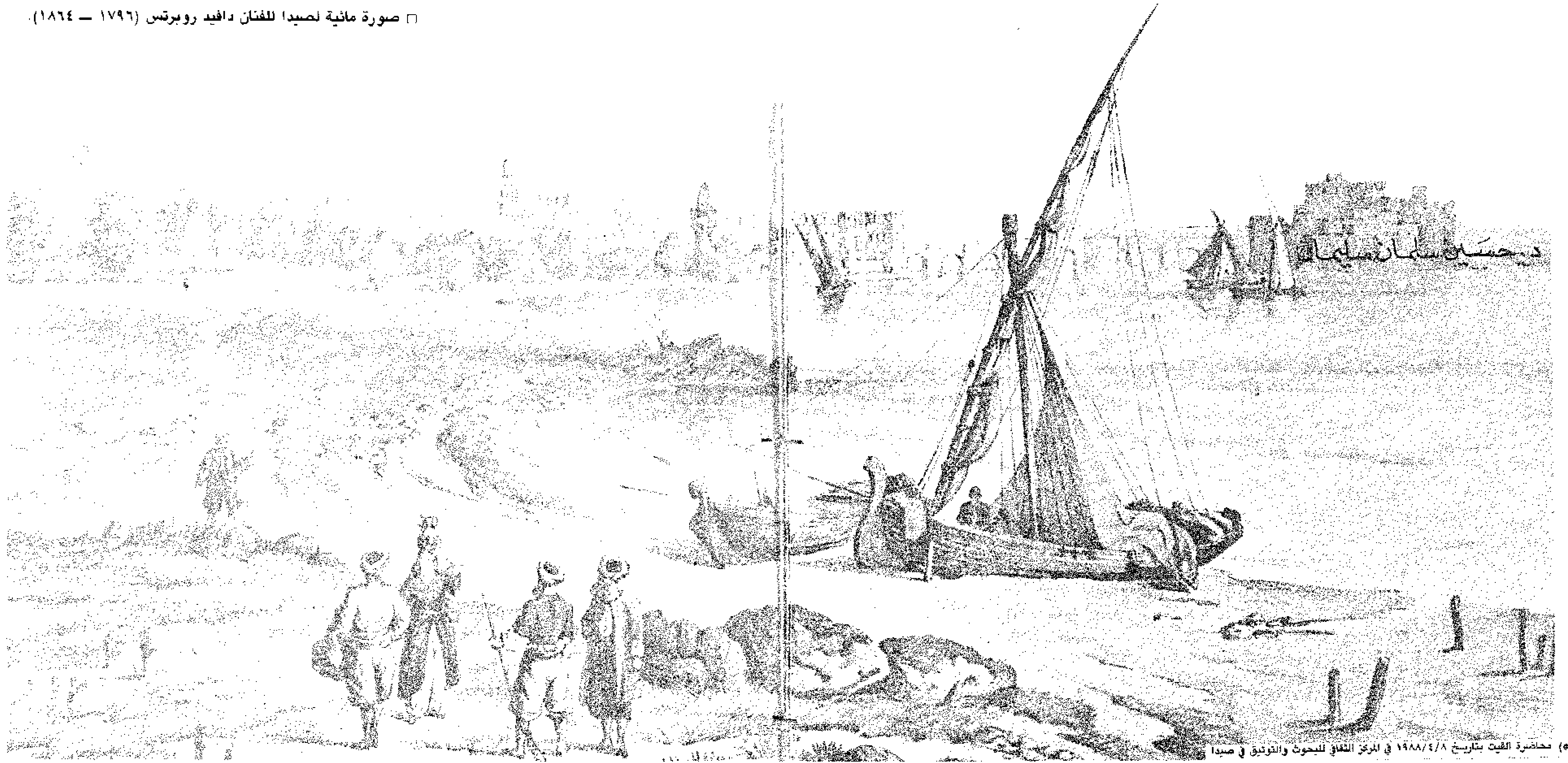
الحِرَف والصّناعة الشعبيَّة في صَيدا

منذ الفتح العثماني إلى الحملة المصرية على بلاد الشام(*)

١٥١٦ - ١٨٣٢ (القسم الأول)

د. حسين سلمان سليمان

انحصرت حدود مدينة صيدا، حتى منتصف القرن التاسع عشر، شمالاً بنهر الأولي، وشرقاً بسفوح المرتفعات الجبلية المشرفة على المدينة، وغرباً بالبحر، وجنوباً نهر البرغوث، الذي تتجمع مياهه من الأمطار، وما يصب فيه شتاء من أودية الجبال المجاورة[1]. وكانت المدينة قد تعرضت للخراب الكامل، بسبب الحروب الصليبية، فتأخرت كثيراً، وانحط شأنها، ولم يكن هذا الانحطاط والخراب من نصيب صيدا فقط، وإنما أصاب كل المدن الساحلية الشامية، ذات المرافىء الهامة في هذا العهد. ذلك أن المماليك كانوا يخشون من عودة الإفرنج الذين كانوا قد أجلوا إلى قبرص ورودس، حيث جعلوا من هاتين الجزيرتين موقعين متقدمين، للإغارة على الساحل الشامي[2]، هذا الخوف دفع المماليك إلى طمر المرافىء وتخريبها، لمنع سفن الأعداء من الاقتراب منها ودخولها[3].



□ صورة مائية لصيدا للفنان دافيد روبرتس (١٧٩٦ — ١٨٦٤).

(*) محاضرة القيت بتاريخ ٨/٤/١٩٨٨ في المركز الثقافي للبحوث والتوثيق في صيدا

السكان



لكن سرعان ما أعاد المماليك بناء صيدا لكنهم اختاروا لها موقعاً داخلياً، ثم جددوا تحصيناتها وأسوارها، وأضافوا إليها فيما بعد، كما عملوا على تأهيل المدينة بعناصر بشرية موالية لهم، فاستقدموا حاميات من السنّة يأمنون جانبهم، ينتمي بعضها إلى عشائر التركمان؛ ليكونوا لها كمرابطين أو مراكز مسلحة متقدمة، تحمي المدينة من غزوات الفرنج بحراً[٤]، وغارات الشيعة والموارنة والدروز براً، الذين كانوا بنظر السلطة الشرعية المملوكية بمثابة هراطقة. ولقد سبب وجود هؤلاء الخصوم، إلى جانب وجود المدينة نفسها في منطقة جغرافية منبسطة، كان سبباً في تحديد مظهر التجمع البشري والمركز السياسي للمدينة. فقد كان سكان صيدا يخشون بصورة دائمة، تعرضهم لهجوم من المناطق المجاورة لهم، مما جعل المدينة تحرص للغاية على أن تنغلق على نفسها، خلف أسوارها، وتتجنب تشكيل ضواح، رغم الازدياد البارز في عدد سكانها خلال العهد العثماني، ومن الناحية السياسية، فإن المدينة كانت شديدة الولاء للباب العالي العثماني، الذي كان يدافع عنها في عالم معادٍ لها، فخلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني، لم تعرف صيدا التمرد ضد حكامها، وحتى في العام ١٧٣٠، حين تمردت كل المدن الشامية، بما في ذلك أبسطها[٥]، فقد ظلت صيدا موالية للسلطان العثماني[٦].

وظلت صيدا رغم استعادتها من قبل المماليك، في العام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، ورغم إعادتهم تجديد بناء حصونها وأسوارها، فقد ظلت المدينة، وحتى نهاية القرن السادس عشر، مدينة ضعيفة نصف متهدمة قليلة الأهمية، دون أي دور اقتصادي بارز، كغيرها من الموانىء المشرقية[٧]. وقد أشار إلى حالتها التعيسة هذه الرحالة الذين زاروا المدينة في خلال القرون الثلاثة. ففي العام ٧٢١هـ / ١٣٢١م، وصف أبو الفدا المدينة بأنها «صغيرة حصينة»[٨]، وبعد ذلك بسنوات وصفها (لودولف الدهيمي) بأنها «مدينة ساحلية... مهجورة»[٩]. وحين زار (جون بولونر) الأراضي المقدسة في عام ١٤٢١ ـ ١٤٢٢، ذكر بأن خرائب المدينة التي شاهدها، تشهد بما كان لها من عظمة، وبأنه «خارج أطلالها بنيت مدينة أخرى صغيرة حقاً ولكنها حصينة وينقصها الرجال للدفاع عنها»[١٠]. ومع ذلك، فقد ظلت المدينة تستقبل مهاجرين جدداً سواء من إقليم الخروب المجاورة أو من الجنوب الإسلامي، علماً أن العديد من العائلات الصيداوية، تعود بأصولها إلى أصول مغربية[١١].

وفي خلال الفتح العثماني، كانت صيدا كغيرها من مدن الساحل الشامي، باستثناء طرابلس، قليلة السكان والتجمع السكاني الموجود فيها، لم يكن بإمكانه من حيث تعداده، أن يجعلها تتخذ الوضع الحقيقي لمدينة من حيث الحجم، ومع ذلك، فقد حاولت السلطات العثمانية إعادة تعميرها بالسكان، بهدف تحويلها إلى مركز دعم[١٢].

ولقد عرفت صيدا بعض التجديد ابتداء من العام ١٥٦٠ وعلى الأخص مع بناء إبراهيم باشا الخان الكبير (خان الفرنج)، والذي ينسبه بعض المؤرخين إلى فخر الدين المعني الثاني[١٣]، واتخاذ الأمير المذكور المدينة في العام ١٥٩٤ قاعدة لإمارته ومقراً له، ثم سعيه لتجديد رسومها، وترميم ما تهدم من أبنيتها وقلاعها، وتحسين مرفئها وتوسيعه، وترويج تجارتها، والاهتمام بتنمية مواردها، عن طريق تنشيط الحركة التجارية، وحماية التجار من القراصنة الذين كانت مرافىء الساحل الشامي هدفاً لتعدياتهم، وتشجيع الصناعة وعلى الأخص صناعة الحرير والصباغة والصابون، وربط صيدا تجارياً بتسكانا وغيرها، وتزويد المدينة بالفنادق والخانات والمنشآت المدنية الحضرية والعسكرية[١٤]. فاجتذبت هذه الأنشآت والتسهيلات التجار الأجانب. وبخاصة التجار الفرنسيين، فبدأت المدينة تشهد بعض النشاط التجاري ابتداء من العام ١٦١٢، فأخذ التجار الأجانب يتمركزون في المدينة، ويوسعون تجارتهم معها، وخصوصاً بعد أن فقدت طرابلس مركزها التجاري، فصار من الضروري إيجاد ميناء على الشاطىء الجنوبي للمشرق، ليكون مستودعاً



□ كان «السيف والترس» اللعبة الشعبية الأولى في صيدا وكان لها أبطالها ومتفرجوها. (من كتاب تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠ ــ ١٩١٤ للدكتور طلال ماجد المجذوب).

لتجار الغرب فكانت صيدا، فانتقل التجار الأجانب من طرابلس إلى صيدا وحلب، وكانت صيدا وحلب تتنافسان على الزعامة الاقتصادية والتجارية في عهد فخر الدين[١٥].

ولعب موقع المدينة دوراً بارزاً في ازدهارها في خلال هذه الفترة، فقد كانت محاذية لمنطقتي إنتاج يكمل بعضهما بعضاً، جبل الدروز[١٦] بحريره، وجبل عامل[١٧] بقطنه. وبالإضافة إلى ذلك، كان لها اتصال سهل مع دمشق والداخل الشامي، في مرحلة فقدت حركة الترانزيت العالمية أهميتها لصالح المنتجات المحلية[١٨]، وطريق صيدا ــ مرجعيون ــ دمشق طريق طبيعي وتاريخي، يدلنا على ذلك القلاع المبنية على طوله في مواقع استراتيجية، مثل: قلعة الشقيف وقلعة بانياس[١٩].

وفي حين كان عدد سكان صيدا ألفين وخمسمائة[٢٠] نسمة في نهاية القرن السادس عشر، فقد بلغ عددهم، ما بين ستة[٢١] آلاف إلى تسة آلاف في القرن السابع[٢٢] عشر، في حين عاد عدد السكان، وانخفض إلى خمسة آلاف، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وفقاً لتقدير الرحالة الفرنسي فولني[٢٣]، وهذا النقص في عدد السكان، إنما كان نتيجة الاضطراب الأمني الذي أصاب بلاد الشام الجنوبية، حيث انقسمت إلى حزبين: الأول يترأسه والي دمشق، ويضم ولاة حلب، وطرابلس، وصيدا، والقدس، وبغداد، والموصل، والثاني، ويرأسه ظاهر العمر، ويسيطر على القسم الجنوبي من فلسطين، حول عكا، وصفد، وطبرية وغزة[٢٤]، ويناصره مشايخ جبل عامل بزعامة الشيخ ناصيف النصار وعلي بك الكبير بمماليكه في مصر[٢٥]، وأنزل الحزب الأخير بالحزب الأول هزائم مذلة في أكثر من موقعة حربية[٢٦]، وتضررت صيدا للغاية من هذا التمرد، وتعرضت للنهب والسرقة أكثر من مرة، نتيجة احتلال المتمردين لها، فاضطر ثلاثة أرباع سكانها مغادرتها إلى مناطق أكثر أمناً واستقراراً[٢٧]، نصفهم انتقل إلى بيروت[٢٨]. وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية المعاصرة بقولها:

«لم ينته شهر أيار (مايو ١٧٧٢) حتى أصبحت المدينة (أي صيدا) خالية من جميع سكانها، بما فيهم المفتي والقاضي ونقيب الأشراف، وأصدر الدنكزلي[٢٩] (حاكم صيدا) في الثاني من حزيران (يونية) أمراً بأن يغادر صيدا

جميـع الرجال الذين لا فائدة حربية منهم. ومن يبق منهم في المدينة إلى ما بعد الساعة السادسة فسوف يتعرض للشنق»[٣٠].

وممـا ينبغي الإشـارة إليـه، أن تصفيـة السلطات العثمـانيـة للتمـرد ظاهـر العمـر، واستعادتها لمدينة صيدا في العام ١٧٧٥[٣١]، لم تشجعا أهالي صيدا على العودة إلى مدينتهم، فقد خضعت المدينة لحكم متسلم[٣٢] تابـع لوالي صيدا أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ ــ ١٨٠٤)، الذي نقل مقر الولاية من صيدا إلى عكا[٣٣]، وما تلى ذلك من تدهور مكانة صيدا الاقتصادية، واحتلال مدينة بيروت لمكانتها[٣٤]. كما عانت صيدا أيضاً سياسة الجزار ومظالـه، والتمرد الذي قام به مرتزقة هذا الباشا عليه، في العام ١٧٨٩[٣٥]. وبوفاة الأخير في العام ١٨٠٤، وتولي خلفه سليمان باشا العادل مقاليد ولاية صيدا في العام ١٨٠٥، واتباعه سياسـة تتسم بالعـدل والتسامـح[٣٦]، تبدل وضـع مدينة صيدا، فعاد عـدد سكانهـا يتضاعف، فبلـغ عشـرة آلاف وخمسمئة نسمة في العام ١٨١١ وفقاً لتقدير القنصل الفرنسي في صيدا[٣٧].

ومما ينبغي الإشارة إليه أيضاً أن سكان صيدا، في بداية القرن السادس عشر، كانـوا متشابهين إلى حد ما من حيث المذهب الديني السائد فيما بينهم، رغم وجود حي لليهود، وآخر للموارنة، وعدد قليل من الروم الكاثوليك[٣٨]. فقد كان أغلب السكان ينتمون إلى السنّة على مذهب الإمام الشافعي، في حين اتبـع بعض أعيانها المذهب الحنفي، تقرباً من السلطات العثمانية الحاكمة، التي جعلت المـذهب الحنفي مذهبـاً رسمياً طبقته المحاكم[٣٩]. كما ارتبطت بعض الأسر الصيـداوية مثـل: الصلـح، والبـزري، وحمود، بزيجات مـع أسر دمشقية، ذلك أن الكثير من أفراد هذه الأسر، كان يقطن ما بين المدينتين، ووجود الأسرة في الحاضرة الرئيسية، أي دمشق، كان يدعم الوضـع المحلي للأعيان. وكانت هذه العلاقات موجودة أيضاً، لدى الأسر النصرانية في صيدا، والتي تشكلت ببطء منذ قدوم عناصر من دمشق. فهذه العناصر كانت من الروم الكاثوليك، وكانت أعدادهم وفيرة في دمشق، وكانـوا قد انتقلوا إلى صيدا، نتيجة الاضطهاد الذي كانوا يتعرضـون له، من قبل بطريرك الروم الأرثوذكس المعترف به، من قبل السلطات العثمانية[٤٠]. كما جذب الازدهار الاقتصادي الذي عرفته المدينة عناصر أخرى من أصول متعددة، ممن هجروا منـاطقهم الداخلية، هـرباً من انعـدام الأمن، وانتشار البؤس والتعاسة فيها. كما غادر أيضاً عـدد من أبناء المقـاطعات الجبليـة اللبنانيـة مـواطنهم الأصلية، سـواء عن طيبـة خـاطر، كالموارنـة، أو مطرودين، نتيجـة قدوم عنـاصر بشرية أخـرى، كشيعة جبـل عامـل، إلى أن أصبحت مدينة صيدا في أواخر القرن الثامن عشر، مدينة مختلطة السكان. وإذا حاولنا تأريـخ قـدوم هذه الهجـرات، صَعُبَ علينـا معـرفـة خصائصها؛ ذلك أن المنطقة الساحلية الشامية كانت في بداية القرن التاسـع عشر، تشهد كثافة سكانية لم تعرفها القرون الثلاثة السابقة[٤١].

وكان المسيحيون واليهود من أبناء المدينة، شـأنهم في ذلك شأن أهـل الكتاب في الدولة الإسلامية) يعتبرون ذميين، يـدفعون الجـزية ولا يـولَّوْن أعمــالاً ذات مسـؤوليـة، وحـتى ما اشترعه القرآن الكريم والسنّة النبوية من حق حماية أهل الذمة، لم يكن ينقذهم ذلك من بعض المظالم أحياناً. فقد كان الناس يتعرضون لكثير من مصادرة الأملاك، وفرض الغرامات، وسوء المعـاملة من قبل الولاة العثمـانيين، لأسبـاب متعددة، وكان المسيحيون واليهود معرضين لذلك، على أن مثل هذه المغارم كانت تصيب المسلمين أيضــاً، ومـا ذلك إلا بسبب سيـاسـة الولاة العثمانيين الذين كانوا يفرضون هذه المظالم على جميـع السكـان؛ لتعويض المبـالـغ الضخمـة والهدايا الثمينة التي تكبدوها في الآستانة، مقابل الحصول على مناصبهم تلك، وكذلك ضـرورة الاستمرار في إرسال الهدايا والرشوات لذوي الأمر والنهايـة في المدينـة المذكـورة من أجل استمرارهم في مناصبهم تلك، أطول مدة ممكنة، وكذلك لإبعاد المؤامرات التي كان ينصبها ضدهم موظفو البلاط العثماني أو من أجل الترقي إلى مناصب أعلى[٤٢].

ورغم الازدياد البارز في عدد سكان صيدا، فقد استمروا منغلقين حول أسـوار مدينتهم، وتجنبوا تشكيل ضواحٍ، وكان هذا السور مؤلفاً



□ كان «الحكواتي» سمير ليالي الصيداويين حتى نهاية الربع الأول من هذا القرن (من كتاب تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ للدكتور طلال ماجد المجذوب).

من قسمين ينطلقان من القلعة البرية (قلعة المعز)، يتجه الأول شمالاً، وينتهي عند باب بيروت قرب قلعة البحر، حيث يقوم بدور حماية المدينة من جهة الشرق، ويحاذيه حالياً شارع البوابة الفوقا، حيث أقام الأهالي جدارنا لمنازلهم بما تبقى من هذا القسم. أما القسم الثاني من السور، فكان يتجه غرباً، وينتهي عند ساحل البحر، حيث الحوض الجنوبي، ويقوم هذا القسم بحماية المدينة من جهة الجنوب، ويذكر بعض المؤرخين أنه كان يحيط بالمدينة سور غربي من ناحية البحر[٤٣]. لكن الرحالة فولني الذي وصف المدينة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، لم ير هذا السور، وذكر أن «ما من سور يصون المدينة من جهة البحر»[٤٤].

أما من حيث التقسيم الطوبوغرافي للمدينة، فقد كانت مقسمة قسمين واضحين: قسم شمالي يمتد من المفرأ ولغاية السراي، حيث قامت منطقة تتميز بخصائص تجمع النشاط الحرفي الصناعي إلى جانب التجاري، تتواجد فيها المستودعات والخانات والمصابن والأسواق المهمة، وقسم جنوبي، حيث تنغلق المدينة على نفسها بأحيائها، التي يقطنها الريفيون الذين يعملون في بساتين الجوار الفائقة الجمال[٤٥].

وكل قسم من القسمين المذكورين، انقسم بدوره إلى عدد كبير من الأحياء المنفصلة (حارة، محلة)، وكل حي مكتفٍ بنفسه وله مبانيه العامة والخاصة به (المسجد، الحمام، السوق) وبوابته الخاصة، وهذا ما يؤكد الكيان المستقل للحي. كما شكل كل حي وحدة إدارية يرأسها شيخ الحارة، وتسكنه أسر كانت توجد فيما بينها بعض الروابط الطبيعية، كالأصل أو المهنة أو الدين (الفواخير، المصبنة، الموارنة، اليهود)، ومن هنا كانت تلك الأسر تكون مجموعة متجانسة. ولما كان عدد الحارات أقل من عدد الطوائف الحرفية المنفصلة، فيبدو أن نظام الحارات كان يستند إلى نظام طوائف الحرف وإن لم يتعارض معه.

وانحصرت طوائف الحرف الصناعية والتجارية، في باطن المدينة، حيث انتشرت الأسواق الرئيسية في المنطقة الواقعة حول خان الفرنج، فامتدت تلك الأسواق شمالاً حتى قاربت المرفأ الشمالي، باب صيدا على العالم الخارجي، وشرقاً حتى البوابة التحتا، باب صيدا على بيروت. وهذا التمركز إنما كان نتيجة حتمية،

لوجود خان الفرنج، الذي ضم مخازن لتخزين البضائع، وحوانيت لبيعها بالجملة والمفرق، ومقراً لإقامة التجار الفرنسيين، وما أقامه الأمير فخر الدين المعني، من منشآت حضرية له في تلك المنطقة، كإقامة قصر له، وسراي، وحمام يدعى حمام المير، كل ذلك ساعد على تنشيط التجارة، فانتشرت خارج الخان على شكل أسواق متنوعة، متخصصة في إنتاج سلع محددة وبيعها[٤٦].

وتركز العمل الصناعي في السوق، وهو ممر في الوسط تحف به على جانبيه الدكاكين، حيث يجري صنع السلع اعتماداً على الأيدي العاملة، ونادراً ما تلجأ إلى قوى محركة كالهواء والماء. كما لم يكن المصانع في ذلك الوقت، يعمل على تكديس المادة الخام لديه بكمية كبيرة، ولم يكن الإنتاج ضخماً يستهلك فيه مادة خادم كبرى، إنما في أغلب الأحيان، كان يقوم بصنع كميات محددة بناء لطلب بعض التجار والعملاء. ويقدم التاجر أو العميل المادة الخام التي يقوم هو بصنعها حسب الطلب، ومع ذلك فقد كان هناك صناع يقومون في الوقت نفسه بدور الصانع والتاجر معاً. ويستدل من ذلك أن الصناعة لم تكن تتطلب رأسمالاً كبيراً، وإنما إتقان في العمل وسرعة في التسلم، ولم تكن الأجور في تلك الآونة مرتفعة، وإنما ذات مستوى منخفض، نظراً لمستوى الحياة العام والأسعار، كما كان الصانع يستخدم لديه متمرنين بدون أجر[٤٧].

طوائف الحرف

اشتهر الساحل الشامي بصنائعه القديمة، وقد طار صيت صيدا بزجاجها الفاخر، وصور بأرجوانها النفيس، وكان من أهم أعمال سكان بلاد الشام النسيج والتجارة، والتعدين واستخزان الحديد والفحم الحجري. ومع الاحتلال العثماني لهذه البلاد، حافظ الغزاة الجدد على نظم البلاد الاقتصادية، وعاداتها الموروثة السابقة، فاستمرت كما كانت عليه سابقاً في عهد المماليك، وإن بدت في خلال العهد العثماني أكثر انحطاطاً، بإنتاجها ونشاطها عما كانت عليه سابقاً، مما جعل بعض المؤرخين يحمّلون الاحتلال العثماني، مسؤولية تدهور الصناعة في بلاد الشام، وقد دفعهم إلى هذا الاعتقاد.

١ ــ نقل السلطان سليم الأول من القاهرة، وحلب، ودمشق، إلى الآستانة، عدداً كبيراً من أمهر الصنّاع، فأدّى ذلك إلى إقفار الصناعات في مصر وبلاد الشام، لأن الصناعة كانت تنتقل آنذاك في نطاق الأسرة الواحدة، فيتوارثها الابن عن الأب حتى تغدو احتكاراً لهم.

٢ ــ البعد النسبي للآستانة عن بلاد الشام، لأن الصناعات المتقنة، لا تجد رواجاً إلا في العاصمة، حيث مظاهر الترف أكثر من الأقاليم، كما تلقى الصناعات تشجيعاً مادياً وازدهاراً فنياً أكثر، وأقوى مما هو عليه في المدن البعيدة عنها[٤٨].

والواقع أنه لا يمكن تحميل الدولة العثمانية المسؤولية الأولى عن تخلف الصناعة في بلاد الشام، فهناك عوامل أخرى، تعود إلى ما قبل الاحتلال العثماني، أي إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أهمها:

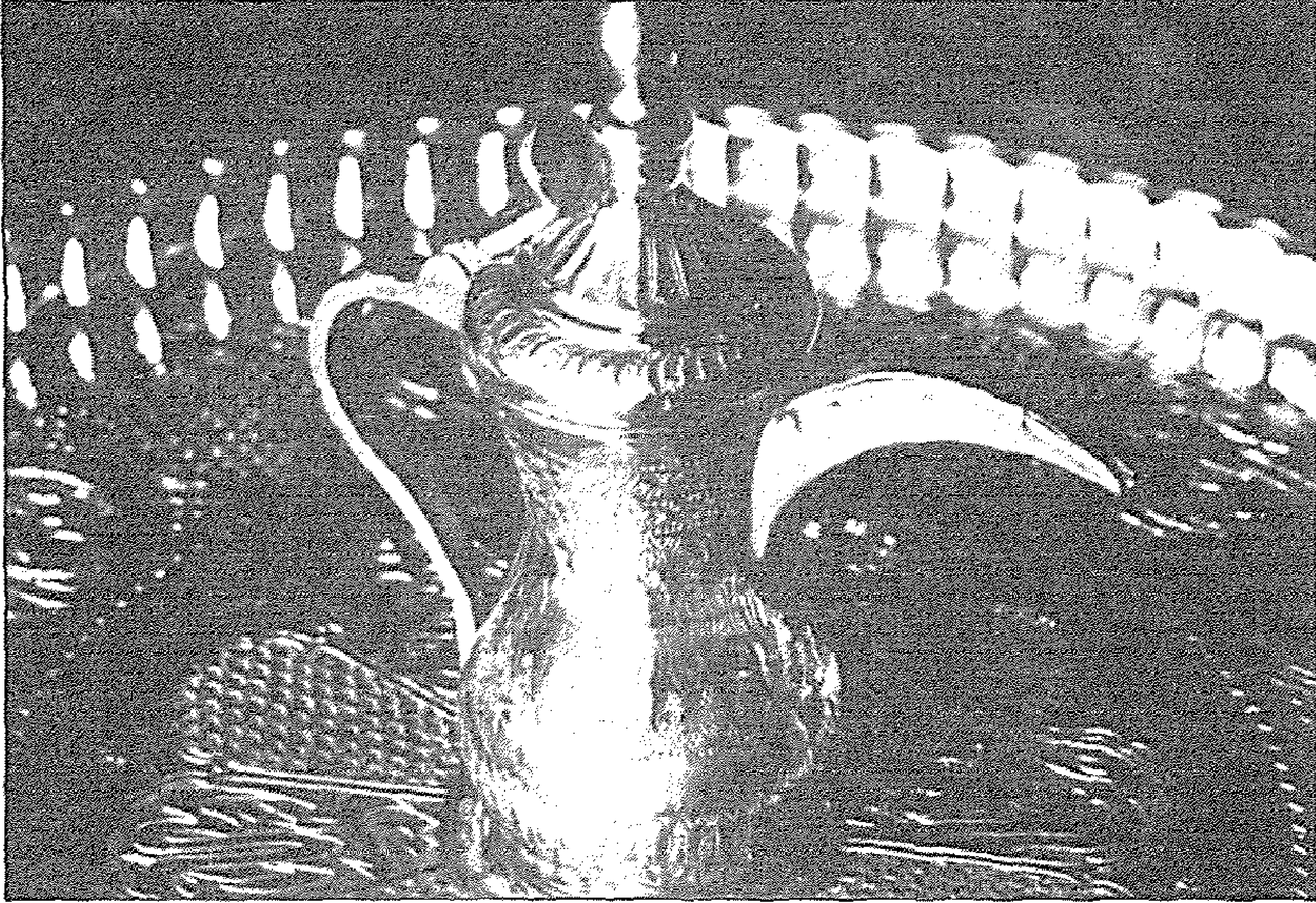
١ ــ الوضع الصناعي والتجاري العالميان، نتيجة النهوض الذي أصاب الصناعة الأوروبية بالنسبة لما كانت عليه سابقاً، وتوقفها عن استيراد سلعنا المصنعة واكتفائها باستيراد المواد الخام، وإعادتها بضائع مصنعة تنافس إنتاجنا المحلي، الذي لم يكن يتمتع بالحماية الجمركية، بل بالعكس تمتع الأوروبيون بأكثر تعريفة جمركية انخفاضاً

٢ ــ مركز الشرق العربي الاقتصادي في هذه الفترة من الزمن، فقد كان مضعضعاً نتيجة الحروب والكوارث الذي أصابته في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وانتقال تجارة الهند من المرور في مصر وبلاد الشام إلى سلوك طريق موأل رأس الرجاء الصالح، وما رافقها من ظروف قاسية عانت من جرائها بلاد الشام، فقد اجتيحت أراضيها، وفقدت أمهر صناعها، وانتابتها الأوبئة[٤٩].

٣ ــ القيود التزمتية التي كان يعيش في إطارها كل من يباشر مهنة، فقد كان عضواً نافعاً في طائفة صناعية، أي أنه يعيش ضمن جماعة لها تقاليدها، وعاداتها، ورموزها، ويطلق عليهم «الأصناف» أو «الطوائف». وهذا العامل الأخير



□ صناعة النحاس.



□ صدر نحاسي مع مصب للقهوة العربية.

لعب دوراً بارزاً في إضعاف الصناعة وركودها وعدم توسعها، وهذه تعود بجذورها إلى أبعد من العهد العثماني، فقد كانت كل الطوائف الحرفية تتبع نظاماً واحداً[٥٠].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن «الأصناف»، لا يعود تاريخ تواجدها إلى العهد العثماني فقط، بل إن تأسيسها يعود في الواقع، إلى القرن التاسع الميلادي، وكان لها علاقات وتأثرات بفرق القرامطة والإسماعيلية، لكنها في العهد العثماني، تأثرت بالفتوات ممثلة بجماعات «الآخي» في الأناضول، ولكن هذا التأثير يبدو ضعيفاً في بلاد الشام، وبخاصة في خلال المرحلة الأولى من الحكم العثماني فيها. وهذه الأصناف! تختلف في تنظيماتها وتفصيلاتها من مدينة إلى أخرى، لكنها جميعاً تتبع نظاماً أساسياً واحداً[٥١].

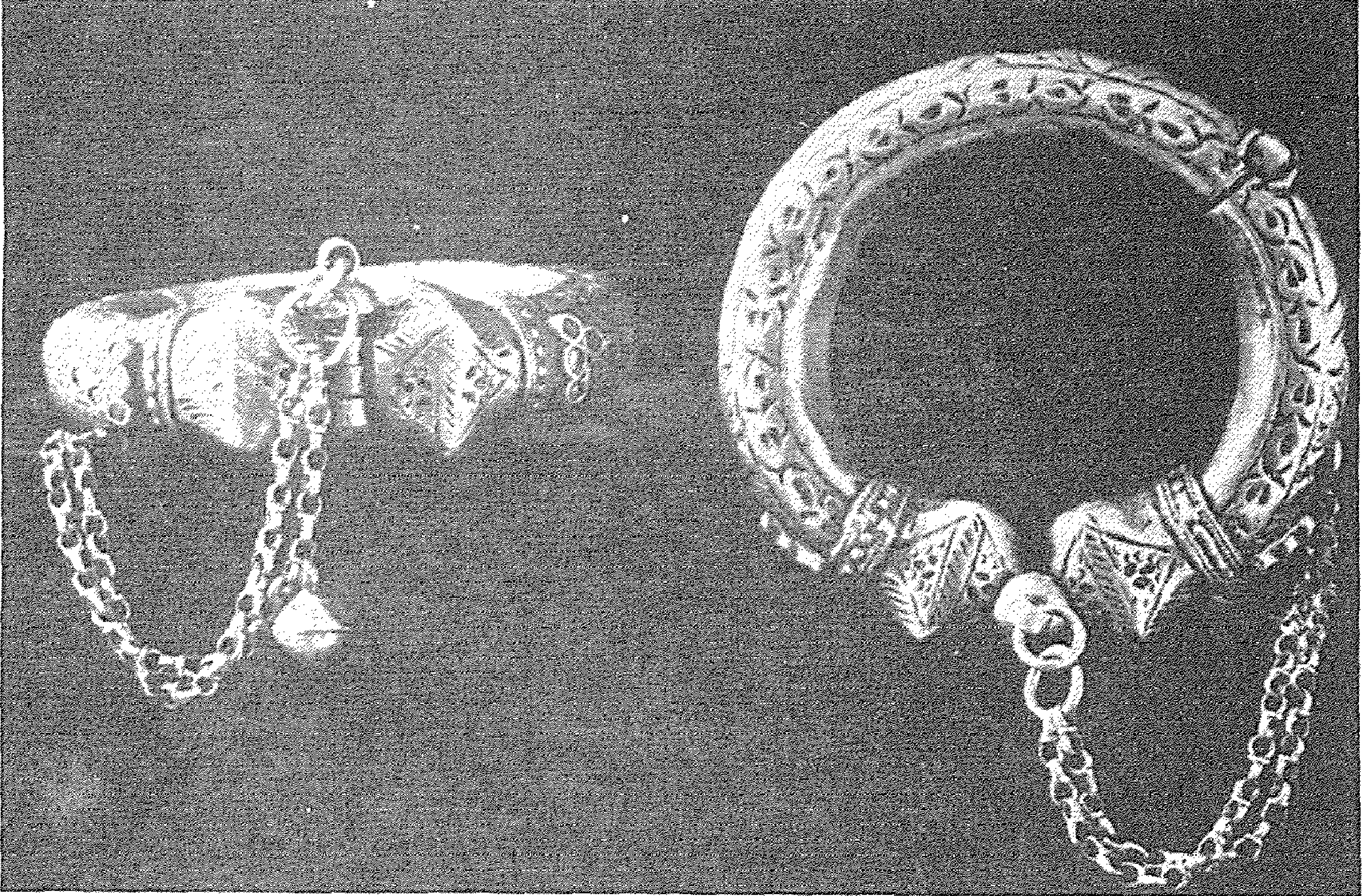
فقد كان يرأس كل الحرف التي كانت موجودة في المدينة، رئيس أكبر يدعى شيخ المشايخ، ويليه رؤوساء ثانويون يتدرجون في سلم ثابت للوظائف، وهم: مشايخ الحرف، والمعلمون أو الصناع، والمبتدئون أو الخدام، ويجري ترقية هؤلاء من الرتبة الدنيا إلى الأعلى باحتفال علني

يحضره أفراد الطائفة الحرفية، يدعى «الشد» أو «التلميح». وكان ينفرد بمنصب شيخ المشايخ، أسرة عريقة تكون عادة من الأشراف، ويكون هذا المنصب من حق أكبر أفراد هذه الأسرة سناً، على شرط أن تتوفر في من يشغله صفات معينة، تتمثل في: الوقار والتفقه في أمور الدين، وعلى جانب عظيم من التقوى، على أن يتولى هذا المنصب مدى الحياة، بموجب فرمان سلطاني. ويتمتع شيخ المشايخ بسلطة مطلقة على جميع الحرفيين المتواجدين في المدينة، يأمر وينهي، ويفصل كل المشاكل والقضايا التي ترفع إليه، ويعاقب بالسجن والضرب بالعصي والقيد على من يستحق هكذا عقوبات(٥٢).

ويلي شيخ المشايخ في المرتبة النقباء. وهم عادة أكثر من واحد، ويعينون من قبله لينوبوا عنه في حضور الاجتماعات العامة، والاحتفالات التي كانت تعقدها طوائف الحرف للمذاكرة في القضايا المتعلقة بشؤون الحرفة، أو لترقية (الشد) صانع أو معلم إلى رتبة أعلى من الرتبة التي يشغلها. ولم يكن منصب النقيب وراثياً في عائلة معينة، وإنما انحصر حق تعيينه وعزله بشيخ المشايخ(٥٣).

وكان لكل حرفة شيخ ينتخبه شيوخ الحرفة، (المعلمون والأساتذة أو الاسطوات أو الاختيارية)، ولا يتم الانتخاب بأكثرية الأصوات إنما بالمذاكرة والاستحسان واتفاق الآراء. وفي حال عدم اتفاق آراء المعلمين على مرشح واحد، وحصول تباين في الرأي، يرفع الأمر إلى شيخ المشايخ الذي يصدر قراره بتعيين أحد المرشحين. ولا يباشر شيخ الحرفة الجديد مهام منصبه إلا بعد التصديق على التعيين، من قبل شيخ المشايخ، والقاضي الشرعي. ويتم ذلك بأن يذهب أهل الحرفة، من معلمين وصناع، بشيخهم الجديد إلى شيخ المشايخ، ويذكرون له «أننا عينا فلاناً شيخاً علينا»، فيقوم شيخ المشايخ بربط الشيخ المنتخب بالمخرم، ثم يتلو عليه بعض آيات القرآن الكريم، ويقدم له النصائح اللازمة، لإدارة حرفته بالعدل والاستقامة، والسهر على صالحها، ثم يسلمه العهد. وبانتهاء هذه المراسم يقال عن شيخ الحرفة الجديد بأنه «دخل على بساط الشيخ» أي أنه فاز بالتصديق على مشيخته من شيخ المشايخ، ذلك أنه بعد التصديق يحد أمام الشيخ المعين بساط أخضر تذكاراً ببساط النبي(٥٤). وبعد هذه المراسم، هناك إجراء رسمي آخر يتوجب على شيخ الحرفة، أن يقوم به، لكي يكون لتعيينه الصفة الرسمية، ويقضي هذا الإجراء، بأن يتوجه الشيخ المنتخب مع رد اختيارية الحرفة إلى المحكمة الشرعية، لكي يقر القاضي الشرعي التنصيب، وذلك بإصدار حجة بالواقعة تسجل في المحكمة الشرعية(٥٥).

واشترط في شيخ الحرفة أن يكون رجل دين، مستقيماً قادراً على أداء واجبات المشيخة، واشتهر بحسن الأخلاق والفضيلة والعفة والاستقامة، وامتاز بمعرفة أصول الحرفة، ولا يشترط به أن يكون أكبر الحرفيين سناً، إذ يمكن أن يكون شاباً معروفاً بين أبناء حرفته، ومن قبل أرباب الحكومة. ويمكن أن تنتقل مشيخة الحرفة بالإرث، من الأب إلى الأبن، ولكن على أن يتم ذلك بموافقة معلمي الحرفة واختيارهم، إذا كانت تتوفر فيه الشروط المطلوبة. ومدة المشيخة لم تكن محددة، فقد يلبث فيها الشيخ، طيلة حياته شيخاً، ما لم يجر منه ما يوجب استبداله بسواه. ويتوجب على شيخ الحرفة أن يدعو لعقد مجالس يترأسها، للتداول مع المعلمين في مصالح الحرفة، وأن يحرص على توثيق أواصر الروابط بين أفرادها، وله وحده أن يشد بالكار المبتدئين الماهرين، إلى رتبة صنّاع أو معلمين، باحتفال علني، يحضره كل أفراد الحرفة، وتكون علاقة الحكومة معه، في كل أمر يختص بشؤون الحرفة(٥٦). وإذا أخل الشيخ ومساعدوه بالثقة التي وضعت فيهم، حق لأفراد الطائفة المطالبة بعزلهم، ويوافقهم القاضي الشرعي عادة على ذلك إذا ثبت لديه صحة دعواهم، وطبقت المقاييس نفسها على الحرفيين، فالحرفي الذي يغش في عمله، يعامل بما يستحقه من الإهانة والحقارة، وهذا ما سوف نشير إليه لاحقاً، وظهر بين الطوائف الحرفية اتجاه نحو تطبيق العدالة الاقتصادية بين الحرفيين، فالشيخ هو المسؤول عادة، عن توزيع المواد الخام بالتساوي على أفراد الطائفة، ولكنه غالباً ما اقتطع لنفسه حصة ونصف الحصة(٥٧).



□ خلخال للقدم من الفضة أو النحاس الملبس بالفضة.

وكما أن لكل حرفة شيخاً يرأسها كذلك فإن لها شاويشاً، وعلاقته بشيخ الحرفة كعلاقة النقيب بشيخ المشايخ، والفرق بينهما هو أنه ليس للشيخ وحده أن يختار الشاويش، وإنما يجري اختياره أو انتخابه من قبل أهل الحرفة. وليس للشاويش أية سلطة قضائية على أهل حرفته، وإنما هو مجرد رسول للشيخ ومتمم لأوامره، يدعو بإذنه معلمي الحرفة وسائر أهلها للاجتماع، ويكلفهم لحضور الشد والولائم، ويبلغ أحكام العقاب لمن حكم عليه الشيخ بذلك. ويميل عادة إلى جانب الصناع عند مطالبتهم لمعلميهم بزيادة أجورهم، فيطوف على الصناع، ويحثهم على الثبات لنوال المقصود[٥٨].

أما فيما يختص بالمبتدىء في الصنعة أو الأجير، فهو الولد الحديث السن الداخل إلى الحرفة، سواء بغرض الاحتراف بحرفة، أو ليمتلك بيده ما يحمي مستقبله من العوز والفاقة. فيبقى عدة سنوات بلا معاش ولا أجرة، ويكتفي أهله بتعليل أنفسهم، أنه ساع بأخذ الصنعة عن أستاذه، وبعضهم يرتب له (جُمعية) أي أجرة تدفع له كل أسبوع، تكون متناسبة مع مهارته، ولكنه يبقى متصفاً بلقب أجير إلى أن يبلغ سن الرشد، أو إلى أن يتوصل في صنعته إلى حد الإتقان، فيطلق عليه لقب «صانع» وإن لم يكن قد شُدَّ بالكار بعد. أما أجرته، فتظل منخفضة، ولا يسمح له أن يفتح محلاً وحده ولحسابه. وهذا ما يدفع المبتدىء أن يطالب بإجراء احتفال الشدّ، آملاً بازدياد أجره يسانده على هذه المطالبة ويشجعه الشاويش وزملاؤه في الحرفة، وغرض الشاويش ما ينتظر أن يناله من رسوم الشد. وأما زملاؤه فلأنهم يبتغون ازدياد عددهم، وربط الداخل بعهود الإخاء[٥٩].

وبعد إتمام مراسم احتفال الشد، يعين أب بالكار للمشدود، ويكون أحد المعلمين الحاضرين، أو معلمه على الغالب، ويجوز له أن يتخذ سواه، لأن المعلم بالكار هو بمثابة كفيل مطالب بما قد يقع من المشدود من الخلل، فإذا كان الأخير غير ممدوح السيرة يتمنّع معلمه من قبوله ابناً له، ونادراً ما يحدث ذلك، فيعين حينئذٍ خلافه. ثم يقوم شيخ الحرفة بتقديم نصائح للمشدود، بأن يكون أميناً صادقاً متديناً، ويحذره من

الإفراط في أموال الزبائن وصيانة أبناء حرفته، ثم يلتفت إلى الحاضرين، ويسألهم رأيهم فيما إذا كان المشدود يستحق الترقية إلى «مصانعة» فيجيبونه «نعم مستـأهل ومستحق»(٦٠). ومن الصنّاع من يشد بالنهار نفسه صانعاً ومعلماً، والطريقة بذلك، أنهم عندما يسأل الشيـخ قائلاً «ما قالت الأخوان هل يستحق مصانعة» يضيف إليه سؤالاً آخر قائلاً «هل يستحق معلمية» فإن كان مستحقاً يجيبوه بالإيجـاب، وإلا فيقولون لطالب «حاجتك هلق مصانعة انشاء الله سنة الجاية تصير معلم»(٦١).

ويمكن للمحترفين من كل المذاهب الاشتراك بالشد، أما المسيحيون واليهود، فلا يعطون شيئاً من الشارات والعهود، بل يكتفي بشدهم بالمحزم وبتلاوة «أبانا الذي في السموات» للنصـارى، أو بتلاوة الوصايا العشر في شد اليهود، ويسمون لهم أباء بالكار من المسلمين، ويـأخذون منهم العهد والميثاق بأن لا يخونوا الحرفة، ولا يضروا بالأموال والعباد(٦٢).

وهذا الارتقاء إلى درجة صانـع ومعلم، كان بمثابة المكافأة العـظيمة التي ينتـظرها عمـال الحرف على اجتهادهم، إذ لم يكن هناك معارض عمومية أو خصوصية، ولا مسابقات، ولا جوائز، ولا حكومة تضمن لمن أتى بتحسينه، أو باختراع في فنه، أن يحصل على مكافأة مادية، أو امتياز يكفل له المستقبل، وينشط غيره إلى الاقتـداء به(٦٣).

وكان هناك إجراءات تتخذ بحق كل من يسيء أو يغش في عمله، حفظاً للرابطة التي تجمـع ما بين الحرف، وصوناً لأموال الناس، ومن هذه الإجراءات:

١ ـ كل من تثبت عليه خيانة أو سـرقة يطرد من حرفته طرداً نهائياً، ولا يسمـح له بعد ذلك بممارسة أي عمل آخر.

٢ ـ إذا ثبت أن أحد معلمي الحرفة أنقص الحجم المتعارف عليه لسلعة ما، كـان شيـخ الحرفة يحضرها، ويقصها، ويعلقها في السوق، فيصير صاحبها عبرة لمن اشتغل.

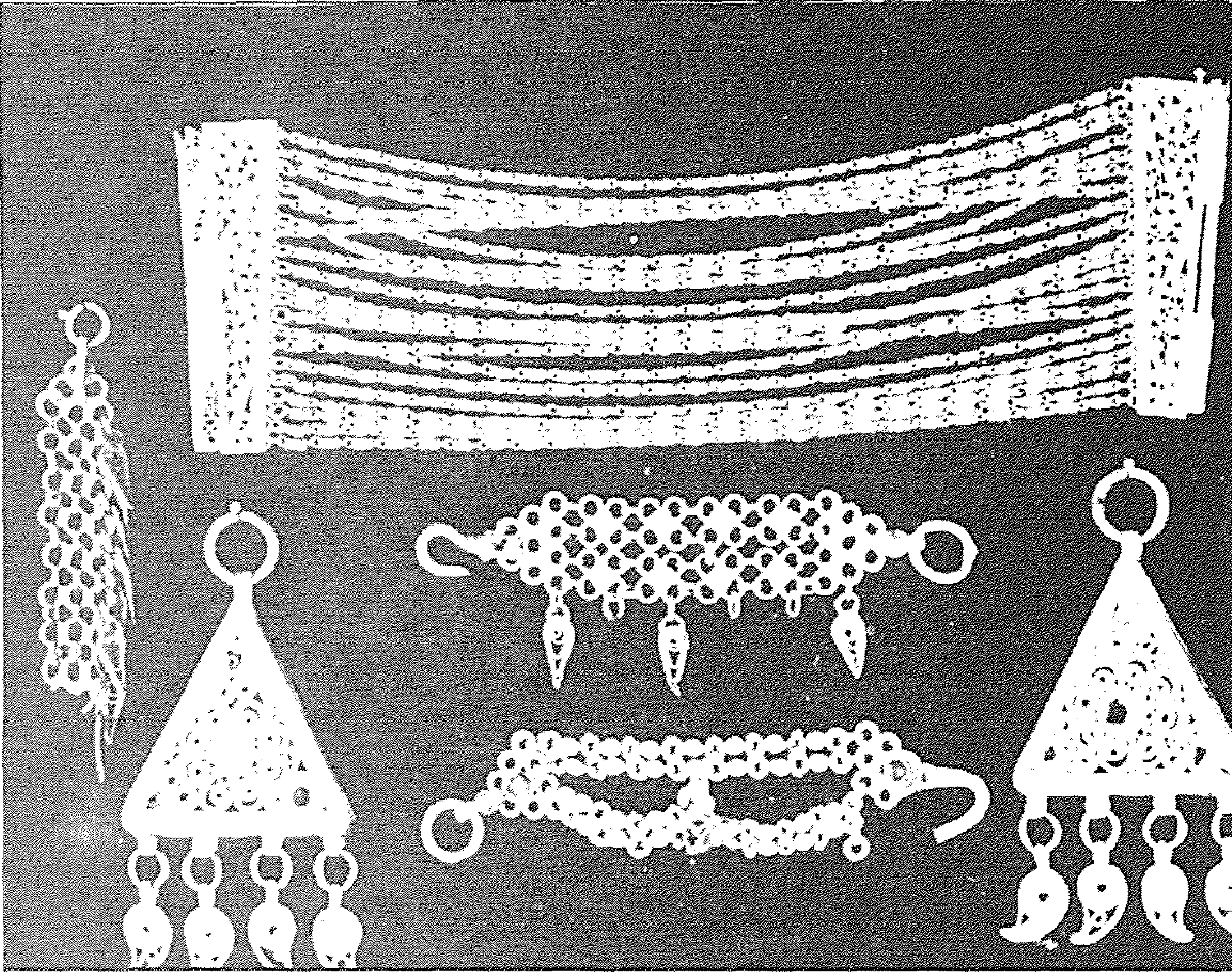
٣ ـ من ثبت عليه الغش بالحرفة، كـان شيـخ الحرفة يرسل الشاويش ليقفل دكانه ولا يعود بإمكانه فتحـه إلا برضـا الشيـخ وأهل الحرفة.

٤ ـ إذا أدخل أحد الصياغ الغش والزغل في مزيـج معادنه، فكان شيـخ الصاغة يقلب له السندان على قفاه، ويبقى الصائـغ متوقفاً عن عمله، إلى أن يحصل على رضا الشيـخ.

٥ ـ إذا ثبت أن أحد معلمي الكار قد أخل بالروابط، فيعطونه عرقاً أخضر، دلالةً على أنهم يكلفونه بدعوتهم إلى وليمة، وتكاليف هذه الوليمة توازي الجزاء النقدي، وهو المصطلـح عليه أكثر من غيره من أنواع القصاص.

٦ ـ من جملة القصاصـات التي كـانت جارية آنئذٍ، أنهم كانوا يقصون للمذنب خصلة من شعر رأسه(٦٤).

وبالإضافة إلى تقاليد الحرفة التي أشرنا إليها سابقاً، وجدت قيود شديدة تضيّق من ساحة الصنعة نفسها فرغم أنه كان بإمكان الصانـع أن يترقى، ليصبـح معلماً، ومن حقه بمجرد أن يتوصل إلى هذه المرتبة أن يفتـح حانوتاً خاصاً به كمعلم حرفة، لكن من الناحية العملية لم يكن تنفيذ ذلك بالأمر السـهل. فافتتاح حانوت يتطلب رأس مال لا يستهان به، لشراء خلو حانوت، بما في ذلك الأدوات اللازمـة لعمله، ذلك أن عدد الحوانيت لكل طائفـة كان محدداً بدقة، وهذا مـا أعاق التـوسـع الصناعي الكـلي. كما أن الحانوت لا يمكن أن يكون أبداً ملكاً لصاحبه، وإنما مستأجر من قبله، مقابل مبلـغ معين من المـال يدفـع عنه سنوياً. فقد كان امتياز (كدك)، امتلاك دكان أو حانوت، أو ممـارسة الصنعـة بمعنى أوسـع، نوعاً من الملكية، يمكن أن تباع وتؤجر، وتورث إلى أولاد المعلم بعد وفاته فالولد يقوم بعمل أبيه إذا كان قد وصل إلى رتبـة صانـع متمرن في الطائفة الحرفية نفسها. وإذا لم يكن كذلك، فإن هذا الامتياز يباع من قبل الورثة إلى أحد أعضاء النقابة الآخرين. ويمكن الحصول على امتياز جديد من السلطات، إذا دفـع المعلم للخزينة مالاً مقدماً، شرط أن يثبت أنه يمتلك الأدوات الضرورية والوسائل اللازمة، لممارسة صناعته. وامتياز امتهان الحرفة الجديدة نوعان: امتياز محدود يسمـح للمـالك فيه أن يتابـع عمله بمكان معين، وامتياز لا محـدود يسمـح للمالك فيه أن يمارس عمله في أي مكان



□ مجموعة الأساور والحلق والحلي الفضية ترجع إلى القرن الماضي.

يرغب فيه. والنوع الثاني نادر جداً، وغدا أندر مع الزمن، وذلك لرغبة الحكومة في شد قبضتها على الصناع، وهذا لا يتاح لها إلا إذا كان الصناع يعملون في حي واحد. وعلى هذا الأساس بقي صنّاع حرفة ما، كما كانوا في الفترة السابقة للاحتلال العثماني لبلاد الشام، يتجمعون في سوق واحدة. وهذا الأمر لا يزال واضحاً في مدن بلاد الشام، كدمشق وحلب وطرابلس وصيدا. وهذا ما سوف ندرسه بالنسبة للمدينة الأخيرة(٦٥).

وليس امتياز احتراف المهنة من احتكار فئة محدودة من الصناع فحسب، وإنما كانت الطرز التي يسمح لأعضاء النقابة القيام بها محدودة أيضاً ومقيدة. فالمصنوعات نفسها تتكرر، وتتكرر دون ما تعديل أو تجديد أو ابتكار، إذ إنّ النقابة وضعت شروطاً معينة، يجب أن تتوافر في تلك المصنوعات، دون النظر إلى التطور الاجتماعي الطارىء. ومع ذلك فإن هذا التطور كان بطيئاً من نفسه. كما تدخلت الحكومة هي الأخرى، فوقفت في وجه المنافسة الفردية، وحظرت بيع أية بضاعة من أي نوع كان فوق السعر الذي تحدده في كل موسم من الزمن. ولا يحق لأي صانع أن يصنع شيئاً غير المرخص به لنقابته، كما منعت إحداث أي تبديل في شكل البضاعة المصنوعة. وكان من نتائج هذه القيود تجميد الصناعة في قالبها القديم، وأفقدتها عنصر التجديد، وأضعفت في نفوس أفرادها روح الخلق والتحسين، فانحط مستواها الكيفي مع الزمن وقلّ عدد الراغبين فيها. والواقع أن تسعير الحكومة لمختلف البضائع، لم يكن قيداً للصناع فقط كأفراد، أو دفاعاً عن حقوق المستهلك، ومنعاً للمنافسة الضارة، وإنما كان موجهاً ضد استغلال النقابة كمجموع أو احتكارها. فالصناعة لم تكن تخضع لتقاليد النقابة وقيودها فحسب، وإنما لقيود الحكومة ومراقبتها أيضاً.

وتركت الحكومة العثمانية للقاضي مراقبة أعمال النقابات وشؤونها، ويساعده المحتسب، وبذلك أوجدت للمحتسب عملاً إضافياً إلى عمله الذي كان يقوم به في العهود الإسلامية السابقة للفتح العثماني، إذ كان في الماضي الأبعد يراقب

الأخلاق بعامة، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لكن عمله في الفترة العثمانية، غدا مراقبة طوائف الحرف، وما يمكن أن يتخللها من حركات ثورية تمردية ضد الحاكم، وجباية الضرائب المفروضة عليها، وكان يتقاضى أجره من ضريبة خاصة مفروضة على جميع التجار. أما القاضي فكان ينظر في الخلافات التي تنشب بين الصناع والمستهلكين بخاصة، والصنّاع وبعضهم، والصنّاع والتجار، ويصدر أحكامه المختلفة عليهم، ويقوم المحتسب بتنفيذ تلك الأحكام(٦٦).

أما على الصعيد الإداري، فقد لعبت الطائفة الحرفية دوراً هاماً من حيث تنظيم العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة. فالسلطة تبلغ أوامرها إلى الحرفيين، عن طريق شيخ الطائفة، وبالمقابل يرفع الحرفيون مطالبهم إلى السلطة عن طريق الشيخ. وتبدو العلاقة واضحة بين الطرفين في مجال الضرائب، فهناك ضرائب ثابتة وأخرى عارضة. فالأولى أطلق عليها أحياناً تسمية أموال الميري (من أميري أي دولة) تجمع عن طريق الالتزام، وهو في الغالب لسنة، ويصعب معرفة الضرائب الثابتة من العارضة، وقد ذُكرت الأخيرة بتعابير مختلفة، مثل «تكاليف عرفية» أو «مال الأوردي» أو «العرضي» أي الجيش. وهي مدفوعات فرضتها الدولة لتمويل حملة أو غير ذلك، أما «مال المشيخة» فهو ما يفترض أنه مخصص لشيخ الطائفة. وأياً كان الحال، فقد كان من المتوجب على كل حرفي في الطائفة، المساهمة، حسب إمكاناته، في أداء الضريبة التي كانت تفرض بصورة جماعية. ويقوم شيخ الطائفة بمساعدة بعض الموظفين، بجمع أموال الضريبة من الأفراد بالطريقة التي يرونها(٦٧).

ويبدو مما ذكر آنفاً، أن الحكومة كانت تخشى هذه النقابات والحركات الخفية القائمة فيها، وليس هذا الخوف بمستغرب، لأن طوائف الحرف، كانت آنئذ متضامنة متعاونة قادرة أن تلعب دوراً خطيراً في المنحى السياسي لو أرادت. ولكن التركيب الديني الأساسي لها وانصرافها إلى أعمالها، سبب في ابتعادها عن التأثير السياسي، أو التوجيه الحكومي. وهذا ما دفع بعض المؤرخين، إلى تفسير تضييق المراقبة الحكومية على النقابات، إلى حماية الصناع أنفسهم من أنفسهم، لا إلى منع تمردهم وثوراتهم. أي أن هدف الحكومة من وراء عدم السماح بفتح حوانيت جديدة، إنما كان رغبة منها في تخفيف حدة المنافسة بين الصناع، وتوفير العمل الكافي للصناع الموجودين فعلاً، بخاصة وأن الجميع يعملون في حي واحد متجاورين. ولكن الواقع أن الدولة كانت حذرة من هذه الطوائف الحرفية، وإن بدت مسالمة في المرحلة الأولى من الاحتلال العثماني. وقد صدق توقعها هذا، خاصة وأن طوائف الحرف، ستكون مقراً لحركات تمردية عدة ولا سيما عندما انخرطت فيها فرق الانكشارية بعد فساد نظامها الأول.

ويتضح من كل ما قيل عن طوائف الحرف، أنها لعبت دوراً مزدوجاً في حياة المجتمع الشامي، فهي من ناحية قيدت الصناعة ومنعتها من الانطلاق والتقدم بعيداً، ومن ناحية أخرى حفظت الروابط والصلات بين أفراد المهنة الواحدة من التفكك والانحلال. وجعلت الصانع فرداً اجتماعياً صالحاً، قبل أن يكون اقتصادياً طموحاً، كما أنها حرصت على الاتفاق في المهنة، وحافظت على مستواها الفني. وأن تشبثها بمبادئها، رغم خنقها روح الإبداع، منع الفساد الخلقي من التفشي في نطاق الصناع، بسبب حرصها على الأخلاق الفاضلة المتسامية، وعلى مفاهيم الأخوة الصادقة في نطاق الحرفة الواحدة، وتعهدتها جميعاً بالرعاية والحماية، حتى عرف الصانع العربي والشامي بخاصة في أوروبا بالصدق والأمانة والإخلاص في عمله(٦٨).

ورغم ما ذكرناه سابقاً عن تراجع الصناعة في بلاد الشام وتقهقرها في بدء العهد العثماني، فإن هذه البلاد لم تفقد أهميتها الصناعية، وبخاصة في ميدان صناعة الأقمشة الحريرية والقطنية، وساعدها على ذلك اتصالها ببلاد الأناضول، بعد احتلالها من قبل العثمانيين إذ فتح هذا الاحتلال أمامها أسواقاً جديدة يمكنها أن تصرف منتوجاتها إليها، وبالفعل فقد ازداد إنتاج بلاد الشام الصناعي ولكنه فقد من كيفيته السابقة.

وسوف نحاول أن نستعرض أهم الحرف والصناعات الشعبية، التي تواجدت في مدينة صيدا في العهد العثماني، وذلك بالاستعانة بما



□ مجموعة من القوارير المختلفة الاشكال، مزخرفة وملونة عثر عليها في حفريات صيدا وترجع إلى العهد الروماني وتاثير الفن الفرعوني ظاهر في كثير منها (دار الآثار اللبنانية).

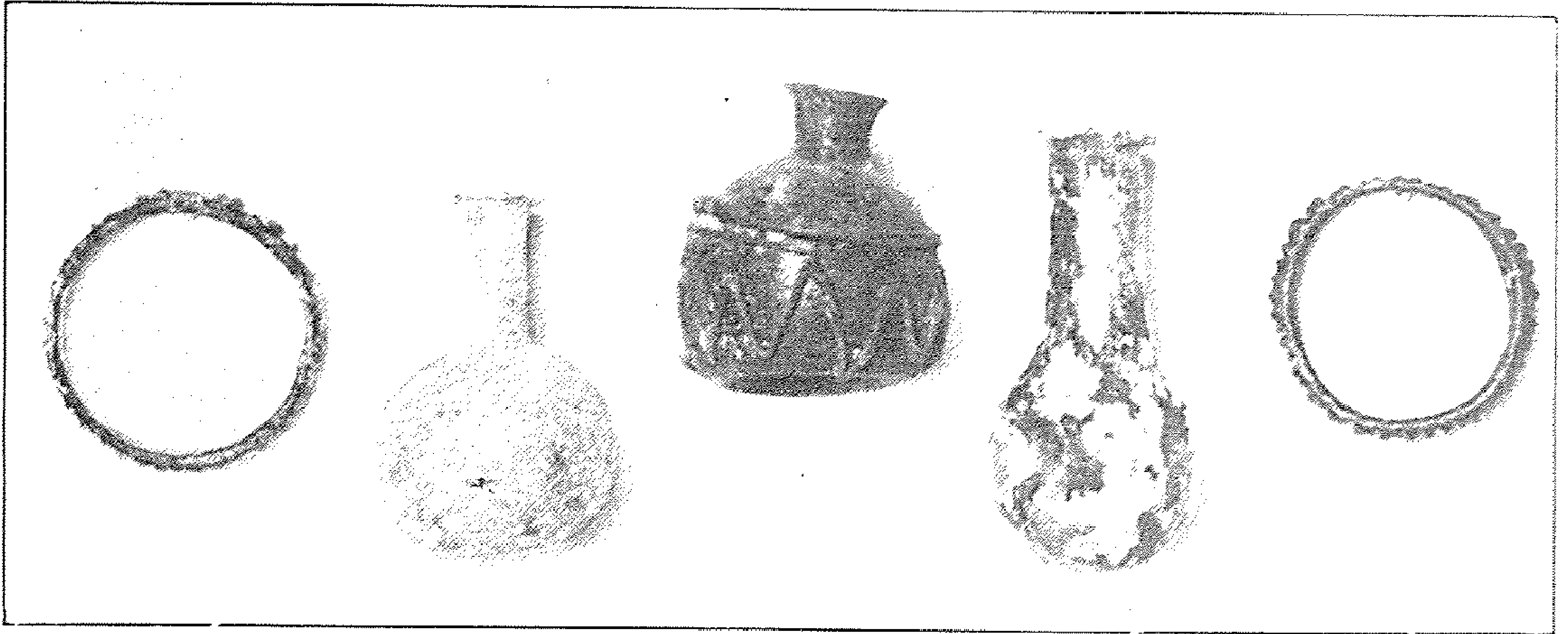
جاء في الوثائق الفرنسية التي يوالي نشرها د. عادل اسماعيل، وكذلك في ضوء أسماء العائلات الصيداوية التي تحمل ألقاباً حرفية، ومراكز الفعاليات الاقتصادية التي وردت في مصادر ومراجع تاريخ صيدا، ودراسة مفصلة لأهم وأبرز الصناعات والحرف الشعبية التي كانت سائدة آنذاك، في المدن الشامية العثمانية(٦٩).

وذكرت الوثائق الفرنسية الصادرة عن قنصلية صيدا في العام ١٨١١ أنه من أصل ١١,٥٠٠ نسمة من سكان المدينة كان بينهم ثلاثة آلاف وأربعمائة عامل موزعين على الحرف والصناعات الشعبية التالية: حدادين وصناع خلاقيين وأسلحة، ونقاشين، ودباغين وجلالتيه وسروجة واسكافيين، ونجارين وعمال خراطة على أنواعها، وعمال بناء وعمارة وطلس، وحاكة وخياطين ومطرزين، وبحارة وصيادين، وحوذيين وجمّالين(٧٠).

الحرف والصناعات الشعبية

أهمية الحرف: تعد الحرف والصناعات في المجتمع الإنساني عامة، من المؤشرات الدالة على طبيعة هذا المجتمع واتجاهاته، كما أنها تكشف، من ناحية أخرى، عن حال هذا المجتمع، من حيث درجة غناه، أو رفاهية أبنائه، أو العكس، وبقَدْر ما تتعدد الحرف والصناعات، وتتنوع في مجتمع ما، بقدر ما يتضح لنا مدى التطور والرقي الذي وصل إليه هذا المجتمع. فإذا تقلصت الحرف كما وكيفا، واختفت بعض الصناعات، كان ذلك علامة دالة على التدهور الاقتصادي والاجتماعي. وهذه الدراسة تهتم بالحرف التي عرفتها مدينة صيدا، في خلال القرون الأربعة الأولى من الحكم العثماني، وهي بهذا محاولة لتوضيح جانب من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها المدينة.

فقد ساعد النمو السكاني الذي عرفته مدينة صيدا، والذي سبق وأشرنا إليه، مع ظروف الاستقرار والأمن التي كفلتها السلطات العثمانية للمدينة، انعكست آثاره في حال من الرواج الاقتصادي والازدهار الاجتماعي تجلت من خلال أسواق المدينة، التي عرفت كافة أنواع البضائع الأساسية والكمالية، كما كانت هذه الأسواق بمثابة الواجهة التي كشفت عن مدى تنوع الحرف والصناعات المتعلقة بالحياة اليومية في



مجموعة من المكاحل والخواتم المختلفة الأشكال والألوان عثر عليها في حفريات صيدا وترجع إلى العهد الروماني

المجتمع الصيداوي.

بيد أن طبيعة النظام السياسي في ذلك العصر، وهو نظام إقطاعي عسكري، وعلاقته بالرعية، وطبيعة النظام الاجتماعي وهو بناء طبقي في أساسه واتجاهاته، هي التي فرضت إلى حد ما، أنواع الحرف والصناعات التي ازدهرت في خدمة المجتمع الصيداوي في حياته اليومية. كما أنها هي التي جعلت بعض هذه الحرف والصناعات ترتبط بالناس العاديين في حياتهم اليومية، في حين ارتبطت أخرى بالحكام والشريعة الاجتماعية الميسورة الذين استأثروا بالشطر الأكبر من ثروة المدينة ومواردها. وهكذا ازدهرت حرف وصناعات في خدمة الأغراض الاستهلاكية اليومية، وأخرى ارتبطت بحياة الحكام والشريعة الميسورة المولعين باقتناء التحف ومظاهر الرفاهية، فضلاً عن اهتمامهم بزينة ملابسهم وأسلحتهم وخيولهم، وحرصهم الزائد على مظاهر الأبهة والعظمة في مواكبهم[٧١].

حرف الغذاء

لعله من المفيد أن نبدأ هذه الدراسة بحرف الغذاء، باعتبار أن هذه الحرف تعد من أكثر الحرف ارتباطاً بالمجتمع في حياته اليومية، وأكثرها تعبيراً عن اتجاهات هذا المجتمع، ومدى ثرائه أو فقره. كما تكشف دراسة بعض أنواع هذه الحرف عن بعض عادات الصيداويين الاجتماعية في مجال الغذاء. ومن خلال أسماء أسواق ذلك العصر وحرف التغذية التي خَلَعَت أسماءها على بعض العائلات الصيداوية، ومن خلال الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالغذاء، من خلال كل ذلك يمكن التعرف على كثير من حرف التغذية التي كانت سائدة آنذاك، والتي كانت منتشرة في جميع أنحاء المدينة، وهو أمر يتمشى بشكل طبيعي مع توزيع التجمعات السكانية. وقد أحصت لنا المصادر التاريخية المتوفرة، الحرف المتصلة بالغذاء، وكانت تتوزع ما بين الفرانين واللحامين والرواسين وصناع الحلوى والمعاصر والمطاحن وصيد الأسماك.

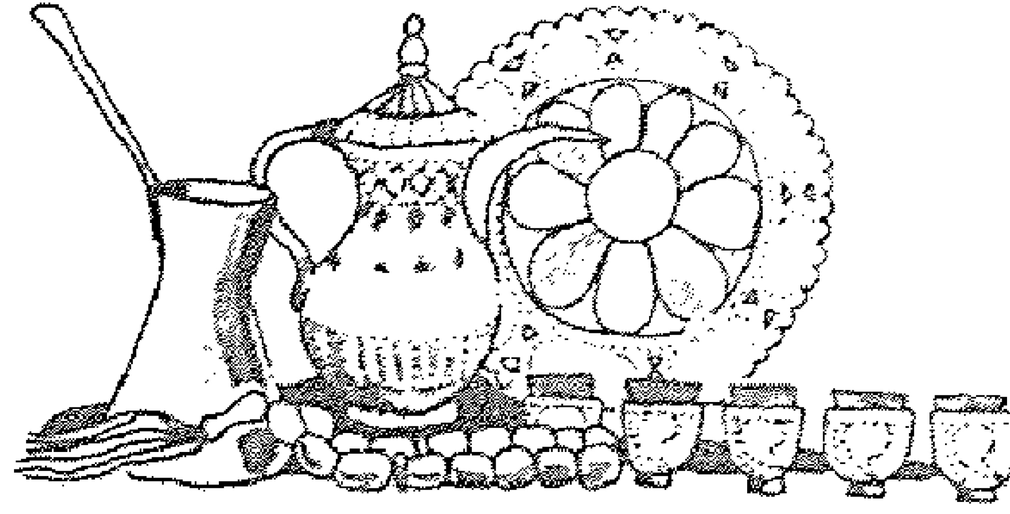
وكمدينة بلغ عدد سكانها ما يقارب أحد عشر ألف نسمة في العام ١٨١١[٧٢]، كان من الضروري وجود أفران تهتم بصناعة الخبز لهذا العدد من السكان، وجرت العادة أن يستأجر فرّان فرناً، ويؤمن له ما يحتاجه من عمّال، كرئيس ومعجنة ومبشكر وغير ذلك، على أن يراعي شروط الصحة العامة والنظافة والطهارة في أثناء خبز العجين. وكان بعض الفرّانة يخبز سوقياً، أي تصنيع الخبز وبيعه جاهزاً في الأسواق والحوانيت، مما كان يمكن بعض هؤلاء، من جمع ثروات طائلة، نتيجة الغش اعتادوا ممارسته، سواء من حيث صنع خبز من دقيق رديء وبيعه للمشترين على أنه من الدقيق الجيد، أو إخراج الخبز من بيت النار قبل نضوجه التام، لكي يثقل وزنه في الميزان، وبعضهم كان يختلس من الزبائن الرغيف والرغيفين كما كان بعض الفرّانة يخبز بيتياً، وهو ما أعد عجينة في البيوت، ويأخذ مقابل ذلك عدد من الأرغفة، ومن الواجبات الملقاة على هؤلاء أن يكون لديهم امرأة



□ صانع الفخار، وقدوره.

جليلة، لكي تدور على منازل الزبائن لاستلام العجين منها: لصيانة حريم المسلمين عند تسليمهن العجين لغير ذي محرم، فإذا عجز عن تأمين امرأة لهذا الغرض، فليتخذ له صبياً ديناً أميناً، لم يبلغ سن الحلم، فإذا دخل بيوت المسلمين في وقت لا يكون في البيت إلا النساء: أخذ العجين من على الباب، وذهب لسبيله(٧٣). ويلاحظ أن أفران صيدا، قد انتشرت في الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي لباطن المدينة، بالمقارنة مع انتشارها في وسطها وغربها، فكان هناك: فرن البيليك قرب باب البلد الفوقاني، وفرن جار في جامع بطاح في باب البلد الفوقاني، وفرن بني عسيران في حارة الزويتين قرب محلة بوابة الخيمة وفرن علي جمعة في محلة الخندق قرب السور، وفرن الباليك في محلة الشارع المزيودي لصيق حارة المزبودي، وفرن الساحة شمالي حارة البير وقف بني السقي، وفرن الزيباوي في حارة الموارنة(٧٤). ومما ينبغي الإشارة إليه، إن هذه الحرفة كانت رائجة، ويمكن أن تؤمن لصاحبها ربحاً وفيراً إذا أخلص في عمله، ذلك أن بعضهم كان يغش طحينه الحنطة ويضيف إليه طحين الفول والحمص والكرسنة مما تأكله البهائم(٧٥).

ويرتبط بحرف صناعة الخبز حرفة طحن القمح وغيره من الحبوب، ووجدت المطاحن خارج البلدة على ضفاف نهر الأولي، لأنها كانت تدور بقوة الماء، وأطلق «طحّان» على المعلم الذي يدير المطحنة، وحددت مصادر تاريخ صيدا، مواقع هذه المطاحن وهي: طاحونة الرحا المعروفة بطاحونة الأمير، وتشتمل على ثلاثة أحجار مطبقة، تديرها مياه الأولي، ومطحنة مقيدح في شمال قناة الخاسكية، ومطحنة في بستان اليهودي بالقرب من نهر البرغوت(٧٦). ويمكن تصنيف هذه المطاحن إلى صنفين: الصنف الأول وهو ما اختص بتحضير الطحين السوقي، أما الثاني فهو ما اختص بتحضير الطحين البيتي. فالطحين السوقي، وهو الذي يباع في الأسواق ويوزع على الفرّانة على حسب طلبهم، ويقوم بتوزيعه وبيعه الطحّان ذاته، وهي حرفة مهمة تدر أرباحاً وفيرة، ذلك أن بعض أربابها كانوا يعمدون إلى غش أصناف الطحين، بأن يخلطوا رديء الحنطة بجيدها وعتيقها بجديدها، وربما يخلطوا فيه دقيق الحمص والفول والذرة. أما عن الطحين البيتي فقد كان معظم الأهالي في المدينة لا تميل أنفسهم إلى أكل الطحين السوقي، ولذا كانوا يقومون بشراء الدقيق ثم ينظفونه في منازلهم، ثم يرسلونه إلى الطحّان البيتي، الذي يتقاضى عن كل مد أجراً معيناً(٧٧). ومن واجبات طحانين الدقيق البيتي أن لا يمكنوا من يتسلم قمح الناس إلا شخصاً أميناً عفيفاً عن المفاسد يدخل بيوت الزبائن ويخاطب أولادهم وجواريهم ويحملها بأمانة إلى الطاحون، وأن يأخذ الدقيق بالوزن ويسلمه بالوزن من غير نقص(٧٨). ●



الحـــواشي

(١) ARVIEUX, (clevalier d'). Mémoires du chevalier d'Arvieux, v. 4, p. 327: طلال المجذوب. تاريـخ صيدا الاجتماعي، ص ١٣.
(٢) ABDEL-Nour, Antoine introduction à l'histoire urbaine de la syrie ottomaine, p. 76.
(٣) عفيف مرهــج. إعرف لبنان، ج ٦ ص ٣٩٢.
(٤) المكان نفسه.
(٥) **ملاحظة** في تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٣٠ حدث هيجان في استامبول، ذلك أن مسلمي العاصمة كانوا مستائين من سياسة الصدر الأعظم الداماد إبراهيم باشا، الذي تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ــ ١٧٣٠)، القاضية بإدخال إصلاحات إلى النظم العسكرية العثمانية والأسلحة الحديثة. فقد اعتقد معارضوا هذه النظم الإصلاحية، أن أي تجديد من شأنه أن يضعف النظام العثماني برمته، فقاد بعض قادة الانكشارية والعلماء حركة عصيان داخلي، انتهت بقتل الصدر الأعظم وبقية زعماء الإصلاح، كما أجبروا السلطان أحمد الثالث، إلى التخلي عن العرش لصالــح ابن أخيه محمود الأول (١٧٣٠ ــ ١٧٥٤). لمزيد من المعلومات انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى. أصول التاريــخ العثماني، ص (١٥٨ ــ ١٦١).

SHAMIR Shimon. The Azm Walis of Syria (1724-1785), pp. (57-58).

(٦) ABDEL-NOUR. op.cit. , p. 350.
(٧) السيد عبد العزيز سالم. تاريـخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ص ١١٦.
(٨) MARMADJI, (O.P.) Textes geographiques arabes sur la palestine, p. 126.
(٩) EISLEN, Frederic carl. SIDON a study in oriental history, p. 103.
(١٠) Loc. cit.
(١١) ABDEL-NOUR. op.cit. p. 351.
(١٢) Ibid. p.76.
(١٣) Ibid. p. 351.
(١٤) السيد عبد العزيز سالم. مرجـع سابق، ص (١٨٩ ــ ١٩٠).
(١٥) عفيف مرهــج. مرجــع سابق، ج ٦ ص ٣٩٢.
(١٦) **ملاحظة**: جبل الدروز: نعني بجبل الدروز المنطقة الجبلية الممتدة من جسر نهر الكلب وحتى نهر الأولي، وبعد ١٧١١ صارت تطلق هذه التسمية على القسم الجنوبـي من حوران بعد هجرة اليمنيين الدروز إليه من المقاطعات اللبنانية.
(١٧) **ملاحظة**: جبل عامل. أطلقت هذه التسمية على المنطقة الممتدة من نهر الأولي شمالاً حتى الرأس الأبيض جنوباً، ومن بحر المتوسط غرباً حتى بحيرة الحولة بعرض ثمانين كيلومتراً شرقاً. وهي منطقة منبسطة تشمل هضاباً وسهولاً داخلية وساحلية تخترقها أنهار وجداول. لمزيد من المعلومات انظر: محسن الأمين. خطط جبل عامل، ج ١ ص ٣٤ وما يليها؛ Charles-Roux, (F). Les Echelles de Syrie et de Palestine, p. 27.
(١٨) ABDEL-NOUR. op.cit., p. 352.
(١٩) عفيف مرهــج، مرجــع سابق، ج ٦ ص ٣٩٣.
(٢٠) op.cit., p. 352.
(٢١) ARVIEUX. OP.CIT., T. 4, p. 301.
(٢٢) ABDEL-NOUR. op.cit., p. 352.
(٢٣) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر، ج ٢ ص ٣٤.
(٢٤) إدوارد لكروي. أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين، ص ٤٢.
(٢٥) محمد رفعت رمضان. علي بك الكبير، ص ١٦١.

(٢٦) لمزيد من المعلومات انظر: المرجـع نفسه. ص ١٦١ وما يليها؛ إدوارد لكروي. مرجـع سابق، ص ٤٢ وما يليها؛ فولني. ج ١ ص ٥٠ وما يليها؛ حيدر الشهابـي. الغرر الحسان في أخبار ابناء الزمان، ج ١ ص ٦٨ وما يليها؛ حنانيا المنير. الدر المرصوف في تاريـخ الشوف (١٦٥٧ ــ ١٨٠٧)، المشرق م ٤٩ ص ٢٥٥ وما يليها؛ RAFEK, (A.K). The

(٢٧) province of Damascus, pp. 249 FF; CHARLES-ROUX. op.cit., pp. 87 FF; ISMAÏL, Adel. Documents Diplomatiques et Consulaires..., t. 2, pp. 166 FF; COHEN, Amnon. palestine in the 18th century, pp. 98 FF; A.E.B[1] 1035 seyde le 23/5/1772. 21/5/1772 (Bulletin), 2/6/1772.

ملاحظة: تشير الأحرف الثلاثة الأولى إلى رمز المجموعة وهي من وثائق دار الوثائق القومية في باريس، (Archives Nationale de Paris) والأرقام التي تليها إلى رقم السجل ويليه المركز القنصلي الصادرة عنه الوثيقة ثم التاريـخ في اليوم والشهر والسنة.

(٢٨) Masson, Paul. Histoire du commerce Français dans le Levant au 18=[e], p. 518.

(٢٩) أحمد آغا الدنكزلي هو حاكم مدينة صيدا من قبل ظاهر العمر وعلي بك: وقد عين في هذا المنصب من قبلهما بعد احتلال قواتهما المشتركة للمدينة. لمزيد من المعلومات انظر A.E.B[1] 1035 seyde le 9/11/1771.

(٣٠) A.E.B[1]1035 seyde le 2/6/1772.

(٣١) لمزيد من المعلومات راجـع: مخايل الصباغ. تاريخ الشيـخ ظاهر العمر، ص ١٤٦ وما يليها، فولني. مصدر سابق، ج ١ ص ٨٥ وما يليها؛ إدوارد لكروي. مرجـع سابق، ص (١٣٢ ــ ١٣٣)؛ عبود الصباغ. الروض الزاهر في تاريـخ ظاهر، ص (٣٥ ــ ٣٦)؛ حنانيا المنيّر. مرجـع سابق، المشرق م ٥٠ ص ١٩٥؛ مخايل بريك. تاريـخ الشام. ص ١٠٤ AMNON. op.cit., p. 50; A.E.B[1] 1037 seyde le 2/9/1775 (joint la lettre de M. Martin) (Bulletin), 30/5/1775.

(٣٢) المتسلم. شغل منصب متسلم في الجهاز الإداري العثماني موظفان كان كلاهما بمثابة نائب للوالي، فقد أطلق هذا اللقب على حكام السناجق أو المقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة، وأيضاً على نائب الوالي العثماني في عاصمة الولاية، وكانوا يقدمون بجمـع الضرائب وإرسالها إلى الحكام الأصليين.

(٣٣) Olivier, (G.A.) voyage dans l'Empire ottomane..., v. 4, p. 98.

(٣٤) حسين سليمان. (بيروت ودمشق تحتلان مكانة صيدا وحلب الاقتصادية) مجلة **تاريـخ العرب والعالم** السنة الثالثة العدد ٣٥، أيلول (سبتمبر) ١٩٨١، ص (٤٨ ــ ٥٥).

(٣٥) لمزيد من المعلومات انظر: لكروي. مرجـع سابق، ص ١٩٠ وما يليها؛ حيدر الشهابـي. الغرر، مصدر سابق، ج ١ ص ١٤٣؛ حنانيا المنير. مصدر سابق، **المشرق** م ٥٠ ص ٤١٨ وما يليها؛ نوفل نعمة الله نوفل. كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام. ص ١٤٣؛ A.E.B[1]204, seyde correspendance entre Renaudot consul de France en Acre et Beaussier vice consul de France en seyde 1789.

(٣٦) إبراهيم العورة. تاريـخ ولاية سليمان باشا العادل، ص (٢٥ ــ ٣٣).

(٣٧) ISMAÏL, op.cit., t. 3, p. 105.

(٣٨) ARVIEUX. OP.CIT., T. 1, pp. (301-302).

(٣٩) عبد الكريم غرايبة، سورية في القرن التاسـع عشر، ص ١١٠.

(٤٠) ABDEL-NOUR. op.cit. p. 355.

(٤١) Ibid. p. 77.

(٤٢) لمزيد من المعلومات حول مظالم الولاة العثمانيين لرعاياهم انظر: أحمد البديري الحلاق. حوادث دمشق اليومية، ص ٥٥ وما يليها.

(٤٣) السيد عبد العزيز سالم. مرجـع سابق، ص ٢٢.

(٤٤) فولني. مصدر سابق، ج ٢ ص ٢٣.

(٤٥) ABDEL-NOUR. op.cit. pp. (351-352).

(٤٦) غسان سنو. مدينة صيدا (١٨١٨ ــ ١٨٦٠)، ص ١١٠.

(٤٧) ليلى الصباغ. مرجـع سابق، ص (٦٧ ــ ٦٨).

(٤٨) هاملتون جب وهـارولد بون. المجتمـع الإسـلامي والغرب، جـزءان، تر. ، أحمـد عبد الرحيم مصـطفى، ج ٢ ص (١٤٠ ــ ١٤١).

(٤٩) علي الحسني. تاريـخ سوريا الاقتصادي، ص (١٦٩ ــ ١٧٠).

(٥٠) المرجـع السابق، ج ٢ ص (١٢١ ــ ١٢٢).

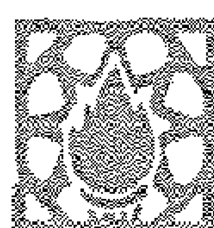
(٥١) ليلى صباغ. المجتمـع العربـي السوري في مطلـع العهد العثماني، ص (٧١ ــ ٧٢).

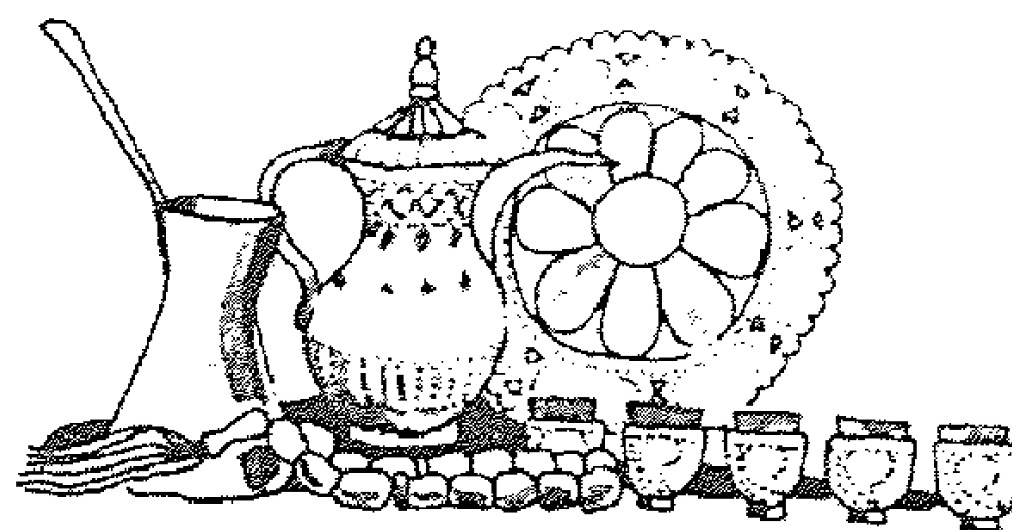
(٥٢) إلياس بن عبده بن قدسي. «نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية»، قدمها للمجمـع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليون، عام ١٨٨٣، ونشرت في: Landberg, Carlo. Actes du VI=[e] congrès des Orientalistes، انظر ص (١٠ ــ ١١).

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١.٢.

(٥٤) المصدر نفسه. ص (١٢ ــ ١٣).

(٥٥) عبد الكريم رافق. بحوث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في بلاد الشام في العصر الحديث، ص (١٦٤ ــ ١٦٥).
(٥٦) المصدر السابق، ص ١٣.
(٥٧) عبد الكريم رافق. مرجع سابق، ص ١٧٩.
(٥٨) إلياس قدسي. مصدر سابق، ص ١٥.
(٥٩) المصدر نفسه. ص (١٦ ــ ١٩).
(٦٠) المصدر نفسه. ص (٢٤ ــ ٢٥).
(٦١) المصدر نفسه. ص (٢٨ ــ ٢٩).
(٦٣) المصدر نفسه. ص ٢٩.
(٦٤) المصدر نفسه. ص (٣١ ــ ٣٣).
(٦٥) ليلى الصباغ. مرجع سابق، ص (٧٧ ــ ٧٨).
(٦٦) المرجع نفسه. ص (٧٨ ــ ٧٩).
(٦٧) عبد الكريم رافق. مرجع سابق، ص ١٨٠.
(٦٨) ليلى الصباغ. مرجع سابق، ص (٧٩ ــ ٨٠).
(٦٩) محمد سعيد القاسمي. قاموس الصناعات الشامية، جزءان في واحد.
(٧٠) ISMAIL, Adel. Documents diplomatiques et consulaires, relatif à l'histoire du Liban et du pays du proche Orient, v. 3 p. 105.
(٧١) قاسم عبده قاسم. دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك، ص ١١٧ ــ ١١٨.
(٧٢) op.cit., t. 3 p. 105.
(٧٣) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفارسي المعروف بابن الحاج. المدخل إلى الشرع الشريف، ج ٤ ص (١٧٦ ــ ١٨٥).
(٧٤) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص (١٢٤ ــ ١٢٥).
(٧٥) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢١.
(٧٦) مرجع سابق، ص ١٤١.
(٧٧) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٢٩٠ ــ ٢٩١).
(٧٨) محمد بن محمد بن أحمد القرشي، المعروف بـ (ابن الإخوة). المدخل إلى الشرع الشريف، ج ٤ ص ٩٠.





● هنا في هذه الدنيا إنما نحن جنود نحارب في أرض غريبة، ولا نفهم خطة القتال: وليس بنا من حاجة إلى فهمها ما دمنا نرى جيداً واجبنا القريب منا. فدعنا نقم به كجنود في خضوع وشجاعة وسرور ينم عن البطولة.

«كارليل»

● إعمل الواجب القريب منك.

«جيتي»

● إذا كنت تحب الحياة، فلا تضع الوقت سدى: لأن الوقت هو المادة المصنوعة منها الحياة.

«فرنكلين»

الغـزو الإستعماري الفرنسي للجزائر في وثيقة أمريكية معاصرة



د. منصور احمد بو خمسين

نقدم للقراء وثيقة أميركية عثر عليها الباحث، الدكتـور منصور أحمـد بو خمسين الأستاذ بدائرة التاريـخ في جامعة الكويت، في دار الوثائق الأميركية في واشنطن العاصمة، والوثيقة عبارة عن تقرير مطول كتبه قنصل الولايات المتحدة الأميركية في مدينة الجزائر «هنري لي» وهو مؤرخ معروف، إلى وزير الخارجية الأميركي «فان بيرن» بعد عشرة أيام من الاحتلال الفرنسي لتلك المدينة. ويهدف الباحث من خلال دراسة هذه الوثيقة وترجمتها إلى تقديم ما بها من معلومات إلى جانب إبراز ما يمكن أن تضيفه الوثائق غير الفرنسية من معلومات وتلقيه من ضوء على العديد من قضايا تاريـخ الجزائر الحديث، إذ يعطي التقرير وصفاً شبه محايد لحادثة الغزو ويضيف بعض المعلومات الجديدة حول تلك الحادثة ويفند بعض الادعاءات الفرنسية التي شاعت منذ أيام الغزو وحتى الآن.

● المصدر: حوليات كلية الآداب ــ جامعة الكويت ــ الحولية التاسعة ــ ١٤٠٨ ــ ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٧ ــ ١٩٨٨م، الغزو الفرنسي للجزائر في وثيقة أميركية معاصرة ــ د. منصور أحمد بو خمسين ــ قسم التاريـخ ــ جامعة الكويت.

* لقد نشرنا هذه الوثيقة الهامة كاملة، ولكننا اضطررنا، بسبب ضيق المساحة، لأن ننشر ملخصاً «للتحليل»، مراعين النقاط الرئيسية التي وردت فيه.



كان نزول القوات الفرنسية في سيدي فرج في ١٤ يونية ١٨٣٠، وماتبعه من احتلال لمدينة الجزائر في ٥ يولية ١٨٣٠، واحدة من أهم العلامات في تاريخ المواجهة بين أوروبا والعالم الإسلامي وإيذاناً بافتتاح حقبة جديدة من حقب تاريخ المغرب العربي بل والعالم العربي كله. كانت تلك الواقعة بداية لأهم وقائع الاستعمار الذي تعرض له العالم العربي في العصر الحديث. وتأتي تلك الأهمية من العنف والشدة والتوتر الذي رافق ذلك الاستعمار، والبعد الذي وصل إليه من إسكان وتوطين لأكثر من مليون أوروبي على أرض الجزائر، والمدة التي استمر فيها ذلك الاستعمار، والعنف والعذاب والتضحية التي كلفتها إزالته.

لقد كان احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر بداية عصر جديد، عصر الهيمنة الأوروبية، الذي بسط الغرب خلاله يده على مقادير الشرق لفترة امتدت لأكثر من قرن من الزمن. ولقد أدرك الفرنسيون منذ فترة مبكرة أهمية هذا الحدث. فلقد قام العديد ممن شاركوا فيه بكتابة مذكراتهم وانطباعاتهم عنه[١]، وتم حفظ وتنسيق العديد من الوثائق المتعلقة به[٢]، وكل ذلك يسّر للمؤرخين الفرنسيين عملية البحث والتوثيق فأشبعوا واقعة احتلال مدينة الجزائر بالدراسة والتدقيق[٣].

أما من الجانب الجزائري فلم يصلنا من الوثائق المعاصرة أو شهادات شهود العيان إلا أقل القليل. فمن الوثائق العثمانية لم يتيسر للباحثين إلا ما استخدمه أرجمنت كوران في كتابه عن السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر[٤]. ولم يصلنا من شهادات أو ملاحظات المدافعين عن الجزائر إلا ثلاث، الأولى لموظف عثماني كان موجوداً في الجزائر خلال الاحتلال هو أحمد أفندي[٥]، والثانية لعثمان بن حمدان خوجة أحد كبار موظفي أيالة الجزائر في كتابه المرآة[٦]، والثالثة للحاج أحمد باي حاكم ولاية قسنطينة، التي ضمنها في مذاكراته التي كتبها على لسانه بعد أسره أحد ضباط الاحتلال الفرنسي[٧].

كل ذلك جعل الصورة التي تم رسمها لعملية الغزو صورة ناقصة مشوهة. إذ في غياب الوثائق ووجهة النظر الجزائرية ساد التوثيق والتفسير الفرنسيين لكل جوانب تلك الواقعة.

تحليل الوثيقة:

لعل أول ما يلفت الانتباه في الوثيقة هو تذبذب عواطف كاتبها واضطرابه الذي لا يخفيه الأسلوب الأدبي المفتعل والمشحون بالجمل الطويلة المعقدة والكلمات الغريبة والأساليب البلاغية. فالرجل قد شهد لتوه وشارك في حدث تاريخي يدرك أهميته القصوى ويلمس تعدد دلالاته، وتبعث كل واحدة من هذه الدلالات في نفسه انفعالاً مختلفاً. فإحساسه بأن الجزائر قد وقعت ضحية لعدوان فرنسا، جعله يتعاطف مع الجزائر وأهلها الذين استبسلوا في الدفاع عنها، ولكن ذلك العدوان ما هو إلا بداية للهيمنة الأوروبية على الشرق الذي أخذت قواته تتراجع أمام الزحف الأوروبي الغربي، وهذا ما أثلج صدر صاحبنا وبعث في نفسه شعوراً بالفخر والاعتزاز لم يملك إلا أن يعبر عنه بحماس شبه ديني. وليس هنالك من شك في أن تذبذب الكاتب، ما هو إلا انعكاس لتذبذب موقف الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها. فهذه الدولة كانت قد نالت منذ فترة قصيرة استقلالها من براثن الاستعمار البريطاني، ولكنها ما كادت تقف على عودها حتى بدأت بالتحول إلى دولة توسعية استعمارية.

أولاً: حجم قوة الدفاع الجزائرية:

يؤكد الكاتب في هذه الوثيقة على أن الجيش الجزائري المدافع، كان في كافة المعارك التي خاضها ضد الفرنسيين، أقل عدداً من الجيش الفرنسي المقابل له. وهي معلومة مخالفة تماماً لما هو سائد في المصادر والمراجع الفرنسية. فلقد درجت كافة هذه المصادر على إيراد الإحصاء الرسمي للقوات الفرنسية وهو ٣٧,٦٠٠ مقاتل[٨] وتقدير القوات الجزائرية بخمسين ألف مقاتل[٩] وبذلك تكون القوة الجزائرية متفوقة على القوات الفرنسية بأكثر من عشرة آلاف مقاتل.

ثانياً: عدم فعالية البحرية الفرنسية:

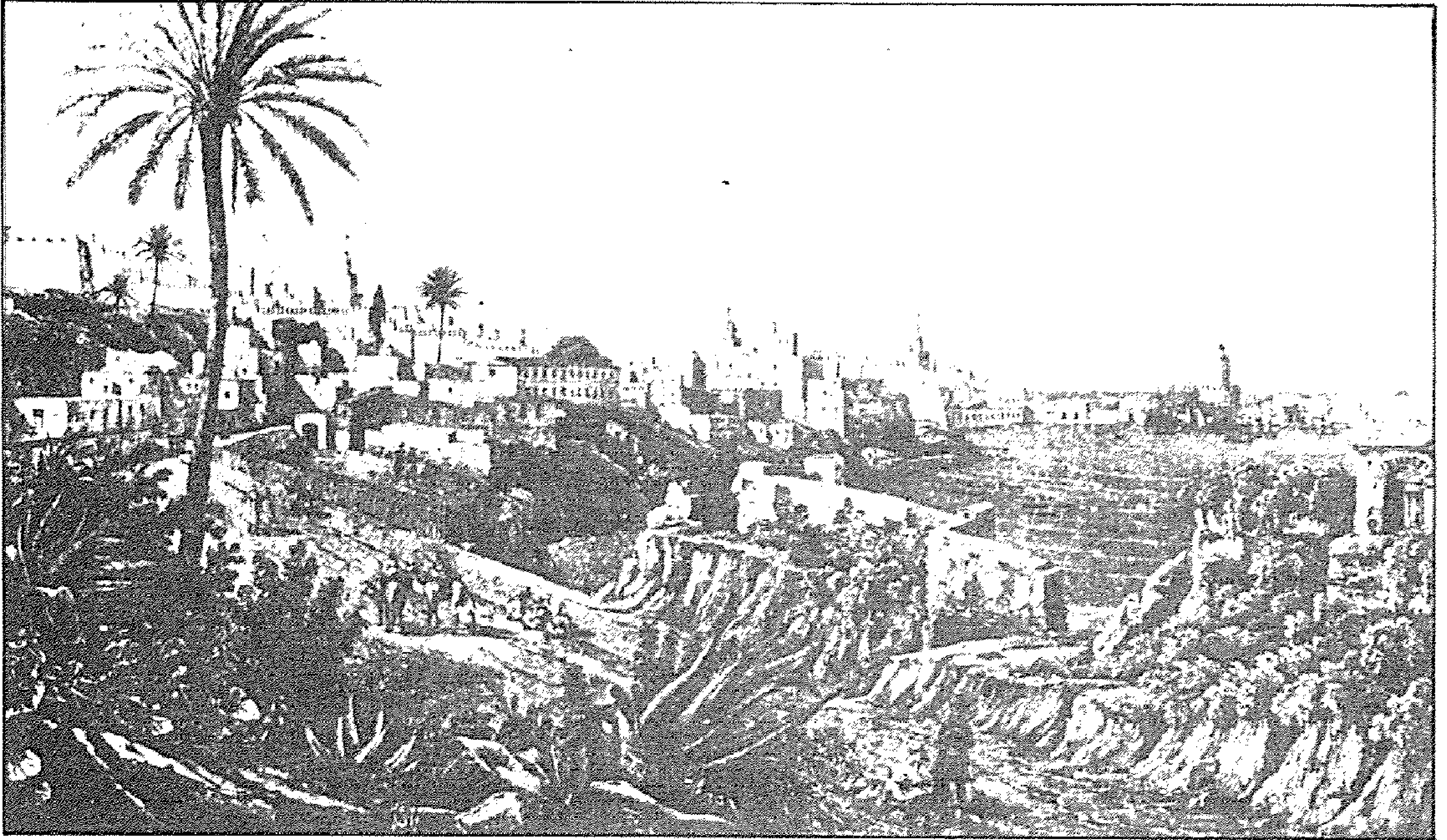
لقد أشار بعض المؤرخين للغزو الفرنسي في كتاباتهم إلى هذه النقطة بصورة عابرة، ولكن «لي» يعطينا في وثيقته صورة حية لهذا الجانب المهم من جوانب الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر. فهو يصف وصفاً دقيقاً الهجومين اللذين قامت بهما تلك البحرية، والسفن التي اشتركت فيهما والتي كانت تضم سفينتين بخاريتين، ورغم قيام تلك السفن بقصف مركز وكثيف للتحصينات الجزائرية، إلا أن فعالية ذلك القصف كانت معدومة، وهنا لا بد من القول إن تعليل الكاتب لذلك الفشل كان غير موفق. فهو يعزو ذلك الفشل لعدم مهارة الفرنسيين عموماً في الفنون البحرية، وتخاذل الأسطول الفرنسي وعدم رغبته أو استطاعته الاقتراب من الشاطىء، بينما السبب في رأيي هو حصانة الدفاعات الجزائرية وتسليحها الجيد. إذ يجب ألا يغيب عن الأذهان أن تلك التحصينات وتسليحها كان قد تم تجديدهما بعد حملة اللورد اكسموث على مدينة الجزائر في أغسطس ١٨١٦[١٠]. ويبدو أن ذلك التجديد قد قام بالفعل بتحويل المدينة إلى حصن يصعب اختراقه من جهة البحر. وقد يكون من سخرية القدر أن يكمن في هذا النجاح سر سقوط الجزائر في يد الفرنسيين. إذ قامت الخطة الفرنسية على مهاجمة الجزائر من الخلف ولو كان موقع سيدي فرج أو قلعة برج مولاي الحسن بحصانة الواجهة البحرية نفسها لكان مصير الهجوم الفرنسي على الجزائر المصير الفاشل نفسه للهجمات الأوروبية السابقة. ولكن يبدو أن اطمئنان حكام الجزائر لحصانة المدينة وركونهم لذلك جعلهم يفقدون الحذر ويتكاسلون عن بذل الجهد المناسب للرد على التهديد الفرنسي الذي كانوا على علم كامل به وبتفاصيله. فهم لم يقوموا باستدعاء القوات النظامية من وهران وقسنطينة، أو زيادة عدد القوات النظامية الموجودة في الجزائر، إذ يخبرنا الكاتب أن الداي قد اعتمد على عرب وبربر الجزائر غير النظاميين، كما لم ينفق ما يلزم من خزائنه المليئة بالذهب، تلك الخزائن التي وقعت فريسة في يد الفرنسيين، على وسائل الدفاع وتجنيد الجيوش. وتتفق هذه الرواية التي يوردها هنري لي مع تلك التي أوردها كل من حمدان بن عثمان خوجة والحاج أحمد باي[١١].

ثالثاً: انتقال الجزائر من الحكم العثماني إلى الحكم الفرنسي:

إن ما يثير الدهشة حقاً في هذه الوثيقة هو إدراك كاتبها لخطورة ما أقدم عليه الفرنسيون وغفلة الأخيرين بهذا الخصوص إذ بينما اعتبر الفرنسيون استيلاءهم على مدينة الجزائر وكأنه احتلال لكافة أنحاء الإيالة[١٢]، نجد لي يصرح بأن سلطة الفرنسيين لن تتجاوز مدى بنادقهم وفي هذا التصريح دليل واضح لدى إدراك لي لطبيعة الحكم في الجزائر ومعرفته، بأحوالها السياسية في ذلك الوقت. فهو يدرك أن سلطة حكومة الداي لم تكن نابعة من التسلط الفعلي أو القسري لتلك الحكومة على المجموعات الجزائرية المختلفة، بل كانت تلك السلطة مستمدة من قناعة دينية لدى الجزائريين واعتراف منهم بشرعية الحكومة العثمانية. وهو ما أسماه بسلطان الفتح القديم[١٣] وذلك على عكس الفرنسيين الذين نظروا إلى السلطة العثمانية كسلطة استعمارية لن يجدوا صعوبة في استبدالها والحلول محلها. وهو لذلك يتنبأ بأن احتلال بقية الجزائر ستكون مسألة مختلفة تماماً عن احتلال المدينة ولقد أثبتت الأيام صحة وجهة نظره.

رابعاً: ممارسات القوات الفرنسية:

تعطي الوثيقة إحساساً عارماً بالفوضى والاضطراب اللذين رافقا وصول القوات الفرنسية إلى ضواحي مدينة الجزائر. فإلى جانب نهب البيوت والممتلكات التي بقيت سليمة وآمنة طوال فترة سيطرة الجزائريين رغم خلوها من السكان، نجد الكاتب يقرر أن وحشية الفرنسيين تجاوزت وحشية البرابرة. فهم يمارسون دون اعتراض من رؤسائهم أعمال السلب والنهب وإتلاف الممتلكات وإزهاق الأرواح في كافة البيوت العائدة للعرب واليهود وهي حقيقة أغفل ذكرها معظم مؤرخي الحملة من الفرنسيين[١٤] رغم تأكيدها من قبل ضحايا الغزو الفرنسي سواء في



□ مدينة الجزائر ومرساها في القرن الثامن عشر.

الجزائر أو خارجها، والسبب في ذلك عائد لكون الجيوش الفرنسية، ومنذ الحروب النابليونية، اتبعت لنفسها نهب المناطق التي يمرون بها كمصدر أساسي لتموين الأفراد والضباط[١٥].

وقد تحول هذا الأسلوب إلى تقليد متوارث ذي قواعد وطرق تعترف بها القيادة الفرنسية وتساعد على تنفيذها!.

خامساً: الفرنسيون والقناصل الأجانب:

لعل أغرب بل وأهم ما في الوثيقة هو ما تقوله عن تصرف الفرنسيين تجاه القناصل الأجانب وبيوتهم وممتلكاتهم، فقناصل أمريكا والدنمرك والسويد ونابلي يقررون حيادهم وحياد بلادهم في النزاع القائم بين الجزائر وفرنسا ويقوم هؤلاء بالتجمع في بيت محصن تحت حماية العلم الأميركي وقيادة القائم بأعمال القنصلية الأميركية، وتوافق الحكومة الجزائرية على ذلك وتحترم رغبة هؤلاء وتحافظ على المكان الذي اختاروه رغم كونه مركزاً استراتيجياً، ولكن ما أن يظهر الفرنسيون حتى يضعوا أيديهم على ذلك البيت المحمي، ولا تنجح مغالطات كاتب المذكرة في إخفاء حقيقة أن الفرنسيين قد استولوا بالفعل على البيت، احتلوه بجنودهم واستخدموه كنقطة مراقبة لهم، وسخروا أهله لخدمتهم وإطعامهم والترفيه عنهم، دون أن يأبهوا بأي احتجاج. بل وبينما كان هؤلاء القناصل وزوجاتهم يقدمون للضباط الخراف والمرطبات ويسهرون على راحتهم قام جنود هؤلاء الضباط باقتحام بيوت القناصل ونهبها وقتل بعض من كانوا فيها.

إن ما يبعث على الدهشة في كل هذا، هو أن فرنسا كانت قد شنت حملتها على الجزائر وقامت باحتلالها بحجة أن داي الجزائر، قد أهان قنصلها لديه، عندما قام بضربه بمنشة ذباب أو مروحة كان يحملها الداي[١٦]. وكان رد فرنسا على تلك الإهانة التي لحقت بقنصلها هو حملة عسكرية لم تنته إلا باحتلال الجزائر والواقع أن هذا التعليل لاحتلال الجزائر، يتجاوز الأجهزة الفرنسية الرسمية إلى العديد من الكتابات التاريخية الفرنسية بل والعربية، رغم اعتراض العديد من الأفراد على معقولية هذا التعليل بل وسخافته. والوثيقة التي بين أيدينا دليل جديد على صحة رأي المعترضين.

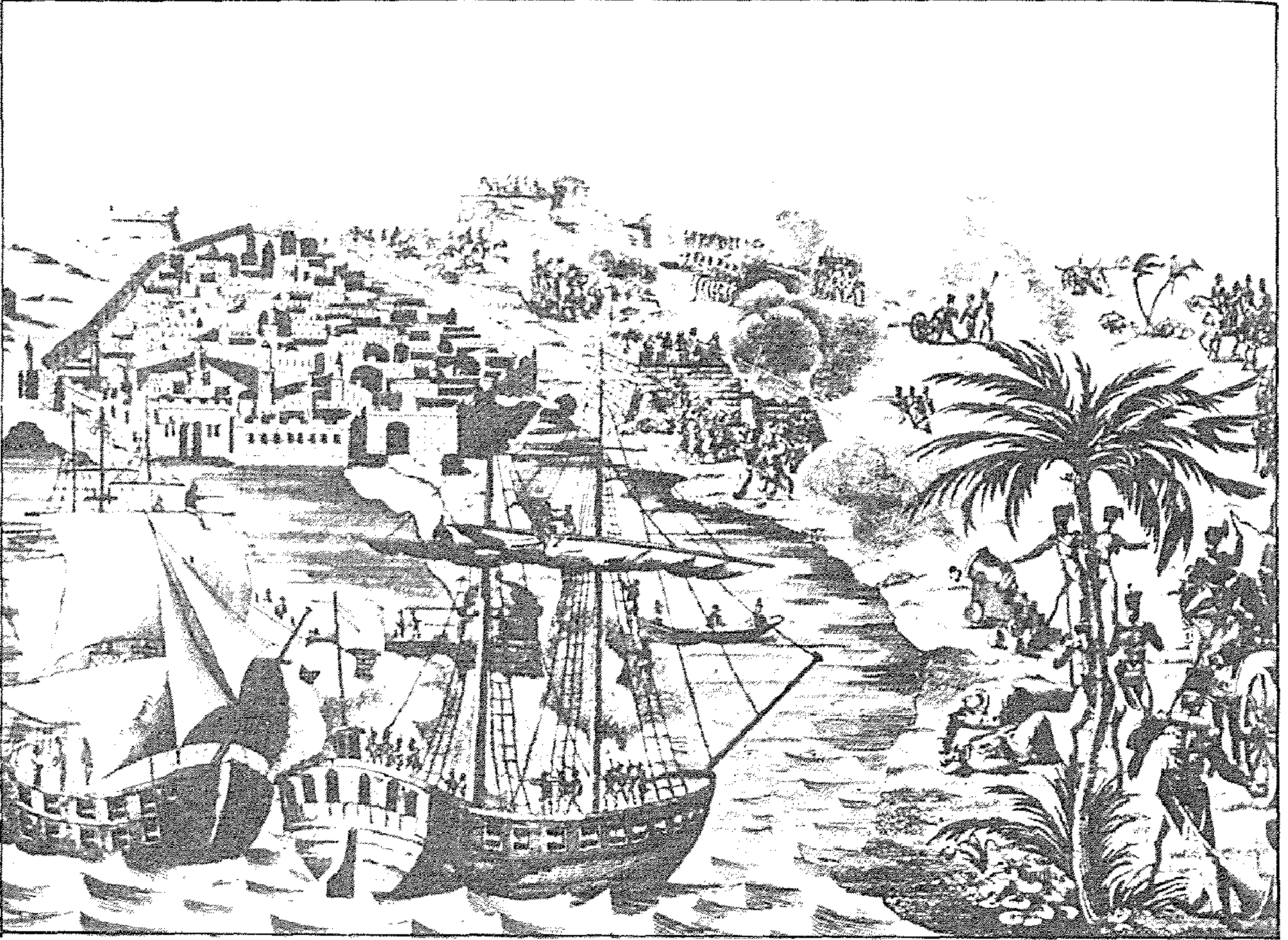
الجزائر في ١٥ يوليو ١٨٣٠

سيدي،

منذ بضعة أيام، انتهزت فرصة [سفر] غير متوقعة عن طريق جبل طارق، لأعلمك إشاعة محتملة الصحة في محتواها وظروفها، قد وصلت إلى هنا من ماهون(١٧)، مفادها أنه سيتم استبدالي عن قريب بالمواطن المحترم الكوماندربورتر. إنني لا أملك أمام هذه العدالة الصارمة إلا أن أنحني بخضوع وتواضع، يحدوني الأمل بأن سلوكي هنا لم يستحق هذه الدرجة من السخط، واعتقادي، مهما كنت قليل الأهمية في نظر سلطان بلادي وغير مستحق لتقديرها، بأن ليس هنالك من يفوقني في حبي البار لبلادي وتقديسي لتربتها، لأخلاقها، لحريتها ولقوانينها. إنني أقدم هذا الحب الجياش المتقد كضمانة على أنني، عندما تدعوني الظروف التي يرزح تحتها هذا البلد للعمل، سوف أبذل في خدمة وطني، في وضعي الحالي بعد تنحيتي من منصبي، الجهد الصادق نفسه الذي كنت أبذله قبل معرفتي بخبر تلك التنحية. ولكن يبدو أن خلع الداي(١٨) وترحيله [إلى] بلد(١٩) بعيد سوف يعطل إن لم [يلغ] تماماً(٢٠) الواجبات الأساسية التي كان منصبي مسؤولاً عنها.

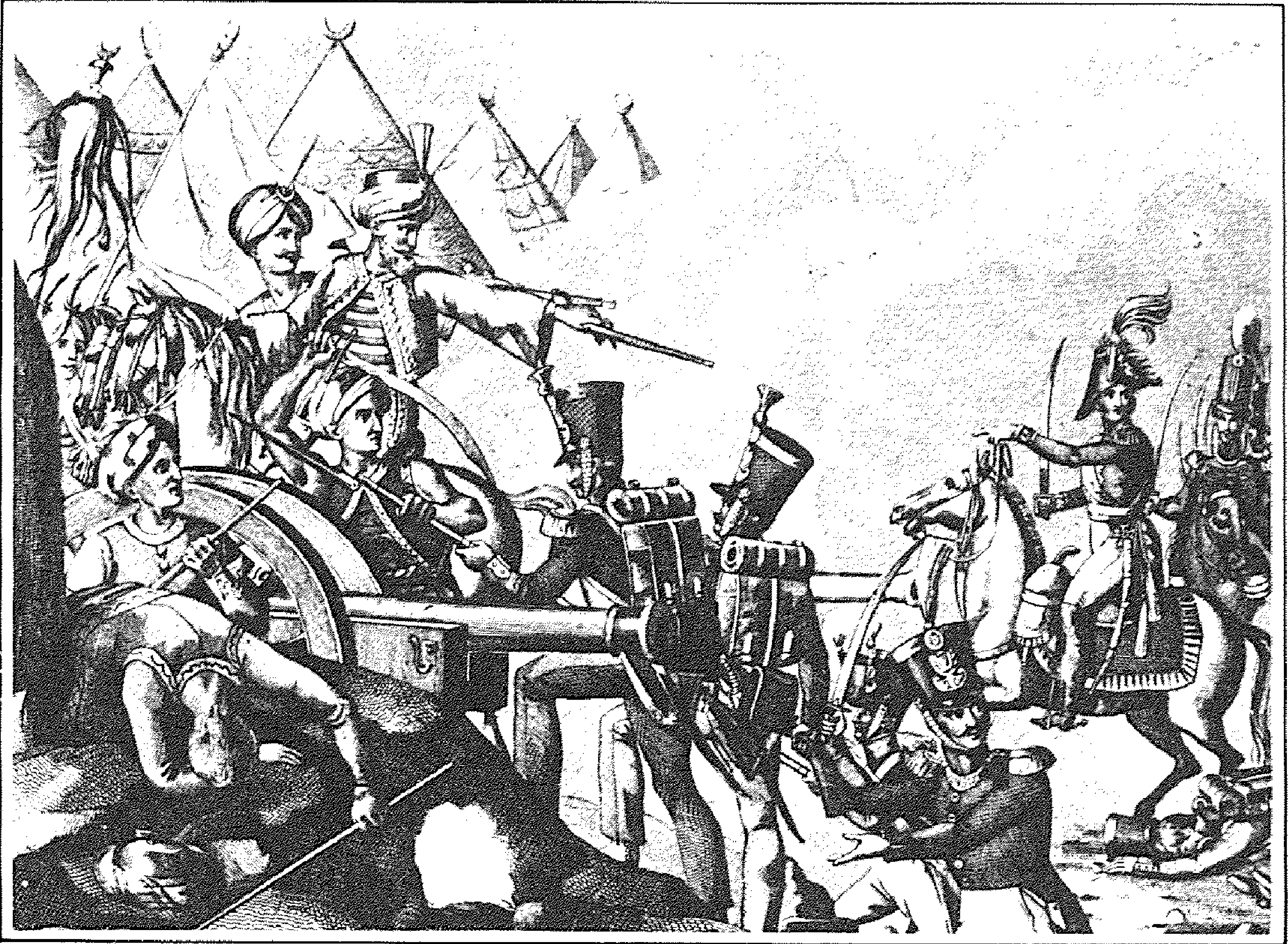
في يوم ٥ الماضي(٢١) كان لي شرف إبلاغكم بخبر سقوط هذه المدينة واحتلالها من قبل الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال بورمونت(٢٢)، وذلك بعد سلسلة من العمليات المتنوعة والناجحة والتي كانت قد بدأت بنزول ذلك الجيش في منطقة «سيدي فرج» في يوم ١٤ يونيه، وانتهت لتوها. ولو كان من ضمن واجباتي أن أصف تلك الحملة بسمة معينة لأشرت إلى أن القائد الفرنسي، على الرغم من أنه لم يضرب مثالاً لذلك المزيج من الإقدام والسرعة والابتكار الذي اعتاد على رؤيته الدارسون والممارسون لأساليب الحرب الفرنسية في الفترة الأخيرة، إلا أن قراراته، كانت على قدر كبير من الجرأة والنشاط المشوب بالحذر الذي لا يترك شيئاً لتقلبات الحظ. فكما أنه في كل مرة شن فيها الهجوم دفع بأعدائه إلى الخلف، فإنه في كل مرة توقف فيها زحفه قام بتحصين مواقعه، كما أنه لم يقم أبداً بإطالة خط عملياته من دون أن يوفر لقاعدته المزيد من الأمان. يمتد الطريق من سيدي فرج إلى مدينة الجزائر مسافة تبلغ حوالي ١٢ ميلاً، يسير خلالها بحذاء قاعدة النتوء الجبلي المنتهي عند رأس كسكين، الذي يقع إلى الغرب من المدينة بخمسة أميال، وإلى الشرق من سيدي فرج بتسعة أميال. ورغم كون هذا الطريق كثير التلال في معظم أجزائه وتغطيه الشجيرات الشوكية، وتتناثر فوقه مجاميع من أشجار الصبار والصمغ — إلا أنه لا تعوقه الغابات أو الأنهار أو الجبال مما يسمح للخيالة والمدفعية بالسير عليه بدون صعوبة كبيرة، كما أنه من الممكن الإشراف عليه كله من مكان عال. ولكن على الرغم من أن الجنرال بورمونت لم يواجه إلا مقاومة غير نظامية ولا ثابتة من العرب والبربر، إلا أنه استغرق خمسة عشر يوماً للوصول إلى مرمى مدفع من القلعة التي تكوّن نقطة الدفاع الرئيسي عن مدينة الجزائر من جهة البر — وطوال تلك الفترة لم يجابهه أبداً عدداً يفوق عدد جنوده، بل كان عدد من يواجههم غالباً أدنى من عدده. يقال أن عدد جنوده البرية يبلغ ٤٥ ألف رجل إلى جانب مساندة الأسطول الذي يحمل ١٥ ألف بحار. و [لا](٢٣) اعتقد أن عدد القوات الفوضوية التي واجهته قد وصل في أي وقت من الأوقات إلى ٥٠ ألف رجل. في يوم ١٩ [يونيه ١٨٣٠] تقدم من [سيدي](٢٤) فرج في الصباح الباكر وباغت معسكر [الآغا](٢٥) في أسطى والى، على مسافة حوالي ثلاثة أميال على طريق الجزائر وقامت قواته بالقضاء على الكثيرين من الأتراك بالسلاح [الأبيض](٢٦) واجبرت الآخرين على الفرار، كما غنمت كميات من الحاجيات الثمينة والمهمات العسكرية. وفي يوم ٢٤ [يونيه ١٨٣٠] قام العدو بتجميع قواته أمام جبهته وعلى جناحيه(٢٧)، فتقدم [بورمونت] إلى الأمام مرة أخرى في حوالى الساعة الثامنة في تشكيل من ثمانية طوابير دافعاً إلى الخلف بقوات الآغا الضارية ولكن غير المنتظمة ثم قام بالاستيلاء على المعسكر الثاني لذلك القائد [الجزائري]، واحتلال سلسلة المرتفعات التي أمامه على مسافة أربعة أميال من البلد. وفي تلك المرة كما في المرات السابقة التي هجم فيها الجيش الفرنسي، فر العرب والبربر من أمامه، تاركين مدينة الجزائر وراءهم، واتجهوا إلى الشرق منها على امتداد الساحل. بعد ذلك الهجوم احتفظ [بورمونت] بهذا الموقع الجديد، وقام بتحصينه وتقوية خطوط اتصالاته مع الأسطول، كما قام أيضاً بجلب الذخائر وقطع المدفعية، واستمر على ذلك العمل حتى صباح يوم ٢٩ [يونيه ١٨٣٠]، مكتفياً بصد مناوشات [الجزائريين] والرد على قصف الآغا المدفعي. ولقد كانت المناوشات والقصف في غاية الشدة والدموية. وفي فجر ذلك اليوم وبعد أن جرح أكبر أولاده الأربعة الذين كانوا يرافقونه جرحاً قاتلاً، قام بشن هجوم نجح بعده بهزيمة أعدائه هزيمة ساحقة، وللمرة الثالثة قام هؤلاء الأعداء بالفرار بعيداً عن المدينة تاركين الدفاع عنها لتحصيناتها فقط. وعلى الرغم من أني لم أستطع مقاومة التعاطف مع الجانب المتعرض للغزو في هذه الحرب، ولم أقدر إلا أن أشفق على المقاومة الباسلة ولكن غير الفعالة التي قاوم بها هؤلاء بشجاعة وبراعة جنرالات الجيش الفرنسي وقائده، إلا أني لا أذكر أبداً أنني شعرت في حياتي بمثل ذلك الفخر والزهو بالانتصار الذي غمرني عندما وقع بصري للمرة الأولى من شرفة موقعنا، على الفرق المسيحية المنتصرة وهي تدفع أمامها حشود البرابرة، وتتوج بوجودها المرتفعات المطلة على الجزائر -بينما راياتها المألوفة تخفق بكبرياء أمام الريح وأسلحتهم المنتصرة تلمع تحت شمس الصباح — كما كنت قد تشرفت بإخباركم في رسالتي المؤرختين

في ١٢ إبريل و٩ مايو، إن قناصل إسبانيا ونابلي والدنمارك والسويد مع من تبقى من عائلاتهم في هذا البلد خلال هذه الحرب، وكافة المسيحيين مع عدد من اليهود التابعين لهم، قد قاموا بالتجمع في منزل كبير ومحصن، كما نظموا أنفسهم على شكل حامية تحتمي بالعلم الأميركي، وصوتوا بالإجماع على وضع أنفسهم تحت إمرتي. ومنذ اللحظة التي قام بها خطر الغزو المنتظر باجتلاب جماعات العرب والبربر من السهول والجبال القريبة من الجزائر تلك الجماعات التي أسرف الداي والانكشارية بالاعتماد على عددها المبالغ فيه وشجاعتها المتعصبة، تعرضت بيوت القناصل الأربعة المذكورين إلى تعديات وحوادث نهب، استحال معها السكن فيها كما أن منزلي رغم موقعه الذي جعله أقل تعرضاً للتعدي، لم يسلم بأي حال من الأحوال. لذا اضطررنا في يوم ٢٦ مايو لأن نترك منازلنا العديدة، وأن نتجه إلى القلعة التي كان الداي قد وافق على اختيارنا لها وتحضيرنا لها لكي تحمينا وتابعينا في منطقة محايدة تؤوينا حتى تمر عاصفة الحرب، ويهدأ النزاع من حولنا. وتجد طي هذه الرسالة مجموعة أوراق تحوي نسخاً من دستورنا، وأول أمر أصدرته لتنظيم الحامية، ستشرح لك طبيعة رابطتنا، وتجعلكم تقدرون الخطر الداهم الذي تشكلت حاميتنا في ظله. ولكن يسرني أن أقول أن نتيجة عملنا هذا كانت حسنة للغاية. إذ بينما نهبت بقسوة كافة البيوت التي حولنا العائدة للعرب واليهود، وأزهقت الكثير من أرواح هؤلاء حافظنا نحن على سلامتنا التامة، ومع استثناءات بسيطة كنا دائماً في اطمئنان تام. ففي كل مرة دفع فيها تقدم الفرنسيين بالقوات التركية إلى جوار مكاننا، كنا نخشى أن تتحول مجموعتنا المسيحية الصغيرة إلى هدف مغر لانتقامهم وعدوانهم، وفي كل مرة تعود تلك القوات لمواجهة الفرنسيين، بدا من المحتمل أن تدفعهم ثقتهم بأنفسهم وجشعهم إلى محاولة الهجوم علينا، ولكن دفاعاتنا الجديرة بالاحترام وموقعنا الملائم، لم يقم فقط بحمايتنا من عنفهم، بل لقد سرنا أن نعلم بأننا قد تسببنا في حماية الكثير من الأسر التي كانت في جوارنا حتى قيام الفرنسيين باحتلال المنطقة. لقد حدث ذلك كما ذكرت سابقاً يوم ٢٩ [يونيه ١٨٣٠] وذلك عندما قام القائد الفرنسي بإرسال ثلة تحمل تأكيدات الاحترام والمساعدة، ولكن تقترح احتلال موقعنا لاحتياجهم له كنقطة مساندة لجناحه الأيسر. ورغم قبولي بامتنان لعروضه بالمساعدة والحماية، إلا أنني شعرت أن من واجبي أن أرفض التنازل عن مكاننا له، وأن أحافظ على الموقف الحيادي الذي تلتزم به الولايات المتحدة والدول والقناصل الذين كانوا تحت علمي، تجاه فرنسا والجزائر، والموقف الودي تجاه الجزائر الذي تضفيه علينا أوراق الاعتماد الخاصة بكل منا. ولقد ذهبت إلى حد أن أطلب بألا يقوم باحتلال حتى المنطقة المحيطة بنا بقواته، وخصوصاً ألا يضع في تلك المنطقة بطارية مدفعية، كما كان قد لمح لذلك أحد ضباطه، حيث أن مثل ذلك العمل لا بد أن يتسبب في إطلاق النار علينا من مدفعية الداي الموجودة في الحصون وبذلك يضع عائلاتنا التي تضم السيدات والأطفال في خطر عظيم. ولقد دعمت طلبي بالإشارة إلى أن موقفنا المحايد قد حافظ عليه البرابرة بكل دقة، وبأني أرجو ألا تدعونا إجراءات الجنرال الفرنسي لأن نأسف على اقتراب جيش مسيحي منا. ويمكن القول أن ندائي ذلك أو فحص القائد الفرنسي الدقيق للموقع، قد حدا به لأن يصرف النظر عن إقامة بطارية المدفعية بالقرب منا، ولكن بدا من الضرورات العسكرية أن يقوم باحتلال المرتفع الذي تقع عليه حاميتنا. ولقد قام بذلك العمل الجنرال أشارد مع الفرقة التي كان يقودها، وعلى الرغم من أنني قد أبديت احتجاجي الشديد على ذلك العمل، إلا أنني لا أشك بأن تلك العملية قد أملتها أحكام الضرورة الحربية، وأشهد أنها قد تمت باعتدال وحذر. فلقد خصص الجنرال حامية من ٤٠ رجلاً لتتولى حمايتنا وعندما سمع بأن والدي ووالد البارون الملازم ليمان كانا يعرفان بعضهما بعضاً، خلال حرب الاستقلال الأميركية، أمر ذلك الضابط بأن يتولى تلك الحامية. وعندما تمت تلك الاستعدادات وشرع الكثير من الضباط الفرنسيين من مختلف الرتب يترددون [على مكاننا] لكي يلاحظوا المكان ويمتعوا أنظارهم برؤية الأسطول والجيش والقلاع والمدينة من شرفتنا [المطلة على كل ذلك] جر علينا ذلك ما كنا نخشاه، ألا وهو انصباب قذائف القلاع التركية علينا، ولقد كادت واحدة من أولى تلك القذائف أن تقتل الجنرال أشارد نفسه. ولما لم يكن باستطاعتنا إزالة تلك القوة الفرنسية، أو رفض القيام بواجبات الضيافة تجاه ضباطها، بقيت مائدتنا وشرفتنا في ازدحام دائم، فالأولى كانت المائدة المسيحية الوحيدة داخل خطوطهم، والتالية كانت أكثر المناطق إشرافاً في المنطقة المحيطة بالجزائر. ولذا كانت النتيجة زيادة عظيمة في مصاريف مؤسستنا، وتوجه العديد من القذائف وطلقات الرصاص ضدنا. أما المصاريف فنحن على ثقة من أن حكومتنا ستعوضنا عنها، وأما القذائف فلقد أنقذنا منها موقع القلعة الفريد بالنسبة للأرض المحيطة بها والمدافع المهاجمة، والذي جعل من المستحيل على أي قذيفة أن ترتفع الارتفاع الكافي لتصيب الموقع من دون أن تعبر من فوقه. ولكن على أية حال وَضَعنا تَعَرُضنا [للقصف] في موقف غير سار وكانت السيدات في موقف مؤلم من يوم ٢٩ يونيه وحتى ٥ يوليو. إن من المؤسف أن ألاحظ هنا أن القوات الفرنسية قد أجرمت بارتكاب العديد من الفظائع التي قد تلائم المتوحشين، ولكن البرابرة الذين قاوموا الفرنسيين لم يصدر منهم أبداً مثل ما صدر من هؤلاء. ففي صباح ٢٩ [يونيه] وبينما كان الضباط الفرنسيون يتناولون المرطبات التي أعددناها لهم، قامت مجموعة من جنود هؤلاء الضباط باقتحام منزل قنصل نابولي والذي كان يرفرف عليه علم تلك الدولة، وقتلوا البستاني الذي يعمل عند القنصل وكان أوروبياً، وكاتب القنصل وكان يهودياً وابنة ذلك الكاتب، ولقد حاول الجنود الفرنسيون تبرير ذلك الهجوم الوحشي بالادعاء كذباً بأن البستاني واليهودي قاما بإشهار المسدسات عليهم. ولا يستطيع ضحايا هذه القسوة الآن تكذيب ادعاء هؤلاء الجنود. ولقد كان من الأرجح تبرير مثل هذه



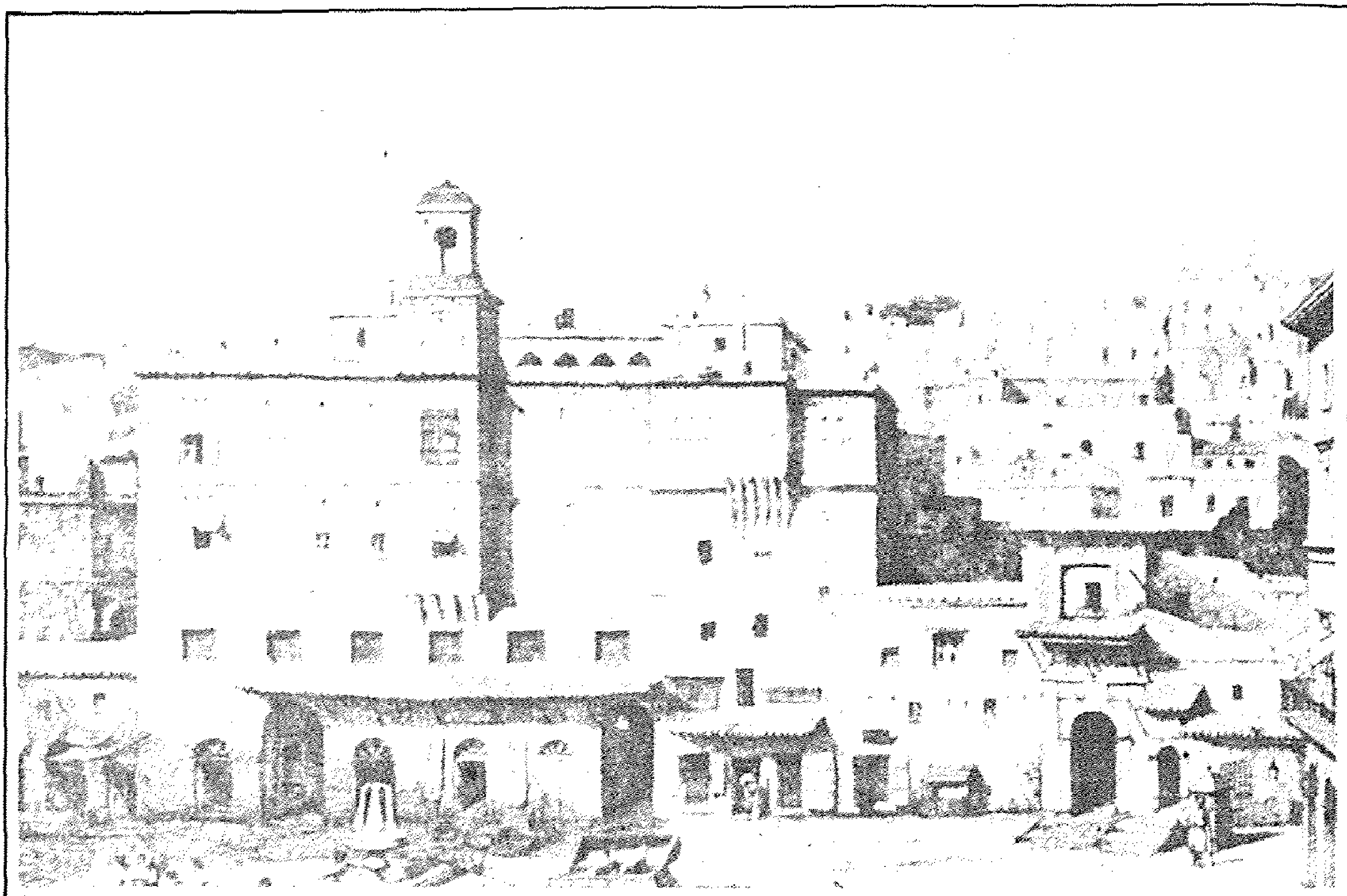
□ المدفعية الفرنسية تقصف مدينة الجزائر في ٥ تموز ١٨٣٠ قبل احتلالها...

الأعمال بدعوى أن هذه الجرائم ارتكبت في فورة من فورات الدم وهيجان الفتح، بعيد قيام الفرنسيين بإزاحة العرب من آخر موقع لهم على أرض المعركة. ولقد كان من الممكن أن أصدق ذلك التبرير، لولا أن هؤلاء الجنود قاموا فيما بعد، وعن عمد مبيت، باقتحام منزلي السفيرين السويدي والدنماركي والسطو عليهما، حيث دمروا الكثير من المقتنيات الثمينة، وفي النهاية قاموا بالسطو على منزلي أنا أيضاً حيث لم يجدوا الكثير لكي ينهبوه. ومما استطعت أن أعرفه عنهم أقول إن ميولهم للنهب والسلب تفوق بكثير ميول البرابرة، ولم يحاول أحد الحد من تلك الميول ولا بحالة واحدة من المعاقبة لقد تم ارتكاب تلك الجرائم في الفترة ٢٩ [يونيه]، و٥ يوليو، وهي فترة استغلها قائد هؤلاء الجنود في فتح الخنادق وتركيب بطاريات المدفعية قبالة حصن مولاي الحسن[٢٨]، وهي قلعة مغرقة في القدم، وبالغة القوة، تشرف من علٍ على المدينة، وتكون دفاعها الرئيسي من جهة البر ومن هذه القلعة ومن قلاع أخرى صغيرة ومن أسوار القصر، قام الأتراك بقصف متواصل بالقذائف والقنابل على الرجال الذين في الخنادق، وعلى أي مجموعة من الفرنسيين تظهر للعيان في مدى نيرانهم. ولقد تعرضت حاميتنا التي كانت محل احترامهم في البداية، لضربات متواصلة من نيرانهم كما أشرت إلى ذلك فيما مضى ـ ولقد وجدنا أنفسنا غير قادرين على البقاء في مكاننا أو مبارحته بسلام. إذ طالما كان الفرنسيون يحيطون بنا، فإن بطاريات الأتراك ستواصل ضربنا ـ أما لو أننا انسحبنا من منطقة جوار وحماية الفرنسيين الذين اعتبرنا الجزائريون حلفاءهم، فإن من المؤكد أن غضب العرب سينصب علينا، وإن صرنا في بيت غير محصن فلن نستطيع دفعهم عنا. لذا، قررنا البقاء بنسائنا وأطفالنا. ولحسن الحظ استطاعت مجموعتنا التي يقارب عددها المائتي شخص النجاة دون أن نخسر فرداً واحداً خلال تلك الفترة، وبسبب فقدان الاتصال بين خدمات البحرية واحتياجات الجيش بقي الضباط والجنود الموجودون حولنا بدون تموين، لذا قام هؤلاء باستهلاك جانب كبير من مخزوننا الغذائي. وأذكر في إحدى المرات أننا اضطررنا أن نعطي الجنود ١١ رأساً من الغنم. ولقد قمنا بذلك، كما قمنا بضيافة الضباط عن طيب خاطر، وبسرور شعرت به بقوة خاصة لأنني وجدت ضمن هؤلاء الضباط، الكثير من الأسماء البارزة في ثورتنا[٢٩] ـ [مثل] دوق موبيه دي لوزيم، الكونت جرانمونت، البارون سانت سيمانز وكانسيرز الشاب، الذين يبدو انهم ورثوا صداقة آبائهم للولايات المتحدة. إن من الممكن عزو طول المدة التي انقضت بين بداية العمل في التحصينات الفرنسية والانتهاء منها إلى فقدان فعالية الارتباط والتنسيق بين البحرية والجيش ـ إذ لم يتم إحضار المدافع اللازمة لإنشاء تلك التحصينات من



□ معركة «أسطوالي» في ١٩ تموز ١٨٣٠ بين الجيشين العربي والفرنسي الغازي.

سيدي فرج، على بعد عشرة أميال، إلى الموقع [المطلوب] إلا مساء يوم ٣ [يوليو ١٨٨٣] ـ ولقد تم تأمين التحصينات الفرنسية ضد المناوشة بسلسلة من المتاريس. لقد كانت معاونة البحرية في القتال في غاية الضعف والسخافة. ففي أول يوم من أيام يوليه، قام تشكيل بحري مكون من طابورين من سفن القتال و١٥ فرقاطة وعدد من السفن الصغيرة يقودها اللواء البحري دوبيير والعميد البحري رازاميل، بالإبحار بالقرب من الشاطىء في نسيم خفيف من رأس كسكين إلى مدينة الجزائر بمواجهة سلسلة القلاع الصغيرة التي تحمي ذلك الساحل، وقام ذلك التشكيل خلال إبحاره بفتح النار على تلك القلاع بالتوالي. ولقد كان في اعتقادنا أن ذلك القصف البحري لم يكن القصد منه إزعاج البطاريات التركية وتحويل نيرانها بعيداً عن الجيش الفرنسي الذي كانت تزعجه وحسب، بل لتدمير تلك البطاريات وكل الحصون التي كانت تحت رحمة نيران ذلك الأسطول. ولقد أعطانا موقعنا الذي يرتفع ١٢٠٠٠ قدم [كذا][٣٠] عن ذلك الجزء من الشاطىء مكاناً نشرف منه عن قرب، نحن والضباط الفرنسيون على ميدان العمليات كله. وعلى الرغم من أن السفن مرت في تتابع، يشاهد كل منها أثر ضربات السفينة التي قبلها، ورغم أن كل واحدة من تلك السفن، قامت بإطلاق متزامن لجموع مدافعها الجانبية أكثر من مرة، فإن أيا من تلك الطلقات بالكاد أفلح في الوصول إلى الشاطىء أو إلى اثنتين أو ثلاث من القلاع التي لم يصبها أي أذى، بل إن ذلك القصف بدلاً من أن يسكت حتى ولو أصغر واحدة من تلك القلاع، لم يمنع اثنتين منها، عندما انتبه رجالهما إلى العدد الغفير من الضباط الذين تجمعوا في منزلنا، من تجديد إطلاق النار على ذلك المنزل وسط القصف الفرنسي البحري. ولقد قام بعض هؤلاء الضباط من ذوي الرتب العالية بالسخرية من ذلك العرض، وانقبض صدر بعض آخر، بينما حاول آخرون تبرير عدم فعالية الأسطول بالادعاء بأن الهدف من تلك العملية لم يكن سوى محاولة سبر عمق الماء في تلك المنطقة، وقياس أبعاد القلاع استعداداً لهجوم قوي وفعال يأتي فيما بعد. ولما استمر الجيش في المعاناة الشديدة من القصف المدفعي التركي المتصل على فرق العمل والحراس، قام الأسطول في يوم ٣ يوليو بالاقتراب مرة أخرى من النقطة نفسها، بالترتيب نفسه ولكن بقوة أكبر، وكان لنا نفس ميزة مراقبة تلك العملية، كما كنا قد راقبنا سابقتها، وكان معنا هذه المرة عدد أكبر من الضباط الفرنسيين. وكانت القوة البحرية هذه المرة مكونة من سبعة طوابير من سفن القتال، و ١٥ فرقاطة، وست سفن قنابل، وبعض السفن الصغيرة ومركبين بخاريين، قام أحدهما أحياناً بإطلاق النار. كان على رأس القوة فرقاطة قامت بتأدية واجبها بشجاعة ودقة. قامت هذه الفرقاطة



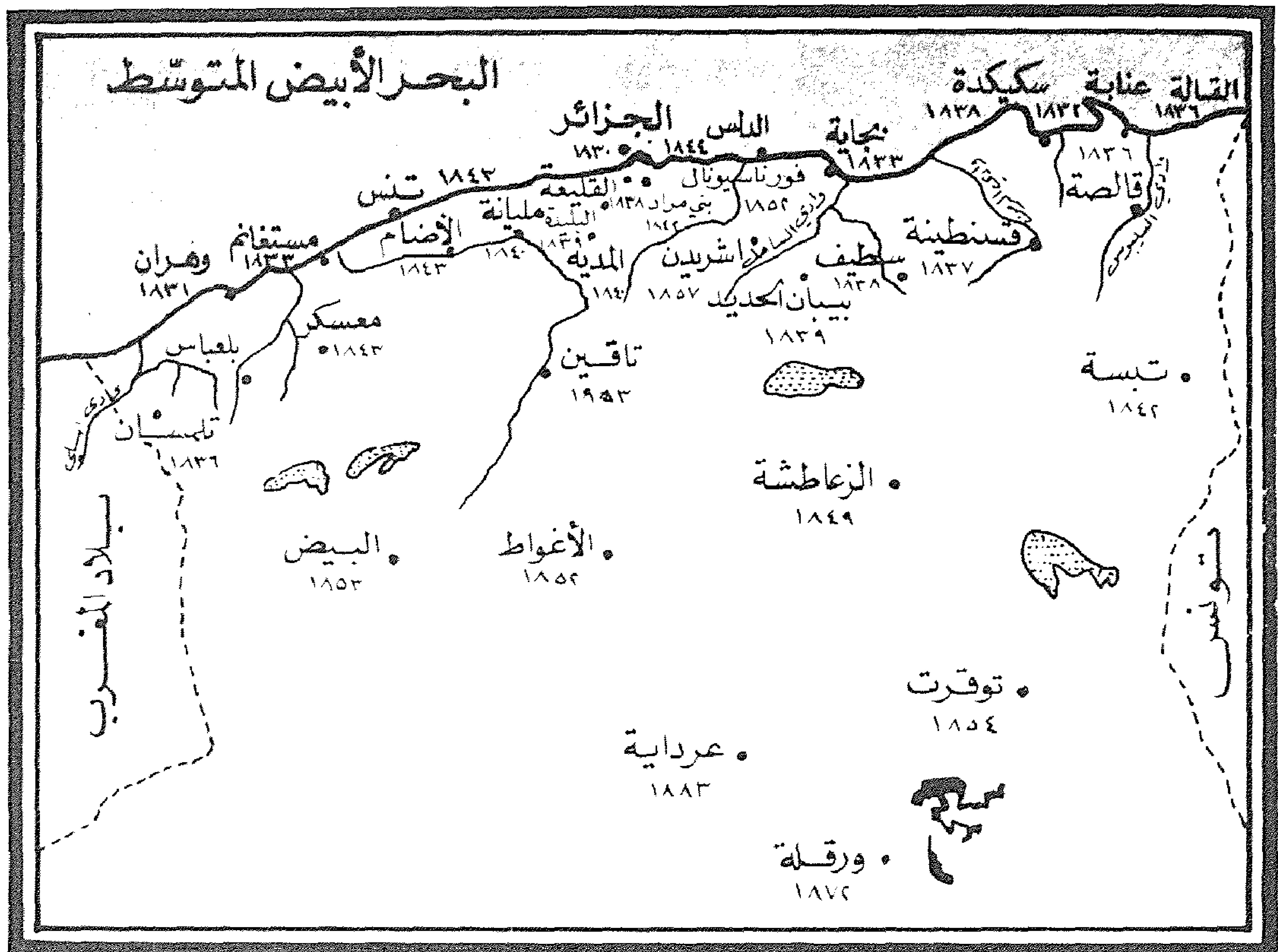
□ قصر «الجنينة» مقر الإدارة المركزية العثمانية قبل أن يحرقه الفرنسيون.

بالمرور أمام كل البطاريات من رأس كسكين، حتى أكثر حصون المدينة مناعة ــ مبقية المسافة بينها وبين الشاطىء في حدود الإطلاق المباشر ومستمرة في القصف من المدافع الجانبية في تتابع سريع مستمر. يتبع تلك الفرقاطة سفينة قتال تحمل علم الأميرال، ولكنها بقيت على مسافة كبيرة [من الشاطىء] وكانت قليلة الفاعلية، وكانت كل سفينة أخرى أكثر ابتعاداً عن الشاطىء من سابقتها وأقل اقتراباً من بطاريات المدينة القوية، لذا بدلاً من أن يتوجه ثقل تلك النار الكثيفة إلى المدينة وبطارياتها القوية المدافعة عن الميناء، تم صرف تلك النيران على القلاع قليلة الأهمية التي كانت تحمي مدخل المدينة من الغرب، وحتى هذه لم ينجح القصف في إسكات أي منها. إنني لم أشاهد هذا القصف المدفعي من قبل، ولم أكن أتصور أن مثل هذه النار الكثيفة قد تكون غير مؤذية على الإطلاق، فنحن لم نشاهدها تقتل فرداً واحداً، وحتى اليوم لم أسمع أحداً يقول إنها قد قامت بذلك. إننا لو حسبنا أن كل نوبة إطلاق من ذلك الأسطول قد قذفت سبعمائة إطلاقه، وإذا كان معدل إطلاق كل مدفع في السفينة خلال تلك العملية كان ثلاث مرات، إذاً يمكننا القول إن ٢١٠٠ طلقة قد تم إطلاقها من قبل تلك القوة البحرية دون أن تنتج أي أثر يذكر. وبالمثل لم يتعرض الأسطول لأي سوء، ما عدا انفجار أحد المدافع على سطح سفينة الأميرال ــ والتي بما أن أي مذبحة لم تحدث بسبب المسافة البعيدة عن الشاطىء التي بقيت عليها تلك السفن تسبب [ذلك الحادث] في إحداث هيجان عظيم فوق ظهر المركب. لقد تسبب هذا العرض السيئ بإصابة ضباط الجيش الذين لم يخفوا خيبة أملهم وحزنهم بالإحباط الشديد ــ لقد كان ذلك الفشل دليلاً قوياً ضمن أدلة كثيرة، نجدها في تاريخ فرنسا، على عدم قدرة هذه الأمة الحربية على القيام بأي إنجاز عظيم في البحر. في اليوم التالي وهو الذي صادف عيد استقلال بلادنا[٣١] بدأ الفرنسيون ــ بعمليات من نوع آخر وأكثر توفيقاً. إذ كما ذكرت في رسالتي المؤرخة يوم ٥ الماضي، قام الجنرال لاهيت بفتح نيران البطارية، المركبة من ٢٦ مدفعاً طويلاً ومدفعي هاون. على القلعة المحصنة المشرفة على مداخل المدينة، وعلى المدينة نفسها ولقد قام الجيش بأداء ذلك العمل على أحسن وجه. كانت البطاريات على بعد يتراوح بين نصف ميل وميل من القلعة بسبب خداع البصر الناتج عن عدم وجود الأشجار في تلك المنطقة، وصفاء الجو، سقطت القذائف الأولى دون مرماها المرغوب، ولكن بعد عدة جولات تجريبية أدرك الرماة المسافة المطلوبة وبدأوا في إطلاق النار بدقة تصويب تدعو إلى الإعجاب. بعد أربع ساعات من القصف تم إسكات مصادر النيران في القلعة، على الرغم من أن كبير الوزراء الجزائريين، نفسه كان يقود المدافعين عنها معاوناً بنفسه على تشغيل المدافع وموزعاً حفنات الذهب على رجاله لكي يشتري خدماتهم، وفي النهاية أشعل النار في مخزن بارود القلعة ناسفاً إياها. وكانت قوة الانفجار الناتجة عن ذلك على درجة من العنف، تسببت في تشقيق حيطان منازل تبعد مسافة ميلين



□ المدفعية العربية في الدفاع عن قسنطينة.

من القلعة. وبعد وقت قصير من ذلك، طلب الداي من القنصل البريطاني التوسط، ووافق هذا على ذلك وقام بالوساطة، معرضاً نفسه للعديد من المخاطر، ونجح في تجنيب المدينة فضائح اقتحامها عنوة. وأمن وسلامة الداي الشخصية ورعاياه والحفاظ على أشخاصهم وممتلكاتهم. وفي اليوم التالي وفي الساعة الواحدة استولت القوات الفرنسية على القصر والأماكن الأخرى المحصنة في المدينة وضواحيها. وهكذا انتهت عمليات القائد الفرنسي الحربية. ولم تكن عملياته الدبلوماسية أقل لفتاً للنظر. وقد بدأت هذه العمليات بعزل الداي، وإعلان انتهاء السلطة التركية في إيالة الجزائر. وخلال الفترة اللاحقة قام بإرسال الداي وزوجي ابنتيه (أغا الأنكشارية ووزير البحرية) مع عائلاتهم، وثروة من الجواهر والذهب، تقدر قيمتها بمليوني دولار على ظهر سفينة إلى ماهون ومن هنالك يقال إنهم سوف يتجهون إما إلى نابلي أو ليفورن أو مالطا، ولقد كانت هذه الأماكن الثلاثة تتقاسم تفضيل الداي عندما كان هنا. ولقد قام الجنرال بورمونت كذلك بترحيل كل الأتراك غير المتزوجين الذين وجدهم هنا، ويقدر عددهم بألف ومائتي شخص إلى أزمير أما المتزوجون الذين فضلوا البقاء هنا فقد قام بتجريدهم من السلاح. ويقال إنه ينوي هدم كل الحصون التي هنا وإرسال مدافعها إلى فرنسا. ولقد قام بتشكيل مجلس تنفيذي من حضر مدينة الجزائر، لكي يعاونوه على حكم المناطق التي استولى عليها، كما قام بتعيين عدد من الضباط الجزائريين الذين منحهم ألقاباً وواجبات مألوفة لدى السكان، وجعل هؤلاء الضباط على اتصال مع السلطات الفرنسية التي وجدها ضرورية لضبط المدينة، كما قام بإنقاذ كل الأسرى الفرنسيين الذين وجدهم هنا، ويقدر عددهم بمائتي رجل، وقام بإعادتهم إلى أمن أوطانهم، وقام أيضاً بالاستيلاء على خزينة الجزائر العامة، الذائعة الصيت، والحاوية على مقدار من الذهب والفضة والجواهر يقدر العارفون قيمته بمبلغ يتراوح بين مائة ومائة وخمسين مليون دولار — أكثر بكثير من التكلفة المحتملة لعملية الغزو. إلى تلك الخزينة يجب أيضاً إضافة قيمة [ما تم الاستيلاء عليه من] المؤن والأعتدة الحربية — الحاوية على ٢٠٠٠ قطعة مدفع منها ١٠٠٠ مدفع نحاسي وكمية من أخشاب بناء السفن وفرقاطة تحت الإنشاء وعدة سفن أخرى. لقد علمنا أن الجنرال [بورمونت] قد كوفئ على نجاحه الكبير هذا باعطائه رتبة ماريشال فرنسا. ولكن على أية حال، إن أثر انتصاره لم يتعد مرمى مدافعه — فالعرب المسيطرون على السهول، والبربر الذين يسكنون الجبال، لا يعترفون بسلطته ولا يخضعون لها، وعلى الرغم من كونه قد أنهى الوجود الفعلي للجزائر كدولة قرصنة، إلا أن على المرء أن ينتظر ليرى ما إذا كان باستطاعته أن يقيد القبائل والأمم الوحشية التي كانت تعترف بسيطرة الدولة الجزائرية



□ تواريخ احتلال فرنسا لمختلف مدن الجزائر.

بسبب نفوذ الديانة المشتركة وسلطان الفتح القديم. وللقيام بهذا الغرض يقوم الجنرال الآن بإرسال قوة بحرية من ٣٠٠٠ رجل وسفينتي قتال وخمس فرقاطات إلى عنابة ميناء بيلك قسنطينة الواقع على بعد ٢٨٠ ميلاً إلى الشرق من هنا، والذي تحميه الآن حامية تركية صغيرة مما يجعل الاستيلاء عليه أمراً سهلاً. ولكن هذا النجاح، على العكس من احتلال مدينة الجزائر سوف يكون بدون شك ذا تأثير محلي ــ كما سيكون الحال كذلك بالنسبة لوهران التي يقال إنه يفكر بالاستيلاء عليها ــ لذا فإن القوة الفرنسية بعد أن تتوطد تماماً في هذه الأماكن الثلاثة لن تبسط نفوذها إلا على جزء بسيط من أرض وسكان شمال افريقيا. لقد بدا بوضوح، من قبل أن يصلني خبر رفض تعييني، ان واجبات منصبي الأساسية، قد الغاها سقوط الحكومة التي كنت مفوضاً لديها. فالمشاغل الدبلوماسية في هذا المكان سوف تنتقل إلى سفيرنا في باريس طالما احتفظ الفرنسيون بهذا البلد، وأي سلطة ستبقى لمكتبي هذا لن تتعدى سلطة وكيل تجاري عادي ــ إذ كما أن إشراف هذه القنصلية على غيرها من القنصليات الأميركية في شمال أفريقيا، كان عائداً لتفوق أهمية هذه الأيالة على غيرها من دول افريقيا الشمالية، فإن مسؤولية الإشراف هذه ستزول، بالضرورة، مع زوال هذا التفوق. وفي تعميم بعث به القائد الفرنسي مؤخراً إلى كافة القناصل المعتمدين هنا، أوحى ذلك القائد، الذي لم يحدد ذلك التعميم فترة أو طبيعة سلطته الخاصة، بأنه يعتبر واجبات القناصل في المستقبل قاصرة على الشؤون التجارية. وتجدون طي هذا الكتاب نسخة من ذلك التعميم الذي سوف تلاحظون التضارب في دلالته. إذ إن إعادة فتح القنصلية الفرنسية هنا قد يعطي الانطباع بأن هذا البلد على وشك استعادة استقلاله من فرنسا، بينما القول بأن على وكلاء الدول المسيحية الأخرى تسيير الأمور الخاصة بأممهم عن طريق القنصل الفرنسي يجعله موظفاً في حكومة هذا البلد، يتداول الاقتراحات ويناقش مصالح الدول العائدة لعلاقاتها مع الجزائر. وباختصار بينما جزء من المذكرة يعتبر المسيوديفال قنصلاً لفرنسا لدى حكومة الجزائر، جزء آخر يعتبره وزيراً للشؤون الخارجية في هذه الحكومة. ولاعتقادي بأن من الأفضل ترك توضيح هذا التناقض للأحداث اللاحقة، أو لاختيار من سوف يخلفني في منصبي هذا، فإنني لم أرد على هذه المذكرة، بل قمت بزيارة قنصل فرنسا لغرض إظهار اعترافي الرسمي بصفته الوظيفية. كما أنني قد قمت كذلك بزيارة مماثلة للقائد الفرنسي، ولكني على العكس من زملائي القناصل الآخرين،

لم أقم بتلك الزيارة، إلا بعد أن تم عزل الداي. حينذاك شعرت بأن من الملائم للطبيعة الحرة والشهمة للولايات المتحدة أن أقوم أولاً بزيارة الأمير المخلوع. قبل أن اقوم بزيارة الجنرال المنتصر، وأن أؤدي للداي وهو في حالة انحسار سعده، فروض الاحترام نفسها التي كنت أؤديها له عندما كان في عزه وسلطانه. ولقد اثار تصرفي هذا في نفس الداي عاطفة جياشة لم يستطع إخفاءها وهو الرجل المعروف بالصلابة والوقار.

إنني لا يمكن أن أعرف ما ينوي الفرنسيون القيام به حيال درجة الإخضاع التي سيعرضون لها هذا البلد، وبما لا بد وأنكم قد تعرفتم على هذه النوايا عن طريق السيد رايفز فإنني لا أريد أن اثقل عليكم بتخرصاتي اكثر من أن أقول إنه يبدو أن من المحتمل أن الفرنسيين سيقيمون حكومة عربية خاضعة لفرنسا ومرتبطة بها. إن كنت قد أثقلت عليكم ببعض التفاصيل في هذا الكتاب. فذلك لأني لم أستطع أن انتزع من نفسي الاهتمام العميق بالأحداث التي رافقت الصراع الأخير والدمار النهائي لهذه الحكومة، والتي خلال حياتها التي تميزت بالكثير من الجرائم والحماقات، قد مارست خلال أربعة قرون، مقداراً من النفوذ ليس بالضئيل على شؤون العالم، وعلى الرغم من التأثير السيئ لسمعتها الرديئة إلا أنها كانت منذ سنوات خلت قد بدأت بتسيير أمورها بإنصاف وحسن نية؛ وقد يكون الشعور نفسه لديكم، دافعاً لكم لكي تغفروا لي طول هذه الرسالة وتتسلموها بصبر وتتقبلوا معها مجدداً تأكيد احتراماتي وتقديري الذي لي الشرف أن أحييكم به. ●

الحـــواشي

(١) انظر على سبيل المثال الكتاب الذي كتبه أحد ضباط أركان قائد حملة الجنرال بورمونت.
Edouard d'Ault-Dumesnil, *De l'expédition d'Afrique en 1830* (Paris, 1832).

وكتاب مساعد الجنرال بيرتيزن أول حاكم عسكري للجزائر بعد الاحتلال الفرنسي.
Barchou de Penhoen, *Mémoires d'un officier d'état-Major. Expédition d'Afrique* (Paris, 1935).

(٢) هنالك مسح جيد لهذه الوثائق في:
G. Esquer, *Les Commencements d'un Empire. La Prise d'Alger* (1830) (Paris, 1929).

(٣) قد يكون أفضل ما كتب في هذا المجال هو كتاب Esquer المشار إليه أعلاه وكتاب:
Paul Azan, *L'exédition d'Alger* 1930).

(٤) أرجمنت كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي (تونس، ١٩٧٠).

(٥) نشر النص التركي وترجمة فرنسية لكتاب احمد افندي في:
Ottocar de Schlecta «la Prise d'Alger par an Algérien» *Journal Asiatique* no. 11, September-October 1862, pp. 319-340.

وتوجد ترجمة عربية مشوهة ومبتورة للنص التركي في: أحمد الجزائري، كيف دخل الفرنسيون الجزائر، وصف شاهد عيان وضعه أحمد الجزائري، نشره وقدم له صلاح الدين المنجد (بيروت ١٩٦٢).

(٦) si Hamdan ben Othman Khoja *Aperçu historique et Statistique sur la régence d'Alger, intitulé en arabe (Le Miroire), par Sidi Hamdan ben Othman Khoja fils de l'ancien secretaire d'état (Maktabdji) de la régence d'Alger, traduit de l'arabe par H.D. Oriental (Paris, 1833).*

وللكتاب ترجمة عربية:
حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، المرآة لمحة تاريخية وإحصائية على أيالة الجزائر، عرّبه وقدم له وعلق عليه وفهرسه محمد بن عبد الكريم (بيروت، ١٩٧٢).

(٧) نشر النص الفرنسي لمذكرات أحمد باي في:
M. *Émerit*. «Les mémoires d'Ahmed, dernier bey de constantine, «*Revue Africaine* (1949): pp. 65-125.

ولقد ترجم تلك المذكرات ونشرها: محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجه وبو ضربة (الجزائر، ١٩٨١)، ص ٩ ــ ١٠٢.

(٨) يوجد قائمة مفصلة لقوات الحملة الفرنسية وتوزيعها وتجهيزاتها وأسماء ضباطها والسفن التي استخدمت في نقل القوات مستقاة من ملفات وزارة الدفاع والبحرية الفرنسيتين في:
G. Esquer, *Les Commencements*, pp. 447-505.

(٩) انظر على سبيل المثال:
Ch-A. Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine tome I la conquête et les debuts de la colonisation (1827-1871) (Paris, 1979), pp. 51-52.*

(١٠) عن حملة اللورد اكسموث على الجزائر انظر:
Sir Godfrey *Fisher, Barbary Legend: War, Trade, and Piracy in North Africa 1415-1830* (London-1957).

(١١) انظر عثمان بن حمدان خوجه، المرآة، ص ١٥٧ ـــ ١٦٠؛ ومحمد العربـي الزبيري، مذكرات، ص ١١.

(١٢) انظر على سبيل المثال المقال الذي نشرته جريدة «Semaphore de Marseille» بتاريـخ ١٠ يوليه ١٨٣٠ أي بعد خمسة أيام من احتلال مدينة الجزائر والذي يقول فيه كاتبه «لقد احتلت جيوشنا مدينة الجزائر... الجزائر ووهران وقسنطينة هي اليوم (مدن) فرنسية والويل لمن يحاول مسهن».

(١٣) «Ancient Conquest».

(١٤) الاستثناء الوحيد الملفت للنظر في هذا المجال هو المؤرخ الفرنسي بيلسير دي رينو. انظر:
Pellissier de Rynaud, *Annales algeriennes* (Paris, 1836-1839) 3 Vols. Vol. 1. p. 64.

(١٥) يسمى أسلوب التموين هذا «Foraging» انظر:
G.E. Rothenberg, *The Art of Warface in the Age of Napoleon* (Bloomington, 1978), pp. 84-85, 129-130.

(١٦) حول هذا الموضوع انظر:
A. Aulard, «L'insulte faite au consul de France par le dey d'Alger en 1827». *Revolution Française 1923 vol. LXXVI, pp. 160-164.*

(١٧) ماهون مدينة صغيرة في جزيرة منوركا من جزر البليار الإسبانية، كان بها قنصل دائم للولايات المتحدة الأميركية ومركز لبحرية تلك الدولة. وكان لتلك القنصلية اهمية كبيرة إذ يعتبر القنصل الذي بها كبيراً لممثلي بلاده في منطقة البحر المتوسط.

(١٨) المقصود هنا هو الداي حسين الذي حكم الجزائر بعد وفاة الداي علي خوجة سنة ١٨١٨ وحتى احتلال الفرنسيين للجزائر. ولد الداي حسين ببلدة صغيرة في الأناضول لوالد كان يعمل مدفعياً، والتحق هو أيضاً بسلاح المدفعية العثماني وعمل فترة في اسطنبول، ثم انضم لأوجاق الجزائر، كما عمل بالتجارة في الجزائر وكون لنفسه ثروة. عرف عنه العدل والحزم والحنكة السياسية.

(١٩) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.

(٢٠) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.

(٢١) أي في يوم ٥/٧/١٨٣٠ والرسالة المذكورة موجودة في:
General Records of the U.S. Government. Departement of state, R.G. 59, Consular Dispatches From Algiers.

(٢٢) هو الكونت Louis-August Bourmont عسكري من عائلة أرستوقراطية ولد في سنة ١٧٧٣ وانضم للجيش الفرنسي قبيل ثورة ١٧٨٩ وانضم فيما بعد للقوات الملكية المعارضة للثورة، وبقي خارج فرنسا حتى سنة ١٨٠٤، حيث انضم لقوات نابليون وأخلص في خدمته وترقى في سلك ضباطه حتى حصل على رتبة جنرال، ولقد هجره في معركة واترلو وانضم إلى القوات البروسية. وعند عودة الملكية لفرنسا عاد إلى الجيش الفرنسي وحصل على منصب وزير الحربية في وزارة بولينياك. ولقد كان في ذلك المنصب عندما تم تعيينه قائداً للحملة على الجزائر. وتقديراً لجهوده في تلك الحملة تمت ترقيته إلى رتبة ماريشال فرنسا.

(٢٣) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.

(٢٤) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.

(٢٥) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.

(٢٦) النص الأصلي مثقوب في هذا المكان.

(٢٧) المقصود بالعدو هنا هو القوات الجزائرية والجبهة والجناحين هي جبهة وجناحي الجيش الفرنسي المتقدم.

(٢٨) وتسمى أيضاً حصن أو قلعة السلطان قلاصي أو قلعة الامبراطور نسبة للامبراطور شارل الخامس من آل هابسبرغ الذي تحصن فيها أبان حملته الفاشلة على الجزائر في خريف سنة ١٥٤١.

(٢٩) يقصد حرب الاستقلال الأميركية ١٧٧٦ ـــ ١٨٨٣ والتي ساعدت فيها فرنسا المستعمرات الأميركية على نيل استقلالها من بريطانيا.

(٣٠) إن أعلى نقطة في المنطقة المحيطة بمدينة الجزائر هي قمة بوزريعة بالأعراف الشرقية لما يسمى بكتلة الساحل. ويبلـغ ارتفاعها ٤٠٧ متر اي الف وأربعمئة قدم تقريباً. لذا لا يعقل أن يكون ارتفاع مكان الحامية اثني عشر ألف قدم، بل الأرجـح ان يكون الكاتب قد قصد ألف ومائتي قدم.

(٣١) يقصد بالطبـع عيد الاستقلال الأميركي الذي يقـع في الرابـع من شهر يوليه.



معركة بير السبع ١٩٤٨

قسم التوثيق والأبحاث

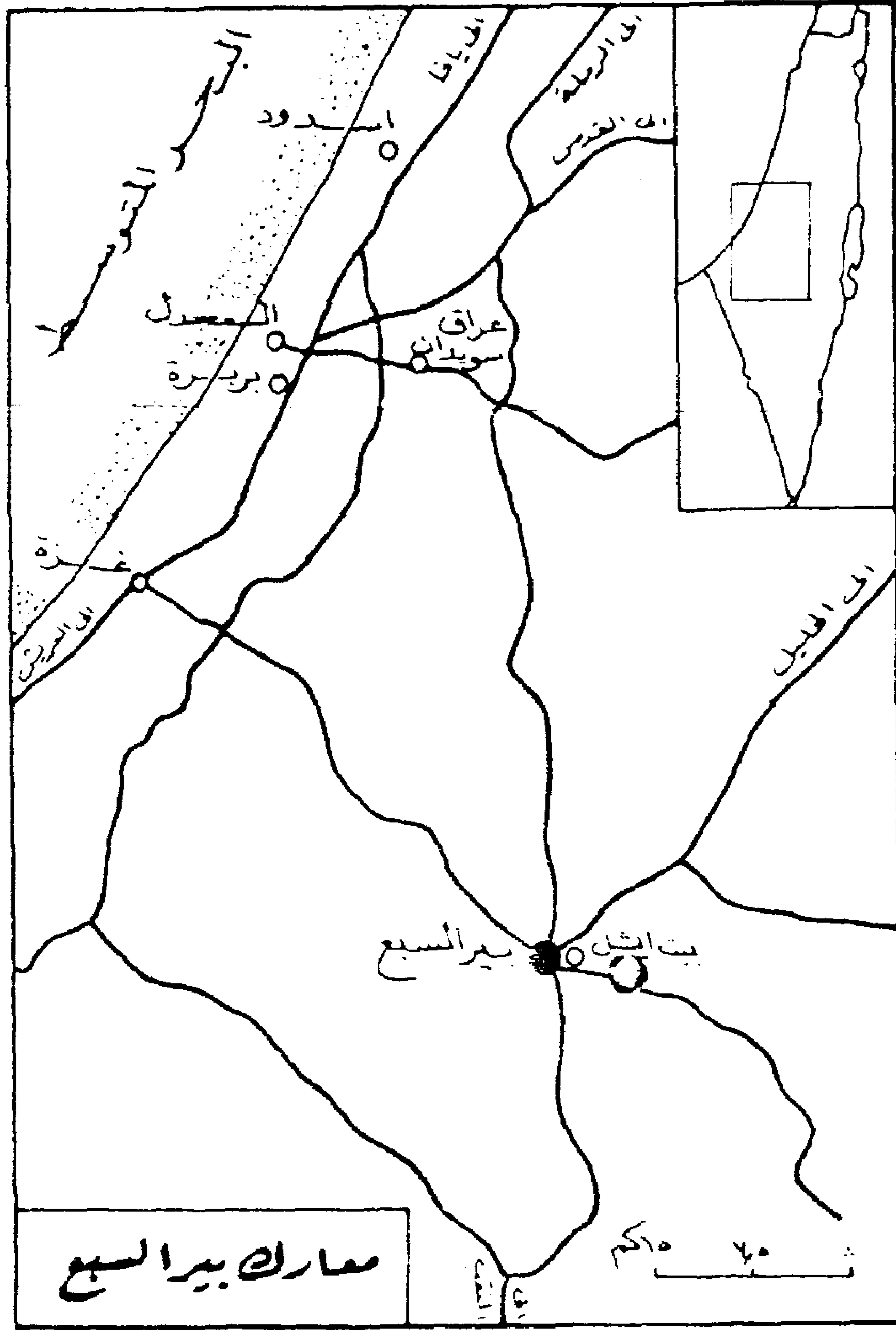
عندما أعلن الانكليز عزمهم على الانسحاب من فلسطين في منتصف أيار ١٩٤٨ تشكلت في بير السبع حامية للدفاع عنها مؤلفة من أفراد الشرطة المحلية والهجّانة (نحو ٦٠ رجلاً) وعدد من المناضلين والشباب المتطوعين من أبناء المدينة من البدو. وتولى قيادة هؤلاء جميعاً عبد الله أبو ستة. وكان في حوزة هذه الحامية ٢٠٠ بندقية، و٤ أجهزة لاسلكية، و١٤ هاتفاً ميدانياً، وبعض الأسلحة الاوتوماتيكية الخفيفة، وعدد من الألغام، وبضع مئات من القنابل اليدوية. وقد استطاع مناضلو المدينة في حدود إمكاناتهم أن يقوموا بنشاط قتالي جيد، فكانوا يعترضون قوافل السيارات الصهيونية المحروسة، ويتصدون لجماعات الصهيونيين المسلحين، بل إنهم بعد مهاجمة قافلة صهيونية متجهة إلى مستعمرة «بيت ايشل» قاموا بمحاصرة المستعمرة نفسها.

لجأ الصهيونيون فور انسحاب القوات البريطانية من منطقة بير السبع في ١٩٤٨/٥/١٤ إلى بسط سيطرتهم على المناطق والطرق الهامة من الناحية العسكرية. وقام العرب بالمقابل بدعم حامية المدينة بعدد من المتطوعين المصريين والليبيين (٥٠ — ٨٠ متطوعاً بينهم ١٢ ضابطاً). وفي ١٩٤٨/٥/١٨ دخلت قطاع بير السبع كتيبة مشاة مصرية بقيادة المقدم أحمد عبد العزيز. لكن لم يجر تعاون أو تنسيق بين هذه القوة وحامية المدينة. ولم تلبث القيادة العامة المصرية أن سحبت معظم القوة المصرية وبعض الأسلحة معتذرة بأن الوضع العسكري العام يتطلب ذلك. وقد أصبح الدفاع عن المدينة بهذا هزيلاً جداً، إذ لم يبق فيها سوى مدفعين من عيار ٦ أرطال، ومدفع واحد من عيار ٣ بوصات، وبعض المدافع من عيار بوصتين. إلى جانب ذلك أخطأ المدافعون حين حفروا الخنادق قريباً من الأبنية وتركوا المناطق الخالية المترامية الأطراف التي تحيط بالمدينة.

بدأت معارك النقب في ١٩٤٨/١٠/١٤، واحتل الجيش الإسرائيلي أسدود والمجدل وعراق سويدان وبربرة وتوقف على أبواب غزة. وفي ١٩٤٨/١٠/١٨ شنّ هجومه على بير السبع، فطلب قائد حاميتها النجدة السريعة من القيادة المصرية فلم تنجده، بل طلبت منه أن يرسل إليها بعض الأسلحة التي ما زالت تحت تصرفه لحاجتها إليها، وفي الوقت الذي لم يزد عدد أفراد حامية بير السبع عن ٢١٦ مقاتلاً من مناضلي المدينة أو المتطوعين وممن تبقّى من القوة المصرية بأسلحتهم القليلة وذخيرتهم المحدودة كان الجيش الإسرائيلي يملك الطائرات ويهاجم بخمسة آلاف مقاتل مزوّدين بالعربات المصفحة والمدافع الثقيلة والأسلحة المتنوعة.

بدأت معركة المدينة بقصف جوي دام من ١٠/١٨ إلى ليلة ١٠/٢١ ١٩٤٨ دون أن يكون لدى المدافعين عن المدينة مدافع مضادة للطائرات. وقد نجم عن ذلك تدمير عشرة منازل وقتل سبعة أشخاص وإحداث ذعر في المدينة.

في الساعة الثامنة من مساء يوم ١٩٤٨/١٠/٢٠ مهّدت المدفعية للهجوم البري، ثم انطلقت طلائع القوات الإسرائيلية المهاجمة، وتبعتها القوات المحمولة لتطبق على المدينة من الشمال والشمال الغربي، وتندفع إلى داخلها في الساعة الواحدة والنصف من اليوم التالي (١٩٤٨/١٠/٢١). وأخذت هذه القوات المهاجمة



تحتل أحياء المدينة وتنتقل من شارع إلى آخر إلى أن اصطدمت صباح ١٠/٢١ بمن تبقّى من أفراد الحامية العربية في مركز الشرطة. وقد استبسل هؤلاء المدافعون الذين لم يتجاوز عددهم ٥٣ مقاتلاً مصرياً وسودانياً وفلسطينياً، ورفضوا الاستسلام على الرغم من موقفهم العسكري الضعيف. وقد دار قتال ضار بينهم وبين القوات الإسرائيلية المهاجمة، وأصيب خزان الماء في المركز بقذيفة مباشرة فانهار وتدفقت مياهه على المدافعين، فانتقلوا إلى أسفل البناء يقاتلون إلى أن انتهت مقاومتهم فاحتل الإسرائيليون المركز في الساعة التاسعة إلا ربعاً من صباح ١٩٤٨/١٠/٢١، وبذلك تم احتلال مدينة بير السبع كلها.

المراجع:

- عارف العارف: النكبة، ج ٣، بيروت ١٩٥٦.
- حسين أبو النمل: قطاع غزة ١٩٣٨ — ١٩٦٧: تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية، بيروت ١٩٧٩.
- عبد الله التل: كارثة فلسطين، القاهرة ١٩٥٩.
- محمد فيصل عبد المنعم: فلسطين والغزو الصهيوني، القاهرة ١٩٧٠.

□ الموسوعة الفلسطينية، المجلد الأول — ط ١، ١٩٨٤.



التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط

من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي

تأليف : د. علي محمود فهمي

ترجمة : د. قاسم عبده قاسم

عرض : ريان/محمد فرغلي

يحوي هذا الكتاب دراسات في التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط منذ القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع أي من السابع حتى العاشر الميلادي ــ وكما ورد في مقدمة المؤلف أن لا توجد دراسة جادة ومفصلة عن الموضوع، ويرجع هذا إلى حد كبير إلي حقيقة أن المادة المتعلقة بهذا الجانب الخاص من جوانب السيادة الإسلامية مبعثرة على نطاق واسع للغاية كما أن هناك نقصاً بالوثائق مما يشكل عقبة في سبيل من يبحث في هذا الميدان ومن ثم فأن الموضوع قد توارى في غياهب الضبابية الشاملة، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن الباحث يغامر بأن يضل طريقه في تيه مظلم.

ويستطرد المؤلف بقوله: «إن أكثر المواد إثارة هي تلك التي ترقد في ثنايا النصوص العربية التي كتبها المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون في العصور الوسطى. وتعتبر البرديات من أهم الوثائق التي ساهمت إلى حد كبير في معرفتنا بالشؤون البحرية، كما أنها القت ضوءاً ساطعاً على تاريخ مصر البحرية. ومن خلال الوثائق الجديدة وإعادة تقييم للوثائق القديمة، أصبح سبيل الدراسة النقدية ممهداً أمامنا.

«هذا ما قدم به الدكتور علي محمود فهمي لكتابه في نوفمبر عام ١٩٤٨ بمدينة لندن ثم صارت له الترجمة العربية المطروحة على هذه الصفحات في عام ١٩٨١».

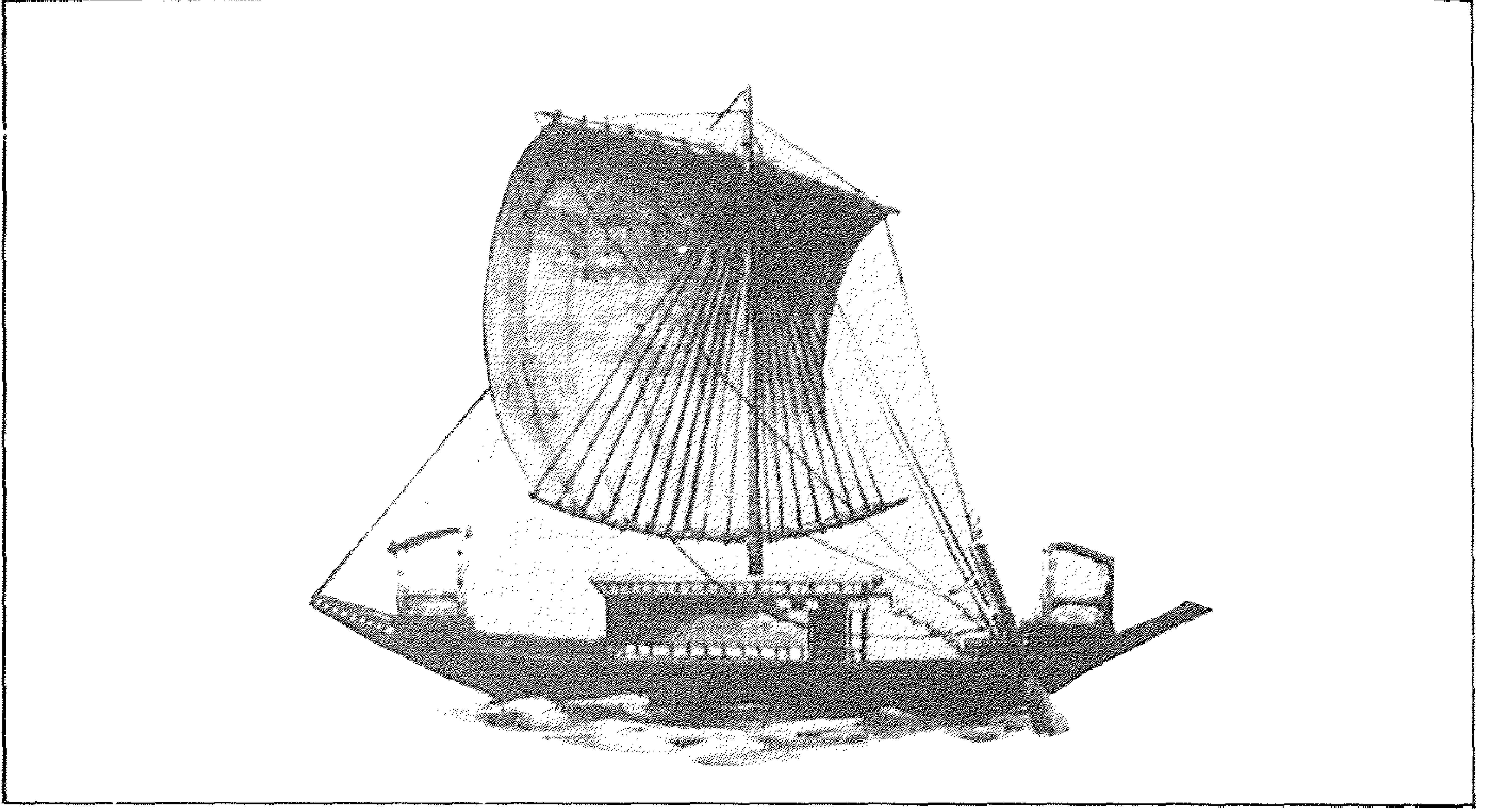
ويسرد المؤلف في مدخل الكتاب مسحاً للمصادر التي استخدمها في دراسته ويأتي على رأسها أوراق البردى وتنقسم إلى نوعين.

(أ) البردي اليوناني ــ الروماني.

(ب) أوراق البردى العربية ومجموعة افروديتو

ثم يشرح قيمة البرديات بوجه عام يليها المصادر التاريخية والجغرافية وغيرها وهو في ذلك يقسمها إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: ومنها الوثائق اليونانية والقبطية وقد كتبها المؤرخ ساويرس ــ أسقف الاشمونين والتقرير الشامل عن الفتح الإسلامي لمصر والمغرب لابن عبد الحكم وهو مصري المولد والإقامة وكتاب «صبح الاعشى» للقلقشندي الذي يعتبر أوسع وأكمل مؤلف من نوعه فهو يعطي معلومات كثيرة عن جزيرة الروضة وتفاصيل عن الإدارة البحرية في عصره. كما يجب أن تذكر أيضاً خطط ابن دقماق التي بقي منها مجلدان وخطط المقريزي ومؤلفات الأسيوطي وسيرة أحمد بن طولون وكتاب الولادة



للكندي وغيرها من المجلدات والمراجع التي يوردها المؤلف في هذه المجموعة. أما المجموعة الثانية فتحتوي على مصدر ثقة رئيسي هو الطبري والذي يعتبر واحداً من أكبر المؤرخين المسلمين ويعتبر كتابه مصدراً أولياً من مصادر المعلومات وكذلك عدة مؤلفات أخرى تقدم المعلومات المشابهة لحولية الطبري مثل كتاب «نشوار المحاضرة» للتنوخي وكتاب «تجارب الأمم» لابن مسكويه، وكتاب «نهاية الارب للنويري».

يأتي بعد ذلك كتابنا المطروح في خمسة فصول وثلاثة ملاحق. الفصل الأول عن دور صناعة السفن والمراكز البحرية في مصر ويستعرض به (ترسانة القلزم وترسانة الاسكندرية والمراكز البحرية في رشيد ودمياط وتنيس ودار الصناعة بجزيرة الروضة) ثم يستطرد في وصف موقع دار الصناعة وهو الإسم الذي كان يطلق على الترسانة ثم وصف الترسانة في عصر الطولونيين ثم الترسانة في زمن الاخشيديين وموقع الترسانة الجديدة الذي أصبح شمال الفسطاط على أنقاض بيت كانت تملكه أرملة ابن طولون وذلك بعد أن هدمت مياه النيل بالتدريج التحصينات التي بناها ابن طولون بجزيرة الروضة.

الفصل الثاني:يتحدث عن دور صناعة السفن والمراكز البحرية في بلاد الشام وأفريقية وكريت ويأتي فيه ذكر معاوية كأول من شجع المسلمين على القيام بالنشاط البحري ويقال أنه سأل عمر بن الخطاب أن يأذن له في قيادة حملة بحرية وقد رفض الخليفة ولم يتجاوز الأمر بتحصين المدن الساحلية ووضع الحاميات بها، وقد أصر معاوية على طلبه حتى سمح له عثمان فيما بعد بقيادة حملة بحرية فيما يقال وزوده بتعليمات تقضي بأن يحتفظ بتعزيزات جاهزة في المناطق الساحلية.

الفصل الثالث: ويستعرض مواد بناء السفن كالخشب وأنواعه فمنها البنج وفيه يقول الكندي «إن جميع أنواع الأشجار كانت موجودة في مصر وكان أكثر الأخشاب قيمة هو ذلك المأخوذ من شجر البنج» وكذلك يوجد السنط وهو نوع ورد ذكره في البرديات التي تتحدث عن بناء السفن فيقول ابن الفقيه عن شجرة السنط باعتبارها إحدى عجائب مصر «إنها جيدة الوقود لأنها لا تخلف رماداً كثيراً». وهناك نوع آخر كخشب الجميز والنخيل وهي للمراكب الكبار كما ورد ذكرها في البرديات ضمن المواد الضرورية المطلوبة لبناء السفن، وأيضاً هناك خشب السدر (النبق) وهو من بين الأنواع الأخرى التي ذكرت

باعتبارها تحمل ثمارا تسمى «النبق».

وينتقل بعد ذلك المؤلف لذكر المعادن التي تدخل ضمن صناعة السفن كالمسامير والروابط والمراسي ففي سفن البحر المتوسط كانت الألواح توصل بمسامير معدنية على حين كانت الواح، سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي تشد إلى بعضها بالحبال، ويقال أن الوالي الأموي الحجاج بنى سفناً من الخشب والمسامير والتغليف على حين كانت الألواح قبل ذلك تربط إلى بعضها بالحبال.

ويتبقى في النهاية ذكر الحبال والتجهيزات الأخرى التي تدخل ضمن صناعة السفن المقدسي «إن مصر قد اشتهرت بالحبال المصنوعة من ليف النخيل، وقد ورد ذكر حبال ليف النخيل في البرديات، كما كانت مصر تنتج نوعاً من القنب يناسب صناعة الحبال وروافع السفن.

ويذكر المؤلف أيضاً أن جوانب السفينة كانت تغطي باللباد أولاً ثم بجلود الثيران المخيطة على شكل ملاءات لحماية السفن من النيران والاصطدام، كما يحدثنا قسطنطين بورفيروجنتوس (Constantine Prohyrogenitus) عن جلود الماعز المستخدمة في السفن البيزنطية كمظلات تقي الركاب الشمس والسهام، كما يشرح كيف كانت ألواح السفن تغلف في نهايتها بألياف القطن والشمع وكيف كانت توضع الواح الرصاص في الجزء الغاطس تحت الماء ويقول أن كل مائة وعشرة الواح أو ألف رطل من الرصاص يكفي عشرين مركباً، وهو ما يعني أن كل سفينة تتطلب مائة وخمسين رطلاً.

الفصل الرابع ويتناول التنظيم البحري فيشرح توزيع الأسطول ويعقد مقارنة بين توزيع الأسطول الإسلامي وتوزيع الأسطول البيزنطي، فمنذ نهاية القرن السادس الميلادي، كانت الامبراطورية البيزنطية قد أهملت القوة البحرية، إلا أن بزوغ القوة البحرية الإسلامية والسياسة العدوانية التي انتهجها معاوية أجبرت القسطنطينية على إعادة تنظيم الأسطول.

ثم يستعرض كيف كان يتم الحفاظ على الأسطول فيشرح النفقات البحرية مما كشفته البرديات عن أن مجمع موارد مصر كانت ترسل إلى بيت المال في الاسكندرية بعد خصم المصروفات المحلية أو ترسل إلى بيت المال في الفسطاط، والأموال اللازمة للأغراض الخاصة، سواء كانت بحرية أو غير ذلك، كانت ترسل مباشرة إلى الموظفين المسؤولين أو عن طريق بيت المال.

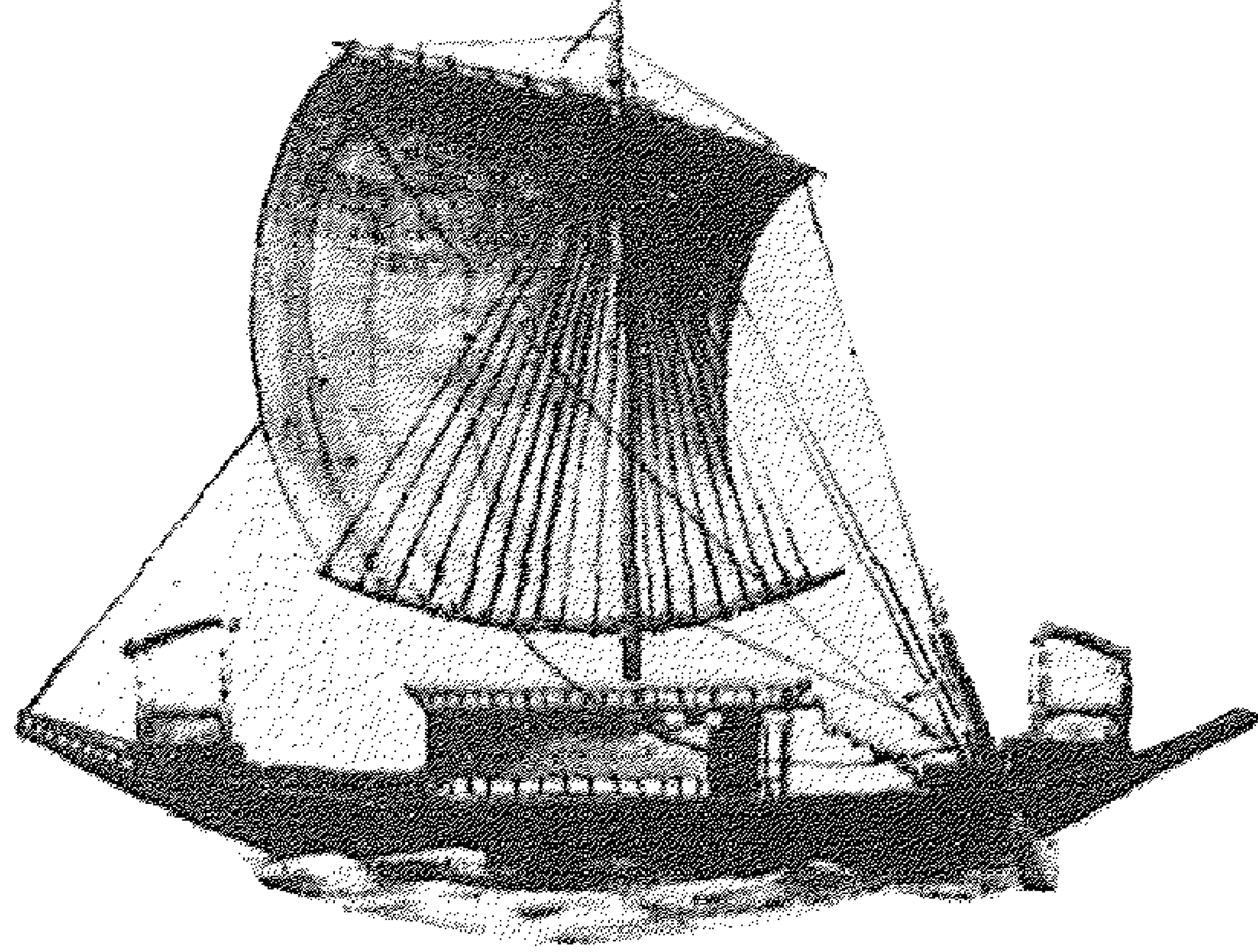
كما يقول ابن خرداذبه بأن تكاليف حملة بحرية واحدة قد وصل إلى مائة الف دينار. كما أن الأرقام المتعلقة بنفقات الأسطول البيزنطي وعملياته يمكن التوصل إليها من خلال المقارنة مع نفقات العمليات البحرية الإسلامية.

يذكر المؤلف بعد ذلك ضرائب الأسطول وأنها فرضت على مصر في الفترة من الخلافة إلى الإدارة البيزنطية ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين رئيسيتين: ضرائب عادية أو عامة، وضرائب غير عادية وتتضمن المجموعة الأولى ضرائب الأموال والغلال المدفوعة عيناً والتي كان جزء منها يرسل إلى شؤون الدولة في الفسطاط سواء للتصدير أو لتوزيعها بين القبائل العربية أو لإعاشة الموظفين الرسميين، أما المجموعة الثانية فكانت تجمع حسب الضرورة، وكان يمكن دفعها نقداً أو عيناً وتتعلق بمسامحات الموظفين أو المستوطنين أو بمؤن العمال والبحارة والمنشآت البحرية والنقل.

ينتقل المؤلف بعد ذلك لموضوع الخدمة المدنية لدى المسلمين وكيف أنها كانت على مستوى عال من التنظيم وكان الإجراء الخاص بالخدمة الشخصية يرتبط أساساً بالإجراء الضريبي ثم يتناول الخدمة المدنية البحرية مما كشفت عنه البرديات من أن الحفاظ على الأسطول كان مسؤولية السكان بأساليب ثلاثة:

دفع الأموال لأغراض محددة، الامداد بالمواد من مختلف الأنواع والامداد بالبحارة، ويبدو أن البحارة في جميع الأساطيل كانوا يجندون عن طريق الطلبات الحكومية الموجهة إلى جميع مناطق مصر وليس من مدن الساحل فقط. كما قد يكون متوقعاً.

وينتقل الحديث إلى البدل النقدي في الخدمة البحرية وتأمين القيام بالخدمة ثم الرجال المقاتلون من المهاجرين والموالي ثم المؤن والطعام وكيف كان يتم امداد الأسطول من كل نوع عن طريق الضرائب وكذلك الأجور وأسعار المؤن



واستعرض أيضاً حالات الهروب من التجنيد الإجباري ــ ونظم الجوازات.

الفصل الخامس: عن السفن الحربية الإسلامية في البحر المتوسط يستعرض خصائص هذه السفن وأنماط السفن الحربية الإسلامية ومعاني كلمات «أسطول ــ قطعة ــ حربي ــ شلندي ــ والأخيرة هذه كانت تطلق على أكبر وأثقل سفينة».

ينتقل بعد ذلك إلى طاقم السفن ومسؤوليات قائد الأسطول وكيف يتم أختيار الرجال ومعاملتهم، فالخليفة ينصح قائد الأسطول أن يفهم قواته تماماً وأن يفهم مؤهلاتهم الخاصة وبأن يظل على اتصال بسفنهم ويجب أن يسير الأمر على الرجال الذين تحت أمرته وأن يسمح لمن لديه شكوى أو حاجة أن يقابله، وعليه هو نفسه أن يكون قائداً قدوة للجنود ولكل من يتخذونه مرشداً، وأن يوجههم ويصحح أخطاءهم بأفضل السبل، ويجب أن يعالج كل حالة في عدل فيعامل المطيع برقة، ويعامل العاصي بقسوة، وعليه أن يدفع لهم أرزاقهم كاملة ودون تأخير.

يتبع هذا وصف واجبات القائد في الإشراف على بناء السفن ومهمة حراسة السفن في موانىء الرسو ــ ثم كيف كانت الخدمة السرية ومنع تسرب المعلومات البحرية.

ويختتم المؤلف كتابه بثلاثة ملاحق عن:

١ ــ الغابات في مصر.

٢ ــ أسماء سفن الأسطول الطولوني مثل العلابيات والحمائم وعشاريات والصنادل وسنابك.

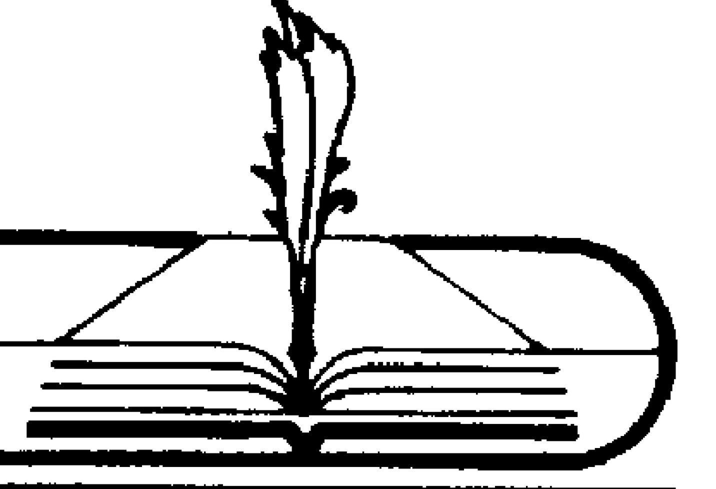
٣ ــ أسماء السفن التي ذكرها المقدسي مثل بركة؛ بوراكيه؛ برعاني؛ الدونيج؛ جبليه؛ جاسوس؛ كاروتيه؛ خيطيه؛ معبر؛ مكيه؛ مسبحيه؛ مثلثه؛ رقيه؛ شوق؛ شذا؛ شنكوليه؛ سوقيه؛ تلوى؛ طيره؛ طيار؛ ولجيه؛ واسطيه؛ زبزب؛ زورق.

وينتهي بهذا الكتاب التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من ١٧٧ صفحة استعرض خلالها المؤلف وثائق ومخطوطات أفادت كثيراً في كشف النقاب عن كثير من الغموض في مجال معروفة الشؤون البحرية الإسلامية.



● كونوا وطنيين وعلموا أبناءكم الوطنية، ولا تستمعوا قول الذين يقولون اشتغلوا بدروسكم فقط ولا تشتغلوا بالوطنية. بل اجعلوا الوطنية أسس أعمالكم، واقبلوا على علومكم فحصلوها فإننا محتاجون للعلم والعلماء. ولكن لا خير في العالم إذا لم يكن وطنياً.

«سعد زغلول»



موت الثقافة

اليـاس خوري

● يكثر الكلام عن وضعية الثقافة اللبنانية في المرحلة الراهنة. وهو كلام نوستالجي في أغلبه. يستعيد بيروت، ودورها الغارب، وحريتها... وإلى آخره. ويصر على أن لا يرى الواقـع الراهن للثقافة اللبنانية، إلا بوصفها لحظة استراحة أو غيبوبة، بانتظار أن تعود المدينة إلى نفسها. وأن تعود الثقافة إلى دورها الطليعي المفترض.

غير أن هذا الكلام الكثير، يغفل عن ملاحظة التغيرات الأساسية التي حصلت، والتي جعلت من ثقافة نظام الطوائف السائدة، ثقافة أخرى، تحمل بعض مواصفات الثقافة السابقة، لكنها تتجه إلى تأسيس نفسها على قاعدة جديدة، معلنة ولادة نمط آخر من الثقافة، وإشكالية أخرى للمثقف ولدوره وللمعنى الاجتماعي لنتاجه.

كيف نحلل هذه الثقافة الجديدة، ونقرأ اتجاهاتها؟

قبل التحليل علينا أن نرى مجموعة من الحقائق:

الحقيقة الأولى، هي خفوت النقاش الفكري ـــ الثقافي، أو حتى غيابه. وهذا عائد في الأساس إلى الأزمة الخانقة التي تعانيها الصحافة اللبنانية من جهة، وإلى لا جدوى النقاش، بعد أن تحول لبنان إلى ساحة للتكرار وللميليشيات العسكرية المختلفة.

الحقيقة الثانية، هي موت المسرح اللبناني بشكل لا مثيل له. فالحركة المسرحية اللبنانية لم تعد تجد أمامها سوى «الفودفيل» بأشكاله الأكثر ابتذالاً. وجميـع الإنجازات التقنية التي حققها المسرح في الستينات وبداية السبعينات، صارت مجرد أدوات تقنية تستخدم في إعطاء مسرح «الفودفيل» طابعه المسرحي.

الحقيقة الثالثة، وتتجلى في انقراض المجلات الثقافية والإبداعية. بعض المجلات هاجر إلى الخارج: مواقف والكرمل، وبعضها الآخر يعاني أزمة، الآداب.. ولم يبق في الساحة إلا مجلات الفكر التكنوقراطي التي تصلـح لكل زمان ومكان.

الحقيقة الرابعة، هي التحول المذهل في الأغنية اللبنانية، فبدائل التجربة الرحبانية، هم اليوم مطربو المطاعم، وفنانو الطبيـخ.. الذين تزداد أغنياتهم ازدهاراً، مـع ازدهار الإذاعات الخاصة وحاجتها إلى البرامـج الخفيفة.

الحقيقة الخامسة، هي ضمور إنتاج الكتاب الإبداعي في لبنان، فبيروت تتحول من ناشر أول إلى مطبعة. والفرق بين النشر والطباعة شاسـع.

الحقيقة السادسة، هي انهيار التعليم الجامعي والثانوي والمتوسط والابتدائي. وانهيار التعليم يتحول مـع استمرار الحرب، إلى بنية تعليمية جديدة، ميزتها الفصل بين الثقافة والحياة، وتحويل الثقافة إلى لغو ولا معنى.

الحقيقة السابعة، هي الهجرة الكثيفة للمثقفين والصحافيين. وهي هجرة قد تتخذ لنفسها عدة أشكال، الهجرة المباشرة أي الإقامة في الخارج، أو الهجرة غير المباشرة، عبر الكتابة من بيروت إلى صحف ومجلات تصدر في الخارج.

هذه الحقائق، تكشف لنا الوجهة الثقافية الجديدة التي يؤسسها نظام الطوائف المعسكرة. فهذا النظام يعلن عدم حاجته إلى الثقافة، كما يعلن الحرب عليها بطرق مختلفة، تمهيداً لتصفيتها وتحويلها إلى مجرد ملحق إعلامي يقوم «بتدبير» أمور زعماء الطوائف، وقادة عساكرها.

اما الآلية التي تتجسد فيها عملية اجتثاث الثقافة وتصفيتها، فهي آلية بالغة التعقيد.

فهناك تصفية المدن، وتحويل الريف إلى أشباه مدن، وهذا يعني إلغاء الإطار المرجعي الضروري لأي نتاج ثقافي.



وهناك القمـع المباشر أو غير المباشر، وسط عبثية الجنون الطائفي، التي تدفـع بالكتابة إلى حافة اللاجدوى. فينتهي دور المثقف أمام لا عقلانية الواقـع السياسي ــ الاجتماعي، واستحالة معارضته. فهذه الطوائف الجميلة، حتى وهي تتقاتل أو تقتل نفسها، تقوم عملياً بإلغاء وتصفية أية معارضة حقيقية. ومن دون حرية الاعتراض، لا معنى للثقافة، ولا جدوى من الكتابة.

وهناك أخيراً، وهذا هو الموضوع الحقيقي، الإفقار والتجويـع، حتى تصبـح مهنة المثقف مستحيلة، لأن عليه أن يركض وراء الرغيف ليل نهار، وأن يشحذ، فتأتي الضائقة الاقتصادية لتطلق رصاصة الرحمة على أي عمل ثقافي جدي.

تعالوا نقارن مثلاً بين مدخول الأستاذ الجامعي ومدخول السمكري أو الكندرجي أو إلى آخره من المهن. إن أية مقارنة تبدو مضحكة، الجميـع في لبنان يقبضون بالدولار، ما عدا قطاعين: القطاع الثقافي والقطاع العام. الأستاذ والصحافي والكاتب والمسرحي... وإلى آخره... بالإضافة إلى موظفي الدولة، يقبضون بالليرة، بينما يقبض جميع الآخرين بالدولار. وهذا يعني مثلاً أن الأستاذ الجامعي لا يستطيـع إلا بشق النفس، أن يضـع أولاده في المدارس الخاصة. أما الصحافي فهو في وضـع مضحك. إنه يشتغل مهنة تتطلب كل وقته، وفي الوقت نفسه فهو لا يستطيـع أن يعيش، فيتحول إلى وكالة أخبار، وتتحول الكتابة عنده إلى مطية من الخدمات المباشرة أو غير المباشرة. أما القطاع العام، فهو يفرض على موظفيه التحول إلى لصوص وإلا ماتوا جوعاً. أي أن عملية تدهور العملة تصيب في الأساس قطاعين: الثقافة والقطاع العام، بينما استطاعت القطاعات الاقتصادية الأخرى أن تعيد ترتيب أوضاعها على أساس واقـع التضخم.

دلالة هذا الواقـع واضحة لا لبس فيها، فالانهيار يطال مؤسسات الدولة، مما يسهل عملية إلحاقها بقوى الطوائف المعسكرة، كما أنه يطال الثقافة مما يعني تهشيمها وتهميشها، تمهيداً لقتلها والاستغناء عنها.

العام، بما هو جامـع بين اللبنانيين يجري تصفيته، لمصلحة الخاص الطوائفي، المناطقي. وهذا الخاص لا يحتاج إلى ثقافة أو إلى صحافة أو إلى إنتاج فكري. حاجته بسيطة، إنه يحتاج إلى تلفزيون ملون وإلى مجموعة من المثقفين ــ المستشارين، وإلى كلاب من أجل أن تنبـح. هكذا يتم تحويل المثقف إلى شحاذ، تمهيداً لإقناعه بفائدة العواء.

إن ما نشهده اليوم، هو الفصل الأخير من إبادة الثقافة اللبنانية. لم يعد المثقف أو الكاتب يستطيـع أن يعيش. في الماضي، كان يكفي أن تكون كاتباً وتعلم في مدرسة كي تعيش، أما اليوم فعليك أن تعلم في خمس مدارس ولن تعيش.. في الماضي كان يكفي أن تشتغل في جريدة، أما اليوم فعليك أن تشتغل في عدة جرائد، وتأخذ مساعدات ومنحاً وتبقى شحاذاً، وتقتنـع بأن ما تكتبه لم تعد هناك حاجة إليه. الكاتب الذي يحتاجه هذا النظام هو الكاتب الوظيفي، الذي يكتب إعلاناً ويقبض ثمنه، فيفقد كل مصداقية، ويتحول إلى حاجب عند زعماء البنوك أو مدراء العسكر أو شركات الأمراء...

هذا النظام الجديد الذي أرسته الحرب، وتكرسه اليوم أحاديث سلام الكانتونات واللامركزية والتعددية الحضارية، هو الفصل الأخير من عملية تحويل لبنان إلى قاعدة النهب في العالم العربي. والطوائف الجميلة هي الأداة والقوة والأفق.

لذلك بدلاً من نوستالجيا بيروت الثقافية، علينا أن نرى هذا النظام الجديد، وأن نؤسس لمعارضته، قبل أن تموت المعارضة في جيوب التافهين.

● **عن جريدة «السفير» ١٩٨٩/١/٢١.**

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



نيويورك

باريس لندن

فرانكفورت كوبنهاغن

جنيف بروكسل

زوريخ مدريد

نيس تونس

ميلانو مونروفيا

روما ابيدجان

اثينا لاغوس

اسطنبول كانو

بيروت

مسقط القاهرة

رأس الخيمة لرنكا

أبوظبي انقرة

دبي عمان

الدوحة بغداد

البحرين جدة

الظهران الخرطوم

الكويت عدن

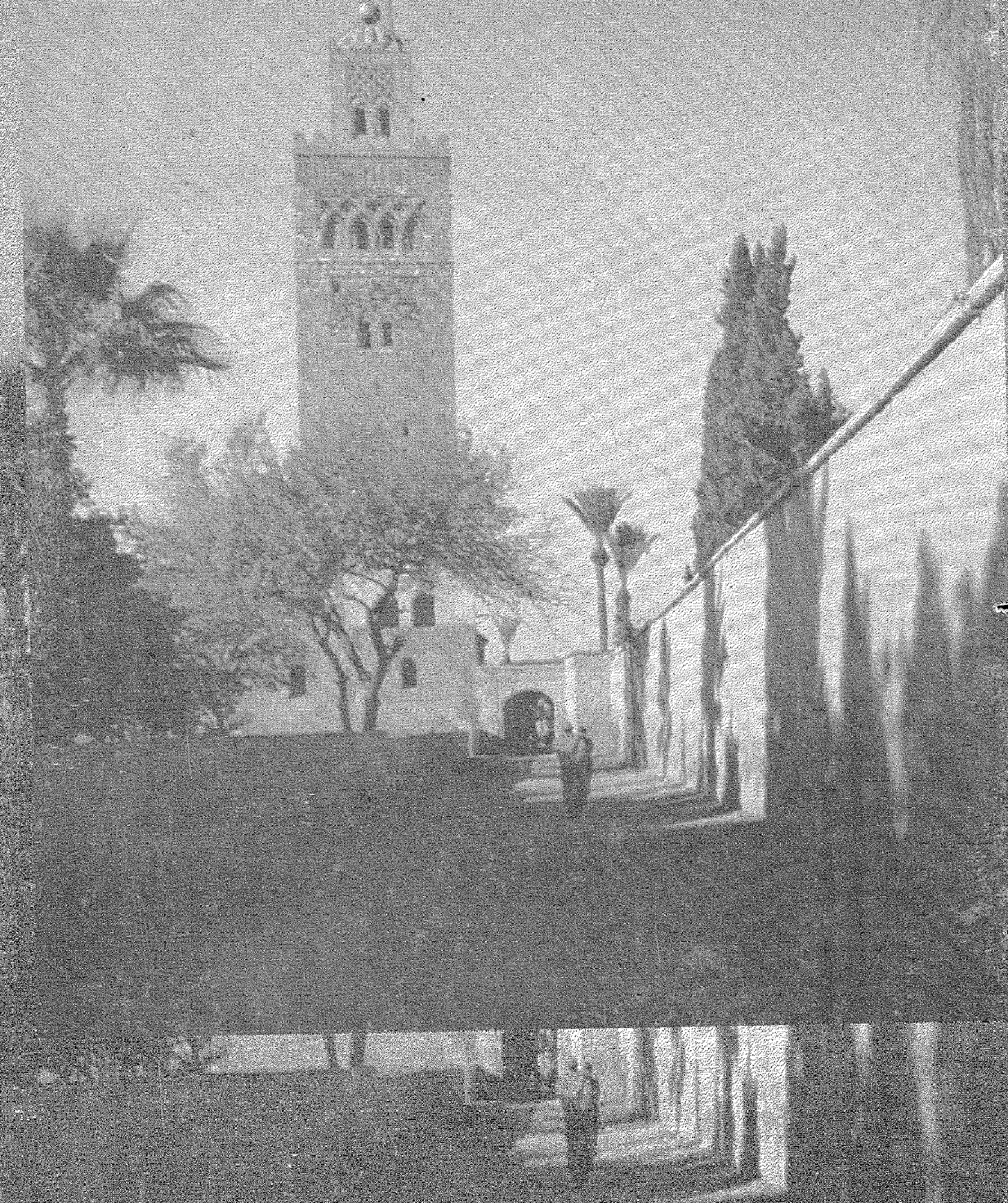


□ صورة جامعة للتراث العربي في الكويت.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الحادية عشرة - العددان: ١٢٥/١٢٦ - آذار (مارس) - نيسان (ابريل) ١٩٨٩ - الموافق رجب - رمضان ١٤٠٩ هـ



□ جانب من سور مدينة فاس في المغرب، هذه المنطقة التي عرفها ابن خلدون معرفة صحيحة.



□ جامع الكتبية في مراكش، من بدائع نماذج الفن المعماري الاسلامي

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٢٥/١٢٦ ــ آذار ــ نيسان ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

- في لبنان: ١٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان • بناية أبو هليل شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 15 No. 125/126 - March-April 1989

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



الجَوْلان في العهد القديم

غسان الحلبي

المجلس الدرزي للبحوث والإنماء

جالساً، على كرسيّ ذي عجلات، دعا رئيس مجلس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن الكنيست، لسنّ قانون ينصّ على «تطبيق قانون الدولة الإسرائيليّة وصلاحيّاتها وإدارتها على مرتفعات الجَوْلان». كان ذلك في الرابع عشر من شهر كانون الأوّل عام ١٩٨١ عندما وافق الكنيست على القرار المذكور بأكثرية غالبة. وكان بيغن قد ألقى خطاباً قبل المباشرة بعمليّة التصويت استهلّه قائلاً: «لن نجد في بلدنا أو خارجه رجلاً جادّاً درس تاريخ أرض إسرائيل، في وسعه أن يحاول إنكار أن هضبة الجَوْلان كانت على مرّ أجيالٍ عديدةٍ جزءاً لا يتجزّأ من أرض إسرائيل.»[١].



لم يكن هذا هو المبرّر الوحيد الذي استخدمه بيغن لحثّ النوّاب على الموافقة، ولكنّه كان، من دون شكّ، المبرّر الأكثر تمويهاً لحقيقةٍ تاريخيّة، يُستخدم لإثارة كنين الوجدان القومي في سبيل طمس القَدْر الأكبر من الوقائع المأساويّة التي يشرّعها القرار المذكور. فالحقيقة الجليّة التي تثبتها الدراسات الرصينة ويؤكّدها الباحثون الجادّون في تاريخ بني إسرائيل تؤكّد أن «نبذ المتداول» هو الجوهر في مجال الدراسات التوراتيّة[٢]. حتّى أن المنهجيّة المتّبعة في الكثير من المدارس المهتمّة بدراسة العهد القديم تعتمد القراءة النقديّة له[٣]، فتراها تذهب بعيداً في الكشف عن التناقضات التي تطرحها الروايات التوراتيّة، وتدأب في البحث الشاقّ عن تحديد المواقع الجغرافيّة المذكورة في تلك الصفحات العتيقة، وتسعى جاهدةً لعقد المقارنات مع ما يستجدّ اكتشافه في الحفريّات من آثار وعاديّات. كلّ هذا بحثاً عن الحقيقة الحيّة في روايةٍ استحوذَتْ على شيءٍ منها واستعصى الغالبُ الأغلب من تفاصيلها على اليقين، فعصفت به الشكوك حتّى أنّك تراه غارقاً في ظلمة النظريّات المتضاربة التي يُكذّبُ بعضُها بعضاً[٤].

سيتطرّق هذا البحث إلى تاريخ الجَوْلان(*)، تلك المنطقة التي يحدّها غرباً نهر الأردن في مجراه الأعلى، المنطلق من ينابيعه في جبل الشيخ إلى بحيرة طبريّا، والّذي يخرج منها باتجاه البحر الميت، ينتهي هذا الحدّ في نقطة مصبّ نهر اليرموك في الأردن. أمّا جنوباً فيحدّها نهر اليرموك وشمالاً سفوح جبل الشيخ وشرقاً نهر العلّان الذي يمثّل حدود هذه المنطقة مع حوران المجاورة.

والجَوْلان، حسب حدوده التّاريخيّة تلك، يؤلّف مَفْصِلاً مزدوجاً بين كلٍ من شرقيّ الجنوب اللبناني وغربيّ الشمال الأردني، وبين غربيّ الجنوب السوري مع الجليل في فلسطين. وقد بلغتْ خطورة أهميّته الاستراتيجيّة حدّها الأقصى في الصراع العربي الإسرائيلي الحالي، فقد كانت أرضه المسرح الوحيد على الجبهة الشرقيّة لأشرس العمليّات العسكريّة في حرب ٦ تشرين عام ١٩٧٣، بالرغم من أنّه يُمثّل ١/٧ من طول خطوطها مع العدوّ.

يتناول هذا البحث افتراضاً مغلوطاً[٥]، يضطرّه إلى التسليم، جدلاً، بصحّة الرواية التوراتيّة في الأسفار التي تروي قصّة خروج موسى من مصر إلى شرقيّ الأردن، ومن بعده خليفته يشوع بن نون إلى فلسطين، للبرهنة على أنّه، وحتّى في العقيدة الدينيّة لليهود، لم تكن منطقة الجَوْلان جزءاً من أرض بني إسرائيل، لا في عصر موسى وخليفته، ولا في عصر داود ومملكته، ولا أيضاً في عصر السبي والتيه. إن التّاريخ العبريّ نفسَهُ يؤكّد أن هذه المنطقة كانت جزءاً من سوريا، منذ ما قبل قدوم العبرانيين إلى زمن الفتح العربي الإسلامي وحتّى حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

وإذا كان آباء الصهيونيّة الحديثة يعتبرون أن التوراة هي «الصكّ التاريخي» الذي يثبت ملكيّة فلسطين وما جاورها ــ والمُلك لله في كلّ حال ــ، فإن الحقيقةَ تقضي بالقول إذاً أن مدوّنات التاريخ الآشوري والمصري والحثّي واليوناني والروماني والبيزنطي والصليبي هي، بالضرورة، صكوك تاريخيّة تثبت ملكيّة الأرض للمستعمرين المذكورين، وهو، كما يبدو لبداته العقول، باطل. إن الشعوبَ التي بادت عن هذه الأرض لا تملك حقّ ملكيّتها، وإنّما يملكه من تميّزت إقامته بالثّبات منذ آلاف السنين وحتّى يومنا الحاضر، وهو، كما يبدو لبداته العقول، حقّ صُراح.

الشعوب الساميّة

لقد اتّفق العلماء المختصّون في دراسة تاريخ الشعوب التي تعاقبت فوق مسرح الشرق الأدنى في الأزمنة القديمة على إطلاق تسمية «السّاميّة» عليها. لم يُعتمد هذا الاسم اعترافاً بحقيقةٍ تاريخيّة تزعم أن السّاميّين تسلسلوا من الابن الأكبر لنوح كما قالت التوراة، وإنّما لأنّ الدراسات والبحوث توصّلَتْ إلى نتائج علميّة دفعت بأولئك العلماء إلى الاتّفاق عليه مصطلحاً قابلاً لتعميم التسمية. من هذه النتائج أن الأشوريّين البابليين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين والعرب والحبش تكلّموا لهجات متعدّدة للغة واحدة، وأن تلك اللهجات هي «تنويعات للُغة السّاميّة الأم»[٦] نظراً لوجود نواحي تشابه جوهريّة في كيانها الأصل. إن التشابه يظهر

(*) يُقصد بالجَوْلان هنا ليس فقط مرتفعات الهضبة، بل وسهلها أيضاً.

أيضاً لدى المقارنة بين البنى الاجتماعيّة والعقائد الدينيّة والطّباع النفسيّة لتلك الشعوب. هذا ما فتح الباب لإطلاق النظريّات حول منشأ هذه الجماعات، وإذا كانت حقًّا، في ما مضى من الزّمان، «تتكلّم اللغة نفسَها وتعيش في المكان نفسه قبل أن تحصل بينهم الاختلافات»[٧].

من أشهر النظريّات التي أُطلقت واعتمدت في هذا الباب، أن الجزيرة العربيّة كانت الموطن الأصلي لتلك الشعوب التي تعرّضت منذ القدم وعبر الأزمان لضغوط سكّانيّة خطيرة دفعت بقاطنيها إلى التوجّه شمالاً، نحو الهلال الخصيب، طلباً للماء والكلأ، وذلك كلّما أدّت تلك الزيادات إلى تفاقم الوضع المعيشي، فتشكّلت عبر التاريخ موجات هجرة تفصل بينها مئات السنين. أقدم هذه الهجرات كانت هجرة الآموريين، ثم تلتها موجات الكنعانيين فالاراميين فالعبرانيين، ولاحقاً النبط والعرب[٨].

العبرانيّون «قبيلةٌ ساميةٌ خرجت من الصحراء»[٩] واتّجهت شمالاً، ومن هنا تبدأ الرواية التوراتيّة في سرد قصّة الآباء الأوّلين للشعب اليهودي، فتروي في سِفرها الأوّل قصّة إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب الذي أنجب اثني عشر ولداً، أحدهم يوسف الذي بِيعَ لتجّارٍ ذهبوا به إلى مصر وباعوه بثمنٍ بخس، ثم كان ما كان من قصّته المشهورة. وعاش العبرانيّون في مصر حتى حلول الثلث الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد حين خرج موسى بالشعب المختار من مصر إلى أرض الميعاد.

سنتعقّب خطوات نبيّ التوراة حسب روايتها، ونحاول ما أمكنتنا النصوص والمصادر أن نحدّد الأمكنة الجغرافيّة التي كانت مسرحاً للأحداث، محاولين بذلك رسم الحدود التي وضعتها التوراة نفسها لتمدّد الشعب العبراني آنذاك، ونتأكّد بعد ذلك من صحّة المقولة التي تعتبر أن الجَوْلان كان، تاريخيًّا، جزءاً لا يتجزّأ من أرض إسرائيل.

الغزو العبراني

بعد أن خرج موسى من مصر، استقرّ الشعب العبراني في بريّة فاران في قادش[١٠]، وهي الواحة الرئيسيّة الواقعة في شمال سيناء على بُعد ٧٥ كلم جنوبي بئر سبع غرباً[١١].

ومن هناك أرسل رجالاً ليتجسّسوا أرض كنعان[١٢]، وكانت مهمّتهم محدّدة باستطلاع أحوال الشعب والأرض والمدن. فذهبوا ورجعوا بعد أربعين يوماً ليقولوا لموسى إن الأرضَ حقّاً تفيض لبناً وعسلاً، غير أنّ الشعب الساكن في الأرض معتزّ، والمدن حصينةٌ عظيمةٌ جدًّا[١٣]. وتُحدّد الروايةُ التوراتيّة بوضوحٍ أسماء الشعوب التي كانت مقيمة في تلك الأرض وانتشارها جغرافيًّا، «فعماليقُ مقيمٌ بأرض النقب، والحثّي واليبوسيّ، والأموريّ مقيمون بالجبل، والكنعانيّ مقيمٌ عند البحر وعلى ضفّة الأردن»[١٤].

إن التوراة تجعل من حثٍّ واليبوسيّ والأموريّ أولاداً لكنعان الذين منهم تفرّقت عشائر الكنعانيّين[١٥]. وينقل ابن خلدون عن ابن إسحق أن عمليق ابنٌ للأوذ بن سام، وهو لود في التوراة، ومنهم الكنعانيّون وبرابرة الشام[١٦]. بيد أن هذا التعليل المقرّر استناداً إلى أنساب سِفر تكوينيّة أمرٌ لا تثبته الدراسات العلميّة الحديثة حيث تتباين بنتائجها عنه، فترجّح أن علّة منشأ ذكر «العماليق» تعود إلى التأثّر العظيم الذي أصاب القادمين الجُدُد لدى رؤيتهم للأضرحة الأثريّة المبنيّة بحجارةٍ كبرى، وإنّ وجود الحثّيين واليبوسيين يرتبط بحركةِ الهنود — الإيرانيين أو الهنود الأوروبيين في الشمال التي كانت سبباً في قدوم عدد كبير منهم، وهم من غير الساميّين، جنوباً حتّى فلسطين[١٧]. وأمّا الأموريّون والكنعانيّون فهم يمثّلون الموجة الأولى من الهجرات الساميّة إلى المنطقة كما سبق ذكره. ويُلاحظ في هذا الصدد أن المصادر وإن تباينت في أحكامها المتعلّقة بأصل هذه الشعوب، فهي تتّفق ضمناً على وجودها، مُضافاً إليه الاتّفاق على تحديد الخصائص الأنثروبولوجيّة لهذا الوجود. فمن خصائص البداوة المتمدّنة التي يستقرئها الباحث في تاريخ الشعوب الساميّة، تعلّقهم المتين بالمفهوم العشائري والقبلي الذي ينتقل معهم من عيش الصحراء المتقلقل إلى عيش الاستقرار في المدن، ممّا حدا بالأموريين والكنعانيين من بعدهم إلى العجز عن إنشاء دولةٍ قويّة موحّدة، وربّما إلى عدم التفكير أساساً في هذا الأمر، بل ظلّوا على حالتهم الاجتماعيّة — القبليّة الأولى من حيث انقسامهم إلى جماعات صغيرةٍ يحكم كلّ واحدةٍ منها مَلِك، فتضطرّ أمام هذا



□ مظاهرة شعبية في الجولان.

الواقع إلى التجمّع حوله في مدينةٍ لا تلبث أن تسعى دائبة إلى تحصينها وتقوية أسوارها. «وهذا هو بالضبط ما رآه جواسيس موسى من شعبٍ معتزٍ ومدن حصينة»[١٨].

ثم أرسل موسى، من قادش، رُسُلاً إلى ملك أدوم ليستأذنوه في العبور من أرضه إلى شرقيّ الأردن[١٩]. والأدوميّون بحسب الرواية العبريّة هم العشائر المتحدّرة من عيسو اخي يعقوب. وكان موطنها في الشرق والغرب من وادي العربة جنوبي البحر الميت، وما زال هذا الوادي محتفظاً باسمه إلى يومنا هذا. وبالرغم من القرابة التي كانت تربط الشعبَيْن، فقد أبى ملك أدوم أن يدع العبرانيين يمروا في أرضه، وهدّد بلقائهم بالسّيف، فتحوّل بنو إسرائيل عنه[٢٠]، ورحلوا جنوباً بقصد الالتفاف إلى ما وراء أرض أدوم شرقيّ وادي العربة.

كانت المنطقة الممتدّة من شرقي البحر الميت إلى حوران شمالاً مقسّمة إلى ثلاث ممالك كبيرة[٢١] وهي: ١ ــ مؤآب في الجهة الشرقيّة من البحر الميت، ويحدّها شمالاً نهر أرنون الواقع في منطقة تسمّى اليوم «وادي الموجب» في الأردن[٢٢].

٢ ــ أمّون وهي أرض سيحون ملك الأموريين، وتمتدّ من الضفاف الشماليّة لنهر أرنون إلى الضفاف الجنوبيّة لنهر يبّوق، وهو اليوم يدعى «نهر الزرقاء» في الأردن[٢٣].

٣ ــ مملكة عوج ملك باشان وتشمل أرضه المناطق الممتدّة من ضفاف يبّوق الشماليّة إلى حوران.

بدأت عملية الغزو المقدّس عند وصول العبرانيين إلى وراء أرنون، وإذا كان الرّبّ قد حذّرهم ــ كما تقول التوراة ــ من السيطرة على أراضي الأدوميين والعمونيين[٢٤] فمرُّوا من دون السيطرة عليها، فإنّ أرض الأموريين كان لا بُدّ لها من أن تسقط في أيديهم.

كان البابليون، فيما مضى من الزمان، وقبل هذه الأحداث بأكثر من ثمانمائة عام، يدعون سوريا وفلسطين أرض الأموريين[٢٥]. وللأموريين حضارة متقادمة في العصور، فقد أسّسوا عدة سلالات من أشور شمالاً وحتى لارسّا جنوباً بين عام ٢١٠٠ وعام ١٨٠٠ ق.م. وأهمّها سلالة بابل التي انتسب إليها حمورابي المشرّع العظيم[٢٦]. وقد أكّدت المكتشفات الحديثة في عالم الحفريّات على وجودهم التاريخي والحضاري في تلك المناطق منذ ما قبل قدوم الغزاة الجدد بعدّة قرون. غير أن المؤرّخ العبري لا يعبأ بتاتاً بتاريخ تلك الشعوب إلاّ من حيث وجودها العدائي المسبق في أرض الميعاد، بما يفرض حتميَّة الدخول معها في صراعٍ دونه مصير الشعب المختار. وهكذا، ضرب إسرائيل سيحون ملك الأموريّين بحدّ السّيف، وورث أرضه من أرنون إلى يبّوق[٢٧]، واستولى على جميع مدنه

وسكن فيها مع شعبه، «في حشبون وجميع توابعها»[٢٨]. وحشبون هي عاصمة الملك سيحون، تقع شرقيّ الأردن في بُعدٍ يبلغ حوالي عشرين ميلاً بموازاة الطرف الشمالي للبحر الميت[٢٩].

وتتابع التوراة في بقيّة سِفر العدد سرد عمليّة الغزو لتلك الأرض، حيث صعد العبرانيون في طريق باشان للقاء ملكها عوج الذي خرج للحرب واصطدم مع الشعب القادم، فضرب بالسيف هو وبنوه وجميع قومه حتّى لم يبقَ له ناج، وورثوا أرضه[٣٠]. كان موقع المعركة في أذرعي، فمنهم من يجعلها درعا الحالية في حوران[٣١] ومنهم من يجعلها ازرع[٣٢].

بعد هذه الانتصارات، عاد موسى ليستقرّ وشعبه في مخيّم شطيم في وادي الأردن، شرقيّ النهر مقابل أريحا[٣٣]. ومن هناك تطلّع موسى إلى أرض الميعاد من على جبل العباريم، وأبصرها، وكان دخولها محرّماً عليه، حيث سيتمّ بعد وفاته على يد خليفته كما ذكر.

الاستيلاء على عِبر الأردن

في هذه الأثناء، تطلّع سبطان ونصف من اسباط إسرائيل الاثني عشر، وهم بنو جاد وبنو رأوبين ونصف سبط منسّى إلى الأرض التي حولهم في شرقيّ الأردن، فلاحظوا أنّها صالحة لرعاية الماشية، غنيّة بالمياه والمراعي، فطلبوا من موسى أن يورثهم إيّاها على أن لا يرثوا شيئاً من أرض الميعاد في المستقبل[٣٤]. فأعطى لهم موسى مملكة سيحون ملك الأموريين، ومملكة عوج ملك باشان[٣٥]، فاستقروا فيها.

إنّ التحديد الجغرافي لكلٍ من حصّة بني جاد وبني رأوبين لا يثير كثير لغط، حيث امتدّت الحصّتان من أرنون جنوباً إلى يبّوق شمالاً[٣٦]. بيد أن تحديد الحصّة الثالثة التي نالها نصف سبط منسّى يكتنفه الغموض ممّا أوقع الكثير من المصادر القديمة والحديثة في تناقضٍ ملحوظ.

وأوّل ذكر لحصّة نصف سبط منسّى ترد في سفر العدد حيث يقول[٣٧]: «ومضى بنو ماكير بن منسّى إلى جلعاد، فاستولوا عليها وطردوا الأموريين الذين فيها، ومضى يائير بن منسّى واستولى على مزارعها وسمّاها مزارع يائير، ومن نولج استولى على قنات وتوابعها».

ويرد تحديدها للمرّة الثانية في سفر التثنية[٣٨] حيث يقول: «... وباقي جلعاد وكلّ باشان، مملكة عوج، أعطيتهما لنصف سبط منسّى، منطقة أرجوب كلّها وأرض باشان كلّها، فأخذ يائير بن منسّى منطقة أرجوب كلّها، إلى حدود الجشوريين والمعكيين، وسمّى باشان باسمه». ثم يرد تعيين هذه الحدود أيضاً في سِفر يشوع هكذا[٣٩]: «وعوج، ملك باشان... المقيم بعشتاروت وادرعي، وهو متسلّط على جبل حرمون وسلكة وكلّ باشان، إلى حدود الجشوري والمعكي، وإلى نصف جلعاد... هذه الأرض أعطاها إرثاً لنصف سبط منسّى». وقد ذُكرت هذه الحدود أيضاً في غيرها من المواضع.

الجَوْلان: مدينة ـــ ملجأ

هناك أيضاً تفصيلٌ هام يُضاف إلى هذه المعالم الحدوديّة لحصّة نصف سبط منسّى. ففي الشريعة الموسويّة تدبيرٌ يُطبَّق على القاتل عن غير عمد هو نفيه إلى مدينة مَلجأ يفرزها قائد الشعب لتنفيذ هذا التدبير، حسب ما ورد في سفر الخروج: «الذي لم يتعمّد القتل بل أوقع الله في يده، فأنا أجعل لك مكاناً يهرب إليه». وهكذا، فقد حدّد موسى مدينة «جَوْلان في باشان للمنسيين»[٤٠] كمدينة ـــ ملجأ يهرب إليها القاتل عن غير قصد.

وهذا هو أوّل ذكر في التوراة للجَوْلان.

إن أوّل ما يُلاحظ في هذا الصّدد، أن الاسم وقع على مدينةٍ وليس على منطقةٍ كبيرة كما هو اليوم. إن تلك التسمية المحدودة لن تُعمَّم على مقاطعةٍ واسعة إلاّ بعد حوالي الألف سنة من تاريخ بداية الغزو العبري وذلك في العهد اليوناني ـــ الروماني حيث أُطلق اسم «جولانيتس» على منطقة، كانت هضبة الجَوْلان كما هي معروفة في يومنا هذا، تُشكّل جزءاً منها[٤١].

وهذا ما يثير سؤالاً دقيقاً: أين كان إذاً موقع تلك المدينة في زمن موسى؟

لقد دأب العديد من الباحثين للإجابة على السؤال، فتنوّعت الأجوبة من حيث دقّة التحديد، لكنها أجمعت على أن ذلك الموقع كان خارج حدود منطقة الجَوْلان كما تظهر على الخرائط الحديثة[٤٢].

فقد حدّد موقعها الأب غرولنبرغ بقرية «سحم



الجَوْلان» الحالية[٤٣]، ومنهم من جعله في قرية «نوى» الحالية[٤٤]، كما أنه ورد في الموسوعة البريطانيَّة أن موقعها كان في منطقة حوران[٤٥].

فيا لها من مفارقةٍ عجيبة، أن يكون موقع المدينة التاريخي ما زال في سوريا، بينما تضمّ إسرائيل منطقة بأكملها بحجّة أن لها حقّاً تاريخيًّا مزعوماً فيه!

المنهجية التاريخيَّة للعهد القديم

ضمن أية حدود إذاً كانت تقع هضبة الجَوْلان وسهلها آنذاك؟ وما كان اسمها؟

هذا ما يعيدنا إلى البحث في قضيّة حدود نصف سبط منسّى كما وردت في التوراة نفسها. ولكن لا بُدّ لنا قبل ذلك من استطراد يتعلّق بالمنهجيَّة التاريخيَّة لنصوص الشريعة العبريَّة. فإن الأحداث التي لخّصناها جرت، حسب تقديرات الباحثين، في ما بين ١٣٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. والرواية التوراتيَّة التي كُتبت تعود إلى ما بعد هذا التاريخ بقرون عديدة «فأسفار موسى يجب أن تكون قد جُمعت وقُبلت واعترف بقدسيّتها في القرن الخامس قبل الميلاد حوالي عام ٤٤٤. وكُتُب الأنبياء حوالى ٢٥٠ و ٣٠٠ ق.م. *والكتب المقدّسة* بين ١٥٠ ق.م. إلى ١٠٠ بعد الميلاد»[٤٦]. أي بعد حصول السبي للشعب اليهودي لعدّة مرّات.

وإذا كان العبران السبّاقين إلى تدوين تاريخهم بأسلوب الرواية المقدّسة، فإنّ مآسي السبي والتّيه دفعتهم إلى وضع الأساس المعنوي للوطن الموعود. وإذا كان البحث العلمي يُثبت أن استقرار العبران في الجزء الجنوبي من سوريا (فلسطين)، كان في بقعةٍ صغيرة لا تتجاوز العشرين ميلاً عرضاً في خمسين ميلاً طولاً[٤٧]، فإن مدوّني الروايات التوراتيَّة جعلوا من تلك الفترة عَرْضاً ملحميًّا أرادوا له أن يكون الضمانة التي باستطاعتها أن تُلهب الأفئدة تحناناً إلى أرض الميعاد بعد أن فعل الشتات فعلَهُ في تشرذم الشعب، والسيف والنار فعلَهما في أورشليم وهيكلها القديم.

هذا ما يجعل من كلّ محاولةٍ لضبط الحدود الجغرافيَّة لتلك الأسماء المتغيّرة نوعاً من الغوص في رملٍ متحرّك خاض فيه الكثيرون من أرباب التأريخ والبحث. غير أن الدراسة النقديَّة

للنصوص التوراتيّة، والمكتشفات المثيرة في عالم الحفريّات والآثار، والدراسات المتعمّقة في تلك المواضيـع، جعلت من عمليّة الغوص تلك فعلاً ممكناً يتقدّم فيه اليقين على حساب الأساطير القوميّة وما يكتنفها من ضباب التشويه.

وبدافـع من تلك البوادر المشجّعة سنبحث أمر تحديدُ تلك الحدود.

تفصيل حدود حصّة نصف سبط منسّى

ورد معنا، في التحديد الأوّل السالف الذكر، أن يائير بن منسّى مضى إلى جلعاد واستولى على مزارعها وسمّاها مزارع يائير. ولا يختلف المحقّقون حول تحديد الموقـع الجغرافي الحالي لجلعاد. فهي «قطر جبليّ شرقيّ الأردن، يشتمل البلقاء الحديثة»[٤٨]. وفي الإمكان تحديد موقـع «مزارع يائير» في هذه المنطقة على الخرائط الجغرافيّة المتعلّقة بالموضوع[٤٩]. وفي كلّ الأحوال، فإنّ هذه المنطقة تقـع جنوبـي نهر اليرموك.

ويرد في التحديد الثاني لحصّة نصف سبط منسّى الوارد في سِفر التثنية أن «باقي جلعاد وكلّ باشان، مملكة عوج، منطقة أرجوب كلّها أُعطِيت لهم، «إلى حدود الجشوريين والمعكيين».

وهنا أيضاً، يتّفق المحقّقون حول الموضـع الأصل لباشان، ولكن الآراء تتضارب حول تحديد تخوم هذه المملكة. فالمتّفق عليه أنّ «حوران هي باشان في التوراة»[٥٠]، غير أنّ اشتمال بعض الآيات التوراتيّة المتعلّقة بحدود مملكة عوج على ذكر جبل حرمون أوقـع بعض الباحثين في خطأ التعميم من دون الأخذ بالحسبان تضارب تلك الآيات نفسها.

فمنهم من يجعلها «البثنيّة» الحالية حيث كان موقعها بين جبلي حرمون وجلعاد شرقي نهر الأردن، ونسبت إلى جبلٍ فيها اسمه باشان وهو جبل حوران اليوم[٥١]. ومنهم من حاكى في تعريفه بتلك الحدود بعض الآيات دون أن يحاكي بعضها الآخر، فقال: «إن مملكة عوج وبلاد باشان امتدّت من وادي أرنـون (وادي المحجب الآن) إلى جبل حرمون[٥٢]. وكان من نتيجة هذا التحديد أن نصيب نصف سبط منسّى بات شاملاً جميـع السهول الواقعة على عدوة الأردن الشرقيّة بين بحيرة طبريّا جنوباً وبحيرة الحولة شمالاً حيث الجَوْلان الآن[٥٣].

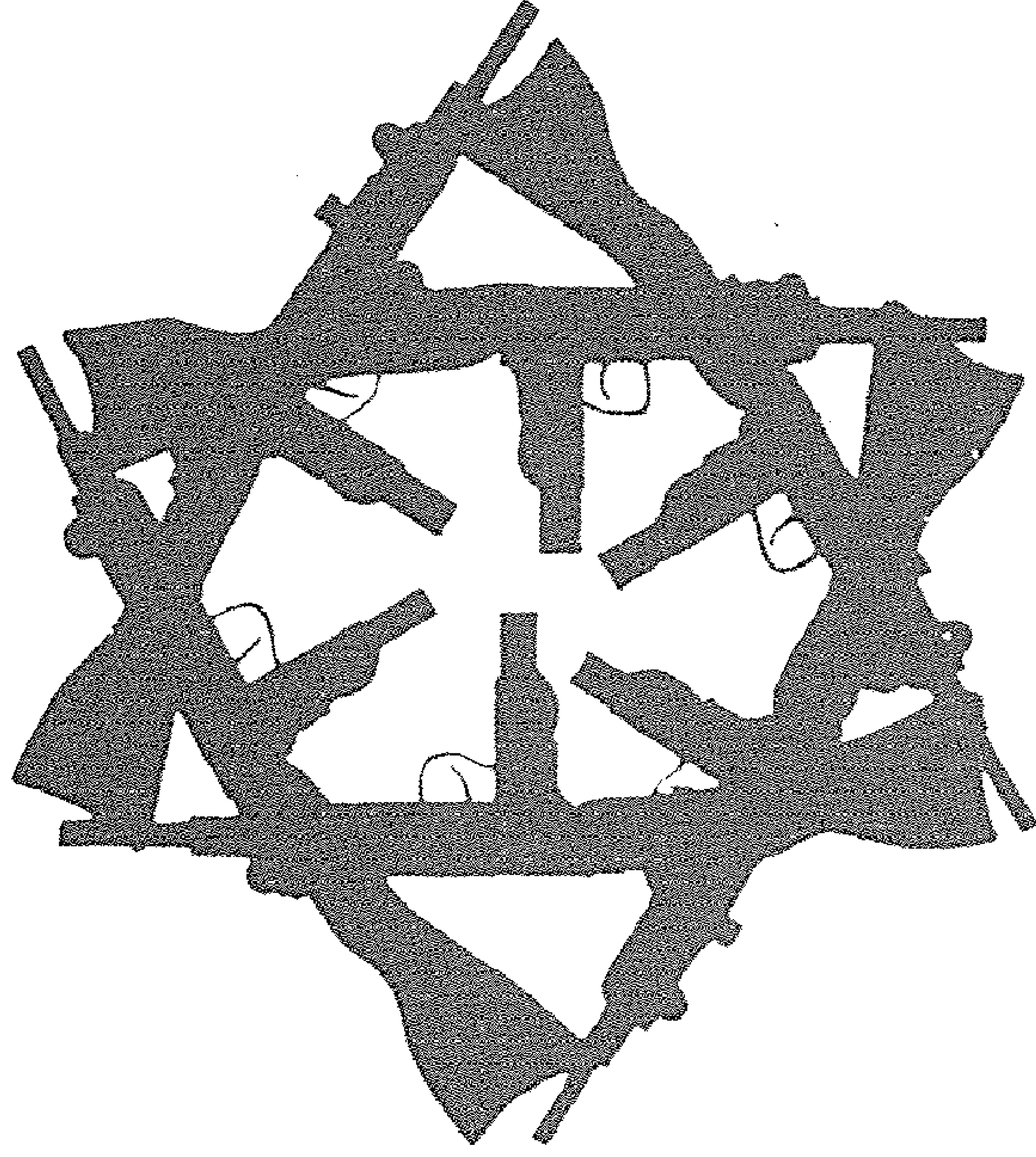
وأمّا القسم الآخر من الباحثين فقط تحفّظ أمام هذه العقدة، ولم يُطلق إلاّ الأحكام المـدروسة والموثوق بها، فباشان «تقتصر على السهل الواقـع شرقيّ الجَوْلان وغربـيّ اللّجا وجبل الدروز»[٥٤]. ويُلاحظ في هذا التحديد أن منطقة الجَوْلان الحالية ظلّت خارج حدود باشان. وقد حدّد موقعها مصدر آخر بأنّها كانت في موقـع محافظة درعا الحاليّة في سوريا[٥٥]، ومن المعروف أن منطقة الجَوْلان تقـع حاليًّا في محافظة القنيطرة. ومن ناحيةٍ أخرى فإن الخرائط التي تثبتها المراجـع المختصَّة في متنها تُثبت هذه الحقيقة، حيث يظهر اسم باشان فوق حوران واللجاه، بينما تظهر منطقة الهضبة وسهلها خارج تلك الحدود[٥٦].

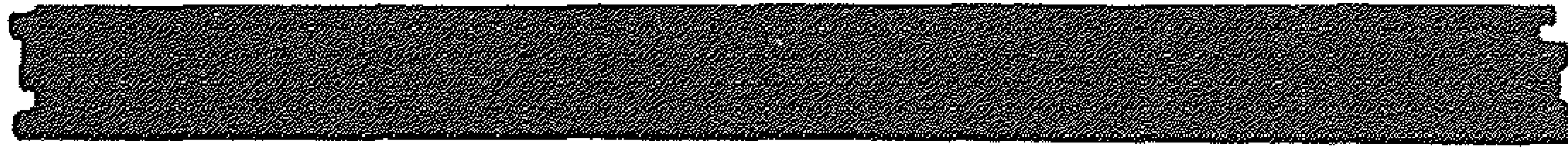
وفي عودةٍ إلى التحديد التوراتي الثاني لحصّة نصف سبط منسّى، نجد أن مملكة عوج تتضمّن منطقة أدجوب التي كانت من نصيبهم أيضاً، وأدجوب هي «إقليم في باشان»[٥٧] حيث هي منطقة «اللجاه»[٥٨] في جبل حوران اليوم.

وأمّا المدن الوارد ذكرها في تلك الرسـوم التوراتيّة، فتقـع كلّها في حوران كما هي معروفة اليوم، فقنات هي «قنـوات» الحاليـة بإجمـاع المحقّقين[٥٩]، وسلكة هي صلخد الحاليّـة[٦٠]، وأدرعي هي «درعة»[٦١] الحالية، أو «إزرع»[٦٢] كما عند آخرين.

يبقى لدينا مَعْلَمٌ في تلك الرسوم لم نتناوله بعد بالبحث والتدقيق. فقد ورد في كلا التحديدَيْن الوارِدَيْن في سِفري التثنية ويشوع ذكر امتداد نصيب نصف سبط منسّى «إلى حدود الجشوريين والمعكيين». أو «حدود الجشوري والمعكي». وقد حدّدت بعض المراجـع حدود باشان الشرقيّة بهذا الفاصل[٦٣]، فمن هو الجشوري والمعكي؟ وأين تقـع حدودهما، وبالتالي منطقتهما؟

وإذا وضعنا «معكة والمعكيين» جانبـاً، لأن ما يهمّنا هنا هو «جشور»، فإنّنا نجد إجماعاً في المصادر التي تنبّهت لوجود هذه المملكة الصغيرة على أنّ موقعها كان في شرقيّ نهر الأردن في مجراه الأعلى وغربـيِ باشان، حيث يحدّها شمالاً جبل حرمون وجنوباً نهر اليرموك[٦٤]. وهذا هو بالضبط





موقـع منطقة الجَوْلان الذي احتلّته إسرائيل في حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ للميلاد.

«و «جشور» اسم عبري معناه «جسر» كانت مقاطعة واقعة بين حرمون وباشان، وعلى حدودها يوجد جسر على نهر الأردن بين طبرية والحولة يُعرف بجسر بنات يعقوب[٦٥]، وما زال يُعرف بهذا الاسم إلى يومنا هذا. والذي دعا الباحثين إلى الاهتمام بهذه المقاطعة والبحث عن موقعها هو ما ورد في سِفر صموئيل الثاني عن أبشالوم ابن الملك داود، فبعد أن قتل الملك أمنون الذي كان قد اغتصب أخته، هرب من أبيه «وذهب إلى تَلْماي بن عمّيهود، ملك جشور»[٦٦]، ولبث هناك منفيًّا ثلاث سنوات. وهذا يدلّنا على أن «جشور» بقيت مملكة مستقلّة حتّى أيام داود الملك، وإلى ما بعد ذلك.

وتُجمـع الأبحاث على تحديد موقعها كما ورد أعلاه. وقد استدرك صاحب «تاريـخ سورية» هذا الأمر بإضافة هامشٍ إلى تاريخه يقول فيه: «الأظهر أن مملكة هذا الملك (جشور) كانت في جنوبـي جبل الشيـخ وشمالي السلط حيث الجَوْلان والجيدور الآن»[٦٧]. وهذا ما تؤكّده أيضاً الخرائط المثبتة في المراجـع المختصّة حيث يظهر اسم «جشـور» Geshur فوق منطقة الجَوْلان وهي تخلو من أيّ اسمٍ آخر[٦٨].

لقد حدّد العهد القديم بوضوحٍ تام هويّة «جشور» الجغرافيّـة، حيث قال في الإصحـاح الخامس عشر من سِفر صموئيل الثاني على لسان أبشالوم مخاطباً داود الملك: «.. إن عبدَك نذر نذراً حين كنتُ مقيماً بجشور في أرام». وهذا ما يدعونا بدوره إلى السؤال عن آرام والآراميين.

الآراميّون

مرّ معنا في بدايات هذا البحث أن الآراميين كانوا من الشعوب الساميّة التي انتقلت من مكانٍ ما، يُرجَّح أنه شبه الجزيرة العربيَّة، إلى الشمالً. وقد شكّلوا الموجة الثالثة الكبرى لهجرة تلك الشعوب من موطنها الأصلي إلى بلاد الرافدَيْن حيث لم تلبث حرّان أن أصبحت من أعظم مراكز الحضارة الآراميّـة قبل احتـلالهم دمشق[٦٩]. واستمـرّ الآراميون بانتشارهم مغيّرين بذلك الوجه العتيق للشرق الأدنى القديم[٧٠]. وتمّ لهم فتـح الشام عند

مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فتأسَّست الممالك الآراميَّة في بابل، وإلى الجنوب منها، وفي منطقة الجزيرة السوريَّة، وعلى ضفاف الفرات من كركميش حتى عانة، وفي بلاد الشام الداخليَّة من جبال طوروس حتّى نهر الزرقاء بالأردن(٧١). ولم يكن في مقدور أيّ إمارة من هذه الإمارات التي قامت إلى جانب بعضها البعض أن تملك القوّة الكافية للهيمنة وتشييد دولة مركزيَّة تخلف الدولة الحثيَّة(٧٢). ويعود هذا إلى أسباب عديدة، منها كما ذُكر سابقاً الطبيعة العشائريَّة للشعوب الساميَّة حيث نشأت هذه الممالك على أساس نظام قبلي بدائي لم يستطع أحد تبديله(٧٣). ومنها تعدّد الآلهة التي عبدوها، فقد قال الآراميّون بآلهة المناطق التي نزلوا فيها: آلهة الحوريّين والحثّيين والبابليين والكنعانيّين والفينيقيين(٧٤).

ومن أقوى الممالك الآراميَّة التي نشأت وقامت بدور مميّز في تلك الفترة التاريخيّة كانت مملكة دمشق حيث أصبحت مملكة كبرى تمتدّ إلى الفرات من جهة وإلى اليرموك من جهةٍ أخرى، وكانت متاخمة للأراضي العبرانيَّة في الجنوب، ومنطقة دمشق هذه هي التي يعنيها العهد القديم حين يشير إلى آرام أو سورية(٧٥).

وقبل أن تقوم دمشق بدورها المميَّز المشار إليه في توحيد القسم الكبير من تلك الممالك الآراميَّة تحت سيطرتها، فإنّ تلك الممالك انتشرت كما ذكر آنفاً، وقد أُحصي عدد منها كآرام نهرايم وآرام فدّان وآرام دمشق وآرام صوبا وآرام معكة وآرام جشور(٧٦)، وإلى هاتَيْن الأخيرتَيْن أشارت التوراة في قولها: «إلى حدود الجشوريين والمعكيين».

فإذا أردنا الآن ـــ وقد أخبرتنا الحقائق عن جليّة الأمر ـــ ترجمة التعبير الوارد في التوراة نفسها عن «جشور في آرام» إلى الواقع الجغرافي الحديث، وجدناه يعني، وبكلّ دقّة، «الجَوْلان في سوريا».

العلاقة بين الآراميّين والعبرانيين

يبقي أن نشير إلى نوعيّة العلاقة القائمة بين الشعبَيْن العبري والآرامي في تلك المرحلة من التاريخ، لتوضيح مدى أهميّة استقلال تلك المملكة الصغيرة عبر مئات السنين. فبالرغم من أنّ الآراميّين هم على الأرجح أقرب الشعوب الساميَّة إلى العبرانيين(٧٧)، فإنّ تاريخاً حافلاً بالحروب بينهما وسم العلاقة بين الشعبين منذ بداية الغزو العبري وحتّى القضاء على الآراميين على يد تغلات فلاسر الثالث الآشوري عام ٧٣٢ ق.م.

لقد توقّف الغزو العبري عند «حدود الجشوريين والمعكيين» كما مرّ معنا آنفاً، وبقيت هاتان المملكتان الآراميّتان خارج تخوم الأراضي المحتلّة. وقد حافظتا، كما ذُكر، على استقلالهما عن النفوذ العبري حتّى في أيّام داود الملك، بالرغم من أنّ فتوحاته وصلت، كما قيل، إلى حدود مملكة حماه شمالاً، وأسّس مملكة كانت أقوى دولة محليّة ظهرت في فلسطين في أيّ عصر(٧٨). وفي القصّة التي ذكرناها عن أبشالوم بن داود ما يؤكّد استقلال جشور الآرامية في العهد الأقوى لملوك إسرائيل، وقد أشارت بعض المراجع إلى هذه الحقيقة بوضوحٍ تام(٧٩).

وما لبثت المملكة العبرانيَّة أن انقسمت على ذاتها بعد انقضاء عصر داود وابنه سليمان الذهبي، فقد خَلَف سليمان رَحَبْعام، وتمرّد يارُبعام على بيت داود فجعلوه ملكاً على إسرائيل(٨٠)، فانقسمت المملكة ونشبت الحرب بين رحبعام ملك يهوذا وياربعام ملك إسرائيل «كلّ الأيام» على حد تعبير الآية التوراتيّة(٨١).

واستمرّت الحرب بين المملكتين في أيام خليفتَيْهما آسا وبَعْشا(٨٢). ويبدو أن الحقد الدفين بينهما دفع بآسا ملك يهوذا إلى الاتّصال بالآراميّين فبعث برسالةٍ إلى بنْهدد ملك دمشق وأرفقها بهديَّةٍ من ذهبٍ وفضّةٍ ودعاه إلى نقض عهده مع بعشا لينصرفَ هذا الأخير عنه(٨٣)، فما كان من بنهدد إلاّ أن اغتنم الفرصة المتاحة له وهاجم المناطق الشماليَّة لمملكة إسرائيل. وكانت هذه الحادثة بداية للتدخّل الآرامي فيما بين مملكتَيْ العبران، مرّة لصالح هذه، وأخرى لصالح تلك، وفي أغلب الأحيان كان التدخّل استغلالاً لتفرّق المملكتَيْن ليتحكّم الملك الآرامي الدمشقي في أمورهما(٨٤).

رافق هذا محاولة بنهدد الثاني جمع قوى الملوك الآراميّين في تحالفٍ كبير. فقد جمع بنهدد هذا «كلّ جيشه ومعه اثنان وثلاثون ملكاً، وحاصر السّامرة وحاربها»(٨٥). ويبدو أنّه منذ ذلك العهد بزغ نجم دمشق كقوّة توحيديّة للممالك الآراميّة



نصر.. لا بد آت



المستوطنون

الصغيرة، فجمعت تحت لوائها تلك القوى المبعثرة واخذت تُعرف باسم آرام[٨٦]. وهذا ما يفسّر لنا أسباب اختفاء ذكر «جشور» وغيرها بعد ذلك التاريخ من على صفحات العهد القديم.

استمرّت الحروب الآراميّة ــ العبرانيّة سجالاً طيلة القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد. وفي عهد ياهو ملك إسرائيل ٨٤١ ــ ٨١٤ ق.م. وجّه الآراميّون بقيادة حزائيل، خليفة بنهدد ـ الثاني، ضربة كبيرة لبني إسرائيل، فقد «ضربهم من شرقيّ الأردن، ضرب كلّ أرض جلعاد، من الجاديّين والرأوبيّين والمنسيّين، واستعاد الأرض من عروعير التي على وادي أرنون، إلى جلعاد وباشان»[٨٧] وهكذا خسر بنو إسرائيل جميع ممتلكاتهم في عبر الأردن[٨٨].

واكثر من هذا، ففي عهد ابنه بنهدد الثالث «غضب الربّ على إسرائيل واسلمه إلى يد بنهدد بن حزائيل ملك آرام، فأبادهم وجعلهم مثل التراب الذي يُداس»[٨٩]. ويتّضح لنا من هذه المرويّات التوراتيّة أن السيطرة الآراميّة لم تقتصر على اراضي آرام (سورية) فقط، بل امتدّت في الكثير من الأوقات إلى الأردن وفلسطين، وحتّى إلى اورشليم نفسها[٩٠].

وفي الربع الأوّل من القرن الثامن ق.م. كان الآشوريّون قد بدأوا بالظهور قوةً عسكريّة قادرة على تغيير وجه المنطقة من جديد. ففي عام ٧٣٤ ق.م. جاء تجلت فلاسر ملك أشور، واستولى على القسم الأكبر من مملكة إسرائيل، وجلا شعبها إلى أشور، فيما سُمّي بجلاء الإسرائيليّين الأوّل[٩١].

وفي سنة ٧٣٣ ق.م. قام بحملةٍ على دمشق واخذها، وكان على رأسها «رصين» ملك آرام الذي قتله تجلت فلاسر وقضى بذلك على آخر ملوك دمشق[٩٢]. وأصبح الآشوريون القوّة الدوليّة الكبرى في المنطقة لم ينافسهم في الصراع عليها إلّا فراعنة مصر.

وظهر البابليّون فيما بعد قوةً ثالثة كبرى، حيث سيتمّ على يدهم سقوط أورشليم وخراب هيكلها بعد حوالى قرنين ونصف من الزمان.

تكييف التاريـخ

يتبين لنا فيما تقدّم أن مملكة «جشور» الآرامية، التي سُمّيَت في العهـد اليونـاني ــ الروماني بمقاطعة جـولا نيتس، وبالجَـوْلان بعد دخـول الغساسنة العرب إليها، قد ظلّت إبّان العهد العبري القديم محافظة على استقلالها خلال قرون عديدة.

وقد دخل العبرانيون فيما بعد في «الشتات»، ودخلت «جشور» في النسيان، وخضعت المنطقة لحكم الغساسنة العرب منذ ما قبل الفتـح العربـيّ بزمانٍ طويل، مفتتحين بذلك عهداً عربيًّا سيمتدّ إلى اكثر من ستّة عشر قرناً.

لقد احتلّت إسرائيل في حرب الخامس من حزيران منطقة الجَوْلان، وباشرت بعدها عمليّة إقامة المستعمرات ليُبعث اسم «جشور» من جديد ويظهر على الخرائط الحديثة، ولكن هذه المرّة مستعمرة يهوديّة صغيرة واقعة شرقي بحيرة طبريّا، لا يتعدّى عدد سكّانها العشرين[٩٣].

إنّها أمثولة غاشمة لعمليّة تكييف التاريـخ فيما يخدم المصالـح والأهداف. لقد مُسِخَت المملكة الآراميّة القديمـة إلى عدّة بيـوتٍ من خشب، وأصبحت مدينة ــ الملجأ التوراتيّة المُستخدَمة كمنفى بعيد هي المملكة الحديثة التي تؤلّف جزءاً لا يتجزّأ من أرض إسرائيل، وإذْ بأراضيها تمتدّ من اليرموك ذي المياه العذبة إلى قمم جبل الشيـخ الجميلة المغطّاة بالثلـج الأبيض والتي تُغذّي تلك الينابيـع الحيويّة لنهر الأردن العتيق. ●

الهوامش

(١) نشرة مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، السنة الثانية عشرة، عدد ١، كانون الثاني، ١٩٨٢، ص ٣.
رَ أيضاً: **Revue d'études Palestiniennes** No. 3 printemp 1982 Dossier: L'annexion du Golan p. 112. Discours de Begin à la Knesset p. 129.

(٢) د. كمال الصليبـي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت، كانون الأول ١٩٨٦، الطبعة الثالثة، ص ٥٧. = [صليبـي: ١٩٨٦].

(٣) انظر مقالة د. أنيس فريحة: «الدراسة النقديّة للتوراة، مثال على تحرّر الفكر» في كتابه: **دراسات في التاريـخ**. دار النهار للنشر. بيروت ١٩٨٠، ص ١٧٥. = [فريحة: ١٩٨٠].

(٤) لقد استطاع د. صليبـي أن يقتنـع بعد دراساته «الجادّة» بحقيقةٍ مفادها أن «التوراة جاءت من جزيرة العرب» كما عَنْوَن كتابَه، وليس كما المتداول من فلسطين!!

(٥) قاعدة في علم الحساب، يجوز استعمالها للوصول إلى الحلّ الصحيـح.

(٦) صليبـي: ١٩٨٦. ص ٤٤ هامش رقم ٢٠.
انظر أيضاً: د. جواد علي، **المفصّل في تاريـخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة بغداد، بيروت ١٩٧٦، المجلّد الثامن ص ٥٢٥، فصل: اللغات السّاميّة. = [المفصّل: ١٩٧٦].

(٧) د. فيليب حتّي، **تاريـخ سورية ولبنان وفلسطين**، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢، الجزء الأوّل ص ٦٧. = [حتّي: ١٩٨٢].

(٨) انظر حتّي: ١٩٨٢، القسم الثاني ص ص ٦١ ــ ٢٣٨.
أيضاً: **المفصّل**: ١٩٧٦. المجلّد الأوّل. الفصل السادس ص ص ٢٢٢ ــ ٢٦٠، حيث يقدّم عرضاً هامّاً لمختلف النظريّات ويعلّق عليها.

(٩) فريحة: ١٩٨٠، ص ١٧٥.

(١٠) اعتُمِد في سرد النصّ التوراتي على المصادر التالية:

1 ــ **La Sainte Bible,** traduite en français sous la direction de l'ecole Biblique de Jérusalem. Paris 1956 = [B.J: 1956].

ب ــ **الكتاب المقدّس**: **كتب الشريعة الخمسة**، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت ١٩٨٧ = [مشرق: ١٩٨٧].

ج ــ **الكتاب المقدّس**: **كتب التاريـخ**، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦ = [مشرق: ١٩٨٦].

واعتُمد على تحديد الأماكن الجغرافيّة التوراتيّة ومواقعها الحاليّة، بصورةٍ رئيسيّة على المراجـع التالية:

أ ـــ William Smith, L.L.D., A **Dictionary of the Bible**, Regency Reference Library, printed in the U.S.A. 1967 = [SMITH Dic].

ب ـــ **Atlas de la Bible**, Luc A. Grollenberg, o.p., traduit et adapté du néerlandais par René Beaupère, o.p., 3 eme édition, Imp. en Belgique 1954. Elsevier = [ATLAS: 1954].

ج ـــ نخبة من الأساتذة، هيئة التحرير د. بطرس عبد الملك، د. جون الكساندر طمسن، أ. إبراهيم مطر، **قاموس الكتاب المقدّس**، قدّم له د. فيليب حتّي. نشر مكتبة المشعل الإنجيلية = [قاموس].

(١١) **مشرق**: ١٩٨٧، هامش ٧، ص ٣٠٧ ـــ راجـع أيضاً خريطة في **B.J.: 1956, p. 1674**.

(١٢) سفر العدد، إ ص ١٣.

(١٣) عدد ١٣: ٢٧، ٢٨.

(١٤) عدد ١٣: ٢٩.

(١٥) تكوين ١٠: ٦، ١٥، ١٦. يعزو بروكلمان السبب في إقصاء الكنعانيين من الشعوب السامية إلى أسباب سياسية ودينيّة. ر: المفصّل: ١٩٧٦، جزء ١، ص ٢٢٤.

(١٦) ابن خلدون، **كتاب العِبر وديوان المبتدا والخبر**... القسم الأوّل ـــ المجلّد الثاني ـــ بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٧. ص ١٢ ـــ ١٣.

(١٧) حتّي: ١٩٨٢، ص ٢٨، ١٥٧.

(١٨) حتّي: ١٩٨٢، ص ٨١، ٨٨.

(١٩) تقول التوراة إن موسى وهارون طلبا الماء لشعبهما في بريّة صين، فأوحى الله إليهما ان يأمرا الصخرة، لكنّ موسى ضربها بعصاه مرّتين، فغضب الرّبّ منهما لأنّهما «لم يؤمنا به ولم يقدّساه على عيون بني إسرائيل، فلذلك لن تُدخلهما هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطاهم إياها»، كما جاء في سفر العدد، الإصحاح العشرين. وبسبب هذا العقاب، توجّهت حركة موسى الاستيطانيّة إلى شرقيّ الأردنّ. وسيكون من نصيب خليفته يوشـع بن نون أن يقود الشعب العبراني، بعد موت موسى، إلى غزو أرض الميعاد التي تفيض لبناً وعسلاً.

(٢٠) تدور هذه الأحداث في الإصحاح العشرين من سِفر العدد.

(٢١) **B.J**: 1956, v. la Carte, p. 1672.

(٢٢) **SMITH Dic.**, p. 56.

(٢٣) **SMITH Dic.**, p. 224.

(٢٤) تثنية ٢: ٣٧.،

(٢٥) قاموس ص ١١٩ ـــ ١٢٠.

(٢٦) حتّي: ١٩٨٢، ص ٧٢.

(٢٧) عدد ٢١: ٢١، ٢٤.

(٢٨) عدد ٢١: ٢٥.

(٢٩) **SMITH Dic.**, p. 245.

(٣٠) عدد ٢١: ٣٣، ٣٥.

(٣١) **قاموس**، ص ٤٢ أيضاً **ATLAS** p. 148, v. la Carte 11.

(٣٢) **SMITH Dic.**, p. 156.

(٣٣) **SMITH Dic.**, p. 625.

(٣٤) عدد ٣٢: ١ ـــ ٥، ١٩.

(٣٥) عدد ٣٢: ٣٣ وباشان تعني الأرض الكثيرة الثمر.

(٣٦) See Map No 9 in **SMITH Dic.**; and Map No 11, p. 59 in **ATLAS: 1954**.

(٣٧) ٣٢: ٣٩.

(٣٨) تثنية: ٣:١٣.

(٣٩) يشوع ١٢:٤.

(٤٠) تثنية ٤:٤٣، ويشوع ٢٠:٨ و ٢١.

(٤١) **The New Encyclopedia Britannica** 1978 — pr. in U.S.A. vol. IV, p. 603. = [E.B: 1978.]

(٤٢) See Map No 30 in **SMITH Dic.** = Palestine in the time of the old testament. and Map No 11, p. 59 in **ATLAS:** Cadastre de Douze Tribus. and E.B: 1978, Vol. IV, p. 603.

(٤٣) «Golân,» **ATLAS**: 1954, p. 150.

(٤٤) عيسى اسكندر المعلوف، **دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف**، بعبدا، لبنان: المطبعة العثمانية ١٩٠٧، ١٩٠٨،

صفحة ١٢ = [دواني القطوف: ١٩٠٧].

(٤٥) E.B: 1978, p. 603.

(٤٦) فريحة: ١٩٨٠، ص ص ١٧٧ ــ ١٧٨. انظر ايضاً مقدّمة كتب الشريعة، **المشرق**، ص ٦٦.

(٤٧) فريحة: ١٩٨٠، ص ١٩١.

(٤٨) **قاموس**، ص ٢٦٤.

(٤٩) انظر خريطة رقم ١١ Cadastre de Douze tribus, p. 59. **ATLAS:** 1954.
ايضاً خريطة رقم ٩ The Coming of the Israelites. **SMITH. Dic.**

(٥٠) حتي: ١٩٨٢، هامش رقم ١، ص ٤٥.

(٥١) **دواني القطوف**: ١٩٠٧، ص ١٢ ــ ويتوسّع المعلوف بعد ذلك في تحديد موقعها. فيقول إن اليهود أطلقوا اسم باشان على الأقاليم الخمسة الشمالية الواقعة في عبر الأردن وهي أيطور والجَوْلان وتراخونيت وحوران والبثنيّة. فنحن هنا إذاً بصدد وضعَيْن لمملكة باشان، أوّلهما قبل الغزو العبري وثانيهما بعده. ويكون بهذه الطريقة قد فسّر التضارب في الآيات التي تتحدّث عن هذه الحدود، لكنّه أخطأ في اعتباره منطقة الجَوْلان من ضمن باشان كما سنرى لاحقاً.

(٥٢) المطران يوسف الدبس، **من تاريـخ سورية الدنيوي والديني**، سنة ١٨٩٣ ــ من دون ذكر دار نشر. الجزء الثاني، ص ١٧٠ ــ ١٧١ = الدبس: ١٨٩٣.

(٥٣) الدبس: ١٨٩٣، ج ٢، ص ٢٠٩. غير أن الدبس نفسه سيُعارض هذه النتيجة في موضـع آخر من كتابه كما سنرى لاحقاً.

(٥٤) حتّي: ١٩٨٢، ج ١، هـ ١، ص ٤٥.

(٥٥) E.B: 1978, Vol. 1, p. 852.

(٥٦) See Map No 11 in **ATLAS:** 1954 and No 9 in **SMITH Dic.** p. 52.

(٥٧) **قاموس**، ص ٤٦.

(٥٨) **SMITH Dic.** ــ ايضاً **دواني القطوف**: ١٩٠٧، ص ص ١٣ ــ ١٤.

(٥٩) **قاموس**، ص ٧٤٣ ــ ٧٤٤. ايضاً **SMITH Dic.** p. 455.

(٦٠) **قاموس**، ص ٤٧٧. ايضاً **SMITH Dic.** p. 581.

(٦١) **قاموس**، ص ٤٢، ايضاً **ATLAS:** 1954, p. 148.

(٦٢) **SMITH Dic.** p. 156.

(٦٣) **SMITH Dic.**, p. 77. ايضاً **قاموس**، ص ٤٦.

(٦٤) انظر: **المشرق**: ١٩٨٦، ص ٥٨١. ايضاً: **B.J:** 1956, p. 313.
ايضاً: «Geshur,» **ATLAS:** 1954, p. 150.
ايضاً: «Geshur,» **Webster's Third new International Dic.** U.S.A. 1976, V. 1, p. 952.
ايضاً: **SMITH Dic.**, p. 214 article Geshur.
ايضاً: **قاموس**، ص ٤٣.

(٦٥) **قاموس**، ص ٢٦١. ومن المرجّـح أن العبران هم أطلقوا هذه التسمية لدى كتابتهم النصوص التوراتية بعد قرون عديدة من تاريـخ الغزو.

(٦٦) ٢ صموئيل ١٣: ٣٧.

(٦٧) الدبس: ١٨٩٣، ج ٢، ص ٣١١. ويعيد ذكر هذا التحديد في ص ٣٢٥، ويكون بذلك قد عارض ما حدّده سابقاً كما رأينا أعلاه.

(٦٨) See **Map** No 9 in **SMITH Dic.**, aussi: La Carte No 15: Géographie des livres de Samuel, p. 66, in ATLAS: 1954.

(٦٩) حتّي: ١٩٨٢، ص ١٧٦ ــ ١٧٧.

(٧٠) **E.B:** 1978, V. 12, p. 914.

(٧١) الدكتور علي أبو عسّاف، **آثار الممالك القديمة في سورية**، دمشق: منشورات وزارة الثقافة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، ١٩٨٨، ص ٤٥٠ = [أبو عسّاف: ١٩٨٨].

(٧٢) د. محمد وحيد خياطة، «سورية مهد الحضارات»، مجلة «**الفكر العربـي**» عدد ٥٢، (آب ــ ١٩٨٨) ص ٤٠، الاقتباس ص ٤٤.

(٧٣) أبو عسّاف: ١٩٨٨، ص ٤٩١.

(٧٤) د. أسد رستم، «آرام»، **دائرة المعارف**، بإدارة فؤاد افرام البستاني، الجزء الأول، بيروت ١٩٥٦. الاقتباس الوارد، ص ١٥٨ = [الدائرة: ١٩٥٦].
راجـع ايضاً: أبو عسّاف: ١٩٨٨ من ص ٤٥١ ــ ٤٩٧، حيث يعدّد الممالك الآراميّة والآلهة التي عبدوها، فضلا عن آثارهم المختلفة.

(٧٥) حتّي: ١٩٨٢، ص ١٧٧. ويشير إلى ذلك أيضاً د. انيس فريحة في **الدائرة**: ١٩٥٦ ص ١٥٩.
راجـع أيضاً فريحة: ١٩٨٠، ص ٢٢٣، حيث يقول إن هوميروس يستعمل لفظة آرام في حديثه عن سوريا. ويعتبر د. فريحة أن اسم آرام كان يُطلق على جميـع البلدان الواقعة شمالي فلسطين وشرقيها وليس فقط على مملكة دمشق فقط، ص ٢٢٢.

(٧٦) فريحة: ١٩٨٠، ص ٢٢٧. أيضاً **الدائرة**: ١٩٥٦، ص ١٥٩.

(٧٧) **الدائرة**: ١٩٥٦، ص ١٥٦. راجـع أيضاً لتحديد اصول هذه القرابة الغامضة بين الشعبين العهد القديم: سفر التكوين ٤:٢٤، ١:٢٨ ـــ ٩، ٢١:٢٩ ـــ ٣٠، أيضاً سفر التثنية ٥:٢٦.

(٧٨) حتّي: ١٩٨٢، ص ٢٠٣.

(٧٩) راجـع هامش رقم ٦٤ من هذه الدراسة.

(٨٠) الملوك الأول ٢٠:١٢.

(٨١) الملوك الأول ٣٠:١٤.

(٨٢) الملوك الأول ١٦:١٥.

(٨٣) الملوك الأول ١٩:١٥.

(٨٤) **الدائرة**: ١٩٥٦، ص ١٥٧.

(٨٥) الملوك الأول ١:٢٠، أيضاً الدائرة: ١٩٥٦، ص ١٥٧.

(٨٦) انظر خريطة سورية كبلاد آراميّة في حتّي: ١٩٨٢، ج ١، ص ١٧٨.

(٨٧) الملوك الثاني ٣٣:١٠.

(٨٨) المشرق: ١٩٨٦، ص ٦٩٦، هـ ٧. أيضاً **B.J:** 1956, p. 381, N.a.

(٨٩) الملوك الثاني ٣:١٣ ـــ ٧.

(٩٠) الملوك الثاني ١٨:١٢ ـــ ١٩.

(٩١) الملوك الثاني ٢٩:١٥. أيضاً المشرق: ١٩٨٦، ص ٧٠٥، هـ ٦. أيضاً: **B.J:** 1956, p. 386, N.a.

(٩٢) الملوك الثاني ٥:١٦ ـــ ٩.

(٩٣) — **Journal of palestine studies,** No 29, (Autumn 1978), p. 103. The Settlement, No 19. and p. 110, No 19; aussi: **Les Arabes sous l'occupation israélienne, 1977,** Beyrouth: 1979, p. 122, la colonie No 18, et p. 112, No 18.
انظر عنها أيضاً: **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيليّة في الأراضي المحتلّة، ١٩٦٧ ـــ ١٩٨٠**. إعداد وتحقيق وليد الجعفري، مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣٢: مستعمرة غيشور، Geshur.



إذا الشـعـب يـومـاً أراد الحـيـاة ... فـلا بـد أن يـسـتـجـيـب القـدر
ولا بـد لـلـيـل أن يـنـجـلـي ... ولا بـد للقـيـد أن يـنـكـسـر

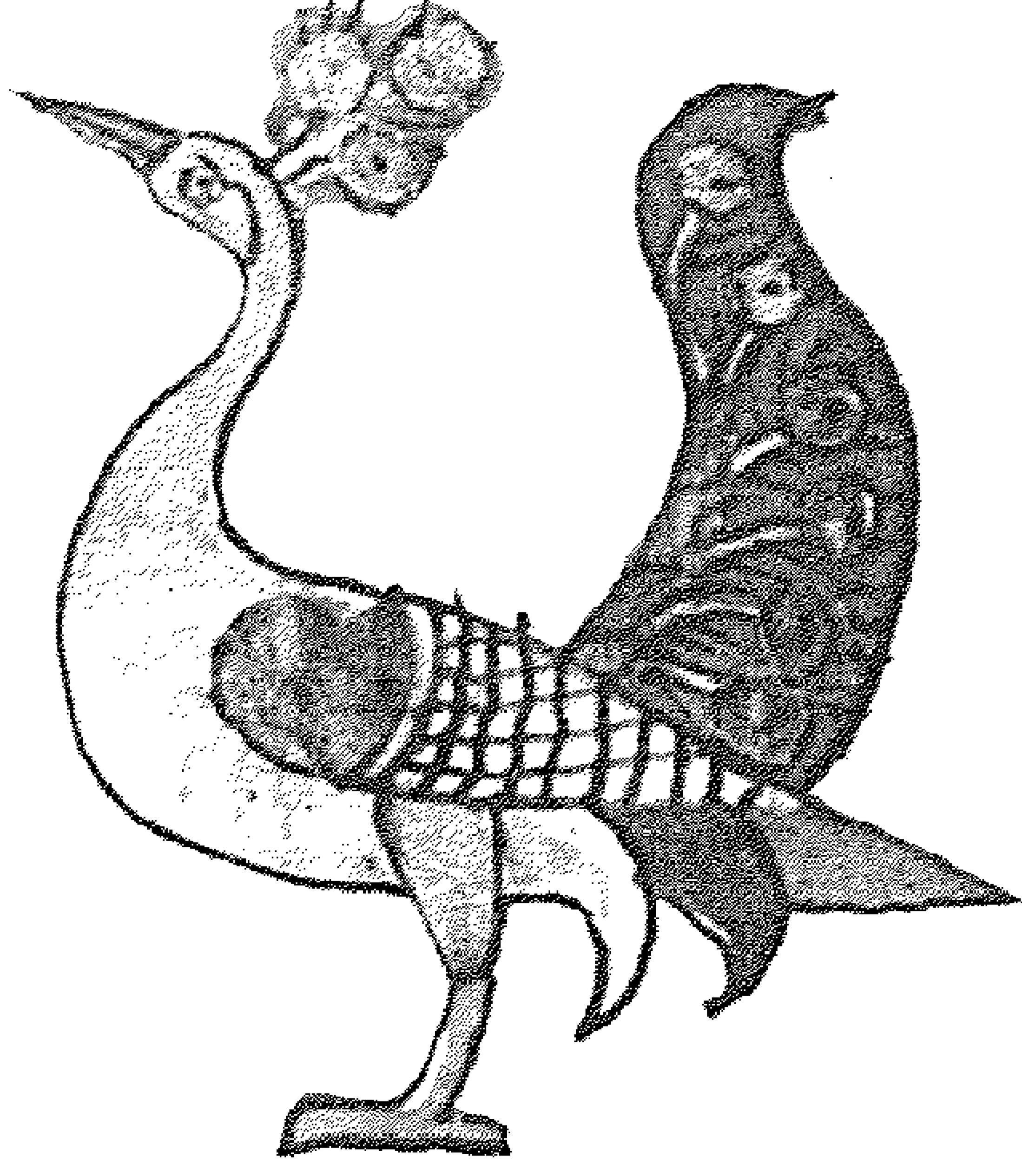
«ابو القاسم الشابي»

● روى جنيتوس: ان مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل في الصحراء ضاعت منه جميع إبله، فجاء إلى الضيف عبد زنجي وسأله أن يشفع له عند مولاه في ذنبه، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده إليه، أو يصفحَ صاحب الدار عن ذنب مولاه. فقال له صاحب الدار: إن هذا العبد الخبيث ضيع عليّ مالي، ورده إليّ في أسوأ الحال، وقد منحه الله صوتاً جميلاً فاقمته حادياً لابلي، فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم واحد مسير ثلاثة أيام. ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعها ساعة وضعت عنها أحمالها، لفرط ما نالها من الإعياء، وقد وجب لك حق الضيف، فتقبلت شفاعتك واعفيت هذا العبد الخبيث من العقاب.

مقتبسة عن كتاب «داعي السماء» للعقاد

● إني أحث كتابنا وعلماءنا على الإكثار من إثارة دقائق تاريخنا والكشف عن كنوزه، حتى يكون لنا منها أمثلة مضروبة للحياة العالية، تحتذيها الأجيال الحاضرة وتنسج على منوالها.

«عمر طوسون»



من عباقرة العلوم التطبيقية في الحضارة العربية

المهندس الدكتور محمود فيصل الرفاعي

أستاذ في كلية الهندسة المدنية
رئيس قسم تاريخ العلوم التطبيقية ــ معهد التراث
العلمي العربي ــ جامعة حلب

حدث تقدم علمي واسع حيث انتشر الإسلام. بدأت النهضة العلمية العربية في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) فحققت ازدهاراً باهراً استمر حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وهناك من يتوسع في ذلك فيمدده حتى القرن التاسع الهجري.

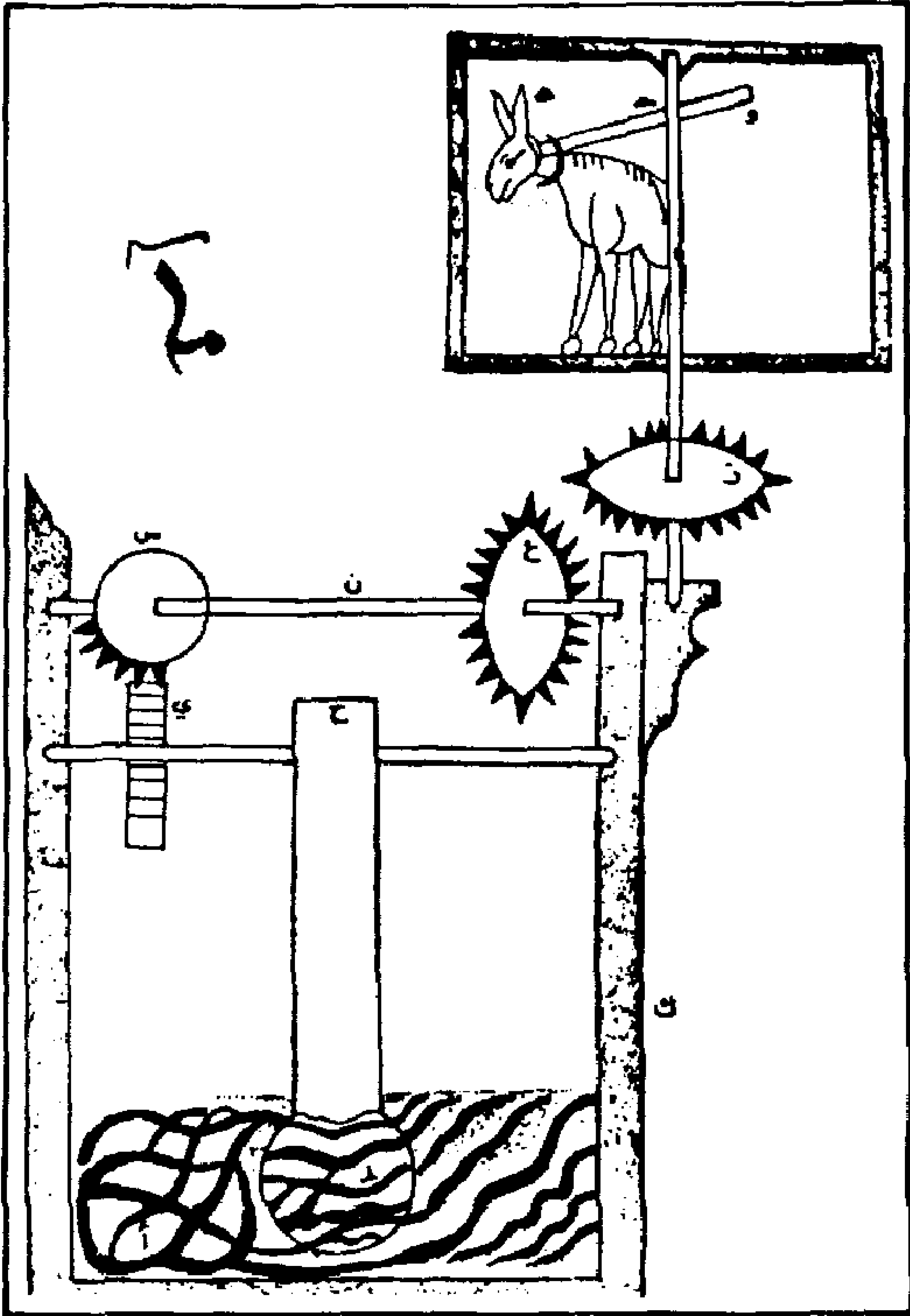
تمت هذه المعجزة من التفوق العلمي العربي في ثلاث مراحل: المرحلة الأولى نفذ فيها العرب الأمر القرآني الأول «إقرأ»[1] فانْكَبُّوا على قراءة المراجع وشملت هذه المرحلة حركة نقل وترجمة وتعريب عن اليونانية والهندية واللاتينية والسريانية ثم دخلت الثانية وهي الإبداع العربي والإنتاج الأصيل في مجال العلوم الأساسية والطبية، تلتها المرحلة الثالثة وهي الاختراع والبناء والصناعة والأعمال المبتكرة في مجال الأعمال الهندسية.

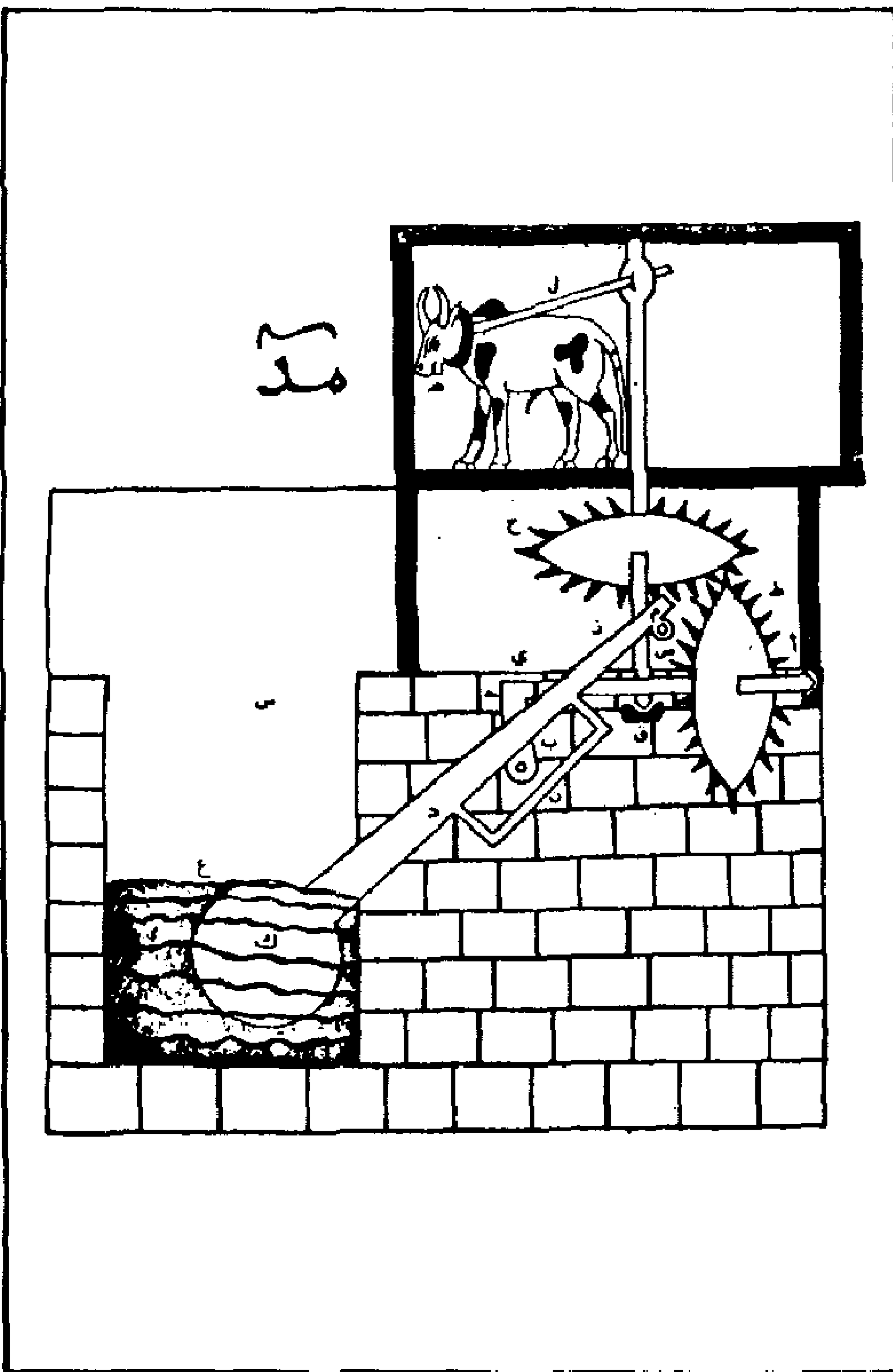


نفذ العرب في المرحلتين الثانية والثالثة الأمر القرآني الثاني ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[٢] والحديث الشريف (قيدوا العلم بالكتابة) فدونوا أفكارهم وتجاربهم ونظرياتهم ونتائج أبحاثهم .ووصفوا أعمالهم بأدق التفاصيل وهذا ما يفسر وجود الثروة الضخمة من المصنفات القيمة التي خلَّفَها علماء السلف على الرغم مما فقد وأحرق وأتلف بنتيجة الحروب فقد ابتليت الأمة في أواخر القرن السابع الهجري بإعصارين مدمرين هما الزحف الصليبي من الغرب والهجوم المغولي من الشرق مما اضطرها أن تُسَخِّرَ على مدى قرنين معظم طاقاتها لصد الغزوات التي كانت تستهدف القضاء على أصل وجودها، وما أن سعدت بقطع دابر الغزاة حتى أُسلمت إلى سُباتٍ عميق لعدة قرون على حين كان الغرب يفتح عينيه وينهض متقدماً في طريق حضاري جديد معتمداً على عمله وعلى ما اكتسبه من الحضارة العربية الإسلامية.

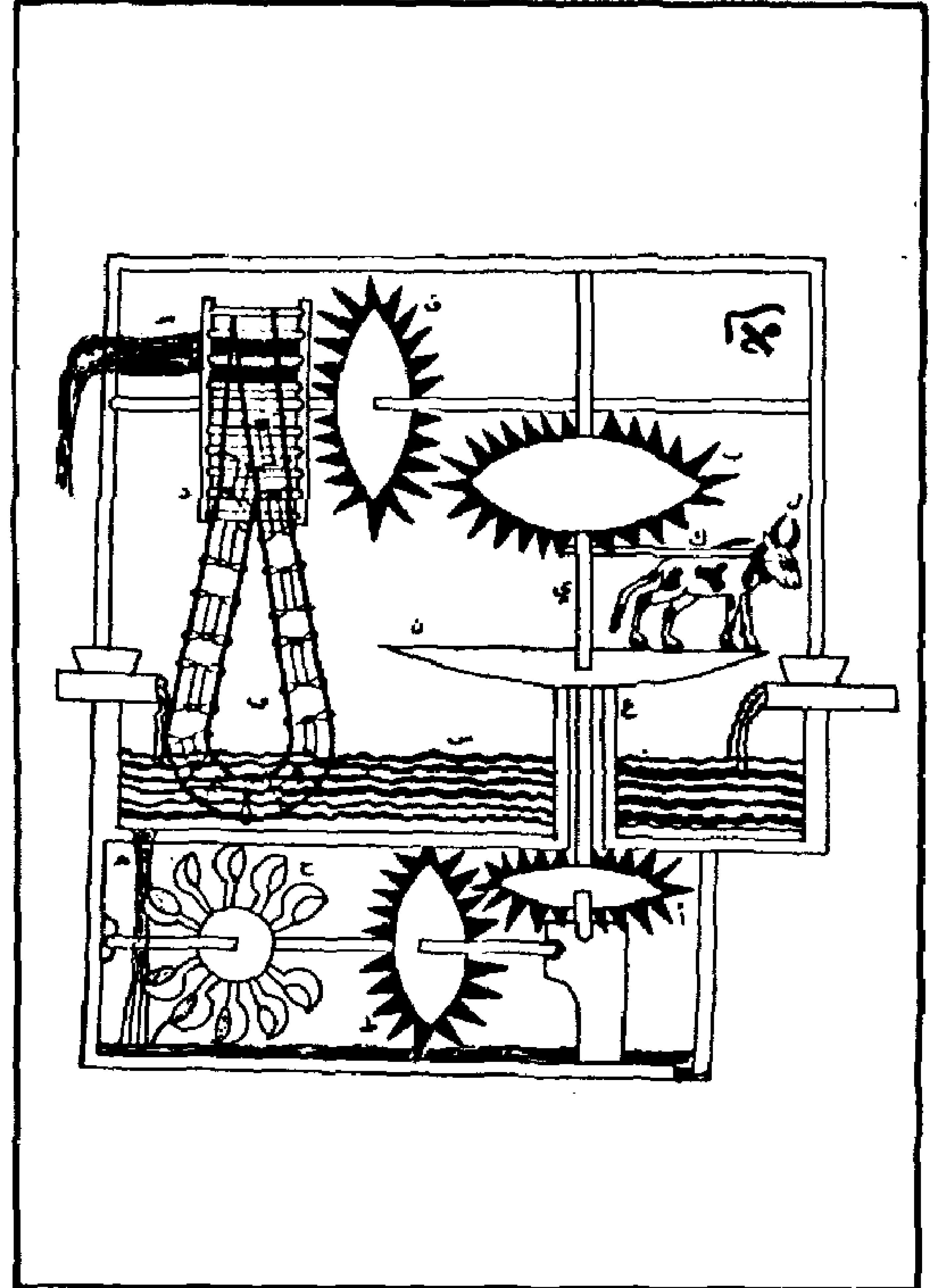
هناك أربعة عوامل ساعدت العلماء العرب المسلمين على تحقيق إنجازاتهم العلمية المتفوقة: العامل الأول حرية الرأي العلمي فلم يتعرض عالم لمحنة أو اضطهاد بسبب رأيه العلمي. يقول الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي في كتابه (حضارة العرب) «إن فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين» ولا يدخل في هذا السياق ما روي عن الاختلافات الفكرية والعقائدية.

والعامل الثاني إكرام الإسلام للعلم والعلماء واهتمامه بما يعتبره أصل الحضارة وقوتها الدافعة فقد جاء في سورة العنكبوت ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[٣] وفي سورة المجادلة ﴿يَرْفَعِ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[٤]، وقد ظهر هذا العامل واضحاً في رعاية الحكام والولاة للعلم والعلماء وإنفاقهم بسخاء في هذا المجال وتشير بعض الدلائل إلى أن أكاديمية العلوم التي أسسها الخليفة العباسي المأمون في القرن الثاني الهجري في بغداد وهي (بيت الحكمة) كانت تملك مخصصات للبحث العلمي جعلت المشرفين عليها يمنحون كل عالم





□ آلات مائية (الحيل) الجزري.

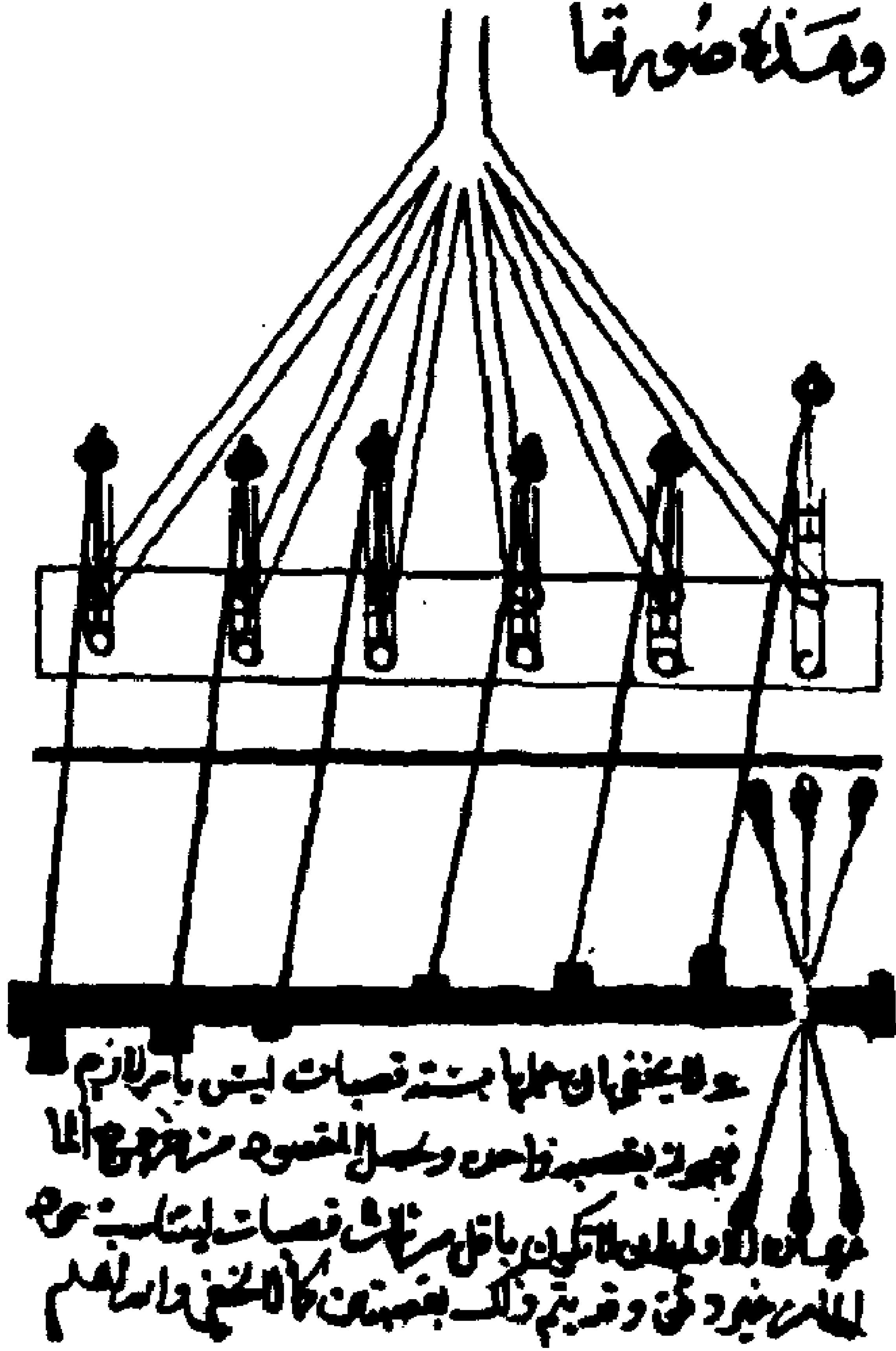


□ آلة مائية (الحيل) الجزري.

يترجم كتابا علميا عن لغة أجنبية وزن الكتاب ذهباً كمكافأة له. والعامل الثالث الاستعداد الذهني مع الصبر والمثابرة حتى أن أعمال العالم الواحد منهم تعد بالعشرات وكان العالم يفخر بالدور الذي يؤديه لأنه يرضي الله عز وجل أولاً ثم يساهم في توسيع المعرفة الشاملة إضافة إلى زهد العالم في الترف والسلطان. والعامل الرابع هو الانتشار الذي حصل في العالم الإسلامي لمصنفات العلماء العربية والتداول على الرغم من صعوبات الاتصال.

إن هدف البحث في التراث العلمي العربي يجب أن يتركز على بعث الأمل في النفوس مع اليقين بأن القوة الدافعة التي قادت السلف إلى اعلى الدرجات لا تزال حية وهي تنبع من جذور وروح الأمة ولكنها كامنة وهي بحاجة إلى من يحيلها إلى قدرة حركية وبذلك يقترن الماضي بالحاضر كما قال الشاعر عبد الغني حسن:

ما قيمة الماضي الدفين ومجده
إن لم يقس بالحاضر المتوقد
هذا زمان لا تقام كرامة
فيه لماضٍ غائب لم يشهد



□ المصبحة ذات الست اسطوانات، مخطوطة تقي الدين الدمشقي.

او كما قال محمد المبارك في كتابه (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) «وأصبح للعرب مصدران يستمدون منهما القوة أحدهما خارجي يجدونه في نماذج الأمم الأوروبية وثانيهما داخلي وهو تاريخهم وحضارتهم وكان هذا المصدر يتزايد قوة ويتسع أفقاً». سنعرض أعمال أربعة علماء من المهندسين العرب المسلمين الذين لمعت إنجازاتهم في العلوم التطبيقية فأضاءت الحضارة. هؤلاء هم بنو موسى بن شاكر (٨٥٠م)، الخازني (١١١٥م)، الجزري (١٢٠٠م) وتقي الدين الدمشقي (١٥٥٠م).

بنو موسى بن شاكر

ثلاثة أخوة لمعوا في مجال العلم التطبيقي عاشوا اثناء العصر العباسي في القرن التاسع الميلادي. بدأوا حياتهم العلمية بأن درسوا في (بيت الحكمة) ببغداد وهناك نمت مواهبهم العلمية. وقد تألقوا في أبحاثهم الرياضية والفلكية وعلوم الأنواء والهندسة والعلوم التطبيقية. وقد تحملوا على حسابهم الخاص نفقات ترجمة كتب يونانية إلى اللغة العربية كذلك كانوا ينفقون

□ المضخة ذات المكبسين.

مبالغ طائلة لإرسال بعثات إلى بيزنطة لشراء كتب علمية ولدعوة علماء للعمل في بغداد ولإجراء البحوث فيها.

يمكن سرد بعض إنجازات بني موسى بن شاكر في مجال الأعمال الهندسية بإيجاز:

ــ تصميم قناة الجعفري والإشراف على تنفيذها وتصميم قناة عمود بن المنجم وكلتا القناتين قرب البصرة.

ــ حل بعض المسائل الهندسية التي لم تكن قد حلت حتى وقتهم في الهندسة الاقليدية كتنصيف الزوايا، وإنشاء القطع الناقص (الأهليلج) باستعمال طريقة الخيط والمحارق.

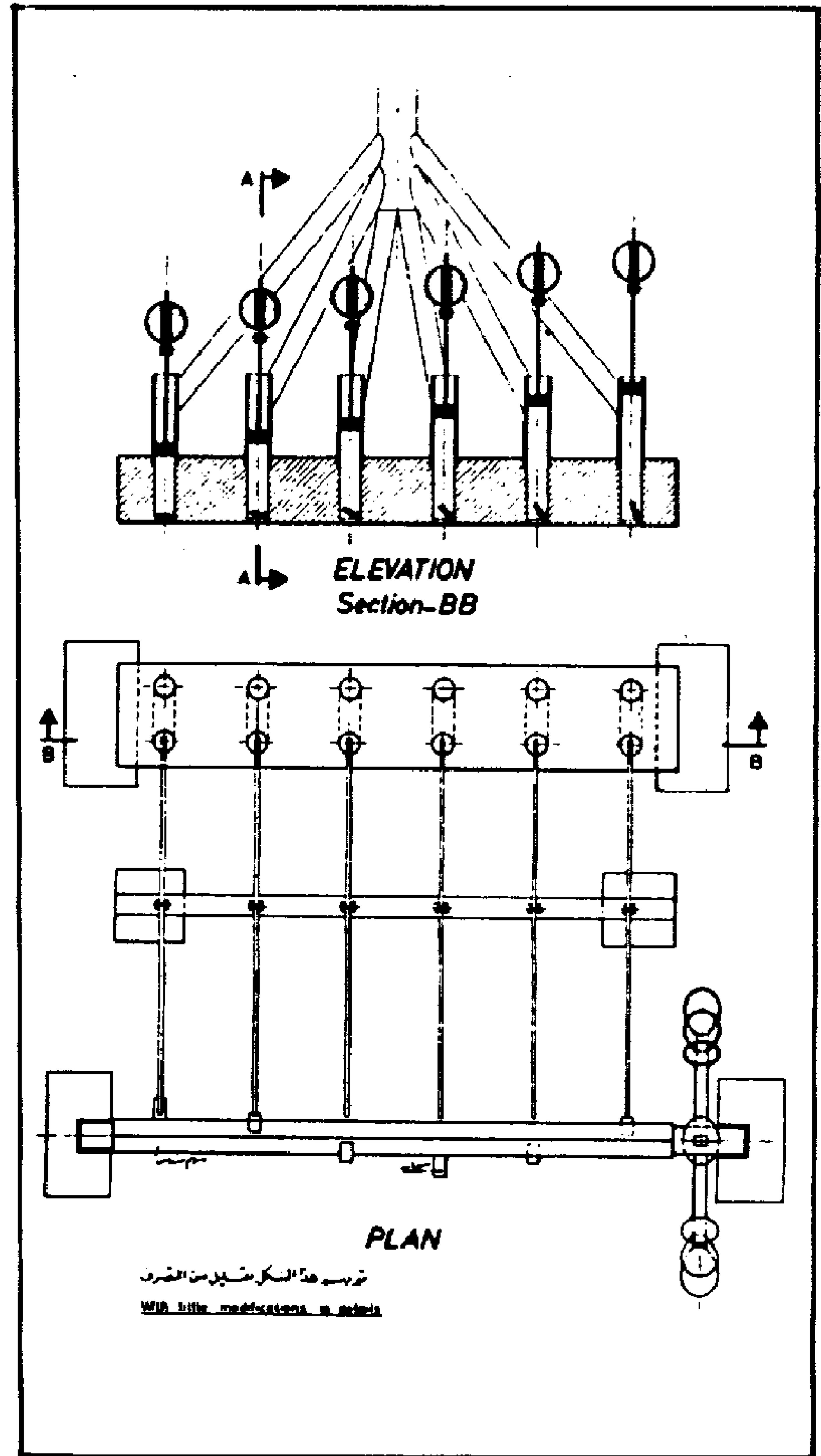
ــ أبحاث في حركة الكواكب السيارة.

ــ قياس محيط الأرض بتعيين طول القوس الموافق لدرجة واحدة.

ــ كتابة عشرين مصنفاً علمياً قيماً في الهندسة والفلك والرياضيات.

ــ تصميم أجهزة وآلات وإنشاؤها وتشغيلها، وقد وصفت هذه الآلات في كتابهم الشهير (الحيل). هذا الكتاب يمكن أن يعتبر الأول من نوعه في مجال التكنولوجيا يكتبه عالم عاش في عصر النهضة الإسلامية. يضم هذا الكتاب وصفاً لآلات وأجهزة تدل على الذهن المتوقد والمهارة الصناعية والخبرة العلمية التطبيقية.

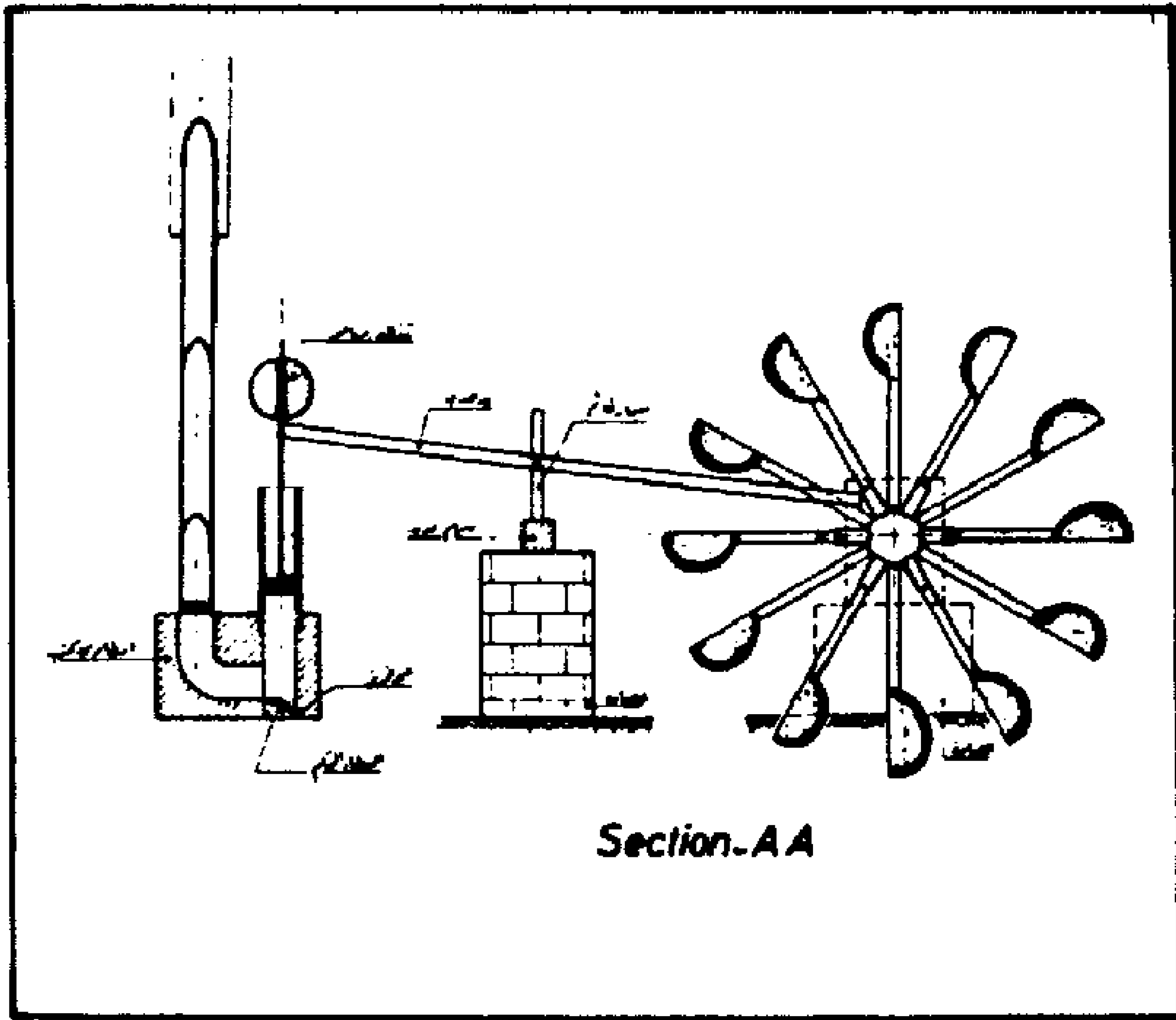
من المحتمل أن بني موسى بن شاكر قد استعانوا بعدد من المراجع في كتابهم، ككتاب هيرو (الميكانيك ــ القرن الأول الميلادي) والمكتوب باليونانية وكتاب فيلو البيزنطي (القرن



المضخة المكبسية ذات الأسطوانات الستة لتقي الدين.

الثالث قبل الميلاد) وبأبحاث أرخميدس لكن الآلات التي وصفت في كتابهم كانت فريدة من نوعها بالمقارنة مع ما كتبه المهندسون من قبلهم.

كانت المبادىء العلمية التي استعملوها في تصميم الآلات تعتمد على علوم توازن السوائل (الهيدروستاتيك) وعلى علم جريان الهواء (الايروديناميك) وقد استعملوا نظام الصمامات الآلية ذات التشغيل المتباطيء (Automatic valves delayed action system) كما استعملوا التحكم الآلي والتشغيل عن بعد، وهناك نموذجان لتصفيمين ظهر فيهما ما يشبه الجذع المعكوف[٥]. بدأ الاهتمام في الغرب بكتاب الحيل لبني موسى بن شاكر منذ نهاية القرن التاسع عشر وقد كتب فيدمان وهاوسر باللغة الألمانية ترجمات عن هذا الكتاب، وقام هيل بترجمة

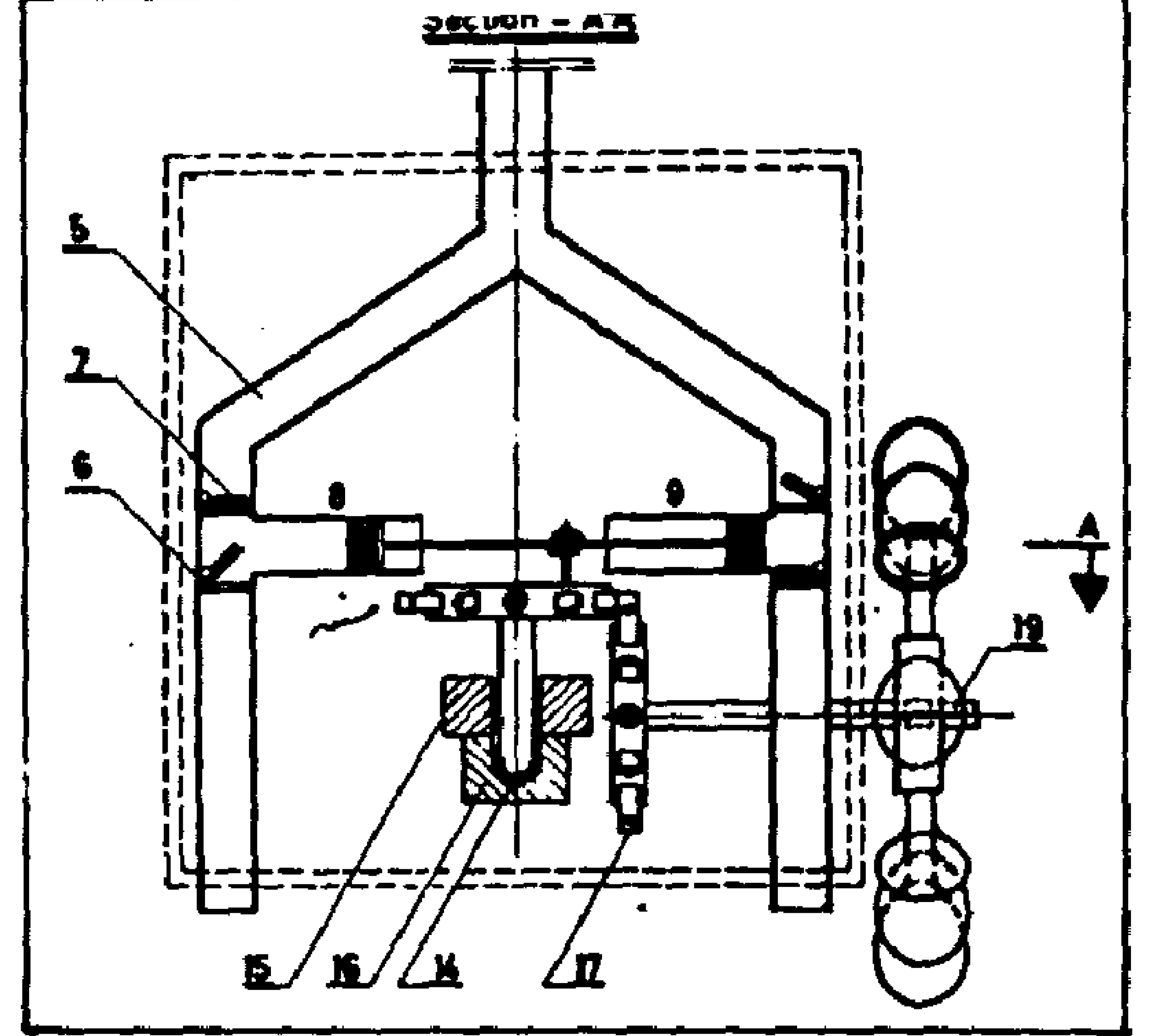


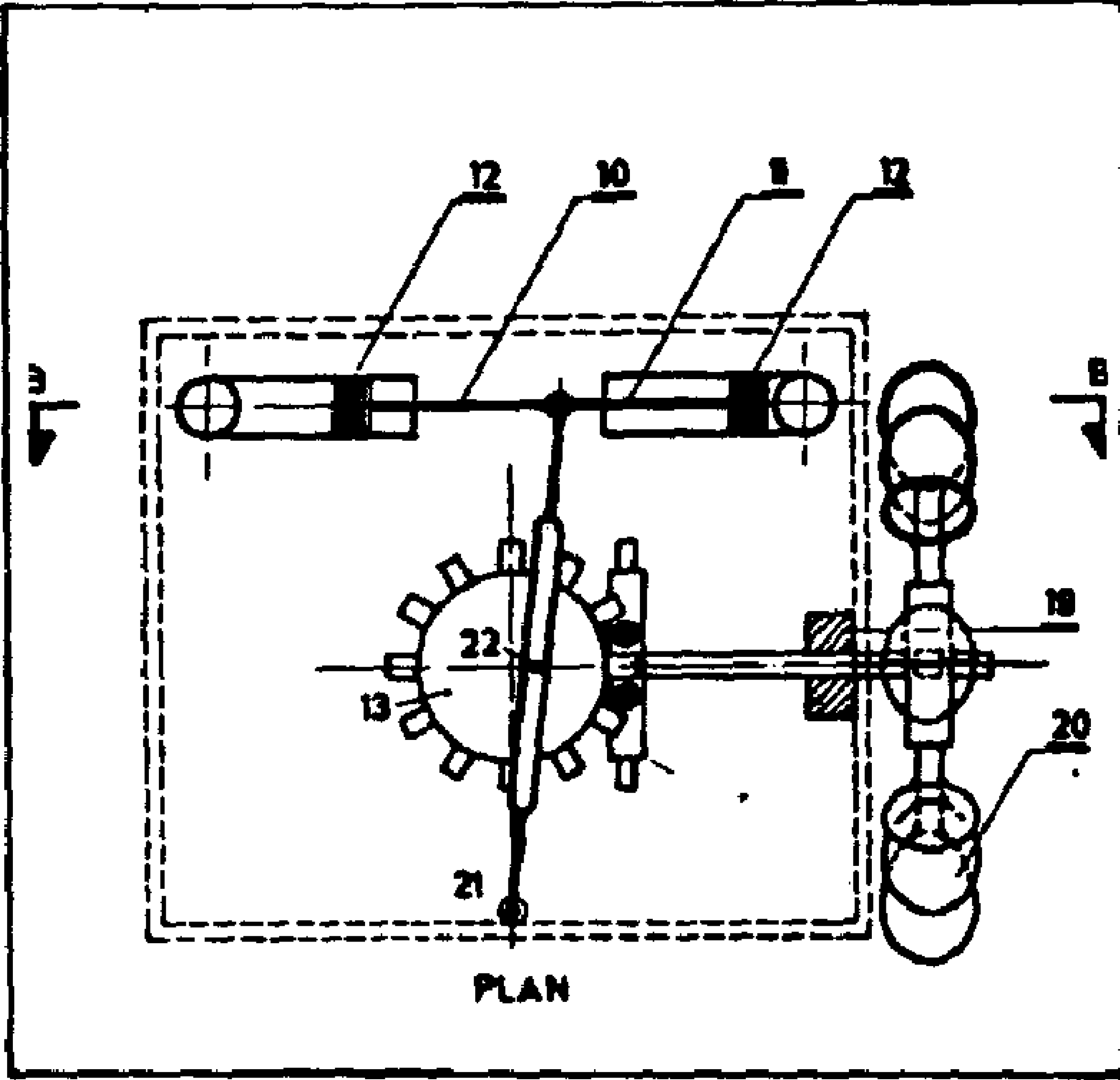
التمثيل الحديث للمضخة ذات المكبسين.

الكتاب كاملاً إلى اللغة الانجليزية.

الخازني

هو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وتلقى علومه وثقافته الفلسفية في مرو وهي اليوم في إيران. وهو عالم فيزيائي ومهندس تطبيقي. وقد أجرى بحوثه وتجاربه في الميكانيك وعلم سكون السوائل والفيزياء وسجل نتائج أعماله في أكثر الكتب تقدماً وعمقاً بالنسبة لما كان يوجد في العصور الوسطى وهو كتاب (ميزان الحكمة). قاس الخازني الوزن النوعي[٦] لعدة مواد وقد توصل إلى قيم من قياساته قريبة جداً من القيم التي نعرفها اليوم. تبين بدقة أن قياسات الوزن النوعي للذهب والزئبق التي أجراها الخازني توافق قياسات الأوزان النوعية التي نعرفها اليوم. وقد استعمل الخازني مقارنة الوزن النوعي للمادة في الهواء والماء لاستنتاج القيمة الفعلية. وقد أشار في كتاباته أيضاً إلى قوة الثقالة[٧] على أنها القوة الكونية الموجهة نحو مركز الكون (الأرض) وكان هذا قبل ثلاثمائة عام من توصل إسحاق نيوتن إلى معرفة قوة الجاذبية[٨] كما أشار الخازني في كتاباته إلى الخاصة الشعرية[٩] واخترع بعض الموازين للقياسات الدقيقة وأجهزة لضبط الأفقية لمستوى. ويبدو من كتاباته انه تعرف إلى تأثير بعض خواص الجريان كاللزوجة[١٠] والسرعة والتدفق والضاغط.





□ المضخة ذات الاسطوانتين المتقابلتين.

وقد تميزت أبحاث الخازني بالدقة وباستعمال التجارب وبوضوح الحلول وبسهولتها العملية التنفيذية.

الجزري

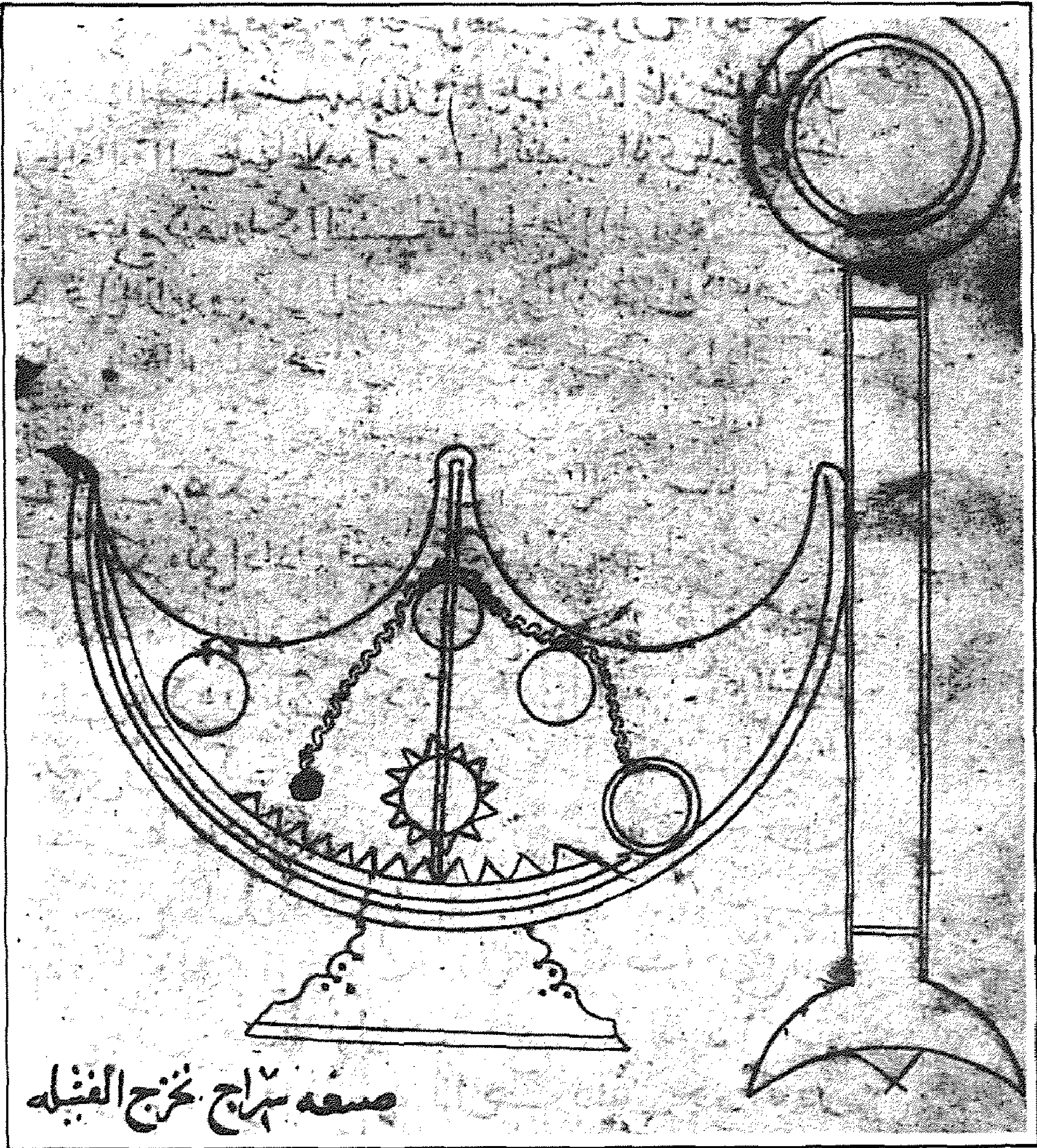
هو بديع الزمان الجزري عاش وعمل في ديار بكر (الأناضول الشرقي في تركيا اليوم) بين القرنين السادس والسابع الهجري (الثاني عشر والثالث عشر الميلادي). كان الجزري عالماً وممارساً للمهنة التطبيقية وقد أصبح كبير مهندسين وتبوأ مركزاً عالياً بما كان يملكه من معرفة علمية عميقة وبما كان عليه من مهارة عملية صناعية. صنع الجزري ووصف آلات على جانب كبير من الإبداع والدقة وقد أشار في كتاباته إلى أهمية إجراء التجارب وإلى الملاحظة الدقيقة للظواهر والتي تُكوِّن أساس الاستنتاجات العلمية ولم يكن يقبل أي نظرية إذا لم تثبتها التجربة. كتب الجزري كتاباً يمكن اعتباره من أمهات الكتب في العلوم التطبيقية هو (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل)، وقد كتب عنه جورج سارتون وهو أحد أعلام تاريخ التكنولوجيا في القرن العشرين (هذا الكتاب هو أكثر الكتب من نوعه وضوحاً ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من إنجازات المسلمين) يضم الكتاب عدة أقسام أطولها قسم الساعات المائية وقسم آخر يعالج موضوع آلات رفع الماء وقسم يبحث في آلات مفيدة كالأبواب والأقفال. تبين الأشكال آلات لرفع الماء كما وردت في كتاب الجزري والقوة المحركة فيها الماء الجاري أو الحيوان. وتضم هذه الآلات عناصر كالجذع المعكوف والمسننات الأفقية والشاقولية والصمامات وقد رسمت نفس الرسوم التي رسمها الجزري من قبل الحسن اليوم بالطريقة الحديثة التي نستعملها في الرسم الهندسي.

إن الفرق بين المضخات المكبسية الحديثة الموصولة على التوازي[11] والمبينة في الأشكال والمضخات التي وصفها الجزري هو في مصدر القوة المحركة.

كما تبين الصور بعض الآلات المائية التي رسمها الجزري في كتابه وهي ذات تصاميم مختلفة لتناسب العلو الذي يجب رفع الماء إليه والتدفقات المطلوبة لتلبية الحاجة.

تقي الدين

ولد في دمشق عام ١٥٢٥م وانتقل إلى مصر ثم استقر في استنبول وهناك تلقى علومه، وقد صمم عدة أجهزة فلكية وعمل في مرصد استنبول. اخترع عدة أجهزة ميكانيكية وتمثل أعماله استمراراً لأعمال سابقيه من العلماء العرب المسلمين. وقد كتب تقي الدين عدة كتب أهمها (الطرق السنية في الآلات الروحانية) وصف فيه



□ رسم بياني لسراج من السرج المتبرقشة تلقائياً. من (كتاب الحيل) لأحمد بن موسى.

الآلات والأجهزة التالية: الساعات الآلية، الساعات المائية والرملية، الروافع بالبكرات والمسننات، آلات رفع الماء، النافورة المائية وآلية الدوران باستعمال مبدأ العنفات البخارية التي نعرفها اليوم[١٢] وقد استعمل محوراً عليه نتوءات موزعة على محيطه بشكل منتظم لضمان الحركة المتواصلة للمكابس تبين الأشكال المضخة كما ظهرت في مخطوطة تقي الدين وقد رسمها الحسن بطريقة الرسم الهندسي الحديثة، ويعتقد الحسن أن هناك تشابهاً بين مضخة الأسطوانات الست كما وصفها تقي الدين وبين محركات الأسطوانات الست المستعملة في السيارات التي تعتمد على محركات الاحتراق الداخلي اليوم.

الخلاصة والنتيجة

تبين أعمال بني موسى بن شاكر والخازني والجزري وتقي الدين أمثلة عملية على تأصل أسس العلوم التطبيقية لدى العرب المسلمين خلال سبعة قرون. لقد أضاف العرب المسلمون من عبقريتهم واختراعاتهم العديد من الآلات والأجهزة الميكانيكية الفريدة من نوعها والتي تتميز بالأصالة والإبداع وقد صنعت هذه الآلات والأجهزة وركبت وشغلت في مواقع عديدة من أرجاء العالم الإسلامي. وصفت بعض هذه الأجهزة والآلات في العديد من الكتب التراثية للرحلات والأدب وعلوم البلدان والتاريخ. هذا

الوصف ضم دواليب الهواء والنواعير والدواليب المائية والغرافات ومكابس قصب السكر وعصر الزيت والساعات الميكانيكية والمائية والرملية، لقد ساهم المهندسون العرب بأعمالهم العلمية التطبيقية في ترسيخ أسس الحضارة، وقد اتقنوا العلوم الأساسية ومهروا في التطبيقات العملية وكان معظمهم يلجأ إلى التجريب وإلى صناعة الأجهزة باليد. وقد تبوأ قسم منهم مناصب عالية بفضل علمهم ومهارتهم التطبيقية.

لقد كان العالم الإسلامي بين القرنين التاسع الميلادي والخامس عشر الميلادي اكثر تقدماً من أوروبا وقد انتقلت العلوم التطبيقية منذ بداية القرن الرابع عشر نحو الغرب من الشرق الأوسط. لا يمكن تقدير التأثير المباشر لأعمال المهندسين العرب المسلمين على أوروبا بشكل دقيق إلا أنه يعتقد بأن ذلك مهد الطريق نحو التقدم الذي سبق عصر النهضة الصناعية بل إن هيل يرى بأن تأثير اختراعات الجزري يمكن أن يلمسه أي متعمق في أعمال الهندسة الميكانيكية المعاصرة. ●

الهوامش

(١) سورة العلق الكلمة الأولى من الآية ١.
(٢) سورة العلق الآيات ٣، ٤، ٥.
(٣) الآية ٤٣.
(٤) الآية ١١.
(٥) crankshaft محور يحول الحركة الترددية لمكابس الأسطوانات إلى حركة دورانية وهو يستعمل في السيارات.
(٦) الوزن النوعي هو وزن وحدة الحجم للمادة فمثلاً الماء وزنه النوعي ١ كيلو غرام / لتر واحد.
(٧) الثقالة هي قوة جذب الأرض متأثرة بدوران الأرض مما يعطي قوة تنحرف قليلاً عن الشاقول.
(٨) الجاذبية هي القوة التي تجذب الأرض بها الأجسام وهي قوة شاقولية.
(٩) الخاصة الشعرية هي خاصة صعود السوائل الموجودة في أنابيب رفيعة جداً وهي خاصة تعاكس فعل الجاذبية.
(١٠) اللزوجة خاصة مقاومة السوائل والموائع للتغيير.
(١١) الوصل على التوازي طريقة لربط المضخات مع بعضها بحيث تعطي هذه المضخات من أجل نفس الارتفاع قيمة تدفق تساوي إلى مجموع التدفق الذي تعطيه كل مضخة.
(١٢) العنفات البخارية آلات تستعمل بصورة خاصة في توليد الكهرباء تستمد القدرة الدورانية من اندفاع بخار ماء ذي حرارة عالية يصدر عن فوهة ليدفع دولاباً ركبت عليه أكواب أو دلاء فيدور هذا الدولاب مدوراً المولد الكهربائي.

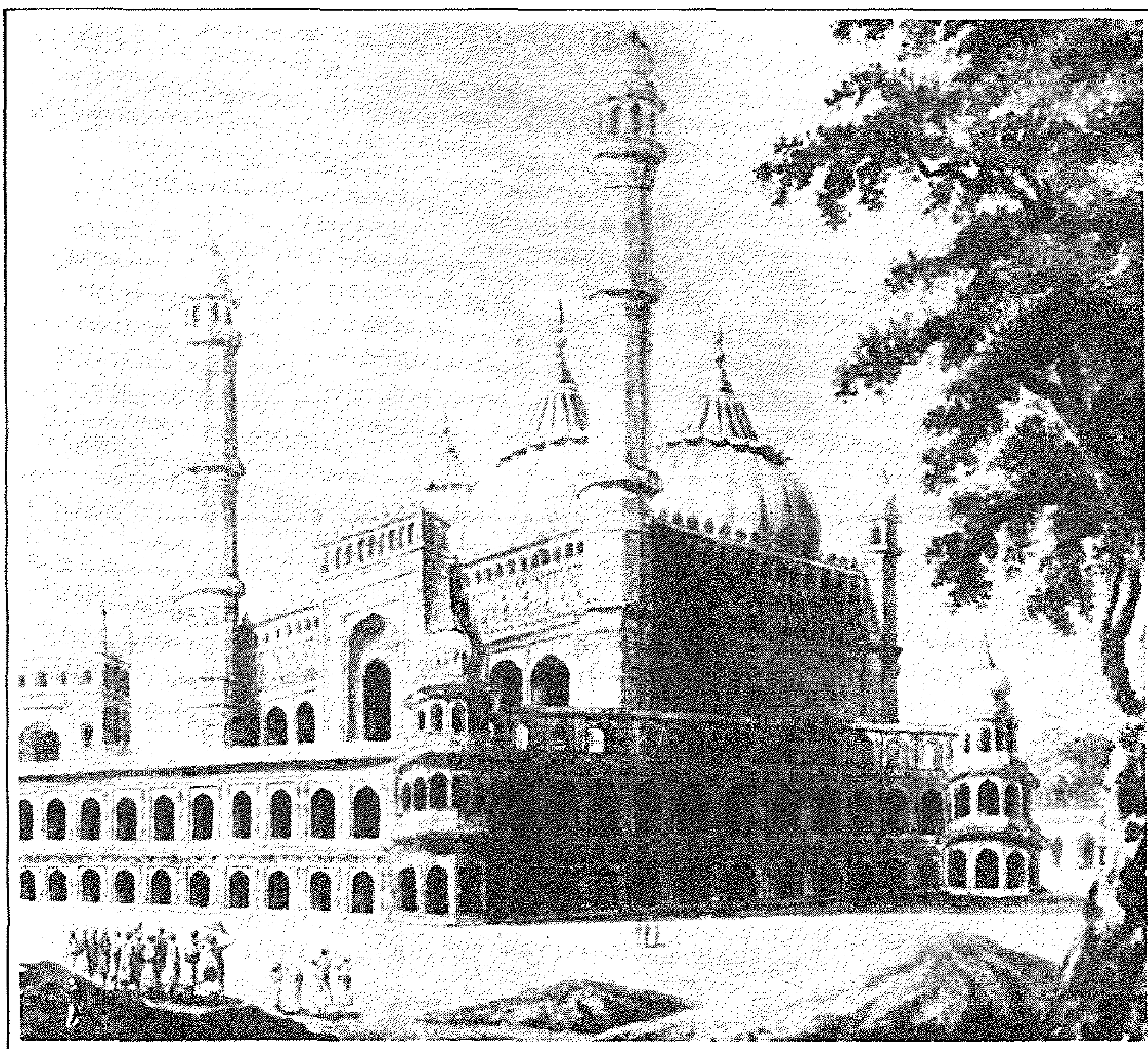
المراجع

١ ـ محمود فيصل الرفاعي «إسهام العرب في تطور العلوم التطبيقية»، باللغة الانجليزية الندوة الرابعة للأجهزة العلمية (الاتحاد الدولي لتاريخ العلوم وفلسفتها) أمستردام ٢٣ ـ ٢٦ أكتوبر ١٩٨٤.
٢ ـ محمود فيصل الرفاعي (عبقرية الحضارة العربية) حديث في محطة الإذاعة البريطانية BBC أذيع في ١٩٨٦/١٢/٢٢ و١٩٨٦/١٢/٢٣ ثم كرر في ٨٧/٢/١٦ و٨٧/٢/١٧ قدمته السيدة سهام الكرمي.
٣ ـ أحمد يوسف الحسن تحقيق كتاب (الحيل) لبني موسى بن شاكر، نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨١.
٤ ـ أحمد يوسف الحسن «تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية»، نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨١.
٥ ـ دونالد هيل «الساعات المائية العربية»، باللغة الانجليزية نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨١.
٦ ـ دونالد هيل «ترجمة كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» للجزري نشر دور درشت ـ ديدل ١٩٧٩.
٧ ـ جورج سارتون «مقدمة في تاريخ العلم» ١٩٢٧ و١٩٤٧ بالتيمور ولندن.



"لكنو" مركز من مراكز الحضارة العربية الاسلامية في الهند

د. نقولا زيادة



□ جامع عساف الدّولا، لوحة مائية تعود لحوالي ١٨٠٠م.

١ ــ كتاب عن مدينة لكنو



ليس الكتاب الذي وقع بين يدي مؤخراً، والذي يتحدث عن مدينة لكنو الهندية، حديثاً. فهو كتاب وضعه مؤلفه حكيم عبد الحليم شرر (١٨٦٠ ــ ١٩٢٦) قبل نحو سبعين سنة. كتبه مقالات بالأردية، نشرت أصلاً في الحصف الأدبية التي كانت تصدر في لكنو (وفي غيرها)، على مدى سنوات طويلة، إذ كان المؤلف ينقطع عن الكتابة بسبب انشغاله أو تغيبه عن لكنو. وقد جمعت المقالات ونشرت بعد وفاة كاتبها، ويبدو أنها نشرت في طبعات متعددة. وأخيراً تولى اثنان ترجمتها إلى الانكليزية والتعليق عليها بحواش غنية مفيدة. وصدرت الطبعة الانكليزية سنة ١٩٧٥.

أما المؤلف فهو مولانا (حكيم) عبد الحليم شرر، وقد جاءه لقب (شرر) من الاسم المستعار الذي استعمله لما بدأ الكتابة في الصحف المختلفة. وقد تعلّم عبد الحليم في البيت أولاً، وكانت مادة الدراسة المبكرة القرآن الكريم واللغتين العربية والفارسية. ثم أخذ نفسه، استجابة لرغبة أبيه، بدراسة الطب (العربي) اليوناني (ومن هنا جاءته صفة حكيم)، لكنه لم يستمر في هذه الدراسة بل وجّه همه إلى العناية بالموضوعات الإسلامية ــ تفسيراً وحديثاً وفقهاً وما إلى ذلك. وقد تولى عبد الحليم مناصب متعددة بعضها في حيدر آباد الدكن، وقد حملته وظيفته هناك إلى انكلترا حيث قضى خمسة عشر شهراً (١٨٩٥ ــ ١٨٩٦)، أفاد منها كثيراً في اطلاعه المباشر على الحياة الأوروبية وتحسين لغته الانكليزية. لكن القسم الأكبر من حياة عبد الحليم قضاه الرجل يعمل حراً في حقل الصحافة، والأدبية منها خاصة، والاهتمام بالمجتمع ومشكلاته.

وضع عبد الحليم عدداً كبيراً من الكتب في الأدب والاجتماع والشؤون الدينية من حيث ارتباطها بالمجتمع؛ كما صنف عدداً لا يستهان به من القصص؛ وله مجموعات شعرية متنوعة.

والكتاب الذي وقع بين يدي مؤخراً، وأردت أن أشرك قراء «تاريخ العرب والعالم» في بعض ما عرفته منه عن لكنو، أراد واضعه منه أن يصور لقرائه الدور الذي قامت به لكنو في عالم الفكر والأدب وخاصة باللغة الأردية؛ لكنه توسع في ذلك فوصف الحياة اللكنوية من جميع نواحيها ــ الموسيقى والشعر العامي والحفلات والأبنية وأصول المجتمع الأدبية ومواكب الزواج ومضغ أوراق البتل والثياب ومناسباتها وقتال الطيور وتربية الببغاوات. ففي الواقع لم يترك عبد الحليم شيئاً لم يتحدث عنه.

وتحضير الطبعة الانكليزية للنشر ــ ترجمة وتعليقاً وتقديماً ــ كان من عمل اثنين هما ا. س. هاركورت وفاخر حسين. وقد كان الأول ضابطاً في الجيش البريطاني في الهند، وعاش سنوات طويلة في لكنو. وبعد مغادرته الهند التحق بجامعة اكسفورد مدرّساً للغتين الفارسية والأردية. وقد توفي قبل الفراغ من إعداد الهوامش، فوقع هذا العمل بالذات على عاتق فاخر حسين. وهو لكنوي ولادة وتنشئة، ومتحدر من أسرة لها في الحياة الأدبية مشاركة كبيرة. وقد تخرج في جامعتي لندن والسوربون. وقد شغل منصباً تعليمياً في كلية الملكة ماري (جامعة لندن). وله مؤلفات كثيرة بالانكليزية والفرنسية والأردية.

ولكنو، التي يتناول هذا الكتاب شؤونها المختلفة واحدة من مدن الهند الكبيرة، التي تقع في الجهة الشمالية الشرقية من البلاد، في ولاية أتّار برادش، وعلى نحو ٦٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من دلهي. وتاريخ لكنو المبكر غير معروف، وقد لا يكون إلى معرفته سبيل إلا إذا تم النبش عن آثار المكان، وهو أمر صعب دوماً إذا كان المكان مأهولاً بالسكان مثل لكنو. لكن تاريخ المدينة الحديث، وازدحامها بالسكان، وإقبال الناس المتعلمين في الانتقال إليها يعود إلى أيام الامبراطور أكبر (١٥٥٦ ــ ١٦٠٥) وكذلك اسمها لكنو الذي لم يعثر عليه قبل هذه الفترة.

و «أكبر» هو من أباطرة المغل الذين جاؤوا من أواسط آسية وأنشأوا لأنفسهم دولة إسلامية في الهند استمرت من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٨٥٦، ولو أن الحضارة التي أقاموا بنيانها في تلك البلاد بدت عليها إمارات التأخر في أيام

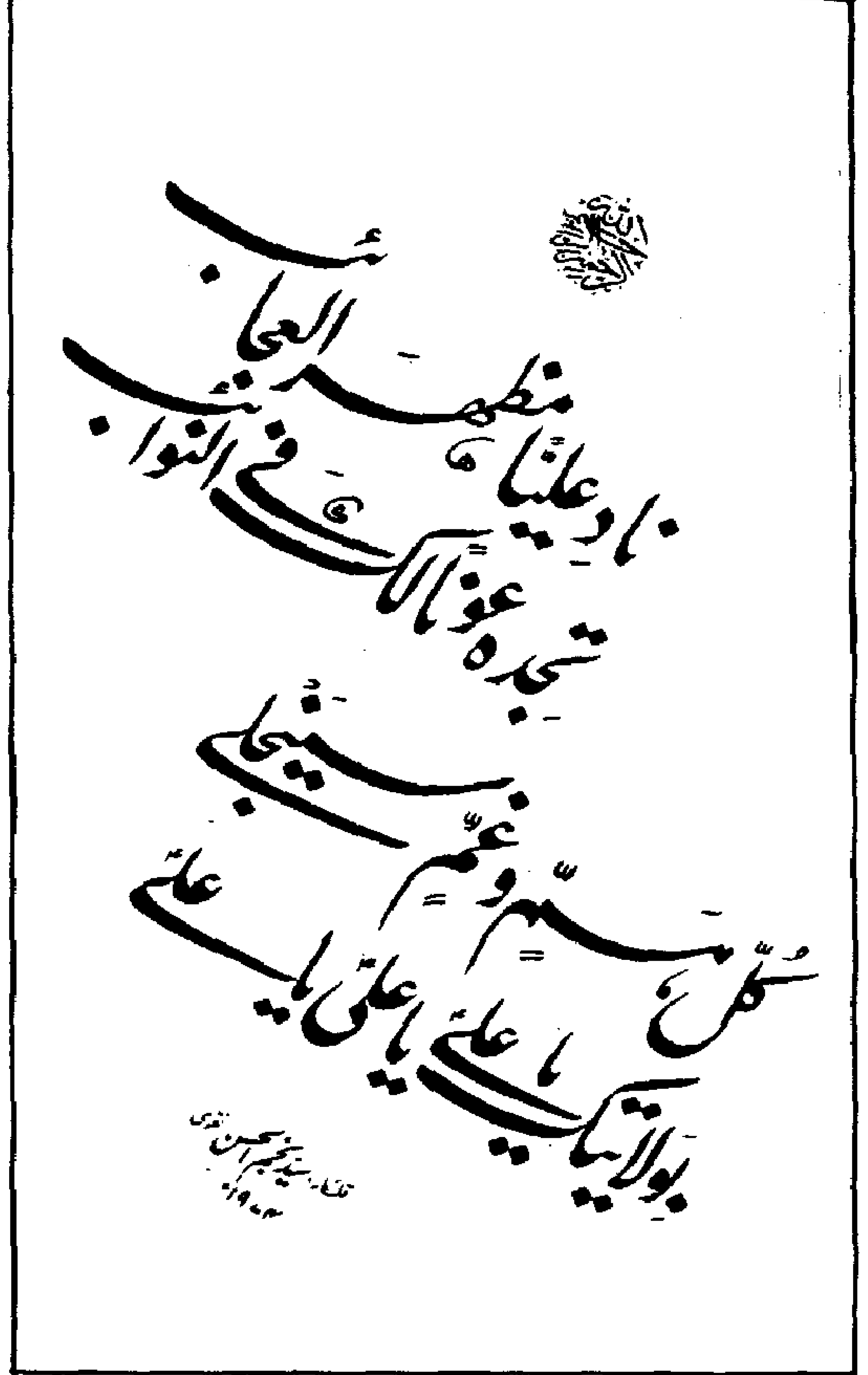
□ في الوسط، احد اسماء الله الحسنى بالأسلوب الطغري. في الحواشي، مقاطع من القرآن الكريم بالخط النسخي، لناسخ لكنو، سيد نجم الحسن، ١٩٧٤.

اورانــغـزِب (١٦٥٨ ــ ١٧٠٧). إلا أن ذلك لم يعن تـوقف النشـاط الفكـري والأدبـي في جميـع أنحاء البلاد، إذ انتقل هذا النشاط من دلهي (العاصمة) إلى لكنو مثلاً وغيرها، وظل، بفضل ما قام به الحكام المحليون، يثمر أشياء جديدة. ولكنو، ولو أنها ليست الوحيدة، فإنها مثل جيد على ذلك. والمهم هو أن لكنو وجدت من يؤرخ لها على الشكل الذي نقـع عليه في هذا الكتاب. ويقول فاخر حسين في مقدمة الكتاب إن الحياة التي وصفها عبد الحليم في كتابه ظلت حية إلى الأربعينات، وإن الذي قضى عليها نهائياً كان تقسيم شبه القـارة إلى دولتين ــ الهنـد والباكستان ــ سنة ١٩٤٧.

وفي أيام الامبراطور أكبر ازداد عدد السكان، وأصبحت لكنو مركزاً تجارياً غنياً. ويروى أن تاجراً فرنسياً استقر في لكنو بعد أن حصل على إذن بالإقامة من البلاط الامبراطوري. وقد أثرى وبنى أربعـة بيوت عـلى مقـربـة من السـوق الرئيسية. لكن لما طلب تجديد الإذن في السنة التالية رُفِضَ طلبه، ولما أراد أن يظل بدون إذن، اخرج من البلاد وصودرت أملاكه. وقد عرفت المنطقة التي بنى الفرنسي بيوته فيها والتي بنيت فيها دور وأقيمت فيها أبنية باسم (فرنجي محل) (أي حي الافرنـج!).

وفي سنة ١٧٣٢ عُيِّنَ نواب سادات خان برهان الملك حاكماً على لكنو، فجاء المدينة وقطنها على غير عادة الحكام الذين كانوا ينتدبون من يقوم بالعمل نيابة عنهم. وإليه يرجـع الفضل في إقامة بلاط ارتبطت به حياة القوم ونشاطهم في الحقول المختلفة. والواقـع أن إنشاء هذا البلاط كان مرتبطاً، بطبيعة الحال، بإنشـاء أسرة حكمت المنطقة واتخذت من لكنو عاصمة لها. والكتاب الذي بين أيدينا، بعد أن يتحدث عن تاريـخ لكنو والأسرة (أسرة أفاد) وحكومة منطقـة (أفاد) ينصرف إلى وصف الحياة الفكرية والاجتماعية، كما قلنا.

ونحن لا نريد أن نكتفي بالحديث عن الكتاب. ولكننا نود أن ننقل إلى قراء مجلة تاريـخ العرب والعالم خلاصات لبعض فصوله المتعلقة بالفكر والأدب والطب. فلكنو، في رأي الذين وضعوا وأعدوا الكتاب، كـانت آخر صفحـة لحضارة شرقية (إسلامية). ونحن نهتم هنا بها لأن هذه الحضارة حيثما نشأت (في نيشابـور اوهرات أو دلهي أو لكنو)، وبقطـع النظر عن اللغة التي دونت بها أخبارها (فارسية أو أردية)، فإنها بِنْت الحضارة العربية الإسلامية. هذه هي صلتنا بها. ومن هنا كان اهتمامنا بها.



□ مقطـع من قصيدة «صلاة، لعلي» بالخط القاني. للسيد نجم الحسن، ١٩٧٤.



□ «بسم الله» مكتوبة بالطغري، على شكل صقر. الناسـخ مجهول.

٢ ــ العلوم الإسلامية في لَكنو

بدءًا من عهد الأمبراطور أكبر (١٥٥٦ ــ ١٦٠٥) أصبحت لكنو كعبة يقصدها طالبو العلم لينتفعوا بمن كان من فيها من أهل العلم. وكان هؤلاء يجدون في لكنو كل ما يحتاجـه العالم. ويعود تنظيم التعليم والتعلم في لكنو فيما بعد إلى المُلّا نظام الدين العـالم المشهور من مـواليد سِهالي، القريبة من لكنو. وقد تضايق نظام الدين من اضطراب الأمور في بلده فوفد على لكنو، وكان ذلك أيام أُورنْغزِبْ (١٦٥٨ ــ ١٧٠٧) فأحسن هذا استقباله ومنحه حـق الإقامـة في البيوت الأربعة التي كان قد بناهـا افرنسي في لكنـو وصادرتها الحكومة. وهي التي كانت تعرف باسم «فِرَنجي مَحَل». فجاء نظام الدين بأسرته بكاملها وأقام هناك. ويبدو أن الإمبراطور أورنغزب وقف هذه البيوت الأربعة على العلماء والطلاب بحيث أصبحت المركز الرئيسي للعلم في لكنو، وبزعامة نظام الدين.

ونـظام الدين هو الذي رتب أمـور التعليم وبرامجه وهو الترتيب الذي عرف باسم «سلسلة ــ أي ــ نظامي» (أي سلسلة نظام الدين). وكان العلماء قد حملوا علمهم من دلهي إلى لكنو منذ أيام العالم عبد الحق (١٥٥١ ــ ١٦٤٢) وهو واحد من كبار المحدثين. ومـع الزمن نما «فِرَنْجي مَحل» بحيث طغى في علمه وتعليمه على غيره من الأماكن. (وقد استعادت دلهي بعض ما كان لها لما قامت أسرة شاه ولي الله (١٧٠٢ ــ ١٧٦٣)). وإذا كان لهذه الأسرة فضل في الحفاظ على مكانة دلهي في علم الحديث، فإنه يجب أن نـذكر أن النحـو والمنطق والفلسفـة الإسلامية والفصاحة والبلاغة كـانت في أعلى مراتبها في لكنو. ويسمي عبد الحليم شرر، مؤلف الكتاب الذي نلخص عنه هذا الفصل، فرنجي

محل «جامعة لكنو». ويدلّل على ذلك بقوله أن كل كتاب كان يستعمل في تدريس العلوم الإسلامية قد وضـع في لكنو وفي فرنجي محل بالذات.

إلى جانب العلوم الإسلامية بالذات كان هناك اهتمام بالأدب العربـي. وقد ازداد هذا الاهتمام بسبب العالم مولاي دِلْدار علي، الذي دَرَس في «فِرَنجي محل» ثم ذهب إلى كربلاء حيث اتصل بالعلماء الشيعة، وعاد وقد حمل معه الكثير من



□ منمنمة من لكنو، أواخر القرن الثاني عشر ميلادي.

المعرفة في الأدب العربي. وعُيِّن «مجتهداً»، واهتم بتدريس الأدب العربي. وقد ظل هذا التقليد، أي العناية بالعربية لغة وفصاحة وبياناً وأدباً، متبعاً بين علماء الشيعة في لكنو. ولعلّ ذلك يعود إلى أن الكثيرين منهم كانوا يذهبون إلى العراق للدراسة.

والسلسلة النظامية، التي وضعها نظام الدين، كانت تنظيماً للتعليم الديني، بحيث كانت تشمل الموضوعات الأساسية، في الأصول والفروع، كما كانت تنظم التدريس من حيث الأوقات وتسلسل الموضوعات. والذي نود أن نضيفه هنا هو أن هذا التنظيم نفسه يعود إلى أيام نظام الدين الوزير السلجوقي (القرن الثاني عشر) الذي أنشأ المدارس النظامية، وكان أساسها برمجة الدراسة وتعيين الأساتذة المختصين وجعل المدرسة مؤسسة رسمية عن طريق الوقف الغني عليها. والمغل الذين جاءوا الهند واستقروا فيها سنة ١٥٢٦ وأنشأوا ملكاً واسعاً، حملوا معهم الحضارة الإسلامية وأفكارها وعلومها ومؤسساتها من الشمال الغربي ــ حيث كانت المدارس النظامية منتشرة. (أسس نظام الملك عشر نظاميات في الشرق الإسلامي، كانت أهمها نظامية بغداد).

على أن عبد الحليم شرر، مع أنه يزجي لمدينته وعلمها المديح، فإنه لا يبخل عليها بالنقد. فهو يقول مثلاً أن لكنو لم تعن بالتراجم وتاريخ الرجال. كما يؤكد أن العلماء من مسلمي الهند لم يهتموا بالتاريخ أصلاً. وينقل قولاً سمعه وهو: «ما الذي يحمل القادة الدينيين على إشغال نفسهم بمعرفة ما قد حدث في وقت معين؟ إن اهتمامهم أساساً هو الجنة، لا أكثر ولا أقل».

وقد حفلت أيام لكنو بالمناظرات العلمية الدينية على اختلاف أنواعها ومناهجها ونهجها واتجاهها.

ويحدثنا عبد الحليم شرر عن التطور الذي أصاب العلماء، أو بعضهم على الأقل، في أواخر القرن التاسع عشر. فقد أدرك هؤلاء أنه من الضروري أن يعطى الطلاب وغيرهم الفرصة للاطلاع على ما يدور في الدنيا، لذلك أنشِئَتْ جماعة «ندوة العلماء» (١٨٩٥)، وهي التي عرفت، في أوائل القرن الحالي، باسم «كلية الندوة». وقد أقيمت هذه بتبرعات جمعت من المسلمين وكانت الغاية الأساسية منها إعادة النظر في مناهج علم الكلام واللغتين العربية والفارسية وآدابهما. وقد كان أحد كبار العاملين في سبيل إنشاء هذه الكلية شبلي نعماني (١٨٥٧ ــ ١٩١٤) وهو واحد من كبار أصحاب الفكر في تلك الفترة، وقد شغل مركز استاذ في جامعة عليكره الإسلامية. وبناء على اقتراحه أدخلت بعض المواضيع العلمية الحديثة واللغة الانكليزية في منهاج التدريس فيها. وقد ظلت هذه الكلية عاملة نشيطة إلى أواسط القرن الحالي. ومن الأعمال المهمة التي يعود الفضل في تأسيسها إلى شبلي نعماني «دار المصنفين»، وهي مؤسسة للبحث في القضايا الإسلامية.

ومما يجب أن يذكر هو أن عبد الحليم شرر بسبب اهتمامه الكبير بمدينة لكنو، لم يشر، ولو إشارة بسيطة إلى مؤسسة كان لها، ولا يزال، فضل كبير على الفكر العربي الإسلامي وهي «دائرة المعارف» في الجامعة العثمانية في حيدر أباد الدكن، التي عملت على نشر مئات من المخطوطات العربية في أصناف المعرفة المختلفة.

٣ ــ الطب العربي في الهند

بعد أن نضج الطب عند العرب، وبعد أن مزجوا عناصره اليونانية والهندية والعربية الأصلية والفارسية معاً، وأضافوا إليها الكثير، انتقل مع ما انتقل من عناصر الحضارة العربية الإسلامية إلى الأماكن التي كان للإسلام فيها صولة أو دولة (أو الاثنتان معاً). ووصل الطب العربي إلى الهند في القرن الثاني عشر للميلاد؛ وقد اهتم الهنود به، ولا شك في أن الأطباء الذين مارسوه أضافوا إليه، وخاصة في النواحي الصيدلية (أي تركيب العقاقير) أموراً جديدة لعل بعضها كان صينياً أصلاً.

والطريف في الأمر هو أن الطب العربي القديم، المبني على العلم والتجربة والصيدلة والمستشفيات تأخّر في كثير من الأقطار العربية، لكنه استمر في مناطق متعددة من الهند وذلك في أيام الإمبراطورية المغلية (المغولية) التي دامت من ١٥٢٦ إلى ١٨٥٦. إلا أنه، والأمر غريب جداً، لا يُعْرَف هناك باسم الطب العربي أو الطب



□ إمراة من «لكنو» مائية للفنان مسكين محمد، ١٧٧٠ ــ ١٧٨٠.

الإسلامي بل باسم الطب اليوناني (وباللغة الأردية طِبِّ يوناني).

وكان من الطبيعي أن تكون دلهي، عاصمة الامبراطورية المغلية، المركز الأول لدراسة هذا النوع من الطب والعناية به؛ وهكذا كان، لكن في أول القرن الثامن عشر بدأت هجرة الأطباء إلى لكنو (ولعلّ ذلك يعود إلى اضطراب الأمور في العاصمة دلهي). وقويت حركة الهجرة هذه في النصف الثاني من القرن نفسه لما جعل شجاع الدولة، حاكم لكنو وسيدها (١٧٥٣ ــ ١٧٧٤) من بلاطه ملجأ ومقراً لأهل العلم والفكر، وقلد الأثرياء الحاكم الكبير، فكان لأكثر الأسر الثرية طبيب خاص بها يلي أمورها. ولم يكد القرن الثامن عشر يشرف على نهايته حتى كانت أكثر الأسر التي تعنى بالطب والطبابة وتدريب الأطباء قد انتقلت من دلهي إلى لكنو.

والقاعدة التي كانت متبعة إلى درجة محدودة من قبل، وهي أن تنجب الأسرة أطباء، ازدادت في لكنو بحيث أصبح الطب مهنة تحتكرها مجموعة من الأسر لا تعنى بغيرها من المهن الحرة أو الدراسات الأخرى، الإسلامية والأدبية على السواء.

ويقول عبد الحليم شرر أن تعليم الطب في لكنو كان دقيقاً بحيث كانت تتبع مناهج معينة وكانت تستعمل الكتب المدرسية التي وضعت لهذا الغرض. لكن الأطباء الذين كانوا يقومون بتدريس الطب كانوا يضيفون الكثير من تجاربهم واختباراتهم وقد أخذ هؤلاء الشيء الكثير عن الطب ‹الفيدي› (أي الهندي الأصلي) وخاصة في الأدوية المركبة.



□ امرأة تغزل القطن، لوحة مائية لفنان من لكنو.

وقد أنشئت في أواخر القرن الماضي مدرسة لتعليم الطب في لكنو سميت «كلية تكميل الطب» ــ وقد استمرت هذه إلى حوالي سنة ١٩٤٠.

ونود أن نضيف أنه حتى في الوقت الحاضر لا تزال هناك مدارس ثلاث للتعليم الطبي في الهند وجميعها معترف بها رسمياً: وهي مدرسة الطب اليوناني (العربي)، وتسمى عادة طبية كولدج (Tibbiya College)؛ ومدرسة الطب الهندي المعروف باسم الطب الفيدي؛ ومدرسة الطب الحديث التي تسمى الكلية الطبية (Medical College). وجميعها معترف بها رسمياً. والمتخرج كلية الطب اليوناني (العربي) يسمى «حكيم»؛ والمتخرج من الكلية الحديثة هو الذي يشار إليه باسم الدكتور (أو الجراح)؛ والمتخرج من كلية الطب الهندي يسمى «فيدك».

وبقطع النظر عن التفاصيل فإن الطب اليوناني (العربي) في الهند وباكستان يعتمد على المواد الطبيعية، وأكثرها مواد نباتية، لتركيب الأدوية.

ومن أطرف ما حدث، مما نعرفه شخصياً بسبب الصداقة التي تربطنا بالأشخاص المعنيين، هو أن «حكيماً» مشهوراً كان في شبه القارة قبل التقسيم، اسمه عبد العزيز، كان له ابنان تخصصا في الطب العربي: الأكبر هو «حكيم عبد الحكيم» والأصغر هو «حكيم محمد سعيد». وبعد التقسيم ظل الأول في دلهي واستقر الثاني في كراتشي. والرجلان يعنيان لا بالتطبيب فحسب بل وفي البحث العلمي في العلوم الإسلامية من طب وغير ذلك. وكانت قد انشئت شركة كبيرة لإنتاج العقاقير اللازمة للطب العربي، وهي الآن فرعان، وقد وقف كل من الأخوين ما كان تحت تصرفه على مشاريع علمية وثقافية، وكل من المؤسستين تسمى «مؤسسة همدارد الوطنية» Hamdard National Foundation (ويضاف بعد اسمها الهند أو باكستان). فالطب العربي لا يزال موضع عناية في كل من البلدين. ●

التوجيهات البحرية الشهيرة في التاريخ العربي الإسلامي

بقلم
اللواء البحري الركن المتقاعد
وفيق بركات



إن إصدار التوجيهات هو عمل من أعمال القيادة السياسية ـ العسكرية العليا وقد عرف القادة العرب هذا النوع من الوثائق منذ عهد الرسول العربي (ص)، إذ كان يصدر التوجيهات العملياتية لقادة الجيوش والحملات وأحياناً لقادة السرايا والمواقع. ففي موقعة أحد (٣هـ/٦٢٥م) أصدر تعليمات واضحة محددة دقيقة موجزة جاء فيها: «احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل معسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا بنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل»[١]

الخليفة الراشد عمر بن الخطاب

(١٣ ـ ٢٣هـ / ٦٣٤ ـ ٦٤٤م)



إن أول من ركب البحر للغزو في أوائل نشوء الدولة العربية الإسلامية هو العلاء بن الحضرمي في أيام الخليفة عمر بن الخطاب إذ كان عاملاً على البحرين فأراد أن يفتح سواحل فارس وبينه وبينها الخليج العربي، فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر، وخرج المسلمون يريدون البصرة فغرقت سفنهم ولم يجدوا للرجوع إلى البحر سبيلاً. فغضب عمر على العلاء وأمَّر عليه سعد بن أبي وقاص وقال له: «إلحق بسعد بن أبي وقاص بمن معك»(٢) ثم كتب عمر إلى عتبة بن غزوان بأن: «العلاء بن الحضرمي جعل جنداً من المسلمين في البحر فأقطعهم إلى فارس وعصاني وأظنه لم يرد الله عز وجل بذلك، فخشيت عليهم ألا ينتصروا وأن يغلبوا فاندب لهم الناس وضمهم إليك من قبل أن يحتاجوا»(٣). فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فسار في إثني عشر ألفاً على السواحل وساعد في تنظيم انسحاب القوات العربية إلى البصرة ورجع أهل البحرين إلى ديارهم. فكانت بذلك أولَ غزوة بحرية وكانت تعليمات عمر أوّلَ توجيه عملياتي ينظم انسحاب القوات في تلك المعركة البحرية عن طريق السواحل ويحقق بعض النجاح فيها.

كان عمر بن الخطاب يخشى البحر ويحذر المسلمين من الهجوم بحراً فحين أراد عمرو بن العاص أن يجعل الإسكندرية حاضرةَ مصر كتب عمر يقول له: «إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحولُ الماءُ بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء...»(٤).

وعندما كتب معاوية إلى عمر وألحَّ عليه يستأذنه ركوب البحر (وكان والياً على الشام) بعث عمر إلى عمرو بن العاص عامله في مصر يطلب إليه أن يصف له البحر فأجابه عمرو: «يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن رَكدَ أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قِلّة والشكّ كثرة، هم فيه دود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق»(٥). وعندما تلقى عمر هذا الكتاب بعث إلى معاوية برسالة جاء فيها: «لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء في الأرض... فكيف أحمل الجنود في البحر الكافر المستصعب، وتالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوته الروم. فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك وقد علمت ما لقي العلاء مني ولم أتقدم إليك في مثل ذلك»(٦).

لقد كان عمر حاسماً قاطعاً في توجيهاته إلى معاوية بالابتعاد عن ركوب البحر للأسباب الرئيسية التالية:

ـ لم تكن لدى الدولة العربية الإسلامية المعرفة الكافية بشؤون البحر كما لم تكن لديهم الخبرة اللازمة بالحرب البحرية.

ـ لم تكن الدولة العربية الإسلامية قد صنعت ونظمت أسطولها البحري الحربي كما لم تكن لديهم أي خطط عسكرية بحرية أو فكر عسكري بحري حتى ذلك التاريخ.

ـ خوف عمر من ركوب البحر والتعامل مع مخاطره، خاصة بعد أن فشلت غزوة العلاء البحرية في فارس وحرصه على سلامة المسلمين بعد أن وقف على رأي عمرو بن العاص في البحر وراكبه، وبالرغم من ذلك لم يتردد الخليفة عمر في أن يطلق يد معاوية في «إصلاح حال السواحل بما رآه كفيلاً بسلامتها وحرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها...»(٧).

وكان هذا أولَ توجيه عملياتي بحري في الإسلام حول (الدفاع الساحلي). واستغل معاوية هذه التعليمات واتخذها خطوة أساسية يبني عليها مشاريعه البحرية، فآثر أن يُحَصِّنَ المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة بما يجعلها قواعد في المستقبل تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان يشاء. ومن وجهة النظر التاريخية والعسكرية نرى أن الخليفة عمر قد أصاب في توجيهه المذكور، وشكّل ذلك مرحلةَ إعدادٍ

واستعداداً للانطلاق في الحروب البحرية الناجحة التي تلت ذلك.

الخليفة الراشد عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥هـ، ٦٤٤ ـ ٦٥٦م)

عندما تولى عثمان الخلافة كانت شوكة المسلمين قد قويت وتوسعت فتوحاتهم فألح عليه معاوية في ركوب البحر مستأذناً في غزوة جزيرة قبرص، فرفض أول الأمر ثم أجاز الحملة البحرية بعد ذلك بشروط في توجيه شهير جاء فيه: «... ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه»[8]. وتدل كلمات عثمان في ذلك التوجيه على كياسة وخبرة ودراية بفن القيادة، إذ لم يجبر أحداً من العرب على ركوب البحر، لأن الحرب البحرية كانت ما تزال مجهولة ومخيفة للعرب حتى ذلك التاريخ وإن لجوءه إلى هذا الأسلوب قد دفع بالكثيرين للتطوع، فأبحر معاوية إلى جزيرة قبرص سنة (٢٨هـ، ٦٤٩م) وصالحه أهلها على (٧٢٠٠ دينار)[9]. وكان ذلك أوّل عبور قام به العرب لمياه البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم). وقد اصطحب معه في تلك الحملة بعض مشاهير القادة العرب مثل عبادة بن الصامت، وكذلك بعض كبار رجال الشام. واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث سجلت المرأة العربية اسمها بمداد الفخر في أولى حملات الأسطول العربي على جزر البحر الأبيض المتوسط، إذ اصطحب معاوية معه زوجته وأخته، كما أخذ عبادة بن الصامت كذلك امرأته (أم حرام بنت ملحان الأنصارية) التي توفيت في بداية الحملة ودفنت في قبرص وعرف قبرها منذئذ باسم: قبر المرأة الصالحة.

على أن أبرز توجيه للخليفة عثمان في هذا المجال ذلك الذي أصدره حول احتلال القسطنطينية: لم يكن العرب بعد الفتوح الشامية والمصرية مطمئنين إلى جانب الروم ولذلك كان عليهم أن يفتتحوا القسطنطينية قلب بيزنطة والعالم القديم وقلعة الروم المنيعة والرأس المدبر للتنظيم البحري للبيزنطيين في حوض المتوسط الشرقي، وقد حدد عثمان كيفية الاحتلال في توجيه عام شهير «أما بعد فإن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس...»[10]. وقد وضح هذا الاتجاه بعد أن افتتح موسى بن نصير الأندلس سنة (٩٢هـ، ٧١١م) وخطر له أن يقتحم الأرض الكبيرة (بلاد الفرنجة) ويخترق أوروبا ويفتتح القسطنطينية من الجهة الغربية، أي من جهة البر، ونستدل على ذلك أيضاً من المحاولات التي قام بها ولاة الأندلس في الفترة (١٠٠ ـ ١١٤هـ) للإستيلاء على الأقاليم الجنوبية من فرنسا. والظاهر أن فشل معاوية في فتح القسطنطينية بعد حصار دام سبع سنوات (٥٤ ـ ٦٠هـ) كان من العوامل التي دفعت المسلمين في الأندلس منذ عام ٩٩ ـ ١٠١هـ (أي في خلافة عمر بن عبد العزيز) إلى البدء بغزو ما وراء البرتات(*)، ولكن الهزيمة التي مني بها المسلمون في معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ، ٧٣٢م) وضعت حداً لمحاولاتهم وكان هذا الهدف حافزاً للمسلمين منذ البداية على إنشاء أسطول حربي يتوسلون به باديء ذي بدء للسيطرة على جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي واتخاذها نقطة ارتكاز أمامية وقواعد بحرية ومراسي لأساطيلهم تجاه السواحل البيزنطية حتى يتهيأ لهم الانقضاض من هذه المراكز على القسطنطينية، وقد نجح معاوية في غزو قبرص عام (٢٨هـ) ثم غزاها ثانية عام (٣٣هـ)، وتوالت انتصارات العرب في هذا الجزء من البحر المتوسط حتى كانت معركة ذات الصواري حيث حققوا انتصاراً حاسماً ثبّت لهم السيادة في البحر الأبيض المتوسط.

في العهد العباسي

توقف النشاط البحري في أوائل العصر العباسي فترة من الزمن دامت ما يقرب من خمسين عاماً[11] بسبب انصراف الدولة العباسية عن شؤون البحر، وتوقفت عن محاربة البيزنطيين في البحر المتوسط بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية والخارجية وانتهاجها منذ قيامها سياسة مشرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان، ومع ذلك فقد أبدى بعض خلفاء بني العباس اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية حتى أن الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) أراد أن يوصل ما بين بحر الروم (المتوسط) وبحر القلزم (الأحمر) في بلاد الفرما (قرب بور سعيد) نحو بلاد تنيس فنصحه يحيى بن خالد البرمكي بالانصراف عن تنفيذ ذلك وأخافه من دخول مراكب الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز فعدل الرشيد عن ذلك[12].

ويوجد في مكتبة كوبرلي باسطنبول مخطوط



□ معركة ليبنتي البحرية سنة ٩٧٩ : هاجمت أساطيل «الحلف المقدس» المؤلف، بدعوة البابا، من إسبانيا، البندقية، جنوى، نابولي ومالطا، الأسطول العثماني الراسي في المياه اليونانية وأفنت معظمه. بعد مقاومة قلّ أن شهد التاريخ مثلها، إذ سقط فيها من العثمانيين عدد كبير من القتلى بينهم القائد الثاني سيروكو، باشا مصر، والأميرال الأعلى علي باشا الذي فضل الانتحار على الوقوع في يد الأعداء.



□ كان الاسطرلاب المسطح من اهم الأجهزة التي استخدمها الفلكيون في العصر الوسيط.

لكتاب الخراج لقدامة بن جعفر (٨٨٨ ـ ٩٥٨م)[١٣] فيه (نص عهد) صادر عن الخليفة العباسي إلى أحد أمراء البحر، وتوضح هذه الوثيقة سلطات قائد الأسطول العربي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهو أكثر التوجيهات البحرية تفصيلاً، بالإضافة إلى أنها وحيدة من نوعها في التاريخ العربي الإسلامي من حيث كونها وثيقة حربية مهمة تلقي ضوءاً على واجبات أمراء البحار وصناعة السفن وصيانتها وأمور الملاحة البحرية والتدريب البحري والحرص من تجسس العدو واستطلاعه، وتوضح ما كان عليه النظام البحري في الدولة العربية الإسلامية في ذلك الوقت من وعي وصرامة، كما يشكل هذا التوجيه دستوراً أخلاقياً عظيماً يصلح العمل به في كل زمان ومكان. وقد جاء في ذلك التوجيه الهام:

«هذا عهد أمير المؤمنين إلى... (...) حين ولاة «الثغر الفلاني» وبحره ومراكبه: أمره بتقوى الله وطاعته والحذر من عقابه واتباع رضائه وإيثار الحق في جميع أفعاله وأمره بتعهده نفسه حتى يقيم أودها وينفي بذكر الله الهوى وزيغ الشيطان عنها. وأن يزكي سجيته ويطهّرها ويهذب سيرته وينقيها ويكون لمن معه من الجند وسائر الأولياء في الخير إماماً ومعلماً وعلى سلوك أفضل المناهج حاضاً ومُقَوِّماً، وأمره بلين لأهل الطاعة ويشتد على ذوي المعصية ويعطي على كل حال قسطها من النصفة والمعدلة.

وأمره أن يستعمل على شرطته من يرضي عقله ويثق بجزالته وصرامته وشدته على أهل الريب والدعارة.

وأمره أن يكون الإذن عليه لمن معه من الجند مبذولاً، والوصول إليه من ذوي الحاجات والمظلمات سهلاً يسيراً.

وأمره أن يديم عرض جنده حتى يعلم علمهم ويطلع على حقيقة أمرهم ويلزم مراكبهم. وأمره أن يشرف على مراقبة محارسه حتى يحكم أمر المرتبين فيها، ويدر عليهم أرزاقهم، ولا يتأخر عنهم في شيء فيها.

وأمره أن يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها ويجود آلاتها ويتخيَّر الصناع لها ويشرف على ما كان منها في الموانى ويرفعها من البحر إلى الشاطىء في المشاتي وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها.

وأمره أن يكون نواشيره وعيونه الذين يبعث بهم ليعرفوا أخبار عدوهم من ذوي الصدق والنصيحة والدين والأمانة والخبرة بالبحر وموانيهم ودخلاته ومخابيه حتى لا يأتوا إلا بالصدق من الخبر والصحيح من الأثر(**)ـ وإن أرهقهم من مراكب العدو ما لا قوام لهم به انحازوا إلى المواضع التي يعرفونها ويعملون للنجاة بالانحياز إليها.

وأمره أن لا يدخل في النفاطين والنواتيه والقذافين ولا في غيرهم من ذوي الصناعات والمهن في المراكب إلا من كان طبياً ماهراً حاذقاً صبوراً معالجاً وأن يكون من يحمله معه في المراكب أفضل الجند وخيار الأولياء وأصدق نية واحتساباً وجراة على العدو وارتكاباً.

وأمره أن ينظر في صناعة المراكب نظراً تكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيرها حتى يحكمها. ويجيد بناء المراكب وتأليفها وقلفطتها وتركيبها، ويستجيد المقاديف ويتخيرها وينتقي الصواري والقلوع وينتخبها وَيُمَيِّز النواتيه ويعتمد من له الحذاقة والمهارة والدرية والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لا يدخل فيهم من لا يصح دخوله ولا يخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه.

وأمره أن يتحرس من أن تنفذ العدو حيلة في اجتناء الأسلحة أو شيء من أدوات الحرب والمكيدة من أرض الإسلام، أو أن يطلق لأحد من التجار حمل شيء إليهم او إقامة الطريق إلى بلدهم. ومن وجده قد أقدم على هذا وما جانسه من الناس جميعاً عاقبه عقوبة موجعة وجعله نكالاً وعظة.

وأمره أن يضم المراكب في الموانى التي ترسي فيها ويولي مراعاتها من يثق بنصيحته وشهامته حتى لا يخرج منه مركب إلا بعلمه، ويشرف عليها في كثير من الأوقات حتى لا يخرج منه مركب إلا بعلمه، ويشرف عليها في كثير من الأوقات حتى لا تكون على هيئتها مجلوة مسنونة مقومة موصونة إلى وقت الحاجة إليها والعمل بها ويشرف على ما فيها من النفط والبلسان والحبال

وغيرها حتى يحتاط في ظروفها وأوعيتها ويأمن الفساد والتغيير عليها(***).

وأمره بشدة الحذر من جواسيس العدو وعيونه وأن يوكل لكل مدينة من يعلم حالها ولا يطلق لأحد من البوابين والحرس أن يدخلها إلا من يعلمون حاله وسبيل مدخله وصورته ومغزاه وإرادته (****).

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وأمره إياك فافهم بما حدّه ورسم وكن عند حسن ظنه بك في جميعه وهو يسأل توفيقك وإرشادك إلى ما فيه الخيرة في جميع ما أسند إليك واعتمد فيه عليك»[١٤].

في العهد الأيوبي

اهتم صلاح الدين الأيوبي بالأسطول البحري وأنشأ ديوان الأسطول تأكيداً على ذلك وخصص له الأموال الضخمة وأمر بتنفيذ أوامر قيادته: «... والقول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه...»[١٥].

كما اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام فحشد فيها الأجناد البطالين[١٦] والأيزاك[١٧] والأبدال[١٨] والمنورين للمرابطة فيها وحراستها، وقد أصدر توجيهات هامة حول الدفاع الساحلي وردت في مرسوم شهير بهذا المعنى: «إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد في حفظ السواحل والمواني والاهتمام بأمرها وإقامة الأيزاك والأبدال في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها وكذلك المنورون بالديدبانات[١٩] والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة وتعهد أحوالها»[٢٠].

بعد عهد صلاح الدين صار الاهتمام بأمر الأسطول يتوقف على مدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل العربية، ففي أيام السلطان الكامل وولده السلطان الصالح أيوب شهدت مصر اهتماماً بالأسطول الأيوبي نتيجة للحملات الصليبية التي هاجمت السواحل المصرية، ويظهر لنا هذا الاهتمام في الوصية التي كتبها الصالح أيوب قبل وفاته لابنه تورانشاه ويقول فيها:

«... فالأسطول أحد جناحي الإسلام فينبغي أن يكونوا شباعاً، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهماً مستمرة دائبة، جاؤوا من كل فج عميق، وهم رجال معروفون بالقذف والقتال».

وقد حدَّدَ هذا التوجيه الأسطولَ والجيشَ جناحين للإسلام وسبق بذلك القيصرَ الروسي بطرس الأول بعدة قرون حيث قال: «الدولة التي تملك جيشاً لها يد واحدة، أما الدولة التي تملك جيشاً وأسطولاً فلها يدان اثنتان».

جناحان ويدان: تعبيران يدلان على مكانة الأسطول البحري الحربي في تاريخ الشعوب، وأن قوة الدولة تكمن في التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية لتحقيق النصر، وهذا ما تفعله الدول الكبرى المتقدمة في الظروف الحديثة، والحرب العالمية الثانية والحروب الإقليمية التي تلتها غنية بالأمثلة على ذلك، وكذلك الحروب التي خاضتها قوات الدولة الإسلامية مثل حصار القسطنطينية.

وهكذا نجد أن تلك الوثائق البحرية الهامة في تراثنا العربي الإسلامي قد تميزت بالدقة والأصالة والشمولية فبقيت خالدة في سجلات التاريخ لتفرض نفسها على مفاهيم العصر الحديث. ●



الهوامش

(١) العماد مصطفى طلاس: الرسول العربـي وفن الحرب، ص ٢٦٣.
(٢) جميل خانكي: تاريـخ البحرية المصرية، ص ١١٦؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ١٨٩.
(٣) خانكي، ص ١١٦؛ المقريزي، ج ٢ ص ١٨٩.
(٤) ياسين الحموي: تاريـخ الأسطول العربـي، ص ١٢؛ أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ٨٨.
(٥) خانكي، ص ١١٧؛ الحموي ص ١٢.
(٦) خانكي، ص ١١٧؛ الحموي، ص ١١٢.
(٧) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم، ص ١٦.
(٨) المقريزي، ج ٢ ص ١٩٠، د. انور عبد العليم، ص ٨٨، خانكي، ص ١١٧، الحموي، ص ١٣.
(٩) د. عبد العليم، ص ٩٢؛ الحموي، ص ١٤ (ذكرها سبعة آلاف فقط).
(١٠) ابن الأثير الكامل في التاريـخ (طبعة بيروت ١٩٦٥)، ج ٣ ص ٩٣؛ عبادي وسالم، ص ٢١.
(*) جبال البرنس باسبانيا (اطلق العرب على هذه الجبال اسم (البرت) وهي مشتقة من كلمة (بورت) اي باب د. علي خربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط، ص ٣٣.
(١١) عبادي وسالم، ص ٣٧ (تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام).
(١٢) المسعودي: مروج الذهب، مجلد ٢ ص ٢٦٤؛ السيوطي: تاريـخ الخلفاء، ص ٢٦٦؛ عبادي وسالم، ص ٣٨.
(١٣) د. علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط، ص ١٥٢ وحتى ١٥٤ (حيث أورد شرحاً للوثيقة وقسمها إلى بنود: اختبار الرجال، معاملة الرجال، بناء السفن وأماكن رسوها، الخدمة السرية ومنـع تسرب المعلومات البحرية). الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٣٧١ (بالنسبة للتاريـخ).
(١٤) د. إبراهيم العدوي: الأساطيل العربية في البحر المتوسط، ص ١٥٨ حتى ص ١٦١؛ د. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ١٠٥ حتى ١٠٧.
(**) وهذا يماثل الاستطلاع والتجسس في العصر الحديث.
(***) وهذا بمجمله يعادل القيادة المركزية في الظروف الراهنة.
(****) وهذا يماثل إجراءات مكافحة التجسس في العصر الحديث.
(١٥) أبو شامة كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، ج ١ ص ٢٦٩.
(١٦) البطالون من الأمراء والأجناد: هم العاطلون عن أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها لأسباب ودوافـع مختلفة. (راجـع المقريزي: السلوك، ج ١ ق ١ ص ٧٣ حاشية ٤).
(١٧) اليزك والايزاك: الحراس.
(١٨) الأبدال: بمعنى البدل الذي يحل محل الحرس.
(١٩) الديدبان كلمة فارسية الأصل (ديده بان) ومعناها المراقب أو الحارس وتعني أيضاً مكان المراقبة من موقـع مرتفـع.
(٢٠) القلقشندي: صبـح الأعشى، ج ٧ ص ٢٠٤ ج ١٠، ص ٢١٢؛ عبادي وسالم، ص ٢٧٤.

المـراجــع

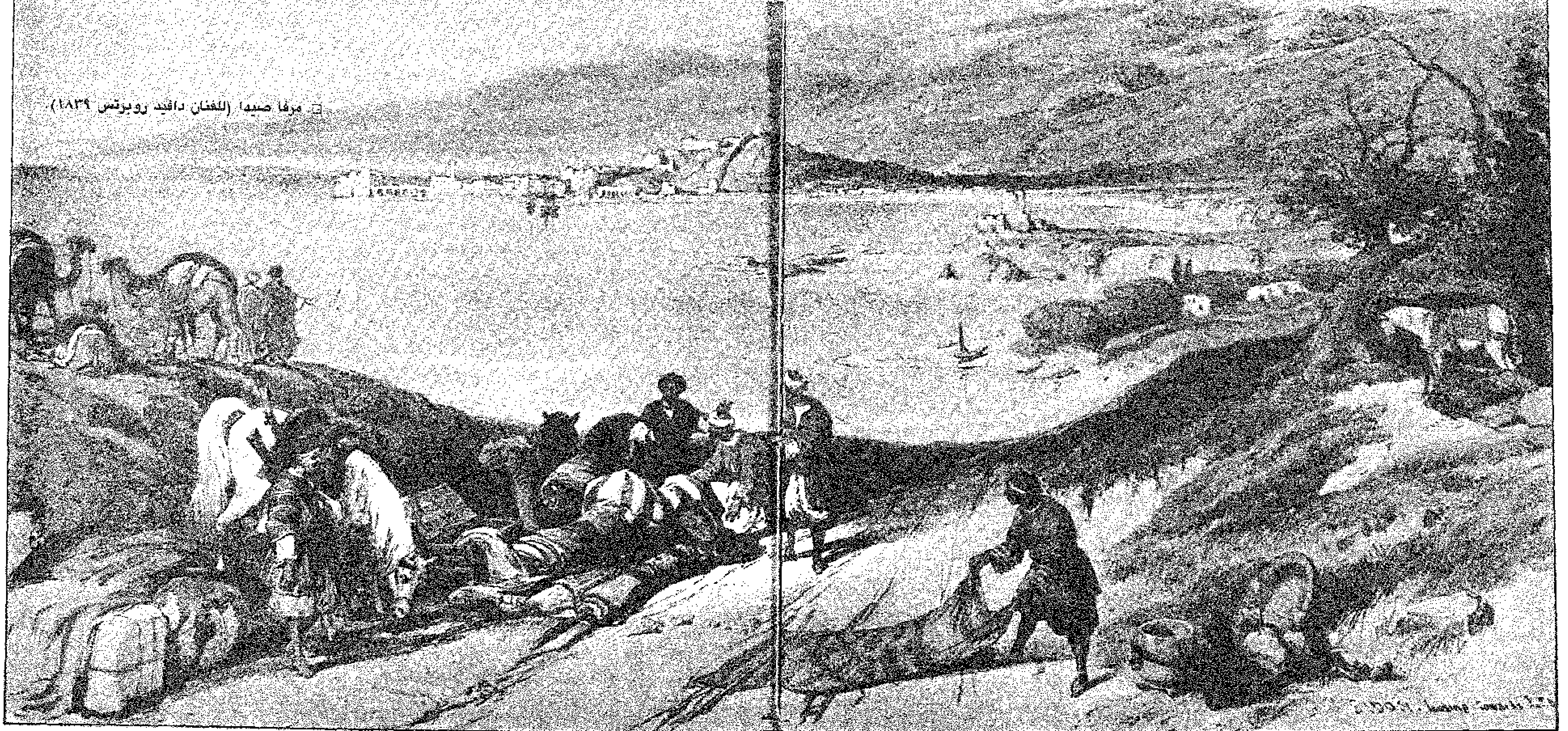
١ ــ العماد مصطفى طلاس: الرسول العربـي وفن الحرب.
٢ ــ جميل خانكي: تاريـخ البحرية المصرية.
٣ ــ المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.
٤ ــ ياسين الحموي: تاريـخ الأسطول العربـي.
٥ ــ د. انور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب.
٦ ــ د. احمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم: تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام.
٧ ــ ابن الأثير: الكامل في التاريـخ.
٨ ــ السيوطي: تاريـخ الخلفاء.
٩ ــ المسعودي: مروج الذهب.
١٠ ــ د. علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي في حوض المتوسط.
١١ ــ د. إبراهيم العدوي: الأساطيل العربية في حوض المتوسط.
١٢ ــ أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.
١٣ ــ القلقشندي: صبـح الأعشى في صناعة الإنشا.

الحِرَف والصناعة الشعبيّة في صَيدا

منذ الفتح العثماني إلى الحملة المصرية على بلاد الشام

١٥١٦ - ١٨٣٢ (القسم الثاني)

د. حسين سلمان سليمان



□ مرفأ صيدا (للفنان دافيد روبرتس ١٨٣٩)



ومن حرف التغذية أيضاً حرفة المعصراني، وهو صاحب المعصرة، أو مستأجرها، والمعاصر أنواع، منها ما هو لدرس السمسم واستخراج الطحينة منه، والتي تدخل في صناعة الحلاوة الطحينية، ومنها ما هو مخصص لاستقطار الزيت، وذلك بسحق ثمار الزيتون، وعصره بمكابس عادية، ومنها ما هو مخصص لدرس زبيب العنب الأحمر، واستخراج الدبس منه[٧٩]. واشارت مصادر تاريخ صيدا عن وجود عدد من المعاصر في المدينة، نسبت إليها حارات ومحلات، وباستثناء معصرة لدرس السمسم، وأخرى لدرس الزبيب الأحمر، لم تحدد المصادر المذكورة أنواع بقية المعاصر، وهي التالية: واحدة بالقرب من قلعة المعز، ومعصرتين في سوق اللحامين، واحدة ملك محمد أبي ظهر، والثانية تعرف باسم معصرة البوشي، ومعصرة الحاج حسن المعصراني في ساحة المصلبية، ومعصرة لدرس الزبيب في سوق اللحامين[٨٠].

ومن حرف التغذية حرفة «الخضرجية» وهم باعة الخضار والبقول وغير ذلك مما هو معلوم، ويحقق أرباب هذه الحرفة أرباحاً وفيرة في الصيف، بسبب كثرة وتنوع الخضار والفاكهة في هذا الفصل، وكان لهم سوق خاص تدعى «سوق الخدرية» تقع إلى الشمال من خان الفرنج[٨١].

وكانت صناعة[٨٢] الحلويات من حرف التغذية الهامة، لاتصالها بمظاهر الحياة اليومية، التي *عاشتها الشريحة* الاجتماعية الميسورة الحال، ولارتباطها ببعض الاحتفالات والتقاليد الاجتماعية من جهة أخرى. وقد قامت هذه الصناعة على السكر، واجاد صناعها صنع طائفة كبيرة من الحلويات المحشوة بالسكر والفستق واللوز والصنوبر، كالبقلاوة على أنواعها والبورما، والشعيبيات، والكنافة بأنواعها، والمعمول، والغريبة. وهذه الحرفة كانت تروج ويشتد الطلب عليها في بعض المواسم والأعياد الدينية، في منتصف شعبان، وشهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى والمولد النبوي، إذ يحرص الأهالي في هذه المناسبات، على شراء الحلويات التي تمتلىء بها الأسواق لأهل المنزل، وإهداء الأقارب والأصدقاء، على نحو ما يحدث الآن في مثل هذه المواسم والأعياد الدينية. وهذا ما يدفع باعة الحلوى، إلى صنع كميات تزيد عن الكميات التي اعتادوا بيعها في الأيام العادية، واطلق اسم الحلواني على صانع الحلوى وبائعها.

ومن حرف التغذية أيضاً، حرفة العطارين، وهم باعة السكر والأرز والملح وغيرها، وما لبس من السكر على اللوز «الملبس»، وما يلبس على الحمص «القضامة بالسكر»، وما صنع من السكر والنشا راحة الحلقوم» وما عقد مع السكر من الفستق والوز «عرايش الفستقة» وما عمل من الفواكه بفطر السكر «المربيات»، وما صنع من أصناف الشراب. كما كانوا يبيعون اللوز والفستق المحمص والبندق والجوز والصنوبر القلب وأصناف البهارات، وأشياء أخرى[٨٣]، وكانت لهم سوق خاصة موقعها بالقرب من مقام سيدي أبي نخلة[٨٤].

وارتبط بحرف التغذية، حرفة استقطار ماء الزهر وماء الورد، فيؤخذ ما نسبته عشرة أجزاء من زهر النارنج، الصُفر (بضم الصاد) الرطب الجيد الرائحة ويوضع في الانبيق، فوق الحجاب الحاجر، ويصب عليه ما نسبته عشرون جزءاً من الماء، ومتى تقطر، يؤخذ الماء المتقطر، ويحفظ، وهذا هو المسمى بماء الزهر المكرر، وعند العامة بالراس. ثم يداوم على التقطير حتى يحصل على ثلاثة أرطال إلى خمسة، فيؤخذ، ويحفظ، وهذا هو المسمى بماء الزهر المعتاد[٨٥]. *أما ماء* الورد، فيؤخذ من وريقات تويج الورد القوي الرائحة المنقى، فتوضع في الانبيق فوق الحجاب الحاجز، ثم يصب فوقها الماء، حتى يحاذي أسفل الحجاب المذكور. ثم يقطر فيتصاعد بخار الماء، وينفذ من بين الوريقات، فيتحمل بالأصل العطري، وينفذ في الملتوي، فيستحيل سائلاً. ومتى تقطر مقدار الورق الموضوع، تتوقف العملية، ويسمى هذا الماء بالراس، وما يجري تقطيره بعد ذلك، يكون ضعيف الرائحة ويسمى بالبسيط[٨٦]. وكان يستفيد من ماء الزهر والورد، المصابون بالقبض والمعرضون لأوجاع المعدة والصداع، كما يضاف هذا الماء إلى أنواع الحلويات على اختلاف اجناسها، فيتحسن طعمها، وتكتسب رائحة ذكية تجلب للمتناول

القابلية[87].

ومن حرف التغذية أيضاً، حرف المشروبات المنعشة المباحة، كشراب الورد والتوت والتمرهندي، والليموناضة المركبة من السكر والليمون والبرتقال، فيضع بعض الباعة هذه المشروبات في «حق» من بلور لطيف المنظر ويضيف إليه الثلج ثم يحمله تحت أبطه في «كمر» من جلد يحزمه بوسطه على كتفه، ويأخذ بيده عدداً من الكاسات، ويدور بهذه المشروبات في الأزقة والحارات، وأطلق اسم «شربتجي»على من يعمل في هذه الحرفة، وكان يتعيش منها كثيرون[88]، وكان بعض الباعة يمارس حرفة بيع شراب نقيع السوس في فصل الصيف، فيحمل الصنّاع قرب الجلد المملوءة بشراب السوس المذوب بالثلج، ثم يأخذون الكاسات، ويدورون في الأزقة والأسواق، يبيعون المارة من هذا الشراب، ولا تزال حتى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم السوسي[89]. وفي زمن الشتاء كان هؤلاء الباعة يستبدلون الجلاب بالمشروبات المذكورة، فإذا كان متقناً كان شراباً لذيذاً[90].

ويتصل بحرف التغذية حرفة تحميص البن وبيعه مدقوقاً في محل يدعى «محمص بن»، وحددت مصادر تاريخ صيدا موقعة في خط خان الفرنج في سوق العقادين[91]، وكان يتم ذلك بأن يحمص البن على نار هادئة، ثم يوضع في جرن حجري، حيث يقوم الصنّاع الدقاقون بدقة بمدقات من الحديد ثم ينخلونه بالمناخل، ويصنف بعد ذلك إلى ثلاثة أصناف جيد ووسط وأدنى. واعتاد بائع البن، ويعرف باسم «البني»، على غش هذه السلعة بتحميص القضامة المكسرة والشعير مع البن، فانحصر زبائنهم بالقهوجية أو من يتكاسل عن دقه في داره[92]، ولا يزال حتى الآن توجد عائلة في صيدا تحمل اسم البنّي.

واكتناف البحر لمدينة صيدا، لعب دوراً هاماً في توجيه النشاط الاقتصادي للأهالي، فاهتموا بجني المحصولات الصناعية التي تتولد منه، إذ يعيش في هذا البحر أنواع عديدة من الأسماك، والأصداف، والهلاميات، وذوات المفاصل، وذوات الجلد المشوّك، والسلاحف. فعمد الصيداويون إلى صيد[93] الأسماك المتنوعة، فكانت سبب معاش الكثيرين ومنبع ثروة لهم، ومن بين هذه الأسماك: الزليق، والسلطان إبراهيم، والفريدة، والجربيدة، وسمكة موسى، واللقس، والبوري، والدهبان، والسفرني، والسرغوس، والبلاميدا، والعرموط، والشبوط، وسمك السيف والغبس، والحنكليز البحري. أما من الأصداف فقد اصطادوا الاستريديا والزرنباية والاختبوط، وأنواعاً مختلفة من الأبواق للأكل، كما اصطادوا من ذوات المفاصل الكركند والقريدس، والسراطين، ومن ذوات الجلدة المشوكة التوتيا[94].

ويلعب الملح دوراً هاماً في صناعة التغذية، فقد نجح بعض الصيداويين بإقامة ملاحات لتجفيف مياه البحر، واستخراج الملح منها، وذكرت مصادر تاريخ صيدا عن ملّاحة بالقرب من منطقة البحر المالح، ويبدو أن هذه الملّاحة لعبت دوراً اقتصادياً بارزاً في المنطقة المتواجدة فيها، إلى حد سميت تلك المنطقة بـ محلة الملاحة، وأقامت السلطات العثمانية مخزناً لخزن الملح المستخرج منها، وأطلق لقب الملّاح على من كان يعمل في حرفة صنع، أو بيع الملح، ولا تزال إلى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم الملّاح[95].

وتعتبر حرفة اللحامين من حرف التغذية الهامة، وكانت لهم سوق خاصة حددت المصادر موقعه بالقرب من الباب الشمالي لخان الفرنج، وكان يتم الذبح في المسلخ، ثم يأتي بها اللّحام إلى دكانه، لبيعها لزبائنه على حسب طلب المشتري[96]. ويحظر المحتسب على اللحامين الذبح أمام دكاكينهم، لتجنب تلويث الطريق بالدم والروث، لأن في ذلك تضييق للطريق، وإلحاق الضرر بالناس، بسبب رذاذ النجاسة، كما يحظر عليهم تعليق اللحم خارج حدود مصاطب دكاكينهم، وإنما يكون داخل المصطبة، لئلا يلحق الضرر بالناس بسبب اصطدامهم بها. ويجب أن يكون اللحام مسلماً، عالماً بأحكام السنن والفرائض والفضائل، وشروط الصحة العامة، وما يجوز أكله من الذبيحة وما لا يجوز وما يكره وما اختلف فيه، خوفاً من أن يطعم المسلمين الحرام، ويأخذ ما لا يستحقه من اموالهم[97]. وان يتم الذبح بسكين حادة على أن تغرز في شفر النحر، وهي الوحدة التي في

اعلى الصدر واصل العنق، وإن تذبح الأبقار والأغنام، وهي مضجعة، ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة، وتخرج منها الروح[٩٨].

ويرتبط بحرفة اللحام حرفة أخرى هي حرفة الرواس، وهو بائع رؤوس الغنم المطبوخة، وغيرها من الكروش والقوائم«المقادم»، وهي حرفة رائجة كان يتعاطاها الفلاحون والفقراء، وترد عليهم أرباحاً وفيرة[٩٩]، ولا يزال حتى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم الرواس.

ورغم الطابع الإسلامي للمدينة، فقد كان مباحاً فيها بيع الخمر علانية، فقد ذكر التاجر الفرنسي (Arvieux)[١٠٠] الذي أقام في المدينة ما يقارب الأربع سنوات، على أنه كان يتواجد فيها خمارة كبيرة كانت تبيع الخمر، كان يدفع مستثمرها «الخمرجي»، مبالغ كبيرة للوالي العثماني كرشوة، مقابل السماح له ببيع هذا المشروب، وبأن رواد هذه الخمارة، كانوا من جميع المذاهب الدينية. كما ذكر بأن الخمر كان يباع أيضاً في ثلاث مقاه أخرى.

حرف المصنوعات الجلدية

ومن خلال أسماء الأنشطة الاقتصادية المتعلقة بالمصنوعات الجلدية، نستطيع التعرف على كثير من الحرف المرتبطة بها، فقد استحضر الصيداويون جلود الخام كلها أو بعضها من الخارج، بغرض دبغها وتصنيعها فكل جلود الحيوانات يمكن أن تدبغ إذا أريد دبغها، ولكن اكثر ما يدفع منها جلود الغنم والماعز والبقر، وقد تدبغ أيضاً جلود الخيل والحمير وغيرها، وأجود الجلود وأمتنها للنعال جلد أبي الجاموس وجلد الثور، أما جلد البقرة، فدون جلد الثور، وجلد العجل أرق من جلد البقرة، ولكنه إذا دبغ جيداً يصير ليناً جداً، فيستعمل فرعة. وجلد الخيل يدبغ لعمل السروج فقط، وجلد الغنم والماعز لتجليد الكتب ويعرف دبيغه بالسختيان[١٠١].

ويؤخذ الجلد وينقع في الماء، حتى يلين، فيقوم الدبّاغ بتنظيف باطنه، أي الذي يلي اللحم، ما التصق به من الأغشية والمواد الدهنية، ثم يعيده إلى الماء، ويبقيه فيه أربعاً وعشرين ساعة، ويشرع في إزالة الشعر عنه، إلى أن يصبح جاهزاً للدبغ، حيث يغطس في أحواض تحوي مواداً دابغة، فيمكث إلى أن يتشرب جيداً ويدبغ. فيرفع الجلد من حياض الدبغ، ويكنس عنه ما يعلق به من موادها، ثم ينشف على بلاطة ملساء، ويطرّق بمطارق من الخشب والحديد، حتى يصبح مكتنزاً مندمجاً لا يتغير شكله عند اللبس[١٠٢]. وقد نمت حرفة دباغة الجلد وكثر عدد العاملين فيها تجارة وصناعة، ففي حقل التجارة، كان يتم ذلك في خان الدبّاغة. أما التصنيع فكان يتم في الدبّاغة. وحصر عمل الدبّاغين بعيداً عن المناطق البعيدة عن مراكز تواجد كثافة سكانية، وإنما في منطقة تتواجد فيها الخدمات التي يتطلبها دبغ الجلود، مثل المسلخ للتزود بالجلود، والمياه لغسلها. كما ان الروائح الناتجة عن العمل، وما يلحق بها، يتطلب حصر الدبّاغات في أمكنة معينة، لذا تواجدت الدباغات في الأماكن التي تتواجد فيها الشروط اللازمة لإنجاز هذه الصناعة[١٠٣]. فقد أشارت مصادر تاريخ صيدا العائدة للعام ١٧٨٥ عن وجود دبّاغة في الطرف الشمالي الغربي لباطن المدينة ونسبت الحي والحارة الواقعة فيهما إليها[١٠٤]، كما أشارت وثائق العام ١٨٣٩ عن وجود دبّاغة أخرى خارج المدينة تقع شرقي البحر المالح، وعلى الضفة الجنوبية لنهر القملي[١٠٥].

ويتصل بحرف الصناعات الجلدية، حرفة الصرمایاتي، وهو صانع الصرامي، وهي نوع من النعل الأحمر بدائر بدون كعب كان لبسها شائعاً آنئذٍ، وكان بعض الصنّاع ممن لديهم رأس مال، يصنع هذه الصرامي لنفسه، ويبيعها لمن يرغب من المشترين، في حين كان البعض الآخر يصنع بالأجرة لحساب تجار هذه الأصناف، بعد أن يزوده هؤلاء بالمواد الخام[١٠٦]. وكانت لهم سوق خاصة تدعى سوق الصرماتية، يقع شرقي خان الفرنج إلى الغرب من حارة اليهود[١٠٧].

وارتبطت بحرف الصناعات الجلدية حرفة السكافيين، وهم من كانوا يقومون بتخصيف النعال القديمة[١٠٨]، وكانت لهم سوق خاصة يمتد من سوق الصرماتية غرباً، وتنتهي بالقرب



□ إحدى المقاهي الشعبية في صيدا ــ القرن التاسع عشر.

من حارة اليهود(١٠٩).

ومن حرف الصناعات الجلدية، حرف صنع معدات الركوب، فقد أشارت الوثائق الفرنسية إلى حرفة الجليلاتي(١١٠)، وهو من يصنع جلال الدواب، ليوضع على الدابة لتصان بها، وكان الصنّاع ينوعون الجلال، على حسب المركز الاجتماعي لمن يطلبها، فمنها الجميل الذي يشبه السروج، فيوضع على دابة الراكب من أمير وما دون، ومنها المتدني الذي يوضع على دواب الحمالة(١١١). وهذه الحرفة كانت رائجة للغاية، لأن دواب النقل كانت الوسيلة الوحيدة التي يستخدمها الناس في انتقالهم من المدينة إلى خارجها. ويتصل بهذه الحرفة أيضاً، صناعة السروج التي توضع على ظهر الخيل للركوب فوقها، والمعدات الجلدية الأخرى التي تلزم لركوب الخيل وغيرها من الدواب، من لجام ورسن وحياصة، وبيوت للبنادق الصغيرة تكون مطرزة بالحرير والقصب على حسب رغبة المشتري، وكانت هذه الصنعة من الصناعات الرائجة، وموضع احترام من قبل الناس(١١٢).

حرف صناعة الأقمشة والملابس

وازدهرت حرفة صناعة الأقمشة والمنسوجات والحرف المتصلة بالملابس ازدهاراً كبيراً في ذلك الزمن، ويتضح من خلال تنوع الحرف المتصلة بالملابس، مدى حرص الناس على أناقتهم بشكل عام، وهو أمر يتفق وحقيقة البناء الطبقي لذلك المجتمع. فقد كانت المدينة مقراً للإمارة المعنية، في عهد فخر الدين المعني الثاني، حيث شهدت مرحلة متقدمة للغاية من النشاط الاقتصادي، ثم عاصمة لولاية صيدا، فلا بد أن يفرز هذا الوضع مجموعة من المبادىء والقيم الاجتماعية، تحرص على الشكل والمظهر دون الجوهر، وهو الأمر الذي يكشف عن نفسه باهتمام الأمراء والولاة وكبار مساعديهم بمراسم الديوان، وعنايتهم الفائقة بزينة مواكبهم وفخامتها، هذا فضلاً عن أناقة ملابسهم وكسوة خيولهم. فقد كان لكل فئة في المجتمع ملابس

خاصة بها، لا يسمح لغير أفراد هذه الفئة بارتدائها، فقد كانت ملابس العامة خالية من الزخارف والزينة، التي اقتصرت على ثياب الحكام والقضاة والفقهاء من أرباب العمامة والتجار وأمثالهم.

وكانت عمليات تصنيع القماش في مراحله المختلفة تتم في سوق الحاكة، وحددت المصادر موقعه بالقرب من المحكمة[١١٣]، وأطلق اسم الحائك على من يقوم بهذا العمل، وكان النسج يتم بواسطة أنوال يدوية، وكان الصناع ينقسمون إلى قسمين، قسم يعمل بالأجرة لدى غيره من أصحاب الورشات الصغيرة، والقسم الآخر يعمل لحسابه، وكان القسم الأخير ينقسم بدوره إلى فئتين: فئة تأخذ الغزل من الناس لكي تنسجه لهم لقاء أجر معلوم، وفئة تشتري الغزل، وتنسجه وتبيعه أثواباً جاهزة. اما صناع الحرير فقد عرفوا باسم «الحريري» وانقسموا إلى عدة فئات، قسم يقوم بحل شرانق الحرير، وتحويلها إلى خيوط يبيعونها غزلاً، لمن يطرز به، والبعض الآخر ينسجونه ويبيعونه أثواباً، على حين كان البعض يصنع منه الحاشية التي تستخدم في صناعة الملابس، والبعض الآخر يمزج مع الغزل وثوب الطرح لإكسابها رقة الملمس، ونعومة وليونة تتفق مع استخدامها كغطاء للرأس، والكتفين[١١٤].

ويتصل بحرف صناعة الملابس حرفة التطريز، ويقال لمن يقوم بها «مطرز»، وهو من يقوم برسم الأشكال الزخرفية على أثواب القماش حسب رغبة الزبون، وبعدها يقوم بتطريز خيوط من الذهب والحرير الملون على الرسومات التي على القماش[١١٥].

وكان الغزل من عمل النساء في المنازل، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن ما كان يجري في سوق الغزل التي لم تحدد المصادر مكانها[١١٦]، إنما بيع الخيوط شللاً.

ويتصل بصناعة الملابس أيضاً، حرفة الصباغة، ويقوم بها «الصبّاغ» وهو فن قديم في بلاد الشام، وليس من أحد يجهل شهرة الارجوان الذي كان يصبغ فيه الحرير على الشواطىء الفينيقية، ثم اشتهر بعده الصبغ الدمشقي في سائر الأقطار، لثبات ألوانه ولطافة لمعانه[١١٧]، إلى حد أن نجاح الصناعة القطنية الفرنسية اعتمد، ولمدة طويلة، على خيوط القطن المصبوغ في الشرق، والذي كان يصدّر الجانب الأعظم منه عن طريق ميناء صيدا، فقد كان من السهل على الفرنسيين، تعلم طريقة الغزل والنسيج، أكثر من معرفة فن الصباغة المعتمد في الشرق[١١٨].

وكان هناك عدة طرق لتثبيت الألوان على المنسوجات، ومع كل منها، ينبغي أن تكون المنسوجات نظيفة منقاة بالمواد المعدة لإعطاء الألوان المناسبة. فلذلك تبيض المنسوجات بالكلور قبل تلوينها، سواء أكانت من الكتان أو من القطن، وإن كانت من الحرير أو القطن، تبيض بالماء المغلي، وماء الصابون، أو بخار حامض الكبريت، ثم تشبب بالشب الخالي من الحديد. ومما يثبت الألوان على الأقمشة خلات الالومين، بأن يوضع عليها خل الالومين ثم تترك لمدة ساعات في محلول الشب، ثم تجفف وتغمس بعد جفافها فيما يراد التلوين به، أي في الماء الذي وضعت فيه المادة الملونة، وتغلي على النار بحسب ما تقتضيه الصناعة[١١٩].

ولقد تواجدت في مدينة صيدا أماكن لصباغة الأقمشة على ألوان متعددة حسب الطلب، فصبغوا الخام الأزرق والأقمشة الحريرية، وخيوط الغزل بألوان الأحمر والأصفر والذهبي وغيرها، كما صبغوا بعض أصناف القماش باللون الأسود[١٢٠] وذكرت مصادر تاريخ صيدا، عن وجود أربع مصابغ: اثنان في باب البلد التحتاني، من بينهما واحدة ملك بني زهرة، ومصبغة في محلة باب السوق، ومصبغة بالقرب من حارة المأذنة[١٢١]. ولقد تحول لقب «الصبّاغ» في صيدا من أفراد يعملون في حرفة الصبّاغة إلى اسم عائلة الصبّاغ الصيداوية.

ومن الحرف المتصلة بتصنيع الأقمشة والملابس، حرفة العقادين، وكان لهم سوق خاصة إلى الشمال من سوق الصاغة الفوقاتية إلى الشمال من خط الفرنج[١٢٢]، وكان يجري في هذه السوق تصنيع خيطان الحرير والصوف والقطن إلى شرايط، منها ما كان يصنع على النول أو على دولاب السجق، كأنواع البردايات للنوافذ، ومنها ما كان يصنّع باليد، وتكون من

الحرير الملوّن كالبنود للأسلحة، من سيف وطبنجات، وخروجة وأزرار للصداري، ومنها ما يشتغل على دولاب الشغالات، وهو القيطان الحرير والقطن ويستعمل للصداري الجوخ. وعند إتمام الصانع، ويدعى «العقاد»، من صنع هذه الأصناف المذكورة يسلمها إلى المعلم ليبيعها في دكان لمن يرغب ذلك. وكانت هذه الحرفة مهمة، وتدر أرباحاً وفيرة لمعلمها، ومتوسطة لصانعها(١٢٣).

وارتبط بصناعة الملابس أيضاً، حرفة الخياط، فقد كان الناس يرسلون قطع القماش إلى الخياط لتفصيلها إلى ملابس على اختلاف مرغوب أصحابها، ويؤمر الخياط بجودة التفصيل، وأن تكون الخياطة درزاً لا شللاً، والابرة رفيعة والخيط على الخرم قصيراً، لأنه إذا طال انسلخ وضعفت قوته. وينبغي عليه الا يفصل لأيّ زبون ثوباً له قيمة، قبل أن يقدره، وإذا كان ثوباً له قيمة كالحرير والديباج فلا يأخذه إلا بالوزن، فإذا خاطه رده إلى صاحبه بالوزن بعد إنجاز عمله، وربما كان ذلك احتياطاً من تعرض الزبون للغش، واستبدال الخياط الثوب النفيس بآخر رخيص(١٢٤). وينبغي أن يكون ثوب الرجل سابلاً لأسفل من الكعبين، والا يكون في الثوب وسع خارق للغاية، أما النساء فيجب أن يكون الثوب واسعاً وسابلاً لأن ذلك في حقهن سنة وكمالاً(١٢٥). وذكرت مصادر تاريخ صيدا عن وجود سوق للخياطين في المدينة، لكنها لم تحدد موقعها، كما لا يزال حتى اليوم توجد أسرة صيداوية يحمل افرادها اسم الخياط، وهذا دليل على توارث أفراد هذه الأسرة بحرفة الخياطة(١٢٦).

ويتصل بحرف صناعة الأقمشة والملبوسات حرفة بائعي الذراع، وهم من كانوا يقومون ببيع الأقمشة والمنسوجات بالذراع، وكانت لهم سوق خاصة تدعى «سوق الذراع»، حددت المصادر موقعه شمال خط الفرنج(١٢٧).

حرف صناعة النجارة

واستفاد الصيداويون من وفرة الأخشاب في المرتفعات الجبلية اللبنانية، وانتشرت في المدينة الحرف المرتبطة بصناعة النجارة(١٢٨)، ولم يكتف الصنّاع في منجوراتهم بأخشاب بلادنا ورغم كثرتها، بل كانوا يستوردون ايضاً من الخارج، ويعتمدون على خشب الجوز والزيتون والدردال والصنوبر والسرو. فصنعوا منها الصناديق، وما يلزم المنازل من أبواب وخزائن للثياب، ومقاعد، كما صنعوا ايضاً ما يحتاجه الفلاحون من أدوات في عملهم، كالمحاريث والمجارف والواح درس الغلة والنورج، وكانت هذه الحرفة تدر على أصحابها أرباحاً جيدة ويعتاش منها أناس كثيرون(١٢٩). وتتواجد في صيدا سوق خاصة بالنجارين، لم تحدد لنا المصادر موقعها(١٣٠)، ولكن مراجعة خرائط المساحة لباطن مدينة صيدا، تبين لنا أن سوق النجارين، كانت تتقاطع مع الجزء الجنوبي لكل من زقاق الدباغة وسوق الخدرية.

وارتبط بحرف صناعة النجارة حرفة «الخرّاط»(١٣١)، وهو من كان يقوم بخرط العود والخشب بسائر أنواعه بآلة مخصصة لهذا الغرض، فكان الخرّاطون يصنعون برامق الدرابزين والكراسي المتنوعة من مختلف الأحجام، وأجران الثوم وأيدي الكبة وأنواعاً اخرى عديدة(١٣٢).

كما ارتبطت بحرف صناعة النجارة حرفة صنع القباقيب(١٣٣)، ويطلق على صانعها «قباقيبي» وهي حرفة كانت رائجة للغاية، نظراً لكثرة الطلب على القباقيب، حيث كان شائعاً استعماله للحمّام.

ومن حرف صناعة النجارة حرفة صناعة السفن الشراعية(١٣٤)، ولقد أتقن ابناء صيدا هذه الحرفة، بحيث صار يقصد المدينة كثير من أبناء الثغور الشامية للحصول على هذه السفن.

حرف صناعة التعدين

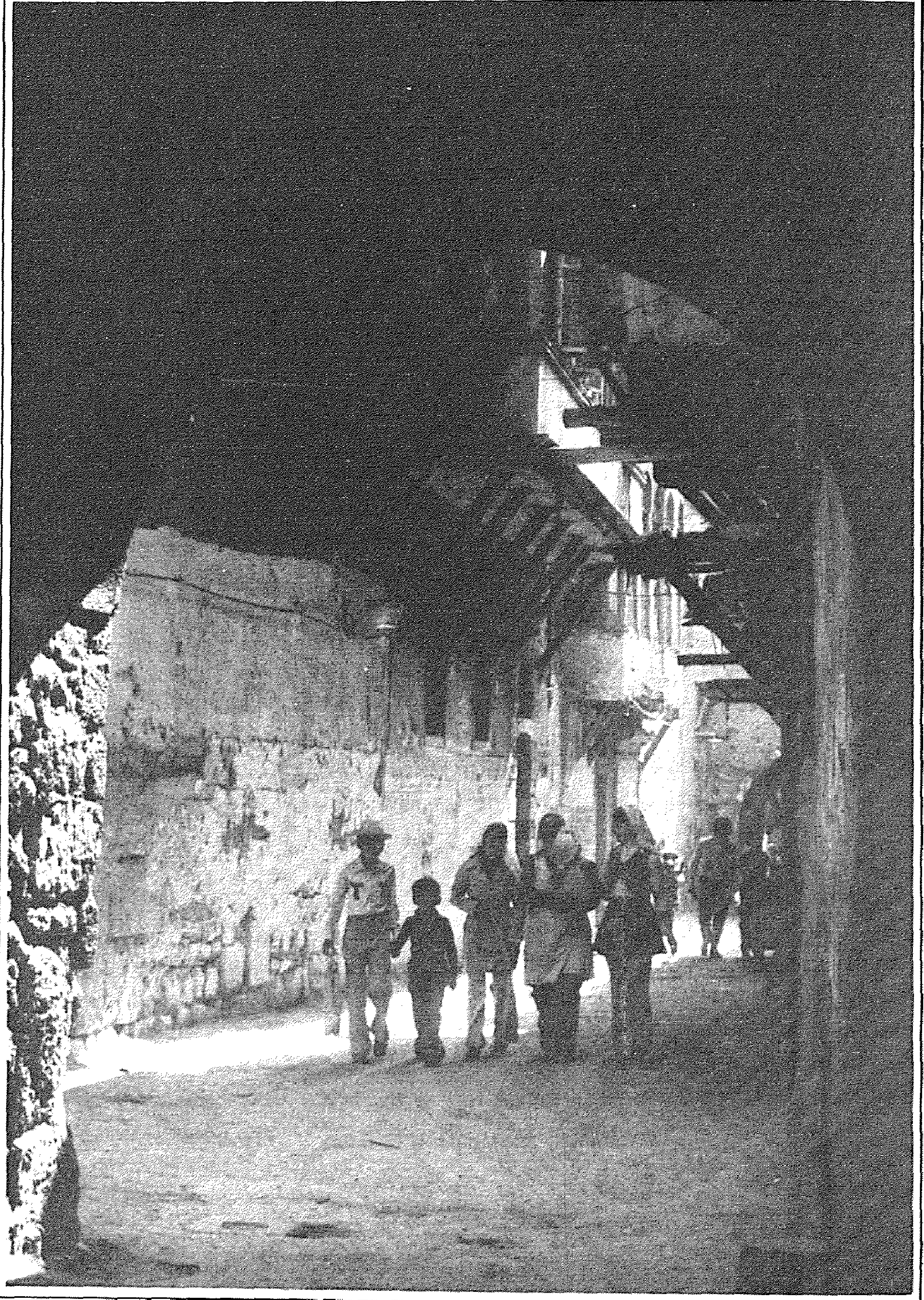
وقامت في سوق الحدادين حرف صناعة التعدين، وهي من الصناعات القديمة العهد في صيدا، تعود إلى الألف الرابع ق. م. فإلى الصيدونيين يعود الفضل في تعدين مناجم الذهب والفضة، وفي شغل النحاس والحديد، التي قدموها كضرائب عينية في عهد الآشوريين. فإذا تفحصنا الأثريات التي وجدت داخل النواويس التي عثر عليها في صيدا، لاحظنا أن كثيراً من

المصنوعات المعدنية المستعملة آنذاك كانت من النحاس، وبأن استعمالها إنما كان في النطاق الذي عرفه أجدادنا الأوائل، من أدوات للقتال والدفاع عن النفس، أو لحرث الأرض، أو الأواني المنزلية كالكؤوس والقوارير، وأثاث منازل فضية ونحاسية، ومسامير ونعال[١٣٥]. وذكرت الوثائق الفرنسية لعام ١٨١١ عن إجادة الصيداويين لصناعة الأسلحة[١٣٦]، من سيوف وما شابهها، ويسمى صانعها «السيوفي» والسكاكين، ويسمى صانعها «سكاكيني» وهو اسم عائلة موجودة في صيدا حالياً وصناعة الأواني النحاسية المنزلية[١٣٧]، وذلك بسكب النحاس في قوالب مخصوصة كالهواوين وخلافها، حسب طلب المشتري، وكان يطلق على من يقوم بهذا العمل «السكّاب». وطرق صفائح النحاس وتصنيعها طناجر وأطباقاً للغسل، والمصافي والمقالي، مع جميع ما يلزم للطبخ من كفكير وكبجات وغيرها من الأواني النحاسية، وكان بعض الصناع، ويسمى «النحاس» يطرِّقها على حسب طلب المشتري مقابل أجرة معلومة على ذلك، في حين كان أغلب النحاسين يطرقونها على حسابهم ويعلقونها في دكاكينهم، ويبيعونها لمن يرغب في مشتراها، وهي حرفة هامة كانت تدر أرباحاً وفيرة على أهلها[١٣٨]، وقد راجت في المدينة بحيث طبعت اسم اسرة حتى غدا لقباً لها، فأسرة النحّاس من الأسر الصيداوية المعروفة في أيامنا هذه.

ويتصل بحرف صناعة التعدين حرفة «النقاش»[١٣٩]، وهو من ينقش الأواني النحاسية من طاسات وشماعدين والصواني والفوانيس وغيرها، فيملؤن الأواني بالزفت كي لا تتعوج عند النقش، وينقشونها بازميل من حديد، وفقاً لرغبة صاحبها، رسوم الطيور أو الورود أو الأشجار أو الحيوانات[١٤٠].

وأدّى توفر الأدوات النحاسية المنزلية، إلى ضرورة إزالة الصدأ الذي قد يتراكم عليها، ويسبب إلحاق الأذى لمن يستخدمها، وهذا من عمل «المبيّض»، الذي يقوم بتبييض تلك الأواني، وذلك بتحميتها على النار، وطليها بالقصدير والنشادر، ويقلب الوعاء سريعاً حتى يصيب القصدير كل جانب من باطن الوعاء، ويتكرر ما تقدم إذا كان التكرار لازماً[١٤١]. ويتقاضى «المبيض» أجره عن هذا العمل، بحسب قيمة القصدير المستخدم، ورخصه وغلائه، وكانت هذه الحرف تدر على أصحابها أرباحاً متوسطة[١٤٢]. وأشارت مصادر تاريخ صيدا، عن وجود دكان «المبيّض» في باب البلد التحتاني[١٤٣]، وعن وجود دكان آخر خارج المدينة، في سوق البياطرة[١٤٤].

ومن الحرف الصناعية المرتبطة بالتعدين، حرفة صياغة الذهب والفضة، وهي من الصناعات القديمة التي أجادها الصيداويون منذ الألف الرابع ق.م.، ومما يثبت ذلك الأثريات النحاسية من عقود وأساور التي عثر عليها في داخل النواويس التي اكتشفت في منطقة صيدا[١٤٥]. وذكرت مصادر تاريخ صيدا عن وجود سوق مختصة بحرفيي هذه الصنعة، وحددت موقعها شمال غرب سوق الأساكفية، بالقرب من خان الأرز، كما ذكرت سوقاً أخرى مكملة لها تدعى سوق الصاغة الفوقانية[١٤٦]، وفي هاتين السوقين كان يصاغ الذهب والفضة، وتفنن الصنّاع بتصويرها، ووضع الأحجار الكريمة عليها، فصنعوا الحلى والمجوهرات[١٤٧]، من عقود وشكلات، وعصائب الجبين تتدلى منها قطع النقود الصغيرة[١٤٨]، واقراط ذهب مزينة بالدر والياقوت، والعقود والشكلات والكردانات[١٤٩] المشنشلة التي تغطي النحور، والقلائد والدمالج، والأطواق والخلاخيل والأساوير في أشكال كثيرة[١٥٠]، وأحياناً كانت الحلى تصاغ من النحاس، وتطلى بالفضة، أو تصاغ في الفضة، وتطلى بالذهب إيهاماً بارتفاع أثمانها[١٥١]. وكان معظم من يتعاطى في حرفة الصياغة هم من النصارى، وأطلق على صائغ الحلى اسم «الصائغ». ولأن أكثر زبائن أرباب هذه الحرفة من النساء، فقد كان من المتوجب على الصائغ الا يتحدث مع امرأة إلا فيما لا بد منه مما يصنعه لها، أو يبيع، أو يشتري منها، ولا يتركها تكشف شيئاً عن معصمها أو ساقها أو غيرها لهذا الغرض، وإنما تقيس ما تحتاج إليه بخيط، وتأتي به معها، او تأتي بسوار يقيس عليه أو غيره، أو تأخذ ذلك منه بحائل على يدها، وتقيسه لنفسها تحت



□ الحارات القديمة تفصلها ابواب الاحياء وتحتوي على الطرقات والمشربيات والبروزات.

إزارها، كما يتوجب عليه الا يصيغ شيئاً من الصور لأن ذلك محرم[١٥٢]. وينبغي أن تكون أكوار السبك مبنية على وجه الأرض، وغير مرتفعة، لكي لا يخفي ما يسبكه فيها صاحبه من فضة أو ذهب، وكذلك لكي لا يسرق من البوتقة شيئاً بالماسك، وإذا أراد صناعة شيء من الحلي، فلا يسبكه في الكور إلا بحضرة صاحبه بعد التحقق من وزنه، فإذا فرغ من شبكه، أعاد الوزن، وسلم الحلية لصاحبها. وكان بعض الصاغة يعمد إلى صياغة الحلي المزيفة، وبيعها إلى الناس على أنها حلي حقيقية، مما ساعدهم على تكوين ثروات باهظة[١٥٣].

حرف وصناعات متنوعة

وورث الصيداويون حرفة صناعة الفخار عن اجدادهم، وحافظوا على حسن صنعها، وهذه حرفة شعبية شديدة الالتصاق بحاجة اللبناني اليومية. فالجرار وسيلته لنقل الماء من العين، والأباريق هي أفضل ما يشرب فيه الماء، كما أن بعض المواد الغذائية، كالزيتون والزيت، ليس هناك من وسائل تخزين لحفظها أفضل من خوابي الفخار. ولهذا السبب اعتنى الصيداوي، كغيره من أبناء الساحل الشامي، بصنع الجرار والخوابي والأباريق، وما يتبعها من قجج وأصص للأزهار وقدور وصحون ومعاجن وما إلى ذلك[١٥٤]، وتصنع هذه الأواني الفخارية من الطين، الذي يغسل بماء البحر المالح لتفصل عنه الحجارة والأوساخ الثقيلة، ثم يخلط بنوع من التراب سواء أكان طبيعياً أو معجوناً صناعياً، وبعد الخلط، يترك مدة، ثم يجفف حتى يتصاعد ما فيه من الماء. ثم يعجن بماء آخر، حتى يصير في قوام العجين، ثم يبسط على هيئة جلدة، ثم يطوى على نفسه ويكرر العمل هكذا مراراً، إلى أن يصبح معجوناً جيداً، لامتزاج المواد في بعضها والتصاقها[١٥٥]، ويتوصل الصانع إلى الشكل المطلوب بواسطة دولاب يدار بالرجل، وتستعين اليدان على قولبة المعجون الطري إلى جرة أو إبريق، ثم يجفف لمدة اسبوعين في ساحة واسعة معدة خصيصاً لتجفيف الفخار فيها بعد صنعه، قبل خبزه في فرن قديم يستوعب الكثير من الحطب، وعدة أيام من الحرق المتواصل لإنجاز العمل[١٥٦]. ونظراً لضرورة الخبرة في صناعة الفخار، وربما حرصاً من أفراد هذه الصناعة على حصرها بأسرهم فقط دون غيرها، فإننا نلاحظ تخصص أسرة صيداوية واحدة في صناعة الفخار، ومن الأسر التي ذكرتها المصادر في هذا المجال، أسرة الفاخوري، التي امتلك عدد من أفرادها الفواخير، ومنهم يوسف الفاخوري، والحرمي حني بنت يوسف الفاخوري الذمي، وأيوب الفاخوري، وطبوش الفاخوري، ولا تزال هذه العائلة موجودة في صيدا إلى الآن كما احتلت صناعة الفخار مكانة بارزة في حياة المدينة، إلى حد تسمية محلة باسم محلة الفواخير، وحددت المصادر موقعها جنوبي البحر المالح[١٥٧].

وأجاد الصيداويون حرفة صناعة الصابون، وكان يصنع بخلط كميات متناسبة من مسحوق الكلس والقلي، وهو نبات صحراوي يحرق في حفر خاصة ويأتي به البدو، وتوضع المقادير اللازمة في أوعية من خشب أو أحواض مبنية في مكان مرتفع، مصنوع لها ميزاب، إذا فتح يصب في جرن مكلس مصنوع لهذه الغاية. ثم يغمر المسحوق على ثلاثة قراريط بماء ساخن، ويحرك داخل الماء، ويترك منقوعاً هكذا اثنتي عشرة ساعة، ثم تنزع سدادة الميزاب، فيسيل منها المحلول إلى الجرن الذي تحته، حيث يجري حفظ هذا السائل وحده.

ثم يوضع جزء من السائل المستحضر في قدر كبيرة، يكون في قعرها انبوبة مثلمة ملتحمة، قطرها ٦٨ ملم، وهي مثل الحنفية. فيسخن هذا السائل تسخيناً متوسطاً، ثم يصب عليه من الزيت شيئاً فشيئاً، ثم تقوى الحرارة حتى يغلي ما في القدر، حيث يتخذ السائل كله منظر المستحلب، ثم يصب أيضاً من الزيت والسائل شيئاً فشيئاً على التعاقب. ويتوجب في أثناء هذه العملية أن يحرك المزيج بصورة دائمة للحيلولة دون انفصال الزيت من الماء، وخلطهما خلطاً تاماً، حتى يتشبع الزيت، ويكمل تكوين الصابون الذي يتجمع، ويطفو على سطح السائل. وفي هذه الأثناء تترك النار حتى تضعف، ومتى ضعفت تفتح حنفية الشوكة ويستفرغ

منها الماء كله، ثم تغلق، فيصب على الصابون من السائل الأول المستحضر الذي سبق وأشرنا إليه، ثم تقوى النار، ويستمر الطبخ إلى أن ترتفع نسبة الماء الصابون فيه، ويطفو الصابون كله على سطح السائل، فتفتح الحنفية، ويستفرغ منها الماء كله، وبذلك يكون الطبخ قد صار كافياً، فيترك القدر إلى أن يبرد قليلاً، ويفسخ عنه الماء الذي بقي متحداً على دون لزوم. فيرفع الصابون من القدر بمصفاة، ومنها يصب في صناديق خشبية قوية، ويستحسن أن يصب في غرفة تسمى «المبسط» أرضها مفروشة بالكلس المنخول، تكون عادة في الطابق الأول، حيث يعرض على الشمس، لكي يجف بعض الجفاف، حيث يقطع إلى ألواح تؤخذ لتصف على بعضها لتصير على هيئة أعمدة هرمية الشكل، وتترك هكذا إلى أن تيبس، وهكذا تنتهي العملية[١٥٨].

وكانت هذه الصناعة تنحصر في مؤسسات تملكها الدولة[١٥٩].وأشادت الوثائق الفرنسية بنوع الصابون الذي كان يصنع في صيدا «يصنع في هذه المدينة الصابون الأبيض الذي تستفيد منه مرسيليا، حيث يعاد تذويبه ثانية نظراً لكميات الزيت الوفيرة التي يحتويها»[١٦٠]. وأطلق على صانع الصابون وبائعه «الصبّان» في حين سمي المكان الذي يصنع فيه بالمصبنة، وذكرت وثائق المحكمة الشرعية في صيدا، أنه كان يتواجد في المدينة خمس مصابن، وأنه نسبت حارة إلى مصبنة فيها هي حارة المصبنة، وما ذلك إلا دليل على اشتهار هذه الصنعة في المدينة، وهذه المصابن هي التالية: مصبنة في محلة باب السوق، ومصبنة في الشارع في محلة باب الفوقاني، ومصبنة في حارة الموارنة، ومصبنة في محلة جلال الدين، ومصبنة بني حشيشو[١٦١]، وهذه الحرفة كانت من الحرف الرائجة في ذلك الوقت، وكانت تدر عليهم أرباحاً وفيرة، كما نظر إليها الناس نظرة احترام[١٦٢].

ولعل أسرة الشمّاع المعروفة حالياً في صيدا، إنما هي في الأساس اسم لأفراد تعاطوا حرفة صنع وبيع الشمع في المدينة، ثم مع الوقت غلب اسم الحرفة فغدا اسماً لهم، خاصة وأن الشمع كان من الحرف التي يتعامل بها الناس في حياتهم اليومية آنئذٍ، إذ كان استخدامه رائجاً للحاجة إليه إلى جانب القناديل للإضاءة، وكذلك للزينة في المناسبات والاحتفالات الدينية والاجتماعية والرسمية. ويستخلص الشمع من شحم الغنم والبقر، أو من دهنهما بعد تذويبهما وإزالة ما يطفو عليه من الغثاء والغشاء، وأفضل الشمع ما كان مستحضراً من شحم الغنم ودهن البقر معاً، على ما يستحضر من واحد منهما فقط، وذلك لأن الشحم يزيد صلابته والدهن يضاعف نوره لزيادة المواد الزيتية فيه على ما في الشحم[١٦٣].

ومن الحرف التي عرفتها مدينة صيدا، حرفة الحبّال، وهو من كان يقوم بصنع الحبال، بسائر أصنافها، كالمرس والخيوط والمصيص، وكانت لهم سوق خاصة لصنعها وبيعها، يدعى سوق الحبال، لم تحدد لنا المصادر مكان هذه السوق بالضبط[١٦٤]. ونظراً لأهمية هذه الصنعة للحياة الحضرية والبدوية في آن معاً، فقد كانت رائجة جداً، ويستفيد منها أيضاً غير صناعها من تجار وسوقه[١٦٥].

حرف الخانات

واقتضى النشاط الاقتصادي الذي عرفته مدينة صيدا ضرورة وجود خانات، وكانت مراكز خدمات وتسويق وإنتاج معاً، فقد شيدت هذه الخانات على طراز يؤمن راحة المسافرين ويحافظ على بضائعهم، فاشتملت على حوش يتوسط البناء تربط فيه الخيول، ويحيط بالحوش بناء من طابقين، يتألف الأرضي منهما من قسم يطل على الصحن وتوضع فيه البضائع، وقد يضم قسماً آخر يشرف على الشارع ويؤجر حوانيت للتجار. أما الطابق الثاني، فيقيم فيه التجار والمسافرون، وتمتاز الخانات بفخامة مداخلها وروعة واجهاتها. كما ألحق ببعض الخانات حمامات عامة لاستحمام النزلاء المسافرين، ومسجد خاص يقع في وسط الحوش، في حين زود خان الفرنج بكنيسة صغيرة يمارس فيها نزلاؤه الفرنسيون عباداتهم الدينية بحرية تامة. كما كان للخان وظيفة حرفية ككل الأسواق الحرفية، فتُصَنَّع وتُباع فيه المنتجات الحرفية المختلفة، كما ضمت الخانات مستودعات بخزن البضائع المنتجة والمستوردة، وقد يختص الخان بسلعة من

السلع يسمى باسمها (خان الدباغة وخان الأرز)، وقد يحمل اسم صاحبه (خان العدوي)، أو قد يحمل اسم المحلة الموجود فيها (خان الكنان)، أو جنسية السكان الذين يقيمون فيه (خان الفرنج).

ومن أسماء الخانات التي كانت متواجدة في صيدا، يمكن أن نستدل على جوانب من أوجه النشاط الاقتصادي الذي كان يجري في المدينة، فأشهر هذه الخانات، خان الفرنج وحددت وثائق المحكمة الشرعية موقعه في ساحة البلد التحتاني[١٦٦]، وهو مقر إقامة التجار الفرنسيين في صيدا، الذين كان لهم وكلاء في عكا وطرابلس، يشترون للتجار المذكورين منتجات تلك البلاد، ثم يقومون بشحن تلك المنتجات إلى صيدا على زوارق محلية، حيث يعاد توضيبها في المدينة لتشحن إلى مرسيليا[١٦٧]. وخان الحمص في محلة بوابة التحتا، وخان الأرز في المحلة نفسها. وذكر التاجر الفرنسي (ARUIEUX)[١٦٨] الذي اقام في المدينة أربع سنوات أنه كان يحيط بحوش الخان الأخير مخازن كبيرة لخزن الأرز. وخان الدباغة وكان أصغر خانات صيدا وأكثرها جمالاً وراحة، وذكر التاجر (ARUIEUX)[١٦٩] انه ملاصق لخان الأرز، أي أنه في البوابة التحتا، وبأنه استأجر غرفاً في هذا الخان، واتخذها مقراً لسكنه، وإدارة أعماله بعيداً عن الضوضاء الموجودة في بقية الخانات. وتسمية هذه الخانات الثلاثة (حمص، وأرز ودباغة) بهذه الأسماء إنما يدل على تخصصها بتجارة هذه السلع الثلاث (الأرز والحمص والجلود المدبوغة)، وعلى أنها كانت تلقى رواجاً في البلاد. كما تواجد أيضاً ثلاثة خانات أخرى هي خان العدوي في محلة الملاحة، وخان الكنان في محلة الكنان، ويحده البحر غرباً وشمالاً والبرج القائم في نهاية السور الجنوبي غرباً، وخان اليهود في حارة اليهود[١٧٠] وتسمية الخان الأخير بخان اليهود، ووجوده في الحارة المخصصة لسكنهم، ووجود شارع يحمل اسم شارع حارة اليهود، إنما هو دليل على الدور الاقتصادي الهام الذي كان يلعبه اليهود في حياة المدينة، علماً بأن هذا الحي الخاص باليهود، كان منفصلاً عن بقية احياء المدينة، يقفل باب الحي عند المساء، ويسلم المفتاح إلى القاضي أو إلى آغاً القلعة[١٧١].

وكأكثر الخانات كانت خانات صيدا إما خاصة، شيدها أناس بدافع الربح المادي، أو تكون وقفاً يعود ريعها للمساجد، أو للحرمين الشريفين، وكانت تدار من قبل صاحبها (صاحب الخان، خانجي)، أو من قبل أناس يعملون بالأجرة (ناظر، معلم، متولي وكيل)، أو من قبل مستأجرين للخان (ضامن، مستأجر)، وكانت هذه الخانات تؤجر قاعة قاعة لمستأجرين مختلفين. وكان يساعد مستثمر الخان في عمله، وفي تأمين النشاطات الاقتصادية التي كانت تجري في الخان، عدد من طوائف الحرف من ابناء البلاد، فكان هناك بوابون وقبانون وحمالون وسائسون وبياطرة، وهؤلاء كان عملهم نهاراً، أما في الليل فيكلف حراس مختصون (حارس، خفير، عسس) لحراسة الخان ومساعدة السلطة[١٧٢].

اطلق لقب «البوّاب» على من يقوم بحرفة حفظ باب الخان وحراسته، كما يقوم أيضاً بمساعدة مدير الخان في تأجير الفرن، وحماية البضائع، ويساعد الدولة في جباية الضرائب، ويستوفي من كل من يشتري من التجار شيئاً مخصوصاً ليعتاش منه . كما كان هناك أيضاً فئة أخرى من البوابين تعمل لدى أمير أو ذوي جاه ومنصب كبير، فينظر إليه باحترام إكراماً للسيد الذي يعمل عنده، أو بواباً في اسطبل (آخور)، مهمته حفظ الدواب وغيرها، وهو دون الأول والثاني، لأن حرفته لم يكن ينظر إليها الناس نظرة احترام، بل كانت في نظرهم حرفة وضيعة[١٧٣].

ومن حرف الخدمات المرتبطة بوجود الخان حرفة القباني، وهو من يزن بـ «القبان» الأوزان الثقيلة التي تبلغ حدود القنطار بحيث لا يمكن وزنها بالميزان البلدي المخصص للأوزان الثقيلة، ويتقاضى «القباني» اجراً معيناً على حسب الوزن[١٧٤]، ولا يزال حتى الآن في صيدا عائلة تحمل اسم القباني.

ويتصل بحرف الخان حرفة العتال، وهم اشخاص أقوياء يتخذون مراكز لهم في الخانات، حيث يقومون بنقل البضاعة التي يأتي بها التجار من باب الخان إلى داخله، وكذلك نقل



□ صناعة الأواني النحاسية والصناع.

البضاعة التي يشتريها التجار من الخان إلى المكان الذي يقصده هؤلاء ويتقاضون عن كل طرد أجرة معلومة، على مقتضى بعد أو قرب المكان(١٧٥).

اما حرف السايس والبيطار، فسنتحدث عنها عند دراستنا للحرف المتعلقة بدواب الركوب، وانفرد خان الفرنج عن بقية خانات صيدا بوجود حرفيين من أبناء البلد غير متواجدين في غيره، مثل حرف: القواص والترجمان والسماسرة.

اطلق لقب القواص على من يقوم بخدمة القنصل الفرنسي الذي كان مقره في خان الفرنج، ويكون عادة طويل القامة ذا هيئة لطيفة، أميناً في عمله، مخلصاً للقنصل، يصاحبه ويتقدمه في الطريق، حيثما توجه، متقلداً سيفه، ومرتدياً ثوباً من الجوخ المزخرف بأنواع الشريط المقصب، ويستخدمه القنصل عادة في بعض مهامه الخاصة، ولا تزال حتى الآن في صيدا عائلة تحمل اسم القواص(١٧٦).

ولعب «المترجم» أو «الترجمان» دوراً مزدوجاً، فهو كان يقوم بدور ترجمان القنصل الفرنسي لدى السلطات العثمانية، وفي أغلب الأحيان كان يكلف من قبل القنصل بمهمات خاصة من قبله لدى السلطات المذكورة، حين يرغب القنصل تجنب الاجتماع بتلك السلطات، خشية أن تسيء إليه، كما كان يلعب دور الوسيط لدى التجار في تجارتهم، بعد أن يستأذن هؤلاء من القنصل أن يسمح للترجمان القيام بهذا العمل. فقد كان التراجمة يجيدون الترجمة من العربية إلى التركية، أو الفرنسية، ويكونون عادة من مذهب الروم الكاثوليك، ومما كان يرغب هؤلاء في هذا العمل، أنه كان يجعلهم تحت الحماية الفرنسية، فيتخلصون بذلك من ضريبة الخراج(١٧٧). كما كان القناصل في أمس الحاجة إليهم، عند اضطرارهم إلى اتباع أساليب غير شرعية، كي يتغلبوا على المصاعب التي يلاقونها في الشريعة الإسلامية، فإذا كلف الترجمان بحل قضية صعبة، عمل على تدبير حيل ناجحة وبذل نشاطاً

عظيماً، في سبيل هذه الغاية، وهنا تظهر مقدرة الترجمان وضرورة الحاجة إليه[178]. وكان الترجمان يتقاضى راتباً زهيداً ويحصل علاوة على ذلك على عمولة في الصفقات التي يتمها[179].

وإلى جانب القواص والترجمان، تواجد في خان الفرنج عدد من السماسرة من أبناء البلاد، وهؤلاء كانوا يتعيشون من المداخيل التي كانت تعود عليهم من نتيجة الخدمات التي كانوا يقدمونها للجالية الفرنسية. وهؤلاء السماسرة يكونون عادة من الروم والأرمن والموارنة واليهود. ولقد تواجد هؤلاء السماسرة نتيجة تجنب التجار الأوروبيين التعامل مباشرة مع أبناء البلاد المحليين، فقد كان لكل مؤسسة تجارية فرنسية في صيدا، سماسرتها، المكلفين بأن يبرزوا أو يعرضوا لأبناء البلاد البضائع المخزنة في المستودعات التي سلمهم الفرنسيون مفاتيحها، فيقومون بوزن هذه البضائع وتسليمها للمشترين[180]، أي يلعبون دور الوسطاء الطبيعيين بين الفرنسيين الذين يبيعون جملة، وأصحاب الحوانيت الذين يبيعون تفاريق، كما هي حالة هؤلاء الآخرين بين التجار الوطنيين والمستهلكين. فقبل مباشرة أي تاجر فرنسي مهام عمله، كان عليه أن يظفر بثلاثة أشياء ضرورية: معرفة البلاد، لغتها، سمسار قدير[181]. ويتقاضى السماسرة عادة نفقة مقدارها واحدٌ ونصف بالمئة من مجموع قيمة كل صفقة تجارية يعقدونها، ولكي يكون للعقود التجارية صفتها الرسمية، كان يجري عقدها عند باب الخان، أمام أحد ضباط الوالي، الذي يتقاضى رسماً مقداره ١ ٪ من قيمة الصفقات التي تعقد أمامه[182]. وللقنصل (هنري غيز) رأي في أهمية السماسرة للتجارة الفرنسية «إن تاجراً عنده سمسار قدير، يمكنه أن يجمع بين المقدرة الأوروبية والحيلة الشرقية». وهذا ما دفع الحكومة الفرنسية إلى السعي لدى السلطات العثمانية، من أجل منح هؤلاء السماسرة الامتيازات والحصانة الشخصية التي يتمتع بها التراجمة، فبمجرد دخولهم في خدمة التاجر الفرنسي، تفارقهم رعاية السلطان العثماني ويصبحون من رعايا قنصل فرنسا[183].

حرف المقاهي

وانتشرت المقاهي في باطن مدينة صيدا، وندر أن خلا شارع من وجودها، ويلاحظ أن هذه المقاهي تواجدت بصورة رئيسية، في منطقة الأسواق التجارية، حول خان الفرنج وفي المصلبية[184]، أو ملاصقة تماماً للمساجد[185]. وكان المقهى عبارة عن غرفة مظلمة رديئة البلاط، تنتصب حولها مقاعد من الحجارة مفروشة بالحصير، وتنتشر في الغرفة عدة كراسٍ علو الواحدة منها خمس وعشرون سنتمتراً، يجلس عليها رواد المقهى في الداخل، وعلى الطريق العام، ويتواجد في المقهى موقد «أوجاق» عليه إبريقان أو ثلاثة أباريق للقهوة، وإلى جانبه طاولة تحمل ما يقارب دزينة فناجين مع صحونها النحاسية الصفراء، وإلى جانب الموقد تصف النارجيلات، وهي عجمية الأصل يدخن بها التنباك[186]. ويطلق «قهوجي» على مستثمر القهوة سواء أكان صاحبها أو مستأجرها، ويحتاج إلى عدد من الصنّاع لمساعدته في طبخ القهوة وإعداد النراجيل وتقديمها لمن يرغب الشرب بها، واجراء لسقي الماء، وتقديم قطعة نار لمن يدخن السجاير[187].

وهذه المقاهي، إما قد اقامها أشخاص بغرض الربح المادي، أو تكون وقفاً يعود ريعها للمساجد، وحملت إما اسم المحلة المتواجدة فيها، أو اسم أصحابها، أو اسم لنشاط اقتصادي كان يجري فيها. وزودتنا وثائق المحكمة الشرعية بأسماء ومواقع المقاهي المتواجدة في الأسواق، وهي التالية: قهوة المعلقة في ساحة خان الفرنج، وقهوة الدلالين في محلة خان الفرنج، وقهوة نصار قرب محلة رأس السوق، وقهوة المصلبية وكانت تشتمل على وجاقين براني وجواني ومساطب، وهذا دليل على أن بعض روادها كانوا يجلسون في الخارج على الطريق العام والبعض الآخر في الداخل، قهوة مظلوم في سوق الأساكفية، وقهوة في سوق الخدرية، وقهوة بني الوثار في أواخر سوق اللحامين. وقرب الجوامع تواجدت المقاهي التالية: قهوة الجويدي، بالقرب من جامع البطاح، وهي وقف للجامع المذكور، وقهوة أسكي دالي، في محلة جامع البطاح،

وقهوة في المحلة نفسها، وقهوة النفاخ جنوبي جامع القطيشة، وقهوة الحنفي بالقرب من الجامع المذكور، وقهوة الجوهري في جنينة جامع البحر جنوبي الجامع، وقهوة الحاج نجد، غربي جنينة البحر(١٨٨).

وحملت إحدى المقاهي اسم طائفة حرفية كانت تمارس نشاطها فيها وهي طائفة «الدلالين»(١٨٩): الذين اختصوا ببيع حوائج الناس، ولا ندري هل البيع كان يتم في هذا المقهى، أم أنها فقط كانت مركز تواجد لهؤلاء الدلالين، يقصدهم إليها من يرغب في بيع شيء يخصه، وقد تكون الاثنين معاً، ذلك أنه كان هناك دلالون يقومون بنشاطهم الحرفي سراً، يقصدهم من يرغب في بيع عقار أو دار، فيطوف الدلال على من يرغب في الشراء من الأعيان في منازلهم وأماكن عملهم(١٩٠).

إضافة إلى زبائن النهار الذين كانوا يقصدون المقاهي للتسلية، فقد كان لهذه المقاهي زبائن أيضاً يقصدونها بعد الغروب، وبعد العشاء، يأتون إليها للاستماع إلى «الحكواتي»، وهي حرفة من يجيد حفظ الحكايات، وكان يلقيها عن ظهر قلبه أو من كتاب، كقصة عنترة والملك سيف وغير ذلك، وله في كل مقهى وقت مخصص لإلقاء هذه الحكايات، التي تتألف من مقدمة تعالج أمور مضحكة ونصائح، ثم يباشر بعدها في إتمام ما كان قدّمه في الليلة الماضية. لأن الحكواتي يقف في عقدة من القصة يكون المستمع متلهفاً لمعرفة نهايتها، وهذه مهارة من الحكواتي لتشويق الناس الاستماع إلى تمام القصة. ويتقاضى الحكواتي اجره عن ذلك بتقاسم نصف مدخول صاحب المقهى(١٩١)، ولا تزال حتى الآن إحدى الأسر الصيداوية تحمل اسم الحكواتي.

حرف الحمامات

ونظراً لافتقار منازل معظم الصيداويين لوجود الحمّامات، التي كانت قاصرة على منازل وقصور الأمراء، والحكام وكبار موظفي الدولة، والأعيان وكبار الأثرياء، فقد انتشر في المدينة عدد من الحمامات الشعبية، حتى تتيح للأهالي إمكانية الاستحمام ولو مرة في الأسبوع، تطبيقاً للسنن النبوية الداعية إلى الاغتسال قبل صلاة الجمعة.

ومن ثم كان الصيداويون، من جميع الفئات، يقصدون الحمامات العامة، حيث ينظفون أجسادهم، وينعمون بالحديث وتبادل الأخبار مع رفاقهم. ويلاحظ أن هذه الحمامات أقيمت قرب المساجد، وقد يكون القصد من ذلك إبراز أهمية الطهارة الجسدية قبل الدخول إلى المساجد، وكانت تخصص أوقات للرجال وأخرى للنساء والعائلات(١٩٢). ومما ينبغي الإشارة إليه، أن معظم هذه الحمامات كانت تبنى من أموال كبار الموظفين والأعيان والأثرياء لتكون أوقافاً جارية للإنفاق على ذرية الواقف، أو على أوجه النشاط الديني أو الثقافي أو المؤسسات مثل المساجد والزوايا والمدارس، والمكاتب (الكتاتيب المخصصة لتعليم الأطفال)، وما إلى ذلك.

وقد ارتبطت الحمّامات بالحياة اليومية، وببعض العادات الاجتماعية من عدة وجوه، فقد كانت الحمامات مثل الأسواق من مراكز تبادل الأخبار والأنباء والآراء، فتواجد الأهالي في هذه الأماكن العامة، كان يدفعهم إلى تمضية الوقت بالثرثرة حول شؤون الحياة، كما ارتبطت الحمامات ببعض التقاليد والعادات الاجتماعية في المجتمع الصيداوي، فقد كان من التقاليد السائدة آنئذٍ أن يتوجه العريس إلى حمام الرجال يصحبه إخوانه وأقاربه وأصدقاؤه الذين يشرفون على إلباس ملابسه، على حين تتوجه عروسه إلى حمام مخصص للنساء، وبرفقتها أهلها ومعارفها، حيث تزين(١٩٣). وينبغي غسل الحمّام وكنسه وتنظيفه بالماء الطاهر مراراً في اليوم، وأن يدلكوا البلاط بأجسام خشنة لكي لا يلتصق به الصابون فيزلق الناس عليه، وأن تنظف الأحواض والقدور من الأوساخ المتجمعة من المجاري والعكر الراكد في أسفلها في كل شهر مرة، لأنها إذا تركت أكثر من ذلك تغيّر الماء فيها من الرائحة والطعم، ولا ينبغي أن يدخل الحمّام مجذوم أو أبرص(١٩٤).

وهذه الحمامات عبارة عن فناء واسع يجلس فيه المغتسلون بعد الاغتسال، وقبله، لانتظار دورهم، ومن الفناء تتوزع غرف صغيرة للاغتسال، في حين يوقد للحمام من جهة خارجية(١٩٥). وأطلق لقب «حمامجي» على معلم الحمام سواء أكان صاحبه أو مستأجره، ويحتاج

المعلم إلى أشياء أخرى ضرورية جدا للحمام، هي عدة الحمام من: مناشف تختلف نوعيتها باختلاف المركز الاجتماعي للزبون، وإلى مدلك مهمته إخراج الوسخ بالكيس، وإلى مصوبن وهو من يغسل الزبون بالصابون والليفة، وإلى وقاد، وإلى ناطور لتقديم المناشف والثياب للخارج من الحمام[١٩٦].

وزودتنا الدراسات التي أعدت عن تاريخ صيدا بأسماء ومواقع الحمّامات التي كانت منتشرة في المدينة، وهي التالية: حمام الشيخ أو حمام الكينحيا بالقرب من المحكمة القديمة[١٩٧]، ويعود بناؤه إلى القرن السابع عشر، وحمام رأس السوق في محلة باب السوق[١٩٨]، بالقرب من مسجد بطاح، وعرف أيضاً باسم «سبع بنيات» لوجود سبع صنابير للمياه في داخله، أو لاعتقاد عامة الناس بوجود سبع جنيات تسكن الحمام. وقد تحول هذا الحمام إلى مخبز للخبز[١٩٩]، والحمام الجديد ويقع بالقرب من جامع السرايا[٢٠٠]، وقد أطلق اسمه على الحي الذي يتواجد فيه، وعلى شارع في هذا الحي[٢٠١]، ويعود بناؤه إلى القرن السابع عشر، وقد أمر بإنشائه مصطفى حمود. وحمام الورد ويقع قرب المدخل الشمالي للمسجد العمري الكبير ويعود بناؤه إلى العام ١١٣٣هـ /١٧٢٢ ـ ١٧٢٣م / ، وهو من أوقاف آل حمود[٢٠٢]، وأطلق على شارع اسم شارع حمام الورد[٢٠٣]. وحمام الأمير ويعود تاريخ بنائه إلى عهد فخر الدين المعني الثاني، ولقد أزيل هذا الحمام بعد الاجتياح الإسرائيلي لمدينة صيدا، وهو تابع للأوقاف الإسلامية في دمشق[٢٠٤]. ونميل إلى الاعتقاد بأنه الحمام الذي وصفه التاجر الفرنسي (ARVIEUX)[٢٠٥] «يوجد حمام كبير بالقرب من الخان، وهو جيد البناء ونظيف، ونستخدمه بسعر رخيص».

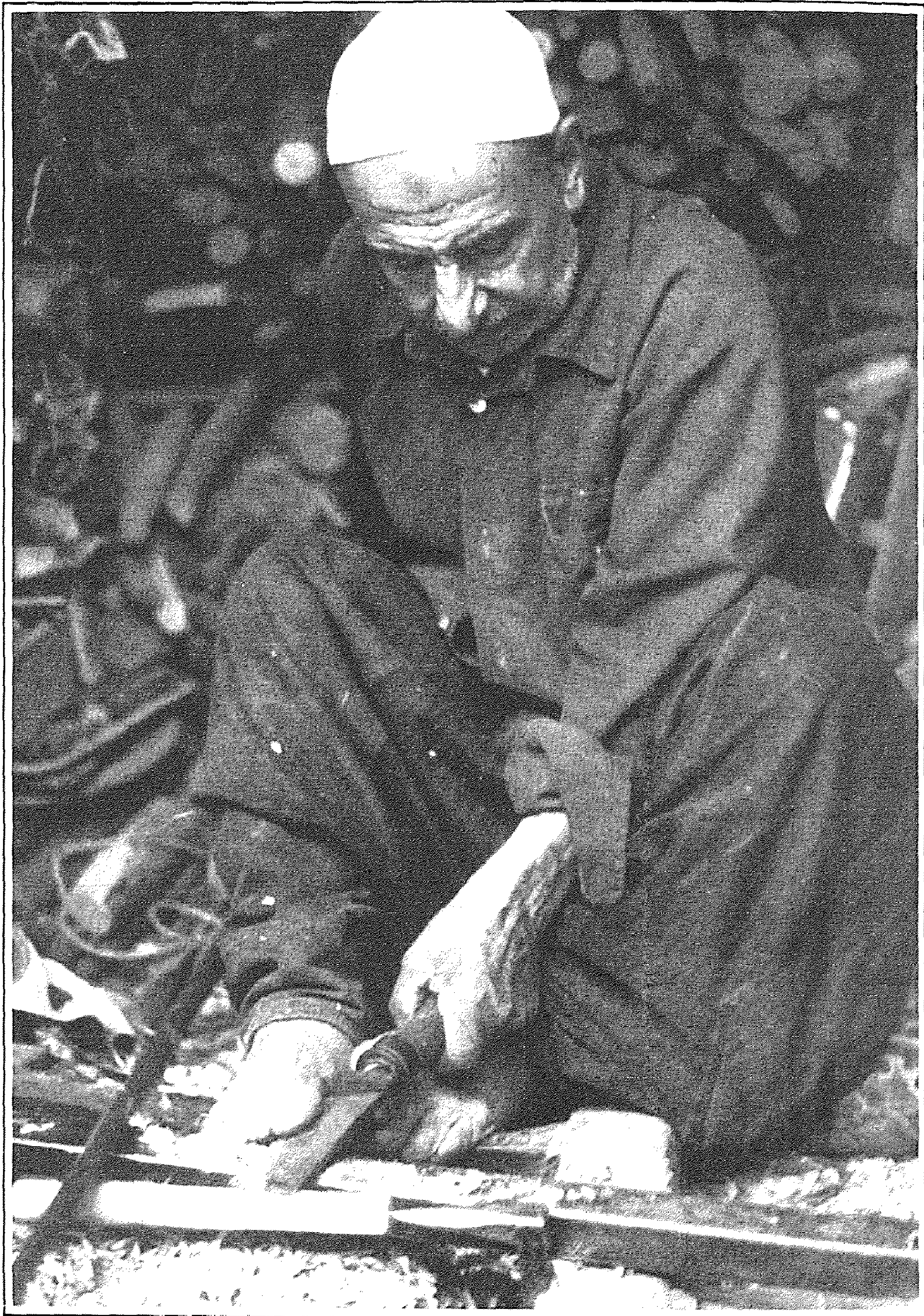
حرفة الحلاقين

وتمركزت دكاكين حلاقة الرأس والوجه في منطقة الأسواق، وبقرب الحمامات، فغالباً ما كان رواد هذه الحمامات يحلق قبل الاستحمام[٢٠٦]، ويعرف من يقوم بهذه الحرفة بـ «الحلاق»، وكان يتعاطاها المسلمون والنصارى واليهود) وأصحاب هذه الحرفة مرفهون في ملابسهم وهيئتهم مع نظافة المحل والبشاكير، واستعمال الروائح العطرية الفاخرة. وكان زبائن الحلاقين من مختلف طبقات المجتمع، كما لم يكن هناك تسعيرة ثابتة أو أجر متعارف عليه مقابل ما يقومون به، فكل زبون يدفع ما بوسعه وما يتفقُ مع وضعه الاجتماعي[٢٠٧]. وزودتنا الوثائق الشرعية بمواقع أربعة دكاكين حلاقة، واحدٌ في خان الفرنج، وآخر، ملاصق للخان المذكور من الناحية الجنوبية يعرف باسم دكان الحمامي الحلاق، وقد يكون صاحبه قد حمل هذا اللقب لاستثماره حمام بالإضافة إلى دكان الحلاقة المذكور، ودكان حلاقة سفلي قهوة المعلقة قرب ساحة خان الفرنج، ودكان حلاقة بالقرب من حمام رأس السوق، ودكان حلاقة في أوائل سوق اللحامين[٢٠٨].

وبالإضافة إلى طائفة حرفة الحلاقين الذين كان لديهم دكاكين الحلاقة التي أشرنا إليها،، وجدت طائفة من الحلاقين الفقراء يحلقون للفلاحين والفقراء، وهؤلاء لم يكن لديهم دكاكين، وإنما يطوفون في الأسواق والشوارع، حيث يقومون بحلاقة رؤوس الناس وتزيين وجوههم في الشوارع أيضاً.

وأطلق لقب «الحلاق» أيضاً على حرفيين ليسوا مختصين بالحلاقة بل عندهم معرفة بالفصادة[٢٠٩] والحجامة[٢١٠]، ولديهم آلاتها، وبعضهم الآخر لديه معرفة بالجراحة وآلاتها ومراهم ولصوق، وبعضهم عنده خبرة بختن الأولاد، ويطلق عليه أيضاً «المزين» فمن أراد ختن ولده يأتي بالمزين، فيختنه ويتعاهده بضعة أيام بتغيير اللصوق حتى يشفى. وله على عمله هذا مكافأة مالية يتوقف مقدارها على المكانة الاجتماعية للشخص، فيدفع الأغنياء الكثير ويدفع الفقراء القليل[٢١١].

ويستفاد من أسماء الأسواق الصيداوية آنئذٍ عن وجود حرفة «العتقجي» وهو من كان يقوم ببيع القديم من الملابس والآنية وغيرها، ولكن لم تحدد لنا الوثائق الشرعية موقع هذا السوق[٢١٢] في المدينة.



□ بيده وقدمه يصنـع تحفه خشبية.

الباعة الجائلون

وإلى جانب أصحاب الحرف الذين كان لهم مراكز ثابتة في الأسواق، عرفت مدينة صيدا آنذاك الباعة الجائلين، وهؤلاء إما كانوا من أبناء المدينة العاجزين عند فتح حوانيت باسمهم، وإما كانوا من أبناء القرى المجاورة الذين يأتون بمحاصيلهم الزراعية لتسويقها بأنفسهم في أسواق المدينة. فبعض هؤلاء كانوا يفترشون الأرض ببضاعتهم، على حين كان البعض الآخر يتجولون بما يحملونه من بضاعة في أسواق وأحياء المدينة.

فالباعة الذين كانوا يفترشون الأرض ببضاعتهم، كانوا يتخذون أماكن تتميز بكثرة العابرين منها مثل أبواب المدينة، أو بعض أسواقها التي تشهد اكتظاظا بروادها، وكان يطلق عليهم إسم باعة البسطة. وكان أولئك الباعة يبيعون مختلف البضائع والخضروات والفاكهة والخواتم والأساور وغيرها مما تتزين به النساء.

أما الصنف الثاني من الباعة المتجولين، فقد كانوا يطوفون في الأحياء والأزقة والشوارع، ينادون على ما معهم من بضاعة، قد تكون على دابة، أو في فرش أوقفه على رأسه، أو في سل حمله بين يديه(٢١٣).

حرف النقل

وفي مجال النقل والانتقال ما بين المدينة والعالم الخارجي، كانت الدواب من حمير وبغال وجمال هي الوسيلة الشائعة آنئذٍ، وبواسطة القوافل التي كانت الوسيلة الوحيدة المضمونة آنئذ. فانتشرت في المدينة مراكز تأوي إليها هذه الدواب، كما ازدهرت طوائف حرف اعتمدت في عيشها على امتلاك هذه الدواب، أو على تأمين الخدمات التي تحتاجها.

وفي إطار طوائف الحرف المرتبطة بالنقل والانتقال، ذكرت الوثائق الفرنسية حرفة الحوذي(٢١٤)، وهو من يكون عنده دواب ركوب يؤجرها لمن يرغب الانتقال من مكان إلى آخر، بأجر معلوم يتوقف مقداره على طول المسافة التي يرغب المستأجر ومدتها، وكان لهذه الدواب محطات خاصة في جوانب الشوارع الرئيسية والأسواق(٢١٥). كما أشارت الوثائق الفرنسية إلى حرفة الجمال(٢١٦)، وهو من يبيع الجمال، ويبحث عنها، ويؤمن طعامها وشرابها، مقابل اجرة من أصحاب الجمال. كما أطلق لقب الجمّال، على من يستأجر الجمال بأجرة مخصوصة، للانتفاع منها بالتحميل عليها، وهذه الحرفة كانت في نظر الأهالي دنيئة(٢١٧).

ويتصل بالحرف المرتبطة بالنقل حرفة «المكاري»، الذي كان ينقل على دابته البضائع والسلع الزراعية والصناعية، ما بين مدينة صيدا، ومدن الولايات العربية العثمانية. كما كان يقوم بدور ساعي البريد، ويساهم في تنشيط التبادل التجاري(٢١٨). وأشارت الوثائق الشرعية إلى وجود مراكز في باطن المدينة لإيواء الدواب «آخور»، وتقديم العلف والاهتمام بها، الأول يدعى «آخور» سليمان باشا وحددت موقعه في المصبغة قرب باب خان الفرنج الكبير(٢١٩)، والثاني كان في حالة خراب ويقع في ساحة دار الأمير بالقرب من الجامع الكبير(٢٢٠).

ويتصل بحرف دواب النقل حرفة «السايس»، وهو من يقوم بتنظيف الدواب وحسها ومسحها وتأديبها، وتنظيف محلها، وغسلها بماء حار عند الحاجة، ووضع العلف لها صباحاً ومساء، وتهيئتها للركوب عليها بوضع سرجها وعدتها، إذا أراد صاحبها الركوب عليها. وكان هناك أيضاً سائسون يعملون لدى كبار موظفي الدولة والأعيان، ويرافقونهم في سفرهم أينما توجهوا، فيسيرون خلف أسيادهم لتأمين ما تقتضي إليه الحاجة لسياسة الخيل(٢٢١)، ولا تزال إلى الآن في صيدا عائلة تحمل إسم السايس(٢٢٢).

ومن الحرف المرتبطة بحرف دواب النقل، حرفة «البيطري»، وهو من يقوم بوضع الحدوات لدواب النقل لصيانة قوائمها، كما يهتم بمعالجتها من الأمراض التي تنتابها. والبيطرة علم جليل وهي أصعب علاجاً من أمراض الآدميين، لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما ينتابها من المرض والالم، وإنما يستدل على عللها بالحس والنظر(٢٢٣). ولذا يجب أن تتوفر فيمن يتعاطى البيطرة شروط معينة: كخفة الحركة وقوة

الذراعين وصحة النظر، وخبرة في أمراض الحيوان ووصف العلاج اللازم لها، ومعرفة بأمراض التناسل وغير ذلك من الأمراض(٢٢٤). ويستدل من وجود سوق للبيطرة في مدينة صيدا، حددت الوثائق موقعه خارج أسوار المدينة(٢٢٥)، عن وجود عدد متوفر من البياطرة يتعاطون مهنة البيطرة، ولا تزال حتى الآن في صيدا عائلة تحمل إسم البيطار(٢٢٦).

حرف البناء والعمارة

وذكرت الوثائق الفرنسية أن بعض أبناء مدينة صيدا كان يعمل في حرف البناء(٢٢٧) والعمارة، فمنهم من كان يجيد بناء الجدران والأمكنة والمنازل والدور، ويقال له «معماري»، وكانت هذه الحرفة متنوعة، فمنها البناء بالحجارة المنحوتة المحكمة الوضع بالميزان المستقيم، ويتم البناء بالجص(٢٢٨) والكلس مع التراب والسماد الذي يعقد معها ويلحم، فيصبح الجدار كأنه جسم واحد. ومنها البناء باللبن (بكسر الباء)، وهو تراب مجبول بالماء ثم يجفف بالشمس، وبعد يبسه يبني به المعماري منازل الفقراء الذين لا قدرة لهم على البناء بالحجارة. وبعض البنائين يبني بالتراب وعلى الأخص المسمى بالدك، ومنهم من يبني بالتراب أو الرمل المخلوط بالكلس. وكانت هذه الصنعة رائجة، واعتاد الحكام اللجوء إلى أربابها للفصل في النزاعات التي تنشب في المدينة بين ملاكي المنازل، في قضايا: حدوث ضرر في الجدران أو في استحقان الطرق والمنافذ للمياه الجارية وغير ذلك(٢٢٩). ويتعين على الصانع في حرف البناء والعمارة، أن ينصح صاحب العمل فيما هو يعمل له، وأن يوفر عليه المؤونة قدر الإمكان مع مراعاة شروط السلامة العامة، وأن يتجنب الإسراع في العمل لأن الغالب فيمن يسرع الإخلال بالعمل ويسبب العيب في العمل ونقص في الصنعة، كما أن البطء في العمل يضر بصاحب العمل، لأن الصانع لا ينجز إلا القليل. وإذا كان العمل مما يعمل بالطين والجير فعلى الصانع أن يتحرى اعتدال قدرهما في العادة، لأنه إذا أكثر من أحدهما ونقص من الآخر اختل العمل(٢٣٠).

ويتصل بحرف العمارة والبناء حرفة صناعة الجص، وكانت تتم في مكان خاص، تحرق فيه أحجار معينة لمدة معلومة، حتى تزول عنها الرطوبة، ويخلص لونها إلى البياض، ويدعى من يقوم بذلك «أتوني»، في حين كان يدعى «كلاس» من يقوم ببيعها كطلاء لتبييض جدران دور ومنازل الأغنياء وأسقفها، وكان يقوم بمهمة التبييض «الطرّاش». أما الفقراء من أصحاب المنازل، فقد عجزوا عن تبييض منازلهم بالكلس، فاستخدموا نوعاً من التراب الأبيض يدعى «الحواري»، وعرف باسم «الحوّار» من كان يقوم بمهمة تبييض المنازل بهذه المادة(٢٣١). أما الولاة والحكام والأعيان وكبار الأثرياء، فقد حرصوا على تزيين جدران منازلهم، وزخرفتها بالرسوم والنقوش بالدهان الملون، وكان يقوم بهذه الحرفة الدهان.

حرف المياه

واعتمد الصيداويون على مياه نهر الأولي في الشرب، لكن هذه المياه لم تكن تصل إلى كثير من المنازل(٢٣٢)، فاعتمد هؤلاء على طائفة السقايين في تأمين حاجتهم من المياه، فكان أفراد هذه الطائفة الحرفية يقومون بهذه الخدمة لقاء أجر معلوم. وذلك بنقل جرار الماء وقربها على أكتافهم أو حميرهم من نهر الأولي أو من السبل المنتشرة في المدينة، ثم يقومون بتفريغها في هذه المنازل التي اتفقوا مع أصحابها. ويتوجب على السقايين أن تكون القرب المستخدمة في نقل المياه من الجلود المدبوغة التي قد استحكم دباغها، ولا تعمل من جلد بغل ولا دون، وإنما من أديم مصري أو سلفة يمانية. وإذا كانت القربة جديدة يتعين على السقاء أن ينقل بها المياه أولاً إلى أحواض الطواحين والمعاصر ومعاجن الطين أياماً، ولا ينقل بها مياه الشرب، لأنه يكون متغيّر اللون والطعم والرائحة من أثر الدباغ والقطران، فإن زال التغيّر صار بإمكانه بيع الماء للناس للشراب والاستعمال! وأن يشدوا في أعناق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس لإحداث جلبة من الدابة إذا عبرت الأسواق، فيحذر عنها الضرير والإنسان الغافل والصبيان(٢٣٣). ويتعين على السقاء أن يأخذ

المياه من الأماكن العميقة وليس من تلك القريبة من البر، خشية أن يكون الماء متضمناً شيئاً من فضلات أو أنه عكر في التراب، فيطلع في ماء القربة فيتنجس ذلك كله، ثم يسكبه لإخوانه المسلمين فيتنجس به ثيابهم وأجسامهم وقوتهم الذي يعجنونه منه، وتبطل صلاة من تطهر به، فيضطرون إلى إعادة غسل ثيابهم وأجسامهم وإعادة صلاتهم، وتبديد قوتهم وغسل الأواني وغيرها. ويجب أن تكون القربة مملوءة تماماً، ومغطاة بغطاء طاهر كثيف ساتر لجميعها، ليسلم الناس من تلويث ثيابهم، لأن في ذلك إذية للمسلمين. وإذا دخل السقاء بيتاً، لسكب الماء، يجب ألا يجيل نظره في أرجاء المنزل وإنما في موضع سكب المياه، وأن لا يسكب في منزل فيه امرأة واحدة، وإن كانت لا تظهر عليه، وأن تكون يداه سالمتين من النجاسة والأشياء المستقذرة[٢٣٤].

ومن حرف الخدمات التي ارتبطت بالمياه، حرفة القنواتي، وهو من كان يشرف على توزيع المياه في المدينة، وتأمين وصولها إلى أماكنها، ولا يزال إلى اليوم في صيدا عائلة تحمل اسم القنواتي[٢٣٥].

حرف النساء

وتخصصت النساء في بعض الحرف، وهي في مجملها حرف تتعلق بالنساء من زينة ونظافة وتوليد، ولكن الميدان الذي كان تتم فيه ممارسة مثل هذه الحرف كان قاصراً على البيوت، فقد تواجدت في صيدا نساء عندهن معرفة ومهارة في صناعة التوليد، تعرف باسم «الداية»، وكانت مهمتها توليد الحامل وتتعهد الجنين والنفساء لمدة تقارب الأسبوع، وتتلقى أجرة، على ما قامت به، يتوقف مقدارها حسب المركز الاجتماعي لأهالي المواليد، كما تكرم من أقرباء المولود بالإكرامية المسماة «النقوط»[٢٣٦]. وأشارت الوثائق الشرعية إلى سيدة تدعى نسب الداية، وإلى منزل مارون الداية[٢٣٧]، وقد يكون ذلك دليلاً على احتكار هذه الأسرة لحرفة التوليد. وقد تلعب الداية في بعض الأحيان دور «الماشطة» التي تمشط الفتاة، وتلبسها ثيابها، وتزينها ليلة زفافها بأصناف الحلي والحلل[٢٣٨].

الحرف الزراعية

وإذا كان الجانب الأكبر من حرف الإنتاج والتسويق والخدمات الصيداوية قد تركز في الجزء الشمالي من المدينة، المتد من المرفأ الشمالي وشرقاً حتى البوابة التحتا، وتمحور حول خان الفرنج، فقد غلبت الحرف الزراعية على أهالي الأحياء الجنوبية المقابلة من المدينة[٢٣٩]، فعملوا كفلاحين وبساتنة[٢٤٠] لدى بعض أبناء مدينتهم الذين كانوا يمتلكون مساحات واسعة من الأراضي الزراعية في سهل صيدا[٢٤١]. وتميزت هذه الملكيات الزراعية بتنوع تربتها، وبأنها كانت موزعة بين أراضي زراعية مروية وأراض زراعية بعلية، كانت تستثمر بزراعة الخضار والفاكهة والغلال المتنوعة[٢٤٢].

ويتصل بالحرف المتعلقة بالنشاط الزراعي، حرفة الحرّاث، وهو من يحرث الأرض بالسكة، ويتقاضى مقابل ذلك مبلغاً معلوماً من المال يعتاش منه. وأطلق «الحصّاد» على من يحصد الغلال عند اشتداد حبها ويبسه، ويجعل له مستأجره مبلغاً معلوماً على حصيد الغلة[٢٤٣]. وأطلق «الزرّاع» على الحرفي الذي يستأجر الأرض من مالكها، ويتعهد بتقديم كل ما تحتاجه من خدمة، وتكاليف، مقابل الحصول على نسبة معينة من المحصول[٢٤٤].

ويتصل بحرف الزراعة حرفة «البستانجي»، وتطلق على من يتعهد بستان سواء كان مالكه أو مستأجره، فيقوم بالاهتمام بزراعته بالخضر في الفصول الملائمة لزراعتها، والعناية بأشجاره المثمرة، وعند نضوج المواسم، يأتي بالمحصول ليبيعه في المدينة[٢٤٥]. ولفتت انتباه الأجانب كرمة صيدا «لا يضاهي بطعمه وحلاوته»[٢٤٦]، فأجاد بعض أبناء المدينة حرفة «الزبّار» وهو من يقوم بتقليم أطراف عروق دوالي الكروم وأغصان الأشجار، ويعمل بالأجرة اليومية من الصباح حتى المساء[٢٤٧].

حرف خدمة الأسواق

وهذا النشاط الاقتصادي البارز الذي كانت تشهده أسواق وأحياء مدينة صيدا، كان يتطلب



□ صناعة الزجاج، أقدم الصناعات الشامية.

وجود طوائف حرفية، مهمتها تقديم ما تحتاجه هذه الأسواق من خدمات عامة، في مجالي النظافة والأمن الليلي. فقامت طوائف حرفية مهمتها تأمين هذه الخدمات العامة، وذلك عن طريق قيام نوع من التعاون المشترك ما بين الأهالي وممثلي السلطة العثمانية في المدينة.

واتصل بحرف نظافة الأسواق والأحياء حرفة الكنّاس، وكانت مهمته تنظيف طرقات وشوارع وأزقة المدينة من الأوساخ والأقذار، ثم يقوم بتجميع القمامة في أماكن معينة، ويتقاضى أتعابه من أصحاب الحوانيت(٢٤٨).

ويرتبط بحرفة الكنّاس حرفة الزبّال، وهو من يجوب الشوارع والأحياء، ومعه دابة تحمل سريجة كبيرة وقفة من خوص ومجرفة، فيجمع زبالة المنازل وتلك التي خلفها الكناسون، وحين تمتلىء السريجة بما جمعه، ينتقل إلى البساتين، فيأخذها الفلاحون، ويستخدمونها كسماد للبساتين. وبذلك كان يستفيد من هذا العمل الطرفان، الفلاحون الذين يحصلون على السماد مجاناً، والمدينة التي تتخلص مجاناً من نفايات منازلها وأسواقها(٢٤٩).

ويتصل بحرف خدمة أسواق المدينة وأحيائها، حرفة الرشاش، وهو من يقوم برش الشوارع والأسواق الترابية بالمياه، لكي لا تتعرض للضرر بضائع الحوانيت، من جراء الغبار المتصاعد بسبب كثافة حركة المرور، أو لإضافة جو من البرودة على الأسواق في فصل الصيف الحار، وجرت العادة على أن ترش الأسواق مرتين في فصل الصيف، مرة قبل فتح الحوانيت وأخرى بعد الظهر، نظراً لكثرة الغبار في هذا الفصل، أما إذا كان الفصل شتاء، فترش الأسواق مرة واحدة عند الصباح بعد كنس الأسواق والشوارع، لقلة الغبار المتصاعد في هذا الفصل. وكان لكل سوق أو شارع رشاش مختص به أو أكثر، حسب كبره أو صغره، ويقوم بعمله مقابل مبلغ معين يتقاضاه شهرياً من أصحاب الحوانيت(٢٥٠).

ويتصل بحرف الخدمات العامة المتعلقة بالأسواق والأحياء، حرفة الحارس، وهو من يقوم بحراسة الحوانيت والخانات والأزقة والأحياء لمنع تعرضها للسرقة والنهب في أثناء الليل، ويكون المولج بهذه الخدمة مسؤول من قبل قائد شرطة المدينة. فما أن يحل الليل، حتى ينتشر الحراس في الشوارع والأسواق والأحياء، بهدف تأمين الأمن الليلي، فلا يغادرونها إلا عند مباشرة الأهالي لأعمالهم صباح اليوم التالي بعد صلاة الفجر. وفي أغلب الأحيان تكون مسؤولية الأمن الليلي مزدوجة، أي مؤلفة من الحراس المعنيين من قبل قائد الشرطة، ومن حراس آخرين معينين من قبل سكان الأحياء وحرفيي الأسواق يطلق عليهم اسم «المواطنين»، ومن الواجبات الملقاة على عاتق الأخيرين، مراقبة منازل وحوانيت الذين عينوهم، ومراقبة حراس قائد الشرطة الذين كانوا يتمتعون بسمعة سيئة(٢٥١). وأشارت المصادر المعاصرة عن وجود مركزين لتجمع حراس مدينة صيدا، الأول أودة في سوق الخدرية وآخر في سوق العقادين(٢٥٢).

وهكذا تضاعف عدد سكان مدينة صيدا في خلال الحكم العثماني، وانحصروا داخل أسوار المدينة، حيث انتشرت الأسواق الرئيسية، وتجنبوا تشكيل ضواحٍ وإنما تجمعوا في أحياء مستقلة، تسكنها أسر متجانسة توجد فيما بينها بعض الروابط الطبيعية. ورغم الجمود وابتعاد السلطة العثمانية الحاكمة عن كل ما من شأنه تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدينة، فقد شهدت كغيرها من مدن العالم الإسلامي، تنظيمات حرفية في مجال التسويق والإنتاج والخدمات، انحصر نشاطها في القسم الشمالي من المدينة حول خان الفرنج، على شكل أسواق متنوعة متخصصة في إنتاج سلع محددة وبيعها، واستطاعت أن تؤمن للمدينة كل ما تحتاجه في حياتها اليومية. وانحصر بعض الحرف في نطاق بعض الأسر، التي توارثت أنماطاً حرفية ضمن الأسرة الواحدة، حتى أن أسماء تلك الحرف غدا لقباً اختص به أفراد هذه الأسر. كما أن هذه الطوائف الحرفية استطاعت في المجال الاجتماعي، على أن تحافظ على بعض المميزات السائدة في المجتمع، كما أنها بتنظيماتها وأخلاقيتها المهنية، قد ساعدت على تطوير مستوى الأخلاق بعامة.

●

الهوامش

(٧٩) إسماعيل حقي. لبنان مباحث علمية واجتماعية، ج ٢ ص (٤٥٦ ــ ٤٥٨).
(٨٠) منير سنو. مرجع سابق، ص (١٢١ ــ ١٢٢).
(٨١) المرجع نفسه. ص ١٦٦.
(٨٢) احمد عارف الزين. تاريخ صيدا، ص ١٢٨.
(٨٣) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢٦.
(٨٤) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ١١٧.
(٨٥) رشيد غازي. منتهى المنافع في انواع الصنائع، ص ١٤٣.
(٨٦) المرجع نفسه. ص (١٤٤ ــ ١٤٥).
(٨٧) توما كيال. برتقال صيداء، المشرق م ٦ ص ٢٩٧.
(٨٨) محمد القاسمي. مرجع سابق، ص ٢٥٣.
(٨٩) المصدر نفسه. ص ٣٠٩.
(٩٠) المصدر نفسه. ص ٢٥٣.
(٩١) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ١٢٥.
(٩٢) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٥١.
(٩٣) ISMAIL. op.cit. t. 3 p. 105.
(٩٤) إسماعيل حقي. مرجع سابق، (٤٤٨ ــ ٤٤٩).
(٩٥) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ٩٣.

(٩٦) المرجـع نفسه. ص ١١٥.
(٩٧) ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص ١٩٣.
(٩٨) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص (٩٧ ـ ٩٨).
(٩٩) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٤٠٠ ـ ٤٠١).
(١٠٠) Mémoires, op.cit., pp. (302-303).
(١٠١) رشيد غازي. مرجـع سابق، ص ١٧٣.
(١٠٢) المرجـع نفسه. ص (٨٧٧ ـ ٨٧٩).
(١٠٣) عبد الكريم رافق. مرجـع سابق، ص ١٧٧.
(١٠٤) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٥.
(١٠٥) المرجـع نفسه. ص ١٤١.
(١٠٦) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٢٧٠.
(١٠٧) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١١١.
(١٠٨) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٣٨.
(١٠٩) المرجـع السابق، ص ١١٢.
(١١٠) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١١١) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٨٣.
(١١٢) المصدر نفسه. ص ١٨٠.
(١١٣) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١١٧.
(١١٤) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص ٢٢١؛ ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص (١٦ ـ ١٧).
(١١٥) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٨٦ ـ ٨٧).
(١١٦) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١١٨.
(١١٧) إسماعيل حقي. مرجـع سابق، ج ٢ ص ٤٤١.
(١١٨) MASSON. Histoire... 18ᵉ siècle. op.cit., p. 438.
(١١٩) رشيد غازي. مرجـع سابق، ص ٣٧٣.
(١٢٠) op.cit., 18ᵉ siècle, p. 438.
(١٢١) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص (١٢٣ ـ ١٢٤).
(١٢٢) المرجـع نفسه. ص ١١٤.
(١٢٣) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٣١٤ ـ ٣١٥).
(١٢٤) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص ١٧٣.
(١٢٥) ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص ٢١.
(١٢٦) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٦٨.
(١٢٧) المرجـع نفسه. ص ١١٦.
(١٢٨) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١٢٩) محمد كرد علي. خطط الشام، ج ٤ ص ٢٢٨.
(١٣٠) طلال المجذوب. تاريخ صيدا الاجتماعي (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)، ص ١٦٩.
(١٣١) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١٣٢) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢٢.
(١٣٣) المصدر نفسه. ص (٣٤٨ ـ ٣٤٩).
(١٣٤) احمد عارف الزين. مرجـع سابق، ص ١٢٧.
(١٣٥) ادفيك شيبوب. الحرف والصناعات الشعبية، ص (٣٠ ـ ٣٧).
(١٣٦) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(١٣٧) Loc.cit.
(١٣٨) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٤٧٩ ـ ٤٨٠).
(١٣٩) ISMAIL. op.cit., T. 3 P. 105.
(١٤٠) المصدر السابق، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧.
(١٤١) رشيد غازي. المرجـع سابق، ص ٦٧٧.
(١٤٢) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (٤١٣ ـ ٤١٤).
(١٤٣) غسان منير سنو. مرجـع سابق، ص ١٣١.
(١٤٤) المرجـع نفسه. ص ١٤٠.
(١٤٥) ادفيك شيبوب. مرجـع سابق، ص ٣٥.

(١٤٦) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص (١١٢ ــ ١١٣).
(١٤٧) محمد كرد علي. مرجع سابق، ج ٤ ص ٢٤٥.
(١٤٨) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص (٨٧ ــ ٨٨).
(١٤٩) مفرد كردان، وهي كلمة فارسية تعني العنق.
(١٥٠) محمد كرد علي. مرجع سابق، ج ٤ ص ٢٤٥.
(١٥١) ادفيك شيبوب. مرجع سابق، ص (٨٧ ــ ٨٩).
(١٥٢) ابن الحاج. مرجع سابق، ج ٤ ص (٢١٠ ــ ٢١١).
(١٥٣) ابن الإخوة. مرجع سابق، ص ١٣٦.
(١٥٤) ادفيك شيبوب. مرجع سابق، ص (١٢٤ ــ ١٢٥).
(١٥٥) رشيد غازي. مرجع سابق، ص ٧٩.
(١٥٦) مرجع سابق، ص (١٢٤ ــ ١٢٥).
(١٥٧) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ١٤٠.
(١٥٨) رشيد غازي. مرجع سابق، ص (١٦٣ ــ ١٧٠).
(١٥٩) Abdel-Nour. op.cit., p. 81.
(١٦٠) ISMAIL. op.cit., t. 1 p. 23.
(١٦١) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص (١٢٢ ــ ١٢٣).
(١٦٢) محمد سعيد القاسمي. مرجع سابق، ص ٢٦٩.
(١٦٣) رشيد غازي. مرجع سابق، ص ٢٠٥.
(١٦٤) غسان منير سنو. مرجع سابق، ص ١٢٠.
(١٦٥) محمد سعيد القاسمي. مرجع سابق، ص ٩٠.
(١٦٦) المرجع السابق، ص ١١٩.
(١٦٧) أنطوان عبد النور. تجارة صيدا مع الغرب، ص ١٦٥.
(١٦٨) Mémoires, op.cit., t. 1 p. (309-320).
(١٦٩) Ibid. p. 320.
(١٧٠) غسان سنو. مرجع سابق، ص ١٢٠.
(١٧١) ARVIEUX. t.1 pp. (301-302).
(١٧٢) فؤاد يحيى. (جرداتري بخانات دمشق) **الحوميات الأثرية السورية** م ١٣ ص ٧١ ــ ٧٣.

(١٧٣) محمد سعيد القاسمي. مرجع سابق، ص ٥٨.
(١٧٤) المصدر نفسه. ص ٣٧١.
(١٧٥) المصدر نفسه. ص ٣٠٢.
(١٧٦) المصدر نفسه. ص ٢٤٨.
(١٧٧) MASSON. Histoire... 17e siècle, op.cit., p. (454-455).
(١٧٨) هنري غينر. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، ج ١ ص (١٥٤ ــ ١٥٥).
(١٧٩) أنطوان عبد النور. مرجع سابق، ص ١٥٦.
(١٨٠) MASSON. Histoire... 17e siècle, op.cit., p. 159.
(١٨١) هنري غينر. مرجع سابق، ج ١ ص (١٦٤ ــ ١٦٧).
(١٨٢) op.cit., p. 492.
(١٨٣) المصدر السابق، ج ١ ص ١٦٧.
(١٨٤) غسان سنو. مرجع سابق، ص ١٢٨.
(١٨٥) عبد الرحيم حجازي. دليل معالم صيدا الإسلامية، ص ١٢.
(١٨٦) هنري غينر. مصدر سابق، ج ١ ص (٣٠ ــ ٣١).
(١٨٧) محمد سعيد القاسمي. مرجع سابق، ص ٣٦٧.
(١٨٨) غسان سنو. مرجع سابق، ص (١٢٥ ــ ١٣١).
(١٨٩) المرجع نفسه. ص ١٠٩.
(١٩٠) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٤٦.
(١٩١) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١١٤.
(١٩٢) عبد الرحيم حجازي. مرجع سابق، ص ٨٧.
(١٩٣) ليلى الصباغ. مرجع سابق، ص (١٥٠ ــ ١٥١).

(١٩٤) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص (١٥٥ ــ ١٥٦).
(١٩٥) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٨٧.
(١٩٦) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص (١٠٧ ــ ١١٢).
(١٩٧) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٧.
(١٩٨) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٩٠.
(١٩٩) المرجـع نفسه. ص ٨٩.
(٢٠٠) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٧.
(٢٠١) انظر الخريطة رقم ٩ في دائرة المساحة.
(٢٠٢) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٩٠.
(٢٠٣) انظر في دائرة المساحة الخريطة رقم ١٠ من خرائط مدينة صيدا.
(٢٠٤) عبد الرحيم حجازي. مرجـع سابق، ص ٨٩.
(٢٠٥) Mémoires, op.cit., t. 1 p. 303.
(٢٠٦) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٢٦.
(٢٠٧) محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٢٣.
(٢٠٨) غسان سنو. مرجـع سابق، ص (١٢٦ ــ ١٢٧).
(٢٠٩) الفصادة تعني شق العرق لإخراج الدم منه.
(٢١٠) الحجامة: إخراج الدم بالمحجم، وهي آلة كالقرن مجوفة، رفيعة الراس مثقوبة الفم، ويقوم الحاجم بامتصاص الدم بعد شرط الجلد بآلة حديد كالموس. وقد يحجم الحجام بغير القرن، مثل كاسات الهوى. انظر: محمد سعيد القاسمي. مصدر سابق، ص ٩٢.
(٢١١) المصدر نفسه. ص ٤٣٦.
(٢١٢) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١١٨.
(٢١٣) محمد المجذوب. مرجـع سابق، ص ١٦٩.
(٢١٤) ISMAIL. op.cit. T. 3 P. 105.
(٢١٥) المصدر نفسه. ص (١٥٦ ــ ١٥٧).
(٢١٦) ISMAIL. op.cit. T. 3 P. 105.
(٢١٧) المصدر نفسه. ص ٨٣.
(٢١٨) أسعد خياط. صوت من لبنان، ص (٣٠ ــ ٣١).
(٢١٩) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ٧٠.
(٢٢٠) المرجـع نفسه. ص ١٠٧.
(٢٢١) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٧٦.
(٢٢٢) طلال المجذوب. مرجـع سابق، ص ٣٧١.
(٢٢٣) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص ١٥١.
(٢٢٤) محمد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٥٩ ــ ٦١).
(٢٢٥) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ١٤٠.
(٢٢٦) طلال المجذوب. مرجـع سابق، ص ٣٧١.
(٢٢٧) ISMAIL. op.cit., t. 3 p. 105.
(٢٢٨) الجص (بفتـح الميم) وهو ما يطبـخ فيصير كالحجارة فيبنى به وتسميه العامة الجفصين. انظر: لويس المعلوف. المنجد في اللغة والأدب، ص ٩٢.
(٢٢٩) محمد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٥٢ ــ ٥٣).
(٢٣٠) ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص ٢٠٨.
(٢٣١) المصدر السابق. ص ١٤٩.
(٢٣٢) طلال المجذوب. مرجـع سابق، ص ٢٦٣.
(٢٣٣) ابن الإخوة. مرجـع سابق، ص (٢٣٩ ــ ٢٤٠).
(٢٣٤) المرجـع نفسه. ص (٢٣٠ ــ ٢٣١)؛ ابن الحاج. مرجـع سابق، ج ٤ ص (١٨٦ ــ ١٩٢).
(٢٣٥) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص (٢٦٤ ــ ٣٦٥).
(٢٣٦) المصدر نفسه. ص ١٣٤.
(٢٣٧) غسان سنو. مرجـع سابق، ص ٩٧.
(٢٣٨) محمد سعيد القاسمي. مرجـع سابق، ص (٤٠٨ ــ ٤٠٩).
(٢٣٩) Abdel-Nour. op.cit., pp. (351-52).

(٢٤٠) ISMAIL. op.cit., t. 3, p. 105.
(٢٤١) op.cit., p. 354.
(٢٤٢) غسان سنو. مرجع سابق، ص ١٤٤.
(٢٤٣) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص (٩٦ ــ ٩٨).
(٢٤٤) المصدر نفسه. ص ١٦٨.
(٢٤٥) المصدر نفسه. ص ٢١٨.
(٢٤٦) ARVIEUX. op.cit. T. 1 P. 328.
(٢٤٧) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٦٤.
(٢٤٨) Abdel-Nour. op.cit., p. 207.
(٢٤٩) Ibid. p. 208.
(٢٥٠) محمد القاسمي. مصدر سابق، ص ١٥٦.
(٢٥١) Abdel-Nour. op.cit., p. 207.
(٢٥٢) غسان سنو. مرجع سابق، ص ١٣٦.

مكتبة البحث

(أ) الوثائق غير المنشورة:

Archives Nationales de Paris

Réperatoires numériques de la sous-serie B[1], correspondance Consulaire, Lettres Reçues:

postes consulaires	Numéros des volumes	Nombres des volumes	Années
Seyde	1017	1	(1645-1704)
	----	---	--------
	1041	25	(1785-1790)

(ب) وثائق منشورة:

ISMAÏL, Adel. Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du proche — orients du XVII[e] siècles à nos jours. 33 tomes, Editions des oeuvres politiques et historiques, Beyrouth, 1975-1987.

(جـ) الرحلات:

ــ بهجت وتميمي، (رفيق ومحمد). ولاية بيروت، جزءان في واحد، بيروت، ١٩٧٩، الطبعة الثانية.
ــ غينر، هنري. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن، تر. ، مارون عبود، جزءان، بيروت، ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠.
ــ فولني، فرنسوا شاسبوف. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر، تر. ، حبيب السيوفي، جزءان، المجلة المخلصية، صيدا، ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩.
ــ كارن، جون. رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، تر. ، رئيف خوري، بيروت، ١٩٤٨.
ــ النابلسي، عبد الغني. التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، مخ، حققه وقدم له هربرت بوسه، بيروت، ١٩٧١.

— ARVIEUX, (chev., Laurent). Mémoires du chev., d'ARVIEUX, 6 vols, Paris, 1735.
SAINT-AIGNAN, (M. l'Abbé Laurent de). La terre sainte, Syrie, et Istme de Suez Paris, 1808.

(د) مخطوطات:

الدمشقي، مخايل. تاريخ حوادث جرت بالشام وساحل بر الشام والجبل من سنة ١١٩٧ ــ ١٢٥٧هـ، من مجموعة مكتبة يافت في الجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956.9/058TA).

عبود الصباغ تاريخ ظاهر، من مجموعة مكتبة يافت بالجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/980/N16TA).

نوفل، نوفل نعمة الله. كشف اللثام عند محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام، من مجموعة مكتبة يافت بالجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956/N32KA).

(هـ) مصادر أصلية:

ــ ابن الإخوة (محمد بن محمد أحمد القرشي). معالم القربة في احكام الحسبة، نشر روبن ليوى، كمبردج، ١٩٣٧.
ــ ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي). المدخل إلى الشرع الشريف، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢.

ــ العظم والقاسمي، خليل وظافر. قاموس الصناعات الشامية، الجزء الثاني، نشر موتون وشركاه، باريس ــ لاهاي، ١٩٦٠.
ــ القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية، الجزء الأول، نشر موتون وشركاه، باريس ــ لاهاي، ١٩٦٠.
ــ البديري، أحمد (الحلاق). حوادث دمشق اليومية (١٧٤١ ــ ١٧٦٢)، مخ. ، نشره أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٥٩.
ــ الشهابي، حيدر. الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، مخ. ، نشره فؤاد افرام البستاني وأسد رستم تحت عنوان «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٤٩.
ــ العورة، إبراهيم. تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، يشتمل على تاريخ فلسطين ولبنان ومدنه وبلاد العلويين والشام، مخ. ، نشره الأب قسطنطين الباشا، صيدا، ١٩٣٦.
ــ الصباغ، ميخائيل. تاريخ الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد، حريصا، (لبنان) (لا.ت).
ــ المنير، حنانيا. الدر المرصوف في تاريخ الشوف، مخ. ، نشره الأب اغناطيوس سركيس في مجلة المشرق، م ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١، بيروت ١٩٥٤ ــ ١٩٥٧.

(و) المؤلفات والبحوث:
ــ حجازي، عبد الرحمن. دليل معالم صيدا الإسلامية، صيدا، ١٩٨٣.
ــ حقي إسماعيل. لبنان مباحث علمية واجتماعية، جزءان، بيروت، ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠.
ــ رافق، عبد الكريم. بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥.
ــ رمضان، محمد رفعت. علي بك الكبير، القاهرة، ١٩٥٥.
ــ زين، أحمد عارف. تاريخ صيدا، صيدا، ١٩١٣.
ــ سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٠.
ــ سليمان، أحمد السعيد. تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩.
ــ سنو، منير غسان. مدينة صيدا (١٨١٨ ــ ١٨٦٠)، بيروت، ١٩٨٨.
ــ شيبوب، ادفيك. الحرف الشعبية في لبنان، بيروت، ١٩٧٤.
ــ صباغ، ليلى. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣.
ــ عبد النور، انطوان. تجارة صيدا مع الغرب، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٣.
ــ غازي رشيد. منتهى المنافع في أنواع الصنائع، م. الأدبية، بيروت ١٣١٣/١٨٩٦.
ــ غرايبة، عبد الكريم. سوريا في القرن التاسع عشر، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦١ ــ ١٩٦٢.
ــ قاسم، قاسم عبده. دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٣.
ــ كرد علي، محمد. خطط الشام، ٦ أجزاء، دمشق، ١٩٢٥ ــ ١٩٢٨.
ــ لكروي، إدوارد. أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين، تر. ، جورج مسرة، ساوبولو، (البرازيل)، ١٩٢٤.
ــ المجذوب، طلال. تاريخ صيدا الاجتماعي (١٨٤٠ ــ ١٩١٤)، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ١٩٨٣.
ــ مرهج، عفيف. إعرف لبنان.
ــ مصطفى، أحمد عبد الرحيم. أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨٢.
— ABDEL-Nour, Artoine. Introduction à l'histoire Urbain de la syrie ottomane, (XVI^{e} -XVIII^{e} siècle), publication de L Université Libanaise, Beyrouth, 1982.
— CHARLES-Rovx. Les Echelles de Syrie, et de palestine au XVIII siècle, paris, 1982.
— EISLEN, Fredrieck, Carl. SIDON A Study in oriental history, New York, the Columbia university press, 1907.
— MASSON, Paul. Histoire du commerce Français dans le Levant au XVII=^{e} siècle, t. 1, paris, 1886.
— ———. Histoire du commerce Français dans le levant au XVIII^{e} siècle, t. II, Paris, 1911.
— MARMARDJI, (O.P.). textes géographiques arabes sur la palestine, Paris, 1951.
— PARIS, Robert. Histoire du commerce de Marseille, t. 5, de 1660 à 1789, Paris, 1957.

(ز) رسائل جامعية غير منشورة:
SHAMIR, Shimon. The Azmc Waly of Syria, (1724-1785) A Dissertation presented to the Faculty of PRINCETON University, in condidacy for the degree of Doctor of philosophy, 1960.

(ح) الـدوريـات:

ــ سليمان، حسين سلمان. (بيروت ودمشق تحتلان مكانة صيدا وحلب الاقتصادية)، **تاريخ العرب والعالم**، السنة الثالثة، العدد ٣٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٨١، ص ٤٨ وما يليها.
ــ ـــــــ . من ملامح الحياة الاجتماعية في صيدا، **المقاصد**، السنة الرابعة، العددان ٤٠ ــ ٤١، آب ــ أيلول، ١٩٨٥، ص (٣٤ ــ ٤٢).
ــ الكيال، توما. (برتيقال صيدا) **المشرق** السنة السادسة، ١٩٠٣، ص (٢٨٨ ــ ٣٠٠).
ــ يحيى، فؤاد. جرداتري بخانات دمشق، **الحوليات الأثرية السورية**، السنة ١٣، ١٩٨١، ص (٦٧ ــ ١٠٦).

الوثائق

مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية في باريس.
وحدة حفظها: par les Ministères et les administrations qui dependent (serie F).
رقمها في وحدة الحفظ: F 1250ᶜ Tripoli de Syrie
موضوعها: سليمان باشا (١٨٠٥ ــ ١٨١٩) والي طرابلس وصيدا يستجيب للقنصل الفرنسي في طرابلس، ويرسل إلى مصطفى آغا بربر متسلم[1] ولاية طرابلس مرسوماً بشأن تنظيم جمارك الولاية.
تاريخها: ٢٣ جمادي الأول ١٢٢٧هـ (١٨١٢/٦/٥).

صورة المرسوم الصادر من سعادة افندينا ولي النعم

... صدر امر سلطاني بخصوص كمارك الممالك المحروسة انها تكون جميعها على السوية وأنه بكل عام في افتتاح محرم الحرام تتمن الأرزاق بسعر الرايـج والشيء الذي يساوي ماية وعشرين غرش يتمن بماية غرش ويندفـع كمرك في الماية عن الإسلام أربعة غروش ومن الذميون أربعة غروش ونصف ومن طوايف الإفرنـج، فإذا كان المال حاضر من بلادهم أم متوجه إلى بلادهم فيدفعوا في الماية ثلاثة غروش وإذا كان الممالك الإسلامية من محل إلى محل فيدفعوا في الماية أربعة غروش ونصف مثل الرعايا فالآن بلغنا أن واقـع اختلاف عندكم بأمر الكمارك في طرابلس واللاذقية وعمال يأخذوا على تعريفة قديماً وفي ممالك حاصل اختلال على كامل الكمارك الممالك المحروسة فلزم الآن إخباركم بذلك لكي تنظموا أمور الكمارك بطرفكم على مقتضى الأمر السلطاني وعلى ما هي سالكة به الممالك المحروسة جميعها لأجل راحة الأطراف والأنحاء وما يلزم لكم زيادة توكيد بذلك والسلام. ٢٣ جمادى سنة ١٢٢٧.

سليمان باشا
والي صيدا وطرابلس حالاً

Je sousigné Drognan en second atteste que la copie du Buiurdi[2] ci dessus de Soliman Pacha de seyde, Tripoly et Lattaquie m'a été delivré sur la demande de Monsieur le consul de france à Tripoly de Zadé Mustapha Aga Barbar Kan dans cette ville et Lattaquie par son Arabi Katidé à Tripoly de Syrie le 21 Juin 1812 signé (?) second Drogman.

(١) المتسلم. شغل هذا المنصب موظفان كانا كلاهما بمثابة نائب للوالي، فقد اطلق هذا اللقب على حكام السناجق أو المقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة، وأيضاً على نائب الوالي في عاصمة الولاية، وكان مصطفى آغا بربر يشغل هذا المنصب بصفته نائب الوالي على ولاية طرابلس.
(٢) BUIURDI = بيوردي. فعل ماض مبني للمجهول من المصدر التركي بيورمق بمعنى أن يأمر، ومعنى كلمة «بيوردي» هو (أمر بـ ...) تحولت هذه الصيغة الفعلية إلى الإسمية وصارت علماً على الأمر المكتوب بالرسم الهمايوني الصادر من الصدر الأعظم أو من أحد الولاة. وقد كان هذا الاصطلاح يطلق في مصر حتى سنة ١٩١٥ على براءات التعيين حتى الدرجة الثانية، وعلى الشهادة التي يحصل عليها المتخرجون في الأزهر الشريف. احمد السعيد سليمان. تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، ص (٤٩ ــ ٥٠).

مرسوم من سليمان باشا إلى مصطفى آغا بربر بشأن تنظيم جمارك مدينة طرابلس.

« ملحق رقم ٧ »

" مرسوم من سليمان باشا الى مصطفى أغا بربر بشأن تنظيم جمارك مدينة طرابلس "

[illegible]



Je soussigné Drogman en second atteste que la copie du [illegible] ci-dessus de Soliman Pacha de Seyde, Tripoly et Lattaquié a été délivrée sur la demande de Monsieur le Consul de France à Tripoly [illegible] de Zadé Mustapha Aga Barbar [illegible] dans cette ville et Lattaquié [illegible]
à Tripoly de Syrie le 27 Juin 1812 — Signé [illegible] Second Drogman
[illegible]

F. L250 Tripoli

□ من مجموعة أرشيف دار الوثائق القومية في باريس (F. L 250 Tripoli).

معاهدة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب مع أهل إيليا "بيت المقدس"

إعداد: شذا عدرة

يتميز عهد الخليفة الراشيدي عمر بن الخطاب بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و«الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها. ومعاهدته مع أهل إيليا «بيت المقدس» هي من ضمن مجموعة معاهدات أبرمها الخليفة عمر مع أهل الشام وفلسطين، والتي تكمن اهميتها في أنها تتضمن بعض الكتب التي أرسلها إلى عماله في تلك الأصقاع بشأن الحكم في بعض المسائل الحياتية التي اعترضتهم، وهي بالتالي تعطينا صورة واضحة عن الأحكام والقيم التي كانت سائدة آنذاك في المجتمع الإسلامي.

معاهدة مع أهل بيت المقدس

طب ص ٢٤٠٥ ــ ٢٤٠٦
قابل اليعقوبي ج ٢، ص ١٦٧
انظر لين بول ص ٢٣٢ وما بعدها للنص والبحث فيه

صالح عمر أهل أيليا ــ (يعني بيت المقدس) ــ بالجابية؛ وكتب لهم فيها الصلح، لكل كورة كتاباً واحداً؛ ما خلا أهل أيليا. وأما سائر كتبهم فعلى كتاب لُدّ على ما سيأتي بعد هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطي عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل أيليا من الأمان:

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. إنه لا تُسكَن كنائسهم ولا تهدَم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دِينهم ولا يضارّ أحد منهم، ولا يَسكن بأيليا معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل أيليا أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن. وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصُوتَ. فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية. ومن أحب من أهل أيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بِيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم، وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل أيليا من الجزية؛ ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله. فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبـي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

حل رموز الاختصارات
المستعملة في اوائل الوثائق

الف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
با... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بـح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبـي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بـع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبـي يوسف.
ديب... الديبلي.
طب... تاريخ الطبري.
عمـخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
.. ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.

- إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني.

«عمر بن الخطاب»

- الحرية شجرة الخلد وسقياها من الدم المسفوح.

«؟» عربي

- إن في العصيان المدني ذخراً للقوة.

«غاندي»

- الوطنية الصحيحة تعمل ولا تقول.

«؟» غربي

خان يونس

قسم التوثيق والأبحاث

مدينة عربية من مدن قضاء غزة تقع في أقصى جنوب غربي فلسطين على بعد ٢٠ كم من الحدود المصرية. وقد أصبحت بعد عام ١٩٤٨ ثاني مدينة في قطاع غزة بعد مدينة غزة. وتعرضت في عام ١٩٥٦ للعدوان الإسرائيلي الذي تعرض له قطاع غزة وظلت تقاوم العدوان من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى منزل، على الرغم من احتلال بقية أجزاء القطاع. غير أن الجيش الإسرائيلي دخل المدينة في النهاية وأمعن في شبابها قتلاً وتذبيحاً انتقاماً لخسائره الجسيمة أثناء هجومه عليها. وفي حرب ١٩٦٧ صمدت خان يونس كعاتها، وقاتلت الجيش الإسرائيلي بضراوة، واستمرت مقاومة المدينة أربعة أيام كاملة، فكانت بذلك آخر موقع في قطاع غزة سقط في قبضة الاحتلال الإسرائيلي.

أ ــ الموقع الجغرافي: تتمتع مدينة خان يونس بموقع جغرافي هام، فهي النقطة الجنوبية لسلسلة نقاط المدن التي ترصّع السهل الساحلي لفلسطين، وفيها تمر الطريق الرئيسة المعبدة إلى السهل الساحلي وسكة حديد القنطرة ــ حيفا اللتان تربطان مصر ببلاد الشام. وتعد خان يونس وغزة بوابة فلسطين الجنوبية التي عبرت منها إلى مصر الجيوش والغزوات والقوافل التجارية والهجرات البشرية. وخان يونس أشبه بواحة على الحافة الغربية لصحراء النقب التي تعد ظهيراً هاماً. لذا ارتبطت خان يونس بالنقب بطريق تتجه شرقاً عبر قرى بني سهيلة وعبسان وخزاعة. وقد اكتسب موقع خان يونس أهمية خاصة لأنه يمثل نقطة انقطاع بين بيئة النقب الصحراوية وبيئة السهل الساحلي المتوسطية، ولأن منتجات البيئتين تجد في سوق خان يونس مكاناً مناسباً للتبادل.

ب ــ الموضع: تقوم مدينة خان يونس على بقعة منبسطة من جنوب الشريط السهلي الساحلي ترتفع نحو ٥٠ م عن سطح البحر. وتقوم نواة المدينة فوق خط الانقطاع الذي يفصل بين شريط الكثبان الرملية الشاطئية غرباً وتكوينات البليوسين والأوليجوسين المغطاة بالطمي الحديث لحافة النقب شرقاً. وقد ظل هذا الشريط الرملي الذي يبلغ عرضه نحو ٣ كم حداً فاصلاً بين مدينة خان يونس والبحر المتوسط حتى بدأ النمو العمراني الذي شهدته المدينة في ربع القرن الأخير يغزو معظمه فلم يبق منه إلا جزء قريب من شاطىء البحر مخصص لنمو الأشجار الحرجية، ولزراعة بعض المحاصيل الزراعية، ولا سيما النخيل والخضار في منطقة المواصي (والمواصي هي آبار قليلة العمق).

لذا فإن الجزء الغربي الحديث من المدينة أكثر ارتفاعاً من الجزء الشرقي لأنه قام على التلال والكثبان الرملية. كما أن الأجزاء الغربية والجنوبية للمدينة تتألف من تكوينات البلايستوسين الأكثر حداثة من تكوينات الأجزاء الشرقية والشمالية.

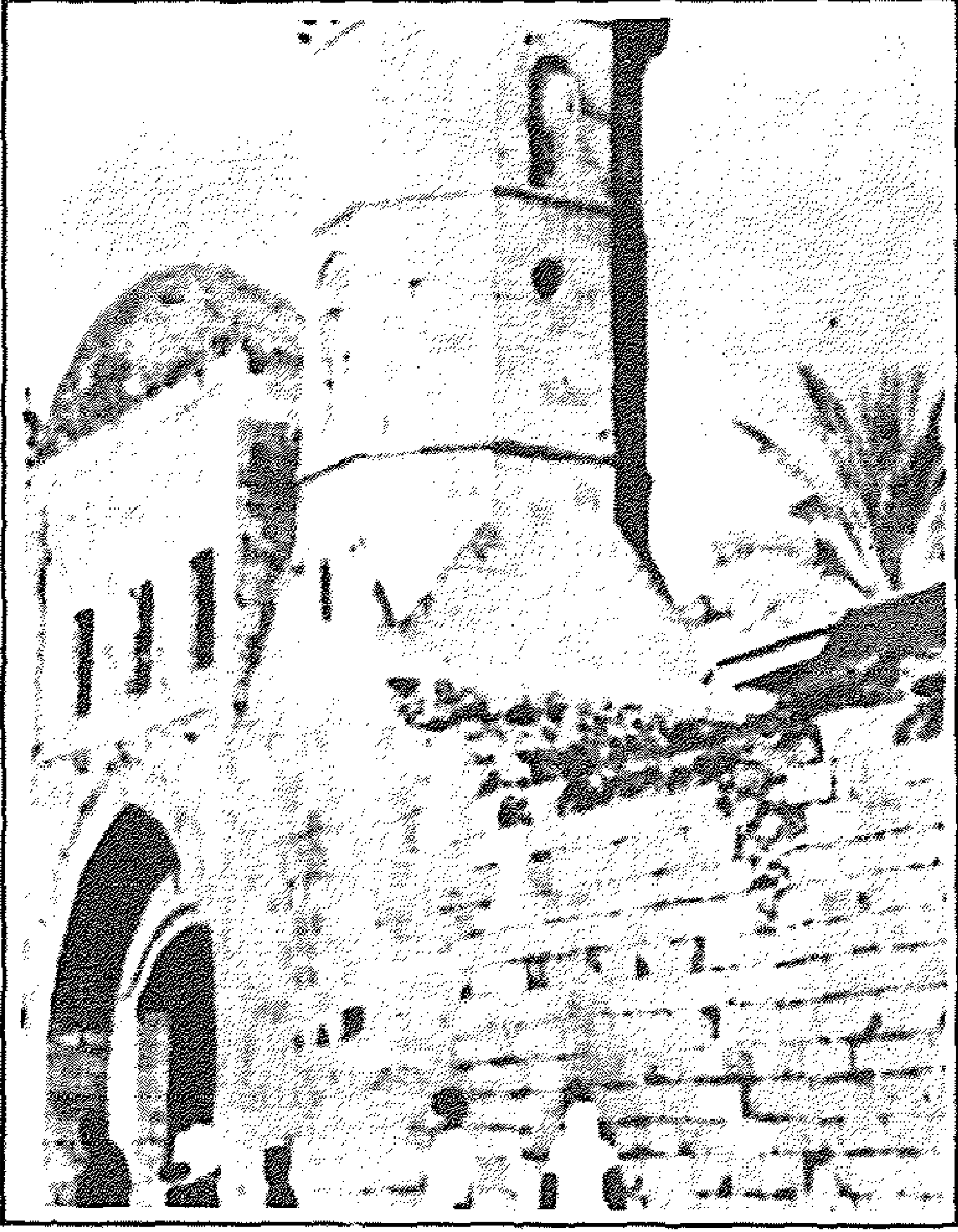
أما عن التربة فإنها فقيرة بوجه عام، وهي مفكّكة تغلب عليها مكونات الرمال والأملاح وتنخفض فيها نسبة الطين والمواد العضوية لأن سطح الأرض تغلب عليه ظاهرة الكثبان الرملية

التي تتخذ شكل شريط موازٍ لساحل البحر المتوسط. وتسود تربة اللوس التي تزداد فيها الرمال والحصى والطفل كلما اتجهنا شرقاً، وهي امتداد غربي لتربة اللوس في صحراء النقب. وتنحدر من النقب نحو البحر المتوسط بعض الأودية الصغيرة الجافة من أهمها وادي السلقة. وتمر هذه الأودية من الأراضي الشمالية لخان يونس في طريقها إلى البحر ويفيض بعضها شتاء بعد هطول أمطار غزيرة.

جـ ــ المناخ والمياه: ينتمي مناخ خان يونس إلى المناخ شبه الصحراوي الساحلي الذي يتميز بقلة أمطاره الشتوية وتطرفه النسبي. ويبلغ متوسط كمية الأمطار السنوية التي تهطل على المدينة نحو ٢٧٦ مم. وتتذبذب هذه الكمية لعدم انتظام هطول الأمطار من سنة لأخرى. فعلى سبيل المثال بلغت كمية الأمطار التي هطلت على خان يونس في عام ١٩٣٥/٣٦ نحو ١٥٨ مم، وارتفعت في عام ١٩٣٦/٣٧ إلى ٣٥٧ مم. وتتركز الأمطار في أيام محدودة من السنة يقدر عددها بنحو ٤٠ يوماً مطيراً. ويبلغ المتوسط السنوي لدرجة الحرارة نحو ٣١°، ولذا ترتفع قيمة البخر والنتح، ويصبح الريّ أمراً ضرورياً للزراعة حول المدينة.

وبالإضافة إلى مياه الأمطار التي تكفي لنجاح الزراعة في السنوات المطيرة أو العادية تحصل المدينة على المياه من الآبار الموجودة داخلها وحولها. وتستخدم مياه الآبار لأغراض الشرب والزراعة، وهي حسنة النوعية عموماً، باستثناء تلك التي تشوبها الأملاح. ويحصل المزارعون في منطقة المواصي الممتدة بمحاذاة شاطىء البحر المتوسط على المياه العذبة بحفر حُفَرٍ لا تزيد في عمقها عن مترين. وإذا كانت المواصي ذات مياه جوفية قريبة جداً من سطح الأرض فإن أعماق بقية الآبار في خان يونس تراوح ما بين ٢٠ و ٤٠ م.

د ــ النشأة والتطور: يرجّح بعض الكتّاب والمؤرخين أن مدينة خان يونس بنيت على أنقاض مدينة قديمة كانت تعرف بإسم جنيسس Jenysus ذكر هيرودوتس أنها تقع جنوبي مدينة غزة.



□ جامع قلعة برقوق في خان يونس على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً جنوب غزة.

وخان يونس الحالية حديثة النشأة نسبياً، إذ لا يزيد عمرها على ستمائة سنة إلا قليلاً. وكان الهدف من بنائها حماية التجارة وخطوط المواصلات الحربية بين مصر والشام أيام المماليك. فقد أرسل السلطان المملوكي برقوق حامل أختامه الأمير يونس النيروزي الدوادار لبناء قلعة في ذلك الموضع، وبنيت القلعة على شكل نزل، ولذلك أطلق عليها الخان.

كانت القلعة أشبه بمجمع حكومي كامل، وكانت تقيم فيها حامية من الفرسان، وفيها مسجد تطل مئذنته من فوق سور القلعة. وقد حفر بداخل القلعة بئر للمياه، وأقيم فيها نزل للمسافرين وإسطبل للخيول. وعلى أسوار القلعة الخارجية أربعة أبراج. وقد أنجز بناء القلعة في عام ٧٨٩ هـ. ويبدو أنه بعد مرور نحو ثلاثمائة عام على إنشاء القلعة استطابت إحدى الحاميات الإقامة فيها مع أُسرها، ثم جاء آخرون وسكنوا خارج الأسوار فنشأت بذلك مدينة خان يونس.

تطورت هذه المحلة حول الخان فصارت قرية زاهرة، ثم ارتقت فغدت بلدة فمدينة في ربع القرن الأخير. وقد كانت خان يونس في العهد العثماني مركز ناحية ثم أصبحت قصبة. وفي

عهد الانتداب البريطاني زاد حجمها وتألف أول مجلس بلدي عام ١٩١٨، واتسعت رقعتها على مساحة أرض بلغت أواخر عهد الانتداب نحو ٢,٥٠٠ دونم منها ٣٤٥ دونماً للطرق.

بلغ عدد سكان خان يونس في عام ١٩٢٢ نحو ٣,٨٩٠ نسمة. ثم زاد عددهم إلى ٧,٢٤٨ نسمة في عام ١٩٣١، وإلى ١٢,٣٥٠ نسمة في عام ١٩٤٦. وبعد نكبة عام ١٩٤٨ التي نجم عنها تدفق عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين ارتفع عدد سكان المدينة الأصليين وأصبح في عام ١٩٦٣ نحو ١٩,٦٦٩ نسمة يضاف إليهم نحو ٤٨,٣٧٥ نسمة من اللاجئين. وقدر عدد سكان خان يونس عام ١٩٧٩ بنحو ٩٠,٠٠٠ نسمة منهم ٣٠,٠٠٠ نسمة من سكانها الأصليين و٦٠,٠٠٠ نسمة من السكان اللاجئين. ويعود السكان الأصليون بأصولهم إلى مختلف القبائل العربية التي نزلت هذه الديار في الماضي، وإلى مصر، وبينهم جماعات من أصول تركية وشركسية. أما اللاجئون فإنهم هاجروا إلى خان يونس من مختلف المدن والقرى الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨، وبخاصة من مدن وقرى اللواء الجنوبي في فلسطين.

شهدت خان يونس تطوراً ملحوظاً في نموها العمراني في نهاية الحرب العالمية الثانية. وتشرف بلدية خان يونس على شؤون المدينة المختلفة، وبخاصة تنظيم المدينة وفتح الشوارع فيها وتعبيدها، وإعطاء رخص للمباني الجديدة. وقد بلغ مجموع رخص البناء المعطاة عام ١٩٤٤ من قبل البلدية ٩١ رخصة قيمة أبنيتها ٢٠,٢٠٤ ج.ف. وانفقت البلدية على المدينة في ذلك العام مبلغ ٤,٤٩٠ ج.ف. في حين بلغت وارداتها المالية في العام نفسه ٧,٧٣٩ ج.ف. وقد امتدت المباني السكنية حول وسط المدينة التجاري مباشرة مع توسعها في محور شمالي جنوبي. وبلغ مجموع بيوت المدينة في أواخر عهد الانتداب ٢,٠٠٠ بيت تقريباً.

وبعد عام ١٩٤٨ تدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين للإقامة في خان يونس، سواء في بيوت المدينة نفسها أو في مخيم أعدّته وكالة غوث اللاجئين لهم في الطرف الغربي من المدينة. وكان لا بد من مواجهة هذا الوضع الجديد بالتوسع في تشييد المساكن الجديدة وتوفير المرافق العامة من مدارس ومستشفيات وعيادات صحية ومياه وكهرباء ومواصلات وغيرها. وتوسع الوسط التجاري وزحفت المحلات التجارية والمباني السكنية نحو الغرب لتلتحم بمثيلاتها في مخيم البحر. وتضاعفت مساحة المدينة بسبب هذا التوسع العمراني الذي اتخذ شكل المحاور على طول شارع القلعة وشارع البحر والطرق المؤدية لبني سهيلة (مدخل المدينة) ورفح والقرارة.

هـ ــ **التركيب الوظيفي**: امتهن سكان خان يونس في بادىء الأمر التجارة وخدمة المسافرين، وهي حرفة أشبه بصناعة «الفندقة» في عصرنا الحاضر. واتجه كثير من السكان بعدئذٍ إلى العمل في الزراعة الجافة، ثم عرفت الزراعة المروية مؤخراً نتيجة الاستفادة من المياه الجوفية سواء أكانت مياه الآبار أم مياه المواصي على شاطىء البحر. ومنذ عام ١٩٤٨ مارس بعض السكان، ولا سيما اللاجئين، الصناعة. ومعظم صناعات المدينة من النوع الخفيف، وأهمها المنسوجات التي يصنعها بعض اللاجئين من أبناء مدينة مجدل عسقلان.

وقد تطورت حرفة التجارة في خان يونس بفتح المحلات التجارية الكبيرة والمعارض. وبالإضافة إلى الوسط التجاري للمدينة يقام فيها كل يوم خميس سوق كبيرة يأتيها التجار والمشترون من داخل خان يونس وخارجها. وأهم ما يباع فيها الحيوانات والأقمشة والفخار ومشتقات الألبان والخضر والفواكه وغيرها.

تبلغ مساحة أراضي خان يونس ٥٣,٨٢٠ دونماً منها ١,٤٣٣ دونماً للطرق والأودية والسكة الحديدية والباقي يمثل مساحة المدينة نفسها والأراضي الزراعية المحيطة بها. وتمتد معظم الأراضي الزراعية في شمال المدينة وجنوبها، ويتركز جزء منها في منطقة شاطىء البحر. وأهم المحاصيل الزراعية التي تنتجها خان يونس الحبوب بأنواعها، والفواكه بأصنافها، ولا سيما البطيخ والبلح، وجميع أنواع الخضار. وكانت الزراعة حتى عهد قريب تعتمد على الأمطار، ولكن تطور الوسائل والمعدات

الزراعية دفع الأهالي إلى استصلاح المزيد من الأراضي وحفر الآبار فزادت نسبة الأراضي الزراعية المروية، ولا سيما تلك التي تنتج الحمضيات والخضر. وتنتج أراضي المواصي المروية كثيراً من أصناف الخضر والفواكه كالبندورة والجوافة والبلح والحمضيات والمانجا. وقد أكسبت هذه المزارع شاطىء بحر خان يونس منظراً جميلاً فأصبح محط أنظار الأهالي يقصدونه لقضاء العطل والأعياد بغرض المتعة والاستجمام.

وإلى جانب القطاعات الإنتاجية، كالزراعة والصناعة والتجارة، تعد المدينة مركزاً إدارياً وتعليمياً في جنوب قطاع غزة، وتتركز فيها كثير من الدوائر الحكومية لكونها عاصمة المنطقة الجنوبية للقطاع. وتتبعها مدينة رفح ومجموعة من القرى المجاورة كبني سهيلة وعبسان الصغيرة والكبيرة وخزاعة وغيرها. وكان فيها مقر الحاكم الإداري المصري للمنطقة الجنوبية من القطاع في عهد الإدارة المصرية (١٩٣٨ ــ ١٩٦٧). وأما من الناحية التعليمية فإن خان يونس اشتملت في عهد الانتداب على مدرستين حكوميتين إحداهما ثانوية للبنين والأخرى ابتدائية للإناث. ومنذ عهد الإدارة المصرية حتى اليوم تضاعف عدد المدارس مرات، فضمت المدينة عشرات المدارس الثانوية والإعدادية والابتدائية للبنين والبنات. وتطورت الحياة التعليمية والثقافية لسكان المدينة نتيجة ارتفاع نسبة المتعلمين فيها. ●

المراجع:

ــ مصطفى مراد الدباغ: **بلادنا فلسطين**، ج ١، ق ٢، بيروت ١٩٦٦.

ــ خريطة فلسطين، مقياس١: ٥٠,٠٠٠،لوحةخان يونس.

● **نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية ــ المجلد الثاني، ١٩٨٤.**

قصة معاوية مع عبد الله بن الزبير

● كان لعبد الله بن الزبير أرض متاخمة لأرض معاوية بن أبي سفيان، قد جعل فيها عبيداً من الزنوج يعمرونها. فدخلوا على أرض عبد الله. فكتب إلى معاوية:

اما بعد يا معاوية، فامنع عبدانك من الدخول في أرضي وإلا كان لي ولك شأن.

فلما وقف معاوية على الكتاب ــ وكان إذ ذاك أمير المؤمنين ــ دفعه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه قال له:

يا بُنيّ، ما ترى؟

قال: أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك، يأتوك برأسه.

قال: أو خَيْر من ذلك يا بنيّ؟ عليّ بداوة وقرطاس.

وكتب:

وقفت على كتاب ابن حواريّ رسول الله، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها عندي هيّنة في جنب رضاه. وقد كتبت له على نفسي صكاً بالأرض والعبدان، وأشهدتُ عليَّ فيه، فليستضفها مع عبدانه إلى أرضه وعبيده. والسلام.

لما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه:

وقفتُ على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الراي الذي أحلّه من قريش هذا المحل. والسلام.

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله، رماه إلى ابنه يزيد، وقال له:

يا بنيّ، إذا بُليت بمثل هذا الداء، فداوه بمثل هذا الدواء.

من كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» للتنوخي

معهد عالمي للعلوم الإسلامية في واشنطن

● انشيء في العام الماضي بواشنطن (الولايات المتحدة الأميركية) معهد يهدف إلى الارتقاء والتقدم بالعلوم الإسلامية، من خلال التركيز على ثلاث مجالات رئيسة، وتطبيق التكنولوجيا الحديثة عليها، وهي: الفلسفة الإسلامية، علم الاجتماع، تاريخ العلوم، ثم الاقتصاد الزراعي الإسلامي والنظم البيئية والحياة الأخلاقية الطبية.

ويلقى هذا المعهد الذي أطلق عليه إسم: المعهد العالمي للتكنولوجيا والعلوم الإسلامية الدعم من قبل المنظمات الإسلامية في أميركا وخارجها.

ويذكر أن هناك مجموعة من الشخصيات العربية والإسلامية المعروفة وراء إنشاء المعهد. ومنها: الدكتور محمد عبده يماني (السعودية)، الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو (تركيا)، حكيم محمد سيد (الباكستان).

المؤرخون العرب: هيئة عليا لكتابة تاريخ الأمة

● شهد العام الحالي نشاطات عديدة قام بها اتحاد المؤرخين العرب في بغداد، وقدم من خلال خدمات جليلة للأمة العربية وللمشتغلين في التاريخ لها، وللاجيال الجديدة. وفي برنامجه للعام المقبل نشاطات جديدة أخرى.

وقد تمثلت هذه النشاطات في مؤتمرات وندوات تاريخية، تكريم المؤرخين العرب، الإعداد لإعادة كتابة



تاريخ الأمة، إصدار أدلة للرسائل الجامعية ولنتاجات المؤرخين، إجراء دراسات حول مناهج التاريخ في مراحل التعليم العام، توحيد مناهج وخطط الرسائل العلمية في الجامعات.

ويمكن إجمال هذه النشاطات في النقاط التالية:

ـ تشكيل هيئة عليا تضم مؤرخين ممتازين من الأقطار العربية، وتجتمع سنوياً لوضع منهج عربي لكتابة تاريخ الأمة.

ـ عقد مؤتمرات وندوات تاريخية في مختلف البلاد العربية. وسيتم في العام المقبل عقد مؤتمرات أخرى بالتعاون مع عدد من المؤسسات العلمية، في بعض الأقطار العربية والأوروبية والأميركية.

ـ منح نخبة متميزة من المؤرخين العرب كانت قد رشحتهم الجمعيات التاريخية في الوطن العربي شهادة «وسام المؤرخ العربي»، وذلك تقديراً لجهودهم العلمية في ميدان البحث التاريخي.

وسيتم تكريم نخبة جديدة في العام المقبل. وقد بادر الاتحاد إلى إعداد دليل عن سيرة المرشحين للوسام، وإعداد وسام مصنوع من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة، لتوزيعه على المرشحين في حفل يقام في الأندلس.

ـ جعل يوم ٢ أكتوبر من كل عام عيداً للمؤرخ العربي، وذلك بمناسبة مرور ٨٠٠ عام على تحرير العرب للقدس من الإفرنج.

ـ إعداد دليل لعناوين رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ والآثار لجامعات الوطن العربي كافة. وسيتم طبعه في جزاين العام المقبل، وكذلك إعداد دليل للنتاج العلمي للمؤرخين العرب.

ـ التحضير لإجراء دراسة مقارنة للكتب المنهجية في التاريخ في كل مراحل التعليم: الابتدائي والمتوسط والإعدادي والجامعي ومن المقرر أن تنجز هذه الدراسة في العام المقبل. وكان الاتحاد قد أرسل إلى وزارات التعليم والثقافة في الأقطار العربية، وحصل منها على الكتب المقررة في بلادها.

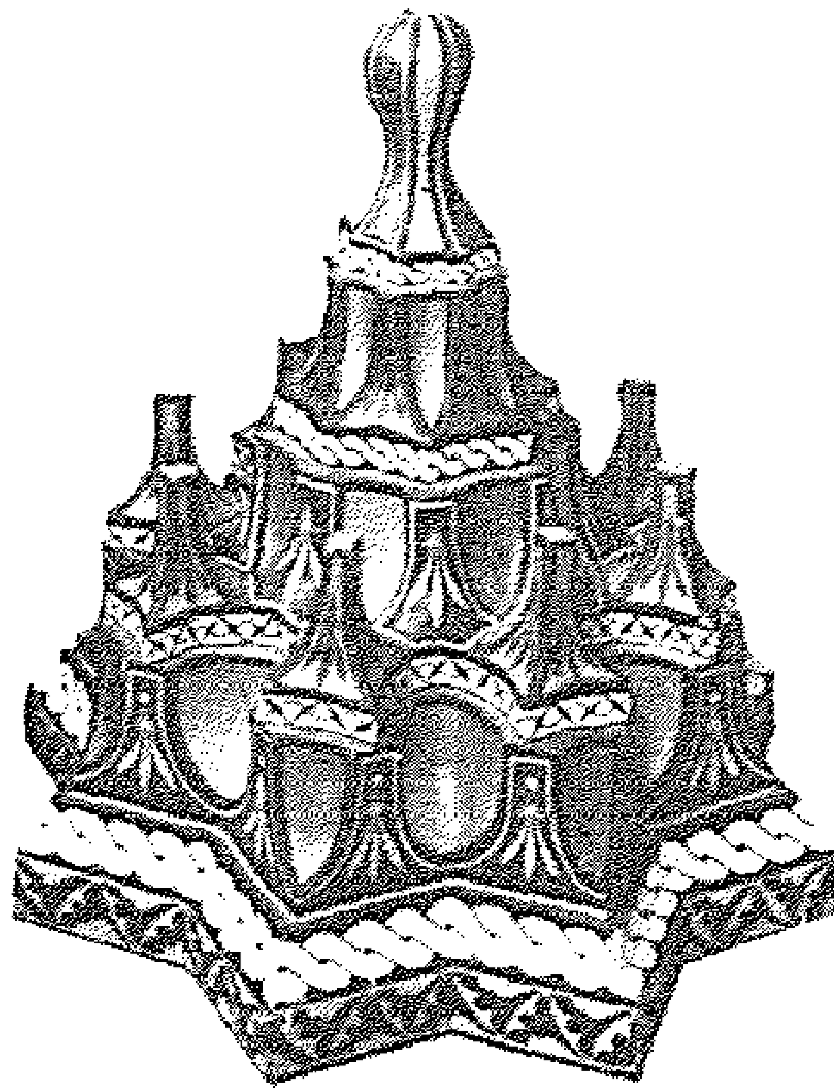
ـ الشروع بجمع مناهج وخطط الرسائل العلمية (الماجستير، الدكتوراه) في التاريخ في جامعات الوطن العربي، وذلك بغية توحيدها وطبعها ووضعها بين أيدي الأساتذة المتخصصين.

ويذكر أن الاتحاد يصدر كل ثلاثة شهور مجلة محكمة، ويحتوي العدد على ٢٢ بحثاً باللغة العربية، والأجنبية، بالإضافة إلى الأبواب الثابتة، وقد طبع منها الآن ٣٤ عدداً.

كما يملك أرشيفاً الكترونياً، يحتوي على ملفات ١٢ ألف مؤرخ عربي، من كل الأقطار العربية، وكذلك على ملفات للمؤرخين العرب خارج الوطن العربي.

من ناحية أخرى وصل إلى المجلة بيان من الأمانة العامة للاتحاد، مذيلاً بتوقيع الأمين العام الأستاذ مصطفى عبد القادر النجار، تضمن انتقاداً حاداً لظاهرة إعادة طبع الكتب بعد حذف أسماء مؤلفيها، وما يترتب على ذلك من سلب الحقوق المشروعة العلمية والمادية لهؤلاء المؤلفين.

وأشار البيان في هذا الصدد إلى مركز الخدمات والأبحاث الثقافية في بيروت أصدر مؤخراً كتاباً بعنوان: «مخطوطات الخزانة العمرية في مكتبة المتحف العراقي»، ووضع عليه إسم أمين قسم المخطوطات فيه كمال يوسف الحوت.



وأكد البيان أن الكتاب المذكور، من تأليف أسامة ناصر النقشبندي، ونشر مجلة المورد، (ص ٣٤٩ ـ ٣٧٦ من المجلد الثامن لسنة ٧٩).

ودعا البيان إلى وضع حد لهذه الظاهرة، وناشد المراكز الثقافية والعلمية اتخاذ الإجراءات الممكنة لتحقيق هذه الغاية.

مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية بتونس

● يُعدُّ مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية (الأندلسية) والتوثيق والمعلومات مركزاً فريداً من نوعه في العالم العربي والإسلامي، وقد استطاع خلال فترة وجيزة (مضى على إنشائه حوالي ثلاث سنوات) من تحقيق نتائج طيبة، كانت ثمرة لجهوده على أكثر من صعيد. ويرجَع الفضل في إنشاء هذا المركز الذي يتخذ من مدينة زغوان التونسية مقراً له إلى الدكتور عبد الجليل التميمي الأستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعة تونس، الذي تمكن بجهد فردي من تحقيق الجزء الأول من المشروع، والمتمثل في بناء المكتبة التي سيتم تدشينها قريباً، وسوف تحتضن مائة ألف كتاب، في ستة عشر جناحاً، وستكون مجموعة الدكتور التميمي الشخصية النواة الأولى فيها.

ويهتم المركز بإقامة تعاون شامل مع كل المراكز المتخصصة على الصعيدين العربي والدولي، والاهتمام بالقضايا التي عزف عنها الباحثون، فضلاً عن الجامعات، ومنحها أولية الأوليات في المستقبل.

حكاية السفّاح وزوجته
وخالد بن صفوان

دخل خالد بن صفوان[1] على الخليفة ابي العباس السفّاح فوجده خالياً، فقال:

يا امير المؤمنين، انا اترقّب مُذ تقلّدتَ الخلافةَ ان اجدك خالياً فألقي إليك ما أُريده.

قال: فاذكر حاجتك.

قال:

يا امير المؤمنين، إني فكرت في امرك فلم أرَ مَن هو في مثل قدرك اقلَّ استمتاعاً بالنساء. وقد مَلَّكْتَ على نفسك امرأةً واحدة، واقتصرتَ عليها، فلان مرضَتْ مرضْتَ، وإن غابتْ غبْتَ، وإن غضِبَتْ حُرِمتَ! وإنما التَّلَذُّذُ باستطراف الجواري، ومعرفة اختلاف احوالهن، والاستمتاع بهنّ. فلو رأيتَ الطويلةَ البيضاء، والسمراءَ اللَّفّاء، والصفراءَ العجْزاء، والغَنِجَةَ الكَحْلاء، والمولَّدات من المَدَنيّات، والمِلاح من القُنْدُهاريّات، ذوات الألسن العذبة، والقُدود المُهَفْهَفَة، والثُّدِيّ المُحَقَّقَة!...

وجعل خالد بعذوبة لفظه واقتداره على الوصف يزيد في قوله. فلما فرغ من كلامه، قال السفاح له:

والله يا خالد ما سَلَكَ سمعي قطُّ كلامٌ احسن من هذا. لقد حرّك مني ساكناً!

وبقي السفاح مفكراً عامة نهاره. ثم دخلت عليه زوجته ام سَلَمة، فلما رأته دائم الفكر، كثير السُّهو، قليل النشاط، قالت:

إني أُنكِرُك يا امير المؤمنين. فهل حدث ما تكرهه؟

ولم تزل به حتى حدّثها بخبر خالد بن صفوان.

قالت: فما قلتَ لابن الفاعلة؟

قال لها: سبحان الله! رجل نصحني تسبّينه؟!

فخرجت من عنده متميزة غضباً، وارسلت إلى خالد بجماعة من غلمانها العجم ومعهم العصيّ، وامرتهم الا يتركوا فيه عضواً صحيحاً.

اما خالد فقد انصرف من عند السفاح وهو على غاية السرور بما رأى الخليفة عليه من الإعجاب بحديثه، وقعد على باب داره يتوقع جائزته. فلم يشعر إلا بالغلمان، وتحقّق مجيئهم بالجائزة. فلما وقفوا على رأسه سألوه عن ابن صفوان، فقال: هأنذا. فأهوى بعضهم بهراوته إليه. فوثب خالد ودخل داره، وغلّق بابه واستتر، وعرف هفوته وزلّته في فعله وكلامه، وعلم من اين أُتِيَ.

ثم إنه مكث اياماً مستتراً. فلم يشعر ذات يوم إلا بجماعة من خدم السفاح قد هجموا عليه، فقالوا:

أَجِب امير المؤمنين!

فأيقن بالهَلَكَة، وركب معهم وهو بلا دَم. فلما دخل عليه وسلّم فرِقَ عليه، سكنت نفسه بعض السّكون. وأومأ إليه بالجلوس فجلس. ونظر خالد فإذا خلف السفاح باب عليه سُتُور قد أُرْخِيت، واحسّ بحركة خلفه.

ثم قال الخليفة: يا خالد، لم ارك منذ ايام!

فاعتلّ عليه. فقال له:

ويحك! إنك وصفتَ لي آخر يوم كنتَ عندي فيه من أمر النساء والجواري ما لم يخرِق سمعي قطُّ مثلُه. فأعِدْه عليَّ!

قال: نعم. أعلمتُك يا امير المؤمنين أن العرب اشتقّت اسم الضَّرَّتين من الضُّرّ، وان احدهم لم يكن عنده من النساء اكثر من واحدة إلا كان في جُهد وكَدّ.

قال السفاح:

ويحك، لم يكن هذا في كلامك!

قال: بلى. وأخبرتُك أن الثلاث من النساء كأثافِيّ القِدْر تغْلِي عليهن!

قال السفاح: برئتُ من قرابتي من رسول الله إن كنتُ سمعت هذا منك في حديث!

قال: بلى. وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌّ مجموع لمن كُنّ عنده؛ يُهْرِمْنَه ويُنَغِّصْنَ عليه عَيْشه، ويُشَيِّبْنَهُ قبل حينه!

قال السفاح: والله ما سمعتُ هذا قط منك ولا من غيرك!

قال: بلى يا امير المؤمنين لقد قلتُ.

قال: ويلك، تكذّبُني؟

قال: يا أمير المؤمنين، فتريد قتلي؟

فسُمع ضحك شديد وراء الستر. فقال خالد:

وأعْلَمْتُك أن عندك ريحانة قريش، وأنه لا يجب أن تطمحَ نفسُك إلى غيرها من النساء!

فسُمع من وراء الستر صوت يقول:

صدقتَ والله يا عمّاه، ولكن أمير المؤمنين غيّر وبدّل، ونطق عن لسانك بغير ما ذكرتَه!

وخرج خالد إلى منزله، فلم يصل إليه حتى وجّهت إليه أم سَلَمة ثلاثة تُخوت فيها أنواع الثياب، وخمسة آلاف درهم!

من كتاب «الهفوات النادرة» لمحمد بن هلال الصابىء.

(١) خالد بن صفوان (توفي عام ٧٥٢م) احد رواة الشعر والقصص والخطب، عرف بالفصاحة وسرعة البديهة وكان مقرباً إلى الكثير من خلفاء الأمويين ثم إلى الخليفة السفاح مؤسس الدولة العباسية.

المتنبّي وبائع البِطّيخ

قيل للمتنبي:

قد شاع عنك من البُخْل في الآفاق، ما قد صار سَمَراً بين الرِّفاق. وأنت تمدح في شِعرك الكرمَ وأهلَه، وتذمّ البخل وأهله. ألستَ القائل:

ومن يُنفِقُ الساعاتِ في جمع ماله

مخافةَ فقرٍ، فالذي فَعَل الفقرُ

ومعلوم أنّ البخل قبيح، ومنك اقبح، فإنك تتعاطى كبرَ النفس، وعُلوَّ الهمّة، وطلبَ المُلْك. والبخل ينافي ذلك.

فقال:

إن للبُخل سبباً، وذلك أني اذكر اني وردتُ في صباي من الكوفة إلى بغداد. فأخذتُ خمسة دراهم بجانب منديلي، وخرجت أمشي في أسواق بغداد. فمررتُ بصاحب دكان يبيع الفاكهة، ورأيت عنده خمسة من البِطّيخ باكورة. فاستحسنتها، ونويت أن اشتريها بالدراهم التي معي. فتقدّمتُ إليه وقلت:

بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ؟

فقال بغير اكتراث:

اذهب، فليس هذا من أكْلِك!



فتماسكتُ معه وقلت:

يا هذا، دع ما يغيظ واقصِد الثمن.

قال:

ثمنها عشرة دراهم!

فَلِشِدَّة ما جَبَهَني[١] به ما استطعتُ أن اخاطبه في المساومة. فوقفتُ حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل. وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان[٢] ذاهباً إلى داره، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان، ودعا له، وقال:

يا مولاي، هذا بِطيخ باكورة، بإجازتك[٣] أحمله إلى البيت؟

فقال الشيخ:

ويحك، بكم هذا؟

قال:

بخمسة دراهم.

قال:

بل بدرهمين!

فباعه الخمسة بدرهمين، وحملها إلى داره، ودعا له، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل.

فقلت:

يا هذا، ما رأيتُ اعجب من جهلك، اسْتمْتَ[٤] عليّ في هذا البطيخ، وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنتُ قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم، فَبِعْتَه بدرهمين محمولاً!

فقال:

اسكت! هذا يملك مائة ألف دينار!

فعلمتُ أن الناس لا يُكرِمون أحداً إكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة ألف دينار. وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيِّب قد ملك مائة ألف دينار.

من كتاب «الصُّبح المُنْبي عن حيثية المتنبي» ليوسف البديعي.

(١) جَبَه: صَدَمَ.
(٢) الخان: كلمة فارسية ومعناها هنا إما الحانوت او محل نزول المسافرين (الفندق).
(٣) بإجازتك: بعد إذنك.
(٤) استام البائع على المشتري: غالَى في الثمن المطلوب.

موطنها لبنان

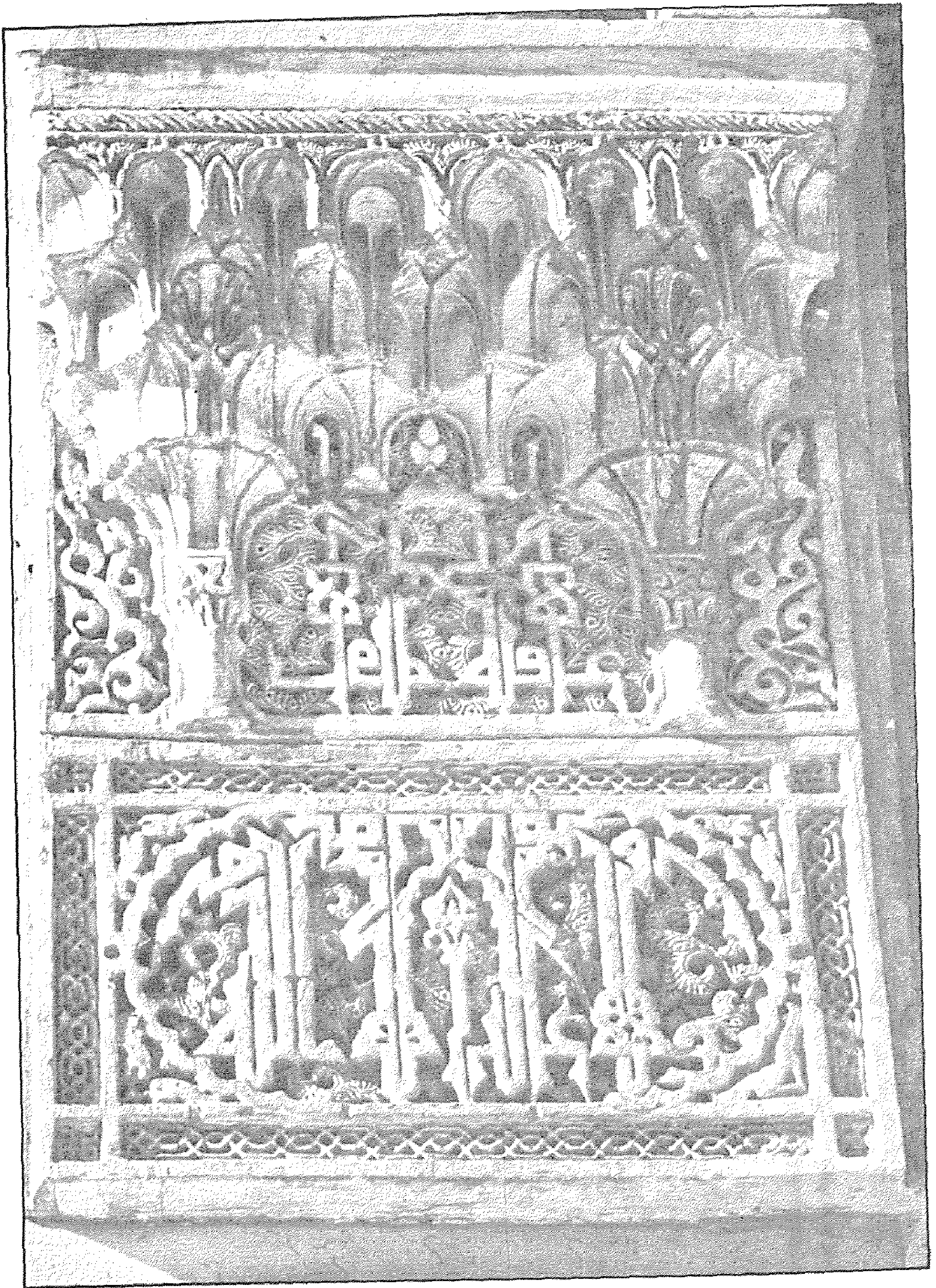
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوية اللبنانية

جذورها راسخة في الشرق الأوسط

وأغصانها ممتدة في أرجاء الدنيا



نيويورك
لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
بروكسل
جنيف
مدريد
زوريخ
تونس
نيس
مونروفيا
ميلانو
ابيدجان
روما
لاغوس
اثينا
كانو
اسطنبول
بيروت
القاهرة
لرنكا
انقرة
عمان
بغداد
جدة
الخرطوم
عدن
الكويت
الظهران
البحرين
الدوحة
دبي
أبو ظبي
رأس الخيمة
مسقط



□ «مقرنسة» في قصر الحمراء

تاريخ العرب والعالم

التاريخ العربي

اد: ١٢٧ ــ ١٣٠ (أيار ــ آب) ١٩٨٩م الموافق (رمضان ــ محرم) ١٤١٠هـ



تاريخ العرب والعالم

الأعداد ١٢٧ ــ ١٣٠ (أيار ــ آب) ــ ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها فاروق البربير

المستشار د. أنيس صايغ المدير المسؤول محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

الانتاج مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٧٥٠ ل.ل.	سوريا : ٣٥ ل.س.
العراق : ١ دينار	تونس : ١,٥ دينار
السعودية : ١٠ ريال	الكويت : ١ دينار
الأردن : ٨٠٠ فلس	الامارات : ١٠ درهم
البحرين : ١ دينار	قطر : ١٠ ريال
مسقط : ١٠٠٠ بيزة	بريطانيا : ١,٥ جنيه
صنعاء : ١٠ ريال	ليبيا : ١ دينار
	مصر : ١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي للأفراد ٣٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- خارج الوطن العربي للأفراد ٥٠ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٥٠ دولار
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 15 No. (127-130). MAY-AUGUST 1989

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



واقــع... وأمل

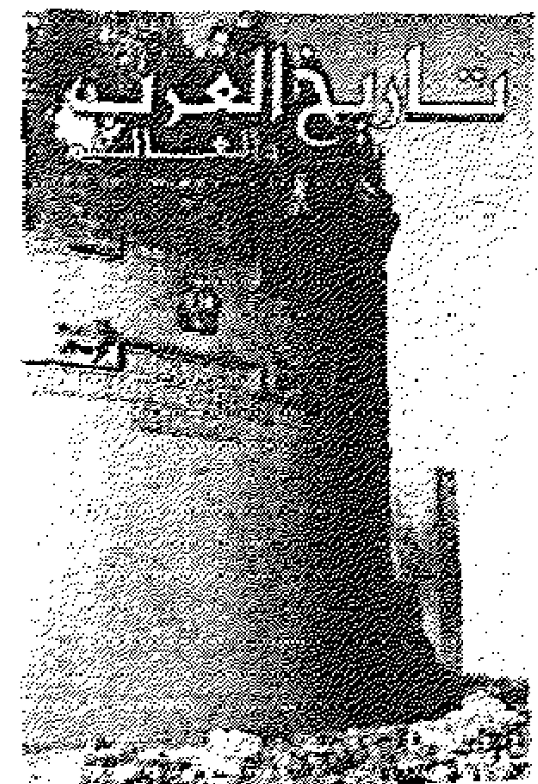
مرة أخرى، نعود اليوم إلى قرائنا ومشتركينا، مـع هذا «العدد الخاص»، جاعلين منه بديلاً عن (أيار ـــ حزيران) و (تمـوز ـــ آب) وسنوالي تغطية مدة الحرب بعدد خاص آخر يغطي عددي الأشهر (أيلول ـــ ت ١) و (ت ٢ ـــ ك ١) المتبقية من هذا العام.

إن الكلمات وحدها لا تستطيـع أن تكتب تـاريـخ الأشهر الثمانية من تاريخ الحرب التدميرية التي شملت الجبل وبيروت بصورة خاصة وأدت إلى إقفال مطار بيروت الدولي وشل العاصمة شللاً شبه كامل. فهناك شـح في المياه والكهربـاء، وهناك نقص فاضـح في البنزين والمحروقات، وهناك مشكلة ورق ومشاكل مطابـع، وهناك بالنسبة للصحافة بصورة خاصة، مشكلة سـوق وتوزيـع أصبحت شبه معدومة.

لقد حاولنا بكل صدق وإخلاص وعلى الرغم من هذا الواقع المرير والقاسي الذي كنا نعيشه في بيروت، تحت القصف المدمر اليومي، أن نستمر بالصدور، لأننا نؤمن أن هذا حق القارىء علينا وواجب مقدس يفرضه علينا الواجب القومي. ولكن الأماني شيء والواقـع شيء آخر.

ونعد الجميـع، وخاصة مشتركينا الكرام أن مجلة «تاريـخ العرب والعالم» ستواصل المسيرة خلال سنتها الثانية عشرة القادمة، إن شاء الله، وهي كلها ثقة وأمل بموآزريها في لبنان وفي كل أرجاء الوطن العربـي، الذي من خلاله تستمد قوتها ودعمها واستمرارها.

فاروق البربير



□ حائط من حجر البازلت الأسود، من بقايا برج عسكري في ديار بكر (العراق) وتظهر عليه النقوش والكتابة الدينية.

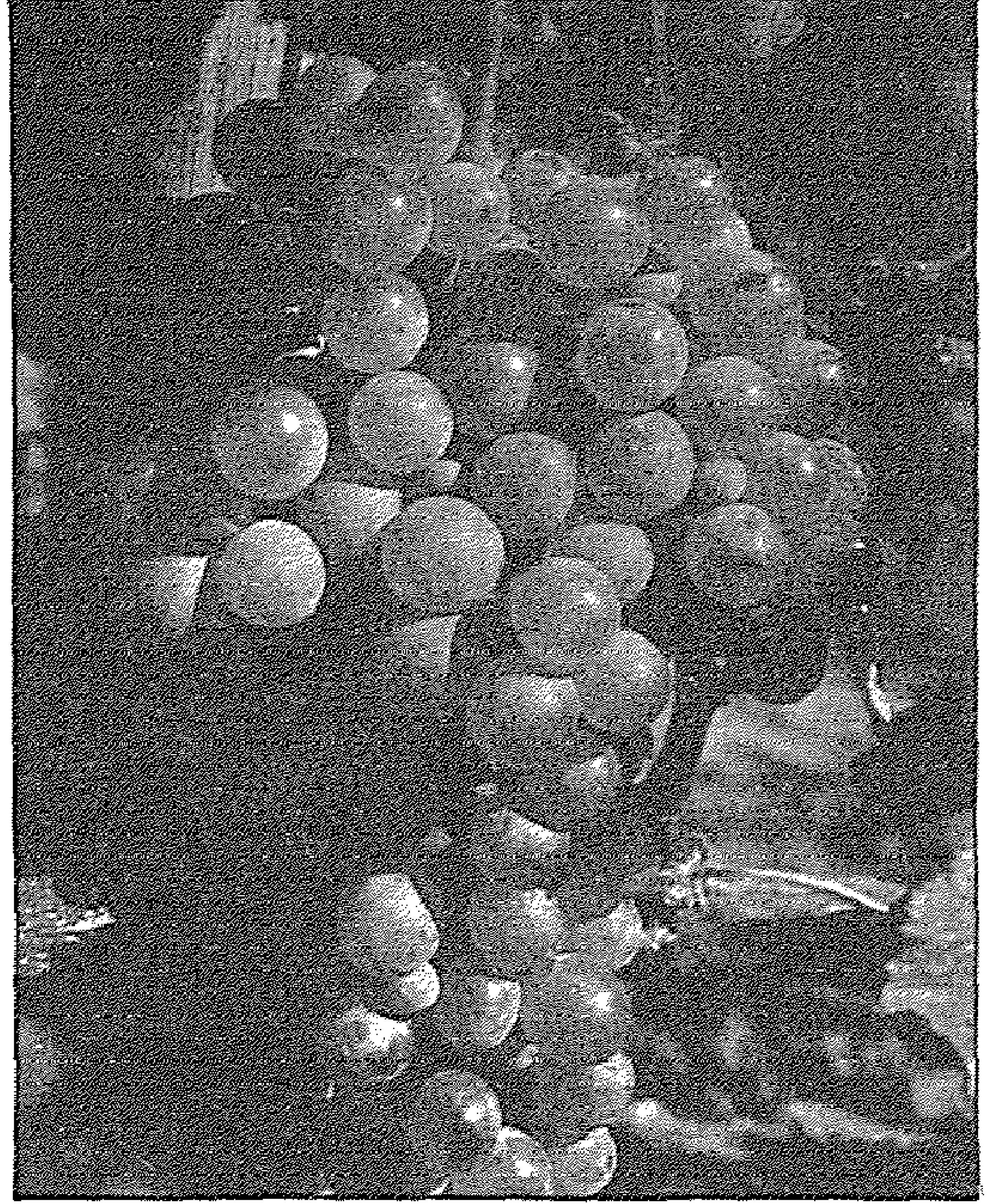
من كتاب:
Architecture of the Islamic World Edited By George Michell

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبـر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.





جزيرة العرب (١)

معادنها - حيوانها - أثمارها - نباتها كما ذكرها الجغرافيون العرب

د. يوسف ق. خوري

اهتم الجغرافيون العرب بجزيرة العرب لكونها مهبط الوحي ومحط آمال حجاج بيت الله الحرام. ولذلك يرى أنهم ذكروا جميع الطرق التي يحتاج إليها الحجاج المسلمين في جميع الأقطار المؤدية إلى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما أنهم تحدثوا عن صفات مناطق الجزيرة ومميزاتها بما في ذلك الثروات الطبيعية. وقد جمعت هذه النبذات من أقوال عشرة من هؤلاء الجغرافيين المتعلقة بثروات الجزيرة الطبيعية وبوبت حسب المواضيع التالية: المعادن، والحيوان، والفواكه، والأثمار، والنبات، والحبوب، وأردفت بالألبان والحلويات ثم رتبت حسب حروف الهجاء ضمن كل موضوع مع ذكر المصادر.

(١) تشمل هذه الدراسة مجمل الجزيرة العربية، لأنها من الناحية الجغرافية تشكل وحدة كاملة.

المعادن

معادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب، معدن الحسن، والحسن قرن أسود مليح وهو معدن ذهب، ومعدن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير، ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب، ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي معدن ذهب، ومعدن العوسجة من أرض غني فويق المغيرا ببطن السرداح... ومعدن شمام الفضة والصفر، ومعدن تياس ذهب مخف بتياس، ومعدنا العقيق معدن المحجة بين العمق وبين أفيعية، ومعدن بيشة ومعدن الهجيرة ومعدن بني سليم فهذه معادن نجد.

(الهمداني ج ١ ص ١٥٣ ــ ١٥٤)

وقد ذكرنا معادن الذهب فأما معدن الفضة بالرضراض فما لا نظير له وبها معادن حديد غير معمولة مثل نقم وغمدان، وبها خصوص البقران ويبلغ المثلث بهامالاً وهو أن وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود والبقران ألوان ومعدنه بجبل انس وهو ينسب إلى انس بن الهان بن مالك، والسعوانية من سعوان واد إلى جنب صنعاء وهو فص أسود فيه عرق أبيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد إلى جنب هنوم وظليمة والجمش من شرف همدان، والعشاري وهو الحجر السماوي من عشار بالقرب من صنعاء، والبلور يوجد في مواضع منها، والمسني الذي يعمل منه نصب السكاكين يوجد في مواضع منها، والعقيق الأحمر والعقيق الأصفر العتيقان من الهان، وبها الجزع الموشى والمسير وهو في مواضع منها منه النقمي وهو فحل العرف والسعواني والضهري منه أجنس والخولاني والجرتي من عذيقة والشزب يعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن وقحفة وغير ذلك وليس سواه إلا بلد الهند والهندي بعرق واحد. (الهمداني ج ١ ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣).

الجزع:

جبل شبام: وهو معدن الحجر المعروف بالعقيق الجزع. (تقويم البلدان ص ٩٧).

صنعاء: ولأهل صنعاء خانات كثيرة ومحال فيها خلق كثير يعملون أواني الجزع وأنواع الخزر. (ابن رستة ص ١١٢).

ظفار: ينسب إليها الجزع الظفاري. (معجم البلدان ج ٤ ص ٦٠).

الجواهر:

جبل وحاظة: لا يزال يوجد فيه الجوهر. (الهمداني ج ١ ص ٧٩).

حجر المسن:

جبل رضوى: ومن رضوى يحمل حجر المسن إلى سائر الأقطار. (ابن حوقل ص ٣٣، وتقويم البلدان ص ٨٩).

جبل رضوى:

ومن رضوى يقطع حجر المسن ويحمل إلى الدنيا كلها. (معجم البلدان ج ٣ ص ٥١).

الحديد:

خربة سلوق: يوجد فيها خبث الحديد. (الهمداني ج ١ ص ٧٩، ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٢).

رغامة: فيها معدن حديد ونحو خمسة عشر كيرا يسبك فيه حديد معدنها. (معجم البلدان، ج ٣ ص ٥٣).

الدر:

تؤام: ينسب إليها الدر. (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٤).

الذهب:

أحسن: بها معدن ذهب. (معجم البلدان ج ١ ص ١١٢).

جبل وحاظة: لا يزال يوجد فيه الذهب. (الهمداني ج ١ ص ٧٩).

سباء من حضر موت: مدينة مدحج وسيدهم ابن الروبة... وله بتلك الناحية معادن الذهب لا يشركه فيها أحد ترتفع له منها أموال كثيرة. (ابن رستة ص ١١٣).

خربة سلوق: يوجد فيها قطاع الذهب. (الهمداني ج ١ ص ٧٩).

العنبر:

جزيرة سقطرى: يسقط إليها العنبر. (الهمداني ج ١ ص ٥٣).

جزيرة سقطرى: ويسقط بها العنبر. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٢٧).

الشحر: إليه ينسب العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحله. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٢٨).

الفضة:

خربة سلوق: يوجد فيها قطاع الفضة. (الهمذاني ج ١ ص ٧٩، ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٢).

العقيق:

جبل شبام: يرتفع من جبل شبام العقيق الجزع. (ابن حوقل ص ٣٧).

جبل شبام: وهو معدن الحجر المعروف بالعقيق الجزع. (تقويم البلدان ص ٩٧).

اليمن: ويرتفع من اليمن العقيق والجزع، وهما حجران إذا حكا خرج منهما الجزع والعقيق. (الاصطخري ص ٢٦).

اليمن: ويحمل العقيق من مخاليف صنعاء وأجوده ما أوتي به من معدن مقرى، وقرية أخرى تسمى الهام، وجبل يقال له قساس فيعمل بعضه باليمن ويحمل بعضه إلى البصرة...

وبها (وباليمن) معدن الجزع وهو أنواع وجميع هذه الأنواع يؤتى بها من معدن العقيق وأجود هذه الأنواع البقراني وأثمنها، ومنه العرواني والفارسي والحبشي والمعسل والمعرق. وقال الأصمعي: أربعة أشياء قد ملأت الدنيا ولا تكون إلّا باليمن: الورس والكندر والخطر والعصب. فأما المعرق من الجزع فإنه يتخذ منه الأواني لكبره وعظمه، ولهم الحلل اليمانية والثياب السعيدية والعدنية، والشب اليماني وهو ماء ينبع من قلة جبل فيسيل على جانبه قبل أن يصل إلى الأرض فيجمد فيصير هذا الشب اليماني الأبيض، ولهم الورس وهو شيء يسقط على الأشجار كالترنجبين ولهم البنك ويقال أنه من خشب أم غيلان. (ابن الفقيه ص ٣٦).

اللؤلؤ:

جزيرة العرب: اللؤلؤ في هذا الأقليم بحدود هجر يغاص عليه في البحر بإزاء اوال وجزيرة خارك ومن ثم خرجت درة اليتيم. يكترى رجال يغوصون فيخرجون صدفا اللؤلؤ وسطها، وأشد شيء عليهم حوت يثب إلى عيونهم وفائدة من تعاطاه بينة، ومن أراد العقيق اشترى قطعة أرض بموضع بصنعاء ثم حفر فربما خرج له شبه صخرة وأقل وربما لم يخرج شيء. بين ينبع والمروة معادن الذهب، العنبر يقع على حافة البحر من عدن إلى مخا ومن وجه زيلع أيضاً كل من وجد منه شيئاً قل أو كثر حمله إلى صاحب السلطان ودفعه إليه وأخذ شقة وديناراً ولا يقع إلا وقت هبوب ريح الأيب، ولم يصح لي ما العنبر، ودم الأخوين قبال الجحفة. (المقدسي ص ١٠١ ــ ١٠٢).

عدن: بها معادن اللؤلؤ. (الأصطخري ص ٢٦).

عمان: لا لؤلؤ فيها. (معجم البلدان ج ١ ص ٥٤).

السلاح الأبيض

الدروع:

خربة سلوق: إليها كانت العرب تنسب الدروع السلوقية. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٢).

الرماح:

الخرصان: قرية بالبحرين سميت لبيع الرماح. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٩).

الخط: سميت الرماح الخطية بالخط، وهو موضع بالبحرين. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٩ وص ٣٧٨).

السهام:

بلاد: أجود السهام التي وصفها العرب في الجاهلية سهام بلاد. (معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٦).

السيوف:

تبعة: كانت تلتقط فيها السيوف العادية. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٤).

المياه: (لعلها مياه معدنية).

احرض: موضع في جبال هذيل، سمي بذلك لأن من شرب من مائه حرض أي فسدت معدته. (معجم البلدان ج ١ ص ١١١).

الحوراء: ماءه ملحة. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٦).

خذارق: وهو ماء بتهامة ملحة، سميت بذلك لانها تسلح شاربها. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٩).

خذيفة: ماء ملحة في وسط حمض، فإذا شرب إنسان منها سلح عنها. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٩).

عدن: ولهم آبار مالحة. (المقدسي ص ٨٥).
المعافر: وبها جبل الملح في بلاد مأرب ولا نظير له وهو ملح ذكر ذو جوهرية وصفاء كالبلور وهو الملح البري. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١).
وادي سهام: وبوادي سهام الماء الحار ينضج البيض والرز لحرارته. (الهمداني ج ١ ص ١٠٥).

المدابغ:

جرش: بها مدابغ كثيرة. (تقويم البلدان ص ٩٥).
صعدة: وبها مدابغ الآدم وجلود البقر التي للنعال. (تقويم البلدان ص ٩٥، ومعجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٦).
الطائف: وهي بلد الدباغ يدبغ بها الاهب الطائفية المعروكة. (الهمداني ج ١ ص ١٢٠، والمقدسي ص ٧٩).

الحيوان

المواشي والوحش والطيور:

الحجاز: وأما مواشيه ففيه الإبل، والضأن، والمعز بكثرة، والبقر بقلة، وبه من الخيل ما يفوق الوصف حسنه، ويعجز البرق إدراكه. وأما وحوشه ففيه الغزلان، وحمر الوحش، والذئاب والضباع، والثعالب، والأرانب وغيرها. وأما طيوره ففيه الحمام، والدجاج، والحدأة، والرخم. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٨).
البحرين: فيها جميع الحيوان إلا السباع. (الهمداني ج ١ ص ١٣٧).
اليمن: أما حيوانه ــ فيه من الحيوان الخيل العربية الفائقة، والبغال الجيدة للركوب والحمل، والحمر، والإبل، والبقر، والغنم، ومن الطير الدجاج، والإوز، والحمام، وفيها من الوحوش الزرافة، والأسد، والغزلان، والقردة وغير ذلك. (صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦).

الإبل:

وباليمن من كرام الإبل الأرحبية لا رحب بن الدعام من همدان، والمهرية ثم من المهرية العيدية تنسب إلى العيد قبيلة من مهرة، والصدفية، والجرمية، والداعرية تنسب إلى داعر من بلحوث، والمجيدية ومنها الإبل المهرية المعنبرة. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١).
أرحب: وإليه تنسب الإبل الأرحبية. (معجم البلدان ج ١ ص ١٤٤).
بلاد مهرة: أموال بلاد مهرة الإبل. (الأصطخري ص ٢٧، وابن حوقل ص ٣٨، وتقويم البلدان ص ١٠١).
شبام: فيها مواشي لا تحصى كثرة من الإبل والدواب وغيرها. (ابن رستة ص ١١٣).

الأسود:

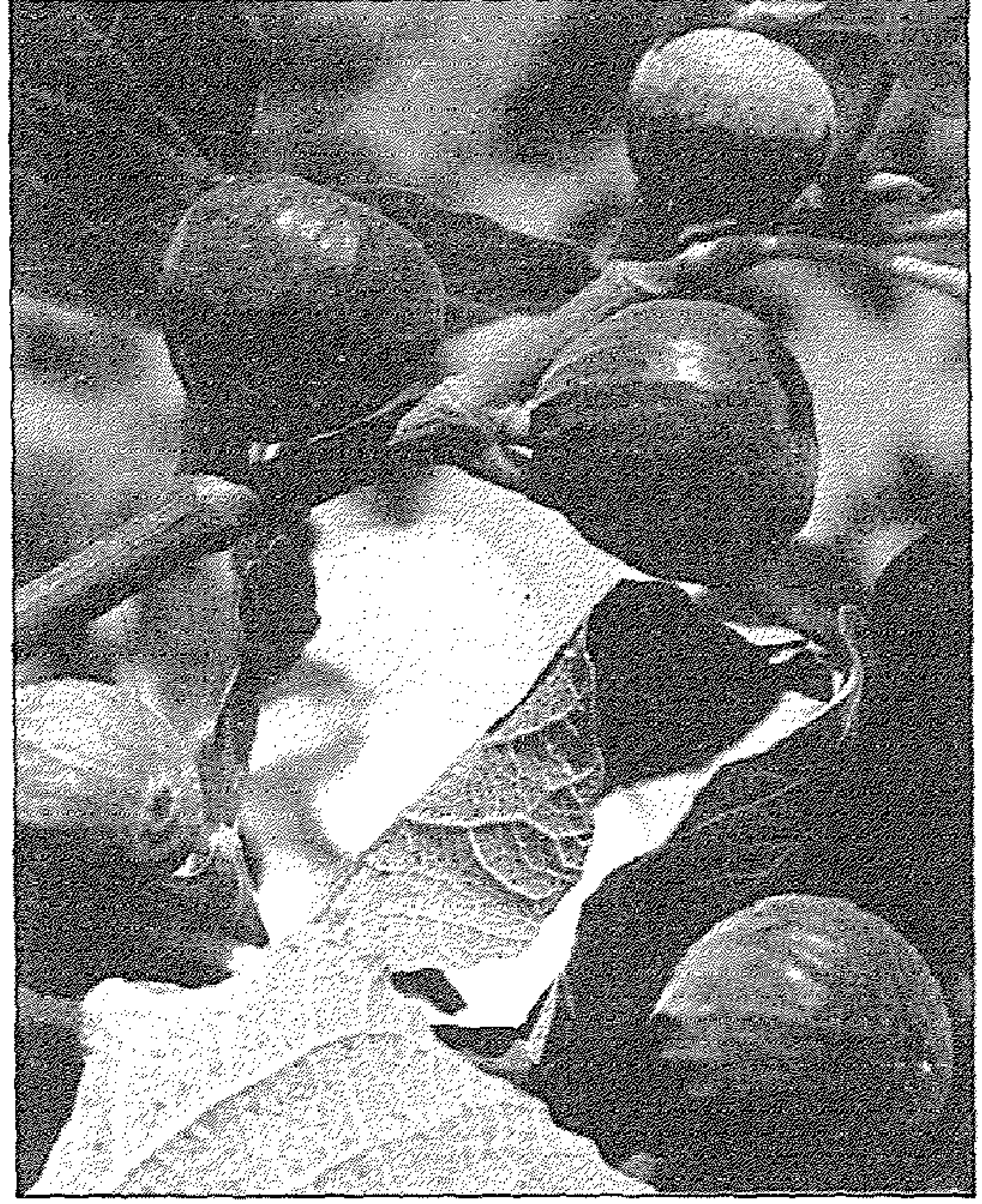
جبل شرج: كثير الأسد. (معجم البلدان ج ٢ ص ٢١).
حاذة: من مدن الحجاز ــ موضع كثير الأسود. (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٤).

البقر:

جبلان: من جبلان تجلب البقر الجبلانية العراب. (الهمداني ج ١ ص ١٠٣).
جبلان: ومنها تجلب البقر الجبلانية العراب الحرش الجلود إلى صنعاء، وهي بلاد كثيرة البقر (معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٢).
عمان: فيها البقر: (المقدسي ص ٩٣).
مخلاف حراز: بلد كثيرة البقر العراب مثل الجبلانية. (الهمداني ج ١ ص ١٠٥).
اليمن: ومن البقر الجندية والخديرية في الجسم والقوة وطيب اللحم وتبلغ في الجسم مبلغاً عظيماً والجبلانية السود الحرش التي تدبغ جلودها للنعال يبلغ الجلد منها عشرة مثاقيل وأكثر إلى عشرين، ومنها الشرع المدرهمة العرسية السمسمية ويبلغ الأشرع المدنر الأحرش دنانير. ولهذه البقر صيالة وحد في قرونها وباءس وتقتل السباع وهي العراب من البقر والأخرى الدرب والدربة السنام. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١).

لحوم البقر باليمن:

فأما الجندي منها فربما بلغ الثور منها ثلاثين ديناراً مطوقاً فإنه أطيب من لحم الحمل الشهري في سائر البلاد لرقته ولطفه ودسمه ولا يكون له رائحة. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).
صنعاء: ويفضل أهل صنعاء لحم البقر على لحم الضأن السمين يشترى جميع ذلك بسعر واحد.. وللحوم ضاءنهم وبقرهم خاصية وذلك أنها لا تنضج إلا على الجمر، والوقود يسخنها ولا ينضجها. (ابن رستة ص ١١٢).



□ تين.



□ ليمون.

اليمامة: وأما لحم اليمامة فإنه يطيب لطيب مراعيهم. (ابن الفقيه ص ٣٠).

الحمير:

اليمن: ومن الحمير للسروج الحضرمية ثم المعافرية، وذوات الأشر والخفة والسرع والشهومة والخشونة الخشبية منها. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١).

الخيل:

بقران: اشتهرت بخيولها. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

اليمن: ومن الخيل العنسية والجوفية والحجيجية وهي خيل لها أنفس وخرجات وانحرافات وليست مثل المصرية والجزرية متناً ولها صبر وصباحة على أنها ليسب بجسام وهي أشهم وأجمع قلوباً ويطأن القتيل ويحملن السلاح الثقيلة ويجلن بها ويجرين فلا ينقص الثقل من جريهن شيئاً، والشوافية وبها جلود النمر النفيسة المحلولكة السواد اليقق البياض ويبلغ الجلد دنانير ويتخذ منها مع السروج الفرش النفيس وكذلك بها فرش العباء الملون النفيس ويكون جلالاً للخيل وهي من أحسن شيء وهي ملبن مثل تلبين الوشي لبنة بيضاء وإلى جنبها لبنة سوداء جرداء غير مخملة. (الهمداني ج ١ ص ٢٠١ ــ ٢٠٢).

السمك:

الشحر: معدن السمك العظيم. (المقدسي ص ٨٧).

شوران: جبل فيه مياه سماء كثيرة وفي كلها سمك أسود مقدار الذراع وما دون ذلك، أطيب سمك يكون. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧١).

الغنم:

جلفار: بلد كثير الغنم والجبن والسمن يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٤).

القرود:

جبل الشراة: تأوي إليه القرود. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣١).

اليمن: وباليمن قرود كثيرة. (الأصطخري ص ٢٧، وابن حوقل ص ٣٩).

الكلاب:

سلوق: خربة تنسب إليها الكلاب السلوقية. (الهمداني ج ١ ص ٧٩، ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٣).

النمور:

جبل شواحط: كثير النمور. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٦٩).

الفواكه والثمار

الفواكه:

الحجاز: وأما فواكهه ففيه الرطب، والعنب، والموز، والتفاح، والسفرجل، والليمون، وغير ذلك. وأما رياحينه ففيه التامر حناء ويسمى عندهم الفاغية. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٨).

صنعاء: بلد كثير الفواكه. (المقدسي ص ٨٦).

اليمن: جميع الثمار بها من العنب الملاحي والدوالي والأشهب والدريج والنواسي والزبادي والأطراف والعيون والقوارير والجرشي والنشاني والتابكي والرازقي والضروع ويؤتى إليها من خيوان بالرومي ومن الجوف بالوادي، وبها الرمان الحلو والحامض والمزوج والمليسي، والسفرجل وليس يلحق به سفرجل البلاد لأن فيه شيئاً من الحموضة والقبض، والإجاص، والمشمش، والتفاح الحلو والتفاح الحامض والمزوج، والخوخ الحميري والخوخ الفارسي والخوخ الهندي، والجوز الفرك، واللوز الفرك والحلو منه والمر، والكمثري وقد وفد إلى صنعاء قدمة، وبها الورد والباقلاء الأخضر ولا يتركونه يبلغ، وجميع أصناف البقول وجميع الحبوب. (الهمداني ج ١ ص ١٩٦ ــ ١٩٧).

وأما فواكه (اليمن)، فيه العنب، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والخوخ، والتوت، والموز، والليمون، والأترج، في أنواع أخرى من الفاكهة قليلة المقدار، وبه البطيخ الأخضر والأصفر.. قال ابن البرهان: وغالب ما يوجد بمصر من الفواكه يوجد باليمن، إلا أنه بالغ في وصف السفرجل به. (صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦ ــ ١٧).

الإجاص:

سراة الحجر: بها الإجاص. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وعند أهل صنعاء من أنواع الإجاص ما ليس بخراسان. (ابن رستة ص ١١١).

البرقوق:

صنعاء: عند أهل صنعاء البرقوق وهو المشمش. (ابن رستة ص ١١١).

البطيخ:

صنعاء: وعند أهل صنعاء بطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر والقثاء. (ابن رستة ص ١١١).

عرفة: قرية فيها مباطخ. (المقدسي ص ٧٧).

التفاح:

سراة الحجر: بها التفاح. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: عندهم أنواع التفاح. (ابن رستة ص ١١١).

نحيان: واد فيه التفاح. (الهمداني ج ١ ص ١٢٢).

التمور:

قالوا: أجود تمر عمان الفرض والبلعق والخبوت، وأجود تمر اليمامة البردى والزرقاء والجدامية، وأجود تمر البحرين التعضوض والمكري والآزاد، وأجود تمر الكوفة النرسيان والسابري، وأجود تمر البصرة الآزاد والقريثاء. (ابن الفقيه ص ٣٠).

البحرين: يوجد بها التمور. (الأصطخري ص ٢٣، وابن حوقل ص ٣١).

بدر: جيدة التمور. (المقدسي ص ٨٢).

خليص: بها تمور. (المقدسي ص ٧٩).

خيبر: فيها التمر الصيحاني من أجود التمور. (معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٧).

دخلة: قرية توصف بكثرة التمور. (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤٥).

السرين: معدن التمور الردية. (المقدسي ص ٨٦).

صفور: فيها أجود تمر في الدنيا. (معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٤).

العشيرة: تفضل تمورها على سائر تمور الحجاز إلا الصيحاني بخيبر والبردى والعجوة بالمدينة. (معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٧).

الفرضة: يكثر بها التعضوض نوع من التمر. (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥١).

قرح: ذو تمور رخيصة.. وتمرهم وسط. (المقدسي ص ٨٣ ــ ٨٤).

المدينة: فيها التمر البردي والعجوة. (معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٧).

المروة: جيدة التمور. (المقدسي ص ٨٣).

اليمامة: أكثر تمراً ونخلاً من المدينة وسائر



□فصل الربيـع في العلا، إحدى مناطق السعودية.

الحجاز. (الأصطخري ص ٢٣، وابن حوقل ص ٣١).

اليمامة: لا أشد حلاوة من تمرها.. وبها أصناف التمور. (ابن الفقيه ص ٢٨ ــ ٣٠).

اليمامة: جيدة التمور. (المقدسي ص ٩٤).

الجوز:

صنعاء: وعند أهل صنعاء جوز (ابن رستة ص ١١١).

الحناء:

وادي نخلة: فيه الحناء. (الهمداني ج ١ ص ٧٥).

الخوخ:

سراة الحجر: بها الخوخ. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وعند أهل صنعاء الفرسك وهو الخوخ. (ابن رستة ص ١١).

مكة: وخوخ مكة أسرى منه الدارقي. (المقدسي ص ٧).

الخيار:

وادي الجنات: أسفله جامع للخيار. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

دم الأخوين:

جزيرة سقطرى: بها دم الأخوين. (الهمداني ج ١ ص ٥٣).

جزيرة سقطرى: دم الأخوين وهو صمغ شجر لا يوجد إلا في جزيرة سقطرى. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٢٧).

الرمان:

صنعاء: عند أهل صنعاء رمان. (ابن رستة ص ١١١).

الطائف: موضع الرمان الكثير. (المقدسي ص ٧٩).

عمان: فيها الرمان. (الأصطخري ص ٢٧).

مطرة: أودية عظام فيها الرمان. (الهمداني ج ١ ص ١٠٩).

سفرجل:

صنعاء: عندهم سفرجل. (ابن رستة ص ١١١).

العنب:

أثافت: ذات كروم كثيرة. (معجم البلدان ج ١ ص ٨٩).

أوال: بها كروم كثيرة. (تقويم البلدان ص ٣٧١).

جبل شبام: ذروته فيها كروم. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٨).

جبال السراة: وفي جبال السراة الأعناب. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٥).

صنعاء: وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لوناً عنب. (ابن رستة ص ١١١).

شروم: فيها كروم. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣٩).

الطائف: موضع العنب الجيد. (المقدسي ص ٧٩).

الطائف: فيها العنب العذب لا يوجد مثله في بلد من البلدان. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

عدو: واد كثير الأعناب. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

علاف: خير أودية خولان وأكرمها كرماً وأعناباً. (الهمداني ج ١ ص ١١٤).

مطرة: أودية عظام فيها العنوب. (الهمداني ج ١ ص ١٠٩).

وادي الجنات: فيه العنب. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

القثاء:

وادي الجنات: أسفله جامع للقثاء. (الهمداني ١ ص ٧٦).

القرع:

صنعاء: وعندهم قرع كبار كل قرعة مثل جرة كبيرة يباع بالأمنان مقطعاً وكل ما كان أكبر كان أرطب. (ابن رستة ص ١١٣).

الكمثري:

سراة الحجر: وبسراة الحجر الكمثري. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وعندهم الكمثري أنواع كثيرة. (ابن رستة ص ١١١).

اللبان:

بلاد مهرة: اللبان الذي يحمل إلى الآفاق من بلاد مهرة. (الأصطخري ص ٢٧، وابن حوقل ص ٣٨، وتقويم البلدان ص ١٠١).

جبل أسيوت: وفيه يكون شجر اللبان، ومنه يحمل إلى جميع الدنيا ولا يكون في غيره قط. (معجم البلدان ج ١ ص ١٩٣).

ظفار: إن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار... وأنه شجر ينبت في تلك المواضع... ويجتنيه أهل تلك البادية وذلك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار. (معجم البلدان ج ٤ ص ٦٠).

اللوز:

سراة الحجر: وبسراة الحجر اللوز. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: عندهم لوز. (ابن رستة ص ١١١).

نحيان: واد فيه اللوز. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

الليمون:

جزيرة أوال: فيها ليمون وبساتين. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٤).

الموز:

الجريب: بلد الموز. (المقدسي ص ٨٦).

صنعاء: والموز عندهم كثير في كل موضع، يدرك الموز عندهم في كل أربعين يوماً يقطع ثمرته، ولا ينقطع القطاف عنهم أبداً (ابن رسته ص ١١١).

الطائف: ذات موز. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

عمان: فيها الموز. (الأصطخري ص ٢٧).

وادي الجنات: أسفله جامع للموز. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

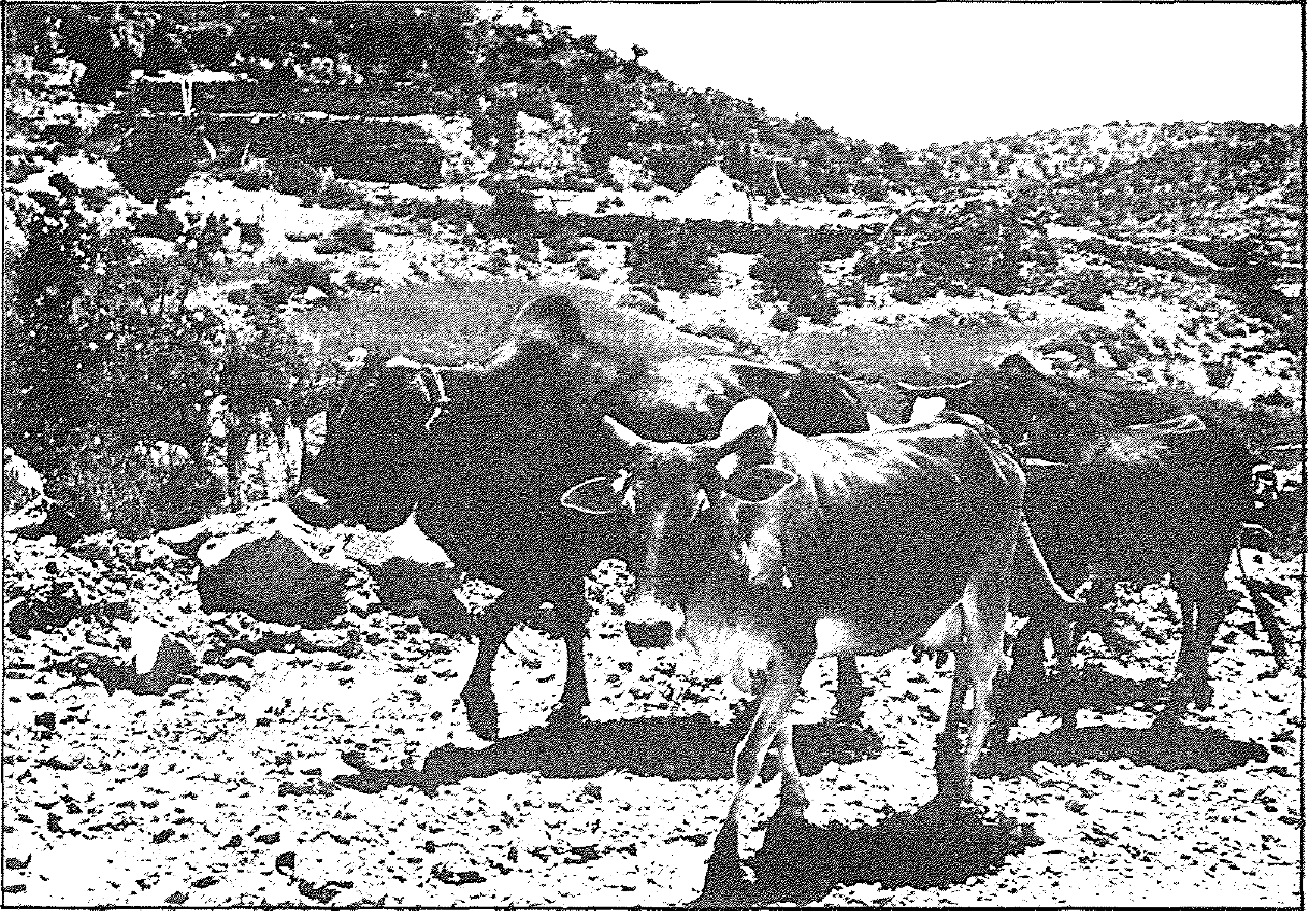
وادي نخلة: فيه الموز. (الهمداني ج ١ ص ٧٥).

النخيل:

أباض: لها نخل لم ير نخل أطول منها. (معجم البلدان ج ١ ص ٦٠).

ابان الأبيض: فيه نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٦٢).

أبرين: كثير النخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٧١).



□ أبقار من فصيلة محلية في عسير.

أبضة: عليه نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٧٤).

أثيل: واد كثير النخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٩٤).

أحليي: فيه نخل لبني أسد. (معجم البلدان ج ١ ص ١١٧).

أحوس: فيه نخل كثير. (معجم البلدان ج ١ ص ١١٨).

أطواء: ذات نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢١٩).

الأعـراض: حيث الزرع والنخـل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٠).

الاعيرف: فيه نخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٣).

أكبرة: به نخل وآبار مطوية. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٩).

أكمة: كثيرة النخل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢٤١).

بطن مر: فيها نخل كثير. (تقويم البلدان ص ٩٥).

بلاد بني تميم: فيها النخيل. (الهمداني ج ١ ص ١٤٠).

تبوك: فيها نخيل. (الأصطخـري ص ٢٤، وتقويم البلدان ص ٨٧).

تيماء: فيها النخيل. (الأصطخري ص ٢٥، وابن حوقل ص ٣٤، وتقويم البلدان ص ٨٧).

جبل شبام: ذروته فيها نخيل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٨).

الجحفة: فيها نخيل. (ابن حوقل ص ٣٣).

جرش: فيها نخيل. (الأصطخري، ص ٢٦، والمقدسي ص ٨٧).

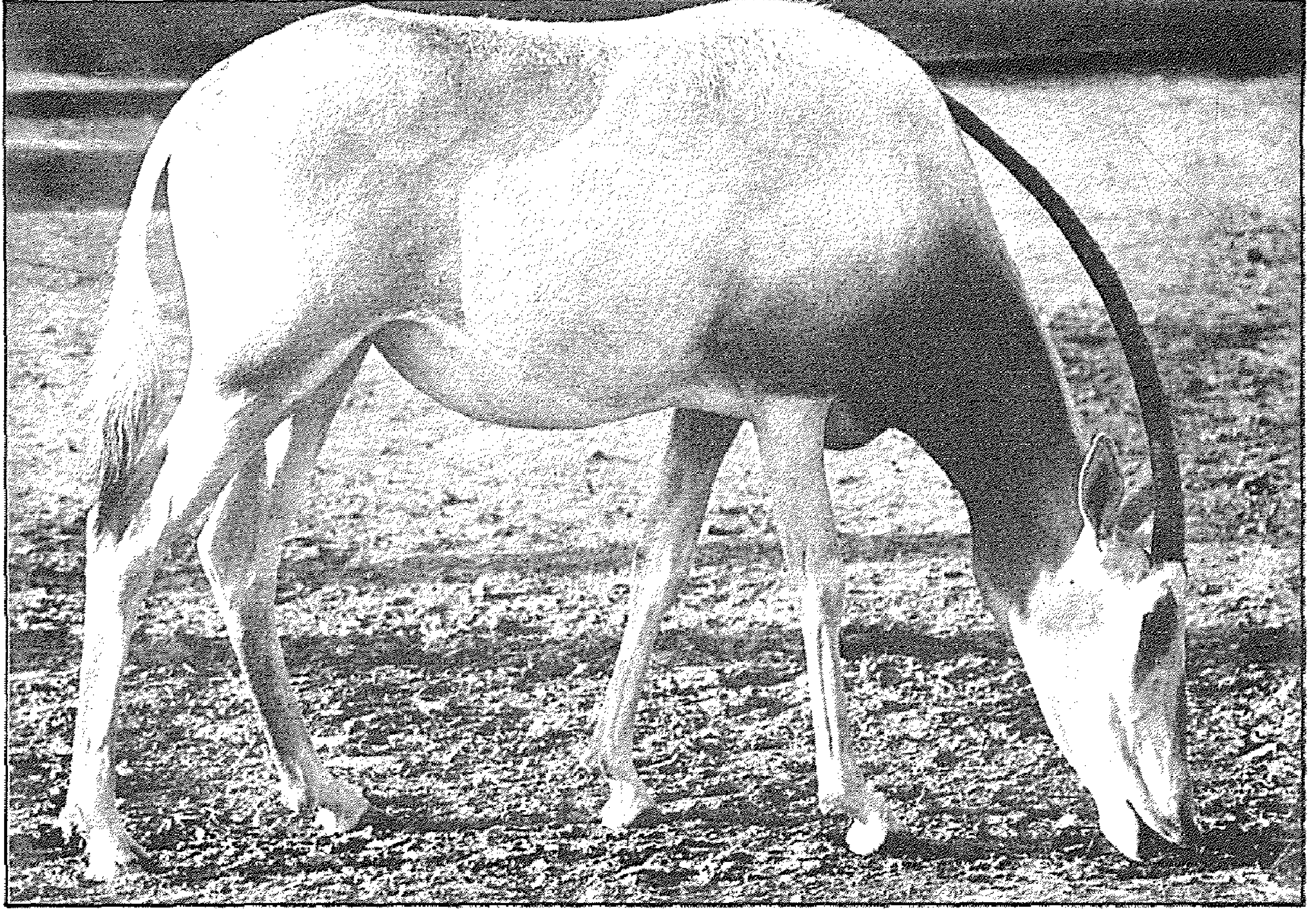
جزيرة أوال: فيها نخيل كثير. (تقويم البلدان ص ٣٧١، ومعجم البلدان ج ١ ص ٢٧٤).

جزيرة سقطرى: وبها نخيل كثير. (الهمداني ج ١ ص ٥٣).

الخرج: أرضه أرض زرع ونخل قليل. (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٧).

خورفكان: وبه نخل وعيون عذبـة. (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٠).

خيبر: ذات نخيل كثير. (الأصطخـري ص



□المها البيضاء النادرة تسرح في موطنها الربع الخالي.

٢٥).

زبيد: ولها نخيل كثير. (تقويم البلدان ص ٨٩).

الزيدي: فيها نخل وروض. (معجم البلدان ج ٣ ص ١٦٣).

السر: بها النخيل. (المقدسي ص ٩٣).

سروعة: فيها نخيل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٧).

الصحاري: موضع كثير النخيل. (الهمداني ج ١ ص ٧٥).

الصفراء: واد كثير النخل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٢).

صفينة: ذات نخل. (معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٥).

الطائف: ذات مزارع ونخل. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

عمان: وهي كثيرة النخيل. (الأصطخري ص ٢٧، والمقدسي ص ٩٣).

غلافقة: بها نخيل. (المقدسي ص ٨٦).

فيد: فيها نخيل. (الأصطخري ص ٣٤).

قرح: النخيل والبساتين متصلة من قرح إلى سقيا يزيد. (المقدسي ص ٨٤).

القطيف: لها نخيل دون نخيل الاحساء. (تقويم البلدان ص ٩٩).

المدينة: لها نخيل كثيرة. (الاصطخري ص ٢٣، والمقدسي ص ٨٠، وتقويم البلدان ص ٨٧).

مرخة: واد كثير النخيل. (الهمداني ص ٩٥).

مر الظهران: بها نخيل. (معجم البلدان ج ٤ ص ٦٣).

المروة: كثيرة النخيل. (المقدسي ص ٨٣).

نجران: بها نخيل. (الاصطخري ص ٢٦، تقويم البلدان ص ٩٣).

وادى القرى: وهي ذات نخيل. (ابن حوقل ص ٣١).

اليمامة: أكثر تمراً ونخلاً من المدينة وسائر الحجاز. (الاصطخري ص ٢٣، وابن حوقل ص ٣١).

اليمامة: وأخبرني من رآها في زمننا هذا أن بها أناساً وقليل نخل. (تقويم البلدان ص ٩٧).



□مصنوعات يدوية قديمة في الطرف الجنوبي من الربع الخالي.

اليمن: ليس ببلد نخيل. (المقدسي ص ٨٧).

ينبع: بها نخيل. (الاصطخري ص ٢٥، وابن حوقل ص ٣٣، والمقدسي ص ٨٣).

يبرين: هي أرض سبخة تشتمل على عينين ونخيل كثير إلى الغاية... وأكثر وغالب النخيل على القرب من العينين. (تقويم البلدان ص ٨٤ ــ ٨٥).

النبات والحبوب

الحبوب:

الحجاز: أما زروعة ففيه من الحبوب المزدرعة البر والشعير والذرة والسلت، وجميعها تزرع على المطر، وربما زرع بعضها على ماء العيون، والشعير، والذرة، أكثر الحبوب وجوداً، ويزرع فيه على العيون البطيخ الأخضر والأصفر، والقثاء، والباذنجان، والدباء، والملوخيا، والهندبا، والفجل والكراث والبصل والثوم. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨).

اليمن: وباليمن من غرائب الحبوب ثم من البر العربي الذي ليس بحنطة فإذا ملأ عجينه ثم أردت قطع شيء منه تبع القطعة تابعة منه تطول كتابعة القبيط، والميساني والنسول والهلباء لا يكون إلا بنجران، ومنه الأدرع الأملس والأحمر الأحرش، واللوبياء والعتر والأقطن، والطهف، وألوان الذرة البيضاء والصفراء والحمراء والغبراء، والسمسم الذي لا يلحق به لاحق خاصة الماءربي والجوفي كثير الضياء صاف طيب، وقد يزرع بها الحمص والباقلي والكمون وغير ذلك. (الهمداني ج ١ ص ١٩٩).

ــ وأما حبوب اليمن فبه من الحبوب الحنطة

والشعير والأرز والسمسم وغالب قوتهم الذرة وأقله الحنطة والشعير. (صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦).

السرين: معدن الحبوب. (المقدسي ص ٨٦).

صنعاء: عند أهل صنعاء ألوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس والسوسن ألوان. (ابن رستة ص ١١١).

طريقة الزراعة:

اليمن: ومن عجائب اليمن أن أكثر زروعها أعقار فلذلك متن عجينها ولان خبزها وهو أن تشرب الجربة في آخر تموز وأول آب ثم تحرث بأيلول إذا جمّت أي شربت ماءها وجف وجهها ثم تحرث في تشرين كرّة أخرى ثم في تشرين الآخر كرّة ثالثة ثم بذرت في كانون الأول فأقام فيها الزرع إلى أيار وصرب ولم يصبه ماء فأما القرارة بالهجيرة فإنه يصرم بها متعجلاً بنيسان وآخر آذار فتكون الجربة بها كثير من جمها فتحرث وتبذر فيها ثانية فتأتي بطعام معجل لحرارة الزمان يصرم بحزيران. (الهمداني ج ١ ص ١٩٩).

الأترج:

أوال: بها أترج. (تقويم البلدان ص ٣٧١).

صنعاء: والأترج عندهم كثير كبار حلو الطعم. (ابن رستة ص ١١١).

وادي الجنات: أسفله جامع للأترج. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

الأترج بنجران ليس حماض فيه كبار أحلى من العسل تبلغ الواحدة ربع دينار وخمس وسدس وليس له نظير في بلد. ومن ذلك سكر العشر... وهو ضرب من المن وهيئته مثل قطع اللبان والمصطكى. وقد يحل ويعمل منه سكر كبار مطبع في القوالب وقد أهديت منه إلى أخ لي بالعراق فأعجب منه من رآه. ومنها المحط ويسمى القصاص وهو خالق للبواسير ولا تصيب هذه العلة أحداً بخيوان لاستعمالهم إياه في القدور، ويعقد بالعسل ويهدى. وأهدى منه بعض سلاطين تهامة إلى العراق وجرت كتب إليه أن احتفظ بحظائر هذه الشجرة فأعلمهم أنه نبات جبال قبائل وادعة وأرحب. (الهمداني ج ١ ص ٢٠٠).

الأرز:

صنعاء: يدرك عندهم الأرز ثلاث دفعات. (ابن رستة ص ١٠٩).

البُر:

سراة الحجر: بها البر. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: وطعام أهل صنعاء البُر النقي والعلس وهو شبيه بالحنطة إلا أنه أدق من الحنطة في سنابل لا تشبه سنابل الحنطة عليها قشرتان أحديهما قشرة المسنبلة والأخرى قشرة مقاربة لقشر الأرز فيقشر من قشرته ويطحن ويخبز فيوجد طعمه أطيب من طعم خبز الحنطة. (ابن رستة ص ١١١).

— تدرك عندهم الحنطة دفعتين. (ابن رستة ص ١٠٩).

اليمامة: لا أطيب طعاماً من حنطتها. (ابن الفقيه ص ٢٨).

اليمن: ولأهل صنعاء الرقاق الذي هو في بلد رقة وسعة وبياضاً لمؤاتاة متانة البُر، وأبرار اليمن العربي التليد والنسول بر العلس وهو ألطفها خبزاً وأخفها خفة، والرغيف بصنعاء لا ينكسر ولكنه ينعطف ويندرج طومارا وكسره السفار قطعاً، والخبز بها ضروب كثيرة. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).

البشام:

جبلا تافل: نباتهما البشام. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

البصل:

عدو: واد كثير الأبصال. (الهمداني ج ١ ص ٩٦).

التنبل:

ظفار: يوجد فيها نبات التنبل. (تقومي البلدان ص ٩٣).

والتنبول في بلادهم (الهند) ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج، يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل، وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن في هذا الوقت مضغه بدلاً من الطين (بدلاً من الطيب)، ويكون عند الصنادلة (الصيادلة للورم وغير ذلك، وهذا إذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة، وقوى عمود الأسنان، وطيب النكهة، وأزال الرطوبة المؤذية، وشهى الطعام، وبعث على الباه، وحمر الأسنان حتى تكون

كاحمر ما يكون حب الرمان، وأحدث في النفس طرباً وأريحية، وقوى البدن، وأثار من النكهة روائح طيبة خمرة. (مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٣).

الدادي:

جبل أسيوط: ينبت الدادى الذي يصلح به النبيذ. (معجم البلدان ج ١ ص ١٩٣).

الذرة:

الشرجة والحردة: بهن خزائن الذرة. (المقدسي ص ٨٦).

وادي الجنات: أسفله جامع للذرة. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

وادي ذابة: لا شيء فيه سوى الذرة. (الهمداني ج ١ ص ٧٧).

طريقة حفظ الذرة:

اليمن: ومخلاف ذي جرة وخولان يسمى خزانة اليمن وذمار ورعين والسحول مصر اليمن لأن الذرة والبُر والشعير تبقى في هذه المواضع المدة الكثيرة. ورأيت بجبلمسور برا أتى عليه ثلاثون سنة لم يخنز ولم يتغير، فأما الذرة فإنها لا تكون إلا في بلد حار ولا تختزن في البيوت لحال ما يسرع إليها من الفساد ولكن يحفر لها في الأرض وتدفن في مدافن يسع المدفن منها خمسة آلاف قفيز إلى ما هو أقل ويسد عليها حتى ربما نبت على السداد الشجر العرى وتقيم العمر ولا تنفخش ولكن تغير رائحتها وطعمها. فإذا كشف منها المدفن ترك أياماً حتى يبرد ويسكن بخاره ولو دخله داخل عند كشفه لتلف بحرارته. (الهمداني ج ١ ص ١٠٨).

الشعير:

سراة الحجر: بها الشعير. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

صنعاء: ويدرك عندهم الشعير ثلاث دفعات. (ابن رستة ص ١٠٩).

الشوحط:

جبل الشراة، ينبت الشوحط. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣١).

الطلح:

رحبة صنعاء: أودية تنبت الطلح وفيها بساتين. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤).

الظيان:

جبلا ثافل: نباتهما الظيان. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

العرعر:

جبلا ثافل: نباتهما العرعر. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

القرظ:

جبلا ثافل: نباتهما القرظ. (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١).

جبل السراة: وفي جبل السراة القرظ. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٥).

جبل الشراة: ينبت القرظ في جبل الشراة. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٣١).

سلم الريان: باليمامة... والسلم في الأصل: شجر ورقه القرظ الذي يدبغ به، وبه سمي هذا الموضع. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٠).

قصب السكر:

جبل السراة: وفي جبل السراة قصب السكر. (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠٥).

وادي الجنات: أسفله جامع لقصب السكر. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

الكزبرة:

وادي الجنات: أسفله جامع للكزبرة. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

اللوبياء:

سراة الحجر: فيها اللوبياء. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

النارجيل:

ظفار: يوجد في أراضيها كثير من نبات الهند مثل النارجيل. (تقويم البلدان ص ٩٣).

غلافقة: بها نارجيل. (المقدسي ص ٨٦).

نبات العقاقير:

اليمن: فأما الحشائش ففيها أكثر حشائش العقار ولكن أهلها البدوية لا يعرفونها وإنما يعرفها الحكيم من الناس من أهل صناعة الطب. (الهمداني ج ١ ص ١٣٣).

النبع:

جبل الشراة: ينبت النبع في جبل الشراة. (معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣١).

النيل:

حور بروص: منها يجلب النيل الفائق. (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٠).

الورس:

جبل المذيخرة: نباتها الورس. (الاصطخري ص ٢٦).

جبل المذيخرة: فيه ينبت الورس وهو نبات أحمر في معنى الزعفران يباع منوان بدينار فيصبغ به. (ابن حوقل ص ٣٧).

مخلاف حراز: بلد كثير الورس. (الهمداني ج ١ ص ١٠٥).

وادي الجنات: فيه الورس. (الهمداني ج ١ ص ٧٦).

الألبان والحلويات

اللبن والزبد:

اليمن: ولمضائر اليمن فضل لحال اللبن، واللبن الرائب بصنعاء وبلد همدان ومشرق خولان وحزيز وجهران أثخن من الزبد في غير اليمن مع الغذاء واللذة والطيب وزبدها بمنزلة الجبن الرطب في غيرها وأشد ويحمل القطعة فلا يعلق بيدك منها كثير شيء. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).

السمن والحلويات

اليمن: قال والد مؤلف كتاب صفة جزيرة العرب لوالده: سألني رجل ببغداد بما تأدمون في أسفاركم؟ قلت بالسمن، قال: أبالسمن، قلت، وما للسمن؟ قال: هو ضرب من السم، قال: أما والله لو ذقت البرطي منه والمغربي والكليبي والجنبي لعلمت أن دهن اللوز معه وضر ولذلك لا يعمل أهل اليمن حلاواهم إلّا به لأنه أطيب وأجود من الشيرق والمقشر ومن دهن اللوز والجوز ولطيبه يشربه الناس شرباً ويكون له رائحة شهية تدعو النفس معها إلى شربه والاستكثار من التأدم به وله لطف فلا يكاد يجمد لرقته ولطفه وخفته والسمن مما يبين به اليمن. (الهمداني ج ١ ص ١٩٧ ـــ ١٩٨).

الشهد وطريقة عمله:

اليمن: وباليمن الشهد الحضوري الماذي الجامد الذي يقطع بالسكاكين.

ويهدى إلى العراق ومكة وسائر البلدان في القصب. وصفة عمله أن يحر في الشمس ويصير في عقود قصب اليراع وأقيمت تلك القضية أياماً في بيت بارد حتى يعود إلى جموده ثم ختمت أفواه القصب بالقصة وحمل فإذا أراد تقويمه على الموائد ضرب بالقصبة الأرض فانفلقت عن قصبة عسل قائمة فقطعت بالسكين على طيفورية أو رغيف. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨ ـــ ١٩٩).

ألوان الطعام:

اليمن: ولأهل اليمن ألوان الطعام والحلاوى والشربة التي تؤثر على غايات ألوان كتب المطابخ، ولهم مثل ألوان السمائد وألوان البقط والكشك السري وألوان الحلبة ومعقدات الأترج والقرع والجزر وقديد الخوخ والرانج واللّيّ وغير ذلك مما إذا سمع به الجاهل لزدراه وإذا شرع فيه قضم على طيبه بعض أنامله. (الهمداني ج ١ ص ١٩٨).

الجبن:

جلفار: بلد كثير الجبن. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٤).

السمن:

جلفار: بلد كثير السمن. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٤).

اللبن:

الشرجة: بلد اللبن. (المقدسي ص ٨٦).

حربث: فلاة بين اليمن وعمان. وهم اسم نبت، يقال: أطيب اللبن ما رعى الحريث والسعدان. (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٦).

الزبيب:

الطائف: أكثر ثمارها الزبيب. (الأصطخري ص ٢٤، وابن حوقل ص ٣٢، وابن الفقيه ص ٢٢، والمقدسي ص ٧٩، وتقويم البلدان ص ٩٥).

الطائف: أما زبيبها فيضرب بحسنه المثل. (معجم البلدان ج ٤ ص ٩).

العسل:

الإصدار: يجلب منها العسل. (معجم البلدان ج ١ ص ٢١١).

جبلان: بلاد كثيرة العسل. (معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٢، والهمداني ج ١ ص ١٠٣).

سراة الحجر: وبسراة الحجر العسل. (الهمداني ج ١ ص ١٢٣).

السرين: معدن العسل الكثير. (المقدسي ص ٨٦).

المراجـع

— ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، ليدن، بريل، (طبعة ثانية)، ١٩٣٨.
— ابن رستة، أبو علي أحمد، **الأعلاق النفيسة**، ليدن، بريل، ١٨٩١.
— ابن الفقيه، أبو بكر أحمد، **مختصر كتاب البلدان**، ليدن، بريل، ١٨٨٥.
— أبو الفداء، عماد الدين، **تقويم البلدان**، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠.
— الأصطخري، ابن اسحق ابراهيم، **المسالك والممالك**، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦١.
— القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٣.
— المسعودي، أبو الحسن علي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٦.
— المقدسي، شمس الدين عبد الله، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بريل، ١٩٠٦.
— الهمداني، أبو محمد الحسن، **كتاب صفة جزيرة العرب**، ليدن، بريل، ١٨٨٤.
— ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، صادر، ١٩٥٥.

سيرة الكاتب

- **ماجستير — دراسات عربية — الجامعة الأميركية ARAB STUDIES.**
- **ماجستير — علم المكتبات — جامعة نورث كارولينا — الولايات المتحدة الأميركية.**
- **دكتوراه — تاريخ العرب — الجامعة الأميركية في بيروت.**

صدر له الكتب التالية:

*** فتاوي الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا.**
بيروت — دار الكتاب الجديد — ١٩٧١.
*** الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ — ١٩٤٨**
بيروت — ١٩٧٦.
*** العلوم عند العرب — تبويب وتعاريف ونصوص — بيروت — دار الآفاق الجديدة — ١٩٨٣.**
*** رئيس تحرير مجلة «الوثائق العربية» منذ عام ١٩٦٧ التي تصدر عن الجامعة الأميركية في بيروت.**



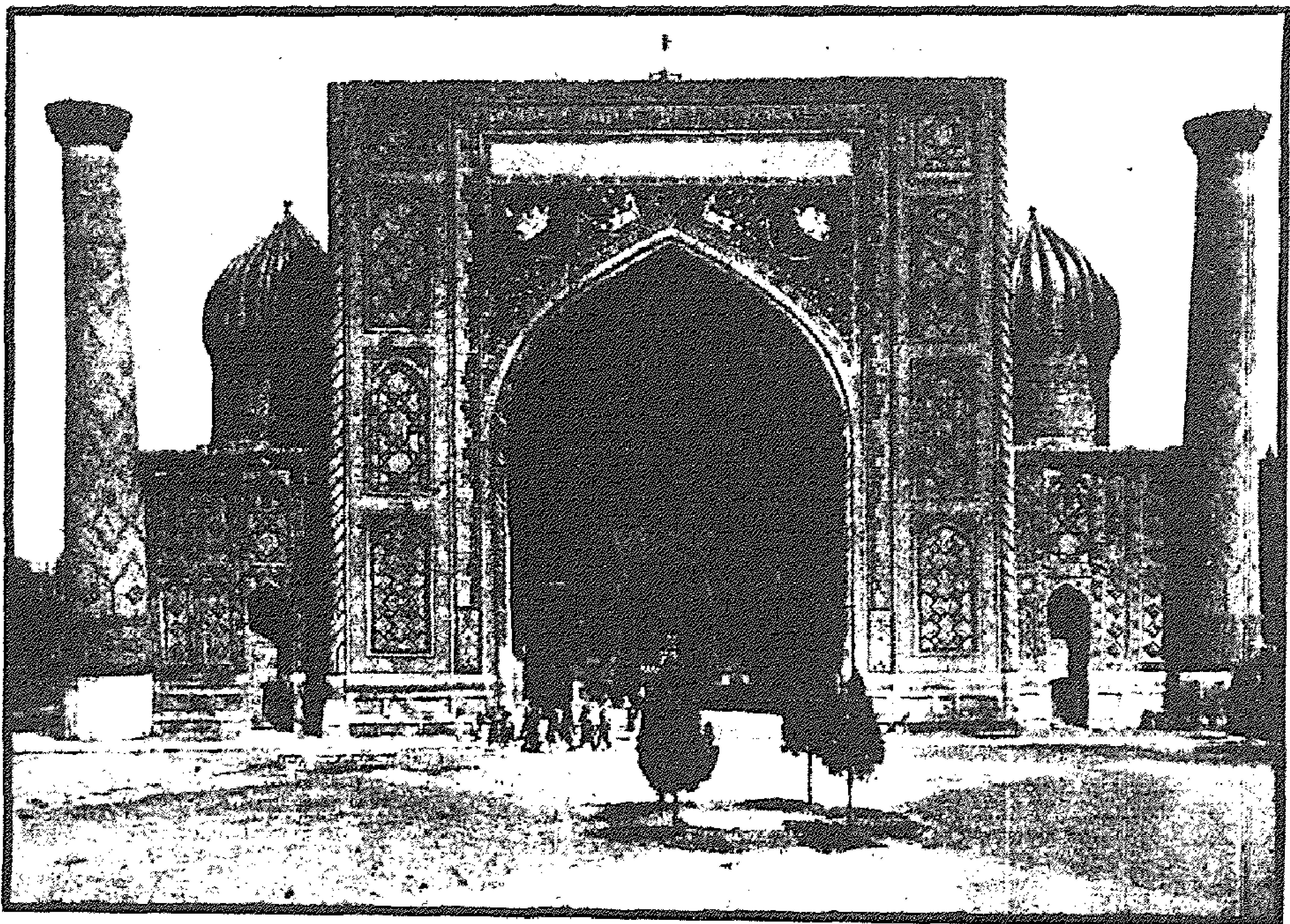
أعمال البلدية في صدر الإسلام
(وتسمى الحسبة)

● من أعمالها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المنع عن المضايقة في الطرق، ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار من الحمل مما يسبب الغرق والضرر. وعليها النظر في المباني المتداعية للسقوط ولها هدمها أو إصلاحها؛ وعليها منع المعلمين في الكتاتيب من ضرب الصبيان، ولهم النظر فيما يتعلق بالأسواق، من غش ونقص بالوزن والمكيال، ومنع بيع ما فسد من المأكولات وهي التي تعطي الموازين والمكاييل لأهل البلد؛ وعليها مراعاة حمل الدواب كي لا تحمل ما لا تطيقه. ولا يتولى تلك البلدية (الحسبة) إلا وجيه من المسلمين.

والفرق بين (الحسبة) (والقضاء) أن المحتسب له أن يتصفح عن أحوال الناس وإن لم يرفع الأمر إليه بخلاف القاضي فإنه ليس له أن يفحص عن أحوال الناس إلا إذا رفع الأمر إليه.

ورقات من كتاب مجمع النّوادر

د. نقولا زيادة



□مدرسة شير ــ دور في سمرقند، من الآثار الثقافية الإسلامية القديمة.

يحفل الأدب العربي بكتب وضعت لتنبيه الأمراء ورجال الحكم إلى أمور عامة وقواعد خلقية وأسس عملية يصح اتباعها في تسيير أمور الدولة وشؤون الحكم. ولأن هذه الكتب كانت تعكس وجهات نظر شرعية وأخلاقية وحكمية فقد كانت تسمى أحياناً «مرآة الأمير». وتختلف هذه الكتب فيما تحويه باختلاف المؤلفين والأدوار التي قاموا بها والمناصب التي شغلوها في الدول المختلفة. كما تتباين على أساس الفلسفات التي يقبل بها مؤلفوها أو الاتجاهات التي يتبعونها.



ومع انتشار الثقافة العربية الإسلامية في الرقعة الواسعة التي قامت فيها الدولة أولاً، ثم الدول فيما بعد، والتي تأصلت فيها هذه الحضارة العالمية، فقد ظهرت مثل هذه الكتب فيما بعد باللغة الفارسية، بعد أن عاد لهذه اللغة بعض ما كان لها (خاصة بعد القرن الرابع/العاشر الذي كان لبخارى فيه دور كبير في هذه الأمور).

ومن هنا فإننا نجد بعد مؤلفات الثعالبي (على سبيل المثال) ظهور كتاب باللغة الفارسية اسمه «مجمع النوادر» ــ والنوادر هذه تدور حول أربعة موضوعات أساسها الأفراد الذين يحتاجهم صاحب السلطان في بلاطه للمشورة والعون، وهم: الكتاب والشعراء والمنجمون والأطباء. وقد جعل «النظامي العروضي» مؤلف هذا الكتاب كل ما يتعلق بجماعة من هؤلاء في مقالة. ولأن الكتاب موضوع أصلاً بالفارسية فكان له اسم ثانٍ بالإضافة إلى مجمع النوادر هو «جهار مقاله» أي المقالات الأربع: في الكتابة والشعر والنجوم والطب. وجعل المؤلف لكل مقالة تمهيداً قصيراً ثم روى عشر حكايات (إلا في المقالة الرابعة عن الطب ففيها اثنتا عشرة حكاية) تبين كل واحدة عبرة تصلح للاحتذاء أو للتمثل بها.

والكتاب إذا قرأه الرجل العادي المثقف أعجبته فيه طرافة حكاياته، أما من يريد أن يعتبر بالحكاية فإنه واجد فيها الكثير مما ينفعه.

ومؤلف الكتاب النظامي العروضي معرباً ونظامي عروضي أصلاً عاش في النصف الأول من القرن السادس/الثاني عشر. والذي نعرفه عنه قليل. فهو قد ولد قبل ٥٠٠ / ١١٠٦ وكان لا يزال حياً سنة ٥٥٢ / ١١٥٧. ولد في سمرقند، وبها سمع عن بعض شعراء الفرس من أهل منطقة ما وراء النهر مثل الرُّوْدَكي (الرُدَكي). وانتقل بعد ذلك إلى بلخ حيث عمل في خدمة عمر الخيام. ونجده في هراة (٥٠٩ / ١١٥). واتصل بعد ذلك بالسلطان السلجوقي معز الدين سنجر (٥١١ ــ ٥٥٢ / ١١١٨ ــ ١١٥٧). وزار العروضي نيسابور مرتين. والتحق بالسلطان علاء الدين الغوري (٥٤٤ ــ ٥٥٦ / ١١٤٩ ــ ١١٦١). وقد وضع كتابه حوالي سنة ٥٥١ / ١١٥٦؟ ويبدو أن الكتاب وضع السلطان السلجوقي بعده حياً، وثمة دعاء من المؤلف للسلطانين السلجوقي والغوري اللذين اتصل بهما، إذ يشير إليهما بقوله: «خلّد الله ملكتهما وسلطانهما».

وليس من المنتظر أن تكون كل حكاية صحيحة في تفاصيلها ودقائقها. فالنظامي ليس مؤرخاً هنا ولا عالماً. إنما هو ناصح مذكر. ومن ثم فإنه يقبل بعض الحكايات على الشكل الذي وردت فيه، ويرويها كما وقعت له. وهذا الأمر ينجر على عدد كبير من الكتب التي من هذا النوع: أدب النصح والإرشاد والتعليم والتندر والتسلية و«جهار مقاله» نقله عن الفارسية إلى العربية عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، ونشر في القاهرة سنة ١٣٦٨/١٩٤٩ للمرة الأولى. وقد أحسن المترجمان إذ نقلا الحواشي الدقيقة التي وضعها بالفارسية أصلاً العالم محمد القزويني.

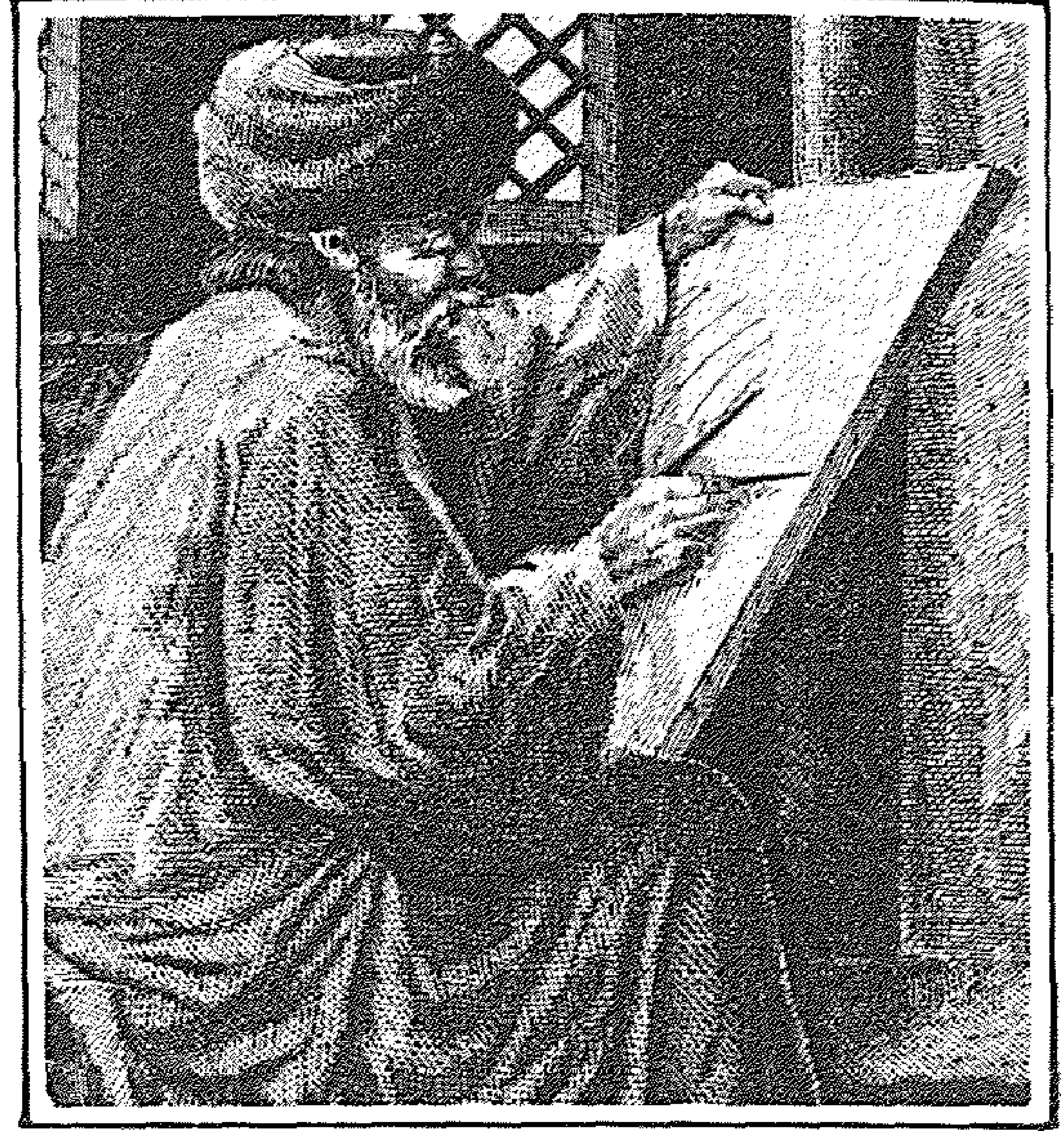
ــ ٢ ــ

وقد انتزعنا ورقات من هذا الكتاب، مع أننا واثقون من أن فيها بعض التجاوز على التاريخ. لكننا اخترناها لسببين الأول للدلالة على مدى تغلغل الحضارة العربية في الاصقاع البعيدة أصلاً عن قلب العروبة الأصلي، والثاني كي نضع بين يدي القارىء نموذجاً لقرن من قرون نضج الحضارة العربية (القرن الرابع/العاشر) للعلماء الذين عاشوا فيه، واستمر البعض منهم إلى القرن التالي.

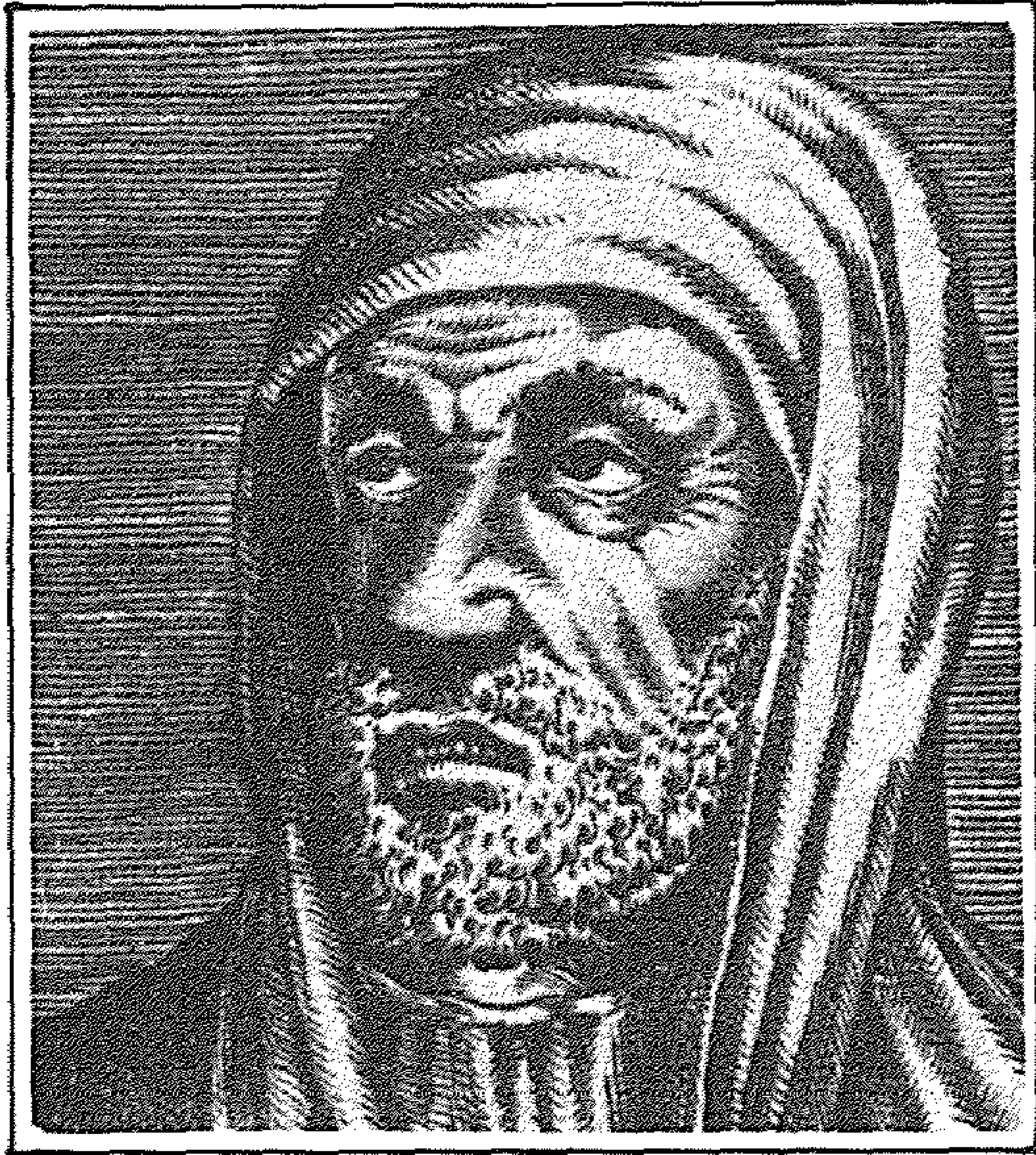
وسننقل القصة كما رواها النظامي العروضي (مترجمة)، ثم نتحدث عن كل الأشخاص الواردة أسماؤهم بالقدر الذي يوضح دوره، دون أن نطمح بانصافه في مثل هذه العجالة.

روى النظامي قائلاً:

كان لأبي العباس مأمون خوارزمشاه وزير اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد السهلي. كان حليم الطبع كريم النفس فاضلاً. وكذلك كان خوارزمشاه حكيم الطبع صديقاً لأهل الفضل. وبفضلهما اجتمع كثير من الحكماء وأهل الفضل في هذه الحضرة مثل أبي علي ابن سينا وأبي سهل المسيحي وأبي الخير الخمار وأبي الريحان البيروني وأبي نصر العرّاق...



□البيروني.



□ابن سينا.

وكانت هذه الطائفة من العلماء في القصر غنية عن أمور الدنيا، وكان لبعضهم انس لبعض بالمحاورة وطيب عيش بالمكاتبة. لكن الزمن لم يرضى بهذا... فقد أتى أحد العظماء من قبل السلطان محمود [الغزنوي] ومعه كتاب فيه «إني سمعت أن مجلس خوارزمشاه جماعة من أهل الفضل ليس لهم نظير [وعدّدهم] فعليك أن ترسلهم إلى مجلسنا ليشرف بهم، ولكي نفيد من علومهم وكفاياتهم، ولتكون هذه منة لخوارزمشاه علينا».

وكان الرسول الرئيس حسين بن علي بن ميكال، وكان من أفاضل العصر وأماثله... وكانت دولة محمود في أوجها وملكه مزدهراً... وملوك زمانه يهابونه... فأنزل خوارزمشاه الرئيس حسين بن ميكال مكاناً طيباً وأكرمه. ولكنه دعا الحكماء وعرض عليهم هذا الكتاب قبل أن يأذن له بحضور المجلس. ثم قال لهم «أن محموداً الغزنوي ملك قوي وعنده جيش ضخم. وقد أخضع خراسان وهندوستان، وهو يطمح في العراق. وأنا لا أستطيع الخروج على مثاله أو عصيان أمره. فماذا تقولون في هذا الكتاب؟». فقال ابن سينا وأبو سهل المسيحي «نحن لا نذهب إليه». وأما أبو نصر العرّاق وأبو الريحان البيروني وأبو الخير الخمار فقد رغبوا في الذهاب إليه، وكانوا قد سمعوا بأخبار صلاته وهباته. فقال خوارزمشاه لابن سينا والمسيحي «إنكما لا ترغبان في الذهاب إلى محمود، فخذا طريقكما قبل أن آذن لهذا الرجل بمقابلتي». ثم أنه يسر لهما الأسباب وعين لهما دليلاً فسارا نحو جرجان عن طريق الصحراء.

وفي اليوم التالي دعا خوارزمشاه الرسول حسين بن ميكال إلى المجلس فأكرم وفادته وقال «إني قرأت الكتاب ووقفت على مضمون رسالة السلطان وأمره، ولكن ابن سينا والمسيحي قد رحلا. وأما أبو نصر وأبو الريحان وأبو الخير فيستعدون للتوجه للخدمة».

وقد أخذ هؤلاء أهبتهم في وقت قصير فأرسلهم خوارزمشاه مع الرئيس حسين. فجاؤوا إلى حضرة السلطان محمود والتحقوا بمجلسه.

وكان مقصود السلطان محمود ابن سينا. وكان أبو نصر العرّاق نقاشاً، فأمره محمود بتصوير ابن سينا على الورق. ثم دعا النقاشين وأمرهم برسم أربعين صورة منها، فأرسلها مع الأوامر السلطانية إلى أطراف البلاد وأمراء الأقاليم وأمرهم أن يبحثوا عن رجل بهذه الصورة اسمه ابن سينا وأن يرسلوه إليه.

ولما انصرف ابن سينا والمسيحي مع الدليل من عند خوارزمشاه حثوا السير. لكن في اليوم الرابع هبت عليهم ريح عاتية فضلوا سبيلهم بسبب العجاج. ومات المسيحي من شدة العطش.

وبعد أن وصل الآخران إلى باوَرْد، رجع الدليل، واستمر ابن سينا في سيره إلى طوس ونيسابور ثم اتجه إلى جرجان.

هذه القصة فيها طابع الحكاية المبني على تاريخ محرف قليلاً كي تبدو القضية وكأنها درامة !

ولكننا اخترناها لنعرف القراء بهؤلاء النفر الواردة أسماؤهم فيها، وهم جماعة من أهل المعرفة والحكمة.

ولنبدأ ببلاط الخوارزمشاهيين. حكمت هذه الأسرة بلاد خوارزم، في حوض نهر سرداريا الأدنى (٣٨٥ ــ ٤٠٨ / ٩٩٥ ــ ١٥١٧)، وكانت عاصمتهم كوركانج (الجرجانية). وكان الأمير الذي حدثت القصة في عهده هو مأمون بن مأمون (٣٩٩ ــ ٤٠٧ / ١٠٠٩ ــ ١٠١٧). وقد كانت دولة خوارزم هذه غنية بسبب وقوعها على الطرق التجارية البرية بين الصين وأواسط آسية من جهة وسيبريا والمناطق الواقعة شرقيها من جهة ثانية. وكان أمراؤها، وخاصة مأمون هذا، أهل علم، ومن ثم كان بلاطهم يرعى أهل الفكر. وقد لا يكون هؤلاء النفر اجتمعوا دفعة واحدة، لكن كلا منهم كان له في هذا البلاط إقامة ورعاية.

والوزير أبو الحسين بن محمد السهلي (أو السهيلي) فقد وزير لعلي بن مأمون (٣٨٧ ــ ٣٩٩ / ٩٩٧ ــ ١٠٠٩) ثم لأخيه مأمون صاحب القصة. وهو خوارزمي الأصل رجل إلى بغداد سنة ٤٠٤ / ١٠١٣ فاتخذها موطناً له. ثم توفي في سرّمن رأى (سامرّاء) سنة ٤١٨ / ١٠٢٧. ولعلّ هذا الوزير خشي أن يصل محمود الغزنوي إلى خوارزم فيأسره.

أبو الخير الخمار النصراني الفيلسوف المنطقي الطبيب. ولد في بغداد (٣٣١ / ٩٤٢) وقرأ علوم الفلسفة والمنطق على ابن عدي، وبلغ الغاية في هذين الفنين. وبعد أن أكمل الطب ذهب إلى خوارزم واتصل بخدمة مأمون بن مأمون المار ذكره. ولما فتح السلطان محمود الغزنوي بلاد خوارزم (٤٠٨ / ١٠١٧) حمله مع بقية العلماء إلى غزنة. وهنا نرى أنه لم يذهب مع الرئيس حسين بن ميكال.

كان أبو الخير يتواضع مع الفقراء ويترفع مع الأغنياء. ويذكر أبو الخير بين الذين عملوا في الترجمة من السريانية إلى العربية. وله في الطب والفلسفة والمنطق ما يقرب من خمسة عشر مؤلفاً. وكان أبو الخير قد اعتنق الإسلام.

أبو نصر منصور بن علي العرّاق. كان من كبار الرياضيين في القرن الرابع/العاشر. وهو من معاصري البيروني وله كتب في الفلك وقام بتصحيح عدد من الازياج ودراسات في تصحيح الكواكب العلوية. وقد روي أنه متحدّر من ملوك خوارزم القدماء.

المسيحي ــ هو أبو سهل عيسى بن يحيى. ولد بجرجان ودرس هناك أولاً ثم أتم دراسته في بغداد. ويقال أنه أحد أساتذة ابن سينا. توفي سنة ٣٩٠ / ١٠٠٠ في عاصفة هوجاء بعد أن فر هو وابن سينا من بلاط مأمون الخوارزمشاهي. وله عدد من الكتب هي أقرب إلى الرسائل. وقد أورد منها أبو الريحان البيروني اثنتي عشرة رسالة، في مبادىء الهندسة ودلالة اللفظ على المعنى. ومن أهم كتبه الطبية «كتاب المائة في الطب».

البيروني ــ ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في ضاحية من ضواحي خوارزم (٣٦٢ / ٩٧٣). والمكان كان مركزاً يقيم فيه التجار للتخلص من دفع المكوس على متاجرهم (وكان يسمى بيرون). عني بالشؤون العلمية منذ صغره، مع ميل خاص إلى العلوم الرياضية والفلكية. وكان العرّاق (المذكور آنفا) معلّمه.

وقد قضى أوائل عمره في بلاط أمراء خوارزم. فلما اغتيل الأمير خشي على نفسه، فرحل إلى جرجان (٣٨٥ / ١٠٠٤) وهناك وضع كتابه «الآثار الباقية في القرون الخالية» تكريماً لراعيه أبي الحسن قابوس الزباري (٣٦٧ ــ ٤٠٢ / ٩٧٨ ــ ١٠١٢). وهذا الكتاب يبحث في تقاويم الأمم والفلك وما عرفته الأمم الخالية من وسائل لقياس الزمن.

وعاد البيروني إلى وطنه بعد غياب خمس عشرة سنة، فكان في بلاط مأمون بن مأمون الخوارزمشاهي. وقد وضع كتاباً في «تاريخ خوارزم» لكن الكتاب فقد.

ولما احتل محمود الغزنوي خوارزم وقضى على دولة الخوارزمشاهيين، حمل البيروني إلى غزنة (٤٠٨ / ١٠١٧). واستقر العالم هناك، وكان يرافق السلطان الغزنوي في حملاته إلى الهند.

وتعلم السنكريتية ولذلك يعتبر كتابه المسمى «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» (ويسمى اختصاراً كتاب الهند) الكتاب الوحيد الموضوع بالعربية الذي تمكن مؤلفه من فهم ما كان للهند من فلسفة وحكمة ومعرفة.

وكان البيروني يمثل النزعة «البحثية» في ما كتب. فقد حصل على الكثير من معلوماته «ميدانياً»، كما كان يخضع كل قضية لأشد أنواع التدقيق.

وقد وضع البيروني عشرات الكتب إلا أن أهمها الكتابان اللذان أشرنا إليهما. وثمة ثلاثة علماء يشير إليهم البيروني على أنهم ألفوا كتباً باسمه هم: أبو نصر العرّاق (معلمه) وأبو سهل المسيحي زميله وصديقه وأبو علي الجيلي.

ابن سينا ــ هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا. ولد في قرية من قرى نجارى (٣٧٠ / ٩٨٠) ونشأ في نجادي عاصمة السامانيين (٢٠٤ ــ ٢٩٥ / ٨١٩ ــ ١٠٠٥) فحفظ القرآن وهو ابن عشر، وأخذ الفقه عن عالم محلي. ثم تلقى أصول الفلسفة على يد الناتلي. لكن ابن سينا كان تلميذ نفسه في هذه وفي الطب. وطبّ لنوح بن منصور أمير بخارى (٣٦٥ ــ ٣٨٧ / ٩٧٦ ــ ٩٩٧) ودخل مكتبته فقرأ فيها عيون الكتب في أكثر الموضوعات أهمية.

وكانت له نزعة إسماعيلية لذلك لما اقترب محمود الغزنوي (٣٨٨ ــ ٤٢١ / ٩٩٨ ــ ١٠٣٠) من دولة السامانيين رحل ابن سينا غرباً إلى خوارزم ثم إلى جرجان. واستقر في الري بعض الوقت ثم ذهب إلى همذان وأصفهان. وتوفي سنة ٤٢٨ / ١٠٣٨).

وابن سينا فيلسوف وطبيب، وهو فيلسوف الأطباء كما يسمونه. وله في الفلسفة «كتاب الشفاء» و«كتاب النجاة»، هذا فضلاً عن عشرات من الكتب والرسائل. أما في المجال الطبي «فالقانون في الطب» هو خير ما كتب، ومن خير ما وُضِع في الكتب الطبية في العصور الحالية.

رأيت في هذه الحكاية ــ بعد أن تحدثت عن مسرحها وعن الممثلين فيها ــ أولئك الذين ظهروا على المسرح وأولئك الذين ظلوا خلف الكواليس؛ رأيت بعد ذلك أنها تمثل ناحية خاصة من نواحي النضج الحضاري العربي. فكل من الممثلين المفكرين قمة في المعرفة مع انتماء خاص لموضوع هو فيه المبرز؛ وهم في مجموعهم يمثلون أعلى ما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية؛ ثم أكمل ما تمكنت العربية من التعبير عنه من المنطق إلى العلم الإلهي ومن الطب إلى الرياضيات والفلك. والأسماء شاهدة؛ لكن الشهادة تأتي من الكتب التي خلفها هؤلاء الناس.

●



● دع هذا الذي يتحسس طريقه في الظلام الضوء المرتجف، ويدعو ويبتهل لإقبال الفجر، يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص وهي: أن يعمل الواجب القريب منه. فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذي يتلوه أوضح طريقاً وأبين مظهراً.

«جيتي»

● أحسن وسيلة للتغلب على الصعاب اختراقها.

«انوثيميس»

● العمل هو الفيتامين الحقيقي الذي لا غنى عنه.

«دوروثي»

خصائص السيوف الإسلامية

إعداد: أونصال يوجل* ترجمة: تحسين عمراوغلي

احتل «الجهاد»، لدى المسلمين، مقاماً علياً، حتى أنّ بعضهم قد رفعوه إلى مصاف الأركان، وجعلوه ركناً سادساً. فالإسلام الذي ألّف بين قلوب تابعيه جعلهم يدافعون عنه بالنفس والنفيس، فيلبون دعوة رسولهم أو خليفتهم ويقاتلون قتال «عَطاشا الموت» في سبيل نصرة دينهم، لا يحثهم على ذلك سوى العاطفة الدينية والرغبة في نشر الإسلام، الذي فعلاً نجحوا في نشره وامتداده امتداداً لا قرين له في نهضة الدول العالمية(1). ومما يستدعي الانتباه ويستحق الذكر، إن كل تلك الفتوحات التي حققها المسلمون قد أنجزت بوسائل حربية لا تتعدى الدروع والسيوف والرماح والقسي والسهام، وإن اعتصم العدو بالحصون رموه بالمنجنيق(2) أو هاجموه بالضبور(*) إلّا أن السلاح الأبرز والأكثر التصاقاً بنفوس المسلمين هو «السيف»، لأنهم كانوا أكثر ما يعتمدون في قتالهم مع العدو طريقة التلاحم، التي برعوا بها، وهي لا تحتاج لأكثر من سيف حادّ.

ونحن هنا في هذا العدد، نسلط الضوء على ذلك السلاح البسيط الصنع، الحادّ الفعل، الأنيق الشكل من خلال دراسة قام بها الدكتور أونصال يوجل، وهي تشكل أحد فصول كتاب «السيوف الإسلامية وصنّاعها» الذي وصلنا من «مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول» الذي كان قد عهد إلى الدكتور «يوجل» بإعداد دراسة حول مجموعة السيوف الإسلامية المحفوظة في متحف طوب قابي والمتحف العسكري(**) والتي يرجع تاريخها إلى الفترة ما بين القرنين (١ ـ ١٠هـ / ٧ ـ ١٦م).

ولأهمية هذا الموضوع وطرافته، شاءت «تاريخ العرب والعالم» نشر هذه الدراسة على صفحاتها لتعمّ الفائدة جميع قرائها.

□ الدكتور أونصال يوجل، كان محافظاً لجناح الأسلحة بمتحف «طوب قابي» ثم معيداً في قسم تاريخ الفن بجامعة استانبول. وله آثاراً قيّمة من كتب ومقالات عديدة في الفنون الإسلامية.



سوف نركز في هذا البحث على خصائص السيف الإسلامي وعلى تطور شكله، فقد سارت الأسلحة وسائر الأدوات التي استخدمها الإنسان طول العصور الوسطى، سيراً وئيداً وهي في طريقها إلى التطور والتغيير.

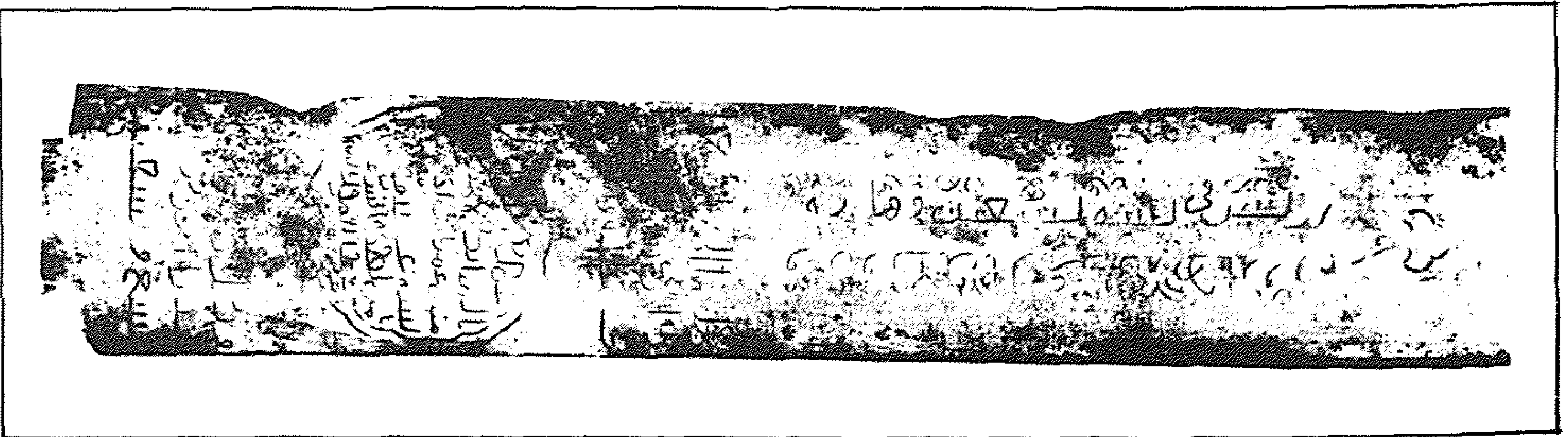
الواقع أن طريقة استخدام السيف هي التي كانت تحدد شكله، فإذا لم تتغير طريقة وأسلوب الاستعمال، فإن أي تغيير يصبح بالضرورة غير لازم. والهدف من التغيير أساسه البحث عن أنسب الأشكال ملاءمة لطرق الاستخدام وأغراضه؛ عندئذ يتحقق الوصول إلى الشكل المطلوب.

ونظراً لأن السيف سلاح بسيط، فقد كانت مجالات تطويره محدودة. وهناك علاقة وثيقة بين الطول والعرض والسمك والثقل بالنسبة للسيف الإسلامي المستقيم ذي الحدين، وبالطبع لا يمكن تجاوز حدود هذه العلاقة.

وعلى أية حال، فقد مرّ السيف الإسلامي بتغييرات هامة في شكله، لا سيما بين القرنين ٧ ــ ٩ هـ / ١٢ ــ ١٥ م؛ فنراه يتحول ــ في هذه الفترة ــ من شكله المستقيم ذي الحدين إلى الشكل المقوس ذي الحد الواحد. لقد طرأ تغيير طفيف على الشكل نتيجة تأثير وافد من آسيا الوسطى، لكن نظراً للارتباط الشديد بين الشكل والاستخدام، فإن الأمر لم يكن مجرد تأثر بالغير فقط، بل كان متعلقاً بطرق القتال المختلفة التي من شأنها بالطبع أن تفرض التغيير في شكل السيف[1].

وفي كلامنا عن شكل السيف الإسلامي وتطوره سوف نعتمد اعتمادا مباشراً على النماذج الموجودة بين أيدينا، لنصل من خلال ذلك إلى نتائج شاملة ودقيقة، آخذين بعين الاعتبار أهمية المصادر المكتوبة والمصورة، التي قد تساعدنا على التعرف الكافي على خصائص السيوف الإسلامية. ولدينا باستانبول من النماذج ما يكفي لعمل دراسة متكاملة، حول خصائص السيف الإسلامي وتطوره خلال ٩٠٠ سنة، منذ ظهور الإسلام، أي من النصف الأول من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي حتى النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا العمل لا يعد حصراً شاملاً لكل أنواع السيوف، بسبب عدم توفر نماذج لدينا تمثل جميع الدول الإسلامية، مما يرجع إلى هذه الفترة. ومما لا ريب فيه فإن مرور المسار التاريخي الذي ترسمه النماذج الموجودة في حوزتنا، عبر الأقاليم الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت، سوف يساعدنا على توضيح الخطوط الرئيسية لتدرج تطور السيف الإسلامي.

لقد انتهت المرحلة الأولى التي بدأت بالسيوف الأموية والعباسية بسقوط الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، وأعقبتها دولة المماليك التي تعتبر بدايتها الحقيقية زمن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ ــ ٦٨٩هـ / ١٢٨٠ ــ ١٢٩٠م). ويبدأ عدد السيوف التي ترجع إلى هذه الفترة في الازدياد تدريجياً، حتى وقت انتهاء دولة المماليك عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م. وهذا هو الخط المتصل لمسار الموضوع ودراسته تاريخياً.



□اللوحة رقم ــ ١ ــ
سيف عربي يعرف باسم «سيف الخلفاء». الطول بالكامل ٩٨ سم. الفصل ٨٨ سم.

وتستدعي الضرورة أن يكون هناك خط هام ثان لتطور السيف عند السلاجقة العظام وسلاجقة الأناضول في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وفي أوائل عهد العثمانيين، لكن للأسف لم تصلنا أي نماذج تذكر لتمثل تلك الفترة. على أننا نستطيع التعرف على ملامح هذا الخط الثاني عن طريق النماذج التي ترجع إلى زمن السلطان محمد الثاني(٨٥٥ ــ ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ ــ ١٤٨١ م). وعلى اية حال فإن السيف التركي العثماني كان قد استقر على شكله النهائي في تلك المرحلة.

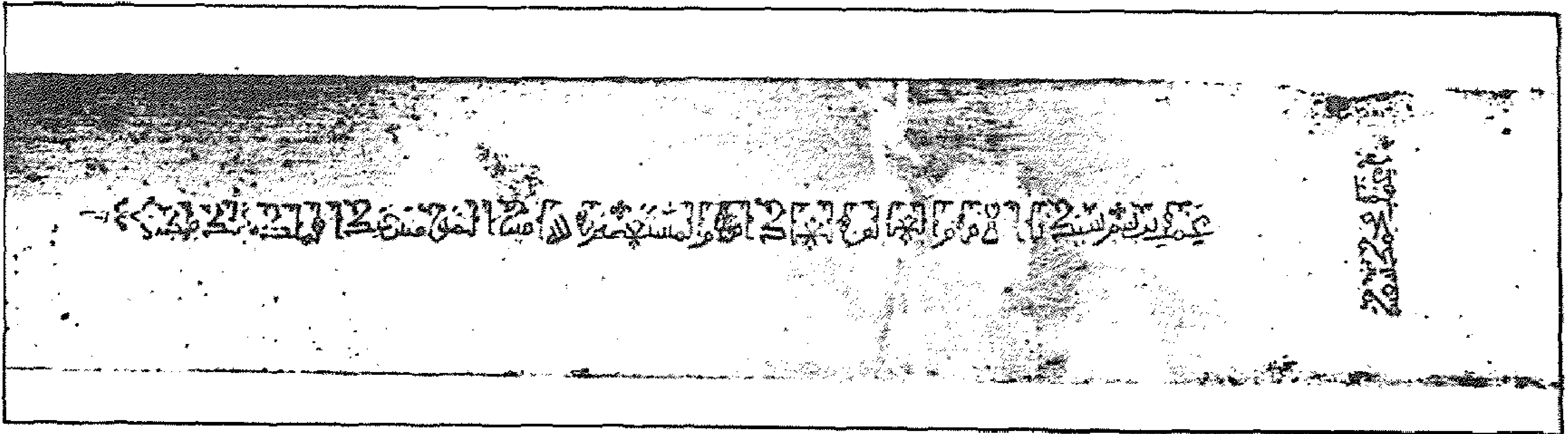
وهناك خط ثالث هام في مسار تطور السيف الإسلامي، وقد بدأ هذا الخط الثاني الذي سبق أن أشرنا إليه. ويتضمن هذا الخط الثالث، نماذج السيوف التي صنعت في إيران وما حولها. وفي فترة ما بعد السلاجقة العظام. غير أنه لا توجد بين أيدينا نماذج أصلية تنتمي إلى هذه المنطقة أو هذه الفترة الزمنية بالذات[٣]. ويعود أقدم ما لدينا من نماذج، إلى وقت متأخر جداً، وهو الوقت الذي وصل فيه السيف الإيراني إلى انضج مراحله في عهد الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ ــ ٩٨٤هـ / ١٥٢٤ ــ ١٥٨٨ ــ ١٥٧٦م) والشاه عباس الأول (٩٩٦ ــ ١٠٣٨هـ / ١٥٨٨ ــ ١٦٢٩م) في العهد الصفوي.

١ ــ السيوف الأموية والعباسية

إن النماذج المبكرة التي لدينا من السيوف الإسلامية هي تلك المنسوبة إلى الرسول وإلى الخلفاء الراشدين وبعض الصحابة الكرام، وهي محفوظة في دائرة «البردة النبوية الشريفة» بمتحف طوب قابي وبعضها معروض للزوار. وإذا كنا لم نجعل هذه السيوف المبكرة موضوع بحثنا فإننا وجدنا بين ما يحتفظ به جناح الأسلحة بمتحف طوب قابي عدداً من السيوف التي تعود إلى القرنين الأول والثاني الهجريين / السابع والثامن الميلاديين قد عوّضنا عما تركناه وواصلنا بحثنا حسب خطتنا دون عائق أو نقص. والواقع أننا لا نرى فارقاً مهماً بين السيوف الإسلامية المبكرة جداً وبين السيوف التي ترجع إلى العصر الأموي.

ومن الممكن تقييم معظم السيوف الأموية والعباسية التي نتناولها في بحثنا هذا، من خلال ما عليها من كتابات. وأكثر هذه المجموعة أهمية، ذلك السيف المعروف باسم «سيف الخلفاء» (س. ط. ق. ١/٨٤ لوحة رقم ١) حيث تتوافق التواريخ الموجودة عليه مع تواريخ حكم الخلفاء الذين ورد ذكرهم عليه. ولا يرجع أسلوب الكتابة الموجودة على السيف، إلى ما قبل عصر هارون الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ /٧٨٦ ــ ٨٠٩ م)، وإن كان النصل ذاته من صناعة أوائل العصر العباسي. ويعطينا هذا النصل فكرة عن طبيعة النصال الأموية أيضاً.

وهناك السيف الذي يحمل اسم الخليفة معاوية بن أبي سفيان. وهو من النماذج المبكرة التي بين أيدينا (س. ط. ق ١/٨٣) ومع مرور



□**لوحة رقم ــ ٢ ــ**
سيف الخليفة المستعصم (٦٤٠ ــ ٦٥٦ هـ /١٢٤٢ ــ ١٢٥٨ م). صانعه: محمد سعيد، الطول بالكامل ١٠٥ سم، النصل ٨٨,٥ سم.

الزمن وبفعل الصدأ فقد تلاشت الكتابة الموجودة عليه إلى حد بعيد مما دفع إلى إعادة كتابتها ثانية على السيف بأسلوب مختلف وبعد زمن طويل.

ونلاحظ في الكتابة الموجودة على أحد نصلي سيفين ينسبان إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، اختلافاً في تاريخ السيف عن تاريخ مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ذاته (س. ط. ق ١/٩٩) أما نصل السيف الثاني فأموي أصيل (س. ط. ق ١/٩٨).

والنماذج الأخرى ذات الكتابات فهي، بدون شك، عبارة عن نصال سيوف كلها عباسية (س. ط. ق ١/١٠٠) (س. ط. ق ١/١٠٩)، (س. ط. ق ١/١٣٥ ــ لوحة رقم ٢)، (س. ط. ق ١/٨٥).

وهناك مجموعة من النصال الأموية والعباسية يصعب الفصل بينها، ولكن يمكن تحديد خصائصها على النحو التالي:

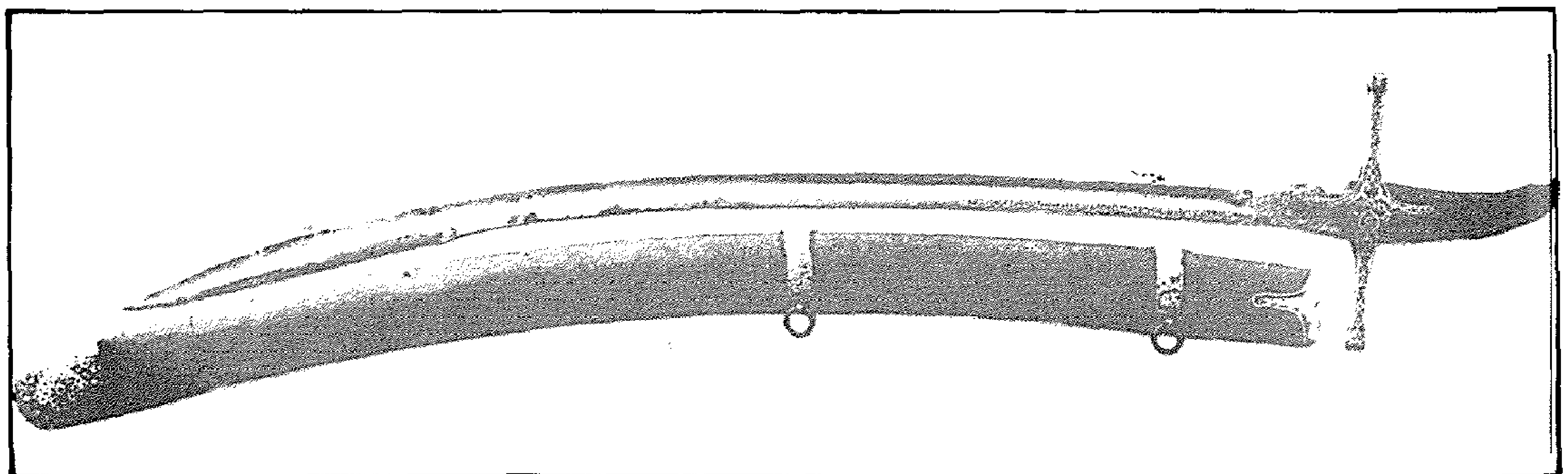
١ ــ نصال ذات حدين، وهذه تستمر بعرض واحد من عند المقبض حتى طرف النصل غير المدبب، حيث لم يصنع هذا النوع ليستخدم في الوخز. الطول أقله ٧٦ سم وأكثره ٩٦ سم، غير أن معظم الموجود من هذا النوع يبلغ طوله حوالي ٨٦،٥ سم.

٢ ــ نصال ليست لها شطوب (حزوز)، لأنها لا تستخدم في الوخز، ويصعب نفاذها في الجسد.

٣ ــ نصال يوجد بها إما دائرة صغيرة واحدة أو ثلاث أو سبع دوائر محشوة بالذهب. وتقع هذه الدوائر أو الثقوب المحشوة بالذهب على جانبي الكتابة الموجودة على النصل، وعند طرفه. ويتم عمل هذه الثقوب الذهبية، بإنزال سلك من ذهب في ثقب دائري مفتوح في جسم النصل، ثم يسوى سطح الذهب المنزل في الثقب بسطح النصل، الذي يكون متوسط سمكه حوالي ٠.٥ سم. ويعتقد أن هذه الثقوب أو النقاط أو الدوائر الذهبية، كانت تجلب الحظ لصاحب السيف.

وليست لدينا بعد ذلك معلومات مؤكدة عن مقابض وواقيات السيوف الأموية والعباسية ولا عن اغمادها حيث تفتت أجزاؤها الخشبية الموجودة في المقابض والاغماد بمرور الزمن، فجدد بعضها بالكامل، واحتفظ بنصال البعض الآخر دون ترميم أو إصلاح ولا سيما عندما ألغي استعمال نوعها.

ونظراً لأن السيف المستقيم ذا الحدين، يستخدم حدّاه في العمليات القتالية، فقد استتبع ذلك أن يكون المقبض مستقيماً، وأن يكون في طرف المقبض بروز من الجانبين. ويؤيد هذا الاستنتاج، ما نشاهده في المنمنمات العربية المبكرة التي ترجع إلى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث تظهر المقابض وطاقياتها (قبيعاتها) بالشكل الذي وصفناه[٣]. وعلينا ألا ننخدع بوجود بعض أمثلة يكون فيها سيلان أو عصعص النصل مقوساً. فربما يكون السيف قد رمم في وقت متأخر ووضع له مقبض مقوس عوضاً عن مقبضه الأصلي. ويرجح هذا معاينتنا لأحد حدي النصل



□لوحة رقم ــ ٣ ــ
سيف السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦ ــ ٦٩٨ هـ /١٢٩٧ ــ ١٢٩٩ م) صانعه: الأستاذ... الحلبي. الطول بالكامل ٩٤ سم، النصل ٨٠،٥، الغمد ٨٤ سم.

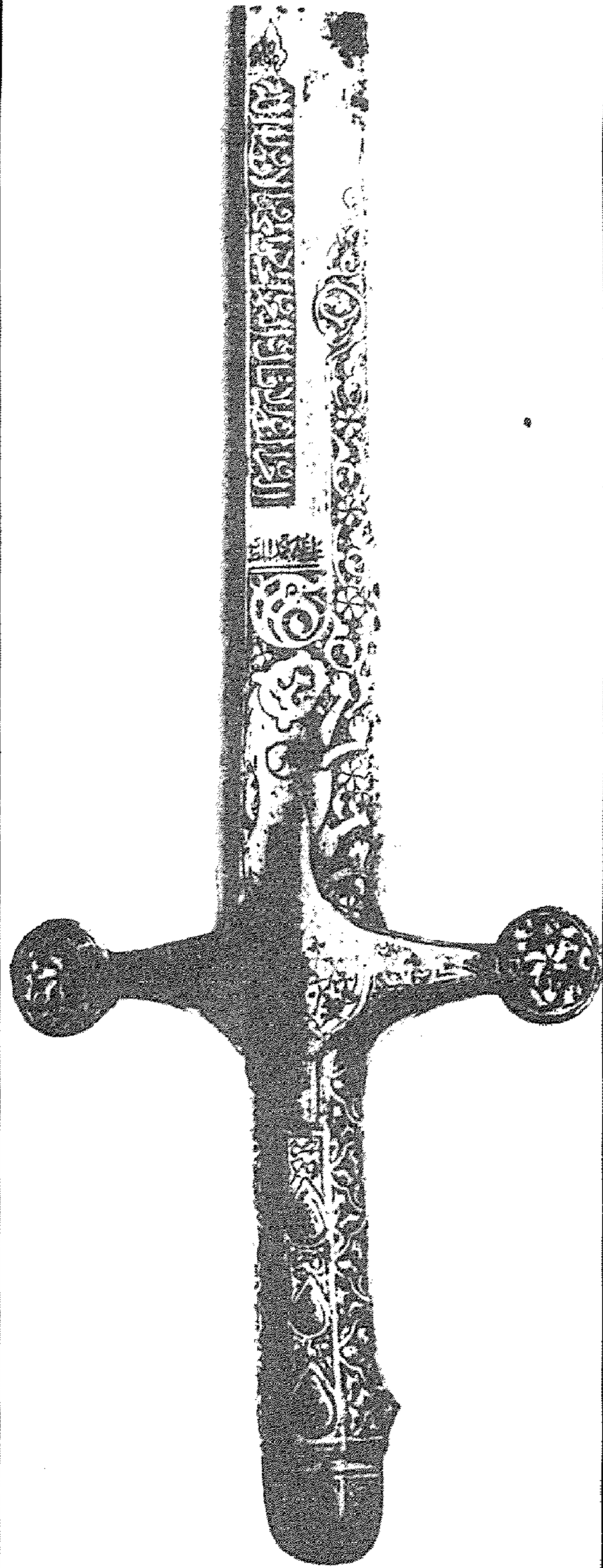
وقد كلّ وملأته الثلوم (لوحة رقم ١) بينما ظل الحد الآخر صالحاً للاستخدام، وذلك بعد الترميم وإضافة مقبض مقوس. وكان من المألوف أن يوجد بسيلان النصل ثقب واحد فقط، إلا أنه في حالات متفرقة وجدت ثقوب عدة، وربما يكون ذلك نتيجة لبعض عمليات الترميم التي أجريت في وقت متأخر.

وبما أن الواقيات مصنوعة من المعادن، فقد يشير هذا إلى احتمال إعادة استخدامها في إصلاح المقابض، ولعل هذا ما جرى بالفعل لسيف مملوكي أعيدت له واقيته الأصلية بعد أن رممه صانع أسلحة عثماني. وما يقال من أن الواقيات الأصلية للسيوف الأموية والعباسية لا يعاد استخدامها، لدليل على أن شكل المقبض كان بحاجة إلى تغيير أساسي وأن الواقية القديمة لم تعد تتوافق مع المقبض الجديد. ويرجح أن يكون شكل هذا المقبض القديم، مماثلاً لمقابض السيوف المملوكية السورية في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي (س. م. ع ٢٣٤٠)، (س. م. ع ٢٣٦٠)، (س. م. ع ٦٤٠٢)، (س. م. ع ٢٣٥٣). ومن الواضح أن واقيات هذا النوع من المقابض لا يمكن أن تستعمل مع مقابض من نوع آخر. وفي المنمنمات العربية المبكرة التي أشرنا إليها فيما سبق، لا تظهر الواقية من قطعة مستقلة وعلى شكل متعامد، كما أنها لا تشكل بروزاً في اتجاه المقبض، وإنما تظهر بذراعين ملتويين نحو الداخل.

ونستطيع أن نستخلص من ثنايا تلك المنمنمات بعض المعلومات المتعلقة بالاغماد: فلها مثلاً حلقتا تعليق وكعب (نعل) ولا توجد في فوهتها قطعة معدنية.

٢ ــ السيوف الأيوبية

يتوفر لدينا سيف واحد يرجع إلى العصر الأيوبي وينسب إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي (س. م. ع ٢٣٥٥).



□لوحة رقم ــ ٤ ــ

سيف مملوكي. تاريخه: أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. صانعه: علي بن محمد المصري، الطول بالكامل ٩٨ سم، النصل ٨٤ سم.

مقبض هذا السيف مفقود لكنه ما يزال يحتفظ بواقيته. وكما هو معروف فإن سيوف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ذات نصال مستقيمة وذات حدين وغير مدببة الطرف، وهي بذلك تشبه السيوف الأموية والعباسية.

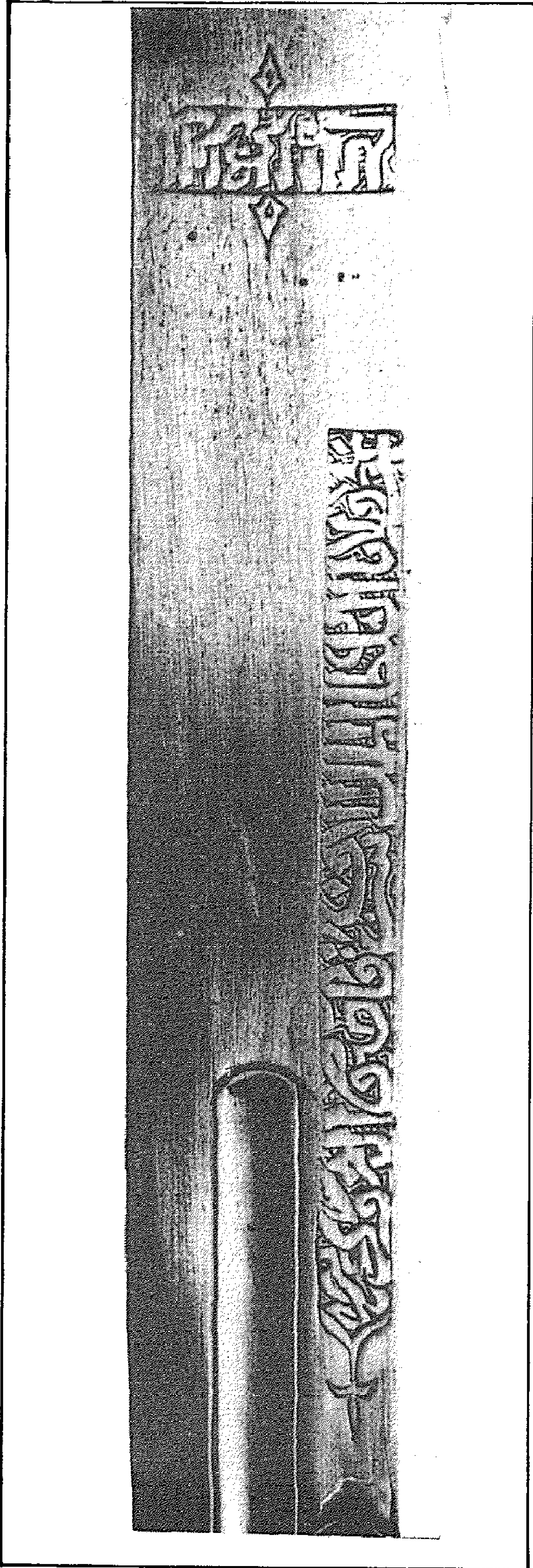
ونستدل من هذه الواقية أن مقبض السيف كان نموذجاً مبكراً لمقابض السيوف المملوكية السورية في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي (س. م. ع ٢٣٤٠)، (س. م. ع ٢٣٦٠)، (س. م. ع ٦٤٠٢)، (س. م. ع ٢٣٥٣) ولا بد أن هذا النوع من المقابض، كان شائع الاستخدام في سورية، وفيما بين القرنين السادس والثامن للهجرة/الثاني عشر والرابع عشر للميلاد.

٣ ـ السيوف المملوكية

تحتل السيوف المملوكية مكاناً بارزاً، بين الأسلحة الإسلامية المحفوظة بمتحف طوب قابي، وذلك من حيث الكمية والنوعية معاً. ويخص نصف السيوف المملوكية الخمسين التي تتضمنها هذه الدراسة سلاطين المماليك وأمرائهم؛ فمنها: سبعة لقايتباي، وثمانية لقانصوه الغوري. وهذا يعطي فكرة عن القيمة التاريخية لهذه المجموعة. وعلى العموم فإن نماذج السيوف المملوكية التي نتناول وصفها هنا هي عبارة عن نماذج، تحقق التصور الذي نحاول توضيحه بخصوص تطور شكل السيف المملوكي.

النصال:

تعود نصال السيوف المملوكية التي بين أيدينا إلى الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ودخول العثمانيين إلى مصر (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م). وأقدم النماذج المعروفة منها سيفان: الأول للسلطان منصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م)، والثاني للسلطان محمد بن قلاوون (٦٩٣ ـ ٧٤٢ هـ / ١٢٩٣ ـ ١٣٤١ م)، (س. ط. ق ١/٢٥٢٤) (س. ط. ق ١/٢٥٢٠).



□لوحة رقم ـ ٥ ـ
سيف للسلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ /١٥٠١ ـ ١٥١٦ م) صانعه إبراهيم المالكي. الطول بالكامل ٩٧ سم، النصل ٨٣ سم، الغمد ٨٦ سم.

وكل واحد من هذين السيفين مقوس، ذو حد واحد ومصنوع من صلب شامي على درجة عالية من الجودة. ويوحي شكل هذين السيفين بأنهما يرجعان إلى ما بعد الفترة المذكورة وربما إلى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي نظراً لما عليهما من زخرفة وكتابات. بل أن الكتابة والزخرفة التي على جانبي كل منهما، إضافة إلى علامة السلطان محمد بن قلاوون، قد نفذت كلها بالأسلوب السائد في البلاط العثماني في القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد.

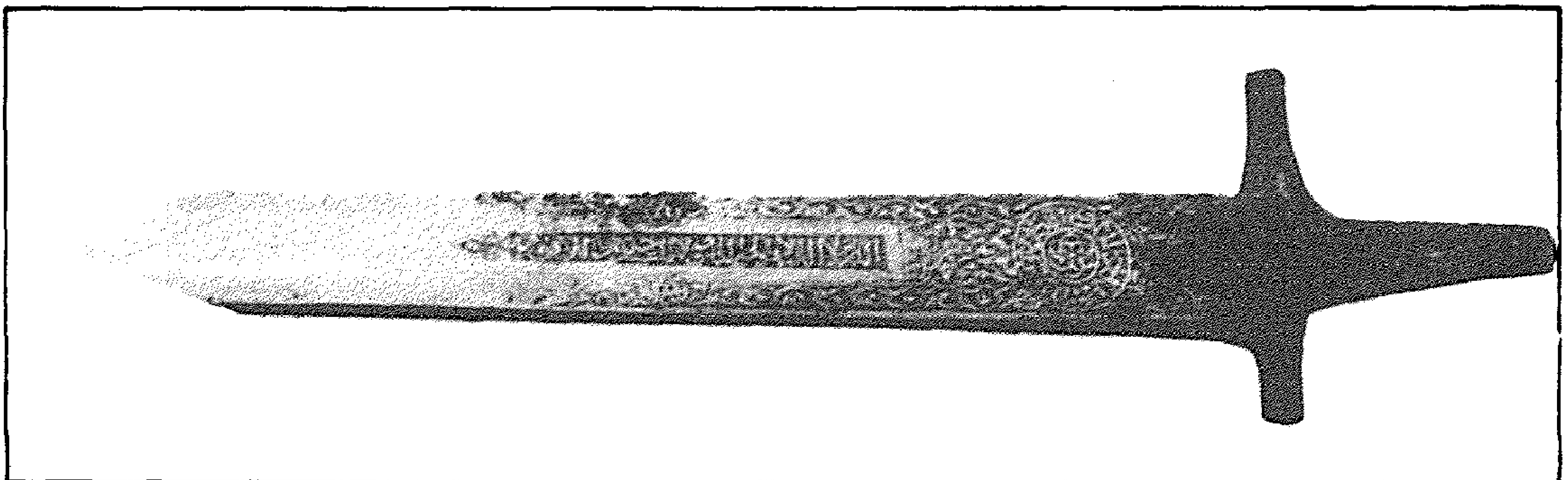
وبناء عليه، نفضل البدء بدراسة نصال السيوف المملوكية من خلال نموذج مؤكد، يرجع إلى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وهذا النموذج هو سيف حسام الدين لاجين (٦٩٦ ــ ٦٩٨ هـ / ١٢٩٧ ــ ١٢٩٩ م) (س. ط. ق ١/٣٠٤ ــ لوحة رقم ٣) الذي، إضافة إلى كونه أقدم نموذج مملوكي بين أيدينا، فهو في الوقت ذاته أقدم نموذج للسيف الإسلامي المقوس ذي الحد الواحد. وهو الذي يظهر شكله في المنمنمات الإسلامية ولأول مرة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[٤].

يمثل هذا السيف القديم التطور الحقيقي الذي حدث في تلك المرحلة، كما يمثل مدى النجاح الذي تحقق في التوافق بين شكل السيف ووظيفته. ونلاحظ أن تقوس النصل يأخذ في ازدياد وهو يتجه نحو طرفه، ويظل عرضه ثابتاً حتى يصل الحدبة البسيطة التي بالظهر، وبعدها يتحول ظهر النصل إلى حد ماض، مع ازدياد قليل في العرض قبيل طرفه المدبب. ونشاهد حزاً عريضاً وسط النصل، يبدأ على بعد ٧ سم من الواقية ويستمر حتى الطرف، ونجد في هذا السيف أول خصائص السيف المقوس، الذي بلغ شكله درجة الكمال في السيف المملوكي والعثماني أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

ثم نصادف بعد ذلك مرحلة تقرب من مائة وخمسين عاماً، قبل أن نصل إلى سيفين مقوسين للسلطان قايتباي (٨٧٢ ــ ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ ــ ١٤٩٦ م)، تتضح فيهما التغيرات التي حدثت في تلك المرحلة (س. ط. ق ١/١٨١)، (س. ط. ق ١/١٨٢). وعلى أية حال فقد بقي عرض الظهر كما هو عليه، بينما ازداد عرض النصل وطوله، وتضاءلت درجة التقوس، وتضخمت حدبة الظهر بعض الشيء وأصبح الجزء المقوس أكثر عرضاً وأكثر مضاء من الجهتين. أما الحز الذي يتوسط بدن النصل فقد اقترب هنا من حافة الظهر، وقد يكون بديلاً عن حز الوسط أو إضافة إليه.

أما السيوف الأربعة الأخرى الخاصة بالسلطان قايتباي، فهي سيوف مستقيمة وذات حدين. وقد ظهرت في المنمنمات الإسلامية، التي تعود إلى القرنين السابع والثامن للهجرة/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، رسوم للسيوف المستقيمة والمقوسة معاً. ولعل هذا الأسلوب قد استمر كذلك على يد المماليك في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[٥].

سبق أن ذكرنا أن طريقة استخدام السيف



□لوحة رقم ــ ٦ ــ

سيف مملوكي، تاريخه: أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، صانعه: علي بن محمد المصري، الطول بالكامل ٩٤ سم، النصل ٨٥,٥ سم.

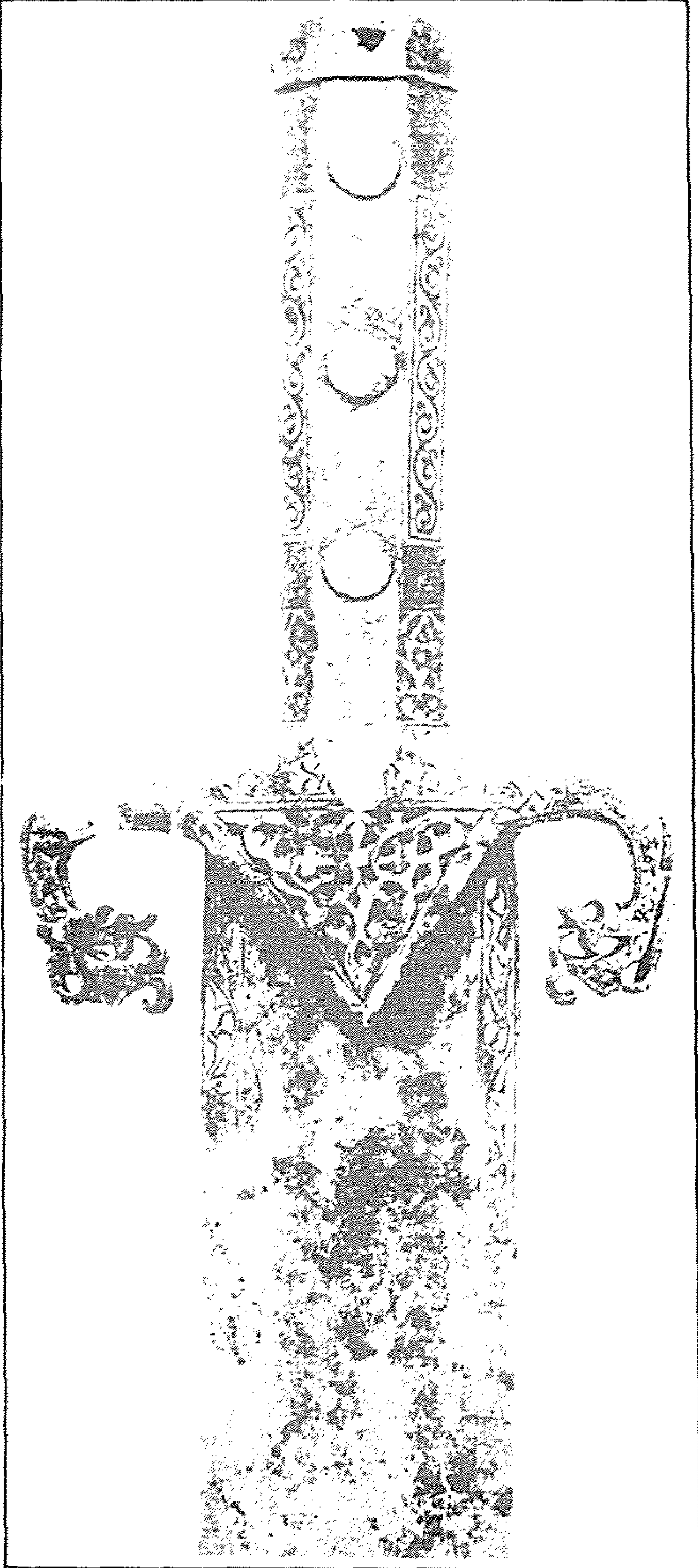
المستقيم، تختلف عن طريقة استخدام السيف المقوس كثيراً. ونضيف هنا أنه كان على المقاتل أن يتعلم الطريقتين معاً. ويتوفر لدينا الدليل الذي يشير إلى أن حداً واحداً فقط من السيوف المستقيمة ذات الحدين، هو الذي كان يستخدم. وفي أحد سيوف السلطان قايتباي المستقيمة، نجد سنادة أصبع تبرز في جهة واحدة من طرف المقبض على الرغم من أن المقبض مستقيم. كما نجد سيلانا (Tang) أو عصعصاً لنصل سيف آخر (لا مقبض له) يميل إلى أحد الجوانب. وهذان المثالان يدلان على أن السيفين قد استعملا من ناحية حد واحد فقط (س. ط. ق ١٨٠/١)، (س. ط. ق ١٨٣/١).

ونلاحظ أن نصل سيف الأمير يشبك (١٤٦٨ ــ ١٤٨٠ م). أحد رجال السلطان قايتباي يأخذ شكلاً مختلفاً بين أشكال السيوف المستقيمة والمقوسة (س. ط. ق ١٨٤/١)، ذو حد واحد ويتقوس بخفة ورقة، ويستمر في الغالب بعرض ثابت حتى نقطة الطرف التي تبدو على هيئة كعب القدم (heel-shaped). وعلى الرغم من أن الحز الذي يتوسط النصل مفلطح وعريض بصورة غير مألوفة، وأن السيف غير مدببُ الطرف، فإنه يصبح ذا حدين ابتداء مما يلي حدبة الظهر (Back-Step-Ridge). ولعل هذا التغيير كان خطوة في طريق البحث عن شكل آخر بصرف النظر عن أسلوب الأداء.

يتمثل هذا الاستمرار في البحث عن شكل جديد، في سيف من سيوف الاحتفالات والمراسم تاريخه (٨٨٩ هـ) ١٤٨٤ م (س. ط. ق ٣٨٥/١). ونصل هذا السيف عريض وظهره كذلك بينما ترتفع شوكة الظهر أو نتوؤه قليلاً عن المألوف بنسبة (٢/٥) ويكون هذا الجزء حاداً في بدايته ثم ينتهي بطرف مدبب، وبهذا يكون السيف صالحاً للطعن والوخز وصالحاً للقطع كذلك.

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، أخذ السيف المملوكي يتجه نحو تحديد شكله وخصائصه. وعلى الرغم من أن استخدام السيوف المستقيمة لم يتوقف،إلا أنها أصبحت قليلة ونادرة. ونورد فيما يلي، خلاصة للعناصر الأساسية التي تحدد مميزات سيوف تلك الحقبة:

كان النصل ــ بصفة عامة ــ مقوساً قليلاً والظهر عريضاً، كما كان الحد مستمراً من المقبض حتى الطرف، مع وجود تقوس طفيف. وكان ظهر السيف مقعراً قليلاً في منتصفه، الأمر



□ **لوحة رقم ــ ٧ ــ**
سيف السلطان قانصوه الغوري. الطول بالكامل ١٠١ سم. النصل ٨٧ سم.

الذي يجعل عرض النصل في الوسط أقل منه سائر البدن ويأخذ في الانحناء حتى نتوء المهموز (Mahmuz) وعنده يصبح النصل ذا حدين، أما الطرف فيأخذ شكل نهاية الإزميل (Spatula) أي أنه يكون معتدلاً. وفي معظم الأحيان لا تكون أطراف النصال مدببة جداً حيث أن وظيفتها الأول كانت القطع، وربما كان هذا هو السبب في خلو هذا النوع من السيوف من الحزوز التي تكون، إن وجدت، قرب حافة الظهر (س. ط. ق ١/١٢٣ ـــ لوحة رقم ٤).

ونلاحظ أن «إبراهيم المالكي»، أحد صانعي السيوف أواخر العصر المملوكي. قد استقر على شكل ثابت وملفت للنظر في صنع السيوف المملوكية. وكأنه هو شكل المنتظر منذ وقت طويل. ويعتبر السيف الذي صنعه للسلطان قانصوه الغوري، نموذجاً كاملاً لهذا النوع (س. ط. ق ١/١١٠١٤ ـــ لوحة رقم ٥). فقد توفرت لهذا الشكل من السيوف ميزتا القدرة على الوخز والقدرة على القطع، على قدر سواء. والحقيقة أن هذا السيف قد صنع بطريقة متزنة جعلته صالحاً تماماً لأداء كل الأغراض المطلوبة منه فضلاً عن روعته من الناحية الجمالية.

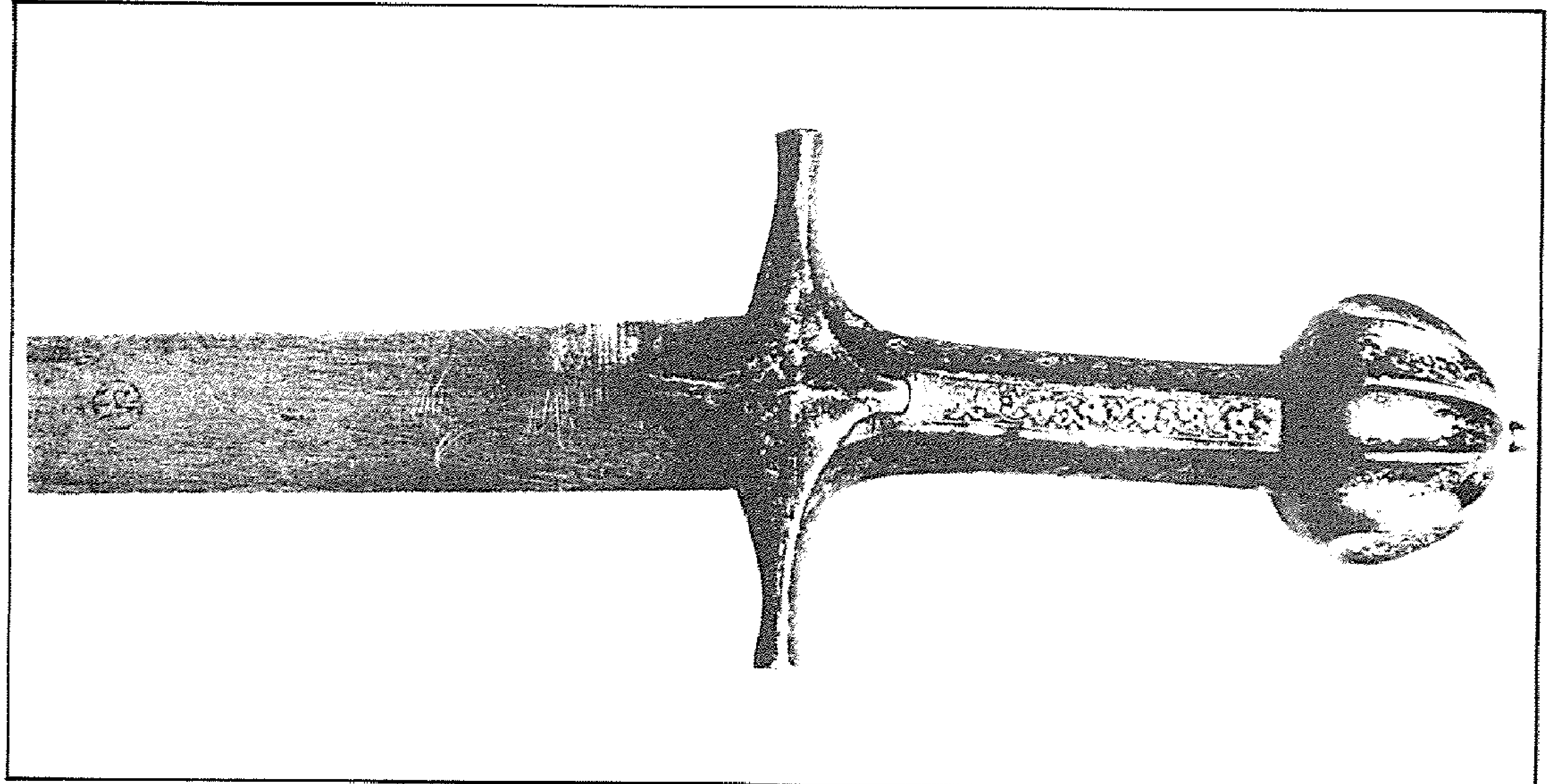
المقابض والواقيات:

لم تتوفر لدينا معلومات مؤكدة خاصة بمقابض ما يرجع من السيوف المملوكية وواقياتها إلى ما قبل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. والواقع أن الموجود منها بين أيدينا ليس أصلياً، حيث أن الأصلي قد ضاع أو تلف مع الزمن أو أنه استبدل أثناء عمليات الترميم والإصلاح فيما بعد.

وعلى أية حال، فإن معرفتنا بأن خطوات التطوير كانت بطيئة ومتأنية لتساعدنا على تصور ما كانت عليه أشكال تلك الأجزاء في الماضي. وفيما يلي بعض الملاحظات على تلك الأجزاء:

(أ) كان شكل المقبض في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مستقيماً أو منحنياً قليلاً، مثمن المقطع، وينتهي ببروز عند طرفه، ويكسو السيلان خشب مغطى بدوره بالجلد ولا سيما جلد السحالي أو الضباب ذات اللون الأخضر. أما قبيعته (طاقيته) فكانت تنتهي بقطعة معدنية مثمنة الشكل عليها زخارف محفورة ومخرمة، (س. ط. ق ١/٢٢٢ ـــ لوحة رقم ٦).

وقد صنعت المقابض الحديدية لسيوف هذه المرحلة على نسق المقابض الخشبية (س. ط. ق



□لوحة رقم ـــ ٨ ـــ
سيف مملوكي، تاريخه: النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. الطول بالكامل ٩٦ سم، النصل ٨٠ سم.

١/١٣٣)، (س. ط. ق ١٢٥/١ ــ لوحة رقم ٧).

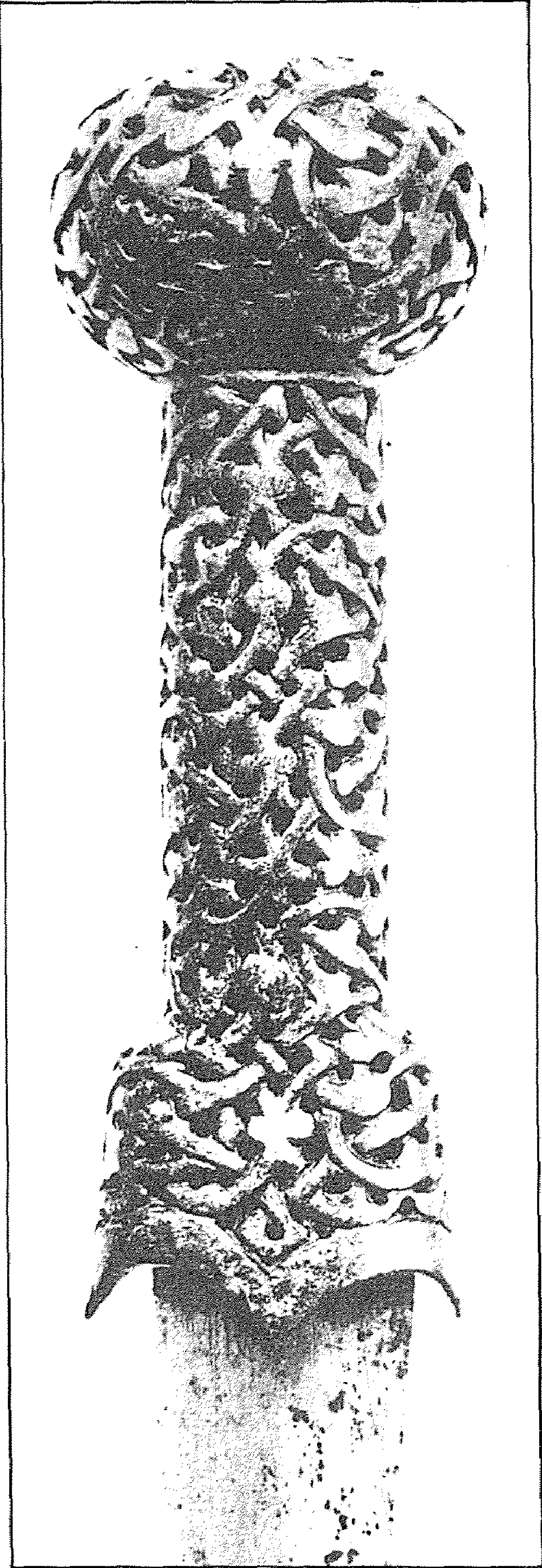
(ب) وهناك نوع آخر من المقابض المملوكية سيلانه مستقيم أو ملتو قليلاً وقطاعه عريض ومثمن أيضاً ولكن طرفه مستدير أو كروي (لوحة رقم ٤) ونماذج هذا النوع من المقابض تشبه مثيلاتها من مقابض السيوف العثمانية «في عهد بايزيد الثاني» وهي نادرة.

(جـ) وهناك نوع ثالث من المقابض يكون طرفه على هيئة كرة من الحديد متصلة بالعصعص. وهذا النوع من السيوف إما أن يكون بلا واقية وإما أن تكون واقيته عبارة عن بروز أو انتفاخ، والأمثلة على هذا الشكل كثيرة. ونشير هنا إلى أن النماذج ذات المقابض كروية الرأس، وذات الواقيات معاً قليلة جداً، (س. ط. ق ٢١٣/١ ــ لوحة رقم ٨). وقد استعمل هذا النوع من المقابض في السيوف المغْوَلية المملوكية (Mec-kilic) كما سنرى فيما بعد.

وواقيات النوعين السابقين أ، ب مصنوعة من الحديد، وذات أطراف غليظة، وهي بوجه عام متعامدة الشكل. وهناك نوع قليل جداً من الواقيات، تنحني أطرافها نحو الداخل وتنتهي برأس تنين (لوحة رقم ٧). وتتكون هذه الواقيات ومقابضها من قطعة واحدة من الحديد. أما بالنسبة للمقابض الخشبية فإنها تصنع على حدة، وهذا نوع نادر جداً (س. ط. ق ١٠٨/١).

الاغماد:

لدينا نماذج قليلة جداً من الاغماد التي تعود إلى العصر المملوكي، ولكن عمليات الترميم والتجديد تناولت الاغماد مثلما تناولت المقابض والواقيات. وجاءت النماذج الموجودة من الخشب المغطى بالجلد، أما الكعب والنصل وحلقتا التعليق فقد صنعت من الحديد أو الفضة. وتحلى الاغماد ــ بما عليها من كسوة جلدية أو حلقات معدنية ــ بزخارف ونقوش محفورة ومخرمة وتطعيمات مختلفة، وقد تكون بعض الأجزاء المعدنية مطلية بالذهب (لوحة رقم ٣).



□لوحة رقم ــ ٩ ــ
سيف مملوكي. تاريخه: النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، الطول بالكامل ٩٥ سم، النصل ٧٩ سم

السيوف المِغْوَلية المملوكية: (Mec-Kilic)

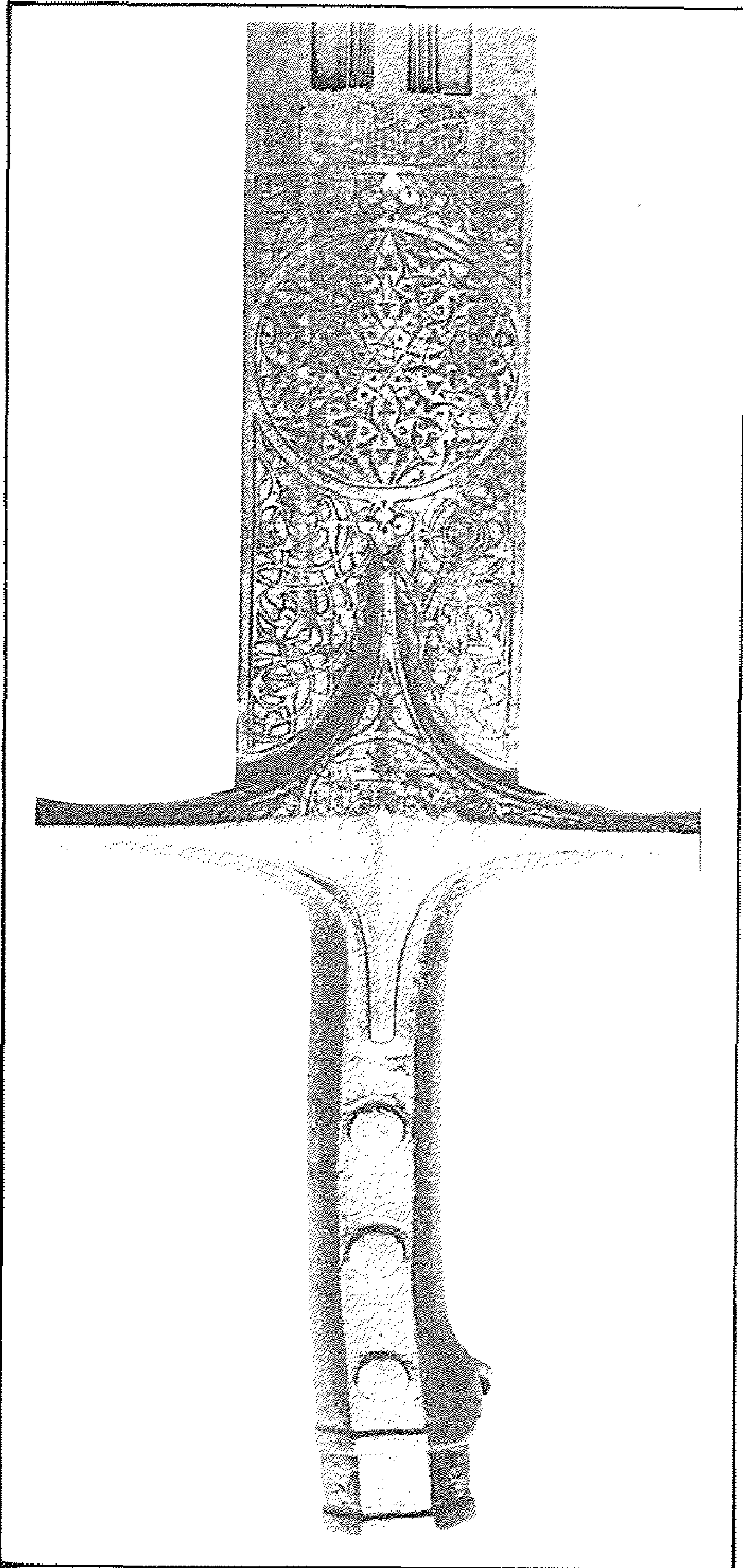
يضم المتحف العسكري باستانبول ثلاثة سيوف، تتشابه فيما بينها إلى حد كبير. ولذا فقد شكلت هذه السيوف الثلاثة نوعاً قائماً بذاته (س. م. ع ٢٤٤٣ ــ لوحة رقم ٩).

ونسمي مثل هذا النوع من السيوف المستقيمة ذات الحدين بالسيوف المِغْوَلية (Mec-Kilic) وهو النوع الذي يكون الوخز أول خصائصه. والنصل في هذا النوع ــ فيما بين الواقية وإلى مسافة تقرب من ١٢ ــ ٢٢ سم ــ غليظ وحدّه كظهره على نفس القدر من السمك؛ أما ما يلي هذا الجزء فذو حدين، ومهموز في كل جانب. وتكون أعرض منطقة من النصل في هذا الجزء، ثم يأخذ بعدها في الضيق شيئاً فشيئاً ليصبح مدبباً عند الطرف. ومقابض السيوف الثلاثة من الحديد، وتكون قطعة واحدة مع النصل، ونهاياتها كروية وليست لها واقيات. ولما كان الجزء الأدنى من نصال هذه السيوف حاداً لاستخدامه في القطع، فقد رأينا ألا نسمي هذا النوع Mec فقط وإنما أسميناه Mec-Kilic لأنه يجمع بين ميزتي الوخز والقطع.

ونستطيع أن نضيف إلى هذه المجموعة، سيفاً آخر ينسب إلى السلطان قايتباي (س. ط. ق ١/٢١٠) مقبضه من الحديد (ذي القطعة الواحدة)، ونهايته كروية أيضاً. والنصل هنا مستقيم، ويستدق في اتجاهه نحو الطرف. وله حدان يبدآن عند الواقية. ويمكننا أن نلحق بهذه المجموعة سيفاً مملوكياً آخر بمتحف طوب قابي، يرجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي (س. ط. ق ١/٢١١).

المِغْوَل المملوكي (Mec):

قطعة السلاح التي تستخدم للوخز من مسافة قريبة، وتقتصر على الوخز فقط، نسميها «مِغوَلاً» (Mec) وهناك نموذج واحد فقط لهذا النوع بين قطع السلاح المملوكي (س. م. ع ٢٤٣١ ــ لوحة رقم ١٠). ونصل هذه القطعة مستقيم ويستدق تدريجياً حتى يصير مدبباً عند الطرف. وقطاعها مثلث الشكل، ولها بهذا ثلاثة حدود وثلاثة جوانب غائرة نحو الداخل. وينتهي المقبض على شكل كرة، ويكون مع البدن قطعة واحدة. والواقية منحنية تنتهي برأس تنين. ونلاحظ عدم التوافق بين جسم النصل وبين المقبض وهذا يحملنا على القول بأن المقبض ليس أصلياً وإنما أضيف فيما بعد. ونرى نموذجاً



□لوحة رقم ــ ١٠ ــ
سيف مغربي، تاريخه: القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. صانعه: محمود... (المغربي). الطول بالكامل ١٠٨ سم. النصل ٩٣ سم. الغمد ٩٩ سم.

مشابهاً جداً لهذا النصل في مِغوَل آخر للسلطان محمد الثاني (س. ط. ق ١/٩١) وهو يمثل نموذجاً فريداً آخر في مجموعة الأسلحة العثمانية.

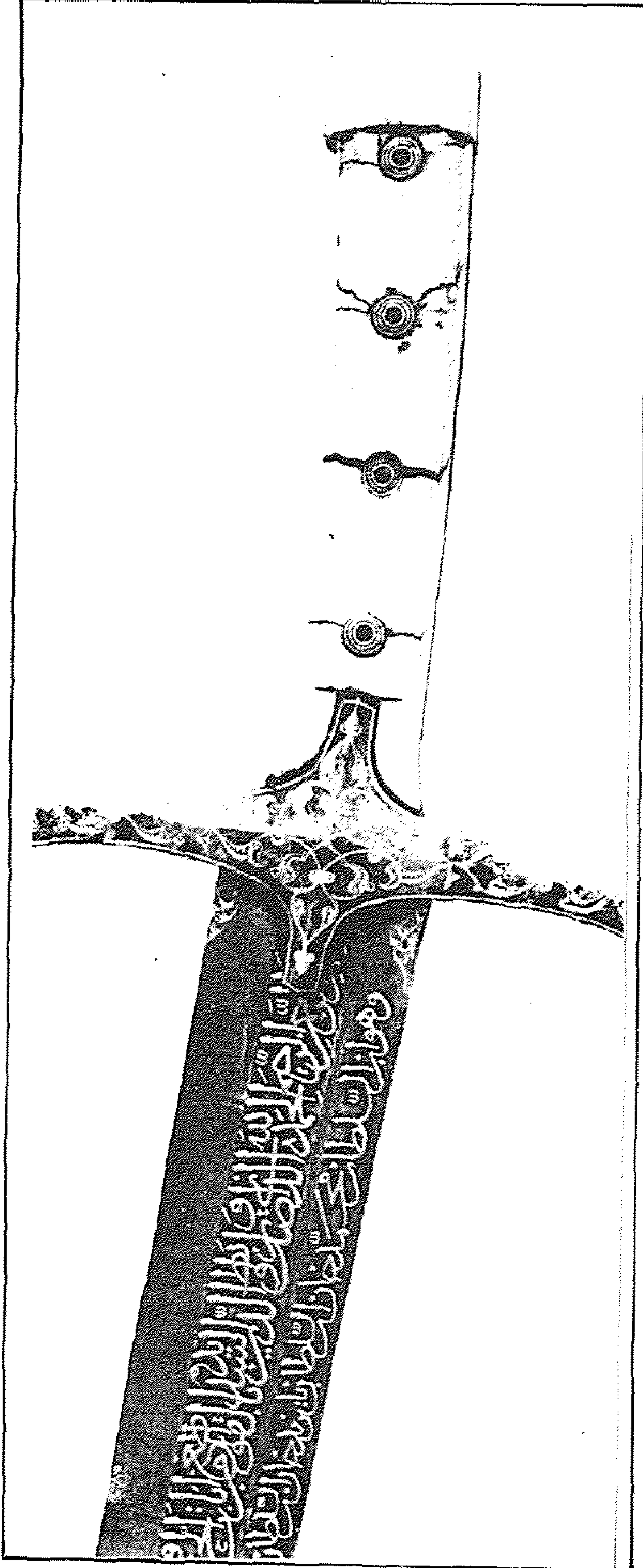
السيوف المملوكية السورية

سوف نضع تحت هذا القسم مجموعة من السيوف، محفوظة بالمتحف العسكري باستانبول، يستدل مما عليها من كتابات ــ ومعها بعض السيوف الأوروبية من العصر الوسيط ــ أنها كانت ضمن مدخرات قلعة الاسكندرية (قايتباي)، بين عامي ٧٧٠ ــ ٨٦٧ هـ (١٣٦٨ ــ ١٤٦٣ م). وهذه هي الأسلحة التي جيء بها إلى استانبول بعد فتح مصر، وأودعت في دار السلاح والجبخانة.

ونصال هذه السيوف مستقيمة وذات حدين، وفي أبدانها حزوز تتراوح ما بين واحد أو اثنين أو أكثر، وتبدأ هذه قريباً من المقبض وتستمر حتى الطرف. وقد وجدنا في الوقت نفسه نصالاً بدون حزوز كما كان بعض هذه النصال لا تتميز بخصائص بارزة.

تختلف مقابض هذه المجموعة عما نعرفه في مقابض السيوف الإسلامية الأخرى فهي مستقيمة وذات مقطع رباعي مسطح، كما أنها مصنوعة من الخشب ومغطاة بقطعتين منفصلتين من الحديد. لحمت بالقطعة العلوية طاقية معدنية شبه مستطيلة. ويوجد على المقبض حلقة تعلق بها قطعة السلاح هذه في الرسغ، أما الواقية فتتكون من قطعتين من الحديد لحمتا معاً بالمقبض (س. م. ع ٢٣٤٠). وهذا الشكل هو الشكل المألوف للواقية. ونلاحظ أحياناً بعض التغيرات ولا سيما في طرفي الواقية الملتوية إلى أسفل. على أن هذا لا يغير شيئاً في الشكل العام. وهناك نموذج واحد صنع المقبض فيه من قطعة واحدة (س. م. ع ٢٣٦٠).

ونرى تشابها قريباً بين نهاية مقبض السيف الأيوبي الوحيد الموجود بين أيدينا (س. م. ع ٢٣٥٥) وبين نهايات مقابض هذه السيوف المملوكية. واستناداً على هذا التشابه، يمكننا القول بأن النماذج المبكرة من هذه السيوف موضوع البحث، ربما كانت سورية أو عراقية أو من جنوب بلاد الأناضول في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد. ونلاحظ أن كتابة



□لوحة رقم ــ ١١ ــ
سيف السلطان محمد الثاني (الفاتح) (٨٤٨ ــ ٨٥٠ هـ /١٤٤٤ ــ ١٤٤٦ م ٨٥٥ ــ ٨٨٦ هـ /١٤٥١ ــ ١٤٨١ م).
الطول بالكامل ١٢٦.٥ سم، النصل ١٠٦ سم.

حجج وقف معظم السيوف، التي تدخل مقابضها ضمن هذا النوع، مؤرخة في عام ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ ـ ١٣٦٩ م)، ولم يصل إلينا من اغماد هذه السيوف شيء حتى الآن[٦].

٤ ـ السيوف المغربية:

للسيوف المغربية شهرة فائقة في العالم الإسلامي في العصر الوسيط، فنصالها المستقيمة، ذات الحدين مصنوعة من صلب على درجة عالية من الجودة، وهي طويلة وعريضة، لكنها رقيقة، حتى أنها إذا مدت بجنبها موازية للأرض، مالت بطرفها نحو الأرض قليلاً. ونرى حزوزاً رفيعة تبدأ على بعد حوالي ١٠ ـ ١٥ سم من المقبض وتستمر حتى طرف النصل محدثة فيما بينها خطوطاً متقاطعة. وهذه الحزوز الدقيقة الرقيقة، لا تعطي الدليل فقط على أنها مصنوعة من صلب غاية في الجودة وإنما تدل على ما تتمتع به صناعتها من مستوى فني رفيع. وكان المماليك يقدرون قيمة هذه السيوف، بل إنهم كانوا يستقدمون الصناع المغاربة لصنعها؛ وكان هؤلاء يقومون أيضاً بعمل المقابض والواقيات وفق أسلوبهم أو حسب الأساليب الأخرى (س. ط. ق ١/١٢٩ ـ لوحة رقم ١١).

٥ ـ السيوف العثمانية:

نلاحظ أن تطور أشكال السيوف العثمانية، بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، وقد لجأنا إلى قول ذلك نظراً لعدم حصولنا على سيف عثماني الصناعة يرجع إلى ما قبل عهد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ / ١٤٥١ ـ ١٤٨١م). وما تزال مسألة عدم وجود نماذج من سيوف العصر العثماني المبكر (٦٩٩ ـ ٨٥٧ هـ / ١٢٩٩ ـ ١٤٥٣ م) موضع جدل. وتنحصر وجهات النظر في هذا الموضوع فيما يلي:

(أ) إن معدن الصلب لم يكن متوفراً في الأراضي العثمانية في ذلك العهد، بل كان من المواد الثمينة التي تستورد من الخارج. وقد



□لوحة رقم ـ ١٢ ـ
سيف للسلطان بايزيد الثاني. الطول بالكامل ١٠١ سم. النصل ٨٥ سم.

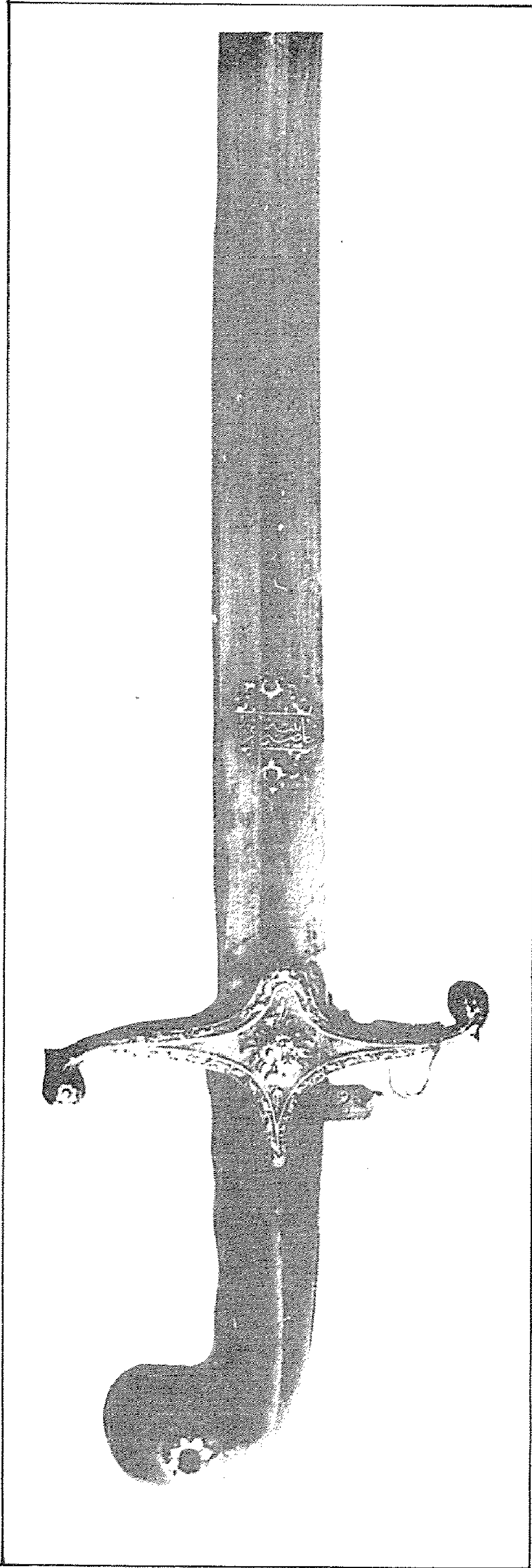
يكون هذا من أسباب اضطرارهم إلى صهر السيوف القديمة لإعادة عمل سيوف جديدة منها.

(ب) ظل مخزون السلاح في «بورصه» و«أدرنه» في مكانه ولم ينقل منه شيء إلى استانبول بعد الفتح مما أدى إلى تبدده مع الزمن(٧).

النصال:

تبدأ نماذج السيوف العثمانية، بأربعة تحمل اسم ولقب السلطان محمد الثاني (٨٥٥ ــ ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ ــ ١٤٨١ م). ومما يلفت الانتباه، للوهلة الأولى، في هذه السيوف الأربعة والسيوف الأخرى التي ترجع إلى هذا العهد، أنها تمثل نموذجاً خاصاً بالمرحلة التالية. ويعتبر سيف المراسم المنسوب إلى السلطان محمد الثاني، نموذجاً مثالياً للسيوف العثمانية حينذاك بما له من شكل جميل (س. ط. ق ١/٩٠ ــ لوحة رقم ١٢). النصل في هذا النموذج ذو حد واحد مقوس قليلاً والظهر سميك، والجزء الذي يلي المهموز حاد من الجانبين ويشكل أكثر من ثلث النصل، والطرف مدبب. وإذا عرفنا أن السيف المقوس دخل إلى الأناضول في النصف الأول من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد(٨)، أمكننا القول بأن هذا الشكل، إنما هو نتيجة تطور كان قد حدث منذ مائتي سنة على الأقل.

يتميز اثنان من سيوف محمد الفاتح الأربعة، بكونهما مستقيمان وبحدين من الجانبين. وعلى الرغم من تشابه هذين السيفين فيما بينهما ولا سيما في الحزوز العريضة والأطراف غير المدببة، إلا أنهما يختلفان من حيث الجودة (س. ط. ق ١/٣٧٦)، (س. ط. ق ١/٣٧٤). ولعل السيف الأخير الذي يتمتع بدرجة أعلى من الجودة يرجع في أصله إلى أوروبا أو إلى شمال أفريقية؛ ولعله أيضاً كان قد قدم هدية للسلطان. إن الرسوم الزخرفية المنفذة على جانبي نصله تقدم لنا، بشبهها من التاج، دليلاً على صحة هذا القول. ولا نجد نصالاً عثمانية مستقيمة وذات



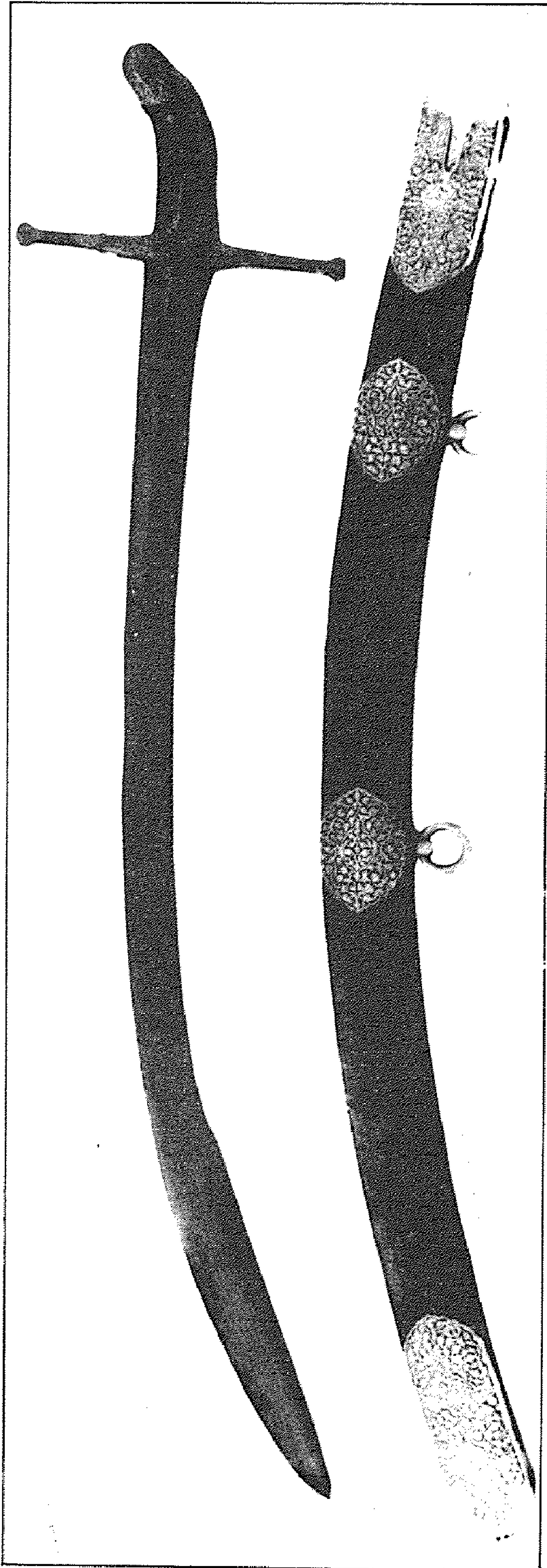
□**لوحة رقم ــ ١٣ ــ**
سيف عثماني، تاريخه: بداية القرن القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد. الطول بالكامل ١٠٢ سم، النصل ٨٧ سم. الغمد ٩٠ سم

حدين سوى في هـذين السيفين اللذين يمكن اعتبارهما استثناء من القاعدة. ولعلنا نستطيـع القول أن مرحلة الانتقال من السيوف المستقيمة إلى السيوف المقوسة قد بدأت عند العثمانيين قبل المماليك.

تطور شكل السيف المقوس في عهد السلطان بـايـزيـد الثـانـي (٨٨٦ ــ ٩١٨ هـ / ١٤٨١ ــ ١٥١٢ م) بصورة أوضـح، ويعتبر السيفان المنسوبان إلى هذا السلطان من النماذج الجيدة لهذا الشكل (س. ط. ق ١/٣٨٣ ــ لوحة رقم ١٣) والحقيقة أن الشكل العام لم يتغير كثيراً، ولكن تقوس النصل ازداد بعض الشيء عما كان عليه كما تضاءل سمك الظهر أيضاً. وتجدر الإشارة هنا إلى الشبـه القريب بـين هذين السيفـين وبين السيف الذي صنعه إبراهيم المالكي للسلطان المملوكي قانصوه الغوري (لوحة رقم ٥) ولعل الاتصال كان موجوداً بالفعل بسبب العلاقات المتبادلة بين البلدين ولم يكن نتيجة الصدفة.

وهناك نماذج ذات أشكال رمزيـة من عهد السلطان بايزيد الثاني وهي عبارة عن ثلاثـة سيوف متعرجة أو ثعبانيـة الشكل (س. ط. ق ١/٣٨٨). أحـدهـا يـنـسـب إلى السلطان كمـا يوجـد سيف آخـر ينسب إلى السلطان، وهو على شكل ذو الفقار (س. ط. ق ١/٣٨٤) وله حد واحد، كما أنه قليل النقوش وذو ظهر سميك. وفي الجزء العريض من أسفل نصله، حزوز (أخاديد) طولية. ولعله بشكله هذا يكون أكثر صلاحية للاستخدام من السيوف الأخرى، وهو يختلف كثيراً عن النماذج المملوكي من نوع (ذو الفقـار) والذي نشـاهـده في (س. ط. ق ١/٢١٥).

إن عدد ما لدينا من السيوف التي تعود إلى عـهـد السـلطان سـليـم الأول (٩١٨ ــ ٩٢٦ هـ /١٥١٢ ــ ١٥٢٠ م) محـدود جداً. والسيف الوحيـد الذي يعـرف صـاحبـه، هـو السيف الذي ينسب إلى هـذا السلطان نفســه (س. ط. ق ١/٩٤).



□لوحة رقم ــ ١٤ ــ
سيف عثماني، تاريخه: الربـع الأول من القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد. صانعه: أحمد التوقاتي، الطول بالكامل ٩٣,٥ سم النصل ٨٠ سم، الغمد ٨٦ سم.

ونصل هذا السيف - يختلف كثيرا عن نصال سيوف عهد بايزيد الثاني، وعن السيف المملوكي الذي صنعه إبراهيم المالكي للسلطان سليم الأول، والذي يشبه السيوف السائدة في زمن بايزيد (س. م. ع ٢١٨٧٤). وهذا النصل (لوحة رقم ١٦)، على غير عادة السيوف العثمانية، ذو مقاس أقصر طولاً (٧٦ سم) وحدّ أقل مضاء، ومهموز أقل بروزاً، وسطح غفل من الحزوز. ونلاحظ أن أحد السيوف التي تم صنعها على يدي أحمد التوقاتي (س. ط. ق ١/٣١١ ــ لوحة رقم ١٤). ــ والذي يرجع إلى ذلك الوقت ــ يشبه في شكله سيف السلطان سليم الأول. ويبدو من هذه الأشكال أن ثمة بعض التطور في هذا العهد.

وتدل النماذج الكثيرة المتوفرة من زمن السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ــ ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ ــ ١٥٦٦ م) على أن السيف العثماني قد أهمل تطويره ابتداء من الربع الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ولم يحظ بأي تجديد أو تغيير إيجابي، وأن كل ما حدث فيه من تطور هو مجرد تنويع في الأشكال التي ظهرت زمن السلطانين بايزيد الثاني وسليم الأول. ونرى في الوقت ذاته أن الشمشير الصفوي، الذي أضيف إلى مجموعة السيوف الإسلامية أواسط القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، قد أثر إلى حد ما في التنويع الذي حصل في سيوف هذه المرحلة، غير أن هذا الموضوع يعتبر خارجاً عن نطاق بحثنا.

المقابض والواقيات:

يعتبر شكل مقابض وواقيات ونصال السيوف العثمانية التي تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي نتيجة طبيعية لتطور طويل المدى، استمر إلى أن استقر السيف أخيراً في شكله المتوازن.

وقد حصلنا على مقبض وواقية سيف من سيوف السلطان محمد الثاني وهو سيف مستقيم ذو حدين (س. ط. ق ١/٣٧٦). والمقبض مستقيم كذلك، ويبلغ طوله مرة ونصف المرة بالنسبة للمقابض العادية، وهذا ينسجم مع طول النصل الأصلي قبل تحطمه.

ينتهي المقبض بنتوء في كلا الجانبين، مما يدل على استخدام حدّية. وعندما تحول المقاتلون إلى استخدام السيف المقوس ذي الحد الواحد، لم يلجأ العثمانيون إلى تقويس مقابض سيوفهم ولا إلى استخدام السيوف ذات الحد الواحد، كما حدث في بعض السيوف المملوكية، بل حدث في المقابل أن مال عصعص النصل قليلاً في السيف المستقيم المنسوب إلى السلطان محمد الفاتح (س. ط. ق ١/٣٧٤).

ونرى في مقابض السيوف زمن السلطان بايزيد الثاني شكلاً مختلفاً، وذلك أنها بينما كانت تغطي بعظم بعض أنواع السمك، أصبحت تصنع من الخشب أو الحديد ذي القطعة الواحدة، إضافة إلى ازدياد في التقوس والعرض، كما تكورت طاقية طرف المقبض الذي مال نحو أحد الجانبين، وطرأ عليه بروز بسيط كأنه اصبع صغير. ولم يحدث في هذه المرحلة أي تغيير في الواقية. وبوجه عام فإن مقابض السيوف في عهد بايزيد الثاني، بأنواعها هذه، تبدو متناسقة مع نصالها. ونشاهد هذه المقابض ذاتها في السيوف المتماوجة أو الثعبانية المعاصرة ذات الحدين.

ووتجدر الإشارة هنا إلى أن أشكال هذه المقابض ذات الطواقي المائلة وواقياتها ذات الأطراف الطويلة والرفيعة يذكرنا بمقابض السيوف الصفوية التي ستظهر بعد ٢٠ ــ ٣٠ عاماً من هذا التاريخ. ولعل مقابض السيوف الصفوية المبكرة التي لا يتوفر لدينا نماذج منها في الوقت الحاضر، كانت تشبه مقابض السيوف في عهد السلطان سليم الأول، حيث كان هناك تأثير متبادل بينهما.

الاغماد

اغماد السيوف العثمانية مصنوعة من الخشب ومغطاة بالجلد، أما الفوهات وحلقات التعليق فمصنوعة من الحديد. وبصفة عامة، تخلو الأجزاء المعدنية في الاغماد في عهد محمد الثاني من الزينة، كما هو الحال في طواقي المقابض وفي الواقيات. أما في عهد بايزيد الثاني فقد زينت الأجزاء المعدنية بالتكفيت بالذهب.

المغول العثماني: (Mec)

لم نر عند العثمانين ذلك النوع من السيوف المغْوَلية (Mec-Kilic) التي رأيناها عند المماليك. أما سلاح الوخز الذي ورد في وثائق الأرشيف باسم متش (Mec) أو شيش (Sis) فيوجد منه نموذج واحد فقط يحمل اسم السلطان محمد الثاني (س. ط. ق ١/٩١).

وهو يشبه المغْوَل المملوكي الذي عرفناه سابقاً (لوحة رقم ١١). ويكون نصل هذا النوع طويلاً وذا ثلاثة أوجه ويستدق تدريجياً ابتداء من قاعدته إلى أن يصبح مدبباً عند طرفه. والفارق الوحيد بين النموذجين هو أن تقعر الجوانب في النوع العثماني أقل منه في النوع المملوكي، وأن طول المقبض يبلغ مرة ونصف المرة بالنسبة للطول المعروف ليتعادل مع طول النصل؛ فضلاً عن أنه مستقيم ومغطى بعظم السمك. وللطاقة نتوء من الجانبين. وقد حل محل الواقية جسم معدني في أحد جانبيه بروز على هيئة محارة. وغمد هذا النوع مصنوع من الخشب المغطى بالجلد، وبه حلقتان للتعليق ونعل في نهايته، وليست له فوهة معدنية.

٦ ـ السيوف الصفوية المبكرة:

أشرنا فيما سبق إلى أننا لم نعثر على نماذج حقيقية لسيوف ترجع إلى ما قبل العصر الصفوي أو إلى بدايته، ولهذا لا نستطيع دراسة المراحل الأولى لشكل السيف الصفوي (الشمشير) الذي ظهر في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. ومع هذا ففي الإمكان، عن طريق الحدس والتخمين، التوصل إلى بعض الأفكار استناداً إلى ما هنالك من تشابه بين بعض السيوف. ونلخص هذا التشابه في الآتي: يشبه أحد السيوف العثمانية زمن السلطان سليم الأول في شكله شكل السيف الصفوي المبكر. وفرضاً، لو أننا ثنينا طاقية المقبض بمقدار ٩٠، وألغينا المهموز، وقوسنا النصل قليلاً أمامنا شكل الشمشير الصفوي (يشبهه بعض العثمانيين بذيل الأسد). وتلك في تصوري هي المراحل التي مر بها شكل السيف الإيراني.

الهوامش

(١) د. حتي، فيليب: **تاريخ العرب، مطول**، الجزء الأول، ط ٣٠. (بيروت ــ ١٩٦١)، ص ١٨٧.

(٢) د. حسن، إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي**، ج ١، ط ٦. (القاهرة ــ ١٩٦٤) ص ٤٧٩.

(*) الضبّور، هو آلة تشبه الدبابة، مصنوعة من الخشب ومغطاة بالجلد، ينكفىء المهاجمون في داخلها ويغيرون على العدو يقاتلونه وهم في داخلها.

(**) أشار المؤلف إلى السيوف المحفوظة في طوب قابي بـ (س.ط.ق.) وإلى السيوف المحفوظة في المتحف العسكري بـ (س.م.ع.).

(٣) إن تثبيت منشأ السيف المقوس وعهود انتشاره وطرق هذا الانتشار، وكذلك تثبيت فنون القتال التي تستخدم فيها هذه السيوف، خارج نطاق هذا البحث. للامور المتعلقة بهذه المواضيع انظر:
W.W.Arendt: «Türkische sabel aus den VII-IX. Jahrhunderten», Archeologia Hungarica, 1934, Vol. 16, pp. 48-69.
Bahaeddin Ögel: «Türk Kilicinin mense ve tekâmülü hakkinda», Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Cografya Fakültesi Dergisi, 1948, Vol. 6, pp. 431-460.
Ünsal Yücel: «Türkische Kriegführung und Waffen», Wien 1529-Die erste Türkenbelagerung, Wien 1979, pp. 107-121.

(٤) توجد مجموعة من السيوف الإسلامية في جناح الأسلحة بمتحف طوب قابي لا يمكن تثبيت العصور التي ترجع إليها والمدارس الفنية التي تنسب إليها بصورة قطعية. ومن الممكن إرجاع بعضاً من هذه السيوف إلى أطراف إيران وإلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وحتى إلى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. ولم نتطرق في بحثنا الذي يستند لدراسة النماذج المعروفة والمثبتة، إلى تلك السيوف التي تؤدي كل منها إلى دراسة ومناقشة طويلة.

(٥) يحيى بن محمود الواسطي: مقامات الحريري (١٢٣٧)، المكتبة العالمية، باريس، الرقم: ٥٨٤٧.

(٦) Varka ve Gülsah Mesnevisi, 13. yüzyil ilk yarisi (Anadolu), Topkapi Sarayi Müzesi Kütüphanesi, H. 841.

(٧) المصدر السابق. وكذلك انظر: جامع التواريخ (الربع الأول من القرن الثامن للهجرة / الرابع

عشر للميلاد)، مكتبة متحف طوب قابـي، إستانبول، الرقم: H. 1653.

(٨) يبلـغ مجمـوع عـدد هـذه السيـوف في المتحف العسكري عشرة سيوف. ولكننا تناولنا أربعة منها فقط في بحثنا هذا. أما بقية السيوف المحفوظة في المتحف العسكري وعددها ستة سيوف فإنها مسجلة تحت الأرقـام الآتيـة: (٢٣٥٩، ٢٣٧٦، ٢٣٨٣، ٦٤٠١، ١١١٩٣، ١٤٧٨١). ولأجل إيجاد توضيـح للمسائل المتعلقة بالسيـوف المنسوبـة إلى أطراف سوريا والعراق، وكذلك السيوف التي بقيت في مصر منذ القديم، والتي نقلت فيما بعد إلى أوروبا بعد استيلاء نابليون، يجب القيام بدراسة مستقلة في هذا الخصوص.

(٩) إن النماذج الذي لم تصل إلينا من هذا العهد، ليست السيوف فحسب، بل كافة أنواع الأسلحة الأخرى، وإن التي وصلت إلينا هي الخوذة الوحيدة التي تنسب إلى السلطان أورخـان (١٣٢٦ ـــ ١٣٥٩) فقط.

(١٠) Varka ve Gülsah Mesnevisi, 13. yüzyil ilk yarisi (Anadolu) Topkapi Sarayi Müzesi Kütüphanesi, H. 841.

المـــراجـــع

ـــ زكي، عبد الرحمن: «بعض قطـع الأسلحة الإسلامية في استانبول»، المقتطف، نيسـان/أبريـل ١٩٤٠، العدد ٩٦، ص ٢٩٣ ـــ ٢٩٧.

ـــ زكي، عبد الرحمن: «السيف في العالم الإسلامي»، الهلال، القسم الأول، القاهرة، ١٩٤٠، ص ٥٧ ـــ ٦٦.

ـــ زكي، عبد الرحمن: «السيف في الإسلام»، القاهرة، ١٩٥١.

ـــ زكي، عبد الرحمن: «السيوف وأجناسها»، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة: ١٩٥٢، العدد ١٤ (٢)، ص ١ ـــ ٣٦.

ـــ زكي، عبد الرحمن: «السيف في العالم الإسلامي»، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

ـــ د. حتي، فيليب: تاريـخ العرب المطول، الجزء الأول، ط. ٢، (بيروت ١٩٦١).

ـــ د. حسن إبراهيم حسن: تاريـخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ١، ط ٦،(القاهرة، ١٩٦٤).

Ahmed Refik: «Fatih Devrine Ait Vesikalar», Tarih-i OsmaniEncümeni Mecmuasi, 1335-37 (1919-21), Nr. 49: 62, pp. 1-58.

Bikkul, Ahat Ural: «Topkapi Sarayi Silâh Müzesindeki Eserler», Türk Etnografya Dergisi, 1957, Nr: 2, pp. 35-52, 8 figs, 1 plan.

Bikkul, Ahat Ural: «Topkapi Sarayi Müzesindeki Türk Kiliclari», Türk Etnografya Dergisi, 1961, Nr: 4, pp. 20-28, 4 figs.

Hoffmeyer, Ada Bruhn: «Middelalderens islamiske svaerd», (Summary in English: «Islamic Swords of the Middle Ages»), Vaabenhistoriske Aarboger, Kobenhaun, 1956, Vol. VIII, b-c, pp. 63-80, 3 figs.

Mayer, L.A. : «Islamic Armourers and Their Works, Geneva (Albert Kunding) 1962.

Muhtar, O. Sermed: Müze-i Askeri-i Osmani-Rehber, 3 Vol, Istanbul 1, 1920-1922.

Ögel, Bahaeddin: «Türk Kilicinin Mense ve TekâmülüHakkinda», Ankara Universites Dil ve Tarih Cografya Fakültesi Dergisi, 1948, Vol. 6, pp. 431-460, 19 figs.

Öz, Tahsin: Hirka-i Saadet Dairesi ve Emanat-i Mukaddese, Istanbul, 1953, pp. 36-46, fig. 17-35.

Öz, Tahsin: «Fatih Sultan Mehmet II'ye Ait Eserler, Ankara, (Türk Tarih Kurumu Yayini) 1953.

Stöcklein, Hans: «Die Waffenschätze in Topkapu Sarayi Müzesi zu Istanbul-Ein Vorlangiger Bericht», Ars Islamica, 1934, Vol. 1, pp. 200-218, 18 figs.

Stöcklein, Hans: «Arms and Armour», A.U. Pope: Survey of Persian Art, 1939, Vol. III, p. 2555-2585, pls. 1405-1433.

Yücel, Ünsal: «Türk Kilic ustalari», Türk Etnografya Dergisi, 1964-1965, Nr: 7-8, pp. 59-99, 45 figs.

Yücel, Unsal: «Thirteen Centuries of Islamic Arms», Apollo July 1970, pp. 46-49, fig. 1-3, 5.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «Islamic Swords in the Middle Ages», Bull. de l'Institut d'Egypt, Cairo, 1954, Vol. XXXVI, 7 plates, pp. 365-379.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «Military Literature of the Arabs», Cahiers d'Histoire Egyptienne, sér. VII, fasc. 3 1955, pp. 149-160.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «Nogle Blankvaben pa Museet forislamisk Kunst i Cairo» (Summary in English: «Important swords in the Museum of Islamic Art in Cairo»), Vaabenhistoriske Aarborger, Kobenhaum, 1966, Vol. XII, pp. 143-157, 7 figs.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «On Islamic Swords», Studies in Islamic Art and Architecture in Honour of Professor K. A.C. Creswell, The American University in Cairo Press, 1965, 1965, pp. 270-291, 18 figs.

Zaky, 'Abd al-Rahman: «Medieval Arab Arms», in Islamic Arms and Armour, edited by Robert Elgood, London Scholar Press, 1979, pp. 202-212, 12 figs.



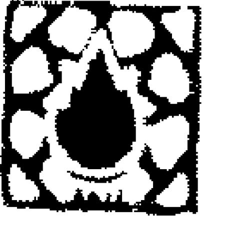
التاريخ في الأندلس

حتى القرن الحادي عشر ميلادي (الخامس هجري)

بقلم: حياة بوعلوان

ترمي هذه الدراسة إلى توضيح بعض المعالم الرئيسية للتاريخ الأندلسي حتى القرن الحادي عشر ميلادي من خلال نخبة من المؤرخين عكسوا الاتجاهات المختلفة وأبرزوا في كتاباتهم التطوّر المرحلي والحضاري في مفهومهم للتاريخ. بهذا المعنى سوف لن تكون معالجتنا تعداداً لجميع المؤرخين أو سرداً مفصلاً لسيرهم[1] وإنما سنحاول هنا الإجابة على ثلاث نقاط: أولاً، الغاية التي من أجلها كتب المؤرخ، لماذا كتب وكيف تطوّرت تلك الكتابة من قرن إلى قرن. ثانياً، المنهج، أي طريق اتّبع المؤرخ، هل كان موضوعياً أم منحرفاً تجاه أسرة حاكمة أو ميل معين. ثالثاً، طريقة الانتقاء، ما هي الأخبار التي رواها وهل كان لديه مفهوم خاص للحوادث أو للتاريخ، هل كان اهتمامه بالإنسان بكامله، أم بنواحي معيّنة من الشخصية الإنسانية. وهكذا، ومن خلال تلك التساؤلات التي ستتداخل بلا شك أثناء البحث، سنحاول أن نتتبّع سير التاريخ الأندلسي ونتلمس الخيوط التي كانت حافزاً وإلهاماً لمؤرخي القرن الحادي عشر ميلادي ليتطلعوا إلى الأمم السالفة ويبحثوا عن تاريخها وعلومها.

□ أستاذة التاريخ والحضارات في كلية بيروت الجامعية.



لم يكتب التاريخ في القرون الأولى بعد فتح الأندلس إلا نادراً لأن العرب اعتمدوا على الحفظ والذاكرة، وكانت تقاليد العائلة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، يروونها في المجتمعات وفي الأسواق وفي القصور. لم يكن هنالك على ما يبدو حاجة إلى تاريخ مكتوب، ويقال أن التاريخ الإسلامي كان يعلّم شفهياً في المدارس. فقد جاء في ابن القوطية، وفي أخبار الصميل بن حاتم الكلبي رئيس المضرية، بأنه: «خطر يوماً بمؤدّب يأدب الصبيان وهو يقرأ وتلك الأيام تداولها بين الناس فقال الصميل تداولها بين العرب فقال له المؤدب بين الناس، فقال الصميل وهكذا نزلت الآية قال له نعم هكذا نزلت...»(٢).

كان المجتمع في البداية مجتمع محاربين شغلتهم أمور الحاضر عن التلفّت إلى الماضي فقلّ الكتّاب المحترفون ومعظمهم علماء دين، ألّفوا كتباً تناسب طفولة تلك الحضارة في عصر يبدو وكأن الإيمان كان فيه متعطشاً لأية هداية تعطى له كما يقول دوزي(٣). لقد كان الاهتمام، حتى في فترة متأخرة، بغير كتب الدين يعتبر شيئاً لا قيمة له؛ ويقال أن أبا محمد الباجي الراوية، الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي)، دخل يوماً على المنصور ابن أبي عامر ووجّه إليه الّلوم قائلاً: «... أدخلت يدك في الدنيا فانغمست في لجّها وطلبت الفضول فعلمت أخباراً كثيرة...»(٤).

إن أول مؤرخ نستطيع أن نتتبع أثره في أسبانيا الإسلامية هو عبد الملك بن حبيب. ولد في حصن واط قرب غرناطة سنة ١٨٠/٧٩٦، اعتنق مذهب مالك بن أنس(٥) عندما ذهب إلى الحج ونشره عند عودته إلى الأندلس. كانت وفاته في قرطبة سنة ٢٣٨/٨٥٢(٦).

لم يبق من كتب عبد الملك بن حبيب التاريخية سوى الكتاب المسمى **بالتاريخ**. وهو يعكس الثقافة العربية الأسبانية المعروفة بذلك العصر، ويعدّ من أوائل الكتب العربية الإسلامية عن التاريخ العالمي(٧).

يبدأ ابن حبيب كتابه بخلق الدنيا ويحكي عن قصة آدم وحواء والأنبياء حتى يصل إلى محمد. يذكر الكتب المنزلة وسير الخلفاء حتى يصل إلى فتح الأندلس فيذكر ما يوجد فيها من الذهب والفضة وما يستخرج منها من الثروة ثم يقص سير من حكم من الملوك ومن غزا من الفاتحين. في آخر الكتاب نجد فصولاً عن الفقه والأخلاق والآداب، وطائفة من الأشعار ثم يختتم الكتاب بالتكلم عن قضاة الأندلس(٨).

إن كتاب عبد الملك بن حبيب يعكس التأثير المصري على التاريخ في أسبانيا الإسلامية. لقد تأثّر عبد الملك بشيوخه المصريين، كغيره من الأندلسيين الذين وفدوا إلى المشرق. هؤلاء المصريون كانوا ينظرون إلى بلاد الأندلس باحتقار وهم يجهلون الكثير عنها، فيقصّون على تلامذتهم حكايات ملأى بالخرافات والأساطير، فتأثّر بذلك التاريخ الأندلسي، الذي يعتبر في تلك الفترة، تأريخاً مصرياً عن الأندلس(٩).

وهكذا، وفي بدء القرن التاسع، لم يكن هناك تاريخ في أسبانيا بالمعنى الصحيح. ذلك التاريخ ابتدأ بآل الرازي، أحمد بن محمد بن موسى، وابنه عيسى بن أحمد. فأحمد جمع معلومات عن الرجال المسنّين وناقلي الأخبار وألّف منها تاريخاً، ونقرأ في **المقتبس** لابن حيان عن لسان عيسى أن أباه أحمد شبّ في الأندلس وأحب التاريخ الذي لم يكن علماً يعرفه الأندلسيون «... وابنه أحمد والدي يومئذ طفل ابن ثلاثة أعوام، فأقرّه أهله بالأندلس ونشأ فيها، فطلب العلم ومال إلى الأدب، فغلب عليه حب الخبر والتنقير عنه، ولم يكن من شأن أهل الأندلس، فالتقطه عمّن لحقه عن مشيختهم ورواتهم ودوّنه، ووضع قواعد التاريخ بالأندلس مبتدئاً، فأزلفه بالسلطان، واعتلت به منزلة ولده من بعده، وأكسبوا أهل الأندلس علماً لم يكونوا يحسنونه»(١٠).

ولد أحمد الرازي الملقب «بالتاريخي» سنة ٢٧٤/٨٨٨، وتوفي سنة ٣٢٥/٩٣٥(١١). ألّف كتباً كثيرة لم يصلنا منها إلا قطعة في صفة الأندلس مترجمة للأسبانية تحت عنوان **Cronica del Moro Basi** والكتاب في الصورة التي وصل إلينا بها قليل القيمة، وهو واحد من تلك الملخصات التاريخية التي كانت ذائعة الصيت في القرن الثالث عشر ميلادي(١٢).

ولقد اعتمد على الرازي الكثير من المؤرخين الأندلسيين أمثال ابن حيان في **المقتبس**، وابن الغرناطي في **فرحة الأنفس**، وابن الخطيب.

تأخذ كتب الرازي وجهة نظر أمراء الأندلس وخلفائه، فقد عاش في فترة نستطيع أن نسميها حقبة الولادة والنمو في التاريخ الأندلسي، حيث كان المؤرخون يكتبون عن السلالة الأموية وهم موالون لهم. كان بعض هؤلاء من العرب، والبعض الآخر من غير العرب، يتنكرون لأصلهم متبعين السلالة الأموية، وملفقين في معظم الأحيان نسباً غايته التوصل إلى نعم البلاط وميزات القصور. كتب هؤلاء المؤرخون عن تاريخ أسبانيا فأغرقهم الأمير بالأموال والنعم حتى أصبحوا عاجزين عن الكتابة الموضوعية الكاملة أو عن إغضاب الأمير الحاكم فامتنعوا، وهم يكتبون أخبار الأندلس، عن إبراز أي ميل للقواد، عربياً كان أم بربرياً؛ لم يستطع المؤرخ كذلك أن يكتب عن الشعوب الأخرى التي تكوّن منها المجتمع الأسباني[١٣]. كانت تلك الفترة فترة الاهتمام بالفتوحات والحروب، ويبدو أن مفهوم التاريخ اتجه نحو الخاصة من القوم من محاربين وغيرهم. فلم يكتب عن تاريخ الأمة بل عن الأسرة المالكة وتاريخ الأمراء خاصة، حتى إذا ما تغير الإطار الاجتماعي والسياسي، تغير معه اتجاه المفكر، وأخذ يهتم بأشياء جديدة وطبقات أخرى في المجتمع.

قلنا أن المؤرخين في هذه الفترة أهملوا تاريخ الأمة ولذا جاءت كتاباتهم سرداً لأخبار البلاطات والملوك أو سجلاً لعائلات الأشراف، حيث نرى لائحة بأسماء رجال الدولة والنساء ومشاغل الملك اليومية أو موت رجال الدين والأدباء مهملين أحداثاً اجتماعية وسياسية مهمة، ولذلك فإن تواريخهم لم تبرز لنا مزايا عصرهم بشمول، وهم بالتالي لم يتنبهوا للواقع المرير بأن أمراء قرطبة لم يستطيعوا صهر الفئات المختلفة في المجتمع.

إن ذلك الإهمال لطبقات المجتمع الدنيا يوازيه عدم الاهتمام بالنبلاء الأسبان، والسؤال الذي يطرح نفسه هو إن كان قد كتب التاريخ من وجهة نظر ثانية غير النظرة الأموية، وعمّا إذا وجد هؤلاء النبلاء من الأسبان من كتب عنهم وأنصفهم!

نعرف أن هناك تاريخاً عن ابن حفصون وعن عبد الرحمن ابن مروان الجلّيقي الذي كان سيداً مريداً (Merida) وبطليوس (Badajos)، وتاريخاً لبني فاسي ولكن لا نعرف من كتبه. هنالك أيضاً مؤلفات لأصحاب المعاقل وللجند الستة السوريين الذين جاءوا لأسبانيا واستقروا هناك[١٤]. هذه أيضاً نجهل منهجها وطابعها وعمّا إذا كان ميلها أموياً أم عكس ذلك.

ومن مؤرخي هذه الفترة الأولى ابن القوطية[١٥]، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز من حفدة سارة القوطية. ولد ابن القوطية بقرطبة ودرس في أشبيلية حيث اهتم بعلوم اللغة والتاريخ، وكتابه، **تاريخ افتتاح الأندلس**، هو إحدى الكتب التي كان يلقيها على تلاميذه. يحكي ابن القوطية في هذا الكتاب عن تاريخ الأندلس من لدن فتحه إلى نهاية أيام الأمير عبد الله بن محمد (٢٩٩ هجرية، ٩١٢ ميلادية). ويبدأ الكتاب على النحو التالي: «أبو بكر محمد ابن عمر ابن عبد العزيز أخبرنا ما يلي»، مما يدل على أن الكتاب هو مجموعة أخبار رواها ابن القوطية وكتبها أحد تلاميذه.

كان ابن القوطية المتوفى سنة ٩٧٧/٣٦٧ من موالي البيت الأموي ولكنه أدخل في رواياته عنصراً قومياً قوطياً، ففي أخبار أرطباس مثلاً مع الصميل بن حاتم وميمون العابد، يظهر العرب في صورة الجهلاء ويصوّر أرطباس بالرجل القوطي ذي المواهب العظيمة والأخلاق الحميدة[١٦]. في الوقت ذاته، نراه لا يتكلم عن خصوم بني أمية مهملاً الفئات اليهودية والمسيحية في المجتمع الأسباني. وهكذا فهو يجمع بين ولائه للأمويين وتعصبه لأصله القوطي.

كتاب ثان تجدر الإشارة إليه هنا وهو **أخبار مجموعة**. نشرها وترجمها لافونتي الكانترا (Lafuente Alcantara)، وهي مجموعة مذكرات وفقرات تاريخية سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً دون أن يراعي الربط المنهجي أو الترتيب الزمني. في هذا الكتاب اهتمام بالتاريخ الأندلسي، ويظهر أنه من تأليف عدة كتّاب وضعوا أخباراً تختلف نوعاً وفكراً وذوقاً: بعضها يذكر الحروب وشؤون السياسة، وبعضها يهتم بالأمور



□ البيروني.

الدينية وبالفقه والأخلاق؛ ولكن هناك قاسم مشترك بين أجزاء الكتاب، ألا وهو حب البيت الأموي والقرشيين، وكسائر كتب هذه الفترة يهتم بعرب الأندلس والبيت الأموي دون غيرهم في المجتمع مهملاً بذلك بقية طبقات أهل الأندلس الإسلامي وأجناسهم الأخرى إهمالاً يكاد أن يكون كاملاً.

وتختلف الآراء على الفترة التي ألف فيها هذا الكتاب: ج. ريبيرا (J. Ribera) يقول بأنها كتبت في عصر عبد الرحمن الناصر في القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي، أما لافونتي الكانترا (Lafuente Alcantara)، فمثل دوزي، قال بأنها كتبت في القرن العاشر ميلادي، وذلك استناداً لفقرة جاءت في الكتاب: «... وليت الله كان أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله»[١٧]. وقد ظن دوزي أن ذلك إشارة إلى الفتنة في القرن الحادي عشر ميلادي. أما ريبيرا فيرى أن ذلك إشارة إلى سعي عبد الرحمن الناصر في إضعاف سلطان رؤساء العرب وإحلال موالي الأندلسيين محلهم في الوظائف الكبرى، وقد استنتج ريبيرا بأن أصحاب كتاب **أخبار مجموعة** عرب قرشيين، فإن حالة المسلمين بنظرهم كانت سيئة في ذلك الوقت بعد أن فقد الجنس العربي نفوذه القديم. وهكذا افترض ريبيرا أن **أخبار مجموعة** ألف في القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي[١٨].

قلنا أنه في هذه الفترة كان التاريخ محدوداً ولكنه اتسع مع الزمن بتمازج الشعوب والعلوم، ثم زاد استقلالاً في القرن الحادي عشر

ولو انه بقي بصفاته المميزة تاريخاً أندلسيا. هذا لا يعني أن المؤلفين الأندلسيين لم يهتموا بالبلاد الإسلامية الأخرى بل بالعكس، هنالك من كتب عن تاريخ المشرق كعريب بن سعد المتوفي سنة ٣٧٠/٩٨٠ الذي لخص كتاب الطبري وزاد عليه تاريخ المغرب والأندلس.

كان عريب من قرطبة، مولى لبني أمية، ولذلك جاء في كتابه، خاصة فيما يتعلق بالأندلس، «أخبار بلاط» ميل واضح للأمويين. فهو لا فرق عنده بين المنصف والظالم، يدل على ذلك عندما كتب عن الأمير عبد الله، فهو لا يذكر مثلاً كيف قتل عبد الله أخاه المنذر حتى يستأثر بالسلطة[١٩]. ولكي يظهر لنا الفارق بين هذه الفترة والفترة التي تليها، أي القرن الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي، علينا فقط أن نقرأ ما كتبه ابن حيان القرطبي عن لسان ابن حزم في الموضوع ذاته. قال إن عبد الله كان قتّالاً تهون عليه الدماء، احتال على أخيه المنذر بن محمد وقتله وهو نازل لمقاتلة ابن حفصون الثائر الأسباني، ثم قتل ولديه معاً بالسيف، محمد والد الخليفة الناصر لدين الله، وأخاه، عدوه المطرّف وغيرهم[٢٠].

من هنا نرى كيف أن عريب لم يشأ أو لم يجرؤ على المجاهرة بالحقيقة، عكس ابن حزم في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، الذي جاهر بتلك الحقيقة رغم حبه للأمويين. كل ذلك يدل على أن تغير الإطار السياسي والاجتماعي قد غيّر المفاهيم والنظرة إلى الأمور والحوادث.

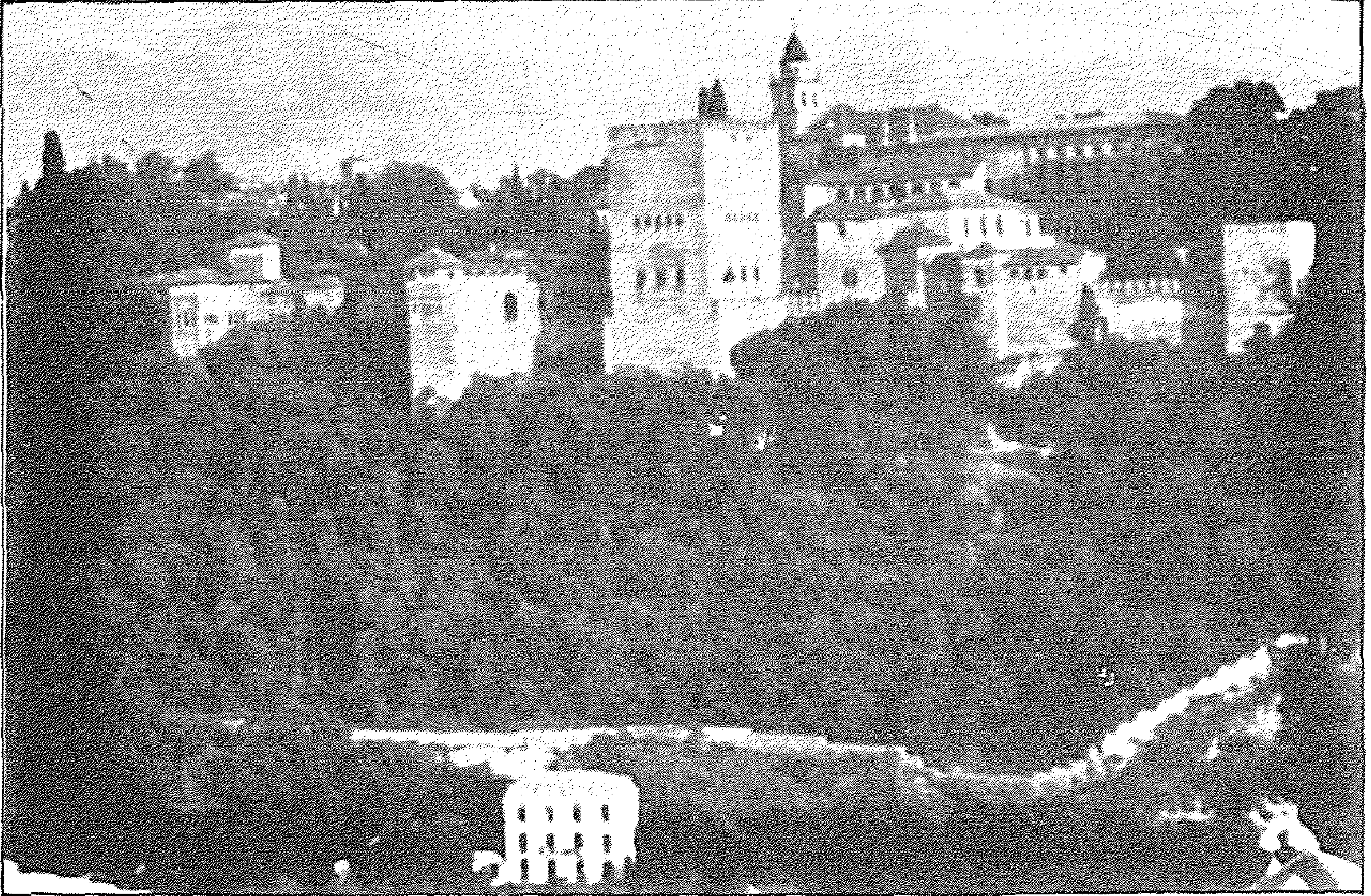
وميل عريب بن سعد للأمويين يجب أن لا يجعلنا نتجاهل بعض النقاط الهامة في كتاباته. فوظيفته ككاتب للحكم الثاني المتوفي سنة ٩٧٦/٣٦٦ جعلته يطلع على وثائق مهمة فيستفيد منها في مؤلفاته، ولكن كتاباته على العموم تمثل وتختتم الفترة الأولى من تاريخ الأندلس، فترة مؤرخي الملوك والحكام. وهو، وإن كان يعتبر أحياناً من فئة الذين كتبوا في التاريخ العام، بقي في نطاق المسيحية واليهودية والإيرانية ولم يتخط ذلك لينطلق للأمم السالفة، كاليونان والهند والصين وغيرهم.

ولا نستطيع أن نترك هذه الفترة دون أن نشير إلى نوع آخر من التاريخ الذي نال رواجا وشهرة في الأندلس. ذلك هو كتابة التراجم والسير. فالتراجم أسهمت منذ البداية في التأريخ الإسلامي واستطاعت بمرور الزمن أن تظفر بمكانة رفيعة، فسيرة الرسول مثلاً اعتمدت على رجال كان قبول إسنادهم يتوقف على ما يعرف من سيرهم، ثم أن النزاع بين الفرق في الإسلام نشب معظمه حول الشخصيات المختلفة وفضائل الناس أو عيوبهم، فأعطت التراجم بذلك فرصة للمؤرخين ليصبحوا مفيدين لأسباب فقهية. كما وأن كثيراً من فروع المعرفة والعلوم فهم تاريخها كمجموعة تراجم العلماء، والمثال على ذلك، تواريخ بعض العلوم كالطب وتاريخ الأديان والأنساب المقارن. وهكذا فمبدأ التراجم طبق فيما بعد في تاريخ العلم والمعرفة عند الأمم المختلفة مثال على ذلك ابن جلجل وصاعد الأندلسي الذين رتّبوا سير العلماء بحسب الأمم التي انتموا إليها[٢١].

انتشر في الأندلس هذا النوع من الكتابة وهناك نموذج معاجم رجال جامعة مثل كتاب ابن الفرضي، ومعاجم أعلام الفقهاء التي وضعها في القرن الحادي عشر أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، وفهرسة ابن خير الأشبيلي. كذلك ألّفت كتب في تراجم صنوف معينة من الرجال كالزّهاد والمتصوفين والكتّاب والمحدثين والفقهاء وغيرهم، ومنها ما ألف في رجال من مدينة معينة أم من ناحية من النواحي[٢٢].

نتوقف هنا عند مؤرخين اثنين، هما الخشني وابن الفرضي ــ الأول هو أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الخشني القيرواني، جاء إلى الأندلس سنة ٣١١ أو ٩٢٣/٣١٢ أو ٩٢٤. خدم الحكم المستنصر واشتهر بكتابه **تاريخ قضاة قرطبة** من الفتح الإسلامي حتى سنة ٩٦٨/٣٥٧، وتوفي في قرطبة سنة ٩٧١/٣٦١[٢٣].

كتب الخشني وفي حوزته الكثير من الوثائق القيمة فجاء كتابه ليعطي فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية في عصره. نجده بعيداً عن كتابة الأساطير أو اللجوء إلى العوامل الغيبية في سرده للحوادث، كذلك نراه لا يهتم بمداهنة أرباب الدولة، فهو بصحبة الحكم المستنصر يذكر



□قصر «الحمرا» في غرناطة، يعكس مدى القوة التي توصل إليها المسلمون في اسبانيا. (القرن ١٣ — ١٤ ميلادي).

أشياء غير مستحبة عن البيت الأموي، فيقول مثلاً بأن عبد الرحمن الداخل كان عصبياً عنيفاً، ولكنه يعبر أيضاً عن إعجابه عندما يصف هشام الربضي بطيبة القلب والرحمة، والحكم الربضي بالنشاط والحزم. هذا الكتاب يعطينا صورة واضحة عن المجتمع السياسي الأندلسي آنذاك فيصور طبقات الأندلس من قرشيين يطمحون إلى الحكم وينزعون إلى الشر والفوضى، وأسر منحدرة عن أصول أسبانية، وخدم من غلمان وصقالبة، ونصارى وزهاد مسلمين، ثم يحكي عن قرطبة وما كان يشغل الناس من أمور الدين والدنيا، وعن توقيرهم للعلم فنجد أنفسنا في قلب قرطبة في عهد الإمارة ونتعرف على نظام القضاء في الأندلس ونكتشف الصفات الفاضلة التي تحلّى بها قضاة ذلك العصر.

والمؤرخ الثاني في هذا الباب هو ابن الفرضي الحجاري وهو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي، المتوفى سنة ٤٠٣/١٠١٢، من أهل قرطبة[٢٤]. كان قاضياً وشاعراً وشهرته في كتابه **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، وهو على ما يبدو من أقدم معاجم أهل العلم. يذكر المؤلف في بدايته أنه قصد الاختصار فيما جمعه عن فقهاء الأندلس وعلمائهم ورواتهم، ثم يقول: «وغرضنا فيه: ذكر أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم، ومن كان يغلب عليه حفظ الرأي منهم، ومن كان الحديث والرواية أملك به وأغلب عليه، ومن كانت له إلى المشرق رحلة؛ وعمن روى، ومن أجل من لقي ومن بلغ منهم مبلغ الأخذ عنه، ومن كان يشاور في الأحكام ويستفتي، ومن ولي منهم خطة القضاء؛ و: من المولد والوفاة؛ ما أمكنني: على حسب ما قيدته»[٢٥]. ويقول ابن الفرضي أنه سأل الشيوخ والأقران حتى اجتمع له ما أراده فجاء في كتابه من المعلومات ما لم يقيد في أي كتاب غيره في الأندلس[٢٦].

هكذا نرى ابن الفرضي يبدأ كتابه بإعطاء القارىء فكرة عن المنهج الذي سيتبعه والمادة التي سيكتب عنها مراعياً بذلك الأمانة الفكرية. كذلك يذكر المصادر التي استقى منها أو سمعها بكل دقة حتى يبدو للقارىء أحياناً أنه يختصر في ترجماته كي لا يذكر شيئاً ليس متأكداً منه.

وشيئاً فشيئاً أخذ الأندلسيون يهتمون بخارج نطاق بلدهم وديانتهم، فرحلاتهم إلى المشرق

الإسلامي وتعرّفهم على المؤلفات المترجمة وغيرها، وضعتهم وجهاً لوجه أمام أمم أخرى وديانات مختلفة. هكذا توسعت آفاقهم وأثيرت أمامهم المشكلات الفكرية التي سبق وشغلت المفكر الإسلامي في المشرق منذ القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي. فهناك في بغداد وغيرها كان المؤرخ الإسلامي قد واجه أمماً قديمةومعاصرة له، وصلت إلى الذروة دون أن يكون لديها أي تراث ديني أو إسلامي، فأخذ يفكّر في معنى ومغزى تاريخ تلك الأمم وما خلّفته للعالم الإسلامي، وانصبّ يدرس ذلك التاريخ، يشرح ويقابل ويقارن، ويغوص في تراث فارس واليونان القديم وغيره ليتفهّم أفكار وعادات تلك الشعوب محاولاً اكتشاف العامل الذي يحرّك الحضارة ويبعثها، ثم يرفعها إلى القمة ليعود ويرميها في طور الانحطاط والزوال.

ومؤرخو الأمم كتبوا التاريخ بطرق مختلفة تتوقف على اهتماماتهم وفلسفتهم في الحياة. ذلك المفهوم الحياتي الفلسفي برز عندما قسّم بعضهم الأمم القديمة، فالجاحظ مثلاً، الذي عاش في القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي، يقسّم الأمم التي فيها الأخلاق والأدب والحكم والعلم إلى أربعة[٢٧]: العرب والفرس والروم والهند[٢٨]. أما اليعقوبي، فإنه اختصر في الجزء الأول من كتابه ابتداء الكون وأخبار الأوائل من الأمم المتقدمة والممالك المتفرقة، وفي جزئه الثاني يتكلم عن سيرة الرسول والخلفاء حتى سنة ٢٥٨ هجرية[٢٩]. وتاريخ اليعقوبي على ما يبدو من أوائل التواريخ التي نحت ذاك المنحى العالمي الذي كان الأدب قد مهد الطريق إليه.

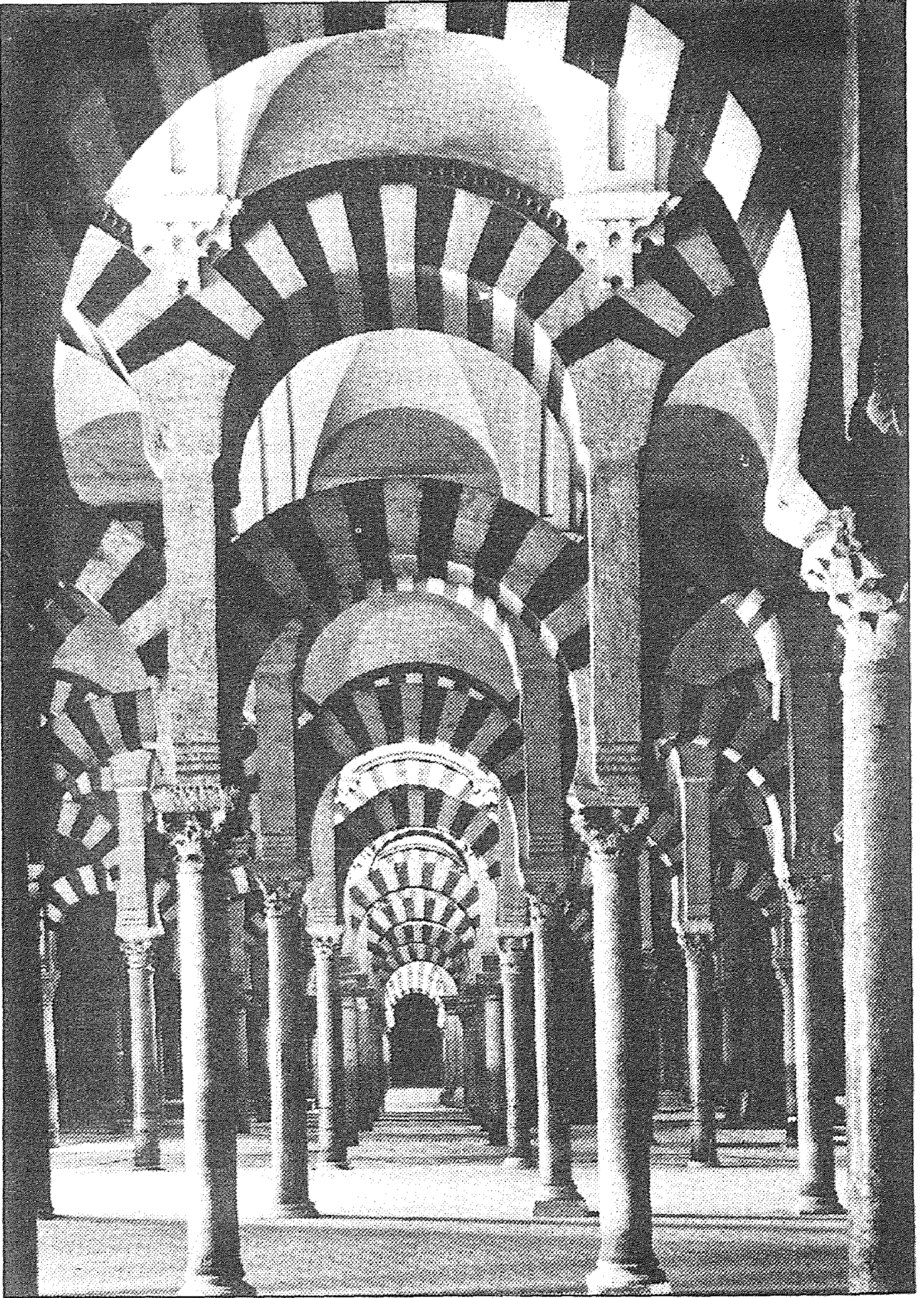
أما البيروني (توفي حوالي ١٠٥٠/٤٤٢) فإنه قسم الأمم إلى ثمانية: الروم والأغريق والقبط والإسرائيليون واللخميون والغسانيون واليمنيون وأهل كندة وأمة الإسلام[٣٠]، وقد كانت غاية البيروني إعطاء تقويم تاريخي للأمم المختلفة فحقق في المدة التي حكم فيها الولاة كل بمفرده، كما وأنه حاول إيجاد أوجه شبه أو قواسم مشتركة بين الأمم المعاصرة[٣١].

والمسعودي (توفي سنة ٩٥٦/٣٤٥) قسّم الأمم إلى سبعة[٣٢]، تميزت بالشيم والخلق الطبيعية واللغات[٣٣]، الفرس والكلدان واليونان وأهل مصر والأتراك وأهل الصين والهند.

أما في الأندلس، وفي أواخر القرن الرابع هجري، العاشر ميلادي، فنرى للمرة الأولى اهتماماً بأمم ما قبل الإسلام ومحاولة للتعرّف إليها من خلال سير علمائهم، فنصادف كتاباً يعد وثيقة هامة في تاريخ العلوم وتطور حركة الترجمة والتأليف في القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي. ذلك هو **طبقات الأطباء والحكماء** لأبي سليمان حسان ابن جلجل. وميزة كتاب ابن جلجل أنه يستند فيما رجع إليه من مصادر إلى تراجم عربية لأصول قديمة من لاتينية وغيرها، وربما كان كتاب ابن جلجل أول كتاب استفاد من هذه الترجمات التي تمت في عصره أو قبلها بقليل[٣٤].

لقد كتب ابن جلجل سير علماء ما قبل الإسلام حسب الأمم التي انتموا إليها واستفاد من عدة كتب تاريخية وعلمية دخلت الأندلس، ففي ذلك العصر ترجمت بعض المؤلفات التاريخية إلى العربية ولربما كان أهمها كتاب باولوس أوروسيوس (Paulus Orosius) والذي يذكره ابن جلجل باسم «هوروشيوش»[٣٥]. وكتاب **الحشائش** لديسقوريدس، كذلك يبدو أنه أدرك نقولا الراهب الذي ترجم في أيام الحكم المستنصر كتاب ديسقوريدس في الطب من اليونانية إلى اللاتينية، ويظهر أن ابن جلجل قد أسهم بنفسه في هذه الترجمات. كذلك عرف في الأندلس كتاب **الأدوار والألوف** لأبي معشر المنجمي المتوفي سنة ٢٧٢ هجرية، وقد استفاد ابن جلجل من هذه المراجع وغيرها[٣٦] فطوّر كتابته عمن سبقه، في بلاد الأندلس وألهم صاعد الأندلسي الذي استقى فيما بعد من ابن جلجل ومراجعه.

وجّه ابن جلجل كتابه لأحد أشراف عصره ولا شك أنه أحد أبناء الخلفاء الأمويين فهو يصفه في آخر مقدمته «الأموي القرشي نجل الخلفاء...»[٣٧]. ثم يتابع: «سألت أيها الشريف الأديب أن أكتب إليك بما تأدى إليّ علمه مما تصفحت من كتب الماضين وسير المتقدمين، عن أول من وضع صناعة الطب وتكلّم فيها في بدء الزمان، وقبل الطوفان وبعده، وفي أي زمان كان كل متكلّم فيه، ممن شنع اسمه وفشا ذكره وصحت براعته ونمت حكمته وخلّد علماً نافعاً



□جامـع «قرطبة» المتميز بأقواسه الداخلية المتعددة. (القرن الثامن ميلادي).

وذكراً باقياً»[٣٨]. ثم يمدح ابن جلجل هذا القرشي الأموي ويخبره بأنه حقق في الكتب القديمة قبل أن يكتب إليه، في كتاب **الألوف** لأبي معشر المنجم، وكتاب هوروشيوش صاحب القصص[٣٩] وكتاب **القراونقة** (Chronica) ليرونم الترجمان[٤٠]، كذلك تتبع أخبار حكماء اليونان وأسماء ملوكهم.

يقسم ابن جلجل الحكماء ممن كانوا في الدولة السريانية والكسروية قبل الطوفان وبعده، ثم حكماء اليونانية في دولتهم ثم الروم ثم الاسكندرانيون ثم من لم يكن في أصله رومياً ولا سريانياً ولا فارسياً. يصل بعدها إلى الإسلام وهنا نراه يرى مجيء الرسول كنقطة التحول في التاريخ العالمي. فالأمم السالفة أهميتها حضارية بقدر ما أعطت للإسلام: «لما أظهر الله الإسلام وفشت دعوة نبيّنا محمد ، وذلك في دولة هرقل وقيصر، وكان مسكنه بالشام بأنطاكية انحسمت بدعوة الإسلام كل دعوة ظاهرة. ثم أعلا الله كلمة التقوى ومنار الهدى، فصارت للعرب الدولة العظمى، والرئاسة الكبرى، والحكمة البالغة العلى، وخمدت كل دولة قاهرة وكل ملّة ظاهرة، واختار الله له يثرب داراً، والحجاز قراراً، والأنصار أصحاباً»[٤١].

هنا نرى مشكلة أساسية في تاريخ ما قبل الإسلام،فقد أثيرت التساؤلات بعد مجيء محمد الذي كان من الأهمية بحيث اعتبر ما سبقه من تاريخ سلسلة من التحضيرات فائدته حضارية وثقافية فحسب، ولم يأبهوا بذلك التاريخ من الوجهة السياسية والدينية، ومن الملاحظ أن هذا التاريخ ينقلب تاريخاً سياسياً عندما يصل المؤرخ إلى الفترة الإسلامية وذلك تسهيلاً لاستخدام الفقهاء[٤٢].

ويتكلم ابن جلجل عن حكماء الحضارة الإسلامية ممن برع في الطب والفلسفة، منهم مسلمون ومسيحيون كمحمد بن زكريا الرازي ويوحنا البطريق ويوحنا بن ماسويه وغيرهم. وهو يخبرنا عن سيرة الرازي مثلاً وعن مؤلفاته وعن فقدان بصره[٤٣] دون تحليل لفلسفته، وهذا يدل على أن القرن الرابع هجري، العاشر ميلادي، الذي عاش فيه ابن جلجل، كان فترة بدء الانفتاح الحضاري الذي سيتطوّر فيما بعد.

ويتكلم ابن جلجل عن حكماء الإسلام الذين سكنوا المغرب ثم عن الطبقة الأندلسية الحكمية منهم والطبّية فيبدأ بمقدمة عن كتاب **الابريشم (الجامع والمجموع)**[٤٤]، وينهي ابن جلجل كتابه مخاطباً الأمير القرشي المذكور بقطعة سأوردها لأهميتها:

«قد ذكرت أيها الشريف، ما أحاط به علمي، وبلغه إدراكي، من وصف الحكماء والأطباء المشهورين غير المشكوك فيهم، من لدن آدم عليه السلام، إلى الزمان الذي كنا فيه، وهو زمن المؤيد بالله، بحوزة الأندلس، وذكرنا من كان منهم بالمشرق والمغرب، ولم نذكر من كان بالمشرق مشهوراً، من لدن دول الراضي إلى أيام الطايع لله إذ لم تكن حوزتنا ولا جهتنا. ولا ظهر رجل بارع في تلك الدول، فيكون معروفاً برئاسته ومشهوراً بإحسانه، مع تراخي تلك الدول، بما دخل فيها من ملك الديلم والأتراك، الذين لا نفاق بشيء من العلم عندهم، وإنما يظهر الحكماء بظهور دول الملوك الطالبين للحكمة. واقتصرنا على من عرفنا بناحيتنا بالأندلس، إذ كانوا مشهورين معروفين ظاهرين، في دول أئمة للعلم طالبين. وعن الحكمة باحثين ملوك أبناء ملوك واقتصرنا على ذكر المشهورين الظاهرين الخادمين، وأضربنا عن ذكر من كان في زمانهم، من لم يوازيهم، ولا حل محلّهم، إذ لم يكونوا من اتساع الذكر بمحل هؤلاء. ووصفت صفاتهم وإقدارهم وما ظهر لهم من النوادر والأخبار، واقتصرنا على قليل من كثير، لئلا يملّه قاريه، وليسهل على النفس حفظه. والكلام إذا طال تقل وحسبنا أن نبهّنا وأنبأنا من كل شيء بأحسنه وأخفه...»[٤٥].

وهكذا نرى أن نظرة ابن جلجل للتاريخ على ما يبدو هي نظرة حضارية، والتاريخ هو وسيلة لفهم تطور الحكمة والشريعة. كل هذه الأفكار سيطوّرها من سيأتي بعد ابن جلجل في القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر ميلادي، فإن الأحوال السياسية والتيارات الخارجية والداخلية ستضع فكرة ابن جلجل في إطار مختلف وسيأتي مؤرخون وفلاسفة ومفكرون ليكتبوا عن الأمم والعلوم القديمة بمنظار ثان وأبعاد مختلفة.

في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر

ميلادي، ابتدأت فترة جديدة في التاريخ الأندلسي، فترة النمو والازدهار، فترة ابن حزم وابن حيان.

كانت الدولة الأموية يومها قد بدأت تتفكك وتنهار وأخذت بعض المدن تستقل، فموت عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (سانجولو) سنة ٣٩٩/١٠٠٩، كانت بداية عهد الفتنة اقتطع بعدها كل حاكم قسماً من الدولة وأخذ يحاول الإبقاء عليها بأي وسيلة كانت. وهكذا ولأكثر من ستين سنة تنازع الحكام فيما بينهم حتى إذا ما اتحدت النصرانية وتقدمت، كانت العرب متفككة لا تستطيع أن تقف وقفة موحدة فاستولى الفونسو السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ ميلادية وكانت بداية النهاية. لكن ذلك لم يؤثر على الحركة الفكرية في الأندلس بل بالعكس، فقد اتبعت الأقاليم والمدن المستقلة تقاليد خلفاء الأمويين، عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني، ولم تعد قرطبة وحدها مركزاً للعلم والثقافة وإنما أصبحت هنالك مدن كاشبيلية وبطليوس والمرية وغرناطة مراكزاً للأدباء والفنانين والشعراء. أما طليطلة وسرقسطة فقد أصبحتا مرتعاً للرياضيين وعلماء النجوم والطب والفلاسفة.

في تلك الفترة من التناقض حيث استمر الفكر والفن مزدهراً رغم الاستقرار السياسي، برز مفكرين، ابن حزم الأندلسي وابن حيان القرطبي فكان عصر الازدهار والاكتمال.

كان تقليد المشافهة ما يزال حياً فاستطاع مؤرخو هذه الفترة أن يصحّحوا أخبار من سبقهم، فهم ورغم موالاتهم للأمويين، أصبحوا في ظل الوضع الجديد، أكثر قدرة على التصريح بعلمهم وأفكارهم، فمعظم كتّاب القرن الحادي عشر انصرفوا إلى التفكير والتحليل، عرفوا المعنى الحقيقي للمشاكل التي عصفت ونخرت بالأندلس فوسعوا أفق كتاباتهم ليشمل كل القوى والبيوتات المعروفة التي توصلت أخيراً للإطاحة بخلافة قرطبة، تلك الخلافة التي أسست على ركائز اجتماعية واهية دون أي انصهار لفئات المجتمع المختلفة.

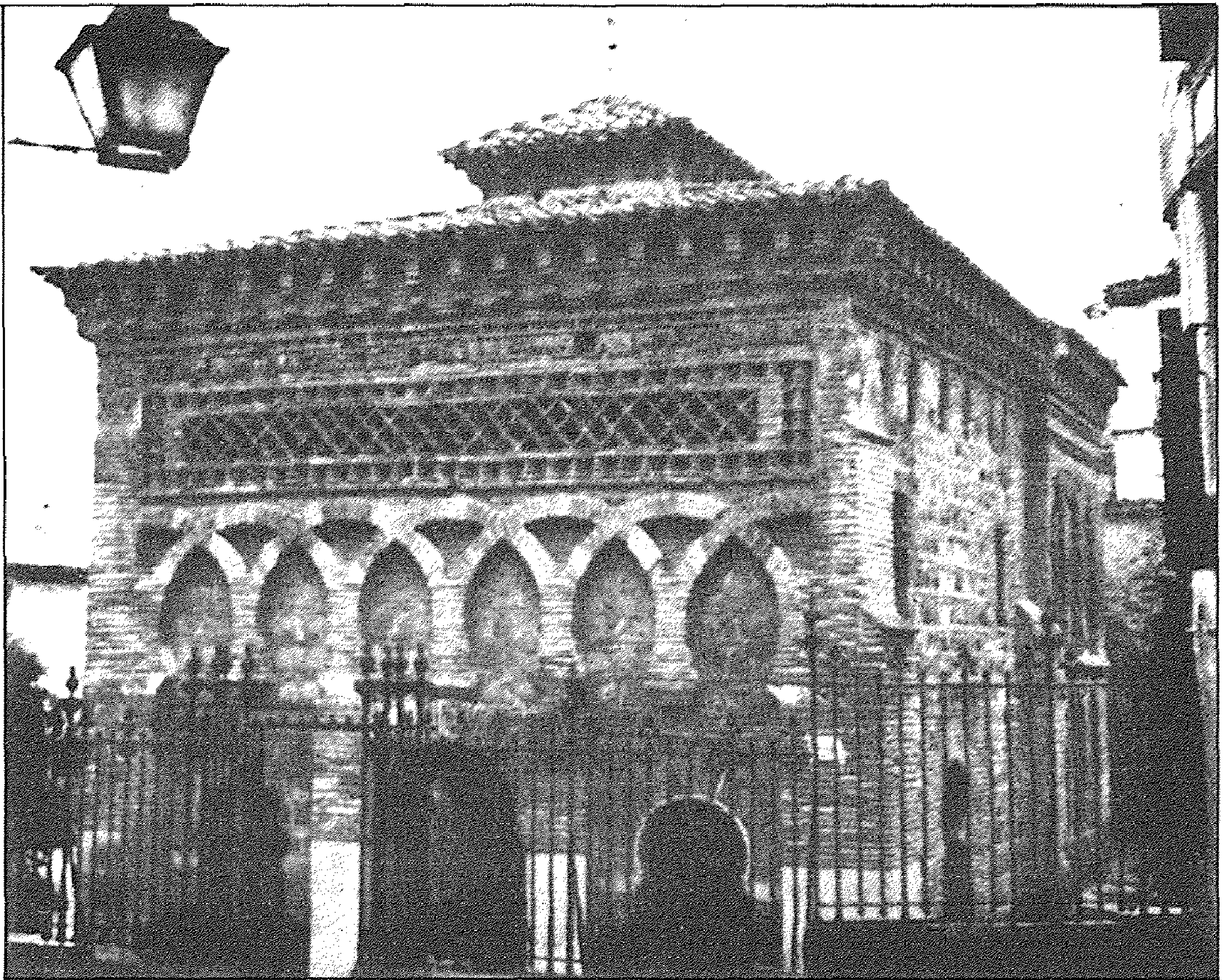
تتمثل هذه المدرسة الجديدة أولاً في ابن حزم ٣٨٣ ــ ٤٥٤/٩٩٤ ــ ١٠٦٣[٤٦]. كان أبوه أحد وزراء المنصور والمظفّر ابن المنصور، وكان ابن حزم وزيرا لعبد الرحمن الخامس. كان يحب البيت الأموي وينتمي للمدرسة التاريخية التي أسميناها مدرسة «الرواة ومؤرخي البلاط».

ما إن سقط البيت الأموي حتى قاده تأثره لأن يفكر بالأسباب الرئيسية لهذا الانحدار فكان أن نمق الدراسة التاريخية باتجاه خاص جديد. بقي يحب الأمويين، ومع ذلك لم يغفل عن أخطائهم. رأى تفتت الأندلس بعد أن كانت متماسكة في عهد عبد الرحمن الثالث والمنصور فقاده ذلك إلى التأمل والتفكر في أسباب تفكك الدول إجمالاً.

كان للتاريخ مكانة هامة في نظر ابن حزم ولو أنه احتل حيزاً صغيراً من مؤلفاته[٤٧]. فهو يعتقد بأن التاريخ «علم» ذو خصائص وغايات متميزة، أما عن العلوم فيقول بأنها سبعة عند كل أمة وهي علم شريعتها وعلم أخبارها وعلم لغتها ــ وفيها تتميز كل أمة ــ وعلم النجوم وعلم العدد وعلم الطب وعلم الفلسفة وفيها تتفق الأمم كلها[٤٨]. أما الأمم التي يتحدث ابن حزم عنها فهي الأمم الإسلامية وبنوا إسرائيل والروم وأمم الشمال من ترك وخزر وغيرهم وأمم السودان والهنود والصينيون والأمم الدائرة كالقبط واليمانيين والسريانيين والأشمانيين وعمون وموآب والفرس.

نرى ابن حزم هنا يقسّم الأمم إلى ثمانية. أما لماذا الاطلاع على تواريخ الأمم فابن حزم يجيب أنه للتزهيد في الدنيا المتقلبة وللقدوة الحسنة وللعبرة بالزوال ولتمييز الصواب من الخطأ في الأخبار، ثم للّذة في القراءة والتعلّم والتنشيط، فالتاريخ برأي ابن حزم مفيد لبناء الشخصية الإنسانية أخلاقياً ونفسياً وهو، لسهولته، يستطيع أن يكتسبه الإنسان من دون معلم[٤٩].

كان ابن حزم واسع الاطلاع خاصة على تواريخ الأمم: اطلع على التوراة والانجيل وتاريخ يوسيفوس (Josephus)، وكتاب هوروشيوش، هذا فضلاً عن اطلاعه على الروايات الشفوية؛ ثم أن لوالده الفضل الأكبر في توجيهه للتاريخ بحكم شخصه ومكانته. هذه الأمور أتاحت لابن حزم التعرّف على دقائق ما يجري في الدولة وعلى شخصيات العصر ومحاورة الأقوان وهو يقول في هذا المضمار «ولقد



□جامـع «باب مردم» المستطيل الشكل، في طليطلة (القرن التاسـع ـ العاشر الميلادي).

شاهدنا الناس وبلغتنا أخبار أهل البلاد البعيدة وكثر بحثنا عما غاب عنا منها ووصلت إلينـا التواريـخ الكثيرة المجموعة في أخبار من سلف من عرب وعجم في كثير من الأمم»(٥٠).

كان ابن حزم، فضلاً عن سعة اطلاعه، ذا نقد دقيق وقد أدرك أهمية الجغرافيا والاقتصاد لفهم التـاريـخ(٥١). فهو عنـدما يحـدد بلاداً ما يحاول أن يعطي القارىء فكرة أكثر وضوحاً وتفهماً أوسـع عن حالة تلك البلاد ويثير بذلك التسـاؤل والتحليل عن العـوامل السيـاسيـة والاقتصادية. كذلك فهو يعطي نظرة شمولية لفهم التاريـخ، سابقاً بذلك ابن حيان وصاعد الأندلسي الذي يضـع كـل أمـة في إطارهـا التـاريخي والجغرافي قبل التكلّم عنها.

كـان التاريـخ بـالنسبة لابن حـزم وسيلة لا غاية، وسيلة لخدمة الشريعة ولنمو الشخصية الإنسانية، فالغاية هو الخالق المتكامل وكل شيء فان وزائل، وتلك الأمم السالفة وعلومهـا لها مغزاها إذا ساعدت على فهم الأشياء وينبوعها وتسلسلها عبر الزمن. وكأن حال الأندلس وملكها الذي سار من المجد إلى الانحلال قد أقنعه بزوال المخلوقات وبقاء الخالق، فعلم التاريـخ وحتى علم الشريعة، همـا وسيلة، والفائـدة منهما بقـدر ما يوصلان إلى الغاية المنشودة، وهي صـلاح البشر.

تكلمنا فيما سبق عن حقبة التفكك حين تدهور الحال في الأندلس، وتراجـع العرب أمام الممالك المسيحية فكان الانهيار السياسي والتألق الفكري، وكأنما رابط يربط بين هذين الأمرين. في ذلك العصر القلق عاش رجل وقف ملكاته على التاريـخ جاعلاً منه وسيلة وغاية بالوقت نفسه. ذلك هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القـرطبـي. المتوفي سنـة ٤٦٩/١٠٧٦. شغـل وظيفة صاحب الشرطة أو صاحب المـدينة في

قرطبة زماناً[٥٢].

الكتب التي بقيت لنا من مؤلفات ابن حيان اثنان أولها **المقتبس من أنباء أهل الأندلس** ويقع في عشرة أجزاء لم يكتشف منه حتى اليوم سوى أربعة. **والمتين** ويقع في ستين مجلّدة وهو تاريخ ابن حيان الكبير كما سماه ابن بسام في **الذخيرة**. هذا «التاريخ الكبير» لم يبق منه سوى فقرات نقلها من أتى بعده كابن بسام وابن الخطيب.

انقطع ابن حيان لكتابة التاريخ، وفي «المتين» يظهر أصالة في التفكير وفهماً دقيقاً للحوادث السياسية الجارية. كان من موالي البيت الأموي ولكن ذلك لم يمنعه عن التحليل والتفكر في أسباب سقوط خلافتهم. كذلك، وعلى نمط ابن حزم، وجّه انتقاداته لعلماء الدين الذين نسوا تعليم الشريعة وتذللوا إلى الحكام فقال «... فقد خصّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين. بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق... والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم، وأولئك هم الأقلون فيهم، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها»[٥٣].

وهكذا نرى ابن حيان شاهداً على عصره وعلى تاريخ الأندلس كله محللاً مختلف مظاهر الحياة الإنسانية، ينظر إلى تقلب الأزمان والحوادث كدروس حياتية يجب أن يعتبر بها المرء، وينظر إلى تاريخ الأمم السالفة نظرة فلسفية متعظاً ومعتبراً، يراها تزول بزوال ملوكها وسؤددها فيتلفت إلى الواحد الباقي الذي لا يزول[٥٤].

فالتاريخ عند ابن حيان علم نافع يتعظ الإنسان فيه بأخبار الأمم السالفة ويتعلم ويقتدي ويتفهّم غاية الخلق. أما العلم فلقد اعتبره ابن حيان عطية من الله وفضيلة يحصل عليها الإنسان. «... خلق الإنسان علّمه البيان، وأجرى بيده فلك القلم العظيم الشأن فعلمه ما لم يعلم وأشهده ما لم يحضر وكرّر عليه نبأ ما لم يلحق من القرون الماضية والأمم البائدة وأراه سبيل منقلبهم عن هذه الدنيا الفانية، التي استعمرها فيها قرناً بعد قرن ليبلوهم فيما أتاهم فتأفتوا في شهدها، وتهالكوا كالأذبة عليها، لا الآخر بما انتهى إليه عن الأول معتبر ولا الغابر بما مر عليه الماضي مزدجر، حكمه بالغه فما تغني النذر، إذ كل مقدر كائن، وكل مربوب مسخر»[٥٥].

أما انصرافه للتاريخ فيبدو من خلال كتابته، فما أن انبعثت الفتنة البربرية حتى توقفت يده عن الكتابة فقال: «وأنسأتني المدة إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية، ففاضت أهوالها تعاظماً أدلهني عن تقييدها، ووهمني ألا مخلص منها فعطّلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها... فاستأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها؛ فأنعمت البحث عن ذلك عند من بقي يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له، لزهد من قبلنا قديماً وحديثاً في هذا الفن، ونفيهم له عن أنواع العلم...»[٥٦].

هكذا انصرف ابن حيان يكتب التاريخ يأخذ من المشرق الإسلامي وبنفس الوقت يعجب كيف ولماذا كتب بعض هؤلاء المشارقة عن أمم لا فائدة منها كالديلم والأتراك والأعاجم. ثم يعود فيستدرك قائلاً: «وإن ذلك لا محالة كان لاستغرابهم شأنها، وإكبارهم مجيء الزمان بمثلها، وأشاركهم إلى أنها طرقت هادمة لما بنته الدنيا، مغيرة لمحاسنها، مزهدة فيها، مؤذنة بانقطاعها، كي يكون البقاء لمن تفرد بجبروته، ويدوم البهاء لمن لا تتسلط الغير على ملكوته»[٥٧].

نجد ابن حيان يفلسف التاريخ ويتخذ من الحوادث الجارية في الحاضر والماضي دروساً تساعده على فهم الحياة وطبيعة الكون. إن الأمم التي سبقت الإسلام كالديلم والأتراك لا قيمة لها إلا بقدر ما يستطيع أن يستفيد الإنسان ويعتبر بدراستها: هذه الأمم التي لم تعط علماً ولا معرفة لا قيمة لها، أما الأمم التي أعطت الحضارة فأهميتها بقدر ما تطوّر العلم من بعدها ليصل إلى الإسلام وإلى النبي محمد خاتمة الأنبياء.

وللتاريخ عند ابن حيان مفهومه الخاص

الشمولي الذي يحيط بالحياة الإنسانية بجميع مظاهرها ــ لذلك، وهو المحلل في التاريخ، لم يكتف بقراءة الأخبار والروايات القديمة، والقصص الغير الموضوعية، بل أراد تاريخاً دقيقاً مبيناً على قواعد نظرية تحليلية. لم يرض أن يفسّر حوادث التاريخ تفسيراً أحديّ الجانب مهما كان ذلك مهماً. بل وسّع جوانب التاريخ غير مقتصر على ذكر الحوادث والأخبار والسياسة، بل تعدّى ذلك للتفكر بالأسباب والنتائج. حلّل النواحي الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية فكتب عن الأمراض والزلازل والثورات الداخلية والمجاعات، ووصف الأسواق والضرائب وتطرق إلى العقائد الدينية المتطرّفة، وإلى أمور فكرية وثقافية متعددة استقى منها من جاء بعده من المؤرخين وكان ذلك تمهيداً لتفكير ابن خلدون في القرن الرابع عشر ميلادي(٥٨).

عاش ابن حيان حوالي تسعين سنة، عاصر عظمة الخلافة الأموية كما عاصر الأحداث الدامية التي ادت إلى سقوطها، وهذا أثّر على ما يبدو في حياته وكتاباته حيث نتلمس شيئاً من القسوة والمرارة وسلاطة اللسان(٥٩). هذه الحدة لم يستطع التخلي عنها مؤلفو هذه الفترة فعبّر عنها كل واحد منهم بطريقته.

●

الهوامش

(١) انظر في هذا المضمار: **رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، رسائل ابن حزم الاندلسي**، تـح. إحسان عباس (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، والنشر، ١٩٨١)، ص ١٨٣ ــ ١٨٤؛ غ. بالنسيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥)؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الادب العربي**، ترجمة يعقوب كشل ورمضان عبد التواب (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧)، ٦: ١٠١ ــ ١٣٠. أيضــاً:
R. Dozy, **Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen Age,** Vol. I (Leyde: 1849), Vol. II (Leyde: 1881); F. Pons Boigues, **Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo — espanoles** (Madrid: 1898); P. Ch. Gendron, «Historiografia medieval hispana-arabica», **Al-And,** 37 (1972), pp. 353-404; C. Pellat, «The Origin and Development of History in Muslim Spain», **Historians of the Middle East,** ed. B. Lewis & P. M. Holt (London: Oxford University Press, 1962), pp. 277-289.

(٢) ابن القوطية، **تاريخ فتح الأندلس** (مصر: مطبعة التوفيق لا. ت.)، ص ٣٠ ــ ٣١؛ انظر أيضاً:
R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, Al Bayano'l Mogrib** par Ibn Adha'ri **et fragments de la chronique d'Arib** (Leyde: Imprimerie de l'universite, 1848-1851), p. 8.

(٣) R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** pp. 7-8.

(٤) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تـح. حسين مؤنس، (القاهرة: الشركة العربية للطباعة، ١٩٦٣)، ١: ٢٧٤.

(٥) عن المالكية في الأندلس انظر:
E. Levi Provençal, **Histoire de l'Espagne Musulmane,** (Paris: G.P. Maisonneuve et Cie, 1953), 3:470-476.

(٦) انظر: ابن الفرضي، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٤)، ١: ٣١٢ ــ ٣١٥؛ ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تـح: ج. س. كولان وليفي بروفنسال (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، ٢: ٢، ٢٠، ١٧١؛ ابن خاقان، **مطمح الأنفس ومسرح التانس في ملح أهل الأندلس** (القسطنطينية: مطبعة الجوانب، ١٣٠٢هـ)، ص ٣٦ ــ ٣٧:
M. Makki, «Egipto y los origenes de la historiografia arabigo-espanola», **Instituto de estudios islamicos** (1957), 5:189-200.

(٧) الكتاب لا يزال مخطوطاً في مكتبة بودليان باوكسفورد رقم ١٢٧، اما القسم الأندلسي من الكتاب فقد نشره الدكتور محمود علي مكي في مجلة **معهد الدراسات الإسلامية** بمدريد:
(Instituto de estudios islamicos), pp. 221-243.

(٨) M. Makki, «Egipto y los origenes de la historiografia arabigo-espanola», pp. 221-243.

(٩) أول كتاب وصل إلينا عن تاريخ المغرب والأندلس كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الحكم وعنوانه **فتوح مصر والمغرب والأندلس**. عاش هذا المؤرخ في القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي، وكتابه يعتبر من احسن ما كتب عن المغرب والأندلس وابعدها عن الأساطير. وقد اهتم المستشرقون بنشر هذا الكتاب أمثال تشارلز توري (Charles Torrey) والبوت جاتو (A. Gateau) الذي نشر الجزء الخاص بفتح المغرب والأندلس

مـع ترجمة فرنسية بعنوان **Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne** وعن كتاب ابن عبد الحكم المصري أخذ الكثير من الأندلسيين فيما بعد أمثال ابن الفرضي في **تاريـخ علماء الأندلس**، وابن خير في **فهرسته** والحميدي في **جذوة المقتبس** وغيرهم.

وعن فترة التأثر بالمؤرخين المصريين أنظر: غونزاليس بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ١٩٥ ــ ١٩٦؛
M. Makki, «Egipto y los origenes de la historiografia arabigo-espanola», pp. 153-209.

(١٠) ابن حيان القرطبـي، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تـح: محمود مكي (بيروت: دار الكتاب العربـي، ١٩٧٣)، ص ٢٦٩.

(١١) أنظر: Pons Boigues, **Ensayo,** pp. 145-154. وعن كتبه التي صنفها أنظر: **رسالة في فضل الأندلس**، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ٢:١٣٨.
وعن الرازي أيضاً:
R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** pp. 8-13; E. Levi Provencal, **Histoire de l'Espagne, 3:501-506.**

(١٢) غ. بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ص ١٩٧ ــ ١٩٨؛
R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** p. 14.

(١٣) هنالك شرح واف عن طبقات المجتمـع الأندلسي في:
E. Levi Provençal, **Histoire de l'Espagne,** 3:163-232.

(١٤) رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تـح: إحسان عباس، ٢:١٨٣ ــ ١٨٤.

(١٥) ابن الفرضي، **تاريـخ العلماء**، ٢:٧٨ ــ ٧٩؛ ابن خاقان، **مطمـح الأنفس**، ص ٥٦.

(١٦) ابن القوطية، **تاريـخ افتتاح الأندلس**، ص ٢٨ ــ ٣٤.

(١٧) أنظر: R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** pp. 10-12.

(١٨) أنظر: غ. بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ص ١٩٩ ــ ٢٠٢؛
R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** pp. 14-17.

(١٩) أنظر التحليل في: R. Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** pp. 61-63.
كذلك عن عريب بن سعد كمؤرخ وكاتب:
Dozy, **Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,** pp. 37-63.

(٢٠) ابن حيان القرطبـي، **المقتبس في تاريـخ رجال الأندلس**، تـح: ملشور أنطونية (باريس: ١٩٣٧)، ص ٤١.

(٢١) F. Rosenthal, **A History of Muslim Historiography** (Leiden: Brill, 1968), pp. 92, 101.

(٢٢) **رسالة في مراتب العلوم**، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تـح: إحسان عباس، ٢:١٧٩ ــ ١٨٠، أيضـاً: ابن عبد البر، **القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم** (القـاهرة: مكتبـة القدس، ١٣٥٠هـ)؛ غ. بالنسيا، **تاريـخ الفكر الأندلسي**، ص ٢٧٦ ــ ٢٨١؛
H.A.R. Gibb, «Tarikh» **Studies in the Civilization of Islam** (Boston: Beacon Press, 1968), pp. 122-124.

(٢٣) أنظر ترجمته في ابن الفرضي، **تاريـخ العلماء**، ٢:١١٤ ــ ١١٥؛ الضبـي، **بغية الملتمس في تاريـخ رجال الأندلس** (القاهرة: دار الكتاب العربـي، ١٩٦٧)، ص ٣٢٧.

(٢٤) أنظر: الضبـي، **بغية الملتمس**، ص ٣٣٤ ــ ٣٣٦؛ غ. بالنسيا، **تاريـخ الأدب الأندلسي**، ص ٢٧٠ ــ ٢٧٣.

(٢٥) ابن الفرضي، **تاريـخ العلماء**، ١:٩.

(٢٦) المصدر السابق عينه.

(٢٧) وتقسيم الأمم السالفة إلى أربعة يعود إلى الإغريق. أنظر:
T. Khalidi, **Islamic Historiography** (Albany: State University of New York Press, 1975), p. 90 and note 2.

(٢٨) أنظر: T. Khalidi, **Islamic Historiography,** p. 90

(٢٩) يبدأ اليعقوبـي في **تاريـخ**، ج: ١ ــ بالتكلّم عن آدم وحواء ونوح وإبراهيم وإسحق حتى يصل إلى أنبياء إسرائيل، ينتقل بعدها إلى المسيـح وملوك السريان ثم ملوك الموصل ونينوى وبابل والهند واليونان وملوك البربر حتى يصل إلى العرب وأسواقها.

(٣٠) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، تـح: أ: سافو (ليبزيـغ: ١٨٧٨).

(٣١) F. Rosenthal, **A History of Muslim Historiograpny,** p. 137.

(٣٢) وتقسيم الأمم إلى سبعة لم يكن معروفاً في التاريـخ الإسلامي قبل المسعودي. أنظر:
T. Khalidi, **Islamic Historiography,** p. 90 and note 2.
وفي مفهوم الأمة أنظر ناصيف نصار، **مفهوم الأمة بين الدين والتاريـخ** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨).

(٣٣) المسعودي، **التنبيه والإشراف** (ليدن: ١٨٩٤)، ص ٧٧.

(٣٤) أنظر المقدمة في ابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، تـح: فؤاد السيد (القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥).

(٣٥) أنظر أوروسيوس، **تاريخ العالم**، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢). وهو تحقيق للترجمة العربية لأوروسيوس التي كانت متداولة منذ منتصف القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي.

(٣٦) للتفصيل أنظر مقدمة فؤاد السيد في ابن جلجل، **طبقات الأطباء**.

(٣٧) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ٤.

(٣٨) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ١.

(٣٩) يذكره بأنه «تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة»، ص ٢.

(٤٠) هو سفرونيوس يوسيبوس إيرونيموس الترجمان ــ كان قديساً مسيحياً وشيخ المتكلمين وأحد علماء الكنيسة اللاتينية في عصره. ولد بين ٣٤٠ و ٣٥٠ ميلادية في ستريدون Stridon (دلماسيا)، وتوفي في بيت لحم سنة ٤٢٠ ميلادية واشتهر باسم القديس إيرونيم St. Jerome. أما لقب ترجمان فلأنه اشتهر بالترجمة خاصة ترجمة «الكتاب المقدس» الشهير بـ Vulgate، إلى اللاتينية، وكتاب قراونقة (Chronica) ترجمه من اليونانية إلى اللاتينية عن يوسيفوس Eusebius القيسراني، أسقف قيسارية، وزاد فيه كثيراً فأصبح المرجع الرئيسي للأحداث التاريخية القديمة. عنه أنظر: تواريخ الكنيسة المعروفة كتاريخ:
A. Fliche & V. Martin, **Histoire de l'Eglise** (Bloud & Gay, 1945), 3:415-417.

(٤١) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ٥٣.

(٤٢) P. Ch. Çendron, «Historiografia medieval hispana-arabica», pp. 353-404; F. Rosenthal, **Technique and Approach of Muslim Scholarship** (Roma: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), pp. 69-71.

(٤٣) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ٧٨.

(٤٤) أنظر مقدمة فؤاد السيد في ابن جلجل، **طبقات الأطباء**.

(٤٥) ابن جلجل، **طبقات الأطباء**، ص ١١٦.

(٤٦) واسمه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم.أنظر: غ. بالنسيا، **تاريخ الأدب الأندلسي**، ص ٢١٣ ــ ٢٣٩؛ أيضاً: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تـح: إحسان عباس، ٣ أجزاء حيث يجد الباحث تحقيقاً لرسائل ابن حزم وتحليلاً لكتاباته ونظرياته الفلسفية والتاريخية والأدبية.

(٤٧) هنالك دراسات عديدة عن حياة وفكر ابن حزم جاء ذكر اسمائها في **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تـح: إحسان عباس ١:٤٨١.

(٤٨) ابن حزم، **رسالة في مراتب العلوم**، تـح: إحسان عباس (القاهرة: ١٩٥٤)، ص ٧٨.

(٤٩) أنظر: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تـح: إحسان عباس، ٢:٥١٠ وحاشية نمرة ٣.

(٥٠) ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، (القاهرة: المطبعة الأدبية، ١٣١٧ ــ ١٣٢١هـ)، ١:١٧٥.

(٥١) **رسائل ابن حزم**، تـح: إحسان عباس، ٢:١٢، ١٣.

(٥٢) أنظر: ابن بشكوال، **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، تـح: عزت العطار الحسيني (القاهرة: ١٩٥٥)، ١:١٥٠؛ ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تـح: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٩)، ١/٢، ٥٧٣؛ مقدمة محمود مكي في **المقتبس** (دار الكتاب العربي، ١٩٧٣)، ص ٨ ــ ١٥٣؛ غ. بالنسيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٢٠٨ ــ ٢١١؛
P. Ch. Gendron, «Historiografia medieval hispona-arabica», pp. 353-404.

(٥٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ٣/١: ١٨٠ ــ ١٨١.

(٥٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٥.

(٥٥) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٥.

(٥٦) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٦.

(٥٧) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٥.

(٥٨) أنظر: P. Ch. Gendron, «Historiografia medieval hispana-arbica», p. 384;
أيضاً ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٨.

(٥٩) ابن بسام، **الذخيرة**، ١/٢، ٥٧٤؛ أيضاً: **المقتبس**، تـح: أنطونية، ص ٤١؛ **رسائل ابن حزم**، تـح: إحسان عباس، ٢:٢٩.



موطنها لبنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوية اللبنانية
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدة في أرجاء الدنيا



نيويورك

لندن — باريس

كوبنهاغن — فرانكفورت

بروكسل — جنيف

مدريد — زوريخ

تونس — نيس

مونروفيا — ميلانو

ابيدجان — روما

لاغوس — اثينا

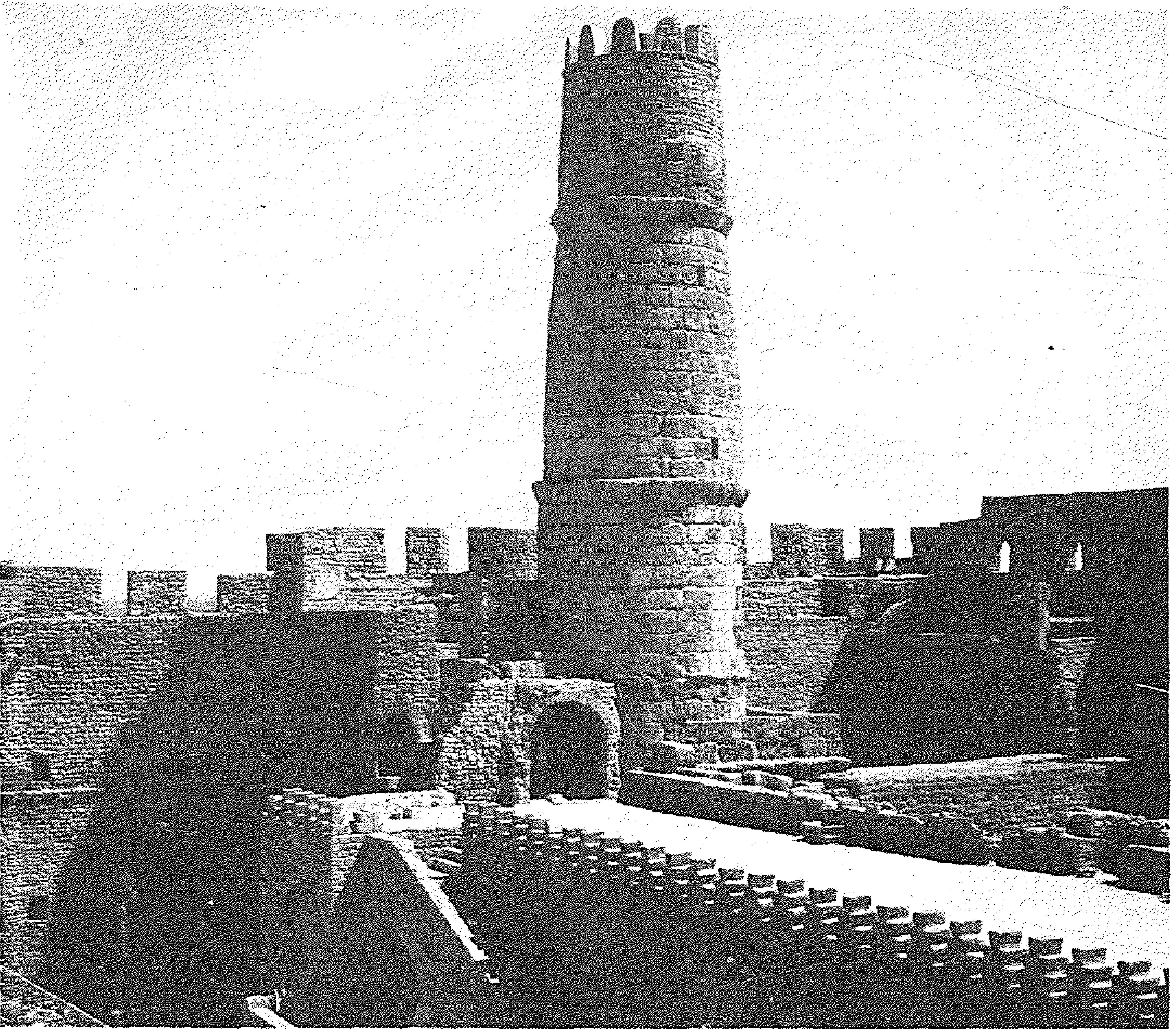
كانو — اسطنبول

بيروت

القاهرة
لرنكا
انقرة
عمان
بغداد
جدة
الخرطوم
عدن
الكويت
الظهران
البحرين
الدوحة
دبي
أبوظبي
رأس الخيمة
مسقط

روائع الآثار الإسلامية في جمهورية الجزائر

بقلم الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



□ حصن «رباط» على شاطىء شمالي افريقيا، حيث كان حكام دولة بني زيري يدفنون موتاهم. (١٠٥٧ ـــ ١١٤٨م)

لم يكن لدولة الجزائر اسم تتميز به حتى طليعة القرن التاسع عشر. إذ أن اسم الجزائر الذي عرفت به قد ابتكرته القوات الفرنسية عام ١٨٣٠ وأطلقته عليها وزارة الحربية الفرنسية من باريس في ١٤ من أكتوبر سنة ١٨٣٩.

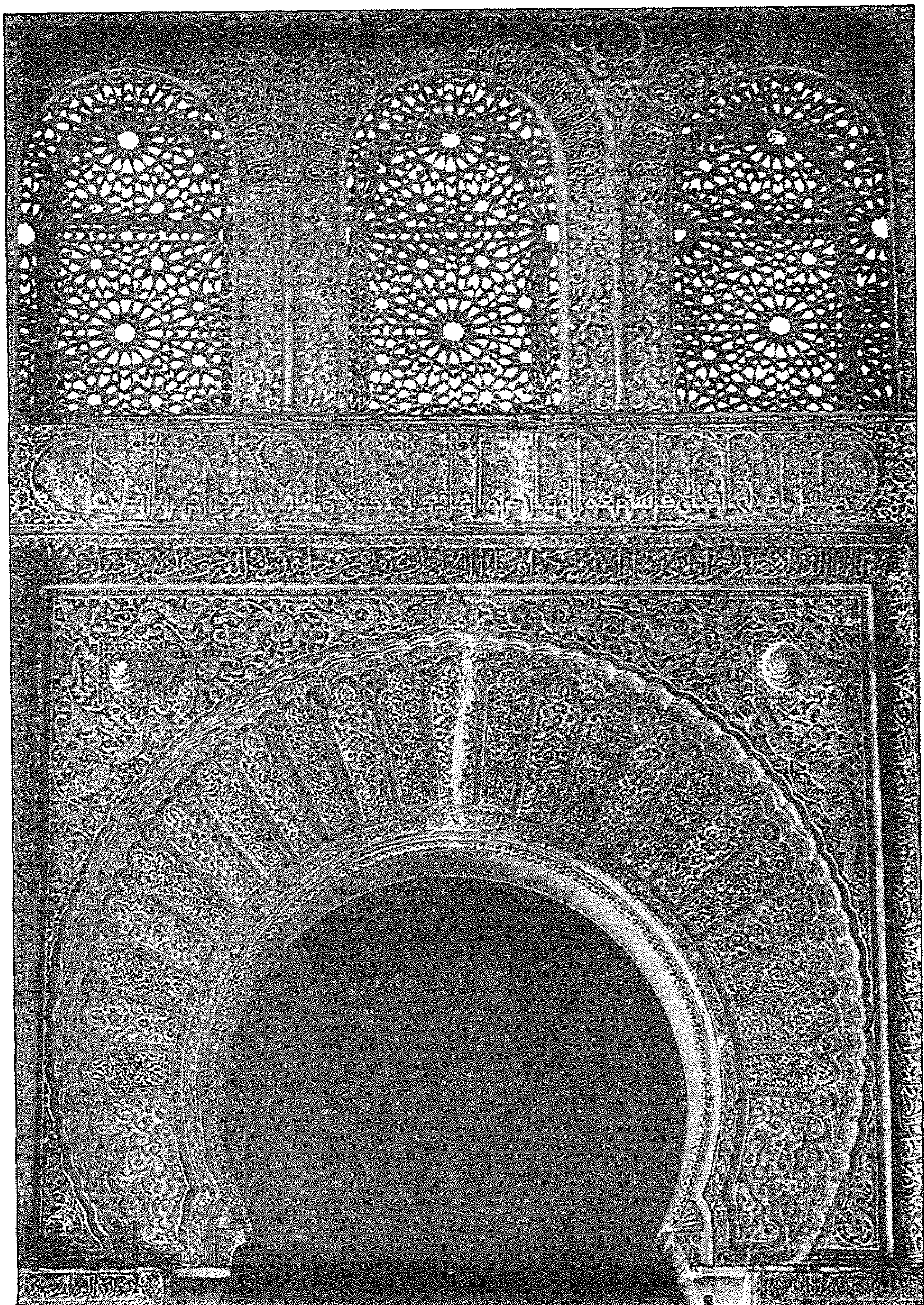
وكانت بلاد الجزائر تؤلف منذ أقدم العصور مع تونس والمغرب الأقصى وحدة جغرافية وإثنولوجية. فلقد كانت تربطها بهذه البلاد روابط طبيعية وسياسية وثيقة، كما كان يسكنها منذ عصور ما قبل التاريخ عنصر واحد من السكان هم البربر.



وتمَّ فتح العرب لبلاد المغرب بعد محاولات طويلة استغرقت نحواً من سبعين سنة. وانتشر الإسلام تدريجياً بين أمة البربر. وما لبثت أن تقبلت هذا الدين في حماس منقطع النظير وأخلصت له عن إيمان راسخ، وأصبحت للعرب قوة صادقة اعتمدوا عليها بعد ذلك في فتح شبه جزيرة أيبيريا، وظلت دعامة قوية استند عليها الإسلام في الأندلس في الصراع الذي انتهى بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢.

وأطلق العرب على بلاد الجزائر منذ القرن التاسع الميلادي اسم «المغرب الأوسط» تمييزاً له عن المغرب الأدنى (بلاد تونس) والمغرب الأقصى (مراكش). وشهد المغرب الإسلامي منذ ذلك العهد البعيد انقساماً جغرافياً ثلاثياً. وتألفت فيه ثلاث ولايات في آن واحد: ففي المغرب الأقصى قامت دولة الأدارسة ١٧٢ ـــ ٣٦٣هـ (٧٨٨ ـــ ٩٧٤م) وفي المغرب الأوسط، وهو الجزائر، قامت دولة الرستميين ١٤٤ ـــ ٢٩٦هـ (٧٦١ ـــ ٩٠٩م) واستقلت بالمغرب الأدنى دولة الأغالبة ١٨٤ ـــ ٢٩٦هـ (٨٠٠ ـــ ٩٠٩م).

أما الرستميون فقد كانوا من الخوارج الإباضية المعارضين للدولة الأموية. وشيد عبد الرحمن بن رستم الفارسي مؤسس هذه الدولة، مدينة تاهرت في إقليم وهران واتخذها عاصمة لدولته، ودامت هذه الدولة قرابة قرن ونصف قرن من الزمان، ثم سقطت على أيدي الفاطميين الذين أعادوا المغرب إلى سابق وحدته. وفي سنة ١٠٥٠م. شق المغرب عصا الطاعة على الفاطميين وانقسم إلى ولايتين صنهاجيتين: شرقية وغربية. فقامت في المغرب الأدنى دولة بني زيري وكان مقرها القيروان والمهدية، وقامت في المغرب الأوسط دولة بني حماد واتخذوا «قلعة بني حماد» مقرًا لهم. فأراد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أن ينتقم منهم فأرسل إلى بلادهم بعض الأعراب النهّابة الذين كانوا يستوطنون صعيد مصر، فعاثوا فيها فساداً وعزلوا القيروان عن سائر المدن، ولحق الخراب بدولة بني حماد فهجروا قلعتهم لمصيرها التعس واستقرُّوا في بِجّاية، واستحكمت الفوضى بهذه البلاد حتى استولى المرابطون في أواخر القرن الحادي عشر على غربي المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر. ولما قامت دولة الموحّدين، أخضع خليفتهم عبد المؤمن بن علي المغرب الأوسط لسلطانه سنة ٥٤٧هـ (١١٥٢م)، واستولى على وهران وتلمسان ثم دخل بجاية واستولى على قلعة بني حماد، معقلهم الأعظم وحرزهم الأمنع، وهكذا ضاع استقلال هذه البلاد في عهد الموحدين. ثم عاد التقسيم الثلاثي لبلاد المغرب مرة أخرى بعد سقوط دولة الموحدين سنة ١٢٦٩م، إذ قامت على أنقاضها ثلاث دويلات، فتألفت في المغرب الأدنى دولة بني حفص وفي المغرب الأقصى دولة بني مرين وقامت في المغرب الأوسط دولة بني عبد الواد (بني زيان). وقد تم قيام هذه الدولة الأخيرة بموافقة الموحدين أنفسهم إذ وضع رؤساء قبائل بني عبد الواد أنفسهم في خدمة الموحدين وساهموا مساهمة فعالة في الدفاع عن منطقة وهران. وتلقّوا الامتيازات نظير ذلك، إذ عيّن خليفة الموحدين زعيماً منهم حاكماً على تلِمْسان وبلاد زناتة عام ١٢٢٧م، واستقل هذا الحاكم بالبلاد بعد أربعين عاماً تقريباً عقب سقوط دولة الموحدين واتخذ تلمسان مقرًا له. والواقع أن استقلال بني عبد الواد بالمغرب الأوسط لم يكن كاملاً من جميع الوجوه، وكان لموقع الجزائر أثره في التنبؤ بمصيرهم، فلقد



□ محراب مسجد سيدي بل حسن في تلمسان. أواخر القرن الثالث عشر ميلادي.

كان الأعراب المهاجرون يسيطرون على وديان الساحل الشمالي للجزائر ويفرضون الإتاوات على سكانه، ولم تكن حكومة الجزائر بالقوة التي تمكنها من إخضاعهم في الوقت الذي كان خطر جيرانها من الشرق والغرب يهدد استقلالها، فمن الشرق كان بنو حفص بتونس يزعمون أنهم ورثة الموحدين وأن لهم الحق في فرض سيطرتهم على المغرب الأوسط؛ ومن الغرب أخذ بنو مرين يترقبون الفرصة المواتية للتدخل في المغرب الأوسط وضمه إلى حوزتهم، وقدمت جيوش بني مرين وعسكرت أمام أسوار تِلِمْسان الحصينة محاولة حصارها، وطال أمد الحصار فأسست مدينة حربية كبيرة تجاه تلمسان سميت بالمنصورة لتكون مركزاً لعملياتها الحربية. واستمرت جيوش بني مرين تحاصر تلمسان حتى سقطت هذه الحاضرة في ١٣٣٧، وظلت أحد عشر عاماً مركزاً لحكومة مرينية، وأخذ يحكم المغرب الأوسط أمراء من تلمسان خاضعين لحكومة فاس، وكان نصيب من تجرَّأ منهم على الخروج عن طاعة بني مرين العزل.

وازدهرت تِلِمْسان في عهدهم بالرغم من هذه العواصف والأنواء، وكان لمياهها الجارية فضل كبير في حياطتها بالجنان والبساتين مستعيدة بذلك مجدها القديم ثم بدأ عهد من الاضطراب والفوضى منذ القرن الخامس عشر هيأ المجال لدخول عناصر جديدة على المسرح فقد تفككت دولة الجزائر. وألَّفت مدن الساحل جمهوريات مستقلة أخذت تسلم نفسها شيئاً فشيئاً لقراصنة البحار وكانت حركة الاسترداد الإسباني بالأندلس وقتئذ على أشدها، فدفعت غارات القراصنة المسلمين على سواحل إسبانيا الشرقية الإسبان إلى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية بالجزائر، فاستولو على وهران، ثم سقطت بجاية في أيديهم سنة ١٥١٠ وعاشت مدينة الجزائر الحصينة تحت تهديد المدافع الاسبانية التي كانت تصيبها من قلعة بنيون المشيدة في جزيرة مجاورة للساحل، فاحتمى أهل الجزائر وراء أحد القراصنة الأتراك ويعرف باسم «عروج» ولكنه استبدَّ بالمدينة وقمع كل محاولة قام بها السكان للتحرر من استبداده، وخضعت المدينة بعد مقتله أمام تلمسان في سنة ١٥١٨ لأخيه أمير البحر خير الدين المعروف باسم بربروسة، واستطاع خير الدين هذا أن يستولي على بنيون سنة ١٥٢٩ ويخلص مدينة الجزائر من الخطر الاسباني، ولكنه يعدُّ مسؤولاً أمام التاريخ عن استيلاء الأتراك على الجزائر إذ قدم مدينة الجزائر هدية لسلطان القسطنطينية، وبالتدريج أصبح المغرب الأوسط ولاية تركية.

ظلت الجزائر في العصر التركي مركزاً للقرصنة التي أصبحت صناعة لكل فرد، وأضفى عليها طرد المسلمين من إسبانيا مسحة من القومية والجهاد مما زاد من إغارات القراصنة المسلمين على سواحل اسبانيا وشلّ خطوط الملاحة التجارية للدول المسيحية، وغنمت الجزائر من وراء ذلك غنائم كثيرة. وكان بقاء مدينة الجزائر على هذا النحو مركزاً للقرصنة في نظر الدول الأوروبية خطراً يهدد سلامتها فعمدت إلى مهاجمة الجزائر بجميع الطرق. واستغلت فرنسا الامتيازات التي منحها لها الباب العالي فجعلت لها قنصلاً يحمي مصالحها بالجزائر، كما نجحت القوى العظمى في الدفاع عن مصالحها عن طريق الهبات تقدمها إلى الداي وأعوانه، وأدَّى ذلك إلى اضمحلال القرصنة في القرن الثامن عشر. ثم بدأ عهد خطير في تاريخ الجزائر، إذ حدث في أبريل سنة ١٨٢٧ أن أهان الداي حسين حاكم الجزائر قنصل فرنسا فاتخذت فرنسا من ذلك ذريعة للتدخل العسكري المسلح، ولم تقوَ مدينة الجزائر التي طالما هزت دول المسيحية بقراصنتها على مقاومة الجيش الفرنسي في يوليو سنة ١٨٣٠، فاحتلها الفرنسيون، وانتهى أمر المدن الجزائرية الأخرى إلى التسليم.

وهكذا بدأ الاستعمار الفرنسي ينشب أظفاره في أرض الجزائر الحرة.

وتزخر الجزائر بتراث هائل من الآثار الإسلامية الجليلة من مختلف العهود وكلها آثار تسجل ما مرَّ بها من أحداث. وأقدم هذه الآثار ما يرجع إلى دولة الرستميين الذين اتخذوا من تاهرت عاصمة لهم. وقد تبقى بهذه العاصمة آثار قصبتها(١) التي يذكرنا بناؤها بالقصور الأموية التي شيّدها خلفاء بني أمية في بادية الشام مما لا يدع مجالاً للشك في أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية.

وسور هذه القصبة مستطيل الشكل له موقع استراتيجي رائع يسيطر على المدينة وما يحوطها من مروج، ويسبق سورها في الجانب الشمالي الشرقي سور أمامي صغير. وفي الداخل فناء فسيح يشغل الجزء الأعظم من القصبة. وتلتصق بجدرانها من الداخل غرف مختلفة الاتساع.

ولما سقطت دولة الرستميين على أيدي الفاطميين لم تنقرض سلالتهم من الجزائر، بل هاجرت فلولهم إلى الشرق وأوغلت في الصحراء واستقرت في واحة «ورجلة» وظلت هناك حتى إذا ما داهمتها جيوش المرابطين هاجرت من مقرها إلى «مزاب» وهي منطقة صحراوية، وما لبثت بقايا الرستميين أن حفرت الآبار في هذه البقاع الجدباء وعمرتها وجعلت من هذه الأماكن واحات خصبة سميت فيما بعد باسم «سبع مدن».

وتبقت من آثارهم بقايا معمارية في واحة صغيرة تعرف باسم سدراته تقع على بعد ٦٠٠ كيلومتر جنوب شرقي مدينة الجزائر، و ١٤ كيلومتراً جنوبي ورجلة.

وقد أسفرت الحفائر التي أجراها علماء الآثار الفرنسيون أمثال تاري وفوشيه والآنسة مرجريت فان برشام عن كشف آثار بناء يعتقد أنه مسجد، ويعتقد تاري أن بيت صلاة هذا المسجد كانت تعلوه قباب بيضاوية الشكل ملتصق بعضها ببعض، وأنه كان يشتمل على ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية. وكان أحد جدرانه مزيناً ببطاقات حفرت فيها جوفات مقوَّسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة، إحداها مزين بضلوع بارزة كالفصوص وتشبه إلى حد كبير جوفات قصر الأخيضر بالعراق أو طاقات كنيسة طيسفون بإيران، مما يدل على مدى تأثر فن الرستميين بالفن العراقي الفارسي. كذلك أسفرت الحفريات الأثرية عن كشف بقايا دُور كانت مزينة بزخارف جصية رائعة تشبه زخارف سامراء بالعراق، وقوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع المموجة التي تتوزع فيما بينها التوريقات.

* * *

أما بنو حماد الذين أعلنوا استقلال الجزائر عن الفاطميين، فقد استقروا في قلعتهم التي بناها جدُّهم حماد في موقع غاية في المناعة، وكانت تقوم على هضبة مرتفعة، جوانبها شديدة الانحدار. أما أسوارها فكانت تتوج حواف هذه الهضبة وتتكىء على القمم السامقة التي كانت تقوم مقام حصن طبيعي لها. وقد ازدهرت قلعة بني حماد وأصبحت في عهدهم مركزاً تجارياً وعلمياً ممتازاً يفد إليه التجار والطلاب من جميع بلاد المغرب، فأقيمت بها القصور في عهد المنصور بن الناصر. ومع ذلك فقد كان لبني حماد منذ عهد الناصر حتى عهد باديس بن المنصور أي طيلة سبع وثلاثين سنة عاصمة ثانية هي بجاية. وكان يربطها بالقلعة طريق ملكي ذكره الشريف الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق» فلما أغار عرب بني هلال وغيرهم على قلعة بني حماد ونثروا فيها بذور الدمار انتقل بنو حماد إلى بجاية عاصمتهم الثانية، واستقروا فيها وسمُّوها بالناصرية نسبة للأمير الناصر بن حماد الذي عمرها بمنشآته وأمهرها بقصوره وجنانه. وظلت بجاية عاصمة بني حماد حتى منتصف القرن الثاني عشر.

وتبقى من قلعة بني حماد آثار مسجدها الجامع الذي أقامه مؤسس القلعة في طليعة القرن الحادي عشر. وآثار هذا المسجد لا تعدو بقايا المئذنة التي ترتفع اليوم إلى نحو ٢٥ متراً، ولقد أجرى الأستاذ بلانشيه وجنرال دي بيليه في أرض هذا المسجد حفائر أثرية أتاحت لنا معرفة تخطيطه القديم. وكان يشغل مستطيلاً طوله ٦٤ متراً وعرضه ٥٦ متراً، وكانت بيت صلاته يضم ثلاث عشرة بلاطة تتجه كلها عمودية على جدار القبلة على النحو الذي نراه في مساجد الأندلس. أما المئذنة التي ما تزال قائمة حتى وقتنا هذا فكانت تتكىء من الداخل على الجدار الشمالي للمسجد وهو الجدار المواجه لجدار المحراب، كما كانت تقع في محور المسجد. وقد فقدت هذه المئذنة رأسها العلوي وأجزاء من جدران شرفتها. وتكسو وجهها المقابل للمحراب تجويفات وطاقات تتوزع طولياً على ثلاث مناطق كما هو الشأن في مئذنة المسجد الجامع بإشبيلية المعروفة بالجيرالدا ويعلو هذه الطاقات عقود تتناوب فيها فصوص مستديرة



□ البوابة المؤدية الى مسجد المنصورة المدنية الحربية التي بناها بنو مرين أثناء حصارهم لتلمسان

الراس مع فصوص مدببة الرأس بحيث تشبه عقود ضريح السيدة أم كلثوم بالقاهرة ويرجع إلى سنوات ١١٢٦ ــ ١١٥٥م.

أما قصور قلعة بني حماد فقد خربت كلها وأصبحت أثراً بعد عين، ولم يبق منها سوى بقايا يسيرة من قصر المنار، وكان يقع شرقي المدينة على حافة الهضبة التي تشرف على الوادي العميق الذي يشقه نهر «وادي فرج». وقد أجرى الجنرال دي بيليه سنة ١٩٠٨ حفائر أثرية في مواضع هذه القصور أسفرت عن كشف بعض الأسس لجدران قصر البحر الحمادي. وكان موقعه وسط المدينة. ويتألف دار البحر الحمادي، من منار مربع الشكل زينت جدرانه من الخارج بتجويفات طولية نصف أسطوانية تنتهي من أعلاها بأنصاف قباب بداخلها ثلاثة صفوف من الحفر المضلعة التي تشبه خلايا النحل، وتعتبر هذه الحفر أساساً للمقرنصات. وتتناوب هذه التجاويف الطولية مع ركائز قوية تكسب البناء مظهر الحصون.

ومن آثار بني حماد الحربية بقايا باب تحتفظ به قلعتهم، ومدخل هذا الباب مُنْحَنٍ على شكل مرفق ويعرف بباب الأقواس.

وأروع آثار الجزائر يرجع إلى عهد المرابطين الذين ضموا إلى دولتهم الجزء الغربي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر. ويذكر المؤرخون أن الأمير يوسف بن ناشفين مؤسس دولة المرابطين كان مولعاً ببناء المساجد، فقد شيد بفاس عدداً كبيراً من المساجد، ويذكر ابن أبي زرع أنه كان إذا وجد حارة لا يقوم فيها مسجد انتقد أهلها. وقد سجّل المرابطون وجودهم في المغرب الأوسط بأبنية ومؤسسات دينية وحربية ومدنية غاية في الروعة والبهاء، مما يثبت أن عصر المرابطين كان بحق عصر ازدهار في الآداب والفنون على عكس ما ذهب إليه المستشرق الهولندي دوزي والمستشرقان الإسبانيان كوديرة وغرسيه جومث. وقد أثبتت الحقائق التاريخية والأثرية أن يوسف ابن تاشفين وابنه علياً بالذات وقفا موقفاً مشرّفاً حيال الفن، وأنّهما أتاحا الفرصة لتطعيم الفن المغربي بعناصر أندلسية وأنهما لم يترددا قط في توثيق العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس. وإذا كان يوسف بن تاشفين الذي أنقذ الأندلس من

خطر الاسترداد المسيحي في موقعة الزلاقة قد انتقد ملوك الطوائف بالأندلس لانغماسهم في الترف واستنامتهم لمظاهر الرقة وملذات الحياة فإنه ما لبث أن جارى هو هذه الحياة. وبعث ابنه علياً إلى الأندلس ليتذوق حياة الترف هذه. ويذكر المؤرخون أن يوسف بن تاشفين استقدم إلى المغرب كثيراً من عرفاء قرطبة ومهندسيهم لإقامة المنشآت بحاضرته فاس، كما أقام في عهده عدد كبير من أهل الأندلس في مدينة سبتة واستقروا لها. وقدم عدد هائل منهم إلى حي الأندلسيين بمدينة فاس. وتأثر ذلك فن المرابطين في المغرب بالفن الأندلسي الذي كان قد بلغ ذروة تطوره، وتطعَّم بفنون الأندلس المزدهرة مما تشهد به آثارهم الرائعة.

وعمد علي بن يوسف بن تاشفين إلى نزع جفوة البدو وغلظة البربر عن نفسه، وشجع الفنون والعمارة وأقام المنشآت المعمارية في كل مكان حل فيه المرابطون وحاط نفسه بالشعراء والعلماء فنبغ في عهده شعراء فطاحل أمثال ابن قزمان وأعمى تطيلة وابن زهر.

وهكذا شهد الجزء الغربي من المغرب الأوسط عصراً من الازدهار الفني لم يشهده من قبل. واهتم المرابطون بالأبنية الدينية اهتماماً بالغاً، ومع ذلك لم يقصروا في بناء القصور والحصون. ولقد شيد يوسف بن تاشفين عام ١٠٨٢ مدينة حربية جديدة بعد استيلائه على أجادير وسماها تاجرارت وتعنى بالبربرية القاعدة الحربية، وأقام فيها مسجده الجامع، وهي مدينة تلمسان الجديدة نفسها، أسسها يوسف غربي أجادير أو تلمسان القديمة، وأقام بها القصر القديم (القصر البالي) بالقرب من المسجد الجامع. وحاط تاجرارت بالأسوار وفتح فيها الأبواب الكبيرة التي تبقى منها باب القرمدين، وتتجلى روعة فن المرابطين فيما تخلف من عهدهم من آثار مساجد مدينة الجزائر وندرومة وتلمسان. وتشف عمارة المسجدين الأولين عن بساطة في الزخرفة، وتنطق بما كان يتسم به هذا الفن في بداية عصر المرابطين من غلظة وخشونة على حين يمثل المسجد الجامع بتلمسان مدى ما وصل إليه فن المرابطين بعد اتصالهم بالأندلس وتأثرهم بمظاهر الرقة والثراء الزخرفي التي كانت تزخر بها آثار ملوك الطوائف في سرقسطة وإشبيلية ومالقة والمرية. ويغلب على الظن أن يوسف بن تاشفين هو الذي أقام هذا المسجد عام ١٠٨٢ عند بنائه لمدينة تاجرارت. وتم بناء هذا المسجد سنة ١١٣٦ (٥٣٠هـ) في عهد الأمير علي بن يوسف. ولما كان عليّ هذا متأثراً بمظاهر الرقة التي نشأ عليها في اسبانيا وخاصة أن أمه كانت من سبايا المسيحيين، فقد ظهر ذلك في إضافته لمسجد أبيه بتلمسان. وتتميز أعمال عليّ المعمارية في هذا المسجد بالسُّقُف الأفقية التي تعلوها أسطح منشورية الشكل وهي سُقف تتألف من ألواح خشبية مسطحة مسمرة في جوائز طولية مربعة، ترتكز أطرافها على ركائن حشدت فيها الزخرفة النباتية التي تشبه نظائرها في كنيس سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة وفي ركائن مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة. وتقطع أفقية هذه السُّقف المسطحة قبتان من أروع ما أبدعه فن العمارة في بلاد المغرب. ونظام وضع هاتين القبتين يعد تقليداً مباشراً لقباب جامع قرطبة، كما أن نظام بناء قبة المحراب في جامع تلمسان من الضلوع المتقاطعة يشف عن تطور في نظام البناء لقباب قرطبة مما يدل على أن بناء هذا المسجد أندلسي الأصل بل قرطبي. ويثبت ذلك أيضاً أنه قلّد جامع قرطبة، بخلاف ما سبق ذكره، في عقد المحراب وطرزه المستطيلة التي تحتشد فيها الطرز الكتابية وصفوف التوريقات، وغيرها. وتربط ضلوع قبة المحراب حشوات جصة بها زخارف نباتية من التوريقات المخرمة التي ينفذ منها الضوء، ويشغل الفراغ المتخلف من تقاطع ضلوع القبة قبيبة صغيرة من المقرنصات تُعدُّ أول مثال لقباب المقرنصات في بلاد المغرب والأندلس.

وهكذا أبدع فنانو المرابطين في زخرفة محراب هذا المسجد وكسوه ثوباً قشيباً من الزخرفة النباتية الثرية التي تشف عن مدى التفاعل الذي حدث في عهد علي بن يوسف بين زخرفة المرابطين البسيطة والزخرفة الأندلسية الكثيفة التي تتمثل بأروع صورة في المسجد الجامع بقرطبة.

ولم يكن الموحدون بأقل اهتماماً بالفنون من

المرابطين، فقد أعاد الخليفة عبد المؤمن بناء أسوار تلمسان التي كان قد هدمها عقب استيلائه عليها وشيد عماله فيها القصور وحاطوها بالقصاب العالية، كما جدد السيد أبو عمران موسى حفيد عبد المؤمن أسوار المدينة ١١٧٠ ــ ١١٨٤.

وتألقت تلمسان زمن الموحدين وعمرت أسواقها وازدهرت تجارتها، وتبقى فيها من عهدهم آثار حمام يعرف بحمام الصباغين، وتعلو قاعته الوسطى قبة تتشعب من قمتها فصوص، وتستند هذه القبة على عنق مثمن الشكل تحمله عقود متجاوزة تشبه حدوة الفرس. وتتوسط القاعة تحت هذه القبة فوارة للمياه في داخل حوض مربع. ولا يختلف هذا الحمام كثيراً عن حمامات المرابطين في الأندلس مثل حمام اليهود بمدينة بسطة وحمام بالمة بجزيرة ميورقة.

وحظيت مدينة تِلْمسان بتراث ضخم من آثار بني عبد الواد، فقد تركوا فيها آثاراً رائعة، لا تقل في شيء عن آثار المرابطين. ويعتبر الأمير يغمراسن بن زيان (١٢٣٥ ــ ١٢٨٢) من مشاهير البناة، إذ أقام مئذنة لجامع أجادير وشيد أخرى للمسجد الجامع بتلمسان وهو الذي هجر القصر القديم الذي كان يجاور جامع تلمسان وأسس مقرًّا جديدا له هو قصر الموشوار الذي تبقت منه بعض جدرانه. وأقيم في عهد السلطان أبي سعيد عثمان ١٢٩٦م مسجد سيدي بل حسن. وكان أبو تاشفين الأول (١٣١٨ ــ ١٣٣٧) خامس سلاطين بني عبد الواد أكثرهم حبًّا للبناء والتعمير. وأروع آثاره ما تزال قائمة في المنصورة والعبّاد.

ومئذنتا يغمراسن مربعتا الشكل على نظام المآذن المغربية الأندلسية. وقد بنيت كلتاهما من الآجر وإن كانت قاعدة مئذنة أجادير أقيمت من الحجارة، وتشبه هاتان المئذنتان مئذنة المسجد الجامع بإشبيلية ومئذنة جامع الكتبية بمراكش ومئذنة جامع حسن بالرباط، وقوام زخارفهما شبكات المعينات التي تنطلق من رؤوس العقود وتكسو جميع أوجه المئذنتين.

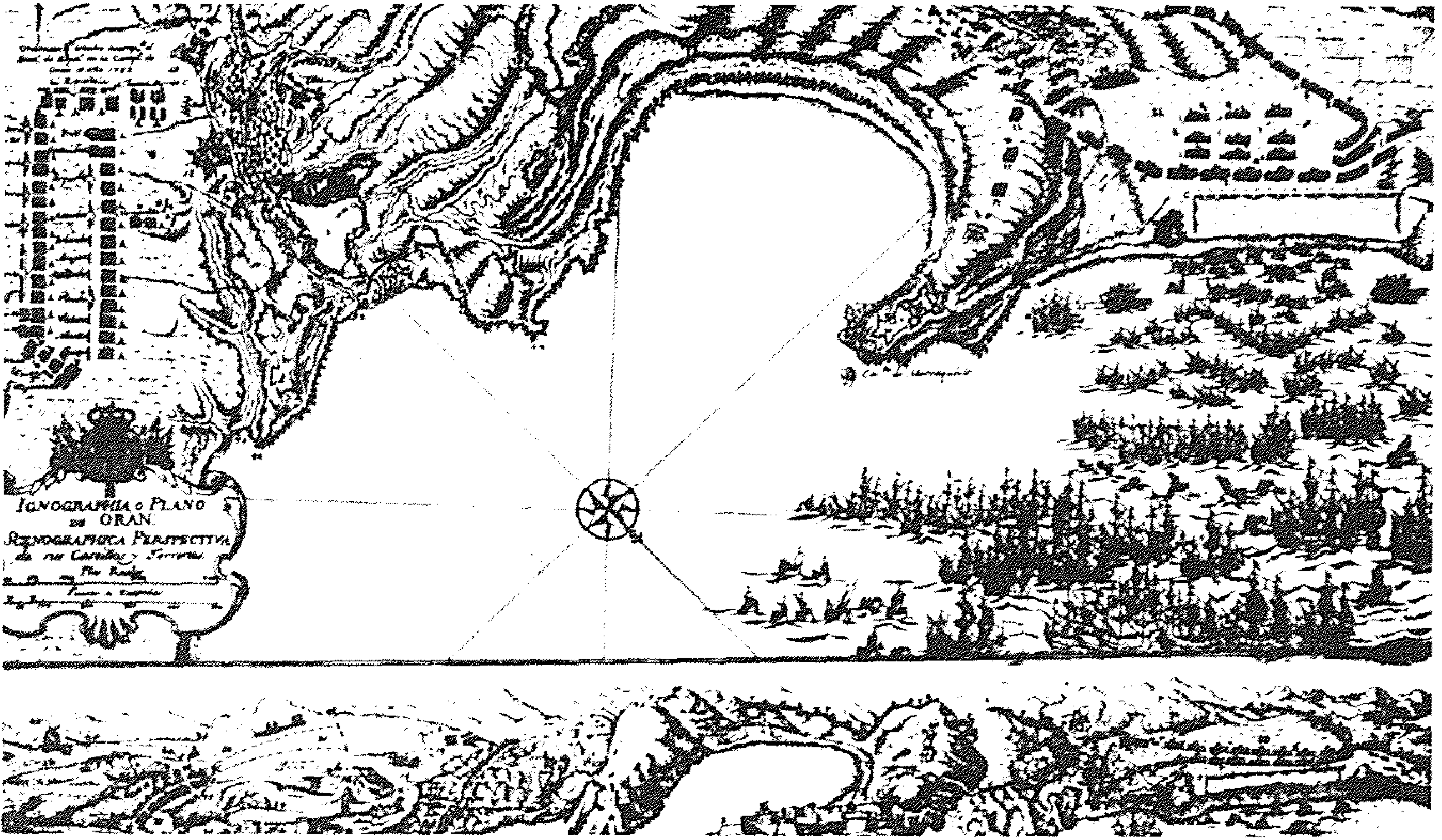
ومسجد سيدي بل حسن صغير في مساحته، وقد تحول اليوم إلى متحف لمدينة تلمسان، ومظهره الخارج بسيط، إلا أن مئذنته الصغيرة تعدُّ من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بالمغرب.

ولما حاصر بنو مرين تلمسان من ١٢٩٩ ــ ١٣٠٧ وأقاموا مدينتهم الحربية التي عرفت باسم المنصورة قبالتها، واستولوا على تلمسان سنة ١٣٣٧، ظلت هذه المدينة خاضعة لهم حتى ١٣٤٨، ثم خضعت لهم مرة أخرى منذ ١٣٥٣.

وقد سجل بنو مرين سيطرتهم على بلاد الجزائر بثلاثة أبنية هامة منها جامع المنصورة الذي أقامه السلطان أبو يعقوب فيما يقرب من سنة ١٣٠٣ ولكن بناءه لم يتم إلا في سنة ١٣٣٧ في عهد السلطان أبي الحسن المريني. ولم يبق أهل تلمسان على مسجد أعدائهم، فجردوه من رخامه ولم يتبق منه سوى جزء من مئذنته وبعض أجزاء من سوره. وبقايا هذه المئذنة ترتفع اليوم إلى ما يقرب من ٣٨ متراً وتعتبر من أجمل الآثار الإسلامي بجمهورية الجزائر، ويمكن مقارنتها بمآذن الموحدين في إشبيلية والرباط. وباب المئذنة وهو نفسه باب المسجد تكسوه الزخارف النباتية والتوريقات، وتعلوه ظلة بارزة ترتكز على مساند، وتثير مئذنة المنصورة مئذنة الجامع بإشبيلية المعروفة بالجيرالدا وذلك بتقاسيمها الزخرفية وتفاصيلها المعمارية وإن كانت تفوقها بما رصعت به من فسيفساء.

كذلك تبقى من عهد السلطان أبي الحسن المريني مسجد العباد الملحق بضريح سيدي بومدين، وقد بني هذا المسجد في سنة ١٣٣٩ تخليداً لذكرى هذا المتصوف الأندلسي الكبير. وواجهة هذا المسجد صورة رائعة للفن المغربي الجزائري في عهد بني مرين، ولا يختلف هذا الفن في كثير أو قليل عن آثار الأندلس في عهد ملوك بني الأحمر إذ أن الزخارف النباتية والهندسية تكسو الجدران جميعاً، موزعة في تقاسيم غاية في الروعة والجمال.

ولقد أقام بنو عبد الواد نوعاً من المؤسسات الدينية الاجتماعية هو المدارس، والمدرسة منظمة يأوي إليها طلاب العلم في العصر الإسلامي ويتولى التدريس لهم فيها فئة صالحة من العلماء المبرزين. وقد ظهر هذا النوع من المؤسسات المعمارية في فارس والعراق وانتقل إلى السلاجقة وأقيم في دمشق وحلب وبعلبك عدد كبير منها. وأول من أدخل نظام المدارس في مصر



□ رسم اسباني لمدينة وهران والمرسى الكبير.

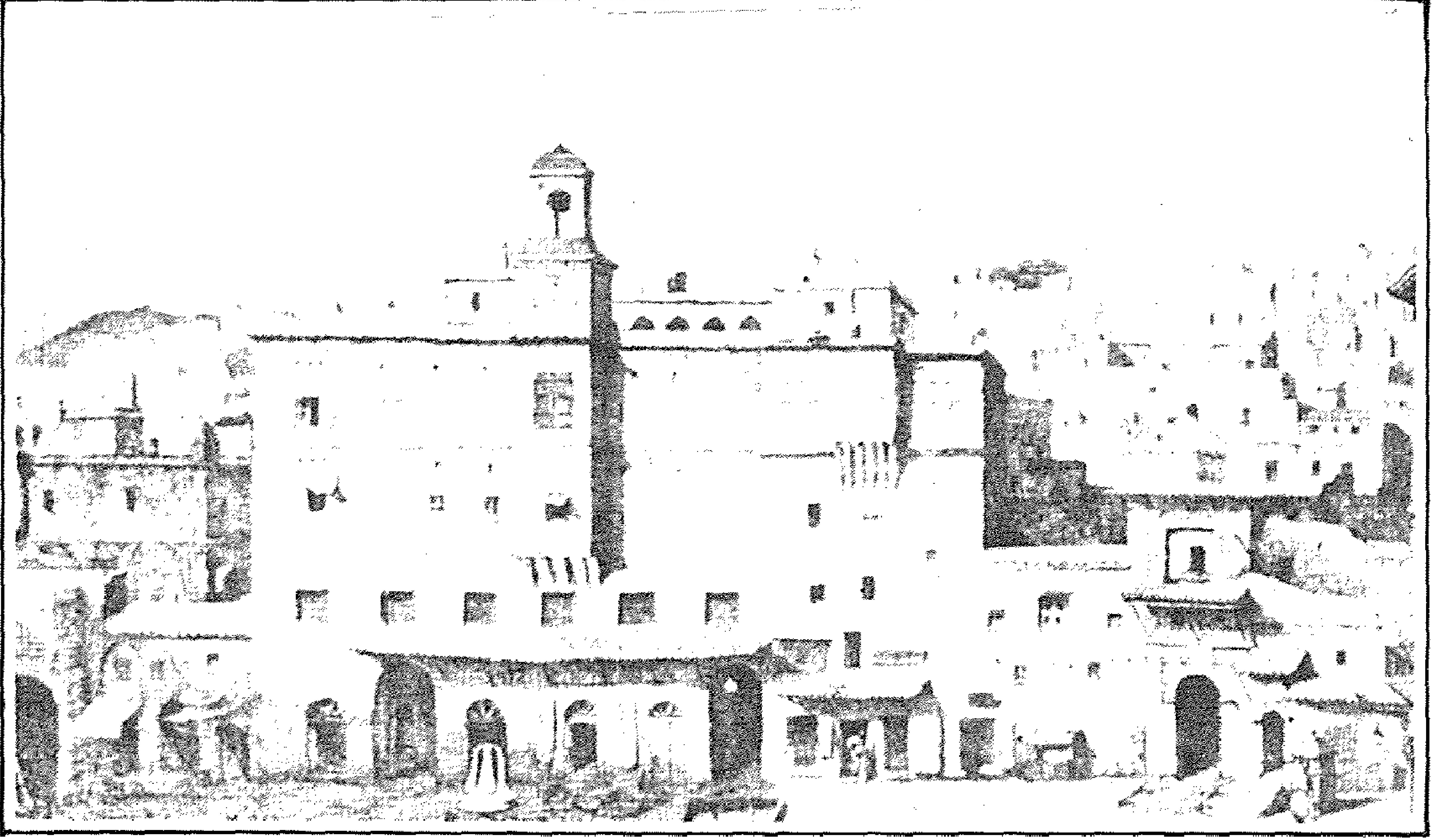
صلاح الدين الأيوبي وانتقلت تقاليد بناء المدارس من مصر إلى تونس أولاً ومنها انتقلت إلى مراكش بعد مضيّ ما يقرب من ثلاثين سنة في عهد بني مرين. ولقد أقيمت بتلمسان عدة مدارس في عهد بني عبد الواد منها المدرسة التشفينية التي أقامها أبو تاشفين المتوفى سنة ١٣٣٧. ولم يبق من هذه المدارس إلا آثار ضئيلة إذ أن أغلب مدارسهم في الجزائر قد اندثرت. ومن آثار هذه المدارس آثار مدرسة ببلدة العباد أقامها السلطان أبو الحسن المريني سنة ١٣٤٧ ويتوسط هذه المؤسسة فناء فسيح تحيط به بوائك من جهاته الأربع، واصطفت على جانبي البائكتين الشرقية والغربية إثنتا عشرة غرفة للطلبة ويعلو هذا الطابق طابق آخر به العدد نفسه من الغرف. وفي الجهة المقابلة للمدخل الرئيسي للمدرسة أقيم بيت الصلاة وهو مسقف مربع الشكل تعلوه قبة.

ويجب ألا نترك آثار دولة بني مرين في الجزائر دون أن نذكر شيئاً عن آثارهم المدنية، فقد أولع سلاطين بني مرين وعلى الأخص السلطان أبو الحسن بالبناء، ويذكر المؤرخون أنه أقام في مدينة المنصورة سنة ١٣٤٤ قصراً عرف باسم دار الفتح شيده فوق ربوة عالية وحاطه بالأبراج ولم يبق منه إلا آثار ضئيلة تذكرنا بقصر الحمراء، كما أقام ببلدة العباد قصراً صغيراً بجوار ضريح سيدي بومدين ومسجده. وتدلنا الحفريات الأثرية التي أجريت في أرضه سنة ١٨٨٥ على أنه كان يتألف من ثلاث مجموعات من الأبنية متدرجة في المساحة لكل منها في وسطه بهو، ودلت آثار هذا القصر على أنه كان لا يقل في تراثه الزخرفي عن زخارف مدارس فاس.

ومن آثار بني مرين الحربية في الجزائر تبقى سور مدينة المنصورة، وهو سور مربع الشكل مثله في ذلك مثل بقية الأسوار التي أقامها بنو مرين حول مدنهم بمراكش وتبقت من عمائرهم الحربية أجزاء من سور تلمسان الذي أقيم على أنقاض سور الموحدين.

* * *

وتزخر مدن الجزائر بالآثار التركية وكلها بنيت على نظام المساجد التركية بآسية الصغرى مثل مساجد بروسة ونيسة وغيرها من مدن الأناضول. وأقدم المساجد الجزائرية التي ترجع إلى العصر التركي والتي ما تزال قائمة إلى وقتنا هذا مسجد علي بتشنين، أقيم في النصف الأول من القرن السابع عشر، أقامه قرصان إيطالي اسمه Picenino، وقد أسلم وعرف باسم علي



□ قصر «الجنينة» مقر الإدارة المركزية العثمانية قبل أن يحرقه الفرنسيون.

بتشنين، ولقد تحول هذا المسجد في عهد الفرنسيين إلى كنيسة نوتردام دي فيكتوار مما غير نظامه المعماري الإسلامي. وكانت بيت الصلاة فيه يتألف من فراغ مربع فسيح تعلوه قبة ويحيط به من جهاته الأربع أروقة تعلوها قُبيبات صغيرة. ولم يتبق من مسجد علي خوجة بالجزائر حتى عهد قريب سوى مئذنته المربعة. ولقد أقام محمد باشا حاكم الجزائر فيما بين سنوات ١٧٦٥ و ١٧٩٠ مسجداً بمدينة الجزائر يعرف باسم مسجد السيدة وأقيم قريباً منه مسجد آخر أقامه حسن باشا سنة ١٧٩٤ وقد لحقت هذا المسجد الأخير أضرار جسيمة نشأت من تحوله إلى كاتدرائية الجزائر.

هذا وقد أقام الداي حسين آخر حكام الجزائر مسجدين بقصبة مدينة الجزائر؛ أحدهما سنة ١٨١٨ فَقَدَ اليوم بعد تحوُّله إلى كنيسة سانت كروا كثيراً من معالمه الإسلامية، والآخر ــ وما يزال قائماً ــ يتميز بأهم ما تتميز به مساجد القرنين السابع عشر والثامن عشر من قبة وسطى تحيط بها أربع مجنبات، تعلو كل مجنبة منها قبيبات.

وأقيم غير هذه المساجد التركية عدد آخر بتلمسان (مسجد لالاروية) ووهران (المسجد الجامع) وقسطنطينة (مسجد سوق الغزال ومسجد سيديْ الأخضر ومسجد سيدي الكتاني) وكلها ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

ومن الآثار المدنية في العصر التركي آثار دار السلطان بالجزائر والقصبة التي أقامها الداي علي خوجة سنة ١٨١٦ وكانت تجمع عدداً كبيراً من الأبنية والقصور كما تبقى بقسطنطينة القصر الذي بناه الباي الحاج أحمد منذ سنوات ١٨٢٦ إلى ١٨٣٥.

* * *

هذا استعراض موجز لأهم الآثار الإسلامية في الجزائر وكلها آثار تشهد بما تمتعت دولة الجزائر الحرة طوال العهد الإسلامي من حضارة تعتبر إلى حد كبير وريثة لحضارة الإسلام في الأندلس.

الهوامش

(١) القصبة في بلاد المغرب والأندلس حصن منيع يقام عادة في موقع مرتفع مثل قصبة مالقة وقصبة المرية بالأندلس وقصبة رباط وقصبة مراكش بالمغرب الأقصى.

الشطرنج عبر التاريخ



إعداد
محمد مراد شكر
رئيس الاتحاد اللبناني للشطرنج

(الجزء الأول)

محطات كثيرة يتوقف فيها المرء طويلاً وهو يحاول أن يضع دراسة علمية عن تاريخ الشطرنج عبر العصور، كل محطة فيها بحاجة إلى أكثر من محاضرة بل إلى دراسة وافية لا يتسع لها مجالنا اليوم، لذا فإننا في دراستنا اليوم سنوجز ما استطعنا محاولين إيفاء الموضوع بعض حقه دون أن ندع الملل يتطرق إلى القرّاء الكرام.

أولى هذه المحطات نشأة الشطرنج، هل هو من وضع شخص معين وتطور مع الزمن، أم أنه لعبة قديمة تطورت وأصبحت على ما نعرفه اليوم، ترى أين نشأ وترعرع. أيكون مهده الصين أم الهند أم روسيا القياصرة، هل وضعه الفرس أم أن العرب هم الذين وضعوه، أم هم الفراعنة في مصر، محطة يتوقف عندها طويلاً كثير من متتبعي هذا التاريخ، وكل يحاول أن يثبت رأيه بقصة أو أسطورة أو اكتشاف أو نقش أو أو إلخ.. ترى أين الحقيقة التاريخية؟



الدلائـل التي لدينـا مبهمـة جـداً، ولم يتـرك التـاريـخ لنـا مستندات أو دراسـات نعتمد عليهـا في سبيـل تثبيت حقيقة تاريخية لا يأتيها الباطل من أية جهة، كل ما نملكه أساطير وخرافات وروايات متعددة. لذا فقد اختلف الرواة والمؤرخون في ذلك، فمنهم من نسبه إلى الفيلسوف اكزرسيس وإلى القائد اليوناني بالاميد، ومنهم من نسبه إلى الأخوين ليدو وتيرهان ونسبه آخرون كما قلنا إلى الفراعنة المصريين وإلى الفرس وآخرون إلى الهند وإلى بابل، وارجعه بعضهم إلى الإيرلنديين وإلى الشركس وغيرهم وغيرهم، وعلى الرغم من تأكيد كل مؤرخ لروايته فإن أحداً منهم لم يبرز أي دليل قوي على ذلك، ولكن الدلائل كلهـا تكاد تجمـع على أن هذه اللعبة عرفت بين القرنين الخامس والسادس. ترى هل يـرجـع اختراع الشطرنـج إلى شخص معين أم إلى مجموعة من الأشخاص من أصحاب المخيلات الواسعة، هذا ما لا يستطيـع الإجابة عليه أحد، لغاية اليوم على الأقل.

ولا ندعي أننا سنستطيـع في هذه الكلمـات القليلة أن نثبت هذا بصورة قطعية، فالاكتشافات الجديدة في الاتحـاد السوفيـاتي سنة ١٩٧٢ لقطعتين شطرنجيتين عاجيتين عـائدتـين للقرن الثاني الميلادي واكتشـافهم مؤخـراً لمخطوطة عربية قديمة لم تصلنا تفاصيلها بعد قد يقلب المفاهيم كلها، سيما وأن هناك تلميحات إلى وجود لعبة صينية قديمة تشبه الشطرنـج وتعود إلى تواريـخ سابقة وهي غير الغوا (GOA) التي لا تزال تلعب في الصين لغاية اليوم وفيها شبه كبير للشطرنـج وهذا ما يفسر تقـدم اللاعبين الصينيين بسرعة بفهم الشطرنـج الحديث اليوم وحصـولهم بسـرعـة عـلى لقب أسـاتـذة في الشطرنـج.

ولكننا اليوم سنكتفي بما لدينا، ونحاول بعد غـربلة الأساطير والخـرافات التي قـرأنـاهـا، ولا أشك أن كثيراً منكم قد قرأها واطلع عليها، سنحاول أن نحتفظ باثنتين فقط قد تكونان على علاقة الواحدة بالأخرى وتكونـان فعلاً أصـل اختراع الشطرنـج.

سنذكرهما طبعاً بإيجاز حتى لا يمل القارىء الكريم وحتى نستطيـع الانتقـال إلى المحطات الأخرى من تاريـخ الشطرنـج، وهي عديدة كما أسلفنا.

الأساطير

القصـة الأولى أو الأسطورة الأولى، رواهـا المسعودي في كتابه مروج الذهب، إذ يقول:

كان في بلاد الهند ملك يسمى جمهور، وكان له الأمر على الممالك من كشمير إلى أرض الصين، وكانت مدينته «سندلي» دار ملكه ومستقر جنوده، وكانت له زوجة من بنات الملوك موصوفة بالرأي والعقل، فرزق منها ولداً أسماه كوا (وفي مكان آخر دعاه غو) فمات الملك بعد ولادة هذا الأبن وأوصى إلى زوجته. فاجتمعت الجنود عليها وبقيت تنهي وتأمر، وكان لزوجها أخ اسمه فاي وكان يسكن مدينة زنبر فقدم وتزوج بزوجة أخيه وقعد مقعـده من سريـر السلطنـة واجتمعت عليـه العساكر، فرزق منها ابناً وسماه طلخند، ثم توفي بعد سنتين من ولادة هذا الصبـي، فاجتمعت العساكر واتفقت كلمتهم مرة أخرى على تقديم الطاعة لزوجة الملك وأشاروا عليها بأن تتقلد الأمر وتقوم بالملك وكفالة الولدين إلى أن يصلـح أحدهما للسلطنة، وكان أحدهم غو ابن سبـع سنـين، والآخر طلخنـد ابن سنتين، ولـما كبر الولدان طمـع كـل منهمـا بـالملك، ولم يـرض الأصغر طلخند أن يبايـع أخاه الكبير، فدبت بينهما عقارب الشحناء يغذيها أهل النفاق فوقعت الحرب بينهما وتغلب رجال غوا فتفرق أصحاب طلخند، ولما وجد الآخير نفسه وحيداً في المعركة، فاضت روحه من الأسف والهم، فنقله أخـوه بتابوت من العاج إلى دار ملكه.

ونتابـع القصة كما وردت في الشهنامة، وهي أقـدم مـخـطوطة فـارسيـة ذكـرت شيئـاً عن الشطرنـج.

تقول الشهنامه، وكانت أمهما مضطربة تنتظر ما تسفر عنه تلك المعركة، فلما طلعت رايات غو وفقدت أعلام طلخند أدركت الواقـع وظنت أن أخوه قتله، فأوقدت ناراً عظيمة أرادت أن تحرق نفسها فيها على طريقة الهنود في ذلك الوقت، فأدركها غو وأقسم أنه لم يقتل أخاه وأخبرها

القصة مهدداً بقتل نفسه إن لم تصدقه الوالدة، فطلبت منه أن يستعيد المعركة على الأرض أمامها لعلها تتسلى من إعادة تمثيل المعركة فينجلي عنها الهم والحزن.

وبعد تشاور مع الوزير، جمع علماء الهند وذكر لهم ما طلبته الوالدة، بعد أن شرح لهم كيف جرت المعركة.

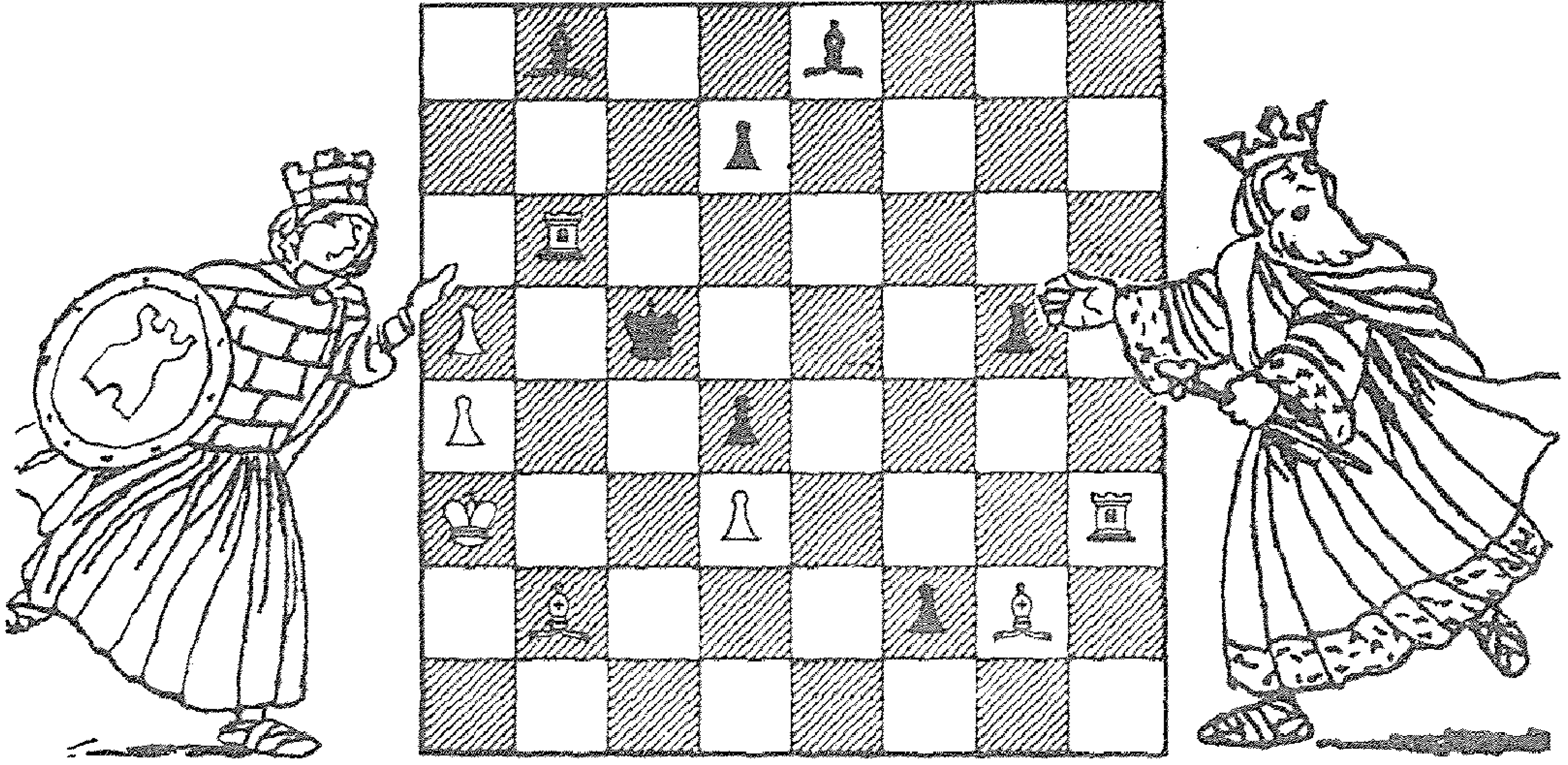
فاستحضر العلماء الابنوس وعملوا تختاً (المقصود بذلك رقعة كبيرة) وصوروا فيها ماية بيت ثم عملوا من الساج والعاج صورة شاهين معتصبين بالتاج مع جنودهما وخيولهما والفيلة والوزراء (وهناك نص طويل عن هذه المعركة وكيفية صف الجنود). نعف عن ترددادها اليوم.

إنما المهم، أنهم استطاعوا إعادة تمثيل المعركة على هذه الرقعة، فسرت الملكة واقتنعت، وأخذت تستعيد المعركة أياماً وليال طوال حتى توفيت، وعرف الشعب بالقصة، فأخذ يستعيد هذه المعركة على رقع صغيرة، وقد يكون ذلك أول عهد الناس بالشطرنج.

أما القصة الثانية فقد ذكرها البستاني في كتابه دائرة المعارف، وهذه القصة وردت في كثير من الكتب وعلى أشكال مختلفة، يقول البستاني: قام في بداءة القرن الخامس من التاريخ المسيحي على مقربة من مصب نهر الكنك. ملك فتى متصف بكل السجايا التي تكسبه محبة رعاياه وثقتهم به، غير أن المداهنين المقربين إليه جعلوا سجاياه، غرضاً لنبال نواياهم الخبيثة ومآربهم الفاسدة، وتمكنوا بالاستمرار من إفساد أخلاقه وحببوا إليه التأنق والملاهي واللذات والإسراف فلهى بها أي لهو عن خير رعاياه، وما يؤول إلى نجاحهم وفلاح المملكة فساء ذلك الحكماء والمتعقلين ولكنهم لم يجسروا على التفوه بكلمة ولا على معارضته في أمر خشية أن يعرضوا نفوسهم لانتقام اتباعه منهم، ويجلبوا عليهم سخطهم وسخطه، وكان من جملتهم حكيم على جانب عظيم من الدراية والعقل اسمه سيساك (وقيل في رواية أخرى صصه بن داهر) فجهد نفسه في هداية الملك وتقويم طرقه وإصلاح الخلل قبل أن يلم بالمملكة الخراب والدمار، فشحذ قريحته توصلاً إلى وسيلة تفتح عيني الملك وتريه ضلاله، دون جرح لإحساسه، فاخترع لعبة الشطرنج وجعل كما هو مشهور، أهم دورٍ فيها للملك موقفاً بقاءه وسلامته على غيرة رعاياه وصحبتهم له كل التوقف، وأخذ يجوب بها البلاد إلى أن بلغ خبرها مسامع الملك فأحضر سيساك هذا وطلب منه أن يعلمه هذه اللعبة، فأطاع الحكيم وأخذ يشرح له كل مرة شروحاً تمثل حالته وسيرته وكل تصرفاته، كما هي بأساليب شائقة وعبارات رائقة فنجح خيراً كلامه، وفطن الملك وارعوى ووجه اهتمامه حينئذ إلى إصلاح سيرته وتعويض ما فرط منه، ومن شدة امتنانه أراد أن يجزل جزاءه فقال له اقترح ما شئت، فقال له سيساك، احسب للخانة الأولى من رقعة الشطرنج حبة قمح واثنتين للثانية وأربعة للثالثة وثمانية للرابعة وهلم جراً إلى الخانة الرابعة والستين (القصة مشهورة يعرفها الجميع) وضحك الملك وقال له أطلب ولا تخشى الفشل، فأجابه أني على ما طلبت لا غير، فأمر أن يعطى ما طلب، ولكن بعد الحساب تبين له أنه من غير المستطاع أجابته، فانتهز الفرصة سيساك ليقول: أن على الملوك أن يتيقظوا لأنفسهم ويحذروا من المقربين لديهم وأن لا يعدوا وعوداً دون أن يدركوا أهميتها وعواقبها. والمعروف أن هذا الرقم يبلغ كما ذكرته موسوعة لاروس (٢٠ رقماً) ١٨,٤٤٦,٧٤٤,٠٧٣,٧٠٩,٥٥١,٦١٥ حبة قمح أي ما تنتجه المملكة في سنوات عديدة.

هاتين القصتين قد تكونا مترابطتين وقد يكون الواحد قد أخذ من الآخر. إنما جاء في كتاب هندي قديم أن صصه (سيساك) لم يكن مخترعاً لهذه اللعبة، إنما يرجع إليه الفضل في إيجاز اللعبة الهندية القديمة (شاطور نجا) وفي الأدب الهندي القديم وصف لهذه اللعبة، ولعل قصيدة «بانا» في القرن السابع الميلادي، أقدم مخطوطة تذكر شيئاً عن الشاطورنجا، كما أن هناك قصيدة لروتنكارا ROTENKARA في كشمير وكتاب هالايودها HALLAYUDHA في القرن العاشر الذي يصف في فصل من فصوله الشاطورنجا، ولعل ذلك صحيح. فما هي الشاطورنجا:

الكلام عن هذه اللعبة طويل جداً.



الشاطورنجا

من ألعاب الحرب التي نشأت في الهند لعبة تدعى اشتابادا ASHTABADA شبيهة بلعبة أخرى تلعب في جنوب الهند تدعى تايام (THAYAM) وكانت الاشتابادا تلعب على رقعة مؤلفة من ٦٤ خانة وفي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، انبثق من هذه اللعبة لعبة أخرى جديدة دعيت شاطورنجا وهي تمثل معركة صغيرة بين أربعة جيوش يقود كلا منها الراجا، ويتألف كل جيش من ٤ جنود، سفينة، حصان، فيل وقائد، لكل معسكر حليف، وهكذا تجري المعركة بين حليفين ضد معسكرين آخرين، أي ٢ ضد ٢، ومن هنا جاءت التسمية شاطورنجا (أي لعبة الأربع عربات). يتحكم بتنقل القطع نرد طويل سجل عليه الأرقام ٢ ـ ٣ ـ ٤ و٥ من رمية للنرد، الرقم الظاهر هو الذي يحدد تحركات القطع، وكانت اللعبة تلعب على رهان يوضع في صندوق مشترك. ولكن المراهنات هذه منعتها الديانة الهندوسية، فاضطر اللاعبون إلى تعديل هذه اللعبة بإلغاء النرد وإبعاد عنصر الحظ، وتبع ذلك تغييرات أخرى، أولها دمج قوى الحلفاء وجعلها قوة واحدة، وهكذا أصبح اللعب بين اثنين عوضاً عن أربعة وصار لكل لاعب ستة عشر حجراً وحرف الإسم من شاطورنجا إلى شطرنج.

لعل هذا التطور من شاطورنجا إلى شطرنج هو أقرب إلى الواقع، وقد تكون فعلاً مهد الشطرنج، ولكننا يجب أن لا نغفل عن القصتين السابقتين، فقد ذكرتهما كثير من كتب التاريخ القديم، ولعل أحدها نقل عن الآخر، ولكن هذه القصص الثلاث بنظري تعطينا صورة واضحة عن أصل الشطرنج وأسباب اختراعه، علماً بأن هناك قصصاً كثيرة تكاد تكون مشابهة للقصة الثانية ولا أرى مجالاً لذكرها اليوم.

هذه هي محطتنا الأولى، وقفنا عليها طويلاً فهي مهد الشطرنج وأسباب اختراعه.

ـ محطتنا الثانية، كيف انتقل إلى فارس، أن أغلب الرواة نقلوا هذه القصص عن الفرس أو عن العرب، كما أن العرب أنفسهم مع ذكرهم لتلك القصص لم يغفلوا ذكر الفرس، وأنهم كانوا يعرفون الشطرنج قبلهم، على الرغم من أن بعض المؤرخين الحديثين الذين التقيتهم في دبي خلال الأولمبياد حاول إقناعي بأن العرب هو الذين وضعوا الشطرنج، ولكنه لم يستطع أن يقدم أي برهان تاريخي على ذلك، رغم أنه كتب مقالاً ذيله بتوقيعه في دبي، ولعله كان يفعل ذلك مسايرة للمضيفين العرب في الإمارات ولكن التاريخ هو التاريخ، ويجب أن نذكر الحقائق كلها ودون تزوير أو تحوير.

انتقال الشطرنـج إلى فارس

أهم المخطوطات الفارسية، بل أثمنها دون شك، الشاهنامه، وقد نظمها شعراً بالفارسيـة أبو القاسم الفردوسي، وترجمها نثراً الفتـح بن علي البنداري وقارنها بالأصل الفارسي وأكمل ترجمتها في مـواضـع وصححها وعلق عليهـا الدكتور عبد الوهاب عزام.

وقد جاء في الجزء الثاني من الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٩٣٢ من الصفحـة ١٤٧ إلى ١٥٤ هذه القصة الطريفة ننقلها إليكم بإيجاز وهي تعطي ضوءاً على هذا الأمـر، أي كيف انتقلت اللعبة إلى فارس.

قال صاحب الكتاب: جلس انو شروان ذات يوم على تخت السلطنة في مجلس حضرته ملوك الأطراف وأرباب الدولة وأعيان الحضرة، فجاء بعض الحجاب وأعلمه بوصول رسول من صاحب الهند ومـع صحبته ألف جمل بأحمالها. فأذن له فدخل وأثنى على الملك ونثر بين يدي التخت جواهر كثيرة ثم عرض ما استحبه برسم الهدية وكان من جملتها تخت للشطرنـج مـع رسالة مكتوبة على الحرير تقول: إن الراي (يعني ملك الهند) يقول: ليأمر الملك أعلم أصحابه وأذكى من على بابه أن يضـع هذا التخت قدامه، وينظر فيه، ويلعب بهذه التماثيل، ويذكر اسم كل واحد ويضعه في بيته من الرقعة، ويعرف كره وفره، فإن قدرتم على استخراج ذلك، التزمت الخراج ونفذته إلى الخدمة، وأن عجزتم عن ذلك فلا تلزمونا الخراج والتزموه فحق عليكم أن تقدموا العلم ولا تتقدموه.

وبعد سبعة أيام من التفكير، اعيت الحكماء عن فك رموز هذه اللعبة. استطاع بزرجمهر بعد أن خلا إلى نفسه ليلة كاملة من حل رموز اللعبة كما وضـع لعبة النرد يرد بها على الهنود ليحلوا رموزها إلى آخر القصة وهي طويلة ومفصلة كما ذكرنا.

هذه القصة تعطينا إيضاحاً لم نقـرأ غيره بعد، عن كيفية انتقال هذه اللعبة إلى فارس.

في كل ما قرأنا، ولعـل أوسـع ما كتب عن تاريـخ الشطرنـج، كتاب MURRAY. لم نقرأ تفاصيل كثيرة عن انتشار اللعبة في فارس، كما لم يترك الفرس آثاراً كثيرة تدل على مدى تقدمهم في هذه اللعبة ولا عن قواعدها وطريقة لعبها. لذا بـاستثناء الشهنـامه ومـا ذكرنـا من مراجـع لم يقـع بين أيدينا شيء عن الشطرنـج في فارس.

فقد جاء في كتاب تاريـخ الشطرنـج لهاري كـولومبـك HARRY GOLOMBEK A HISTORY OF HESS ص ٤٢١.

كان العرب أول من قام بدراسات علمية لجولة الشطرنـج، فلم يصل إلى علمنا أية كتابة بهذا الخصوص قبل العرب، كان هناك وصف لطريقة اللعب عند الفرس والهند.

ومن الممكن أن يكون الفرس أو الهنود قد كتبوا في ذلك، ولكنه لم يصلنا شيء قبل العرب، وقد يكون ما كتبوه قد ضاع في غياهب الزمن، إذ ليس لدينا أي أثر، بينما كل الآثار التي لدينا تعود إلى نشاط العرب مما يجعلنـا نميل إلى الاعتقاد بأنه قبل انتشار الإسلام كانت لعبة الشطرنـج بدائية وضعيفة.

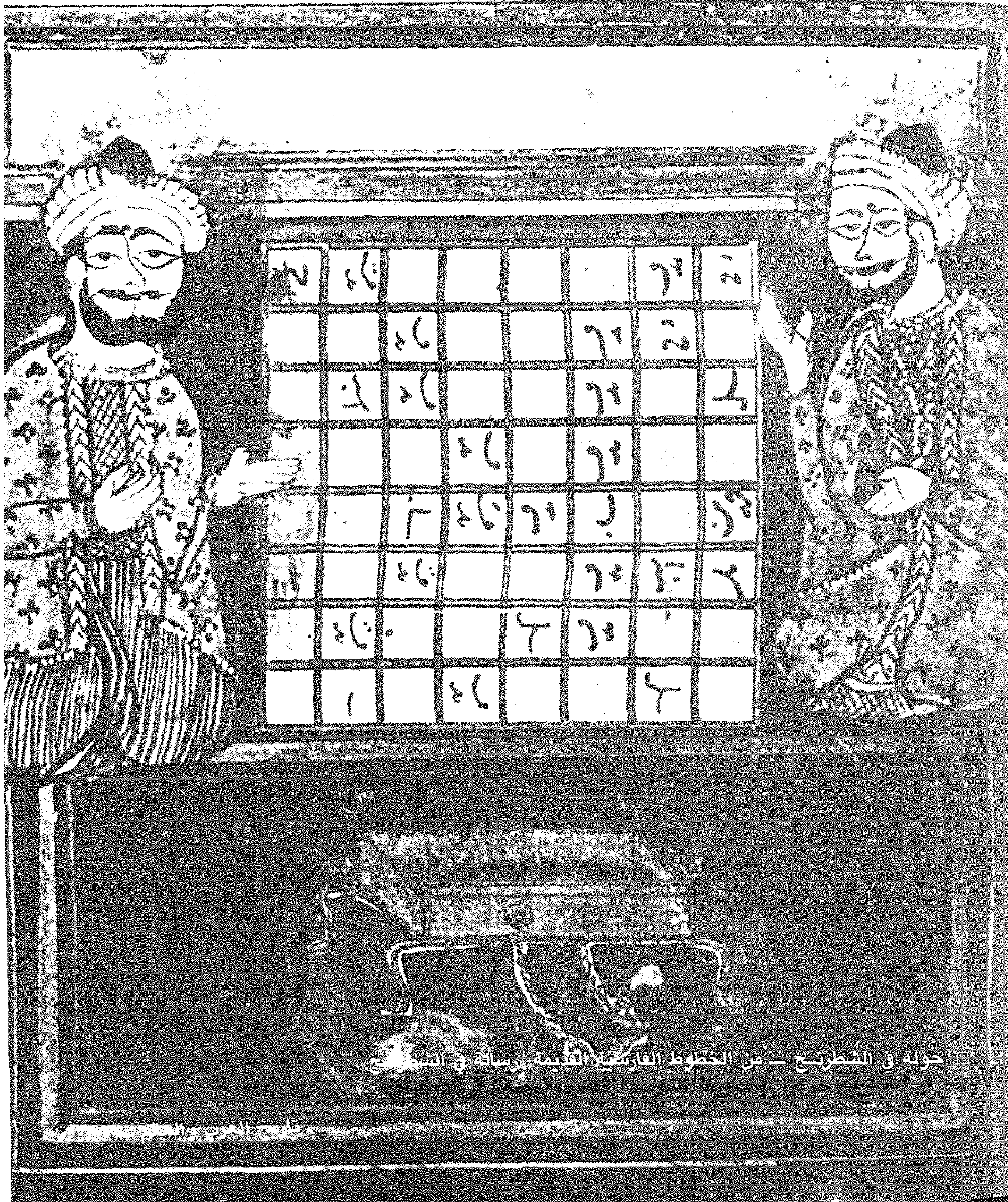
وهنا لا بد من أن نهمل هذه الحقبـة من التاريـخ لننتقل إلى المحطة الثالثـة وهي أهم محطة في تاريـخ الشطرنـج القديم وهي انتقال الشطرنـج إلى العرب وتطوره ووضـع قواعده وتدوينه، ثم انتقال الشطرنـج إلى الغرب.

والمحطة هذه بحاجة وحدها إلى أكثـر من مقال منفرد نظراً لأهميتها التاريخية والفنية، ولما أعطت الشطرنـج من دفـع، و أحب هنا أن ألفت النظر إلى المحاضرات التي أعطيت في تـطوان (المغرب) منـذ سنتين حـول هـذا الموضوع، وإلى الكتاب الذي صدر في دبـي أثناء الأولمبياد السابـع والعشرين الأخير وأشرف عليه مشكوراً اتحاد الإمارات العربية للشطرنـج.

الشطرنـج عند العرب

أول سؤال يطرح هنا، متى عرف العـرب الشطرنـج، وكيف انتقل إليهم وهل كانوا يعرفونه قبل الإسلام.

هذا السؤال يكتنفه كثير من الغموض، لم يأت على ذكره أغلب المؤرخين بوضوح تام إن لم يكن كلهم. غير أن محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي، ذكر في مؤلفه عمـدة



□ جولة في الشطرنج ـ من المخطوط الفارسية القديمة «رسالة في الشطرنج»

المحتج في حكم الشطرنج. إن أول ما جاء بالكتاب العربي (المدون) والشطرنج والنرد عمرو بن العاص (٦٦٤ م) وتعلم ذلك بالحيرة، وقد أسند ذلك إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله، كما وقعت أعيننا على أبيات منسوبة إلى امرىء القيس في قصيدته اللامية المشهورة التي مطلعها:

لمن طلل بين الجدية والجبل
فخل قديم العهد طالت به الطبل

التي يصف بها حبيبته إذ يقول:

حجازية العينين مكية الحشا
عراقية الأطراف رومية الكفل
تهامية الابدان عبسية اللمى
خزاعية الأسنان درية القبل

إلى أن يقول:

ولاعبتها الشطرنج خيلي ترادفت
ورخي عليها دار بالشاه بالعجل
فقالت وما هذا شطارة لاعب
ولكن قتل الشاه بالفيل هو الأجل
فناصبتها منصوب بالفيل عاجلا
من اثنين في تسع بسرع فلم امل
وقد كان لعبي كل دست بقبلة
اقبل ثغرا كالهلال إذا افل

إلى آخر القصيدة وعدد أبياتها ٥٥.

لو صحت هذه القصيدة فهذا يعني أن الشطرنج كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام.

ويقول RC. BELL في كتابه BOARD AND TABLE GAMES FROM MANY CIVILIZATION في الصفحة ٥٧.

خلال السنوات الخمسين التي تلت دخول الشطرنج إلى فارس، كما نصت الشهنامة، انتشر الشطرنج في البلاد العربية وفي البلاط البيزنطي وذلك على أثر زواج الابن البكر لكسرى انو شروان من ابنة الأمبراطور البيزنطي موريس. وفي سنة ٥٩١ م، أصبح كسرى ملكاً للفرس، وبعد مقتل عمه (والد زوجته) أعلن الأمبراطور موريس الحرب على الأمبراطورية الرومانية، واجتاح كما هو معروف آسيا الصغرى، سوريا، مصر وشمالي أفريقيا، وانتشر الشطرنج خلال ذلك في هذه البلاد (والمعروف أن العرب افتتحوا فارس سنة ٦٤٢ م).

فإذا كان ذلك صحيحا، فهذا يعني أن العرب عرفوا الشطرنج قبل الإسلام وإن انتشاره تم في العصر البيزنطي أثناء فتوحاتهم للدول العربية المذكورة أعلاه.

ويتابع الكتاب فيقول: وعلى الأغلب عرفت اليونان الشطرنج حوالي ٦٠٠ م وفي نفس الوقت وصل الشطرنج إلى مكة والمدينة المنورة في بلاط الخليفة في دمشق من سنة ٦٦١ إلى ٧٧٤ للميلاد (يقصد العصر الأموي)، وقد كان السراقسي أول من كتب في الشطرنج (الشطرنجي) والمعروف أنه توفي سنة ٨٩٩ م.

انتهى كلام الكاتب RC. BELL.

ويروي ابن حجلة المغربي التلمساني في كتابه، انموذج القتال في نقل العوال، الذي حققه العراق مشكوراً، أن النبي (صلعم) كثيراً ما كان يقف متفرجاً على اتباعه من المسلمين الأوائل وهم يلعبون الشطرنج (بكل تحفظ) إذ لم يذكر ذلك كل الترجمات لهذا الكتاب، ولو صدق هذا القول الأخير، فهذا يثبت لنا أن العرب كانوا يعرفون الشطرنج في العصر الجاهلي، على الأقل في أواخره.

ترى هل تعطى هذه الروايات ضوءاً على دخول الشطرنج إلى البلاد العربية.

على كل ومهما كانت نسبة ذلك من الحقيقة، فالثابت أن العرب هم أول من وضعوا للشطرنج قواعد وهم الذين علموه ونقلوه للغرب، كما أنهم أول من ألفوا في الشطرنج. ولا عجب فكلنا يعلم أن كثيراً من العلوم ازدهرت أيام العرب، كالطب والجبر والفلك إلخ، وقد كان للشطرنج من ذلك النصيب الأوفر بين بقية الألعاب.

لقد برع العرب كثيراً في هذه اللعبة لدرجة انهم كانوا يعتبرون النقلات الأول غير ذات بال، فيضعون حاجزاً يقسم الرقعة قسمين، ويرتب كل لاعب أحجاره كما يريد بعد أن يكون قد اتفق مع رسيله على عدد النقلات الأولى التي سيقوم بها كل فرد منهم منفرداً خلف الحاجز، ثم يرفع الحاجز ويبدأ اللعب، وكانت هذه تدعى الطبيقة، ومن يلعب الشطرنج يعرف الصعوبة التي تعتري اللاعب لمتابعة جولة كهذه.

وقد قسم العرب اللاعبين إلى خمسة أقسام، العلية أو (العالية) وهم أساطين الشطرنج الذين



□ صفحة من الشهامة ــ مخطوطة فارسية كتبها الفردوس ويرى واضحاً اسم بزرجمهر الذي حل رموز الشطرنـج.

يصعب التغلب عليهم وهم ما نسميهم اليوم كبار الأساتذة GRAND MAITRE ويأتي بعدهم من يستطيـع أن يربـح جولتين أو ثلاثة من أصل عشرة مـع هؤلاء الأساطين وكانـوا يدعـونهم «المتقـاربة» أو مـا تسميهم اليـوم الأسـاتـذة

(MAITRE) ثم الذين يستطيعون أن يلاعبوهم بدون فرز (DAME) أو بدون حصان أو بدون رخ وهؤلاء هم الفئة الخامسة، ونذكر هنا أن الرخ كان عند العرب أهم قطعة في الشطرنـج.

وكان العرب أول من وضعـوا المسائـل في الشطرنـج PROBLEMES كما وضعوا كثيراً من الأوضاع POSITION كانت تدعى المناصيب (جمـع منصوبة) وهو ما يعرف اليوم بالمسائل والدراسات.

وكان العرب أول من دونوا الشطرنـج وقد تم ذلك على يد اللاعب الكبير ولعله أول أبطال العالم في الشطرنج، أبو العباس أحمد العدلي، وذلك في القرن التاسـع للميلاد (الثالث للهجرة) ويعتبر العدلي مؤسس أول مدرسة للشطرنـج في العالم.

وكان القرن العاشر الميلادي عهد ازدهار للشطرنج عند العرب، فقد برز إلى جانب العدلي، الصولي، العاري، ابن دندن، علاء الدين الملقب بعلي الشطرنجي التبريزي المسيس، الرازي الشطرنجي وغيرهم، وكان أشهرهم كما أسلفنا العدلي الذي حافظ على شهرته كأحسن لاعب خمس سنين، كما كان الخليفة هرون الرشيد من أحسن اللاعبين، وإليه يرجع الفضل في انتشار الشطرنج في مملكته، كما كان المعتصم بالله الابن الثالث لهرون الرشيد، من أبرع اللاعبين، وقد ترك المعتصم بالله المتوفي سنة ٨٤٣ م عدة مسائل في الشطرنج نقلها عنه الغربيون واسترشدوا بها. والمعلوم أن أغلب الخلفاء كانوا يلعبون الشطرنج ويشجعونه مثل المنصور والأمين والمأمون وغيرهم.

ويقول حسن توفيق فايق في كتاب «كنانة الشطرنج العصري» لجبرائيل نصرة بك المهندس:

ازدهر الشطرنج في العصر الإسلامي مبكراً، فقد وجد في القرن الأول الهجري من كان يلعبه باتقان في الحجاز، إذ روي عن أبي هريرة الصحابي المتوفي (سنة ٥٧ هـ) وعن سعيد بن جبير التابعي المتوفي سنة (٩٥ هـ) أنهما كانا يلعبان الشطرنج بإجادة حاضراً ومستدبراً أي دون رؤية الرقعة (ربما لم يكن يلعب قبلهما أحد مستدبراً).

وفي القرن الثاني انتشر الشطرنج في باقي الأقطار العربية، فوصل العراق ومصر واشتهر فيه ببغداد أبو حفص الشاعر بين ١٨٠ و٢٠٠ هـ على أنه كان أعمى، ومن مصر كان الإمام الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ يلعب بإجادة حاضراً ومستدبراً، وفي غضون القرنين الثالث والرابع بلغ الشطرنج أوجه بالعراق حيث نبغ اساطين الفن وجهابذة المؤلفين. وكان أولهم العباس أحمد العدلي ببغداد بين (٢٣٠ و٢٥٠ هـ) وهو أول من ألف كتاباً عن الشطرنج ثم تلاه الرازي الشطرنجي بين (٢٥٠ و٢٩٠ هـ) ثم محمد بن أحمد المارودي (٢٨٠ و٣٠٠ هـ) ثم أخيراً واسطة عقدهم وفخر الشطرنجيين جمعياً الأديب الكبير أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفي سنة ٣٣٥ هـ وقد نادم ثلاثة من الخلفاء العباسيين وألف كتابين عن الشطرنج. ويوجد بدار الكتب الملكية بمصر مخطوط لمؤلف مجهول عنوانه «كتاب الشطرنج» مما ألفه العدلي والصولي وظهر بخراسان أبو الفرج محمد ابن عبد الله اللجلاح، إذ كان موجوداً بشيراز (٣٤٠ إلى ٣٦٠هـ). وألف رسالة عن الشطرنج وكان اللعب ذاع وانتشر حتى وصل الأندلس واليمن فاشتهر بالأندلس أبو زيد أبو بكر محمد بن عمار الشاعر المتوفي (٤٧٧ هـ) وهو الذي لاعب الادفنس (الفونس) ملك قستالة وغلبه واشتهر باليمن أبو الطامي جياش بن نجاح أمير تهامة (المتوفي سنة ٤٩٨ هـ).

أما في القرن الثامن فكان غنياً بمشاهير اللاعبين في جميع الاصقاع، مثلاً بدمشق شخص يدعى النظام العجمي كان يمكنه أن يلاعب ثلاثة أشخاص في آن واحد (٢ مستدبراً وواحد حاضراً) حوالي ٧٣٠ هـ. وبمصر علاء الدين بن قيران الاعمي (٧٥٠ هـ) واللائحة طويلة جداً ونكتفي بما ذكرنا. فهذا يكفي ليبرهن لنا فضل العرب في انتشار اللعبة في أنحاء العالم وبراعتهم فيها.

بقي أن نقول أن أغلب أسماء القطع في الشطرنج ولغاية اليوم مأخوذة أما من العرب أو من الأسماء الفارسية مثل: شاه ومات، فيل FOU، الرخ ROOK الفرز.

كما أن قاعدة لعب الحجر الملموس PIECE TOUCHEE PIECE JOUEE التي وضعها العرب لا تزال لغاية اليوم سارية، ذلك أن العرب كانوا يعتبرون لمس الحجر وكأنه وعد بنقل الحجر، لذلك كانوا يشددون على هذه القاعدة، هكذا تقضي الشهامة العربية، بأن يفي الإنسان بوعده، وترقية البيدق وهو ما كان يسمى بفرزنة البيادق أي يصبح فرزاً DAME: التدوين كما ذكرنا بدأ في القرن الثالث للهجرة ونحب أن نذكر أن الترقيم الجبري NOTATION ALGEBRIQUE المعمول به اليوم والذي يفرضه الاتحاد الدولي، وضعه أيضاً عربي من سوريا وهو فيليب ستاما (ولعله سطام) من مواليد حلب سنة ١٧٣٧ م وقد قيل عنه أنه كان آخر كبار اللاعبين العرب في التاريخ القديم. ●

أيسر محفوظاته كتاب الأغاني

● حدّث الوزير الأندلسي أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن زهر، قال:

بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، إذ جاء الناسخ بالكراريس التي كتبها، فقلت له:

أين الأصل الذي كتبتَ منه لأقابل[1] معك به؟

قال: ما أتيت به معي.

فبينا أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذّ الهيئة[2]، عليه ثياب غليظة أكثرُها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاثها[3] من غير إتقان لها. فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية. فسلّم وقعد، وقال لي:

يا بني، استأذن لي على الوزير أبي مروان.

فقلت له: هو نائم. هذا بعد أن تكلّفتُ جوابه غاية التكلّف، حملني على ذلك نزوةُ الصبا، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل.

ثم سكت عني ساعة وقال:

ما هذا الكتاب الذي بأيديكما؟

فقلت له: ما سؤالك عنه؟

فقال:

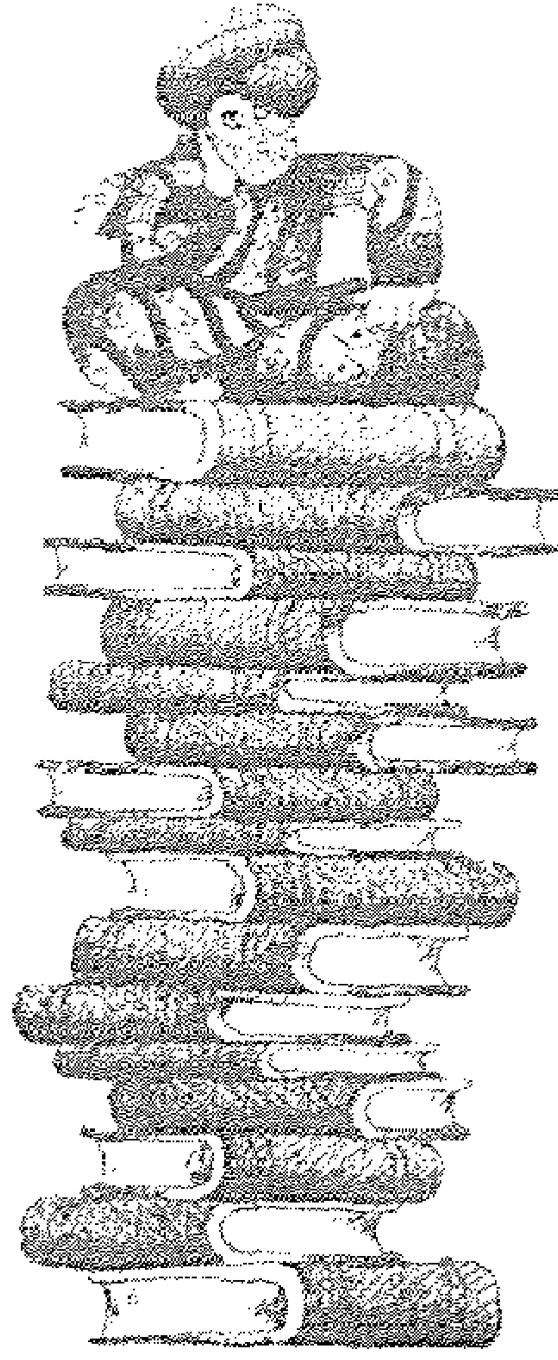
أحب أن أعرف اسمه، فإني كنت أعرف أسماء الكتب!

فقلت: هو كتاب الأغاني.

فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه؟

قلت: بلغ موضع كذا.

وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به. فقال:



وما لكاتبك لا يكتب؟

قلت:

طلبتُ منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق، فقال: لم أجئ به معي.

قال: يا بنيّ، خُذ كراريسك وعارض.

قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟

قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي.

فبتسّمتُ من قوله، فلما رأى تبسّمي قال:

يا بنيّ، أمسك عليّ.

فأمسكت عليه، وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاءً، قرأ هكذا نحواً من كراستين، ثم أخذت له في وسط السِّفر[4] وآخره، فرأيت حفظه في ذلك كله سواء.

فاشتدَّ عجبي، وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر، ووصفت له الرجل. فقام كما هو من فَوْره، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس، حافي القدمين، لا يرفُقُ على نفسه، وأنا بين يديه، وهو يُوسعني لوماً، حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبّل رأسه ويديه ويقول:

يا مولاي اعذرني، فوالله ما أعلمني هذا الجِلْفُ إلا الساعة.

وجعل يسبّني، والرجل يُخَفِّض عليه ويقول: ما عرفني، وأبي يقول: هَبْه ما عرفك، فما عُذره في حسن الأدب؟

ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه، وخلا به فتحدّثا طويلاً. ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب. وأمر بدابته التي يركبها فأُسْرِجَتْ، وحلف عليه لَيَرْكَبَنَّها ثم لا ترجع إليه أبداً.

فلما انفصل[5] قلت لأبي:

من هذا الرجل الذي عظّمته هذا التعظيم؟

قال لي:

اسكت ويحك! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيّدها في علم الآداب. هذا ابن عبدون، أيسرُ محفوظاته كتاب الأغاني!

من كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي.

(١) يقابل: يراجع.
(٢) بذّ الهيئة: زري الملبس.
(٣) لاثها: لفّها.
(٤) السِّفر: الكتاب.
(٥) انفصل: خرج.



□عازف الهارب يعزف للآله هوروس الذي يعلو رأسه قرص الشمس.

أسرار الآخرة المصرّيّة في العهود الفرْعونيّة

إعداد: إنعام الجندي



كان المركب الجنائزي الذي يجتاز النيل نحو الشمس الغاربة، يحمل الفرعون إلى عالم غريب، يقطنه آلهة، رؤوسهم رؤوس صقور أو تماسيح، «أنه أرض الظلمات الكثيفة»، حيث تطفو المومياء من الموت لتواجه الأبدية.

ظلت آخرة أوزيريس، هذا العالم الغني السحري، تهيمن على وجود المصريين خلال ثلاثة آلاف سنة تقريباً.

كان هيرودوت يرى أن المصريين «أكثر البشر إيماناً». ولقد أكدت هذا الانطباع، الاكتشافات التي حدثت بعد ألفين وخمسمائة سنة من زيارة هذا المؤرخ إلى ضفاف النيل. فبفضل القبور والمعابد، اطلع العصر الحديث على مصر القديمة، وأهمية تقاليدها الجنائزية، أيام سلالات رمسيس، وغدت هذه الآثار متعة الآثاريين منذ قرن ونصف قرن.

منذ العصر السابق على المرحلة المسماة «الأمبراطورية القديمة» كان المصريون يمارسون جهدهم في ما يتصل بالحياة الثانية. فقد كانت العقائد المتصلة بأوزيريس تجيب على السؤال الكبير: ما مصير الأحياء بعد موتهم؟ واجتيازهم إلى ضفة العالم الأخرى. كانت مملكة الإله في الغرب، في منطقة أسطورية، تقيم فيها الآلهة الجميلة المضيافة «أمانتيت» لتستقبل الموتى. وكان أوزيريس نفسه يحكم ذلك الموضع الذي كان يسمى «حقول يالو»، أو «شانزيليزيه» في التقاليد اليونانية العزيزة على بندار. وكانت شخصية الإله وتاريخه يضيئان المعتقدات المتصلة بالآخرة. ففي مملكة النبات كان أوزيريس يجسد غنى الدلتا والأرض التي يرويها النيل. على عكس أخيه «ست» الذي كان يجسد جفاف الصحراء. ولقد طور كهنة هليوبوليس المعتقدات، واستعادوا أسطورة «ست» ليجعلوا منها عبادة كواكب متصلة بعبادة الشمس، ولكن حساسية الجماهير الفلاحية الدينية، ظلت تفضل الأسطورة التي تقول أن «ست» قتل أخاه أوزيريس، ومزقه إرباً، ثم بعث أوزيريس حياً بفضل تدخل توت، وأنوبيس، وإيزيس، التي تزوجت أوزيريس ومنحته إبناً هو هوروس، الإله الصقر الذي جسد سلالة الفراعنة وتابع المعركة ضد «ست».

ولما كان أوزيريس إله النبات الذي ضحي به ثم بعث، فقد كان طبيعياً أن يسود مملكة الموتى، في الآخرة التي كانت خلال ثلاثة آلاف عام جزءاً أساسياً من عالم المصريين القدامى الروحي.

تقاليد جنائزية

حين يموت مصري، كان الأقرباء يلزمون الحداد خلال سبعين يوماً، ويبقون في بيوتهم، رافضين أية مشاغل خارجية، ويضربون رؤوسهم باليدين لكل بادرة.

كان عليهم أن يسلموا جسد الميت للمحنطين، الذين بتنا نعرف تقنيتهم، بفضل ما نقله هيرودوت وديودور دوسيسيل. والتحنيط عملية طويلة ومعقدة ودقيقة. ينزع الدماغ والأحشاء، وتحضر في معزل عن الجسد، وتوضع في خوابي فخارية أربع. ثم ينظف داخل الجسم، ويملأ بالطيوب ويملح بالنطرون. وبعد سبعين يوماً، يغسل الجسد، ويلف بقماطات كتاب مدهونة بالأصماغ. وكان الشمع والحنة وزيت العرعر، وصمغ الراتنج، والقطران وخمر البلح، ضرورية لاستكمال تفاصيل العمل.

هكذا يمكن حفظ الهيكل والجلد والوجه رغم تقعر الخدين. فبعد أثنين وثلاثين قرناً استطاع التقنيون الباريسيون معرفة وجه رمسيس الثاني.

إذا استكملت هذه الترتيبات، يغطى جسده بكل ما كان يحب في محيطه من أشياء، ويحلى بالجواهر، ويوضع بين ساقيه «كتاب الموتى» ليكون دليله في العالم الآخر. ثم يوضع قناع من الجص على وجهه، إذا كان من الرعية، أما إذا كان فرعوناً أو من أصحاب النفوذ في بلاطه، فيكون القناع من الذهب الخالص. ثم يوضع في كفن يغلف الجسم. وبعد شهرين ونصف الشهر من موته، يحمل إلى مثواه الأخير.

احتفالات الدفن

كان الدفن مناسبة لمظاهر الآلام العنيفة. تستأجر النوادب المحترفات فتلطخن وجوههن بالوحل، ويمزقن ثيابهن، ولا ينقطعن عن الندب، وضرب رؤوسهن. أما الأهل، والوجهاء، ممن يرافقون الميت، فيرفعون الصلوات، ذاكرين



□هوروس ابن أوزيريس يستقبل الميت على أبواب العالم الآخر.



□الميتة ساجدة أمام التمساح الذي أعطي هيئته إلى الإلهة المفترسة التي تلتهم الخطاة.

حسنات الميت وفضائله، متمنين له السعادة في مملكة أوزيريس.

يصحب الجنازة جيش من خدامها، يحملون أثاث الميت: الجرار، لعلب، الأواني، الصناديق، والمقاعد، والأسرة، وهرابين الطعام والزهور. وتحمل الحلى على صحاف.

يتابع النعش مسيرته وقد رفعت فوقه منصة، ووضع في قارب، فوق عربة شدت إلى ثورين. ينتظر الجنازة عند شاطىء النيل الآخر، أسطول صغير. يحمل النعش عندئذ إلى القارب الرئيسي، الذي يحتوي، في وسطه، غرفة واسعة لاستقباله. يرافقه عندئذ كاهن يرتدي جلد فهد،على مركب يجره مركب آخر، يقل النادبات يرفعن صلواتهن وندبهن إلى السماء، ويبكين تذكراً لما ذرفته إيزيس من دموع عندما أتيت ببقايا زوجها أوزيريس.

لا يمكن للمراكب أن تحمل كل الذين مشوا بالجنازة حتى صفاف النيل. لذلك يعودون جميعاً إلا الضروريين لترتيبات الدفن الأخيرة، ويتمنى العائدون للميت عبوراً سعيداً إلى مغرب الشمس، التي تنبعث مع الصباح من الشرق، رمزاً لخلود عودة الحياة إلى الأبد.

يمضي مع الميت خدام الجنازة والأصدقاء الخلص والكهنة، والنادبات. ويقوم كاهن برش التابوت بالماء، من مرشة في يده. ويشعل البخور ليعطر الجو. فإذا بلغ الموكب الجنائزي أسفل الجبل، حل الحمالون محل الثيران في جر عربة النعش إلى باب القبر، حيث ينتظر الميت بقرة تمثل الإلهة هاتور، وصقر يمثل هورس ابن أوزيريس، ويتضاعف الندب ومظاهر الألم.

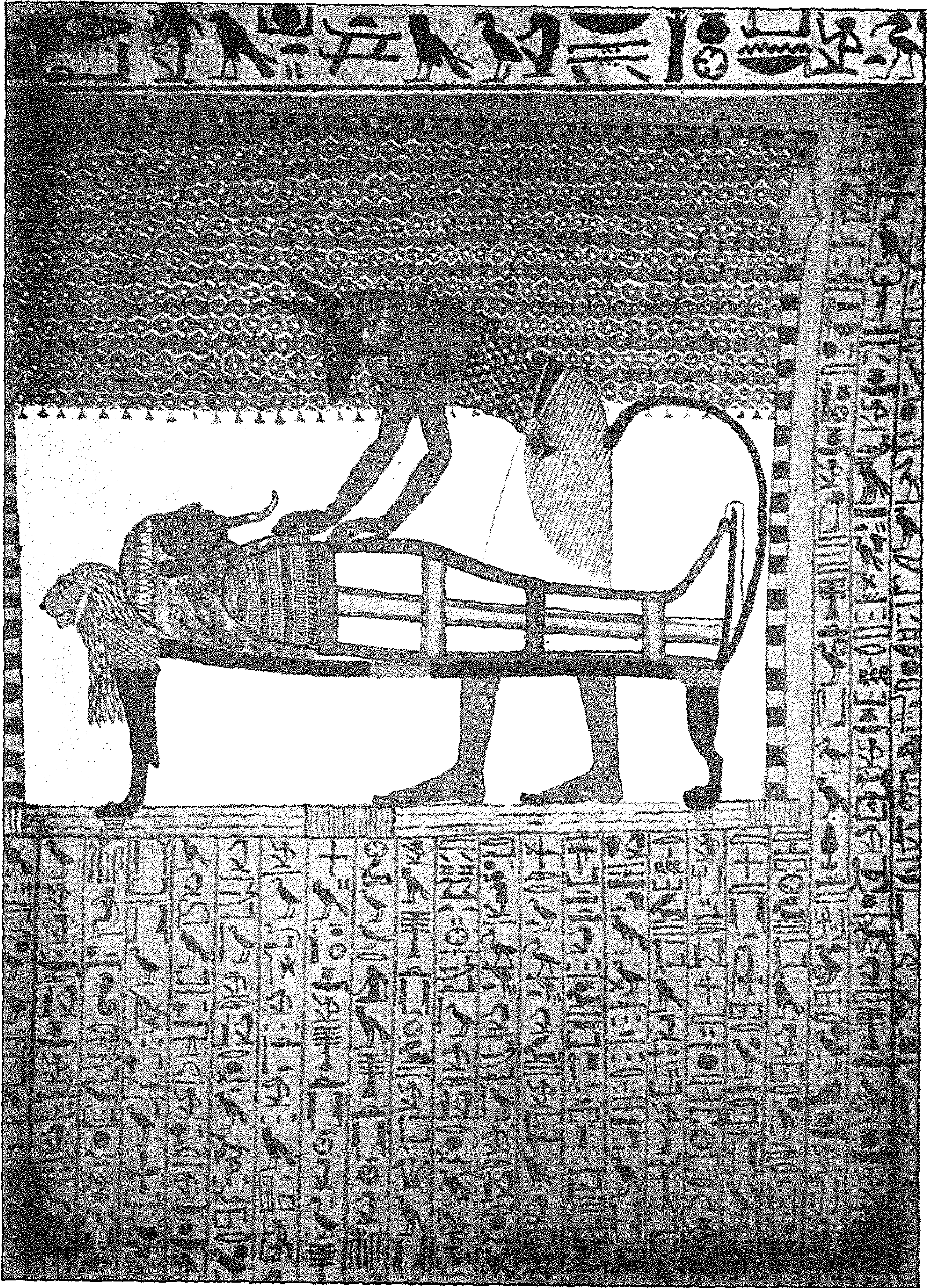
يكون رهبان، في ذلك الوقت، قد أعدوا مأدبة مأتمية، مع بعض أدوات الطعام، رمزاً إلى قرب خلاص الميت من تحنيطه، وعودة الحياة إلى أعضائه، وقدرته على استخدامها. وينزل في القبر كل الأثاث الذي اصطحب مع الجنازة، ويرتب حول التابوت، مع الخوابي التي تضم تضم أحشاء الميت.

إذا انتهت مراسم الدفن، يغلق باب القبر بجدار، وتقام خارجه مأدبة لأفراد عائلة الميت والمقربين من أصدقائه. وتلك مناسبة يغني فيها المغنون، ويعزف العازفون، مذكرين بالملاذ التي سينعم بها الميت في حياته المقبلة.

أرض الظلمات الكثيفة

أما موتى الطبقة العادية، فيحنطون تحنيطاً بسيطاً، بزيت العرعر والنطرون. ثم يوضع الجسد في نعش عادي، ويحشر مع غيره في قبر عفن، ولا يحمل مع الميت إلا صرة فيها بعض أشيائه.

أما الفقراء فلا يأملون إلا في حفرة عامة تضم رفاقهم، ولا يبعثون في الآخرة، إلا إذا كانوا خدموا شخصية هامة، كتبت أسماءهم أو أشارت إليهم بطريقة ما، وعندئذ يظلون في خدمة تلك الشخصية سرمدياً.



□أنوبيس، الإله برأس جقل، هو القوة السماوية المكلفة بالتحنيط، وهو يمارس هنا علمه الذي منحته الآلهة، لتحنيط الإله أوزيريس.

إذا كان الموت تصاحبه تقاليد تعزية تذكر بالحياة الجديدة التي ينتظرها الموتى في «حقول الغرب»، فإن المصريين لم يكونوا دائماً سعيدين بترك الحياة الدنيا. فقد ترك بعضهم مقطوعات يعبرون فيها عن تشبثهم بهذه الحياة الدنيا، ومن ذلك موجودة في المتحف البريطاني: «... ما قيمة السنوات التي قضيناها على هذه الأرض، مهما كثر عددها؟ المغرب أرض النوم والظلمات الكثيفة، حيث يرقد أولئك الذين غادرونا. إنهم يرقدون في قماطاتهم، ولن يفيقوا إلا ليروا إخواتهم. فلا يطيقون رؤية آبائهم وأمهاتهم. وتنسى قلوبهم نساءهم وأبناءهم. والماء الحي الذي كان مبذولا لمن يقطن الأرض، لن يكون للأموات. إنها المياه التي أريد...».

وثمة كتابات أكثر تفاؤلاً، ترى في الموت راحة من آلام الحياة. وثمة أخرى تشدد على أن أحداً لم يعد من الموت ليخبرنا ما يحدث بعده، وأن الطقوس المأتمية يقصد منها تعزيتنا فحسب».

غرفة الحقيقتين

إذا بلغ الميت العالم الآخر، كان عليه أن يواجه تجربة صعبة. فعليه أن يقدم بين يدي الآلهة حساباً عن أعماله. ولا قيمة لعدد السنين التي عاش. لكأن السنوات تجمعت في ساعة واحدة.

تجمع أعمل الميت وتوضع إلى جانبه. فمن أتى الآخرة، ومثل بين أيدي قضاة الموت، ولا أخطاء لديه، «غدا مثل الآلهة، ومشى في عالمهم حراً كسادة الأبدية». ولكن عليه قبل ذلك أن يواجه حكم أوزيريس، الذي يجلس في صدر قاعة ضخمة، على منصة ملكية، وحوله إيزيس ونفتيس واثنان وأربعون معاوناً. على الطرف الثاني من المسرح، يظهر الميت يصحبه أنوبيس، الإله الجقل المكلف بالتحنيط. وثمة ميزان منصوب وسط القاعة، يوضع قلب الميت على إحدى كفتيه، بينما قلم برمز إلى العدالة يوضع على الكفة الأخرى. يراقب انوبيس الوزن، ويدون توت النتيجة. فمن كانت خطاياه لا تعوض، أسلم إلى إلهة مسيخة. على شكل كلبة أحياناً، تتحول أحياناً أخرى إلى شكل مزيج من تمساح وفرس النهر. أما إذا كانت الخطايا أقل من الحسنات، فإن الميت يتقدم من أوزيريس يقوده هوروس. ولكن هذه النتيجة تتطلب كذلك أن يقنع الميت القضاة بأنه بريء، وذلك بنفيه ارتكاب المعاصي.

معظم الموتى يقبلون على المحكمة مثقلين بالآثام، ولكن التقاليد تقضي بنفيها. وكأن القضاة يعتبرون ذلك تكفيراً.

الجنة تغدو ديمقراطية

كانت المعتقدات المتصلة بعودة الحياة والخلود، تقضي بخلود الطبقة الرفيعة. أما العامة فكان حظهم، في الغالب، الفناء، خاصة الفقراء، وكأن الموت لا يساوي بينهم وبين الأغنياء.

ولكن التقاليد تطورت، وغدت المعتقدات أكثر ديموقراطية، عبر مراحل الحقب الفرعونية الثلاث. فأوزيريس القتيل صعد إلى العالم الآخر، عالم الآلهة. وابنه هوروس، حمله الكهنة إلى السماء ليتحد بالإله ـــ الشمس رع، ليحكم مملكة السماء.

ثم عمم هذا التقليد فأصبح كل مخلوق قادراً على أن يبعث في ملكوت السماء، خاصة أولئك الذين كانوا متصلين بالطبقة الرفيعة، ويحتلون المناصب التي كانوا يحتلونها على الأرض.

الواقع أن الأمبراطورية القديمة قد ضعفت وتضاءلت سلطتها، وأفسحت إلى ظهور تطور في العقائد، كادت تبلغ حد المساواة بين السادة والرعية في الطقوس الجنايزية خاصة إذ جعل الحكم الأخير في شأن أي مخلوق في يد إلهة العدالة، وقد انتصرت تقاليد مرحلة بوزيريس وآبيدوس على تقاليد هليوبوليس. وبات من حق كل المصريين مهما كانوا من الوضاعة والفقر، أن يبلغوا العالم الآخر. 

● قال جورج واشنطن مخاطباً الإنجليز: إن تاج ملككم وثروة الأمبراطورية البريطانية. لا يكفيان ثمناً لاستقلال بلادي. حاربوا تفنونا أو نفنيكم.

● إيه أيتها الحرية. كم من الجرائم تقترف بإسمك.

«مدام رولاند»

لا يستطيع الباحث في التاريخ الإسلامي، أن يتناسى أو يضرب صفحاً عن ذكر الوقائع والأحداث التي وقعت بين القاهرة وبغداد، في منتصف القرن الرابع للهجرة... تلك الوقائع التي أغفلها التاريخ القديم، ربما عن قصدٍ، أو عن غير قصدٍ، ولولا مؤرخٍ واحد سجلها في مذكراته، وكشف النقاب عنها، إذن لظلَّت راقدة في كهوف النسيان.

وَقَائِع وأُحَدَاث بَيْنَ القَاهِرَة وَبغْدَاد

بقلم: د. عارف تامر

□ مسجد السامرا بمئذنته «الملوية»، بناه «المتوكل»، الخليفة العباسي (القرن التاسع ميلادي).



في العام الأربعين بعد الأربعمئة من الهجرة النبوية، كان يحكم العالم الإسلامي دولتان كبيرتان هما: العباسية في بغداد، والفاطمية في القاهرة، وقد يكون من المفيد إعطاء لمحة موجزة عن الحالة السياسية العامة للدولتين في تلك الفترة، وهذا قبل الدخول في صلب الموضوع الرئيسي. فنقول:

كانت الدولة العباسية في تلك الفترة تحكم من غير العرب. فالخليفة العباسي لم يكن يحمل من الخلافة إلّا اسمها. فهو كما قال عن نفسه:

أليسَ منَ العجائب أنَّ مثلي ... يرى ما كان ممتنعاً لديهِ
وتُحكم باسمه الدنيا جميعاً ... ولكن ليس شيئاً في يديهِ

أو كما قال عنه الشاعر دعبل:

خليفةٌ مات لم يحزن له أحدٌ ... وآخرٌ قام لم يفرح به أحدُ

فالسلطة العليا كانت بأيدي قوتين وقيادتين. الأولى تركية وقائدها «ارطغرل» والثانية فارسية وقائدها «البساسيري»[1]. ومن الواضح أنه بعد عصر الرشيد الذهبي، جاء المأمون ومعه الفرس، ثم خلفه المعتصم ومعه الأتراك الذين لم يلبثوا أن أصبحوا يشكلون القوة الكبرى في الجيش. وهكذا انحدرت الأوضاع، وأصبحت الدولة خاضعة لقوتين تضمر كل منهما الشر والوقيعة للثانية. فلاح شبح الانهيار مهدداً الدولة بأوخم العواقب، وأصبح الخليفة لا حول ولا قوة، وقد تكون دولته أصيبت بمرض الشيخوخة الذي لا برء منه.

أما الدولة الفاطمية، فلم تكن في حالة أحسن من العباسية، ومن الجدير بالذكر أنها كانت تشكو من ولاة يطمعون ويشجعون على نبذ الطاعة، ومن فسادٍ انتشر في كل مكانٍ، وراح يهدد وينذر، والأقاليم سادها الاضطراب والفوضى، واختل النظام والأمن، وأصبح الحكم للرعاع، مما دعا الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إلى استدعاء أحد قواده «بدر الجمالي» من عكا، منوطاً إليه مهمة إعادة الأمور إلى طبيعتها، وتنظيم الدولة بما يكفل إنقاذ الاقتصاد وإعادة الأمن والحياة والازدهار إلى الدولة. وليس بخافٍ ان اليمن بجزئيها الشمالي والجنوبي ارتبطت في تلك الفترة بمصر بعد أن حكمها «الصليحيون».

أما المغرب الذي كان خاضعاً لأسرة «آل زيري الصنهاجي» وهم من البربر، وكان الفاطميون قد أناطوا بهم حكم المغرب ٣٦٥هـ وكالةً، بعد أن نقلوا قاعدة ملكهم إلى مصر، ولكن آخرهم «المعز بن باديس» خلع طاعة الفاطميين، وأعلن انتمائه للعباسيين، مما حفز الخليفة المستنصر بالله على تجنيد القبائل العربية التي كانت في مصر وليبيا وهي: هلال، وزغبة، ورباح، وعدي، وربيعة، وإرسالهم إلى المغرب بقصد الاستيلاء عليه، بعد أن عهد إلى «الحسن بن علي بن ملهم العقيلي» بقيادة تلك الحملة العربية الكبرى، في المغرب انضمت إليهم القبائل العربية التي كانت تقيم هنالك، مما ساعد على الاحتلال، وفي ذلك يقول ابن خلدون:

«وملك العرب الأرباض، وامتزجوا بأهل البلاد، ومنذ ذلك العهد أصبح المغرب عربياً، فقد تقلّد «موسى بن يحيى المرداسي» القيروان وباجة، و«زغبة» طرابلس وقابس، و«الحسن بن سرحان» قسطنطينة.. هذا ويجب أن نشير بأن هذه البادرة الفاطمية سجلها التاريخ بأحرف من ذهب.

ومهما يكن من أمر.. فلا بد لنا من التوجه، ونحن في صدد البحث في تاريخ تلك الفترة إلى رحاب علم من أعلام الأدب والفلسفة والسياسة، وداهية من دهاة ذلك العصر، الذي استطاع بمرونته وتخطيطه، وفصاحة لسانه، وشجاعته أحداث انقلاب عسكري في أكبر دولة عرفها التاريخ الإسلامي.

ذلكم هو «المؤيد في الدين» الذي عرف في تاريخ الأدب بمناظرته «أبي العلاء المعري» ويومئذٍ قال عنه: «وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين، ما زالت حجته باهرة، ودولته عالية... والله لو ناظر ارستطاليس لجاز له ان يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه».

هذا العبقري الخارق لم يكن معروفاً في عالم الأدب، فقد أشار إلى مناظرته مع أبي العلاء المعري المستشرق البريطاني «مارجوليوث» في مقال نشره في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ١٨٩١م. عن نسخة خطية عثر عليها في جامعة

اكسفورد، ويومها أراد مارجوليوث أن يعرفه، أو يذكر شيئاً عن حياته ولكنه لم يوفق، لأن المؤرخين وأصحاب التراجم أغفلوا ذكره، وقد ظلت شخصيته مجهولة حتى ١٩٠٣م. عندما أعاد نشر المناظرة، وعندما ذكر اسمه اعتبر ذلك نصراً علمياً، وفي سنة ١٩٣٢م. نشر الدكتور حسين همداني مقالاً عنه باللغة الانكليزية، أزاح فيه النقاب عن شخصيته ونسبه وتاريخه ثم جاء المستشرق الروسي و. ايڤانوڤ = W.Ivanow فنشر عنه معلومات جديدة مفصّلة وأضاف إليها بيان عن بعض مؤلفاته.

هو: هبة الله بن أبـي عمران موسى بن داعود. ولد في شيراز سنة ٣٩٠هـ وهناك غموض لا يزال يكتنف تاريـخ نشأته وصباه والمدرسة التي تعلّم فيها، فكل ما نعرفـه عنه أن والده كـان من الشخصيات المرمـوقة، ومن دعـاة الفاطميـين الكبار، وبعد وفاته أصبـح هبة الله مسؤولاً عن الدعوة الفاطمية في عموم بلاد فارس والعراق. فاتصل بالسلطان البويهي «أبـي كاليجار» الذي أعجب به واستمـع إليه، وحضر مناظراته مـع علماء الزيدية والمعتزلة، وأمام تفوقه، وإفحامهم بقـوة بيـانـه، ودافـع حجتـه، خضـع إليـه، واستجاب، واعتبره معلمه والمنعم عليه أو مثله الأعلى.. ولا عجب في ذلك فالسلطان أبو كاليجار كـان من الشيعة الزيـدية الذين لا يـؤيـدون العباسيين إلّا في الظاهر.

أما بالنسبة للمؤيد في الدين فإن ما وصل إليه من التقدير والحظوة لدى السلطان أثار غضب طبقة العلماء والقضـاة، فأعلنـوا عن عدائهم وأخذوا يراقبون تحركاته وفي جعبتهم الحقـد وحب الانتقام.. وتشاء الظروف أن يتصدّع أحد أركان مسجد من مسـاجد مـدينة «الأهـواز» فيذهب المؤيد في الدين للإشراف على ترميمه وتجـديده، وهنـاك أمر بنقش أسمـاء الخلفاء الفاطميين على المحراب والأبواب، ثم أقام خطبة الجمعة في المسجد المذكور باسم خليفة مصر الفاطمي المستنصر بالله، وقد اعتبر هذا العمل تحدياً للعباسيين، فقام قاضي الأهـواز وأرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ينعي فيه الدولة العباسية، ويؤكد سقوطهـا بأيـدي المؤيد في الدين، وعلى الأثر أرسل القائم العباسي وزيره «ابن سلمة» إلى شيـراز حامـلا إنذارا للسلطان أبـي كاليجار بإخراج المؤيد في الدين من بلاد فارس وإلا فـإن الخليفة سيستعـين بالأتراك ويوجههم للاستيلاء على ممتلكاته. فخاف أبو كاليجار من عاقبة الأمور، وأوعز إلى المؤيد في الدين بالخروج.

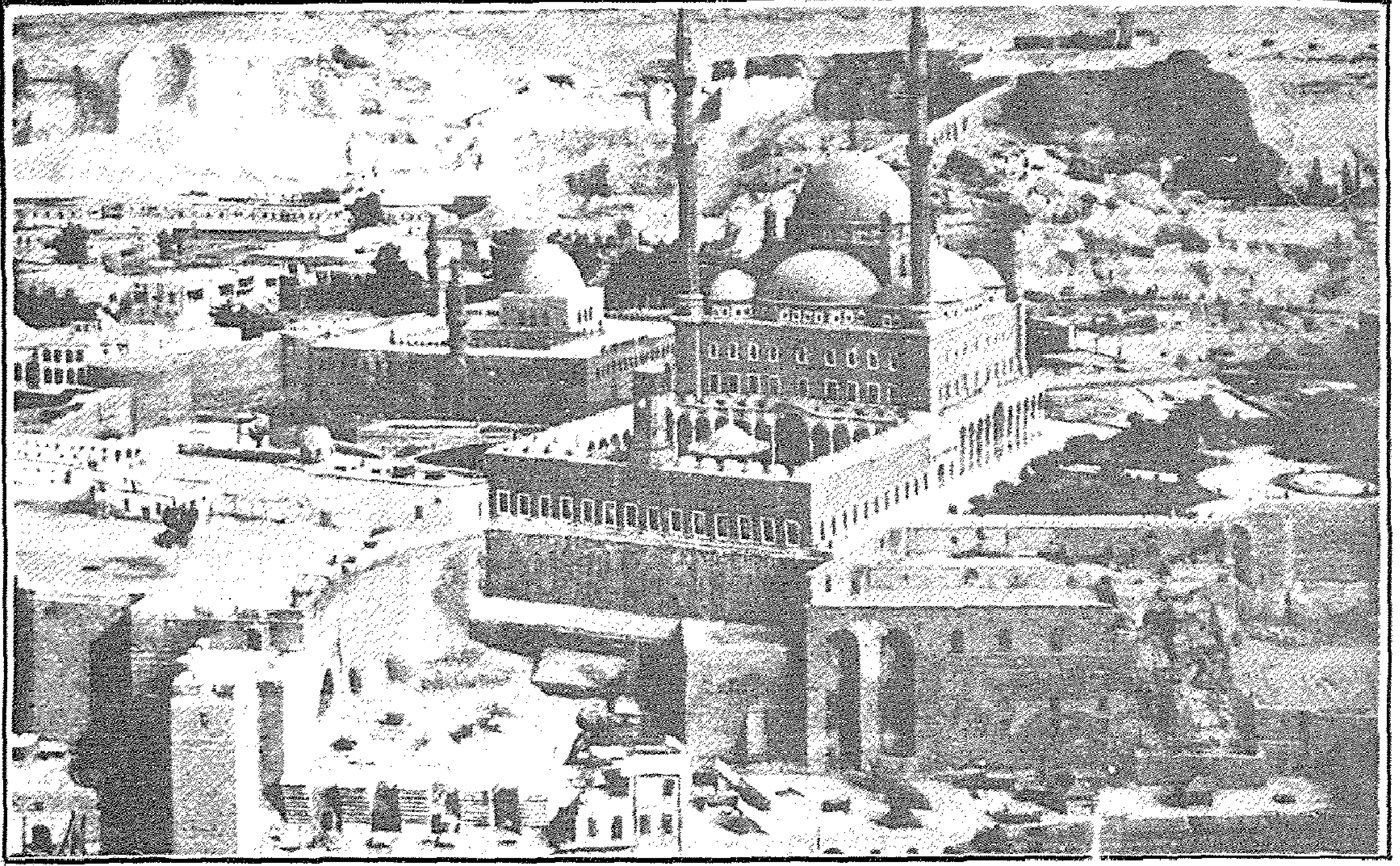
أجل.. خرج المؤيد في الدين من شيراز ميمماً شطر مصر سنة ٤٣٩هـ بعد أن رأى أن لا بد من الخروج... خرج وفي أعماقه خلجة رعناء تزداد ضراماً، ونقمة عارمة تتوقد كلما صحا إلى نفسه، وعاودته الذكريات.

خرج من فارس يحمل لفـح الهجير والزمهرير، ماضياً إلى غايته، مسرعاً وراء هدفه، ولم تكن متاعب الطريق، والصعاب تحـوله عن عزمـه، أو تعيقه عن أمله... خرج من وطنه مرغماً دون أن يكون له في رحلته الشاقة صديقاً أو رفيقاً... إن أشرق الفجر توارى خائفاً، أو جنّ الليل سار متحـرزاً، وفي الحالتـين لا يني عن التفكير في ماضيه وحاضره ومستقبله.. فهـذه الفترة من أكثر الفترات في حياته ألماً وأبعدها يأساً، حتى أنها طبعت نفسه بـطابـع الحقد والضغينـة، وجعلته يميل إلى الانتقام ويؤثر الثأر.

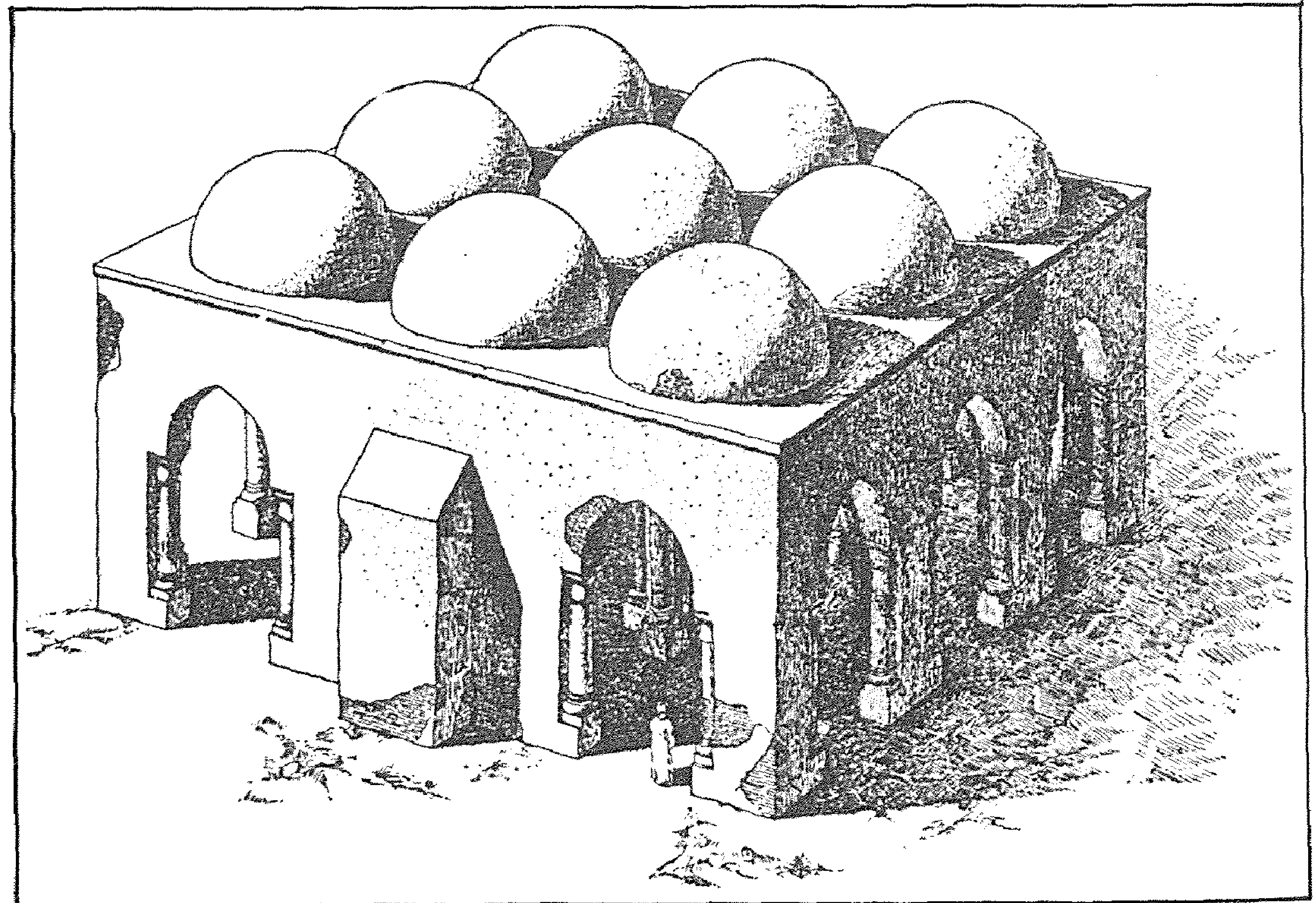
خرج المؤيد في الدين، وهو يتلفت نحو بغداد شزراً، كان يعلم أن الخلافة العباسية في بغداد لا تزال تتسقط أخباره، وأن ساستها والمسؤولين عنها يتجفون عند ذكر اسمه، وكل ذلك يعود إلى تفـوقـه عليهم وانتصـاراتـه في مجـال العلم والدعـاية... فقـد أقضى مضـاجعهم وأزعجهم تحليقه في الأجواء كالنسر الذي لا يعشق إلا الأعالي.

خرج وهو يبكي من ألم الفراق.. هناك وطنه وأهله وأخوته، فقد أصماه أن يرغم على الهجرة إلى بلد لا يملك فيها أموالاً ولا أطياناً، لا خيلاً ولا رزقاً، لا صديقاً ولا رفيقاً... وأخيراً:

حطّ الرحال في القاهرة «المعزية» وأمله الوحيد أن يلتقي بالخليفة المستنصر بالله، فلا بد أن يوليه عطفه ويدينه ويكافأه على خدماته وجهاده.. ولكن أنى له الاتصال بالخليفة الذي كان في تلك الفترة يعاني من انقسامات داخلية ذرّت بقرنها في صفوف حاشيته ووزرائه وقواده، فجعلتهم يُعدمون رشـدهم، ويكيدون المكـائد لبعضهم،



□ منظر عام لمسجد الناصر محمد، ومسجد محمد علي والقلعة التي تعود للقرن الثاني عشر.



□ مشهد ال طباطبا، النصف الأول من القرن الرابع الهجري ــ العاشر الميلادي.

ويتامرون حتى على سلامة الدولة.

أجل... كانت أمور الدولة الفاطمية في أيدي حفنة من الوزراء الوصوليين المستغلين، فليست هذه مصر الذي تخيلها المؤيد في الدين، وهذا ما جعله يفكر أكثر من مرة بالرحيل، ولكنه كان يصطدم بإرادة الخليفة الذي أراد له البقاء في مصر، وهكذا عاش بين الدسائس والمؤامرات والوشايات، فكان تارةً يقرّب وتارة يُبعد — فهو بين الرضى والغضب.. بين المدّ والجزر.. وكل هذا والخليفة لم يقابله.

وأخيراً:

تقرّب من الوزير أبي سعد بن هرون التستري، وكان واسع النفوذ، ولكن هذا الوزير ماطل وشوّف ثم قتل قبل أن ينفذ وعدَه، وبعد موته لجأ إلى الوزير الفلّاحي فعينه ناظراً على المجلس الخاص بوالدة الخليفة، وعندما عزل الفلاحي وحلّ محله اليازوري خاف هذا الأخير على مركزه من المؤيد الذي كان قريباً من الخليفة، فنقله إلى رئاسة ديوان الإنشاء، وهنا تحسنت حالته المعيشية، وبدأت حياته من جديد، ولكن رجال البلاط آلمهم أن يصل هذا الأعجمي الغريب إلى هذا المنصب الكبير، فحسدوه وبدأوا يكيدون له... ممّا جعله يردد كلما خلا إلى نفسه:

انا في دار غربة وحقيق
غير بدعٍ أن ذلّ فيها الغريبُ

ويقول:

قد كنت أفترسُ الأسود بفارسٍ
واليوم تنهضُ لافتراسي الشاةُ

ومهما يكن من أمر... فإن المؤيد في الدين مضى في سبيله لا يفكر إلّا بخدمة الدولة الفاطمية.

وفي تلك الفترة أنس الخليفة إليه، وأخذ يستمع إلى أقواله وآرائه، وبعد دراسات ومشاورات سلّمه مهمة الإشراف على «شؤون المشرق» السياسية ووضع تحت تصرفه كافة الإمكانيات المادية والمعنوية.

وتشاء الظروف أن يزداد نفوذ القائد البويهي البساسيري لدى القائم العباسي، وكانت تربطه بالمؤيد في الدين صداقة متينة وقديمة، كما كان على اتصال به منذ أن وطأت قدماه أرض الكنانة.

وأخيراً:

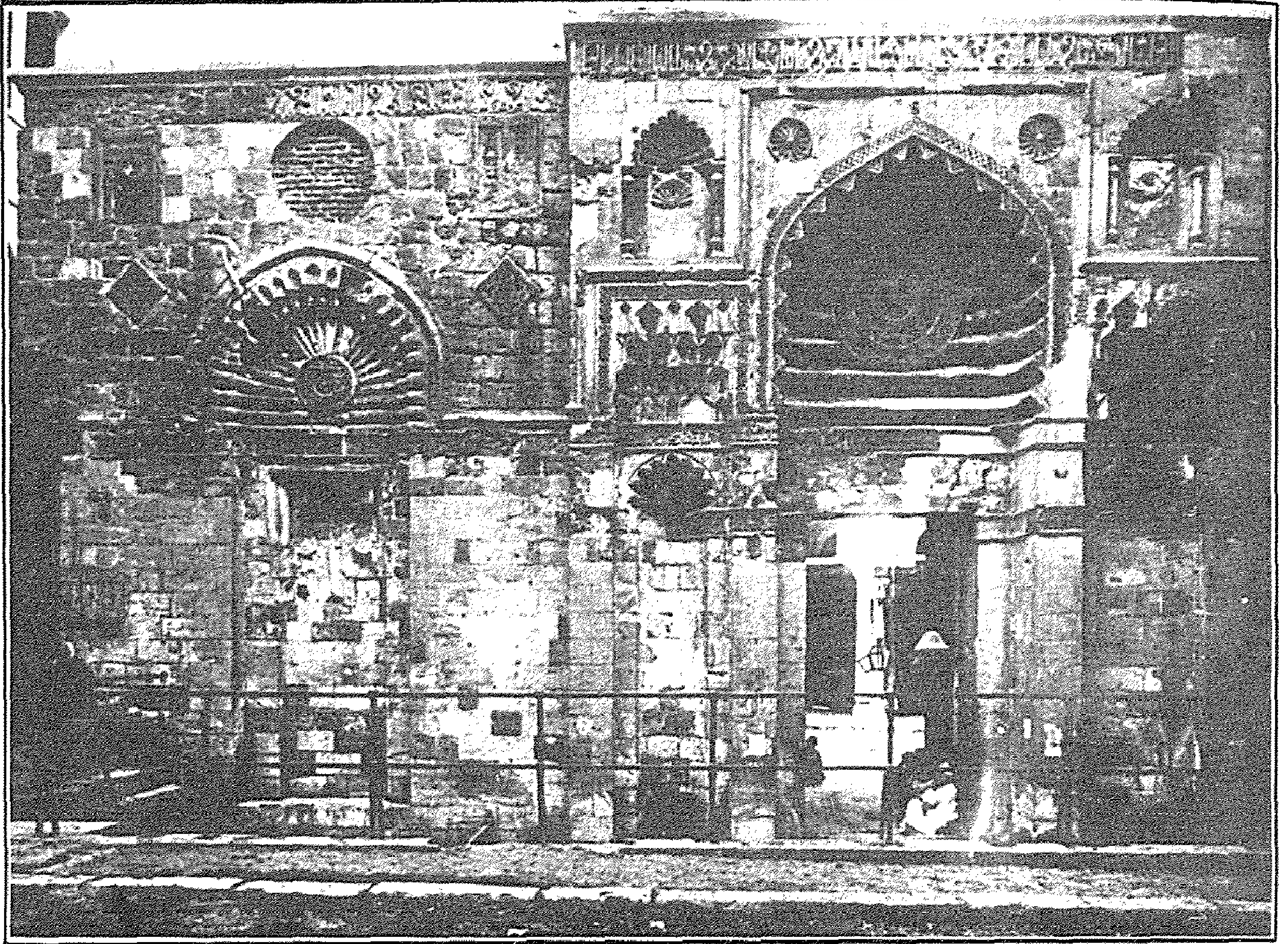
كانت حصيلة الاتصالات الاتفاق على خطة العمل، على أن يعقد الاجتماع الأول في العراق... وعندئذٍ استأذن المؤيد في الدين الخليفة الفاطمي بالسفر، فسمح له وأطلق يده بالعمل لما فيه خير مصر ثم زوّده بالخلع والأموال والهدايا والألقاب.

في الشام... جنّد المؤيد في الدين ثلاثة آلاف رجل من قبيلة بني كلب، وأرسلهم إلى الرحبة ليكونوا تحت إمرة البساسيري، وفي حمص ضرب المؤيد في الدين بأوامر الوزير اليازوري عرض الحائط «وكان قد طلب إليه عدم الاتصال بالمرداسيين أصحاب حلب»، فأرسل إلى «ثمال بن صالح بن مرداس» كتاباً دعاه فيه إلى الاجتماع في قرية «الرستن»، وهناك تمكن بحسن سياسته ومرونته من استمالته، فعقد معه اتفاقية على العمل المشترك، وبعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق، سارا معاً إلى حلب، وفي طريقه عرج على «معرة النعمان» وقضى ليلةً في منزل المعري، ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤيد في الدين زار معرة النعمان أكثر من مرة.

وفي معرة النعمان وافاه بعضُ الجند من حرس البساسيري الخاص لمرافقته إلى «الرحبة» ولكنه توقف في حلب لبضعة أيام، حيث تمكن من استقطاب أكثر القبائل العربية، ومنهم: «بنو مروان» أصحاب ديار بكر، «وبني عقيل» أصحاب الموصل، «وبني وثّاب» أصحاب «حران» و«بني مزيد» أمراء عرب الفرات وهم من بني أسد. وأخيراً:

وصل المؤيد في الدين إلى الرحبة، فخرج البساسيري مع أركانه وقواده «لاستقباله» وهنا منحه المؤيد في الدين تأييد الخليفة الفاطمي عطفه وبركاته، وبعد أن عرض الأمور، ودرس الأوضاع، اتصل بنور الدولة دبيس بن مزيد «أمير بني أسد» وأقنعه بضرورة اللحاق به، فوضع قواته بإمرة البساسيري.

في هذه الفترة، وبعد إتمام الاستعدادات للمعركة الكبرى، ارتدى المؤيد في الدين ثياب القائد العسكري الذي يضع الخطط العسكرية، فأمر البساسيري بالزحف نحو بغداد، وكان ذلك سنة ٤٤٨هـ ولكن القائم بأمر الله العباسي جهّز



□ جامع الأقمر ــ الذي نشأه الفاطميون في مصر (٥١٩ / ١١٢٥م).

جيشاً، وجعل عليه «قتلمش» ابن عم «ارطغرل» و«قريش بن بدران» صاحب الموصل فوصلا سنجار، وفيها دارت الدائرة على العباسيين، ولم يفلتْ من جيشهم سوى مئتي رجل.

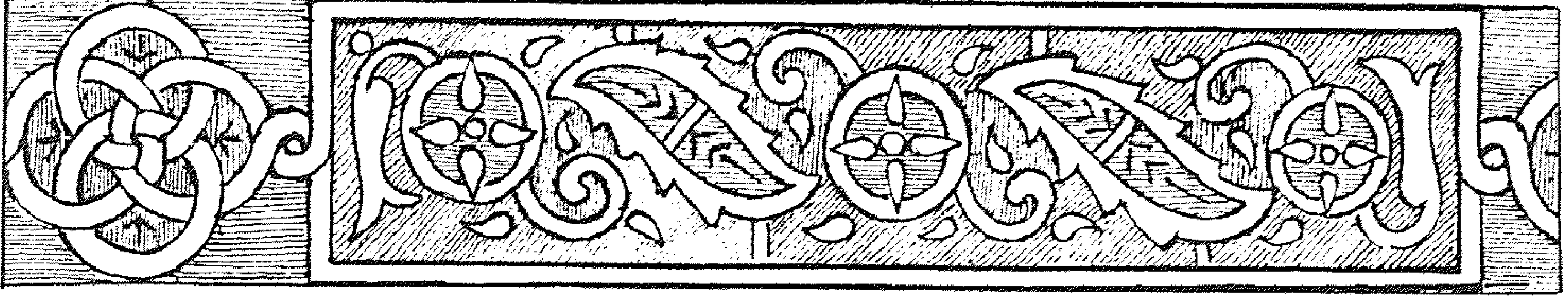
ومما يجب أن يذكر أن «قتلمش» لقيَ حتفه في المعركة، بينما لجأ قريش إلى الأمير دبيس الأسدي، فعفا عنه، وضمّه إلى جيشه، بعد أن منحه لقباً فاطمياً. وقد أوحت تلك المعركة الضروس للشاعر «ابن حيُّوس» هذه الأبيات:

عجبتُ لمدعي الآفاق ملكاً
وغايته ببغدادَ الركودُ
ومن مستخلف بالهونِ يرضى
يُزاد عنِ الحياضِ ولا يزودُ
وأعجبُ منهما سيفٌ بمصر
تقامُ له بسنجّار الحدودُ

لم ينم الخليفة العباسي القائم بأمر الله على ما لحق بجيشه، فأوعز إلى القائد التركي «ارطغرل» أن يتسلم القيادة، وأن يتصدّى للمهاجمين. أما المؤيد في الدين فطلب إلى البساسيري التوقف والاستعداد، وعاد إلى منطقة حلب، حيث نزل في موقع «بالس» وهناك قام بعدة اتصالات شملت قبائل «بني عقيل» و«كلاّب» و«نمير» و«خفاجة».. وكانو قد أبوا اللحاق به، فأقنعهم وجندهم»، كما أنه اتصل «بابراهيم بن ينال» أخ «ارطغرل» لأمه، فأغراه بالانفصال عن أخيه، والانضمام إلى الانقلابين، بعد أن مناه بالدعم الفاطمي ليكون صاحب الأمر في المستقبل، وبعد أن تم كل هذا، أوعز إلى البساسيري بالزحف لاحتلال بغداد، فدخلها بعد معركةٍ داميةٍ مع «ارطغرل» بين أناشيد الجماهير الذين استقبلوه وحماسهم، وكانوا يردّدون:

يا بني العبّاس صدّوا
ملك الأمر معدٌ[٢]
ملككم كان معاراً
والعواري تُستردُ

كان ذلك سنة ٤٥٠هـ وفي ذلك اليوم، اتخذ



الخليفه العباسي القائم قرارا بالخروج من بغداد، ولكن القائد البساسيري لم يسمح له إلا بعد أن كتب وثيقة التنازل عن الخلافة، وبعد أن سلّم ثوبه وعمامته وعرشه، فأرسلهم البساسيري إلى الخليفة الفاطمي في مصر علامة النصر، ثم سمح له بعد ذلك بالخروج فذهب إلى «حديثة عانة» القريبة من الأنبار فأقام فيها منزوياً، أما بغداد فأصبحت تابعة للقاهرة المعزية ولأول مرة في التاريخ.

بعد هذه الانتصارات الرائعة التي حققها المؤيد في الدين، أنعم عليه الخليفة المستنصر بالله بمرتبة «داعي الدعاة» ولكن هذا المركز لم يكن ليثنيه عن العمل في السياسة وإكمال رسالته، فطلب من الخليفة المزيد من الأموال والمساعدات للبساسيري، كما نصح بإرسال جيوش فاطمية إلى بغداد لحمايتها ودعم البساسيري، ولكن الخليفة الفاطمي لم يستجب له، ولا أحد يدري الأسباب؟ غير أن بعض المؤرخين يربطون بين هذا الإهمال وبين الأزمة الاقتصادية التي كانت تعصف بمصر خاصة وأن الحملة الفاطمية كلّفت مصر من الأموال ما لا يحصى. وكل هذا ساعد ارطغرل على شن هجوم على بغداد وإخراج البساسيري وفرسان القبائل العربية الذين دبّ بينهم الاختلاف ثم أعاد الخليفة القائم بأمر الله إلى قاعدته، ونزع شعارات الفاطميين وكل آثارهم.

إلى هنا... طويت صفحة من تاريخ المؤيد في الدين، وإلى هنا توقف نشاطه السياسي... فعند عودته إلى القاهرة لم يقابله أحد، ولم يتحدث عن انتصاراته سوى قلة من الناس... والظاهر أنه فاء إلى العزلة متفرغاً لشؤون أخرى أكثرها علمية، وبالرغم من عزلته فإن التاريخ الفاطمي ذكر بأن الوزير «عبد الله بن المدبر» نفاه إلى القدس، ثم أعيد بعد فترة قصيرة إلى القاهرة فتوفي سنة ٤٧٠هـ ودفن في دار العلم.. ولم يكن ينسى حاله وموقفه فيقول:

ابحتُ حمى دمي فيهم وفيهم ... خسرتُ شبيبتي وربيع عمري
ومنهم سرتُ عن وطني غريباً ... أجوبُ الأرض قفراً بعد قفر
اضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

للمؤيد في الدين مؤلفات عديدة، بعضها فقد، وبعضها لم يطبع... وأهمها:

المجالس المؤيدية(٣).. والمجالس المستنصرية... ديوان شعر(٤)... مذكرات المؤيد في الدين(٥)، كتاب: شرح المعاد، الإيضاح والتبصير، الابتداء والانتهاء، المسألة والجواب، تأويل الأرواح، وغيرهم.

الهوامش

(١) هو أبو الحارث أرسلان البساسيري. ينتمي إلى البويهيين الزيديين الشيعة، وهو من بلدة «بسا» القريبة من مدينة شيراز الفارسية.
(٢) معد: اسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.
(٣) المجالس المؤيدية.. وهي ثمانمائة مجلس أي (محاضرة) كان يلقيهم على الطلّاب في دار العلم بالقاهرة.
(٤) ديوان شعر.. تحت الطبع حققه الدكتور عارف تامر.
(٥) مذكرات المؤيد في الدين.. حققه د. عارف تامر.. طبع مؤسسة عز الدين للطباعة.. بيروت ــ لبنان.



عمرو بن العاص، وفتح مصر

إعداد: شذا عدره

يتميز عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و«الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها.

وفتح مصر، وما تبعه من إبرام معاهدات مع أهلها، نعرضها في هذا العدد، إلى جانب الوثائق التي رافقت ذلك الفتح في كتب تبادلها الخليفة عمر وعامله عمرو بن العاص، فاتح مصر.

كتاب عمر إلى عمرو بن العاص حين سار لفتح مصر

بـع ص ٥٨

إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر، فارجعْ إلى موضعك. وإن كنت دخلتها فامضِ لوجهك.

كتاب الخليفة إلى عمرو بن العاص عامل مصر

«نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي (طبع بطرسبرك) ص ١٠٩.

أما بعد يا عمرو: إذا أتاك كتابي فابعثْ إليّ جوابه، تصف لي مصر ونيلها وأوضاعها، وما هي عليه حتى كأنني حاضرها.

جواب عمرو في وصف مصر

نخبة الدهر لمحمد بن أبي طالب ص ١٠٩ ــ ١١٠ (وروايتها مخرومة في عدة أماكن) ــ التراتيب الإدارية للكتاني ج ٢ ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ (عن النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ١ ص ٣٢ ــ ٣٣).

فأعاد عليه عمرو بن العاص مكتوباً جوابَ كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد: يا أمير المؤمنين فإنها تربة غبراء، وحشيشة خضراء، بين جبلين، جبل رمل كأنّه بطن أقبّ وظهر أجبّ. ورزقها ما بين أسوان إلى منشا من البر. يخط وسطها نهر مبارك الغدوات، ميمون الروحات. يجري بالزيادة والنقصان، كمجاري الشمس والقمر. له أوان تظهر إليه عيون الأرض منابعها مسخرة له بذلك ومأمورة له. حتى اطلخمّ عجاجه، وتغطت أمواجه، واغلولوت لججه، لم يبق الخلاص إلى القرى بعضها إلى بعض، إلا في خفاف القوارب، أو صغار المراكب، التي كأنها في الحبائل وُرق الأبابيل. ثم أعاد بعد انتهاء أجله نكص على عَقِبه، كأول ما بدا، في دربه وطما في سربه. ثم استبان مكنونها ومخزونها. ثم انتشرت بعد ذلك أمة مخفورة، وذمّة مغفورة لغيرهم ما سعوا به من كدهم وما ينالوا بجهدهم، شعثوا بطون الأرض وروابيها. ورموا فيها من الحبّ أما يرجون به من التمام من الربّ. حتى إذا أحدق فاستبق وأسبل قنواته سقى الله من فوقه الندى، ورواه من تحته بالثرى. وربما كانٍ سحاب مكفهر وربما لم يكن. وفي زماننا ذلك، يا أمير المؤمنين، ما يغنّى ذبابه ويدرّ حلابه. فبينما هي برية غبراء، إذ هي لُجة زرقاء، إذ هي سندسية خضراء، إذ هي ديباجة رقشاء، إذ هي درّة بيضاء، إذ هي حلّة سوداء. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفيها ما يصلح أحوال أهلها ثلاثة أشياء: أولها: لا تُقبل قول رئيسها على خسيسها. والثاني: يُوخذ ارتفاعها (...؟) يصرف في عمارة تُرعها وجسورها. والثالث: لا يُستأدى خراج كل صنف إلا منه عند استهلاله.

والسلام

(٢) الكتاني: ...

(٣) الكتاني: .. مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها شهر.

(٤ ــ ٥) الكتاني: يكتنفها جبل اغبر ورمل اعفر... يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات.

(٦ ــ ٧) الكتاني: كجري الشمس ــ تظهر به ــ ينابيعها.

(٧ ــ ٩) الكتاني: ... حتى إذا عج عجيجه وتعظمت أمواجه... لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض.

(٩) النخبة: في حقاف العقاب.

(٩ ــ ١٠) الكتاني: المراكب فإذا تكامل في الزيادة نكص.

(١١ ــ ١٩) الكتاني: شدته وطمى في حدته فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء وإذا هي زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لمايشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها.

(٢٠ ــ ٢١) الكتاني: ... أن لا يقبل قول خسيسها في رئيسها.

(٢١ ــ ٢٣) الكتاني: ... وأن لا يستادى خراج ثمرة إلا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها إذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف المال والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل.

(٢٤) الكتاني: ...

معاهدة مع أهل مصر

طب ص ٢٥٨٧ ـ ٨٩ ـ قلقش ج ص ٣٢٤

قابل بـع ع ٣٨٥

وانظر لين بول ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ـ بتلر (Butler, Treaty of Misr)

لما نزل عمرو بن العاص على القوم بعين شمس، وكان المُلك بين القِبط والنّوب، ناهدوه فقاتلهم؛ وارتقى الزبير بن العوام سورها ونزل عليهم عنوةً، فاعتقدوا بعد ما أشرفوا على الهلكة، فأجروا ما أخذوا عنوةً، مجرى ما صالح عليه، فصاروا ذمة وكان صلحهم: بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان، على أنفسهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبَرّهم وبحرهم. لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص، ولا يُساكنهم النوبُ. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف. وما عليهم ما جنى لُصوتهم. فإن أبى أحد منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم. وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رُفع عنهم بقدر ذلك.

ومَن دَخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم. وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى واختار الذهاب فهو آمِنٌ، حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً، في كلّ ثُلث جباية ثُلثِ ما عليهم.

على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.

وعلى النُوبة الذين استجابوا: أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على أن لا يُغزَوا، ولا يُمنَعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

شهد الزبير، وعبد الله، ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر.

(٨) قلقش: تساكنهم.

(١٠) قلقش: وعليه ممن جنى نصرتهم.

(١١) قلقش: الجزي.

(١٣ ـ ١٤) قلقش: النوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم.

معاهدات وقت فتح مصر

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٤٩ / الف

ـ الأموال لأبي عبيد، ع ٣٨٥

أبو عبيد... قال: سألت شيخاً من القدماء: هل كان لأهل مصر عهد؟ قال: نعم. قلت: فهل كان لهم كتاب؟ قال: نعم، كتاب عند طَلما صاحب إخنا، وكتاب عند فلان، وكتاب عند فلان. قلت: فكيف كان عهدهم؟ قال: عليهم ديناران من الجزية، ورزق المسلمين. قلت: أتعلم ما كان لهم من الشروط؟ قال: نعم، ستة شروط: أن لا يُخرَجوا من ديارهم، ولا يفزع نساؤهم ولا أبناؤهم، ولا كنوزهم، ولا أرضوهم، ولا يزاد عليهم.

... هم ستة شروط منها أن لا يُؤخذ من أرضهم شيء، ولا يزاد عليهم، ولا يكلّفوا فوق طاقتهم. ولا تؤخذ ذراريهم، وأن يقاتَل عدوهم من ورائهم.

قال أبو عبيدة: فقد اختلفت الأخبار في أمرهم، وأنا أقول: إن الأمرين جميعاً قد كانا، وقد صدق الخبران كلاهما. لأنها فُتحتْ مرتين. فكانت المرة الأولى صلحاً، ثم انتكست الروم عليهم، ففُتحت الثانية عنوة.

كتاب عمرو بن العاص في فتح الإسكندرية ثانياً

الأموال لأبي عبيد، ع ٣٨٧ ـ الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٤٩/ب

إن المقوقس الذي كان على مصر كان صالح عمرو بن العاص، فلم يرض به هرقلُ وبعث الجيوش فأغلقوا الإسكندرية وآذنوا عمرو بن العاص بالحرب. فقاتلهم، وكتب إلى عمر بن الخطاب:

أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى فتح علينا الإسكندرية عنوة وقسراً، بلا عهد ولا عقد.

كتاب عمر في عدم تقسيم مصر كالغنيمة

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٢١ / ب

سفيان بن وهب الخولاني يقول: فتحنا مصر بغير عهد. فقام الزبير بن العوام فقال: اقسمها يا عمرو بن العاص. فقال عمرو: لا أقسمها... حتى أكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه.

ولم يرو نص الكتاب.

فكتب عمر بن الخطاب أن:

أقررْها حتى يغزو منها [ما] حبل الحبلةُ.

حل رموز الاختصارات المستعملة في أوائل الوثائق

الف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
با... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبي يوسف.
ديب... الديبلي.
طب... تاريخ الطبري.
عمخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب واشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
ـ ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق او الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.

موسى بن نصير

هذه صفحة من حياة قائد عظيم كانت له اليد البيضاء في إنشاء دولة إسلامية رفعت لواء الإسلام في غربي أوروبا، ومدت فيه ظلال العدل، وبسطت أنوار العلم، والمدنية الباهرة، ذلك هو أبو عبد الرحمن موسى ابن نصير فاتح الأندلس.

يقول بعض المؤرخين: إن موسى ابن نصير من قبيلة لخم، أو من قبيلة بكر ابن وائل، وهو عربي صريح؛ وأشهر ما قيل فيه إنه كان مولى لعبد العزيز بن مروان.

نشأ موسى بن نصير في وادي القرى بالحجاز، وخدم بني مروان بدمشق، وتنبه شأنه فقلدوه أعمالا في ممالكهم. ويروى أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان لما ابتنى بها الوليد كانت ترفع عنده مكانة موسى بن نصير حتى بلغ ما سنحدثك عنه بتلخيص وإيجاز:

كان موسى بن نصير من التابعين، وولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٩هـ وأخذ عن بعض الصحابة كتميم الداري، وكان والده نصير على حرس معاوية بن أبي سفيان، وله عنده مكانة، ولكنه امتنع من أن يدخل معه في حرب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

عهد الوليد بن عبد الملك إلى موسى ابن نصير بولاية بلاد المغرب سنة ٨٨ أو سنة ٨٩، فنزل القيروان، وخرج فاتحا يقص أثر البربر لا يدافعه أحد حتى بلغ «طنجة» ودان له سائر البربر بالطاعة، فاستعمل على طنجة وأعمالها طارق بن زياد، وقفل راجعاً إلى القيروان.

ولما استتب له الأمر بالمغرب استأذن الخليفة في غزو الأندلس، فأذن له، وبعث إلى طارق فأمره بفتحها، فعبر طارق البحر ونزل بالجبل الذي سمي من بعد «جبل طارق» وانساب في أرض الأندلس بجيش مؤلف من اثني عشر ألف مقاتل، ففتح جانباً عظيماً من البلاد، وأبلغ موسى ما لاقاه، فلم يرتح موسى لانفراد طارق بفضل هذا الفتح الباهر، فحفزته الغيرة إلى أن تكون القيادة العملية بيده، فكتب إلى طارق يأمره بأن لا يتجاوز المكان الذي يصل إليه الكتاب فيه، حتى يلحق به؛ ولكن طارقاً استشار قواد الجيش فأشاروا بمواصلة الغزو خشية أن يجد جماعات المنهزمين من الأعداء فرصة التجمع والاتحاد ثم الكر على المسلمين، فأخذ طارق برأيهم ومضى في سبيله؛ ثم قدم موسى في جيش ضخم سنة ٩٣ واشتد في توبيخ طارق إذ خالف ما أمره به من وقف الجهاد.

ولما نجح موسى في غزو الأندلس طمحت همته إلى مواصلة الفتوحات حتى يتوغل في أحشاء أوروبا، وينفذ منها إلى القسطنطينية «الاستانة» حتى يصل إلى الشام. وانتهى خبر هذا إلى الخليفة فرأى أن ما همّ به موسى غرر بالمسلمين، فبعث ينكر عليه هذا الاتجاه، ويستدعيه وطارقاً إلى دار الخلافة، فأقام موسى ابنه عبد العزيز حاكماً بالأندلس، ودخل الشرق سنة ٩٥ يصحبه طارق، فوصلا إلى الشام. وها هنا يذكر المؤرخون أن الوليد طرأ عليه مرض ثقيل، ولما علم سليمان بن عبد الملك ولّي عهده بقرب وصول موسى أراد تأخير الاحتفال بقدوم فاتح الأندلس إلى أول خلافته حتى يكون له فخر هذا الفتح، فكتب إلى موسى يأمره بأن يؤخر قدومه إلى دمشق أياماً، ووافاه الكتاب وهو في طبرية فلسطين فلم يعمل به، ودخل دمشق في حياة الوليد.

ولما مات الوليد نكبه سليمان لمخالفته أمره بالمسارعة في دخول دمشق. ويذكر بعض



المؤرخين أن موسى بن نصير قدم على سليمان حين استخلف، وإنما نكبه لأن طارقاً سبق بالشكاية منه إلى سليمان ورماه بجولان يده في بعض الغنائم، فوجد سليمان ضغيناً عليه، واستقبله بالتأنيب، وعزله عن جميع أعماله. وههنا روايات في وصف نكبته لا تخلو من مبالغة فيما يظهر، ومن بين هذه الروايات رواية قد يؤخذ منها أن سليمان لم يتجاوز توبيخه وعزله عن جميع الأعمال؛ فقد جاء في تاريخ ابن خلكان ما يأتي: «ولما وصل موسى إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده سليمان وحج في سنة ٩٧ للهجرة، حج معه موسى بن نصير، ومات في الطريق بوادي القرى؛ وقيل بمر الظهران، على اختلاف فيه».

ثبّت موسى بن نصير دعائم الإسلام في بلاد المغرب، وكان يقصد من فتوحه نشر الدعوة الإسلامية لا بسط سلطان الدولة وحده، إذ ورد في أعماله الماجدة أنه كان يخصص رجالاً من العرب متفقهين في الدين لتعليم البربر القرآن وفرائض الصلاة، كما فعل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من قبله.

وكان موسى بن نصير معروفاً بالحزم واليقظة والدهاء، وقد شهد له بهذا عظيم من عظماء الدولة الأموية، وهو يزيد بن المهلب: يروى في سيرة موسى بن نصير أنه لما تنكر له سليمان بن عبد الملك، لاذ بيزيد بن المهلب لمكانته من سليمان وطلب منه أن يكلمه في شأنه، فقال له يزيد: لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا، فكيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار؟

فقال له موسى: يا بن الكرام ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت: «إذا جاء الحين غطى على العين»!.

كان موسى بن نصير ثاقب الفكر في وجوه السياسة الدولية والحربية، ويكفي شاهداً على هذا أنه ولي أمر ما وراء مصر إلى البحر المحيط، فأحكم تدبير شؤونه، وأخضع قبائل البربر، وفتح معظم بلاد الأندلس، ولم يهزم له جيش قط.

وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً؛ قال صاحب نفح الطيب: «أما معارفه الأدبية، فقد جاءت عنه بلاغة في النثر والنظم تدخله مع نزارتها في أصحاب در الكلام».

وكان عامر القلب بإجلال الخالق جل شأنه؛ وقع قحط شديد بالمغرب، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء لصلاة الاستقساء وخطبهم، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين الوليد؟ فقال: هذا مقام لا يذكر فيه غير الله!.

حفظ التاريخ لموسى بن نصير مقابلته لما قام به طارق من الفتح بشيء من الجفاء، ولكن ما حفظه له من الهمم الشامخة والأعمال الفاخرة، يغطي على تلك الهفوة ولا سيما هفوة جاءت في طريق طموحه إلى وضع لبنات جديدة في بناء مجده الأثيل.

وإذا كان سليمان بن عبد الملك قابل هذا القائد العظيم بجفاء واضطهاد، فإن قلوب الأمة على اختلاف طبقاتها، قد امتلأت بإكباره؛ والبطل الهمام من يرتاح لرضا الأمة أكبر من إقبال الدولة.

●

أسدود

قسم التوثيق والأبحاث

قرية عربية تقع شمالي الشمال الشرقي لغزة على الطريق الرئيسية للسهل الساحلي وترتبط بالقدس بطرق معبدة. فيها محطة سكة حديد يمر بها خط القنطرة ــ حيفا.

نشأت القرية على ربوة ترتفع ٤٢م فوق سطح البحر، وتبعد عن شاطىء البحر المتوسط نحو ٥ كم، وتبعد ٦ كم عن نهر صقرير الذي يمر بشمالها في طريقه إلى البحر المتوسط.

يرجع تاريخ أسدود، كما دلت الحفريات الأثرية الأخيرة، إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد، وسكانها الأولون هم العناقيون، وهم من القبائل الكنعانية التي سكنت الساحل الفلسطيني وجنوب فلسطين في العصور القديمة. وقد أطلق العناقيون على المدينة اسم «أشدود» بمعنى الحصن. وكانت أسدود منذ ذلك الزمن القديم ميناء هاماً ومركزاً تجارياً. وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد نزل الفلسطينيون الساحل الفلسطيني وجعلوا أسدود إحدى مدنهم الخمس الرئيسية، ومركز عبادة إلههم داجون، وفي حوالي عام ١٠٥٠ ق.م. هاجم اليهود أسدود، ولكن الفلسطينيين انتصروا عليهم انتصاراً باهراً في معركة رأس العين قرب يافا، واستولوا على «تابوت العهد» الذي كان يحفظ فيه اليهود شرائعهم، ووضعوه في هيكل داجون، وبعد ذلك بحوالي ثلاثة قرون هاجم عزاريا ملك يهودا المدينة مرة أخرى وهدم أسوارها.

وقد دلت الحفريات الأثرية التي جرت في الستينات من هذا القرن على أن أسدود الفلسطينية كانت على جانب كبير من الحضارة والغنى المادي. وقد اكتشفت فيها أختام كتبت بخط غير معروف وألواح وأوان دينية مختلفة. بيد أن وقوع المدينة على الطريق الساحلي الذي يصل بين سورية ومصر جر عليها كثيراً من ويلات الحروب، وخاصة تلك التي نشبت بين الآشوريين والمصريين ففي سنة ٦٣٤ ق.م. استسلمت المدينة إلى تغلات بلاسر الثالث ملك أشور. وفي سنة ٧١٥ ق.م. نشبت فيها ثورة ضد الأشوريين بتحريض من شاباقا فرعون مصر، فأرسل صارغون الثاني ملك أشور قواته لمحاصرتها، ودام الحصار أكثر من ثلاث سنوات تمكن في نهايتها (٧١١ ق.م.) من اقتحام المدينة وإخضاع ملكها، وأسكن فيها مستوطنين أشوريين. وأصبحت أسدود من ثم عاصمة لولاية أشورية. وفي عهد أشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٢٥ ق.م.) فرض بساميتكوس فرعون مصر الحصار على أسدود. ووصف المؤررخ هيرودوتس هذا الحصار بأنه أطول حصار في التاريخ، لأن المصريين لم يتمكنوا من أخذها إلا بعد ٢٩ سنة (٦٥٩ ــ ٦٣٠ ق.م.).

وفي القرن السادس قبل الميلاد كانت أسدود عاصمة الفلسطينيين مدينة مزدهرة للغاية مما جعل هيرودوتس يسميها «مدينة سورية الكبرى». ولما استولى الفرس على مصر في أواخر هذا القرن استولوا في طريقهم على أسدود وكل فلسطين. وقد قاوم أهالي أسدود إرجاع اليهود من بابل إلى القدس، وندد نحميا حاكم

القدس اليهودي الموالي للفرس بالفلسطينيين في أسدود الذين كانوا يتكلمون بلسان غير يهودي، وهاجم زواج اليهود من بنات أسدود الوثنيات.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد وقعت أسدود تحت سيطرة الاسكندر المقدوني وبقيت في العصر الهليني عاصمة لمنطقتها، وعرفت إذ ذاك باسم أزوتوس Azotus. وعلى الرغم من أن أسدود عانت النزاعات المستمرة بين البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر في مصر وسورية فإنها شاركت في ازدهار المدن في العصر الهليني.

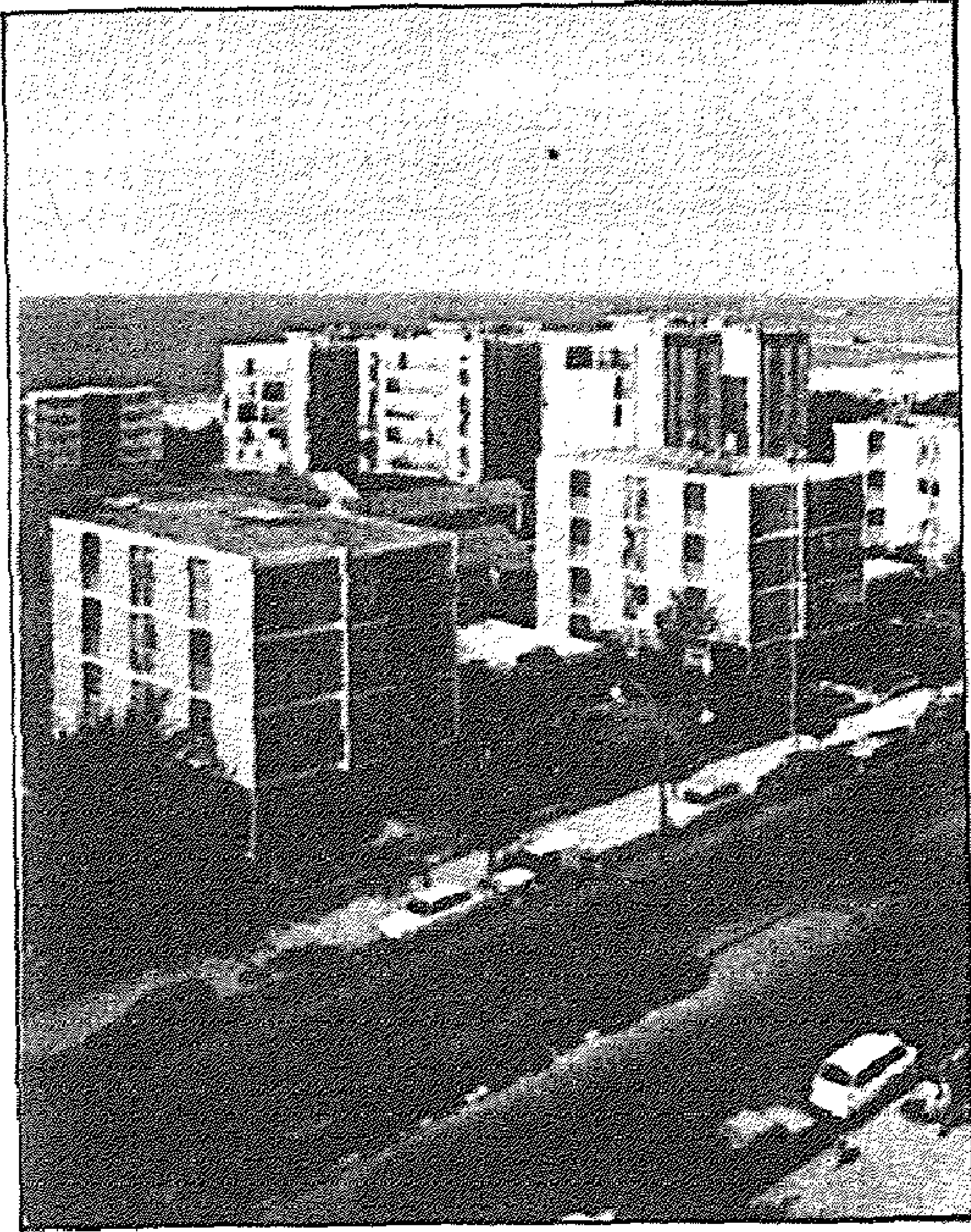
ولا شك، كما يقول العالم باير G.Beyer، «أن ضخامة المدينة، وكذلك اتساع المنطقة التابعة لها، كانا السبب الذي دعا اليهود الذين تسيطر عليهم شهوة التوسع إلى الانقضاض على المدينة في عهد المكابيين». ففي سنة ١٦٥ق.م. استولى المكابيون على المدينة وهدموا هياكلها وجعلوها، هي وضواحيها من قرى ومزارع، طعمة للنار.

وفي عام ٦٣ ق.م. دخل الرومان البلاد واستولى القائد الروماني بومبي على أسدود وجعلها جزءاً من ولاية سورية. ووجد الرومان أسدود مدينة مهدمة، فأعاد القائد غابينيوس بناءها سنة ٥٥ ق.م. وأرجع لها رونقها القديم. وما لبث أغسطس قيصر امبراطور روما أن وهبها هيرود الكبير الذي تركها بوصية منه إلى أخته سالومي Salomé. وأوصت سالومي بها إلى ليفيا Livia أخت أغسطس التي أورثتها بدورها الامبراطور طيباريوس.

في سنة ٣٨م تنصر سكان أسدود مع غيرهم من سكان الساحل الفلسطيني من أسدود إلى قيسارية. وفي القرن الرابع للميلاد كانت أسدود مركز أبرشية، واشترك أسقفها الأول سيلفانوس Silvanus في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

وفي عام ٤٠٠م كانت أسدود مركزاً لمقاطعة تشمل قرى كثيرة منها عاقر وقطرة وإدنبة.

وتدلنا خريطة مادبا على أنه كان هنالك في العصر البيزنطي، إلى جانب مدينة أسدود التي كانت تدعى أزوتوس هبوم Azutus Hippum مدينة أخرى هي أزوتوس بارالياس Azutus Paralias أو أسدود على البحر. وهذه المدينة الأثرية القديمة هي المعروفة باسم «مينة أسدود» أو «مينة القلعة»، كما سميت في العهد الإسلامي.



□أسدود الجديدة.

دخلت أسدود في حوزة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي. وقد ذكرها كتاب المسلمين القدامى باسم أزدود. ويذكر ابن خرداذبة في المسالك والممالك (القرن الثالث الهجري) أن «أزدود» كانت محطة على طريق البريد بين مصر والشام، ويذكر المقدسي في أحسن التقاسيم «أزدود» بين البلدان التي كان فيها ربط للمسلمين محصنة بالأبراج على الشواطىء الفلسطينية في القرن الرابع الهجري.

ويبدو أن أسدود فقدت أهميتها القديمة مع الوقت فلما احتلها الصليبيون في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي لم يجدوا فيها سوى قرية صغيرة. وقد عسكر الصليبيون سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م حول أسدود مدة ثلاثة أشهر. ويعتقد أن القائد الصليبي فولك الأنجوي حصن المدينة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م.

من الآثار الإسلامية في أسدود مسجد أقيم على مزار سلمان الفارسي الصحابي المعروف في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م. ومقام الشيخ إبراهيم المتبولي وهو ولي مشهور مصري الأصل رحل إلى أسدود إثر خلاف بينه وبين السلطان المملوكي قايتباي، ثم مات فيها

سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م. وقد عمر المقام سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م.

وفي أسدود أيضاً مقام يعرف بمقام أحمد ابـي الإقبال، وهو شخص لا يعرف عنه أهل البلدة شيئاً. وعلى مقربة من أسدود، وعند مصب نهر صقرير المجاور لها تلة صخرية عليها مقام للنبـي يونس. وكان في أسدود في أوائل القرن الحالي مسجد جامع يدعى جامع سيدي عامر. وفي هذا الجامع عمود رخامي أبيض قديم يسند أقواس البناية. وجنوبـي الجامع خرائب خان قديم جميل، وحول القرية في أماكن مختلفة عدد من الأعمدة المتكسرة المتناثرة وعدد من الخرب التي تضم آثاراً من بقايا أسدود القديمة.

كانت مساحة الأراضي التابعة لأسدود أيام الانتداب البريطاني ٤٧,٨٧١ دونماً، منها ١,٠١٦ دونماً للطرق والأودية و ٢,٤٨٧ دونماً ملكها الصهيونيون. وتتوافر مقومات الزراعة الناجحة في هذه الأراضي، لخصب التربة، وهطول الأمطار الكافية، ووجود الآبار التي تراوح أعماقها بين ١٦ و٢٤م. وأهم منتجاتها الزراعية الفواكه والحبوب، وبخاصة الحمضيات والعنب والتين والقمح. وكانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية للسكان، تتلوها حرفة التجارة، إذ كان يقام في أسدود كل يوم أربعاء سوق يؤمها سكان القرى المجاورة.

جذب موقع أسدود الهام وموضعها الطبيعي السكان للإقامة فيها، فنما عدد سكانها من ٢,٥٦٦ نسمة عام ١٩٢٢ إلى ٣,١٣٨ نسمة عام ١٩٣١، وإلى ٤,٦٣٠ نسمة عام ١٩٤٥. وتوسعت القرية عمرانياً حتى أصبحت مساحتها في أواخر الانتداب ١٣١ دونماً، يشغلها أكثر من ٨٥٠ بيتاً. واشتملت القرية على مسجدين ومدرستين واحدة للبنين وأخرى للبنات. بالإضافة إلى المحلات التجارية المختلفة.

دمر الصهيونيون القرية عام ١٩٤٨ وأقاموا على أراضيها مدينة وميناء أشدود.

المراجع:

— أحمد سامح الخالدي: أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، عمان ١٩٦٨.
— مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج١، ق٢، بيروت ١٩٦٦.
— خريطة فلسطين: مقياس ١: ٥٠,٠٠٠، لوحة أسدود.
— Barnabas. M.: Guide to the Holy Land. London 1923..
— Beyer. G: Zeitschrift des deutschen Palästina. Vereins. 1933.

● نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية ـ المجلد ١، ١٩٨٤.

الإسلام والجزية

● كتب عامل عمر بن عبد العزيز في مصر إليه أن الجزية قلت والسبب في ذلك دخول الإقباط في دين الإسلام، ويستأذنه في منعهم من دخول الإسلام فأجابه عمر بقوله: قبح الله رأيك، ما بعث محمد جابياً ولكن بعث هادياً.

كلمة للسيد جمال الدين

● (إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تتم به سعادة الأمم فإن قال قائل إذا كان الإسلام كما ذكرت فما بال المسلمين على ما ترى من الحالة السيئة فالجواب: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

كلمة للعماد الأصفهاني

● إني رأيت انه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن ولو أضيف كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص لجملة البشر.



رسائل الماجستير والدكتوراه

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأستاذ «فواز سعدون» عرض لأطروحته بعنوان: «الحركة الإصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني» ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد المجتمع.

الحركة الإصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني

أطروحة كفاءة - كلية التربية - الجامعة اللبنانية ١٩٧٨

بإشراف: د. كمال سليمان الصليبي

من المسلم به أن الاتحاديين، منذ استفحال سيطرتهم على مقاليد الأمور في استامبول بعد فشل ثورة آذار عام ١٩٠٩ ضدهم، دأبوا على انتهاج سياسة معادية للعناصر العثمانية غير التركية قوامها «التتريك» والتمييز العنصري. ولا شك أن التمييز الذي أخذ يلمسه العرب في عهد الاتحاديين فعل فعله في إثارة نقمتهم. وقد زاد في تقليل ثقة العرب بالاتحاديين وإخلاصهم، ان قادتهم كانوا من الماسونيين، وأن نفوذ اليهود كان متغلغلاً في صفوفهم. ومن جهة أخرى سيطر الاستعمار الالماني ثقافياً وفكرياً على قيادات حزب الاتحاد والترقي بواسطة النظريات العنصرية التي كان يصنعها «مفكرون» مرتزقة أمثال اليهودي الالماني ليون كاهون. مما سبب لأسباب متباينة المطالبة بالاستقلال الذاتي، بدت بوادرها في أجزاء مختلفة من الامبراطورية العثمانية، لا سيما في الجزيرة العربية ومصر ولبنان وسوريا.

وأشاعت الهزائم المتكررة التي منيت بها الدولة العثمانية قلقاً عميقاً على المصير العثماني ومصير الإسلام برمته، وخاصة ان تطورات الأمور كلها كانت تؤيد

تصميم الدول الأوروبية على التهام أراضي الدولة العثمانية واستعمارها. وكما يحدث عادة في حالات القلق العميق التي تعصف بالأمم نتيجة تعرض مصيرها للخطر بدأ رواج الشائعات، وأصبحت حاضرة ولاية بيروت نهبة للتحركات المثيرة للريبة، فكان قسم من الأهالي يتطلع إلى الاحتلال الفرنسي وقسم آخر يتطلع إلى الحماية الإنجليزية. ومن خلال هذا التشرذم برز تيار جديد قوامه عدد من المثقفين الذين درسوا في أوروبا، وعادوا إلى بيروت ودمشق ومدن عربية أخرى وهم يحملون في عقولهم اتجاهات قومية، ورغبة عامة في الإصلاح والعمل على نيل حقوق العرب وتطوير بلادهم.

عقد الإصلاحيون اجتماعاً لهم وتداولوا في أمور القضية الإصلاحية، وقرروا كتابة دعوات إلى المجالس لمختلف الطوائف لتنتخب ممثلين عنها يصيرون أعضاء في «جمعية عمومية إصلاحية» يناط بهم تمثيل مختلف فئات الأهلين وطوائفهم في السعي إلى الإصلاح، وسارعت المجالس الملية وانتخبت مندوبيها إلى الجمعية العمومية الإصلاحية، فصار بإمكان الإصلاحيين عندئذٍ أن يخطوا الخطوة الأخيرة على طريق الحصول على شرعية تمثيلهم للبيروتيين بالدعوة إلى اجتماع عام تاريخي للجمعية العمومية الإصلاحية، يحضره مندوبو مختلف الطوائف في ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣.

الصدام بين حركة الإصلاح والاتحاديين

«ومزق شمل كان مجتمعها بها
وولى بنوها هائمين، فأصبحوا
إلا أن جمع المفسدين مكسر

فسارت به النكباء والزعزع النكر
أقول بهم نظماً وأمرهم نثر
وجمع أولي الإصلاح لم يعره كسر»(١)

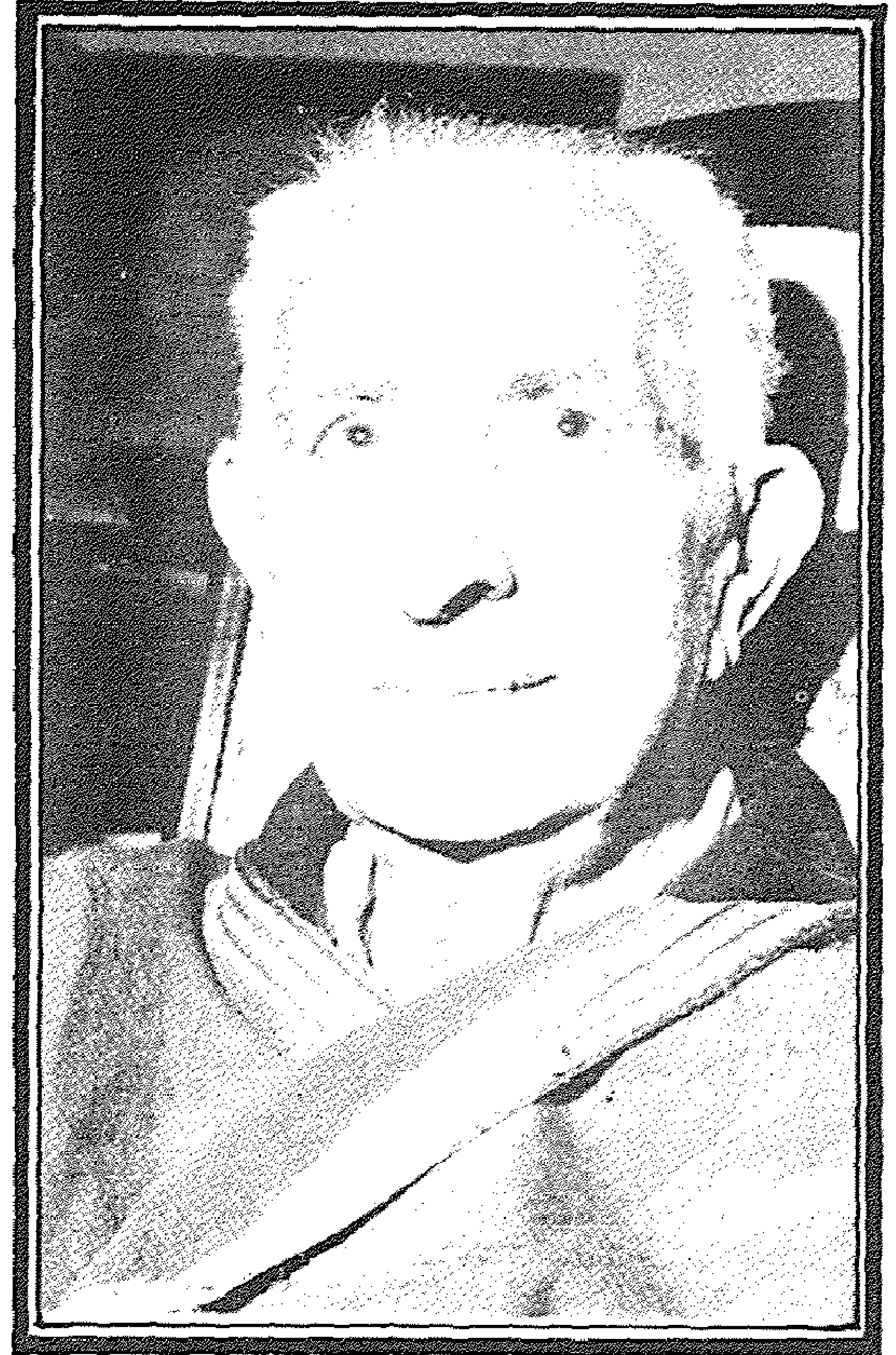
يمكن اعتبار شهر آذار ١٩١٣ إحدى الفترات الحاسمة في تاريخ الحركة الإصلاحية البيروتية، إذ، في هذا الشهر، قدر الإصلاحيون أن ينفذوا، بنجاح، مخططهم الهادف إلى مجابهة الحكم العثماني في ولاية بيروت عن طريق السعي إلى مقاطعته وإيقاعه في عزلة سياسية يجد نفسه، بها مجبراً على النزول عند المطالب الإصلاحية(٢).

وفي هذا الشهر أيضاً، افتتح الإصلاحيون مقراً رسمياً لحركتهم دعوة «نادي الإصلاح»، وذلك في جمع حافل ألقى عليه كاتم أسرار الحركة الدكتور أيوب ثابت بياناً عن أعمال الجمعية(٣)، كما ألقى شاعر الإصلاحيين البيروتيين «الأستاذ الغلاييني»، في هذا الاجتماع، قصيدة حماسية نثبت منها الأبيات التالية التي تعطينا فكرة عن (الحالة النفسية) لقطاعات مهمة من الأهلين، في تلك الأيام:

«لا شيء عن طلب الإصلاح يثنينا
ولا القواضب عن مغناه تلوينا
لا خير بالعيش والنيات فاسدة
يحوطنا البؤس واللأواء ترسينا
لا تستقر لنا حال نسر بها
حتى نساء بأخرى بعد تشجينا
كأننا - بين احزاب الهوى - كرة
وغيرنا صولجان الأمر يزجينا
تساق - كالثلة العجماء يحفزها
صوت الدعاة - إلى ما ليس يجدينا»

إلى أن يقول:

فحسبنا ما مضى يا قوم، فانصرفوا
نحو الذي لذرى الآمال يعلينا
فقد عرفنا - آوان الدهر عرفنا -
ما كان عن سنن الإصلاح يدحينا
فالقوا بين أشتات القلوب على
الإصلاح نقطف من الجزات ما شينا



□ محمد جميل بيهم.

الصدارة العظمى، ونظارة الداخلية، وإلى صحف العاصمة وإلى بعض رجالات استانبول، مع احتجاج على القانون الجديد الذي يرمي إلى «توسيع مأذونية الولاة التي هي عبارة عن منح السلطة إلى أفراد قد يسيئون استعمالها»(٧).

كما انتخبت «الهيئة الإصلاحية»، في ٢٠ آذار ١٩١٣ عميدي الطائفتين الإسلامية والمسيحية في بيروت، محمد بيهم ويوسف سرسق رئيسا شرف لها(٨).

كما تسلمت الهيئة الإصلاحية في هذا الشهر اقتراحاً «بالاندماج» مع حركة اللامركزية في مصر(٩).

وفي الرابع والعشرين من شهر آذار، كذلك، أرسل الوالي حازم بك «اللائحة الإصلاحية» إلى استانبول، فأبرقت الجمعية العمومية الإصلاحية «إلى الصدارة العظمى وإلى نظارة الداخلية تطلب منهم استصدار أوامر بتنفيذها»(١٠).

لم يمض أسبوعان، تقريباً، على إرسال حازم بك للائحة الإصلاحية إلى العاصمة، حتى



□ سليم علي سلام.

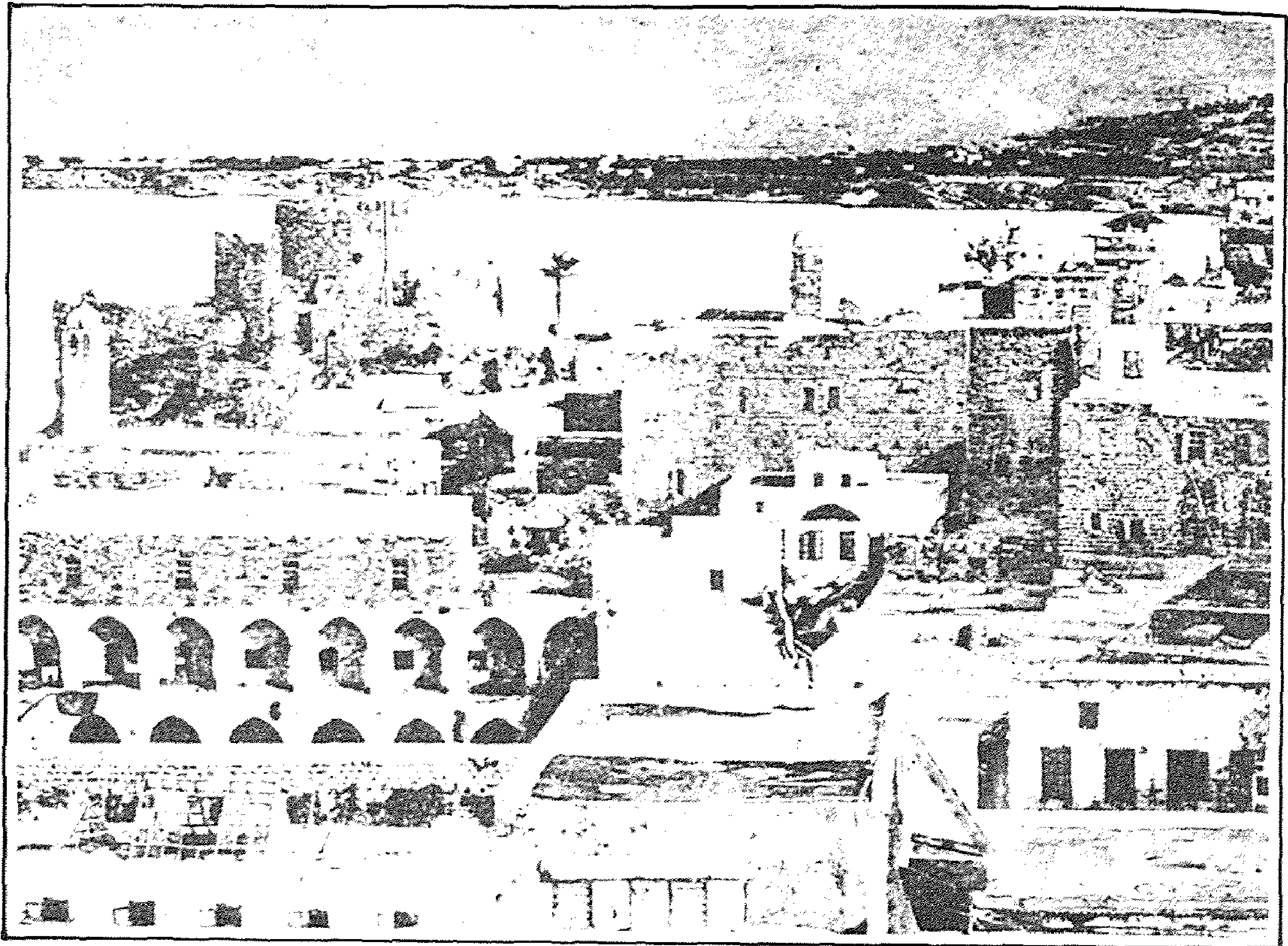
وينهض الوطن الكابي بعثرتنا
إلى العلى وننل اقصى امانينا
حادثك يا مبتغي الإصلاح فاد
ية متانة الغيث تسقينا فتروينا
آمين آمين لا نرضى بواحدة
حتى نضيف عليها الف آمينا(٤)

* * *

وفي شهر آذار أيضاً، وقع سراً، أول «انشقاق» في حركة الإصلاح بإقدام كاتم أسرار الجمعية، الدكتور أيوب ثابت، واحد مديريها المسؤولين المحامي بترو طراد، مع نفر من الإصلاحيين النصارى الآخرين، على تقديم وثيقة سياسية، إلى القنصل الفرنسي المقيم في بيروت، تتناقض روحاً ونصاً وأهداف حركة الإصلاح(٥).

وفي شهر آذار أيضاً قبل أعضاء جدد ذوو أهمية، في حركة الإصلاح واستطاعت الحركة أن تستحوذ على استحسان قطاعات مهمة من الأهلين وتأييدهم(٦).

وفي هذا الشهر أيضاً، أرسلت اللائحة الإصلاحية، مترجمة إلى اللغة التركية، إلى



□ منطقة بيروت المطلة على البحر ويبدو خان الملاحة وزاوية سيدي البدوي بالقرب من جمرك بيروت بجانب خان البربير وقلعة بيروت ومسجد الدباغة.

فوجىء البيروتيون بالوالي يصدر قرارا يحل بموجبه، الجمعية الإصلاحية، ويمنع اجتماعاتها ويغلق ناديها، وذلك في ٨ نيسان ١٩١٣ وفيما يلي نص القرار:

بلاغ رسمي،

«بما أن الجمعية التي تشكلت منذ شهرين ونصف من بعض الذوات في بيروت باسم الجمعية العمومية الإصلاحية، والتي اتفق أن أعطي لها علم وخبر من مقام الولاية قد كان تشكيلها مغايرا أساسا للمنوعية الصريحة التي نص عليها قانون الجمعيات فضلاً عن أن بعض المطالب التي أخذ هؤلاء يطالبون بها باسم الإصلاحات هي منافية أيضاً لأحكام القانون الأساسي، وبناء عليه، فقد صار من الطبيعي منع دوام واجتماع هذه الجمعية.

هذا وقد شرع بتطبيق قانون إدارة الولايات الذي نظمته الحكومة السنية وفقاً لقاعدة توسيع المأذونية وتفريق الوظائف التي نصت عليها المادة المابة والثامنة من القانون الأساسي، وصدرت إرادة الحضرة العلية السلطانية بمراعاة أحكامه، فجاء جامعاً للمساعدات الواسعة التي تتطلبها الإصلاحات المطلوبة لبيروت ولسائر الولايات العثمانية، ومتضمناً الأحكام المخصوصة التي تؤمن الاحتياجات الخصوصية لكل ولاية. على أنه من الثابت فعلاً بنشر مثل هذا القانون المخصوص المتكفل بحصول الإصلاحات التي تود الحكومة السنية إنفاذها بصورة جدية أنه إذا وجدت بعض النواقص عند تطبيق أحكامه الفرعية فلا شك أن الحكومة السنية تتم هذا النقص بالاشتراك مع مجلس المبعوثين الذي سيجتمع قريباً إنشاء الله، وبناء عليه نعلن أنه قد منع، بموجب القانون اجتماع الجمعية المذكورة التي ليس لها ذات كيان قانوني، ولم يبق محل حاجة لدوامها بعد الآن، وإذا تصدى القائمون بها للاجتماع خلافاً للمأمول، نتضطر الحكومة لإجراء ما يقتضيه القانون



□ بيترو طراد.



□ أيوب ثابت.

بحقهم من المعاملات.

في ٢٦ مارت سنة ١٣٢٩ والي
ابو بكر حازم[١١]

بعد ظهر اليوم نفسه، ٨ نيسان ١٩١٣، الذي نشر فيه الوالي هذا القرار قام باستدعاء مديري الجمعية المسؤولين عنها: سليم أفندي علي سلام والمحامي بترو طراد، وأخبرهما: «أن الحكومة أمرت بقفل النادي ومنع اجتماع الجمعية الإصلاحية لأن الحكومة قررت تطبيق قانون الولايات الجديد، وأن إعطاء الرخصة كان لا لزوم لها»، فرد عليه الزعيمان الإصلاحيان قائلين: «إن الجمعية الإصلاحية قد تشكلت بصورة مطابقة» فأجابها الوالي «بلى وجود مثل هذه الجمعية لا لزوم له في مثل هذه الأيام، وخصوصاً بعد أن أخذت الحكومة على عاتقها تطبيق قانون الولايات الجديد». واشتد الجدال بيننا وبين الوالي وبينا له وخامة العاقبة فيما إذا بقي مصراً على قراره هذا، فلم يقنع وبقي مصراً على فكره فتركناه وذهبنا لنادي الجمعية الذي كان غاصاً بقسم عظيم من الأهالي، وبلغناهم ما جرى، وقد استقر رأي الجميع على إرسال البرقيات للسلطان الأعظم ومقام الصدارة. ولقد رأت إدارة النادي من الحكمة مسايرة أوامر الحكومة برفع شارة النادي...

وكانت الحكومة علمت بوقع هذه الضربة على الأهالي، واحتاطت للأمر، وأكثرت من الدوريات حتى أنزلت للأسواق العساكر النظامية. وصدرت ثاني يوم الجرائد وكلها بيضاء، ولم يكن بها سوى بلاغ الولاية، وذلك احتجاجاً على مخالفة الوالي للقانون، وأخذت الجرائد تعبر عن أفكار الأهالي باستهجان هذا العمل المخالف للقانون وعليه أخطرت من الديوان العرفي بلزوم اطلاعه عليها قبل نشرها وبالحقيقة أن الهياج أخذ مأخذه»[١٢].

في ١١ نيسان ١٩١٣، أي بعد نشر وتنفيذ قرار الحل بثلاثة أيام عقدت «الجمعية العمومية الإصلاحية» اجتماعاً في القاعة الكبرى في «الكلية

السورية»[١٣] اتخذت فيه قراراً بالدعوة إلى إضراب عام في اليوم التالي احتجاجاً على قرار حازم بك. كما نشرت «الهيئة الإصلاحية» البيان التالي:

احتجاج
لجنة الجمعية العمومية الإصلاحية في بيروت
على الأمر الصادر بحلها من حضرة الوالي.

إن الخطوب التي ألمت بالوطن العثماني، فخفضت من عظمته وذهبت بشطره لم يكن لها سبب غير التمادي في سوء الإدارة والإصرار على الخطأ في السياسة. ولما تفاقم هذا الأمر واستولى الخوف على قلوب المخلصين من رجال الدستور في عهد الوزارة السابقة من استطالة الأطماع إلى بقية الأطراف السالمة حتى الآن، بادروا إلى الرجوع عن الغلط، وهموا بسلوك الطريقة المثلى في الحكم، ونشر الإصلاح الإداري في كل قطر من أقطار المملكة سداً للذريعة وقطعاً للأسباب التي يتمسك بها أصحاب الأغراض من الأجانب.

ولقد كانت لبيروت فضيلة السبق إلى التصريح بحقيقة الحال، فلقي تصريحها من رجال الوزارة إذ ذاك آذاناً مصغية وقلوباً واعية.

وبذلك الباعث ولهذا الفرض تألفت جمعيتنا العمومية بانتخاب المجالس المالية ووضعت برنامجها، وأخذت الرخصة القانونية، وعقدت اجتماعاتها الأولى في دار المجلس البلدي على مرأى ومسمع من الحكومة. فمصادرة الحرية الاجتماعية وخنق الفكرة الإصلاحية على النحو الذي جرى عليه حضرة الوالي بحل الجمعية الإصلاحية، فضلاً عن أنه مناف لأحكام القانون الأساسي فهو يعتبر بنظر العالم المتمدن ضغطاً على الاستقلال الشخصي وحرية الفكر.

إن الجمعية الإصلاحية في بيروت جمعية فكرية لا جمعية انقاذ بالقوة والعنف. فعلى فرض مخالفة رأيها في الإصلاح لرأي الحكومة، فإنما يحق للحكومة عدم العمل بآرائها، ولكن لا حق لها بمصادرتها لذلك فنحن نحتج أمام الوطن والتاريخ على عمل حضرة الوالي هذا الذي عبث فيه بمصلحة الوطن وخالف أحكام الدستور ونيات جلالة السلطان الأعظم.

محمد ابراهيم طبارة، جان حبيب بسترس، سليم علي سلام، كامل الصلح، مختار بيهم، رزق الله أرقش، أحمد حسن طبارة، حسن الناطور، عبد الباسط فتح الله، خليل زينية، البير سرسق، محمد الفاخوري، يوسف الهاني، سليم البواب، جميل الحسامي، حبيب فرعون، باترو طراد، عبد الحميد الغندور، جان نقاش، اسكندر العازار، ابراهيم الحكيم، الدكتور أيوب ثابت، جرجي رزق الله، فؤاد حنتس»[١٤].

كما أرسلت برقية إلى الصدارة العظمى ووزارة الداخلية موقعة من نحو ٥٠٠ بيروتي[١٥] يتألفون من «ملاكين وتجار وصيارفة وأطباء ومحامين وصحفيين وأدباء» يشتكون فيها من قرار الوالي ويؤكدون شرعية تمثيل الجمعية العمومية الإصلاحية للبيروتيين، وينوهون بأن أعضائها من خيرة أبناء العائلات الذين ما زالوا منذ مئات من السنين يخدمون الدولة بنيات صادقة وبكل قواهم». كما يتبنى الموقعون على هذه البرقية المطالب الإصلاحية على انها «مجرد حاجيات وضعتها اللجنة إظهاراً لرغائب الأهالي»، وبعد التنديد بالأمر الذي استصدرته الولاية بحل الجمعية تنتهي البرقية بالتعبير عن الاحتجاج على هذا العمل «بكل قوانا» وفيما يلي نص هذه البرقية:

«الاحتجاج الكبير
من لدن البيروتيين
على مصادرة الجمعية الإصلاحية وإقفال النادي الإصلاحي»
إلى مقام الصدارة ونظارة الداخلية ونسخة منها إلى
جريدة «اقدام»

«نحن الموقعين بذيله ملاكين وتجار وصيارفة وأطباء ومحامين وصحافيين وأدباء وغيرهم من كافة طبقات الشعب وجميع الطوائف في بيروت نعرض لفخامتكم أن الحكومة المحلية أصدرت في ٢٦ مارس سنة ١٩١٣ أمراً إدارياً بحل الجمعية العمومية الإصلاحية في بيروت وإقفال ناديها بحجة أن تشكيلها كان مغايراً للممنوعية الصريحة التي نص عليها قانون الجمعيات وأن العلم والخبر المعطي لها من مقام الولاية كان إعطاؤه اتفاقاً، فضلاً عن أن بعض المطالب التي طالبت بها باسم الإصلاحات هي منافية أيضاً لأحكام القانون الأساسي. على أن الحقيقة هي أن الجمعية المشار إليها ليس في القانون ما يمنع



□ أحد أسواق بيروت العثمانية الكائن وراء الجامع العمري الكبير.

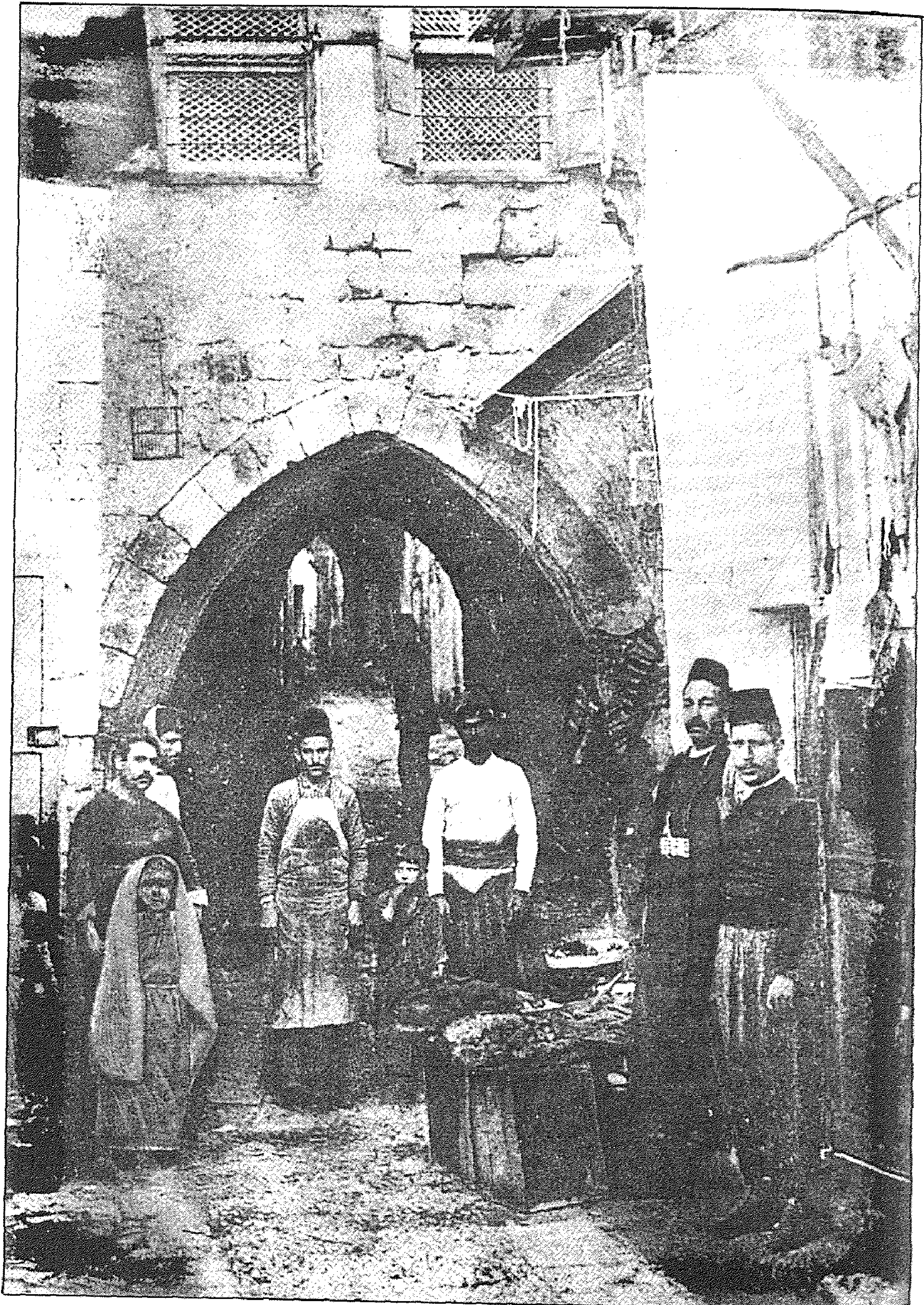
تشكيلها، وهي قد تألفت برضى الحكومة المحلية ونالت منها الإجازة الرسمية. وقد كان انتخابها من قبل المجالس المالية والرؤساء الروحيون لجميع الطوائف في بيروت وأعضاؤها من خيرة أبناء العائلات الذين ما زالوا منذ مئات من السنين يخدمون الدولة بنيات صادقة وبكل قواهم. أما دعوى الحكومة بأن بعض المطالب التي ذكرتها الجمعية في لائحتها الإصلاحية مغايرة للقانون الأساسي، ففضلاً عن أنه لا دليل على صحتها ولا المطالب المنوه عنها معينة لنرد عنها رداً خاصاً فليست لائحة الإصلاح إلا مجرد حاجيات وضعتها اللجنة إظهاراً لرغائب الأهالي وعرضها على حكومتهم.

فبناء على ما تقدم يتضح لفخامتكم أن الأمر الذي استصدرته الولاية بحل الجمعية مبني على اعتراضات وأوهام لا أساس لها، فضلاً عن أنه مناف لأحكام القانون الأساسي منافاة تامة ولآمال الأمة ولمصلحة السلطنة، ولذلك فنحن نحتج على هذا العمل بكل قوانا، ونلتمس إصدار أمركم العاجل إلى مقام الولاية بإلغاء أمرها بمنع الجمعية عن الاجتماع صوناً لحرمة القانون الأساسي الذي باسمه قد أجريت هذه المفايدة القانونية ومحافظة على اسم الحكومة الدستورية وكرامة الأمة التي يؤسفها مثل هذا العمل»(١٦).

إضراب بيروت:

في مساء الحادي عشر من نيسان، شاع في البلدة أن الأهالي قرروا تنفيذ الإضراب العام في اليوم التالي، ووصل ذلك إلى مسامع الوالي «فأرسل منادين ينادون في الأسواق طالبين باسم حكومة الولاية من الأهالي عدم إقفال محلاتهم، مهدداً إياهم بالجزاء الشديد إذا خالفوا إرادته». وفي صباح ١٢ منه ألصق على جدران المنازل والحوانيت الإعلان الآتي:

«قد شرعت ولاية بيروت بتطبيق القانون المخصوص الحاوي على المساعدات الواسعة ضمن أحكام القانون الأساسي والصادر بمراعاته (؟ أمر؟) الوزارة السنية الشاهانية، والذي قصد به الباب العالي إجراء الإصلاحات لجميع الولايات العثمانية. وفهم من الآثار المشهودة والاستطلاعات المخصوصة أن البعض أخذوا بعرقلة معاملات الحكومة ومصالح العباد، وهم لا يزيد عددهم عن الخمسة أو الستة، وأشاعوا بين الناس أنهم إذا أقفلوا حوانيتهم يتخلصون من العسكرية وبعض التكاليف وشوقوهم لعدم فتحها. لا جرم أن الذين يشتركون بحركات هؤلاء يستلزمون الجزاء الشديد. «ثم يذهب بيان



□ جمهرة من البيارتة أمام باب «بوابة» يعقوب أحمد أبواب سور بيروت القديمة.



□ ساحة السبيل الحميدي (ساحة رياض الصلح فيما بعد) والهول ـ السوق المسقوف، ويظهر وراءه السراي والثكنات.

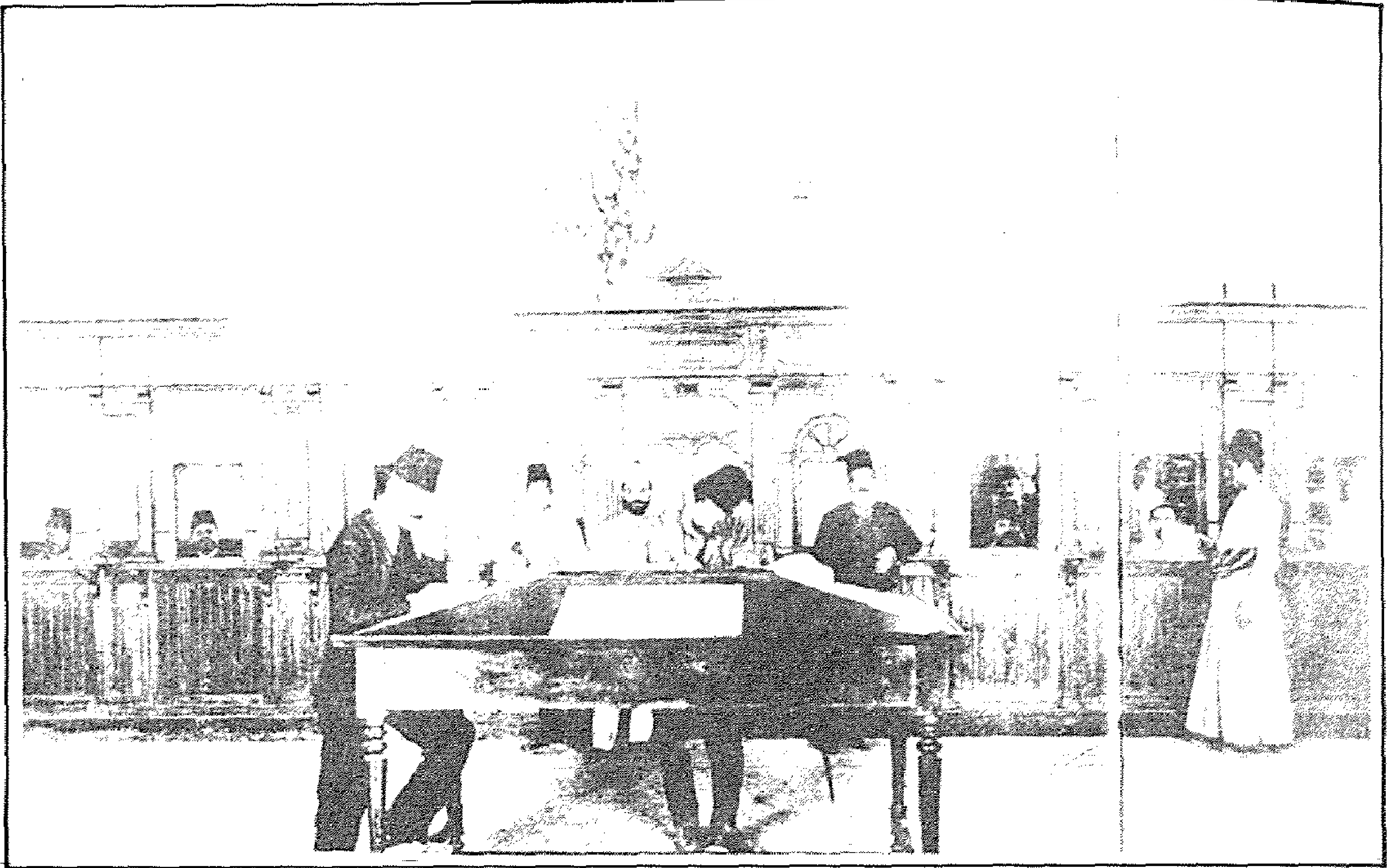
الوالي إلى نصح الأهالي» بأن يتجنبوا حركات كثيرة توجب العقاب ويوصيهم بمعاطاة أعمالهم كالعادة مع الخلود إلى السكينة»(١٧).

وفي مساء الجمعة ١١ نيسان أيضاً أمر الوالي «بتوقيف نفر من وجهاء النفر وأدبائه بتهمة أنهم كانوا يشوقون أصحاب المخازن والدكاكين إلى إقفال محالهم يوم السبت التالي.. بدأت إدارة البوليس باستحضار الوجيه الفاضل الشيخ اسكندر أفندي العازار، شيخ الأدباء والمفكرين الذي لا يخفى على أحد منزلته في الفضل والنبل، ثم سليم أفندي طبارة ورزق الله أفندي أرقش، وهما من ذؤابة شبان النفر ومن أركان النهضة الإصلاحية، واستحضرت أيضاً مختار أفندي ناصر»(١٨).

في يوم السبت، ١٢ نيسان ١٩١٣، نفذ الإضراب العام الذي دعا إليه الإصلاحيون بنجاح كبير «وأقفلت المدينة بأجمعها احتجاجاً على عمل الوالي.. إلا البعض من باعة الخضر والخبز. وقد كان البوليس شرع يقيد أسماء المقفلين محلاتهم فخافه أحد الظرفاء وقال له: لو عمدتم لقيد أسماء الفاتحين لهان الأمر عليكم»(١٩).

في يوم السبت هذا عمدت السلطات إلى «توقيف مديري جرائد الاتحاد العثماني والنصير والمفيد» طيلة نهار ذلك اليوم، ووجهت إليهم(٢٠) أسئلة تتعلق بعلاقاتهم بالجمعية الإصلاحية وبآرائهم في قانون الولايات الجديد، كما صادرت السلطات صحيفتي «الاتحاد العثماني» (ومدير تحريرها أحمد طبارة) والمفيد (ومدير تحريرها عبد الغني العريسي)(٢١).

لا شك أن الإضراب العام الذي نفذه معظم البيروتيين ابتداء من ١٢ نيسان ١٩١٣ كان ذا مغزى هام وهو: «أن مريدي الإصلاح وأنصار الجمعية الإصلاحية في بيروت هم كل القوة المعنوية في المدينة»(٢٢). ولم يفت ذلك المغزى حكومة الولاية، إلا أن «الخطة البديلة» التي لجأ إليها الوالي أبو بكر حازم بك والتي كان القمع سداها والإرهاب لحمتها، وذلك أثر فشل خطة الاحتواء والإغراء بالمناصب لم تكن، تلك «الخطة البديلة» من بنات أفكار حازم بك، وإنما جرى



□ أحد المكاتب الداخلية لمركز (البريد) البوسطة العثمانية في منطقة خان انطون بك.

الاتفاق عليها بين هذا الأخير وبين رؤسائه في استانبول قبل مغادرته العاصمة إلى حاضرة الولاية التي أنيطت به. وسرعان ما جاء رد الحكومة المركزية على احتجاجات البيروتيين يحمل طابعاً أشد صرامة من طابع إجراءات حكومة الولاية»[٢٣].

وكان على «صورة تلغراف وارد من الصدارة جواباً على تلغراف الأهالي وهذه ترجمته: أخذنا تلغراف من بيروت محتوياً على كثير من تواقيع بخصوص طلب الترخيص للجمعية الإصلاحية للاجتماع مجدداً. إذا كان للأهالي أفكار ومطالب بحق الإصلاحات فينبغي طبعاً أن يطلب ذلك المبعوثون في مجلس المبعوثان، حتى إذا حاز طلبهم الأكثرية بوضع موضع التطبيق. إن تشكيل الأهالي جمعيات لهذه الغاية وتصديهم لمثل هذه المطالب هو مغاير للقانون، ومن الضروري عدم إجبار الحكومة لذلك قطعياً. إن الحكومة نشرت ما يمكن تطبيقه من القوانين بخصوص الإصلاحات، وهي الآن مشتغلة بترتيب وتنظيم غير ذلك من القوانين. فبكمال الأهمية نوصيكم بأن تفهموا الكيفية لمن يلزم، وأن تودعوا بديوان الحرب العرفي حالاً من يتجرأون على القيام بحركات مغايرة للقانون وأن تجروا بحقهم حالاً حكم القانون الذي ينبغي إصداره في ظرف ساعة أو ساعتين. وقد كتب إلى السلطات العسكرية أيضاً بما يقتضي من الوصاية المؤثرة ٢٠ مارس ١٩١٣.

الصدر الأعظم»[٢٤]

وأثارت برقية الصدر الأعظم خيبة أمل واسعة في صفوف أهالي بيروت الذين كانوا يعلّلون نفوسهم باستجابة الحكومة المركزية لاحتجاجاتهم ومطالباتهم كما كانت هي الحال مع معظم الحكومات السابقة في الحقبة التي تلت انقلاب ١٩٠٨. كما أن هذه البرقية لم تكن إلا لتزيد الأهالي هيجاناً وخصوصاً ما حوته من عبارة إصدار الحكم في ساعة أو ساعتين، وذاتا الأهالي كانت بهيجان نظراً لما أصدره الوالي في مساء الليل الماضي من القبض على بعض الأفندية»[٢٥]. ولتدارك الموقف حصل اتفاق، من حيث المبدأ، بين محمد أفندي بيهم عميد الطائفة الإسلامية ويوسف سرسق عميد الطوائف المسيحية وبين الوالي أبي بكر حازم بك «على أن يترك سراح الموقوفين وهم يشوقون الأهالي لفتح المدينة»[٢٦]. وسارع الوالي إلى إرسال التلغراف

التالي بتاريخ ٣١ مارس/١٤ نيسان «إلى جانب الصدارة العظمى ونظارة الداخلية: «أتى إلى هذا العاجز بصورة مخصوصة أكبر ممتازي وإشراف ومعتبري البلدة نظير محمد بك بيهم ويوسف بك سرسق والتمسوا إخلاء سبيل الأشخاص الخمسة الذين جرى توقيفهم وتسليمهم إلى ديوان الحرب مظنوناً عليهم بإجراء التهديدات والتشويقات لإقفال الدكاكين وقد أعطونا تأمينات بأنه لا تحدث بعد الآن أمثال هذه الحركات قطعياً، وبما أني أرى هذه الصورة موافقة استرحم الفضل بالمساعدة لإخلاء سبيلهم»(٢٧).

وجاء رد الصدر الأعظم بالموافقة على إطلاق سبيل الموقوفين في شكل التلغراف التالي:

«موافق إخلاء سبيلهم حسب تنسيبكم العالي بشرط أن تتخذوا تأمينات إشراف ومعتبري البلدة بخصوص عدم حدوث شيء بعد الآن من أمثال هذه الأحوال والحركات بمثابة سند عليهم في ٣١ مارس سنة ١٩١٣.

الصدر الأعظم وناظر الحربية
محمود شوكت(٢٨)

وفي مساء الأحد ١٣ نيسان ١٩١٣ «عقد المجلس العرفي جلسة قرر فيها تبرئة الذوات الموقوفين بتهمة التشويق إلى إقفال البلدة يوم السبت فخرجوا من هذه التهمة أبرياء الساحة أنقياء الصفيحة. وقد كان ينتظر خروجهم من محل توقيفهم جمهور عظيم من الأعيان والوجهاء الذين تلقوهم بعد تسريحهم بوافر الابتهاج. أما إطلاق سبيلهم فقد كان مبنياً على أمر برقي من الأستانة.

وفي تلك الليلة انعقد اجتماع كبير من أعيان البلدة وذوي الرأي فيها في منزل الوجيه الكبير يوسف أفندي سرسق وأسفر الاجتماع عن وجوب تشويق الجمهور إلى فتح مخازنهم ومحالهم يوم الأثنين»(٢٩). ولكن بسبب تأخر إطلاق سراح المعتقلين الخمسة إلى ما بعد العاشرة ليلاً، فلم يعلم به أكثر الأهالي، وبسبب «أن الاستياء الذي شمل أهل النفر من إقفال نادي الجمعية الإصلاحية كان بالغاً حداً قصياً حتى أن أصحاب الأشغال لبثوا مصرين على إضرابهم عن العمل». بقيت الأسواق التجارية، يوم الأثنين ١٤ نيسان، «مقفلة خالية من الحركة كأنها قفر بلقع. هذا رغماً عما كان يبذله بعض الوجهاء من الجهد في إقناع أصحاب الأشغال بتعاطي أعمالهم في النهار المذكور»(٣٠) واضطر بعض القيادات الإصلاحية أن يطوف بالتجار راجياً منهم أن يفتحوا محلاتهم «وبالجهد الجهيد حتى تمكنا من إقناعهم بفتح محلاتهم»(٣١)، كما وزع محمد أفندي عبد الله بيهم ويوسف أفندي سرسق عميدا الطائفتين الإسلامية والمسيحية بعد ظهر الأثنين النشرة التالية:

أيها الأخوان،

نرجوكم بلسان الإنسانية والمرؤة وبشرف الوطن المقدس أن تعودوا لأشغالكم وتفتحوا محلاتكم التجارية وبهذا العمل تكونوا برهنتم على وطنيتكم العثمانية الصادقة وإطاعة أوامر الحكومة السنية حيث لا يجوز بوجه من الوجوه قطعياً ترك المحلات مقفلة لأنه يعود بالضرر على الوطن العزيز فكل من كان عنده محبة لوطنه يجب عليه المساعدة بذلك وأن يظهر استعداده التام لمساعدة الحكومة السنية وإطاعة أوامرها المقدسة.

يوسف سرسق

محمد عبد الله بيهم(٣٢)

والواقع أن الإضراب لم ينته تماماً إلا صباح الثلاثاء وذلك صباح الأثنين بينما كثير من أصحاب الأشغال كانوا قد بدأوا بفتح محالهم، شرع بعض ضباط الجندرمة بحضور الجمهور على فتح الأسواق بكلام جاف وصورة ممقوتة، أثارت غضب الناس، وحملتهم على الرجوع عن عزمهم. وهكذا كانت النتيجة فإن الذين كانوا فتحوا عادوا فأقفلوا، والذين كانوا حضروا لهذا الغرض نكصوا راجعين إلى بيوتهم»(٣٣).

إن الاتفاق الذي حصل بين الإصلاحيين والوالي لا يمكن اعتباره الفصل الختامي من حياة الحركة الإصلاحية في بيروت.

وإذا كان صحيحاً أن الإصلاحيين خسروا معركة المجابهة الأولى بينهم وبين السلطة العثمانية، فحلت جمعيتهم وأغلق ناديهم ومنعت اجتماعاتهم وخابت آمالهم بتنفيذ الحكومة المركزية لمطالب لائحتهم، فإنهم خرجوا من هذه

المعركة بنتيجة هامة وهي أن الجمعية الإصلاحية في بيروت هي كل ما في بيروت من القوة المعنوية(٣٤)، وخرجوا منها وهم أقوى ما يكونون في ظل عدم تجرؤ السلطات على تجريم أحد منهم أو بقائه رهن الاعتقال. وعلينا ألا ننسى أن الحركة الإصلاحية لاقت، في بداية أمرها تشجيعاً من السلطة الائتلافية. وعندما سقط الائتلافيون من مراكزهم استمرت الحركة الإصلاحية دون أن تعدل شيئاً من خطها ومسارها، بل ازدادت تصلباً في أيام الحكم الجديد الذي كان حكماً عسكرياً أكثر منه مدنياً. وفي ظل كل المعطيات الجديدة التي أفرزها صدام نيسان ١٩١٣ لم يكن غريباً أن يصرح أحمد مختار بيهم أحد أبرز الزعماء الإصلاحيين في بيروت قائلاً: «إننا لا نفتر عن طلب الإصلاح بجميع الوسائط المشروعة ما دام فينا عرق ينبض لاعتقادنا أن به وحده حفظ البلاد وحياتها»(٣٤). ●

الهوامش

(١) من قصيدة للشاعر «الأستاذ الغلاييني» الذي يصح اعتباره مع بعض التحفظ، شاعر الحركة الإصلاحية.

(٢) بدأ تنفيذ المخطط الإصلاحي «ميدانياً» منذ اللحظة الأولى لوصول الوالي حازم بك، في ٧ آذار ١٩١٣، مرفأ بيروت، إذ لم يجد الوالي في استقباله هناك غير الموسيقى العسكرية، وتلة من الجند، وبعض الأصدقاء والمريدين: انظر المفيد ٩ آذار ١٩١٣.

(٣) يحتوي هذا البيان على خلاصة لأعمال الجمعية وهي كما يلي:
أولاً: السعي في تعميم فكرة الإصلاح مستعينة على ذلك بالجرائد المحلية فضلاً عن طبعها اللائحة باللغة العربية وتوزيع عشرة آلاف نسخة منها في بيروت وغيرها من مدن الولاية. وعدا ذلك، فإنها قد ترجمت عشرة آلاف نسخة منها في بيروت وغيرها من مدن الولاية. وعدا ذلك فإنها قد ترجمت هذه اللائحة إلى اللغتين التركية والفرنسية وأرسلت نسخاً منها إلى جرائد مصر والآستانة وغيرهما».
«**ثانياً**: تنبهت اللجنة إلى ضرر وجود الأحزاب السياسية في هذه البلاد على صورتها السابقة فسعت لدى لجنة نادي الحرية والائتلاف راغبة إليها في إقفال النادي وحل الحزب للانصراف إلى خدمة الاصلاح الداخلي، ليمتنع كل خلاف وشقاق بين الأهالي من جراء وجود الأحزاب السياسية التي لا نفع منها للولايات، فنجحت في مسعاه ».
ثالثاً: سعت اللجنة أيضاً لدى أصحاب الجرائد ورؤساء تحريرها ففازت بجمع كلمتهم، فظهرت جرائدنا بمظهر جميل، إذ تبادل أصحابها ومحرروها المقالات الافتتاحية وكلها بعنوان واحد جليل مغزاه وكبير معناه...
«**رابعاً**: افتتحت اللجنة المساعي اللازمة لانفاذ مشروع الإصلاح بإرسالها إلى حضرة حازم بك والي بيروت الموجود في الآستانة تلغرافاً تسأله فيه الاهتمام بإعداد الحكومة لقبول لائحة الإصلاح التي قررتها الجمعية».
«**خامساً**: سترفع صورة من لائحة الإصلاح باللغة التركية مع رسالة إلى كل من الصدر الأعظم وناظر الداخلية ملتمسة فيها استصدار الإرادة السنية المؤذنة بوضع قانون بمضمون اللائحة: «انظر المفيد، السبت ٨ آذار ١٩١٣».

(٤) المفيد، الثلاثاء، ٤ آذار ١٩١٣.

(٥) إذا كان صحيحاً أن الحركة الإصلاحية قد بدأت كتجمع وجهاء مبني على «وفاق» بين المسلمين والنصارى البيروتيين على أساس من قبول هؤلاء وأولئك لشروط الطرف الآخر (انظر محمد علي بيهم، قوافل العروبة ومواكبها... ج ١، ص ٢٢) فإن الحركة في اجتماع لها، في أواخر ك ٢ ١٩١٣، قررت التحول إلى حركة سياسية «تبقى رقيبة على مصالح وحاجياتها وكل ما يعوزها من الإصلاح» (انظر المفيد الأحد ٢ شباط). وفي ضوء هذا التطور الذي أصابته الحركة يصبح اعتبار تقديم الوثيقة المذكورة إلى القنصل الفرنسي انشقاقاً، ولو انه بقي سرياً أي في الخفاء، ولم يعلن على رؤوس الإشهاد، ولم يعلم به الطرف الآخر.

(٦) المفيد السبت ٣ آذار، من الأعضاء الجدد في الجمعية الأمير مصطفى ارسلان الذي ترأس اجتماعاً حاشداً للجمعية في يوم الأحد ٢ آذار وفي هذا الاجتماع تقدم أيوب ثابت باقتراح يقضي بتأسيس «النادي الإصلاحي».

(٧) المفيد الأحد ٢ آذار ١٩١٣، ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن سليم علي سلام لا يشير إلى عملية الإرسال (اللائحة)، هذه، في مذكراته.

(٨) يكرس هذا الانتخاب عمومية الحركة الإصلاحية، أي جماهيريتها وذلك إذا فضلنا استخدام كلمة تعود إلى القاموس السياسي المعاصر: انظر مذكرات أبي علي سلام، ص ٢٣.

(٩) هذه النقطة ترتدي طابع الأهمية، وخاصة انه توقف عليها، في عام ١٩١٦، مصير أحد أكبر زعماء الحركة الإصلاحية، سليم علي سلام الذي نفى، أثناء اعتقاله أمام جمال باشا أن تكون حركته وافقت على اقتراح اللامركزيين (انظر مذكرات أبي علي سلام، ص ٤٧). وما استطعنا أن نفهمه مذكرات أبي علي سلام ص ٢٣) أن الهيئة الإصلاحية اكتفت

بتأجيل البت في موضوع الاقتراح إلى ما بعد انجلاء مستقبل الحركة. فقد كان الإصلاحيون يومها، منهمكين بمتابعه «معركة» المجابهة بينهم وبين السلطات العثمانية. وقد اسفرت هذه المعركة عن حل الجمعية العمومية الإصلاحية ومنـع اجتماعاتها وإغلاق ناديها كما سنبين في الصفحات التالية من هذه الدراسة.

(١٠) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٣.

(١١) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٣ ــ ٢٤ / انظر أيضاً المفيد الصادرة يوم الأربعاء في ٩ نيسان ١٩١٣ / انظر أيضاً لسان الحال الصادرة في اليوم ذاته.

(١٢) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٣ ــ ٢٤.

(١٣) د. وجيه كوثراني، المرجـع السابق، ص ٢١٠.

(١٤) وقـع على هذه البرقية جميـع أعضاء الهيئة الإصلاحية باستثناء جان بك تويني الذي كان مسافراً في أوروبا. انظر المفيد ١٢ نيسان ١٩١٣. انظر أيضاً مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٤ ــ ٢٥.

(١٥) يذكر كوثراني «المرجـع السابق ص ٢١٠» أن عدد الموقعين على البرقية بلغت ١٢٠٠ بيروتي، في حين يذكر أبو علي سلام أن عدد الذين وقعوا البرقية يبلـغ نحو ٥٠٠ بيروني. انظر مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٥.

(١٦) انظر مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٥. انظر أيضاً المفيد ١٢ نيسان ١٩١٣. انظر كذلك لسان الحال ١٢ نيسان ١٩١٣.

(١٧) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٥ ــ ٢٦.

(١٨) يذكر وجيه كوثراني (المرجـع السابق، ص ٢١١) نقلاً عن كتاب لتوفيق برو... إن عدد المعتقلين، مساء الجمعة ١١ نيسان كان ستة ويذكر أسماء أربعة منهم هم اسكندر عازار، زكريا طبارة، رزق الله ارقش، سليم طبارة، (الصحيـح في رأينا أن الاسم الأخير هو سليم الطيارة، إذ لم يكن بين الشخصيات الإصلاحية رجل باسم سليم طبارة: انظر مذكرات أبـي علي سلام ص ٢٦). ويذكر الكوثراني أيضاً أنهم كانوا جميعاً من أعضـاء اللجنة الإصلاحية وليس ذلك صحيحاً فإثنان منهم فقط كانا أعضاء في اللجنة الإصلاحية (الهيئة الإصلاحية) وهما رزق الله ارقش واسكندر عازار، أما المعتقلون الثلاثة الآخرون فكانوا من محاربـي الحركة الإصلاحية ومؤيديها. بالإضافة إلى ذلك وجدنا تناقضاً بخصوص كيفية الاعتقال بين رواية أبـي علي سلام ورواية جريدة المفيد فأبو علي سلام يشير في مذكراته (التي دونها معتمداً في الغالب على ذاكرته)، ص ٢٦ ان الأشخاص الذين جرى اعتقالهم قد استسلموا بمحض إرادتهم إلى السلطات أما جريدة المفيد الصادرة بعد ثلاثة أيام فقط من عملية الاعتقال فليس في روايتها ما يشير إلى عملية الاستسلام الاختياري إلى السلطات وإنما تذكر فقط انه جرى استحضار المعتقلين وهؤلاء كان عددهم في رأينا خمسة فقط كما ينص، صراحة، تلغراف الوالي حازم بك إلى الصدارة العظمى وإلى وزارة الداخلية، انظر المفيد ١٥ نيسان ١٩١٣.

(١٩) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٦.

(٢٠) جريدة المفيد الإثنين ١٤ نيسان ١٩١٣.

(٢١) وجيه كوثراني، المرجـع السابق، ص ٢١١.

(٢٢) المفيد، الإثنين ١٤ نيسان ١٩١٣.

(٢٣) وجيه كوثراني، المرجـع السابق، ص ٢١١.

(٢٤) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٦ / انظر أيضاً كوثراني المرجـع السابق، ص ٢١١.

(٢٥) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٦.

(٢٦) المرجـع نفسه.

(٢٧) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان ١٩١٣.

(٢٨) المرجع نفسه.

(٢٩) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان سنة ١٩١٣.

(٣٠) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان ١٩١٣.

(٣١) مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٧.

(٣٢) المفيد الثلاثاء ١٥ نيسان ١٩١٣.

(٣٣) المفيد الأربعاء ١٦ نيسان ١٩١٣.

(٣٤) المفيد الأربعاء ١٦ نيسان ١٩١٣.

(٣٥) المفيد الخميس ١٧ نيسان ١٩٠٣، وكتعبير عن الاستياء والسخط قام بعض البيروتيين بتسيير كلب في طرقات بيروت، وقد كتب عليه اسم الوالي جازم بك. فاستاءت حكومة الولاية من هذا العمل وأقدمت على اغتيال أحد الإصلاحيين زكريا طبارة في ليل الرابـع عشر من أيار ١٩١٣. انظر مذكرات أبـي علي سلام، ص ٢٧.

*** صور مدينة بيروت مأخوذة من كتاب «بيروت المحروسة في العهد العثماني» للدكتور حسان حلاق.**

مَن هُم آشوريّو اليومْ ؟

إعداد: محمّد الدّنيا

يشكل الآشوريون واحداً من أقدم شعوب العالم. وقد بلغ عددهم في السبعينيات نحو ما يزيد على المليون. وتعيش غالبية الآشوريين اليوم في الشرقين الأدنى والأوسط: إيران، والعراق، وتركيا، وسوريا، ولبنان، ومصر، والأردن، والكويت وفلسطين. كما استوطنت جماعات صغيرة منهم في أمريكا اللاتينية، والسويد، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا الغربية، واليونان، وأستراليا. ويبلغ عددهم في الاتحاد السوفييتي نحو ٢٥ ألف شخص. إن الجزء الشمالي من العراق، الذي أسماه اليونانيون القدماء «شور» هو الموطن التاريخي للآشورين. لقد عاشت مملكة شور قرابة ٢٠٠٠ عام. وإليها ينسب الآشوريون أنفسهم، ومنهم اسمهم.

لقد راحت الأمبراطورية الآشورية، التي كانت امبراطورية قوية تمتد من حدود العراق إلى مصر، تشهد ضعفها بسبب الحروب المتتالية والصراعات الداخلية. وأخيراً، سقطت تحت ضربات الميديين والبابليين المتضافرة. مع ذلك، عرف الشعب الآشوري كيف يحتفظ بثقافة أصيلة، وتراث وتقاليد وسمات أخرى لا تخلو من الفن والجمال، وملامح وخصائص هي وليدة تاريخهم وحده.

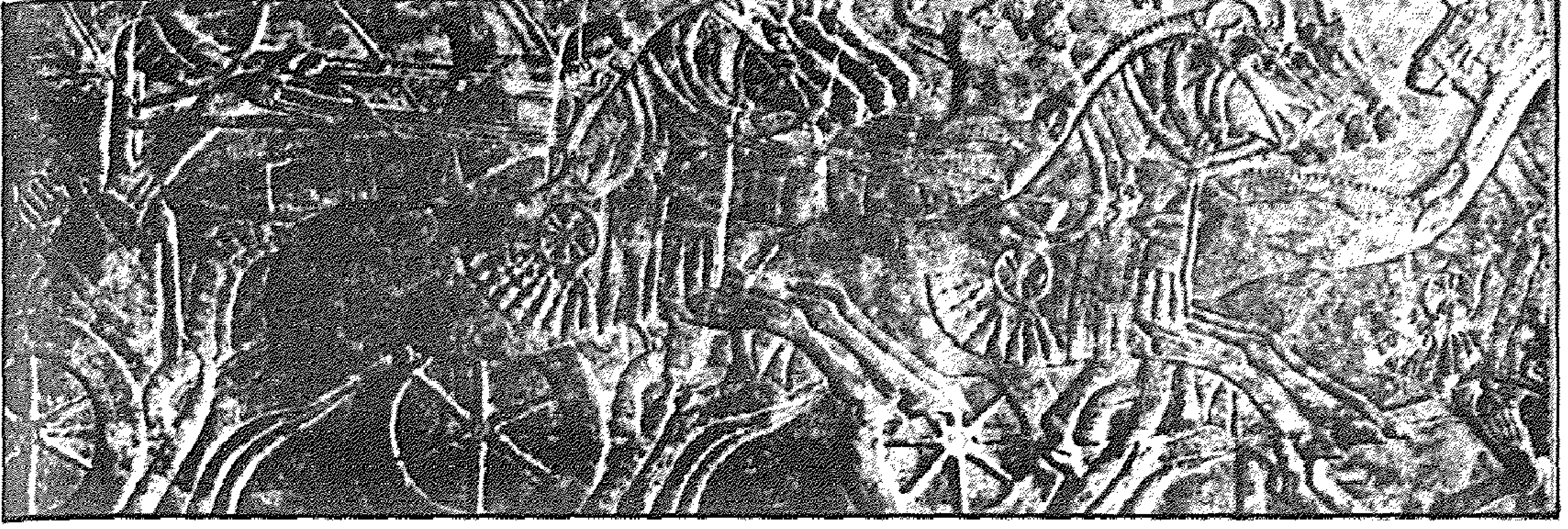
استمر التئام الآشوريين داخل إطار دولة واحدة نحو ألفي عام. وكان هذا الامتداد الزمني الطويل ملائماً جداً لسيرورات اندماجهم، وبوسعنا القول إنه أوجد المقومات لاستقرار العرق الآشوري ودوامه.

وفي عهد الرق، كان الشعب الآشوري مكوناً من عنصرين: الآشوريون والآراميون، الذين انصهروا في عرق واحد، مع هيمنة الثقافة الآشورية، الأقدم والأقوى. وعشية احتضار الأمبراطورية، كان الشعب الآشوري مجتمعاً قوياً قوامه عدة ملايين من الأفراد وذا علاقات طبقية متميزة. لقد ميزته وحدة الأرض، والثقافة، ورابطة اللغة المشتركة التي شهدت انتشاراً واسعاً نسبياً آنذاك، والوعي العرقي، ومنع زيجات القرابة والعصب. ومن هنا كان انبعاث الآشوريين متجدداً، فتجنبوا خطر الزوال والتمثل بعد سقوط الأمبراطورية.

تتمة التاريخ الآشوري كانت على ارتباط وثيق بمصير الأمبراطورية الرومانية، ومن ثم الأمبراطورية البيزنطية، ودولة الأخمينيين الفارسية، والبارتيين، والساسانيين، والخلافة العربية، والأمبراطورية العثمانية. ولما كانوا جماعة عرقية مرتبطة بالتشكيلات السياسية — الدولية، فإن الآشوريين أصبحوا أقلية عرقية، ثم دينية، مضطهدة، ومعرضة ليس فقط للاستغلال، بل للإبادة أيضاً. لقد اضطرهم الوضع النوعي الذي عاشوه إلى البحث عن أشكال مقاومة الاضطهاد. وفي القرن الأول، انتشرت المسيحية في سوريا، وبلاد ما بين النهرين، وإيران، وكان الآشوريون من بين أوائل من تحولوا إليها.

ها هي إذن الكنيسة بدلاً من الدولة، التي أضحت وثاق العرق وباعث لحمته، ومن هنا الخاصية الرئيسية لتطور الشعب الآشوري نحو الأقلية العرقية. وبعيداً عن الدولة، وفي غياب الزعامة المدنية، التف الآشوريون حول الكنيسة، ومنذئذ، امتزج التاريخ الزمني بتاريخ الكنيسة الآشورية. وهنا إذن، كانت المسيحية بمثابة العامل الذي أمن ثبات العرق واستمراريته.

وفي القرن الرابع، أضحت المسيحية دين الدولة في بيزنطة، التي كانت تضم الأراضي التي قطنها الآشوريون. وكان للاضطهاد القومي، والاجتماعي، والاقتصادي الذي لقيه هذا العرق نتائج محددة. لقد برز استياء الآشوريين عبر الصراع ضد المسيحية الأرثوذكسية البيزنطية: تحت شكل البدعة النسطورية في القرن الخامس، والطبيعة الواحدة (للمسيح) «اليعاقبة» في القرن السادس، والمارونية في القرن السابع. وفي القرن



□منحوتة مجسمة، لإحدى معارك ملوك آشور، تمثله وجنوده يخوضونها ظافرين.

السادس عشر، أسس الآشوريون كنيسة آشورية ـ كلدانية متحدة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وفيما بعد، كنيسة كاثوليكية.

وبسبب هذه الانشقاقات، بشكل خاص، اتخذ الوعي العرقي عند الآشوريين، وعلى نحو متنام، طابعاً دينياً في غالب الأحيان جعلهم يسمون نسطوريين، ويعاقبة، وموارنيين، وكلدانيين، وكاثوليك، وسوريين. وعلى هذا النحو تسميهم الشعوب الأخرى. إن الآشوريين المعاصرين هم ورثة تاريخ وثقافة عريقين. ففي آشور كانت قد أوجدت لأول مرة في العالم منظومة علم تنظيم وإدارة المكتبات، والمكتبة العامة التي أسسها الملك آشور بانيبال، آخر كبار ملوك آشور ٦٦٩ ـ ٦٢٠ ق.م. كانت المكتبة العامة موجودة في نينوي، عاصمة المملكة، وقد ضمت بضع عشرات من آلاف اللويحات الفخارية. وندين للآشوريين بالعديد من وقائع الأخبار والحوليات التي أمكن بفضلها إعادة كتابة تاريخ شور والبلدان المجاورة.

كانت الكتابة المسمارية أولى الكتابات التي اخترعها الإنسان. وقد ألف الآشوريون المعاجم القياسية والكراسات لدراسة اللغة. واتضحت فلسفة الآشوريين. في العديد من المؤلفات الأدبية والميثولوجية.

وفي ذروتها، كانت الأمبراطورية الآشورية تضم فوق أراضيها العديد من الشعوب والبلدان. وللحفاظ على سلطتها، لزم وجود جيش هام، حيث تشير مصادر عديدة إلى أن عدد أفراده قد وصل إلى ٤٠٠٠٠٠ رجل، بين مشاة وخيالة ورجال هندسة، إضافة إلى الكثير من العربات. وكان الإبراق، أي نظام النار المشتعلة بطول الطرق الملكية، مستخدماً على نطاق واسع في مملكة ذلك الوقت. وبهذا كان ممكناً إنذار نينوي ووقايتها من الأخطار الوشيكة، والغزوات، والكوارث الطبيعية.

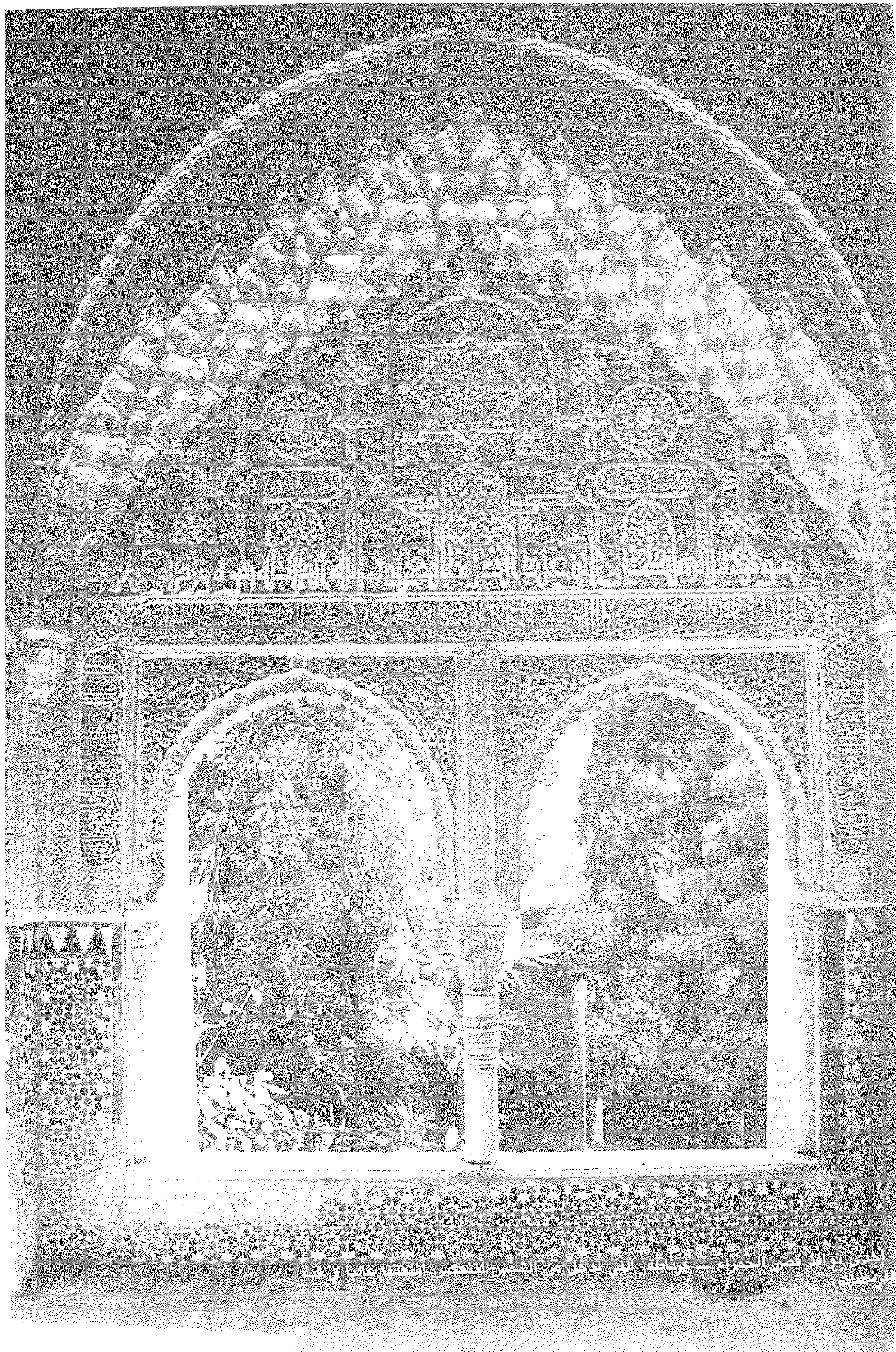
كان الإعلام يتم أيضاً عن طريق محطات الخيل، وهي منظومة أبدال مركزة بطول الطرق، حيث كانت توجد على الدوام أفراس مرتاحة وجاهزة لتنفيذ المهام، ورسل وعربات.

وكان الطب منذ القديم على جانب كبير من التطور، حيث عرفوا كيف ينتزعون الودقة (نقطة في قرنية العين) من العين، وأجروا العمليات الجراحية للأورام، وقوموا الكسور. وكانوا يرمزون إلى الطب بثعبان يلتف حول الصولجان.

وفي العصور الوسطى، لعب الآشوريون دوراً من الطراز الأول في نشر المسيحية والثقافة في آسيا الوسطى، ومنغوليا، والصين، والهند، وفي إرساء الروابط بين الشرق وأوروبا. وفي هذه الفترة، منحوا العالم كتاباً كباراً، وشعراء، وعلماء لاهوت، وفلاسفة، وأطباء، وعلماء رياضيات.

وساهم الآشوريون، أكثر من مرة، في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال، وليس ـ.ـ على ذلك أكثر من الثورات التي قاموا بهـ في العصر الحديث، بما في ذلك ثورتهم ضد العثمانيين، التي ذهب ضحيتها ٥٠٠ ألف آشوري.

وتميزت حركة التحرر الآشورية لفترة ما بعد الحرب بتعزيز وحدتها مع شعوب الشرقين الأدنى والأوسط التي كانت تكافح من أجل الحرية والتقدم.



إحدى نوافذ قصر الحمراء ـ غرناطة، التي تدخل من الشمس لتنعكس أشعتها عاليا في قبة المقرنصات.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة [illegible]

السنة الحادية عشرة – [illegible] – جمادى الأولى ١٤١٠هـ



□ طبق عميق المنحنى عريض الحاشية مزخرف بالأزرق، ومخطط بأزرق أشد قتاماً مـع أفكار رئيسية صينية مؤسلبة ذات نمط سحابـي الشكل. يعود هذا النموذج الرائـع من آنية أزنيق القديمة إلى عام ١٥٢٠ ــ ١٥٣٠.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسـات التي تـنشر لا تـعبّـر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.



لوحة زيتية لراس موسيقية شابة كتفيها. وهي ترتدي غطاء مزيناً لراس تاجي الشكل. ويداها مخضبتان الحناء على نحو شديد.
لاد فارس. عهد قاجار. حوالي عام ١٨٠م.
ن كتاب: الفن الإسلامي، متحف نقولا براهيم سرسق ١٩٧٤

تاريخ العرب والعالم

الأعداد ١٣١ ــ ١٣٤ (ايلول ــ ك ١) ــ ١٩٨٩

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : د. **أنيس صايغ** المدير المسؤول : **محمد مشموشي**

قسم التوثيق والأبحاث : **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

الانتاج: **مطبعة المتوسط ش.م.م.**

التوزيع: **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.**

ثمن النسخة

العراق : ١ دينار	سوريا : ٣٥ ل.س.
	تونس : ١,٥ دينار
السعودية : ١٠ ريال	الكويت : ١ دينار
الأردن : ٨٠٠ فلس	الامارات : ١٠ درهم
البحرين : ١ دينار	قطر : ١٠ ريال
مسقط : ١٠٠٠ بيزة	بريطانيا : ١,٥ جنيه
صنعاء : ١٠ ريال	ليبيا : ١ دينار
	مصر : ١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- **في لبنان**
- **للمؤسسات والدوائر الحكومية** ٥٠ دولار
- **في الوطن العربي للافراد** ٣٥ دولار
- **للمؤسسات والدوائر الحكومية** ١٠٠ دولار
- **خارج الوطن العربي للافراد** ٥٠ دولار
- **للمؤسسات والدوائر الحكومية** ١٥٠ دولار
- **اشتراك تشجيعي** ٥٠٠٠ دولار
- **تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية**

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية ابو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 15 No. (131-134), SEPT.-DEC. 1989

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



الجامع العمري الكبير في صيدا

يفوز بجائزة الآغا خان للعمارة الإسلامية

بقلم
سماحة الأستاذ محمد سليم جلال الدين
مفتي صيدا والجنوب

الجامع العمري الكبير، في مدينة صيدا ــ لبنان، أثر هام من آثار المدينة التاريخية التي يعود تاريخ إنشائها إلى أيام الفينيقيين ــ ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد ــ وكما تتعرّض الآثار التاريخية إلى عاديات الأيام والحروب، فقد تعرّض هذا الجامع، في آخر ما تعرض له عبر تاريخه الطويل، إلى التهدم بفعل الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ولصيدا في العام ١٩٨٢.

وقد انبرى ابن صيدا، الشيخ رفيق الحريري، لإعادة ترميم وبناء هذا الأثر التاريخي على الطراز الهندسي في العمارة الإسلامية. وكان هذا الإنجاز، من ضمن أحد عشر مشروعاً، حازت على تقدير اللجنة الخاصة بجائزة الآغا خان للعمارة الإسلامية التي تم توزيعها في الخامس عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر الماضي في القاهرة بقلعة صلاح الدين. وقد مثّل أوقاف صيدا التي ترعى شؤون المساجد فيها، مفتي صيدا والجنوب سماحة الشيخ الأستاذ محمد سليم جلال الدين، الذي أعدّ بالمناسبة، الدراسة التالية عن تاريخ صيدا وآثارها.

بسم الله الرحمن الرحيم



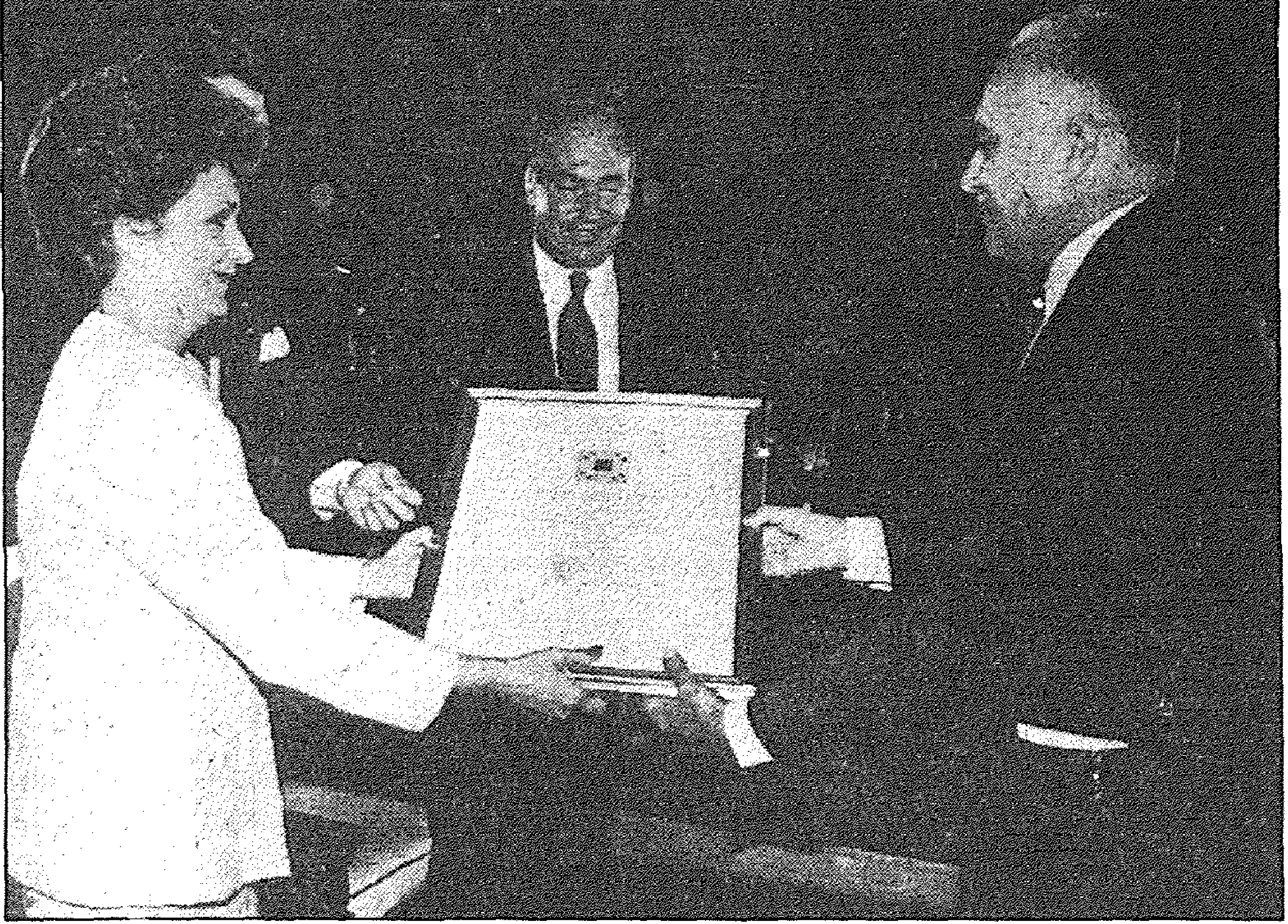
إنه بمناسبة فوز الجامع العمري الكبير في صيدا بجائزة الآغاخان المعمارية، أرى من الضروري التعريف بمدينة صيدا لارتباط المسجد بها. ويطيب لي أن أشير في المقدمة إلى ما للآثار من أهمية في تاريخ الشعوب والأمم، وأثر كبير في دفع عجلة الحضارات والدول، ودور فاعل في تقدم العمارة وتطور الثقافة، لأنها تساعد على تحديد الشعوب التي تعاقبت، والعصور التي تركت بصماتها عليها، ومن أجل ذلك، كان اهتمام الدول في إظهار معالم آثارها والمحافظة عليها، والبحث عما هو مطمور في الأرض، وترميم ما تصدع منها بفعل العوامل الطبيعية، أو ما أحدثته يد الإنسان، وكان اهتمام المؤسسات العالمية والمؤرخين والباحثين بها لدراسة ما تشتمل عليه من فنون مختلفة، والمراحل التي مرت، والتطور الذي حدث في تلك الحقبة من الزمن، واقتباس نماذج جديدة تضاف إلى ما وصل إليه العلم الحديث من قواعد وأصول تتعلق بالفنون والعمارة، وما ابتكرته الإيديولجيات الحديثة، والتقنية العصرية من نماذج وتصاميم.

وكان أيضاً أحد الدوافع لسمو الآغا خان بإنشاء الجائزة المعروفة باسمه في عام ١٩٧٦ التي أدت إلى إيجاد مجال من الحرية ــ مجال فكري عام ــ يتيح للأشخاص المعنيين التفكير جلياً، لا في تطور العمارة ومسارها فحسب، وإنما أيضاً في التغيرات التي تحدث في منهج النقاش الحاصل في العالم الإسلامي حول العمارة، وفي محور تركيز هذا النقاش على السواء، وبخاصة في حلقات التدارس الدولية والإقليمية خلال كل دورة التي تتناول التطورات في بيئة المسلمين وتبحث اتجاهات وتأثيرات التحولات المعمارية في العالم الإسلامي، وتمكن المهندسين المعماريين والمخططين والعلماء وراسمي السياسات من تضمين الآراء والأفكار في صياغة البرامج الرامية إلى الترويج لفن معماري أشد استجابة للمجتمعات الإسلامية من احتياجات معاصرة.

لمحة عن مدينة صيدا

تقع صيدا على لسان يمتد داخل البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عن بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية خمسة وأربعين كيلومتراً. عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة تقريباً يضاف إليهم ثمانون ألف نسمة من النازحين الفلسطينيين المقيمين في مخيمي عين الحلوة والمية ومية. بناها الفينيقيون منذ حوالي ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد وهي الوحيدة التي جاء ذكرها في التوراة وذكرها هوميروس في إلياذته.

عرفت في العالم القديم بتجارتها المزدهرة، وتفوقت بالصناعات والحرف والصباغ الأرجواني، احتلها فرعون مصر ــ رمسيس الثاني سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد، واحتلها الآشوريون سنة ٨٩٠ قبل الميلاد.



□ الدكتور المهندس صالح لمعي يتسلم من قرينة الرئيس مبارك جائزة آغا خان للعمارة الإسلامية عن ترميم المسجد، ويبدو في الوسط الأمير كريم آغاخان مؤسس الجائزة.

وكانت في فترة الحكم الفارسي (٥٣١ ـ ٤٨٥ قبل الميلاد) على جانب عظيم من الأهمية فامتد حكمها من المتوسط إلى الفرات، غير أنها في سنة ٣٥٠ قبل الميلاد أحرقت نفسها، وأبت الاستسلام لملك الفرس أرتحششتا.

في العصور الإغريقية والرومانية، كانت صيدا تسمى بصيدون تقتسم مع أنطاكيا وظيفة الاتصال بين الشرق والغرب عن طريق مينائها.

فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٦٣٨م. وفي الحكم الإسلامي خضعت صيدا إلى دمشق (أيام حكم الأمويين) وإلى بغداد (أيام حكم العباسيين) وإلى القاهرة (أيام حكم الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين).

وفي عهد الصليبيين (١١٠٧ ـ ١٢٩١) برزت بعض الشيء لكنها تعرضت مرات عديدة للتدمير بسبب الحروب.

وفي عام ١٥١٦ ميلادية اصبحت جزءاً من الامبراطورية العثمانية، وكانت في القرنين الرابع عشر والثامن عشر في طليعة المدن الساحلية، وقد حسن أوضاعها الأمير فخر الدين المعني الثاني وأعاد بناءها وجعلها عاصمة حكمه، وأقامت علاقات تجارية مع أوروبا وبخاصة مع فلورنسا.

وفي القرن التاسع عشر شهدت صيدا تغييرات وأحداثاً تركت آثاراً في حياتها الاقتصادية والاجتماعية منها:

(أ) الهزة الأرضية عام ١٨٣١م التي دمرتها وأعاد بناءها سليمان باشا.

(ب) تدمير مينائها عام ١٨٤٠م من قبل الأساطيل الإنكليزية والنمساوية.

(ج) شق طريق بيروت ـ دمشق بين عامي ١٨٥٧ ـ ١٨٦٣ ـ وما تركه ذلك من آثار سيئة على اقتصادها.

(د) النمو المتسارع لمدينة بيروت وتحول صيدا إلى مدينة عادية تدور في فلك العاصمة.

وفي فترة الانتداب الفرنسي استمر التراجع العام لمدينة صيدا، فصيدا مفتاح الجنوب

اللبناني وبوابته إلى العالم، قالت عنها بعثة «ارفد» عام ١٩٦١ في تقريرها «صيدا عاصمة اقتصادية وخدمة للجنوب» وأن انعدام نشاط المرفأ قد أدى إلى مضاعفات كثيرة في حياة صيدا الاقتصادية إلى درجة أمكن التأكد أن القضاء على المرفأ كان قضاءً على المدينة.

وفي عهد الاستقلال لم تعط صيدا الإمكانات لتلعب دورها كعاصمة إقليمية، وبقيت خفيفة النمو، وبسبب قيام إسرائيل في فلسطين فقدت صيدا علاقات تجارية قوية كانت قائمة بينها وبين فلسطين.

وتمتاز صيدا بمجتمعها الوطني الذي يضم عائلات من الديانتين الإسلامية والمسيحية ويروي التاريخ أن العائلات المسيحية يرجع أصل كثير منها إلى طرابلس وعكار وبعلبك ومناطق أخرى من الشمال كان الأمير فخر الدين المعني الثاني الملقب بالكبير قد استقدمها من تلك المناطق إلى صيدا للاستفادة من خدمة أفرادها في الحرف الصناعية وفي الزراعة عندما جعل صيدا مركزاً لحكمه. وأن العائلات الشيعية وفد معظمها من جبل عامل، وأن العائلات السنية التي تشكل غالبية السكان يرجع تاريخ معظمها إلى العهد المملوكي في القرن الرابع عشر.

وقد انصهرت هذه العائلات في بوتقة وطنية واحدة يسود أفرادها المحبة والتعاون، وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم واحدة، وظهر عيشهم الوطني المشترك المستمد من أخلاق الأديان السماوية، والمبادىء الإنسانية كأنه فريد من نوعه، بما يمثله من نموذج لمجتمع متكامل متواصل الصلات والعواطف.

اسم صيدا

جاء في كتاب معجم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ما يلي: «صيداء بالفتح ثم السكون والدال المهملة والمد وأهله يقصرونه وما أظنه إلا لفظة أعجمية» إلا أن أصلها في كلام العرب على سبيل الاشتراك. قال أبو منصور: الصيداء حجر أبيض يعمل منه البرام جمع برمة.

وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق جنوب صور بينهما ستة فراسخ، قالوا: سميت بصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. قال هشام عن أبيه: إنما سميت صيداء التي بالشام بصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام.

وطول صيداء تسع وخمسون درجة وثلث وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلثان، وهي في الإقليم الرابع، قال الزجاجي: اشتقاقها من الصيد يقال رجل أصيد، وامرأة صيداء وهو مَيْلٌ في العنق من داء، وربما فعل ذلك الرجل كبراً، والنسبة إليها صيداوي وهذه نسبة ما لا ينصرف من الممدود، ولو كان مقصوراً لكان صيدوي.

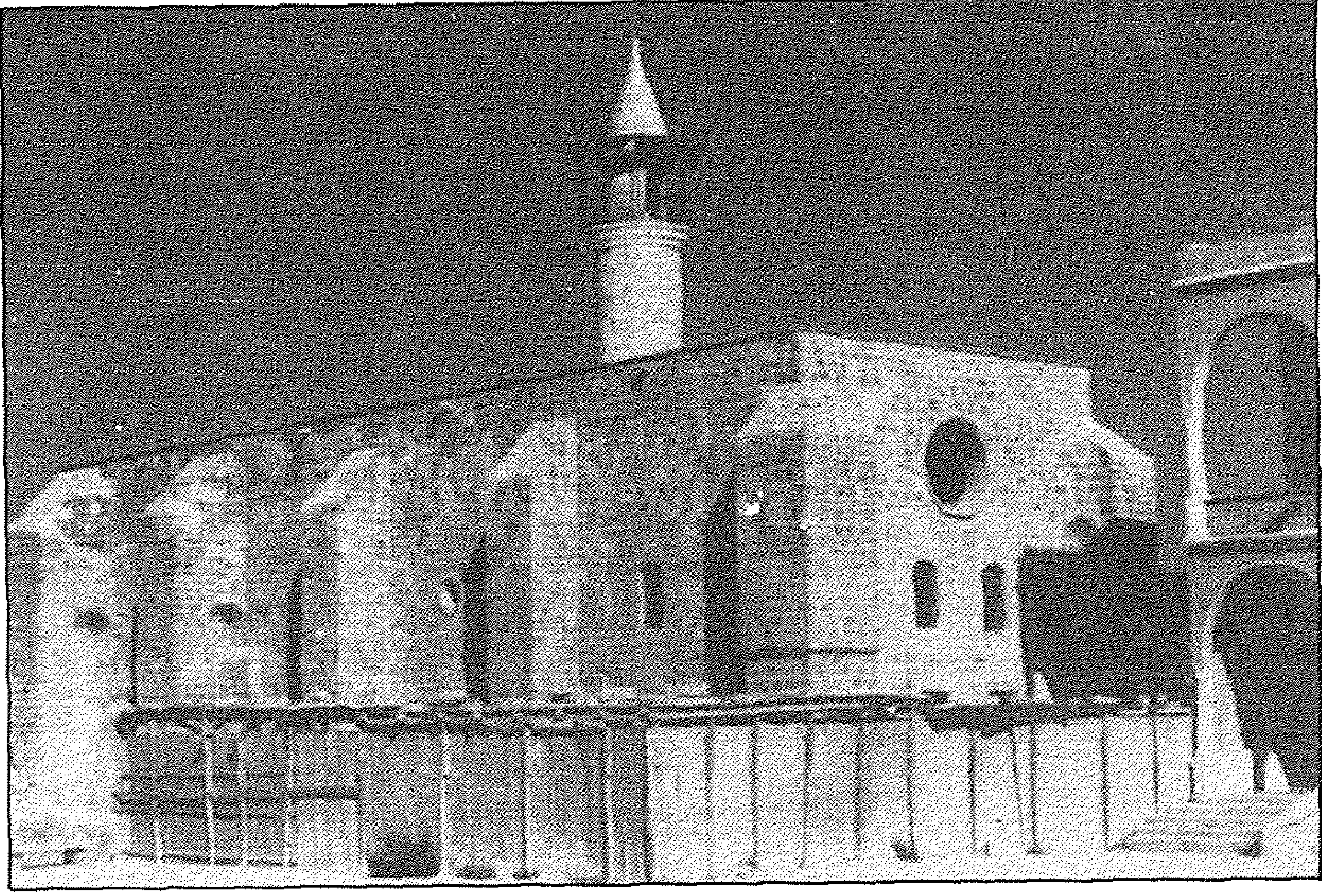
وممن نسب إليها كذلك أبو الحسن محمد ابن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن جميع الغساني الحافظ الصيداني، رحل في طلب الحديث إلى مصر والعراق والجزيرة وفارس وسمع فأكثر، روى عنه ابنه الحسن وأبو سعد الماديني وغيرهما، وجمع لنفسه معجماً لشيوخه ومات سنة ٣٩٤ هجرية.

ويقول آخرون أن اسم صيدون أطلق على المدينة على أساس أن الفينيقيين يسمون السمك صيدون، وجاء في كتاب تاريخ صيدا للشيخ أحمد عارف الزين «صيدا اسمها باللاتينية صيدون وفي العبرانية صيد، ومناسبة هذه التسمية كون السمك فيها كثير، وكون أهلها الأقدمين صيادين، ومنهم من ينسب تسميتها إلى صيدون بكركنعان ويوجد بين بساتينها مقام يخدمه المسلمون واليهود ويدعى النبي صيدون، ولعله كان قديماً هيكلاً لصيدون.

مساجدها

تنقسم مساجدها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم أثري شيد داخل المدينة القديمة عند تقاطع الأزقة والدروب. بحيث تفضي هذه الطرق في معظمها إلى المسجد، وهي: المسجد العمري الكبير ـ مسجد قطيش ـ مسجد الكيخيا «كتخدا» ـ مسجد بطاح ـ مسجد باب السراي ـ مسجد البحر ـ مسجد البراني ـ مسجد أبي نخلة ـ مسجد القلعة البحرية.



□ الجائزة الأولى عن ترميم الجامع العمري الكبير في صيدا.

٢ ــ وقسم بني حديثاً يدار بواسطة دائرة الأوقاف الإسلامية في صيدا، وهي: جامع المجذوب ويعرف باسم جامع البوابة ــ جامع الصديق ــ جامع العثمان ــ جامع الموصلي.

٣ ــ وقسم يدار بواسطة متولين غير مرتبطين بدائرة الأوقاف الإسلامية بصيدا وهي: جامع الزعتري ــ جامع الإمام علي محلة الفيلات ــ جامع الإمام علي محلة المدينةالصناعية ــ جامع الإمام الحسين ــ جامع الدكتور محمد البزري الكائن في دار رعاية اليتيم بصيدا ــ وجامع سيد الشهداء حمزة قيد الإنجاز.

تفصيل عن المسجد العمري الكبير

يقع هذا المسجد داخل مدينة صيدا القديمة على تلة مرتفعة تشرف على البحر من جهة الغرب ويتألف من أربعة أقسام:

١ ــ الحرم، وله ثلاثة أبواب من الخشب تفضي إلى البهو، وينتصب وسط الحرم منبر من الرخام، هو آية في الجمال، وإلى يمينه محراب نقش فوقه اسم الجلالة (الله) وإلى يساره محراب نقش فوقه الآية الكريمة «كلما دخل عليها زكريا المحراب».

ويبلغ طول الحرم ثلاثين متراً وعرضه ثمانية أمتار وعلوه عشرة أمتار تقريباً. وتعلوه قبة زين داخلها بست لوحات من الفسيفساء.

٢ ــ بهو المسجد وتبلغ مساحته حوالي ضعفي مساحة الحرم وتعلوه ثلاث قباب (تبدو عليها مظاهر العمارة العثمانية) إضافة إلى المئذنة ذات الجسم الأوسط المستدير الذي ينتهي بشرفة دائرية محمولة على جسم سفلي مربع ونهاية علويه بشكل مخروط. ويظهر في وسط البهو محراب صغير.

٣ ــ صحن المسجد وتبلغ مساحته مساحة البهو تقريباً.

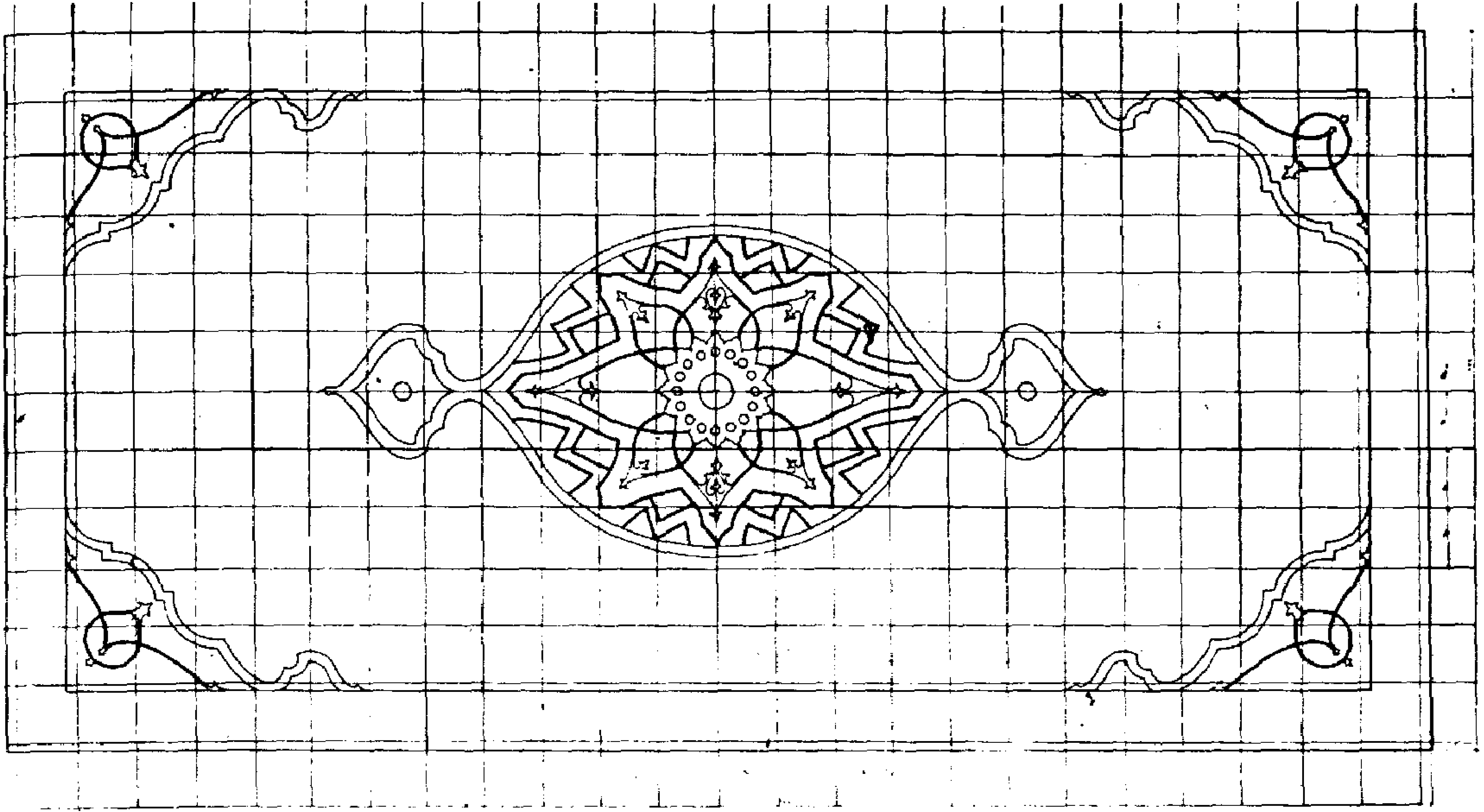
للمسجد مدخلان: المدخل الشمالي وهو المدخل الأساسي للجامع ويفضي مباشرة إلى صحن الجامع.

المدخل الشرقي مستحدث.

الإصلاحات والتوسعات

تعرض المسجد إلى إصلاحات وتوسعات كثيرة نأتي على أهمها باختصار:

(أ) في عهد السلطان عبد الحميد عام ١٢٦٥ هجرية أجرى بعض الترميمات والتوسعات على بهو الجامع.



□ زخرفة السقف الداخلي للصالون في الرواق الغربـي.

(ب) في عهـد السلطان عبـد العـزيـز جـرت إصلاحات قامت بها خوشيار هانم والدة حديوي اسماعيل باشا في عام ١٢٧٨هـ ١٨٧٠م.

(ج) في عهد السلطان عبد الحميد خان عام ١٣١٢هـ ١٨٩٣م أعيد بناء القسم الغربـي من المسجد بعد أن طغـى البحر عليه.

(د) عام ١٩٧٥ قامت دائرة الأوقاف في صيدا بـالتعاون مـع وزارة السيـاحة بقشر الورقـة الترابية من الحجر الرملي وأزالت بركة الوضوء وغرفة الاستقبال.

وفي حزيران ١٩٨٢ تهدم قسم من الجامـع من جراء القصف الاسرائيلي أثناء الاجتياح. وفي ١٩٨٣/٣/٣ وجه المحسن الكبير الشيـخ رفيق الحريري كتاباً إلى المديرية العامة للآثار أعلن فيها عن رغبته بإعادة ترميم الجامـع العمري الكبير على نفقته الخاصة وكهبة غير مشروطة.

وفي ١٩٨٣/٥/٢٣ بدأت ورشة العمل بعد أن اتفقت شركة أوجيه لبنان:

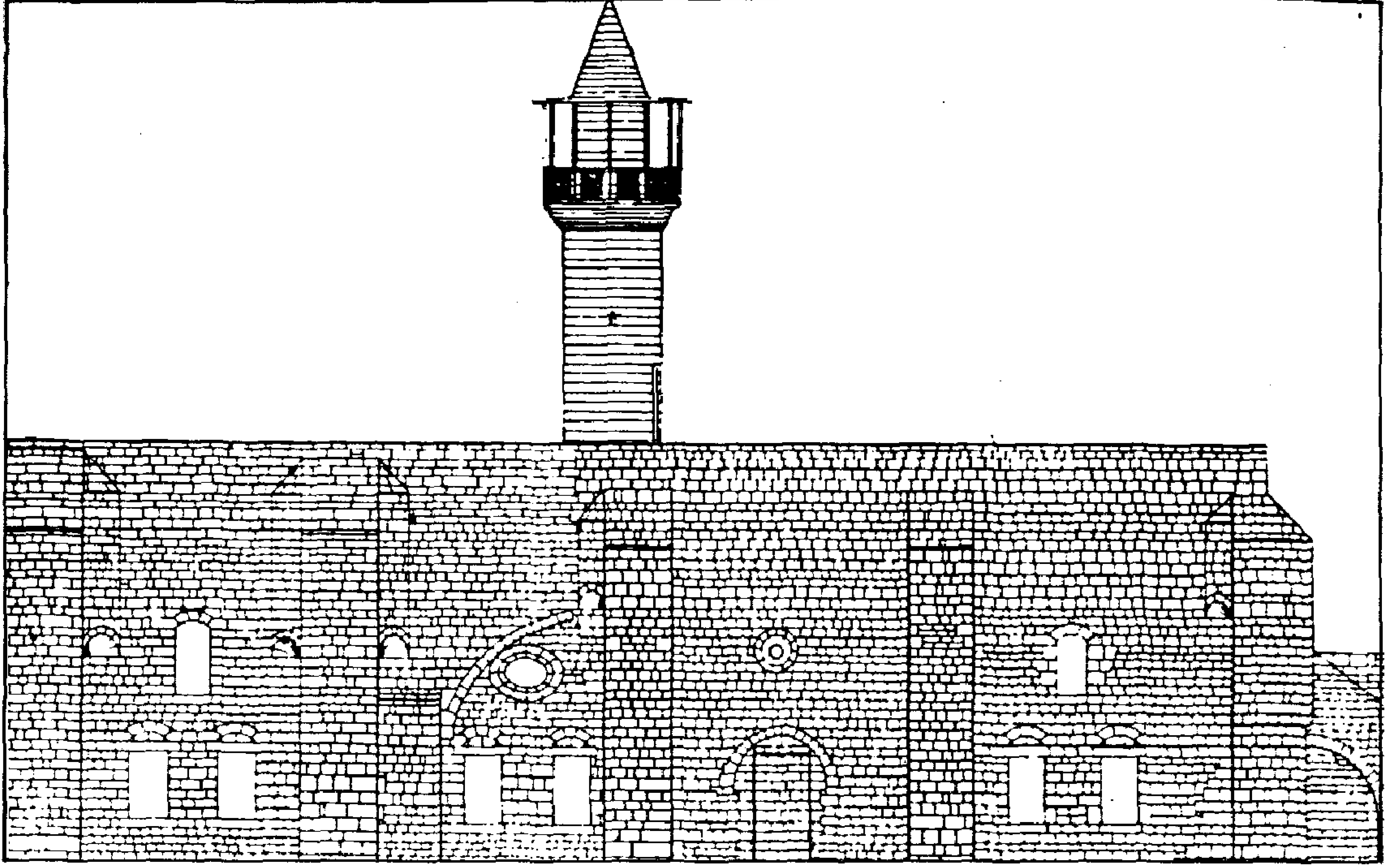
ــ مـع المهندس الخبير الدكتور صالـح لمعي مصطفى لإعداد الدراسـات المطلوبـة للترميم وإعادة البناء.

ــ مـع المهندس الصيداوي عبد الواحد شهاب للقيام بالتنفيذ.

الأصول التاريخية لمبنى المسجد

اختلفت المصادر التاريخية حول أصل بناء المسجد العمري الكبير وتاريخه، فمنهم من قال أنه كان معبداً لعبادة الشمس بناه بكر كنعان، ومنهم من قال أنه كان كنيسة، وآخرون قالوا أنه كان حصناً عسكرياً بناه فرسان الاسبارتية عام ١٢٦٠ ميـلادية. والراجـح وكمـا سمعته من والدي أن الجامـع العمري الكبير كان معبداً لعبادة الشمس من عهد الكنعانيين وعندما دخل الإسلام إلى صيدا أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حوله إلى مسجد.

وجـاء في مشروع إعـادة تـرميم الجـامـع العمري الكبير، صفحة ٤، عندما دخل الإسلام إلى مدينة صيدا حول المعبد الذي كان كنيسة إلى مسجد بعد أن أجريت عليه بعض التغييرات المناسبة ليكون المسجد الجامـع في مدينة صيدا، وعندما دخل الصليبيون مدينة صيداء اتخذوا من هذا المسجد حصناً لهم. وأقاموا فيه غرفة



□ الواجهة الجنوبية للجامع

للإقامة، وصالة للأكل وكنيسة صغيرة، وإسطبلاً للخيول وأماكن للخدمة، بعد أن أجْروا بعض التـوسيعات وزادوا عـلى بنائـه وأجروا بعض التغييرات الداخلية لإقامة الكنيسة، ولبناء غرف للإقامة، وقد عاد البناء مسجداً في أواخر العهد الأيوبـي بعد أن حرروا صيدا من الصليبيين.

حماماتها الأثرية

حمام الأمير ويعرف بحمام المير ويعود إنشاؤه إلى عهد الأمير فخر الدين الثاني المعني الكبير ـــ أتت على معظم بنائه القذائف الاسرائيلية عام ١٩٨٢ اجتياح لبنان ـــ حمام السوق، حول إلى مخبز ـــ حمام الشيـخ ـــ حمام الورد ـــ الحمام الجديد.

الأماكن الأثرية

١ ـــ القلعـة البحريـة ـــ تذكـر المصـادر التاريخية التي تعود إلى العهد الصليبـي أن قلعة البحر في صيدا أسسها جماعة من الصليبيين الفرنجة والإنكليـز والإسبان، مـع أن البـرج الضخـم في هذه القلعة هو برج إسلامي، ويوجد أيضاً فيها مسجـد كان له إمـام يؤدي فيـه الصلوات الخمس بتوجيه من دائـرة الأوقاف الإسلامية في زمن العثمانيين.

٢ ـــ قلعة المعز «القلعة البرية»

كانت تعرف هذه القلعة لدى أهـالي صيدا باسم قلعة المعز نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي الذي حصن القلعة ورممها.

لكن بعض المصادر تعيد بناءها إلى لويس التاسـع أثناء فترة إقامته بعكا وصيدا فيما بين ١٣ أيار ١٢٥٠ إلى ٢٤ نيسان ١٢٥٤.

٣ ـــ خان الفرنـج ـــ بناه الأمير فخر الدين وهو بناء من الحجر تبلـغ مساحته حوالي خمسة آلاف متر مربـع، يتوسطه صحن مربـع الشكل أيضاً، في وسطه حوض تحيط به الأشجار، ويدور حول الصحن أربـع محنيات كل منها يتألف من سبعة عقود منكسرة مطولة مكونة بوائك تطل على غرف وتسند مـا بين العقـود ركائـز مستطيلة الشكل تنتهي من أعلى بمسطحات مائلة.

صيدا الحديثة

كان السكان في النصف الأول من القـرن العشرين يقيمون داخل المدينة القديمة المسورة بسور له ثلاث بوابات، إلا قليلاً منهم كان يقيم

خارجها في أحياء صغيرة.

وفي بداية النصف الثاني من القرن العشرين ومع ازدياد عدد السكان الذي أصبح ثلاثماية ألف نسمة ووجود ثمانين ألفاً من الفلسطينيين في المخيمات، أخذت المدينة تتوسع شرقاً وجنوباً وبدأ بعض السكان يقيم في المناطق الواقعة شرقي المدينة، وبخاصة في الهلالية والبرامية وعبرا ومجدليون وكلها تلال تشرف على صيدا القديمة والبحر.

أما من الجهة الجنوبية الشرقية فقامت مجموعات سكنية يغلب عليها الطابع العمالي والشعبي منها: مدينة العمال والتعمير — الفيلات — السيروبية الملاصقة والمطلة على مخيم عين الحلوة — المية ومية وجوارها.

صيدا في الاجتياح الاسرائيلي

لقد أحدث الاجتياح الإسرائيلي في مدينة صيدا عام ١٩٨٢ أضراراً فادحة في الأبنية والمؤسسات إلى جانب الخسائر الجسيمة في الأرواح والممتلكات والاضطراب في حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية والحرفية.

فبادر خادم الحرمين الشريفين إلى ترميم المؤسسات والدوائر الرسمية والمدارس وسارع رجل الأعمال ابن صيدا الشيخ رفيق الحريري إلى نجدة مدينته وإخوانه.

وكان من جراء الاجتياح الاسرائيلي هدم قسم من المسجد العمري الكبير، الأثر الإسلامي الخالد الذي رمم وأعيد بناؤه.

وقد أثر احتلال القوات الإسرائيلية على حياة السكان وأصيبت الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالشلل من جراء القيود التي فرضها الاحتلال والحواجز التعسفية التي أقامها، والمعابر المؤدية إلى العاصمة بيروت والجبل التي سدها وأقفلها والاعتقالات التي طالت الشباب والرجال والنساء وأخضعتهم إلى التعذيب والتنكيل وتركت عائلاتهم وذويهم بدون معيل. ولكن تلك الممارسات والأساليب التعسفية ظلت دون جدوى، بل أيقظت في الأهالي روح الصمود والتصدي والمقاومة.

صيدا بعد خروج المحتل الإسرائيلي

بعد خروج القوات الإسرائيلية من صيدا وجوارها عادت الحياة إلى المدينة بجميع أشكالها، وأخذ الناس إلى أعمالهم ومصالحهم، وقامت ورشة البناء بشكل لم يسبق له مثيل، وتحولت بلدية صيدا إلى ورشة عمل، وشق طرقات، وتوسيع شوارع وأحدثت البولفار الشرقي.

لقد حققت صيدا بعد انسحاب القوات الإسرائيلية منها الكثير من مشاريع البناء وشق الطرقات، وتوسيع الشوارع وإنجاز البولفار الشرقي والكورنيش، وإحداث الساحات في مناطق متعددة وعادت إليها الحياة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والحرفية رغم الأحداث الأليمة، والمعارك المتواصلة، وإنه ليسعدها أن تدعوكم لزيارتها لتتعرفوا على شعبها الوديع، والمناضل الصابر، والمقاوم العنيد، وتتحققوا من عيشه الوطني المشترك وتشاهدوا ما تضمه من آثار متنوعة، وما خصها الله تعالى من طبيعة جميلة ومناظر خلابة. ●

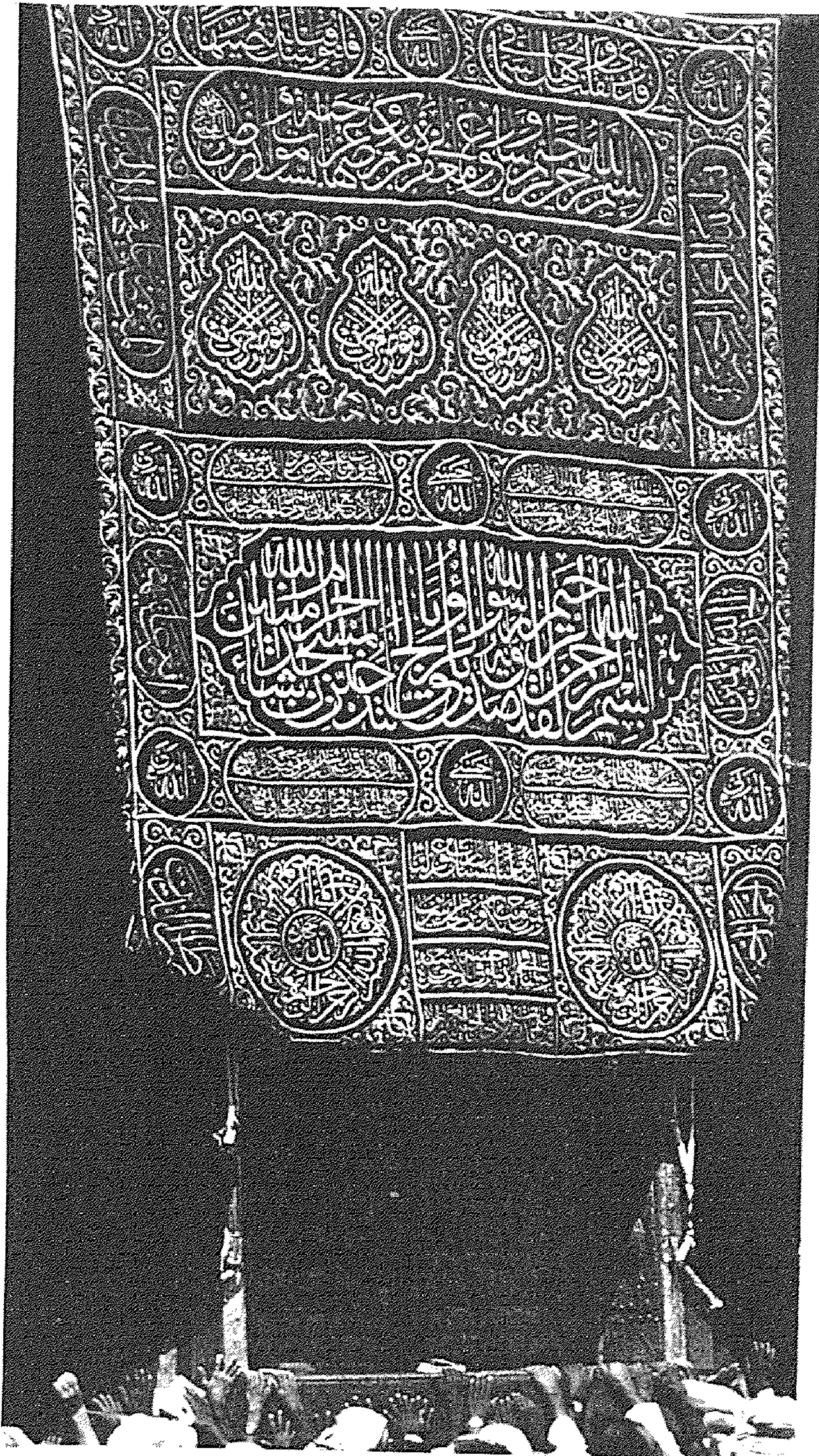
☐ ربَّ همة أحيت أمة.

«الإمام علي»

☐ كونوا وطنيين وعلموا أبناءكم الوطنية، ولا تستمعوا قول الذين يقولون اشتغلوا بدروسكم فقط ولا تشتغلوا بالوطنية، بل اجعلوا الوطنية أساس أعمالكم وأقبلوا على علومكم فحصلوها فإننا محتاجون العلم والعلماء، ولكن لا خير في العالم إذا لم يكن وطنياً.

«سعد زغلول»

طريق الحج في عصر المماليك



بقلم
د. نقولا زيادة

بين أواسط القرن السابع (الثالث عشر) وأوائل القرن العاشر (السادس عشر) كان سلطان المماليك يشمل مصر وديار الشام والحجاز وبرقة (شرق ليبيا) وكانت القاهرة عاصمة هذه الدولة الواسعة. ومعنى امتداد هذه الدولة واتساعها أنها كانت تسيطر على الطرق الرئيسية التي تصل الشرق بالغرب. ويجب أن نذكر أنفسنا بأن الطرق التي كان الحجاج يتبعونها في انتقالهم إلى الديار المقدسة هي أربع: أولاها الطريق البحرية التي كانت تحمل الحجاج بحراً من الهند وما إليها عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر. وثانيتها طريق الحج العراقي الإيراني وما إلى ذلك وكانوا ينتقلون عبر صحراء النفوذ. وثالثتها طريق سيناء وهذه كانت للحاج المصري والمغربي ورابعتها طريق الشام فالحجاز وكانت هذه سبيل الحاج الشامي والبلاد الواقعة إلى الشمال.

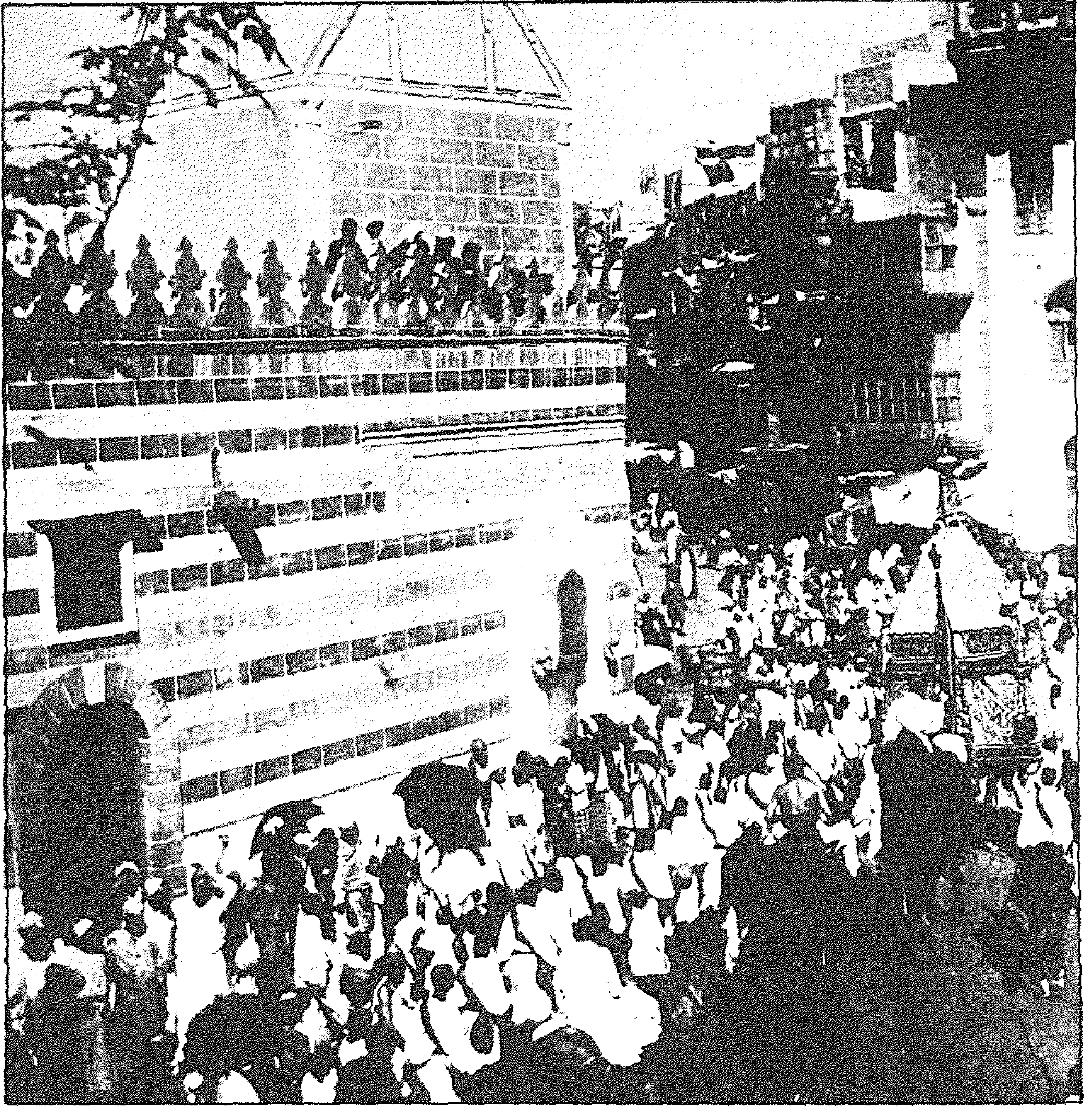
وفي أيام المماليك انتظمت مراسم الحج وعاداته الاجتماعية أكثر من ذي قبل. وكان سلاطين المماليك يحرصون الحرص كله على مراعاة المراسم والرسوم إلى أقصى الدرجات. ومن حسن الحظ أن حفظت لنا الكتب المعاصرة للماليك والرحالون الذين قاموا بفريضة الحج الكثير من هذه الأمور، بحيث أصبح بإمكاننا أن نحصل على صورة تكاد تكون وافية لما كان يتم في ذلك الوقت.

ونحن إذا تذكرنا أن القاهرة كانت عاصمة السلطنة المملوكية، توجب علينا أن نبدأ بمرافقة هذه الرسوم من هناك. وقد أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى تفصيل دوران المحمل في القاهرة. وقدم لذلك بقوله إن كسوة الكعبة المشرفة كانت في الزمن الأول مختصة بالخلفاء. وكان تجهيزها يهتم به خلفاء بني العباس من بغداد في كل سنة. ولكن بعد زوال الخلافة العباسية أصبح تجهيز الكسوة يقع على عاتق ملوك الديار المصرية. وقد وقع استبداد بعض ملوك اليمن فجهزوا الكسوة في بعض السنين. إلا أن سلاطين المماليك هم الذين كانوا يهيئونها. وكانت الكسوة تنسج بالقاهرة بمشهد الحسين من الحرير الأسود مطرّزة بكتابة بيضاء في نفس النسج فيها «إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة» (الآية). ثم تبدل ذلك فأصبحت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب. وكان للكسوة ناظر مخصوص، كما كانت لها أوقاف خاصة بها في ارض يسوس من ضواحي القاهرة يصرف منها على تحضيرها.

وينتقل القلقشندي بعد ذلك إلى التحدث عن دوران المحمل فيخبرنا أنه كان له دورتان. الأولى في رجب، بعد النصف منه والثانية في شوال. ففي الدورة الأولى كان يحمل وينادى لأصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام. ويكون الدوران إما في يوم الاثنين أو في يوم الخميس. ويحمل المحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة من خركاه وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قبة من فضة مطلية. ويبيت في ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من جامع الحاكم. ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور، ويسير إلى تحت القلعة. فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم. ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة ملبسين المصفات الحديد المغشاة بالحرير الملون. وكانوا يلعبون تحت القلعة كما في حالة الحرب. ثم يذهب المحمل إلى الفسطاط فيمر في وسطه، ثم يعود إلى تحت القلعة، ثم يحمل إلى جامع الحاكم ويوضع هناك إلى شوال.

وقد أخرج الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور إن دوران المحمل الرجبي، وهو من الرسوم التي وضعها الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٧٥ (١٢٧٤)، كان الغرض منه «هو إعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن، وأن من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق».

وكان الاحتفال بدوران المحمل، على ما ذكر أبو المحاسن، يخرج الناس إليه من كل مكان للفرجة، ويتغالون في اكتراء البيوت والحوانيت



□ وصول «المحمل» إلى مكة المكرمة عام ١٩١٠.

مغالاة كبيرة. وأضاف المقريزي أن الناس ربما قضوا ليلتهم في الطريق حتى النساء كن «يبتن في الحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد».

وقد شهد ابن بطوطة الرحالة المغربي الكبير، دوران المحمل في القاهرة فمما جاء في وصفه قوله:

وهو... يوم مشهود... يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب... ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة... ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل... والحداة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب. فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده.

أما الدورة الثانية فكانت في شوال. فإذا احتفل الناس بعيد الفطر، وانصرفوا إلى شؤونهم، كان يحتفل بدوران المحمل وسفره. فيدور المحمل في احتفال كبير كالاحتفال في الدورة

الرجبية، ويكون على رأس المحمل أمير الحج وباشاوات المحمل ويتبعهم الحاج مع أمتعته ودوابه. وإذا تذكرنا أن القاهرة كانت النقطة التي يلتقي عندها الحاج المغربي للانضمام إلى الحج المصري أمكننا أن نتصور الأعداد الكبيرة التي كانت تشترك في ذلك الاحتفال.

فإذا انتهى المحمل إلى القلعة، على ما ذكر سابقاً، استمر من هناك إلى الريدانية للسفر إلى الحجاز. والطريق كانت تجتاز سيناء إلى شمال الحجاز.

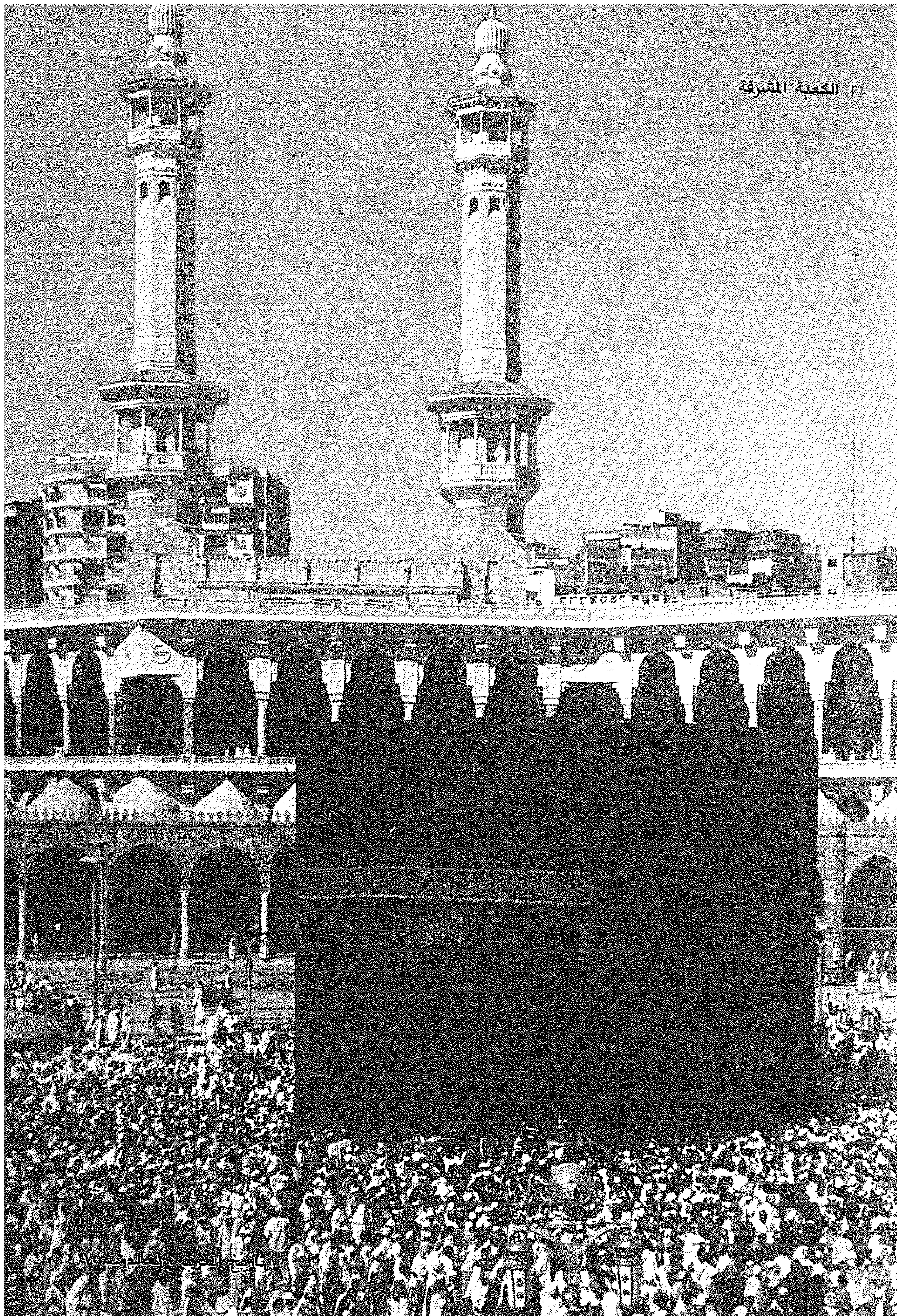
وكان الحاج الشامي يخرج من دمشق متجهاً إلى الحجاز. وكان على نائب السلطنة، أي الوالي، في دمشق أن يؤمن الطريق للحجاج إلى شمال الحجاز تقريباً. وقد رافق ابن بطوطة الحاج الشامي وعدد المحطات في الطريق من دمشق إلى تبوك، كما أنه ذكر الكثير من اختباره وتجاربه. وها نحن أولاً ننقل وصفه لذلك لما فيه من فائدة. قال:

ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة. فأخذت في الحركة معهم، وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الأمراء، وقاضيه شرف الدين الذرعي الحوراني، وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري، وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة، أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الأمراء، وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة، وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها، ثم ارتحلنا إلى مدينة بصرى وهي صغيرة، ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعاً ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه... ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زيزة (زيزا) ويقيمون عليها يوماً ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري، ثم يرحلون إلى حصن الكرك، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها، ويسمى بحصن الغراب، والوادي يطيف به من جميع جهاته، وله باب واحد قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد، ومدخل دهليزه كذلك، وبهذا الحصن يتحصن الملوك وإليه يلجأون في النوائب. وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا إلى معان، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: داخلها مفقود وخارجها مولود، وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهي حسيان لا عمارة بها. ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به. ثم إلى تبوك، وهو الموضع الذي غزاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء، فلما نزلها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتوضأ منها جادت بالماء المعين، ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ومن عادة حجاج الشام، إذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم، وجردوا سيوفهم، وحملوا على المنزل، وضربوا النخيل بسيوفهم، ويقولون: هكذا دخلها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم، ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال، واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك.

كان الحجاج يجتمعون على مقربة من حي الميدان (جنوبي دمشق) للخروج إلى الحج. وإلى هناك كان يصل الحاج عائداً من الحجاز. وقد زار دو لا بروكييه دمشق في القرن التاسع (الخامس عشر) وشاهد عودة الحاج الشامي فكتب في وصفه ما ترجمته:

وفي اليوم التالي لوصولي شاهدت قافلة الحجاج عائدة من مكة. وقد قيل أنها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الإبل. وفي الواقع استغرق دخول الحاج المدينة يومين وليلتين. وقد كانت هذه الحادثة، على مألوف القوم، يوماً بالغاً في الحفاوة. وقد خرج والي دمشق، يحف به مقدمو المدينة، لاستقبال الحجيج إجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه... وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير، عليه كتابة عربية، وكان الجمل الذي يحمله مجللاً بالحرير. وكان يتقدم الجمل أربعة من حملة المزمار والطبول والدربكات الكثيرة وكلها تدق. وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين رجلاً يتنكب بعضهم الأقواس، ويشهر آخرون السيوف، ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين الفينة والفينة. وكان يتلو الجمل ثمانية رجال



□ الكعبة المشرفة.

أجـلاء، يعلون إبلاً سـريعة العـدو، وخيولهم المجنوبة مجللة بالقماش المزركش تعلوها سروج مزخرفة، على عادة القوم هناك. وقد تلا ذلك هودج مغطى بالقماش الجميل يحمله جملان، وفيه سيدة هي قريبة للسلطان. وقد كان ثمة عـدد كبير من هـذه الدواب المجللة بـالقصب المذهب. أما الحجيـج فقد كانوا عرباً وأتراكاً وبرابرة ومغولاً وفرساً وغير ذلك من المسلمين.

ولا شك في أن تقديم كسوة الكعبة الشريفة كان، بالنسبة إلى الحاج المصري، من أهم ما يتم في مكة المكرمة. وقد وصف ابن بـطوطة ذلك بقوله:

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في أسبالها على الكعبة الشريفة، وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبـطنة بالكتاب وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً. الآية، وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائـح مشرق من سوادها.

ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدي الناس. والملك الناصر هـو الذي يتولى كسـوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمـع والزيت في كل سنة.

وفي هذه الأيام تفتـح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مـع الركب العراقي، وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام، فيكثرون فيها الصدقـات على المجـاورين وغيرهم ولقـد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليـلاً، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثيـاب، وكذلك يعـطون للمشاهـدين الكعبـة الشريفة، وربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة.

●



الشرطة في الصدر الأول من الإسلام

● كانت الشرطة خادمة للقضاء في الصدر الأول، لأنها تساعد مساعدة لها شأن على إثبات الذنب على فاعله، وتساعد الحكومة أيضاً على تنفيذ الحكم، فصاحب الشرطة يقيم الحدود على الزناة، وشاربـي الخمر، ويعذر ويؤدب من لا ينتهي عن الجرائم، وينظر في أحكام العامة وأهل السوق، وعليه في زمننا هذا تقرير الأمن، وحفظ النظام، والرقابة على ما يحدث في الأسواق ومجال الاجتماعات من الخلل والتعدي، وقطـع دابر القمار والمفاسد، ومنـع اعتداء الناس بعضهم على بعض صغاراً أو كباراً.

كلمة لبعض الحكماء

● الرجل الذي يكون غرضه من الحياة سعادة نفسه هو رجل سوء والرجل الذي يكون غرضه من الحياة حسن رأي الناس فيه هو رجل ضعيف والرجل الذي يجعل غرضه من الحياة مساعدة إخوانه من بني الإنسان وإسعادهم هو رجل خير. والرجل الذي يجعل غرضه من الأعمال لوجه الله هو الرجل العظيم.



من قصص العرب

أكثرُ الناس يقرأها بالفتح

● قرأ الخليفة المتوكل يوماً، وبحضرته وزيره الفتح بن خاقان: (وما يُشْعِرُكُم أنَّها إذا جاءت). فقال له الفتح:

يا سيدي، (إنَّها إذا جاءت) بالكسر.

ووقعت المشاجرة، فتراهنا على عشرة آلاف دينار، وتحاكما إلى يزيد بن محمد المهلَّبي الشاعر ـــ وكان صديقاً للمبرّد[1] ـــ فلما وقف يزيد على ذلك خاف أن يَسْقُطَ أحدهما، فقال:

والله ما أعرف الفرق بينهما. وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم.

فقال المتوكل:

فليس ها هنا من يُسأَل عن هذا؟

قال:

ما أعرف أحداً يتقدم فتى بالبصرة يُعرف بالمبرّد.

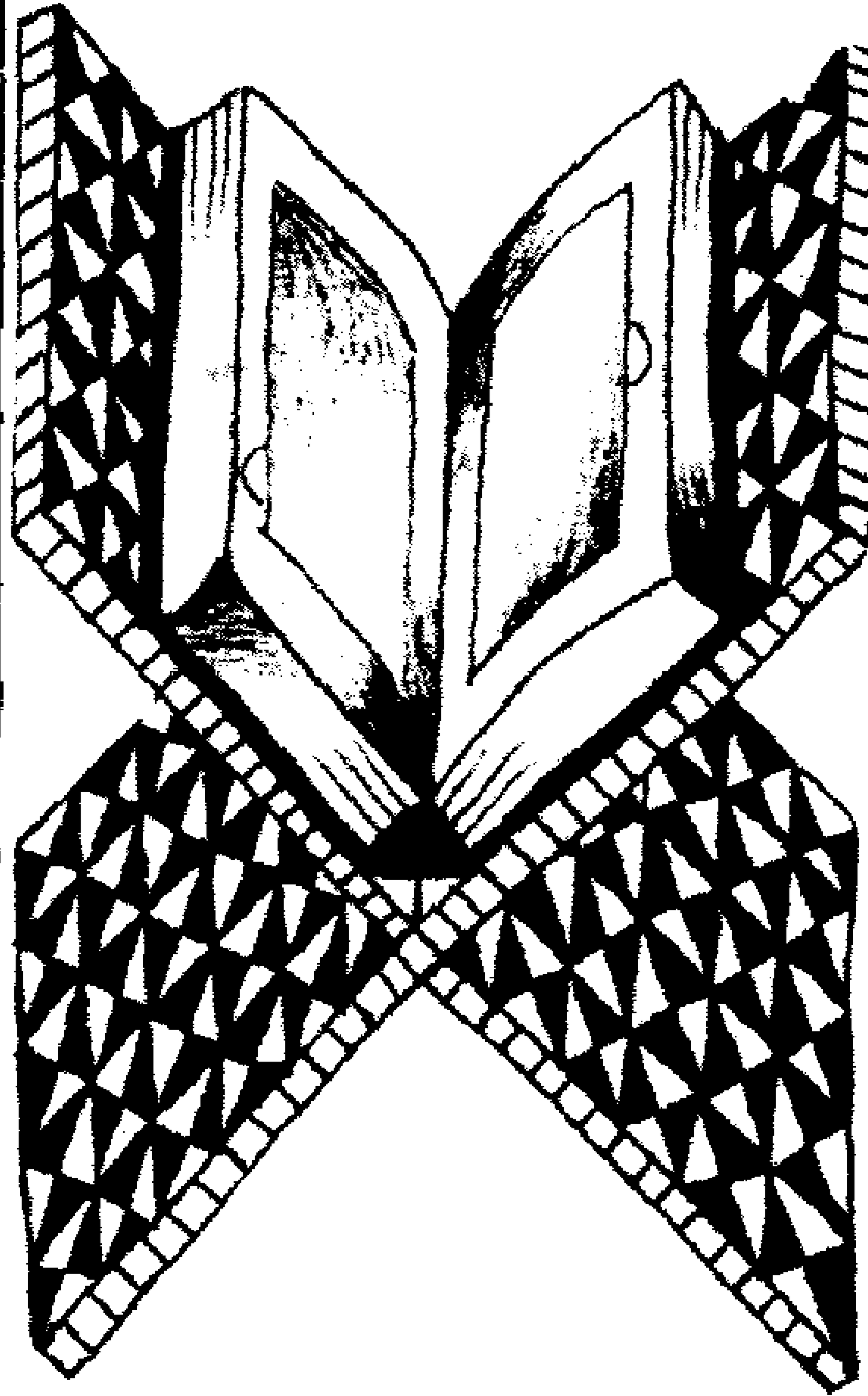
فقال: ينبغي أن يُشْخَص.

فلما أُدْخِل المبرّد على الفتح بن خاقان، قال له:

يا بصريّ، كيف تقرأ هذا الحرف (وما يُشْعِرُكم إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بالكسر، أو (أنها إذا جاءت) بالفتح؟

قال المبرد:

(إنها بالكسر). وذلك أن أول الآية: (وأقْسَموا بالله جَهْد أيمانهم لئن جاءتهم آية لَيُؤْمِنُنَّ بها، قُل إنما الآيات عند الله وما يُشْعِرُكم)، ثم قال تبارك وتعالى: يا محمد (إنّها إذا جاءت لا يؤمنون) باستئناف جواب الكلام المتقدم.



قال الفتح: صدقت.

ثم ركب إلى دار أمير المؤمنين، وعرّفه بقدوم المبرّد، وطالبه بدفع ما تخاطرا عليه. فأمر المتوكل بإحضاره المبرد. فلما وقعت عينه عليه قال:

يا بصريّ، كيف تقرأ هذه الآية: (وما يُشْعِرُكم إنها إذا جاءت) بالكسر، أو (أنَّها إذا جاءت) بالفتح؟

قال المبرّد:

يا أمير المؤمنين، أكثر الناس يقرأها بالفتح.

فضحك المتوكل وضرب برجله اليسرى، وقال:

أحضر يا فتحُ المال.

فقال: إنه والله يا سيدي قال لي خلاف ما قال لك.

فقال المتوكل:

دعني من هذا. أحضر المال!

وخرج المبرّد. فلم يصل إلى الموضع الذي كان أُنْزِلَه حتى أتته رُسُل الفتح. فلما أتاه قال له:

يا بصريّ، أوّل ما ابتدأنا به الكذب!

قال المبرّد: ما كذبتُ.

فقال: كيف وقد قلتَ لأمير المؤمنين إن الصواب: (وما يُشْعِرُكم أنها إذا جاءت) بالفتح؟

فقال:

أيها الوزير، لم أقل هكذا، وإنما قلت: أكثر الناس يقرأها بالفتح. وأكثرهم على الخطأ. وإنما تخلّصتُ من اللائمة، وهو أمير المؤمنين.

فقال الفتح: أحسنت!

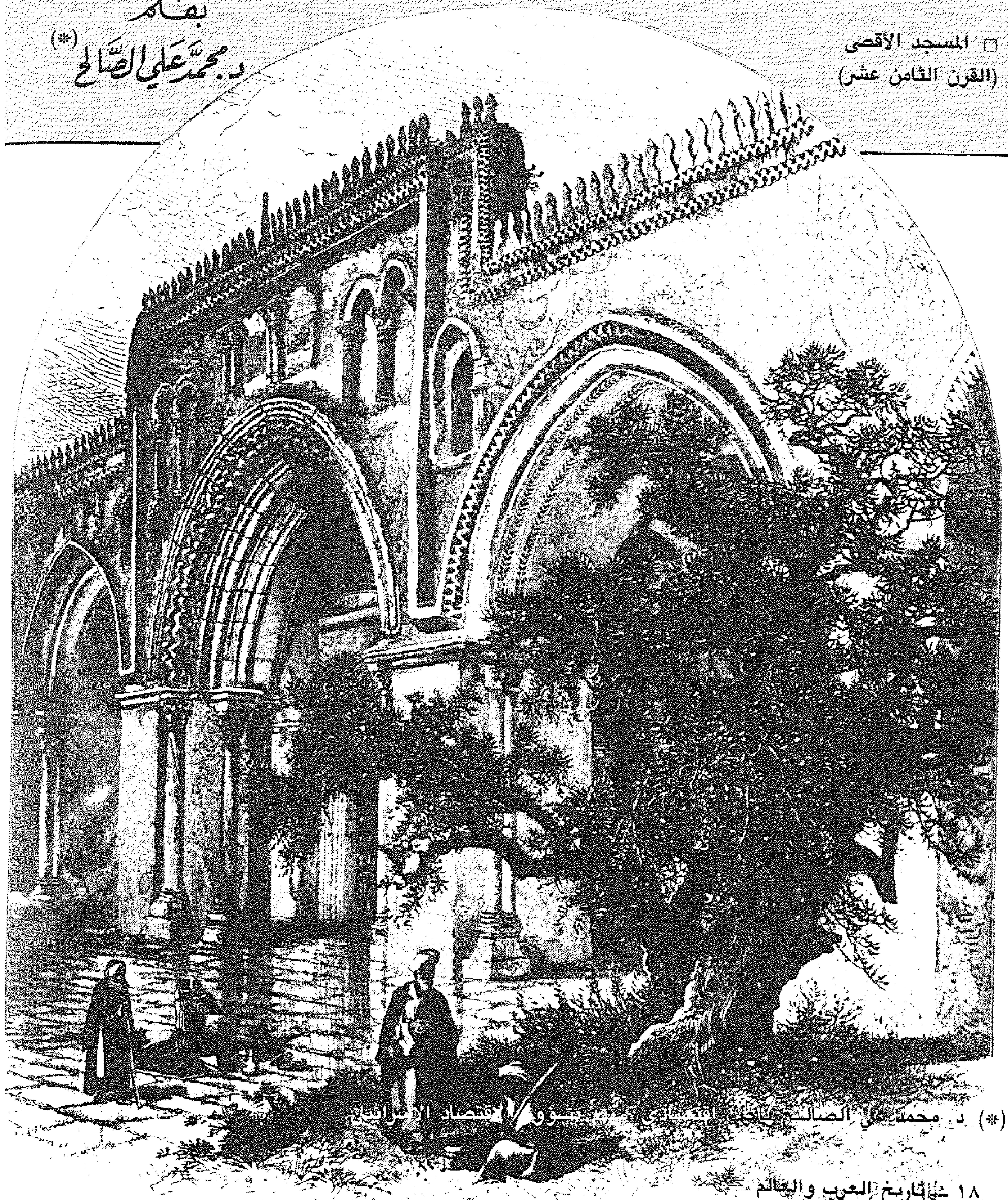
١) المبرد: (٨٢٦ ـــ ٨٩٨م) من اكبر النحويين العرب وصاحب كتاب «الكامل».

من كتاب «طبقات النحويين واللغويين» للزُّبيدي الأندلسي.

نتائج الصدمة الاقتصادية لغزو الفرنجة ١٠٩٩م - ١١٨٧م

بقلم
د. محمد علي الصالح (*)

□ المسجد الأقصى
(القرن الثامن عشر).



(*) د. محمد علي الصالح باحث اقتصادي في شؤون الاقتصاد الإسرائيلي

في اليوم الخامس عشر من شهر تموز عام ١٠٩٩ ميلادية سقط بيت المقدس في أيدي الصليبيين. حزيران آخر في تاريخ الكفاح الطويل لأمتنا.

تموز عام ١٠٩٩، شاهد ميلاد عصر جديد، عصر الحروب الصليبية ومعركة تحرير دامت قرابة قرنين من الزمن.

وتموز عام ١١٨٧، شهد الانتصار الفاصل في حطين وبدء الانحدار النهائي للصليبيين وانحسارهم التدريجي عن البلاد الشامية وأفول طموحاتهم وخيبة آمالهم.

وسأتناول هنا تأثير التطورات السياسية والعسكرية للغزو الصليبي على الحالة الاقتصادية لبلاد الشام، وذلك منذ سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين وحتى هزيمتهم في حطين. كما سأحاول من خلال الصفحات القليلة القادمة وصف البنية الاقتصادية لبلاد الشام خلال الحقبة المشار إليها.

١ ــ الوضع الاقتصادي لبلاد الشام عشية الغزو الفرنجي



يبدو أن بلاد الشام كانت ما تزال في مطلع القرن الحادي عشر بلاداً غنية. يؤكد ذلك وصف أحد الرحالة الفرس المعاصرين وهو ناصري خسرو لحال المدن الشامية التي زارها يومها. كذلك ما كتبه مؤرخو هذه الحقبة العرب عن حجم الأموال الكبيرة التي كان يبتزها الحكام الفاطميون من الأهالي، مما يشير إلى أن البلاد كانت ما تزال يومها تملك بعض الرمق[١]؛ بالرغم من حالة الفقر التي بدأت تنتشر في فلسطين خلال الثلثين الأخيرين من القرن الحادي عشر عشية الغزو الصليبي، خاصة بسبب التقلبات والنزاعات السياسية الداخلية الشديدة التي شهدتها بلاد الشام خلال القرن المذكور[٢]. مع ذلك، تكلم الجغرافيون والرحالة العرب الذين زاروا البلاد الشامية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، عن المساحات الواسعة التي زرعت بالأشجار المثمرة في طول البلاد وعرضها. كما شكلت زراعة القمح دوماً المصدر الرئيسي للزراعة في البلاد الشامية، وكذلك زراعة الزيتون. حتى أن البلاد كانت تتمكن حتى في فترات الكساد الاقتصادي التي كانت تتنتابها بين الحين والآخر من تصدير كميات كبيرة من الزيت إلى البلاد المجاورة. كذلك، كانت تصدر كميات كبيرة من الأثمار، والعنب والزبيب إلى مصر. كما عرف سكر بلاد الشام بجودته. وكانت مزارع قصب السكر تمتد على طول الساحل وفي الجليل وغور الأردن[٣]. أما فلسطين، فكانت تصدر الجبن في القرن الحادي عشر إلى مصر، حيث كان يشكل مادة غذائية مهمة ورخيصة لسواد الشعب. كما عرفت فلسطين يومها بتقليد قديم في تربية النحل، وكانت ما تزال تصدر في القرن الحادي عشر كميات من العسل والشمع إلى البلدان المجاورة، كذلك القطن، فقد كان يشكل أحد أهم الزراعات والصادرات لبلاد الشام في ذلك الحين[٤]. هكذا كان وضع الزراعة.

أما وضع الحرف في المدن الشامية فقد أشار إليه كثير من الكتاب العرب في القرون الوسطى. إلا أنه يجب الابتعاد عن المغالاة في تقدير وزن «الصناعة» يومها في اقتصاد بلاد الشام. ما عدا فرع النسيج الذي كان يصدر قسماً كبيراً من منتجاته، كالمصنوعات القطنية من شمال بلاد الشام وفلسطين، والشاش الموصلي وغيره من المصنوعات الكتانية من أنطاكية، والرصافة والباب في شمال سورية، والمصنوعات الحريرية وعلى رأسها البروكار الدمشقي[٥]. وكانت المنتجات النسيجية في ذلك الوقت متعددة الأنواع وأغلى من أيامنا هذه. وكانوا يدفعون فيها أسعاراً مرتفعة وخاصة لذلك النوع المعروف بالأعلاق. كذلك تم تصنيع الصابون من زيت الزيتون وصدرت كميات منه إلى مصر وباقي

البلدان. أما معامل الورق فكانت منتشرة في كل من دمشق وطبرية وطرابلس[٦]. وصدرت منه كميات كبيرة إلى مصر.

أما علاقات بلاد الشام التجارية مع الدول الأخرى في آسيا الغربية، فلا توجد بشأنها سوى معلومات قليلة تخص القرن الحادي عشر عشية الغزو. فقد تاجرت سورية منذ القدم مع الجزيرة العربية والعراق. وكانت حلب تشكل المحطة الأخيرة للقوافل الآتية من العراق وفارس. كما كانت في القرنين العاشر والحادي عشر مركزاً ومعبراً مهماً للتجارة الآسيوية مع الدولة البيزنطية. تشير إلى ذلك الاتفاقية التجارية التي عقدها حكام القسطنطينية مع أمراء حلب في نهاية القرن العاشر ميلادي بعد أن أعاد البيزنطيون احتلال أنطاكيا من أيدي العرب[٧]. ووصف الطبيب العربي ابن بطلان الذي مر بشمال سوريا عام ١٠٤٨م تجارة النسيج الواسعة هناك[٨].

أما دمشق، فكان حظها أقل من شقيقتها حلب في تجارة الغرب الآسيوي. فقد كان أثر التطورات السياسية على العاصمة «التاريخية» لبلاد الشام أشمل وأعمق. ويرى اليسيف Elisseeff، أن المدينة بعد انهيار الحكم الأموي في القرن الثامن وحتى مجيء نور الدين زنكي في القرن الثاني عشر، لم تعرف سوى مدد قليلة من الانتعاش الاقتصادي[٩].

وبالرغم من التقلبات السياسية التي سادت القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، نرى التجار من الساحل السوري يعودون للإبحار في المتوسط بعد تراجع السيطرة البحرية البيزنطية أمام ضربات العرب المغاربة الذين كانوا قد احتلوا الجزر المركزية في الأبيض المتوسط وهي جزر كريت، وصقلية، ومالطا وجزر البليار، وفرضوا سيطرتهم على طول البحر وعرضه[١٠]. إلا أن دائرة نشاط التجار السوريين بقيت محصورة قياساً بأقرانهم المغاربة، واتجهت رحلاتهم في أغلب الأحوال إلى مصر والقسطنطينية. فعاد الانتعاش مجدداً إلى المرافئ السورية كطرابلس، وبيروت وصور.

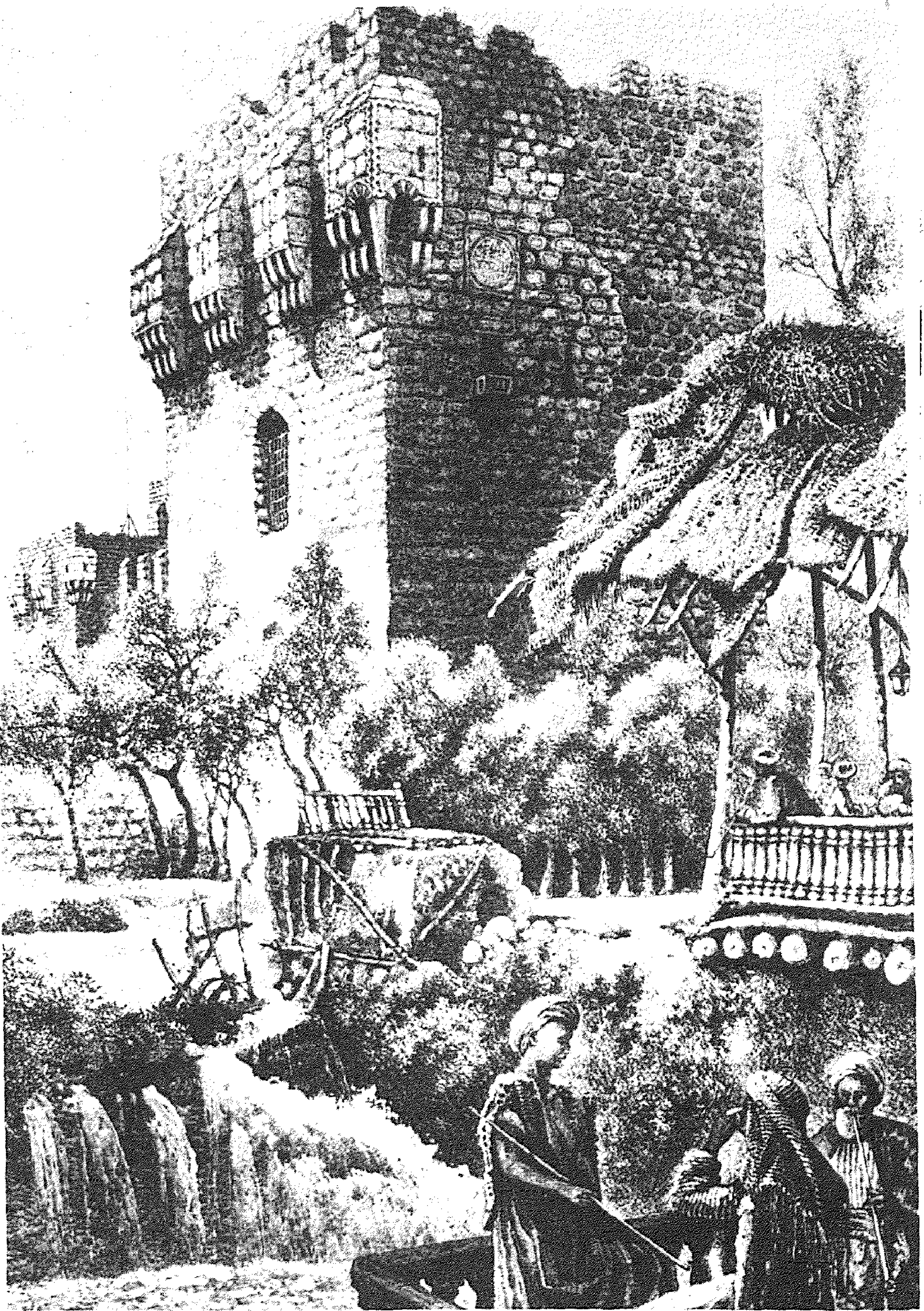
ومع أن السيطرة البحرية الإسلامية في الأبيض المتوسط بدأت تضعف رويداً رويداً خلال الفترة بين أواخر القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر، إلا أن هذه الفترة شاهدت انتعاشاً للعلاقات التجارية إلى ما وراء البحار لم تعرفه حتى خلال العهد الروماني. فنرى ميناء المهدية في تونس يتاجر بشكل مكثف مع الساحل السوري ومصر من ناحية ومع الأندلس في الغرب من ناحية أخرى.

أما طرابلس الغرب في ليبيا، فكانت مصدراً مهماً للتجارة الآتية من أفريقيا وأوروبا باتجاه المشرق. كما زار التجار من القسطنطينية، وأسبانيا المسلمة، وصقلية، وغرب أوروبا، طرابلس الشام التي كان ينطلق منها الأسطول التجاري الخاص بالخليفة الفاطمي في القاهرة، والمتوجه إلى القسطنطينية، وصقلية وأفريقيا الشمالية[١١].

هناك تحول خطير يتعلق بالتجارة فيما وراء البحار بدأ يتبلور ويشتد خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي أي مباشرة عشية بدء الحروب الصليبية. فقد اغتنم التجار الإيطاليون من رعايا المدن الإيطالية التجارية النشطة والواقعة على ساحل الأبيض المتوسط عودة السيطرة البحرية البيزنطية وعودة البيزنطيين إلى احتلال شمال الساحل السوري، لكي يقوموا بعملية «استطلاع» دقيقة على طول السواحل السورية والمصرية، أعقب ذلك تمركزهم في أنطاكيا واللاذقية وحصولهم عام ١٠٧٠م على صكوك امتيازات وحق إقامة مستودعات لبضائعهم في المدينتين المذكورتين[١٢].

وابتدأت الجولة الأولى من الغزو الفرنجي، التي كانت شديدة على الأمراء المسلمين والمستقلين، فنرى صغارهم في مدنهم المختلفة يسعون إلى مهادنة الفاتحين الجدد طمعاً في اعترافهم بهم ويقيمون معهم علاقات الأمر الواقع.

وقد كان لفظائع الصليبيين الخراب والدمار اللذين حلّا بالبلاد، صدمة تركت أثرها على الحياة الاقتصادية. ويشير ابن القلانسي، أنه جرى تحت حكم أتابك دمشق طُغتكين (١١٠٤ ــ ١١٢٨). إعادة زراعة الأراضي التي لم يعد لها أصحاب نتيجة الغزو، وأن الحكومة قامت بموافقة الخليفة المسترشد العباسي ببيع أراضٍ أميرية لتمويل



عملية استصلاح وسقاية هذه الأراضي البور[١٣].

ونتيجة للأسفين الفرنجي الذي دق في قلب بلاد الشام، رأت مدن ومناطق داخلية عدة كانت تبعث بفائضها من الإنتاج الزراعي إلى المدن الساحلية ومصر، نفسها فجأة وقد انقطعت خطوط اتصالاتها السابقة. لكن سرعان ما تغلبت المصالح الضيقة للأمراء العديدين على هول الصدمة. وتعكس اتفاقيات الهدنة المعقودة بين أمراء مدن طرابلس، ودمشق وحلب من جهة والصليبيين من جهة أخرى في الأعوام ١١٠٤ و١١٠٩ و١١١٣ و١١١٤ و١١٢٣ ميلادية، هموم الأمراء المحليين للحفاظ على سلامة الحياة الاقتصادية لمقاطعاتهم التي تشكل المبرر الأساسي لاستمرار حكمهم، أمام حملات السلب والنهب التي كان يقوم بها الفرنجة لاستغلال تفوقهم العسكري وتأمين موارد مالية مهمة لهم[١٤]، وحروب الاستنزاف هذه قامت بها على الأخص مملكة القدس الصليبية وإمارة الرها في الشمال.

النشاط الاقتصادي للإمارات اللاتينية في بلاد الشام

شكل احتلال المدن الساحلية على طول سواحل بلاد الشام الشرط الأساسي والحيوي لاستمرار بقاء الإمارات الصليبية. إذ أن ذلك كان يكفل لهم بقاء اتصالهم مع قواعدهم التي انطلقوا منها في أوروبا. كما أنهم كانوا يحتاجون لهذه المدن لإكمال سيطرتهم البحرية ومنع العرب في مصر وشمال أفريقيا من نجدة أخوانهم عرب الشرق. وهكذا بدأ عام ١١٠٠م الاستعراض البحري الضخم لأساطيل كل من البندقية وجنوا وبيزا على امتداد الساحل السوري. وكان يعني هذا الاستعراض البحري أيضاً أن السيطرة البحرية وبالتالي السيطرة على التجارة البحرية في شرق الأبيض المتوسط كانت في سبيل الانتقال إلى أيدي البنادقة والجنوية والبيازنة. وتبعهم في ذلك أيضاً تجار مدينة مرسيليا الفرنسية. فمساعدة أساطيل المدن المذكورة للإمارات الصليبية لم تكن لوجه الله بل نراهم يشترطون بعد فتح كل مدينة أو ميناء على ساحل البحر، الحصول على امتيازات تجارية وأقليمية وقضائية فيها لقاء مساعدتهم الثمينة. وبهذه الوسيلة نشأت مستعمرات عدة لمواطني المدن الإيطالية ضمن الإمارات الصليبية، شكلت قواعد لهم ونقاط ارتكاز يديرون منها مصالحهم التجارية وينطلقون منها للسيطرة على التجارة مع الشرق. أما القاعدة المادية لكل من هذه المستعمرات فكانت تتمثل بالممتلكات التي حصلت عليها داخل كل مدينة، من مستودعات لتخزين البضائع، ومنافذ للبيع، وورش صيانة، ومطاحن، ومخابز.

تعبئة الموارد من أجل المعركة

ساعد تفتت السلطة السلجوقية في فارس والعراق، وصعود الزنكيين وظهورهم في الشام، على انتقال مركز ثقل الإسلام إلى البلاد الشامية في مواجهة الصليبيين طوال ثلاثين سنة، وذلك بعد أن بقي بعيداً عنها منذ انهيار الدولة الأموية.

وقد انعكس استقرار الوضع السياسي الداخلي خلالها على وضع البلاد الاقتصادي وحجم التبادل التجاري. يؤكد ذلك النفقات الكبيرة للدولة الزنكية على المجهود الحربي التي استندت بالدرجة الأولى على الريع المتوفر من الزراعة. كما أن نور الدين لجأ في مرحلة أولى خلال مرحلة تدعيم حكمه في بلاد الشام، وليؤمن الاستقرار على حدوده الجنوبية خلالها، إلى الاستمرار في دفع الجزية إلى ملك القدس الفرنجي كما كان يفعل أمراء دمشق السابقون. إلا أن محاولاته لتحرير بعض الموانىء على البحر ليضمن لمملكته متنفساً فقد باءت بالفشل[١٥].

إضافة إلى ذلك، أحدث ظهور نور الدين ومن بعده الأيوبيين تغييراً عميقاً في المشرق العربي، كان له أبعد الأثر على تطور الأسس الاقتصادية التي كان يقوم عليها. فقد أدى نشوء دولة مركزية قوية من جديد على أنقاض الإمارات والممالك المتنازعة في بلاد الشام، واعتماد هذه الدولة المركزية على جيش أكثره من الأغراب الذين لا تربطهم علاقات بالسكان المحليين إلا ما ندر، ودعم «أصحاب العمائم» من علماء

وقضاة ومتصوفين لأصحاب هذه الدولة المركزية، شجعهم على ذلك التطورات السياسية المستجدة وعلى رأسها التحدي الصليبي الذي لم يكتف باحتلال ثاني الحرمين الشريفين بل أخذ يهدد حتى باحتلال قبر الرسول الأعظم، إلى قمع وخنق النواة البورجوازية التي بدأت تترعرع وتزدهر في المدن السورية المختلفة، مستفيدة من حالة التفتت السياسي، وضعف سلطة الأمراء السياسية المتربعين على عروش المدن الشامية المختلفة، وغياب دولة مركزية قوية قبل نشوء الدولة الزنكية. لهذا السبب، نرى أن تمرداً كتمرد ابن الصوفي، أحد ممثلي هذه البورجوازية الناشئة عام ١١٤٩م في دمشق وبدعم من أحداث المدينة (أي الميليشيا المحلية)، قد أصبح تحت حكم نور الدين وخاصة من بعده غير وارد[١٦].

إلا أن النظام «الاقطاعي» لم يكن قد أصبح متين الجذور بعد، بالرغم من ان الاقطاع العسكري (إقطاع ريع الأرض وليس ملكيتها) أصبح بعد هزيمة نور الدين في معركة البقيعة عام ١١٦٣م وراثياً. إضافة إلى أن نور الدين اتبع سياسة لينة مع أهالي المدن الشامية، واعترف لهم بنوع من الحكم الذاتي، مكافأة لهم على مساعدته في تقويض سلطة حكامهم السابقين، مما سمح للعديد من أبناء البورجوازية المحلية (التجار) بتقلد مناصب هامة في إدارة هذه المدن، وحتى في الحكومة المركزية والجيش، طوال مدة حكمه[١٧].

بعد مجيء صلاح الدين إلى السلطة وإزاحته لورثة نور الدين من الحكم، حدث تحول مهم آخر في مصير بلاد الشام. فقد انتقل مركز الدولة الجديدة إلى القاهرة. ومن هناك قاد صلاح الدين معركته ضد الصليبيين في بلاد الشام. بعد أن عمل على إنشاء جيش بري قوي من أجل معركة التحرير هذه، والذي مكنه من النصر الحاسم في حطين.

أما في البحر، فلم يستطع صلاح الدين كسر احتكار أساطيل الإيطاليين والنورمانديين بالرغم من محاولاته المتصلة. وكان صلاح الدين قد بذل جهداً عظيماً من أجل إعادة تعمير الأسطول الفاطمي القديم، لمواجهة الظهور البحري المسلح لأساطيل بيزنطة، ونورماندي صقلية، على طول الشواطىء المصرية في الفترة ١١٦٩ ـ ١١٧٩م، وكذلك لدرء محاولات الفرنجة البحرية في البحر الأحمر[١٨].

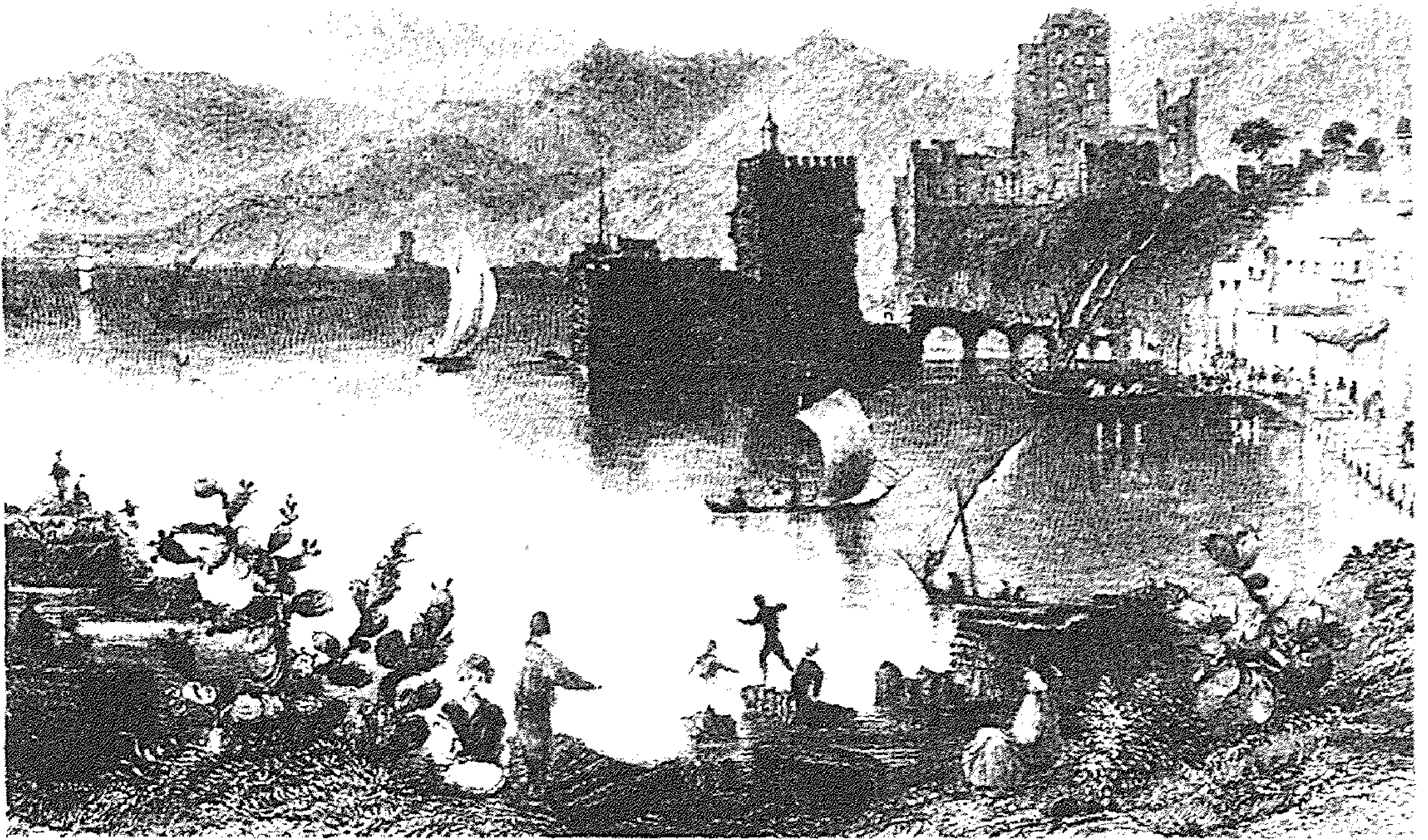
ومن أجل هذه المواجهة، عقد صلاح الدين مع بعض جمهوريات المدن الإيطالية اتفاقيات تجارية، منحهم بموجبها امتيازات في الموانىء المصرية على أن يمدوه بما يلزمه لبناء وتجهيز وتسليح السفن التي يحتاجها من أجل تدعيم سياسته البحرية[١٩].

وبأسطوله الحديث هذا، بدأ صلاح الدين في الفترة ١١٧٩ ـ ١١٨٧م، هجوماً بحرياً معاكساً مكنه من تطهير البحر الأحمر من الفرنجة، وإعادة سيطرة مصر الاحتكارية على التجارة مع الهند في البحر الأحمر والبحر العربي. بل وقام الأسطول الأيوبي انطلاقاً من مصر بفرض حصار بحري خلال الفترة المذكورة على موانىء بلاد الشام المحتلة[٢٠].

إلا أن نتائج هذه الانتصارات في الأبيض المتوسط لم تثمر في نهاية الأمر. فقد اشترط الصليبيون في اتفاقية استسلام ميناء عكا لهم عام ١١٩١م، تسليم الأسطول المصري المحاصر في الميناء والمؤلف من خمسين شونة[٢١].

ويعتبر صلاح الدين آخر حاكم مسلم في القرون الوسطى، عرف أهمية حيازة أسطول حربي لحماية خطوط إمداد الدولة السورية المصرية. وقد أهمل الأيوبيون من بعده، وخاصة المماليك، عمارة الأسطول، مما أدى في نهاية الأمر إلى فقدان دولة المماليك لسيطرتها على تجارة المحيط الهندي أمام البرتغاليين.

لكن صلاح الدين بالمقابل لم يظهر دراية ومعرفة جيدة بشؤون دولته المالية مثلما برع في فنون القتال. وقد انعكس الإنهاك الاقتصادي بسبب حالة التعبئة والحروب المتواصلة مع الفرنج، على استقرار الدينار المصري المتعامل به في أنحاء البلاد. كذلك انعكس هذا الإنهاك، في القروض الإلزامية التي فرضت على الأهالي ولم تستطع الدولة أيام صلاح الدين والذين أتوا من بعده ردها إلى أصحابها. ويعود الشح في توفر الأموال ليس فقط بسبب الأعباء العسكرية، لكن أيضاً بسبب السياسة الضرائبية السيئة للدولة الأيوبية[٢٢]. ولإعطاء فكرة عن قوة الدفع



□ مرفأ بيروت

بارتلت ــ ١٨٣٤.

النقدية لكلا الفريقين المتحاربين، وبالتالي فكرة عن رؤوس الأموال المتداولة، نذكر بأن صلاح الدين كان مستعداً عند تحرير بيت المقدس أن يفتدي فقراء الفرنجة بـ ١٠٠,٠٠٠ ألف دينار. كما أعفى الأديرة والكنائس من مصادرة ممتلكاتها المنقولة، وغير المنقولة، والتي قدرها الأصفهاني يومها بـ ١٠٠,٠٠٠ ألف دينار أخرى ذهباً. وقد أثار هذا التسامح من قبل صلاح الدين اللغط في معسكر السلطان! أما أمير عكا من قبل صلاح الدين، فعرض على الفرنجة أن يفتدي المدينة بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ ألف دينار أخرى[٢٣].

خلاصة القول، إن السياسة الاقتصادية التي اتبعها صلاح الدين، جاءت انعكاساً للأحوال السياسية والاقتصادية المختلفة لكلا الاقليمين السوري والمصري، والتي كانت سائدة فيهما عشية إنشاء الدولة الأيوبية، وتوحيد الاقليمين المذكورين في إطارها. فمنذ القرن العاشر الميلادي، انتقل مركز الثقل التجاري والاقتصادي للعالم الإسلامي، من العراق والخليج العربي، إلى مصر الفاطمية. ولم يكن بمقدور صلاح الدين منطقياً بعد استيلائه على السلطة في القاهرة عام ١١٧١م، وتفويته الفرصة على الصليبيين لبسط نفوذهم هناك، سوى متابعة السياسة الفاطمية بهذا الشأن. من جهة أخرى، كان صلاح الدين يعي تماماً مبلغ الفوائد التي يمكن أن يجنيها من وراء إقامة علاقات تجارية مع الدول الأعظم الأوروبية البحرية، وخاصة من أجل حصوله على مواد ومعدات يمكن أن تخدم مجهوده الحربي[٢٤]. لذلك نراه يتبع سياسة اقتصادية مختلفة بالنسبة لمصر وبلاد الشام. فبينما نراه يمنع التجار الفرنجة من ارتياد البحر الأحمر وداخل مصر، بعكس ما كانوا يفعلونه خلال الحكم الفاطمي، يسمح لهم بالمقابل بارتياد ثغور بحرية مصرية محددة على الأبيض المتوسط لممارسة نشاطاتهم التجارية هناك[٢٥].

وبينما يحد من دائرة نشاط تجار الفرنجة في مصر بشكل عام، نراه يتصرف تجاههم في بلاد الشام بمرونة أكبر، مما أثار حفيظة الرحالة ابن



□ مرفأ صور دافيد روبرتس ــ ١٨٣٩.

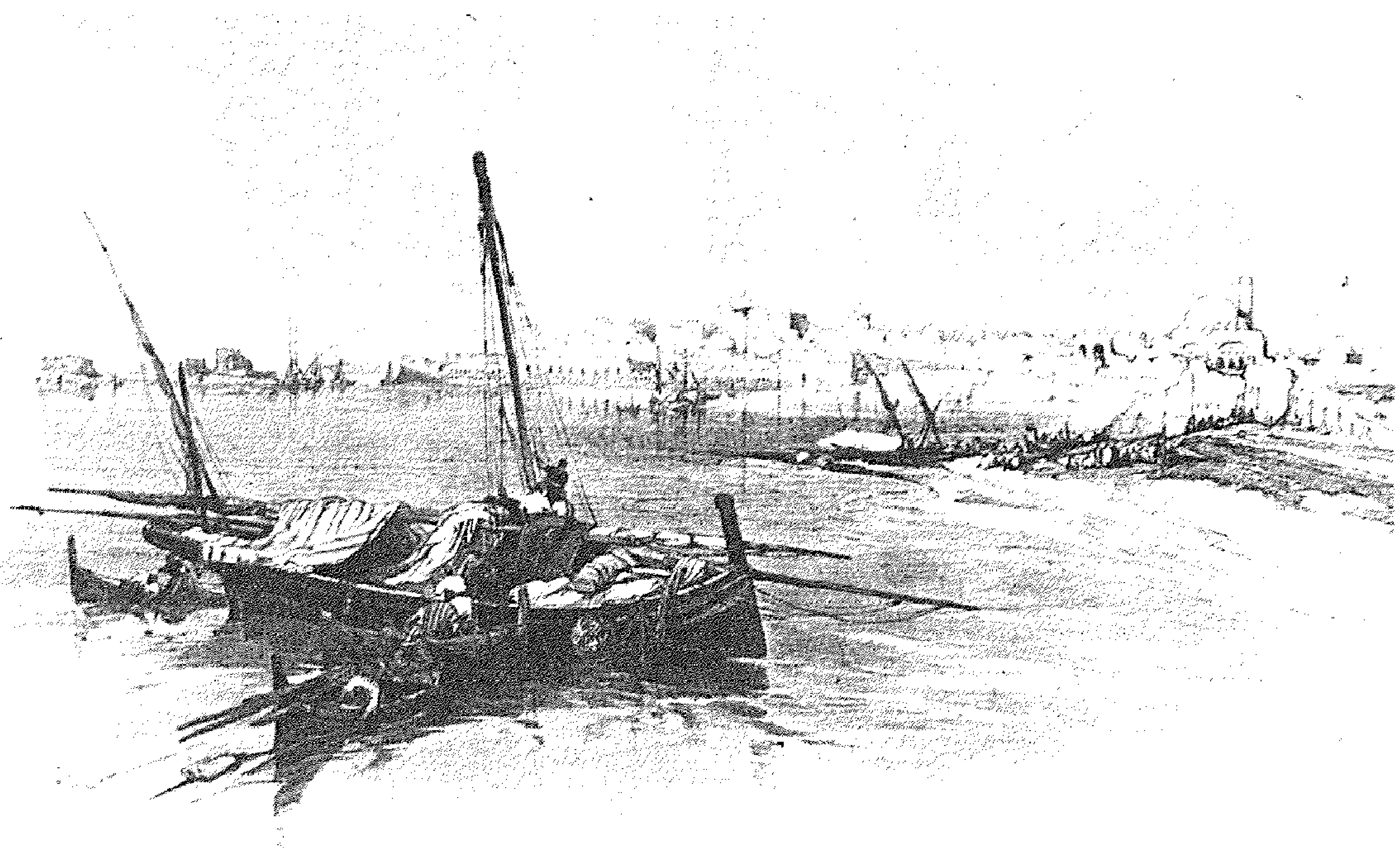
جبير الذي لم يستطع أن يستوعب مجريات الأمور في البلاد الشامية، حيث العلاقات التجارية قائمة على قدم وساق بين الفريقين المتخاصمين، والقوافل تتنقل بين المنطقتين بينما الحرب سجال(٢٦). وقد ارتكزت سياسة الدولة الأيوبية الاقتصادية في بلاد الشام، على تشجيع حرية التجارة لتأمين انسياب البضائع بين مصر وسوريا، وباتجاه الشرق مع العراق وفارس عبر المنطقة المحتلة من قبل الفرنجة. وذكر العيني أنه غالباً ما كان يذكر في بنود اتفاقيات الهدنة المختلفة التي كانت تعقد بين الأيوبيين والفرنجة، من أن مجرد تهديد أمن وحياة التجار المصريين المسافرين عبر المنطقة الفرنجية المحتلة، يمكن أن يشكل في حد ذاته سبباً لنقض اتفاقيات الهدنة(٢٧).

بكلمات أخرى، ارتكزت مجمل استراتيجية الأيوبيين، ومن بعدهم المماليك، على دعم مركز القاهرة السياسي والاقتصادي في ذلك الحين وتطويره.

تأثير ازدهار تجارة المشرق الأوروبية على الوضع الاقتصادي لبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

مع أننا لم نقم من خلال بحثنا إلا باستعراض الفترة منذ بدء الحروب الصليبية وحتى معركة حطين، إلا أنه يمكن الإشارة، إلى أن النصر الساحق في حطين الذي هدد لأول مرة بسحق النفوذ الفرنجي، وإزالة مختلف آثاره، أظهر في الوقت نفسه للدول الأعظم البحرية في أوروبا الأهمية الخاصة لمستعمراتها التجارية التي أنشأتها على الساحل السوري، في تطوير تجارة المشرق لصالحها. فسارعت إلى نجدتها، وفرضت شروطها في نفس الوقت، من أجل تأمين خطوط مواصلات الحملة الصليبية الثالثة وما تلاها.

ومن العبث ترديد القول ما للحروب الصليبية من أهمية كعامل منشط للعلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ومن أن نتائج الحروب



□ مرفأ عكا في فلسطين المحتلة — دافيد روبرتس ـــ ١٨٣٠م.

الصليبية قد طبعت كل التغيرات التي حصلت في مجتمعات القرون الوسطى. ونعود هنا إلى التذكير، من أن الحروب الصليبية جاءت تتويجاً لعملية كانت قد بدأت من قبل، ولم تشكل هذه الحروب في حد ذاتها بدءاً لتلك العملية. فالتجار الإيطاليون رواد «الثورة التجارية» في أوروبا، توجوا محاولاتهم السابقة بمساعدة وبدون مساعدة الحروب الصليبية، لبسط سيطرتهم المطلقة على البحر الأبيض المتوسط وإنشاء المستعمرات التجارية ليس فقط على طول الشواطىء الشامية، بل في أماكن أخرى من الشرق الأوسط. وقد مكنهم تواجد الفرنج في «الأراضي المقدسة» من توسيع دائرة علاقاتهم التجارية بهذه الطريقة باتجاه المواطن الأصلية لهؤلاء الفرنجة!

أما توسعهم في البلاد الشامية فلم يلعب سوى دور ثانوي في دعم مركزهم التجاري في آسيا وأفريقيا. فبالرغم من كل الامتيازات التجارية التي حصلوا عليها في الإمارات الصليبية، نراهم يعقدون صفقات تجارية أهم وأوسع مع الاسكندرية على الساحل المصري. إذ أنه في حقيقة الأمر، فإن القسطنطينية تليها من حيث الأهمية الاسكندرية، بقيتا بالرغم من الحروب الصليبية عاصمتي التجارة العالمية وليست عكا على الساحل الفلسطيني[٢٨].

لذلك، يطرح السؤال نفسه عن مدى تأثير الحروب الصليبية على الوضع الاقتصادي لبلاد الشام؟ وعن مدى تأثير ازدهار تجارة المشرق الأوروبية بسبب هذه الحروب، وتطور العلاقات التجارية بين الشرق والغرب على هذا الوضع؟ سبق وذكرنا، أن التجارة الخارجية للإمارات الصليبية في البلاد الشامية مع الغرب كانت

تدار في أغلبها بواسطة التجار الإيطاليين. لذلك يمكن القول، أن التجارة البحرية للإمارات الصليبية في الشام لم تكن تجارة مستقلة، كان يمكن أن ينشأ عنها وضع اقتصادي مستقر لهذه الإمارات. بل لم تكن في حقيقة الأمر سوى تجارة بين المدن الإيطالية في الغرب ومستعمراتها التجارية في شرق الأبيض المتوسط التي استخدمت التسهيلات التجارية الممنوحة لها على الساحل السوري لتنشيط تجارة الترانزيت باتجاه المستودعات التي أقامها التجار الإيطاليون، لتجميع المنتجات الآسيوية، والمحلية التي يريدونها فيها قبل نقلها باتجاه الغرب. أي أن سوريا «الصليبية» و«المسلمة» على حد سواء لم تلعبا في حركة ازدهار هذه التجارة سوى دور سلبي وليس دوراً فاعلاً في توسع العلاقات التجارية بين الشرق والغرب.

بالطبع، فإن حجم التجارة الدولية قد ازداد بفعل الحروب الصليبية وأن هذه التجارة تشجعت وتنوعت. كما ازدهرت المدن الداخلية في بلاد الشام، كدمشق، وحلب خلال هذه الفترة. لكن هذا الازدهار جاء قبل كل شيء نتيجة ظهور أهمية بلاد الشام السياسية كخط الدفاع الأول أمام الهجمة الصليبية، ومن بعدها المغولية على المشرق العربي، والحضارة العربية الإسلامية.

لذلك لا يجب أن نهول من حجم الآثار التي تركها ازدياد حجم تجارة المشرق على الوضع الاقتصادي لبلاد الشام. فتجارة المقايضة، والترانزيت التي ازدهرت خلال عصر الحروب الصليبية، لم تعن بالضرورة دعم القوة الإنتاجية لبلاد الشام، بقدر ما كانت تخفي في حقيقة الأمر الانهيار التدريجي للقاعدة الإنتاجية، بفعل النزيف المستمر لموارد البلاد، نتيجة تعرضها لهجمات الأعداء، عبر قرون متتالية من الحروب والمصائب والآفات عدا الإهمال خلال فترات تأرجح أهميتها السياسية، في إطار العالم الإسلامي الذي كان قائماً في ذلك الحين.

وإذا أضفنا إلى ذلك، أنه جرى في نهاية الأمر عند تحرير البلاد من الصليبيين، تدمير كل الموانىء السورية التي بقيت مزدهرة تجارياً منذ القدم وحتى ذلك الحين، وتسويتها بالأرض من قبل المماليك لمنع استخدامها مجدداً كموطىء قدم لهجمات جديدة تأتي من البحر، في غياب أسطول بحري قوي لحماية السواحل الشامية، فللمرء أن يتساءل عندها عما كسبه اقتصاد بلاد الشام والتجارة فيها بفعل الحروب الصليبية من مكاسب دائمة. ●

الهـوامش

(١) Nasir-i Hosrau: Sefer Nameh, ed. Schefer, p.64
Lammens, H.: La Syrie I, p.148.

(٢) Goitein S. D.: A Mediterraneen Society I, p. 121.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبعة de Goeje ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٥ ــ ١٨٠
Nasir-i Hasrau, Sefer Nameh, p. 35, 40, 44, 61
Le Strange: Palestine under the Moslems, p. 295f.

(٤) Goitein, S. D.: A Mediterraneen Society I, p.
Cahen, Cl.: La Syrie d Nord, p. 473.

(٥) المقدسي، ص ١٨٠.
الادريسي، طبعة Gildemeister، ص ١٤.

(٦) المقدسي، ص ١٨٠ ــ ١٨١.

(٧) Lewis, A. R.: Naval Power and Trade, p. 213.

(٨) إبن بطلان، رسالة إلى ابن المحسن مذكور في كتاب Rohricht, R. S. عن تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(٩) Elisseeff, N.: Déscription de Damas, p. XVIII.

(١٠) Eickoff, E.: Seekrieg and Seepolitik, p. 173ff.

(١١) Lewis, R.: Naval Power, p. 183-224.

(١٢) Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levant au moyén-Age ed. Raynand, p. 127, 133, 138.

(١٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، طبعة Amedroz ص ١٤٥، ٢١٩.

(١٤)

Ibn al-Qalanisi: Chronicle, ed. Gibb, P. 68, 91ff.

(١٥) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الأول، ص ١٦٠.

(١٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، طبعة Amedroz ص ٢١١.

Ashtor-Strauss, E.: Administration urbaine en Syrie, in Revista 31, 1956 p. 121-128.

(١٧) ابن الأثير في Recueil, Historiens, Orientaux الجزء الثاني، ص ١٣٧، ١٤٢، ٣٠٥، ٣٠٨ وما بعدها.

Cohen, Cl.: L'Evolution de L'Ikta, Annales ESC, 1953, p. 45f.

(١٨)

Ehrenhreuz, the Place of Saladin in the Naval History, in JAS 75. 1955, p. 100-115.

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، طبعة Jewett ص ١٧٧.

ابو شامة، كتاب الروضتين في Recueil الجزء الرابع، ص ١٦٥، ١٨٠.

(١٩) Heyd I, p. 387، الطبعة الفرنسية.

(٢٠) ابن الأثير، الكامل، طبعة Tornberg، الجزء ١١، ص ٣٢٤.

المقريزي، كتاب السلوك، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦، ص ٧٩، ٨٨، ٩٠.

ابو شامة، Recueil, Hist. Or. IV, p. 235.

(٢١) بهاء الدين، سيرة صلاح الدين Recueil, Hist. Or. III ص ٢٣٧.

(٢٢) Ehrenkreutz, A. S.: Contribution to the Knowledge of the Fiscal Administration of Egypt, in BSOAS, 15«3, 1953, AND 16«3, 1954.

(٢٣) الأصفهاني: الفتح، طبعة Landberg ص ٦٠.

(٢٤) أبو شامة، الروضتين، الجزء الأول، ص ٢٤٣.

(٢٥) ابن المماتي: قوانين الدواوين، طبعة عطية، ص ٣٢٩.

(٢٦) ابن جبير، رحلات، طبعة Demombynes، ص ٣٢٤ ـ ٣٣٥، ٣٤٨ ـ ٣٤٩، ٣٥٣.

(٢٧)

Labib, Handelsgeschichte, p. 37.

(٢٨)

Lopez, R. S.: Les Influences Orientales, p. 616.

مراجع البحث

(أ) المصادر الأولية

١ ــ أبو الفدا: تقويم البلدان، طبعة Reinaud باريس ١٨٤٠.
٢ ــ أبو شامة: كتاب نزهة الروضتين، جزءان، القاهرة ١٨٧١ ــ ١٨٧٥.
٣ ــ الادريسي: كتاب نزهة المشتاق، طبعة Jaubert جزءان، باريس ١٨٣٦ و ١٨٤٠.
٤ ــ ــــــ: كتاب روجار، طبعة Gildemeister لايبزيج ١٨٨٥.
٥ ــ الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة ١٩٠٤.
٦ ــ المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك، ترجمة فرنسية Quatremère جزءان، باريس ١٨٤٥.
٧ ــ المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة Goeje لايدن ١٩٠٦.
٨ ــ ابن بطوطة: رحلات ابن بطوطة، طبعة Defremery الجزء الأول، باريس ١٨٥٣.
٩ ــ ابن جبير: رحلة ابن جبير، طبعة حنفي، القاهرة.
١٠ ــ ــــــ: رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٦٤.
١١ ــ ــــــ: رحلة، طبعة Demombynes الأجزاء ٤ و ٧، باريس ١٩٤٩.
١٢ ــ ابن المماتي: قوانين الدواوين، طبعة عطية، القاهرة ١٩٤٣.
١٣ ــ Burchard of Monte Sion: Voyages. Palestine Pilgrims Text Society. London 1896.
١٤ ــ ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ، طبعة Tornberg ١٤ جزءاً، لايدن ١٨٥١ ــ ١٨٧٦.
١٥ ــ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، طبعة زريق، الأجزاء ٧ ــ ٩، بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢.
١٦ ــ ابن الجوزي: سبط: مرآة الزمان، طبعة Jewett، شيكاغو ١٩٠٧.
١٧ ــ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، طبعة Amedroz بيروت ١٩٠٨.
١٨ ــ ــــــ: The Damascus Chronicle of the Crusade. ed. Gibb. London 1932.

١٩ ـ ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠.
٢٠ ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧.
٢١ ـ Les Assises de Jérusalem, ed., Comte Beugnot, 2 vol. Paris 1843.
٢٢ ـ Nasiri Hosrau: Sefer Nameh, ed. Shefer, Cl., Paris 1881.
٢٣ ـ Recueil des Historiens des Croisades, publ. par les Soins de L'Academie des Inscriptions et des Belles-Letters, Paris.
Historiens Occidentaux, vol. I, 1 et 2, II, Paris, 1844-1895.
Historiens Orientaux, 5 vol, 1872-1906.

(ب) أبحاث ودراسات معاصرة

٢٤ ـ Ashtor — Strauss, E. : L'Administration Urbaine en Syrie Médiévale, in Revista Degli Studi-Orientali, 31, 1956, p. 71-128.
٢٥ ـ Aubin, J.: Ruine de Siraf, Cahiers de Civilisation Médiévale, Poitiers 1952.
٢٦ ـ Cahen, Cl.: La Syrie du Nord à L'Epoque des Croisades et de la Principauté Franque D'Antioche, Paris 1940.
٢٧ ـ ———,: L'Evolution de L'Ikta de IX au XII s., Annales, Economies, Sociétés, Civilisations 8, 1953.
٢٨ ـ Doehaerd, R.: Méditérannée et Economic Occidentale pendant le Moyen-Age, in Cahiers D'Historie Mondiale, ed. I, 3 January 1954.
٢٩ ـ Ehrenkreutz, A.S.: Contribution to the knowledge of the Fiscal Administration of Egypt, in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 15-3, 1953; 16-3, 1954.
٣٠ ـ ———,: The Place of Saladin in the Naval History, in Journal of the American Oriental Society, 75, 1955.
٣١ ـ Eickhoff. E.: Seekrieg und Seepolitik Zwischen Islam u. Abendland, Berlin 1966.
٣٢ ـ Elisseeff, N.: La Description de Damas, Damas, 1959.
٣٣ ـ ———,: Nur ad-Din, 3 Vol. Damas 1967.
٣٤ ـ Goitein, S.D.: A Metiteranean Society, vol. I, Berkely 1967.
٣٥ ـ Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Rayaune Franc de Jerusalem, 3 vol., Paris 1948.
٣٦ ـ Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, ed., Raynaud, Amsterdam 1959.
٣٧ ـ ———,: Geschichte des Levantehandels in Mittelater, 2 Bde, Stuttgart, 1879.
٣٨ ـ Labib, S.Y.: Handelsgeschichte Agyptens in Spatmittelater (1171-1517) in Vierteljahrschrift für Sozial — u. Wirtschaftsgeschichte, Beiheft 46, Wiesbaden 1965.
٣٩ ـ Lammens, H.S.J.: La Syrie, Precis Historique, 2 vol., Beyrouth 1921.
٤٠ ـ Le Strange, Guy: Palestine under the Moslems, Beirut 1965.
٤١ ـ Lewis, A.R.: Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100, Princeton, N.J. 1951.
٤٢ ـ Lopez, R.S.: Les Influences Orientales et L'Eveil économique de L'Occident, in Cahiers D'Histoire Mondiale 1, 1953-1954.
٤٣ ـ Prutz, H.: Kulturgeschichte der Kreuzzüge, Berlin 1883.
٤٤ ـ Rohricht, R.: Geschichte des Ersten Kreuzzüge, Innsbruck 1901.
٤٥ ـ Schaube, A.: Handelsgeschichte der Romanischen Völker des Mittelmeergebitetes bis zum Ende der Kreuzzüge, Berlin, 1906.
٤٦ ـ Waas, A.: Geschichte der Kreuzzüge, Bd. I, Freiburg 1956.

(*) تقديراً في مجلة «تاريخ العرب والعالم» لندوة «حطين» التي عقدت في دمشق، تموز عام ١٩٨٧، فقد اعدّ «قسم التوثيق والأبحاث» في المجلة ملخصا عن بعض الأبحاث التي القيت في المؤتمر، وكانت على جانب كبير من الاهمية.

وفيما يلي البحث القيّم الذي قدمه الدكتور محمد علي الصالح بعنوان «نتائج الصدمة الاقتصادية لغزو الفرنجة (١٠٩٩ ـ ١١٨٧م)».



عِلمُ التّأريخ خلال القرن الثّامن عشر

بقلم د. يوسُف عاد



□ ابن خلدون
بريشة جبران خليل جبران.

نبدأ بحثنا بتساؤل حول الاهتمامات التي عالجها القرن الثامن عشر، فهل كان من الممكن إيجاد مؤلفات مميزة في التاريـخ في القرن المذكور؟

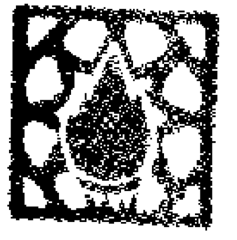
وإذا وجدنا هذه المؤلفات، فبأي مستوى كتبت، وبأي لغة كان يحصل ذلك؟

وهل كان في القرن مؤلفون يستحقون أن يطلق عليهم اسم مؤرخين؟

من الراجـح القول أنه في وسعنا العثور على فنون أدبية مبتكرة في هذا القرن، لأن الذين قُيِّض لهم مستوى معين من الثقافة، توجهت أنظارهم إلى المألوف من التصانيف الشائعة في العصور القديمة. وكان فن التاريـخ، وانصرافهم إليه مستوحين من الأجواء التقليدية آنذاك. وهذه الظاهرة شائعة في معظم البلدان العربية، حتى لنكاد نلمسها أحياناً لدى كتّاب القرن. ولا شك في أن اللبنانيين الذين اجتذبهم التاريـخ قد استوحوا في مؤلفاتهم الأساليب الشائعة آنذاك، وتقيّدوا بها، ولم يحـاولوا التجديد فيها. وهم في نظرة شاملة تُلقى عليهم من مطلـع القرن إلى نهايته، على نوعين متميزين.

(*) د. يوسف عاد: الجامعة اللبنانية ـــ كلية الآداب ـــ الفرع الرابـع.

المؤرخون المحليون



الأول يتألف من الجماعة المحلية، المحدودة الثقافة والطموح، والمتغذية مما تجده بين أيديها من مصادر ومراجع ووثائق، فتتمثلها، على طريقتها الخاصة، وتخرجها حسب أسلوبها، وفي هذا القسم ترد أسماء كل من عبد الله الطرابلسي (؟ ـ ١٧٤١م / ١١٥٤هـ) وله «العقود الدرية في رحلة الديار المصرية»[١] وعبد الله قرألي (؟ ـ ١٧٤٢م / ١١٥٥هـ)، الذي ألف كتاب «تاريخ أساس الرهبنة الحلبية اللبنانية»[٢]، وموسى جرجس أبي نوفل (١٧٢٧م / ـ ؟ / ١١٤٠هـ) الذي ألف تاريخ العجم الأفغان[٣]. وأما أحمد علي المنيني (١٦٧٨ ـ ١٧٥٩م / ١٠٨٩ ـ ١١٧٢هـ) فقد وضع كتابه «الإعلام بفضائل الشام»[٤] وكتب توما اللبودي (١٦٨٧ ـ ١٧٦٩م / ١٠٩٩ ـ ١١٨٣هـ) سيرة «عبد الله قرألي»[٥] ومن آثار المطران يواصاف الدبسي (؟ ـ ١٧٦٩م / ١١٨٣هـ)، ترجمة حياة عبد الله قرألي»[٦]. وليواكيم المطران (١٦٩٦ ـ ١٧٧٢م / ١١٠٨ ـ ١١٨٦هـ) مخطوط «مختصر خبر رجل الله الفاضل والعالم الفيلسوف الكامل، الشماس عبد الله زاخر الحلبي»[٧]، أما محمد حسن شكر (؟ ـ ١٧٩٣م / ١٢٠٨هـ) فقد ألّف «كتاب الروضتين في أخبار بني بويه والحمدانيين»[٨]، وزين خليل الزين (١٧٤٧ ـ ١٧٩٦م / ١١٦٠ ـ ١٢١١هـ)، ألّف في تاريخ بلاده، كتابه «القبائل الداخلية على جبل عامل»[٩]، وليوسف مارون الدويهي، رسالة في تاريخ بطاركة الطائفة المارونية حتى وفاة البطريرك فيلبّوس الجميّل سنة ١٧٩٥م / ١٢١٠هـ[١٠]. وترجم خطار الدحداح وسليم البستاني كتاب «تاريخ فرنسا الحديث»[١١]، ثم جرجس زغيب (؟ ـ ١٧٩٩م / ١٢١٤هـ) وله «تاريخ عود النصارى الى جرود كسروان»[١٢]، والخوري مخائيل بريك الذي عاش في القرن الثامن عشر، وألف كتاب «تواريخ الزمان وزهرة أعاجيب الكون والأوان» ثم كتاب «الخلاصة الوافية في تاريخ بطاركة الكنيسة الأنطاكية من ١٥٣٢ ـ ١٧٦٧م / ٩٣٩ ـ ١١٨١هـ». وكتاب «حوادث زمانه في مدينة دمشق من ١٧٢٠ ـ ١٧٨٠م / ١١٣٣ ـ ١١٩٥هـ»[١٣]. وقسطنطين الطرابلسي، ومن آثاره «تاريخ دير رومية المعروف بنافجيلا من ١٧٢٩ ـ ١٧٧٢م / ١١٤٢ ـ ١١٨٦هـ»[١٤]، والبطريرك ديونيسيوس جروه (؟ ـ ١٨٠٠م / ١٢١٥هـ) وله «ترجمة حياته وأخبار رحلته من الموصل إلى بغداد»[١٥]، وسلوم الدحداح (؟ ـ ١٨٢٠م / ١٢٣٦هـ) وله «وصف رحلة الأمير بشير إلى مصر»[١٦]، وعبد الله طراد (؟ ـ ١٨٢١م / ١٢٣٧هـ) وله مخطوط بعنوان «تاريخ أساقفة بيروت»[١٧]، وحيدر الركيني (١٧١١ ـ ١٨٢١م / ١١٢٣ ـ ١٢٣٧هـ)، الذي ألف، في التاريخ المحلي، كتاب «جبل عامل في قرن»[١٨]. أما حنانيا المنير (١٧٥٧ ـ ١٨٢٤م / ١١٧١ ـ ١٢٤٠هـ) فله «رسالة في الاحتلال الفرنسي لمصر وسوريا»[١٩] و «تاريخ نشأة الرهبانية الشويرية»[٢٠]، «والدر المرصوف في حوادث الشوف»[٢١]، ولنقولا الترك (١٧٦٣ ـ ١٨٢٨م / ١١٧٧ ـ ١٢٤٤هـ)[٢٢] «تاريخ الحملة الفرنسية على مصر»[٢٣]، «وحوادث الزمان في جبل لبنان»[٢٤]، «وقصة أحمد الجزار»[٢٥]. والأمير حيدر (١٧٦١ ـ ١٨٣٥م / ١١٧٥ ـ ١٢٥١هـ) الذي ألّف كتابه «الغرر الحسان في تواريخ الزمان»[٢٦].

كانت معظم كتبهم في التاريخ المحلي والحوادث المعاصرة أو في التاريخ خارج بلادهم، وعُنوا بأخبار الأسر والحالة الاقتصادية والاجتماعية، واهتموا بالتاريخ العام. والملاحظ أننا أنزلنا بين هذه الأعلام من امتد به العمر إلى بداية القرن الثامن عشر لأن تكوُّنَ شخصيتهم حدثت في المرحلة التي تعنينا في هذه الدراسة، ومن المحال التوقف عند حد حاسم في أية دراسة أدبية.

المؤرخون المتخرجون من المعهد الماروني الروماني

أما القسم الثاني فيتألف من الجماعة التي تخرجت من المعهد الماروني الروماني، وعُنيت بكتابة التاريخ، كما عالجت فنوناً وعلوماً أخرى، تتراءى لنا من خلال دراستنا هذه، وتميزت هذه

الفئة بثقافة رفيعة بالنسبة إلى اللبنانيين المقيمين وإن لم تكن بالفعل ثقافة رفيعة بالنسبة لمضمون الكلمة، وبرز أثر اطلاعها في كل ما كتبته ولا سيما في الصفحات التاريخية، وأشهر الأسماء هي: أسطفان الدويهي (١٦٣٠ ــ ١٧٠٤م / ١٠٤٠ ــ ١١١٦هـ)[٢٧]، ومن مؤلفاته «تاريخ الأزمنة»، و «سلسلة بطاركة الطائفة المارونية»، و «تاريخ المدرسة المارونية»[٢٨] وجرمانوس فرحات (١٦٧٠ ــ ١٧٣٢م / ١٠٨١ ــ ١١٤٥هـ)[٢٩]، ومن مؤلفاته «تاريخ الرهبانية اللبنانية» وسلسلة بطاركة الطائفة المارونية[٣٠]، والخوري بطرس التولاوي (١٦٥٧ ــ ١٧٤٥م / ١٠٦٨ ــ ١١٥٨هـ) ومن آثاره كتاب «السيرة الرهبانية[٣١]، وسيرة توما الكمبيبي»[٣٢]. والخوري أغناطيوس نعمة (في أواسط القرن الثامن عشر) وله «ترجمة كيرلا وفيطس مطران صيدنايا» (١٤٣١ م / ١١٤٤ هـ) [٣٣]. ولسمعان عواد الحصروني (١٦٨٣ ــ ١٧٥٦م / ١٠٩٤ ــ ١١٧٠هـ)[٣٤] «بطاركة الشرق» بالاشتراك مع يوسف سمعان السمعاني[٣٥] ولهذا الأخير (١٦٨٧ ــ ١٧٦٨م / ١٠٩٩ ــ ١١٨٢هـ)[٣٦] «نبذة في بطاركة مدينة الله أنطاكية»[٣٧]. وترجم تاريخ ابن الراهب إلى اللاتينية[٣٨]. ويوسف لويس السمعاني (١٧١٠ ــ ١٧٨٢م / ١١٢٢ ــ ١١٩٧هـ) وله «تاريخ بطاركة الكلدان النساطرة»[٣٩]، وأسطفان عواد (١٧١١ ــ ١٧٨٢م / ١١٢٣ ــ ١١٩٧هـ) وله ترجمة «تاريخ ابن العبري» باللاتينية، وترجمة «سير القديسين الشهداء من شرقيين وغربيين» إلى اللاتينية[٤٠]، ويوحنا عجيمي (١٧٢٤ ــ ١٧٨٥م / ١١٣٧ ــ ١٢٠٠هـ)، ومن آثاره «تاريخ الكنيسة الأنطاكية»[٤١] والأب يوسف أشقر (القرن الثامن عشر)، ترجم من العبرية إلى اللاتينية كتاب «تاريخ سوريا للمطران الدبس»[٤٢]، وأتيان ورد (القرن الثامن عشر)، وله «أصل الموارنة» ألفه سنة ١٧٣٢م / ١١٤٥هـ، و «تاريخ عام» سنة ١٧٣٣م / ١١٤٦هـ، و «رحلة العباد» في ١٧٣٤م / ١١٤٧هـ[٤٣]، وأرسانيوس شكري (؟ ــ ١٨٠٢م / ١٢١٧هـ) الذي ألف «تاريخ الرهبانية اللبنانية»[٤٤]، ومما يجدر ذكره أن رجال هذه الفئة لم تكتف باللغة العربية في التأليف، بل اعتمدت أيضاً اللاتينية والإيطالية والسريانية في تآليفها، وغلب على كتاباتها الطابع الديني، فكتبوا في تاريخ الأديار والرهبانيات والسيرة الذاتية وأحداث الكنيسة والرحلات وترجمة الكتب العربية إلى لغات أخرى.

التنويه بالمؤلفات المفقودة

إن بعض مؤلفات هؤلاء العلماء ما يزال مخطوطاً، وبعضه الآخر مطبوع لكنه مفقود كـ «العقود الدرية في رحلة الديار المصرية» الذي أشرنا إليه و «كتاب الروضتين في أخبار بني بويه والحمدانيين «لمحمد حسن شكر» و «رسالة في أصل الرهبان في جبل لبنان» ليوسف سمعان السمعاني، وكتاب في «حوادث» (١٦٩٥ ــ ١٧٠٤م / ١١٠٧ ــ ١١١٦هـ)[٤٥] ليوحنا وهبي الدويهي، وعدد من المصنفات التاريخية محفوظ في المكتبات العالمية مثل «كتاب في عرب الجاهلية وأصلهم وتاريخ أحوالهم» ليوسف شمعون السمعاني (١٧٥٢ ــ ١٨٢١م / ١١٦٦ ــ ١٢٣٧هـ)، و «تاريخ الرهبانية اللبنانية» لأرسانيوس شكري.

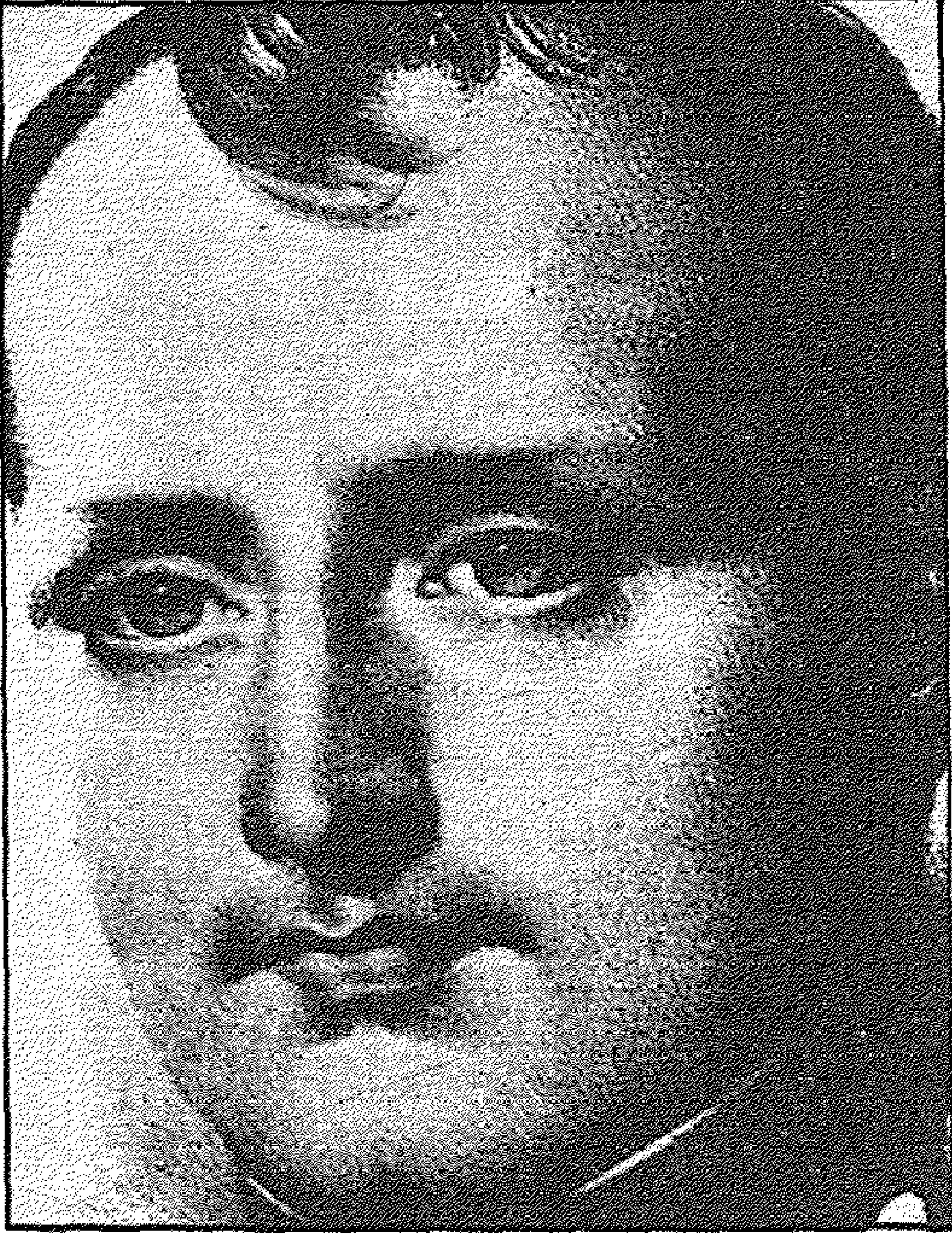
لقد فقد عدد كبير من الكتب في تلك العصور، لأن الطباعة لم تكن بعد رائجة، ولأن الظلم الذي كان يعم معظم أنحاء البلاد، لم يكن ليسمح للأدباء أن تبصر كتبهم النور لأنهم خبأوها خوفاً أن تتلفها يد الغباء والظلم. لكن كيف ذكرها المؤرخون والأدباء؟ لقد كان ذلك نقلاً عن كتاب رآه واصفه فخلده لنا في أحد مصنفاته، أو نقلاً عن رواية أحدهم. أو ذكره دون أن يذكر المصدر الذي أخذ منه. أما هؤلاء المؤرخون فقد عنونوا معظم مؤلفاتهم بما يدل على محتواها، ألفوا في الرهبانيات والكنيسة والدين لأن معظمهم من الكهنة الذين وردت أسماؤهم آنفاً، وكانت أخبارهم بعناوين «سير» و «تاريخ» و «أخبار» و «حوادث» ومعظمها أرخ حسب السنوات، فكان أحدهم يؤرخ ما يريد عن سنة معينة وعندما ينتهي منها يعقبها بالسنة اللاحقة، فيدون أخبارها، وهكذا حتى ينتهي من تأليفه، كما في «نبذة في بطاركة مدينة الله أنطاكية» للسمعاني أو «تاريخ نشأة الرهبانية الباسيلية الشويرية»

لحنانيا المنير. أو حسب الموضوعات كما في كتاب «شرح اليميني» لأحمد المنيني إذ اعتمد فيه على موضوع كتاب قديم، هو «تاريخ العتبي»، وكان بعضها في الحقبة التي سبقت المؤرخ، فأرخها معتمداً على المصادر والمراجع المتوافرة قديمة ومعاصرة، والآخر في الفترة التي عايشها معتمداً على المشاهدة أو الرواية والمراجع، وظهرت الرغبة في الاقتصار على جزء محدد أو موضوع معين، كسيرة شخص، أو نبذة عن بطاركة، أو تاريخ منطقة.

استنتاج

لقد كتبوا التاريخ لتخليد الذكر أو الأثر أو حباً بالتاريخ منحرفين عن الأدب إليه، فسد مسده مما زاد أهمية هذا العلم. من هنا وجب على المؤرخ أن يبتعد عن الهوى أثناء المعالجة لتصور كتابته الواقع، وكثيراً ما ارتبط التاريخ بالأدب، فلم يميز الكتّاب بين هذين الفنين، وتضمنت المؤلفات معلومات تعتبر مصدراً مهماً لمعرفة القرن معرفة صحيحة، كذكر الأحداث والروايات، والقصص، وافتقرت غالباً إلى الفهارس والهوامش التي توضح بعض الكلمات، وهذه خلّة تجعل من المتعذر الاطلاع عليها بسهولة، كما كرروا ما قيل بأسلوبهم في بعض الأحيان.

وأما مؤلفاتهم الدينية فهي صدى للمؤلفات الكنسية، والتعاليم الدينية المنتشرة خلدت حوادث وأخبار القرن بمختلف اتجاهاته. لقد افتقرت هذه الكتب إلى التعبير السليم في معظمها، لأنها كتبت بلغة مشحونة بالأخطاء، كما في «سيرة حياة عبد الله قرألي» لتوما اللبودي، وليس هذا فحسب، إنما كانت الكتابة بالعامية المحلية، مما جعل من المتعذر على القارىء فهمها في منطقة أخرى. وامتازت مؤلفات خريجي المعهد الروماني الماروني بالأسلوب العلمي، الواضح، غير المعقد كما في كتاب «نبذة تاريخية في مدينة الله أنطاكية» ليوسف السمعاني، وطعّموا الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية، من خلال إتقانهم اللغات المختلفة، واطلاعهم على المؤلفات باللغات المذكورة، فبدا ذلك جلياً في إنتاجهم.



□ نابليون بونابرت

قد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن هذه الكتب ما تزال حتى اليوم مرجعاً صالحاً للطلاب والمتعلمين ينهلون منها بعض معارفهم، لدعم بعض آرائهم، أو للاطلاع على آثار السلف، فأغنوا التاريخ الحاضر متخذين من الماضي عبرة لتجنب الأخطاء ولإغناء التراث.

وسنعرض لواحد من هذه المؤلفات، مفصلين ما جاء فيه، محللين، مناقشين، مبدين الآراء، علّنا بذلك ننير كوّة منسية في تاريخنا، وهذا الكتاب هو: «جبل عامل في قرن» لحيدر رضا الركيني.

موضوع الكتاب ومضمونه
مراجعه
أسلوبه
خلاصة

موضوع الكتاب ومضمونه

يضم الكتاب صورة عن حالات انتشرت خلال ذلك القرن كالأمراض والوفيات والحروب وسرقة القرى، ويتكلم على تآمر الحكام على أهل البلاد لإذلالهم، وقتل الأولاد بلا سبب، وسبي النساء[٤٦]، والأعراس والنزوح[٤٧]، واستقبال العلماء وتكريمهم[٤٨]، والاغتيال[٤٩]، وخنق

الناس وشنق آخرين(٥٠)، وتأثير الخرافات في الناس(٥١)، ووقوف المسيحيين والمتاولة صفاً واحداً ضد السارقين، والأعياد عند المسيحيين والمسلمين، والحج في رمضان(٥٢)، وبناء قرى جديدة والخوف(٥٣) والجوع(٥٤)، وذكر الأنبياء كمحمد وشعيب(٥٥) ويشير إلى الحوادث الطبيعية كالزلازل والصواعق والخراب وزحف الجراد وتلف المواسم(٥٦)، والحرائق، وخسوف القمر(٥٧)، ثم السياسية والحربية، مثلاً، هدم القلاع، والمعارك بين المناطق(٥٨)، وتحصيل الضرائب، وتولية الحكام وعزلهم، وعزل الأمراء(٥٩)، وأسر بعض الوجوه ونزول الافرنج في الموانيء، وقدوم الفرنسيين، وحصار عكا، وحصار الجزار ليافا(٦٠)، وعادة إطلاق المدافع عند رؤية الهلال في الأعياد، وعزل الأمير ملحم شهاب، وذكر ظاهر العمر وأبو الذهب(٦١)، وتولية يوسف الكنج على الشام، وتسلطن مصطفى عبد الحميد، وانتصار يوسف باشا على النصيرية، ومحاصرته لبربر آغا، ومجيء (عرب الوهاب)، إلى حوران، وسليمان باشا إلى الشام ومعه الدروز والمتاولة، وانتصارهم على يوسف باشا، وذكر محمد علي(٦٢)، وطرد الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط من الجبل، واللحمة بين عائلات جبل عامل وبعلبك، وعلاقة الجنوب مع عكا والشام(٦٣).

من خلال عرض المضمون لاحظنا أن بعض الموضوعات مهمة، تستحق الذكر وأخرى تافهة. وما ذكره الصبر والإيمان والابتعاد عن الرذائل إلا لأنها قضايا انتشرت خلال القرن الثامن عشر لانصراف الناس عن العمل إلى القعود لعدم وجود الأشغال، وقد يكون سبب ذلك الخوف والحروب التي غطت أغلب فترات القرن، فانصرف الناس إلى التأمل والتفكير فيما يفعلون، فدعوا إلى عبادة الخالق، والعزوف عن الأعمال السيئة إذ كيف يدعو الإنسان إلى الصبر والإيمان ولا يدعو إلى اجتناب الرذائل. أما ذكره للأمراض والوفيات فيرويها ضارباً الأمثلة عليها دون أي تعليق آخر لكنه يذكر قتل الأشخاص وشنق بعضهم الآخر دون إعطاء الأسباب، مما يضفي على النص صبغة السرد، كذلك الحديث عن الاجتماعيات كالأعراس، فحصولها يدعو إلى التفكير بالحالة الهادئة، لكن هذا عكس ما يعرف عن القرن، أما الحالات الأخرى كسبي النساء والنزوح، والاغتيال والسرقة، فمردّها إلى كثرة الحروب والغزو والضائقة المعيشية التي كانت تنزل بالناس، فالسرقة إن لم تكن لحاجة ماسة فهي آفة اجتماعية، وقد حلّلت الأديان أخذ حاجة الإنسان عند الضرورة دون اعتبارها سرقة، والنزوح آفة خطرة لكنه يصبح ضرورة عندما لا تعود مقومات العيش موجودة. يطلعنا المؤلف على كل هذه الأمور دون أن يتعرض للأسباب التي تدعو إلى هذه النتائج، لكننا من خلال هذا الاطلاع، ومن قراءتنا خلال السطور، ومن السرد يتبين لنا أن كل أسبابها الحروب، وفي الحروب ينعدم الأمن فيلجأ الناس إلى مكان أمين لحماية أنفسهم، من هنا كان النزوح الذي يُعدُّ أكبر مصيبة في خراب أي بلد كما يقول ابن خلدون في مقدمته، أما الخرافات، فتلك آفات اجتماعية تنتشر في المجتمعات المتخلفة التي يسودها الجهل، لأنها، لا تنتشر في البيئات المتقدمة، فيلجأ البسطاء إلى كشف «بختهم» لمعرفة ما سيحل بهم، خصوصا أنهم يعيشون في عصر انتشر فيه الفساد وانعدام الأخلاق. لكن بعض الحالات الأخرى تلفت النظر، وتدعو إلى التفاؤل، وذلك ليس لوقوف المسيحيين والمتاولة بعضهم إلى جنب بعضهم الآخر بل لمحاربتهم السارقين، إذ يوحي هذا الكلام أنهم يتعاونون، ولولا ذلك لما وقفوا ضد السارقين، والسارق يأتي عادة أثناء الليل، وهذه دلالة واضحة على التعاون والسهر للحفاظ على حياتهم وأمنهم معاً، وهذا نوع من الأمن الذاتي لفقدان الحكم العام الذي تتولاه الدولة. كذلك الحديث عن الأعياد عند الفريقين، وهذا دليل رخاء لكن كيف يفسر هذا الكلام مع وجود السرقة، أما الحج في رمضان فيشير فيه إلى الإيمان وصحة المعتقد، إذ ما هذا الإيمان والحروب تنتشر والناس تحج، إننا نستنتج من هذا أن الحروب لم تكن مستمرة إنما كانت تتوقف أحياناً فيستعيد الناس حياتهم الطبيعية، وما ذكر الأنبياء سوى دليل قاطع على الإيمان، أو لعله هروب من الواقع. وللحوادث الطبيعية نصيب وافر في كتابه كالزلازل والصواعق وزحف الجراد والحرائق وخسوف القمر، وهذه أمور

يتعرض لها كل شعب في مراحل الحياة، وليست وقفاً على جبل عامل. من هنا كان المثل القائل «عند انتشار الحروب تنتشر الآفات وتكثر المصائب». أما عزل الأمراء فشيء طبيعي، إذ إن بقاء الأمير يتوقف على دفعه الأموال المفروضة عليه، وإذا ما تقاعس أغضب الحاكم فأرسل له من يخلعه أو يخلعه بمرسوم، ويولي غيره، وهنا تحصل المزايدات في شراء الإمارة أو المنطقة، فيقع الشعب تحت ضغط الضرائب الباهظة التي كثيراً ما عجز عنها، فثار على الحكام، وقليلاً ما كان يثور الشعب في تلك الأيام، فاضطر الحكام إلى تغيير الأمراء ولو إلى حين، أما الحرب بين المتاولة والدروز، فصراع دائم على النفوذ في منطقتين متحاذيتين، وكان للحاكم في

العرفان

مجلة علمية ادبية اخلاقية اجتماعية

تصدر كل شهر عربي

لمنشئها

احمد عارف الزين

في صيدا

قيمة اشتراكها في صيدا ريال مجيدي واحد وفي الخارج اربع ليرة افرنسية

السنة الاولى ١٣٢٧

اغلب الأحيان ضلع في هذا الخلاف، فكان يحرِّض العائلات بعضها على بعضها الآخر ليتدخل في الصلح فيفرض الضرائب، أو ليتحكم بالكل عندما يضعف الفريقان، أما تحصيل الضرائب من الناس من قبل حاكم غريب فهو الدليل القاطع على انقسام الناس وخلافاتهم، إذ لماذا يدفع الناس لحاكم غريب عن البلد، ولمصلحة من تجبى الأموال؟ لقد كان يأخذها الحكام الغرباء، ويتحكمون بالشعب الذي قرف الحالة، وكره الحياة، من هنا كان تضرعه لله، وهروبه من الواقع الذي لا مفر منه. أما حصار المدن فهو تكتيك عسكري، هذا الحصار الذي كانت له نتائج مهمة في التاريخ، لأن انكسار نابليون، يدل على انحسار مدنية الفرنسيين عن بلد بكامله، وتغيير سياسة كانت مرسومة للشرق، لكن الكاتب يكتفي بالخبر كالصحافي الذي يأخذ صورة لمشهد من المشاهد، فيضعها في الصحيفة دون أن يعلق عليها، أما تذلل الأمير للحاكم، فيعني ذلك تذلل الشعب بكامله.

نستنتج مما طالعناه أن الركيني وضع كتابه ليصف أبناء بلده ومعاناتهم من آلام وآمال، آلام من الحكام وآمال إلى التخلص منهم مهما كانت الأسباب حتى ولو أدّت إلى نزوحهم عن بلادهم. وبصف إيمان أبناء بلاده وحبهم للحرية والتفاخر بالحروب والكرم، وبعض النواحي الاجتماعية.

من خلال هذه المعلومات المستفيضة نتساءل عن مصادر معلوماته وما مدى تطابقها مع الحقيقة.

مراجعه

أما مراجعه فكانت اعتماده على الرواة[٦٤] وأحاديث الوجهاء[٦٥] والمشاهدة الذاتية[٦٦].

ويتبين لنا أن موضوعاته مستقاة من الواقع، فهي تشرح حياة شعب مظلوم انتزعت حريته وعوامل معاملة سيئة فاضطر إلى هجرة قراه وتعمير أخرى آمنة، فالحروب التي لم تبق إنساناً في مكانه، إذ شتتت العائلة الواحدة، وفرّقت الأخ عن أخيه، عدا ذكر بعض الخوارق التي لا تصدق كما في قوله: «وقف رجل صدفة في مكان فأحس شيئاً يتحرك تحته، وسمع صوتاً ينبعث، فحفر الأرض، فوجد فتاة حيّة فحملها إلى أهلها[٦٧]، أو ذكر البَرَد الذي تساقط بحجم رأس الجمل[٦٨]، أو الريح الأسود الذي كسر أغصان الشجر.

والكتاب لا يخلو من فوائد كتسجيل الأثر وخلوده، والاطلاع على مستوى القوم وتفكيرهم وعاداتهم ومعتقداتهم وحكمتهم، وهو سجل حافل لحياة شعب بما يدور حوله من قيم أخلاقية كالقسم بالله، والتفاخر بالمواقف والحروب والكرم والاعتزاز بالماضي وانتصار فريق على آخر. ثم مساعدة المعوزين والضعفاء. كذلك الأمثال التي تحض على العمل الصالح ويغلب عليها الطابع الديني، وهي في مجملها بدائية، مثلاً تشبيه النجم بالجمل. ونأخذ عليه تلك التفاصيل التي لا قيمة لها[٦٩]، وإيراد ما تقشعر له الأبدان، كذبح الإنسان[٧٠]، ونعت بعض أهالي القرى بأنهم غافلون[٧١]، هذا عدا الانتقال فجأة من موضوع إلى موضوع آخر دون تمهيد. وعندما يبدأ بحوادث ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م يغلب على كتابته الإيجاز الشديد، فقد كان أكثر ما كتبه من هذه السنة كفاتورة حساب، فلقد ملأ كتابه منذ التاريخ المذكور بالموضوعات المقتضبة، وبالرغم من ذلك يبقى الكتاب نموذجاً عن تلك الفترة في التاريخ الذي ما يزال حتى الآن يكتنفه الغموض لأن أغلبه ما يزال مفقوداً، وما تزال صورته مشوهة، إلا إذا جاء يوم عثرنا فيه على كتابات جديدة توضح التاريخ العاملي على حقيقته، ويعود هذا الغموض إلى أن العاملي كان يخاف أن تظهر مؤلفاته فيخبئها في الأرض أو في زوايا المنازل، أو يضطر أحياناً إلى الهرب، مما طمس حقائق كثيرة لو وُجدت مؤلفات عنها لقلبت الأوضاع رأساً على عقب، وما اتّباعهم الأمثال على السنة الحيوانات[٧٢] مقلدين ابن المقفع، على الرغم من البعد الزمني، سوى دليل واضح على ما نقوله.

لقد انحرف هؤلاء المؤلفون عن الأدب إلى التاريخ، وبلغ حبهم له حداً جعل الركيني يؤرخ مؤلَّفه بالسنوات الهجرية والغربية والرومية (١١٩٣هـ / ١٧٧٩م / ١١٩٢ روم)[٧٣].

أسلوبه

الجزء الاول

من

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر

في

ايام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن ابن خلدون

المغربي



الأعلام

قاموس تراجم

لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين

تأليف

خير الدين الزركلي

الطبعة الثانية

مزيدة، محلاة بالخطوط والرسوم

لم يكن المؤلّف مطبوعاً على الأساليب الفصيحة لأنه وجد في قرن لم يعرف الاستقرار، فغلب على تأليفه الطابع العامي المفصّح، المشحون بالأخطاء والتكرار المسجّع، المتأثر بالأسلوب القرآني، فكان اهتمامه منصباً على إيصال الفكرة إلى الناس، وكانت عبارته مقصّرة. في هذا المجال، مثلاً: «انتقال الحاج محمد حرب إلى رحمة الرب»[٧٤]، أو: «وصار الناس من الدولة يهربون، وفي كل واد يهيمون»[٧٥]، هذا عدا بعض العبارات التي أفسدت المعنى، وطبعت الادب في ذلك العصر، مثلاً: «والغرارة العدس بقرشين إلا ربع، وغليت الأوطار حتى صار الوطر بربع قرش»[٧٦]، ومن خصائص أسلوبه التكرار الذي يظهر فيه التعبير المحلّي بوضوح: «وكبست الافرنج إلى مينة صور، فأخذوا ١٥ نفساً رجالاً ونساء»[٧٧]، أو «وفي هذه السنة جاء باشا الشام....، وفي هذه السنة ليلة الخميس....، وفي هذه السنة طلع سعد الدين»[٧٨].

خلاصة

وحتى الآن، وحسب المعلومات المدونة يمكن اعتبار هذا الكتاب، إلى حد ما، مثالاً على كتب

التواريخ المتوافرة في المكتبات التي تناولت القرن الثامن عشر. فقد أعطى فكرة واحدة عن كتب التاريخ المنتشرة في ذلك الحين، إذ سجّل الأحداث على اختلافها، في المناطق، عدا المفاخرة بين الناس، ثم تصوير جشع الحكام، وكشف ذلك للناس، وتصوير الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وكأن هذه الكتب روزنامات عما كان يحصل، فهو مثال رائع عما كان يدور في زمن غلّ فيه الفكر، وتحجّرت فيه عقول الحكّام ضد المتعلمين، لكن المؤلفين بالرغم مما كان يحصل، أعطوا ما ساعد على كشف الصورة الحقيقة بالوسائل والأساليب المتوافرة. ●

الهوامش

(١) الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٤، ط ٣، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٤٩.
أديب، شاعر، ولد في طرابلس، ورحل إلى مصر، تنقل في بلاد الشام وسكن دمشق حتى وفاته.
الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٤، ص ٢٤٩.

(٢) عانوتي (أسامة)، الحركة، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٧١، ص ٢١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.
تعلم في طرابلس، وأتقن اللغة العربية، تتلمذ على البطريرك سليبسترس سنة ١٧٤٢م / ١١٥٥هـ، ودرس عليه اليونانية نوفل (عبد الله)، كتاب تراجم علماء طرابلس، م مطبعة الحضارة طرابلس، ١٩٢٩، ص ٣٩، ٤٠.

(٤)
Catalogue des manuscrits de la bbliothéque orientale, 176.
طرابلس الأصل، عالم، شاعر، كاتب، مؤرخ: المنيني (أحمد)، شرح اليميني المسمّى بالفتح الوهبي على تاريخ العتبي، ص ١ و٢، المطبعة الوهبية، ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م، ص ١.

(٥) المشرق ١٠، ص ٦٢٥، ٦٩٥، ٧٣٠، ٧٩٨، ٨٠٣.
هو تلميذ عبد الله قرألي، ترهب في ١٧٠٦م / ١١١٨هـ، وانتخب رئيساً عاماً في ١٧٣٥م / ١١٤٨هـ: المشرق ١٠، ٦٢٥.

(٦) فهد (بطرس)، تاريخ الرهبانية اللبنانية ٤، مطبعة الكريم، جونيه، ١٩٦٦، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٧) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢١٥.
شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، مطبعة الآباء البوليسيين، بيروت، ١٩٢٤، ص ١٩١.

(٨) كحالة (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٩، مكتبة المثنّى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ٢٠٢.
الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٦، ط ٣، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٢٣.
مؤرخ، من قرية قانا العاملية، قتله أحمد باشا الجزار، وأحرق كتبه: الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٦، ص ٣٢٣.

(٩) فقيه، مؤرخ، ولد في قرية شحور، قضاء صور، تعلم بالنجف، قتله أحمد باشا الجزار: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ١٩٢.

(١٠) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ١٠٣.

(١١) المشرق ٢٩، ص ٢٨٣.

(١٢) نشره وعلق حواشيه الخوري بولس قرألي.

(١٣) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ٦٠.
الكتاب معروف «بتاريخ الشام»: (١٥٢٠ — ١٧٨٠).

(١٤) كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٨، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ١٣٢.
الشويري، مؤرخ، توفي في أواخر القرن الثامن عشر: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٨، ص ١٣٢.

(١٥) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ٨٣، ٨٤.
كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ٥٩.

(١٦) كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ٢٤١.

(١٧) مخطوط موجود في المكتبة الشرقية.

(١٨) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢٠٨.
العرفان ٢٧، ٥٢٥.

(١٩) سيم كاهناً في دير ما يوحنا الصابغ (المشرق ٤، ص ٩٦٩).
المشرق ٢٩، ص ٢٨٢.

(٢٠) مخطوط موجود في المكتبة الشرقية تحت رقم ٢١.

(٢١) المشرق، ص ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١.
عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢٠٠.

(٢٢) ولد في دير القمر، شاعر، مؤرخ.
كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، ص ١٨.

(٢٣) المشرق ٤٣، ص ٧٢.
المشرق ٢٩، ص ٢٨٥.
مخطوط موجود في المكتبة الشرقية تحت رقم ١٦٢.

(٢٤) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢٠١.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(٢٦) نشره البستاني ورستم.
(٢٧) بطريرك، مؤرخ، ولد في إهدن، درس بروما، ودرّس بحلب: كحالة (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٢، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ٢٤٣.
(٢٨) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية ١، ص ١٠٢.
(٢٩) أديب، شاعر، لغوي: المنجد، الأعلام، ص ٥٢٢.
(٣٠) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ١٦١، ١٦٢.
(٣١) ولد في تولا، وتعلم في روما: المنجد، الأعلام، ص ١٩٦.
(٣٢) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ٧١، ٧٧، ٧٨.
(٣٣) المشرق ٢٢، ص ٨٨.
(٣٤) من طلاب المعهد الماروني: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ٢٧٩.
(٣٥) كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ٤، ص ٢٧٩.
(٣٦) مؤرخ، من طلاب المعهد الماروني: كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، ص ٣٠٣، ٣٠٤.
(٣٧) عانوتي (أسامة)، الحركة، ص ٢١٧.
طبع بمطبعة انتشار الإيمان، سنة ١٨٨١م.
(٣٨) شيخو (لويس)، كتاب المخطوطات العربية، ص ١١٧.
(٣٩) المرجع نفسه، ص ١١٨.
(٤٠) فهد (بطرس)، يوسف سمعان السمعاني، مطابع الكريم الحديثة، جونيه، لبنان، ١٩٧٣، ص ٥.
(٤١) ولد في جون، درس في مدرسة البروباغندا في رومية: سركيس (يوسف اليان)، معجم المطبوعات، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨، ص ١٣١١.
كحاله (عمر رضا)، معجم المؤلفين ١٣، ص ٢٦١.
المرجع نفسه، ص ٣٦١.
(٤٢)
Raphaêl (pierre), le rôle, Beyrouth, 1950, 151.
(٤٣)
Raphâl (pierre), le rôle, 171.
(٤٤)
Graf (George), Geschichite de christlichen, arabischan literatur, Citta del vaticana, Billi, Ap-v-1949, 146.
(٤٥) ذكر في كتابه الحوادث الشهيرة التي حدثت من سنة ١٦٩٥م / ١١٠٧هـ إلى ١٧٠٤م / ١١١٦هـ، قال: «إن النار اشتعلت ذات يوم في وادي قنوبين، وامتد لهيبها من تحت الحدث إلى بريسات، واستمر سعيرها سبعة أيام متوالية فأحرقت الأشجار، وتشققت الصخور، وأخذت تتدكرب، وفي أحد الأيام خرج البطريرك ينظر الحريق وبجانبه المطارين وبعض الكهنة والشمامسة وجمهور أناس، وبينما هم ينظرون انفصل صخر كبير من الشير الذي تحت بريسات وسقط نحو الجزيرة»
شبلي (بطرس)، أسطفان الدويهي، ص ٢٣٦، ٢٣٧.
(٤٦) العرفان ٢٧، ص ٥٢٧.
(٤٧) المرجع نفسه، ص ٨١٤.
(٤٨) المرجع نفسه، ص ٨١٥.
(٤٩) العرفان ٢٨، ص ٤٥٣.
(٥٠) العرفان ٢٩، ص ٦٨٠.
(٥١) العرفان ٢٨، ص ٩٥٣.
(٥٢) العرفان ٢٧، ص ٧٥٣.
(٥٣) العرفان ٢٨، ص ٨٣٢.
(٥٤) العرفان ٢٩، ص ١٨٧.
(٥٥) العرفان ٢٨، ص ٨٣١.
(٥٦) العرفان ٢٧، ص ٦٢٧.
(٥٧) المرجع نفسه، ص ٦٢٨.
(٥٨) المرجع نفسه، ص ٦٢٧.
(٥٩) العرفان ٢٩، ص ٣٠٤.
(٦٠) المرجع نفسه، ص ٦٨٠.
(٦١) العرفان ٢٧، ص ٨١٥.
(٦٢) العرفان ٢٩، ص ٦٨١.
(٦٣) العرفان ٢٩، ص ٦٨٢.
(٦٤) «وقتل من عسكر طرابلس قدر أربعماية على ما ذكر الذاكرون»:
العرفان ٢٨، ص ٤٥٤.
(٦٥) «أما أصحاب الكلام فهم من أكابر الشوف»:
العرفان ٢٨، ص ٨٣١.
(٦٦) العرفان ٢٩، ص ٩٥٤.
(٦٧) العرفان ٢٨، ص ٤٥٣.
(٦٨) العرفان ٢٧، ص ٨١٥.
(٦٩) المرجع نفسه، ص ٦٢٧.
(٧٠) المرجع نفسه، ص ٧٢٨.
(٧١) العرفان ٢٩، ص ٧٥.
(٧٢) المرجع نفسه، ص ٧٤.
(٧٣) العرفان ٢٨، ص ٤٥٤.
(٧٤) العرفان ٢٧، ص ٤٥٤.
(٧٥) العرفان ٢٩، ص ٧٥.
(٧٦) المرجع السابق، ص ٥٢٥.
(٧٧) العرفان ٢٧، ص ٥٢٦.
وفي سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م «لفا الوزير الأعظم إلى الشام مع جملة باشوات على قتال النصارى، وفي هذه السنة أروت الأرض» (العرفان ٢٩، ص ٦٨٠).
(٧٨) العرفان ٢٧، ص ٥٢٧.





اسرائيليات

«ان. بي. سي»: اسرائيل تساعد بريتوريا في إنتاج صاروخ نووي!

بثّت مؤخراً شبكة «ان. بي. سي» الأميركية للتلفزيون، ان اسرائيل تساعد جنوب أفريقيا في إنتاج صاروخ نووي طويل المدى. مقابل الحصول منها على يورانيوم مخصب لإنتاج رؤوس نووية، في حين نفت اسرائيل نفياً قاطعاً هذه المعلومات.

وذكرت شبكة «ان. بي. سي» نقلاً عن مصادر في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية «سي. اي. ايه»، أن إسرائيل أصبحت شريكاً كاملاً لبريتوريا.

وتقول تقارير منذ فترة طويلة، إن الدولتين تعكفان على مشروعات سرية مشتركة لإنتاج أسلحة نووية. ولم توقع أي من الدولتين على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية.

وقد أفادت تقارير منشورة، إن إسرائيل وجنوب أفريقيا ربما تكونان قد جربتا قنبلة نووية منذ عام ١٩٧٩، حين التقط قمر صناعي أميركي وميضاً غامضاً من المحيط الهندي، ولم يتأكد أبداً أن ذلك الوميض كان ناجماً عن انفجار.

وأوردت الشبكة التلفزيونية أن البلدين جربا أول صاروخ طويل المدى لهما في الخامس من تموز. وأضافت قولها إن الـ «سي. اي. ايه» أطلقت عليه اسم صاروخ «ارنيستون»، نسبة إلى بلدة صغيرة في جنوب أفريقيا قريبة من منطقة التجارب التي قيل إن الصاروخ أطلق منها.

ونقلت الشبكة عن وثيقة لوكالة الاستخبارات المركزية قولها، إن صاروخ «أرنيستون» سار مسافة ٩٠٠ ميل في اتجاه الجنوب الشرقي نحو جزيرة برنس ادوارد. وأضافت أن الوثيقة ذكرت أن شركة «أرمسكور»، وهي شركة لصناعة الأسلحة في جنوب أفريقيا، هي التي صنعت الصاروخ.

وقالت الشبكة إن شركة «أوردان» الصناعية، وهي شركة إسرائيلية يوجد مقرها خارج تل ابيب، وصفت بأنها الشركة التي لعبت الدور الأول في نقل التكنولوجيا التي استخدمت في صنع الصاروخ.

وتابعت إن مهندسين إسرائيليين يعملون منذ سنوات عدة في منطقة أوفربرغ للتجارب قرب بريتوريا. وأوضحت أن منطقة التجارب تضم مصنعاً للتجميع «أقيم وفقاً للنموذج الإسرائيلي لتستخدمه الدولتان». ولم توضح الشبكة ما إذا كان صاروخ «أرنيسون» قد أطلق من منطقة أوفربرغ للتجارب.

وقالت شبكة «ان. بي. سي»، إن وزير الخارجية الأميركي السيد جيمس بايكر على علم كامل بهذه الصفقة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا، لكنه لم يحتج حين قابل وزير الخارجية الإسرائيلي موشي أرينز في ٢٧ أيلول الماضي، حتى على الرغم من أن نقل مثل هذه التكنولوجيا ينتهك العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة والأمم المتحدة على جنوب أفريقيا.

وأعلنت شبكة «ان. بي. سي» إن إسرائيل تحصل مقابل مساعدتها لجنوب أفريقيا، إضافة إلى الإمداد المستمر باليورانيوم، المخصب، على حق استخدام موقع منعزل لتجارب الصواريخ الطويلة المدى لتجربة رؤوسها النووية. ونقلت الشبكة عن مصادر في وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون» قولها إن إسرائيل لديها الآن مخزون يتألف من ٢٠٠ رأس نووي. ●

مؤامرة لخلع نابليون بونابرت عن العرش

بقلم: لوسيان باكو　　　　ترجمة: د. رياض العالي



□ معركة «واترلو» كانت النهاية لنابليون بونابرت.

خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر التي اتسمت بازدياد قوة نابوليون بونبارت، كان عدد من رجال فرنسا البارزين يعقدون اجتماعات سرية في باريس. الغاية منها تحرير فرنسا من ظلم حاكمها المستبد. وكان يتزعمهم الجنرال سرفان، وهو وزير حربية سابق في عهد لويس السادس عشر وشخصية بارزة خلال الثورة.

وقد استبعدت هذه المجموعة فكرة محاولة زحزحة نابوليون عن عرشه باعتبارها غير عملية طالما أنه في ساحات حرب العالم لا يقهر. وقد اعتقدوا، على كل حال، بأنه لابد أن يأتي يوم لا يمكن لعبقرية نابوليون أن تصمد في وجه القوة المتزايدة للاتحاد أوروبي ــ وهم يريدون أن يكونوا على استعداد لمثل ذلك اليوم.

خطط سرفان وشخصية ماليه

كان الجنرال سرفان قد رسم الخطط لشكل الحكومة التي ستوحي بها جماعته الشعب في الوقت المناسب. ولكن سرفان توفي فجأة ووقع هذا المستند السري في يد الجنرال ماليه، وهو رجل مغامر ومجرد من المبادىء الخلقية. وقد شكل ذلك أساساً لحوادث ١٨١٢ التي هزت أقوى امبراطورية في أوروبا.

لم يكن هنالك ما يستحق الانتقاد في برنامج الجنرال سرفان ذاته. إنه يستند إلى شكل معتدل لحكومة برلمانية تضمن حرية حقوق الشعب وانتخابات حرة لمجلس نيابي. وسوف تحترم الحريات الفردية وتسترد حرية الصحافة. ولتحقيق كل هذا كان ينوي سرفان اقتراح إصدار مرسوم خاص من مجلس الشيوخ وإنشاء حرس وطني. فلو وقع هذا المستند في أيدي أشخاص مسؤولين لربما كان قد ساعد على أن يكون أساساً لجمهورية فرنسية حديثة. ولكن ماليه لم يكن رجلاً مسؤولاً.

لقد كان ماليه دائم التردد، شكس الأخلاق، راغباً أبداً في إصدار الأوامر، لا يحب إطاعتها، ويستغل مركزه بدون ضمير ليؤمن لنفسه السلطة والحصول على المال بأسهل الطرق معتقداً بأن ذلك من حقه. وعندما كان عام ١٨٠٥ آمراً لفرقة تحت قيادة الماريشال ماسينا ومركزه في روما، جمع ثروة من حماية مؤسسات غير شرعية تمارس ألعاب القمار أقامتها جماعة من المضاربين من أهالي مدينة نابولي. فقد كان يتقاضى ١,٤٠٠ كروناً رومانياً في الشهر بالإضافة إلى ٥٠ كروناً تدفع إلى زوجة أحد ضباطه. وكانت الشرطة المحلية التي تحاول بجد إقفال مثل هذه الأوكار غير قادرة على ذلك بسبب معارضته.

وعلى أثر نجاحه في عملية المقامرة، فقد حول ماليه اهتمامه إلى قطاع الشحن، وبدون أن يتلقى أي نوع من التفويض، فقد أمر جميع الربابنة الفرنسيين الذين يحمّلون بواخرهم في مرفأ يقع ضمن الولاية البابوية بأن يدفعوا له رسماً قبل مغادرتهم إلى فرنسا. ولما انكشف الأمر عينت الحكومة لجنة خاصة للتحقيق في هذه الفضيحة. وقد ثبت ذنب ماليه فأعفي من خدماته ريثما تتم التحقيقات التالية.

وعندما وصل إلى باريس في آب ١٨٠٧ ليجيب على الاتهامات التي اتصفت به كان ماليه يعلم أن وضعه ميؤوس منه. حتى أن الحكم عليه مهما كان خفيفاً كصرفه من الجيش، سوف يدعه بلا مال. فكان قد بذّر الأموال التي حصل عليها بالغش في روما. وبعد أن اتخذ شقة صغيرة في ٧٥ شارع سان بيير له ولزوجته وولده. كان معه بضعة ليرات ذهبية فرنسية فقط ليواجه بها مستقبلاً مجهولاً.

وبينما كان يفتش عن حل لمشاكله التقى بضعة أصدقاء قدماء من مسقط رأسه «دول». كان هؤلاء الرجال على شاكلته من المغامرين والمحتالين، وأعضاء في جمعية سرية تدعى «الفيلادلف». لم يكونوا جمهوريين ولا يعقوبيين، ولا يدركون حتى أهمية عملهم، وكان جل قصدهم، بأي وسيلة كانت، عادلة أو مشينة، الإطاحة بالامبراطورية النابوليونية. كان ذلك مؤاتياً لماليه. فقد عرف عن نابوليون بأنه يعتبر ماليه لصاً عادياً يستحق القصاص بدون رحمة ــ فكلما كان ذهاب نابوليون سريعاً كلما كان ذلك أفضل.

المؤامرة

فهذا إذن هو الرجل الذي وقعت بين يديه أوراق الجنرال سرفان الخطيرة ــ تلك المستندات التي أراد ماليه أن يحرفها لغاياته الشخصية. فالبرنامج نفسه يصلح لكي يكون طعماً لذيذاً للشعب. ويمكن تزوير مرسوم مجلس الشيوخ الذي يحتاج إليه لشرعية تغيير الحكومة وسيعلن فيه بأن نابوليون خارج على القانون وتلغى اللائحة التي صدرت معلنة أنه أصبح امبراطوراً، وبموجب هذا القانون نفسه يعهد إلى حكومة دكتاتورية تتألف من تسعة أعضاء تفوّض إليهم موقتاً حماية المصالح الفرنسية في الوطن وخارجه إلى حين يعرض على الشعب دستور جديد لإقراره. واعتقد المتآمرون بأن إعلان هذه الوثيقة المزيفة في الوقت الملائم على اعتبار أنها صدرت خلال جلسة سرية، تعطيهم الفرصة

للاستيلاء على السلطة قبل انكشاف خدعتهم.

وعندما توجه نابوليون إلى بايون ليجعل إقامته في قصر ده موراك في ١٩ نيسـان ١٨٠٨ ظن المتآمرون أن الوقت قد حان للتحرك. وبما أنه ليس من المستطاع نقل البريد من وإلى بايون في أقل من أربعة أيام اعتقدوا بأنه في مقدورهم أن يقوموا بضربتهم بنجاح حتى قبل وصول الأنباء إلى نابوليون.

فجرى اجتماع سـريـع، ولكن نشأت الآن مشكلة جديدة. فالجنرال غيّوم، وهو ضـابط متقاعد، والذي انضم مؤخراً إلى المتآمرين قرأ لأول مرة لائحة مجلس الشيوخ المختلفة التي حضرها ماليه، فوجد فيها عيوباً فاضحة دعته إلى طلب التأجيل.

فقد صاح بغضب قائلاً «ما من غبـيّ يهضم هذا ورمى بالمستند على الطاولة. كل شيء متوقف عليه. فرئيس المجلس، ومدير الشرطة، وحاكم باريس، قد يكونون كلهم أغبياء، ولكنهم يفقهون شكل المراسيم وربما يعرفون التهجئة. والتزوير لن يكون فعالاً إلا إذا كان متقناً».

قنط ماليه وعاد إلى العمل. إنما في الوقت نفسه كان قد بلـغ الامبراطور بطريقة مبهمة بعض الشيء عن وجود مكيدة، وإذا بشكوكه قد تأكدت في النهاية. وكان ماليه قد اتصل بالجنرال لوموان، وهو ضابط محترم ترك الخدمة الفعلية في الجيش سنة ١٧٩٤، وعرض عليه القيادة الداخلية لجيش الحكومة الدكتاتورية الجديدة. فتظاهر هذا بالقبول؛ ثم انه في ٨ حزيران ١٨٠٨ ابلـغ عن المؤامرة إلى مدير الشرطة متهماً ماليه وغيّوم بأنهما على رأسها. فقبض على غيوم الذي اعترف ووقـع تصريحاً ملقياً الذنب على ماليه وعدد آخر من الضباط ذوي الرتب العالية بمن فيهم كورنيل، غوبيه وغاريو.

عندما سمـع ماليه عن الموقوفين أمضى ليلته تحت اسم لابوليه في فندق الشرق، ولكن عندما عاد إلى منزله في اليوم التالي ليطمئن زوجته تم القبض عليه. وقد بدأت الأسماء تتناثر. فذكر ماليه غوبيو وجاكمون من بـين رفقائـه. هذان الرجلان كانا من الأشخاص المرموقين والمعتبرين في الأوساط السياسية، وخشي فوشيـه، الوزير المسؤول عن الشرطة، أن يذكر أشخاصاً آخرين من ذوي المقامات الرفيقة كأداة لحماية نفسه.

إن مثل هذه الإفشاءات قد وضعت فوشيه، وهو الدوق روترانت، في مركز حرج. فقد كان لمدة من الوقت صـديقاً لعـددٍ من أعضاء مجلس الشيوخ ـــ ومن بينهم جاكمون ـــ الذين كانوا يظهرون علناً ولاءهم للامبراطورية، وفي الوقت نفسه يعملون سراً على زعزعة أركان سلطتها ويشوهون سمعة الامبراطور. وقد كان فوشيه يشـاطرهم الراي وخشي الآن إذا تـعمـق في التفتيش عن الحقيقة في قضية ماليه أن ينكشف نفاقه.

فبالتالي، قام بالإقلال من أهمية القضية وفي ١٢ حزيران كتب إلى نابوليون مؤكداً له بأنه بعد إلقاء القبض على ماليه لم تطرأ تطورات جديدة تستدعي اهتمام الامبراطور أو تبرر تدخله.

على كل حال، لم يكن نابوليون حديث العهد بالدسائس التي تحاك حول العـرش. حتى في بايون ليلة إعلان الحرب على البرتغال كان يتابـع عن كثب حوادث باريس. فقد قرأ شهادة الجنرال غيليه التي أدلى بها أمام لجنة التحقيق والتي صرّح فيها الجنرال أن فوشيـه أسرّ له «بأن نابوليون غبـي ولا يفقه شيئـاً من السياسـة أو الديبلوماسية ويجب الإطاحة به حالاً». وكان عنده من الأسباب الأخرى ما يجعله يشك في خيانة فوشيه وقد أقنعته رسالة الوزير له بنفاقه. ولم يتصنـع الامبراطور في كلامه عند الإجابة.

«لقد تسلمت رسالتك وقرأت شهادات غيليه وجاكمون التي أدهشتني جداً. إنها تثبت بوجه قاطـع اشتراكهما في المؤامرة، وإني لا أشاطرك آراءك بأن مثل هذه الخيانة من تلك الجهات لن تزيد الوضـع سوءاً، هذا الوضـع الذي هو الآن سيء ومخيف. لن أسمـح بعد الآن لأولئك الذين ساعدتهم أن يستخدموا مثل هذه الوسائل لكي يعيبوني في عيون الأمـة التي لا أزال أحتفظ بثقتها. فأياً كان أولئك المتآمرون، إن عاجـلاً او آجلاً، سينكشف أمرهم وينالون العقاب الذي يستحقون، لن يطلق سراح أحد من المساجين ما لم يظهر دليل يبرىء ساحتهم.»

لم يظهر على فوشيه أي قلق من هذا التوبيـخ القاسي، بل تابـع سيره العادي المتعرج حتى أن نابوليون، رغم ذهنه الثاقب، قد اختلط عليـه



□ نابليون بونابرت، للفنان «غروس».

الأمر. ومع أنه صرف من الخدمة بعد بضعة أعوام ونفي، فقد ظل أثناء ذلك يستغل وظيفته كرئيس للاستخبارات لمصالحه الشخصية. وهكذا فقد علم من أحد المخبرين الأيطاليين ويدعى سوربي بان ماليه، رغم فشله الأول لا يزال جامحاً في طموحه ولم تثبط همته. ففي سجن «دولافورس» حيث كان محتجزاً هو والعديد من المشتركين معه في المؤامرة كانت توضع خطط للفتن للقيام بمحاولة ثانية.

المؤامرة الثانية:

طبعاً لا يمكن لمثل هذه الخطط أن تكون خطرة طالما لا يزال المتآمرون الرئيسيون في السجن. إنما بدأت تبدو سهلة عندما مرض ماليه في كانون الثاني ١٨١٠ وأعيد إلى باريس وأدخل إلى مستشفى خاص: «نزل دوبويسون» فوبورغ سانت انطوان، وهنا، بالرغم من كونه لا يزال سجيناً، إلا أنه كان يتمتع بالكثير من الامتيازات


□ الملك لويس السادس عشر.

التي كانت ممنوعة عنه ــ فاستخدمها بكل نشاط. لقد علم بسرور صرف فوشيه ودوبوا، مدير الشرطة. لقد اعتمدت باريس لمدة طويلة على هذين الرجلين من أجل أمنها وسلامتها. واستبدالهما برجلين من النبلاء هما سافاري وباسكييه، اللذان تنقصهما شراسة طبع سلفيهما وخبرتهما في قمع الحركات الثورية كان فألاً حسناً لنجاح هذه المغامرة الجديدة.

ففي هذه الأثناء أخذ يجمع مخططاته العملية الجديدة وأصبح نزل دوبويسون نقطة تألب لكل من له مظلمة ضد نابوليون. فكان دوكاتيل، المجرم المعروف، يزوده بقائمة المساجين السياسيين الذين ينتظرون المحاكمة والذين يعتمد عليهم لدعم أية محاولة ضد العهد الحالي. وكان جان ــ أوغست راتو، الكابورال في الحرس الباريسي، يعد أسماء ضباطه مع إعطاء المعلومات عن آرائهم السياسية. وقام أندريه بوتروه، الأستاذ الرفيع المقام بإعداد القرار اللازم وفقاً للإجراء البرلماني وأصبح أمين سر ماليه الخاص.

كانت هذه التعزيزات الطارئة بفضل كاهن يدعى الأب لافون التقاه ماليه في نزل دوبويسون كسجين مثله. وقد كان لافون قبل اعتقاله على علاقة بحركة ملكية ودينية أسسها ألكسي دو نويل. وقد أنشأ في بوردو طائفة من الأبرشيين المستقلين وتعهدت بدعم البابا في محاوراته مع

نـابوليـون وفيما بعـد اكتسبت الكثيـرين من المرتدّين في سائر فرنسا، وعلى الأخص من بين رجال الاكليروس وتلامذة الجامعات. وكان بين هؤلاء الأتباع دوكاتيل، بوتروه، وراتو الذين أتينا على ذكرهم، وقد وضعوا بتصرف ماليه بالإضافة إلى مهارته الملتوية والتعصبية.

لقد سار ماليه شوطاً بعيداً منذ ١٨٠٨، وحين ذهب نابوليون إلى روسيا سنة ١٨١٢، أدرك أن اللحظة الحاسمة أصبحت بين يديه. وكان لرئيس المستشارين كامبا سيريس الذي بقي لَيـدير الحكومة سلطة محدودة جداً حتى أنه لم يخول توقيـع أي مرسـوم. وفوق ذلك كـان ضعيف الشخصية وعصبـى المزاج مما يسهل إزاحته جانباً على يد الذين يتولون زمام السلطة. ومن الأهمية كذلك، أن الامبراطور تبعده عن العاصمة مسافة خمسة عشر يوماً ولم تعد تصـل أنباء روسيـا إلى باريس. فـلا يمكن تصـور ظروف مجتمعة أفضل من هذه. فلو أذيـع على الشعب الفرنسي أن جيوشهم في روسيا قد اندحرت وبأن الامبراطور قد قتل فمن يستطيـع إنكار ذلك؟

ربمـا تلقى البعض هـذه الأخبـار بفـرح، والبعض الآخـر بحـزن، ولكن القلق سيعـم الجميـع. وخلال هذا الذعر والفوضى الناجمين عن هذه الرواية لن يكون هنالك صعوبة لفرض حكومة جديدة ــ وعلى الخصوص حكومة تقدم نفسهـا على أنهـا كانت قـد تشكلت شـرعـاً وببرنامـج سياسي عريض وسخي يكفي لاكتساب عطف الشعب.

واتباعاً لهذه الخطة الجريئة جرى تزوير قرار من مجلس الشيوخ مرة ثانية. كان المفروض أن يكون هذا الوثيقة الرئيسية للمحاولة الجديدة وقد استُهلّ بمقدمة ذات وقـع في النفوس هي التالية:

«جلسة ٢٣ تشرين أول ١٨١٢

افتتحت الجلسة الساعة الثامنـة مساءً برئاسة العضو سيباس.

بنـاء لدعوة لجلسـة خـاصـة استمـع المجلس فيهـا لقـراءة رسـالة تعلن وفـاة الامبراطور نابليون التي حدثت تحت أسوار موسكو في السابـع من الشهر الحالي.

وبعد التداول بهذا الحادث غير المنتظر عـين المجلس لجنـة للتشـاور في جلستهـا الحاضرة بالإجراءات التي يجب أن تتخـذ لإنقـاذ البلاد من الأخـطار الوشيكـة التي تهددها...»

وتبـع ذلك توصيات اللجنة المشكّلة بالتسعة عشر مـادة «التي سنتها وأمـرت بها». هـذه التـوصيات تلغي الحكـومة السـابقـة وجميـع مؤسساتها وتشكل حكومة مـؤقتة مـؤلفة من ١٥ عضواً يطلب منها تحضير مشروع دستور يعرض على الشعب في أسرع وقت ممكن.

وتمنـح بالتالي هذه المواد عفـواً عامـاً عن جميـع المسـاجـين السيـاسيـين، بمن فيهم المهاجرون، وتعيد حرية الصحافة، وتعين الجنرال ماليه ليحل محل الجنرال هولان بصفة قائد عام لجيش باريس مـع تفويضه تعيين ضباط أركان الحرب؛ وإعطاء المكافآت ومنـح خمسة وعشرين وسام فروسية إلى أولئك المواطنين الذي أبلوا بلاءً حسناً خلال الحوادث الأخيرة في خدمـة الوطن. ولهذه الغاية تقرر سحب أربعة ملايين فرنكاً من الأموال الموحدة ووضعها تحت تصرفه.

لم يجر في المرسوم أي ذكر لكلمة «جمهورية». ومن الواضـح أن ماليه لم يعد ذلك الجمهوري المتحمس السابق، بل الانتهازي الذي يبغي أبداً، بدون أي اقتناع، اتباع السبيل الأقل مقاومة. فقد دار بوجهه بعيداً نحو اليمين، وباختياره أعضاء حكومته الموقتة، قد أعطى الأفضلية لعدد كبير من الملكيين الذين يستحسنون جهراً لفرنسا شكل الملكية المحدودة.

ولم يهمل ماليه الواجبات التي يجب عـلى الجيش القيام بها. وفي أمره اليومي الذي وقعه بنفسه بصفته قائد جيش باريس أعطى أسماء الجنرالات المعينين للقيادات المختلفة. ومن بين هؤلاء الجنرال لاهوري والجنرال غيدال، وكان على كليهما أن يلعبا أدواراً كبيرة في المؤامرة، الأول كوزير للعدلية، والثاني كمدير للشرطة. فقد أُعطيا التفاصيل الدقيقة عما يجب أن يقوما به وكيف يجب أن يتعاونا للوصول إلى النتائـج التي يرجوها الجميـع.

ولم يكن معظم المشتركـين مـع ماليـه على اطلاع تام بميكانيكية المؤامرة. فقد تذكر ماليه

بمرارة الإفشاءات السابقة التي أدت إلى سجنه وهذه المرة احتفظ بأسراره بطريقة أفضل. ومع أن الرشوة كانت سلاحه الرئيسي مع وعود بمنح الأوسمة والترقيات والمال إلى أولئك الذين استطاع شراء ادعاءاتهم، إلّا أن هؤلاء المجندين الجدد سيبلغون عن واجباتهم في الوقت الذي سيطلب فيه إليهم تنفيذها. فخطته في التغرير بالحكومة وبالشعب تعتمد قبل كل شيء على المفاجأة وكلما كان العالمون بها أقل كلما كان ذلك أفضل.

وفي هذا الجو من السرية لم يعد نزل دوبويسون يعتبر مكاناً أميناً للاجتماعات. فلهذا السبب تم استئجار ثلاث غرف في زقاق مسدود بعيد يدعى كول ـ دي ـ ساك سان بيير، وضع تحت يد القسيس الاسباني كوامانو. فهنا كان يجتمع المتآمرون بعد هربهم من المستشفى والعودة إليه من نافذة خلفية تترك مفتوحة بطريقة متفق عليها مع صديق من الحراس. وقد تم هنا رسم تفاصيل المؤامرة بكل دقة.

وقد كلفت مدام ماليه بصنع وتسليم البزّات التي كان على الجنرالات ـ الذين عينوا انفسهم ـ أن يرتدوها قبل ظهورهم أمام الجمهور. وقد تم شراء الأوسمة بسرعة ووزعت لكي تستعمل في هذه المناسبة. وقد أصبح ماليه الآن جاهزاً وواثقاً من نفسه. ولن يكون هنالك أخطاء هذه المرة.

في الحادي عشر من تشرين الأول ١٨١٢، وهو التاريخ المتفق عليه لتنفيذ المؤامرة زار بوترو مدام ماليه لأخذ الصندوق الذي يحتوي على البذلات النظامية والمعدات العسكرية الأخرى. فذهب بهذه الأشياء فوراً إلى مركز كوامانو في كول ـ دي ـ ساك سان بيير، ثم عاد إلى نزل دوبويسون لتناول طعام العشاء مع ماليه ولافون بانتظار ساعة الصفر: الثالثة صباحاً.

التنفيذ

كل شيء كان الآن جاهزاً ولكن عندما قام ماليه بدورة استطلاعية نهائية حوالي منتصف الليل روّع لأنه اكتشف بأن راتو، الكابورال في الحرس الباريسي كان حبيس الثكنة بسبب واجباته، وبما أنه كان على هذا الرجل أن يقوم بدور المرافق وبإنجاز بعض الأعمال الضرورية لنجاح المغامرة، لم يعد هنالك ما يستطاع عمله سوى تأجيل كل العملية لبضعة أيام.

ورغم خيبة الأمل بسبب هذا التأخير، فإن ذلك قد ساعد على الاستفادة، إذ تسنى للمتآمرين الوقت الكافي للاهتمام ببعض الأمور المنسية منها شراء أنشوطة للسيف الذي يجب على ماليه أن يتقلده برتبة لواء والحزام الذي يجب أن يتمنطق به مفوض الشرطة المزيف.

في الثاني والعشرين من تشرين الأول، كان راتو حراً وباستطاعته الانضمام إلى أصدقائه، بعد أن أتم عمله في الثكنة. وقد قابل في ذلك المساء بوترو وماليه ولافون، وذهب هؤلاء الأربعة إلى مركز كوامانو حيث عملوا حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في إعادة كتابة التواريخ ووضع الأختام على الصكوك المختلفة التي ستكون برهاناً على حسن النية وثبات الشرعية. ثم فتح الصندوق وفرزت البزات والأسلحة النارية ووزعت. وبعد ذلك جلسوا يتحدثون ويأكلون ويشربون بدون أدنى خوف أو قلق، إلى أن دقت الساعة الثالثة وحان وقت ارتداء الألبسة للعرض.

ارتدى ماليه كامل بزته النظامية برتبة لواء؛ وراتو بزة كابتين، مرافق؛ وبوترو «الفراك» واضعاً نطاق مفوض الشرطة عبر صدره وعلى رأسه القبعة العالية الرسمية التي تم شراؤها حديثاً لهذه المناسبة. ثم غادروا مركز كوامانو كالعاصفة المصحوبة بالبرق والرعد ووصلوا بسرعة إلى ثكنة الحرس في شارع سان امبرواز. وكان مسرح المشهد الأول من الفصل الأول في هذه البناية. فأمر ماليه، بشخص الجنرال لاموت، ضابط الجيش المتقاعد منذ مدة طويلة، رجال الحرس لمرافقته إلى مركز القيادة. فلم يُعطَ الكولونيل سولييه الوقت ليتوقف ويفكر، وأُعلم عن موت نابوليون، وعن الحكومة الجديدة التي تولت السلطة، وعن ترقيته إلى رتبة جنرال، وعن مبلغ المائة ألف فرنك المقدمة له من الجنرال ماليه ليدفع به إلى الضباط الرواتب الإضافية المخولة لهم.



□ سافاري، دوق «روفيغو».

وأخيراً طلب إليه أن يضع نفسه في خدمة ماليه وأن يطيعه في جميع الأمور وفي جميع الأوقات. أعجب الكولونيل سوليبه بنفسه وابتهج لهذا الحظ السعيد فوافق بكل طيبة خاطر على الالتزام بالأوامر. ولما نجح الجنرال لاموت بدوره غاب عن الأنظار.

في هذه الأثناء كانت الجنود قد تجمعت في ساحة ثكنة بوبنكور، فأخذ بوترو كمفوض للشرطة وراتو كمساعد قائد بمناشدتهم ليكونوا قدوة للعالم بالولاء والإخلاص لوطنهم خلال أيام المحنة هذه. وأعادوا إلى هؤلاء الرجال ما قاله ماليه، بشخص الجنرال لاموت، إلى قائدهم. وقد انطلت الحيلة بسهولة على الجنود كما على ضباطهم ووجد ماليه الآن نفسه آمراً لقوة

مسلحة يمكنه الاعتماد ضمناً عليها. لقد ربح الشوط الأول بشيء قليل من المعارضة أو بدونها.

أما التحرك التالي فكان إخراج المساجين السياسيين، لاهوري وغيدال، من سجن لافورس اللذين كان يريدهما في خدمته بصورة خاصة. وعندما وصل إلى باب السجن بجنوده وحرسه أبرز أوراقه الثبوتية المزيفة فلم يجرؤ حرس السجن ولا البواب إبداء أية مقاومة. وخرج السجينان وهما لا يعلمان سبب الإفراج عنهما وفي نفسيهما شك في الدور الذي يجب أن يلعباه في المؤامرة التي لا يعلمان عنها شيئاً أيضاً، ولكنهما قبلا بدون سؤال هذه اللعبة التي أرسلتها الآلهة لهما. فارتديا ثيابهما ببطء، مما قد كان يجعل حريتهما في خطر، وأخيراً ظهرا بالملابس المدنية واستلما قيادة الجنود الذين عينوا لهما. وزحف الجميع للاستيلاء على وزارة الشرطة واعتقال مدير الشرطة. وكان على غيدال أن يعتقل أيضاً الجنرال كلارك ومساعد المستشار كامياسيريس واحتلال مجلس الشيوخ. هذه القبضة من الرجال كان عليها القيام بمهمة ربما كان تردد في تنفيذها فيلق من الجيش بكامله.

قويت ثقة ماليه بنفسه لنجاحه حتى هذه الساعة التي تغلب فيها على كل عقبة ولم تواجهه أية حركة معاكسة. فقد أصدر أوامره إلى كولونيل الحرس الباريسي الذي نفذها بكل طاعة وبكل سرعة.

أما حاكم مقاطعة السين، المستشار في الشيوخ، والرجل المعروف بمقدرته النادرة، فقد قبل بدون أي تحد، أن يستقيل من منصبه. وقد تم القبض على سافاري، وزير الشرطة، وباسكيه، مدير الشرطة، وديماريه، موظف كبير في الحكومة ولم يرفع أي اصبع للدفاع عنهم. وكان ماليه محقاً بارتياحه لما قام بتحقيقه ولكن أصبح عليه الآن مواجهة التجربة الحاسمة. فظفره النهائي أو موته متوقف على ردود فعل اللواء هولان قائد عام جيوش باريس والفرقة العسكرية الأولى. كان هولان من الذين أبلوا بلاءً حسناً عند سقوط الباستيل وخلال أيام الثورة العاصفة وعرف ببسالته كجندي وباستقامته كرجل. ويدرك ماليه بأنه محنك لا يخدع، ولا يخاف، ولا يرتشي. وعندما تقدم ماليه إلى ساحة فاندوم رقم ٧ حيث يسكن هولان مع زوجته بالقرب من مركز أركانه، قرر أن تكون المقابلة قصيرة وحاسمة.

ولما جوبه هولان بالأوامر التي قبلها غيره بدون تردد، توقف فجأة وسأل بكل أدب: «هل يمكنني الاطلاع على مرسوم مجلس الشيوخ؟ فأنا لا أستطيع تسليم قيادتي بدون تفويض حق.»

فلوّح ماليه بالوثيقة المزورة تحت أنف هولان قائلاً: «إن تأخرك يعرض البلاد للخطر يا سيدي».

إن مثل هذا التبجح كان للآن كافياً، ولكن هولان بقي غير مقتنع. فانتزع الأوراق من يد ماليه وأخذ ينعم النظر فيها بدقة. وإذ بماليه يمسك بمسدسه لأنه يعلم بأن ما من أحد له إلمام بالممارسات البرلمانية يخدع إذا تفحص هذه الأوراق بدقة. لقد اعتمد على عنصر المفاجأة لينفذ الخداع. فإذا فشل بذلك فشلت المؤامرة بكاملها.

ثم أضاف هولان ببرود: «لا أستطيع قبول ذلك بدون تدقيق آخر» وأعاد المرسوم الزائف. هذه الكلمات كانت خاتمة مصيره. فأطلق ماليه النار وبدون توقف ليتأكد إذا كان هذا الرجل الذي وقع تحت قدميه مات أم لا يزال حياً، خرج مسرعاً ليحاول مداواة هذه النكسة.

فأصبح من اللازم عليه الآن أكثر من أي وقت مضى أن يتسلم قيادة الجنود بسرعة. فإذا انتشر خبر معارضة هولان ـــ والجريمة التي قام بها ـــ يفقد كل شيء فأسرع للبحث عن دوسيه، رئيس أركان حرب الجيش، إذ أنه كان يعتمد على هذا الرجل الذي لم يفض إليه إلّا ببعض اسرار المؤامرة. فاقترب منه بثقة علم حالاً بأنها لم تكن في موضعها.

أما دوسيه فأخبره ببرود: «لا أستطيع عمل أي شيء بدون هولان. لنذهب إليه معاً.»

وللمرة الثانية امتدت يد ماليه إلى مسدسه، ولكن دوسيه، الذي كان يحترس من حماقات ماليه السابقة كان أسرع منه. فأمسكه من عنقه وتولى مساعده تجريده من سلاحه ثم دخل الحرس الذين كانوا في الغرفة المجاورة وأسرعوا

باعتقاله. كانت الساعة عند ذلك الثامنة صباحاً.
لقد ربح ماليه أربع جولات في محاولته الوصول إلى السلطة. ولكنه فشل في الجولة الخامسة والنهائية.

هذا الرجل الذي لم يكن لديه من سلاح سوى الخداع والأخبار الكاذبة، والذي لم يكد يعلم به أحد، وبدون مال أو صلات جدية كان على مقربة من الإطاحة بامبراطورية تضم أكثر من مائة وعشرين مليون نفساً.

أما الأشخاص الذين لم يتعرض المتآمرون إليهم أو لم يظهروا أي ميل نحو العصيان فقد أخذوا الآن يفكرون ملياً بواقع الحال الذي لا يصدق فكيف سمح أولئك الذين أوكلت إليهم حماية العاصمة والمواطنين، كيف سمحوا لأنفسهم بأن يخدعهم مغامر عادي، وأن يُجرّوا من فراشهم ويلقون في سجون لافورس بدون احتجاج أو اعتراض. ولم يمض من الوقت إلّا القليل حتى كانت هذه الحادثة المضحكة موضوع الظرافة الباريسية.

وعندما كتبت الملكة هورتانس، ابنة الامبراطورة جوزفين وزوجة لويس بونابارت ملك هولندا، إلى ولدها الأمير أوجين، ألقت ضوءاً على حالة باريس ذلك اليوم، فقالت: «إنك قد علمت الآن عن المغامرة الباريسية. إننا جميعاً نتوق إلى معرفة كيف سيتلقى الامبراطور هذا الأمر. لقد أصبح البوليس مادة مضحكة في المدينة وما نسمعه من ثوريات ونكت في جميع الأمكنة هو عنوان الظرافة والتسلية. إني أمتنع عن إعادتها لأنها سوف تؤذي الذين أحب حمياتهم.»

وفوراً على الأرجح بعد «الضربة» الفاشلة، سيق ماليه مع ١٤ من شركائه بالجريمة أمام لجنة عسكرية وحكم عليهم بالإعدام بتهمة الخيانة. وعند مغادرته قاعة المحكمة خاطب ماليه رفاقه السجناء، لاهوري وغيدال قائلاً بصوت مرتفع: «إنكم تندبون مصيركم وكأنكم تخافون الموت. تذكروا أنه خلال ستة أشهر ستنهال على الامبراطورية ضربات أقوى وأكثر فعالية.

ومع ان ذلك كان صحيحاً فمن المشكوك فيه أن تكون كلماته قد آست المتآمرين الذين أعدموا رمياً بالرصاص بتاريخ ٢٩ تشرين الأول في سجن «لاباي» في سهول غرينبل. وقد رفضوا جميعاً أن تعصب أعينهم ولم يكن عند أحد منهم كلمة أخيرة يقولها. حتى في هذا الوقت لم يكشف ماليه عن حقيقة إخلاصه ــ إن كان عنده إخلاص. جمهوري سنة ١٨٠٨، ملكي في ١٨١٢، إنما بقي حتى النهاية بكل بساطة مجرد «ماليه».

بعد أن مات هؤلاء الرجال، أخذت الجماهير التي احتشدت لتشاهد عملية الإعدام تهتف مكررة عبارة: «عاش الامبراطور»! ومن الصعب تصور مشهد أكثر سخرية لآخر فصل من هذه المأساة التي انتهت حتى قبل أن يعلم بها نابوليون. وبما أن المواصلات بين فرنسا وروسيا كانت عملياً منقطعة فلم تصل أخبار حوادث باريس إليه إلّا في ٦ تشرين الثاني في ميكاليوسكا. وسلسلة المواقع المعروفة بالبيريزنيا والتي فتحت له أبواب سميرغوني أخرت سفره إلى العاصمة مدة شهر آخر.

عاد نابوليون إلى باريس بعد رحلة دامت ١٤ يوماً وقد أسرع في التقدير بأن المؤامرة لم يكن أساسها الجاكوبيون ولا الملكيون. لذلك أحب أن تترك هذه القصة جانباً وفي عالم النسيان بأسرع ما يمكن. فإن ما نشأ عنها هو ضعف الهيكلية الإدارية التي وضعها، وقد أخذ يشغل نفسه بمحاولة تقوية أساس امبراطوريته والسلالة الملكية التي كان يحلم في إنشائها.

إنه لضرب من التخمين ان نعلم بماذا كان يعتقد. فالمؤامرة لم تزعجه بشكل بارز. إنما الشيء الذي أقلقه هو أنه في وقت الأزمة لم يعر أحد أقل فكرة تتعلق بولده، خليفته الطبيعي. فعندما أزيع خبر موته المزعوم لم يرتفع ولا صوت واحد يقول: «مات الامبراطور! عاش الامبراطور!».

إن مؤامرة ماليه، رغم كونها غير بارعة وعملاً غير متقن، فقد حطمت إيمان نابوليون باستمرارية السلالة الملكية التي حاول جاداً أن يؤسسها.

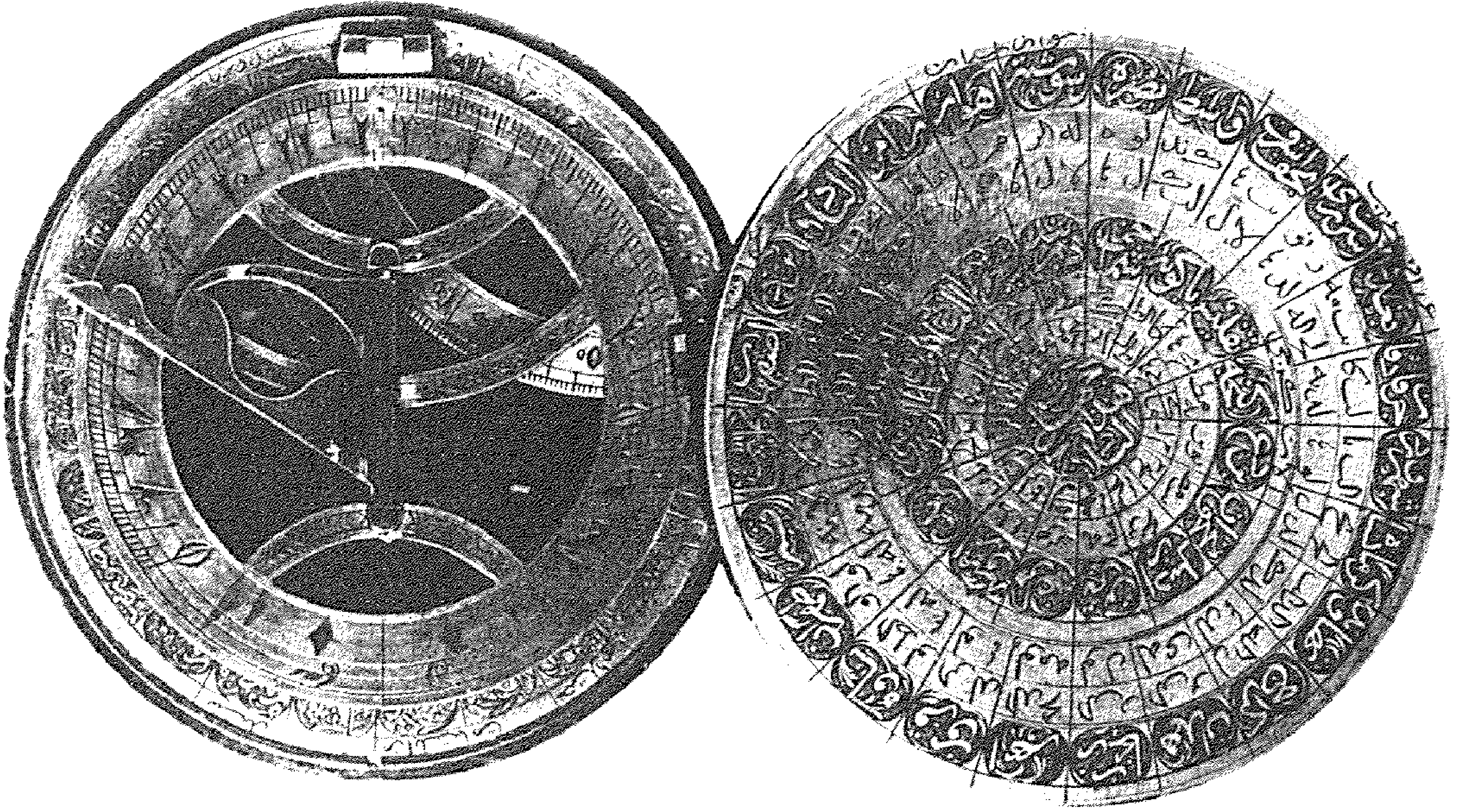
●



الاكتشافات الكبرى

زمن الأيبيريين (الإسبان والبرتغاليين)

إعداد: رغدة النحاس الزين



□ الاسطرلاب الوسيطي أداة لقياس مسافات النجوم وقد اقتبسه الملاحون المسيحيون عن العرب.

إن أولى الرحلات التي تمت على امتداد الشاطىء المغربي والصحراوي بدأت بواسطة السفن الشراعية العائدة إلى القرون الوسطى. صحيح أن هذه السفن قد طوِّرت بإضافة سارية إلى مقدمتها مزودة بشراع ثلاثي الشكل، ولكن بالرغم من هذا التطوير اتضح أن سرعتها غير كافية.

ولحسن الحظ استبدلها البرتغاليون بالكارافيل، والكارافيل عبارة عن مراكب ذات أحجام متوسطة تتفرد بأن أشرعتها المربّعة الشكل والمثلثة الشكل نظّمت بمهارة متقنة، كما أنها تتميز بمقدمة حادة.

هذه الابتكارات المترافقة جعلت منها مركبة سهلة الاستعمال تتيح الملاحة المتلوية في فترات الريح المعاكسة. وهذا ما أعطاها شكلاً يجمع بين خصائص المركب الطويل الشكل والمركب المستدير. إضافة إلى ذلك أصبحت هذه المراكب الشراعية الصغيرة، البطيئة الحركة، أداة ممتازة للاستكشافات. كما لاحظ ذلك P. chaunu في كتابه «الأميركتين» «لقد أوجدت أداة الفتوحات في البرتغال أولاً ثم في نيبلا».

الملاحة العلمية



فكما ان كبار الملاحين الأوائل استخدموا وسائل القرون الوسطى، الكلاسيكية، فإنهم لم يلجأوا إلّا إلى المعارف التجريبية في مضمار الفن الملاحي. صحيح ان كلمة تجريبية لا تعني «التدني» لأنه ليس من الضروري التمكن من معرفة الملاحة الفلكية للقيام برحلات طويلة.

«ليس ثمة حاجة البتة لتقنية علمية رفيعة، عندما يكون المرء متمتعاً بمجموعة من الخبرات التجريبية البالغة حدها الأقصى في حسن الأداء. بل غالباً ما يكفي وجود تراكم من المكتنزات ومن الحيل والتعليمات المتناقلة شفهياً، والمتوارثة أباً عن جد والتي تؤدي عادة إلى نتائج مدهشة...» (J. Meyer في «الأوروبيون والآخرون»).

إلا أن هذه الملاحة التجريبية لا توفر إمكانيات بقدر ما توفره الملاحة العلمية. وقد ظهرت هذه الأخيرة في نهاية القرون الوسطى بفضل التقدم في مضمار الرياضيات. وهناك دراسة لـ R.A. Goldth Waite بينت كيف أن الجزء الأكثر أهمية في مجال التدريس في فلورنسة هو تعليم الرياضيات التجارية في مدرسة تعليم الحساب Scula ol'abacco. لقد شجع هذا العلم ظهور علوم أخرى، ضرورية للملاحة العلمية.

وفي نهاية القرن الرابع عشر، كانت مراكب «المسيحية اللاتينية» تمخر عباب البحر المتوسط مثلما تمخر عباب جزء من الأطلسي ومعه بحري الشمال والبلطيك. لكن الغرب المسيحي، حتى مع امتداداته الافريقية أو امتداداته نحو الشرق ــ الأوسطية ليس هو إلا «أحد أهم العوالم في مجموعة العوالم ــ الجزر المنفصلة» (P. chaunu).

ولحسن الحظ أخذت أعمال بعض الملاحين الكبار، الباهرة، في خرق العزلة الاقتصادية لهذه العوالم بواسطة الانتشار الأفقي (بالمعنى المكاني) للمسيحية اللاتينية.

لماذا هذه الاكتشافات

««استطاع كريستوف كولومب، ذلك الماهر في علم الفلك والبحرية، أن يضع مخططاً لاكتشاف أرض جديدة إما بواسطة دراسته أو بواسطة ما اكتسبه من معارف من المجلات، أو بفضل تقديرات أحد المرشدين البحريين الذي كان قد اقترب من هذا الاكتشاف دون أن يبلغه».

وفي وقت مبكر أدرك المؤرخون أن الاكتشافات الكبرى التي لا يمكنها أن تتأتى من الصدفة وحدها تنجم عن عوامل عديدة ملائمة: من هذه العوامل نذكر استعمال الكارافيل وتقدم الملاحة العلمية، وهناك عوامل سياسية وجغرافية واقتصادية لا سيما عامل البحث عن التوابل.

فن رسم الخرائط

ولد هذا الفن على ما يبدو في جزيرة صقلية حوالي القرن الثاني عشر وقد عرف هذا العلم تطوراً ملحوظاً في مدينة جنوا، وفي نهاية القرن الثالث عشر اكتسب المزيد من تطوره بفضل إسهامات cata Cogne و Majonque. فلقد أجرى هذا المركز الجديد للدراسات تحسينات هامة في مفهوم الخرائط، إذ أصبحت الخريطة تحوي العناصر الأساسية الموجودة في كل بلد في الوقت الذي اقتصرت فيه الخرائط الايطالية على الطابع الهيدروغرافي فقط.

هذا وإن وجود علم الخرائط الملاحي ضروري جداً من أجل الملاحة. وإننا نتأكد من ذلك عند إجراء المقارنة بين استعمال البوصلة عند العرب وبين استعمالها عند الأوروبيين في العهد نفسه. فبالنسبة للعرب (مع أنهم الغوا استعمالها قبل الغربيين بزمن طويل) لم تكن تستعمل إلا للرصد الجوي، أما بالنسبة للغربيين فقد كانت البوصلة اكتشافاً أساسياً يتيح تحديد اتجاه السفينة.

ومع الوقت، أتقنت الخرائط أكثر فأكثر، وتوضح ذلك المقارنة بين الخريطة الكاتالانية النصفية، حوالي عام ١٤٥٠ وبين خارطة الكرة الأرضية المسطحة حوالي عام ١٥٩٠. في الحالة الأولى نلاحظ أن الاهتمامات العلمية غالباً ما تعطي الأولوية إلى الغايات الفنية والمعتقدات. فتتمثل المحيطات مثلاً بتموجات، كما نميز على القارات وجود عدد من الأشخاص (ملوك أفارقة تحت خيمهم) ينتمي بعضهم إلى عالم الأساطير مثل الكاهن جان في أثيوبيا. أما في الحالة الثانية

تصبح الخريطة أكثر دقة، إننا لا نجد أشخاصاً بل نجد علامات مثل التربيعات والمقاييس وأسماء المرافىء والنتوءات، والخلجان، والخطوط المدارية والاستوائية، لقد أصبحت الخريطة الوسيلة الحقيقية للعمل.

الملاحة الفلكية

لقد أبدى المكتشفون جرأة على المغامرة عبر المسافات الممتدة في البحر (أو في الرمال بالنسبة لرحالة البر) فذلك لأنهم قادرون على إيجاد نقاط استدلال فلكية، وفي الواقع بما أن البرتغاليين كانوا يصادفون تيارات مجهولة في المحيط الأطلسي حوالي منتصف القرن الخامس عشر أخذوا يفكرون باستعمال نقاط استدلال لتأكيد اتجاههم. وهذا ما دفعهم منذ عام ١٤٨٠ للجوء إلى جداول فلكية مبسطة وإلى حساب خطوط العرض عن طريق قياس ارتفاع الساعة الشمسية بواسطة الاسطرلاب. غير أن هذه الأدوات لم تكن من اختراع البرتغاليين لأن أولى الجداول الفلكية التي كانت موجودة في اسبانيا عرفت باسم الجداول الألفونسية، والاسطرلاب الذي اخترعه هيبارك عائد إلى العرب الذين اقتبسوه بدورهم من الصين كما يبدو، فأدرجوه في الغرب بعد أن كان مهملاً.

وبفضل أوجه التقدم هذه، أصبح بالإمكان تحديد خطوط العرض بصورة دقيقة حقيقية، بيد أن الملاحين لم يتمكنوا دائماً من حساب خطوط الطول. إن التقنية المستعملة في ذلك العصر كانت تقضي بالعودة إلى مستوى خط العرض المتمثل بأحد نقاط الاستدلال الأرضية المعروفة ومن ثم، وبعد التأكد منه، توجيه السفينة إما باتجاه الشرق أو باتجاه الغرب. علماً بأن كريستوف كولومب قد عاد إلى أوروبا بفضل هذه الطريقة عام ١٤٩٢. ولم تحل مشكلة خطوط الطول تماماً إلا في القرن الثامن عشر مع ظهور الكرونومتر (مقياس الوقت) ولكن قبل استعماله كانت توجد طريقة تدل على تقدم حقيقي هي طريقة المسافات القمرية (المقارنة بين حركة كوكب متحرك كالقمر بالنسبة إلى كواكب مثل النجوم).

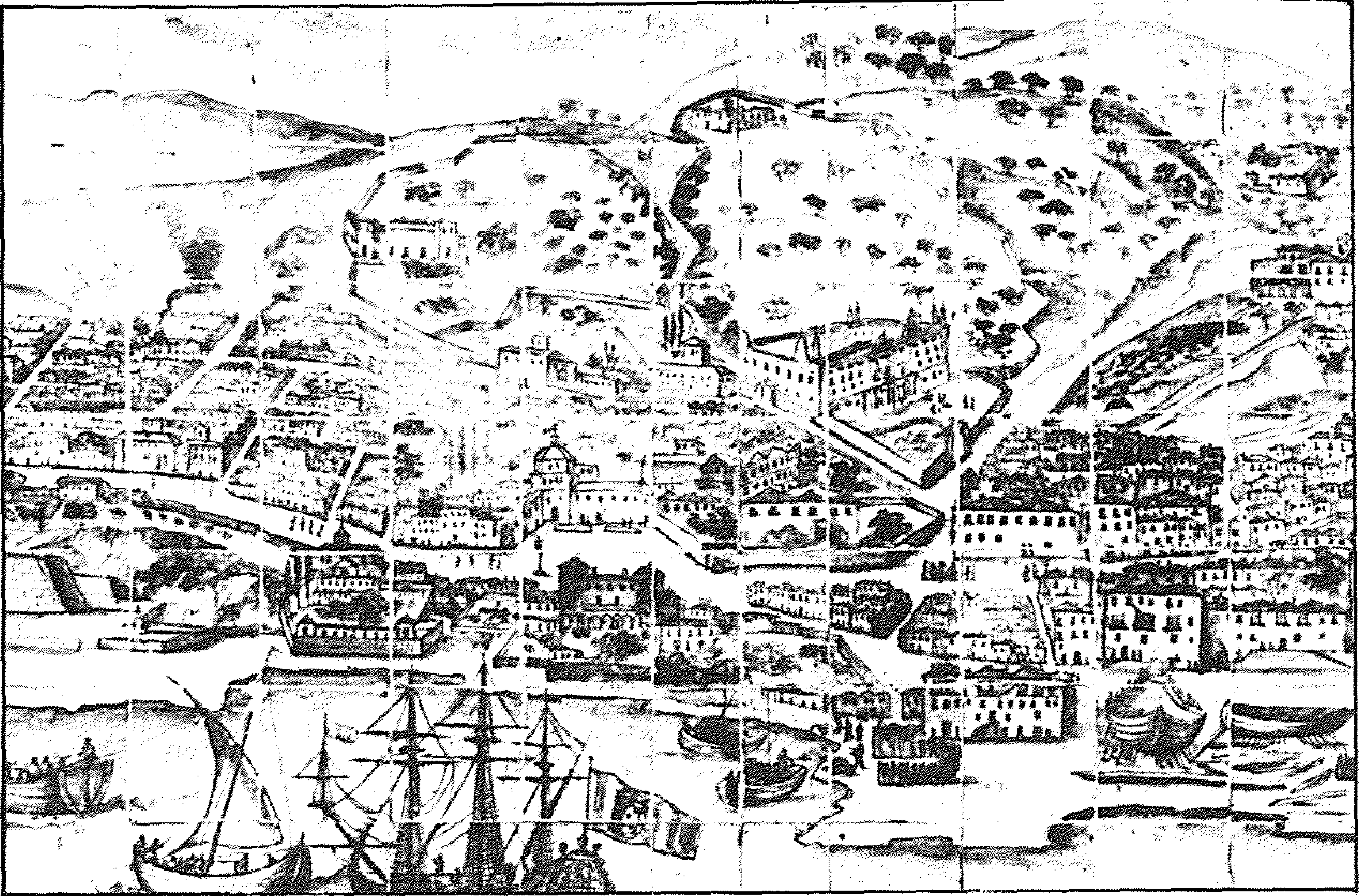
كما يعود اتقان حساب خطوط العرض الى وسائل الملاحة الفلكية الجديدة، فإلى جانب الاسطرلاب ظهرت القذافة وهلال دافيز. والقذافة هي التقليد المتقن لعصاة جاكوب، بدىء باستعمالها في أوائل القرن السادس عشر، وطريقة عملها سهلة، تعتمد على تغير لموضع «المصوب» على عصاة مرقمة حتى يستطيع المراقب رؤية أحد أطراف المصوب يلامس الأفق والطرف الآخر يلامس الشمس أو الكوكب المرصود. لكن هذه الطريقة تنطوي على محذور كبير، إذ يخشى عند استعمالها في حالات الشمس القوية أن تتلف العين، وقد كان بالإمكان تفادي هذا المحذور بفضل هلال دافيز عام ١٥٩٤. هذه الأداة الجديدة، بالإضافة إلى كونها أدق من السابقة فهي تتمتع بمزية أخرى وهي أنها لا تجبر من يستعملها على أن يواجه الشمس مباشرة.

لقد ساهمت أوجه التقدم هذه في الحد من الأخطار التي كانت تسببها المغامرات البحرية كما خلقت من الملاحة علماً حقيقياً لا يستغني الملاح عنه، إذ أصبح الملاح يتحضر لمهنته أكثر من السابق بمتابعة دراسة نظامية في معهد ويخضع لامتحانات جدية. إن المؤسسات التعليمية الأكثر شهرة في هذا المجال نشرت أبحاثاً وخرائط عن الملاحة. وبعض هذه المؤسسات كانت تقبل حتى أساتذة قادمين من الخارج: مثل أكاديمية ساغر الملكية في البرتغال حيث علم فيها الألماني Martin Behai ومدرسة Sevil التي اشتهرت بفلكييها العرب.

لماذا سيطر الاسبان على المحيطات؟

إن تحسين تقنية الملاحة في نهاية العصور الوسطى تفسر جزئياً التوسع الأوروبي والاكتشافات الكبرى ولكنها لا تفسر كل شيء.

لقد تدخلت عوامل أخرى في ذلك. فعرف التاريخ الكلاسيكي رجلاً ذا شخصية فذة هو الأمير البرتغالي هنري، الملاح. إن إرساله بحارته ليطوفوا حول افريقيا بحثاً عن التوابل كان الأساس في الرحلات الاستكشافية. لقد لعب هذا الإنسان الهاوي (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠) دوراً هاماً في هذا المجال، كان هائماً بما يخبئه البحر من مكتنزات، كرس حياته كلها لدراسة الملاحة، وأسس مرصد ساغر Sagre، ترأس أسفاراً



□ مرفأ «ليشبونة» كان المنافس الرئيسي للتجار العرب.

عديدة (خاصة بهدف الحصول على معلومات حول الكاهن الأسطوري الشهير جان). ولكن من الصعب الاقتناع بالفكرة القائلة أن هذا الأمير صمم على المجازفة برحلة حول افريقيا لانتزاع تجارة التوابل من أهالي البندقية ومن أهالي جنوى.

كانت المغامرة البحرية في الواقع امتداداً لحركة التحرير الاسبانية التي انتهت في البرتغال منذ القرن الثالث عشر وفي اسبانيا عام ١٤٦٢ مع انتهاء المملكة الإسلامية في غرناطة، ظهر التوسع البحري إذن كوسيلة مثالية لتجنب التوترات الاجتماعية فجميع الذين لم يجدوا في حرب التحرير العظمة أو الثروة أخذوا يبحثون عنها عبر البحار «المساكين الفقراء، النبلاء، عامة الشعب، الطامعون في الذهب والعظمة، الذين استخدموا بين عام ١٤٨٧ ــ ١٤٩٢ في تحرير مملكة غرناطة الإسلامية، كل هؤلاء وجدوا مخرجاً لهم في فتح العالم» (H. Des Chomps، الأوروبيون خارج أوروبا).

وكان عبور جبل طارق واحتلال جزر المحيط امتداداً لما أنجز من أعمال في شبه جزيرة اسبانيا. لا سيما وأن افريقيا تستطيع أن توفر (أن تمدهم) «بعبيدها» (إذ أنه كان يحظر استعباد المسيحيين) كما تستطيع أن توفر ذهب السودان.

لقد اجتازت فرنسا بوجه خاص حقبة مضطربة (هي الحروب الدينية). لذلك لم يكن مستغرباً في أن تكون الدول الاسبانية هي المنطلق لمكتشفي العوالم الجديدة.

من رأس «برجادور» إلى رأس الرجاء الصالح

ولكن قبل أن يوجه الاسبان السفينة نحو الغرب، كان يجب على بحاريهم أن يتدربوا خلال قرن تقريباً، وخلال الثلث الأول كله من القرن الخامس عشر كان رأس «برجادور» هو آخر حد يمكن الوصول إليه في الملاحة، إن قلة عمق البحر ومخاطر الجنوح وصحراء الرمال التي تجعل من الشاطىء محيطاً آخر يقضي على الغرقى بالهلاك المحتم، والتيارات القوية والرياح الشمالية الشرقية التي تجعل العودة أمراً مشكوكاً به، كل هذا يفسر لنا كيف أن البحارين لم يرغبوا كثيراً

في المغامرة عبر هذه المناطق.

ومع ذلك رغب هنري، الملاح رغبة شديدة في أن يتجاوز هذا الرأس وقد عرف كيف يقنع فارسه H. ail Eane، وبعد أن تردد هذا الأخير عام ١٤٣٣ اجتاز هذا الرأس في العام الذي تلاه وجلب معه قطعة من رمال الصحراء.

بعد اجتياز رأس برجادور تخلص الملاحون من خوفهم، فقاموا بجولة بمحاذاة الصحراء واكتشفوا مصادر هامة للكسب: فقمات (Phoques) ورجال (بدو رحل أفريقيون مع عبيدهم السود) حيث باعوهم في البرتغال. فاندفع ملاحون آخرون نحو الجنوب متشجعين بهذه المكاسب وفي عام ١٤٤١ بلغوا الرأس الأبيض، وتم سنة ١٤٤٣ احتلال جزيرة (Arguin) حيث أقيم فيها متجر لتبادل السلع الأوروبية مقابل العبيد والذهب.

وتتابع التقدم بعد ذلك بشكل طبيعي دون أي عائق جدي إلا عند اجتياز رأس لوباز، إذ هبت رياح معاكسة جعلت المركب يتلوى بشكل مريع. هذه الرياح نفسها جعلت اجتياز رأس الرجاء الصالح مضنياً جداً من جهة الشرق: Barthelemy Diaz، فلقد تعب القبطان من الملاحة المتلوية على طول الشاطىء فاتجه عرضاً بحثاً عن رياح ملائمة أكثر حيث اكتشف أنسام غربي المحيط الأوسترالي، وارتد بمساعدة هذه الرياح نحو الشمال ــ الشرقي ووصل شاطئاً له نفس الاتجاه، وعند العودة تعرف إلى رأس سماه الملك (رأس الرجاء الصالح).

(H. Deschamps. op.cit, p. 30).

جزر المحيط الأطلسي

ليس الشاطىء الافريقي هو المجال الأطلنطي الوحيد المتاح للتوسع الأوروبي كما لاحظ P. Chaunu «بين شبه جزيرة إسبانيا والمغرب الغربي والمحيط الحقيقي، تشكل الجزر حدود جزء من المحيط الأطلنطي وكأنه قطعة من المتوسط مرمية فيه» (الأميركيون، القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر).

إن جزر العالم القديم تشكل محطات على الطريق المتجهة نحو الغرب، والمؤدية إلى اكتشاف قارة جديدة. إن أولى الأسفار إلى جزر الكناري و Madère و Acore تمت في منتصف القرن الرابع عشر لكن فتوحات القرن الخامس عشر كانت فعالة أكثر. تلك الفتوحات مدينة في الأساس إلى مبادرة أحد النورمانديين المسمى Béthencourt. استقر هذا الرجل الهاوي المغامر عام ١٤٠٢ في جزيرة Lancerotte. ثم عاد إلى فرنسا وطلب من شارل السادس أن يساعده في مشروعه. ولسوء الحظ كانت الظروف السياسية في فرنسا غير ملائمة للمساعدة في تطوير المغامرات البحرية، لقد خاب أمله والتجأ إلى العرش الكاستيلاني Castillane. وبعد احتلال جزر الكناري احتلت Madère عام ١٤٤٥ أما Acores فاحتلت خلال عقد يمتد من ١٤٣٥ إلى ١٤٤٥.

قرن العمالقة

كان لفتوحات الجزر دور هام إذ أنها شكلت همزة وصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. وعبر هذه الجزر تمتّنت الروابط بين الشواطىء المتوسطية، لكن كي تتحقق «وثبة كبيرة نحو الأمام» كان لا بد من ظهور رجال ذوي شأن أمثال كولومب، ماجلان، فاسكو دي غاما، كابرال وآخرين.

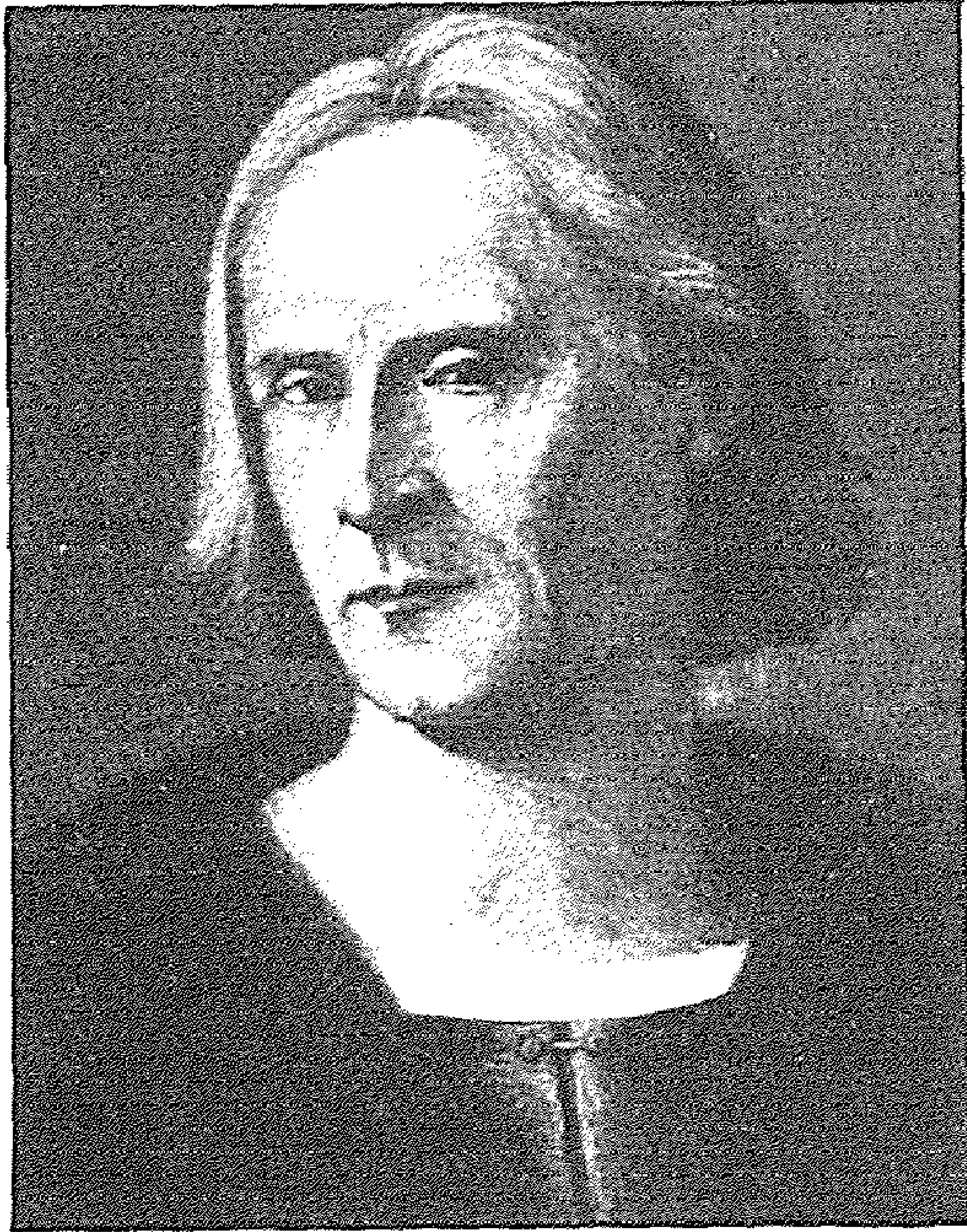
كريستوف كولومبس

بين هؤلاء العمالقة يطل علينا وجه كولومب «أكبر بحّار على مر العصور أو على الأقل واحد من أعظم الكبار». لكن هذه الشخصية التاريخية بقيت مع الأسف غير معروفة بما فيه الكفاية، كثير من المؤرخين الهواة أحاطوها بالغموض وآخرون ذمّوها حتى الازدراء. بين هذا التشويه الانتقامي لكولومب وبين المديح المفرط الذي أحاطه به بعض المؤرخين يتشوق المرء للتعرف على شخصية كولومب الحقيقية.

ولد كريستوف كولومب في جنوا عام ١٤٥١ وفيها تلقى تعليمه، كان من حسن حظه انه انتمى إلى هذه المدينة إذ أن جنوا توجهت نحو الملاحة والأعمال التجارية وكانت بشكل خاص حساسة لتغيرات التوازن الجغرافي السياسي في البحر المتوسط الشرقي. وقد استبدلت هذه المدينة في منتصف القرن الخامس عشر شبكتها



□ مركبة «سانتا ماريا» التي حملت كولومبس إلى جزر الباهاماس.


□ كريستوف كولومبس.

التجارية القديمة بشبكة جديدة تتجه نحو البحر المتوسط الغربي والمحيط الأطلسي.

وبعد طفولة جنوية أقام كولومب في البرتغال اعتباراً من عام ٤٧٧ فأبحر في الأطلسي إلى غينيا (Guinée) ومادير (Madère) وتعرف إلى جميع أنواع الرياح والتيارات. وفي ليشبونا أتقن معارفه النظرية: تبنى بحث أرسطو حول كروية الأرض كما اعتمد حسابات بطليموس وماركوبولو ومارتن دويتر الذين وضعوا قياسات مصغرة لمسافات الكرة الأرضية، أخذ كولومب ينمي معلوماته بواسطة أفكار عديدة كانت رائجة آنذاك كالفكرة التي كانت تقول بإمكانية الوصول إلى الهند عن طريق الغرب. تلك الفكرة التي كان طبيب فلورنسي (بادلو توسكانيللي) قد عرضها قبل ذلك على ملك البرتغال جان الثاني.

في العاصمة اللوزيتانية (Lusitanienne) طوَّر هذا البحار الجنوبي مشروعه ثم عرضه على جان الثاني الذي رفضه لأنه اعتبره مبنياً على خطأين (اعتماد كولومب على درجة طول تبلغ ٤٥ ملم بحري عوضاً عن ستين واعتقاده بأن آسيا ممتدة أكثر من ذلك). في ليشبونا كان أكثر الناس على يقين أن كل أسطول يرسل إلى آسيا عن طريق الغرب ينتظره هلاك محتوم.

أما كولومب فكان على النقيض من ذلك مقتنعاً بصحة مخططه وقابليته للنجاح. لماذا كان يتشبث بأخطائه الحسابية؟

دون شك لأنه كان يسمع ما يقال في المرافىء نقلاً عن البحارة الناجين من الغرق حول وجود أراضٍ وجزر في الغرب. مثلاً في عام ١٨٨٤ جزم دومينغو دي آرغو (Domingo de Arco) بأنه لمح جزراً في عرض الآكور (Acores).

عاد كولومب إلى أرض الكاستيل (Castille) بعد أن طردته السلطة البرتغالية ولاقى هناك استقبالاً حافلاً، ومن جديد اعتبر هذا الشخص ملهماً، ولكن هذا «الملهم» أصرَّ على عرض جنونه. وبعد حيرة كبيرة وافقت الملكة إيزابيل على عرضه. لماذا؟ إن الأسباب التي دعتها إلى الموافقة كثيرة ومنها: فتح مملكة غرناطة الفتية وحاجة السلطة إلى التوابل. إضافة إلى ذلك، إن الكاستيل لم تكن مسيطرة على طريق الهند الافريقي التي كانت تحت الهيمنة البرتغالية وفقاً لمعاهدة (Alcasovas) الموقعة عام ١٤٧٩. كذلك كان الكاستيليون على اعتقاد بأن الانتصار على المور (Maures) يتم بإشارة الهبة، فهم يمضون والسماء معهم مقتنعين بأنهم سينجحون بكل ما يقومون به، بسبب هذا كله اقتنعت «التقية»

إيزابيل الكاثوليكية بمخطط كولومب.

وبمساعدة الآخرين بانـزون (Pinzon) أعدّ كولومب المراكب التي تلزمه لهذه الرحلة وقد تألفت من كارافيلتين تسميان بانتا ونينا وسفينة صغيرة غاليسيانية تسمى سانتا ماريا يتـولى قيادتها الأميرال كولومب في حين يتولى قيادة الكارافيلتين الأخريين بانزون (Pinzon).

شهران في البحر

جاءت أخيراً ساعة الرحيل في ٤ آب ١٤٩٢ لـ ٨٧ رجلاً. وفي التاسـع منه وصل الأسطول إلى عرض جزر الكـاناري (حيث مكث هنـاك شهراً). أما ساعة الرحيـل الكبرى فكـانت في السـادس من أيلول، منذ التـاسـع منه بـدأ كولومب يعتمد على تقديراته، أوهم رجاله أنهم اجتازوا مساحة أقل من المساحة الحقيقية وكان هذا فقط تشـجيعاً لهم «كان رجالي قلقين بما فيه الكفاية ويعتقدون أنه لا يمكن وجود رياح مؤاتية للعودة إلى اسبانيا في هذه المناطق البحرية».

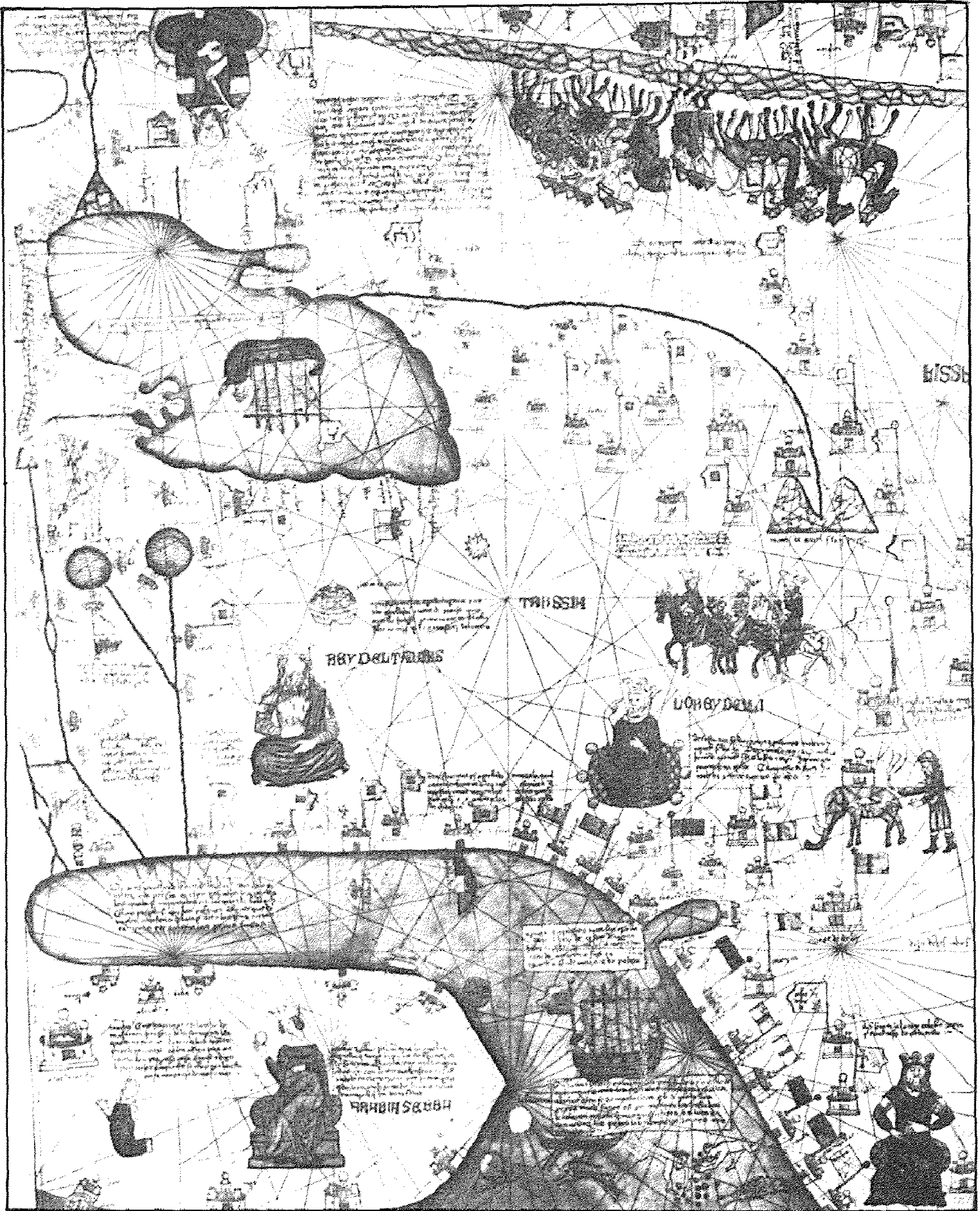
أما ثقة الأميرال بنجاح مشروعه فلم تنقطـع، كما حافظ على تفاؤله حتى في أوائل أيام تشرين الأول ذات الرياح الهوجاء. ووفق حساباته كان عليه أن يمر بمحاذاة اليابان لكنه فكر في اجتياز جزر الأرخبيل عن طريق الجنوب، بالرغم من أنه لم يكن يبحث عن هذه الجزر بل كان يبحث عن الصين. على كـل حال كـانت معنويـات رجال السفينة قد تكدرت وطلب مارتن بـانزون من كولومب أن يوجه السفينة نحو اليابان. ولكن ها هي الأعجوبة تظهر في ١٢ تشرين الأول، لقد ظهرت الأرض!

مـع هبوط الليل في ١١ تشرين الأول رأى البحار المراقب لمركبة بانتا السريعة خطاً غائماً من بعيد ودوّت الصرخات: إن العالم ينتـظر هناك. وفي الصباح ذهب الرجال فوق الجسر كي يروا في الساعة الثانية ظهراً جزيرة Watling التي أطلق عليها مباشرة اسم San Salvador.

وبعد ساعات تجلى للأعـين مشهد الانـزال الشهير من السفينة، هنا ظهر زورق إنقاذ في البحر، وهناك ظهرت راية، وها هو كولومب برفقة كاتب عدل الحملة، يعلن بأبهة ملكية الجزيرة باسم ملوك الكاثوليك. وغـرس صليب في هذه الأثناء على الأرض. لقد تعرف كولومب على أهالي هذه الجزيرة الغرباء:

«كتب في يومياته، لقد بذلت كل جهدي كي أكسب صداقتهم إذ إنني رغبت في أن يهتدوا إلى ديانتنا المقدسة، بـالحب وليس بالقـوة. قدّمت لبعضـهم قبعـات ملونة، وعقـوداً من الزجـاج وضعوها في رقابهم وأشياء أخرى صغيرة ليست ذات قيمة كبيرة، لقد أعربوا عن سرور عميق بهذه الأشياء مؤكدين أنها رائعة جداً. بعد ذلك وجدناهم مقبلين سباحة حتى وصلوا الى زوارق السفن حيث وجدنا فيها أشياء جلبوها لنا: درراً بحرية وخيوطاً قطنية وأرماح صغيـرة وأشياء أخرى كثيرة... باختصار أخذوا كل ما قدمناه لهم وأعطونا دون تردد كل ما يملكون وذهبوا عارين تماماً كما خلقتهم أمهاتهم.كانوا جميعاً، شباباً لم يتجاوز الواحد منهم الثـلاثين، ذوي منظر حسن جسماً وسمة، الشعر كالحرير يشبه ذيل الحصان، قص قصيراً عند مقدمة الوجه وترك من الخلف خصلاً دون قص. دهن بعضهم باللون البني وآخرون باللون الأبيض أو الأحمر والوان أخرى. منهم من دهن وجهه فقط ومنهم من دهن جسمه فقط أو عينيه أو أنفه».

إن هذا الأسطول في الحقيقة لم يجر من أجل اكتشاف إنسانية جديدة بل كان يريد الوصول إلى الهند، إلى Catay de Marco Polo الغنية. وها هو يكتشف Bahamas ثم يصل في ٢٧ تشرين الثاني إلى كوبا (معتقداً أنـه بلـغ Cipangu، اليابان). هناك تعرف كولومب وأصحابه على عرق جديد «ومخيف» اسمه Caraibe حيث استقبل أهالي هذا العرق البحارين بأسهم سامة. وعندما كان البحارة لا يجدون دائماً ما يتوقعونه من كنوز، اعتقد كولومب أنهم ذهبوا بعيـداً نحو الغرب وقرر أن يغير اتجاه السفينة، ثم وصل إلى سانت دومينغ (Saint-Domingue) التي أطلق عليها اسم جزيرة اسبانيولا (Hispaniola). كانت العلاقات الأولى مـع أهالي هذه الجزيرة جيدة جعلتهم يأملون بمكاسب وافرة. كتب كولومب في يومياته.. لقد صعدوا إلى حافة السفينة وحداناً وزرافات، لم يجلبوا معهم شيئاً مميزاً ولكن كان بعضهم يضـع في الأذن أو في الأنف خرزات ذهبية ناعمة جداً قدموها لنا دون تردد». لكن



□ أصبحت الخريطة في نهاية القرن الثالث عشر، تحوي العناصر الأساسية الموجودة في كل بلد.

خسارة كبيرة أعادتهم إلى صوابهم: فقد غرقت السفينة سانتا ماريا وكان ذلك دافعاً لتذكيرهم بأن الأولوية لم تعد لتجميع الذهب والثروات بل للعودة إلى اسبانيا، وتمكن كولومب بفضل صداقته مع الهنود ووصول (Martin Pinzon) مع مركبته نينا في اللحظة المناسبة من تجاوز الموقف الصعب الذي لم تكن المركبة نينا وحدها قادرة على إنقاذه منه.

في العودة فقط أظهر كولومب مزاياه البحرية الفريدة إذ إن المشكلة ليست في الذهاب «على

أراضي الغرب» بل في الوصول إليها، لقد كان رجال السفينة قلقين، بدأت المركبتان تبحران وهما تصارعان الريح ووجهتها نحو الشمال ــ الشرقي، وكانت الملاحة بطيئة حتى ظهرت الرياح الغربية.

هكذا ومنذ رحلته الأولى، فتح الملاك الجنوي كولومب طريقاً أصبح خلال أربعة قرون طريق الملاحين كلهم؟ هل كان ذلك قدراً؟ إذا سلّمنا بذلك يعني أننا نقلل من معرفة كولومب وحدسه تجاه ما يخبئه البحر من أسرار. لقد استطاع في الحقيقة أن يستلهم من الفولتا البرتغالية، ويحتمل أنه تابع نظام الريح في الأطلسي «ذلك الموضوع الذي طالما سلب لبه».

لم تتميز رحلة العودة بحادث طارىء إلا عندما جنحت مركبة نينا في الرمال وتهدّدت بالغرق. بعد ذلك توقفوا في الـ Acore ثم وصلوا إلى ليشبونا حيث كان الاستقبال حافلاً مهذباً بقدر ما هو متحفظ. أخيراً وفي نيسان ١٤٩٣ كان استقبال النصر عند ملوك الكاثوليك.

لم تنته مغامرات الأميرال كولومب عند هذا الحد فقط بل أخذ يفكر بمشاريع سفر أخرى حيث كانت الرحلة الرابعة والأخيرة عام ١٥٠٢ ــ ١٥٠٤ هي الأكثر «بريقاً، ربما على الصعيد التقني» لكن الأهم من ذلك لم نجده في مغامرات كولومب الذي أخذ يرى فتوحاته وهي تحتجب عنه. فالشيء الأساسي منذ ذلك الحين هو ما كان يخلفه مشروعه من نتائج دبلوماسية. وفي الواقع منذ أيار ١٤٩٣ حدد «المرسوم الاسباني» البابوي الخط القاسم بين مناطق النفوذ البرتغالية والاسبانية وقد أكدت معاهدة Tondesillas هذا في ٣ حزيران ١٤٩٤.

فاسكو دي غاما وكابريال

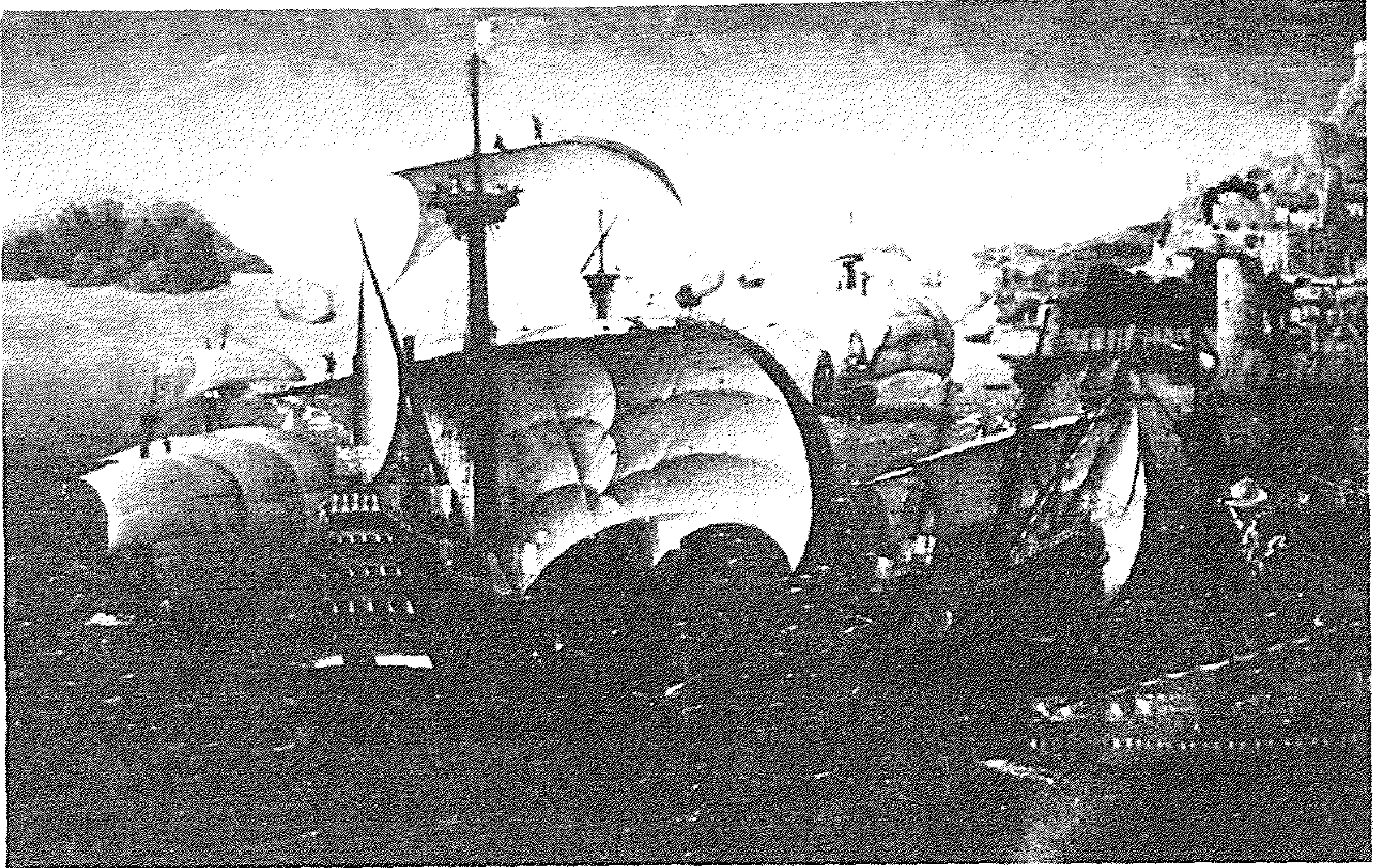
ندم البرتغاليون لعدم ثقتهم بكولومب ولكن نجاحه لم يكن مصيبة بالنسبة لهم على كل حال، فها هم يدخلون طريق الهند الحقيقي من ذلك الممر عبر المحيط الهندي بفضل «الباب» الذي فتحه Bourtelemeo Diaz عام ١٤٨٧.

وبعد اجتياز رأس الرجاء الصالح، لم تعد الملاحة مجرد خيال، وأصبحت القوانين الطبيعية كافية كي تكون دليلا للملاحة، ففي الصيف تتناوب الرياح الجنوبية ــ الشرقية مع الرياح الموسمية الجنوبية ــ الغربية لتقود مباشرة إلى الهند، أما في الشتاء فتبدو الرياح الموسمية الشمالية ــ الشرقية، صالحة للعودة.

وبعد انتظار عشرة أعوام قرر البرتغاليون الدخول إلى المحيط الهندي وكان ذلك في الثامن من تموز عام ١٤٩٧ حيث بدأ فاسكو دي غاما مغامرته بمساعدة أربعة أشرعة. وصل غاما خليج غينيا (Guinée) ثم توجه نحو الجنوب واجتاز رأس الرجاء الصالح ودخل قناة الموزنبيق مجتازاً في كانون الأول النقطة النهائية التي وصل إليها Diaz، وبعد وصوله إلى المحيط الهندي، استفاد فاسكو دي غاما من الخصومات الداخلية بين التجار العرب وبفضل مساعدة ربان مسلم وصل إلى مرفأ Calicut الهندي، وقد استقبل هناك في بادىء الأمر كواحد من قراصنة البحر ثم رضيت عنه السلطة، حارب عداوة التجار العرب وبالرغم من هذا كله بقي الملاح الكبير شهوراً عديدة مرمياً على شط البحر.

وبعد أن جلب معه الكثير من الزنجبيل والفلفل وكبش القرنفل والقرفة والمجوهرات، عاد في ١٩ آب عام ١٤٩٨ وفي العاشر من تموز عام ١٤٩٩ تحركت أول سفينة عائدة قرب شواطىء طاجة، محملة بأشياء غنية، ومنذ ذلك الحين أصبح طريق الهند سالكاً ولكن بأي ثمن؟ لقد تميزت مغامرة دي غاما بأعمال باهرة كلفت فقدان نصف المراكب و ٨٠ رجلاً من أصل ١٥٠.

أصبح المهم بالنسبة للبرتغاليين هو الانتقال من الاكتشاف الى الاستفادة من هذه الطريق. ها هي حملة أخرى تعبأ مؤلفة من ١٣ سفينة ترأسها كابرال، وقد خلدت هذه الحملة اسمه عبر التاريخ لأنه اكتشف البرازيل، لقد أثار هذا الاكتشاف كالعادة تساؤلات كثيرة: هل سبق كابرال بحارون آخرون إلى هذا الاكتشاف؟ هل وصل هذا البرتغالي إلى الأرض الأميركية بالصدفة؟ إننا سنترك هذه الأسئلة دون جواب داعين القارىء للاطلاع على مؤلفات تتعلق بالبرازيل للكاتب Fréderic Manro.



□ سفن تجارية برتغالية، ذات حمولة كبيرة، كانت تستعمل لشحن البضائع والأسلحة الثقيلة في تلك العصور.

ماجـلان

إذا كانت رحلة Cabaral محاطة بكثير من التساؤلات فإن قسماً كبيراً من ذلك يعود إلى تضاعف الاكتشافات في أوائل القرن السادس عشر. فلم يعد هدف الحملات هو الاكتشافات فقط بل الفتوحات أيضاً.

كذلك إن المعلومات المتعلقة بالأرض الجديدة أصبحت أوسع وأكثر دقة مما كانت عليه في السابق. وهناك نتيجة لم يكن بالإمكان تجنبها وهي أن أفكار كولومب الخاطئة أخذت تنتشر انتشاراً كبيراً. ففي عام ١٥١٣ اجتاز Baboa برزخ باناما واكتشف مساحة من المياه ممتدة على مدى البصر لا يمكن إلا أن تكون بحراً، وقد تمنى الكثير من الملاحين منهم Amerigo في أن يجدوا الممر المشهور الذي يوصل إلى الغرب.

يعود شرف اكتشاف هذا الممر إلى فرنانو ماجلان: لقد خدم هذا البرتغالي في الهند الشرقية تحت حكم (Abuqnerque) قبل أن يصاب بجرح في مراكش. وقد أنهت هذه الإصابة مهنته العسكرية، فعين حارساً لقطيع مستولى عليه في أراضي المور لكن بعض الحيوانات اختفت فاتّهم ببيعها للعدو. وفقد من جراء ذلك سمعته في بلاط ليشبونا. وهذا ما أدى إلى رفض الملك لمشروعه الذي لم يكن جديداً، وهو الوصول إلى (Moluques) عن طريق الغرب.

وكما فعل كولومب عاد ماجلان إلى اسبانيا مستنجداً بالملك شارل لير وعندما حصل على موافقته في ١٥ آب ١٥١٩ بدأ حملته المؤلفة من خمسة مراكب و ٢٧٥ رجلاً.

وصل ماجلان البرازيل على ارتفاع خليج ريو. وبدأت منذ ذلك الحين مرحلة المتاعب والصعوبات. وفي كانون الثاني عام ١٤٢٠، لمح مراقبو السفينة تجويفاً في الشاطىء فاعتقدوا أنهم وجدوا الممر، وغرسوا فيه، لكن خلال أيام قليلة تبين لهم أن هذا ليس سوى مصب نهر واسع إذ أكد لهم ذلك وجود أعمال سبر وانحصار الضفاف ووجود المياه الهادئة... كان ذلك خيبة أمل بالنسبة لهم لكنه لم يثبط من عزيمة البرتغالي ماجلان. دخلت الحملة الشاطىء نحو الجنوب واقتربت من منطقة باردة كبرودة شتاء أوستراليا، إلى أين يريد ماجلان الذهاب؟ أخذ القباطنة بطرح الأسئلة كما أخذ رجال السفينة بالثرثرة، وثار بعض العصاة ودبّرت مؤامرات

انتهى كل ذلك بمعاقبة المتمردين على أحد الشواطىء الخالية.

اعتقد ماجلان ورجاله مراراً بأنهم سيجدون الممر الذي يحلمون به وتتابعت الخيبة تلو الأمل عندما كانوا يفاجأون بفجوة أو ساقية شاطئية. إلى أن جاء الحادي والعشرون من تشرين الأول عام ١٥٢٠، تشقق الشاطىء أمام أعين البحارة، لكن ذلك لم يبعث الأمل في نفوسهم، كان ماجلان فقط هو المتفائل وكالعادة (وبالرغم من اعتراض الضباط) أرسل مركبتين للكشف، وفجأة ظهرت عاصفة هوجاء هزت حتى المراكب التي لم ترسل إلى الداخل. اعتقد الجميع ما عدا ماجلان بأن رجال المركبتين قد فقدوا هم وأمتعتهم. يا للمفاجأة، ها هم يسمعون بعد خمسة أيام من ذهابهم ضربات بندقية لحقها مباشرة ظهور المركبتين المفقودتين! لقد كانت الأخبار التي حملها إليهم أصدقاؤهم أكثر من مشجعة. هناك حيث ذهبوا كان الماء عميقاً جداً ومالحاً.

الذهاب نحو الغرب والعودة عن طريق الشرق:

أخذت مراكب الحملة (التي نقصت مركباً في تموز بسبب هبوب عاصفة) تدخل المضيق الذي أطلق عليه ماجلان اسم «جميع القديسين» والذي سمّي بعد ذلك باسم مكتشفه. وفضلاً عن أنه مضيق حقيقي فهو متاه طويل تبلغ مساحته ٦٠٠ كم، تصعب فيه الملاحة جداً. وهكذا لم تدخل الحملة البحر الحر إلا في ٢٨ كانون الأول.

بدا المحيط الجديد هادئاً فأطلق عليه ماجلان اسم «الباسيفيك» ثم وجه السفينة نحو الشمال ــ الغربي. لم ينته عهد المتاعب في ذلك الوقت، إذ ضاعت مركبة اسمها سان أنطونيو حيث فضل ربانها الهرب مع رجال السفينة بعد أن سجن القبطان. فضلاً عن ذلك ولسوء الحظ لم يصادف ماجلان في طريقه أية جزيرة حتى وصوله إلى (Gam). لقد أصبحت مشكلة التموين بالنسبة لهم ملحة كما أكدته جريدة Pigafetta «لقد أبحرنا خلال ثلاثة أشهر وعشرين يوماً دون أن نتذوق طعاماً طازجاً، فالبسكويت الذي كنا نأكله لم يكن خبزاً ولكنه تراب ممزوج بالدود، ذو رائحة عفنة مفعمة ببول الفئران، والماء الذي أجبرنا على شربه كان نتناً، وكي لا نموت جوعاً أرغمنا على أكل قطع من جلد البقر التي غطينا فيها عارضة الصاري الكبيرة كي لا يلتهم الحبل الخشب... أما المصيبة الكبرى فهي أن نجد أنفسنا مهاجمين بمرض في اللثة يسبب انتفاخها حتى كادت تغطي الأسنان».

ولحسن الحظ، صادفت مراكب ماجلان أخيراً في آذار، عدة جزر تمونت فيها شتى أنواع الأغذية الطازجة وكان هدف الحملة الرئيسي هو تجنب الاتصال بالبرتغاليين الراغبين في إفنائها. إلا أن ماجلان ارتكب خطأ فادحاً إذ إنه ورط نفسه بالتدخل في الخصومات القائمة بين رؤساء الأهالي. وقد كلفه هذا الخطأ حياته إذ إنه شنق هناك.

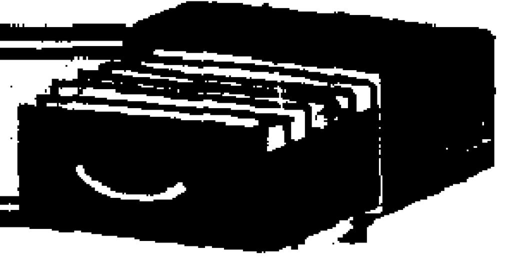
أخيراً وصل مركب واحد إلى أوروبا مؤلف من ١٨ رجلاً بفضل جهود Basqne el cano الذي لخص في تقرير قدمه إلى الملك جميع الصعوبات التي واجهوها «فلتتفضل سعادتك بالعلم أننا عدنا ١٨ رجلاً مع مركب واحد كنت، جلالتك، قد بعثته تحت طلب الكابيتين الجنرال ماجلان مجدت ذكراه، فليكن عند جلالتك العلم أننا وجدنا الكافور والقرفة واللؤلؤ فلتتكرم جلالتك بتقدير ما أنجزناه: «قمنا بجولة حول العالم إذ ذهبنا نحو الغرب فعدنا عن طريق الشرق»... ●

● إن رحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.

«مثل صيني»

● إنني مبتهج بإفتكاري بأني لست مسؤولاً بأن أجعل العالم يدور، بل الذي عليّ هو أن أكشف وأعمل العمل الذي يحدده لي الله بقلب مغتبط.

«جون انجلو»



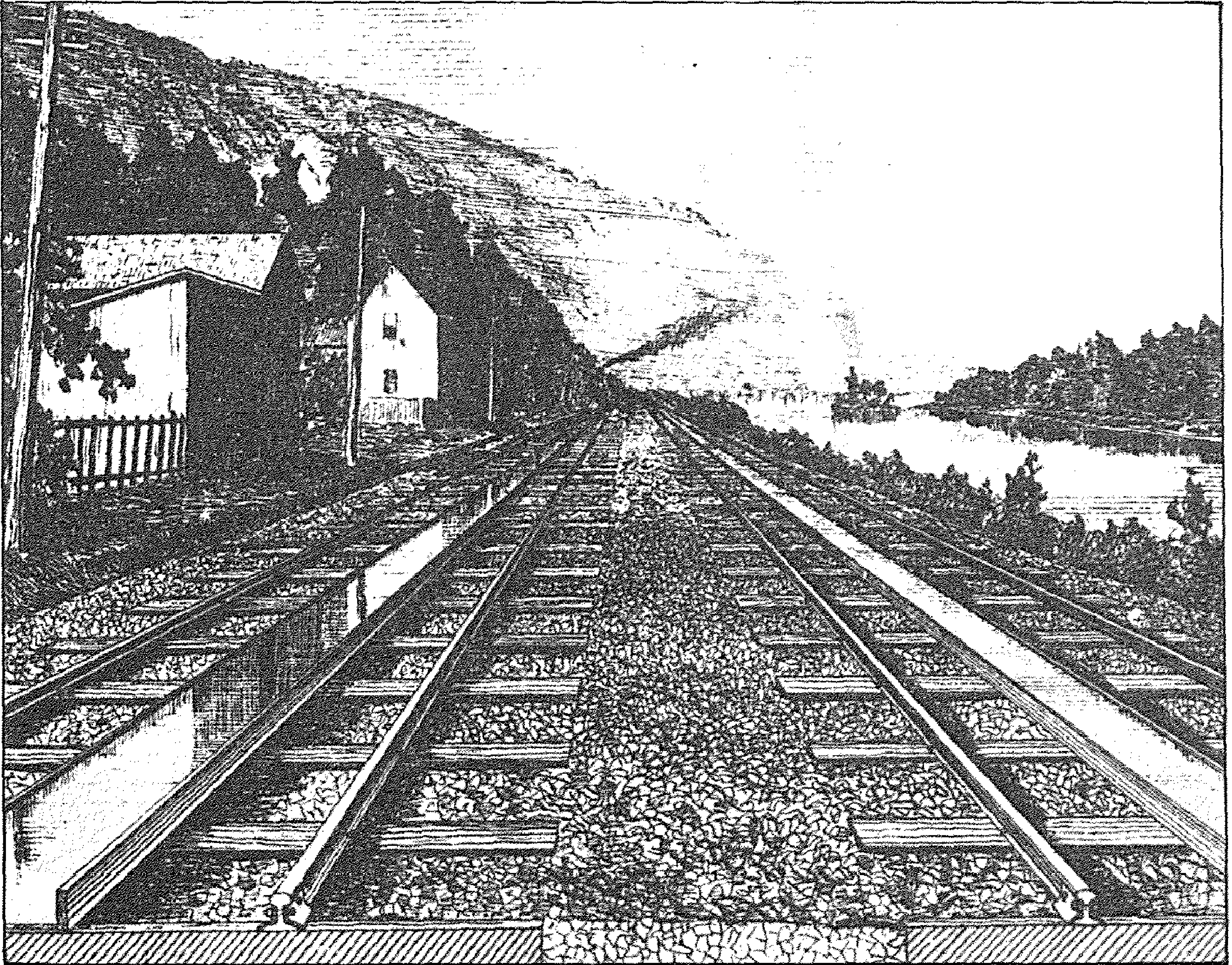
تاريخ الاستعمارات الاوروبية في العالم العربي

الدولة العربية	الدولة المستعمرة	تاريخ بدء الاستعمار	تاريخ احكام السيطرة على المستعمرة	تاريخ انتهائه الاسمي	تاريخ انتهائه الفعلي	مدته	نوع الاستعمار
مشيخات الخليج وعمان	بريطانيا	١٨٢٠	١٨٢٠	١٩٧١	١٩٧١	١٥١ عاماً	□ محميات بريطانية.
الجزائر	فرنسا	١٨٣٠	١٨٤٧ □ بعد القضاء على ثورة الامير عبد القادر الجزائري.	١٩٦٢ □ بعد معاهدة ايفيان.	١٩٦٢	١٣٢ عاماً	□ اعتبرت ارضاً فرنسية.
عدن	بريطانيا	١٨٣٩	١٨٥٧	١٩٦٧	١٩٦٧	١٢٨ عاماً	□ تابعة للهند البريطانية. □ اصبحت بعد ١٩٣٧ مستعمرة تابعة للتاج البريطاني مباشرة.
البحرين	بريطانيا	١٨٨٠	١٨٨٠	١٩٧١	١٩٧١	٩١ عاماً	□ محمية بريطانية.
تونس	فرنسا	١٨٨١	١٨٨٢	١٩٥٦	١٩٥٦	٧٥ عاماً	□ محمية فرنسية.
مصر	بريطانيا	١٨٨٢	١٨٨٢ □ بعد القضاء على ثورة عرابي باشا.	١٩٣٦	١٩٥٦ □ بعد اتمام الجلاء عن قناة السويس.	٧٤ عاماً	□ احتلال عسكري ١٨٨٢ ـ ١٩١٤. □ محمية بريطانية ١٩١٤ ـ ١٩٢٢. □ استقلال جزئي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٦. □ استقلال اسمي ١٩٣٦ ـ ١٩٥٦.
السودان	بريطانيا/مصر	١٨٩٨	١٨٩٨ □ بعد القضاء على ثورة المهدي.	١٩٥٦	١٩٥٦	٥٨ عاماً	□ حكم بريطاني مصري مشترك.
الكويت	بريطانيا	١٨٩٩	١٨٩٩	١٩٦١	١٩٦١	٦٢ عاماً	□ محمية بريطانية.
المغرب	فرنسا (واسبانيا)	١٩١١ □ بعد واقعة اغادير بين فرنسا والمانيا.	١٩٢٦ □ بعد القضاء على ثورة الامير عبد الكريم الخطابي.	١٩٥٦	١٩٥٦	٤٤ عاماً	□ محمية فرنسية. □ احتلال اسباني للشواطىء الشمالية وللصحاري الجنوبية.
ليبيا	ايطاليا (وبريطانيا)	١٩١١ (١٩٤٢)	١٩٣١ □ بعد القضاء على ثورة عمر المختار.	١٩٥١	١٩٥١	٤٠ عاماً	□ اعتبرت ارضاً ايطالية ١٩١١ ـ ١٩٤٢. □ احتلال بريطاني ١٩٤٢ ـ ١٩٥١.
الاردن	بريطانيا	١٩١٩	١٩١٩	١٩٤٦	١٩٥٧ □ بعد اقصاء القيادة البريطانية عن الجيش الاردني.	٣٨ عاماً	□ انتداب بريطاني.
العراق	بريطانيا	١٩١٩	١٩٢٠ □ بعد القضاء على الثورة في جنوب العراق.	١٩٣٠	١٩٥٥ □ بعد الغاء معاهدة ١٩٣٠.	٣٦ عاماً	□ انتداب بريطاني.
فلسطين	بريطانيا	١٩١٩	١٩١٩	١٩٤٨	١٩٤٨	٢٩ عاماً	□ انتداب بريطاني.
لبنان	فرنسا	١٩١٩	١٩١٩	١٩٤٣	١٩٤٦ □ بعد اتمام الجلاء.	٢٧ عاماً	□ انتداب فرنسي.
سوريا	فرنسا	١٩٢٠ □ بعد معركة ميسلون.	١٩٢٦ □ بعد القضاء على ثورة سلطان باشا الاطرش في جبل الدروز.	١٩٤٣	١٩٤٦ □ بعد اتمام الجلاء.	٢٦ عاماً	□ انتداب فرنسي.

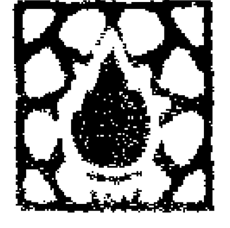
أحمد عزة باشا العابد (*)

رجل الفكر في السياسة والإدارة
و
منشئ الخط الحديدي الحجازي

إعداد : علي حيدر النجاري



(*) يلقي الكاتب في هذا البحث التاريخي الضوء على منشىء أعظم خط حديدي في الشرق الأوسط، الخط الحديدي الحجازي.



إن أول ما يلفت أنظار زوار مدينة دمشق ويسترعي انتباههم، ذلك العمود الفخم المنتصب في قلب جلق الفيحاء قلب العروبة النابض.

لقد صنع العمود من البرونز الخالص وأحيط بأسلاك حديدية هي بعض منه، وأقيم عليه في أعلاه نموذج برونزي مصغر لمسجد المدينة المنورة، وقد نقش على لوحة رخامية في قاعدة العمود باللغة التركية ما يفيد أنه أقيم بمناسبة افتتاح خط برقي «تلغراف خطنك» بين دمشق والمدينة المنورة.

وهذا النصب التذكاري يقع في ساحة أطلق عليها اسم ساحة الشهداء ــ وكانت وما تزال تسمى ساحة المرجة ــ حيث علقت عليها مشانق شهداء العروبة في السادس من أيار/مايو ــ لعام ألف وتسعمائة وستة عشر، وأمام هذا النصب وفي زقاق رامي وعلى الساحة أيضاً يطل قصر منيف هو قصر العابد، وأن طالما كنا نسمع من عامة الناس أن فيه وعلى مدار السنة ثلاثمائة وستين غرفة وبدهي أن هذا من المبالغات غير أن القصر الآخذ امتداد شارعين على يمينه وشماله ليتيه فيه الداخل إليه لكثرة أبهائه ودهاليزه بله الغرف الكائنة على الطرفين.

ثم إلى الغرب من ساحة الشهداء وفي نهاية شارع مواز للساحة تقع محطة الخط الحجازي ذات الزخارف والنقوش البديعة والتي منها يبدأ الخط الديدي الذي يصل دمشق بالمدينة المنورة، وقد ترك ثم أهمل الجزء الأكبر الممتد إلى الجنوب نحو الأراضي الحجازية منذ الحرب العالمية الأولى.

هذه المنشآت الثلاث: النصب التذكاري، وقصر العابد، ومحطة وسكة الحديد الحجازية، جميعها ــ وغيرها كما سنذكر ــ قامت بمساعي رجل من دهاقنة الفكر والسياسة الدولية وممن ران على ذكرهم نسيان عالمنا الحديث.

ذلك الرجل التاريخي هو أحمد عزت العابد، الرجل الذي كان موضع الثقة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني نحواً من عشرين عاماً، منذ انتقاله إلى الآستانة، وفي هذه الفترة كانت له اليد الطولى في الدولة العثمانية **ويبدو جليا أنه هو الذي دفع بالسلطان عبد الحميد إلى رفض مطلب هرتزل في إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين.**

إنه عربي من أكابر مدينة دمشق حسبما يقول الشاعر الحمصي الشيخ رسول النجاري (١٨٤٩ ــ ١٩١٩).

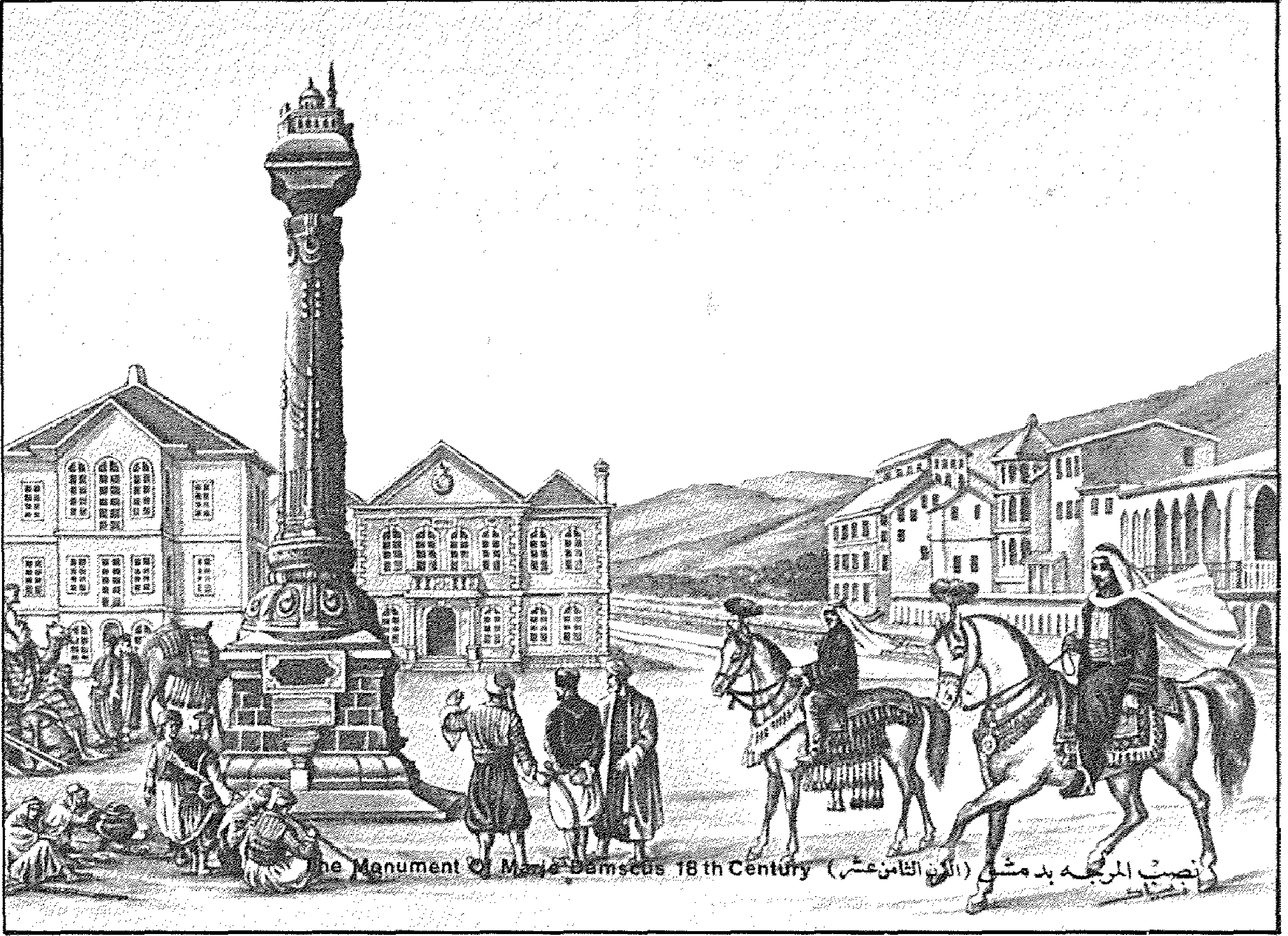
شهمٌ سما مجدُهُ في كلّ مكْرُمةٍ
من الأصول التي طابَتْ عناصِرُها
من أعرب العُرْبِ من شاعت شجاعتهم
وكلهم فارس الهيجا غضافرها
دمشق جنّةُ دُنْيانا لهمْ وَطَنٌ
ومن زمانٍ قديمٍ هُمْ أكابرها

وينقل الفيكونت دي طرازي عن كتاب الصيادي: «الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام» ينقل ما يلي:

«إن جده ــ والحديث عن العابد ــ الأعلى الأمير قانصو العابد من أمراء المشارقة ينتمي إلى عشيرة عربية تعرف بالموالي وتسكن الخيام بين الزور وتدمر وهي تنتسب إلى قبيلة بكر بن وائل الحجازية القرشية»[١].

في ترجمة أحمد عزت باشا العابد (١٨٤٩ ــ ١٩٢٤) يقول الزركلي في مؤلفه «الأعلام» وإنّا لنورد النص بكامله لما سنبيّن من رأينا في بعض ما جاء به وما فاته:

«أحمد عزت بن محيي الدين أبي الهول المُسَمّى هولو باشا ابن عُمَر بن عبد القادر العابد من مشهوري الساسة في عهد انهيار السلطنة العثمانية، ولد بدمشق وتعلم بها وببيروت وأجاد الفرنسية والتركية[٢] وعين مفتشاً للعدلية في سورية[٣] وكان معدوداً في بدء أمره من أنصار الإصلاح وأصدر جريدة أسبوعية بالعربية والتركية أسماها «دمشق»[٤] ثم سافر إلى الآستانة وخدم السلطان عبد الحميد الثاني فتقدم إلى أن كان سكرتيره الثاني ومستشاره الأقرب وكان السلطان شديد الخشية من أوروبا يعمل على مسالمتها فأعانه أحمد عزت على انتهاج سياسة تحول دون اتفاق الدول الأوروبية في بلاده، وكثرت فيه أقوال الناس بين معجب بدهائه وناقد يتهمه بالاشتراك في فظائع عبد الحميد والعمل على توطيد أركان استبداده وكان اتصاله الأول بالسلطان عن طريق الشيخ أبي الهدى



□ نصب المرجة في دمشق (القرن الثامن عشر).

الصيادي ثم وقع التنافس بينهما وهو الذي سعى في إنشاء سكة الحديد الحجازية وغادر البلاد العثمانية بعد انقلاب سنة ١٣٢٦ ـ[٥] ١٩٠٨ وأتى لندن ثم جعل يتنقل بين انكلترا وسويسرة وفرنسا إلى أن استقر أخيراً في مصر فتوفي بها ونقلت جثته إلى دمشق».[٦]

هـذا نص ما جاء في الأعلام لخير الدين الزركلي وقد ذكرت المصادر وهي تاريخ الصحافة العربية ــ وقد أغفل منه بعض أمور مهمة كما سنذكر ــ وجرائد الأهرام وكوكب الشرق وأم القرى.

بيد أنه، وهنا نلاحظ نقاطاً هامة فاتت الزركلي ولم يسجلها وهي تنصف العابد وتقدره حق قدره في التاريخ العربي، ولا يُرَدُّ علينا بإيجاز الترجمة إذ تكفي بضعة مصادر معروفة يخص فيها ما يخص العابد ولا سيما من الناحية السياسية القومية وذلك ببضع جمل في كلمات معدودة. هذا إذا اقتصرنا على السياسة أما في الإدارة فثمة أمور كثيرة أغفلها الزركلي كما سنذكر.

أولاً ــ إن العابد من نسل عربي ــ وقد نوهنا بهذا ــ هبط جده الأعلى دمشق في أوائل القرن الثامن عشر وغدا أبناؤه وأحفاده وبيدهم الحل والربط حيث كان كل منهم يلقب بالآغا إذ يرجع إليه وبوساطته حل كثير من مشاكل الأهلين[٧]. وأبوه هولو باشا توصل إلى أن يكون متصرفاً على بعض الألوية مع أنه عربي الأصل[٨].

ثانياً ــ ومما أغفله الزركلي وجاء به المؤرخ المرحوم أدهم الجندي: مؤازرته للجمعيات العربية ــ كما سيأتي ــ وهذا مما يؤخذ على الزركلي وهو الباحث والشاعر القومي.

تَتَّسِقُ باديء ذي بدء ترجمة أدهم الجندي للعابد مع الزركلي ويزيدها إيضاحاً حيث يقول ما نصه:

«ثم توصل بذكائه إلى الخدمة في الباب العالي فكان الكاتب الثاني وهي الوظيفة الرسمية للعابد في معية السلطان عبد الحميد بوساطة الشيخ



□ السلطان عبد الحميد.

ابـي الهدى الصيادي الرفاعي ثم اشتد الخلاف بينهما».

وهنا نلاحظ مدى البون الشاسـع بين عبارة الزركلي: «ثم وقـع التنافس بينهما» وعبارة أدهم الجندي: «ثم اشتد الخلاف بينهما» إذ ليس ثمة تنـافس بين الرجلين وإنمـا خـلاف شـديـد: أبو الهدى صوفي متزمت وأحمد عزة إصلاحي حضاري.

وينتهي المؤرخ أدهم الجندي إلى القول وهنا بين القصيد:

«وأخيـراً أقـام في مصر وكـان في عـداد الشخصيات البارزة التي آزرت رجالات العرب في طلب الإصلاحات في عهـد الاتحاديـين وتبرع بالأموال لمساندة الجمعيات العربيـة وقد حكم عليه بالإعدام غيابياً»(٩).

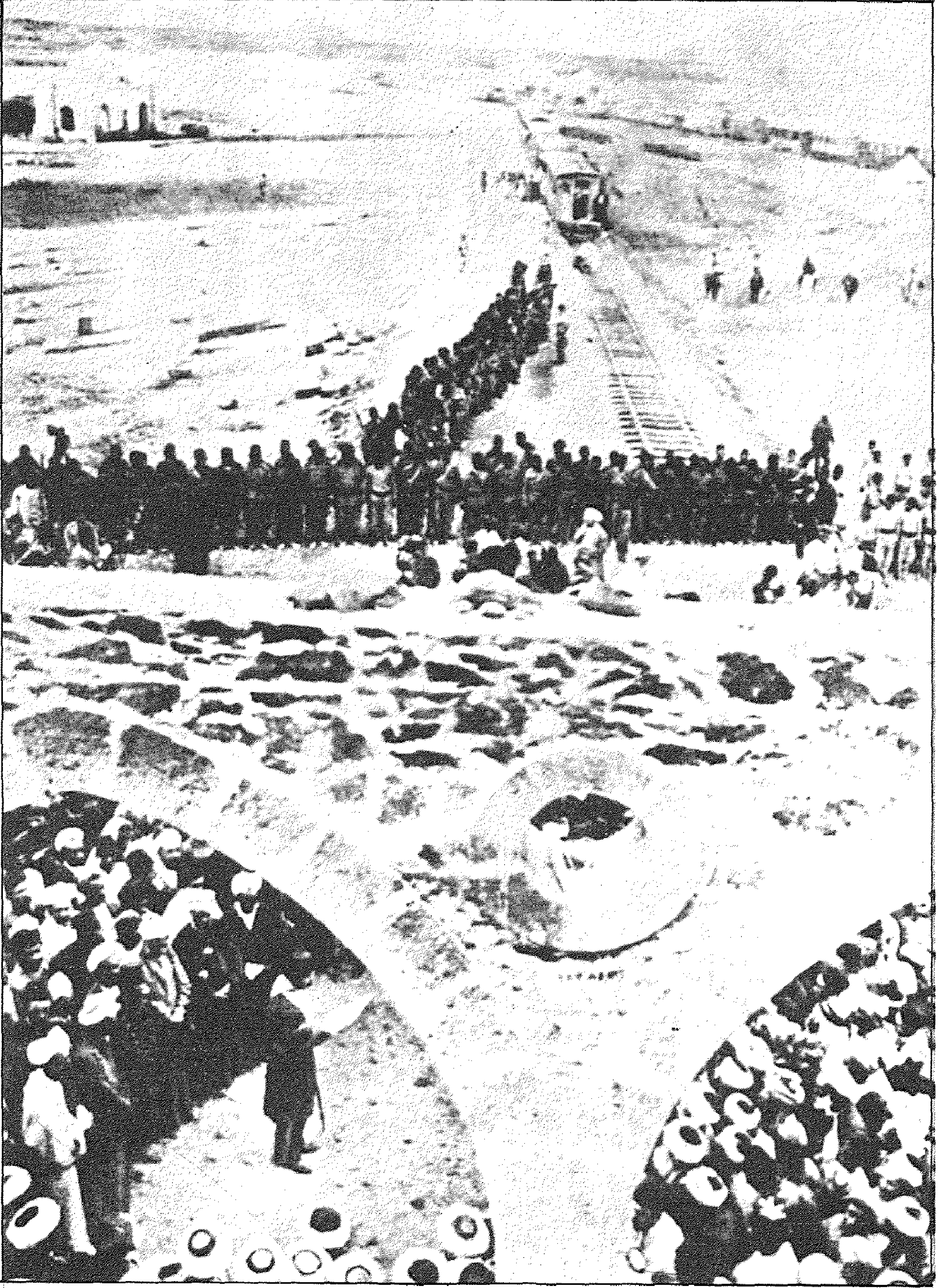
وهذه العبارة الأخيرة الحكم بالإعـدام هي النـاحية الثـالثة المهمـة التي فـاتت الزركـلي ولم يذكرها. ولعل الجندي استنتجها مما جاء في كتاب الوثائق الذي نشرته السلطات التركية تحت عنوان: «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العـرفي المتشكل بعاليه» فهـذا الكتاب الوثـائقي الخطير يـذكر مساعدة العابد للمنتدى الأدبـي قبل الانقلاب العثماني ثم تخصيصه مبلغـاً وفيراً لمسـاعدة الجمعيات العربية وقد اعترف بهذا عبد الحميد الزهراوي حسبما جاء في الوثائق(١٠).

ومن هذه الوثائق عثور السلطات التركية على كتـاب من عزت العـابد إلى الزهـراوي بهـذا الغرض.

وفي أحـد فصـول الكتـاب تحت عنـوان: «المحكومون ودواعي المحكومية» إن الزهراوي تـولى إدارة أوقاف العـابـد وطرق صـرفهـا. (ص ١١٥).

ومن جملة الأسباب السعي لتأسيس خلافة عربية. (ص ١٥٤).

ويقول العابد في كتاب بعث به إلى الزهراوي من لندن أنه خصص مبلغاً جسيماً لينفق على القضايا العربية بعد وفاته وسمّى المصرف الذي



□ افتتاح الخط الحديدي الحجازي بين دمشق والمدينة في ٣ تشرين الأول ١٩٠٨.

نقبض منه المبالغ.

هذه هي المناحي السياسية للعابد أما الشخصية والإدارية فقد أسهب المؤرخ اللبناني الفيكونت دي طرازي[١١] صاحب تاريخ الصحافة العربية في تعداد مآثره فقال:[١٢] إنه تولى رئاسة لجنة المهاجرين مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهراً وأنشأ خلالها نيفاً وأربعين قرية أسكن فيها نحواً من خمسين ألف مهاجر أكثرهم في ولايتي سورية وحلب ثم شيد من ماله الخاص في المدينة المنورة مستشفى لخمسين مريضاً ورياضاً لخمسين عائلة ومدرسة لمائتين من الأطفال وجعل لهذه المباني أوقافاً مسجلة في الآستانة وفي المحكمة الشرعية بالقاهرة واتصل بنا الآن ــ أي في عام ١٩١٣ ــ أن المباني المذكورة استعملتها الحكومة لغير ما خصصت له».

وكانت مياه المدينة المنورة تأتيها بمجرى تتخلله جرائيم الأوبئة الفتاكة فافتتح اكتتاباً جمع فيه نحواً من ٥٠٠٠٠ ليرة ابتاع بها قساطل حديدية وأنابيب على الطراز الصحي ثم بعث بها لتحصر مياه الينابيع سالمة من الأقذار، وما كاد يشرع بالعمل حتى اضطر أن يفارق الوطن فتوقف الشغل ولم تزل القساطل والآلات البخارية وفروعها ملقاة في محطة حيفا وسائر محطات السكة الحجازية ــ عام ١٩١٣ ــ.

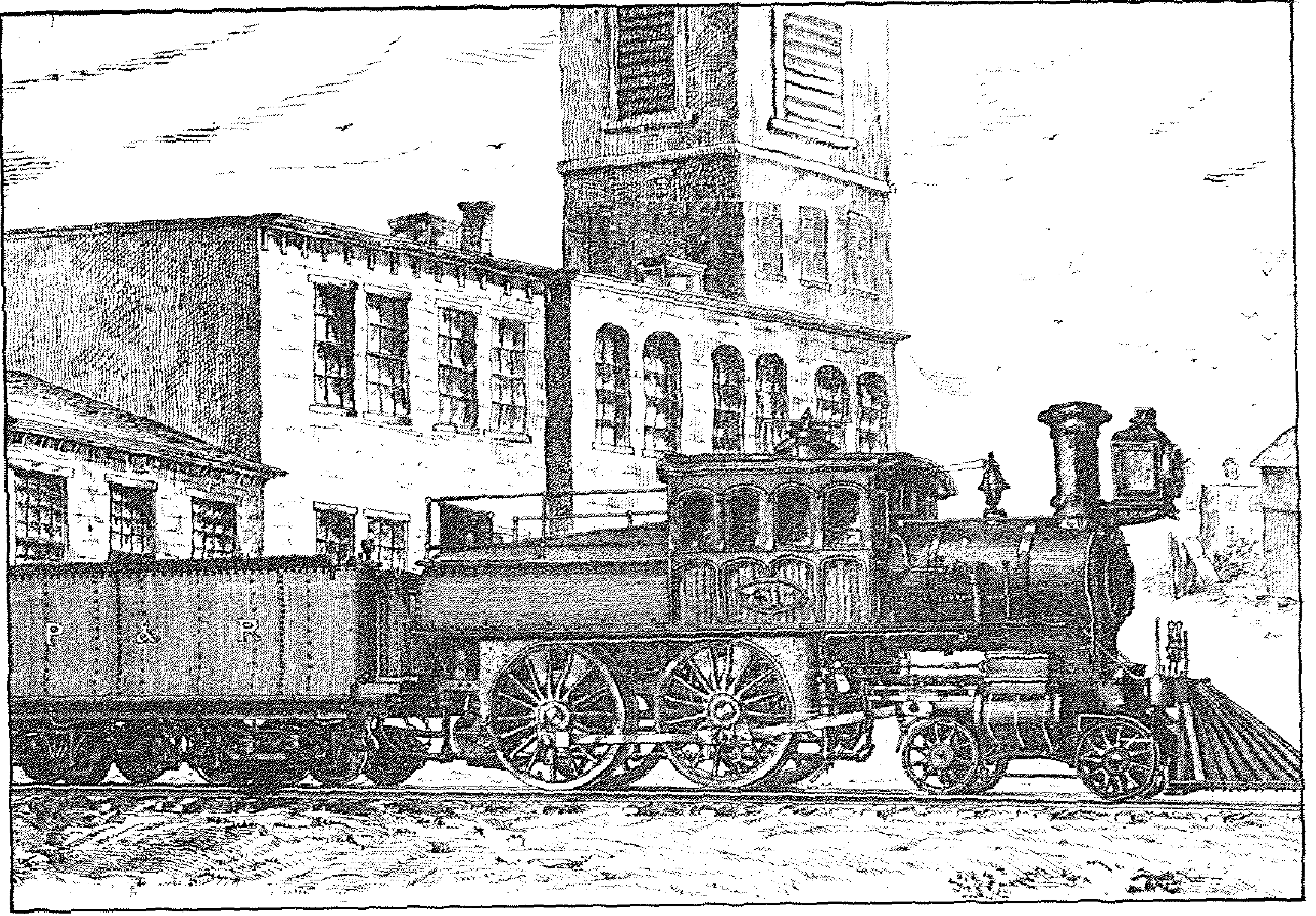
محطة السكة الحجازية

حول هذه المحطة يسهب دي طرازي فيها إذ يقول: «إن العابد منذ حداثة سنه كان يستعظم الأتعاب التي تلم بالمسلمين في ذهابهم إلى الحج فأخذ يتتبع ما فعلته حكومة روسيا بإنشاء السكة الحديدية بسيبريا وبعد أن أتم أبحاثه فرض على السلطان وجوب إنشاء السكة الحديدية الحجازية بأيدي العساكر وأخذ على عاتقه القيام بهذا المشروع الخطر الذي لم يقم في الدولة العثمانية مشروع آخر يضاهيه أهمية ونفعاً حتى الآن ــ عام ١٩١٣ ــ وأذن له السلطان بمباشرة العمل بينما لم يكن في يده دانق واحد ولا آلة ولا مورد يستند إليه فافتتح لوائح الاكتتاب مقترحاً على الشعوب الإسلامية وملوكها وأمرائها وأغنيائها وعلمائها أن يشتركوا في المساعدة فلبى جميعهم نداءه وتبرعوا بالأموال الوافرة التي بلغ مجموعها نحواً من ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه فأنشأ بهذا المبلغ خطاً طوله ألف وخمسمائة كيلو متر يمتد من حيفا إلى دمشق فالمدينة المنورة وكان يؤمل أن يمد خطين من المدينة المنورة أحدهما إلى مكة وجدة وصنعاء اليمن والآخر إلى البصرة وأن تكون أكلاف إتمامهما من ريع خط الحجاز ومن الرسوم الطفيفة التي أحدثتها السلطنة لهذه الغاية، ولكن أبت الظروف إلا أن يضطر للخروج، ونال العابد وسام الامتياز المرصع مع ميداليتين ذهبيتين ــ لإنشاء الخط الحجازي ــ[١٣].

ولما تم خط المدينة المنورة أوصل إليها النور الكهربائي ولم يكن له أثر في البلاد العثمانية وقد عهد بإنشائه إلى ضباط الجيش البحري ولم يصرف في سبيله دانقاً واحداً من خزينة الدولة.

وطوال تقرّبه من السلطان كان يحاول الاستغناء عن استقراض الأموال الأجنبية فمن ذلك أن نظارة التلغراف طلبت ١٣ ألف ليرة عثمانية لتنشىء خطاً برقياً بين فزان وطرابلس الغرب ولدى مراجعته استكثر المبلغ فأخذ على عاتقه إنشاء الخط المذكور مع خط آخر يمتد من بنغازي إلى طرابلس بأقل من نصف المبلغ ثم أحدث بين «كله مش» من أعمال ولاية أزمير وبين بنغازي خطاً برقياً بلا سلك فسهل للدولة العثمانية حرية المخابرة بينها وبين أملاكها في شمال أفريقيا ولم يكلف الخزينة أكثر من عشرة آلاف ليرة وبهذا أنقذها من استبداد شركة «استرى» التي كانت تقبض من الدولة في كل سنة ثمانين ألف ليرة ما عدا أجور المخابرات غير الرسمية ومكافأة له على هذا منح الوسام العثماني المرصع.

ثم مد خطاً تلغرافياً بين دمشق والمدينة المنوّرة ولم يكلف الدولة أكثر من خمسة آلاف ليرة لأنه تبرع بأكثر أعمدة الخط من أخشاب أحراجه الخاصة واستعان بالبعض الآخر مما تبرع به أهل الخير في دمشق ثم امتد الخط إلى الكويت وبذا حاز على الوسام المجيدي المرصع.



□ قطار حديدي في المحطة.

ويختم دي طرازي ترجمته للعابد بالقول: إنه رجل إقدام، لطيف المعاشرة، معتدل القامة، حسن الأخلاق شديد الإكرام، محب لبني جنسه وقد نفع كثيراً من أبناء العرب طلاب الوظائف فسعى لكل من لجأ إليه في تعيينه بوظيفة أو ترقية إلى منصب أعلى بحسب كفاءته ولباقته.

وكان دي طرازي قد أورد مؤلفات العابد ومنها نقله من التركية إلى العربية كتاب «حقوق الدول» لمؤلفه حسن فهمي باشا والمجلد الأول من تاريخ جودت باشا[١٤] لاحتوائه على فلسفة التاريخ، ومن العربية إلى التركية كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية.

هذا هو أحمد عزت العابد المفكر العربي والرجل الذي كان أحد الساسة الدوليين في زمانه كما نعتته بهذا أخيراً مجلة الوجاهة illustraction الفرنسية. ولم نر من باحثينا وكتابنا من بحث فيه أو كتب عنه. ولرب إشارة أغنت عن عبارة.

قصيدة فريدة في مدحه

لعل الشاعر الحمصي رسول حقي النجاري المدعي العمومي في لواء القدس الشريف انذاك ــ عام ١٩٠٢ ــ[١٥] قد أنصف العابد في مدحه إياه في قصيدة أربت على المائة من الأبيات استهلها بذكر سعاد ووصف جمالها حسب المنطوق التقليدي لقصائد المدح ثم خلص إلى ممدوحه وأخذ في تعداد صفاته ومآثره ولسوف نرى فيها إشارات لامعة لما أسهب فيه الفيكونت دي طرازي.

والقصيدة مشكولة طبع بضع منها في مطبعة حنانيا بالقدس عام ١٣٢٠هـ ــ ١٩٠٢م ضمن إطار تزييني بديع وهي في تهنئة أحمد عزة برتبة الوزارة[١٦] وتحتفظ بواحدة منها ولدى الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق الأخ الدكتور عدنان الخطيب نسخة مصورة عنها كما أن أحد أفراد الأسرة الدكتور برهان العابد رئيس القسم التخديري في كلية الطب البشري بجامعة دمشق لديه أيضاً نسخة مصورة. ●

مصادر وتعاليق

(١) تاريخ الصحافة العربية بيروت المطبعة الأدبية ١٩١٣.
(٢) والانكليزية ايضاً ويقول دي طرازي: إنه أحكم أصول هذه اللغات تكلُّماً وكتابة.
(٣) يقول دي طرازي: «كان مسيطراً عاماً على جميع المحاكم في ولايتي سوريا وبيروت لواء القدى ومما يثبت اقتداره في ضبط المحاكم ومعرفة القوانين أن «رستم باشا» و «واصا باشا» من متصرفي جبل لبنان كانا يعتمدان عليه باستدعائه لإصلاح شؤون محاكم جبل لبنان».
(٤) يقول دي طرازي: أصدر باسمه عام ١٨٧٨ جريدة دمشق ــ قبل تعيينه بوظائف الدولة ــ التي دافع بها عن الدولة والوطن وقد نشر على صفحاتها فصولاً كثيرة أشار فيها إلى مآثر العرب ومفاخرهم وعلومهم وفضائلهم.
(٥) غادر الآستانة ليلاً في مركب خاص وعلى رأسه قبعة أوروبية حسبما كانت ترويه لي المرحومة أختي لأبي التي كانت تقيم آنئذ في الآستانة مع زوجها أحد أعضاء مجلس الشورى العثماني.
(٦) الأعلام لخير الدين الزركلي الجزء الأول، ص ٧٠، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠.
(٧) منتخبات التواريخ محمد أديب آل تقي الدين الحصني، ص ٨٥٣.
(٨) تاريخ الصحافة العربية، الجزء الثاني، ص ٢١٦.
(٩) شهداء الحرب العالمية الأولى لأدهم الجندي، مطبعة العروبة بدمشق ١٩٦٠، ص ١٦١.
(١٠) أطلعني على هذا الكتاب الوثائقي وليس من تاريخ عليه الأخ الدكتور برهان العابد رئيس القسم التخديري في كلية الطب البشري بجامعة دمشق كما أنه أطلعني على ما كتب عن أحمد عزة في كتاب منتخبات التواريخ لدمشق تأليف محمد أديب تقي الدين الحصني من منشورات دار الآفاق بيروت والمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام الجزء الأول، جامعة دمشق كلية الآداب وطبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق من ١٨٦٠ ــ ١٩٠٨ لفيليب شكري من جامعة هارفارد ثم في مجلة الكاتب العربي في مقال للدكتور عبد الكريم اليافي في بحث له عن محمد كرد علي وكلامه عن بيوتات دمشق فله الشكر.
(١١) يتبادر إلى أذهان الكثيرين أن الفيكونت دي طرازي مستشرق فرنسي مع أنه لبناني الأصل فهو: فيليب بن نصرالله بن أنطون بن نصر الله بن بطرس دي طرازي (١٨٦٥ ــ ١٩٥٦) وهو مؤسس دار الكتب في بيروت.
(١٢) استغرق حديث الفيكونت دي طرازي عن أحمد عزت باشا العابد في تاريخ الصحافة العربية ست صفحات من صفحة ٢١٥ ــ ٢٢١ في الجزء الثاني فتأمل.
(١٣) احتفل بافتتاح الخط الحديدي الحجازي في ٣١ آب عام ١٩٠٨ في ذكرى جلوس السلطان.
(١٤) أحمد جودت باشا ١٨٢٢ ــ ١٨٩٥ مؤرخ تركي تولى وزارة العدلية وتوفي بالآستانة وقد ألمَّ باللغة العربية له من كتبه العربية: خلاصة البيان في جمع القرآن وتعليقات على المطوَّل في البلاغة وعلى الشافية في النحو وهو صاحب تاريخ جودت في اثني عشر مجلداً باللغة التركية. «الأعلام للزركلي».
(١٥) حمصي الأصل والمنشأ تخرّج من الأزهر وأقام في دمشق بضعة أشهر كان فيها صديقاه محمد المبارك وطاهر الجزائري وسافر إلى الآستانة وكان مصححاً لمطبوعات الجوائب ومحرراً فيها، ثم انتسب إلى السلك العدلي متنقلاً بين البلاد العربية التابعة للسيطرة العثمانية وتقاعد في حلب الشهباء إذ كان فيها أحد أعضاء المحكمة الاستئنافية وتوفي في حمص عام ١٩١٩ وله مقامات وقصائد نشرت في الجرائد العربية في الآستانة وفي القاهرة وبيروت وله كتاب مخطوط: **«الجواهر الغالية الأثمان في الرحلة إلى دار خلافة آل عثمان»**.
(١٦) الرتبة فخرية ولم يشترك العابد في أية وزارة إذ كان في غنى عنها فهو يعيّن الوزراء ويقيلهم...



□ الرجال في جميع أنحاء العالم خمسة: الأول يخدم بلاده بالمال، والثاني بالعمل، والثالث بالقلم، والرابع بحياته، والخامس بالسكوت، والجميع يخونون أوطانهم إذا أهملوا فيما يجب عليهم أن يعملوه نحو بلادهم.

«جنسون»

عبده الحمولي

زعيم الغناء في الشرق

بقلم
الدكتور محمود الحفني



«إذا استطاع إنسان أن يحلق في جو الإبداع والابتكار في مثل البيئة التي عاش الناس فيها في خاتمة عصر المماليك، كان هو المعجزة حقاً.. وكان هو عبده الحامولي».

لا تكون العصامية جديرة بالتخليد حتى تبدأ نفسها بنفسها مستغنية بعنصر القوة فيها عن العلل والأسباب جميعاً، وإن كانت سير العظماء خاضعة في كثير من شأنها لمقدمات من البيئة والظروف المحيطة والأوضاع الاجتماعية والنظم السياسية والمستوى الثقافي الفني. بيد أن الشخصية تسمو على الأسباب والعلل، يختفي تأثرها بها، وكأنها خلقت من لا شيء لتكون شيئاً جديداً باهراً لعصرها الحاضر وللعصور الآتية.



لم يكن القرن التاسـع عشر ليسمـح للعبقرية المصرية أن ترتفـع هامتها، فالأفق قاتم والظلام مخيم. وحيث أن الواناً من العبقريات شقت الطريق لنفسها، فما كان للموسيقى يومئذ طريق تشقه ولا جو تتنفس فيه الصعداء. ولا يعلم أحد إلا الله ما يعانيه رجال الموسيقى من الجفوة والاستبعاد عن كل ندوة عالية ووسط رفيـع. وقد يتيسر الطريق أمام جاهل فينال في العلم مكان العظمة، أو أمام فقير بائس ملتصق بالتراب فيجتمـع له الثراء من كل مكان، ويدخل هذا في زمرة أقطاب المعرفة وينخرط ذاك في سلك أقطاب الثراء. ومهما يكن من أمر فقد كانت العظمة على أي حال غير مستحيلة على المكـافحين المجـدين. ولكنها بـالنسبـة لرجـل المـوسيقى تتطلب الكفـاح مضاعفـاً والجهـاد متواصلاً والصبـر مريـراً طويلاً للوصـول إلى الخـطوة الأولى في طريق بنـاء الشخصيـة، ولا سيما في مثل البيئة التي عاش فيها الناس في خاتمة عصر المماليك وبداية حكم يكرر نفسه بصورة أخرى. فإذا استطاع إنسان أن يبني شخصيته بين تلك القيود والأغلال، وأن يطلق العنان لروحه الوثـابة ليحلق في جـو الإبداع والابتكار كان هو المعجزة حقاً، وكان هو «عبده الحمولي».

نهضة فنية

منذ بداية القرن التاسـع عشر كانت مصر قد بدأت تراجـع حسابها مـع التاريـخ وتتطلـع إلى التخلص من كابوس الظلام الجاثم على صدرها، وتلتمس لنفسها منفذاً من المظالم ومن ألوان التـدهـور الذي أصيب بـه الشـرق والعـالـم الإسلامي معه. وآن لمصر ألا تصبر على التخلف عن الأمم وهي أم المدنيات ومؤسسة الحضارات. وكان من الحوافز لها إلى النهوض تلك الجولات والاتصالات الحربية والعلمية بينها وبين دول الغرب، فكل شيء يأخذ سبيله إلى التطور ويمضي في طريقـه إلى التجدد والاختـراع والابتكـار. وسرعان ما وثبت مصر تنفض عنها الغبار بقوة من سواعد أبنائها ومن مواهب العبقريين فيها. وكانت الفنون في مقدمة ما اتجهت إليه المشاعر في هذه النهضة القومية الحديثة. والموسيقى من النهضـة في الصميم والصدارة، ومن الفن في الذروة والقمة، لأنها المعبّرة بلغتها عن لغة الحياة ولأنها هي التي تصحب القافلة في طريقها إلى المجد. فما لبثت مصر أن ظهرت بها مدرسة فنية التقى فيها رئيس الملحنين محمد القباني وكبيرة المطربات سكينة وغيرهمـا. وإلى جانب هـؤلاء أشرق الوعي الأدبـي الذي يغذي المـوسيقى بتراث الشعر القديم ويعيد إلى الغناء العربـي مجموعة صالحة من ثروته المشتتة. فصنف في تلك الآونة السيد محمد شهاب الدين، وكـان شاعراً مجيداً وموسيقياً ماهراً، كتابه «السفينة» وقد جمـع في مصنفه هـذا عدداً عـظيماً من الموشحات العربية كانت عاملاً قوياً على إنعاش الفن القومي.

نشأته بطنطا

في هذه الفترة من بداية اليقظة بعد سبات عميق، وفي هذه الظروف التي لا تزال حـالكة قاتمة إلا قليـلاً من بصيص النور الآخـذ في الازدياد، شب «عبده الحمولي» وترعرع بمدينة طنطا حيث كان مولده بها في نحو عام ١٨٤٣. وقد ولدت معه موهبة النبوغ الصوتي التي تنمو بنماء جسم الصبـي الفنان رويداً رويداً، حتى تسامـع به من حوله، وبدأ الناس يتحدثون عن صوت جديد لا عهد لهم به من قبل.

ولا شك أن الصبـي الفنان قد اتخذ لصوته حللاً لفظية من الأهازيـج الشعبية والأغنيـات الريفيـة والمواليـا الوطنية. إنهـا ثـروة الريف والطبيعة الساكنة في هذه المدينة المحوطة بالمياه والأشجار، المليئة بالمساجد والمشاهـد والموالد التي استمـع فيها وفي حلقات الذكر إلى أصوات المنشدين وترتيل القارئين. كان للقصائد النبوية والتواشيـح الدينية بتلك الحلقات أثرها السحري الفعال في تلك الفطرة الناشئة، فما أعظم ما حبته به الطبيعة في تلك الرقعة التي جمعت بين سكون القرية وحضارة المدينة.

هروبه من وجه أبيه

ما كاد أبـوه المشتغل بتجـارة البن يلمس الاتجاه الجديد في حياة نجله الصبـي حتى ثارت ثورته وضاق ذرعاً بهذا العار الفني الذي سيلحق

به وبأسبرته فيسيء إلى السمعة ويصيب الكرامة في الصميم. وما لبث تاجر البن أن انهال على ولده بالتنكيل والتنكيد والإيذاء المستمر والمعاملة النابية القاسية. وأدركت رحمة الله ذلك المسكين بأخ شقيق يكبره كان له خير معوان في محنته وخير مواس على احتمال شدته. فاتفقا معاً، وسرعان ما نفذا تعهدهما، على أن يغادرا الوالد ويتركاه للبن يساوم فيه وللسمعة الطيبة يحتفظ بها ويصونها من خطر الموسيقى الداهم. وإذا سمعت بأن أخوين شقيقين قد أجمعا على الرحيل والانفصال من أحب الأمكنة إليهما، ومن ظل الأبوة التي كان مفروضاً أن تكون أبر الظلال بهما.. إذا سمعت بذلك فثق أن وراء الأخوين هموماً لم يطيقا الصبر عليها ففرا من وجهها إلى المصير المجهول. وهنا تتجلى العصامية على حقيقتها. فلو قد رأيتهما لهالك منظر فتيين يضربان في الأرض، فلا ثياب ولا طعام، يحمل كبيرهما صغيرهما إذا عجزت القدم وكلت الهمة عن مواصلة السير، في أرض موحشة وليال مظلمة، بين قطاع الطرق ومخاطر مختلفة، في غربة وفاقة ودموع... كل ذلك كان سبيل العصامية إلى الظهور بعد كفاح مرير.

مع الأستاذ شعبان

انتهى المطاف بعبده الحمولي إلى «شعبان» فمن هو هذا؟.. إنه مهاجر من طنطا كذلك، وهو يحترف الغناء والعزف كيفما كان. وتستطيع أن تقول أنه كان مدرسة للاستقبال والتعليم والتوجيه والتخريج، والاستغلال قبل كل شيء. فما كاد يتعرف مواهب «عبده» حتى التقطه وقبض عليه بيد قوية. فقد استطلع بفراسته الفنية ما وراءتلك الموهبة من ثروة يمكن أن يستنزفها إذا استخدم هذا الفنان بعد تدريبه والتعريف به والإعلان عنه. وكذلك صنع به. فقد مكّنه من الإلمام بالفن بالقدر الذي يمكن معه إقامة أفراح وحفلات واشتراك في سهرات. وكأن شعبان هذا قد خشي أن يفلت من يده هذا الصيد السمين، ولعله لمح وجوه منافسين جدد يحاولون أن يختطفوا الفريسة من بين يديه، فأسرع إلى تقييد «عبده» بالزواج من ابنته ليغلق بتلك المصاهرة باب المنافسة ويأمن على الصيد أن يطير. وفاته أن العبقرية أقوى من أن تكبل بمثل هذا الزواج المغرض المصطنع.

مع الفنان محمد المقدم

وقد ذاع أمر «الحمولي» بين الجمهور، وبحكم طموحه الفني كان لا بد أن يلتمس المزيد من رسالته. فمن هو هذا المعلم الذي يقصد إليه ويستزيد من منهله؟ إن ذلك المعلم هو «محمد المقدم» ذلك النجم اللامع في سماء القاهرة غناء وأداء، ولقد أعجب بعبده وشجعه لا على الفن وحده بل وعلى التخلص من المصاهرة المستغلة المتحكمة في كسبه وحياته. فوقعت الفرقة بين الزوج والضحية وتحرر الفنان والتحق بتخت «المقدم» وأجاد ما لم يكن يحسنه من الفن المألوف في عصره. وكان لا بد له من تلك الفترة، يستكمل فيها خبرته ويستوعب الموجود في زمنه.

ولكن ما لبث «المقدم» أستاذه الجديد أن أعاد في استغلال مواهب الفنان الفتي سيرة سلفه. إلا أن ذلك الاستغلال لم يدم له طويلاً، فقد استيقظ وعي الموسيقار الصغير، وبدأ يتنبه لاستقلال شخصيته والثقة بمقدرته. ولم يمض عليه كبير وقت حتى أصبح له تخته الخاص بآلاته ومنشديه.

بزوغ نجمه

بدأ نجم «الحمولي» يسطع وأخذ صيته ينتشر ويأخذ سبيله إلى الأوساط الثرية وقصور الأعيان وذوي المنزلة، حتى اختصه إسماعيل بمجلسه وصحبته وضمه إلى من حوله. والذي يعنينا من هذه الصحبة هو ذلك الوسط الموسيقي الراقي من الفن التركي الذي تمكن «الحمولي» من الاتصال به سواء في القاهرة أو في الآستانة. لقد كان زعماء الموسيقى التركية وقتذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من إنتاج ومقدرة ومهارة. وقد ساعدت الزعامة الإسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى في كل بلاد الشرق. وكانت مصر أقرب الممالك الشرقية استعداداً لقبول ذلك الإنتاج الفني. وكانت موهبة «الحمولي» خير مرآة أعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الأقطار العربية الأخرى.

ولم تكن عملية هذه الموهبة تقليداً ومحاكاة، بل كان الأمر أعظم من ذلك شأناً. فإن ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الابتكار وقدرة الارتجال، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والإبداع.

وكما استطاعت «جميلة» في صدر عهد بني أمية أن تحفظ الألحان الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها، وأن تضعها أوضاعاً عربية سليمة تجعلها صاحبة مدرسة ومذهب جديد، فكذلك كان صنيع «الحمولي» مما استوعبه من الغناء الشرقي عامة والتركي خاصة، حيث أخذ بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما أظهر الفن في طابع جديد أخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف إلى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذي يخلق جواً من المرح والحبور. وقام بتهذيب ألحان التواشيح والقصائد، وقدم ألحاناً هي مزاج من أذواق متقابلة متلاقية دون إخلال بالطابع العربي والذوق المصري.

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات في مصر محدودة، وكانت الأصوات تجري في مجال ضيق من المقامات لا تتعداه، ويبقى سير اللحن على وتيرة واحدة لوقت طويل، في حال تدعو إلى السأمة والملل. فأخذ «الحمولي» يسلك في تلحينه وغنائه سبيل التلوين والتنويع، وراح يتنقل من مقام إلى مقام ومن نغمة إلى أخرى في سير اللحن. فخرج من جمود الترديد والإطالة إلى فسحة التجديد والانتقال والتغيير في توافق وانسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الإعجاب.

لم يكن الغناء المصري يصور المعاني أو يقدر الارتباط بين الشعر والموسيقى كما ينبغي، فقام «الحمولي» بهذه الرسالة ولعب الدور الهام في إيجاد تفسير وشرح لمعاني الألفاظ بأسلوب أغانية وحمل النغم مسؤولية التعبير والإيضاح. وشعر المستمع بأن عليه أن يتابع المعاني في الأداء الفني بما لا تستطيع الأداة المجردة أداءه. بل تجاوز ذلك إلى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغناء وتفسر الأداء. وكان ذلك تطلعاً إلى الموسيقى المسرحية التي كان له الفضل في توجيه صديقه الشيخ سلامة حجازي إليها.

* * *

قلما عرف أحد في تلك الآونة منطقة صوتية رحيبة الجنبات كالتي تمتع بها «الحمولي» بين المغنين. وما أشبه تلاعبه في حنجرته القادرة بأصابع «بجانيني» في حركاتها على الكمان تلك الحركات التي أعجزت عصره وجعلته الفرد المثالي بين أنداده. لشد ما كان يكافح العازفون على تخت «عبده» في ملاحقته صعوداً وهبوطاً، والسير معه في تعاريج النغمات والتواء المقامات، وهو يتسرب من بعضها إلى البعض الآخر في مهارة ودقة وتفوق طالما أعجز الآلات في منطقتها الصوتية المحدودة عن ملاحقته والتجاوب معه.

إن تفرد «عبده» في مكانته الموسيقية أتاح له فرصة الإنتاج المركز المتواصل من ابتكار وتصرف وبديهة حاضرة لها مقدرة الارتجال والتصرف المفاجىء الذي يفوق الاستعداد والتحضير.

ومن طرائف ما يروى في ارتجاله حادثة أشبه بالقصص الخيالي منها بالوقائع. جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف وأعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديداً للعدد وتفادياً من الزحام. وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لا يحمل بطاقة. وحدث أن دخل رجال التخت واستعدوا للحفل، وحضر «عبده» متأخراً عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لا يعرفه ونشأ بينهما أخذ ورد أحس به الجمهور ومعهم صاحب العرس. فحملوا الفنان الكبير وأجلسوه مع أصحابه في صدر السرادق. فما أسرع ما ارتجل «موالاً» لمس فيه الموضوع، واستغل الحادثة فأضفى عليها من براعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء، وخلق منها موضوعاً وجدانياً جميلاً جديراً بالتقدير والتحليل، فقال:

ليه حاجب الظرف يمنعني وأنا مدعي
لري روض المحاسن من دما دمعي
كم افتكر في احتجابك واشتكي وانعي
سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح
قول لي بحق المحبة ما سبب منعي

عبده والمظ

ولم يكن أحد من المعاصرين يساميه في المنزلة الفنية سوى الفنانة البارعة «المظ». كانت تجري معه في منهاجه، وتعزف الصوت على قيثارته، وإن كان لها مدرستها وأسلوبها النسوي في الغناء، وقد بدأت المنافسة بينهما ردحاً من الزمن قليلاً. وسرعان ما هدأت تلك المنافسة بينهما لأن باعثها الفن الجميل، ولا يمكن أن يكون الفن مثار حقد أو كراهية، كما قد يحدث في بعض الأحيان من صغار النفوس. بل استحالت المنافسة إلى تجاوب قلبي استخدم فيه الغناء على أن يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون إليه. كانت هذه المطارحات في ليالي الأفراح الساهرة التي يلتقيان بها، وبينهما حجاب مسدول إن منع الرؤية والمشاهدة فلن يمنع الاستماع إلى الأصوات. كان هو يغني للرجال بينما تختص هي ببنات جنسها. ويتبادلان معاً أدوار الغناء على التعاقب، ولكل منهما «المطيباتي» الخاص به. وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وارتجال، وخلق وإبداع، ثم تشوق وتعلق. وما أسرع ما أصبح المغنيان شاعرين مبدعين يناجي كل منهما الآخر في غنائه بشعر لا يقل في روعته عما كان يصنعه لهما إسماعيل صبري والشيخ علي الليثي والسيد محمد الدرويش وغيرهم من أقطار الشعر.

وقد سمعها «عبده» في إحدى تلك الليالي الساهرة وهي تغني:

يا سيدي انا احبك لله وربنا عالم شاهد
لاصبر على احكام الله لما يبان لي معاك شاهد
خبط الهوى ع الباب، قلت الحليوه اهو جالي
اتاري الهوى كداب يضحك على القلب الخالي

فما كان منه إلا أن غنّاها ارتجالاً الدور الآتي:

روحي وروحك حبايب
من قبل دي العالم والله
واهل المودة قرايب
إلخ... إلخ... إلخ

وبعد أن كانت تضمهما أفراح المتزوجين، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما. وكانت طليعته ليلة فخمة عظيمة اجتمع لها أقطاب الفن احتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصري يلتقيان في قران سعيد. وإذا قيل «عبده» و «ألمظ» فالنجوم لهما تبع والفن لاسميهما نشيد. فهذا هو أحمد الليثي كبير العازفين بالعود وإبراهيم سهلون أمير الكمان ومحمد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من أساطين الفن يحتشدون في ليلة الزفاف. وهذا هو «عبده» نفسه يغني لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم في ليلته التي جاد عليه بها الزمن الضنين.



□ الخديوي إسماعيل.

إلا أن زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكنت البلبلة الغريدة واحتجبت بزواجها عن قبول إقامة حفلات العرس. أما هو فقد أصبح تاجراً ببيع الأقمشة إلى أجل ويغني متبرعاً بغير أجر. ثم لا تمض سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود إلى المهنة يسترحمها ويستجدي كفها السمح المعطاء، فتعوض على ابنها البار كثيراً مما خسر.

ولم تشأ الأقدار لتلك السعادة الزوجية أن تدوم، فتوفيت سكينة المشهورة بألمظ زوج عبده الحمولي، قرينته الوفية المضحية. وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة أدبية اشتركت فيها الموسيقى والشعر. وبدا لنا أن الزوج كان وفياً وأن سعادته بها لم تكن قاصرة على الأيام الأولى، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن

عليها، فبدأ يغني بعد وفاتها:

شربت الصبر من بعد التصافي
ومر الحال ما عرفتش أصافي
يغيب النوم وافكاري توافي
عدمت الوصل يا قلبي على
دور
على عيني بعاد الحلو ساعة
ولكن للقضا سمعاً وطاعة
لأن الروح في الدنيا وداعة
عدمت الوصل يا قلبي على

مصائب الفنان

ولم يكن «عبده الحامولي» بمعزل عما أصاب النابغين في كل عصور التاريخ من نكبات وآلام. ولكي يكون واحداً من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكأس المريرة التي ذاقوا بها الهموم والأكدار. وقد فاز «الحمولي» بنصيب الأسد من ذلك.. طارده أبوه صغيراً، واستغله المعلم شعبان صبياً، واحتكره المقدم فتى، وحاربه زملاؤه بعد ذلك رجلاً وفناناً، ثم قسى عليه القدر فأفقده «ألمظ». ثم أمعن القدر في قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو في ملابس العرس وأفراح الزفاف. فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغنى شاعراً يصور الكارثة أفدح تصوير لمأساته في ولده محمود فيغني مرتجلاً:

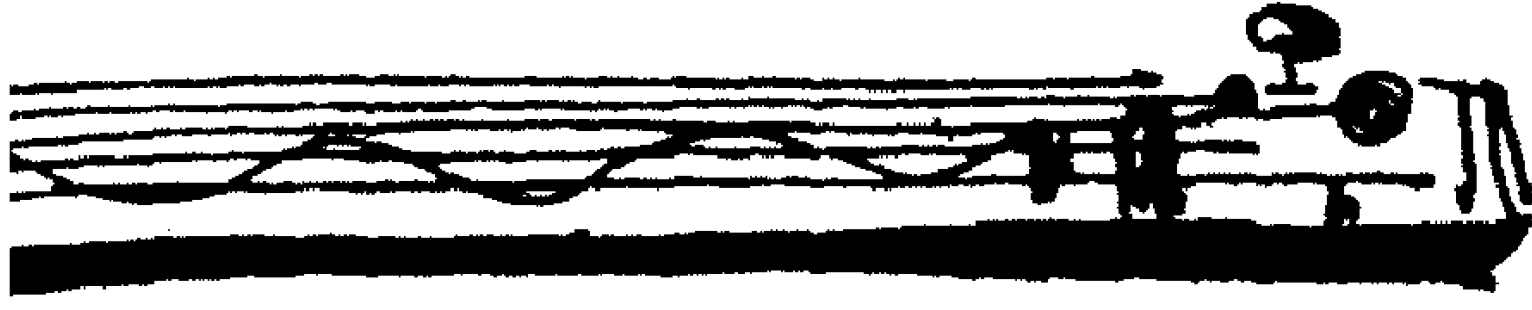
ليه يا عين ليه ليه يا عين
يا حليوة يا نور العين
كبدي يا ولدي يا جميل يا جميل
لما رأيت البدن داب مني
ودمع عيني بعد أن نشف مني
كبدي يا ولدي آه يا جميل يا جميل

ومما غنّاه أيضاً:

زاهي جمالك فتني لما بدا نور جبينك
ونبل الحاظك تجرح من سهم قوس حاجبينك
كبدي يا ولدي

إحسانه إلى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الأول للعصامي الفنان، فجعلت منه رجلاً تقياً متعبداً يقيم الصلوات لأوقاتها. فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان في عهد بني العباس — حيث العصر الذهبي للغناء العربي — من قيام طائفة

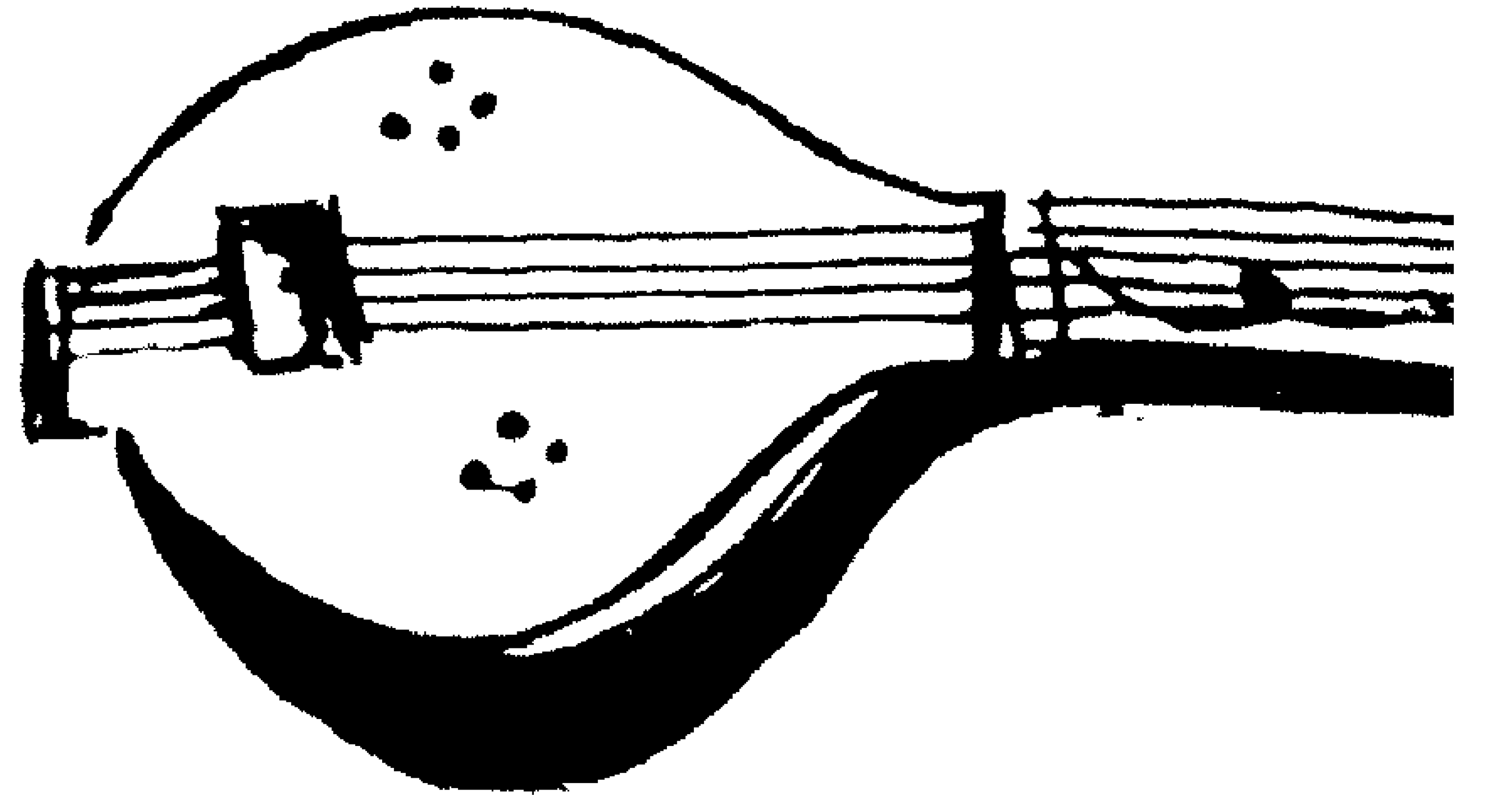


من الموسيقيين المتازين الورعين الأخيار الأبرار. إلا أن «عبده» امتاز بغناء ليس فيه حرص «الموصلي». فقد كان «الحمولي» ذا كرم وسماحة ومروءة وإيثار، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر. ولا ريب أنه في ذلك أنبل وأشرف من أرباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشون خسارة فيه. أما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومي، ويعطي كل ما في يده للفقراء ولمن افتقروا بعد غنى. جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد قيمته حوالي ألف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين عندما التجأ إليه. كما ترك إقامة حفل لغني بخيل وذهب فغنّى في فرح رجل فقير قدم له الغناء وأنفق تكاليف العرس على حسابه الخاص. ولم تكن هذه وحدها بل لقد أقام عشرات وعشرات من حفلات غنّى بها وجمع فيها النقود لأصحابها، فأغاث فقيراً بائساً، أو أعان صديقاً مال به الدهر، حتى لقد جلس إلى جانب بائعة بائسة في الطريق المؤدي إلى شارع شبرا الآن ونادى بسلعتها في صوته الرخيم حتى امتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلاً على البائعة البائسة، وعادت إلى منزلها وهي من أصحاب الثراء.

ومن خير ما يؤثر عنه ارتفاعه بنفسه وبالموسيقيين ودأبه المتواصل على إعلاء نظرتهم إلى فنهم ونظرة الناس إلى أشخاصهم. من ذلك أن السراة والأعيان كان من عادتهم أن يقذفوا بالذهب والجواهر في حفلات الزفاف والأعراس فيسرع الحاضرون إلى التقاطها. وهنا تتجلى نزاهة «الحمولي» وعفته وتساميه فيطلب إلى رجال تخته وتابعيه ألا ينحدروا إلى مثل ما يصنعه غيرهم من التقاط شيء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شيء.

إبداعه

ولقد أبدع «عبده» ثروة فنية من أدوار ومواليا وتواشيح وقصائد أخذت منه وحفظت عنه، ثم



أصبحت بعد ذلك تراثاً يخلد اسمه ويعلي ذكراه.

ومن أشهر أدواره غير ما قدّمناه، دور مطلعه:

الله يصون دولة حسنك
على الدوام من الزوال
ويصون فؤادي من نبلك
ماضي الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه:

مليك الحسن في دولة جماله
ملك عقلي وافكاري وروحي
ومن تيهه اسر قلبي دلاله
وزاد في محبته وجدي ونوحي

وآخر مطلعه:

يا منية الأرواح
جد لي بوصلك يوم
العقل مني راح
وهجر عيوني النوم
والمدامع مطر
يا شقيق القمر
والقلب انفطر
وازداد عذولي لوم

وآخر مطلعه:

متع حياتك بالاحباب
انسك ظهر
شان الطرب يشفي الأوصاب
لي حضر
وكيد زمانك واتهنا
وافرح وطيب
وانفي همومك بالاكواب
سعدك أمر

وآخر مطلعه:

شربت الراح في روض الانس صافي
على زهر الغصون وردي وصافي
وهناني الزمان والوقت صافي
سمح بالوصل محبوبي إلي
المطر يبكي لحالي، والقمر يطلع يكيد
ني، وعذولي ما رثي لي

أما المقامات التي كان يجري فيها غناؤه لهذه الأدوار وأمثالها، فقد كانت في الأهم: الحجازكار والعجم والنهاوند والراست والبياتي والعراق والسيكاه والعشاق والجهاركاه.

ولقد سمعت الآذان المصرية من «عبده» جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة ألحانها في صوت سحري وألفاظ عربية وروح مصرية وأعجاز بلغ به الغناء غايته والفن الشرقي منتهى مداه.

وسافر «عبده الحمولي» سنة ١٨٩٦ إلى الآستانة عاصمة الشرق يومئذ فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الاعتراف لها في شخص فنانها الكبير بما هي جديرة به من مكانة. وعاد «الحمولي» مزوداً بالهدايا، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير.

غروب نجمه

أما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه، فقد آن له أن يحول رويداً رويداً إلى الغروب والاحتجاب، وهكذا بدأت الأمراض تفعل به فعلها. وداهم مرض السل صدر ذلك العبقري فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والإقامة بأعالي الصعيد، حتى إذا سنحت بوادر الشفاء عاد إلى حلوان. وبها كانت نهايته في فجر اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ عن ستين عاماً، مثل فيها دور العصامي المؤمن بشخصيته وفنه، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبي بين ذوي المروءات. ولن تنسى الخدمات الاجتماعية في تاريخها ما تبرع به «الحمولي» من إحياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية.

وانتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر، وتوارى عن الأنظار في بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده، واقتفى أثره، من أمثال: محمد السبع وأحمد حسنين والشيخ أبو العلا محمد وكثيرين غيرهم، وسوف تبقى ميراثاً للجيل وتراثاً للأجيال القادمة. ●

الشطرنج عبر التاريخ

(الجزء الثاني)

إعداد
محمد مراد شكر
رئيس الاتحاد اللبناني للشطرنج



٨٠ — تاريخ العرب والعالم

دخول الشطرنـج إلى أوروبا



كثرت الروايات حول هذا الموضوع فقيل دخلت إلى الأندلس عن طريق افريقيا أثناء الفتوحات الإسلامية وذلك عن طريق جبل طارق، وانتشرت في إسبانيا ثم انتقلت إلى قصر شارلماني في فرنسا حوالي سنة ٧٦٠ م، وقيل أن اللعبة كانت بين الهدايا التي أرسلت إلى شارلماني عندما كان يود عقد قرانه على الأميرة البيزنطية TRENE، ولعل أقرب قصة إلى الحقيقة أن ذلك تم أثناء الحروب الصليبية، فالمعروف أن السلطان صلاح الدين، بسط سلطانه على مصر وسوريا وكان للشطرنـج المركز المحترم في بلاطه، والمعروف أن المسيحيين تعلموا خلال هذه الحرب أسرار الطب العربي وإنشاء المستشفيات ومن الممكن أن يكونوا قد تعلموا الشطرنـج، ولدى عودتهم إلى بلادهم نشروا الشطرنـج في أوروبا، وإن لم يكن لدينا أدلة كافية على هذا. ويقول موراي، انتقل الشطرنـج إلى أوروبا من قبل المسلمين عن طريق أفريقيا، أما اسبانيا فقد تم عند الفتح الإسلامي وإلى إيطاليا من قبل السراقسيين.

ومهما تعددت الروايات فالثابت منها كلها أن العرب والمسلمون خصوصاً هم الذين نقلوا الشطرنـج إلى أوروبا سواء أكان ذلك أثناء فتوحاتهم إلى اسبانيا، أو عن طريق حروب صلاح الدين، أو عن طريق القافلات التجارية العربية، ذلك أن الشطرنـج الذي كان معروفاً في أوروبا ذلك الحين، كان طبعة طبق الأصل لما كان عليه الشطرنـج عند العرب ولعل أبرز دليل على فضل العرب بانتشار الشطرنـج في أوروبا، أن الكتاب الأول عن الشطرنـج في أوروبا ظهر في اسبانيا في القرن التاسع وكان مؤلفه يدعى يحيى.

ويقول غولومبك GOLOMBEX في كتابه تاريخ الشطرنـج، أن المؤرخين يميلون إلى أن الشطرنـج دخل إيطاليا عن طريق التجار العرب الذين كانوا يصلون إلى جنوى والبندقية أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر وأن فرنسا عرفت الشطرنـج عن طريق اسبانيا وانكلترا عن طريق فرنسا.

العصور الوسطى

انتشر الشطرنـج انتشاراً سريعاً في أوروبا حتى غدا تسلية النبلاء المختارة، ويرجع المؤرخون سرعة انتشار هذه اللعبة إلى حياة الوحدة والبطالة التي كان يعيشها هؤلاء النبلاء في قصورهم وإلى الأموال الطائلة التي كانوا يخسرونها أثناء اللعب، مما حدا بالدولة إلى تحريم هذه اللعبة ظناً منها انها لعبة حظ تلعب بالنرد فقط كسائر الألعاب المعروفة آنئذ، كما حاربت الكنيسة الشطرنـج لنفس السبب في بدء انتشاره. وعاقبت أحد المطارنة لانه لعب خفية في أحد الفنادق كما أن مطران باريس ETUDES DE SULEY سنة ١٢٠٨ م، حرم دخول الشطرنـج إلى الأبرشية، ولكن ذلك لم يمنع أحد القسس، ويدعى بيار داميان، من أن يؤلف كتاباً في الشطرنـج سنة ١٠٦١ م ولعله أقدم كتاب يؤلفه قس.

وقد برع الغربيون كثيراً في الشطرنـج وشغفوا به، وكان الاسبانيون والبرتغاليون في الطليعة كما يقول داميانو سنة ١٥١٢.

ومن أهم مؤلفات العصور الوسطى مخطوط نفيس محفوظ في سان لورنزو في مدريد ألفه وقدم له الملك الونو العاشر سنة ١٢٥٠م وهو يحوي على ١٠٣ مسائل في الشطرنـج كلها منقولة عن العرب. ومخطوط آخر ظهر في نصف القرن الرابع عشر من تأليف دي نيقولاي يحوي ١٩٢ مسألة أطلق عليه اسم (بونس سوسيوس) أي الرفيق الفاضل (أو افضل رفيق).

القرن الخامس عشر وهو محطة مهمة في تاريخ الشطرنـج

يعتبر القرن الخامس عشر، عهد النهضة والتجديد، وقد كان لاختراع الطباعة في ذلك القرن، الفضل الأول في تركيز الشطرنـج ووضع قواعد له، إذ حددت في هذا القرن طريقة انتقال الفيل والوزير كما أوجد التبييت ولم يكن يعرف قبل ذلك، كما سمح للبيدق الذي يصل إلى

الخانة الثامنة أن يتحول إلى أية قطعة يريدها اللاعب (ولم يكن يسمح له بالماضي إلا أن يتحول إلى وزير).

وقد تم تعديل طريقة تنقل الفيل والوزير في أواخر القرن الخامس عشر، وأصبحت كما هي معروفة اليوم، ويظن فان ديرلاند أن هذا التعديل قد تم في فرنسا، لأن الشطرنج كان منتشراً في ذلك الوقت في فرنسا أكثر من أي بلد آخر، بينما يقول فان درلاسا أن هذا التعديل يرجع إلى سنة ١٤٧٥م، ويعود الفضل فيه إلى أسبانيا. وقد انتشر التعديل الجديد بسرعة حتى نسي الكثيرون القديم، وكان الفيل في الماضي يقفز من مكانه شأن الحصان وبالتدريج ألغي ذلك وأصبح يتنقل عمودياً كما هو معروف اليوم، وكذلك الوزير (الفرز فيما مضى) وهذا التعديل جعل اللاعبين يتركون القاعدة العربية القديمة التي كانت تعتبر البات كالمات. ثم جرى التعديل النهائي عند وضع التبييت، وكان ذلك ثالثة الأثافي في التجديد، وبعد ذلك لم يطرأ على قوانين اللعبة أي تجديد سوى السماح للبيدق الذي يصل إلى الخانة الثامنة من أن يصبح أية قطعة كانت كما أسلفنا. وكان الرخ عند العرب أقوى القطع إطلاقاً وأصبح الوزير بعد هذه التعديلات أهم القطع كما نعرف اليوم.

بعد هذه التعديلات الجذرية، برز في الشطرنج جماله المعروف اليوم، وأخذ اللاعبون يرون فيه تسلية كبيرة، فبدأوا بكتابة الأدوار وحفظها.

ولعل أقدم مخطوطة ذكرت القواعد الجديدة هي مخطوطة فلورنسا Manuscrit De Florence وهي مخطوطة إيطالية من القرن الخامس عشر، وفيها عدة مسائل شطرنجية، وأتى بعدها في سنة ١٤٩٧، كتاب إيطالي، وهو أول كتاب طبع عن الشطرنج، ألفه لوسينا Lucena وهو ابن موظف كبير في أراغون سافر كثيراً إلى إيطاليا وفرنسا، والكتاب هذا يشرح القواعد الجديدة بالإضافة إلى ١٥٠ صورة لرقعة الشطرنج في أوضاع مختلفة واحد عشر استهلالاً لجولات لعبت. وظهر بعد هذا الكتاب مخطوطة كوتنغ Manuscrit De Gottingue وهي أيضاً على ما يظهر للوسينا نفسه وفيها ثلاثين مسألة واثنا عشر استهلالاً جديداً لجولات لعبت. وكان التبييت كما ظهر في هذه المخطوطة يجري على نقلتين، ينقل الرخ قرب الشاه ثم يقفز الشاه في نقلة أخرى خلف الرخ أما التبييت الطويل فيجري في ثلاث نقلات. هذه المخطوطة نفيسة جداً لأنها تحوي لأول مرة جولات كاملة لعبت في ذلك الوقت.

عهد النهضة في القرنين السادس والسابع عشر

كان أهم حدث في القرن السادس عشر كتاب داميانو الذي ظهر سنة ١٥١٢، وقد طبع هذا الكتاب في روما وأعيد طبعه مراراً فيما بعد كما ترجم في فرنسا وانكلترا خلال القرنين السادس والسابع عشر ثم في ألمانيا، ويقسم الكتاب إلى عشرة فصول ويتبع الترقيم الوصفي المعروف حالياً، وقد اعتبر كأحسن كتاب عن الشطرنج ظهر في ذلك العصر. وداميانو كان صيدلياً من مواليد البرتغال. كما أقدم الشاعر اللاتيني مارك أنطوان الذي دعي فيما بعد جيروم فيدا على نظم قصيدته المشهورة عن الشطرنج وهي مؤلفة من ٦٥٨ بيت وفيها وصف كامل شعري للعبة. نشرت قصيدته هذه لأول مرة سنة ١٥٢٥ والقصيدة على شكل قصة تقول: عند إعلان زواج المحيط مع الأرض، علم جوبيتير الشطرنج إلى الأولمبيين، ثم دعى أبولون ومركير Mercure للعب جولة، ثم يبدأ بشرح تفاصيل الجولة حسب القوانين الجديدة، وتنتهي الجولة لصالح مركير.

بعد نصف قرن من كتاب داميانو ظهر أول كتاب يتبع القواعد الجديدة ويهتم بالجولات الكاملة ألفه روي لوبيز Ruy Lopez الذي يعتبر بحق مؤسس القواعد التطبيقية والفنية في الشطرنج، نشر كتابه سنة ١٥٦١ في الكالا قرب مدريد ثم ترجمه إلى الإيطالية بوليريو مع زيادة بعض الجولات ولكن الترجمة لم تطبع. كما ظهر كتاب آخر أسباني لفرنسيس فيسان Francesh Vicent في فالانسيا ولم يبق منه أية نسخة.

ولوبيز هو واضع الجولة الأسبانية التي تدعى باسمه والتي يلعبها كثير من الأساتذة اليوم، وقد لا تخلو مباراة دولية من عدة جولات أسبانية.

كان اللعب عند العرب صورة واضحة عن الحرب، تملأ النفس إعجاباً بفن العرب في هذه اللعبة، ولكن ترك العرب لها وانتقالها إلى أشخاص كانوا يحاولون ابتذاذ الأموال بها جعلها لا تحمل طابع الفن بقدر ما تحمل طابع الحيلة والخداع، ولكن كتاب لوبيز السابق الذكر، أرجع لها الطابع القديم، فاستعاد الشطرنج في هذين القرنين روحه النبيلة القديمة وعاد يمثل الحرب كما كان في السابق. وكان ذلك سبباً في انتشار الشطرنج في أسبانيا وإيطاليا، كما كثر حماة هذه اللعبة بين الملوك والأثرياء أمثال الملك فيليب الثاني، دون فابريزيو، الملك سباستيان ملك البرتغال، دوق أوسينا، دوق أوربينو، البارون دي بيسكاري والبارون دي سيكيليانا وغيرهم. وهكذا أصبح الشطرنج التسلية المحببة للنبلاء الذين كانوا يحمون هؤلاء الأبطال ويهيئون لهم المباريات في قصورهم مما ساعد على انتشار الشطرنج والتعمق في قواعده فبرز في هذا العصر كثيرون جداً، منهم ليونارد بوا، سانتا ماريا، أفالوس، اسكوفارا، مورو، سالفيو، كاريرا وكثيرون غيرهم بالإضافة طبعاً إلى لوبيز الذي كان يتمتع بعطف وحماية الملك فيليب الثاني.

القصة التالية التي نرويها عن أبطال ذلك العصر، تعطينا فكرة واضحة عن الشطرنج واهتمام الناس به.

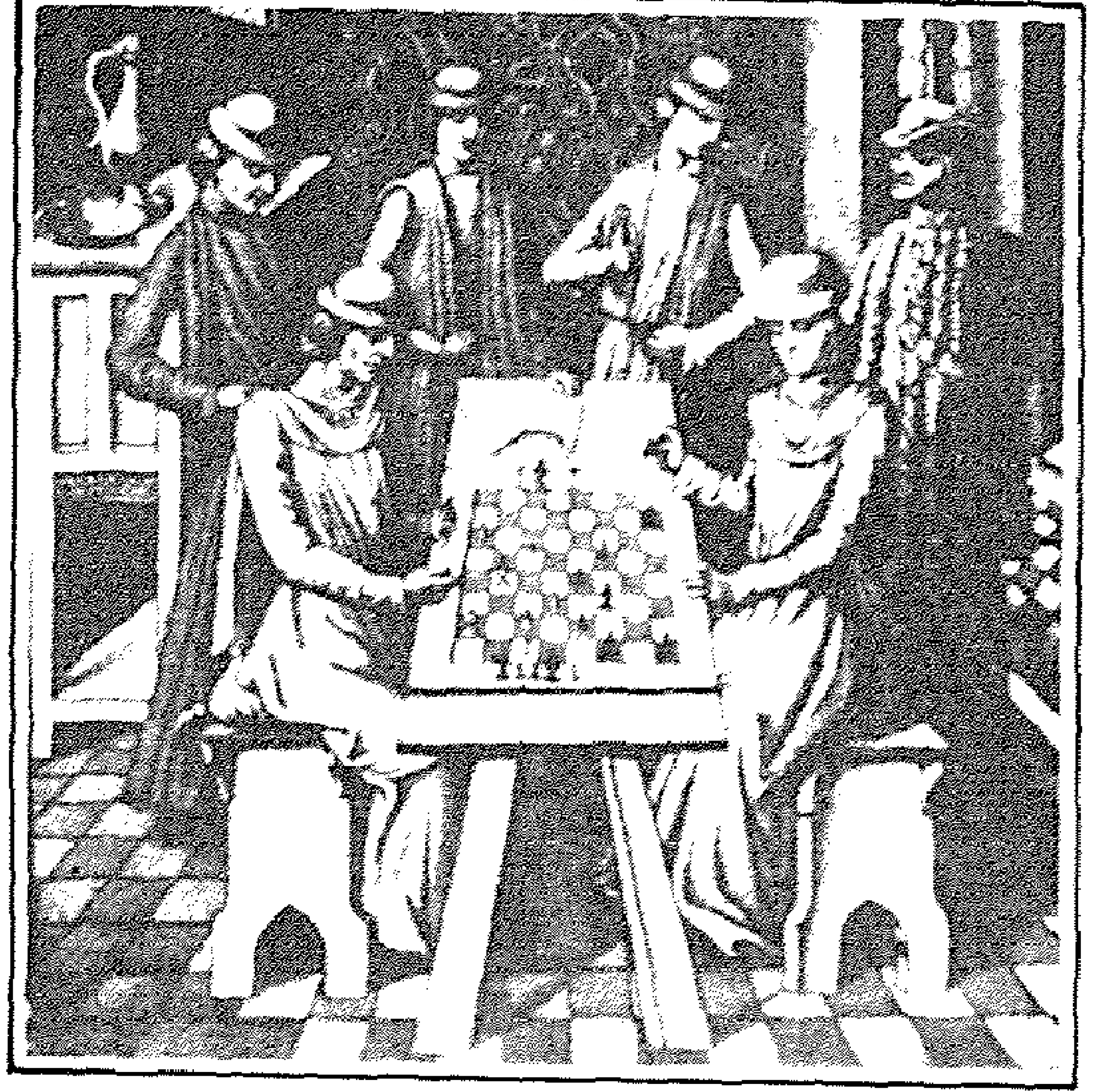
ليوناردو، شاب من مواليد كورتي Curti كان يدرس الحقوق في روما (١٥٧٢ ــ ١٥٨٥) أولع في الشطرنج وأخذ يتفوق على اللاعبين الرومان بسرعة عجيبة، وصادف أثناء دراسته أن حضر إلى روما في مهمة دينية من قبل الملك فيليب الثاني اللاعب الشهير لوبيز، وكان من الطبيعي أن يقابل لاعبي الشطرنج هناك، وأن يتغلب عليهم واحداً بعد الآخر بما فيهم ليوناردو، ولكن الأخير وهو اللاعب الطموح، لم يعجبه ذلك، فانسحب إلى نابولي حيث بقي سنتين يدرس الشطرنج ويهيء نفسه لأخذ الثأر من لوبيز. في تلك الأثناء وصل إلى نابولي اللاعب المشهور باولو بوي Paolo Boi المعروف بالسراقسي Le Syracusien من مواليد ١٥٢٨ من عائلة نبيلة وغنية، عرف بذكائه الحاد وبنجاحه كرجل أدب، ولكنه كان ذا موهبة عظيمة في الشطرنج إذ كان



□ الراجا، وهي إحدى القطع المهداة إلى شارلمان من قبل هارون الرشيد.

يستطيع أن يلاعب ثلاثة لاعبين بالتتابع في وقت واحد وهو مغمض العينين بينما يتابع مناقشة مع المتفرجين في أي موضوع آخر. وتبارز الاثنان في سلسلة من المقابلات انتهت كلها بدون نتيجة، وفي صباح يوم كان عليه فيه أن يتابع اللعب مع باولو بوا، قرر ليوناردو أن يسافر إلى أسبانيا لمقابلة لوبيز تحقيقاً لحلمه، وهكذا ترك نابولي دون سابق إنذار تاركاً بوا يتابع جولاته بنجاح ضد أحسن اللاعبين.

وفي برشلونة، التقى ليوناردو بأحسن اللاعبين المعروفين في ذلك الوقت، توماس كابيتو، وجيوفاني رودريكو، فاتفق الثلاثة أن يربحوا المال بطريقة غير شريفة ضد لاعب رابع يدعى موسياسو Mucciacio وذلك بأن يخفي ليوناردو قوته الحقيقية حتى يجر موسياسو ليلعب بمبالغ باهظة.



□ الملك لويس الحادي عشر على اليمين يلعب الشطرنج مع أحد أفراد حاشيته.

ووصل اللاعبون الثلاثة إلى مدريد حيث يقطن لوبيز، الذي كان يتمتع كما أسلفنا بحب الملك فيليب الثاني. ولم يعرف لوبيز ليوناردو فتحرش به، فقبل الأخير شرط أن يدفع المغلوب ٥٠ سكودي أي ما يقابل ٢٥٠ فرنكاً مقابل كل جولة، وتعادل الاثنان في الجولة الأولى، ولكن ليوناردو ربح الثانية مما أدهش جميع الحاضرين الذين لم يكونوا يعرفون ليوناردو على حقيقته. فعلم بالأمر الفونسو شيرون Alfonso Ceron الخصم الدائم للوبيز، وهو يماثله قوة، فحضر على الفور من غرناطة، وبدأ الثلاثة باللعب، ولكن تفوق ليوناردو كان ظاهراً في كل مرة.

وعلم باولو بوا بالأمر، والحظوة التي ينالها هؤلاء اللاعبون الثلاثة في مدريد من قبل الملك والنبلاء، فتوجه على الفور إلى مدريد، ولكن القراصنة أوقفوه على الطريق وحجزوه في الجزائر مدة من الزمن، وما أن استعاد حريته حتى تابع سفره إلى مدريد في وقت كان ليوناردو يلعب مع شيرون، وبدون أن يلقي أية كلمة جلس بين المتفرجين، فلما انتهت الجولة رآه ليوناردو وتعرف عليه وقدمه للحاضرين معلناً عن رغبة مواطنه بمقارنة قوته في الشطرنج معه، فتقرر أن يلتقي الاثنان في اليوم التالي، ولكن ليوناردو اضطر أن يترك مدريد في المساء بعد أن تلقى نبأ وفاة زوجته. فلعب بوا مع شيرون ولوبيز وتغلب عليهم، ولما رجع ليوناردو وبعد عدة أشهر إلى مدريد تقرر أن يلتقي البطلان.

بقي البطلان في اليومين الأولين متعادلين بدون أن تعرف النتيجة ولكن ليوناردو خرج ظافراً في اليوم الثالث تاركاً خصمه في حالة يائسة جعلته يغادر مدريد. ترى هل نستطيع أن نعتبر هذه السلسلة من المباريات أول دورة عالمية للشطرنج، قد يكون ذلك، وعلى كل حال فقد صنفت هذه المباريات اللاعبين في ذلك العصر ووضعت ليوناردو في الطليعة كأحسن لاعب في العالم.

بعد أيام من سفر بوا، غادر ليوناردو بدوره مدريد عائداً إلى نابولي حيث التقى كثيراً ببوا ثم رجع إلى بلدته كوتري حيث توفي مسموماً في قصر الأمير بيزينيانو Bisignono وكان يبلغ الخامسة والأربعين.

وتابع باولو بوا تنقلاته، ولعب كثيراً مع سيباستيان ملك البرتغال الذي كان يحب الشطرنج، ثم زار هنغاريا ونازل الأتراك الذين كانوا يلعبون بسهولة وهم على ظهر حصان ودون أن يروا الرقعة. ثم انقطعت أخباره مدة عشرين عاماً حتى رجع إلى صقلية، وكان هناك يكثر من الانتقال من مدينة إلى أخرى وقضى أيامه الأخيرة في قصر الدوق أوربينو الذي كان يقدم له راتباً دائماً. توفي باولو سنة ١٥٩٨ وكان يبلغ من العمر سبعين عاماً، واختلف الرواة في موته، فمنهم من قال أنه مات مسموماً من قبل خادمه وآخرون بأنه توفي على أثر نوبة قلبية.

أساتذة القرن السابع عشر

بعد هذا العصر الذهبي للشطرنج، أتى لاعبون أقل شهرة ومهارة، ولكنهم عرفوا بالأساتذة لأنهم حللوا المناورات في الشطرنج وحاولوا وضع جولات مدروسة. ومن حسن الحظ، أن أغلب الجولات التي لعبت في أسبانيا وإيطاليا في العصر الذهبي، جمعها الأستاذ كيليو سيزار بوليريو Giulio Ceasare تلميذ ليوناردو المشهور، وكان يعتبر من أمهر اللاعبين حتى أوائل القرن السابع عشر نظراً لاختلاطه الدائم مع كبار اللاعبين والأساتذة وتمرينه المتواصل وبقي كذلك حتى سنة ١٦٠٦ حين

تغلب عليه جيرونيمو كاسيو Geronimo Cascio De Piazza وقد جمع بوليريو ما يقارب ٢٥٠ جولة عدا جولات لوسينا ولوبيز.

وبرز في ذلك العصر أساتذة آخرون مثل Alessandro Salvio ثم Horatio Gianutio وكان دكتوراً في الحقوق ثم Pietro Carrera ولكن أشهر أساتذة ذلك العصر بدون ريب كان كريكو Giochino Greco ولد سنة ١٦٠٠ وعرف بـ Calabrais لأنه تربى في كالابر، غادر بلده سيليكو من أعمال نابولي إلى روما، وكان يبلغ السابعة عشر من عمره ثم زار اللورين وفرنسا، وفي باريس لمع اسمه كأحسن لاعب بعد أن ربح ٥٠٠٠ بيستول. في سنة ١٦٢٢ سافر إلى انكلترا ثم عاد إلى فرنسا وذهب من هناك إلى مدريد. في سنة ١٦٢٦ عاد إلى نابولي ولكنه سرعان ما غادرها مع نبيل أسباني إلى أميركا الجنوبية حيث توفي هناك سنة ١٦٣٤.

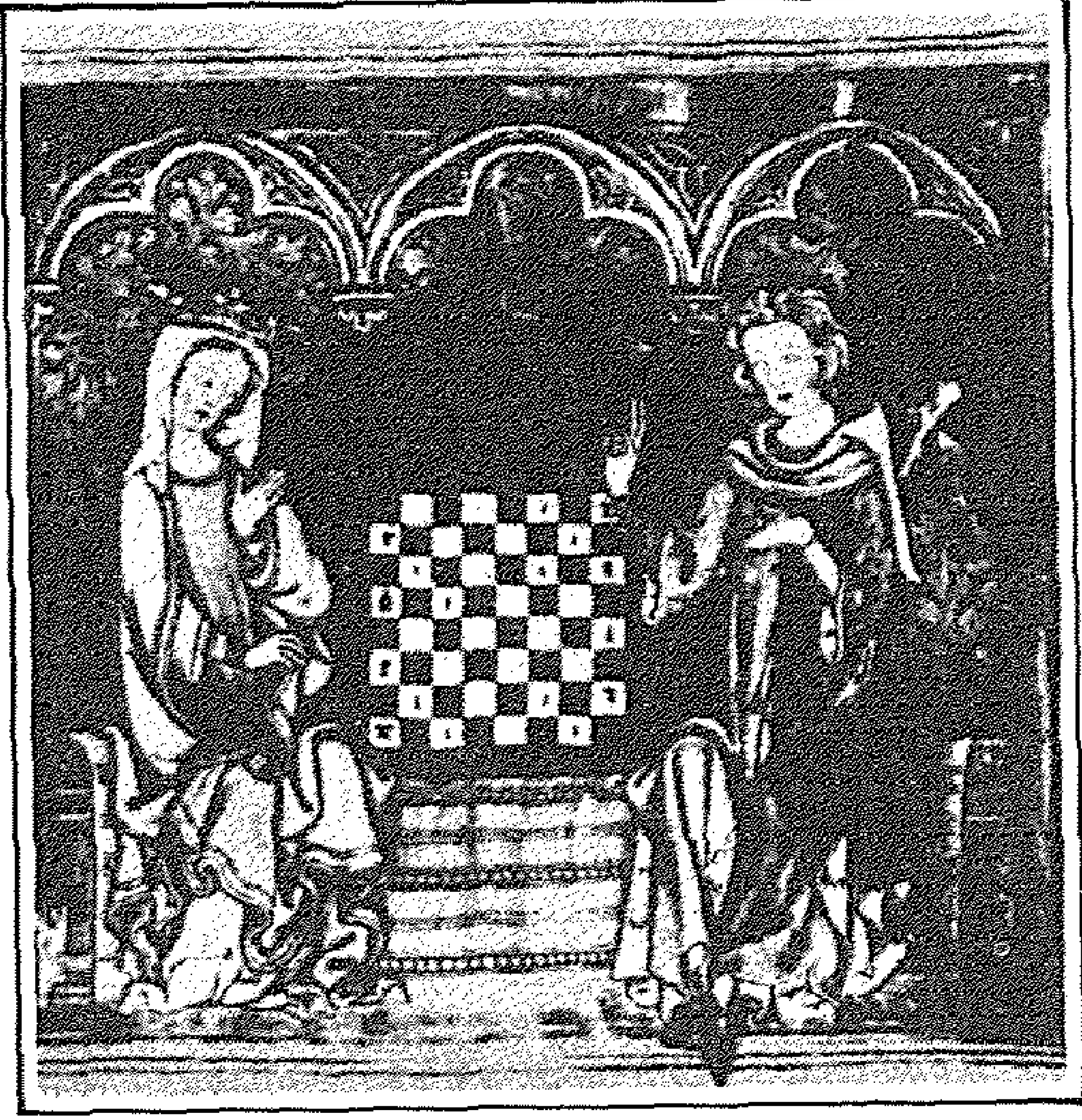
يقول سالفيو في كتابه، أنه كان في قصر الملك فيليب الرابع لاعب يدعى مارونو، كان أمهر من كريكو.

ولكريكو عدة مؤلفات، وله فضل كبير بإيجاد وشرح المناورات الشطرنجية.

الركود

بوفاة كريكو انتهى العصر الذهبي للشطرنج وخيم عليه الركود حتى نصف القرن الثامن عشر إذ توقف انتشار الشطرنج كالسابق وجل اعتماد اللاعبين كان على كتاب كريكو ولوبيز وبقيت إيطاليا الزاهرة في الماضي بدون أي إنتاج. في فرنسا كان انتصار ملك الشمس يشغل الناس أكثر من أي شيء آخر، أما ألمانيا فكانت بعد حرب الثلاثين مشغولة بجراحها التي لم تندمل بسرعة، أما انكلترا فكانت تسيطر عليها روح محاربة الألعاب فانصرف الناس عن الشطرنج ومع ذلك يقول الرواة أن شارل الثاني كان لا يجد ضيراً من وقت لآخر بالذهاب إلى نادي البحارة الثلاثة Taverne Des Trois Marins ليلعب الشطرنج.

لذلك خلت هذه الحقبة من مؤلفات في الشطرنج، اللهم إلا القليل منها، ولكنه أقل أهمية مما صدر في الماضي، ففي ١٧٣٥ نشر



□ لعبة الشطرنج في أوروبا ١٣٣٤.

الكابيتان الانكليزي بيرتن Bertin كتاباً عن الشطرنج The Noble Cames Of Chess.

في هذا الوقت برز في فرنسا فيليب ستاما وهو من مواليد سوريا، وقيل من حلب وبعد أن قضى وقتاً يتدرب في إيطاليا وانكلترا وكان لاعباً مهاجماً من أبرع اللاعبين في ذلك الوقت حتى لقبه بعض المؤلفين آخر أبرع اللاعبين العرب (إذا لم يبرز بعده أي لاعب عربي).

في سنة ١٧٤٧، عندما كان البطل الفرنسي فيليدور في انكلترا، لعب مع ستاما، وكان فيليدور يعتبر التعادل مع إعطاء بيدق ربحاً لستاما، ولكن المباريات انتهت مع ذلك مع ستاما خمسة مقابل أربعة لصالح فيليدور.

في سنة ١٧٣٧، نشر ستاما كتابه في فرنسا وأعاد نشره سنة ١٧٤٧ في انكلترا، في كتابه هذا يضع ستاما اللاعبين العرب قبل لاعبي الغرب من حيث المهارة، ويعزو ستاما ذلك إلى أن اللاعبين في الشرق العربي، يقبلون الاستشارة والنصيحة وينتخبون دائماً منافسهم، بينما في أوروبا يلعب كل على ذوقه ولا يرضى اللاعب منهم أن ينتقد أحد لعبه.

كأستاذ، ستاما موضع للانتقاد، فقواعده أقل قيمة ممن سبقه، وأن تكن بعض المناورات التي يقوم بها تدل على مهارة، ولكنه لم يترك طريقة واحدة تميزه عن غيره يمكن تطبيقها على كافة الأمثلة العديدة التي وضعها وعلى مسائله

التي تعد أهم مؤلفاته، وإن كانت لا تخلو من أخطاء، وهي تعيد بالذاكرة إلى المنصوبة عند العرب قديماً ولكن في قالب جديد، وقد كان لستاما تأثير كبير على نهضة المسائل وانتشارها. كما أن لستاما الفضل في إيجاد الترقيم الجبري، هذا الترقيم الذي طبع لأول مرة سنة ١٧٣٧، فقد كان أول من فكر بتقسيم رقعة الشطرنج إلى خطوط أفقية وعمودية وتسميتها بالحروف الأبجدية، ولولا ظهور كتاب فيليدور بالطريقة الوصفية بعد ذلك بقليل واستقبال الجمهور له بحماسة، لطغت طريقته على جميع الطرق المستعملة في ذلك الوقت خصوصاً في فرنسا وانكلترا. علماً أن الاتحاد الدولي للشطرنج اليوم يعتمد هذا الترقيم الجبري ويعتبره إجبارياً في كافة المباريات.

وقد نشر الترقيم الجبري الحالي، لأول مرة، موزيس هيرشل Moses Hirschel في الطبعة الألمانية لكريكو وستاما المنشورتين في برسلو Breslau سنة ١٧٨٤ وليبزيغ Leipzig سنة ١٧٩٥.

التجديد:

كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر ابتداء عهد جديد في الشطرنج، لا يزال يتابع حتى اليوم بازدهار، ينمو يوماً بعد يوم، ويظهر أنه لن يعود إلى النوم بعد الآن.

وكانت باريس ولندن المركزين الأساسيين لهذه الحركة، حيث كانت هذه اللعبة النبيلة تلعب بحماس جديد، كما أصبحت أكثر المدن الهولندية من المتحمسين لهذه اللعبة. وبرزت باريس من بين كافة دول العالم كمركز رئيسي لعهد التجديد، فتشكلت فيها النوادي والجمعيات وعقدت فيها الاجتماعات بين اللاعبين من جميع الدرجات والطبقات.

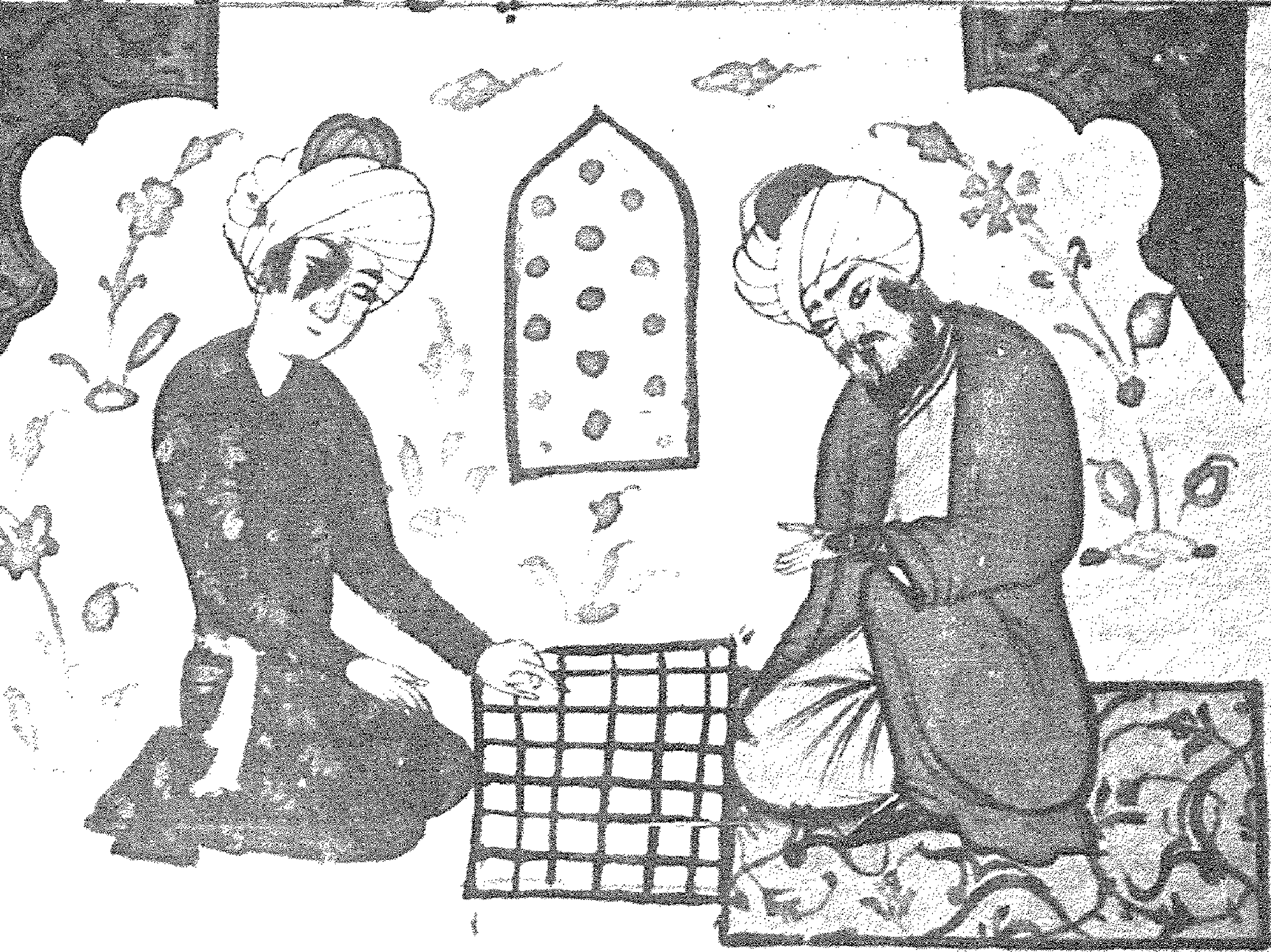
أول مركز لتجمع اللاعبين، كان في مقهى بروكوب Procope وحوالي سنة ١٧٤٠ أخذ اللاعبون يتوافدون على مقهى الريجانس Cafe De La Regence بعد أن أصبح هذا المقهى ملتقى الكتاب والرجال اللامعين، وبقي هذا المقهى أشهر مكان في أوروبا، وملتقى جميع مشاهير لاعبي الشطرنج في العالم ومكاناً يحجون إليه من كافة أقطار العالم مدة طويلة من الزمن. أمثال: الشاعر بيرون، جان جاك روسو، فولتير، ديدرو، لوساج Le Sage دالمبير D'Alembert بو مارشيه، كميل دي مولان، براس Barras مورات Murat روبسبيير، بواسي دانكلاس Boissy D'Anglas بونابارت في أول عهده، وكان ضابطاً بسيطاً في المدفعية، ديمون ديرفيل Dumont D'Urville الفرد دي موسيه، فيكتور هوغو، تيوفيل غوتييه، هنري مورجيه Murger، جول غريفييه، كامبيتا، أوكتاف فوييه Feuillet Octave الخ...

وفي مقهى ريجانس، اشتهر كرمير M. De Kermer كأحسن وأقوى لاعب باريسي، وهو أستاذ فيليدور اللاعب المشهور، الذي أتينا على ذكره سابقاً، فقد بدأ يلاعبه بدون رخ في الأول ثم بدون حصان أو فيل، ثم بدون بيدق طيلة ثلاث سنين (١٧٤٣) ثم بدأ فيليدور يتغلب على أستاذه، وقد حاول ليكال Legal أن يلعب وهو مغمض العينين عبثاً، بينما كان فيليدور يستطيع أن يعيد أية جولة لعبها في المقهى.

وفي لندن، كما في باريس، كان مقهى Old Slaughter في Martin's Lane يضم أحسن اللاعبين ثم خلفه مقهى سالوبيان Coffee House Salopian في Charing-Gross وكان يرتاد هذا المقهى كبار الشخصيات واللاعبين أمثال اللورد سندرلاند، سيرجاينس، كوتنغهام الأميرال بنغ، فاتح جبل طارق، وهؤلاء هم الأخصام التقليديون لستاما وبرتان منذ إنشاء فيليدور نادي الشطرنج في شارع سان جايمس Chess Club.

ظهر فيليدور أول مرة في مقهى الريجانس سنة ١٧٤١، وكان يبلغ السادسة عشرة من عمره، وبوقت قصير تغلب على الجميع وعلى ليكال، أحسن لاعب في ذلك الوقت، ثم أخذ يلعب وهو مغمض العينين، في البدء جولة واحدة ثم اثنتين ثم وفيما بعد في انكلترا ثلاث جولات بالتتابع مما لفت أنظار اللاعبين حوله. وفي سنة ١٧٤٥ سافر فيليدور إلى هولندا مع فريق من الموسيقيين، واضطر بعد حوادث مؤسفة أن يعيش من عبقريته في الشطرنج، ثم سافر بعد

ایوان چون افتاد و عکس دوم حاصل شد از آنجا برق شوقش درخشان
برگشت و شیفتهٔ حضرت شیخ مجد الدین بغدادی گشت و چون معلوم کرد که
شطرنج است از آن روی که اول تأنیس و بعد از آن تشویق و



□ نجم الدين كبرا يلعب الشطرنج مع تلميذه مجد الدين بغدادي — مصغر إسلامي من القرن الثالث عشر

در عرصهٔ انس پیاده دوانید تا اسبی زند شهمات شد و حضرت شیخ
در کتاب ده فصل آورده آنجا که فرموده

مثنوی

یکی از عاشقان جمال ترا	بود نجم اکابر کبری
آن معین شریعت احمد	آن قمر

سنتين إلى انكلترا فلاهاي ثم رجع إلى انكلترا، وبفضل حماية الكونت بروهل وعدد وفير من عشاق الشطرنج بقي مدة طويلة في انكلترا دون أن يقطع علاقاته مع باريس، وقد توفي في انكلترا سنة ١٧٩٥.

في سنة ١٧٧٠، ظهر أول لاعب ميكانيكي Automate صنعه البارون كمبلان Kempelen «راجع مقالنا حول هذا الموضوع في العدد رقم ١٤» وقد عمت شهرته أوروبا بأجمعها وحاز إعجاب كل من شاهده أثناء اللعب، كان اللاعب الميكانيكي، يلبس على رأسه شريطاً، ويجلس وراء رقعة شطرنج على مكتب يسير على عجلات، وقسم هذا المكتب إلى قسمين، لكل قسم باب وجارور، وكان اللورد كمبلان يفتح هذا الباب قبل بدء الجولة ويسحب الجرار لتظهر الآلات والدواليب وسوى ذلك، وكان يملأوها قبل بدء الجولة شأن أية لعبة من ألعاب الصغار اليوم، ثم يضيء شمعة قبل بدء الجولة وطيلة مدة اللعب، حتى ليخيل للمرء أن الجالس لاعب حقيقي. والحقيقة أن اللورد كان يخفي بداخل الدولاب لاعب قزم اشتهر بلعبه، ولم تكن الشمعة إلا لتنير لهذا اللاعب المكان الذي يجلس فيه ليستطيع أن يرى بوضوح اللعب على رقعة صغيرة من الشطرنج كان يحملها معه، وهو الذي كان يحرك بصورة خفية الأحجار التي يراها الجمهور.

تناوب هذا اللاعب الأوتوماتيكي (أوتومات) عدة لاعبين مشهورين، حتى أصبح ملكاً للملك فريدريك الثاني، الذي بعد أن شغف به مدة طويلة، فككه ووضعه في خزانة حيث بقي ثلاثين سنة تقريباً، إذ كان يدر عليه الأموال من المتفرجين، ثم أصبح بعد موت الأخير ملكاً ل: أوليل والدكتور ميشال ثم احترق في فيلاديفيا سنة ١٨٥٤ عندما شب الحريق في المتحف الصيني Chinese Museum وتبعه عدة أوتومات، أشهرها كان لكاميل Gumpel وكان يدعى ميفيستوفيلس Mephistopheles الذي نال نجاحاً منقطع النظير في أكواريوم وستمنستر في لندن وفي معرض باريس سنة ١٨٧٨، وظهر أوتومات، آخر في معرض ١٨٨٩، وكان متقناً أكثر من الأول، كان الأخير يلعب على طاولة شطرنج تحتها فارغ تماماً، وكان يديره على الكهرباء من غرفة ثانية يحرك آلاته لاعب ماهر لا يراه المتفرجون.

وبفضل ستاما كما أسلفنا انتشرت المسائل كثيراً وخصوصاً في أواخر القرن الثامن عشر.

القرن التاسع عشر

بعد وفاة فيليدور وفردوني ١٨٠٤، انتقلت مهمة نشر الشطرنج في انكلترا إلى الأستاذ سرّات Sarrat تلميذ فردوني وكانت شهرته كبيرة جداً.

وفي فرنسا، برز ديشابيل بطل فرنسا الذي لمع اسمه بسرعة في مقهى الريجانس، وكان لابوردونيه La Bourdonnais تلميذه في البدء خصمه العتيد فيما بعد، وكذلك الأستاذ الانكليزي كوشران، كما برز في انكلترا ماك دونال وستاوتن، الذي يرجع إليه موديل أحجار الشطرنج التي يعتمدها الاتحاد الدولي للشطرنج في جميع المباريات.

في هذا القرن أنشأت أول مجلة للشطرنج في باريس Le Palamede لمؤسسها لابوردونيه ومري Mery وكان ذلك سنة ١٨٣٦، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على سعة انتشار الشطرنج وكثرة اللاعبين في ذلك القرن.

وقد امتاز هذا العصر بتنظيم أول بطولة عالمية في الشطرنج، وكان ذلك في لندن سنة ١٨٥١، وقد ربحها الألماني أودولف اندرسن، ويعتبر اندرسن أول بطل عالمي غير متوّج لهذه اللعبة، وكان ذلك فتحاً جديداً في عالم الشطرنج.

في هذه الحقبة، برز أميركي شاب من نيو أورليانز من أم فرنسية، يدعى بول مورفي، كان في لعبه لمعات قل أن نجد مثيلاتها حتى يومنا هذا، لاعب الجميع في أميركا وتغلب عليهم، ثم التقى بلوونتال Lowenthal أشهر لاعب في أوروبا بذلك الحين، وتغلب عليه، ثم تتالت انتصاراته إلى أن فاز في المباريات التي جرت سنة ١٨٥٧ في مؤتمر نيويورك بالجائزة الأولى، عندها قرر أن ينتقل إلى أوروبا ومنازلة أبطالها، أمثال ستاوتن، بولسن، بيرد وغيرهم، وبعد أن هزمهم واحداً بعد الآخر، التقى باندرسن سنة ١٨٥٨ وتغلب عليه، فاعتبر بطلاً للعالم كله، ذلك أنه التقى

احسن لاعبي العالم وهزمهم، ولعل ذلك كانت اول جولة حول العالم في سبيل بطولة الشطرنج، وانسحب مورفي بعد ذلك إلى أميركا ولم يشترك في أية مباراة أخرى إلى أن توفي سنة ١٨٨٤، ويعتبر مورفي أبرز بطل للشطرنج في القرن التاسع عشر.

بعد تغلب مورفي على أندرسن وانسحابه، اشتد النزاع على بطولة الشطرنج، وأخذت المباريات الدولية تنظم بشكل متواصل وفي كافة انحاء العالم حتى بلغت سنة ١٩٠٠، ثمانية وأربعون مباراة دولية، كان أعظم البارزين فيها: اندرسن، ستاينيتز، طراش، لاسكر وجانوفسكي. وتتابعت المباريات بعد ذلك لغاية الحرب الكبرى سنة ١٩١٤، وبقي بارزاً في هذه الحقبة، طراش، لاسكر وجانوفسكي، كما برز تشيغورين، ماروكزي، مارشال، كابلانكا، روبنشتاين، اليخين وسواهم. وكان ينظم في كل عام أكثر من مباراة دولية حتى بلغت خلال السنين الأربعة عشر، أي من ١٩٠٠ إلى ١٩١٤، ٣٥ مباراة دولية أشرف عليها النوادي والاتحادات التي أخذت في الظهور.

القرن العشرون (آخر محطة في مقالنا)

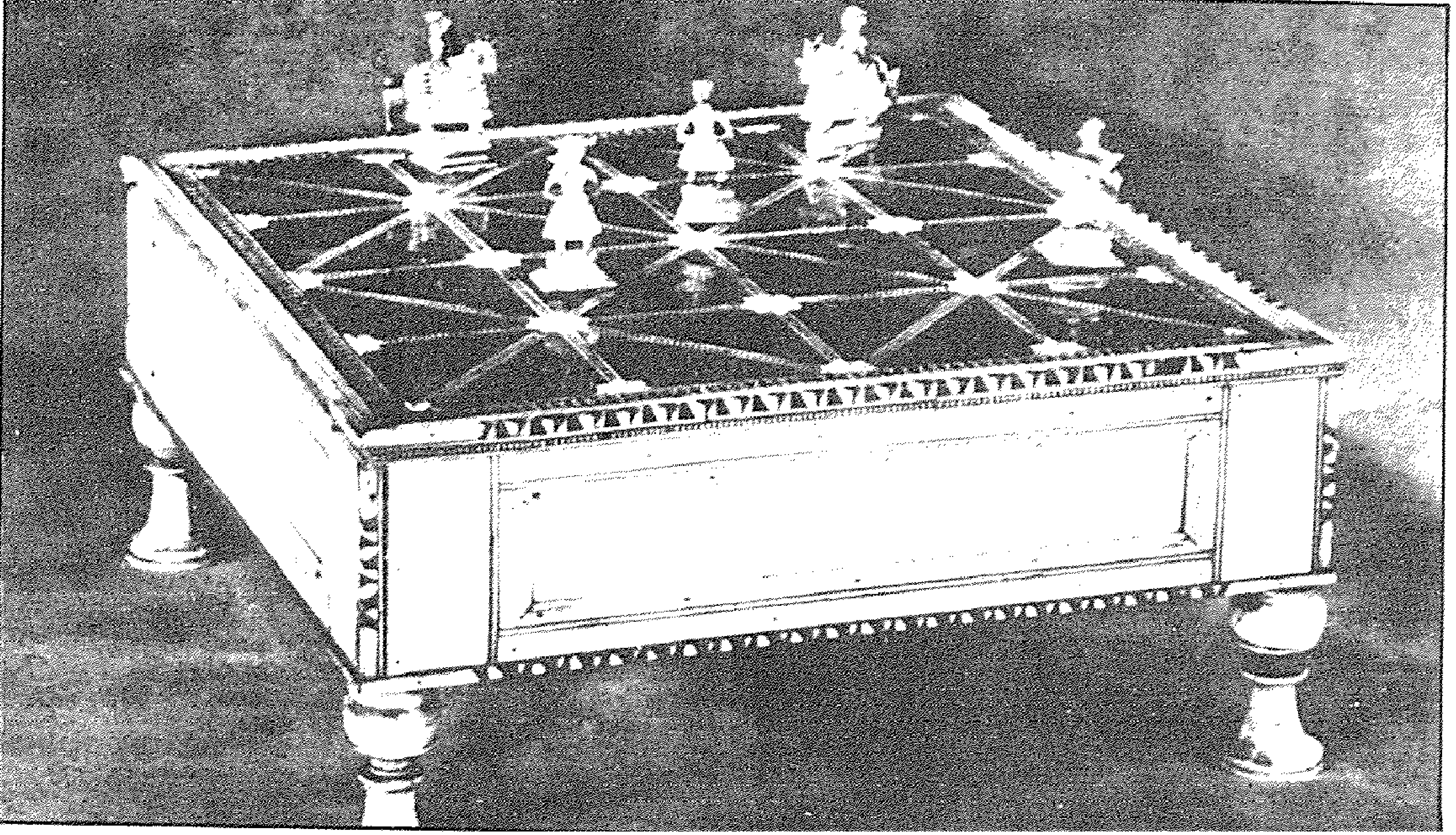
تميّز القرن الحالي بالتنظيم، فما أن هدأت الحرب العالمية الأولى، واطمأنت النفوس وعاد دولاب العمل إلى ما كان عليه، حتى تأسس أول اتحاد دولي للشطرنج وكان ذلك في باريس في العشرين من تموز ١٩٢٤، بدعوة من السيد فانسان بيير (ولد في ١٧/١٠/١٨٧٨، وتوفي في ٢/٤/١٩٥٦) الذي يعتبر المؤسس لهذا الاتحاد.

ويعتبر تأسيس الاتحاد الدولي في ٢٠/٧/١٩٢٤، أضخم وأهم حدث بتاريخ الشطرنج منذ اختراعه، فقد كان البادرة الأولى للتنظيم والانضباط الذي يوافق عليه اللاعبون في كافة أنحاء العالم، وكان ذلك المشجع الرئيسي **لتأسيس الاتحادات في كافة** أنحاء العالم، حتى **أصبحت اليوم تنوف عن المائة** والثلاثين عداً.



□ صفحة من الشهنامة تمثل غالباً الوزير يحل المسالة الشطرنجية المطروحة في الهند ويبادلها بالنرد.

تعاقب على رئاسة الاتحاد الدولي منذ تأسيسه لغاية اليوم ثلاثة هم السادة: الكسندر روب، من سنة ١٩٢٤ لغاية ١٩٤٩، فولك روغارد من سنة ١٩٤٩ لغاية ١٩٧١، حين قدم استقالته فانتخب رئيس شرف إلى يوم وفاته في ١١/٦/١٩٧٣، ثم اتى الدكتور ماكس أوفي الذي انتخب سنة ١٩٧١ بتوصية من روغاد (اسمه الكامل ماغيليس أوفي Maghielis Euwe وكان بطلاً للعالم من سنة ١٩٣٥ إلى ١٩٣٧ وهو هولندي الأصل ولد في ٢٠/٥/١٩٠١) وانتخب بعده فريدريك أولافسون من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢ ثم انتخب بعده سنة ١٩٨٢ السيد كامبو مانس الرئيس الحالي الذي جدد له في دبي بالإجماع ١٩٨٦ بعد انسحاب لوسينا.



□ الشاطورنجا: اللعبة كما بدأت في الهند.

أخذ الاتحاد على عاتقه بعد تأسيسه تنظيم بطولة العالم والإشراف على سائر المباريات الدولية الهامة، فوضع الأسس والقواعد والقوانين المتوجبة، ويعتبر قانون لعبة الشطرنج الذي وضعه الاتحاد الدولي سنة ١٩٥٢ أهم خطوة في سبيل استقرار هذه اللعبة على قواعد ثابتة موحدة بين سائر أقطار العالم.

ولتنظيم بطولة العالم الفردية، قسم الاتحاد الدولي للشطرنج الدول الأعضاء إلى مناطق، هي اليوم ثلاثة عشر، وجعل لكل منطقة رئيساً هو بذات الوقت نائباً لرئيس الاتحاد الدولي. تتألف كل منطقة شطرنجية من عدة اتحادات تجري فيما بينها بإشراف الاتحاد الدولي الممثل برئيس المنطقة، مباراة لانتخاب بطل المنطقة، ثم تجري في السنة التي تليها سلسلة مباريات بين الفائزين من المناطق ومن وصلوا إلى آخر السلم في مباريات بطولة العالم السابقة بمن فيهم الفاشل في بطولة العالم السابقة لاختيار مرشح واحد، عليه أن يقابل بطل العالم الأخير في مباراة من ٢٤ جولة، وضعت لها شروط خاصة، ويعتبر الفائز في هذه المباراة الأخيرة بطلاً للعالم لمدة ثلاث سنوات. ولم تكن كذلك في البدء، فقد كان للبطل الحق إذا خسر لقبه أن يستعيده في مباراة ثأر تجري في العام التالي، وقد عدل هذا النظام عدة مرات إلى أن أصبح كما ذكرناه آنفاً. وكلنا يذكر التعديل الذي لم ير النور طويلاً والذي فشل في مباريات البطولة بين كاربوف وكاسباروف بعد أن طالت بشكل لم يعد فيه بالإمكان المتابعة فأوقفت المباريات وعدلت وأصبحت اليوم كما قلنا مؤلفة من ٢٤ جولة.

يقوم الاتحاد الدولي إلى جانب ذلك بتنظيم اولمبياد للشطرنج مرة كل سنتين هو للحق مهرجان عالمي للشطرنج، تلتقي فيه كل الدول المشتركة في مكان واحد، تشترك كل دولة فيه بفريق من أربعة لاعبين ولاعبا احتياط (جرى الأولمبياد الأول سنة ١٩٢٧ في لندن). كما يقوم بتنظيم بطولة الشباب وآخر للطلبة وبطولة للسيدات إلى آخر ذلك، وقد وضع الاتحاد لكل منهما أنظمة تطبق على الجميع.

ويعقد الاتحاد مرة في كل عام، جمعية عمومية يدعو إليها كافة الاتحادات المنضمة، لدراسة ما يكون قد طرأ من أعمال خلال العام.

إذاً فالقرن العشرون، هو قرن التنظيم وانتشار الشطرنج في جميع أنحاء العالم،

بشكل لم يسبق له مثيل في السابق، تميز بكتب ومنشورات ومجلات للشطرنج لا تعد ولا تحصى في كل لغات العالم، كما تميز بسيطرة الاتحاد السوفياتي على بطولة العالم خلال حقبة طويلة من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٥ ومن سنة ١٩٣٧ إلى ١٩٧٢ ثم خسرها في مباريات مثيرة جرت في ريكجافيك (ايسلاندا) من ٧/٦ إلى ١٩٧٢/٨/٣١ أمام الأميركي روبير فيشر من مواليد ١٩٤٣، ثم استعادها بعد انسحاب فيشر على أثر احتجاجه بعدم الأخذ بمقترحاته هذه المقترحات التي حاول الاتحاد فيما بعد تعديلها علها تحث فيشر على العودة والتي آلت إلى فشل كما أسلفنا في البطولة الأخيرة بين كاربوف وكاسباروف. ولكنه ظل محتفظاً ببطولة العالم بالفرق التي كادت أن تهتز العام الماضي في دبي لولا أن لحق نفسه في آخر جولة.

القرن العشرون ذكرناه باختصار رغم أنه أهم محطة في تاريخ الشطرنج والكتابة عنه تطول لذا نكتفي بما سردناه.

الخلاصة:

هذا موجز عن تاريخ الشطرنج ومنه يتبين لنا:

١ — أن الظروف التي أوجدت اختراع الشطرنج لا تزال مجهولة، وكل ما عند المؤرخين خرافات وأساطير دون أن يكون هناك دليل يجزم بأحدها.

٢ — الأصل اللاتيني واليوناني لاختراع الشطرنج مردود نظراً لاختلاف الألعاب القديمة المعروفة في تلك البلاد مع الشطرنج المعروف حالياً.

٣ — بين الأصل المصري والأصل الهندي لاختراع الشطرنج، يجب اعتماد الأخيرة، وعلى هذا فمن المرجح أن اختراع الشطرنج يرجع إلى القرن الخامس أو السادس الميلادي، مع تحفظنا للاكتشاف الأخير في الاتحاد السوفياتي والذي قد يعود بتاريخ الشطرنج إلى القرن الثاني.

٤ — اعتبار الشاطورنجا، اللعبة الهندية القديمة هي الأصل الذي نقل عنه الفرس ودعيت فيما بعد الشطرنج (الفرس كانوا يدعونها خطرنج).

٥ — العرب هم الذين بعد فتحهم فارس سنة ٦٥٣م، قاموا بعد أن تمرسوا بها وأدخلوا فيها بعض التحسينات بنشرها في العالم باسم شطرنج، وتم ذلك أثناء فتوحاتهم بين القرنين التاسع والعاشر. وليس أدل على ذلك كما رأينا سابقاً من أن أغلب اللاعبين الكبار الأوائل في أوروبا كانوا من أسبانيا. أما البلاد الروسية والسكاندينافية، فيظهر أن الشطرنج دخلها رأساً من فارس أو من الهند، وهناك كثير من الأدلة بأنه دخلها من العرب مع القافلات التجارية.

٦ — العرب هم أول من ألفوا بالشطرنج، وأن المعتصم بالله هو أول من وضع المسائل في الشطرنج وألف بها.

٧ — كان القرن الخامس عشر، قفزة مهمة في عالم الشطرنج، ففيه تبدل سير بعض القطع — الوزير، الفيل. وفي القرن السادس عشر وضع التبييت وسمح للبيدق بتقدم خطوتين عوضاً عن خطوة واحدة، كما وضع نظام الأسر أثناء المرور، وظهر أول كتاب فني باللغة اللاتينية وضعه لوبيز، كما بدىء بوضع الدراسات الفنية والقواعد.

٨ — بعد كريكو، أصيب الشطرنج بفترة ركود حتى أواسط القرن الثامن عشر، عندما أعاده ستاما وفيليدور إلى سابق عهده.

٩ — في أواسط القرن التاسع عشر، جرت أول مباراة دولية لبطولة الشطرنج فاز بها أندرسن سنة ١٩٥١م، وتتالت بعدها المباريات، كما برز مورفي.

١٠ — القرن العشرون هو قرن التنظيم وفيه أسس الاتحاد الدولي للشطرنج، ووضعت القوانين والقواعد بشكلها النهائي بموافقة لاعبي كافة الدول في العالم.



معاهدات الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل المغرب والأندلس

إعداد: شذا عدره

يتميز عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و «الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها، ومعاهدات الخليفة عمر مع «أهل المغرب والأندلس»، أهم ما فيها كتبه الواردة إلى أمراء الجيوش والأجناد والجزية في تلك الأصقاع. وهي تتضمن تعليماته في الجزية، القتال، كيفية معاملة أهل الذمة وحثّه على تعليم أهل الأمصار القرآن الكريم وجزل العطاء لهم.

معاهدة مع أهل أنطابُلس

الخراج لقدامة بن جعفر ورقة ١٦٦ — بع ع ٤٠٥ — اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٩

سار عمرو بن العاص بعد فتحه الإسكندرية في جُنده يُريد المغربَ، حتى قدم بَرقة وهي مدينة أنطابُلس. فصالح أهلها على الجزية على
٣ ثلاثة عشر ألف دينار، يبيعون فيها من أبنائهم ومَن اختاروا بيعه.
وكتب لهم بذلك كتاباً. ولم يرو نصه.

(٣) اليعقوبي: من أبنائهم من أحبوا في جزيتهم.

معاهدة مع بربر لواتة

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٦٥ / ألف بع ع ٤٩٠

عن الليث بن سعد أن عمرو بن العاص كان كتب على لواتة من البربر. شرط عليهم:
إن عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية.
قال الليث: فلو كانوا عبيداً ما حل ذلك لهم منهم.

تعليمات عمر لأمراء الجيوش والأجناد والجزية

الأموال لابن زنجويه (خطية) روايات عديدة، ورقة ١٤/ألف ـــ ١٥/ب قابل الأموال لأبي عبيد، ع ٩٣

كتب عمر إلى أمراء أهل الجزية: ألا يَضربوا الجزية إلا على من جرتْ عليه المواسي. ولا يضربوا على النساء والصبيان.

إلى أمراء أهل الجزية ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي منهم. وجزيتهم أربعين درهماً؛ أو أربعة دنانير على أهل الذهب. وعليهم أرزاق المسلمين من الحنطة مدَّين أو مديين، وثلاثة أقساط زيت لكل إنسان كل شهر. ومن الودك والعسل والكسوة التي كان أمير المؤمنين يكسوها الناس... (شيأ لم يحفظه عبيد الله). ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام. وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعاً لكل إنسان.

كتب عمر إلى أمراء الجيوش أن: قاتلوا من قاتَلكم، ولا تقتلوا النساء ولا الصبيان. ولا تقتلوا إلا من جرت عليه المواسي.

وكتب إلى أمراء الأجناد أن يضعوا الجزية ولا يضعوا على النساء ولا على الصبيان. ولا يضعوا إلا من جرت عليه المواسي. على أهل الورق أربعين درهماً، وعلى أهل الذهب أربعة دنانير. وأمر أن يختم على رقابهم. وعلى أهل الشام وعلى أهل الجزيرة مدين أو مديين من بُرّ وأربعة أقساط من زيت وشيء من الودك ـــ (لا أحفظه) ـــ وعلى أهل مصر أردب من بُر. (قال:) وشيء من العسل ـــ (لا أحفظه) ـــ وعليهم كسوة أمير المؤمنين ضريبة مضروبة. وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعاً. وعليهم ضيافة المسلمين ثلاثاً، يطعمونه مما يأكلون مما يحلّ للمسلم طعامهم.

كتاب عمر في معاملة أهل الذمة

كتاب الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٢٠/ألف ـــ ٢٠/ب

قال عمر: يا يرفأ اكتبْ إلى أهل الأمصار في أهل الكتاب أن يجزّوا نواصيهم، وأن يربطوا الكستيجات ـــ يعني الزنانير ـــ في أوساطهم ليعرف زيهم من زي أهل الإسلام.

كتاب عمر في قتل الخنازير

الأموال لابن زفجويه (خطية) ورقة ٣٤/ب

كتب عمر إلى أمراء الأمصار يأمر بقتل الخنازير، ونقص أثمانها من الجزية.

كتاب عمر في الشرائط على المجوس
للتمييز بين من هو من أهل الكتاب منهم ومن ليس بأهل الكتاب

الأموال لأبي عبيد، ع ٧٧ ـــ الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ١٣/ألف ـــ ب

روى ابن زنجويه عن بجالة بن عبدة العصري قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن: اعرضوا على من قبلكم من المجوس أن يمنعوا نكاح أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم، وأن يأكلوا جميعاً، كيما نلحقهم بأهل الكتاب. واقتلوا كل ساحر وكاهن.

وروى أبو عبيد عنه: أتانا كتاب عمر رضي الله عنه قبل موته بسنة أن: اقتلوا كل ساحر، وفرِّقوا بين ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة.

كتاب عمر في تعليم الناس القرآن الكريم والعطاء له

الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٩٣/الف

إن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عمّاله أن: أعط الناس على تعلّم القرآن.

فكتب إليه: إنك كتبت إليّ أن أعطي الناس على تعلّم القرآن. فتعلّمه من ليست له فيه رغبة إلا رغبة الجُعل.

فكتب إليه أن: أعط الناس على المروءة والصحابة.

معاهدة مع أهل النوبة

خطط المقريزي ج ١ ص ٢٠٠

انظر بعـح ص ١٨٨ ــ ١٨٩؛ طب ص ٢٥٩٣؛ بـع ع ٤٠١ ــ ٤٠٢؛ بلا ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨؛ الخراج لقدامة ورقة ١٧٢ ــ ١٧٣؛ يعقوبي ج ٢ ص ١٩١؛ جريدة الفتح (مصر) من ١٨ جمادي الأولى سنة ١٣٥٥؛ مجلة «معارف» أعظم كرة في الهند ج ٣٨ ع ٦؛ هفننك ص ٩٦ ــ ٩٧؛ ميك مائكل ج ١ ص ١٥٧ ــ ١٥٨.

بسم الله الرحمن الرحيم.

١ ــ عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النُوبة ولجميع أهل مملكته:

٢ ــ عهد عقده على الكبير والصغير من أهل النوبة، مِن حدّ أرض أسوان إلى حد أرض علْوة.

٣ ــ إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة، جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر، وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة.

٤ ــ إنكم معاشر النوبة، آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا نُحاربكم، ولا ننصب لكم حرباً، ولا نغزوكم، ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم.

٥ ــ على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه.

٦ ــ وعليكم حفظ من نزل بلدكم، أو يطرقه من مُسلم أو مُعاهد حتى يخرج عنكم.

٧ ــ وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردُّوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه، ولا تتعرّضوا لمسلم قَصَدَه وحاورَه. إلى أن ينصرف عنه.

٨ ــ وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مُصَلّياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته.

٩ ــ وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين، من أوسط رقيق بلادكم، غير المعيب، يكون فيها ذكران وأُناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحُلُم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان.

١٠ ــ وليس على المسلمين دفع عدوّ عرض لكم، ولا منعه من حد أرض علوة إلى أرض أسوان.

١١ ــ فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم، أو قتلتم مُسلِماً أو مُعاهِداً. أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس -والستين رأساً، فقد برئَتْ منكم هذه الهدنة والأمان ونحن وأنتم على سواء، حتى يحكُمَ الله بيننا وهو خير الحاكمين.

١٢ ــ علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمّته، وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح، وذمة الحواريين، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملّتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

١٣ ــ كتبه عمرو بن شُرَحْبِيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين.

حل رموز الاختصارات
المستعملة في أوائل الوثائق

الف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
با... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبي يوسف.
ديب... الديبلي.

طب... تاريخ الطبري.
عمخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
ــ ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.

الرملة

قسم التوثيق والأبحاث

مدينة عربية كانت مركزاً لقضاء الرملة في عهد الانتداب البريطاني. وقد احتلها العدو الصهيوني في ساعة مبكرة من صباح يوم الاثنين ١٢/٧/١٩٤٨ بعد مقاومة باسلة من أهلها، وقام بطرد معظم سكانها العرب فلم يبق منهم فيها سوى ٤٠٠ نسمة. وأنشأ بعد عام ١٩٤٨ في ظاهر الرملة مستعمرات كثيرة منها مستعمرة «أحيسمخ» في الجهة الشمالية الشرقية ومستعمرة «متسلياح» في الجهة الجنوبية ومستعمرة «باد رامبام» في الجهة الجنوبية الشرقية.

(أ) الموقع الجغرافي: للرملة موقع جغرافي هام لأنها في منتصف السهل الساحلي الفلسطيني جنوبي شرق يافا وجنوبي غرب اللد. وتمرّ بها الطرق والسكك الحديدية التي تربط مصر ببلاد الشام والعراق. وهي نقطة انقطاع بين بيئتي السهل الساحلي والبحر المتوسط من جهة، وبيئتي الجبل والغور من جهة ثانية. ومن الطبيعي إذن أن تصبح نقطة وصل بين هذه البيئات المتفاوتة نسبياً في إنتاجها، وأن تكون عقدة هامة للمواصلات التي تلتقي في المدينة قادمة من الغرب والشرق مثلها في ذلك مثل مدينة اللد.

وتعد منطقة الرملة ظهيراً غنياً وقريباً لميناء يافا الذي ازدهر في أواخر عهد الانتداب إذ كان يستقبل البواخر التي كانت تأتي بالبضائع الأجنبية فتوزع عن طريق الرملة إلى بقية أجزاء فلسطين، ثم تحمل حمضيات منطقة اللد والرملة إلى الخارج. ويمثل وادي الصرار الذي ينحدر من جبال القدس نحو البحر المتوسط فتحة طبيعية هامة تربط القدس بالرملة. وتسير الطريق المعبّدة والسكة الحديدية بين القدس والرملة على طول مجرى الوادي، ثمّ تمرّان بالرملة في السهل الساحلي متجهتين نحو يافا. وتبعد الرملة عن القدس مسافة ٤٥ كم، ويشرف موقعا باب الواد (على بعد ٢١ كم من الرملة) واللطرون (١٦ كم) على طريق القدس ـــ الرملة ويتحكمان بها.

ترتبط مدينة الرملة بإقليمها بوسائل مواصلات جيدة. فهي تبعد عن محطة اللد مسافة ٣,٥ كم، وعن يافا ١٨ كم، وعن عاقر ٩,٥ كم، وعن بيت دجن ٩ كم، وعن صرفند ٧ كم، وعن القباب ١٠ كم. كما كانت تستفيد كثيراً من قرب مطار اللد منها.

ولموقع الرملة أهمية حربية إلى جانب أهميته الاقتصادية. فقد كانت منطقة الرملة مسرحاً لكثير من المعارك في التاريخ واتخذها الفرنجة مركزاً لجيوشهم عند محاولتهم غزو فلسطين. وكانت قاعدة عسكرية للجنود الأتراك والألمان خلال الحرب العالمية الأولى. وفي عهد الانتداب البريطاني أقام الإنكليز معسكراً ضخماً لجنودهم على مسافة ٥ كم منها.

(ب) طبيعة الأرض والمناخ: تقوم الرملة فوق بقعة مبسطة من أرض السهل الساحلي لفلسطين. ويراوح ارتفاع أرضها بين ٧٥ و١٠٠ م عن سطح البحر. وتنحدر الأرض بصفة عامة نحو الشمال والشمال الغربي. ويمرّ وادي الحبل بالأراضي الواقعة شرقي الرملة ويفيض في فصل الشتاء بمياه الأمطار فيغذي خزانات المياه

الجوفية ويعدّ هذا الوادي الحدّ الشرقي للأراضي الزراعية المحيطة بالرملة.

تتكون الأرض من لحقيات الحقبة الرابعة التي اختلطت فيها رمال البحر الزاحفة عبر السهل الساحلي نحو الشرق بالإرسابات الطّميّة التي تترسّب فوق أرض السهل الساحلي نتيجة فيضانات الأودية القادمة من المرتفعات الجبلية شرقاً والمتجهة نحو البحر المتوسط. ولذا يغلب على تربة منطقة الرملة الطَفَل وتنتمي إلى تربة البحر المتوسط الحمراء التي تصلح لزراعة جميع أنواع المحاصيل الزراعية، ولا سيما الحمضيات والزيتون والحبوب.

تقتصر المياه السطحية في منطقة الرملة على مياه فيضانات الأودية التي تحدث أحياناً خلال فصل الشتاء. غير أن المنطقة غنيّة بمياهها الجوفية على مستويات ليست بعيدة عن سطح الأرض، ولذا تكثر فيها الآبار والينابيع. وتساهم هذه المياه الجوفية في ريّ الأرض الزراعية المحيطة بالرملة وتستخدم في الشرب والاستعمالات المنزلية والصناعية.

مناخ الرملة معتدل، وهو جزء من مناخ السهل الساحلي الفلسطيني. ويبلغ متوسط درجة الحرارة السنوية في الرملة نحو ٢٠° ويراوح بين ١٣° في شهر كانون الثاني و٢٦° في شهر آب. ومن النادر أن يحدث الصقيع أو تسقط الثلوج على المدينة. ويبلغ المعدل السنوي للرطوبة النسبية في البحر نحو ٦٥ ٪، وهو معدل مناسب تتميّز به الرملة من بين بقية المدن الساحلية الأخرى. وتتلقى الرملة النسيم الذي يهبّ عليها من البحر المتوسط ابتداء من الساعة التاسعة صباحاً فيلطّف حرارة جوها. وأما كمية الأمطار السنوية التي تهطل على الرملة فتزيد في متوسطها العام على ٥٠٠ مم، وهي كمية كافية لخزن الرطوبة في التربة ونمو معظم أنواع المحاصيل الزراعية.

(جـ) النشأة والنمو: الرملة إحدى مدن فلسطين التي تأسست في العهد الإسلامي. ولا يقوم دليل على تأسيس مستوطن في موضعها قبل هذا التاريخ. ولكن المنطقة القريبة من موضع المدينة الحالي شغلتها في العصر الحجري الحديث قرية زراعية أقام عليها الكنعانيون فيما بعد قرية



□ مدينة «الرملة» المحتلة.

جازر التي تقع عليها اليوم قرية أبو شوشة. وقد وجدت في أقدم مستوطنات هذه القرية بقايا سور وبقايا حاصلات زراعية وبعض الكسرات من الأواني الفخارية.

سمّيت رملة لغلبة الرمل عليها. وقيل سمّيت بامرأة اسمها رملة وجدها سليمان بن عبد الملك في بيت شعر حين نزل مكانها يرتاد بناءها فأكرمته وأحسنت ضيافته فسألها عن اسمها فقالت: رملة، فبنى البلدة وسمّاها باسمها.

اختط بناءها الأمير سليمان بن عبد الملك يوم كان والياً على فلسطين في عهد أخيه الوليد بن عبد الملك ونقل إليها مقر الحكومة الإقليمية التي كانت في اللّد. واستمرت إقامته في المدينة الجديدة التي أسسها وهو خليفة طوال السنوات ٧١٥هـ ــ ٧١٧هـ، ونقل بعض سكان اللّد إليها، وأصبحت حاضرة جند فلسطين. وقد اختط سليمان المدينة على أرض مربعة الشكل قسمها شارعان رئيسان متقاطعان في الوسط إلى أربعة أقسام. وخطّت في كل قسم الأحياء وسكنت كل قبيلة حيّاً منها. وأول ما بنى فيها سليمان قصره ثم دار الإمارة. ثم بدأ بتشييد المسجد واستمرّ في بنائه عندما ولي الخلافة. ولمّا استقرت القبائل في المدينة بنيت لهم الدور والحوانيت. ومن أشهر القبائل التي نزلت بها قبائل لخم وكنانة. وفي عهد

الخليفة هشام بن عبد الملك حفرت قناة تدعى بردة لنقل الماء إلى المدينة، كما حفرت آبار لاستخراج الماء العذب. وذكرها الإصطخري بقوله: «إن الرملة هي مدينة فلسطين العظمى، ويليها بيت المقدس في الكبر». ووصف المقدسي مزاياها ووفرة فاكهتها، ولا سيما التين والنخيل، وعذوبة مياهها وطيب غذائها وجمعها بين فضائل الريف والمدن التي تقوم في السهل وتجاوز التلال والبحر، وتحدّث عمّا فيها من الحصون والمساجد والخانات والحمّامات المريحة والمساكن الرحبة والطرق الفسيحة.

كانت الرملة في عهد العباسيين تابعة لولاية الشام. وشهدت بعض حوادث التمرّد التي لم يكتب لها النجاح. وقد حكمها الطولونيون مدة من الزمن وشهدت مرور موكب قطر الندى ابنة الأمير خمارويه وحفيدة أحمد بن طولون وهي في طريقها إلى بغداد لتكون زوجة الخليفة العباسي المعتضد. وكان ذلك في سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٥م. وأصبحت الرملة في عهد الإخشيديين إمارة تابعة لهم، وزارها في أيامها المتنبي ومدح فيها أميرها الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدي. واستولى عليها بعد ذلك القرامطة في سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م ثم الفاطميون في سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م. وفي سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م أصاب الرملة زلزال عنيف هدم ثلثها وخرّب مسجدها وأهلك كثيراً من أهلها. وفي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م تعرّضت المدينة لزلزال آخر هدم الدور والسور وضعضع الجامع ومات من أهلها كثيرون.

وعندما نشبت الحروب بين الصليبيين والمسلمين احتل الفرنج مدينة الرملة في سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وكان أهلها قد خرجوا منها قبل الاحتلال. وفي سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م استعادها المسلمون وقضوا على معظم من كان فيها من فرسان بغدوين الصليبي. ولكن الصليبيين احتلوها مرّة أخرى وبقيت في أيديهم إلى أن استردها المسلمون بعد معركة حطين التي قادها صلاح الدين الأيوبي ودمّر قلعتها حتى لا يحتلها الصليبيون وهي عامرة. ولكنه جدّد بناء الجامع الأبيض فيها. وفي سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م عادت الرملة لحكم الصليبيين فأقاموا فيها أبرشية وشيّدوا كنيسة. ولكن حكمهم فيها لم يدم كثيراً، إذ تمكّن الظاهر بيبرس من تحريرها هي وسائر مدن فلسطين والشام في صيف ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م وبنى لجامعها مئذنة ومحراباً. وفي سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٢م أصابها زلزال شديد دمّر أبرشيتها.

كانت الرملة في القرن الثاني عشر الميلادي مدينة عامرة فيها أسواق وتجارات. وفي القرن الرابع عشر الميلادي كانت مدينة فلسطين العظمى ويليها في الكبر بيت المقدس. وكانت فيها حوانيت كثيرة وأسواق حسنة، واشتهرت بصنع الثياب القطنية إذ كان القطن يزرع في مرج ابن عامر.

دخلت الرملة مع غيرها من مدن فلسطين والشام في الحكم العثماني بعد انتصار العثمانيين على المماليك في مرج دابق سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٦م. وقد تدهورت حالة المدينة في أوائل هذا العهد وزالت أسوارها وأسواقها القديمة بنتيجة ما شهدته من حوادث التدمير أثناء الحروب الصليبية، واكتست هي وقراها في القرن الثامن عشر الميلادي طابع الفقر، وجفت آبارها وخربت صهاريجها. وأما أهلها فكانوا يشتغلون بغزل القطن وصنع الصابون.

وفي سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م احتلّها نابليون بونابرت وكان أهلها قد خرجوا قبل دخوله إليها والتجأت النسوة المسيحيات إلى دير البلدة. ولمّا أخفقت حملة نابليون على الشرق انسحب جنودها من الرملة. وفي الفترة بين ١٨٣١ — ١٨٤٠م خضعت الرملة لحكم الباشوات في مصر ثم عادت إلى حكم العثمانيين. وفي أواخر العهد العثماني شهدت الرملة بعض التقدم فأصبحت مركز ناحية تتبع قضاء يافا. وانتهى عهد العثمانيين في سنة ١٩١٧ ليخلفه عهد الانتداب البريطاني الذي استمرّ مدة ٣١ عاماً. وفي سنة ١٩٢٧ تعرّضت الرملة ونابلس والقدس واللد لزلزال أحدث أضراراً كثيرة في الممتلكات.

(د) مشاهد الرملة التاريخية: أهمها أطلال قصر بناه الخليفة سليمان بن عبد الملك. وتقوم مكانه اليوم حديقة البلدية، ولا تزال بعض جدرانه شاخصة في جانب الحديقة. وهناك أطلال الجامع الأبيض الذي بناه سليمان بن عبد الملك أيضاً ودمّره الصليبيون وأعاد بناءه صلاح

الدين الأيوبي ثم جدّده الظاهر بيبرس، وتقع بقاياه المتمثلة بجدرانه في غرب المدينة. وأما المئذنة الحالية فيبدو كما يتبين في الكتابات المنقوشة عليها أنها بنيت في أيام السلطان محمد بن قلاوون على أنقاض منارة قديمة بناها الظاهر بيبرس. ومن مشاهد الرملة أيضاً الجامع الكبير وهو في الأصل كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي أسّسها الصليبيون في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد رمم عدة مرّات كان آخرها في زمن السلطان العثماني محمد رشاد. ومن المشاهد الأثرية الشاخصة في الرملة بركة العنزية التي تقع في شمال غربي المدينة بنحو كيلومتر واحد. ويعتقد أنها تأسست بأمر من السيدة خيزران زوجة المهدي الخليفة العباسي في زمن ولدها هارون الرشيد سنة ١٧٣هـ/ ٧٨٩م. ويستدل على ذلك من الكتابة المحفورة عليها. وقد وصفها كمال سامح في كتابه «العمارة في صدر الإسلام». وهذا الصهريج الذي بُني لجمع الماء هو الأثر العبّاسي الوحيد في هذه البلاد. وفي الرملة قبر يقال إنه قبر الفضل ابن العبّاس ابن عم الرسول محمد ، وقيل إنه استشهد في فلسطين في معركة أجنادين أو في طاعون عمواس.

(هـ) **الرملة الحديثة**: تطورت الرملة في عهد الانتداب البريطاني تطوراً كبيراً وزاد عدد سكانها من ٦,٥٠٠ نسمة قبيل الحرب العالمية الأولى إلى ٧,٣١٢ نسمة في عام ١٩٢٢ و١٠,٣٤٧ نسمة عام ١٩٣٢، ثم ارتفع عددهم إلى ١٥,١٦٠ نسمة عام ١٩٤٥ و١٦,٣٨٠ عام ١٩٤٦. وتبع ذلك نموّ العمران في المدينة فامتدت المباني السكنية والمنشآت على شكل محاور بمحاذاة الطريق الرئيسة المتفرعة من المدينة، ولا سيما طريق الرملة ــ يافا. وتوسعت مساحة المدينة تدريجياً حتى بلغت في عام ١٩٤٣ نحو ١,٧٦٩ دونماً تشغلها آلاف المباني. وشهدت مرحلة نموّ سريع في مستويات سكانها التعليمية والثقافية.

لكن الازدهار الذي حظيت به الرملة لم يدم طويلاً لأنها تضررت من كارثة عام ١٩٤٨. ففي ذلك العام احتلت (إسرائيل) المدينة وطردت معظم ساكنها العرب ودمّرت بعض بيوتها ولم يبق من سكانها إلّا القليل. وأخذ المهاجرون الصهيونيون يحلّون محل السكان العرب تدريجياً. ففي أواخر عام ١٩٤٨ قدّر عدد سكان الرملة بنحو ١,٥٤٧ نسمة، وارتفع بفعل الهجرة الصهيونية فوصل إلى ٢٠,٥٤٨ نسمة في عام ١٩٦١. ونتج عن تيار هذه الهجرة إلى المدينة توسع في مساحتها وزيادة في عدد مبانيها السكنية. واتجه النمو العمراني للرملة نحو الغرب والجنوب الغربي بصورة رئيسة. وتركز معظم الصهيونيين فيما يسمى الآن بالرملة الجديدة في حين بقي العرب في الرملة القديمة إلى جانب من استقرّ معهم فيها من الصهيونيين. وفي عام ١٩٦٩ كان مجموع العائلات الصهيونية المقيمة في الأحياء الجديدة من الرملة نحو ٤,٢٠٠ عائلة، ومجموع العائلات الصهيونية في الأحياء القديمة من المدينة نحو ٣٠٠ عائلة تعيش في البيوت العربية التي أخليت من سكانها العرب بعد طردهم.

بلغ عدد سكان الرملة في عام ١٩٧٣ نحو ٣٦,٠٠٠ نسمة من بينهم ٤,٨٠٠ عربي. ولا تجد الأحياء العربية في المدينة الاهتمام اللازم من قبل سلطات الاحتلال الصهيوني، وتتركز معظم الخدمات والمرافق العامة في الأحياء الصهيونية، ولا سيما الأحياء الجديدة.

(و) **التركيب الوظيفي**: تتنوّع الوظائف التي تمارسها الرملة منذ نشأتها الأولى حتى اليوم. وقد تأثرت مراحل تطور نموّ المدينة بتطور هذه الوظائف. كما أن الأهمية النسبية لكل وظيفة اختلفت من عصر لآخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية التي مرّت بها المدينة. والوظائف التي تمارسها الرملة هي:

(١) الوظيفة الإدارية: واكبت هذه الوظيفة مدينة الرملة منذ نشأتها الأولى لأن المدينة خطّط لها أن تكون عاصمة لجند فلسطين منذ البداية بسبب توسّط موقعها. وقد اتخذها الأمويون والعبّاسيون والمماليك عاصمة فلسطين. وفي أواخر العهد العثماني كانت الرملة مركزاً لمديرية من أعمال قضاء يافا تتبعها ٥٩ قرية. ثم أصبحت في عهد الانتداب البريطاني مركزاً لقضاء يحمل اسمها. ويضمّ قضاء الرملة حالياً مدينتي الرملة واللد وسبعين قرية.

تشرف الرملة على قضاء مساحته ٩٢٦,٧ كم[٢]. وكان الصهيونيون قبل عام ١٩٤٨ يملكون نحو ١٣,٨ ٪ من مجموع مساحة القضاء، وهم يحتلون اليوم القضاء كلّه. وكانت الرملة تدير شؤون سكان القضاء الذين بلـغ عددهم نحو ٤٩,٠٧٥ نسمة في عام ١٩٢٢، ونحو ٧٠,٥٧٩ نسمة في عام ١٩٣١، ونحو ١٢٧,٢٧٠ نسمة في عام ١٩٤٥. وكان الصهيونيون يمثّلون ٢٣ ٪ من مجموع سكان قضاء الرملة في عام ١٩٤٥ بعد أن كانت نسبتهم ٨ ٪ في عام ١٩٢٢. وأما اليوم فهم يمثلون غالبية سكان القضاء المحتلّ.

(٢) الوظيفة التجارية: الرملة مركز تجاري هام منذ صدر الإسلام حتى اليوم. ففي الماضي كانت المدينة تقـع على طريق القوافل التجارية بين مصر والشام. وقد استقـرّ في الرملة كثير من التجّار لازدهار الحركة التجـارية فيهـا معظم العصور السابقة. وفي عهد الانتداب البريطاني كانت الرملة سوقاً تجارية للقرى التابعة لهـا تعـرض فيهـا كثـير من المنتجـات الزراعيـة والحيوانية والصناعية. وقد أثّر في الرملة وقوع مدينة اللد أكبر مدن القضاء بالقرب منها. واليوم تقدم سوق الرملة المحلية خدمات أساسية لسكان المستعمـرات الصهيونيـة المجـاورة وتستـوعب منتجات هذه المستعمرات.

(٣) الوظيفة الزراعية: أثـرت نشأة الرملة وسط إقليم زراعي في أهمية الوظيفة الزراعية للمدينة فكانت نسبة كبيرة من سكانها تعمل في الزراعة، ولا سيما زراعة الزيتون والحمضيات والحبوب والخضر. وقد تحدّث الرحّالون الذين زاروا المدينة في القرون الماضيـة عن خصب أرضها ووفرة مياهها وتنوّع محاصيلها الزراعية كالعنب والرمان والتفـاح والبرتقـال والبطيـخ والتين والنخيل والقمـح والبصل والقطن. وظهر أثر إنتاجها الزراعي الكبير في رواج الحـركة التجارية في أسواقها كسـوق القمّاحـين الذي يتصـل بسـوق البصّـالين وسـوق القـطّانـين والعـطّارين والحبّالين والبقّـالين وغيـرهـا من الأسواق التي تخصصت في بيـع أنواع معيّنة من المحاصيل الزراعية.

بلغت مساحة الأراضي التابعة لمدينة الرملة في عام ١٩٤٥ نحو ٣٨,٩٨٣ دونماً منها ١,١٦٩ دونماً للطرق والسكك الحديدية والأودية و١٨٥ دونماً ملكها الصهيونيون. وفي عام ١٩٤٣ بلـغ مجموع المساحات المغروسة أشجار زيتون نحو ٧,٤٢٠ دونماً، وأشجار برتقال نحـو ٣,٦٦٣ دونماً. وتتوزع بقية المحاصيل الزراعية بنسب متفاوتة على الأرض الزراعية المحيطة بالمدينة.

(٤) الوظيفة الصناعية: عرفت الرملة منـذ القدم بعض الصناعات مثل صناعة الأقمشـة القـطنية والكتـانية وغـزل الصـوف والبسـط ومنتجـات الألبان وزيت الزيتـون والصـابـون وغيـرها. وفي فتـرة الانتـداب تـطوّر الإنتـاج الصناعي للمدينة رغم أنه بقي مقتصـراً على الصنـاعات التقليـدية والخفيفـة. وكـانت أهم منتجات الرملة الصناعية المصنوعات الغذائية والمنسوجات بأنواعها المختلفة.

يعتمد اقتصاد المدينة في الوقت الحاضر على الصناعة لوقوعها على طريق القدس يافا، وعلى ملتقى خطوط حديدية تسهّل نقل البضائـع ونقل العمال من قراهم إلى المدينة وبالعكس. وتستفيد الصناعة في الرملة من قربها من ميناء أسدود. كما أنها توظف آلاف العمّال الذين يتوزعون على عشـرات المصانـع الكبيـرة. وأهم منتجـاتهـا الصنـاعيـة الإسمنت، ففيهـا أكبـر مصنـع للإسمنت في (إسرائيل)، ومنتجـات الأخشاب، والأنـابيب المعدنيـة، والمحرّكـات، والثلاجـات، والمنتجات المعدنية المتنوعة، والبيوت الجاهزة، والأطعمة المعلبة. وتتركز معظم المصانـع داخل منطقتين صناعيتين في الرملة.

(٥) الوظيفة التعليمية: كان في الرملة إواخر العهد العثماني سبـع مدارس معظمها أهلية. وفي أواخـر عهـد الانتـداب اشتملت الرملة عـلى مدرستين ثانويتين حكوميتـين إحداهمـا للبنين والثانية للبنات. بالإضـافة إلى ثـلاث مدارس ابتـدائية، هي مـدرسة بستـان بلدية الرملة، والمدرسة الصلاحية، ومدرسة الإناث الوطنية. وكان في الرملة مدارس أخـرى خاصـة تقوم بنصيبها في الحركة التعليمية في مقدمتها المدرسة

العباسية التابعة للمجلس الإسلامي الأعلى، ومدرسة الراهبات للبنات، ومدرسة تراسنطا اللاتينية. وفي عام ١٩٤٦ بلغ مجموع طلبة المدارس في الرملة ٢,٤٨٢ طالباً. وقد تخرّج من الرملة عدد من العلماء الذين ساهموا في تنشئة اجيال كثيرة من سكانها.

●

المراجع

— ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦.
— ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٦٤.
— ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، بيروت ١٩٤٢.
— ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.
— البلاذري: فتوح البلدان، بيروت ١٩٥٧.
— أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠.
— ياقوت الحموي: المشترك وضعا والمفترق صقعا، غوتنغن ١٨٤٦.
— ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٥.
— مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٤، ق٢، بيروت ١٩٧٢.
— الأب مرمرجي الدومنيكي: بلدانية فلسطين العربية، بيروت ١٩٤٨.
— نقولا زيادة: روّاد الشرق العربي في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٣.
— كمال الدين سامح: العمارة في صدر الإسلام، القاهرة ١٩٦١.
— الإصطخري: المسالك والممالك، ليدن ١٩٢٧.
— سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٦٣.
— قسطنطين فرنسوا فولني: سورية ولبنان في القرن الثامن عشر، ج٢ (الترجمة العربية)، صيدا ١٩٤٩.
— يوسف بن طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبال لبنان، بيروت ١٩٥٤.
— عبد الله مخلص: مئذنة الجامع الأبيض والرقم التاريخية في الرملة، بيروت.
— المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٨٧٧.
— الهمداني: صفة جزيرة العرب، ليدن ١٨٨٤.
— كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، (مترجم) القاهرة ١٩٦٧.
— اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٩٦٠.
— خريطة فلسطين: مقياس ١: ٥٠,٠٠٠، لوحة اللد.
— Macalister, R.: The Excavation of Gezer, London 1912.
— Thomson, W.: The Land and the Book, London 1893.

● **نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية ـــ المجلد ٢ ، ١٩٨٤.**

في المحبة

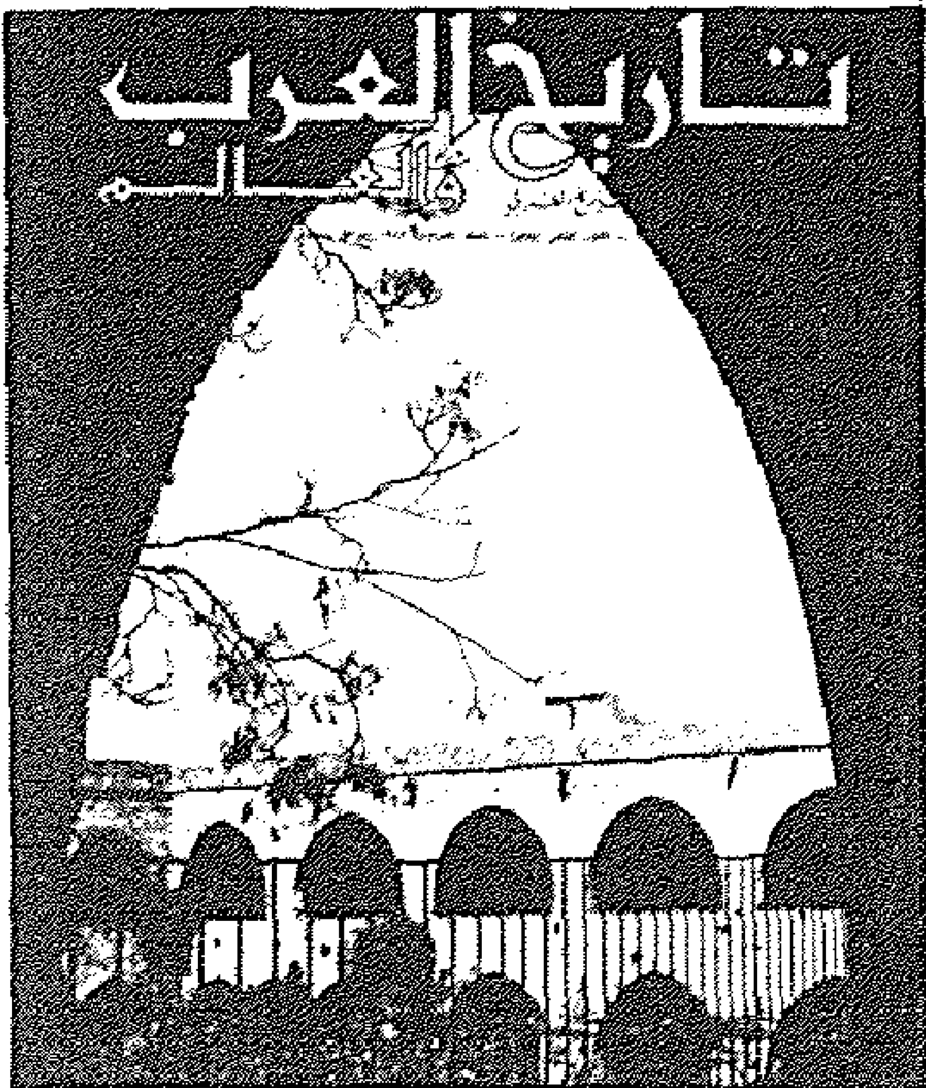
● يقول الإمام أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين: من ادعى أربعاً من غير أربع فهو «كذاب»: من ادعى حب الجنة ولم يعمل بالطاعة فهو كذاب ومن ادعى الخوف من النار ولم يترك المعاصي فهو كذاب. ومن ادعى حب الله تعالى وشكا من البلوى فهو كذاب.

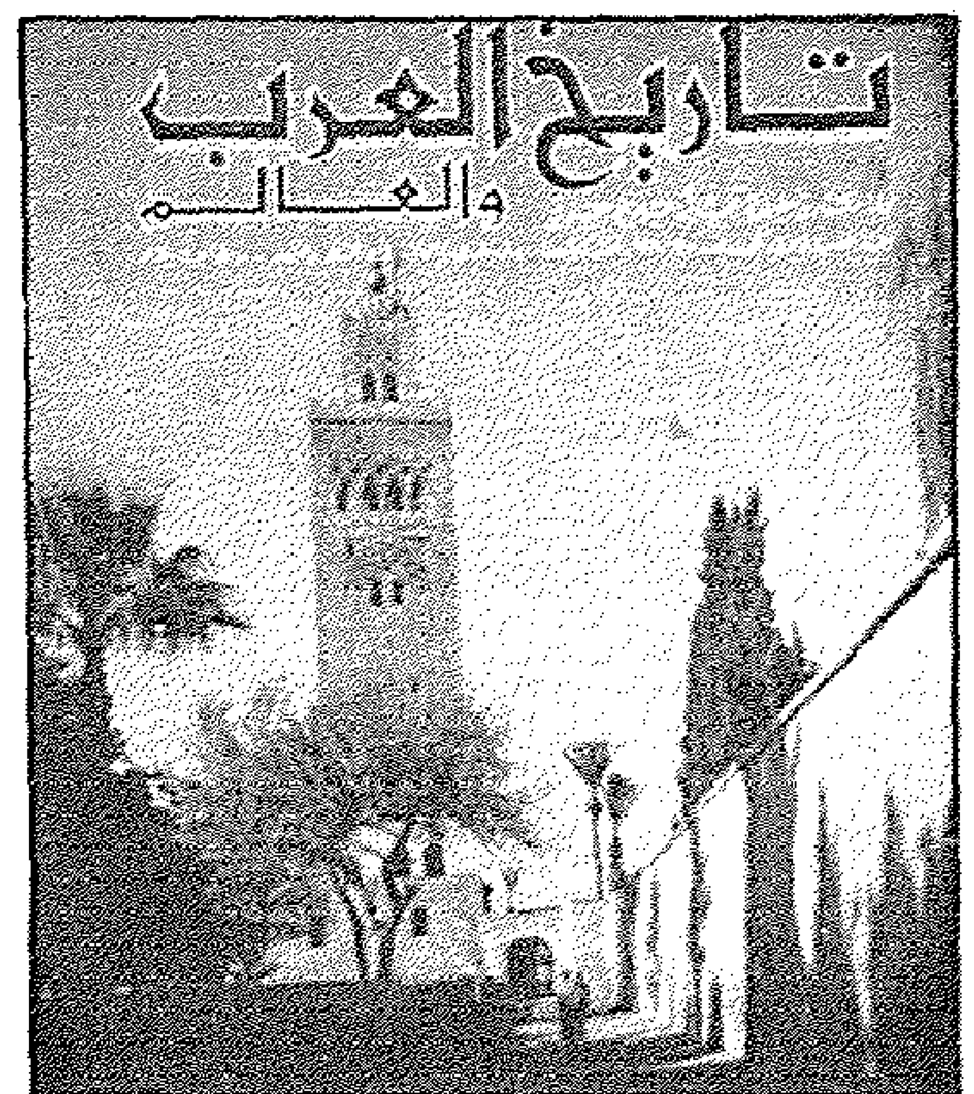
وبالطبع فان علامة المحبة موافقة المحبوب واجتناب خلافه وقد حكى ان جماعة دخلوا على الشبلي رحمه الله تعالى، فقال من أنتم؟

قالوا! أحباؤك... ثم رماهم بالحجارة فهربوا منه، فقال لهم: تهربون مني، لو كنتم أحبائي لما فررتم من بلائي... ثم قال الشبلي: أهل المحبة شربوا بكأس الوداد فضاقت عليهم الأرض والبلاد. وعرفوا الله حق معرفته وتاهوا في عظمته... وتحيروا في قدرته وشربوا بكأس حبه، وغرقوا في بحر أنسه وتلذذوا بمناجاته، ثم أنشد ذكر المحبة يا مولاي أسكرني.

وهل رأيت محباً غير سكران.

الفهرس العام
للسنة الحادية عشرة
١٩٨٩









لبنان

فلسطين

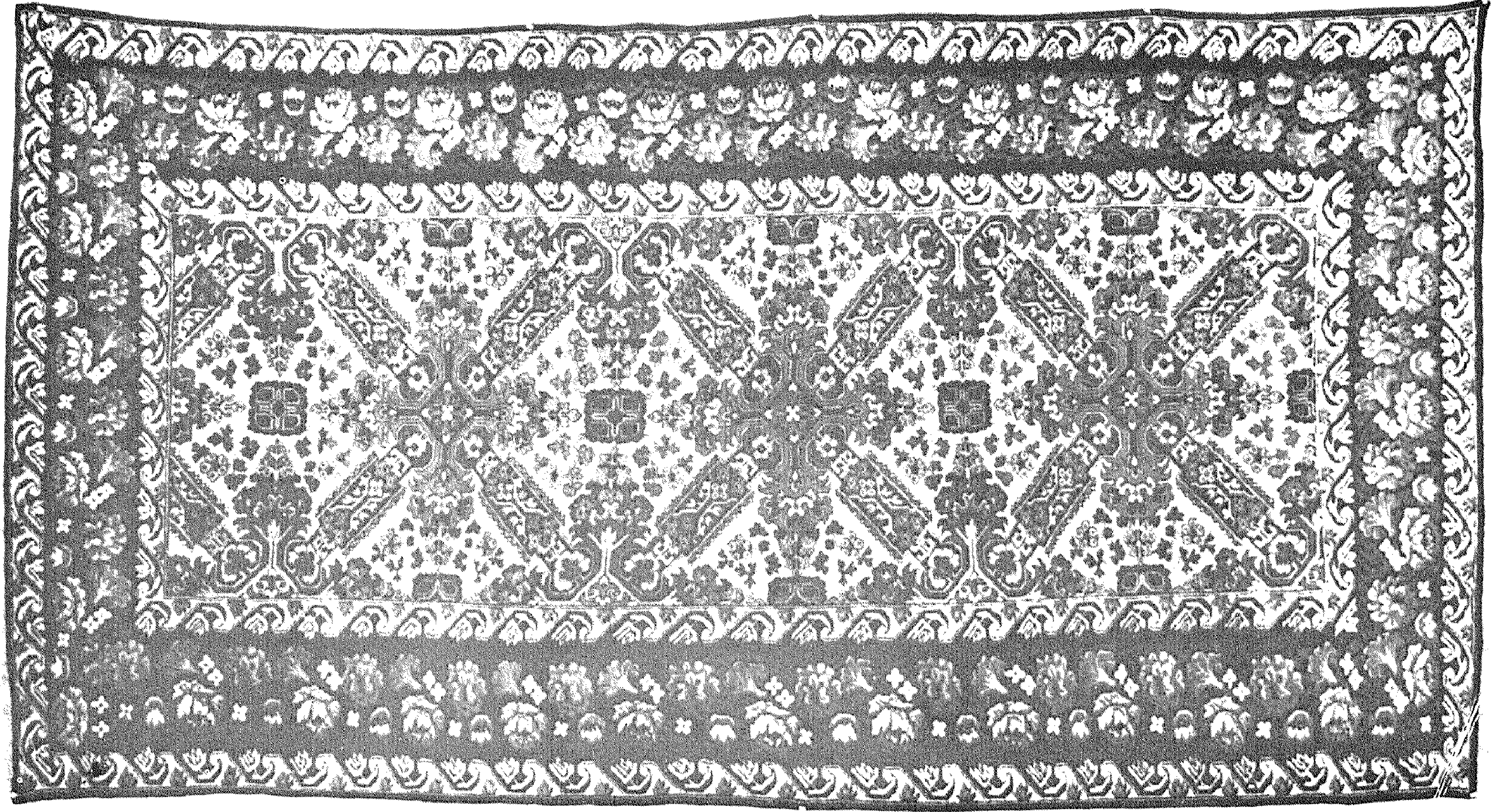
التاريخ العربي الإسلامي

حضارة عربية

وثائق ومعاهدات

متفرقـات

□ سجادة «زيخور» كبيرة — القوقاز — القرن التاسع عشر.



احتفظ بمجلدات السنوات الإحدى عشرة من مجلة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

خمسة عشر مجلداً فخماً



١٥٠٠ دولار أو ما يعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

اقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________

العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية